

افصل
في
تاريخ العرب قبل الاسلام

تأليف
الدكتور هبّار علي

ساعت جامعة بغداد على نشره

الجزء الثاني

obeikandi.com

○ الطبعة الثانية ○

١٤١٣ هـ - ١٩٩٣ م

obeikandi.com

الفصل الحادي والستون

أديان العرب

والعرب قبل الإسلام مثل سائر الشعوب الأخرى تعبدوا الآلهة ، وفكروا في وجود قوى عليا لها عليهم حكم وسلطان ، فحاولوا كما حاول غيرهم التقرب منها واسترضاءها بمختلف الوسائل والطرق ، ووضعوا لها أسماء وصفات ، وعاملوها بالتستهم وبقلوبهم ، سلكوا في ذلك جملة ممالك ، هي ما نسميها في لغاتنا بالأديان .

ونقابل كلمة (دين) العربية لفظة Religion في الانكليزية من أصل (لاتيني) هو Religare أو Religere . وآراء العلماء المتعنين بتاريخ الأديان وفلسفتها على اختلاف كبير جداً في وضع حد علمي مقبول بين الجميع لموضوع الدين ، وربما لا يوجد موضوع في العالم اختلفت في تحديده الآراء كهذا الموضوع : موضوع ماهية الدين وتعريفه ، حتى صار من المستحيل وضع إطار يتفق عليه بصورة تجمع على أنها تمثل الدين . والشيء الوحيد الذي يمكن أن يفعله كاتب ، هو أن يكتب رأيه بوضوح فيما يعنيه من (الدين) ، فإذا فعل ذلك ، صار من المعروف ما قصد صاحبه منه ^١ .

وقد عرّف بعض العلماء الدين أنه إيمان بكائنات روحية تكون فوق الطبيعة والبشر، يكون لها أثر في حياة هذا الكون ^٢ . وعرفه آخرون أنه استئالة واسترضاء

Sir James G. Frazer, The Golden Bough, A Study in Magic and Religion, Vol. I, p. 50, Abridged Edition, London, 1947.

E.B. Tylor, Primitive Culture, I, p. 424, Ency. Brita. Vol. 19, p. 133.

ليقوى هي فوق البشر ، يؤمن أنها تدبر وتدبر سير الطبيعة وسير حياة الانسان^١. وهو عند بعض آخر شعور وتفكير عند فرد أو جماعة بوجود كائن أو كائنات إلهية ، والصفة التي تكون بين هذا الفرد أو تلك الجماعة وبين الكائن أو الكائنات الإلهية^٢ . وهو يطلق بهذا الاعتبار على الإسلام كما يطلق على اليهودية والنصرانية وعلى المجوسية وعلى غيرها من أديان سواء أكانت سماوية أم غير سماوية كما يصطلح على ذلك بعض العلماء .

وهناك تعريفات وحدود كثيرة أخرى للدين، نشأت من اختلاف أنظار الباحثين بالقياس إلى مفهوم الدين . فهناك مسائل كثيرة تختلف فيها : هل تدخل في نطاق حدود الدين أو لا كما أن مفهومه قد تغير عند الغربيين باختلاف العصور^٣ .

وليس من السهل وضع حدود معينة لمعنى الدين ، فإن وجهات نظر الأديان نفسها تختلف في هذا الباب . وللدين في نظر الشعوب البدائية مفهوم يختلف كل الاختلاف عن مفهوم الدين عند غيرهم ، ومفهومه في نظر الأقوام المتقدمة يختلف باختلاف دينها وباختلاف وجهة نظرها إلى الحياة . وهناك أمور تدخل في حدود الدين عند بعض أهل الأديان ، على حين أنها من الأمور الأخلاقية أو من أمور الدولة في نظر بعض آخر ، ومن هنا تظهر الصعوبات في تعيين المسائل التي تعد من صلب الدين في نظر الجميع^٤ .

وللدين مما قبل في تعريفه ، شعائر تظهر على أهله ، تميزهم عن أتباع الديانات الأخرى، كما في العبادات والمأكولات والمعابد واللغات وما شاكل ذلك^٥ ، ولهذه الأمور أثر بالظهور في النواحي الاجتماعية والثقافية ، إذ تطبع أتباع الدين بطابع مميز خاص .

وقد زعم بعض المشرقين أن لفظة (الدين) من أصل أعجمي ، وأنها من

^١ The Golden Bough, Vol. I, p. 222, Abridged Edition, p. 50.

^٢ H. Schmidt, Philosophische Wörterbuch, S. 661.

^٣ Hastings, Encyclopaedia of Religion and Ethics, Vol. 10, p. 662, Art. Religion, Encyclopaedia of Social Sciences, Vol. 13-14, p. 226, Ensy. Brita.,

Vol. 19, p. 103, Fries and Schneider, Religion in Various Cultures, New

York, 1932.

^٤ Ensy. Relig., Vol. 10, p. 263, Ensy. of Social, Vol. 13-14, p. 226.

^٥ Ensy. Relig., Vol. 10, p. 663.

الألفاظ العربية ، أصلها فارسي هو (دَينَا) Daena^١ . وقد دخلت في العربية قبل الإسلام بمدة طويلة . وترد لفظة (دين) بمعنى الخشر في الإرمية والعبرانية كذلك . وهي (دينر) في الإرمية . وتقابل لفظة Daino الإرمية لفظة الديان في العربية . وهي بمعنى القاضي في هذه اللغة . وتعني لفظة (دين) القضاء في اللغة البابلية . و (ديان) (ديونو) Dayono ، الحاكم والمجازي والقاضي في لغة بني إرم^٢ . وهي بهذا المعنى في العربية أيضاً^٣ .

والدين في تعريف علماء اللغة : العادة والشأن . تقول العرب : ما زال ذلك ديني ودينني ، أي عادتي . والدين بمعنى الطاعة والتعبد . وقد ورد في الحديث : (كان على دين قومه) ، أي كان على ما بقي فيهم من إرث إبراهيم ، من الحج والنكاح والميراث ، وغير ذلك من أحكام الإيمان . وجاء : (كانت قريش ومن دان بدينهم ، أي اتبعهم في دينهم ووافقهم عليه ، واتخذ دينهم له ديناً وعبادة)^٤ . ومن (دين) الديان ، بمعنى الحكم القاضي والقهار . ومن ذلك معالجة (الأعشى الحرمازي) الرسول بقوله :

يا سيد الناس وديان العرب .

والديان : الله ، ومن أسماء الله^٥ .

وقد وردت هذه اللفظة في المعنى المفهوم منها في الإسلام في بيت شعر ينسب إلى أمية بن أبي الصلت ، هو :

كل دين يوم القيامة عند الله ، إلا دين الخليفة زور^٦

Handwörterbuch des Islams, B. 98, Grundriss, der Iran. Philoso. I, I, B. 197, 279, I, 2, B. 28, 179, II, B. 844. Juybol, Handbuch des Islamischen Gesetzes, B. 48, 53. Schorter Ency. of Islam, p. 78, Ency. I, p. 975, Zedlacher. für Assy., Bd., XIV, B. 351.

١ برصوم (ص ٦٠) ، غرائب اللغة (١٨٢) .

٢ اللسان (١٦٦/١٣) وما بعدها ، (دين) .

٣ اللسان (١٦٦/١٣) وما بعدها ، (دين) ، تاج العروس (٢٠٨/٩) وما بعدها ، (دين) .

٤ اللسان (١٦٦/١٣) وما بعدها ، (دين) ، تاج العروس (٢٠٨/٩) وما بعدها ، (دين) .

٥ اللسان (١٢٢/٤) ، (دار الكتب المصرية) .

غير أننا لا نستطيع أن نحكم برودها في شعر أمة ما لم نثبت أن ذلك الشعر هو من شعره حقاً ، وأنه ليس بشعر إسلامي صنع ووضع على لسانه ، فقد وضعت أشعار وقصائد على لسانه وعلى لسان غيره من الشعراء .

ووردت بهذا المعنى أيضاً في النصوص التهودية . وردت في نص سجله رجل من قسوم ثمود ، نوسل فيه إلى الإله (ود) ، أن يحفظ له دينه ، (ال ه دي ن ي ق . ي د)^١ ، ووردت في نص آخر جاء فيه : (بدين ود امت)^٢ ، أي (بدين ود أموت) ، أو (عل دين ود أموت) . فاللفظة إذن من الألفاظ العربية الواردة في النصوص التهودية ، وقد يعثر عليها في نصوص جاهلية مدونة بلهجات عربية أخرى .

ويصنف بعض العلماء الأديان، إلى صنفين: أديان بدائية Primitive Religions ، وأديان عليا The Higher Religions ، غير أن هذا التقسيم لا يستند إلى التسلسل الزمني ، وإنما يقوم على أساس دراسة أحكام الدين وعقائده وعمق أفكاره . فالأديان التي تقوم على أفكار بدائية وعلى السحر Magic وعلى المبالغة في التضخيس وتقديم القرابين Sacred ، والتي تنحصر عبادتها بأفراد قرية أو قبيلة واحدة ، وأمثال ذلك مما يشرحه علماء تاريخ الأديان وعلماء فلسفة الأديان ، هي من أديان الصنف الأول . فإذا توسع مجال الدين وشمل قبائل عديدة ، وتعمق في أحكامه وفي تشريعه وفلسفته ، وصار الإله أو الآلهة إلهاً ذا سلطان واسع أو آلهة ذات سلطان واسع عند الدين من الأديان العليا^٣ .

وأما تقسيم الأديان إلى أديان قبلية Tribal Religions ، و (أديان قومية) National Religions ، وأديان مطلقة عامة (Absolute (Universal Religions) Religions) ، فإنه ، وإن كان تقسيمياً واضحاً ظاهراً بالقياس إلى الطرق الأخرى لتقسيم الأديان ، يرد عليه أنه تقسيم بني على أسس وحدود ليست لها أرض صلبة في جوهر الدين وأركانها ، فهو بعيد عن المبادئ الأساسية التي تجب مراعاتها في تقسيم كل علم أو موضوع^٤ . كذلك نجابه التقسيم الثلاثي للأديان إلى (أديان

Grimme, B. 34, 40. ١

Mss 648/17, Grimme, 40. ٢

ENCY. BRITA., Vol. 19, p. 107. ٣

Ency. Brita. Vol. 19, p. 111. ٤

الطبيعة (Nature Religion) ، و (ديانة الشريعة) Gestzes Religion ، و (ديانة الخلاص) Erlösungs Religion عند بعض العلماء الألمان مصوغات كبيرة تجعل السير على أساسه في دراسة تطور الدين أمراً عسيراً شاقاً^١ .

وتستند دراسات علماء تأريخ الأديان لتطور الأديان والأدوار التي مرت بها إلى دراسة أمور كثيرة تأريخية ونفسية واجتماعية واقتصادية، ولهم في ذلك جملة طرق ، منها طريقة الدراسات المقارنة The Comparative Method ، وهي تعتمد كما يتبين من اسمها على المقارنات بين الأديان ، فتتناول جميع النواحي بالبحث ، لتجد ما بينها من مطابقات ومفارقات . ومنها طرق البحث التاريخي والاجتماعي Historical and Sociological Methods وتستند إلى الدراسات التاريخية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية والجغرافية والعوامل الأخرى ، للناس والمنطقة التي عاشوا فيها ، وأثر كل هذه العوامل في نمو الأفكار الدينية وظهورها . وطرق عديدة أخرى تذكر في كتب تواريخ الأديان^٢ .

وقد تقدمت دراسة تأريخ الأديان تقدماً كبيراً ، ولا سيما بعد اتباع أساليب الطرق التجريبية والبحوث المقارنة والتحليل النفسي في هذه الدراسة . وتظهر بحث جديد شائق طريف ، هو (فلسفة الدين) The Philosophy of Religion ، أفاد كثيراً في معرفة دراسة تطور الأديان ومبادئها الأساسية ، كما ظهرت فروع أخرى كلها الفرع لها صلة بدراسة الدين وتقدمه ، كالفرع النفسي الذي يعتمد على الدراسات النفسية للدين ، وهو فرع تستطيع أن تسميه بـ (علم النفس الديني) The Psychology of Religion في الإنكليزية و Religionspsychologie في الألمانية^٣ . وكالفرع الذي يعتمد على أساليب بحث الاجتماع وطرقه لدراسة الدين باعتبار أن الدين نفسه ظاهرة من مظاهر الحياة الاجتماعية^٤ .

وهناك عوامل عديدة لها أثرها في تطور الأديان ، وفي (تكوينها) ، منها أثر (العوامل الطبوغرافية) Topographic Factors . وأثر (المحيط) Climatic Factors

Philosophische Wörterbuch, S. 552.

Ency. Relig., 10, p. 994.

Stratton, Psychology of the Religious Life, 1911, Ency. Brit., 19, p. 111.

Schmidt, S. 554.

Schmidt, S. 554, J. Wach, Einführung in die Religion, 1941.

وأثر الحالات النفسية في تشكيل الدين ، وفي تصور الناس لأنفسهم . ولهذا تصور اليونان مثلاً أنفسهم على شاكلةهم ، تصورها ذات أخلاق وصفات تشبه أخلاق البشر وصفاتهم ، تتخاصم وتتصادق وتتباغض ويحسد بعضها بعضاً ، تشرب الخمر وتحزن وتفرح ، وتسرق أيضاً . ونجد في الـ (Edda) نفسية الشعوب الشمالية الأوروبية ممثلة في الأساطير التي نتحدث عن الآلهة والأبطال^١ .

ويظهر أثر العوامل المذكورة في الديانة الهندية القديمة ، وهي من الديانات الآرية ، وفي الديانة المجوسية ، وهي من أهل السهول وديانات أهل الجبال ، وبين ديانات الساميين الشماليين وديانات الساميين الجنوبيين ، يظهر في الأساطير (Mythology) وفي تصور الآلهة وتقديمها وتأخيرها وما شابه ذلك من أمور^٢ .

ولشكل المجتمع أثره كذلك في تطور الدين وفي أحكامه . فمجتمع يقوم على الزراعة يختلف في تفكيره عن مجتمع يعيش على الصناعة أو على الرعي في بوايد واسعة ، كذلك السياسة ولأشكال المجتمعات السياسية دخل في تطور الأديان . وقد كان التعاون وثيقاً جداً في الأيام الماضية خاصة بين السلطات الزمنية وبين السلطات الدينية حتى كان الحكام الزمنيون كهاناً في كثير من الأوقات ، كما حدث أن وقع اختلاف بين السلطين أدى إلى حدوث تغيير في عقيدة الحكومة أو أكثرية الشعب .

وطالما أدى قهر مدينة أو قبيلة أو شعب إلى قهر آلتها معها وموتها ، وإلى عبادة آلهة القاهرةين المتغلبين باعتبار أنها أقوى وأعظم شأناً من آلهة المغلوبين التي لم تتمكن من حمايتهم من تعديلات الغالبين . وقد تبقى تلك الآلهة فتندمج في آلهة المغيرين ، فيزداد بذلك العدد ، وتعدد الآلهة ، وتختلط الأساطير بعضها ببعض وتتداخل . ولهذا الناحية أهمية كبيرة في تحليل عناصر هذه الأساطير ، ورجوعها إلى منابعها الأولى . كذلك يكون للجوار وللصلات التاريخية والروابط الثقافية أثر في ديانات الشعوب وفي (تكييفها) ويكون للثقافة خاصة أثر بارز في هذا التوجيه . غير أن للأديان كذلك أثرها في توجيه الأفراد والقبائل والشعوب ، وفيما يتبع عن عمل الإنسان من مجتمعات وسياسة وثقافة واقتصاد^٣ . فهذه نواحي يجب أن

Ency. Social. 13-14, p. 232. ١

Ency. Social. 13-14, p. 232. ٢

Ency. Social. 13-15, pp. 234. ٣

تلاحظ كلها في دراستنا لتأريخ الأديان . هذا ويجب ألا نتصور أن أديان العرب قبل الإسلام لم تتأثر بمؤثرات خارجية ، فلم تأخذ من الأمم والشعوب التي اتصلت بها شيئاً ، جرياً على نظرية القائلين بعزلة العرب وبعدم اتصالهم بالخارج ، وبأنهم بدو ، لا علم لهم ولا رأي ولا دين . وهي نظرية نشأت عن عدم وقوف القائلين بها بأحوال العرب قبل الإسلام . وإذا وافق أولئك على أن اليهودية والنصرانية كانتا في جزيرة العرب قبل الإسلام كما نص على ذلك القرآن الكريم ، وأن من العرب من كان على دين يهود ، وأن منهم من كان على دين النصارى ، فلن يستطيعوا إنكار ورود اليهودية والنصرانية إلى العرب من الخارج بعمل الهجرة والبشير والانصال بفلسطين والعراق . وسيوافقون أيضاً على أن الوثنيين قد تأثروا كذلك بوثنية غيرهم ، كما نص على ذلك الاخباريون وانهم أثروا في غيرهم أيضاً .

إن معارفنا عن أديان العرب قبل الإسلام مستمدة في الدرجة الأولى من النصوص الجاهلية بلهجاتها المتعددة من معينة وسبئية وحضرية وأوسانية وقبائلية وثمودية ولحيانية وصفوية ، وهي نصوص ليس من بينها نص واحد وبالأسف في أمور دينية مباشرة ، مثل نصوص صلوات أو أدعية دينية أو بحوث في العقائد وما شابه ذلك . غير أن هذه النصوص المذكورة ، ومعظمها كما قلت سابقاً في أمور شخصية ، حوت مع ذلك أسماء آلهة ذكرت بالنسبة ، وبفضلها عرفنا أسماء آلهة لم يصل خبرها إلى علم الاخباريين ، لأن ذكرها كان قد انطمس وزال قبل الإسلام . ومن هذه النصوص استطعنا أن نستخرج آلهة القبائل العربية القديمة ، وأن نرجعها إلى المواضيع التي كانت تتعبد بها لها ، وأن نعين العصور التي كان الناس فيها يتعبدون لها على وجه التقريب .

كذلك تعدّ الكتابات والنقوش المدونة ببعض اللغات الأعجمية كالأشورية والعبرانية واليونانية واللاتينية ولغة بني إرم ، مورداً مفيداً لمعرفة أديان العرب قبل الإسلام بعد النصوص العربية . فقد وعت أسماء أصنام قديمة نصت عليها ، وبذلك ساعدتنا في الوقوف على عبادتها وعمل من تعبد لها من قبائل .

وأما أديان العرب قبيل الإسلام وعند ظهوره ، فالقرآن الكريم هو مرجعنا في هذا الباب . ففيه ذكر لما كان عليه الناس ولا سيما أهل مكة وبنيهم والحجاز من عبادات وآراء ، وفيه أسماء بعض الأصنام الكبرى التي كانت تتعبد لها القبائل .

وفي تفسير القرآن الكريم تفصيل وشرح لما جاء موجزاً في الآيات البينات، ويضاف إلى ذلك ما ورد عن هذا الباب في الحديث .

وفي الشعر المنسوب إلى الشعراء الجاهلين إشارات إلى بعض عقائد الجاهلين ، وإلى بعض الأصنام ، تعرض لما شراح النواوين بالمناسبات، وتورد هذه الإشارات في القصص المروى عن أخبار الجاهلية وعن أنساب قبائلها وأيامها وأمثال ذلك وفي كتب الأدب واللغة والمعجم ، وهي تعيننا بالطبع على زيادة مادتنا في هذا الموضوع .

ويضاف إلى ذلك ما ورد في كتب السير والمغازي وفي كتب التواريخ من كتب خاصة مثل تأريخ مكة ، ومن كتب عامة عن عبادات القوم قبل الوحي وفي إنشاء الوحي وعن أمر الرسول بتعطيم الأصنام والأوثان . وقد ورد بهلله المنسبة لأوصاف بعضها ، وذكرت بعض المواضع التي كانت قائمة فيها ، والقبائل التي كانت تتعبد لها ، وما أدير حول بعضها من قصص ، أو ما قيل عنها في الجاهلية وفي تحطيمها من أقوال .

ومما يجب علينا ملاحظته ، أن الشعر الجاهلي الذي أمدنا بقيض من معارف قيمة عن الجاهلية القريبة من الإسلام ، لم يمدنا بشيء مهم عن الحياة الدينية عند الجاهلين ، فكأنه أراد مجازاة من دخل في الإسلام في التوصل من أيام الجاهلية ومن التبرؤ منها ، ومن غرض النظر عن ذكر أصنام حرمها الإسلام . وقد ذهب بعض المستشرقين إلى أن رواة الشعر في الإسلام ، قد أغفلوا أمر الشعر الجاهلي الذي يحد الأصنام والوثنية ، وأعملوه ، فلم يرووه ، فأت ، وإن بعضاً منهم قد جلب ذلك الشعر وشذبه ، فحذف منه كل ما له علاقة بالأصنام والوثنية ، ورفع منه أسماء الأصنام ، وأحل محلها اسم الله ، حيث يرد اسم الصنم . فما فيه اسم الله في الشعر الجاهلي ، كان اسم صنم في الأصل .

وقد ألف بعض العلماء مؤلفات خاصة في الأصنام ، وصل إلينا منها كتاب (الأصنام) لابن الكلبي^١ . أما المؤلفات الأخرى ، فلم يصل إلينا منها إلا الاسم .

١ « كتاب الأصنام » بتحقيق المرحوم أحمد زكي باشا ، القاهرة ١٩٢٥ م الطبعة الثانية ، مطبعة دار الكتب المصرية ، وسيكون رمزه : الأصنام . وقد طبع الكتاب مراراً ، وترجم إلى الإنكليزية والألمانية وإلى لغات أخرى .

ومن ألف في هذا الموضوع أبو الحسن علي بن الحسين بن فضيل بن مروان^١ ،
والجاحظ^٢ . وقد استفاد ياقوت الحموي في كتابه (معجم البلدان) من كتاب
(الأصنام) لابن الكلبي ، ولورد ما أخذه منه في الكتاب . أما النسخة التي
اعتمد الحموي عليها ، فكانت بخط عالم مشهور وبروايته هو الجوالقي^٣ .

وقد تعرض ابن الكلبي لذكر الوثنية والأصنام في مؤلفاته الأخرى عرضاً ،
وأشار (ياقوت الحموي) في بعض المواضع إلى روايات أخرى لابن الكلبي عن
الأصنام ، ذاكراً أنها ليست من كتاب (الأصنام) . كما استقى من منبع آخر ،
هو محمد بن حبيب^٤ .

وقد ألف أبو عبد الله الحسين بن محمد بن جعفر الخالغ كتاباً في أديان العرب
وآرائهم ، اسمه (آراء العرب وأديانها) ، وقف عليه ابن أبي الحديد ، وأشار
إلى بعض صفات رأها فيه^٥ . والجاحظ مؤلف اسمه (أديان العرب) استفاد منه
أبو الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستاني^٦ .

وبالرغم من فضل من تقدم ممن ذكرت ومن لم أذكر ، على دارس التاريخ
الديني للجاهليين فإنهم عنا الله عنهم ، لم يتعمقوا تعمقاً كافياً في بحوثهم عن
الوثنية ، ولم يتحرشوا بها في الغالب ، إلا بسبب اتصالها بالاسلام ، ثم إن في
كثير مما ذكروه عن الوثنية طابع السخافة وأسلوب الصنعة . وهو في أحوال الوثنية
في الحجاز وعند القبائل التي ورد لها ذكر في حوادث الاسلام في أيام الرسول ،
في مثل قدوم وفود سادات القبائل على النبي ، وأمر الرسول بتعطيم الأصنام .
ولمنا لا نجد للوثنية في بقية مواضع جزيرة العرب ، مكاناً فيها كتب أولئك العلماء

١ . كتاب الأصنام وما كانت العرب والعجم تعبد من دون الله تبارك اسمه . ،
الفهرست (ص ١٢٥) . الأصنام (٢٣) . الرد على عبدة الاوثان . ، معجم
الادباء (١٣٢/١) .

٢ . الأصنام (٢٣) . وقد نقل منه (التويري) في كتابه نهاية الارب (١٥/١٦) ،
(فهو ما نقله أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ - رحمه الله - في كتاب له سماه :
كتاب الأصنام ، قال فيه ...) .

٣ . الأصنام (٢٤) .
J. Wellhausen, Reste Arabischen Heidentums, Berlin, 1927, S. 12.

٤ . مسيكون رمزه : Reste

٥ . بلوغ الارب (٣٠٨/٢) .

٦ . Brockelmann, Suppl. I, S. 245.

عن الأصنام والأوثان أو الزندقة . ثم ان في الذي ذكروه وكتبوه تناقض محير ،
وتناقض عجيب ، يجعلك تشعر ، ان رواية تلك الأخبار ، لم يكونوا يملكون يومئذ
أدوات النقد لفصل ما سمعوه من أفواه الرواة ، وما نقلوه عن أدرك الجاهلية من
أقوال ، أو انهم كانوا يعدون الى الوضع أحياناً : لصنع أجوبة عن أسئلة وجهت
اليهم في أمور لم يأتيهم علم بها من قبل .

خذ ما ذكره (الطبري) في تفسيره عن الثلاث والعزى ومناة ، تجده يروي
أقوالاً ذكر سندها تتناقض فيما بينها بشأن هذه الأصنام ، وبشأن بيوتها ومواضعها ،
مما يدل على أن رواية تلك الأخبار لم يكونوا على علم بأنخبارها ولا وقوف على
حقيقتها ، بدليل أن كل واحد منهم ناقض غيره فيما قاله ، وأن أحدهم يذكر
خبراً ثم يعود فيذكر ما يتناقضه^١ . حدث كل ذلك في أمور كانت باقية الى ما
بعد فتح مكة ، فكيف حالهم اذن في الأمور البعيدة نوعاً ما عن الاسلام .

ولا نتناول للوارد الإسلامية بعد ، إلا الوثنية القريبة من الاسلام والوثنية التي
كانت متفشية بين قبائل الحجاز في الغالب ، وبين القبائل التي اعتمد عليها رواية
الأخبار في جمع اللغة والأخبار . لذلك لا نجد فيها ذكراً للوثنية البعيدة عن الاسلام ،
فلم يرد فيها مثلاً أي شيء عن (الملقه) إله سبأ الأكبر ولا عن بقية الآلهة
العربية الجنوبية الكبيرة مثل (حشر) ، وعن دين العرب الجنوبيين وشعائهم ،
ولا عن معبودات قبائل العربية الشرقية : أو قبائل العراق أو بلاد الشام في الأزمنة
البعيدة أو القريبة من الاسلام .

وأما أنخبارها عن اليهودية والنصرانية ، فقليلة جداً ، قصتها ورويتها لما لحسا
من حماس وصلة بما جاء في القرآن الكريم ، أو لما لحا من علاقة بأيام الرسول .
ولهذا صارت حرماء صامنة بالنسبة الى أحوال أهل الكتاب في بقية أنحاء جزيرة
العرب أو في العراق وفي بلاد الشام . فلم تتحرش بهم إلا بقدر ، وبسبب ذلك
صارت معارفنا عنهم قليلة جداً . وقد كان في إمكان أهل الأخبار جمع معلومات
واسعة عن النصرانية في العراق قبل الاسلام ، يرجوعهم الى رجال الدين النصارى
الذين كانوا في الحيرة وفي مواضع أخرى من العراق ، وهم رجال لهم علم واسع
بهذه الأمور ، لكن اختلافهم عنهم في الدين على ما يظهر ، وانصرافهم إذ ذلك

١ تفسير الطبري (٢٧/٣٥ وما بعدها) ، تاج العروس (٤/٥٥) ، (عزز) .

عن رواية كل ما يتعلق بالأمور الجاهلية خلا ما يتعلق بالنواحي القبلية والنواحي الأدبية واللغوية ، كانا من العوامل التي أدت الى غرض نظرهم عن البحث في هذه الأمور .

ويفضل إقرار الاسلام لبعض أحكام وشعائر الجاهليين ، استطاعا الوقوف على جانب من أحكامهم وشرائعهم . فعرفنا بذلك بعض شعائر الحج من حج مكة ، وبعض أحكامهم وآرائهم في الدين ووجهة نظرهم الى الحلال والحرام ، والتقرب الى بيوت الأرباب وغير ذلك . وما كان في وسعنا الوقوف عليها لولا تعرض الإسلام لما بالإقرار والتثبيت ، أو بالتحريم والنهي ، فأشير الى كل ذلك في القرآن الكريم وفي كتب التفسير وأسباب النزول والحديث .

وقد عني المشرقون بهذا الموضوع ، فكتبوا بحوثاً فيه . ومن هؤلاء (ولهوزن) J. Wellhausen صاحب كتاب (بقايا الوثنية العربية) Arabischen Heidentum^١ و (دتلف نيلسن) Ditlef Nielsen^٢ و (لودولف كريبل) Ludolf Krehl^٣ وغيرهم .

وقد اعتمد (ولهوزن) على ما نقله (ياقوت الحموي) من كتاب الأصنام ومن غيره ، ذلك لأن كتاب الأصنام لم يكن مطبوعاً ولا معروفاً أيام ألف (ولهوزن) كتابه عن الوثنية العربية .

وبعد كتاب (ولهوزن) أوسع مؤلف في موضوعه كتبه المشرقون عن الوثنية العربية . وقد كتب المشرقون حديثاً جملة بحوث عن الأصنام العربية التي حُر عليها في الكتابات ذات ذكرها في كتاب (ولهوزن) ، لأن أكثر النصوص الجاهلية لم تكن قد نشرت يومئذ ، ولأن كثيراً منها قد نشر حديثاً ، فلم يكن في استطاعة (ولهوزن) بالطبع أن يبحث في شيء من التفصيل في الوثنية ببلاد العرب الجنوبية . لذلك كان أكثر ما جاء في كتاب (ولهوزن) مستمداً من روايات

١ استعملت الطبعة الثانية ، وقد طبعت ببرلين سنة ١٩٢٧ م .
Ditlef Nielsen, Die Altarabische Mondreligion und die Mosaische Meberlieferung, Strassburg, 1904.
٢
Ludolf Krehl, über die Religion der Vorislamischen Araber, Leipzig, 1903.
٣
إذا أردت أسماء بعض المراجع عن هذا الموضوع ، فارجع الى :
D. G. Pfannmüller, Handbuch der Islam — Literatur, 1922.

الأخباريين . فمن الضروري إضافة هذه البحوث الجديدة الى ما كتبه هو وأمثاله ،
لتحصل على صورة شاملة عن أديان العرب قبل الاسلام .

ونفد الأعلام الجاهلية المركبة Theophorus Names المدونة في النصوص
الجاهلية وفي الموارد الاسلامية قائمة كبيرة في معرفة الأسماء ، وفي تكوين فكرة
عنها . فبها أسماء آلهة ، وفيها بعض الصفات الإلهية التي كان يطلقها الناس على
آلهتهم . ونجد هذه الأسماء المركبة عند بقية الشعوب السامية كذلك . ومن مقارنة
هذه الأسماء بعضها ببعض ، استخرج العلماء آلهة اشترك في عبادتها جميع الساميين^١ .
ونعني بـ Theophorus Names الأعلام المركبة من أسماء آلهة ومن كلمات
أخرى مثل (عبد) و (عطية) و (امرئ) و (أوس) و (خالد)
و (جاز) و (عوذ) و (وهب) . ترد قبل اسم الإله أو بعده ، فيتألف
منها ومن أسماء الآلهة أسماء أعلام ، مثل عبد الأسد، وعبد الله ، وعبد سعد، وعبد
العزيز ، وعبد محرق ، وعبد ذي الشرى ، وعبد يثوث ، وعبد ود ، وعبد
قيس ، وعبد شمس ، وامرئ القيس ، وأمثال ذلك من أعلام .

ومعظم هذه الأعلام المدونة في مؤلفات الاسلاميين ، أسماء أشخاص عاشوا في
الجاهلية القريبة من الاسلام ، حفظتها ووعتها ذاكرة الرواة ، ومنهم تناقلها أهل
الأخبار . والغالب عليها الابتداء بكلمة (عبد) للرجال و (أمت) لئمة
نساء ، ترد قبل اسم الصنم . أما الأسماء المبتدأة بكلمات أخرى غير (عبد) ،
فمثل (أحسن الله) و (امرئ مناة) ، و (امرئ القيس) ، و (أنس الله)
و (أوس الله) ، و (تيم اللات) ، و (غيليل) ، و (زيد اللات) ،
و (زيد مناة) ، و (سعد اللات) ، و (سعد مناة) ، و (سعد ود)
و (سعد العشرة) ، و (مسكن اللات) ، و (سلم اللات) ، و (شراحيل)
و (شرجيل) ، و (شرجيل) ، و (شكم اللات) ، و (شهيل) ،
و (شيع القوم) ، و (عائد الله) ، و (عمرو اللات) ، و (عوذ مناة)
و (حنيل) ، و (قسيل) ، و (مطرويل) ، و (وهب اللات) .
وهي قليلة من حيث الاستعمال بالقياس الى الأعلام المبتدأة بـ (عبد)^٢ .

Dr. H. Brau, Die Altnordarabischen Kultischen Personennamen, in WZKM,
Bd. 32, 1925, S. 31. ff. 85. ff. Reste, I ff. Ency., Religi. I p: 669
Reste, S. I.

ويلاحظ على بعض الأعلام المركبة ، مثل عمرو اللات ، وعوف إيل ، وجد اللات ، وسعد مائة ، وود إيل ، ان الكلمات الأولى من هذه الأسماء تتأخر في أعلام أخرى ، فتسبق بكلمة توضع قبلها فيتكون منها علم مركب جديد كما في الأسماء الآتية : عبد عمرو ، وعبد عوف ، وعبد جد ، وعبد سعد ، وعبد ود ، وقد كانت مقدمة في الأعلام الأولى . أما في هذه الأعلام فصارت في المنزلة الثانية .

وهذه الأسماء التي حفظتها ذاكرة أهل الأخبار ، تخالف أكثر الأعلام العربية والسامية القديمة المدونة في النصوص وفي مؤلفات اليونان والرومان والسريان وغيرهم من حيث الصيغ والتراكيب . فقد ابتدأت هذه الأعلام كما رأينا بكلمات تنتهي بأسماء الآلهة . أما الأعلام القديمة ، فقد كانت على العكس تبدأ باسم العنصر ، وبعده الألفاظ الأخرى ، مثل : (الشرح) (إيل شرح) و (اليفع) (إيل يفع) و (القرح) (إيل قرح) و (الكرب) (إيل كرب) و (السمع) (إيل سمع) و (الشبع) (إيل شبع) وأمثال ذلك . أو تبدأ بكلمات ثم تليها أسماء الأصنام ، إلا أنها ليست في حالة الإضافة ، بل على صورة الأخبار والتفاعلية ، مثل (يذكر إيل) و (يشع إيل) و (يدع إيل) و (يشرح إيل) و (يسمع إيل) . و (إيل) (إل) هنا هو اسم الآلهة (إل) (إيلو) المعروف عند جميع الساميين^١ .

وقد يوضع حرف الجر ، وهو (اللام) (لآمد) في الاسم ، ليندل على تعلق الاسم بالآلهة ، مثل (لحي عت) في النصوص العربية الجنوبية ، وقد عثر على طائفة من هذه الأعلام في الكتابات الفينيقية والعبرانية^٢ .

وقد تهمل الكلمة الثانية من الاسم المركب ، ويقتصر على النطق الأولى ، كما في : أوس ، وزيد ، ووهب ، وئيم ، وسعد ، ونصر ، وعائد ، وعبد ، وأمثال ذلك من أعلام . فلما اختصار لـ (أوس الله) ، و (زيد اللات) ، و (زيد مائة) ، و (وهب اللات) ، و (ئيم اللات) ، و (سعد مائة)

Reise, S. I. Noldeke, über den Gottesnamen El, in Monatsberichte der Königl. Akademie der Wissenschaft zu Berlin, 1880, S. 761, 1887, S. 1175.

Reise, S. 7. Noldeke, in Wiener Zeitschrift für die Kunde des Morgenlandes, Bd. VI, S. 313.

و (سعد ود) ، و (سعد اللات) ، و (نصر اللات) ، و (عائذ الله)
و (عبد ود) ، وغير ذلك . وقد يحدث العكس ، فتسقط الكلمة الأولى ،
وتبقى الكلمة الثانية التي هي اسم الإله ، ويصير هذا الاسم اسماً لشخص أو لأسرة
أو لقبيلة ، مثل : مناف ، وغم ، وشمس ، وإساف ، ونائلة ، وزهرة ،
وقيس ، وعطارد ، وهبل ، وجد ، وأمثال ذلك . فإن هذه هي أسماء آلهة في
الأصل ، سبقت بكلمات مثل (عبد) ، ثم أهملت هذه الكلمات الأولى ، وبقيت
أسماء الآلهة حية ، ولكنها صارت أسماء لأشخاص وأسر وقبائل ، تسبقها لفظة
(بنو) في بعض الأحيان ، لتدل على الانتهاء إلى ذلك الاسم^١ . ولهذا الانتهاء أهمية
كبيرة في نظر الباحثين في فلسفة الأديان وتأريخها .

وبلاحظ أن بعض الأعلام المركبة المبتدأة بـ (عبد) مثلاً ، لا تتكون كلمتها
الثانية من اسم إله ، إنما تكون اسم موضع أو اسم شخص أو اسم جواد ، مثل :
عبد حارثة ، وعبد المطلب ، وعبد أمية ، وعبد الدار ، وعبد الحارث ، وعبد
الحجر ، وما شاكل ذلك . وبعض العلماء تفسر وتعليلات في العوامل التي أدت
إلى هذه التسميات : منها أن بعض هذه الأسماء هو لآفة قديمة ، نسبت لفظن
أنها أسماء أشخاص : وأن بعضاً آخر منها هو أسماء أشخاص كانت لهم قديمة
أو منزلة خاصة ، فترك الناس بتسمية أولادهم عبيداً لهم ، وهو شيء يحدث
حتى الآن ، إذ نقول عبد المسيح ، وعبد الرسول ، وعبد علي ، وعبد الأمير ،
وعبد الزهرة ، وعبد محمد ، وإن بعضاً آخر هو مسميات لمجتمعات ، مثل :
عبد أهله ، وعبد العشيرة ، وسعد العشيرة ، أو انه نسبة إلى علوهم أو جواد
مقدس في نظر الناس^٢ .

وقد قضى الإسلام على الأسماء الوثنية ، كما قضى على كثير من معالم الجاهلية ،
فاستبدل من أصل اسمه الجاهلي الذي له صلة بصنم أو بشرك باسم إسلامي ، وبذلك
زالت تلك التسميات . كما زالت أكثر التسميات اليهودية والنصرانية بدخول أصحابها
في الإسلام . وهذا شيء مألوف في تاريخ الإنسان . فقد قضت اليهودية على
الأسماء الوثنية القديمة ، وعوضت عنها بأسماء يهودية ذات صلة بالتوراة ، وقضت
النصرانية على الأعلام الوثنية ، أو طورتها لتكون ملائمة مع النصرانية ، وهكذا

Reste, B. 7. ff. ١

Robertson, p. 42, Reste, B. 4. ٢

حدث في الأديان الأخرى ، بل وها هنا ما يحدث اليوم في كثير من أنحاء العالم القلقة عند وقوع انقلابات سياسية ، حيث تتناول الأسماء أيضاً بالتغيير والتبديل ، لتناسب الوضع الجديد .

وقد ذكر أهل الأخبار أسماء عدد من الصحابة ، كانت أسماءهم ذات صلة بالأصنام ، فلما أسلموا أبدلوا الرسول بأسماء إسلامية . فقد كان اسم كاتب النبي (عبدالله بن الأرقم بن أبي الأرقم) (عبد يغوث) فلما أسلم ، دعي (عبدالله) . وكان اسم (عبدالله بن أصرم بن عمرو بن شعبة) الحلال ، (عبد عوف بن أصرم) ، فلما قدم على النبي ، فقال من أنت ؟ قال عبد عوف ، قال النبي : أنت عبدالله ، فأسلم . ونجد غيرهما وقد أبدل الرسول أسماءهم ، حتى صار من يسلم يبدل اسمه إن كان له صلة بصنم ، حتى مالت الأسماء الجاهلية التي هي من هذا القبيل .

والأساطير Myth = Mythos ، ونعني بها هنا الخرافات والأفاسيص المتعلقة بالآلهة Legend ، هي مصدر مهم لمعرفة تطور الأديان وتطور فكرة الألوهية عند الشعوب . وهي قد تكون شعراً ، وقد تكون نثراً ، وفي كلتا الحالتين تكون مادة خصبة للباحثين .

ومعارفنا عن الأساطير العربية الدينية قليلة جداً . وهذا مما حمل بعض المشرقيين على القول بأن العرب لم تكن لهم أساطير دينية عن آلهتهم ، كما كان عند غيرهم من الأمم كال يونان والرومان والفرس وعند بقية الآريين ، بسل حتى عند بعض الشعوب السامية الأخرى مثل البابليين . وفي رأبي أننا لا نستطيع أن نجزم في مثل هذه الأمور ، لأن أحكامنا عن اليونان والرومان والبابليين إنما استنبطناها من نصوص ومزلفات وصلت إلينا . أما العرب الجاهليون ، فلم يصل إلينا منهم حتى الآن نص ما في هذا الموضوع ، يمكننا من الحكم بعلم وجود الأساطير الدينية عند العرب الوثنيين .

ومشكلتنا أننا لا نملك كما قلت نصوصاً دينية جاهلية ، ولا كتباً كتبها يونان أو لاتين أو سريان أو غيرهم عن أساطير العرب في الجاهلية نستطيع استخراج

١ - الأصابة (٢ / ٢٦٥) . (رقم ٤٥٢٥)
٢ - الأصابة (٢ / ٢٦٧) . (رقم ٤٥٢٤)
٣ - Ency. Religl. I, p. 661.

حكم منها عن أساطير العرب . ولكن هذا الوضع لا نجونا تفي وجود الأساطير عند العرب ، بحجة بداوتهم وضيق أفقهم وبساطة تفكيرهم ، كما أنه لا نجونا أيضاً الحكم بوجود أساطير عندهم من طراز عال كما نجده عند اليونان مثلاً . ويتبين من بعض روايات الأخباريين ، وهي قليلة ، أن العرب كانت لهم أساطير كالكلي روه من أن (العَبْرُ) حاق (الدبران) لما ساق إلى الرياً مهراً ، وهي نجوم صغار نحو عشرين نجماً ، فهو يتبعها أبداً خاطئاً لها ، ولذلك سموا هذه النجوم القلاص^١ وكالكلي روه عن (العَبْرُ) و (الغَمِيصاء) و (سُهَيْل) . وقد كانت هذه النجوم مجتمعة ، فأنحسر سُهَيْل قصار بجانباً ، وتبعته العَبْرُ فعبرت للمجرّة^٢ ، وأقامت الغَمِيصاء فبكت لفقد سهل حتى غمست^٣ . وكالكلي روه من أن (الزهرة) كانت امرأة حسناء ، فصعدت إلى السماء ومسخت نجماً ، وأمثال ذلك من قصص يظهر أنه من بقايا قصص أطول قديم^٤ .

وإذا لم تصل إلينا نصوص دينية جاهلية ، صعب علينا تكوين فكرة صحيحة عن مفهوم الدين عند العرب ، وعن كيفية عبادتهم لألئهم ، وعن كيفية تصورهم للآلهة ، خاصة عند العرب الذين عاشوا قبل الميلاد .

وقد تعيننا أسماء الآلهة والأعلام المركبة في تكوين وجهة نظر عن صفات آلهة الجاهليين . فكلمات مثل (ود) و (شرح) و (سعد) و (صمع) ، أو تعابير مثل (ذات حم) (ذات حميم) و (ذات صتم) (ذات صثم) و (ذات رجب) (ذات رجبين) و (ذات بعلن) (ذات بعلن) و (ذو قبضم) (ذو قبضم) وما شابه ذلك ، لا بد أن تكون لها معان خاصة تشير إلى صفات الآلهة التي قيلت لها ، فتفيدنا في فهم عبادة الجاهليين وتفكيرهم في تلك الآلهة .

وإذا كانت بعض أسماء الآلهة أو صفاتها واضحة مفهومة تمكن الاستفادة منها في تكوين فكرة عن الآلهة ، فإن هناك بعضاً آخر يحيط بمعناه الغموض ، فلا نستطيع شرح معناه أو ترجمته إلى اللغات الأخرى . وليس من المعقول بالطبع عدم وجود مدلول أو مراد لأسماء هذه الآلهة عند من وضعها لها ، ونسبها إليها ، وإنما المعقول هو أن هذه المسميات نسبت بتقادم الزمن وبزوال دولتها وعظمتها

١ بلوغ الأرب (٢٣٩/٢) .

٢ بلوغ الأرب (٢٣٩/٢) .

٣ المبلغي : البدء والتاريخ (١٤/٢) .

من الوجود ، وضاعت معالمها ، فلم يبق منها إلا الأسماء المجردة^١ . ولعل معانيها كانت طامعة حتى عل من كان يتعبد لها ، لاحتضانها منذ زمن طويل ، وعلم ورود نصوص مدونة إلى المتعبدين لها في هذه المعاني، وهذا شيء مألوف معروف .

وتختلف نظرة الإنسان إلى الخالق والخلق باختلاف تطوره ونمو عقله ، ولهذا تجد فكرة (الله) (الإله) التي تقابل كلمة Deus في اللاتينية وكلمة Theos في اليونانية وكلمة God في الإنكليزية ، تختلف باختلاف مفاهيم الشعوب ودرجات تقدمها . فهي عند الشعوب البدائية القديمة والحديثة في شكل يختلف عن مفهومها عند الشعوب المتحضرة . كذلك اختلفت عند سكتة الهادي عن سكتة الجبال والمضايق، ويختلف مفهوم فكرة الله عند الشعوب السامية عنها عند الشعوب الآرية، لأسباب عديدة يذكرها علماء تأريخ الأديان^٢ . بل يختلف هذا المفهوم في داخل الشعب الواحد ، يختلف فيه باختلاف ثقافة الإنسان وتقدم مداركه العقلية، فتصور كل إنسان حاله على قدر عقله ودرجة ثقافته ، صورته وكأنه مرآة صادقة لنفسه ولدرجة نمو عقله . ومن هنا قيل : إن الإنسان يصنع إلهه بنفسه ، أي بصوره على نمو صورته ومبلغ تفكيره .

يقول (أكسينوفان) Xenophanes : « تصور الأحياء آلهتهم قطس الأنوف، سوداً . وتصور أهل (تراقية) Thracians آلهتهم ذوي عيون زرق وشعر أحمر . وزعم اليونان أن تصورهم للإلهة هو التصور الصحيح . أما تصور الزوج وأهل تراقية عن آلهتهم ، فهو تصور فاسد باطل ! ولو كان للماشية والحيل والباع أيد تتمكن من الرسم والنحت ، لرسمت الحيل آلهتها على صورة عجل، ولنحت تماثيلها على صورتها ، ولرسمت الماشية ونحت آلهتها على صورتها وهيئتها، تماماً كما يصور الإنسان وينحت آلهته على صورته وقدر إدراكه . كل صنف يتصور ويرى آلهته على صورته »^٣ . وقد نسب اليونان إلى آلهتهم كل الصفات والأعمال الإنسانية المعروفة بين اليونانيين ، فتصوروهم على هيئة بشر ، لهم الفضائل، ولهم الرذائل، يتزوجون وينسلون ويحبون ويعشقون ويسرقون ويكرهون ويتخاصمون بينهم ويتحاسدون

Handbuch, 8. 189.

Ency. Religi., Vol. 4, p. 243, W. Robertson Smith, Lectures on the Religion of the Semites, London, 1894, p. 2, Ency. Brit., 10, p. 499, «Lydos».

Ency. Religi., 10, p. 113.

ويقومون بأقبح الأعمال كما يفعل الإنسان^١ .

وهناك أشكال عديدة للعبادة ، تمثل تعدد وجهة نظر الإنسان بالقياس الى مفهوم الألوهية لديه . فهناك عبادة تسمى عبادة آباء القبائل ، حيث أسبغ على أجداد القبائل ما يسبغ عادة على الآلهة من نعوت وصفات . وتجد هذه العبادة عند القبائل البدائية . وقد يكون هؤلاء الأجداد أجداداً حقيقيين ، وقد يكونون أشخاصاً خلقتهم الأساطير . ومهما يكن من شيء ، فقد أعطي هؤلاء صفات الربوبية ونعوتها ، ونظر إليهم نظرة من فيه قوى خارقة ذات هيمنة على العالم والخلق . وقد اصطلح على تسمية هذه العبادة بـ All Fathers في الإنكليزية وبـ Verehrung des Stammesvaters و Urvaters في الألمانية ، لأنها تقوم على لباس عبادة الأجداد^٢ .

والله بعض الناس الظواهر الطبيعية ، لئولهم أن فيها قوى Spirit روحية كاملة مؤثرة في العالم وفي حياة الإنسان . مثل الشمس والقمر وبعض النجوم الفاهرة . وقد كانت الشمس والقمر أول الأجرام السماوية التي لفتت أنظار البشر إليها ، لما في الشمس من أثر بارز في الزرع والأرض وفي حياة الإنسان بصورة مطلقة . كذلك للقمر أثره في نفس الإنسان بما يبعثه من نور يهدي الناس في الليل ، ومن أثر كبير يؤثر في حس البشر . فكانا في مقدمة الأجرام السماوية التي ألهمها الإنسان عبدهما مجردين في بادئ الأمر ، أي دون أن يتصور فيها ما يتصور من صفات ومن أمور غير محسوسة هي من وراء الطبيعة . فلما تقدم وزادت مداركه في أمور ما وراء الطبيعة ، تصور لها قوى غير مدركة ، وروحاً ، وقدرة ، وصفات من الصفات التي تطلق على الآلهة . فخرجنا من صفاتها المادية البحتة ومن طبيعتها المفهومة ، وصارنا مظهرأ لقوى روحية لا يمكن ادراكها ، إنما تدرك من أفعالها ومن أثرها في هذا الكون .

وإذا كانت هذه العبادة قد اقتضت على الظواهر الطبيعية البارزة للمؤثرة ،

1. Ency. Religi., 10, p. 112.

2. في الأصل « Father cult » ، وقد أطلق « هويت » « Howitt » الاصطلاح « All Father » عليه .

Howitt, Native Tribes of S.E. Australia, London, 1904, Making of Religion, London, 1898, Ency. Religi., Vol. 6, p. 243.

فلأن هناك توسعاً في هذه العبادة تراه عند بعض الأقوام البدائية ، يصل إلى حد تقديس الأحجار والأشجار والآبار والمياه وأمثال ذلك ، إذ تصوروا وجود قوى روحية كامنة فيها ، فعبدها على أن لها أثراً خطيراً في حياتهم . وتجد في أساطير الشعوب البدائية أن الإنسان من نسل الحيوان ومن الأشجار أيضاً ، كذلك تجسد أمثلة عديدة من هذا القبيل في أساطير اليونان والرومان والساميين .

وهناك الشرك ، وهو عبادة آلهة عديدة ، كما أن هناك عقيدة التوحيد التي تدّين بوجود إله واحد خالق لهذا الكون . وليس للشرك بالطبع عدد معين من الآلهة ، فقد يكون بضعة آلهة ، وقد يكون عشرات . والشرك هو التدين المعاكس لتدين التوحيد ، ويعرف بإسم : Polythelam في الانكليزية من كلمة Polys اليونانية ومعناها (كثير) و (تعدد) ، ومن كلمة يونانية تالية هي Theos وتعني (الإله) (الآلهة) . ويختلف الشرك عن عقيدة الـ Polydaemonism القائلة بوجود الأرواح والجن من حيث الطبيعة Nature ، كما يختلف عن أدیان التوحيد Monotheism من حيث القول بتعدد الآلهة ، وعن الفاتنين بمبدأ (الحلول) (Pantheism) من حيث حلول الإله في الخلق والخلق في الإله .

وتطلق في العربية كلمة (إله) على الإله الواحد ، وكلمة (آلهة) في حالة الجمع ، أي في حالة القول بوجود آلهة عديدة . وتقابل كلمة (إله) كلمة (ايلوه) Eloh = Eloah في العبرانية الواردة في سفر (أيوب) . ومنها كلمة (إلهوهم) Elohim في حالة الجمع ، أي آلهة المستعملة في العهد القديم بالقياس إلى آلهة الوثنيين . وكلمة (إله) لا تعني على كسل حال لهما معيماً على نحو ما تعنيه لفظة (الله) في العربية التي يراد بها الله الواحد الأحد ليس غير .

أما (الله) ، وهي كلمة الجلالة ، فهي (اسم علم) خاص به على رأي ، وهي (علم مرتجل) في رأي آخر . وقد ذهب الرازي إلى أنه من أصل سرياني أو عبراني . أما أهل الكوفة فزعموا أنه من (ال إله) ، أي من أداة التعريف

1 Ency. Religi. Vol. 10, p. 112.

2 Hastings, p. 369, Ency. Religi. Vol. 6, p. 248, Ency. Bibl. III, Col. 33239.

Hebrew Lexicon, 42, Ency., II, p. 464.

(ال) ومن كلمة (إله) . وهناك آراء لغوية أخرى في أصل هذه اللفظة ^١ . ولم يثر على لفظة (الله) في نصوص المسند ، وإنما عثر في النصوص الصغوية على هذه الجملة : (فله) ، وتعني (فاته) أو (فيا الله) و (الهاء) الأولى هي أداة التعريف في اللهجة الصغوية . وقد وردت الجملة على صورة أخرى في بعض الكتابات الصغوية . وردت على هذا الشكل : (فله ل ت) ، أي (فالات) (فيا الآت) أي في حالة التأنيث . وتقابل (الفالات) ، وهي صم مؤنث معروف ذكر كذلك في القرآن الكريم ^٢ .

ويظن بعض المشرقين أن (الله) هو اسم صم كان بمكة ، أو أنه (إله) أهل مكة ، بدليل ما يفهم من القرآن الكريم في مخاطبته ومجادته أهل مكة من إقرارهم بأن الله هو خالق هذا الكون ^٣ .

وترد في العربية كلمة أخرى من الكلمات المختصة بالخلق ، هي (رب) وجمعها (أرباب) . وهي من الكلمات العربية الجاهلية المذكورة بكثرة في القرآن الكريم ، ولها معنى خاص في اللاهوت وفي الأدب العربي النصراني . وتقابل كلمة Lord في الإنكليزية . وكلمة (يعلى) ، و (ادون) في اللغات السامية الأخرى ^٤ . ويذكر علماء اللغة أن (الرب) هو الله ، هو رب كل شيء ، أي مالكه . وله الربوبية على جميع الخلق ، لا شريك له ، وهو رب الأرباب ، ومالك الملوك والأملاك ، ولا يقال الرب في غير الله ، إلا بالإضافة .

وقد قال الجاهليون : (الرب) للملك . قال الحارث بن حنظلة :

وهو الرب ، والشهيد على يوم الحيارين ، والبلاء بلاء ^٥

ويظهر أن لفظة (الرب) و (رب) كانت بمعنى (سيد) ومالك عند

١ الطبري : تفسير (٤٠/١) ، اللسان (٣٥٨/١٧) ، الكشاف (ص ٨) ، تفسير الرازي (٨٤/١) وما بعدها ، البيضاوي (٤/١) طبعة (Fleisher) القردات ، للاصفهاني (ص ١٩ وما بعدها) . Enzy., II, p. 494.
٢ Enzy. Religi., Vol. 6, p. 248.
٣ Enzy. Religi., Vol. 6, p. 248.
٤ Enzy. Religi., Vol. 6, p. 248, Enzy., III, p. 1088.
٥ اللسان (٣٩٩/١) ، (ديب) .

الجاهليين ، ولم تكن تعني العلمية عندهم . أي الوهية خاصة بالله ، وهي تؤدي معنى (يعلى) عندهم أيضاً . فكانوا يطلقونها على الإله والآلة وعلى الإنسان باعتباره سيداً ومالكاً . أما هذا الشخص الذي يذكره علماء اللغة ، فقد حدث في الإسلام من الاستعمال الولد في القرآن الكريم .

و (ربّ البيت) ، الله ، وكذلك : (رب هذا البيت)^١ ، و (رب الدار) ، أي مالئها ، وكل من ملك شيئاً ، فهو ربّه . وبهذا المعنى (هو رب الأرباب) . أما (الربة) ، فعنوا بها الصخرة التي كانت تعبدتها قبيل الطوائف . وكان لهم بيت بسموته (الربة) و (بيت الربة) ، يضاهي (بيت الله) بمكة . قلما أسلموا عنده (المغيرة) . و (الربة) : كعبة كانت بنجران ، للنجع وبني الحارث بن كعب يعظمها الناس^٢ .

وأما (يعلى) ، فعنها مالك وصاحب ورب في اللهجات السامية . فترد على الموضع الغلاتي ، أي صاحب ذلك الموضع وربه . ومؤنث الكلمة هو (يعلى) . وترد كلمة (يعلى) بمعنى زوج في العربية ، وقد وردت بهذا المعنى في مواضع من القرآن الكريم^٣ ، وأما الزوجة ، فهي (يعلى) (يعلى) أي في حالة التأنيث^٤ .

ولما كانت لفظة يعلى تعني الرب والصاحب ، صار اسم الموضع يرد بعد (يعلى) ، فيقال : (يعلى صور) ، و (يعلى لبنان) ، و (يعلى غمدان) ، أي رب المواضع المذكورة وصاحبها وسيدها . أما إذا وردت اللفظة مستقلة دون ذكر اسم الموضع المنسوب إليها بعدها ، فتعني عند رب وإله ، أي رب الجماعة المتعبدة المؤمنة به^٥ .

وقد ورد في القرآن الكريم في صدد الكلام عن إلياس Elisha : « وانّ إلياس كمينّ المؤمنين . إذ قال لقومه : ألا تتقون ؟ أتدعون يعلى وتثرون أحسن الخالقين »^٦ . وقد ذهب الطبري في تفسير (يعلى) في هذه الآية إلى أن يعلى

١ (فليعبدوا رب هذا البيت) ، فريش ، الآية ٢ .

٢ اللسان (١ / ٣٩٩ وما بعدها) ، (رب) .

٣ البقرة : الآية ٢٢٨ ، هود : الآية ٧٥ ، النور : الآية ٣٦ .

٤ Enay., I, p. 610, Robertson, p. 94.

٥ Robertson, p. 94.

٦ الصافات : الآية ١٢٢ وما بعدها .

تعني رباً في لغة لعل اليمن ، أو ان المراد بـ بعل صنم^١ .

ومن رأي (روبرتسن سمث) Robertson Smith أن العرب اقتبسوا المعنى الديني لبعل من الأقوام السامية المجاورة لهم مثل سكان (طور سيناء) أو موضع آخر ، أخذوه من تلك الأقوام التي عرفت باستغلالها بالزراعة ، ولا سيما زراعة النخيل ، وان هذا المعنى دخل اليهم بدخول زراعة النخيل الى بلاد العرب ، وأنه استعمل عند العرب المزارعين . أما الهنود والرعاة ، فإنهم لم يستخدموا تلك اللفظة بالمعنى المذكور^٢ . وهو رأي يخالف رأي بعض المستشرقين من أمثال (نولدكه) Nöldeke و (ولغوزن) Wellhausen الذين يرون أن عبادة (بعل) هي عبادة سامية قديمة كانت معروفة عند قدماء العرب منذ أقدم العهود^٣ .

ويرى بعض المستشرقين ان لفظ (بعل) أطلقت خاصة على الأرض التي لا تعتمد في زراعتها على الأمطار أو على وسائل الري الفنية، بل على المياه الجوفية وعلى الرطوبة في التربة ، فبنت فيها غير أنواع النخيل والأشجار ، فهي تمثل الخصب والنماء . والظاهر ان الساميين كانوا يخصصون أرضهم بالآلهة، لئلا ينقصهم بالبركة واليمن ، فتكون في حى ذلك الإله (بعل الموضع القلائي) . ومن هنا صارت جملة (بعل سمع) (بعل سمح) (بعل سمين) تعني (رب السماء) ، ويعني بذلك المطر الذي هو أهم واسطة من وسائل الإسماء والخصب والنماء في جزيرة العرب وفي البلاد التي يسكنها الساميون^٤ . ورأى مستشرقون آخرون ان جملة (أرض بعل) تعني الأرض التي تسقى بالأمطار^٥ .

وذكر العلماء أن لفظ (الال) بمعنى الربوبية ، واسم الله تعالى . وأن كل اسم آخره (ال) أو (ايل) فضاف الى الله تعالى ، ومنه (جبرائيل) و (ميكائيل) . وذكر أن (أبا بكر) لما سمع سجع (ميلمة) ، قال : هذا كلام لم يخرج من ال ولا ير ، أي لم يصدر عن ربوبية^٦ . وقد ذهب

١ تفسير الطبري (٥٣/٢٣) ، Ency. I, p. 618.

٢ Robertson, p. 97.

٣ Nöldeke, in ZDMG., Bd. 40, 1886, S. 174, Reste, S. 146, Handbuch, I, S. 248.

٤ Robertson, p. 97, Ency. Religi., I, p. 654.

٥ Reste, S. 146.

٦ تاج العروس (٢١١/٧) وما بعدها ، (آل) .

بعض علماء اللغة إلى أن اللفظة (إيل) من المعربات . عربت عن العبرانية، وهي فيها اسم الله^١ . وهي من الألفاظ العامة التي ترد في اللغات السامية ، ولا يعرف معناها على وجه مضبوط ، ويظن أنها بمعنى (القادر) و (العزيز) والقهار ، والقوي ، والحاكم . وترد في الشعر وفي أسماء الأعلام في الغالب . وقلها تجدها ترد في النثر^٢ .

وقد وردت في نصوص المست وفي نصوص أخرى ألفاظ كثيرة مثل (ود) و (صمغ) أي (صمغ) و (حكم) أي (حكيم) ، و (حلم) أي (حليم) و (علم) أي (عالم) و (عليم) ، و (رحم) أي (رحيم) ، و (رحمن) أي (الرحمن) ، وأمثال ذلك . ذكرت على صورة أسماء ألقب . لكنها في الواقع صفاتها لا أسمائها . ذكرت في مقام ذكر أسماء الآلهة ، كما يقول المسلم في دعائه ربه يا صمغ ويا حكيم ويا رحيم . وهي صفات وردت في القرآن الكريم .

وعلى من يريد الوقوف على رأي الجاهليين في طبائع لغتهم وفي تعيين صفاتها، حصر هذه الصفات وتبسيطها ، وتعيين مدلولها ، وهي صفات تدل على معاني خلقية مجردة . ويمكن بذلك من الوقوف على نظرة الجاهليين إلى لغتهم ، ومن تعيين وتثبيت عددها إذ سيظهر لنا من هذه الدراسة أن أكثر تلك الأسماء ليست أسماء ألقب ، وإنما هي صفات لها ، وإن الكلمات التي لا يشك في كونها أسماء صحيحة قليلة جداً ، ربما لا يتجاوز عددها الثلاثة ، هي الثالث . ومن يدري ؟ فقد تكون في النتيجة اسماً لإله واحد ، وعندئذ يمكن أن نوصول إلى نتيجة علمية بالقياس إلى عقيدة الشرك أو التوحيد عند العرب الجاهليين .

ويجد الإنسان اليوم سداً مضحكة في بعض العقائد الدينية التي كانت عند الشعوب القديمة ، ويستصعب تصور اعتقاد الناس بها ، وهو ينسى أن هذه العقائد أو بعضها على الأقل ، لا تزال معروفة بين بعض قبائل أفريقية وأستراليا، ولما كن أخرى من العالم ، وإن العقل الإنساني في تطور مستمر ، وإن هناك بشراً يؤمنون بعقائد ورثوها عن آباؤهم لا تقل غرابة عن غرابة بعض المعتقدات التي نواخذ

١ تاج العروس (٢١٨/٧) . (إيل) .
٢ Hastings p. 299 «Gods».

بها قدماء البشر ، مع أنهم من الشعوب المتقدمة في الحضارة وفي المدنية ، ومن القرن الذي فتنخر بتسميته بقرن العقوق على الأم ، والمروء منها إلى بيوت أخرى ، تكون بعيدة عنها ، سابعة في هذا القضاء .

وقد يصعب على الإنسان اليوم تصور وجود فائدة أو ضرر من أشياء جامدة لا يمكن قطعاً أن تضر أو تنفع ، ولكن القدماء تصوروه مع ذلك واعتقدوه . فقدموا الأحجار والأشجار والحيوانات ، وقدموا الأرواح والأموات من الآباء والأجداد والقدسين ، وتعبثوا لها . وهذه العبادات أسماء علمية خاصة اصطلاح على تسميتها العلماء .

والدين هو إيمان وعمل : إيمان بوجود قوى هي فوق طاقة البشر ، لها تأثير في حياته وفي مقدراته ، وعمل في أداء طقوس معينة تعين شكلها الأديان للتقرب إلى الآلهة ولإرضائها . والإيمان هو قبل العمل بالطبع ، فلا بد للقيام بالشعائر ، أو بأداء العمل ، من وجود إيمان عند الشخص أو الأشخاص بوجود إله أو آله . حتى يقوم بعمل ديني^١ . فالعمل تابع للإيمان ، ونتيجة من نتائجه ، وهو شعاره ومظهره . وهو أبرز عند الأقوام البدائية من الإيمان لدرجة عقليتها ومجال تفكيرها الضيق . ومن العمل : الرقص ، والأفراح الدينية ، والسحر ، والقراين ، والحج ، والصلوات^٢ .

وقد أقر الإسلام أشياء من أمور الدين كان يمارسها الجاهليون في جاهليتهم ، لأنها لا تتعارض مع مبادئ الإسلام . ودراسة أمثال هذه الأشياء توضح لنا نواحي تخلفية علينا في الزمن الحاضر من الحياة الدينية عند الجاهليين ، لذلك أرى من الضروري تتبع هذه الأشياء لتدوين تأريخ صحيح للدين عند الجاهليين . وأرى من الضروري كذلك تتبع الأساطير والعادات الموروثة التي لها صلة وعلاقة بالدين الجاهلي بين الأعراب والحضر في كل أصقاع جزيرة العرب ، ولا سيما القرى العربية النائية عن العمران المنزلة عن الأعاجم ، فإن معظم هذه الأساطير والتقاليد هي من بقايا الوثنية العربية القديمة ، بقيت جذورها ثابتة راسخة في الأفئدة حتى اليوم .

The Golden Bough, p. 56, Abridged Edition. ١

Ency. Brita., Vol. 19, p. 104. ٢

ولا بد أيضاً للدراسة الدين عند الجاهليين دراسة صحيحة من الرجوع الى أصول الأشياء ، وأعني بأصول الأشياء هنا ديانة الساميين الأولى بشكلها البدائي القديم . فمن تلك الشجرة نخرج أديان الشعوب السامية ، وفي ذلك الدين نجد الأصول والأسس التي بنيت عليها الديانات القروية .

أما كيف نتمكن من الرجوع الى الأصل ومن معرفة ديانة الساميين القديمة ، فموضوع ليس بالسهل اليسير ، ونحن ، وإن كنا نملك بعض المؤلفات والبحوث عن أديان الساميين ، لا نستطيع أن نجرؤ فنقول ان البحث قد نضج فيه ، وإن القوم قد استفوه من أطرافه وأكملوه ، بل إن كثيراً مما تطرق اليه العلماء هو موضع جدل واختلاف ، ولن يمكن التوصل الى نتائج مقبولة معقولة إلا إذا تمكن الباحثون من الحصول على وثائق جديدة تكشف القباب عن أديان قدماء الساميين.

وللتوصل الى تكوين رأي عن أديان الساميين القديمة لا بد من دراسة النصوص الدينية السامية كلها ، ودراسة كل ما له صلة بالدين عند الساميين ، ومقارنة الأديان السامية بعضها ببعض ومراجعة الأصول اللغوية للمصطلحات الدينية عند جميع الشعوب السامية للتوصل منها الى الأسس العميقة للدعوة التي أقيم عليها بنيان ديانة الساميين . ثم لا بد أيضاً من دراسة المؤثرات الخارجية التي أثرت في الساميين من عوامل طبيعية ومن عوامل أخرى غير طبيعية ومن الأثر الثقافي الذي كان لغير الساميين في الساميين .

ويشئ من دراسة الأساطير السامية وجود شكل من أشكال التوحيد *Henoteism* عند القبائل السامية البدائية ، يمثل في اعتقاد القبيلة بوجود إله لها واحد أعلى ، غير أن هذا لا يعني بقي اعتقادها بتعدد الآلهة . فإنا نرى أن تلك القبائل كانت تعتقد ، في الوقت نفسه ، بالأرواح كأنها كائنات حية ذات أثر وسلطان في مصير هذا الكون ، وفي ضمة الانسان ، وبآلهة مساعدة للإله الكبير .

والديانات السامية ، وإن كانت في الأصل من ديانة قديمة ، قد تطورت وتغيرت بعوامل عديدة من العوامل التي تؤثر في كل المجتمعات البشرية فتحدث فيها انقلاباً في التفكير وفي طراز الحياة . ومن هذه العوامل المؤثرات الخارجية والمحيط الجديد . وسنجد أن ديانة العرب الجنوبيين ، وإن كانت في الأصل من تلك الديانة السامية

الأصلية فيها مثل (ال) (ايل) وأمثال ذلك ، قد غيرت في ديانتها، وبذلك في تصوراتها للألثة ، حتى صارت في بعض معتقداتها على تقيض مع معتقدات الساميين الشماليين .

وفي الدين معبود يعبد هو الله ، أو جملة آلهة ، أو قوى خارقة تلعب في مقدرات الانسان. وعبيد يتعبدون له أو لها ، فهم عباده أو عبادها . و (العبادة) الطاعة ، وأداء الواجبات المفروضة على الانسان تجاه الله ، أو الآلهة .

والرأي المعروف بين الناس حتى الطبقة المتعلمة منهم ، أن العرب الجاهليين كانوا على جانب عظيم من الانحطاط الديني قبل الاسلام ، وأن تفكيرهم في ذلك تفكير منحط لا يتجاوز تفكير القبائل البدائية . وهو رأي خاطيء ، يفنده القرآن الكريم . وإذا كان ما يقوله صحيحاً بالقياس الى السواد والأعراب ، فإنه لا يصح أن يكون حكماً عاماً على الكل ، ولا سباً على المتحضرين وعسل من كان لهم اتصال بالعالم الخارجي .

وتأريخ أديان العرب قبل الإسلام ، فصل مهم جداً من فصول تأريخ العرب عامة قبل الاسلام وبعدها ، بدون لا يمكن فهم عقلية القوم الذين نزل الوحي بينهم وطريقة معرفة تفكيرهم ووجهة نظرهم الى الخالق والكون ثم الأسباب التي دعت الى نزول الوحي وظهور الإسلام . وبدون دراسة أديان الجاهليين ومقالاتهم في الخالق والخلق ، لا يمكن أبداً من فهم رسالة الإسلام فهماً صحيحاً . بل ان هذه الدراسة أيضاً فصل مهم جداً لفهم كثير من الأمور الواردة في التوراة والانجيل إذ كان العرب قوماً من هذه الأقوام التي كانت لها صلات قديمة بأرض الوحي التي نزل بها الكتاب المقدس بعهديه ، وعضو فعال في هذه المجموعة المسماة بالشعوب السامية . ما نعتز عليه من جديد في الناحية الدينية، يكشف عن غوامض عديدة من غوامض العهدين، فجدير بالعلماء وبنا إذن الانصراف الى البحث والاستقصاء للعثور على المصطلحات المفقودة من ههنا الفعل .

وسنرى في الفصول القادمة أسماء رجال كان لهم شأن وعظم في الحياة الدينية للجاهليين ، وقد زعم أهل الأخبار ان بعضاً منهم كان من الأنبياء الذين جاءوا الى قومهم برسالة . وان بعضاً آخر ، كان من المصلحين الهادين ، من أصحاب

العقول النيرة التي هزأت بالأوثان وبيدات قومهم . وان رجالاً منهم كانوا على الخنيفة ، يريدون بها ديانة التوحيد ، وان آخرين بشرُوا بالوثنية ، وأشاعوها بين العرب ، لما كان لهم من مكانة ونفوذ . وان رجالاً من الجاهليين كانوا على ملة اليهودية ودين المسيح . وان قوماً من أهل الجاهلية كانوا على عبادة (الله) و (الرحمان) ، وكل المذكورين كانوا محسن مهد الجادة اذن لظهور الاسلام .

وقد أدى ظهور الاسلام الى ظهور مصطلحات جديدة وموت مصطلحات قديمة ، وصارت هذه المصطلحات من علائم الوثنية . ولا بد لنا للوقوف على صورة أوضح للحياة الدينية عند الجاهليين من وجوب دراسة الألفاظ الجاهلية ذات المعاني الدينية يجمعها وتبويبها وتثبيت معانيها ، فهذه الدراسة نستطيع الوقوف على مبلغ تغفل الحياة الدينية في نفوس الجاهليين ، ومعرفة مدى تعمقهم في الدين وفهمهم له . ومن الدراسات التي يجب أن تنال منا الرعاية والعناية لمعرفة الحياة الدينية وتطورها عند الجاهليين معرفة صحيحة ، دراسة للمصطلحات الدينية بحسب اللهجات العربية ، وأماكن تلك اللهجات ، وأسماء الأصنام أو الأوثان ، ومعتقدات سكان تلك الأرضين في هذه الأيام ، فإن دراسة مثل هذه تفيدنا فائدة كبيرة في معرفة أسس الحياة الدينية عند الجاهليين ، وفي معرفة اختلاف العرب أو اتفاقهم في العقائد وفي الأمور الدينية ، ومعرفة العوامل والأسباب التي أدت الى ذلك ، ثم معرفة المؤثرات الخارجية في الحياة الدينية للجاهليين . وبثبت هذه وأمثالها ومقارنتها بأسماء أصنام الأتوام المجاورة وألحانهم ومصطلحاتهم ، نستطيع فهم كثير من الأمور الغامضة من الحياة الدينية عند العرب وعند تلك الأتوام ، وفهم الاحتكاك العقلي والصلات الروحية التي كانت بين تلك الشعوب قبل الاسلام .

إن الأخباريين عفا الله عنهم ، لم يمتنعوا بتتبع هذا الذي توصلوا اليه ورووه لنا من آراء الجاهليين في الدين . فرووا روايات مختلفة متناقضة أو مقتضبة اقتضاباً خلافاً وجاموا بأسور تثبت ان أولئك الأخباريين لم يكونوا على مستوى عالٍ من النقد والتعمق في دراسة الأخبار ، وانهم كانوا يروون أخبارهم بالمعنى المقوم من الأخبار ، يأخذون ما يقال لهم فيروونه على نحو ما سمعوه وإن كان فيها يروونه ما يخالف المطلق واليقين السليم . والاستسلام للروايات داء يلعب بالفائدة منها ، ويعود على المؤرخ بألدح الأضرار . ولحقاً نجد أنفسنا في موضوع أديان العرب

قبيل الاسلام في زوبعة عاتية وعاصفة مليحة بالرمال تنخبط فيها للحصول على
مخرج تخرج منه ، وليس لنا إلا الأمل بالخروج من هذه العاصفة العاتية المتعبة في
وقت ما .

وهذا الذي أورده أهل الأخبار عن أهل الجاهلية على ما فيه من تناقض وتضارب
والنضاب ، هو كما رأينا مادتنا الوحيدة عن الحياة الدينية عند عرب الجاهلية قبيل
الاسلام وعند ظهوره ، ولا سيما بالنسبة الى عرب الحجاز وعرب الشام والعراق .
وهناك روايات لم تستفد منها حتى الآن ، لصعوبة التوصل اليها ، لا لكونها في
بطون المخطوطات ، ولها يصعب الحصول عليها . فإن الكثير منها قد طبع ،
وهو في متناول الأيدي ، إنما صعوبتها في كونها في كتب مطبوعة طبعاً على
الطريقة القديمة بلا نظام ولا ترتيب ولا تبويب فني ولا فهرست لما في الكتاب
المطبوع من مواد ومن أسماء أشخاص أو أصنام أو أوثان أو ما شابه ذلك . وليس
أمام المؤرخ في هذه الحالة إلا أن يقرأ تلك الكتب من بسمتها حتى متنهاها ،
ليحصل منها في النهاية على كلمة أو كلمتين أو خبر أو أخبار ، ولكن كيف
يتمكن المؤرخ من قراءة كتب ضخمة كتفسير الطبري وكتب التفسير الأخرى
وشروح الحديث وكتب التواريخ والطبقات وبقية الكتب إذا كان الكتاب يتألف
من أكثر من عشرة أجزاء ، وهي كلها بلا فهرست للأعلام ولا لما في الكتاب
من فوائد ومواد . لا يتمكن المؤرخ بالطبع من قراءة كل هذه الموارد المذكورة
مع تسليوي عمره بهائر أعمار الناس ، ولو مد الله في عمره وصبره إنساناً آخر
ذا عمر طويل من أعمار الأناس الذين أرغمهم (السجستاني) في كتاب المعمرين ،
لتمكن من الإحاطة ببعض تلك الموارد على الأقل . غير أن عمر المؤرخ ويا للأسف
مثل أعمار سائر الناس ، قصير محدود ، فليس في إمكانه الإحاطة بما ورد في
هذه الكتب الواسعة المجهولة ، على ظهورها في عالم الوجود ووجودها في خزانة
كتب المؤرخ وفي يد أي شخص يريد الحصول عليها ، لأن الموضوع ليس موضوع
وجود كتاب مطبوع أو مخطوط ، إنما هو اكتشاف ما في المطبوع أو المخطوط
من آراء وأخبار وأعلام .

ما دام الوضع على هذا الحال وما دامت أكثر كتبنا غير مفهرسة ولا منسقة ،
فليس في استطاعة المؤرخ أن يأتي بشيء كثير يشفي غليل من يريد المزيد من

المعرفة عن الحالة الدينية عند العرب قبل الإسلام . وهذا أمر يؤسف له بالطبع كثيراً . وسيأتي بعدنا من يضيئون الى هذا العلم البسيط الذي توصلنا اليه علماء كثيراً ، ثم يتوصل من بعدهم الى أكثر من ذلك ولا شك . ومن يدري ؟ فلعلهم يتوصلون الى كتابات جاهلية نغنيهم عن كل هذا الذي أخطأه من موارد إسلامية كتبت بعد الجاهلية بعشرات السنين . وليس لنا ، وسنكون بالطبع من الماضين ، إلا أن ندعو لمن يأتي بعدنا بالتوفيق والنجاح التام .

الفصل الثاني والستون

التوحيد والشرك

كانت العرب في الجاهلية على أديان ومذاهب : كان منهم من آمن بالله ، وآمن بالتوحيد ، وكان منهم من آمن بالله ، وتعبد للأصنام ، اذ زعموا أنها تقربهم اليه . وكان منهم من لعبد للأصنام ، زاعمين أنها تنفع وتضر ، وأنها هي الضارة النافعة^١ . وكان منهم من دان باليهودية والنصرانية ، ومنهم من دان بالمجوسية ، ومنهم من توقف ، فلم يعتقد بشيء . ومنهم من تزندق ، ومنهم من آمن بتحكم الآلهة في الانسان في هذه الحياة ، وببطلان كل شيء بعد الموت ، فلا حساب ولا نشر ولا كتاب ، ولا كل شيء مما جاء في الإسلام عن يوم الدين .

ومذهب أهل الأخبار ، أن العرب كانوا على دين واحد ، هو دين ابراهيم ، دين الخليفة ودين التوحيد . الدين الذي بعث بأمر الله من جديد ، فتجسد وتمثل في الاسلام . وكان العرب مثل غيرهم ، قد ضلوا الطريق ، وعموا عن الحق ، وغرروا بعبادتهم الأصنام . حببها لهم الشيطان ، ومن اتبع هواه من العرب ، وعلى رأسهم فاشر عبادة الأصنام في جزيرة العرب : (عمرو بن لحي) .

وذهب (رينان) Renan الى ان العرب هم مثل سائر الساميين الآخرين

١ أبو اسحق ابراهيم بن عبدالله النجيري الكاتب . إيمان العرب في الجاهلية . (تحقيق محب الدين الخطيب) ، (القاهرة ١٣٨٢) ، ص ١٢ وما بعدها .

موحدون بطبعهم ، وإن ديانتهم هي من ديانات التوحيد . وهو رأي يخالفه فيه نفر من المشرقين^١ .

وقد أقام (رينان) نظريته هذه في ظهور عقيدة التوحيد عند الساميين من دراسته للآلة التي تعبد لها الساميون ، ومن وجود أصل كلمة (ال) (ايل) في لغاتهم ، فادعى أن الشعوب السامية كانت تعبد لإله واحد هو (ال) (ايل) الذي تعرف اسمه بين هذه اللهجات ، فدعى باسمه أبعدته عن الأصل ، غير أن أصلها كلها هو إله واحد ، هو الإله (ال) (ايل)^٢ .

و (التوحيد) الإيمان بإله واحد أحد لا شريك له ، منفرد بملكه في عدم المثل والتقليد . لا يشجزأ ولا ينشأ ولا يقبل الانقسام^٣ . ويقال للديانة التي تدلن بالتوحيد : Monotheism في اللغات الأوروبية ، من أصل يوناني هو *Monos* بمعنى (واحد) ، و *Theos* بمعنى (إله) ، لأنها تقول بوجود إله واحد . ويمثل القول في التوحيد في اليهودية وفي الإسلام .

والشرك في تفسير العلماء المسلمين ، أن يجعل لله شريكاً في ربوبية ، غير الله مع صلاته ، والإيمان بالله وبغيره ، فصاروا بذلك مشركين^٤ . ومن الشرك أن تعدل بالله غيره ، فتجعله شريكاً له . ومن عدل به شيئاً من خلقه فهو مشرك ، لأن الله وحده لا شريك له ولا تد له ولا ندبده . ويقال له *Polytheismus* = *Polytheism* في اللغات الأوروبية . من أصل يوناني هو *Polys* ، ومعناها كثرة وتعدد ، و *Theos* بمعنى (إله) . فيكون المعنى : القول بتعدد الآلهة ، أي الشرك . نقيض القول بالتوحيد *Monotheismus* . فالشرك هو الدين المعاكس لدين التوحيد . ويختلف عن عقيدة الـ *Polydemonism* القائلة بوجود الأرواح والجن من حيث الطبيعة *Nature* ، وبوجود أثرها في حياة الإنسان ، كما يختلف

Ency. Religi. Vol. II, p. 383

E. Renan, Histoire Générale et Système comparé des Langues Sémitiques, Paris, 1885, Vol. I, Chapt. I, p. 1. ff.

١ تاج العروس (٥٢٦/٢) ، (وحد) .

Ency. Religi. 19, p. 112.

٢ تاج العروس (١٤٨/٧) ، (شرك) .

٣ اللسان (٢٤٩/١٠) وما بعدها ، (شرك) .

عن القائلين بمبدأ (الخلول) Pantheism من حيث حلول الإله في الخلق والخلق في الإله^١.

وقد ذهب أهل الأخبار إلى أن العرب الأولى كانت على ملة إبراهيم ، من الإيمان بإله واحد أحد ، اعتقدت به ، وحجّت إلى بيته ، وعظمت حرمة ، وحرمة الأشهر الحرم ، بقيت على ذلك ، ثم سلخ بهم إلى أن عبدوا ما استحبوا وتوسوا ما كانوا عليه ، واستبدلوا بدين إبراهيم وإسماعيل غيره ، فعبدوا الأوثان ، وابتعدوا عن دين آبائهم وأجدادهم ، حتى أعادهم الإسلام إليه^٢.

ونظرية أن العرب جميعاً كانوا في الأصل موحدين ، ثم حادوا بعد ذلك عن التوحيد فعبدوا الأوثان وأشركوا ، نظرية يقول بها اليوم بعض العلماء مثل (ويليم شميد) Wilhelm Schmidt الذي درس أحوال القبائل البدائية وأنواع معتقداتها ، فرأى أن عقائد هذه القبائل البدائية الوثنية ترجع بعد تحليلها وتشرحها ودرسها إلى عقيدة أساسية قائمة على الاعتقاد بوجود (القديم الكل) أو (الأب الأكبر) الذي هو في نظرها العلة والأساس . فهو إله واحد . وتوصل إلى أن هذه العقيدة هي عقيدة سبقت التوحيد ، ثم ظهر من بعدها الشرك . وقد أطلق عليها في الألمانية مصطلح Urmonotheismus أي التوحيد القديم^٣.

ويأخذ بهذه النظرية علماء اللاهوت وبعض الفلاسفة ، وفي الكتب السياوية تأييد لها أيضاً . فالشرك وعبادة الأصنام بحسب هذه النظرية ، نكوص عن التوحيد ، ساق إليه الانحطاط الذي طرأ على عقائد الإنسان فأبعده عن عبادة الله^٤.

إننا لا نستطيع أن نتحدث عن عقيدة التوحيد عند العرب قبل الإسلام استناداً إلى ما لدينا من كتابات جاهلية ، لعدم ورود شيء عن ذلك . فالتصوص التي وصلت إلينا ، هي نصوص فيها أسماء أصنام ، وليس فيها ما يفهم منه شيء عن التوحيد عند العرب قبل الميلاد وبعده ، إلا ما ورد في النصوص العربية الجنوبية المتأخرة من عبادة الإله (ذموى) (ذو مموى) ، أي صاحب السماء ، بمعنى إله السماء . وهي عبادة ظهرت متأخرة في اليمن بتأثير اليهودية والنصرانية

Ency. Religi. Vol. 10, p. 112.

النجمي ، أيمان العرب (١٢ وما بعدها) ، الأصنام (من ٦) .

Schmidt, S. 437, W. Schmidt, Der Ursprung der Gottesidee, 4 ed., 1912.

Ency. Religi. Vol. 7, p. 113.

الذين دخلنا اليمن ووجدنا لها أتباعاً هناك ، بل حتى هذه العبادة لا نستطيع أن نتحدث عنها حديثاً يقينياً ، فنقول أنها عبادة توحيد خالص تعتقد بوجود إله واحد على نحو ما يفهمه أهل القول بالتوحيد .

وقد ذكرت جملة (ذموى) في نص مع الإله (تالب ريم) (تالب ريام) ، رب قبيلة (همدان) . وبدل ذكر اسم هذا الإله مع اسم إله آخر على أن عقيدة التوحيد لم تكن قد تركزت بعد ، وأنها كانت في بدء تكوينها ، فلما انحصرت في رؤوس القوم ، ذكرت وحدها في النصوص المتأخرة ، دون ذكر أسماء الأصنام الأخرى ، مما يشير إلى حدوث هذا التطور في العقائد ، وإلى ظهور عقيدة التوحيد والاعتقاد بإله السماء عند جماعة من العرب الجنوبيين . وقد أكملت هذه العقيدة بأن صار إله السماء رب السماء والأرض^١ .

ولم يكن (ذموى) ، (ذموى اله) ، (ذو السماء إله) أي (صاحب السماء) ، أو (إله السماء) ، أو (رب السماء) ، إله جماعة معينة أو إله قبيلة مخصوصة ، بل هو إله ولدته عقيدة جديدة ظهرت في اليمن بعد الميلاد على ما يظن تدعو إلى عبادة إله واحد هو (رب السماء) ، فهو إله واحد مفرق السماء . ويرى بعض المستشرقين أن هذه العقيدة هي نتيجة اتصال أهل اليمن باليهودية والنصرانية على أثر دخولها العربية الجنوبية، فظهرت جماعة تأثرت بالديانتين تدعو إلى عبادة إله واحد هو (رب السماء)^٢ .

وأما عبادة (الرحمن) (رحمن) ، فهي عبادة توحيد ، ظهرت من جزيرة العرب فيما بعد الميلاد . وقد وردت كلمة (رحمن) ، أي (الرحمن) ، في نص يهودي كذلك وفي كتابات (أبرهة) ، وردت في نصوص عربية جنوبية أخرى وفي نصوص غير عليها في أعالي الحجاز^٣ . وقد كان أهل مكة على علم بالرحمن ، ولا شك ، باتصالهم باليمن وباليهود . ولعلهم استخدموا الكلمة في

Handbuch, I, S. 102.

Handbuch, I, S. 104, Rivista, 1935, Fasc. I, II, p. 109.

Le Muséon, 1954, tome LXVII, p. 118.

Glaser 354, 406 = 410, Halévy 43, CIH, Paris 4, Tome I, Capit. I, No. 3,

p. 15 - 9, II, 537 - 543, p. 257 - 300, CIH, 3, 45, 537, 532,

539, 541, 542, 543, MM, Alaud, 19, Rep. Epig., 3904.

4069, 4109, Stambul, 7608, Asmara, I, Le Muséon, LII, p. 51.

معنى الله . وإن ذكر علماء اللغة أو علماء التفسير أن القظة لم تكن معروفة عند أهل مكة في الجاهلية ^١ .

وقد جاء في النص اليهودي المذكور : (الرحمن الذي في السماء واسرائيل وإله اسرائيل رب يهود) . وقد حمل هذا النص بعض الباحثين على القول بأن العرب الجنوبيين قد أخذوا هذه الكلمة وفكرونها عن الله من اليهودية ، وإن فكرة التوحيد هذه إنما ظهرت بتأثير اليهودية التي دخلت إلى اليمن . غير أن من الباحثين من رأى خلاف هذا الرأي . رأى أن افتتاح النص بذكر الرحمن ، ثم اشارته بعد ذلك إلى إله يهود ، وورود كلمة (الرحمن) في نص آخر يعود إلى سنة (٤٦٨) للميلاد^٢ . كتب صاحبه شكراً للرحمن الذي ساعده في بناء بيته : كل هذه وأسباب أخرى ، تناقض رأي القائلين بأن عقيدة الرحمن عقيدة اُتيت من اليهود^٣ .

^٤ وقد ذكر بعض علماء اللغة أن (الرحمن) اسم من أسماء الله مذكور في الكتب الأولى ، وإن القظة عبرانية الأصل ، وأما (الرحيم) فعربية . وذكروا أن (الرحمن) اسم محصى بالله ، لا يجوز أن يسمى به غيره^٤ . وقد أُنشدوا للشعري أو لبعض الجاهلية الجهلاء :

ألا ضربت تلك الفتاة هجيتها
ألا قطب الرحمن ربي يمينها^٥

فيظهر من هذا البيت أن الشاعر كان يدين بعبادة الرحمن . ونجد مثل هذه العقيدة في قول سلامة بن جندل الطهوي^٦ :

^١ Handbuch, I. B. 263, Halevy, Revue des Etudes Juives, 1891, Vol. 22, pp. 125 - 129, 281, 23, p. 394, Margoliouth, The Relations, p. 67.

^٢ GDB. 1.

^٣ Margoliouth, The Relation between Arabs and Israelites prior to the Rise of Islam, p. 67.

^٤ تاج العروس (٣٠٧/٨) ، (رحم) ، القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن (١٠٦/١) ، تفسير الطبري (٤٤/١) ، تفسير ابن كثير (٢١/١) .

^٥ تفسير الطبري (٤٤/١) ، وورد :

لقد لظمت تلك الفتاة هجيتها
ألا بقر الرحمن ربي يمينها
الاشتقاق (ص ٣٧) .

عجلتم علينا عجلتنا عليكم وما يشأ الرحمن يعقد ويطلق^١

فلأن ذلك يعني أن قوماً من الجاهليين كانوا يدبنون بعبادة (الرحمن) . ومما يؤيد هذا الرأي ما ورد من أن بعض أهل الجاهلية سموا أبناءهم عبد الرحمن ، وذكروا أن (عامر بن عنلة) سمى ابنه (عبد الرحمن)^٢ . وقد وردت لفظة (الرحمن) في شعر ينسب إلى (حاتم الطائي) هو :

كلوا اليوم من رزق الإله وأيسروا وإن على الرحمان رزقكم غداً

وحاتم من المثناة ، ويعد البعض من التصاري و (الرحمن) نعت من تعوت الله في التصارية ، من أصل (رحوتو) ، Rahmoao^٣ ، فهل عبر شاعرنا بهذه اللفظة عن هذا المعنى التصري ؟

وقد زعم بعضهم أن العرب لا تعرف الرحمن حتى ردّ الله عليهم ذلك بقوله : قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أياً ما تدعوا فله الأسماء الحسنى . ولما قال كثر قریش يوم الحديبية لما قال رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، لعلي : اكتب : بسم الله الرحمن الرحيم . فقالوا : لا نعرف الرحمن ولا الرحيم . رواه البخاري . وفي بعض الروايات : لا نعرف الرحمن إلاّ رحمن الیامة^٤ .

وذكر أن المشركين سمعوا النبي يدعو ربه ، يا ربنا الله ويا ربنا الرحمن ، فظنوا أنه يدعو لإثنين ، فقالوا : هذا يزعم أنه يدعو واحداً ، وهو يدعو مثني . وأن أحدهم سمع الرسول يقول في سجوده : يا رحمن يا رحيم فقال لأصحابه : انظروا ما قال ابن أبي كبشة دعا الرحمن الذي بالیامة . وكان بالیامة رجل يقال له الرحمان^٥ .

-
- ١ - تفسير الطبري (٤٤/١) ، (سلامة بن جندب الطهوي) ، عجلتم علينا إذ عجلنا عليكم وما يشأ الرحمن يعقد ويطلق
 - ٢ - تفسير ابن كثير (٢١/١) ، الاشتقاق (ص ٣٧) ،
 - ٣ - غرائب اللغة (١٨٢) ،
 - ٤ - تفسير ابن كثير (٢١/١) ،
 - ٥ - تفسير الطبري (١٢١/١٥) ، سورة الاسراء ، الآية ١١٠ ، روح المعاني (١٧٦/١٥)

ولم يذكر أهل الأخبار شيئاً عن ذلك الشخص الذي زعموا أنه كان يُعرف
به (رحمان البامة) . لكنهم ذكروا أن (مسيلة الكذاب) ، كان يقال له
رحمان البامة^١ . فهل عنوا به (رحمان البامة) مسيلة نفسه ، أم شخصاً آخر
كان يدعو لعبادة (الرحمان) قبله ؟

وورد أن قريشاً قالوا للرسول : « انا قد بلغنا أنك انما تعلمك رجل بالبامة ،
يقال له الرحمن ولن نؤمن به أبداً » . فنزل فيهم قوله : « كذلك أرسلناك في
أمة قد غطت من قبلها أُمم لتتلو عليهم الذي أوحينا إليك ، وهم يكفرون بالرحمن ،
قل هو ربي لا إله إلا هو عليه توكلت وإليه متاب »^٢ . وذكر بعض أهل
الأخبار : كان مسيلة بن حبيب الحنفي ، قد تسمى بالرحمن في الجاهلية ، وكان
من المعمرين ، وذلك قبل أن يولد عبدالله أبو رسول الله^٣ .

وورد في بعض أقوال علماء التفسير أن اليهود قالوا : « ما لنا لا نسمع في
القرآن أصحاً هو في التوراة كثير . يعنون الرحمان ، فنزلت الآية^٤ » .

ويرى المستشرقون أن عبادة (الرحمن) (رحمن) ، انما ظهرت بين الجاهليين
بتأثير دخول اليهودية والنصرانية بينهم^٥ .

وقد ذكر (اليعقوبي) أن تلبية (قيس عيلان) ، كانت على هذا النحو :
« ليك اللهم ليك ، ليك أنت الرحمان ، أنتك قيس عيلان ، راجلها والركبان^٦ »
وأن تلبية عك والأشعرين ، كانت :

نبح للرحمان ينبأ عجباً مستتراً مغيباً عجباً^٧

وفي التليتين المذكورتين دلالة على اعتقاد القوم بإله واحد ، هو الرحمان .

- ١ اللسان (٢٢١/١٢) ، (رحم) ، تاج العروس (٢٠٧/٨) ، (رحم) .
- ٢ سورة الرعد ، الآية ٣٠ ، الروض الأنف (٢٠٠/١) ، سيرة ابن هشام (٢٠٠/١) (حاشية على الروض) ، تفسير الطبري (١٠١/١٣) .
- ٣ الروض الأنف (٢٠٠/١) .
- ٤ القرطبي ، الجامع (٣٤٣/١٠) .
- ٥ O. Ryckmans, Inscriptions Sudarabes, X, No. 515, Le Muséon, 59, 1963, p. 314, Ryckmans 330. b, CIH 541, O. Ryckmans, in Le Muséon, 59, 1968, p. 165, A. Jamme, La Religion Sud-Arabe, Préislamique, 275.
- ٦ اليعقوبي (٢٢٥/١) .
- ٧ اليعقوبي (٢٢٦/١) .

ولم ترد لفظة (الرحان) إلا مفردة ، فليس لها جمع ، لأنها تعبر عن توحيد ، وليس في التوحيد تعدد ، فالتعدد شرك . على عكس لفظة (رب) ، التي تؤدي معنى (إله) ، وهي تعبر عن اعتقاد ، لا اسم علم لإله ، ولذلك وردت لفظة (أرباب) بمعنى آلهة تعبراً عن تعدد الآلهة ، وهو الشرك . وقد كان الجاهليون يقولون : ربّي وربك وربنا وأربابنا ، كما يقولون إلهي وإلهك وآلهتنا^١ .

وقد تكون كلمة (رحم) (هـ رحم) (هـارحم) ، أي (الرحيم) الواردة في النصوص الصفوية^٢ وفي النصوص السنية اسم لإله^٣ ، وقد تكون صفة من صفات الآلهة على نحو ما تؤديه كلمة (الرحيم) من معنى في الإسلام .

وللعلماء آراء في ظهور عبادة الشرك . ورأي رجال الدين منهم ، أن الناس كانوا أمة واحدة في الدين ، كانوا على التوحيد جميعاً ، ثم ضلّوا فعبدوا جملة آلهة وصاروا مشركين^٤ . أما غيرهم من العلماء الذين يستنون إلى الملاحظات ودراسة أحوال القبائل البدائية وعلى فروع العلوم الأخرى المساعدة مثل علم النفس وعلم الاجتماع ، فيرون أن عقيدة التوحيد ظهرت متأخرة بالنسبة إلى ظهور الوثنية والشرك . ظهرت بعد أن توسعت مدارك الإنسان ، فتشعر أن ما كان يتصوره من وجود قوى روحانية عليا في الأشياء التي عبدها لم يكن سوى وهم وخداع ، وصار يقتصد في الشرك ، إلى أن اعتدى إلى عبادة إله واحد .

ظهور الشرك :

هناك عدة عوامل دعت إلى ظهور الشرك ، أي تعدد الآلهة ، وأثرت في تعدد الآلهة . هناك عوامل طبيعية وعوامل رسيّة Characteristics ، وعوامل

١ هناك ربك ما أعطاك من حسن وحيثما يك أمر صالح فكن

شرح ديوان زهير (١٢٢)

٢ Handbuch, I, B. 248, Vogue, Syrie Centrale, Inscriptions Sémittiques, Paris, 1853 - 1877, p. 142, No. 402, Dussaud, voyage Archéologique au Sufa, Paris, 1901, No. 238, Mission, p. 88, Les Arabes en Syrie, p. 152.

٣ CID, 4, 2, No. 40, p. 63, Grahmann, B. 246.

٤ Ency. Relig., 10, p. 112.

سياسية وعوامل تاريخية واجتماعية واقتصادية وعوامل أخرى ، كل هذه أثرت في شكل الشرك وفي تعدد الآلهة وفي كيفية تصور الناس لألهتهم . ولا يعني هذا أنها أثرت كلها مجتمعة وفي آن واحد ، إنما يعني أن ظهور الشرك وشكله هو نتيجة عوامل متعددة وأسباب مختلفة أثرت في ظهوره وفي تكوين صورة الآلهة في نظر المؤمنين بها المتعبدين لها .

وإن نتجد وجهة نظر الشعوب عن الآلهة أو الإلهة تختلف باختلاف ثقافتها ومستواها الاجتماعي ، وللوضع السياسي دخل كبير في الشرك وفي عدد الآلهة وفي شكل الدين . لقد كان لكل قبيلة إله خاص بملك القبيلة يحميها من الأعداء ومن الكارثة ، ويسدّد عنها في الحروب والمقاتلات ، ويعطيها النصر . كما كان لقرى والمدن ألهة الخاصة بها . فإذا تحالفت القبائل أو القرى أو المدن تحالفت ألهة معها ، وكوّنت حلفاً وصداقة مينة بينها . أما إذا تحاربت هذه القبائل أو القرى أو المدن ، فيكون لهذه الحرب أثر كبير في مستقبل الآلهة وفي عددها . فقد ينصرف المغلوبون عن ألهتهم إلى عبادة آلهة أخرى ، لأنها أصبحت ضعيفة لا قدرة لها على الدفاع عن عبّدتها . وقد يتأثر الغالبون بعبادة المغلوبين الذين خضعوا لهم ، فيضيفون آلهة المغلوبين إلى ألهتهم ، فيزيد بذلك عدد الآلهة ، ولا سيما إذا كان المغلوبون أصحاب ثقافة عالية ، وكان لهم أدب وفن .

والعادة أن آلهة القبائل أو المدن الرئيسية تكون هي الآلهة الرئيسية للحلف أو في المملكة . ويكون إله القبيلة ذات النفوذ أو العاصمة عندئذ ، هو إله الحكومة الكبير . أما الآلهة الأخرى ، فتكون دوله في المرتلة ، ولهذا يرد اسمها في الغالب بعد اسم الإله الكبير .

كذلك يجب ألا ننسى عامل الجوار والاتصال الثقافي في ظهور الشرك ، فكثيراً ما يؤدي هذا الاتصال إلى اقتباس آلهة المجاورين وإضافتها إلى مجموعة الآلهة عند ذلك الشعب ، فيزيد بذلك عدد الآلهة أو ينقص . فقد تطلّى الآلهة الجديدة المقبولة على الآلهة القديمة ، ويقل شأن بعضها فبهمل ، ثم يموت اسمها . وقد يحدث ذلك بطريق الحرب أيضاً ، كما ذكرت ، فينتغير العدد بذلك .

ولرجال الدين ولسادات القبائل وللأمراء وللملوك أثر في ظهور الشرك . كان في إمكانهم الفرار مستقبل الآلهة بإضافة آلهة جديدة على الآلهة القديمة ، أو بإبعاد

إله أو آلهة عن عبادة قومهم ، فيزيد أو ينقص بذلك عدد الآلهة . وقد كان سادات القبائل والوجوه يغيرون عبادة آبائهم بإدخال عبادة إله جديد ، يأخذونه من زيارتهم لبلد غريب ، كأن يكون أحدهم قد أصيب بمرض وهو في ذلك البلد ، فيشار عليه بالتمجد والتقرب لإله ذلك البلد أو لأحد آلهته ، فيصادف أن يشفى ، فيظن أنه شفى ببركة ذلك الإله وبقدرته وقوته ، فيضرب له ويتعبد له ، فإذا أعاد حل عبادته إلى آبائه ، فيعبد عندهم . ويضاف على آلهتهم ، ويصير أحدهم وقد يطلق اسمه عليها ، وذلك حسب درجة تعلق سيد القبيلة به ، وحسب درجة ومكانة سيد القبيلة بين الناس . وتلويح الجاهلية مليء بحوادث تبديل آلهة بسبب تبديل سادات القبائل ووجوه الناس لعائلتهم ولآلهتهم ، فتدخل القبيلة كلها في العبادة الجديدة . وقد كان إسلام قبائل برمتها ، بسبب دخول سيدها في الإسلام ، فالتاس تبع لساداتهم ولقاداتهم ، و « الناس على دين ملوكهم » كما هو معروف ومشهور في أقوال العرب .

ومعظم أسماء الآلهة صفات للآلهة لا اسم علم لها ، فودّ ورضى والمقه وذات حيم وأمثلة ، هي صفات في الأصل ، مضى عليها الزمن ، فاستعمل استعمال الأسماء الأعلام . وظن أنها آلهة قائمة بذاتها . فلما جاء الباحثون وجمعوها حسبوها أسماء آلهة ، فزاد بذلك عدد الآلهة ، واعتبرت الأسماء الكثيرة من أسماء الإفراط في الشرك . بينما هي صفات لإله ، أو آلهة لا يزيد عددها على ثلاثة ، هي الثلاث الكواكب المقدسة التي تعبدوا له .

ولا بد لنا من الإشارة إلى اصطلاح أطلقه (ماكس مولر) Max Müller على مرحلة من العبادة هي بين بين ، لا هي توحيد Monothelism ولا هي شرك Polythelism ، بل هي مرحلة تعبد فيها الإنسان على رأى هذا الباحث إلى إله واحد هو إله القبيلة ، مع الاعتقاد بوجود آلهة أخرى^١ . وهذا الاصطلاح هو Henothelism . وقد رأى (فلايدلر) Pfleiderer أن الساميين لم يكونوا موحدين بطبعهم كما ذهب (رينان) إلى ذلك ، بل كانوا يدينون بإله قومي ، ومن هذه العقيدة ظهر التوحيد الخالص كما حدث عند الأسرييليين^٢ .

Max Müller, Vorlesungen über den Ursprung und die entwicklung der Religion, 1880, Schmidt, S. 261.

Ency. Religi., 10, p. 811, Pfleiderer, Philosophy of Religion, London, 1885 - 1888, III, p. 19.

وفي القرآن الكريم إشارات إلى أنواع من الشرك كان عليه الجاهليون ، وفيه تعريف لمعنى الشرك ، فالشرك في قوله تعالى : (أيشركون ما لا يخلق شيئاً وهم يخلقون ، ولا يستطيعون لهم نصراً ولا أنفسهم ينصرون)^١ عبادة الأصنام المصنوعة من الحجارة أو الخشب أو المعادن ، أي مما لا روح له وقابل للكسر^٢ . وفي بعض الآيات أن من أنواع الشرك القول بأن الجن هم شركاء الله^٣ . ومن أنواعه أيضاً القول بأن الملائكة هم شركاء الله وبناته^٤ . وفي آيات أخرى أن من الشرك اتخاذ آلهة أخرى مع الله^٥ . والآلهة هنا شيء عام . فيه تأليه الكواكب وعبادة الأشياء غير المتفردة ، أي غير المادية وعبادة الأصنام .

وفي القرآن الكريم جواب عن فلسفة القوم وتعليلهم لعبادة الأصنام واتخاذهم (أولياء) من دون الله ، إذ يقولون جواباً عن الاعتراض الموجه إليهم في عبادة غير الله : (والذين اتخذوا من دونه أولياء . ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى . إن الله يحكم بينهم في ما هم فيه يختلفون)^٦ . وبشأن من هذه الآية ومن آيات أخرى أن فريقاً من العرب كانوا يعتقدون بوجود الله ، وأنه هو الذي خلق الخلق ، وأن له السيطرة على تصرفات عباده وحركاتهم ، ولكنهم عبدوا الأصنام وغيرها ، واتخذوا الأولياء والشفعاء لتقربهم إلى الله زلفى^٧ .

وفي كتاب الله مصطلحات لها علاقة بعبادة الشرك ، منها (شركاء) جمع (شريك) ، وهو من اتخذ المشركون شريكاً مع الله^٨ . و (أنداد) (ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله)^٩ (وجعلوا لله أنداداً ليضلوا عن سبيله . قل : تمتعوا ، فإن مصيركم إلى النار)^{١٠} . و (أولياء)

-
- ١ الاعراف ، الآية ١٩٦ وما بعدها ، يونس ، الآية ١٨ .
 - ٢ تفسير الجلالين (١/١٣٩) ، « طبعة المطبعة الميمنية » .
 - ٣ الانعام ، الآية ١٠٠ ، الجلالين (١/١١٦) .
 - ٤ سبأ ، الآية ٤٠ وما بعدها .
 - ٥ الانبياء ، الآية ٢٤ .
 - ٦ الزمر ، الآية ٣ ، الجلالين (٢/١٣٣) .
 - ٧ الزمر ، الآية ٣ ، الانعام ، الآية ١٤٨ ، النحل ، الآية ٣٥ .
 - ٨ الانعام ، الآية ١٠٠ ، راجع « فتح الرحمن لطالب آيات القرآن » (ص ٢٣٨) .
 - ٩ البقرة ، الآية ١٦٥ .
 - ١٠ ابراهيم ، الآية ٣٠ .

و (وليّ) و (ولياً)^١ و (شفعاء) و (شهداء)^٢ . فهذه الكلمات وأمثالها تعبر عن عقائد الجاهليين قبل الإسلام . وعن اعتقادهم في عبادة أشياء أخرى مع الله كانوا يرون أنها تستحق العبادة ، وأنها في مقابل الله في العرف الإسلامي ، أو أنها شركاء في إدارة الكون أو أنها مساعدة لله .

والشرك في تفسير العلماء المسلمين ، أن تعدل بالله غيره ، فتجعل شريكاً له . فهو يشمل أشياء عديدة . منها عبادة الكواكب ، أي عبادة القوى الطبيعية ، وعبادة الجن والملائكة والأمور الخفية ، ومعنى آخر عبادة القوى الخفية ، أو القوى الروحية ، وعبادة الأمور المادية كالأصنام والأحجار ، باعتبار أنها تشفع للإنسان عند الآلهة ، وعبادة الإنسان والحيوان ، إلى غير ذلك من عبادات .

ومن العبادات التي يجب أن يشار إليها عبادات اصطلاح علماء الأديان على تسميتها بمسميات حديثة ، تمثل عقائد قديمة ، ول بعضها أبحاث أحياء يرزقون . وبعض منها آثار ومظاهر ، دخلت في الأديان الباقية ، وصفت بصفتها ، وهي من بقايا العقائد الدينية البدائية التي رسمت في النفوس وفي القلوب حتى صار من الصعب على الإنسان أن يتخلص منها ، بقيت راسخة تحت مسميات جديدة . ومن تلك العقائد : الـ Shamanism ، و Totemism ، و Fetichism ، و Ancestor - worship ، و Animism ، وغيرها من مسميات سيرد الحديث عنها في هذا الكتاب^٣ .

أما الـ (شفاعة) ، فقد أخذت من كلمة (شمن) Shaman ومعناها كاهن أو طبيب (شمان) ، أو من كلمة Shamen التي معناها صنم أو معبد ، أو من أصل آخر . ويراد بها اليوم ديانة تعتقد بالشرك ، أي تعدد الآلهة Polytheism ، أو بعبادة الأرواح Polydemonism مع عبادة الطبيعة Nature - worship لاعتمادها بوجود أرواح كامنة فيها . ويعتقد في هذا الدين أيضاً بوجود إله أعلى هو فوق جميع هذه الأرواح والقوى المؤثرة ، وتأثير السحر^٤ .

١ راجع فهرس القرآن الكريم . مثل فتح الرحمن (ص ٤٨٠) .

٢ فتح الرحمن (ص ٧٤٠) .

٣ A.A. Bowman, Studies in the Philosophy of Religion, London, 1938, p. 87.

٤ Ency. Religi., II, p. 441.

ويسمى ال (شمن) ، وهو الكاهن أي رجل الدين ، بالقوى الخارقة التي لديه والتي لا يملكها الرجل الاعتيادي في اعتقاد أبناء هذه العقيدة في الاتصال بالأرواح وبما وراء الطبيعة لتأثير فيها . ولدى هذا الكاهن أرواح مأمورة بسين يديه للقيام بما يطلب منها القيام به . وهو يمارس أعمالاً سحرية لتأثير في الأرواح . فليس في هذا الدين أهمية ومقام . ويقوم ال (شمن) عند أكثر المتدينين بهذا الدين بأعمال الطيب^١ .

وأما (الطوطمية) ، فقد تحدث عنها في الجزء الأول من هذا الكتاب^٢ . وقد يبت عقيدتها في (الطوطم) ، ورأي العلماء في كيفية ظهور المجتمع (الطوطمي) ، وهو مجتمع يقوم على أساس الجماعة أو القبيلة ، يرتبط أفرادها برباط ديني مقدس ، هو رباط (الطوطم) ، رمز الجماعة .

وأما ال Fetishism ، من أصل Factitus اللاتيني ، بمعنى السحر ، أي القوة المؤثرة الخفية Mangle ، فلباحثين في تاريخ الأديان آراء متعددة في تعريفها وفي تثبيت حدودها^٣ . والرأي الغالب الشائع بينهم أنها عبادة أو تقديس للأشياء المادية الجامدة التي لا حياة فيها لاعتقاد أصحابها بوجود قوة سحرية فيها ، وقوى غير منظورة في تلك الأشياء تلزمها ملازمة مؤقتة أو دائمة . ويعمل ال Fetish (الـد) لجلب السعد إلى صاحبه . وهو في نظر (تيلور) Dr. Tylos بمثابة (إله البيت) وقوة فاعلة خفية تطرد الخيائن عن صاحبه ، وتجلب الخير له . ولحدوث الأحلام ونشوتها في نظر الأقوام البدائية دخل كبير في رأي العلماء في ظهور هذه العقيدة^٤ .

وأصحاب هذه العقيدة لا ينظرون إلى تلك الأشياء المادية على أنها نفسها ذات قوة فاعلة خفية ، وإنما الرمز أو الصورة للإله المنسوب ذلك الشيء إليه ، بل هم يرون أن تلك الأشياء ليست سوى منازل أو مواضع لاستقرار تلك القوى المؤثرة التي يكون لها دخل في إسعاد الإنسان . وهو يقدر الأشياء المادية كالحجارة

Ency. Religi., Vol. 11, p. 441. ١

(ص ٥١٨ وما بعدها) . ٢

Ency. Religi., Vol. V, p. 804. ٣

Ency. Brita., Vol. 9, p. 202, Taylor, Primitive Culture, II, p. 143, ٤

Wafny, Anthropologie der Naturvölker, II, 8. 174.

مها كانت صغيرة أو كبيرة ، مهتمة ومصقولة صقلتها يد الانسان ، ومستها أو لم تحسها يد ، بل كانت على نحو ما وجدها في شكلها الطبيعي ، لأنه حينما يتقرب إلى تلك الحجارة ، لا يتقرب إليها نفسها ، بل يتقرب إلى الروح التي تحمل فيها . فالروح هي المعبودة ، لا الحجر الذي تحمل الروح فيه ، وليس الحجر أو المواد الأخرى إلا بيتاً أو فندقاً تنزل الروح فيه .

أما عبادة الأسلاف Ancestor worship ، فهي فرع من أهم فروع الدين في نظر بعض العلماء ، بل هي الأساس الذي قام عليه الدين في نظر آخرين ، ولا سيما عند (سبنسر) H. Spencer¹ . وأما الأسباب التي دعت البشر إلى هذه العبادة ، فهي الحب والتقدير للأبطال والرؤساء والأمل في استمرار دفاعهم عنهم وحمايتهم للجماعة التي تنتمي إليها كما كانت تفعل في حياتها ورزق أذى الأعداء الأموات منهم والأحياء . فتجسيد الأبطال والخوف منهم ، هو الذي حل البشر على عبادة الأسلاف على رأي . وهناك من رأى أن تجسيد الأبطال والأشادة بذكرهم ، هو الذي أوجد هذه العبادة ، ومنهم من نسبها إلى الخوف منهم حسب² .

وسواء أكان منشأ هذه العبادة الحب والتقدير أو الخوف أو كلاهما ، فإن أساس هذه العقيدة هو الاعتقاد ببقاء الروح ، روح الميت ، وإن بإمكان هذه الروح تقع الأحياء أو إلحاق الأذى بهم . ورؤية الأحياء وسماع توسلاتهم ودعواتهم لها . قاليت وإن كان قد دفن في قبره وغيب بين التراب ، إلا أنه يسمع ويحي ، فروحه حية وبإمكانه التطلع والضر . وهذه العقيدة هي التي حلت بعض الشعوب على مخاطبة الأرواح من فجوات مخصوصة في الأرض ومن مواضع أخرى لاستشارتها في بعض الأمور التي تهتمها ، وللتحدث معها في مسائل خطيرة كتقديم مشورة أو أخذ رأي أو استفسار عن اسم قاتل أو سارق . ولهذا الغاية اتخذت مواضع مقدسة Oracle يتقرب فيها إلى الأرواح وللإستشارة منها . فكان في اليونان مثلاً موضع شهير عرف بإسم Thesprotia ، وموضع آخر عرف بإسم Phigalia في (أركاديا) Arcadia³ . وكان في إيطاليا موضع قنبل يقس على بحيرة

Ency. Relig., I, pp. 425, 427.

Jevons, Introduction to History of Religion, p. 54.

Herodotus, V, 92, Pausanias, III, 17, 8, 9.

(أفيرنوس) ¹ Avernus . وكانت العادة في هذا الموضع أن يتقرب الراغبون في استشارة الأرواح الى الموضع المقدس بتقديم ضحية ، وعندئذ ينام السائل في الموضع المقدس ، فتظهر له الروح في المنام ، فتحدثه بما يحتاج اليه ² .

ولعبادة السلف علاقة بعبادة الأصنام ³ Idolatry . ويلاحظ ان عبادة السلف تعود أنبأها في بعض الأحيان الى الاعتقاد بأن قبيلتهم تنتمي الى صلب جد واحد، أصله حيوان في رأي الأكثرين ، أو من النجوم في بعض الأحيان . وهذا ما يجعل هذه العبادة قريبة من (الطوطمية) ⁴ .

ولقد لعبادة أثر كبير في نظام أصحابها الاجتماعي ، إذ هي تربط الأجيال الحاضرة بالأجيال الماضية بروابط متينة ، وتؤلف من أصحاب هذا الملعب وحدة قوية ، كما ان لها أثراً مهماً في الأسرة ، فهي في الواقع عبادة تخص الأسرة قبل كل شيء ⁵ .

ومعارفاً عن عبادة السلف عند الجاهليين قليلة ، ويمكن أن نستنتج من أمر الذي يتسوية القبور ونهيه عن اتخاذها مساجد ومواضع للصلاة ان الجاهليين كانوا يعبدون أرواح أصحاب هذه القبور ويتقربون اليها . ولعل في عبارة (قبر ونفس) أو (نفس وقبر) الواردة في بعض النصوص الجاهلية ما يؤيد هذا الرأي ، فإن النفس هي الروح .

ومن آثار عبادة السلف عند العلماء خلق الرأس وإحداث جسروح في الجسد واحتفالات دفن الموتى ولبس المسوح والعناية بالقبور والصلاة عليها أو إقامة شعائر دينية فوقها أو علامات خاصة بالميت أو الموتى للتقديس ⁶ . ونحسن اذا استعرضنا روايات الأخباريين تجد آثار هذه العبادة معروفة بين الجاهليين .

وقد أشار أهل الأخبار الى قبور اتخذت مزارات، كانت لرجال دين ولسادات قبائل يقسم الناس بها ، ويلوذون بصاحب القبر ويحتمون به ، كالذي كان من

Ency. Religi., I, p. 428.

Ency. Religi., Vol. I, p. 438. Crooks, Popular Religion, I, 179. Wilken, Hist

Animisme bij de Volken Indischen Archipel, 1884 - 1885, I, 74 ff.

Ency. Religi., I, p. 536. Taylor, Primitive Cultures, II, p. 193.

Ency. Religi., I, p. 432.

Hastings, p. 300, Ency. Religi., I, p. 325. «Ancestor - Worship».

أمر ضريح (تميم بن مر) ، جد (تميم) ، وكذلك ذكره من أمر (اللات) من أنه كان رجلاً في الأصل ، اتخذ قبره معبداً ثم تحول الرجل الى صنم . ونجد في كتب الحديث نبأ عن بناء المساجد على القبور واتخاذ الصور فيها . وقد أشارت الى اتخاذ اليهود والنصارى قبور سادتهم وأوليائهم مساجد ، تقيموا فيها ، لذلك نهي أهل الاسلام من التشبه بهم في تعظيم القبور^١ ، كما نهي عن تكليل القبور وتخصيصها ، والتكليل رفع القبر وجعله كالكلية ، وهي الصوامع والقباب التي تبنى على القبور^٢ .

وأما Animism ، فهو اعتقاد بوجود أرواح مؤثرة في الطبيعة كلها Nature ، ولذلك يؤله كثيراً من المظاهر الطبيعية المرية وغير المرية منها ، لاعتقاده بوجود قوى هي فوق الطبيعة ، منها ما يكون في جسم ، وهو (النفس) Soul ، ومنها ما لا يكون في الأجسام وهو (الروح) Spirit^٣ . ويمكن تقسيم هذه العبادة الى ثلاثة أصناف : عبادة النفس ، نفس الإنسان أو الحيوان وخاصة منها عبادة الأموات Necrolatry ، وعبادة الأرواح Spiritism ، وعبادة الأرواح التي تحل في المظاهر الطبيعية ، إما بصورة مؤقتة وإما بصورة دائمة Naturism^٤ .

والآراء في هذه المعتقدات لا تزال في مراحلها الأولى ، وهي موضع جشش بين العلماء ، لأنها قائمة على أساس الملاحظات والتجارب التي حصلوا عليها من دراساتهم لأحوال المجتمعات البدائية فنود أمريكا ولقبائل افريقية وأسترالية ، ولا يمكن بالطبع حدوث اتفاق في الدراسات الاستقصائية المبينة على المشاهدات والملاحظات . وإذا كانت هذه الدراسات غير مستقرة وغير نهائية حتى الآن ، فقد صعب بالطبع تطبيقها على معتقدات العرب قبل الاسلام ، وزاد في هذه الصعوبة قلة معلوماتنا في هذه الأمور . وليس من الممكن في نظري أن نتوصل إلى نتائج علمية غير قابلة للأخط والرد في هذه الموضوعات في الزمن الحاضر ، بل ولا في المستقبل

١ صحيح مسلم (٦٦/٢) ، (باب النهي عن بناء المساجد على القبور واتخاذ الصور

فيها ، والنهي عن اتخاذ القبور مساجد) .

٢ اللسان (٥٩٥/١١) ، (كليل) .

٣ Schmidt, B. 24.

٤ Ency. Religi. I, p. 535.

القريب ، ما لم يحدث ما ليس في الحبان ، من العثر على نصوص دينية تكشف لنا عن عقائد الجاهليين .

ونستطيع ان نقول إجمالاً ان من الجاهليين من كان يدين بعبادة الأرواح على اختلاف طرقها ، ويؤمن بآثرها . وللعلماء من مفسرين ولغويين وغيرهم تفسير عديدة للروح ، نزيدنا كثيراً في معرفة آراء الجاهليين عنها ، كما ان للاختباريين قصصاً عنها وعن استقلالها وانفصالها عن الجسد بعد الموت وانصالها بالقبر وغير ذلك ، يمكن أن تكون موضوع دراسة قيمة لمن يريد التيسر في دراسة هذه الأمور .

عبادة الكواكب :

وقد رأى بعض العلماء ان عبادة أهل الجاهلية هي عبادة كواكب في الأصل . وان أسماء الأصنام والآلهة ، وإن تعددت وكثرت ، إلا انها ترجع كلها إلى ثلاث سماوي ، هو : الشمس والقمر والزهرة . وهو رمز لعائلة صغيرة ، تتألف من أب هو القمر ، ومن أم هي الشمس ، ومن ابن هو الزهرة . وذهبوا إلى أن أكثر أسماء الآلهة ، هي في الواقع نعتات لها ، وهي من قبيل ما يقال له الأسماء الحسنى لله في الاسلام .

وقد لفت الجرمان السهاويان : الشمس والقمر ، نظير الانسان اليها بصورة خاصة ، لما أدرك فيها من أثر في الانسان وفي طباعه وسحته وعمله ، وفي الجو الذي يعيش فيه ، وفي حياة زرع وحيواته ، وفي تكوين ليله ونهاره والقصود التي تمر عليه . فتوصل بعقله يوم ذلك إلى انه نفسه ، وكل ما يحيط به ، من فعل هذين الجرمن ومن أثر أجرام أخرى أقل شأنًا منها عليه . فسب إليها نحوه وتكوينه ويرمه وسقمه ، وحياة زرع وماشيتة ، ورسخ في عقله انه إن تقرب وتعبد لها ، ولبقية الأجرام ، فإنه سيرضيها ، وستغرق عليه بالنعم والسعادة والمال والبركة في البين ، فصار من ثم عابد كوكب .

ونجد في حكاية كيفية اعتدائه (ابراهيم) إلى عبادة إله واحد ، الواردة في سورة الأنعام ، تفسيراً لسب تعبد الانسان للأجرام السهاوية . (وإذ قال ابراهيم لأبيه آزر أتخذ أصناماً آلهة ؟ إني أراك وقومك في ضلال مبين . وكذلك نرى

ابراهيم ملكوت السماوات والأرض وليكون من المؤمنين . فلما جن عليه الليل ، رأى كوكباً ، قال : هذا ربي ، فلما أفل ، قال : لا أحب الآفلين . فلما رأى القمر بازغاً ، قال : هذا ربي ، فلما أفل ، قال : لئن لم يهتدي ربي لأكونن من الضالين . فلما رأى الشمس بازغة ، قال : هذا ربي ، هذا أكبر ، فلما أفلت ، قال : يا قوم إني بريء مما تشركون . إني وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين ^١ . فقد لفت ذلك الكوكب فطر ابراهيم ، وهره بحسن منظره وبلونه الزاهي الخلاب ، فتعبد له ، واتخذة رباً ، فلما أفل ، ورأى كوكباً آخر أكبر حجماً وأجمل منظراً منه ، تركه ، وتعبد للكوكب الآخر ، وهو القمر . فلما أفل ، ورأى الشمس بازغة ، وهي أكبر حجماً وأظهر أثراً وأبين عملاً في حياة الإنسان وفي حياة زرعه وحيوانه وجوته ومحيطه ، ترك القمر وتعبد للشمس ، فيكون قد تعبد لثلاثة كواكب ، قبل أن يهتدي إلى التوحيد ، هي القمر والشمس ، والمشتري أو الزهرة على ما جاء في أقوال المفسرين ^٢ .

ويشير القرآن الكريم في موضع آخر إلى عبادة الجاهليين للأجرام السماوية ، ولا سيما الشمس والقمر ، ففيه : « ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر ، لا تسجلوا للشمس ولا للقمر ، واسجدوا لله الذي خلقهن إن كنتم إياه تعبدون » ^٣ .

وهذه الأجرام السماوية الثلاثة هي الأجرام البارزة الظاهرة التي يهتد نظر الإنسان ، ولا سيما الشمس والقمر . والزهرة ، وإن كانت غير بارزة بروز الشمس والقمر ، غير أنها ظاهرة واضحة مؤثرة بالقياس إلى بقية الأجرام ذات مظهر جلاب ، ولون باهر خلاب ، وقد يكون هذا المظهر الجميل الأخاذ هو الذي جعلها ابناً للشمس والقمر في أساطير العرب الجنوبيين .

واعتبر الجاهليون القمر أباً في هذا الثالث ، وصار هو الإله المقدم فيه ، وكبير الآلهة . وصارت له منزلة خاصة في ديانة العرب الجنوبيين . وهذا ما حدا ببعض المشرقين إلى إطلاق ديانة القمر على ديانة العرب الجنوبيين على سبيل

١ الانعام ، الآية ٧٥ وما بعدها .
٢ تفسير الطبري (١٥٨/٧ وما بعدها) ، تفسير القرطبي ، الجامع (٢٥/٧) .
٣ فصلت ، الآية ٣٧ .

التغليب^١ ، وعلى اللغاب الى أن هذا المركز الذي يحتله القمر في ديانة العربية الجنوبية لا نجده في أديان الساميين الشماليين ، مما يصح أن نجعله من القروق المهمة التي تميز الساميين الجنوبيين عن الساميين الشماليين^٢ .

ويرجع أولئك المستشرقون هذا التباين الظاهر بين عبادة الساميين الجنوبيين وعبادة الساميين الشماليين وتقدم القمر على الشمس عند العرب الجنوبيين الى الاختلاف في طبيعة الأقاليم والى التباين في الثقافة ، ففي العربية الجنوبية يكون القمر هادياً للناس ومهدئاً للأعصاب ، وصحيراً لرجال القوافل من التجار وأصحاب الأعمال في الليل اللطيفة القمرية ، بعد حرّ شديد تبعه أشعة الشمس المحرقة ، فنشل الحركة في النهار ، وتجعل من الصعب على الناس الاشتغال فيه ، وتحت من يتعرض لأشعتها الوهاجة في عز الصيف القايظ . إنها ذات حم حم حقاً ، فلا عجب إذا ما دعيت بد (ذات حم) ، (ذات حم) ، (ذات الحميم) عند العرب الجنوبيين . ولذلك ، لا يستغرب إذا قدمه العرب الجنوبيون في عبادتهم على الشمس ، وفضلوه عليها . وإذا كانت الشمس مصيراً لنمو النباتات نمواً سريعاً في شمال جزيرة العرب ، فإن أشعة الشمس الوهاجة المحرقة تنقف نمو أكثر الزروع في صيف العربية الجنوبية ، وتسبب جفافها وانخفاف الورد والزهر في هذا الموسم ، فلا بد أن يكون لهذه الظاهرة أثر في العقيدة التي كوَّنت تلك الأساطير^٣ .

ويرى (هومل) أن ديانات جميع الساميين الغربيين والعرب الجنوبيين هي ديانة عبادة القمر أي أن القمر قبلها مقدم على الشمس ، وهو عكس ما نجده في ديانة البابليين . ويعمل ذلك بقاء الساميين الغربيين بدواً مدة طويلة بالغياس الى البابليين . وبلاحظ أيضاً أن الشمس هي أنثى ، وأما القمر فهو ذكر عند الساميين الغربيين ، وهو بعكس ما نجده عند البابليين^٤ .

والاسم الشائع للقمر بين الساميين ، هو : ورخ ، و (سن) (سين) ، وشهر . وشهر خاصة هو الاسم الشائع المستعمل للقمر في الكتابات الجاهلية التي

- | | |
|---|---|
| D. Nielsen, Die Altarabische Mondreligion. | ١ |
| Handbuch I, S. 213. | ٢ |
| Handbuch I, S. 213, Die Altarabische Mondreligion, S. 49, Die Sabäische Gott Ilmukah, S. I. | ٣ |
| Hommel, Grundriss, I, S. 85. | ٤ |

عثر عليها في العربية الجنوبية وفي النصوص التي عثر عليها في الحبشة، وفي الأقسام الشمالية الغربية من جزيرة العرب . ويلاحظ أن الصور التي ترمز إلى القمر مما عثر عليه في تلك النصوص هي متشابهة تقريباً ، ومطابقة في الشكل ، مما يدل على أن الأسطورة الدينية التي كانت في عجلة عبدة القمر عنه كانت متشابهة ومطابقة ومن أصل واحد . أما كلمة (قمر) ، فلم ترد حتى الآن في النصوص الجاهلية التي وصلت إلينا ، وهذا مما حل بعض المشرقيين على القول بأن هذه التسمية متأخرة^١ .

ويلاحظ أن النصوص العربية الجنوبية لا تسمي القمر باسمه دائماً في النصوص ، وإنما تشير إليه بكناه وصفاته في الغالب . ويظهر أن ذلك من باب التأدب والتجمل أمام رب الأرباب . ونجد هذا التأدب في مقام الأرباب عند جميع البشر ، فلا يخاطب الإنسان ربه كما يخاطب غيره من الإنس ، أي باسمه المعتاد ، لأنه الرب والآله ، وهو فوق الإنسان . وهو إذا خاطبه باسمه ، فلأنما يفعل ذلك على سبيل التودد والتقرب والتعجب إلى الرب ، فهو نوع من أدب التقرب إلى الآلهة .

ولما كان القمر هو الأب ، خاطبه المؤمنون به بـ (ودم أم) ، وبـ (أم ودم) ، أي (ود أم) ، و (أم ود) ، ولا غرابة في ذلك . فإذا كان القمر أباً للآلهة ، فليم لا يكون إذن أباً للإنسان عيده ، وهو في حاجة شديدة إليه ، حاجة العيد إلى سيده والولد إلى والده ؟

ودعوه أيضاً بـ (عم) ، ولم لا ؟ أليس العم في مقام الأب ؟ ثم إن العرب لا تزال تخاطب الكبير بـ (عم) دلالة على تقديره واحترامه ، فليس بغريب إن نادى المؤمنون إلههم القمر : يا عم ! يرحمهم وليسارك فيهم ، إن في هذا النداء تقرباً وتواضعاً وشعاراً يضعف السائل تجاه المخاطب^٢ .

والأب عند العرب كل من كان سبباً في إيجاد شيء أو إصلاحه أو ظهوره . ويقوم العم عندهم مقام الأب . وللملك سمي مع الأب الأبوين^٣ . وقد عثر على أشعاب وأحجار حفرت عليها أسماء ود ، أو جمل (ودم

Handbuch, I, S. 214.

Handbuch, I, S. 214.

المفردات في غريب القرآن ، للأغني الأصفهاني (ص ٤ وما بعدها) ، مادة أب في كتاب الألف .

ايم) ، أو (ايم ودم) ، وذلك فوق أبواب الهيكل ، لتكون في حمايته ولتبرك باسمه ولتتبع به ، كما وجدت كلمة (ود) محفورة على أشياء ذات نقوش ، تعلق على عتق الأطفال لتكون تيمنة وتمويلة بتبرك بها . فعلوا ذلك كما يفعل الناس في الزمن الحاضر في التبرك بأسماء الآلهة ولتتبع بها لمنحها الحب والبركة والخيرات .

ونعت القمر بـ (كهان) ، أي (الكهل) في نصوص المسند ، وفي نصوص عثر عليها في الأقسام الشمالية من العربية الغربية . وتعني لفظة (كهان) ، القدير والمقتدر والعزيم^١ . وهي من نعوت هذا الإله .

ونعت بنعوت أخرى ، مثل (حكيم) ، أي (حكيم) و (حاكم) و (صادق) أي (صديق) و (صادق) ، و (علم) ، أي (عليم) و (عالم) و (علام) ، وبنعوت أخرى عديدة من هذا القبيل ، وهي من نوع (الأسماء الحسنى) فه عند المسلمين . نرى الإله إلهاً قديراً قوياً عالماً حامياً مساعداً لأبنائه المؤمنين به . يحبهم حباً الأب الشفيق لأبنائه الأحرار .

والإله (القمر) ، هو الإله (الملقه) عند السبئيين . وهو إله سبأ الكبير . وهو (هم) عند القتيانيين . كما سأحدث عن ذلك في أصنام الكتابات ، وهو ود^٢ عند اللعيتين و (سن) (سين) ، عند الحضارمة .

وانخذ الثور من الحيوانات رمزاً للقمر ، ولذلك عُدَّ الثور من الحيوانات المقدسة التي ترمز إلى الآلهة . ونجد هذه الصورة مرسومة في النصوص الليثانية والشمودية وعند غير العرب من الشعوب السامية . وقد نص على اسمه في الكتابات ، إذ قيل له (ثور)^٣ .

وقد ذكر (الألومي) ، أن عبدة (القمر) ، اتخذوا له صنماً على شكل عجل ، ويبد الصنم جوهرة يبدونه ويسجدون له ويعصمون له أياماً معلومة في كل شهر ، ثم يأتون إليه بالطعام والشراب والقرح والسرور . فإذا فرغوا من الأكل أغلوا في الرقص والغناء وأصوات المغازف بين يديه^٤ . ولم يشر إلى اسم الجاهليين الذين فعلوا ذلك . فلعله قصد عبدة القمر بصورة عامة من العرب وغيرهم .

^١ Halevy 237, Chrestoma. 91, 97, Grundriss, I, S. 126, Glaser, 284.

^٢ Glaser 1544, Wiener Museum 5, Handbuch, I, S. 214.

^٣ بلوغ العرب (٢١٦/٢) .

وذهب بعض الباحثين إلى احتمال كون (الحبة) تمثل الإله القمر ، وهي تمثل الروح أيضاً عند بعض آخر^١ .

والشمس ، هي من أول الأجرام السماوية التي لفتت إليها أنظار البشر بتأثيرها في الإنسان وفي الزرع والماء . وهذا التأثير البارز جعل البشر يتصور في الشمس قدرة خارقة وقوة غير منظورة كاملة فيها ، فعبدها وألّتها ، وشاد لها المعابد ، وقدم لها القرابين . وهي عبادة فيها تطور كبير ورتي في التكبير إذا قيست بالعبادات البدائية التي كان يؤديها الإنسان للأشجار والنباتات والأرواح .

وقد تبع العرب للشمس في مواضع مختلفة في جزيرة العرب . وترجع عبادتها إلى ما قبل الميلاد ، في زمن لا نستطيع تحديده ، لعدم وجود نصوص لدينا يمكن أن تكشف لنا عن وقت ظهور عبادة الشمس عند العرب . وعبدها أقوام آخرون من غير العرب من الساميين ، مثل البابليين والكتعاتيين والعبرانيين . وقد أشير في مواضع عديدة من العهد القديم إلى عبادة الشمس بين العبرانيين ، وجعل الموت عقوبة لمن يعبد الشمس . ومع ذلك ، عبدت في مدن يهوذا . وقد اتفقت جملة مواضع لعبادة الشمس فيها عرفت به (بيت شمس) Beth Shemeah^٢ .

والشمس أنثى في العربية ، فهي إلهة ، أما في كتابات ندمر فهي مذكرة ، ولذلك فهي إلهة ذكر عند الندمريين . ويرى (ولهاوزن) Wellhausen أن ذلك حدث بمؤثرات خارجية^٣ . وكانت عبادة الشمس شائعة بين الندمريين . وورد في الكتابات التي عثر عليها في (حوران) أسماء أشخاص مركبة من شمس وكلمة أخرى ، ويدل على ذلك شيوع عبادتها عند أهل تلك المنطقة . وذكر (سترابو) أن Helios أي الشمس ، هي الإله الأكبر عند الثيبس . ولكن الكتابات الببطية لا تؤيد هذا الرأي . والإله الأكبر فيها هو (اللات) . فلهذا (سترابو) قصد به Helios اللات . وإذا كان هذا صحيحاً ، فتكون اللات هي الشمس .

والشمس من الأصنام التي تسمى بها عدد من الأشخاص ، المعروفوا به (عبد شمس) . وقد ذكر الأغنياريون أن أول من تسمى به سبأ الأكبر ، لأنه أول من عبد

Arabien, S. 269.

Hastings, p. 880, Die Araber, III, S. 126. ff.

Beate, S. 60 Waddington 2569, 2587, Vogae, Palmyr., 2, S. 19.

75, 114, 125. Beate, S. 63.

الشمس ، فدعي بـ (عبد شمس)^١ . وقد ذكر ابن أبي نعيم تعبدت له ، وكان له بيت ، وكانت تعبد بنو أدّ كلها : ضبّة ، ونعيم ، وعديّ ، وعطّل : وثور ، وكان مدفنه من بني أوس بن مخاشن بن معاوية بن شريف بن حروة ابن أسيد بن عمرو بن نعيم ، فكسره هند بن أبي أهالة وصفوان بن أسيد بن الحلال بن أوس بن مخاشن^٢ .

وذكر أن (عبد شمس) ، اسم أضيف الى شمس السماء ، لأنهم كانوا يعبدونها . والنسبة (عشمي)^٣ .

وكانت العرب تسمي الشمس (الإلهة) تعظيماً لها ، كما يظهر ذلك من هذا الشعر :

تروحننا من اللعياء قسراً فأصبلنا الإلهة أن تؤولنا
على مثل ابن مينة فالنعياء تشق نواعم البشر الجيوباً^٤

ويقال لها (لاهة) بغير ألف ولام .

وعرفت الشمس بـ (ذكاه)^٥ عند الجاهليين . وقد تصور أهل الجاهلية الصبح ابناً للشمس تارة ، وتصوروه تارة حاجباً لها . فقبل حاجب الشمس ، وقيل يقال للصبح ابن ذكاه لأنه من ضوئها^٦ .

وكانوا يستقبلون الشمس ضحى . ذكر (الأمتع) الليثي ، أنه خرج إلى والده ، فوجده جالساً مستقبل الشمس ضحى^٧ . وإذا تذكرنا ما أورده أهل الأخبار عن

١ متتبعيات (ص ٥٧) .

٢ المحبر (٣١٦) .

٣ تاج العروس (١٧٢/٤) ، (شمس) .

٤ ينسب هذا الشعر لمية بنت أم عتبة بن الحارث ، وقيل لبنت عبد الحارث اليربوعي وقيل : لبنت عتبة بن الحارث ، وقيل لام البنين بنت عتبة بن الحارث ، تاج العروس (٣٧٤/٩) ، اللسان (٦٣٠/١٧) ، تاج العروس (٥١٠/٩) ، (لا) ، (تروحننا من اللعياء قسراً) ، ابن الأجدابي اللازمة والانواء (٧٩) .

٥ بالغسم

٦ تاج العروس (١٣٧/١٠) ، (ذكو) .

٧ الإصابة (٥١/١) ، رقم (١٢١) .

صلاة الضحى ، وهي صلاة كانت تعرفها قریش ، ولم تنكرها ، أمكننا الربط بين استقبال الشمس ضحى وبين هذه الصلاة .

وقد لاحظ بعض السياح ان آثار عبادة الشمس والقمر لا تزال كاملة في نفوس بعض الناس والقبائل، حيث تنجل في تقدير هذين الكوكبين وفي تأييد من يطاول عليها بالشتم أو بكلام مسيء وفي تعظيمها من بين سائر الكواكب تعظيماً يشهد إلى انه من بقايا الوثنية القديمة على الرغم من إسلام أولئك المعظمين^١ .

وبلى الشمس والقمر (الزهرة) ، وهي ذكر في النصوص العربية الجنوبية ، ويسمى (عثر) . وهو بمثابة (الابن) للشمس والقمر . وهذا الثالث الكوكبي يدل ، في رأي الباحثين في أديان العرب الجنوبيين ، على أن عبادة العربية الجنوبية هي عبادة نجوم . وهو يمثل في نظرهم عائلة إلهية مكونة من ثلاثة أرباب، هي : الأب وهو القمر ، والابن وهو الزهرة ، والأم وهي الشمس .

وإذا كان القمر هو الأب وكبير الآلهة الثلاثة ، صار اسمه في مطلعة من يذكر اسمه من الآلهة في النصوص ، وصارت له كفى ونعوت كثيرة لا تجارها في الكثرة نعوت الآلهة الأخرى، وبه تسمى أشخاص كثيرون . وهذا ما حدا ببعض المشرقين على إطلاق ديانة القمر على ديانة العرب الجنوبيين على سبيل التغليب . وهذا المركز الذي يحتله القمر في ديانة العرب الجنوبية ، لا نجده في أديان الساميين الشماليين عن الساميين الجنوبيين^٢ . كما يصح اعتبار تذكير (الزهرة) (عثر) عند العرب الجنوبيين ، من جملة الفروق التي نراها بين ديانة سكان العربية الجنوبية وديانات الساكنين في شمال العربية الجنوبية ، فإن (الزهرة) هي أنثى عندهم .

وعيد بعض أهل الجاهلية أجراماً سماوية أخرى، وتقربوا إليها بالنذور والصلوات . ففي كتب الأخباريين ان طائفة من تميم عبدت (الدبران) ، وان (العيوق) في زعمهم (عاتق الدبران لما ساق إلى الربا مهراً ، وهي نجوم صغار نحو عشرين نجماً ، فهو يتبعها أبداً غاملاً لها ، ولذلك سموا هذه النجوم القلاص)^٣ .

Handbuch, I, S. 190, 200, 203, W. Gifford Palgrave, Narrative of a Year's Journey through Central and Eastern Arabia, London, 1868, 250.
A. Grahmann, Arabien, S. 81.
Handbuch, I, S. 212.
بلوغ الأرب (٢ / ٢٢٦) . ابن الأجدابي ، الإلمنة والأنواء (٧٦) .

وفي كتبهم أيضاً ان بعض قبائل لحم وخزاعة وحبر وقريش عبدوا (الشعرى العبور) ، وان أول من سن ذلك لهم ، وأدخل تلك العبادة اليهم (أبو كبشة) . وهو (جزء بن غالب بن عامر بن الحارث بن غبشان الخزاعي) ، أو (وجز ابن غالب) ، وهو من خزاعة ثم من بني غبشان ، أحد أجداد النبي من قبل أمهاته . خالف قريشاً في عبادة الأصنام وعبد الشعرى العبور . وكان (وجز) يقول : إن الشعرى تقطع السماء عرضاً ، فلا أرى في السماء شيئاً ، شمساً ولا قرناً ولا نجماً ، يقطع السماء عرضاً . والعرب تسمي الشعرى العبور ، لأنها تعبر السماء عرضاً ، ووجز هو أبو كبشة الذي كانت قريش تنسب رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، إليه ، والعرب تظن ان أحداً لا يعمل شيئاً إلا يعرق بزرعه شبهه ، فلما خالف رسول الله صلى الله عليه وسلم ، دين قريش ، قالت قريش : نزرعه أبو كبشة ، لأن أبا كبشة خالف الناس في عبادة الشعرى . وكانوا ينسبون رسول الله صلى الله عليه وسلم إليه . وكان أبو كبشة سيداً في خزاعة ، لم يعيروا رسول الله صلى الله عليه وسلم به من تقصير كان فيه ، ولكنهم أرادوا أن يشبهوه بخلاف أبي كبشة ، فيقولون : وخالف كما خالف أبو كبشة^١ . وذكر (القرطبي) ان أول من عبد الشعرى (أبو كبشة أحد أجداد النبي صلى الله عليه وسلم ، من قبل أمهاته ، ولذلك كان مشركو قريش يسمون النبي ، صلى الله عليه وسلم ، ابن أبي كبشة ، حين دعا إلى الله وخالف أديانهم ، وقالوا : ما لقينا من ابن أبي كبشة ! وقال أبو سفيان يوم الفتح ، وقد وقف في بعض المضائق وعساكر رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، نحر عليه : لقد أمير^٢ أمر ابن أبي كبشة^٣ . وكان (الحارث) ، وهو (غبشان بن عمرو بن يزي بن ملكان) ، وبكنى أبا كبشة ، ممن عبد الشعرى^٤ .

و (الشعرى) Sirius هي المقصودة في الآية : « وإلهه هو رب الشعرى »^٥ . وكان ناس في الجاهلية يعبدون هذا النجم الذي يقال له الشعرى ، وهو النجم

- ١ الزبير ، كتاب نسب قريش (٢٦١ وما بعدها) ، تاج العروس (٢٤٢/١) ، (كبش) .
- ٢ تفسير القرطبي (١١٩/١٧) ، تفسير الطبرسي (١٨٣/٢٧) ، (١٨٣/٩) ، (طبعة طهران) ، المحبر (١٢٩) ، ابن سعد ، طبقات (١/١ ص ٣١) .
- ٣ المحبر (١٢٩) .
- ٤ النجم ، الآية ٤٩ .

الوقاد الذي يتبع الجوزاء ، ويقال له المرزم^١ . وقد كان من لا بعد الشعرى من العرب يعظمها ويعتقد تأثيرها في العالم^٢ .

وذكر بعض العلماء أن (الشعرى) كوكب نير يقال له المرزم ، ومطلوعه في شدة الحر . وتقول العرب إذا طلعت الشعرى ، جعل صاحب النحل يرى . وهما : (الشعران) : العبور ، والشعرى القميصاء . تزعم العرب أنها أختا سهيل . وصعدت طائفة من العرب الشعرى العبور . ويقال : إنها عبرت السماء عرضاً ، ولم يعبرها عرضاً غيرها . وسميت الأخرى القميصاء ، لأن العرب قالت في حديثها : إنها بكّت على أثر العبور حتى غمست^٣ .

والعرب تقول في خرافتها : إن سهيلاً والشعرى كانتا زوجين ، فالتحق سهيل فصار يمانياً ، فاتبته الشعرى العبور فعبرت المجرة فسميت العبور ، وأقامت القميصاء فبكّت لتفقد سهيل حتى غمست عيناه ، فسميت غميصاء لأنها أغضت من الأخرى^٤ .

ويلذكرون أن بعض طيء عبدوا (الثريا) ، وبعض قبائل دبيعة عبدوا (المرزم) ، وأن (كنانة) عبدت القمر^٥ . ويتبين من بعض الأعلام المركبة ، مثل : عبد الثريا ، وعبد نجم ، أن الثريا ونجماً ، كانتا صنين معبودين في الجاهلية^٦ . وقد ذهب بعض المفسرين إلى أن (النجم) المذكور في سورة (النجم) : (والنجم إذا هوى)^٧ : الثريا^٨ (والعرب تسمي الثريا نجماً)^٩ . وقال بعض آخر : وإن النجم ههنا الزهرة ، لأن قوماً من العرب كانوا يعبدونها^{١٠} .

- ١ تفسير الطبري (٢٧/٤٥ وما بعدها) ، تاج العروس (٤/٣٤١) ، (جوز) .
- ٢ القرطبي ، الجامع (١٧/١١٩ وما بعدها) .
- ٣ تفسير القرطبي (١٧/١١٩) .
- ٤ تاج العروس (٣/٣٠٥) ، (شعر) .
- ٥ تفسير القرطبي (١٧/١١٩ وما بعدها) .
- ٦ بلوغ الأرب (٢/٢٤٠) ، تاج العروس (٨/٣١١) ، (رزم) .
- ٧ Enoy. Religi. L. p. 86.
- ٨ سورة النجم ، الآية ١ .
- ٩ تفسير الطبري (٢٧/٢٤) .
- ١٠ تفسير القرطبي (١٧/٨٢ وما بعدها) .
- ١١ المصدر نفسه .

وعبد بعض الجاهليين (المريخ) ، والتخلوه إلهاً ، كما عبد غيرهم (سهيل) Canapus و (عطار) Markur و (الأسد) Lion و (زحل) .
وقد ذكر أهل الأخبار ، أن أهل الجاهلية يعملون فعلاً للكواكب حادثاً عنه .
فكانوا يقولون : مطرنا بنوء كذا وكذا ، وكانوا يعملون لها أثراً في الزرع وفي
الإنسان ، فأبطل ذلك الإسلام ، وجعله من أمور الجاهلية . جاء في الحديث :
« ثلاث من أمور الجاهلية : الطعن في الأنساب ، والنياحة ، والاستسقاء بالأنواء »^١ .
ومن مظاهر الشرك المتجلى في التعبد للأمور الطبيعية للتموسة ، عبادة الشجر ،
وهي عبادة شائعة معروفة عند الساميين . وقد أشار (ابن الكلبي) إلى نخلة
(نجران) ، وهي نخلة عظيمة كان أهل البلد يتعبدون لها ، (لها عيد في كل
سنة . فإذا كان ذلك العيد علقوا عليها كل ثوب حسن وجدوه وحلي للنساء ،
فخرجوا إليها يوماً وعكفوا عليها يوماً)^٢ . ومنها العزى وذات أنواط . يحدثنا
أهل الأخبار عن ذات أنواط ، فيقولون : (ذات أنواط : شجرة خضراء
عظيمة ، كانت الجاهلية تأتيها كل سنة تعظيماً لها ، فعلقوا عليها أسلحتهم وتلبيح
عندها ، وكانت قرية من مكة . وذكر أنهم كانوا إذا حجّوا ، يعقبون أردبتهم
عليها ، ويدخلون الحرم بغير أردبة ، تعظيماً للبيت ، ولذلك سميت (ذات أنواط)^٣ .
(وقد روي أن بعض الناس قال : يا رسول الله ، اجعل لنا ذات أنواط كما لهم
ذات أنواط)^٤ .

ونستطيع أن نقول إن آثار عبادة الشجر لا تزال باقية عند الناس . تظهر في
امتناع بعضهم وفي تبسّمهم من قطع بعض الشجر ، لاعتقادهم أنهم إن فعلوا ذلك
أصيبوا بآفة تنزل بهم ويحكروه سبحانه بهم . ولذلك تركوا بعض الشجر كالسدر
فلم يتعرضوا له بسوء^٥ .

وتعبد بعض أهل الجاهلية لبعض الحيوانات . فقد ورد أن جماعة الشاعر (زيد
الخليل) ، وهم من طيء ، كانوا يتعبدون لجمل أسود . فلما وفد وفداهم على

١ ابن الأثير - الأئمة والأنواء (١٣٦) .
٢ البلدان (٢٦٠ / ٨) ، (نجران) .
٣ البلدان (٣٦٣ / ٦) ، (أنواط) ، (نجران) ، (فوط) ، (الأزد) .
٤ رسالة الغفران (١٤٠ وما بعدها) .
٥ Graham, S. 82 .

الرسول ، قال لهم : « ومن الجمل الأسود الذي تعبدونه من دون الله عز وجل »^١ . وورد أن قوماً كانوا بالبحرين عرفوا به (الأسيليين) ، كانوا يعبدون الخيل^٢ . ذكر أنهم قسوم من المجوس ، كانوا مسلحة لحصن المشقر من أرض البحرين^٣ . فهم فرس . وأن بعض القبائل مثل (زياد) ، كانت تترك بالناقة^٤ .

الشفاعة :

والشفاعة من أهم مظاهر الشرك عند الجاهليين . وأقصد بالشفاعة هنا ، ما ورد في القرآن الكريم من تبرير أهل الجاهلية لتقربهم إلى الأصنام بأنهم ما يعبدون لها إلا لتقربهم إلى الله : « ويعبدون من دون الله مالا يضرهم ولا ينفعهم ، ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله »^٥ . « والذين اتخلوا من دونه أولياء . ما نعبدهم إلا ليقرّبونا إلى الله زلفى . إن الله يحكم بينهم في ما هم فيه يخلفون »^٦ . فهم يحاجون الرسول ، ويدافعون عن التقرب إلى الأصنام ، يقولهم : إنها تشفع عند الله ، فهي شفاعة ، فهم لا يعبدون الأصنام إذن ، ولا يشركون بالخالق ، وإنما هم يضرّيون إليه بها . فهي الوسطة بينهم وبين الله^٧ .

الأصنام :

ومن جملة ما كان يتوسط به الجاهليون لألفتهم ليكونوا شفعاء لهم عندها ، التماثيل المصنوعة من الفضة أو الذهب أو الحجارة الثمينة والخشب . ومن عاداتهم أنهم كانوا يدنون ذلك على الحجارة ، فيكتبون عدد التماثيل وأنواعها وأسماء الآلهة أو اسم الإله الذي قدمت له تلك الأشياء واسم الناظر ، ويشار إلى السبب الداعي

- ١ الألفاني (٤٧/١٦) . الإصابة (٥٥٥/١) . (رقم ٢٩٤١) .
- ٢ البلاذري ، فتوح (٨٩) . (البحرين) .
- ٣ التلسان (٤٩٣/٣) . (سبئ) .
- ٤ الألفاني (٩٣/١٥) . في أخبار أبي دواد الأيباني .
- ٥ سورة يونس ، الرقم ١٠ . الآية ١٨ .
- ٦ الزمر ، الآية ٣ .
- ٧ المفردات ، للأصفيهاني (٢٦٤) .

إلى ذلك ، كان يذكر بأن أصحابها توسلوا إلى الإله أو الآلهة المذكورة برجائهم التي طلبوه ، فأجيبوا مطالبهم ، ولذلك قدموا هذه التلويح ، فهي وفاة لدين استحق عليهم بسبب ذلك النار وتلك الشفاعة .

ولا بد لنا من الإشارة هنا إلى أن الأصنام كانت تدافع عن قبائلها وتلب عنها وتحامي عنها في الحرب ، كما يدافع سيد القبيلة عن قبيلته ، وإن أبناء القبيلة أبنائها وأولادها ، ولذلك كانوا يقولون عنها (أب) (أب) في كتاباتهم ، ويكنون عن أنفسهم (أبناء الصنم ...) . وفي الشعر الجاهلي أمثلة عديدة تشير إلى اعتقاد القوم باشتراك آلهتهم معهم في الحرب وفي انتصارهم لهم . ففي الحرب التي وقعت بين (بني أنعم) و (بني غطفان) بشأن الصنم (يغوث) ، يقول الشاعر :

وسارَ بنا يغوثُ إلى مرادٍ فتأخرناهم قبل الصباح

وطبعي أن يعد أعداء القبيلة أعداء لصنم القبيلة ، وأعداء الصنم أعداء للقبيلة ، فأعداء الآلهة وأعداء القبيلة هم خصوم لا يمكن التفريق بينهم .

وفي معركة أحد ، وهي من المعارك الحربية المهمة التي جرت بين الإسلام والوثنية على مستقبل العرب الديني ، نادى أبو سفيان بأعلى صوته : « اعلِ هُبْلُ ! اعلِ هُبْلُ ! » ، ليعتد الحامية في تقوس الوثنيين ، وليستغيث بصنمه في الدفاع عن أتباعه المؤمنين به . أما المسلمون ، فاستجسوا بألقه ، إذ ردوا عليه ردّة قوية عالية : « الله أعل وأجل » . فقال أبو سفيان : « ألا لنا العزى ولا عزى لكم » ، فأجابه المسلمون : « الله مولانا ولا مولى لكم » .

وفي الحروب يحارب كل إله عن قبيلته ، ويجهد نفسه في الدفاع عنها في سبيل حصولها على النصر . ولهذا السبب كانت القبائل والجيش تحمل أوثانها أو صور آلهتها أو رموزها الدينية المقدمة معها في الحروب . تتبرك بها وتستمد منها العون والنصر . ولما حارب الأعراب الملك (منجارب) ملك آشور ، حلوا أصنامهم : (دبلت) (دبلات) Dibat ، و (دية) Daja = Daja

- ١ البلدان (٥٦٦/٨) .
٢ الطبري (٥٦٦/٢) . معركة أحد .

و (نوحيا) Nuhia و (ابريلو) Ebrillu و (عشر قمرية) Atar Kurumaia ، معهم لتدافع عنهم، وكتحارب معهم الآشوريين. ولكن الآشوريين غلبوهم وانتصروا عليهم وأخذوا غنائم وأسرى منهم ، كان في جملة هذه الأصنام المسكينة ، التي وقعت في الأسر وبقيت في أسرها إلى أن توفي (سنحاريب) وتولى ابنه (أسرحدون) الحكم ، فاسترضى الأعراب هذا الملك وجاءوا بهدايا كثيرة ، رجاء استرضائه لإعادة أصنامهم إليهم ، فرق على حالهم وأعاد إليهم تلك الأصنام البقية الحظ ، التي كتب عليها أن تسجن، وتمكنت من استئصال ربح الحرية من جديد^١. وسقطت أصنام الأعراب مرة أخرى في أسر الآشوريين ، وذلك في أيام (أسرحدون) ، فلما انقسم (ليلي) (ليل) Lalli ملك (يادي) (يادع) (يدي) (يدع) Jadi = Jadi إلى الثلاثين على حكم هذا الملك ، لحقت بهم الهزيمة ، وسقطت أصنامهم أسيرة في أيدي الآشوريين ، وأخذت إلى (نينوى) ، فلم يجد الملك (ليل) (ليلي) أمامه من سبيل سوى اللجوء إلى عاصمة الملك لاسترضائه ، حيث طلب العفو والصفح عما بدر منه ، فقبل (أسرحدون) منه ذلك ، وتأنى معه ، وأعاد إليه أصنامهم^٢.

وكان في جملة الأصنام التي شاء سواه طالعها الوقوع في أسر الآشوريين الصنم (اترسمين) (اترسمائين) (Atarsamin) (A-tar-sa-ma-a-in) - و (اتر) هو (عشر) ، فيكون المراد به (عشر السماء) عشر السماوات ، وبدل ذلك على أنه إله السماء . وكان قد وقع أسيراً في أيديهم أيام الملك (أسرحدون) ، فلما توفي الملك وانتقل عرشه إلى ابنه (أشور بانبال)، جاء Uadte العربي إليه ، وهو أحد سادات القبائل إلى الملك، وصالحه وأرضاه، فأعاد إليه أصنامهم ومنها الصنم المذكور^٣.

وطالما كان يمرض حل الحاربين أصنامهم معهم في الحروب إلى وقسوع تلك الأصنام في الأسر ، تقع كما يقع الإنسان في الأسر . بل يكون أسر الأصنام في نظرهم أشدّ وقعاً في نفوسهم من أسر الإنسان . إنها آفة تدافع وتحامي ، إنها

Mull, Deserta, p. 481, Reali, II, 8. 285, Thompson, Prisms of Esarhaddon and of Ashurbanipal, p. 20.

Mull, Deserta, p. 483, Reali, I, 8. 440, Rawlinson, The Five Great Monarchies of the Ancient Eastern World, Vol. II, p. 470 - 471.

Reali, I, 310, Schrader, KAT., 8. 434, Streck, Vorderasiatische Bibliothek, VIII 8. 72.

آلهة القبيلة كلها ، فأسرهم أسر القبيلة كلها ، فأسر الآلهة شيء كبير بالنسبة الى القبيلة . وقد أشرت الى استيلاء الآشوريين على أصنام قبائل (عربي) التي حاربتهم ، والى أخذها أسيرة الى أرض آشور ، والى مفاوضة الأعراب معهم على الصلح في مقابل إعادة تلك الأصنام اليهم . فلما أعيدت الأصنام الى أصحابها ، كتب الآشوريون عليها كتابة تخبر بوقوعها في الأسر ، وبانتصار آلهة آشور عليها ، لتكون تليقاً للمؤمنين بها ، يحذرهم من حرب ثانية توقع هذه الأصنام في أسر جديد .

وقد أشير الى (خيل الثلاث) في مقابل (خيل محمد) ، في شعر لأبي سفيان ابن الحارث بن عبد المطلب ، إذ قال :

لعمرك لاني يوم أحمل راية لتغلب خيل الله خيل محمد^١

ومن أمثلة العرب : (لا تفر حتى تفر القبة) ، أو (لا تفر حتى تفر القبة)^٢ . ويراد بالقبة : قبة الصنم ، أي خيمة الصنم التي تحمل مع المحاربين وتضرب في ساحة القتال ، ليطوف حولها المحاربون ، يشهدون منها العون والنصر . كما كانوا يستشيرون الأصنام عند القتال ، ويأخذون برأيها فيما تأمر به .

وحمل الأصنام مع القبيلة في ترحالها وفي حروبها وغزواتها يستلزم بذل عناية خاصة بها للمحافظة عليها من الكسر ومن تعرضها لأي سوء كان . وعند نزول القبيلة في موضع ما توضع الأصنام في منعتها ، وهي خيمة تقوم مقام المعبود الثابت عند أهل المدر . وتكون للخيمة سبب ذلك قدسية خاصة ، وللموضع الذي تثبت عليه حرمة ما دامت الخيمة فوقه ، وقد كانت معابد القبائل المتنقلة كلها في الأصل على هذا الطراز . ولم يكن من السهل على أهل الوبر تغيير طراز هذا المعبود ، واتخاذ معبد ثابت ، لخروج ذلك عن سنن الآباء والأجداد . ولذلك لم يرض العبرانيون عن المعبود الثابت الذي أقامه سليمان ، لما فيه من نيل للخيمة المقدسة التي كانت المعبود القديم لهم وهم في حالة تنقل من مكان إلى مكان .

واحتقاد القبائل أن أصنامها هي التي تجلب لها النصر والخسارة ، كان يؤدي في بعض الأحيان الى الإعراض عن الصنم المحبوب ونيله ، نتيجة لانهزام القبيلة ،

١ الإصابعة (٩٠/٤) ، (رقم ٥٣٨) .

٢ المشرق ، السنة ١٩٣٨ م ، (الجزء الاول) ، (ص ١١) .

إذ يتبادر الى ذهن تلك القبيلة أن تلك الهزيمة التي نزلت بها إنما كانت بسبب ضعف ربها واستكانته وعدم اقتداره في الدفاع عنها ، ولذلك تقرر الاستغناء عنه والفرجة الى رب "قوي" جديد . وقد يكون ذلك الرب هو رب "القوية المستصرة" ، أو رب قبيلة من القبائل التي عرفت بنفوقها في الحروب ، فيكون التوفيق حليف ذلك الرب . وهكذا الأرباب في نظر قبائل تلك الأيام كالناس لها حظوظ ، والحظ هو دائماً في جانب القوي .

وكان على كهنة صنم القبيلة المطلوبة إيجاد تفسير لعللة الهزيمة التي لحقت بعبدة ذلك الصنم ، والبحث عن علل يدافعون به عن الصنم ، ويلقون القوم فيه على أتباعه ، لتبرئة ذمته وإبعاد المؤمنين به عن الشك في قدرته وعظمته . فكان من أعللهم ، أن الهزيمة عقاب من الإله أرسله الى أتباعه لابتعادهم عن أوامره ونواهيهم ، ولعدم إطاعتهم أحكام دينه ، ولمخالفتهم آراء رجال دينهم وكهنته . ولن تنقش عنهم النكبة ، ويكتب لهم النصر ، إلا إذا تابوا وعملوا بأوامر الكهنة وأرضوا الآلهة ، وعملوا بما أوجبه شريعتهم عليهم . وهكذا يلوم الكهنة الناس ، دفاعاً عن آلهتهم التي خلقوها بأنفسهم ، وحماية لمصالحهم القائمة على استغلال تلك المخترعات ، التي نعتوها آلهة وأصناماً .

ولما كانت الآلهة آلهة قبائل ، كان نبذ الفرد لإلهه معناه نبذه لقبيلته وخروجه على إجماعها ، فلا يسع شخصاً أن يغير عبادة إله القبيلة إلا إذا خرج على قبيلته وتعبده لإله آخر . فإن تغيير عبادة الأفراد لأصنامهم في نظر قدماء الساميين أمر "إد" ، هو بمثابة تبديل الجنسية في العصر الحاضر . إن عبادة الأصنام عبادة موروثة يرثها الأبناء عن الآباء ، وليست بشيء اختياري ، فليس للرجل أن يختار الصنم الذي يريد به يحض مشيئة . إن الصنم دين وهو رمز لقبيلة ، والمحامى المدافع عن شعبه ، والرابطة التي تربط بين الأفراد ، فالخروج عليه معناه خروج على إرادة الشعب ، وتفكيك لوحده ، وهو مما لا يسمح به وإلا تعرض الناظر للعقاب .

نعم ، كان في إمكان أصحاب الكلمة والسيادة والرياسة تغيير أصنام القبيلة ، أو تبديل دينها ، كما سئرى فيما بعد . فهؤلاء هم سادة ، والناس تبع لسادتهم ،

وفي المثل : « الناس على دين ملوكهم » . لقد أضاف سادة أصناماً الى قبائلهم ، فعبدت وتمسك أنبايعهم بعبادتها ، وكأنهم قد تلقوا أوامره من السماء ، ونيلت قبائل بعض أصنامها ، بأمر من سادتها . ودخلت قبائل في الاسلام ، لدخول سيدنا فيه ، ودخلت أخرى قبل ذلك في النصرانية ، بتنصر سادتها ، بكلمة ألنعت الرئيس ، أو بعد محاربة ، أو بإللال من مرض قيل له انه كان ببركة ذلك الدين ، فدخل أنبايع في ذلك الدين من غير سؤال ولا جواب .

عبادة الأصنام :

ويتبين من طريقة روايات الأخباريين ان عبادة الأصنام كانت منتشرة انتشاراً واسعاً قبيل الاسلام ، حتى كان أهل كل دار قد اتخذوا صنماً في دارهم يعبودونه . « فإذا أراد الرجل منهم سفراً ، تمسح به حين يركب ، فكان ذلك آخر ما يصنع حين يتوجه الى سفره ، وإذا قدم من سفره تمسح به ، فكان أول ما يبدأ به قبل أن يدخل على أهله »^١ . وقد كان أشق شيء في نظر قريش نبذ تلك الأصنام وتركها وعبادة إله واحد « وعجبوا ان جاءهم منذر منهم وقال الكافرون هذا ساحر كذاب . أجعل الآلهة إلهاً واحداً ، ان هذا لشيء عجاب . وانطلق الملأ منهم ان امشوا واصبروا على آلتكم ان هذا لشيء يراد . ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة ان هذا إلا اختلاق »^٢ .

يقول ابن الكلبي : « واشتهرت العرب في عبادة الأصنام فمنهم من اتخذ بيتاً ، ومنهم من اتخذ صنماً . ومن لم يقدر عليه ولا صلل بناء البيت ، نصب حجراً أمام الحرم وأمام غيره مما استحس ، ثم طاف به كطوافه بالبيت ... فكان الرجل إذا سافر فنزل منزلاً ، أخذ أربعة أحجار ، فنظر الى أحسنها فاتخذها رباً ، وجعل ثلاث أناني لغيره . فإذا ارتحل تركه ، فإذا نزل منزلاً آخر ، فعل مثل ذلك . فكانوا ينحرون ويلبسون عند كلها ويضربون اليها »^٣ . وروي أنه لم يكن شيء

١ ابن هشام (٦٤/١) « هامش الروض » ، ابن هشام (٨٤/١) ، الأصنام (٣٢) .
خزانة الادب (٢٤٥/٣) .
٢ سورة ص . الآية ٤ وما بعدها .
٣ الأصنام (٣٣) .

من أحياء العرب إلا وله صنم يعبد باسمه : « أنى بنى فلان . ومنه قوله تعالى : إن يدعو من دونه إلا إلهة^١ . والإناث كل شيء ليس فيه روح مثل الخشب والحجارة »^٢ . وقد كان المشركون يعبدون الأصنام^٣ ، ويسمونها بالإلهات من الأسماء كالثلاث والعزى وثالثة ومناة وما أشبه ذلك^٤ .

ولم يذكر (ابن الكلبي) العوامل التي دفعت بعيدة الأحجار إلى اختيار أربعة أحجار من بين عدد عديد من الأحجار ، ثم اختيار حجر واحد من بين هـله الأحجار الأربعة المختارة . فقل أخذ هذا العدد من نظرية العناصر الأربعة التي وضعها الفيلسوف (إمپدوكليس) (Empedokles) (٤٩٠ - ٤٣٠ قبل الميلاد) . نظرية أن الكون قد تكون من عناصر أربعة هي : النار ، والماء ، والهواء ، والتراب ، فكانوا يختارون لذلك أربعة أحجار ، تمثل هـله القوى الأربع المكونة على رأي الناس في ذلك الوقت لأساس الكون ، ثم يختارون حجراً واحداً من بينها ليكون أجملها ، ليكون رمزاً لها ، وممثلاً للإله .

وقد كان من الجاهليين من يختار الأحجار الغريبة فيتعبد لها . فإذا رأوا حجراً أحسن وأصعب تركوا الحجارة القديمة وأخذوا الحجارة الجديدة . قال (ابن دريد) : « الحارث بن قيس : وهو الذي كان إذا وجد حجراً أحسن من حجر أخله فعبد . وفيه نزلت : أفرايت من اتخذ إلهه هواه^٥ . فهذه هي عبادة الأحجار عند الجاهليين .

ولدينا أمثلة عديدة تفيد أن كثيراً من الجاهليين كانوا يحتفظون في بيوتهم بأصنام يتقربون إليها كل يوم . ولا يعني ذلك بالطبع أن تلك الأصنام كانت أصناماً كبيرة منحوتة نحتاً فنياً ، بل كان أكثرها تماثيل صغيرة ، وبعضها أحجاراً غير منسقة ولا منحوتة نحتاً جيداً ، وإنما هي أحجار تمثل الصنم الذي يتقرب إليه المرء . روي أن (أهر بن سواء بن عدي السدوسي) ، كان له صنم يعبد ، فعمد إليه فآلقاه في بحر ، ثم جاء إلى الرسول فأسلم^٦ .

- ١ النساء . الآية ١١٧ .
- ٢ اللسان (٣٤٩/١٢) ، (صنم) .
- ٣ تفسير الطبري (١٧٩/٥ وما بعدها) ، روح المعاني (١٣٤/٥) .
- ٤ الاشتقاق (٧٦) .
- ٥ الإصابة (٢٢/١) .

وكان بين الجاهليين قوم كرهوا الأصنام وتألفوا منها ، رأوا أنها لا تنفع ولا تضر ولا تشفع ، فلم ينفروا إليها ، وقالوا بالتوحيد ، ومن هؤلاء (مالك بن النيهان) ، وهو من الأنصار ومن المسلمين الأولين الذين دخلوا في الإسلام من أهل (يثرب) ، و (أسعد بن زرارة)^١ .

وقد شك بعض المستشرقين في وجود أصنام عند العرب الجنوبيين^٢ ، ويظهر أن الذي حملهم على قول هذا القول ، هو ما رأوه من تعبد العرب الجنوبيين لإلهة منظورة في السماء هي الكواكب الثلاثة المعروفة ، فذهبوا إلى انتفاء الحاجة لذلك إلى عبادة أصنام ترمز إلى تلك الآلهة . وعندي أن في إصدار رأي في هذا الموضوع نوع من التسرع ، لأننا لم نعلم حتى اليوم بحفريات علمية عميقة في مواضع الآثار في العربية الجنوبية حتى نحكم حكماً مثل هذا لا يمكن إصداره إلا بعد دراسات علمية عميقة لمواقع الآثار ، فربما تكشف دراسات المستقبل عن حل مثل هذه المشكلات . إن الإسلام قد هدّم الأصنام وأمر بتعطيلها ، فذهبت معالمها ، إلا أنه من الممكن احتمال العثور على عدد منها ، لا زال راقداً تحت التربة ، لأنه من الأصنام القديمة التي دفنت في التربة قبل الإسلام بسبب دمار حل بالموضع الذي عهد فيه ، أو من الأصنام التي وصلت إليها أيدي الدم ، فطمست في الأثرية ، وعلى كل فالحكم في هذا الرأي هو كما ذكرت للمستقبل وحده ، وعليه الاعتماد .

والرأي اللانع بين الأخباريين عن كيفية نشوء عبادة الأصنام قريب من رأي بعض العلماء المحدثين في هذا الموضوع . عندهم أن الناس لم يتعبدوا في القديم وفي بادئ بدء للأصنام ، ولم يكونوا ينظرون إليها على أنها أصنام تعبد ، إنما صوروها أو نحتوها لتكون صورة أو رمزاً تذكرهم أو يذكرهم بالآله أو الآلهة أو الأشخاص الصالحين . فلما مضى عهد طوبل عليها ، نسي الناس أصلها ، ولم يعرفوا أمرها ، فاتخذوها أصناماً وعبدها من دون الله . ونحملنا روايتهم في بعض الأحيان على الاعتقاد أنهم كانوا يعتقدون بعقيدة المسخ ، كالذي رووه عن الصنمين إساف ونائلة من أنها « رجل وامرأة من جرهم » وأن إسافاً وقع عليها في الكعبة فسحقا^٣ ، وبالعقيدة التضمص كالذي رووه عن الصنم اللات من أنه كان إنساناً

١ طبقات ابن سعد (٤٤٨/٣) « صادر » .

٢ Arabian, 8. 247.

٣ الروض الأنف (٦٤/١) .

من ثقيف، فلما مات قال لهم عمرو بن لحي^١ : لم يمّت ، ولكن دخل في الصخرة. ثم أمرهم بعبادتها وأن يبنوا عليها بنبأاً يسمى الثلاث^٢ . أو كالذي رواه عن الأصنام ود وسواع ويغوث ويعوق ونسر، من أن هؤلاء كانوا تقرأ من بني آدم صالحين ، وكان لهم أتباع يقتنون بهم . فلما ماتوا قال أصحابهم اللين كانوا يقتنون بهم لو صورناهم كان أشوق لنا إلى العبادة إذا ذكرناهم ، فصوروهم فلما ماتوا ودب إليهم إبليس ، فقال إنما كانوا يعبدونهم وبهم يسقون المطر فعبدوهم^٣ .

وهذه العليقة هي التي خلقت للأخباريين جملة قصص عن وجود أرواح كامنة في تلك الأصنام ، كانت تتحدث إلى الناس ، وهي التي أوحى إليهم بذلك القصص الذي رواه بمناسبة أمر النبي بهدم الأصنام ، من خروج جن من أجوافها حيناً قام يهدمها المسلمون . وقد كان أولئك الجنة على وصفهم إنثاً ، والغالب أنهم على هيئة زنجيات شحطلات عجائز ، وقد ثرن شعورهن^٤ . وهي صور مرعبة ولا شك في نظر الناس ، ومن عادة الناس منذ القديم أن يمثّلوا الجنة على هيئة لساء طاعنات في السن مربعات .

والخوف من هذه الأرواح أو الجنة التي كانت تقيم في أجواف الأصنام على رأي الجاهليين ، حل بعض من عهد إليهم تحطيم تلك الأصنام على التهب من الإقدام على مثل ذلك العمل خشية ظهورها وقتكها بمن تجاسر عليها. وهذا الخوف هو الذي أوحى إليهم ولا شك برواية القصص المذكور .

ويمثل الصنم قوة عليا هي فوق الطبيعة ، وقد يظن أنها كامنة فيه^٥ . وتكون الأصنام على أشكال مختلفة ، قد تكون على هيئة بشر ، وقد تكون على هيئة حيوان أو أحجار أو أشكال أخرى. ولهذه الأصنام عند عابديها مدلولات وأساطير. وهي تصنع من مواد مختلفة ، من الحجارة ومن الخشب ومن المعادن ومن أشياء أخرى بحسب درجة تفكير عبادها وتأثرهم بالظواهر الطبيعية والتأثرات التي تحيط

١ البلدان (٣٦٠/٧) ، الثلاث .

٢ تفسير الطبري (٦٢/٢٩) .

٣ البلدان (٣٦٠/٧) ، الثلاث .

٤ Ency. Religi. ٧, p. 112.

بهم . وقد تستخدم عِشْبٌ خاصة تؤخذ من أشجار ينظر إليها نظرة تقديس واحترام في عمل الأصنام منها . ويتوقف صنعها على المهارة التي يبدئها الفنان في الصنع . ويعاود الفنان في العادة أن يعطيها شكلاً مؤثراً له علاقة بالأساطير القديمة وبالكائن الذي سيمثله الصنم . وقد يكون الصنم من حجارة طبيعية عيدها عن أجداده كأن يكون من حجارة البراكين ، وقد يكون من التيازك عيدها لظنسه بوجود قوة خارقة فيها .

ولعبادة الأصنام صلة وثيقة بتقديس الصور Images . وكذلك بصور السحر Magical Images . فكل هذه الأشكال الثلاثة هي في الواقع عبادة . ونعني هنا بتقديس الصور ، الصور المقدسة التي تمثل أسطورة دينية أو رجالاً مقدسين كان لهم شأن في تطور العبادة ، أو جاءوا بديانة ، وأمثال ذلك ، فأحب المؤمنون بهم حفظ ذكراهم وعلم نسيانهم أو الابتعاد عنهم ، وذلك بحفظ شيء يشير إليهم ويذكرهم بهم ، وهذا الشيء قد يكون صورة مرسومة ، وقد يكون صورة منحوتة أو مصنوعة على هيئة تمثال أو رمز يشير إلى ذلك المقدس . فالصور المرسومة إذن ، هي نوع من العبادة أيضاً ، ينظر إليها نظرة تقديس وإجلال .

ونجد في روايات أهل الأخبار عن منشأ عبادة الأصنام عند العرب ما يؤيد هذا الرأي ، فهناك رواية طريفة عن الصنم (سواع) تزعم أن سواعاً كان ابناً لثبث ، وأن يثوث كان ابناً لسواع ، وكذلك كان يعوق وثسر ، كلها هلك الأول صورت صورته وعظمت لموضع من الدين . ولما عهدوا في دعائه من الإجابة . فلم يزالوا هكذا حتى خلف الخلف ، وقالوا : ما عظم هؤلاء آباءنا إلا لأنها ترزق وتنفع وتضر ، واتخذوها آلهة . وهناك رواية أخرى تزعم أن الأوثان التي كانت في قوم نوح ، كانت في الأصل أشخاصاً صالحين من قوم نوح . فلما هلكوا ، أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا في مجالسهم التي كانوا يجلسون بها أنصاباً ، وسموها بأسمائها ، ففعلوا ، فلم تعبد ، حتى إذا هلك أولئك وتوسخ العلم بها عبت^١ .

Ency. Religi. Vol. 7, p. 110.

١ الروض الأنف (١ / ٦٢) ، تفسير الطبرسي (٥ / ٣٦٤) .

وهناك روايات عن أصنام جعلتها أشخاصاً مسخوها حجراً ، فعبدوا أصناماً ، وصاروا شركاء لله ، تعبد لها ، لأنها في نظرهم تنفع وتضر .
ونجد في أخبار فتح مكة أن الرسول حينما دخل الكعبة رأى فيها صور الأنبياء والملائكة ، فأمر بها فحيت. ورأى فيها ستين وثلاث مئة صنم مرسعة بالرصاص ، وهبل أعظمها ، وهو وجه الكعبة على بابها ، وإساف وثائلة حيث يتحرون ويلبسون ، فأمر بها فكسرت^١ .
أما هذه الصور ، فقليل أنها صور الرسل والأنبياء ، وبينها صورة (إبراهيم) وفي يده الأزام يستنضم بها^٢ .

الأصنام :

والصنم في تعريف علماء اللغة هو ما اتخذ إلهاً من دون الله، وما كان له صورة كالتمثال (مثال) ، وعمل من خشب ، أو ذهب ، أو فضة ، أو نحاس ، أو حديد ، أو غيرها من جواهر الأرض . وقال بعضهم : الصنم جثة متخذة من فضة ، أو نحاس ، أو ذهب ، أو خشب ، أو حجارة ، متقربين به إلى الله ، فالشرط فيه أن يكون جثة : جثة إنسان أو حيوان . وقيل : الصنم الصورة بلا جثة^٣ . وذكر أن الصنم ما كان من حجر أو غيره^٤ . وعرف بعضهم الصنم بأنه ما كان له جسم أو صورة فإن لم يكن له جسم أو صورة ، فهو وثن^٥ . و (الصنمة) ، الصورة التي تعبد^٦ . وقد كان (المطابق) صنماً من نحاس أجوف يكلعون من جوفه^٧ .

- ١ ابن الأثير (١٠٥/٢) ، (فتح مكة) ، امتاع الاسماع (٢٨٢/١ وما بعدها) .
- ٢ فترك عمر صورة إبراهيم عليه السلام ، حتى محاها عليه السلام ، امتاع الاسماع (٢٨٢/١) ، الروض الانف (٢٧٥/٢ وما بعدها) .
- ٣ اللسان (٢٤١/١٥) (٣٣٣/١٧) ، تاج العروس (٣٧١/٨) ، (٣٥٨/٩) ، (صنم) ، القاموس (١٤١/٤ ، ٢٧٤) ، الاشتقاق (٣٠٢) ، الاصنام (٥٢) .
- ٤ المفردات (٢٨٩) .
- ٥ الروض الانف (٦٢/١) .
- ٦ اللسان (٢٤٩/١٢) ، (صنم) ، (صادر) .
- ٧ اللسان (٢٤٩/١٢) ، (صنم) .
- ٨ المحبر (٣١٨) .

ووردت لفظة (صلم) في كتابات عمر عليها في أعالي الحجاز ، اسم علم لإله
ازدهرت عبادته بصورة خاصة بمدينة (تباء) . ويرجع بعض المستشرقين تاريخ
ازدهار عبادة هذا الصنم الى حوالي سنة (٦٠٠) قبل الميلاد . وقد ورد اسمه علماً
لأشخاص في الكتابات النحانية . ورمز عنه برأس ثور في كتابات قوم نمرود^١ .

وقد وردت كلمة (أصنام)^٢ و (أصناماً)^٣ و (الأصنام)^٤ و (أصنامكم)^٥
في القرآن الكريم ، بحسب مواقع الكلمة في الجملة .

وذكر علماء اللغة أن كلمة (صنم) ليست عربية أصيلة ، وإنما هي عربية
وأصلها (شنن) (شنم) ، ولكنهم لم يذكروا اسم اللغة التي عبرت منها . وترد
اللفظة في اللهجات العربية الجنوبية . وردت (صلمن) في نصوص المسند بمعنى
(صنم) و (تمثال) ، و (مثال)^٦ . ووردت في لهجات عربية أخرى . وهي
(صلمو) Salmo في لغة بني لزم ، ومعناها (صورة) . من أصل (صلم)
بمعنى (صور) . وتقابل (صلم) في العبرانية^٧ .

وقد ورد في قصص أهل الأخبار أن (بني حنيفة) عبدوا صنم من حبس،
فعبده دهرًا طويلاً ، ثم جاءوا فأكلوه ، فقال الشعراء في ذلك شعراً يعبرون به
(بني حنيفة) لأكلهم ربهم زمن المجاعة^٨ . وهو في رأيي من القصص التي
يضعه الخصوم في خصومهم للاستهزاء بهم .

Orimmo. 23. ١

الاعراف ، الآية ١٣٧ . ٢

الانعام ، الآية ٧٤ ، الشعراء ، الآية ٧٢ . ٣

ابراهيم الآية ٣٥ . ٤

الانبياء ، الآية ٥٧ . ٥

القاموس (١٤١/٤) ، اللسان (٢٤١/١٥) ، تاج العروس ، (٣٧١/٨) ، روح
المعاني (٢١٠/١٣) ، خزنة الادب (٢٤٤/٣) وما بعدها . ٦

(صلمن ذ صرقن وصلمتن ذ ذهبن) ، أي (تمثال من قصة ، وتمثالان من ذهب) ،
راجع المختصر في علم اللغة العربية الجنوبية القديمة ، لغويدي (١٩) . ٧

غرائب اللغة (١٩٣) . ٨

الاعلاق النفيسة (٢١٧) . ٩

الوثن :

وأما كلمة (وثن) ، فهي من الكلمات العربية القديمة الواردة في نصوص المستند. ويظهر من استعمال هذه الكلمة في النصوص مثل : (وليدين وثن درا بخرمم ذبصم صححم انثم وذكرم) ، أي (وليدين للوثن مرة في السنة ذمماً صحيحاً ، أني أو ذكراً)^١ . ان الوثن هو الذي يرمز الى الإله ، أي بمعنى الصنم في القرآن الكريم .

الصنم :

ويظهر من استعمال كلمتي (صلمن) (الصلم) (صلم) و (وثن) (الوثن) ان هناك فرقاً بين الكلمتين في نصوص المستند ، فإن كلمة (صلمن) تعني في الغالب تمثالاً يصنع من فضة ، أو من ذهب ، أو من نحاس ، أو من حجر ، أو من خشب ، أو من أية مادة أخرى ويقدم الى الآلهة لتوضع في معابدها تقرباً إليها ، لاجابتها دعاء الداعين بشغالهم من مرض أو قضاء حاجة ، أي انها تقدم تلوراً . أما الوثن ، فإنه الصنم في لغتنا ، أي الرمز الذي يرمز به الى الإله ، والذي يتقرب له الناس .

والوثن في رأي بعض العلماء ، لفظة مرادفة للصنم . وقال بعض آخر : (الم معمول من الخشب أو الذهب والفضة أو غيرها من جواهر الأرض صنم ، وإذا كان من حجارة ، فهو وثن)^٢ . وذكر بعض آخر ان الصنم ما كان له صورة جعلت تمثالاً ، والوثن ما لا صورة له . وقيل ان الوثن ما كان له جثة من خشب أو حجر أو فضة ينحت ويعد ، والصنم صورة بلا جثة . وقيل : الصنم ما كان على صورة خلقة البشر ، والوثن ما كان على غيرها . وقال آخرون : ما كان له جسم أو صورة ، فصنم ، فإن لم يكن له جسم أو صورة ، فهو وثن . وقيل : الصنم من حجارة أو غيرها ، والوثن ما كان صورة مجسمة .

١ المختصر ، لغويدي (١٨) .
٢ الاصنام (٣٣) ، (دول) ، تاج العروس (٣٧١/٨) ، (صلم) ، (٣٥٨/٩) ، (وثن) ، القاموس (١٤٩/٤ - ٢٧٤) ، اللسان (٣٣٣/١٧) ، خزائن الأدب (٢٤٤/٣ وما بعدها) ، سبائك الذهب (١٠١) .

وقد يطلق الوثن على الصليب وعلى كل ما يشغل عن الله^١ . وقال بعض آخر :
« يقال لكل صنم من حجر أو غيره صنم ، ولا يقال وثن إلا لما كان من غير
صخرة كالنحاس ونحوه^٢ » . وذكر بعض آخر : « أصل الوثن عند العرب ،
كل تمثال من خشب أو حجارة أو ذهب أو فضة أو نحاس أو نحوها ، وكانت
العرب تنصبها وتعبدها^٣ » .

وذكر علماء اللغة أن (الودع) وثن^٤ . ولم يذكرها شيئاً عنه غير ذلك .
وقد أطلق (الأعشى) على الصليب (الوثن) ، إذ قال :

تطوف العظاة بأبوابه كطوف النصارى بيت الوثن

(أراد بالوثن الصليب) . « قال عدي بن حاتم : قدمت على النبي ، صل
الله عليه وسلم ، وفي عنقي صليب من ذهب ، فقال لي : أفر هذا الوثن عنك ،
أراد به الصليب ، كما سماه الأعشى وثناً^٥ » .

فنحن إذن أمام آراء متباينة في معنى (الصنم) و (الوثن) . منهم من جعل
الصنم مرادفاً للوثن ، أي في معنى واحد ، ومنهم من فرق بينهما ، ومنهم من
جعل الصنم وثناً والوثن صنماً . والظاهر أن مراد هذا الاختلاف ، هو اختلاف
استعمال القبائل للكلمتين ، فلما جمع علماء اللغة معانيها ، وقع لهم هذا التباين
وحدث عندهم هذا الاختلاف في الرأي .

وترد في كتب الأدب واللغة لفظة (البعيم)^٦ . اسم صنم ، والتمثال من
الخشب ، وقيل الدمية من الصمغ^٧ . والمثال الشبه ، وما جعل مثلاً لغيره ،
والتمثال . وهو الشيء المصنوع مشبهاً بخلق وإذا قدرته على قدره . وذكر أنها
الأصنام . وفي هذا المعنى وردت في القرآن الكريم : (ما هذه الهائل ؟ أي

١ الترويض الانف (٦٢/١) .

٢ اللسان (٤٤٣/١٣) . (وثن) ، (صادر) .

٣ اللسان (٣٨٧/٨) . (ودع) .

٤ اللسان (٤٤٣/١٣) . (وثن) .

٥ البعيم ، كأمير .

٦ تاج العروس (٢٠٣/٨) . (البعيم) ، (الاصنام) (١٠٨) . (تكلمة) « روزا » .

الأصنام . وقوله تعالى : من محاريب وتماثيل ، هي صور للأنبياء ^١ . وذكر : التماثيل للأصنام ، والصور ، والشيء المصنوع مشبهاً بخلق من خلق الله . أي إنسان أو حيوان أو نبات ^٢ . ويعبر عن التمثال والمثال بلفظة (مثلن) في العرييات الجنوية . وردت في النصوص لمناسبة تقديم أصحابها تماثيل إلى الآلهة لتوضع في معابدها وقام لتلويح نذروها لها ^٣ .

و (الدبة) الصورة المنقشة من الرخام ، أو حطم من كل شيء ، أو الصورة عامة . والصنم ، والأصنام دمي . ومن أيمان الجاهلية : لا والدعي ، يريدون الأصنام ^٤ . وذكر أن (الدبة) ما كان من الصنع ^٥ .

و (البد) الصنم الذي يعبد ، فارسي معرب . عرب من (بت) بمعنى صنم ^٦ . وذكر أن (البد) ، بيت الصنم والتماثيل أيضاً ^٧ .

وقد اشتغل بعض أهالي مكة بصنع الأصنام . فكان (عكرمة بن أبي جهل) ممن يعملها بمكة ^٨ . وكان الأعراب إذا جاءوا مكة أو المواضع الحضرية الأخرى اشترؤا الأصنام منها للتعبد لها ^٩ .

هياة الأصنام :

وقد وصف (ابن الكلبي) ، وهو الراوية الرئيس والعالم الكبير بالأصنام هياة بعض الأصنام ، فذكر مثلاً أن الصنم (هبل) ، كان على صورة إنسان مكسور اليد اليمنى ، أدركته قريش فجعلت له يداً من ذهب ^{١٠} . فهو تماثيل إنسان اذن تحت من حجر أحمر أو وردي ، لا يستبعد أن يكون من عمل بلاد

١ تاج العروس (١١١/٨) . (مثل) .

٢ تاج العروس (١١١/٨) . (مثل) .

٣ Jamme 558, MaMo 301, Mahram, p. 34.

٤ تاج العروس (١٣٦/١٠) . (دمي) .

٥ الأصنام (١٠٨) . (تكلمة) .

٦ تاج العروس (٢٩٥/٢) . (بدد) . غرائب اللغة (٢١٨) .

٧ تاج العروس (٢٩٥/٢) . (بدد) .

٨ الأزرقي (٧٧/١) وما بعدها .

٩ الأزرقي (٧٨/١) .

١٠ الأصنام (٢٧) وما بعدها . الأزرقي (٦٨/١) .

الشام أو من عمل الفنانين اليونان ، واستورد من هناك ، فنصب في جوف الكعبة . استورده أحد سادة (مكة) وهو (عمرو بن لحي) على رواية أهل الأخبار ، أو غيره ، لما رأى فيه من حسن الصنعة ودقة النحت . فوضعه في موضعه . ولم يذكر أهل الأخبار سبب كسر اليد اليمنى للصنم ، هل كان ذلك بسبب حادث ، أو بسبب أسطوري . وأما (اللات) فصخرة بيضاء منقوشة ^١ ، في رواية أكثر الأخبار . وتمثال من حجر على رواية ^٢ . وأما العزى ، فهناك رواية تذكر أنها كانت صنماً ، أي تمثالاً ، ولكنها لم تعين صورته على نحو ما تحدثت عنها في الفصل الخاص بالأصنام . وأما (ود) فقد كان تمثال رجل كأعظم ما يكون من الرجال ، قد ذبر عليه حلتان ، متزر بحلة ، مرند بأخرى ، عليه سيف قد نقله ، وقد تنكب قموصاً ، وبين يديه حربة فيها لواء ، ووفضة فيها نبل ^٣ . وأما (سواع) ، فكان صنماً على صورة امرأة . ولا يستبعد أن يكون من بين الأصنام الباقية ما كان على صورة حيوان . فقد كان الصنم (نسر) يمثل النسر . وأقصد بالأصنام في هذا المكان أصنام المعابد ، أي الأصنام التي كان الناس يتقربون إليها بالتعبد والتذوق . وأما الأصنام الصغيرة ، وهي التماثيل التي كان يتعبدها لها الناس في بيوتهم أو يحملونها معهم في أسفارهم أو يحملونها معهم حيث ذهبوا تاركاً بها . فقد كانت كثيرة ، لا يخلو منها إنسان ، وكانوا يتقربون بها إلى الأصنام الكبيرة . وقد عثر المتقربون على عدد كبير منها ، وهي متفاوتة في الحجم وفي الروعة ودقة الصنع والانتقان .

عبادة الأصنام :

ونظريه (ابن الكلبي) ومن لف لفه من الأخباريين أن نسل اسماعيل بن إبراهيم لما تكاثرت بمكة حتى ضاقت بهم ، وقعت بينهم الحروب والعداوات ، فأخرج بعضهم بعضاً ، ففصحوا في البلاد الهامس للمعاش . وكان كلما ظعن من مكة ظاهن حل معه حجراً من حجارة الحرم ، تعظيماً للحرم وصيانة بمكة .

- ١ تفسير ابن كثير (٢٥٢/٤) وما بعدها .
- ٢ تفسير أبي السعود (١١٢/٥) .
- ٣ الأصنام (٥٦) ، (٣٥) ، (٥٦) ، (٥٦) .

فحببنا حلوا ، وضموه وظافوا به كطوافهم بالكعبة ، تيمناً منهم بها وصباية بالحرم وحباً له . وهم بعد يعظمون الكعبة ومكة ، ويعجبون ويعتفرون ، على لذت ابراهيم واسماعيل .

(ثم سلخ بهم الى ان عبدوا ما استحبوا ، ونسوا ما كانوا عليه ، واستبدلوا ابراهيم واسماعيل غيره ، فعبدوا الأوثان ، وصاروا الى ما كانت عليه الأمم من قبلهم ، وانتجشوا ما كان يعبد قوم نوح منها ، عسل لذت ما بقي فيهم من ذكرها ، وفيهم على ذلك بقايا من عهد ابراهيم واسماعيل يتسكون بها : من تعظيم البيت ، والطواف به ، والحج والعمرة ، والوقوف على عرفة ومزدلفة ، واهداء البدن ، والإهلال بالحج والعمرة ، مع إدخالهم فيه ما ليس منه)^١ .

فكان أول من غير دين اسماعيل ، فنصب الأوثان ، وسبب السابية ، ووصل الموصيلة ، وبحر البحيرة ، وحى الحامية ، عمرو بن ربيعة ، وهو لحي بن حارثة ابن عمرو بن عامر الأزدي ، وهو أبو خزاعة .

وكانت أم عمرو بن لحي ، فهيرة بنت عامر عمرو بن الحارث بن عمرو الجرهمي ، ويقال : قعة بنت مضاف الجرهمي^٢ .

وكان الحارث هو الذي يلي أمر الكعبة . فلما بلغ عمرو بن لحي ، غارعه في الولاية ، وقاتل جرهما بني اسماعيل ، فظفر بهم ، وأجلاهم عن الكعبة، ونظامهم عن بلاد مكة ، وتولى حجابة البيت بعدهم .

ثم إنه مرض مرضاً شديداً ، فقبل له : إن بالبقاء من الشام حنة إن أتيتها ، برأت . فأتاها ، فاستحم بها ، فبرأ . ووجد أهلها يعبدون الأصنام ، فقال : ما هذه ؟ فقالوا : تستقي بها المطر ، ونستصبر بها عسل العدو . فسأهم أن يعطوه منها ، ففعلوا . فقسد بهم مكة ، ونصيها حول الكعبة . ثم أخذ عمرو ابن لحي في توزيع الأصنام على القبائل ، وبذلك شاعت عبادة الأصنام بين الناس^٣ .

١ الاصنام (ص ٦ وما بعدها) ، ابن هشام (١ / ٨٢) ، الروض الأنف (١ / ٦١) .

٢ الأزرق ، أخبار مكة (١ / ٤٦) .

٣ الاصنام (ص ٦ وما بعدها) ، الاشتقاق (٢٧٦) ، البلدان (٨ / ٤٠٨ وما بعدها) .

(ود) ، مروج الذهب (٢ / ٢٢٧) ، (ذكر البيوت العظيمة ، والهيكل المشرفة) .

سبائك الذهب (١٠١) ، الروض الأنف (١ / ٦٤) ، البلدان (٤ / ٦٥٢ وما بعدها) .

(طهران ١٩٣٥) .

هذه رواية شهيرة معروفة بين الأخباريين عن منشأ عبادة الأصنام وانتشارها عند العرب . وفي رواية أخرى : « كان أول من اتخذ تلك الأصنام ، من ولد اسماعيل وغيرهم من الناس ، وسموها بأسمائها على ما بقي فيهم من ذكرها حين فارقوا دين اسماعيل ، هليل بن مدركة »^١ . فنسبت هذه الرواية اتخاذاً الأصنام الى هليل .

وهناك روايات أخرى في هذا المعنى تتفق مع الرواية الأولى من حيث الجوهر ولا تختلف معها إلا في بعض التفاصيل ، ففي رواية ابن (عمرو بن لحي) حيناً قدم (ماباً) من أعمال البلقاء ، وهي يومئذ بأبدي العالين ، ووجدتهم يتعبدون للأصنام ، سلّمهم أن يعطوه صنماً منها ليسر به الى أرض العرب ليعبدوه ، فأعطوه الصنم هبل ، فأخذوه ، وقدم به الى مكة فنصبه ، وأمر الناس بعبادته . فعينت هذه الرواية القوم الذين ذهب اليهم (عمرو بن لحي) ، وللوضع الذي نزل به ، وثبت اسم الصنم الذي أدخله منهم . وهي زيادات لم نجدها في كتاب الأصنام . غير ان تشابه عبارات هذه الرواية التي ذكرها (ابن هشام) مع رواية (ابن الكلبي) ، يدل على ان المتبع واحد ، وانما الاختلاف هو في ذكر بعض الفروع ، وفي اختصار بعض المواضع ، والإطناب في مواضع أخرى .

وفي رواية أخرى عن (ابن الكلبي) كذلك ، وهي في كتابه الأصنام ، ترجع أيضاً عبادة الأصنام الى عمرو بن لحي ، غير أنها تروي الخبر في صيغة أخرى ، فنقول :

« وكان عمرو بن لحي » ، وهو ربيعة بن حارثة بن عمرو بن عامر بن حارثة بن ثعلبة بن امرئ القيس بن مازن بن الأزد ، وهو أبو خزاعة ، وأمه فُهيرة بنت الحارث ، ويقال إنها كانت بنت الحارث بن مضااض الجرهمي ، وكان كاهناً . وكان قد غلب على مكة وأخرج منها جرهما ، وتولى مساندتها .

١ الأصنام (ص ٩) ، نسب عدنان وقحطان ، للميرد (٢٢ وما بعدها) ، المختصر في أخبار البشر ، لأبي الفداء (٩٤/١) ، ابن هشام (٧٨/١) ، (البياي) ، البلدان (٦٥٢/٤) ، (طهران) ، ابن خلدون (٦٨٦/٢) ، مروج الذهب (٥٦/٢ وما بعدها) ، (محمد محيي الدين عبد الحميد) ، أبو الفداء (٧٦/١) ، ابن هشام (ص ٦٢) ، حاشية على الروض الألف ، ابن هشام (٨٢/١) ، ديوان حسان (B. 11) ، (مرشغلند) ، ابن هشام (٧٨/١ وما بعدها ، ١٢٠) .

وكان له رأي من الجن، وكان يكنى أبا ثمامة ، فقال له : عجل بالمسير والظعن من ثمامة ، بالسعد والسلامة ! قال : جبر ، ولا إقامة .

قال : آيت خست جُدَّة ، تجد فيها أصناماً معسدة ، فأوردها ثمامة ولا تهاب ، ثم ادع عبادتها قاطبة .

فأتى شطاً دجلة ، فاستشارها ، ثم حملها حتى ورد ثمامة ، وحضر الحج ، فدها العرب الى عبادتها قاطبة .

فأجابه عوف بن عذرة بن زيد اللات بن ربيعة بن ثور بن كلب بن وبرة ابن تغلب بن حلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة ، فطع اليه ودّاً . فحمله الى وادي القُرى ، فأقره بدومة الجندل . وصلى ابنه عبد ودّ . فهو أول من سمي به ، وهو أول من سمي عبد ودّ ، ثم سمى العرب به بعد .

فهذه الرواية هي على شاكلة الرواية الأولى في منشأ عبادة الأصنام بين العرب قبل الاسلام بحسب رأي الأخباريين بالطبع ، سوى اختلافها عنها في المكان الذي أنشئت الأصنام منه . فهنا (جُدَّة) على ساحل البحر الأحمر ، وهناك البلقاء من أعمال الشام . والموضعان ، وإن كانا مختلفان موقعاً ، يتفقان في شيء واحد هو وقوعها على حدٍ مقصود ، يرده الأجانب منذ القدم للتجارة . فهل يعني هذا استيراد تلك الأصنام من الخارج ، من بلاد الشام أو من مصر ، وأنها كانت من عمل أهل الشام أو أهل مصر أو من عمل الروم أو الرومان ؟ وتذكر رواية أخرى أن (عمرو بن لحي) ، إنما جاء بالصنم (هبل) ، من (هيت) بالعراق حتى وضعه في الكعبة .

وعمر بن لحي هو على اختلاف الروايات أول من غير دين اسماعيل ، فنصب الأوثان ، وسب السابية ، ووصل الوصيلة ، وحى الحامي . فقأ عين عشرين بعبراً ، فصارت العادة أن يققأ عين الضحل من الإبل إذا بلغت الإبل ألفاً . فإذا بلغت ألفين ، فقتل العين الأخرى . وقد نسب اليه كلام طويل . وزعم له عمر مديد ، وقصص أخرجه من عالم الواقع الى عالم القصص والأساطير ، ورجع عصره الى أيام (العباسي) والى أيام (سابور ذي الأكتاف) . وذكر أن العرب

١ الأصنام (ص ٥٤ وما بعدها) .

٢ الأزدلي (٧٣/١ وما بعدها) ، الروض الأنف (٦٥/١) .

جعلته (رباً لا يتبدع لهم بدعة إلا اتخذوها شرعة ، لأنه كان يطعم الناس ويكسو في الموسم ، فربما تبحر في الموسم عشرة آلاف بدنة وكما عشرة آلاف حلة)^١ ، وذكروا أنه كان ملكاً على الحجاز ، وكان كبير الذكر في أيامه ، إلى غير ذلك من قصص يروونه عنه^٢ .

وذكر (المسعودي) ، أن (عمرو بن لحي) حين خرج إلى الشام ورأى قوماً يعبدون الأصنام ، فأعطوه منها صنماً فنصبه على الكعبة ، وأكثر من الأصنام ، وغلب على العرب عبادتها ، انمحت الحنيفية منهم إلا لأمماً ، فسج العقلاء في ذلك ، فقال (شحنة بن خلف) (شحنة بن خلف الجرمي) :

يا عمرو إنك قد أحدثت آفة شئ بمكة حول البيت أنصباها
وكان البيت رباً واحداً أبداً فقد جعلت له في الناس أربابا
لتعرفن بأن الله في مهمل سيصطنع دونكم بيت حجاباً^٣

وكان (عمرو بن لحي) كاهناً على ما يذكره أهل الأخبار^٤ ، وهو من (غزاة) ، التي انخرعت من اليمن . ثبت حكمه على مكة ، بعد أن انتزع الحكم من جرحم ، وغلب قومه عليها ، فصاروا يطيعونه ويتبعون ما يضعه لهم . وقد نسبوا إليه وضع بقية الأصنام ، مثل اللات واساف ونائلة ، فهو على رأي أهل الأخبار مؤسس هذه الأصنام التي بقيت إلى أيام النبي ، والتي سطمت بأمره عام الفتح ، وباستيلاء المسلمين على المواضع الأخرى .

وذكر أهل الأخبار أن (عمرو بن لحي) كان أول من غير تلبية (إبراهيم) . وكانت : (لييك لا شريك لك . لييك) ، فجعلها : (لييك اللهم لييك ، إلا شريك هو لك ، تملكه وما لك) ، وقد كان (إبليس) قد ظهر له في صورة شيخ مجدي على غير أصهب ، فسايره ساعة ، ثم لبى إبليس ، فلبى (عمرو) تليته حتى خدعه . فلبأها الناس على ذلك^٥ .

١ الروض الأنف (٦٢/١) ، البداية والنهاية (١٨٨/٢) .

٢ المختصر في أخبار البشر ، لابي القلاء (٩٤/١) .

٣ مروج الذهب (٢٩/٢) وما بعدها .

٤ مروج الذهب (٣٠٣/٢) .

٥ الأزدلي (١٢٦/١) وما بعدها ، (٢٦/١) وما بعدها ، ابن هشام (٧٩/١) وما بعدها .

وقد قيل إنه بلغ بمكة وفي العرب من الشرف ما لم يبلغ عربي قبله ولا بعده في الجاهلية مبلغه^١. ويظهر أنه كان من أصحاب الحول والبطان والجاء، ولذلك ترك هذا الأثر في روايات أهل الأخبار. واني أرى أنه لم يكن بعيد عهد عن الإسلام، وإلا لم تحفظت ذاكرة أهل الأخبار أخبارها عنه. والظاهر أنه كان كاهناً من الكهّان، ورجلاً كبيراً من رجال الدين.

وروي أن الرسول ذكر أن (عمر بن لحي بن قعدة) كان أول من غيّر دين اسماعيل، فنصب الأوثان، وسبب السائبة، ووصل الوصيلة^٢.

ولست أظن أن الرواة قد أقحموا اسم (عمرو بن لحي) في قصة انتشار الأصنام في جزيرة العرب اصحاً من غير أصل ولا لاسم، فلا بد من أن تكون للرجل صلة ما بعبادة الأصنام عند الجاهليين، ولا بد أن يكون من الرجال السليين عاشوا في عهد غير بعيد عن الإسلام، لا قبل ذلك بكثير كما يدعي الأخباريون، فما كان غيره ليصل إليهم على هذا النحو لو كان زمانه بعيداً عنهم البعد الذي تصوره. وأنا لا أستبعد احتمال شراء (عمرو بن لحي) للأصنام من بلاد الشام وبيعها بها إلى الحجاز، ونصبها لها في الكعبة وفي مواضع أخرى، لما وجدته من حسن صنعة النابيل في تلك البلاد ومن جودة حجارتها، فاشترى عدداً منها، لتنصب في المحجّات، فنسبت عبادة الأصنام إليه.

وزعموا أن (ابن أبي كيشة) : (جزء بن غالب بن عامر بن الحارث ابن غبشان الخزاعي)، كان ممن أدخل الشرك إلى العرب، ونحالف دين التوحيد. لقد ذكروا أنه دعا إلى عبادة (الشعري العبور)^٣.

ولست عبادة الأصنام والأوثان عبادة خاصة بالعرب، بل هي عبادة كانت معروفة عند غيرهم من الشعوب السامية، وعند غير الساميين، كما أنها لا تزال موجودة قائمة حتى الآن.

وكانت قريش تتعبد وتتقرب إلى أصنام قبائل أخرى، على شرط المثل، أي أن تتقرب تلك القبائل وتتعبد لأصنام قريش. فقد ذكر (السكري) أن قريشاً

١ أخبار مكة (٥٤) .

٢ الاستيعاب (١٢٠/١) .

٣ تاج العروس (٣٤١/٤) .

كانت تعبد صاحب كنانة ، وبنو كنانة يعبدون صاحب قريش^١ . وقد تمكنت قريش بفضل هذه السياسة الحكيمة من جمع أصنام العرب وضمها في الكعبة ، وهذا ما جعل القبائل تعظم هذا المجمع ، وتخرج إليه كل سنة مرة ، في موسم الحج ، بالإضافة إلى الأيام الأخرى من أيام السنة ، حيث تقع فيها العمرة . فرجحت من ذلك ربحاً معنوياً ومادياً ، وصارت مكة سوقاً مستقرة ثابتة ، يقصدها الناس في كل وقت .

الحلف بالأصنام والطواغيت:

ولعقيدتهم المذكورة في الأصنام ، كانوا يحلفون بها وبالطواغيت . والظاهر أن هذه العادة بقيت في نفوسهم حتى في الإسلام . فقد ورد في الحديث : « أنه قال من حلف بغير الله ، فقال في حلفه باللات والعزى ، فليقل : لا إله إلا الله »^٢ ، و « من حلف ، فقال في حلفه باللات والعزى ، فليقل : لا إله إلا الله »^٣ ، ومن قال لصاحبه : تعال أقامرك فليتعبدك^٤ . وكانت ألسنتهم تسبقهم ، لما اعتادته من زمن الجاهلية من الحلف بالأصنام^٥ .

-
- | | |
|---|----------------------------|
| ١ | المحبر (٢١٨) * |
| ٢ | إرشاد الساري (٣٧٧/٩) * |
| ٣ | تفسير ابن كثير (٢٥٣/٤) * |
| ٤ | تفسير ابن كثير (٢٥٣/٤) * |

الفصل الثالث والستون

أنبياء جاهليون

ويظهر من أخبار أهل الأخبار أن الجاهليين لم يعلموا من الأنبياء ، فقد ذكروا لهم أنبياء قالوا إنهم بشروا بالله وبدينه بن العرب الأول ، ومنهم (هود) نبي (عاد) ، و (صالح) نبي قوم ثمود . وقد أشير إليها في القرآن الكريم^١ . وزعموا أن رجلاً من بني (قطيعة بن عيس) كان نبياً كذلك ، ولم يكن في بني اسماعيل نبي قبله . وهو الذي أطلق الله به (نار الحرتين) . وكانت بيلاذ عيس . فإذا كان الليل فهي نار تسطع في السماء ، وكانت علياً تنفس بها لإبلها ، وربما تدرت منها (العنق) ، أي قطعة فتأتي على كل شيء فتحرقه . وإذا كان النهار فلأنما هي دخان يثور . فاحضر (عالم) لها بئراً ، ثم أدخلها فيها ، والناس ينظرون ، ثم اقتحم فيها حتى غيها . وذكروا أنه نجح في إخراجها ، وكان الناس يقولون : هلك الرجل ، فكذبهم ، وخرج سالماً . فلما حضرته الوفاة قال لقومه : إذا أنا مت ثم دفنتموني ، فاحضروني بعد ثلاث ، فإنكم ترون عبيراً أبيض يطوف بقمري ، فإذا رأيتم ذلك فالبشوني ، فإني أخبركم بما هو كائن إلى يوم القيامة . فاجتمعوا لذلك في اليوم الثالث ، فلما رأوا العبر وذهبوا يتبشونه ، اختلقوا ، فصاروا فرقتين ، وابنه عياد في القفة التي أبت أن تبشه ، وهو يقول : لا أفعل ! إني إذا ادعى ابن النبوش ! فتركوه .

١ سورة هود ، الآية ٥٣ ، ٦٠ ، ٨٩ . الشعراء ، الآية ١٢٤ ، صالح ، سورة الاعراف الآية ٧٧ ، هود ، الآية ٦٢ ، ٨٩ . الشعراء ، الآية ١٤٢ .

قال (الملاحظ) : والشكليون لا يؤمنون بهذا ، ويزعمون أن خالداً هذا كان
أعربياً وتبرياً ، من أهل (شرح) و (ناظرة) . ولم يبعث الله نبياً من الأعراب
ولا من القديسين أهل الوبر ، وهم أهل البادية . إنما يبعثهم من أهل القرى ،
وسكان المدن^١ .

ويظهر أنه عاش قبيل الإسلام . فقد ذكر أهل الأخبار أن ابنة له قدمت على
النبي ، فبسط لها رداءه وقال : هذه ابنة نبي ضيعه قومه . وذكروا أنها لما سمعت
سورة : « قل هو الله أحد » ، قالت : قد كان أبي يتلو هذه السورة^٢ .
وزعموا أنه هو الذي دعا على العتقاء ، فذهبت وانقطع نسلها^٣ .

ثم نبي آخر اسمه (حنظلة بن صفوان) ، كان نبياً بعثه الله إلى (أهل
الرمس) ، فكلبوه وقتلوه ، عاش في أيام (يخنصر) ، وقد نسب إلى حمير ،
وقيل إنه كان من أنبياء الفترة كذلك ، وإنه هو الذي دعا على العتقاء ، فانقطع
نسلها^٤ . وذكر بعض أهل الأخبار أن الله أرسل (حنظلة) إلى أهل عدن ،
فقتلوه^٥ .

وذكر أهل الأخبار اسم نبي أرسل إلى أهل (حضور) ، اسمه (شعيب بن
ذي مهزم) . فقتلوه ، فاستأصلهم (بخت نصر) ، وقبره به (صنين) جبل
باليمن^٦ .

وذكر أهل الأخبار أن (مسيلة بن حبيب الحنفي) ، كان ممن ادعى النبوة
بعكة قبل الهجرة ، وصنع أسجاعات^٧ . وكان قد طاف قبل النبي ، في الأسواق
التي كانت بين دور العجم والعرب ، يلتفون فيها للتسوق والبياعات ، كنحو
سوق الابل ، وسوق لقه ، وسوق الأنبار ، وسوق الحيرة . وكان يلمس تعلم
الحبل والبيترجات ، واختيارات النجوم والمنتهبين . وقد كان أحكم حيسل السدنة

١ الحيوان (٤٧٦/٤) وما بعدها .

٢ الحيوان (٤٧٧/٤) .

٣ (ذاك نبي أضاعه قومه) ، بلوغ الأرب (٢٧٨/٢) وما بعدها .

٤ اللسان (١٤٩/١٢) ، (عنق) ، تاج العروس (٤١٠/١) ، (عنق) .

٥ الروض الأنف (٩/١) .

٦ الروض الأنف (٩/١) .

٧ الحيوان (٨٩/٤) ، مسيلة بن غنامة بن كبير بن حبيب بن الحرث ، من بني
حنيفة ، ارشاد الساري (٤٣٤/٦) .

والخوواء وأصحاب الرجز والخط ، ومذهب الكاهن والعياف والسحر ، وصاحب
الجن الذي يزعم أن معه تابعه^١ .

وقد أحكم من ذلك أموراً . فمن ذلك ، أنه صب على بيضة من غلّ قاطع ،
حتى لان قشرها ، فأدخلها في قارورة ضيقة الرأس ، وتركها حتى جفت وبيست ،
وعادت إلى هيئتها الأولى ، فأخرجها إلى (جماعة بن مرارة بن سلمى الحنفي)
الباهلي ، وأهل بيته ، وهم أعراب ، وادعى بها أصبوية ، وأنها جعلت له آية ،
فأمن به من في ذلك المجلس : جماعة وغيره . ومن ذلك أنه كان قد حمل معه
ريشاً في لون ريش أزواج حمام ، وقد كان يراهن في منزل جماعة مقاصيص .
فالتفت ، بعد أن أراهم الآية في البيض ، إلى الحمام فقال لجماعة : إلى كم تعذب
خلق الله بالقص ؟ ولو أراد الله للطير خلاف الطيران لما خلق لها أجنحة ، وقد
حرمت عليكم قص أجنحة الحمام ! فقال له جماعة كالتعت : فسل الذي أعطاك
في البيض هذه الآية أن يثبت لك جناح هذا الطير الذكر الساعة ؟

قال مسيلة : فإن أنا سألت الله ذلك ، فأتته له حتى يطير وأنتم ترونه ،
أتعلمون أنني رسول الله إليكم ؟ قالوا : نعم . قال فلاني أريد أن أناجي ربي ،
وللمناجاة خلوة ، فأنهضوا عني ، وإن شئتم فادخلوني هذا البيت وادخلوه معي ،
حتى أخرجهم إليكم الساعة وإني الجناحين يطير . وأنتم ترونه ولم يكن القوم سمعوا
بتفريز الحمام ، وكانوا بسطاء لا يعرفون حيل المحتالين ، فلما خلا بالطائر أخرج
الريش الذي قد هبأه ، فأدخل طرف كل ريشة مما كان معه في جوف ريش
الحمام المقصوص ، من عند المقطع والقص . فلما غرز ريشه أخرجهم ، وأرسله
أمامهم من يده فطار ، واعتبروا عمله آية .

ثم أنه قال لهم : إن الملك يتزل إلى ، والملائكة تطير وهي ذوات أجنحة ،
ولجبي الملك زجل وخشخشة وقعقة ، فمن كان منكم ظاهراً قليدخل منزله ، فإن
من نأمل اختطف بصره ! ثم صنع راية من رايات الصبيان التي تعمل من الورق
الصيني ، ومن الكاغد ، وتعمل لها الأذنان والأجنحة ، وتعلق في صدورها
الجلجل ، وترسل يوم الريح بالخيوط الطوال الصلاب . ثم أرسلها مع الريح ،
وهم لا يرون الخيوط ، والليل لا يبين عن صورة الرق ، وعن دقة الكاغد ،

١ الحيوان (٣٦٩/٤ وما بعدها) ، المعارف (١٠٥)

فتوهموا أن ذلك الملائكة : وتصارخوا ، وصاح : من صرف بصره ودخل بيته فهو آمن ! فأصبح القوم وقد أطبقوا على نصرته والدفع عنه . فهو قوله :

بَيْضَةُ قَارُورٍ وَرَايَةِ شَادَنٍ وَتَوْصِيلُ مَقْصُوصٍ مِنَ الطَّيْرِ جَادِفٍ^١

وتنسب بعض أهل الأخبار (مسيلة) على هذا النحو : (مسيلة بن ثمامة ابن كبير بن حبيب بن الحارث بن عبد الحارث بن هقان بن ذهل بن الدول بن حنيفة)^٢ و (مسيلة الكذاب بن حبيب) ثمامة بن كبير ، وجعله بعضهم (مسيلة بن حبيب) . وجعلوا كنيته (أبا ثمامة) وقيل (أبا هارون) و (أبو ثماله)^٣ . وذكروا أنه كان يسمى بـ (الرحمان) قبل مولده (عبد الله) والد رسول الله ، وكانت قريش حين سمعت : بسم الله الرحمن الرحيم ، قال قائلهم : دق فوك ، إنما تذكر مسيلة رحمان اليامة^٤ . وذكروا أنه دعا إلى الرحمان ، أي إلى عبادة الرحمان . بينما عرف نفسه بـ (الرحمن) ، فقبل له : (رحمان اليامة)^٥ . وأنه دعا إلى عبادته هذه قبل النبوة ، وقد عرف أمره بمكة ، فلما نزل الوحي على الرسول ، قال أهل مكة إنما أخذ علمه من (رحمان) اليامة^٦ . وقالوا له : « إنا قد بلغنا أنك إنما تعلمك رجل باليامة يقال له الرحمن ، ولن نؤمن به أبداً » . فأنزل الله سبحانه : وهم يكفرون بالرحمن . قل : هو ربي . كان مسيلة بن حبيب الخنفي ، ثم أحد بني الدول قد تسمى بالرحمن في الجاهلية ، وكان من المعمرين . ذكر وثيمة بن موسى أن مسيلة تسمى بالرحمن قبل أن يولد عبدالله أبو رسول الله صلى الله عليه وسلم^٧ .

قال (الواحدي) في أسباب نزول الآية : « وهم يكفرون بالرحمن . قل :

- ١ الحيوان (٣٧١/٤ وما بعدها) ، المعارف (٤٠٥) .
- ٢ الروض الأنف (٣٤٠/٢) ، وفد بني حنيفة ، امتاع الاسماع (٥٠٦/١) ، البلاذري ، فتوح (٩٧) ، (اليامة) .
- ٣ الاشتقاق (٢٠٩) ، البلاذري ، فتوح (١٠٠) .
- ٤ الروض الأنف (٣٤٠/٢) ، اليعقوبي (١٢٠/١) .
- ٥ Shorter Ency., p. 418.
- ٦ Shorter Ency., p. 418.
- ٧ الروض الأنف (٢٠٠/١) .

هو ربي لا إله إلا هو عليه توكلت وإليه متاب^١ : وقال أهل التفسير :
 نزلت في صلح الحديبية ، حين أرادوا كتاب الصلح . فقال رسول الله صلى الله
 عليه وسلم ، اكتب : بسم الله الرحمن الرحيم . فقال سهيل بن عمرو والمشركون :
 ما نعرف الرحمن ، إلا صاحب البامة ، يعنون مسيلة الكلاب . اكتب باسمك
 اللهم . وهكذا كانت الجاهلية يكتبون ، فأزل الله تعالى فيهم هذه الآية^٢ .
 وذكر المفسرون في تفسير قوله تعالى : وإذا قبل لهم اسجدوا للرحمن . قالوا :
 وما الرحمن أنسجد لما تأمرنا به وزادهم نفوراً^٣ ، أن مسيلة كان يدعى
 الرحمن . فلما قال لهم النبي صلى الله عليه وسلم ، اسجدوا للرحمن قالوا : أنسجد
 لما يأمرنا الرحمن البامة يعنون مسيلة بالسجود له^٤ . أو أنهم قالوا : وما نعرف
 الرحمن إلا الرحمن البامة . يعنون مسيلة الكلاب^٥ .

ولا يعقل قول من قال ان مسيلة كان يعرف به (الرحمن) قبل ولادة
 (عبدالله) والد الرسول . أما انه كان أسن من الرسول فلا غرابة في ذلك ،
 ولكني لا أرى انه كان أكبر من الرسول بعشرات السنين . ومن الجائز ان يكون
 قد دعا الى عبادة (الرحمن) ، وهي عبادة كانت شائعة معروفة إذ ذاك ، في
 البامة وفي غير البامة ، فعرف بين قومه به (الرحمن البامة) ، وذلك قبل نزول
 الوحي على الرسول ، فسمع أهل مكة بدعوته .

وورد في رواية ان (أبا جهل) سمع (رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو
 في الحجير ويقول : يا الله يا رحمن . فقال : كان محمد ينهانا عن عبادة الآلهة ،
 وهو يدعو إلهم . فنزلت هذه الآية : قل ادعوا لله أو ادعوا للرحمن^٦ .
 وفي هذا الخبر إن صح ، دلالة على ان أهل مكة كانوا قد سمعوا بعبادة (الرحمن)
 وأنهم سمعوا ان قوماً من الجاهليين دعوا الى عبادته ، وان (أبا جهل) كان قد
 سمع قولهم ، ولهذا أخذ على النبي قوله : يا الله يا رحمن . ولا يعقل ألا يكون
 لأهل مكة علم بعبادة (الرحمن) ، التي تحدث عنها في موضع آخر ، وقد كان

- ١ الرعد ، الرقم ١٣ ، الآية ٣٠ .
- ٢ أسباب النزول (٢٠٥ وما بعدها) ، تفسير القرطبي (٣١٧/٩ وما بعدها) .
- ٣ الفرقان ، الآية ٦٠ .
- ٤ تفسير الطبري (١٩/١٩) ، روح المعاني (٣٦/١٦) .
- ٥ تفسير القرطبي (٦٤/١٣) .
- ٦ تفسير القرطبي (٣١٨/٩) .

لم اتصال باليمن وباليامة ومعظم أنحاء جزيرة العرب ، ولرى ان (مسيلمة) كان قد دعا الى عبادة الرحمن متأثراً بدعوة المتعبدين له ممن كان قبله على ما يظهر ، وهي عبادة إله اسمه (الرحمن) فعرف مسيلمة بـ (الرحمن) وبـ (رحمن اليامة) . وعبادة الرحمن ديانة متأثرة بفكرة التوحيد ، وبوجود إله واحد هو (الرحمن) رب العالمين .

وقد أشير الى موضع اسمه (وادي الرحمن) في الكتاب الذي أعطاه رسول الله الى (يزيد بن المحجل) الحارثي ، ورد فيه : (ان لهم غرة ومساقبها ووادي الرحمن من بين غابتها)^١ . ولا أشهد احتمال وجود صلة بين هذه التسمية وبين الرحمن الإله .

وقد وصف الرواة (مسيلمة) بأنه (كان قصيراً شديد العفورة أخشى الأنف أفطس)^٢ .

ويظهر من غربة ما ذكره أهل الأخبار عن (مسيلمة) أنه كان أكبر عمراً من الرسول . وأنه كان قد تكهن وتنبأ باليامة ووجد له أتباعاً قبل نزول الوحي على النبي . وأن أهل مكة كانوا على علم برسائله . ويذكر أهل الأخبار أن (مسيلمة) كان ابن مائة وخمسين سنة حين قتل^٣ . وهو عمر قد يولغ فيه ولا شك ، إذ لا يحقل أن يكون في هذه السن يوم قتل ، فقد كان فعالاً نشيطاً ، نشاطاً لا يمكن أن يظهر إلا من رجل قوي فعال ، هو دون المائة .

وكان (مسيلمة) يدعي أن معه رئيساً في أول زمانه ، ولذلك قال الشاعر حين وصفه :

بيضة قسارور وراية شادن وخلة جشي وتوصيل طائر^٤

وكان (مسيلمة) في جملة رجال (وقد حنيفة) الذي قصد الرسول ، وفيهم (رجال بن عترة) . لكنه — كما يقول الرواة — لم يلعب مع الوفد

- ١ ابن سعد ، طبقات (٢٦٨/١) ، (ذكر بعثة رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، الرسل يكتبه الى الملوك يدعوهم الى الاسلام) .
- ٢ البلاذري ، فتوح (٦٠٠) .
- ٣ الروض الأنف (٣٤٠/٢) ، اليعقوبي (١٢٠/١) .
- ٤ الحيوان (٢٠٥/٦) وما بعدها .

الى الرسول ، بل بقي مع رجال الوفد يبصرها لهم . فلما قرروا العودة ، بعد أن أسلموا وأعطاهم جوائزهم ، قالوا : « يا رسول الله إننا خلقنا صاحباً لنا في رحالتنا يبصرها لنا ، وفي ركابنا يحفظها علينا ، فأمر له رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، بمثل ما أمر به لأصحابه وقال : ليس بشركم مكاناً لحفظه ركابكم ورحالكم ، فقبل ذلك لميلمة ، فقال : عرف أن الأمر إلي من بعده . فلما عادوا الى ديارهم ، ادعى ميلمة النبوة ، وشهد (رجال بن عوف) (الرجال بن عوف) ، أن رسول الله ، أشركه في الأمر ، فبغى الناس^١ . وكان (الرجال) قد تعلم سوراً من القرآن ، فنبأ الى (ميلمة) بعض ما تعلم من القرآن ، فكان من أقوى أسباب الفتنة على (بني حنيفة) . قتله (زيد بن الخطاب) ، يوم اليامة^٢ .

وذكر (الطبري) ، أن (ميلمة) كان يصانع كل أحد ويتألفه ولا يبالي أن يطلع الناس منه على قبيح . (وكان معه نهار الرجال بن عوف) وكان قد هاجر الى النبي ، صلى الله عليه وسلم ، وقرأ القرآن ، وفقه في الدين ، فبعثه معلماً لأهل اليامة وليشغب على ميلمة ، وليشدد من أمر المسلمين ، فكان أعظم فتنة على بني حنيفة من ميلمة ، شهد له أنه سمع محمداً ، صلى الله عليه وسلم ، يقول : إنه قد أشرك معه ، فصدقوه واستجابوا له ، وأمروه بمكانة النبي ، صلى الله عليه وسلم ، ووعده إن لم يقبل أن يعينه عليه ، فكان نهار الرجال ابن عوف لا يقول شيئاً إلا تابعه عليه ، وكان ينتهي الى أمره^٣ . وكان الذي يؤذن له : عبدالله بن النواحة ، وكان الذي يُقيم له (حجير بن عمير) ، ويشهد له ، وكان ميلمة إذا دنا حجير من الشهادة ، قال : صرّح حجير ، فيزيد في صوته ، ويبالغ لتصديق نفسه ، وتصديق نهار وتقبل من كان قد أسلم ، فعظم وفاره في أنفسهم^٤ . فجعل (الطبري) اسم مساعد (ميلمة) (نهار الرجال بن عوف) ، لا (الرجال بن عوف) (رجال بن عوف)

- ١ ابن سعد ، طبقات (٣١٦/١) وما بعدها ، (وقد حنيفة) ، الطبري (١٣٧/٣) وما بعدها . (قدوم وفد بني حنيفة ومعهم ميلمة) .
- ٢ الروض الآف (٣٤٠/٢) .
- ٣ الطبري (٢٨٢/٣) وما بعدها .
- ٤ الطبري (٢٨٣/٣) .

كما في الموارد الأخرى . لكنه عاد فدعاه (الرجال)^١ تارة و (رجال بن عصفرة) تارة أخرى ، حيناً تكلم عنه وعن نهبته . وذلك في أيام (أبي بكر) ، أي في حوادث السنة الحادية عشرة^٢ . وأظن أن مرد^٣ هذا الاختلاف لا يعود الى (الطبري) نفسه ، بل الى النسخ والى الطبع .

وقد أورد (الطبري) رواية أخرى في كيفية قدوم (مسيلمة بن حبيب) على رسول الله . فذكر (ان بني حنيفة أتت بمسيلمة الى رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، تسره بالثياب ، ورسول الله جالس في أصحابه ، ومعه عسيب من سعد النخيل ، في رأسه خوصات ، فلما انتهى الى رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، فقال له رسول الله : لو سألتني هذا العسيب الذي في يدي ما أعطيتك !) . ولم يشر (الطبري) الى أسماء من جاء معه من وفد (بني حنيفة) ، وقد ذكر بعد هذه الرواية السابقة التي ذكرتها ، دون أن يشير الى أسماء رجال الوفد^٤ . ثم قال بعد ذلك : (ثم انصرفوا عن رسول الله وجاءوا بمسيلمة بما أعطاه رسول الله ، فلما انتهى الى البصرة ارتد^٥ عدو الله وتنبأ وتكذب لهم ، وقال : إني قد أشركت في الأمر معه ، وقال لوفده : ألم يقل لكم رسول الله حيث ذكرتموني : أما انه ليس بشاركم مكاناً ! ما ذلك إلا لما كان يعلم اني قد أشركت معه ، ثم جعل يسجع السجعات ، ويقول لهم قبا يقول مضاهاة للقرآن : لقد أنعم الله على الحبلى ، أخرج منها نسمة نسي ، من بين صفاق وحشى . ووضع عنهم الصلاة ، وأحل لهم الخمر والزنا ، ونحو ذلك)^٦ .

ولا يفتن ما ذكره (الطبري) من وضع (مسيلمة) الصلاة عن أتباعه ، مع ما أورده هو من التحاذق مؤلفاً يؤذن بين الناس ، ومن التحاذق (مقبلاً) يقيم له الصلاة ، ثم مع ما ذكره غيره من انه قلص الصلوات الخمسة ، فجعلها ثلاثة صلوات في اليوم^٧ . ولا يوجد دليل على تحليه الزنا والخمر .

وذكر ان (مسيلمة) ، بعد ان عاد الى قومه كتب كتاباً الى الرسول فيه :

- ١ الطبري (٢٨٧/٣) .
- ٢ الطبري (٢٨١/٣ - ٣٠١) . (ذكر بقية خبر مسيلمة الكذاب وقومه من اهل البصرة) .
- ٣ الطبري (١٣٧/٣) . زاد المعاد (٣١/٣) وما بعدها .
- ٤ الطبري (١٣٨/٣) . زاد المعاد (٣١/٣) .
- ٥ Shorter Ency. p. 418 .

(من مسيلة رسول الله الى محمد رسول الله ، أما بعد ، فلاني قد أشركت معك في الأمر ، وإن لنا نصف الأرض ولقريش نصفها ، ولكن قريشاً قوماً يعتدون) . فكتب اليه رسول الله : (بسم الله الرحمن الرحيم : من محمد رسول الله الى مسيلة الكذاب ، أما بعد ، فالسلام على من اتبع الهدى ، أما بعد ، فإن الأرض لله يورثها من يشاء والعاقبة للمتقين) . وقدم بكتاب مسيلة رجلاً ، فسأله رسول الله عنه فصدقه ، فقال : أما والله لو لا أن الرسل لا تقتل لفنكنا^١ .

وتذكر رواية أخرى أن مسيلة قال للرسول يوم وفد عليه مع من وفد من رجال (حنيفة) : (إن شئت خلينا لك الأمر وباعتك على أنه لنا بعدك . فقال له رسول الله ، صلى الله عليه وسلم : لا ولا نعمة عين ولكن الله فأنك) . وتذكر رواية أخرى أن (هذلة بن علي الحنفي) صاحب البصرة ، قد كتب الى النبي ، أن يجعل له الأمر من بعده على أن يسلم ويصير اليه فينصره ، فقال رسول الله : لا ولا كرامة اللهم اكفني ، فات بعد قليل^٢ .

وروي أن رسول الله ، بعث (حبيب بن زيد بن عاصم) أحد (بني النجار) و (عبدالله بن وهب الأسدي) الى مسيلة ، فلم يعرض لعبد الله ، وقطع يدي حبيب ورجليه^٣ .

وذكر أن رسولي مسيلة اللذين خلا كتابه الى الرسول ، كانا (ابن القوافة) و (ابن أطل) ، وأنها قالوا للرسول الله : تشهد أن مسيلة رسول الله . فقال الرسول : لو كنت قاتلاً رسولاً لفنكنا . فعادا الى صاحبيهما^٤ .

وذكر (الطبري) أن (مسيلة) « ضرب حرماً بالبصرة ، فنهى عنه ، وأخذ الناس به ، فكان محرماً ، فوقع في ذلك الحرم قرى الأحاليق ، أفخاذ من بني أسد ، كانت دارهم بالبصرة فصار مكان دارهم في الحرم) ، فصاروا يغيرون على ثمار أهل البصرة . ويتخلون الحرم دفلاً ، فإن نذروا بهم فدخلوه أجمعوا عنهم ، وإن لم ينذروا بهم فللك ما يريدون . « فكثرت ذلك منهم حتى استعملوا عليهم ، فقال : انتظر الذي يأتي من السماء فيكم وفيهم ، ثم قال لهم :

١ اعتناج الاسماع (٥٠٨/١) وما بعدها ، اليعقوبي (١٢٠/١) .

٢ البلاذري ، فتوح (٩٧) ، (البصرة) .

٣ البلاذري ، فتوح (١٠٢) .

٤ زاد المعاد (٣٢/٣) .

والليل الأطعم ، والذهب الأدلم ، والجذع الأزل ، ما انتهكت أسيد من محرم .
فقالوا : أما محرم استحلال الحرم وفساد الأموال ! ثم عادوا للغسرة ، وعادوا
للعدوى . فقال : انظر الذي يأتي ، فقال : والليل الدامس ، والذهب الدامس ،
ما قطعت أسيد من رطب ولا يابس . فقالوا : أما النخل مرطبة فقد جددوها ،
وأما الجدران يابسة فقد هدموها ، فقال اذهبوا وارجعوا فلا حق لكم ^١ .

وقد أورد أهل الأخبار كلاماً زعموا أن (مسيلة) نظمه مضاهاة للقرآن .
من ذلك قوله : « يا ضفدع نقي » كم تنسين ! نصفك في الماء ونصفك
في الطين ! لا الماء تكدرين ، ولا الشارب تمنعين ^٢ . « وكان فسياً يقرأهم
فيهم : إن بني تميم قوم طهر لقاح ، لا مكروه عليهم ولا إناوة ، تجاورهم ما
حيثما ياحسان ، تمتعهم من كل إنسان ، فإذا مثنا فأمرهم إلى الرحمان ^٣ . « وكان
يقول : والشاة والوانها ، وأعجبها السود وألبانها ، والشاة السوداء والبن الأبيض ،
إنه لعجب محض ، وقد حرم الملق ، فالكم لا تجمعون ^٤ . « وكان يقول :
يا ضفدع ابنة ضفدع ، نقي ما تنقين ، أعلاك في الماء وأسفلك في الطين ،
لا الشارب تمنعين ، ولا الماء تكدرين ^٥ . « وكان يقول : والمبذرات زرعاً ،
والحاصدات حصداً ، والذاريات فحاً ، والطاحنات طحناً ، والحابزات خبزاً ،
والثاردات ثرداً ، واللافات لقاً ، إهالة وسماً ، لقد فضلم على أهل الوبر ،
وما سبقكم أهل اللدر ، ربكم فامنعوه ، والمعتر فآووه ، والياضي فساووه ^٦ .
وذكر بعض أهل الأخبار أن (أبا بكر) لما سأل وفداً من (بني حنيفة) أرسله
(خالد) إليه عما كان يقوله لهم : « قالوا : كان يقول يا ضفدع نقي نقي ،
لا الشارب تمنعين ، ولا الماء تكدرين ، لنا نصف الأرض ، ولقريش نصف
الأرض ، ولكن قريشاً قوم يعتدون ^٧ .

ويظهر من أسلوب هذه الآيات النسوبة إلى (مسيلة) ، أنها محاكاة ومضاهاة
للآيات الأولى من القرآن الكريم ، الآيات التي نزلت بمكة في عهد الرسالة الأولى.

١ - الطبري (٢٨٣/٢) .

٢ - الحيوان (٥٣٠/٥) .

٣ - الطبري (٢٨٣/٢) وما بعدها .

٤ - الطبري (٢٨٣/٢) وما بعدها .

٥ - الطبري (٣٠٠/٢) .

وهي بذلك تختلف عن أسلوب الوحي المنزل بعد الفجرة بالمدينة^١ . ولم نجد فيها بقي من كتب أهل الأخبار ما يشير بشيء إلى (قرآن مسيلة) ، أو إلى بقية أخرى منه .

هذا ولا بد لي من التنبيه إلى أننا لا نستطيع التأكيد بأن ما نسب إلى مسيلة من كلام ، هو حق وصحيح . فمن الجائز أن يكون قد وضع عليه وضعاً . وقد رأينا كيف اتهموا في رواية (يا ضفدع) اختلافاً بينا في ضبط العبارات . وكان الناس يقصدون (مسيلة) ليسمعوا منه ، بعد أن اشتهر أمره . وقد تمكن من التأثير في بعضهم . وكان ممن قصده (المشتمس بن معاوية) ، عم (الأحنف بن قيس) الشهير . فلما خرج من عنده قال عنه الله كذاب^٢ . وقال عنه (الأحنف) ، وقد رآه أيضاً ، وقد سئل كيف هو ؟ ما هو بني صادق ، ولا بمختبي . حاذق^٣ .

وذكر أهل الأخبار أن مسيلة كان صاحب (تبرجات) ونحوه واحتيال . يدعي المعجزات والآيات ، وأنه أول من أدخل البيضة في القارورة ، وأول من وصل جناح الطائر المقصوص ، وكان يدعي أن ظبيته تأتيه من الجبل فيحلب لبنها . وقد جربه قوم ، فوجدوا آياته (منكوسة . نقل في بئر قوم سألوه ذلك تبركاً ، فلقح ماؤهما . ومسح رأس صبي ففرع قرعاً فاحشاً ، ودعا لرجل في ابنين له بالبركة ، فرجع إلى منزله ، فوجد أحدهما قد سقط في البئر والآخر قد أكله الذئب . ومسح على عيني رجل استشفى بمسحه فابقيت عيناه)^٤ ، ومسح وجه (أبا بصير) ، وهو صبي من (بني يشكر بن وائل) ، وكانوا أتوا به (مسيلة) ، فعني ، فكفي (أبا بصير) ، وكان يروي عنه^٥ . وأتته امرأة من بني حنيفة ، تكفي بألم العين ، (فقالت : إن نخلنا لسحق وإن آبارنا لجرز ، فادع الله فأتانا ولنخلنا ، كما دعا محمد لأهل هزمان) ، فدعا بسجل ، ودعا لهم فيه ، ثم تحمض بفعه منه ، ثم عجه فيه ، فانطلقوا به حتى فرضوه في تلك

Shorter Ency., p. 436.

١ المعارف (٤٢٤)
٢ أمالي القريظي (٢٩٢/١)
٣ الروض الألف (٢/٣٤٠)
٤ المعارف (٤٥٤)

الآبار ، ثم سقوه نخلهم ، فغارت مياه تلك الآبار ، ونحوى نخلهم . وقد ذكر (الطبري) هذه الملاحظة : (وانما استبان ذلك بعد مهلكه)^١ .

وروى (الطبري) ، أخباراً أخرى من هذا النوع ، ذكر ان (نهاراً) قال له : برك على مولودي بني حنيفة ، فقال له : وما تبريك ؟ قال : كان أهل الحجاز اذا ولد فيهم المولود اتوا به محمداً فحسكه ومسح رأسه ، فلم يؤت مسيلة بصبي فحسكه ومسح رأسه إلا قرع وثغ . وذكر ان (نهاراً) قال له : توشأ واعط وضوءك الى أصحاب الحيطان ، أي اليساين كما يفعل محمد ، فأعطى أحدهم وضوءه ، فسقى به حائطه ، فيست أشجاره ، وصارت الأرض نباتاً لا ينبت مرعاه . وأعطى (مسيلة) رجلاً سجلاً من ماء ، وكانت أرضه مبيخة ، فأفرغه في بئر ، فغرقت أرضه ، فما جف ثراها ، ولا أدرك ثمرها . وأنه امرأة فاستجلبته الى نخل لها يدعو لها فيها ، فجزت كبائسها يوم عقرها كلها .

وقد عرف (مسيلة) بن أتباعه بـ (رسول الله) ، وكانوا يتعصبون له ، ويؤمنون به إيماناً شديداً . وذكر أن (ملحة النعمري) جاء الى الهامة ، فقال : « أين مسيلة ؟ قالوا : الله رسول الله ! فقال : لا ، حتى أراه ، فلما جاءه . قال : أنت مسيلة ؟ قال : نعم . قال : من يأتيك ؟ قال : رحمن . قال : أي نور لو في ظلمة ؟ فقال : في ظلمة ، فقال : أشهد أنك لكذاب وأن محمداً صادق ، ولكن كذاب ربيعة أحب إلينا من صادق مضر ، أو (أنه قال : كذاب ربيعة أحب إلي من كذاب مضر) ، فقتل معه (يوم عقرها)^٢ .

ويظهر من بعض ملاحظات (الطبري) عن هذه الأخبار ، أنها إنما ظهرت وقيلت بعد هلاك (مسيلة) . فقد قال في موضع : « وكانوا قد علموا واستبان لهم ، ولكن الشقاء قلب عليهم »^٣ ، وقال في موضع آخر : « وانما استبان ذلك بعد مهلكه » ، و « استبان ذلك بعد مهلكه »^٤ . وهذه الملاحظات أهمية كبيرة بالطبع في تقييم صديق هذه الروايات وصحتها ، فالعادة أن من يغفل ويهلك

- ١ الطبري (٢٨٤/٣) وما بعدها .
- ٢ الطبري (٢٨٥/٣) وما بعدها .
- ٣ الطبري (٢٨٦/٣) .
- ٤ الطبري (٢٨٦/٣) .
- ٥ الطبري (٢٨٥/٣) .

لا سبأ إذا كان قد نال حظاً من المكانة والجاه والاسم ، يعمل عليه كثيراً ، ولا يتورع حتى أصحابه ومن كان يؤمن به من الناس عليه .

والخذ (مسيلة) مؤذناً يؤذن له في أتباعه اسمه (حجير) . (وكان أول ما أمر أن يذكر مسيلة في الأذان ، توقف . فقال له محكم بن الطفيل : صرح حجير ، فذهبت مثلاً) . وكان (محكم بن طفيل الحنفي) صاحب حربه ومدير أمره ، وكان أشرف منه في حيلة^١ . وذكر (الطبري) ، أن الذي كان يؤذن له (عبدالله بن النواحة) ، وكان الذي يقيم له حجير بن عمير ، ويشهد له . وكان مسيلة إذا دعا حجير من الشهادة ، قال صرح حجير ، فيزيد في صوته ويألف لنفسه^٢ . وذكر أن مؤذنه (حجير) ، كان إذا أذن يقول أشهد أن مسيلة يزعم أنه رسول الله ، فيقول مسيلة له : أفصح حجير ، فذهبت مثلاً^٣ .

وروا أنه تزوج (سجاح) التي تبت ، وهي تبيعة من (بني يربوع) ، وكان يقال لها (صادر) وكان لها مؤذن ، يقال له (زهير بن عمرو) ، من (بني سليط بن يربوع) ، ويقال إن (شيب بن ريمي) أذن لها^٤ .

وذكروا أنها كانت كاهنة زمانها ، تزعم أن رثيها ورثي سطح واحد ، ثم جعلت ذلك الرثي ملكاً حتى ادعت النبوة ، فاختلفت مع (مسيلة) وكلبته وجعلت نبوته ، فلما اتصلت به وتزوجته ، وهبت نفسها له . فقال لها فلما زعموا :

ألا قومي إلى المخدع فقد هبى لك المضجع
فإن شئت مكنتك وإن شئت حل أربيع
وإن شئت بثلبه وإن شئت به أجمع

فقالت بل به أجمع . فجرى المثل بفلمتها حتى قيل أغلم من سجاح^٥ .

١ الروض الآنف (٢ / ٣٤٠ وما بعدها) .

٢ الطبري (٢٨٣ / ٣) .

٣ البلاذري ، فتوح (١٠٠) .

٤ المعارف (٤٠٥) .

٥ نهار القلوب (٣١٥ وما بعدها) .

وفيهما قال قيس بن عاصم ، وقيل عطارد بن حاجب بن ذرارة :

أصحت نبينا أني نطيف بها وأصبحت أنبياء الله ذكرانا
يا لعنة الله والأقوام كلهم على سجاج ومن بالإفك أغرقنا
أعني مسيلة الكتاب لاسقت أصدائه ماء مزن حبها كانا^١

ولما قتل (مسيلة) رثاه بعض شعراء بني حنيفة بقوله :

لطف عليك أبا ثمامة لطف على ركني ثمامة
كم آية لك فيهم كالشمس تطلع من غمامة^٢

قتله (وحشي) قاتل حمزة^٣ .

وذكر أهل الأخبار أن (مسيلة) كان قد تزوج (كبشة بنت الحارث بن
كريز بن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس)^٤ (كبشة بنت الحارث بن كرز بن
حبيب بن عبد شمس)^٥ ، ثم تركها فخلف عليها (عبدالله بن عامر بن كرز) ،
فولدت له . ويظهر أنها لم تلد من (مسيلة) .

والذي يقرأ ما ذكره (الطبري) عن (مسيلة) وعن صلة (نهار) به ،
يخرج بصورة تظهره شخصاً جاهلاً بليداً ، بحركة وبوجهه (نهار) حيث يريد ،
لا يفهم ولا يعقل ، ولا يعرف كيف يتصرف ، ولا يتخذ رأياً حتى يشير عليه
(نهار) به . (فكان نهار الرجال بن عنوة لا يقول شيئاً إلا تابعه عليه)^٦ .
وهي صورة تخالف ما نقرأه عنه في الموارد الأخرى . ولو كان (مسيلة) على
نحو ما صورته الطبري ، لما التفت حوله (بنو حنيفة) ، ولما استأنوا في الدفاع
عنه . ولما ضحى (الرجال بن عنوة) و (محكم بن الطليل) وغيرهما بأنفسهم

١ نزار القبلوب (٣١٥) ، المعارف (٤٠٥) .

٢ المعارف (٤٠٥) ، كم آية لا يهيم ، الحيوان (٣٧٨ / ٤) .

٣ رسائل الجاحظ (١٨٠ / ١) ، الطبري (٢٩٤ / ٣) وما يبعدها .

٤ كتاب نسب قریش (٢٠) .

٥ الروض الآنف (١٩٨ / ٢ ، ٣٤١) ، (كبشة بنت الحارث بن كرز بن ربيعة بن

حبيب بن عبد شمس) ، المحير (٤٤٠) ، امتاع الاسماع (٢٤٧) ، كتاب نسب

قریش (١٤٧) .

٦ الطبري (٢٨٣ / ٣) .

في الدفاع عنه . حتى ان منهم من بقي مؤمناً به حتى بعد مقتله ، وتغلب المسلمين على اليمامة .

وقد كتب الجاحظ قصة مسيلمة وقصة (ابن النواحة) ، ولعلنا قصد به (عبدالله بن النواحة) مؤذنه ، في كتابه المفقود حتى اليوم (فصل ما بين النبي والنتي) ، حيث ذكر جميع المنبئين^١ . وذكر (البلاذري) أن (مسيلمة) ، كان قد أرسل كتابه الذي كان وجهه الى الرسول والذي فيه (من مسيلمة رسول الله ، الى محمد رسول الله ، أما بعد : فإن لنا نصف الأرض ولقرش نصفها ، ولكن قرشاً لا ينصفون ، والسلام عليك . وكتب (عمرو بن الجارود الحنفي) ، مع (عبادة بن الحارث) أحد بني عامر بن حنيفة ، وهو (ابن النواحة) الذي قتله عبدالله بن مسعود بالكوفة^٢ .

وكان (مسيلمة) قد أمر (عمرو بن الجارود الحنفي) ، بتدوين كتابه الذي وجهه الى الرسول ، فأمر الرسول كاتبه (أبي بن كعب) بالرد عليه . ومعنى هذا أن مسيلمة كان قد اتخذ له كتبة يكتبون له رسائله ، على نحو ما كان لرسول الله .

وأنا لا استبعد احتمال علم (مسيلمة) بالكتابة والقراءة . وإن لم ينص أهل الأخبار على ذلك . كما لا استبعد احتمال ثقافته باليهود والنصارى وأتباعهم ، فقد كان في اليمامة قوم من أهل الكتاب ، ودعوته الى عبادة إله هو (الرحمن) ، تدل على تأثره بأفكار هذه الديانة وبأهل الكتاب .

هذا ولم أجد في الأخبار المتعلقة بمسيلمة خبراً يفيد صراحة أن مسيلمة كان قد اعتنق الاسلام ودخل فيه . فالأخبار التي تتحدث عن مجيئه الى يثرب لا تشير الى ذلك ، والأخبار الأخرى التي تتحدث عنه وهو في اليمامة لا تشير الى قبوله الاسلام كذلك ، بل نجد فيها كلها أنه ظل يرى نفسه نبياً مرسلًا من (الرحمن) وصاحب رسالة ، لذلك فليس من الصواب أن نقول : (ردة مسيلمة) ، أو (ارتداد مسيلمة) ، أو نحو ذلك ، لأنه لم يعتنق الاسلام ثم ارتد عنه ، حتى نفعته بالمرتد .

١ - الحيوانات (٣٧٨/٤) .

٢ - البلاذري ، فتوح (٩٧) .

وكان (مجااعة بن مرارة) الذي نزل عليه (مسيلة) ، من رؤساء (بني حنيفة).
ومن وفد على الرسول ، فأعطاه النبي أرضاً بالهامة يقال لها (الغورة) ، وكتب
له بذلك كتاباً . وذكر بعض أهل الأخبار أنه كان بليغاً حكيماً وقد أسر (يوم
الهامة) ، فتوسط له بعض وجوه (بني حنيفة) ، لدى خالد أن يتيه ، فأرسله إلى
(أبي بكر) ، فصنف عنه . وقد كان قد انجرف مع من انجرف فقال إلى
(مسيلة) وأبيه ، وحارب معه . وله شعر أشار فيه إلى مسيلة ^١ ، ولعنه فيه
بـ (الكذاب) . ولا وفد على (أبي بكر) أقطعه (الخضرمة) ، ثم قدم
على عمر ، فأقطعه الرياء ، ثم قدم على عثمان ، فأقطعه قطيعة أخرى ^٢ .

وأما (الرجال بن عصفرة) (رجال بن عصفرة) ، فهو (نهار الرجال بن
عصفرة) ، (الرجال بن عصفرة) في تاريخ الطبري ^٣ . وهو من وجوه (بني حنيفة)
واسمه (نهار) ، وكان في الوفد الذي جاء إلى الرسول ، وقد اختلف إلى
(أبي بكر) ليطلع منه القرآن . وكان رئيس وفد (حنيفة) (سلمى بن
حنظلة) ^٤ . وقد تعلم سورة البقرة وسوراً من القرآن ^٥ . وذكر أنه كان صلى
غاية من الخشوع والزموم لقراءة القرآن والخير ، ثم انقلب على عقبيه وصار من
أشد أحوان مسيلة المقربين له ، فشهد له أن الرسول أشركه معه في الأمر . وكان
أحد وفد (بني حنيفة) إلى رسول الله ، وفيهم (فرات بن حيان) ^٦ .

وأما (محكم بن طفيل بن سبيع) الحنفي ، فقد كان من أشرف وسادات

١ قال مجاعة :

أترى خالداً يقتلنا اليوم

لم تدع ملة النبي ولا تح

من رجعت فيها على الاعتقاد

(الاصفهري) الاصابة (٣ / ٣٤٢) ، (رقم ٧٧٢٤) ، الحيوان (٤ / ٣٧١) ، (حاشية)

المرزباني ، معجم (٤٧٢) ، الجاسق ، البيان (٣ / ٢٦٣) ، مجاعة بن مرارة بن

سلمى بن زيد بن عبد بن ثعلبة بن يربوع بن السهول بن حنيفة ، كتاب

الطبقات ، لخليفة بن خياط (٦٦ ، ٢٨٩) .

٢ البلاذري ، فتوح (١٠٣) .

٣ طبعة (دار المعارف) بتحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم .

٤ ابن سعد ، طبقات (١ / ٣١٦) ، (وفد حنيفة) ، الروض الأنف (٢ / ٣٤٠) .

٥ البلاذري ، فتوح (٩٧) .

٦ الاصابة (١ / ٥٢١) ، (رقم ٢٧٦١) .

(بني حنيفة) . وهو أشرف من مسيلة في حنيفة^١ . وكان من المقدمين عند مسيلة . وقد عهد (مسيلة) إليه قيادة إحدى المجنبتين في قتاله مع (خالد ابن الوليد) . وقد عرف به (بحكم البامة) . وقد قتل وهو يحارب المسلمين^٢ . وقته خالد بن الوليد يوم مسيلة^٣ .

وأما (فرات بن حيان بن ثعلبة بن عبد العزى بن حبيب) العجلي ، فكان عيناً لأبي سفيان في حروبه ، وكان ممن هجا الرسول ، ثم أسلم ومدحه ، وأقطعه الرسول أرضاً بالبامة ، ثم سكن الكوفة وأقام بها . وكان في حرب المختق عيناً للمشركين^٤ .

وأما أثال بن النعمان الحنفي ، فكان مع (فرات بن حيان) حين قدم المدينة وقد كلم الرسول . وذكر في رواية أنه كان مع ثمامة بن أثال في قتال مسيلة في الردة^٥ .

وكان (ثمامة بن أثال بن النعمان بن سلمة الحنفي) ، من قدماء من أسلم من أهل البامة . فقد أرسل رسول الله خيلاً قبل نجد ، فجاءت به ، فربطوه بسارية من سواري المسجد بيثرب ، فكلمه الرسول ، ثم أمر فأطلق من رباطه ، فدخل في الإسلام ، وأمره أن يعتصر ، فلما قدم مكة قال له قاتل : صبرت ! قال : لا والله ولكن أسلمت مع محمد رسول الله ولا والله لا بأنيكم من البامة حبسة حنطة ، حتى يأذن فيها النبي . ثم خرج إلى البامة ، فنتهم أن يحملوا إلى مكة شيئاً . فكتبوا إلى النبي : إنك تأمر بصلة الرحم ، فكتب إلى ثمامة أن يغلي بينهم وبين الحمل إليهم^٦ . وكانت مبرة قريش من البامة ومنافعهم منها ، وكانت ريف مكة . ولما ارتد أهل البامة ، وصاروا مع مسيلة ، ثبت أثال على الإسلام فكان مقبلاً بالبامة ينهاتهم عن اتباع مسيلة وتصديقه ، فلما عصوه وأصغفوا على اتباع مسيلة ، عزم على مفارقتهم ، فقارقههم ولحق بالعلماء بن الحضرمي في مقاتلة

-
- ١ - الروض الأنف (٢ / ٢٤١) .
 - ٢ - الطبري (٣ / ٢٩٠) . الاشتقاق (٢١٠) . تاج العروس (٨ / ٢٥٤) . (حكم) .
 - ٣ - اللسان (١٤٢ / ١٢) . (حكم) . تاج العروس (٨ / ٢٥٤) . (حكم) .
 - ٤ - الإصابة (٣ / ١٩٥) . (رقم ٦٩٦٦) .
 - ٥ - الإصابة (١ / ٣٣) . (رقم ٣٥) .
 - ٦ - رشاد الساري (٦ / ١٣٢) وما بعدها .

المرتدين من أهل البحرين ، فلما ظفروا اشترى ثمامة حلة كانت لكبيرهم : (الحطيم) فزأها عليه ثامر من (بني قيس بن ثعلبة) ، فظنوا أنه هو الذي قتلته وسلبه فقتلوه . وقد رووا له شعراً في الرسول وفي الردة^١ . وكان له عم اسمه (عامر ابن سلمة بن عبيد بن ثعلبة الحنفي) . وقد كان مسلماً^٢ .

وجاء في رواية ان رسول الله لما بعث العلاء بن الحضرمي الى المنذر بن ساوى في رجب سنة تسع ، فأسلم المنذر ورجع العلاء ، فرآه باليامة ، قال له ثمامة بن أثال : انت رسول محمد ؟ قال نعم . قال : لا تصل اليه ابداً ، فقال له عمه : عامر بن سلمة بن عبيد بن ثعلبة الحنفي : مالك وللرجل ، فأسلم عامر ، ووقع ثمامة بعد ذلك في الأسر^٣ .

وكان (معمر بن كلاب الرماني) ، جازاً لثامة بن أثال ، وهو ممن وعظ مسيلمة وبني حنيفة ونهاهم عن الردة ، فلما عصوه تحول الى المدينة ، فقتله ثمامة حتى رده وشهد قتال اليامة مع خالد^٤ .

و (الحطيم) المذكور ، هو (الحطيم بن هند) البكري ، أحد (بني قيس ابن ثعلبة) ، قدم المدينة في رواية في غير له يحمل طعاماً لبايعه ، ثم دخل على النبي ، وبايعه وأسلم ، فلما قدم اليامة ، ارتد عن الاسلام ، وخرج في غير له تحمل الطعام في ذي القعدة يريد مكة ، وكان عظيم التجارة ، وأراد المسلمون أن يقتلوه ويأخذوا ما معه ، فمنعهم الرسول من ذلك لحرمة الشهر . وذكر انه بعد ان قابل الرسول ، وسمع منه مبادئ الاسلام . قال الحطيم : في أمرك هذا خلقة ، أرجع الى قومي ، فأذكر لهم ما ذكرت ، فإن قبلوه أبلت معهم ، وإن أدبروا أدبرت معهم . قال له أرجع . فلما رجع مرّ بسرح من سرح المدينة ، فساقه فانطلق به^٥ . وذكر أن (الحطيم) قتل في الجبار ، من نواحي البحرين ، لما ارتدت بكر ابن وائل^٦ .

- ١ الاصابة (٢٠٤/١) . (رقم ٩٦٦) . الاستيعاب (٢٠٥/١ وما بعدها) . (حاشية على الاصابة) . تاج العروس (٢٠٣/٧) . (أثال) .
- ٢ الاصابة (٢٤١/٢) . (رقم ٤٣٩٠) .
- ٣ الاصابة (٢٤١/٢) . (رقم ٤٣٩٠) .
- ٤ الاصابة (٤٧٥/٣) . (٨٤٥٢) .
- ٥ تفسير الطبري (٣٨/٦) .
- ٦ تاج العروس (١١٦/٣) . (جبر) .

هذا هو كل ما ورد الى علمنا عن الأنبياء العرب في الجاهلية . وقد حصلنا عليه من المؤلفات الاسلامية . أما نصوص جاهلية ، فيها شيء عن النبوة والأنبياء ، فلم يصل إلينا منها أي شيء .

يقول (أبو العلاء المعري) عن ادعاء بعض الناس بالأمامة والنبوة في الإسلام : « ولم تكن العرب في الجاهلية تقدم على هذه العقائد ، والأمور غير النفاثم ، بل كانت عقولهم تفتح الى رأي الحكماء ، وما سلف من كتب القدماء . إذ كان أكثر الفلاسفة لا يقولون بنبي ، وينظرون الى من زعم ذلك بعين الغي »^١ . فهو ينكر وجود نبوة وأنبياء عند الجاهليين للسبب المذكور . وهو يقصد ولا شك بها ، النبوة على وفق المعنى المفهوم منها في الاسلام . أي أن تكون بوحى يتزل على النبي من الاسلام ، ويكلام متزل يتلوه على الناس ، يكون كلام الله لا كلام النبي .

١ رسالة الغفران (٤٤٠) ، (بنت الشاطئ) .

الفصل الرابع والستون

الله ومصير الانسان

لا تعرف رأي الجاهليين في الخلق ، وفي كيفية نشوء هذا الكون ، إذ لم تصل اليه نصوص جاهلية في هذا المعنى . ولا بد أن يكون لهم كما كان لغيرهم رأي في الخلق وفي نشوء الكون . فموضوع نشوء الكون وظهوره ، من الموضوعات التي تثير رأي كل انسان مهما كانت ثقافته وكان تفكيره .

وفي القرآن الكريم كلمات مثل (الباري) و (المصور) و (الخلاق) و (خلقت) و (خلقتكم) و (خالق) وغيرها مما له علاقة بخلق الكون والانسان وبشيء المخلوقات ، وفيه كيفية خلق الله للكون ومن فيه وكيفية خلق الانسان ومن أي شيء خلق . ولكن هل كان يعرف جميع الجاهليين هذا المعنى المنزل في كلام الله ، وهل نزلت هذه الآيات لإرشاد الناس الى ذلك ، أو انها نزلت للتذكير القويم ولتفت نظرهم الى شيء يعلمونه ولكنهم كانوا ينسبونه لغير الله أو يتجاهلونه ، إن كان ذلك على سبيل التذكير ، فعنى هذا ان لأهل الجاهلية رأياً في كيفية الخلق ، وإن كان ذلك على سبيل التعليم والإرشاد ، فإنه يدل على أن من خاطب بتلك الآيات لم يكن له فقه وعلم بما خاطب به .

وفي القرآن الكريم آيات فيها خطاب للمشركين في بيان فساد رأيهم واعتقاداتهم ، وفيها رد عليهم ، منها نستطيع أن نحيط بعض الإحاطة بأرائهم في الوجود وفي البعث والحشر والحساب وغير ذلك من أمور تتعلق بدياناتهم . وهذه الآيات هي

الشواهد الوحيدة التي نملكها من آراء القوم في ذلك العهد . أما ما جاء في روايات الأخباريين وفي كتب التفسير والحديث والمثل والنحل ، ففيه بعض الشيء عن آراء الجاهليين القريبين من الاسلام ، ولا سيما عرب مكة ويثرب عن تلك الأمور .

ويفهم من القرآن الكريم ان من الجاهليين من كان يعتقد ان للعالم خالقاً خلق الكون وسواه ، وان منهم من كان يعتقد بوجود إله واحد لهم موجدون ، وان منهم من أقر بوجود إله واحد غير انه رأى تعذر الوصول اليه بغير وسطاء وشفعاء فاعتقد بالأرواح والجن وعبد الأصنام لتكون واسطة تقربه الى الله .

أما كيف خلق الله الأرض والسموات وكيف نشأ الكون ، فذلك ما لم يتعرض له القرآن الكريم حكاية على لسان الجاهليين . ولذلك لا نعرف رأي أولئك القوم الذين عاصروا الرسول وعاشوا قبيل الاسلام في كيفية ظهور الوجود وخلق الكون .

ويفهم من بعض الأخباريين أن من الجاهليين من كان يرى أن خالقاً خلق الأفلاك ، غير أنها تحركت أعظم حركة فدارت عليه وأحرقت ، لأنه لم يقدر على ضبطها وإسكان حركتها ، وأن منهم من كان يقول : « إن الأشياء ليس لها أول البتة ، وإنما تخرج من القوة الى الفعل . فإذا خرج ما كان بالقوة الى الفعل ، تكونت الأشياء مركباتها ووسائلها من فاتها لا من شيء آخر . وقالوا إن العالم لم يزل ولا يزال ولا يتغير ولا يضمحل مع فاته . وهذا العالم هو المسك لهذه الأجزاء التي فيه »^١ . وهذا كلام من كلام الجاهليين ومن مقالاتهم ، فإنه يدل على تعمق القوم في المقالات ، وعلى أن لهم رأياً وفلسفة في الدين ، وأنهم لم يكتفوا على الصورة التي يتخيلها معظمنا عنهم ، وهي الصورة التي رسمها لهم أهل الأخبار في أثناء كلامهم العام عن الجاهليين .

الله الخالق :

ويظهر من القرآن الكريم ، أن قريشاً كانوا يؤمنون بإله واحد خلق الكون ، وهو رب السموات والأرض . ففي سورة العنكبوت : « ولئن سألتهم من خلق

١ بلوغ الأرب (١٩٤/٢) وما بعدها .

٢ بلوغ الأرب (٢٢٠/٢) وما بعدها .

السيارات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن : الله ، فأني يؤفكون ^١ . وفي هذه السورة تقسمها سؤال آخر موجه الى المشركين : ولئن سألتهم من نزل من السماء ماءً فأجيبا به الأرض من بعد موتها ، ليقولن : الله ، قل : الحمد لله ، بل أكثرهم لا يعقلون ^٢ . وفي سورة لقمان سؤال آخر موجه الى أولئك المشركين ، وجواب صادر منهم ، هو هذا الجواب نفسه : إقرار بوجود خالق واحد خلق السماوات والأرض : ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ، ليقولن : الله . قل الحمد لله ، بل أكثرهم لا يعلمون ^٣ . وفي سورة الزخرف : ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ، ليقولن : خلقهن العزيز العليم ^٤ . وفي سورة الزمر : ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ، ليقولن : الله ^٥ ، وفي سورة الزخرف أيضاً : ولئن سألتهم من خلقهم ، ليقولن : الله . فأني يؤفكون ^٦ ، وفي سورة العنكبوت : ولئن سألتهم من نزل من السماء ماءً فأجيبا به الأرض من بعد موتها ، ليقولن : الله ^٧ . وهناك آيات أخرى على هذا النحو ، فيها استتة موجهة الى المشركين عن خلق السماوات والأرض ، وأجوبة على ألسنتهم فيها اعتراف بأن خالقها وصانعها هو الله .

وفي القرآن الكريم أيضاً ان قريشاً كانت تعتقد ان الله هو الذي ينزل المطر ويحيي الأرض بعد موتها ^٨ ، وفيه انهم كانوا يقسمون به ^٩ ، وانهم كانوا قد جعلوا له نصيباً مما ذرأ من الحنث والأنعام ^{١٠} ، وانهم كانوا يقولون ان الله هو الذي شاء فجعلهم وآباءهم مشركين ، وانه لو لم يشأ لما أشركوا بعبادته أحداً ^{١١} ، وانهم كانوا ينضرعون اليه ويستغيثون به في الكوارث والملمات ، وانهم جعلوا له

-
- ١ سورة العنكبوت ، الرقم ٢٩ ، الآية ٦١ .
 - ٢ العنكبوت ، الآية ٦٣ .
 - ٣ سورة لقمان ، الرقم ٣١ ، الآية ٢٥ .
 - ٤ الزخرف ، الرقم ٤٣ ، الآية ٩ .
 - ٥ الزمر ، الرقم ٣٩ ، الآية ٣٨ .
 - ٦ الزخرف ، الرقم ٤٣ ، الآية ٨٧ .
 - ٧ العنكبوت ، الرقم ٢٩ ، الآية ٦٣ .
 - ٨ العنكبوت ، الآية ٦٣ .
 - ٩ الانعام ، الآية ١٠٩ ، النحل ، الآية ٣٨ .
 - ١٠ الانعام ، الآية ١٣٦ .
 - ١١ الانعام ، الآية ١٤٨ .

بنائاً وبينين وشركاء الجن^١ . ففريش اذن وفق هذه الآيات قوم ، كانوا يؤمنون
بإله عزيز عليهم ، ومن آيات ذلك انهم جعلوا له نصيباً في أموالهم ، مع ان المال
من أحر الأشياء على الانسان ، لا سيما بالنسبة لتلك الأيام .

وفي تلبية الجاهليين المتخصص عليها في كتب أهل الأخبار اعتراف صريح واضح
بوجود إله . كانوا يلبون بقولهم : (ليك اللهم ليبيك ، لا شريك لك ، إلا
شريك هو لك . تملكه وما ملك ، يعنون بالشريك الصنم ، يريدون ان الصنم
وما يملكه ويختص به من الآلات التي تكون عنده وحوله والنور التي كانوا
يتقربون بها إليه كلها ملك لله عز وجل)^٢ فذلك معنى قولهم : تملكه وما ملك .
فهم يعترفون ويعترفون بوجود الله ، لكنهم يتقربون إليه بالأصنام . وهذا هو
الشرك .

وفي دعاء العرب اعتراف بوجود (الله) ، فتقولهم : (رماه الله بما يقبض
عصيه) ، و (ققم الله عصيه) ، و (لا ترك الله له هارباً ولا قارباً) ،
و (شئت الله شعيه) ، و (مسح الله فاه) ، و (رماه الله بالبعصة) ،
و (رماه الله بالطساة) ، و (سقاء الله الذبغان) ، و (جعل الله رزقه فوت
فه) ، و (رماه في نيله) ، و (قطع الله به السب) ، و (قطع الله
لهجته) ، و (مد الله أثره) ، و (جعل الله عليها راكباً قليل الحاجة) ،
و (لا أهدى الله له عافية) ، و (أثل الله ثلثه) ، و (حته الله حت
البرمة) ، و (رماه الله بالطلاملة) ، و (رماه الله بالفصل) ، و (ألقى
الله به الخوبة) ، و (لحاه الله كما يكحى العود) ، و (اقتشه الله إليه) ،
و (ابتاضه الله) ، الى آخر ذلك من دعاء يدل على وجود إيمان بخالق
هو الله^٣ .

وفي الشعر المنسوب الى الجاهليين اعتقاد بوجود الله ، واتقاء منه ، وتقرب
إليه باحترام الجوار وقري الضيف . هذا عمرو بن شأس يقول في شعره :

- | | |
|---|---|
| ١ | الاتعام ، الآية ١٠٠ . |
| ٢ | اللسان (٤٥٠ / ١٠) ، (شرك) . |
| ٣ | راجع بليته في ذيل الأمالي والنوادر (ص ٥٧ وما بعدها) ، (عود الى بحث دعاء
العرب) . |

ولولا انقاء الله والعهد قد رأى منته منى أبوك القبايا^١

فلولا انقاء شأسي الله^٢ ، لفنك بخصمه ، وجعله من المالكين . وفي بعضه
اعتراف بأن هذه الأرض الواسعة هي (بلاد الله) ، أيما حلت فيها فهي أرضه
وبلاده^٣ . وهذه نظرة مهمة جداً عن رأي الجاهليين في الله وفي الأرض ، لأن
صبح أن هذا الشعر الوارد فيه حقاً من شعر أهل الجاهلية .

و (الله) كما جاء في شعر زهير بن أبي سلمى ، عالم بكل شيء ، عارف
بالخفايا والأسرار ، وبما ظهر من الأعمال وما بطن^٤ .

فلا تكتمن^٥ الله ما في نفوسكم ليخفي ، ومهما يكن الله يعلم^٦

وهو علو^٧ للأشقياء شديد عليهم ، لا يرحم ظالماً ، وأمره^٨ بلغ^٩ به تشقى
به الأشقياء^{١٠} وهو يشيب على الإحسان ، ويجزي المحسن على جميل لإحسانه^{١١}. وهو
الذي يعصم من السيئات والعثرات^{١٢}. وهو مقر بوجود يوم حساب يحاسب فيه الناس
على ما قاموا به من أعمال ، وقد ينتقم الله من الظالم في الدنيا قبل الآخرة ، فلا
يخلص له^{١٣} .

- ١ الاغاني (٦٣/١٠) ، نسب عمرو بن شاس وأخباره في هذا الشعر وغيره .
بدا لي أن الله حق فزادني إلى الحق تقوى الله ما قد بدا ليا
شرح ديوان زهير (٢٨٧) .
- ٢ فسر في بلاد الله والشمس الغنى
ديوان عمرو (٥١) .
- ٣ شرح ديوان زهير (١٨) .
- ٤ فهداهم بالأسودين وأمر الله بلغ يشقى به الأشقياء
اللسان (٣٠٢/١٠) ، (بلغ) .
فهداهم بالأسودين وأمر الله بلغ تشقى به الأشقياء
تاج العروس (٤/٦) ، (بلغ) .
- ٥ رأى الله بالإحسان ما قعلا بكم
شرح ديوان زهير (١٠٩) .
- ٦ ومن ضربته التلوى ويعصمه
شرح ديوان زهير (ص ١٦٢) .
- ٧ فلا تكتمن الله ما في صدوركم
يؤخر فيودع في كتاب فينشر
شرح ديوان زهير ، لتعالب (ص ١٢) ، بلوغ الأرب (٢٧٧/٢) وما بعدها ، شعراء
النصرانية (القسم الرابع ص ٥١٨) ، جبهة أشعار العرب (٧١) .

والله (كرم) لا يكدر نعمة ، اذا دعي أجاب . وهذا هو رأي الأعشى
في الرب ، اذ يقول :

ربي كرم لا يكدر نعمة واذا يئاشد بالمهارق أثمدا^١

وقد ورد اسم الجلالة في أشعار كثير من الشعراء الجاهليين : ورد في شعر
امرى القيس وغيره ، فامرؤ القيس يقول : (من الله) و (لله)^٢ ، و (لله)^٣ ،
و (قبح الله)^٤ ، و (والله)^٥ ، و (يمين الله) ، و (يمين الإله)^٦ ،
و (الإله) هي (الله) ، و (الحمد لله)^٧ . ونرى العرب عامة تستعمل في
كلامها : (لله دره)^٨ ، و (لا يبعد الله)^٩ ، و (على الله)^{١٠} ،

- ١ ديوان الأعشى ، قصيدة ٣٤ (ص ١٥١) ، تحقيق كابر ، *
- ٢ فالريوم أشرب نسير مستحقب انسا من الله ولا والحبل
لله زبدان أمسي قرقرنا جلدا وكان من جندك أصم متضودا
شرح ديوان امرئ القيس ، السندي (ص ٦٣ - ١٥٢) ، وسيكون رمزه :
سندي
- ٣ تالله قد علمت قيس اذا قدفت ريح الشتاء بيوت الحي بالعنن
شرح ديوان زهير (١٢١) * تالله لا يلعب شيخي باطلا
يا لهف هند اذا خطت كاهلا سندي (١٥٤) *
- ٤ ألا قبح الله البراجم كلها وجدع يربوعا وغر دارها
سندي (١٨٠) * سندي
- ٥ فقد أصبحوا والله اصفاهم به أسر بيشاق وأوفي بجيران
والله لا يلعب شيخي باطلا حتى أسر مالكها وكاهنها
سندي (١٥ - ١٨٩) ، شرح ديوان زهير (٢٤) *
- ٦ كلا يمين الإله يجمعنا شنى وأخواننا بنو جشما
سندي (١٨١) * سندي
- ٧ أرى ابلي والحمد لله أصبحت ثقلا اذا ما استقبلتها صمودها
سندي (٦٤) * سندي
- ٨ كم شامت يسي ان هلك ست وقائيل : لله دره
ديوان لبية (ص ٢) ، تحقيق كارل بروكلمان ، *
- ٩ وقولي ألا لا يبعد الله أريدا وهدى به صدع القواد المتجمعا
ديوان لبية (ص ٦) * ديوان
- ١٠ لحي الله صعلوكا اذا جن ليله مصافى التثايش ألفا كل مجزور
ولله صعلوك صفيحة وجهه كضوء شهاب القابس للتنور
ديوان عروة بن الورد (٢٦ ، ٥٣) *

و (جزى الله) ^١ ، و (عمر الله) ^٢ ، وأمثال ذلك مما يرد في أشعار الشعراء الجاهليين ، يخرجنا تدوينه وحصره في هذا المكان عن حدود الموضوع .
وقد جاءت لفظة الجلالة في إيمان أخرى ، في مثل : (لعمر الله) ، و (ها لعمر الله) كاللدي ورد في شعر زهير :

تعلمن هالعمر الله ذا قسماً فاقصد بلدرك وانظر أين تنسك ^٣

وورد (ها الله) و (والله) و (الله) و (نعم الله) و (أي والله لأفعلن) ، و (إيم الله) و (أعمن الله) و (يعلم الله) و (علم الله) وأمثال ذلك ^٤ .

ومن إيمانهم الدالة على الاعتقاد بوجود خالق ، قولهم : (لا وباريء الخلق) ، و (لا والذي يراني من حيث ما نظر) و (لا والذي نادى الحبيج له) ، و (لا والذي يراني ولا أراه) ، و (لا والذي كل الشعوب لدينه) ، و (حرام الله لا آتيك) ، و (يمين الله لا آتيك) ، و (لا والذي جلد الإبل جلودها) ، و (والذي وجهي زم بينه) ، و (لا والذي هو أقرب إلي من جبل الوريد) ، و (لا ومقطع القطر) ، و (لا وفاق الإصباح) ، و (لا ومهب الرياح) و (لا ومنشر الأرواح) ^٥ ، إلى غير ذلك من إيمان حلفوا بها ، تدل على إيمان وعقيدة بوجود خالق ، فحلفوا به .

ونجد في معلقة امرئ القيس قسماً بالله حكى على لسان صاحبة صاحب المعلقة:

فقلت : يمين الله مالك حيلة وما إن أرى عنك العوابة تنجلي ^٦

وترى في بيت لامرئ القيس وهو يذكر أقدامه على الشرب :

فاليوم أسقى غير مستحقب إثمًا من الله ولا واهل ^٧

١ جزى الله خيراً كلما ذكر اسمه أباً مالك إن ذلك الحي اصعدوا ديوان عمرو (ص ٥٠) .

٢ قعيتك عمر الله ، هل تعلميني كريماً إذا أسود الأنامل أزهرها ديوان عمرو بن الورد (٢٢) ، Reste, B. 224.

٣ السنين الكبرى (٢٦/١٠ وما بعدها) ، المخصص (١٣/١١٣) .

٤ المخصص (١٣/١١٤ وما بعدها) .

٥ ذيل الأمازي (ص ٥٠ وما بعدها) .

٦ المعلقات العشر وأخبار شعرائها (٦٢) .

٧ شعراء النصرانية (١٩) .

قال رجل مؤمن بالله ، وقد وفى بما عاهد الله عليه ، وهو لا يخشى بعد ذلك
إنما إذا شرب ، لأنه وفى بقره .

ونراه يذكر الله أيضاً في هذا البيت :

قد زيدان أمسى قرقرأ جلدأ وكان من جتدل أصم منضودا^١

ثم نراه يشكر الله بجملة : (والحمد لله) في هذا البيت :

أرى ليل والحمد لله أصبحت نقالا إذا ما استقبلتها صمودها

ونراه يحث الناس على التمسك بحبل الله ، فبالله يكون الشجاع ، وبحث الناس
على عمل البر ، والبر خير حمية الرجل :

والله أنجح ما طلبت به والبر خير حمية الرجل

ونفهم من هذه الآيات ومن آيات أخرى ، إن امرأ القيس رجل مؤمن يعتقد
بالله الواحد ، مؤمن بالله الواحد ، مؤمن بالثواب وبالعقاب ، وأنه كان يخاف
الله ويخشى الإنم والفسوق ، ولا أدري أينطبق هذا الذي نقوله على امرئ القيس
الذي يتحدث عنه أهل الأخبار ويصفونه بأنه رجل عابس مبال إلى الله والشهوات
رمى صنمه بسهم وأنه لما جاء الجواب بخلاف ما كان يرقب فيه وبشتهيه . ثم
لا أدري إذا كان أسلوب هذا الشعر من أسلوب الشعر الجاهلي وطرازه ؟ وإذا
كان هذا الشعر صحيحاً ، فلم أدخل روايته شاعره في الجاهليين الوثنيين ولم يدخلوه
في عداد المؤمنين بالله من الأحناف ؟

وإذا اعتقدنا بصحة الآيات المنسوبة إلى عبيد بن الأبرص :

من يسأل الناس بحرمة ومائل الله لا ينجب
بالله يدرك كل خير والقول في بعضه تلغيب
والله ليس له شريك علام ما أخفت القلوب

وقلنا مع القائلين إنها من شعر ذلك الشاعر حقاً ، وجب عدّه إذن في جملة

١ شعراء النصرانية (٤٠) .

الموحدين المؤمنين المسلمين ، وإن عاش قبل الإسلام . فرجل يقول هذا القول ، لا يمكن إلا أن يكون مسلماً مؤمناً بالله الواحد الأحد علام الغيوب والعارف بما في القلوب ، ومن الممهدين للتوحيد بين العرب قبل الإسلام .
وقد أعمل بعض رواة هذه المعلقة البيت الآتي :

والله ليس له شريك علام ما أنحت القلوب

وكأنهم فضوا إلى أن من غير العقول نسبته إلى رجل وثني ، مها كان رأيه في الأوثان والتوحيد ، لا يمكن أن يستعمل هذه الألفاظ التي لم يستعملها العرب بهذا الشكل إلا في الإسلام .

والى عبيد نفسه ينسب الأخباريون قول هذا البيت :

حلفت بالله إن الله ذو نعم لمن يشاء وقو عفو وتصفاح

ورجل يقول هذه الأبيات وأبياتاً أخرى من لونها ، لا يمكن إلا أن يكون موحداً مؤمناً ، من فصيلة المؤمنين بالله من الأحناف . وقد أراح (شيلو) نفسه وأراح الناس حين ذهب إلى أن عبيداً وأمثلة من الشعراء الجاهليين كانوا نصاري وإن هذا التوحيد هو توحيد نصراني محض ، وقف عليه عبيد في زيارته للحبرة مهد النصرانية في ذلك العهد ، فاعتنقه ، فهو على رأيه إذن شاعر نصراني ، وشعره شعر نصراني لا يرد ولا يرفض .

ونجد (طليل بن عوف) الغنوي يقسم بـ (الإله) في شعره . غير أن هناك رواية تفصح (رضى) موضع (الإله) فيكون القسم به ، ورضى اسم صنم كان لطي . وقد ذكر (الله) في مواضع أخرى من شعره ، وقال إنه هو الذي يصلح الأمور ، ويسد العجز والشعر التي ليس في وسع الإنسان سدّها ،

- | | | |
|---|---|-------------------------------|
| ١ | « قلل بصير يستبين رجالها
ويروي . ولعلها رواية ابن عبيدة :
وقال بصير قد أبان رجالها
ورضى اسم صنم كان لطي . ديوان طليل بن عوف الغنوي . تحقيق ف . كرتكو .
(لندن ١٩٢٧) ، (ص ١٢) . | هم والاله من تخاليفي ، فاذهبي |
| ٢ | لعمرى لقد غلى ابن جبدع ثلثة
ديوانه (ص ١٩) . | لمن أين أن لم يرب الله تراب |

ولأنه يجزي الناس على أعمالهم^١ .
 وفي معلقة (الحارث بن حليزة) الشكري^٢ : « أمر الله بلغ تشقى به
 الأشقياء »^٣ ، وأن الله عالم بالأمور^٤ .
 ونجد (المتلمس) ، يقسم بالله في شعره ، ويذكر الله في مثل جملة
 (أبي الله)^٥ للتعبير عن مشيئة الله وإرادته ، وجملة (لله دري) في التعجب^٦
 وجملة (تقوى الله)^٧ ، و (عاداك الله)^٨ وغيرها مما يدل على أنه كان يعتقد
 أن الله يعادي الأعداء ويحب المحبين .
 ولكننا نجد في مواضع أخرى يقسم باللات وبالأنصاب ، والمقصود بالأنصاب
 الأوثان مما يشعر أنه كان يؤمن بها ، فكيف نوفق بين اعتقاده بالله واعتقاده باللات

- ١ جزى الله عوقا من موالي جنابة وتكسوا خيرا كل جاد مودع ديوانه (ص ٥٠)^{*}
- ٢ جزى الله عنا جعفرا حين أزلقت بنا لعلنا في الواطن فزلت ديوانه (ص ٥٧)^{*}
- ٣ فهداهم بالأسودين . وأمر الله شرح القصائد العشر (٤٦٨) ، (البيت رقم ٦٤) من المعلقة^{*}
- ٤ ولعلنا بهم كما علم الله وما أن لتخالسين دماء البيت (رقم ٧٥) من المعلقة ، (ص ٤٧٥) من شرح القصائد العشر للتبريزي (محمد محيي الدين عبد الحميد)^{*}
- ٥ يا آل بكر ألا لله احكموا طال الله التواء ونوب المعجز ملبوس ديوان المتلمس (ص ١٦٩) ، (طبعة فولرس) ، جمهرة أشعار العرب (ص ٤٤ ، ٢٠٦) ، شعراء النصرانية (٣٣٢)^{*}
- ٦ وقال : وهل لي أم غيرها أن تركتها أبي الله إلا أن أكون لها ابنا شعراء النصرانية (٣٣٨)^{*}
- ٧ وقال : اطردني حذر الهجاء ولا والله والاتصاف لا تزل وذلك في رواية^{*} وفي الروايات الشامة ، واللات ، بدلا من والله ، ديوان المتلمس (١٧١)^{*}
- ٨ تفرق أهلي من مقيم وطاعين فله دري أي أعلني أتبع ديوان المتلمس (ص ١٨٧)^{*}
- ٩ وأعلم علم حق غير ظن وتقوى الله من غير العقاد ديوان المتلمس (ص ١٩٥) ، شعراء النصرانية (٣٤٣)^{*}
- ١٠ لا غاب من نفسك من رجالها بلا وعادي الله من عاداك ديوان المتلمس (ص ٢٠٦) ، شعراء النصرانية (٣٤٨)^{*}

والأنصاب ؟ وهل نعدّ هذا الشعر صادراً من شاعر واحد ؟ نعم ، يجوز أن يكون قاله هو . قاله لأنه كان يعتقد بوجود إله ، فهو يؤمن به ويقر بوجوده ، غير أن قسمة الثلاث والأنصاب ، هو من باب عقيدة الجاهليين المؤمنين بوجود إله ، ولكنهم كانوا يتقربون إليه بالأصنام والأوثان والأنصاب . ويتوقف هذا التفسير بالطبع على إثبات أن هذا الشعر له حقاً ، وليس مقتضلاً ، ولا مما أدخل الرواة عليه تغييراً أو تبديلاً .

وتجد في شعر الثابتة الجعدي ، أبو ليل عبدالله بن قيس ، الشاعر المخضرم الشوفي سنة (٦٥) للهجرة ، قصيدة مطلعها :

الحمد لله لا شريك له من لم يقلها فقصه ظلماً

يلي هذا المطلع قصة نوح والسفينة ، وهي سفينة مصنوعة من خشب الجوز والقار . وفي هذه القصيدة اعتراف بالتوحيد ، وبوجود إله واحد لا شريك له ، لا يحمد إلا هو ، وهو شعر لا يمكن أن يكون إلا من شعر شاعر مسلم ، إن صح أنه من شعره ، فيجب أن يكون مما نظمه في الإسلام .

وينسب إلى (ليبيد) اعتقاده أن الله يسط الخير والشر على عباده ، وأنه منتقم من مخالفه ، معاقب له ، كما عاقب (إرميا) و (تبعيا) ، وقوم (لقمان بن عاد) ، و (أبرهة) وذلك في أبيات أولها :

من يسط الله عليه لأصعباً بالخير والشر بأي أولها

وهي رجز ، يرى بعض العلماء أنها ليست من رجزه^١ .

وتجد معود الحكماء ، وهو معاوية بن مالك بن جعفر ، يذكر الله ويحمده ، فيقول : « بحمد الله » ، ويقول (عامر) : « أردت لكما يعلم الله أنني » ، ويقول (خلدش بن زهير) : « وذكرته بالله بيني وبينه »^٢ .

١ ديوان ليبيد (٢٢٧ وما بعدها) .

٢ شرح ديوان ليبيد ، (ص ٢١) ، (المقدمة) ، (تحقيق الدكتور إحسان عباس) ، قيل له معود الحكماء لقوله :

أفئود مثلها الحكماء بعندي إذا ما الحق في الأشياء غابا
تاج العروس (٢ / ٤٤٠) ، (عود) .

وذكر أهل الأخبار أن الجاهلين الوثنيين كانوا يفتحون كتبهم بجملة (يا ربك اللهم) . ساروا في ذلك على هدى (أمية بن أبي الصلت) مبتدعها وموجدتها ، كما في رواية تنسب إلى ابن الكلبي . وذكر بعض آخر أن قريشاً كانت تستعمل هذه الجملة منذ عهد قبل الإسلام ، وأنها بقيت تستعملها إلى ظهور الإسلام . وقد استعملها الرسول ، ثم تركها ، وذلك بتزول الوحي باستعمال (بسم الله الرحمن الرحيم)^١ . ونحن لا يهمنا هنا اسم مبتدع هذه الجملة ، وإنما الذي يهمنا منها هو ما فيها من عبارة تدل أيضاً على التوحيد . فإذا صح أن الجاهلين كانوا يستعملون هذه الجملة ، فإن استعمالها هذا يدل على اعتقاد القوم بإله واحد ، أي بعبادة التوحيد ، ولا يعقل بالطبع استعمال شخص لهذه الجملة في رسالته ، يفتح بها كتبه ، لو لم يكن من أصحاب عبادة التوحيد ، وقد جاء في بعض الأخبار أن هذا الاستعمال متأخر ، وأنه حدث بعد أن تغيرت عوائد القوم في افتتاح كتبهم ، فقد كانت عوائدهم القديمة افتتاح رسالتهم بأسماء آلهتهم كاللات والعزى ، فرفعوا تلك الافتتاحيات القديمة واستبدلوا بها هذه الجملة الجديدة ، جملة (يا ربك اللهم) ، وعلى كل ، فإن جملة (يا ربك اللهم) وأمثالها إن صح أنها من ذلك العهد حقاً فإنها تدل على حدوث تطور في الحياة الدينية عند الجاهلين . وإلا فكيف يتصور استعمال هذه الجملة الموحدة مع وجود الشرك لو لم يكن قد حدث تطور فكري كبير في هذا العهد حملهم على استعمال هذه الجملة وأمثالها من الجمل والألفاظ البالية على التوحيد^٢ ؟

وقد درس بعض المشرقين هذا الموضوع ، ولا سيما موضوع ورود اسم الجلالة في الشعر الجاهلي ، فذهبوا في ذلك لمذهب . منهم من أبد صحة وروده في ذلك الشعر ، وآمن أن الشعر الذي ورد فيه هو شعر جاهلي حقاً ، ومنهم من أنكر ذلك ، وأظهر أنه شعر منحول مصنوع ، صنع على الجاهلين فيما بعد ، ومنهم من ذهب إلى أنه شعر صحيح ، غير أن رواية الشعر أدخلوا اسم الجلالة فيه ، ولم يكن هو فيه في الجاهلية ، بأن رفعوا أسماء الأصنام وأحلوا اسم الله محلها .

١ بلوغ الأرب (٣/٣٧٥) ، تاج العروس (٩/٤١١) ، (لا) .
 ٢ دعائي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : اكتب باسم الله الرحمن الرحيم .
 فقال سهيل : لا أعرف هذا . ولكن اكتب : باسمك اللهم . الطبري (٢/٦٢٤) ،
 (صلح الحديبية) .

وبينا نجد أهل الأخبار ينسبون إلى هؤلاء الشعراء وأمثالهم الاعتقاد بأنه، نجدهم ينسبون إليهم، الخلف بالأصنام، والاعتقاد بها. فقد نسبوا إلى (خلدش بن زهير) شعراً آمن به بالله، ثم نسبوا له قوله :

وبالمروة البيضاء يوم لبالة وعجبة الثمان حيث تنصرا

والمروة البيضاء، هي ذو الخلصة، ثم هو يقسم بحجة الثمان، وهو نصراني. أفلا يدل هذا على وجود تناقض أو تناقض في عقيدة أمثال هؤلاء الشعراء؟ والذي لا وقوف له على مطالب أهل الجاهلية، يرى هذا الرأي، أو يذهب إلى أن هذا الشعر مصنوع مفتعل. أما الذي يعرف عادة العرب في القسم، فلا يستغرب منه ولا يرى فيه تناقضاً، فقد كان الجاهليون يقسمون بكل شيء، يقسمون بالشجر والحجر وبالكواكب، وبالليل والنهار، وبالأصنام، وبعمير الإنسان وبعبائهم وبلحى الرجال، وبالأصنام والمعابد، وبالله، وبالحيز والملح، لا يرون في ذلك بأساً ولا تناقضاً مع عقيدتهم. هذا (علي بن زيد) العبدي، يقسم بمكة، وهو نصراني، لا يري للكمية في دينه حرمة ولا مكانة. أقسم بها على قاعدة العرب في القسم، وقد أقسم بأمور أخرى من أمور أهل الجاهلية الوثنيين، ولم يذكر أحد أنه بذلك دينه، وصار وثناً. وكذلك الأمر مع غيره من شعراء نصارى ويهود وعبد أصنام، أقسموا برهبان النصارى وبأمور نصرانية، مع أنهم كانوا عبدة أوثان.

ومن القائلين بالرأي الأخير، (تولدكه) . فقد ذهب إلى أن رواية الشعر وحلته في الإسلام هم الذين أدخلوا اسم الجلالة في هذا الشعر، وذلك بأن حللوا منه أسماء الأصنام، وأحللوا محلها اسم الله. فما جاء فيه اسم (اللات) حل محله اسم (الله)^١. وقد ذهب أيضاً إلى أن رواية الشعر في الإسلام حللوا من شعر الجاهليين ما لم يوفق مع عقيدتهم، وما وردت فيه أسماء الأصنام. ومن جملة ما استدل به على أثر التغيير والتحريف في الشعر الجاهلي ورود كلمة (الرحمن) في شعر شاعر جاهلي من هذيل، زعم أن ورود هذه الكلمة في هذا الشعر دليل

١ شرح ديوان لبيد (٢١) -
Nöldeke, Beiträge, II. IX, ff.

كأن لآليات أثر التلاعب فيه ، لأن هذه اللفظة إسلامية استحدثت في الإسلام ، ولا يمكن أن ترد في شعر شاعر جاهلي . وقد فات (تولدك) صاحب هذا الرأي أن الكلمة بهذا المعنى كلمة جاهلية ، وردت في نصوص المسند وفي نصوص جاهلية أخرى ، وأن من جملة من استعمالها (أبرهة) الحبشي في قصه الشهير المعروف بنص سد مأرب ، وأن قوماً من الجاهليين تعبدوا للرحمان ، عصى نحو ما تحدثت عن هذه العبادة في موضع آخر من هذا الكتاب .

وإدعاء أن اللفظة (الله) لم تكن موجودة في الأصل ، وإنما أقيمت فيه من بعد ، وذلك بإزالة رواة الشعر لأسماء الأصنام التي ذكرها أولئك الشعراء ، وإحلالهم اسم الله في محلها ، حتى ظهر ذلك الشعر وكأني شعر شعراء موافقين يعتقدون بوجود إله واحد . هو تعليل فيه شيء من التكلف ، فليس كل شعر فيه اسم الأصنام يصلح لقبول الجلالة ، فقد لا يستقيم من حيث الوزن أو المعنى بإدخال تلك اللفظة في موضع اسم الصنم . ثم إن من الشعر الجاهلي المروي في الإسلام ما بقي محافظاً على اسم الصنم دون أن يحسن ذلك الاسم بسوء . ولو كان من عادة الرواة حذف اسم الأصنام عامة لما تركوا لها بقية في الشعر . ثم ما هي القائلة التي يجنيها الرواة من طمس أسماء الأصنام ، وهم يعلمون أن أهل الجاهلية كانوا وثنيين ، يدينون بالأصنام ، وكانوا يقسمون بها ، وقد رويوا أمثلة من ذلك القسم !

أما (ولوزن) ، فيرى أن عدم ورود أسماء الأصنام في الشعر الجاهلي إلا في النادر وإلا في حالة القسم أو في أثناء الإشارة إلى صنم ، أو موضع عبادة ، ليس بسبب تغير الرواة الإسلاميين وتبديلهم لأسماء الأصنام . وإنما سببه هو أدب الجاهليين وعاداتهم في عدم الإسراف والإسفاف في ذكر أسماء الآلهة الخاصة ، وذلك على سبيل التأدب تجاه الأرباب ، فاستعاضوا عن الصنم بلفظة (الله) التي لم تكن تعني إلهاً معيناً ، وإنما تعني ما تعنيه كلمة رب وإله . ومن هنا كثر استعمالها في القسم وفي التمني أو التمني وأمثال ذلك من حالات .

Nöldeke, Beiträge, S. X.

Werner Caskel, Das Schicksal im der Altarabischen Poesie, Leipzig, 1926, S. 8, Goldziher, Abhandlungen, II, S. IX-LXXVI, Ahlwardt, Bemerkungen über die Echtheit der Alein Arabischen Gedichte.

Reste, S. 217. ff.

ويرى (ولوزن) أن لفظة (الله) كانت بهذا المعنى في الأصل . كانت تعني إلهاً على وجه التعميم ، دون التخصيص ، أي أنها لا تشير إلى إله معين ، استعمالها كل القبائل بهذا المعنى ، فهي صفة تشير إلى الألوهية المجردة ، وإن كان أفراد كل قبيلة يفصلون بها عندهم الخاص بهم . استعاضوا بها عن ذكر اسم الصنم . وإن استعمالها بجملاً مثل : (حاشا لله) و (قد درك) و (لاها الله) ، و (نا الله) ، و (ايم الله) ، و (لحا الله) ، و (جزى الله) ، و (جعلني الله فداك) ، و (لك الله) ، و (أرض الله) ، وأمثالها ، هو من هذا القبيل ، الله فيها بمعنى الرب والإله . ولما كانت أداة التعريف تفيد التخصيص ، فدخلوها في اسم الجلالة أفاد التخصيص والعلمية . وهذا ما حدث ، إذ فقدت الكلمة معناها العام ، وانتهت نحو التخصيص حتى صارت بهذا المعنى الذي صارت عليه في الاسلام .

وقد ذهب مشرقيون آخرون إلى صحة ورود لفظة الجلالة في الشعر الجاهلي . كما ذهبوا إلى أن ورودها في القرآن الكريم أو في الحديث ، لا يمنع من ورودها في الشعر الجاهلي ، ولا يكون سبباً للظن في ذلك الشعر ، لأن من الجاهليين من كان يؤمن بوجود إله هو فوق الآلهة عندهم ، فورد اسمه في شعرهم ، ليس بأمر غريب .

وورود اسم الجلالة في أشعار الجاهليين يحتملنا على البحث في أصله : هل هو إسلامي محدث ، أو هو اسم جاهلي قديم ؟ وبحث مثل هذا يجب أن يستند إلى النصوص . غير أننا ولأسف لا نملك نصاً جاهلياً يمكن أن يفيدنا في هذا الباب ، فكل النصوص الجاهلية التي وصلت إلينا حُرس لم تنطق بشيء عن اسم الجلالة ، فليس أمامنا إلا اللجوء إلى الطريقة المألوفة في مثل هذه الأحوال ، وهي الرجوع إلى آراء علماء اللغة ، وإلى المقابلة بين العربية واللهجات السامية الأخرى . أما آراء علماء اللغة ، فإنها مثل آرائهم الأخرى في أصول الكلمات الصعبة التي على شاكلتها ، كلها حدس وتخمين . ولا يمكن أن يستنبط منها شيء تاريخي ، يرجعك إلى أول عهد ظهرت فيه هذه اللفظة ، وإلى المراد منها . وأما المشرقيون ، فمنهم من يرى أن اللفظة عربية أصيلة ، ومنهم من يرى أنها من (ألاها) Alaha

ومعناها (الإله) بلغة (بني إدم) . أما الذين قالوا بعريتها ، فيرون أنها من (اللات) ، اسم الصنم المعروف ، تحرف وتولد منه هذا الاسم^١ .

واللفظة (الله) من أصل (إله) ، أي (رب) ، و (يعل) ، وهي من الألفاظ السامية القديمة . ويقال (إله) (إلهة) (إلهة) للأثني . لأن من الجاهلين من تعبد للآلهة الأنثى . وتقال (ه - اله) (ها اله) (هاله) في النصوص النمودية ، أي (الله)^٢ . كما ترد هذه اللفظة في نصوص عرية أخرى مثل النصوص الليمانية .

ويلاحظ أن لفظة (الله) هي من التسميات التي وردت في النصوص الشالية ، ويدل ورودها في هذه النصوص على تأثر العرب الشاليين بمسئ اختلطوا بهم من الشعوب التي كانت تقيم في شمال جزيرة العرب ، وأخذهم عبادة هذا الإله منهم . ولم تكن هذه اللفظة اسم علم في الأصل ، ثم تخصصت على ما يظهر من النصوص المتأخرة ، فصارت تدل على إله معين ثم على إله واحد أحد هو إله الكون في الإسلام .

ويذكر علماء اللغة أن (لاه) الله الخلق يلوهم خلقهم ، والآلهة الحية ، منها سمي الصنم اللات بها ، وجوز (سيبويه) اشتقاق اسم الجلالة منها . قال الأعشى :

كندوة من أبي كبار يسمعها لاهه الكبار

ولاه : علا وارتفع . وسميت الشمس إلهة لارتفاعها في السماء^٣ . وذكروا أن (ال) اسم الله ، وكل اسم آخره ال أو ايل ، فضاف إلى الله ، ومنه جبرائيل وميكائيل^٤ ، فهو (ايل) اذن ، إله جميع السامين القديم .

وتعداد المواضع التي وردت فيها لفظة الجلالة أو لفظة إله والإله في الشعر الجاهلي ، يخرجنا عن صلب الموضوع ، ويجعل البحث جافاً مملاً . غير أن في استطاعتنا أن نقول إنها وردت في أكثر ذلك الشعر إن لم نقل فيه كله . وأن ورودها فيه يشير إلى اعتقاد أصحاب ذلك الشعر بإله واحد قهار هو إله العالمين.

Ency. Religi., I, p. 663, Ency., I, p. 302.

Reate, B. 209, Milaan, II, p. 592, 593, 594, Grohmann, B. 87, ff.

١ تاج العروس (٤١٠/٩) - (لاه) - (٣٧٤/٩) - (اله) .

٢ تاج العروس (٢١١/٧) وما بعدها ، (ال) .

غير أن هذا القول يتوقف بالطبع على إثبات أن ذلك الشعر هو شعر جاهلي حقاً ، وأن من نسب إليهم قالوه من غير شك ، وأنه لم يوضع على ألسنة أولئك الجاهليين .

الاعتقاد بإله واحد :

والذي يفهم - وذلك كما سبق أن قلت - من القرآن الكريم ومن الحديث أن قريشاً ومن كان على اتصال بهم ، أو غيرهم من قبائل أخرى ، لم يكتفوا بتكبرون عبادة الله ، ولم يكتفوا بمحمدون الله ، بل كانوا يقررون بوجوده ، ويدعون له ، وإنما الذي أنكره الإسلام عليهم وحاربهم من أجله وسفه أحلامهم عليه ، هو تقربهم إلى الأصنام والأوثان ، وتقديسهم لها تقديساً جعلها في حكم الشركاء والشفعاء ومرتبعة الألوهية . والإسلام لا يعترف بهذه الأشياء ، وهو ينكرها ، ومن هنا حاربه قريش ومن كان على هذه العقيدة من حلفائها ومن القبائل التي كانت ترى رأيها . فهنا كان موطن الخلاف ، لا عقيدة الإيمان بالله .

وإذا أخذنا بهذا الرأي ، رأي اعتقاد الجاهليين أو بعضهم بإله واحد ، نكون بذلك قد حللنا عقيدة الأزواجية ، أي العقيدة الثنائية عند الجاهليين ووجودها في شعرهم ، فلا نجد عندئذ غرابة إذا وجدنا شاعراً يذكر الله في شعره ويعلف به ، ثم نجد يذكر الأصنام في الشعر نفسه ، ويقسم بها قسمه بالله .

ويكاد يكون الاجماع على ما تقدم . قال ابن قيم الجوزية في معرض مقارنته بين آراء المجوس وعبدة الأوثان من العرب : « بل كفر المجوس أظن . وعبادة الأوثان كانوا يقررون بتوحيد الربوبية ، وأنه لا خالق إلا الله ، وأنهم إنما يعبدون كفتهم لتقربهم إلى الله سبحانه وتعالى ، ولم يكتفوا بقرآن بصانعين للعالم أحدهما خالق الخير والآخر لشر كما تقول المجوس »^١ . قالونية على هذا الرأي ، ليست نكراناً لوجود إله ، وإنما هي اعتقاد بوجوده ، واعتقاد بفائدة التقرب إليه ، بتقربهم إلى الأصنام والأوثان ، أي الشفعاء ، بما في ذلك المبالغة في تقديس الأشخاص والقبور .

١ Heston, B. 201, Lyall, Ancient Arabian Poetry, p. XXIX.

٢ زاد المعاد (٢٢٤/٣) ، (فصل في حكمه في الجزية ومقدارها ومن تقبل) .

ولا نجد للعرب إلهاً قومياً خاصاً بهم كالذي نجده عند العبرانيين من تعلقهم بـ (يهوه) ، وعندهم آياه إلهاً خاصاً بإسرائيل . فقد صار هذا الإله إله جميع قبائل إسرائيل ويهوذا . أما العرب ، فقد كانوا يعبدون جملة آلهة : كل قبيلة لها إله خاص بها وكفة أخرى ، ولم يكن لها إله واحد له اسم واحد يعبده جميع العرب . والقاهر أن القبائل الساكنة في الحجاز ونجد والعراق والشام ، صارت قبيل الإسلام تتنكر لأصنامها العديدة ، وتأخذ بالتوحيد وبالأعتقاد بإله واحد هو الله ، وهو الذي نجده في هذا الشعر الجاهلي الذي هو حاصل تغريد شعراء قبائل عديدة مما يدل على أن قبائل أولئك الشعراء دانوا بالاعتقاد بوجود ذلك الإله فوق الأصنام والأوثان ، وقد توجت هذه العقيدة بتاج النصر في الإسلام . غير أن (الله) في الإسلام يختلف عن الله الجاهليين . فالله هو إله العالمين ، إله جميع البشر على اختلافهم . ليس له شريك من أصنام ولوثان .

أما الله الجاهليين ، فهو رب الأرباب ، وإله الآلهة ، يسمو فوق آله القبائل أي آله القبيلة الواحدة . ولما ذكر في شعر شعراء مختلف القبائل ، لأنه لا يخص بقبيلة واحدة .

ويقال لما يعبد من دون الله : الأنداد . وفي كتاب النبي لأبي بكر : وخلق الأنداد والأصنام . والتد : مثل الشيء والتقدير . وفي الترتيل : وانحلوا من دون الله أنداداً ، أي ما كانوا يتخللونه آلهة من دون الله .

والله إله ذكر . وكيف لا يتصور الإنسان إله ذكراً ، والذكر هو قوي مقتدر بخلاف الأنثى ! وحيث أن الله هو قوي ومصدر القوة والخلق ، فلا بد وأن يكون ذكراً في عقلية تلك الأيام ، ولا بد من التعبير عنه بصيغ التذكير . كما يلاحظ أن الجاهليين قد تصوروه واحداً ، فلم يحاطيروه بصيغة الجمع ، مما يفهم منه التعدد .

ولم يتطرق الشعر الجاهلي إلى موضوع وجود إلهة أي أنثى تكون زوجاً له . ولم يشر القرآن الكريم إلى اعتقاد الجاهليين بوجود زوجة له . فهو في نظرهم إذن إله واحد منفرد لا يشاركه مشارك في حياته . وإذا كان الله واحداً أحداً أعزباً ، فلا يمكن أن يكون له ولد . ولكن القرآن الكريم يشير إلى اعتقاد الجاهليين بوجود

بنين وبنات الله ، ففي سورة الانعام : « وجعلوا لله شركاء الجن » وخلقهم وخرقوا له بنين وبنات بغير علم ، سبحانه وتعالى عما يصفون ^١ . وقد ذهب المفسرون الى أن العرب قالت الملائكة بنات الله ، وقالت اليهود والنصارى عزيز والمسيح ابنا الله ، وأن النصارى قالت المسيح ابن الله ، وقال المشركون الملائكة بنات الله ^٢ . وفي سورة النحل : « ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم ما يشتهون » ^٣ ، وفي سورة الصافات : « قاسطنهم ألربك البنات ولهم البنون » ^٤ ، « ألا إنهم من إلكهم ليقولون : ولد الله وإنهم لكالذيون . اسطفى البنات على البنين ، مالكم كيف تحكمون » ^٥ . وفي سورة الزخرف : « ألم اتخذ مما يخلق بنات وأصفاكم بالبنين » ^٦ وفي سورة الطور : « ألم له البنات ولكم البنون » ^٧ . وأجمعوا على أن قربشاً وأصراهم كانوا يزعمون أن الله اسطفى الملائكة بناتاً له . ولم يذكرها كيف صاروا له بناتاً . وقد ورد في بعض الروايات أن كفار قريش قالوا : « الملائكة بنات الله . فسأل أبو بكر من أمهاتهن ؟ فقالوا : بنات سروات الجن » ^٨ . وورد في بعض أقوال علماء التفسير ، ان (أصداء الله) زعموا : ان الله وابليس اخوان ^٩ . ولم يذكرها من هم (أصداء الله) أهم من العرب أم من غيرهم !

ويظهر ان الذين آمنوا بوجود إله ، تصوروا مكانه فوق الانسان ، أي فوق الأرض ، في السماء . لذلك كانوا اذا توجهوا اليه بالدعاء رفعوا أيديهم الى السماء . والسماء : المكان المرتفع الثلاث بأن يكون مقر الرب أو الأرباب . وهو اعتقاد نجده عند غير الجاهليين أيضاً . ومن هذه النظرة ظهر (يعلى ممين) (يعلى ميم) ، أي (رب السماء) و (إله السماء) المذكور في بعض نصوص المستند . وهو إله قبيلة (امر) (أمر) من القبائل العربية الجنوبية . الإله المرسل للسحاب

- ١ . الانعام ، الرقم ٦ ، الآية ١٠٠ .
- ٢ . تفسير الطبري (١٩٧/٧ وما بعدها) ، روح المعاني (٢٠٩/٧) .
- ٣ . النحل ، الرقم ١٦ ، الآية ٥٧ .
- ٤ . الصافات ، الرقم ٣٧ ، الآية ١٤٩ .
- ٥ . الصافات ، الرقم ٣٧ ، الآية ١٥١ وما بعدها .
- ٦ . الزخرف ، الرقم ٤٣ ، الآية ١٦ .
- ٧ . الطور ، الرقم ٥٢ ، الآية ٣٩ .
- ٨ . تفسير الطبري (٦٩/٢٣) .
- ٩ . تفسير الطبري (٦٩/٢٣) .

ومثل الغيث ويأثث الحركة والحصب والخير للناس^١ . وقد تبع له الصوفيون كذلك ، وذكر في نصوصهم . وعرف عندهم بـ (هـ - بعلى سمن)^٢ .
ولقد النظرة اتخذ زهادهم لهم معابد خلوية على قسم الجبال وعلى القضاة والمرتفعات وابتنوا الصروح لتعبد فيها ومناجاة الرب ، وانحسروا من الكهوف المقورة في الجبال مأوي يتعبدون فيها ويعتكفون الأيام والشهور والسنين . وكانوا إذا أسكت السماء قطرها ، وأرادوا الاستمطار ، أصعدوا البقر في جبل وعمر ، وقد أضرموا النار في الساع والعشر المعقودين في أذنانها ، وهم يتبعون آلهها ، يدعون الله ويستغفرونه^٣ . ولولا اعتقادهم أن الجبل أقرب إلى الله من الأرض ، لما أتبعوا أنفسهم ، فصعدوا الجبل المرتفع مع بقرهم ، فكان استغفارهم من الأرض .

الجبر والاختيار :

هنا وأود أن أبين أن أكثر اللين كانوا يلبثون بالتوحيد ، وبعضهم بوجود إله واحد خلاق لهذا الكون ، كانوا يؤمنون بما نسميه : « القضاء والقدر » أو (الجبر) بتعبير أصبح . فالخير والشر من الله ، وكل شيء في هذا الكون محتوم مكتوب . وما يصيب الإنسان ، لا بد أن يكون قد كتب عليه ، ولا راد لما هو مكتوب ، بل نجد هذه النظرة حتى عند من لم يأت اسم الله في شعره ، فلا ندرى أكان من المؤمنين بالله أم لا . وفكرة أن كسل شيء في هذا الكون مقدر محتوم ، فكرة قديمة غلبت على عقلة الشرقيين ، بسبب الأوضاع الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والعسكرية التي كانت سائدة إذ ذاك ، أوضاع جعلت الغالبية من الناس تشعر أنها مسطرة ، وأنها تدفع في حياتها دفعا وفي سبيل خنعة الخفية للحكومة ، المسيرة للأمور ، أضف إلى ذلك تأثير عامل الجبر في الإنسان .

وقضية الجبر والاختيار ، قضية لا تجددها عند المؤمنين بوجود إله هو (الله) ، أو لغة أخرى من الجاهليين فقط ، بل تجددها عند غيرهم أيضاً ممن لم يكن يقر بعبادة (الله) ، وينكر وجود خالق ، تجددها عند من كان يتعبد للأصنام ،

Rep. Epigr. 4142, Grohmann, B. 243.

P. V. Winnett, Sasanian Inscriptions from Jordan, p. 18, 23.

١ ابن فارس ، رسالة التبريز (ص ١٨ وما بعدها) .

أو لتقوى الخفية ، أو لا يدري أي شيء عن الآلهة والخلق ، أو من الدهرية ،
القاتلين بالدهر . فهؤلاء أيضاً كانوا يعتقدون أن الإنسان ، مسير ولا اختيار له
في هذه الدنيا ، فكل شيء مكتوب عليه . كتب عليه منذ ولد . والسبب ، هو
ما قلته : وجود عوامل عديدة سببت الإنسان واستعبده من أوضاع سياسية واجتماعية
وعسكرية واقتصادية ومناخية تحكمته فيه ، حتى رسخ في عقل الجاهلي ، أن كل
شيء في هذه الدنيا مقدر مكتوب ، وأن ما كتب على الجبين ، لا يمكن تغييره
ولا تبديل له ، ولا اعتراض على ما هو مكتوب ، ولا راد لأمر كتب في السماء .

الموت :

وفي مطلع قائمة الموضوعات التي أثارت البشرية ولا تزال تثيرها قضية الموت
التي هو ضد الحياة والعالم الثاني الذي يصير إليه الإنسان بعد الموت^١ . إن الموت
أمر مخيف راعب يثير مشاعر كل انسان . فما الذي سيكون مصيره بعد الحياة ،
ولم أي مكان سيذهب بعد هذه الحياة ، وهل الموت انطفاء لشعلة الحياة والاحلال
للجسد الى الأبد ؟ أو هو مرحلة من حياة الى حياة أخرى يحيا فيها الانسان حياة
جديدة ، ويعيش بعداً جديداً يبعث من خلقه ؟ ثم ما الذي سيكون عليه في العالم
الثاني ؟ هل يعيش عيشة راضية مطمئنة ، عيشة تفوق معيشته في عالمه الأول ؟
أم سيعيش عيشة أخرى ؟ إما راضية ناعمة ، وإما شقية نعمة بحسب عمل الإنسان
وما قدمه لنفسه من عمل في العالم الأول ؟ هذه الأسئلة وعشرات من أمثالها شغلت
بال الإنسان البدائي والرائي ولا تزال تشغله . كل وجد لها أجوبة ، وكل قنع
بما أجاب به عنها ، ورضي بها . وكانت للجاهليين على اختلافهم آراء في هذه
المشكلات لا شك في ذلك .

والموت في كلام العرب : السكون . يقال مات بمعنى سكن^٢ . وهذا هو
المعنى المقصود للموت عند الجاهليين . فالمراد من الموت هو سكون الجسد بعد
مفارقة الروح له . وقد حار الجاهليون ، كما حار غيرهم في تفسير ظاهرة الموت ،

١ المخصص (٦٤/٢) .

٢ تاج العروس (٥٨٦/١) ، (موت) .

وكيفية وقوع الموت وحلوله . وقد اعتبره بعضهم حدثاً طبيعياً ، يحدث للإنسان كما يحدث لأي شيء آخر في هذا الكون من التعرض للهلاك والدمار . واعتبره بعض آخر ، مفارقة الروح للجسد . وهم الذين اعتقدوا بالثنائية وبالازدواجية في حياة الإنسان ، أي بوجود جسد وروح . واعتبره آخرون موت للنفس ، وبوفاة النفس يتوفى الجسد ويصيه السكون . فالموت عندهم مفارقة الروح للجسد ، فإذا مات الإنسان خرجت روحه من أنفه ، أو من فمه ، لينفخ الإنسان نفسه . وإذا مات ميتة طبيعية ، يقال عن الميت : مات حتف أنفه ، ومات حتف فمه ، أي إن روحه خرجت من أنفه أو من فمه ، وهو قليل ، لأن النفس في نظر أهل الجاهلية تخرج بنفثه ، كما يتنفس من أنفه . ويقال أيضاً حتف أنفه . وكانوا يعتقدون أن المريض تخرج روحه من أنفه ، ولما القبيل ، والجريح ، فتخرج روحه من موضع جرحه^١ .

ويقال : (زهقت نفس فلان) ، أي خرجت روحه . فهم يتصورون إذن أن روح الإنسان كائن مستقل إذا فارق الجسد مات . (وفي الحديث : إن النحر في الحلق واللبة ، وأقروا الأنفس حتى تزهق ، أي حتى تخرج الروح من اللبحة ولا يبقى فيها حركة)^٢ .

و (الرمق) بقية الحياة ، أو بقية الروح ، وآخر النفس^٣ . فكأنهم تصوروا أن الشخص المريض أو الجريح ، قد ودع معظم نفسه ، ولم تبق من روحه إلا بقية لا تزال في جسده ، هي الرمق .

البعث :

لم يكن كثير من الجاهليين يؤمنون بالبعث كما يتبين ذلك من القرآن الكريم . لقد كانوا يرون أن الموت نهاية ، وأنهم غير مبعوثين ، وأن البعث بعد الموت شيء غير معقول ، لذا تعجبوا من قول النبي بوجود البعث والحساب . وقالوا

١ تاج العروس (٦٤/٦ وما بعدها) ، (حتف) .

٢ اللسان (١٤٧/١٠) ، (زهق) .

٣ اللسان (١٢٥/١٠) ، (رمق) .

إن هي إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين^١ ، « وأنقسموا بألق جهنم
لا يبعث الله من يموت ، بل وعداً عليه حقاً ولكن أكثر الناس لا يعلمون^٢ ،
« وقالوا إذا كنا عظاماً ورفاتاً إنا لمبعوثون خلقاً جديداً . قل : كونوا حجارة
أو حديداً لو خلقاً مما يكبر في صدوركم ، فسيقولون : من يعيدنا ؟ قل : الذي
فطركم أول مرة ، فسيفضون اليك رؤوسهم ، ويقولون : متى هو ؟ قل :
عسى أن يكون قريباً^٣ . و « زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا ، قل بل وريسي
لتبعن ثم لتنبؤن بما عملتم وذلك على الله يسير^٤ ، و « إن كنتم في ريب من
البعث إنا خلقناكم من تراب^٥ ، و « لئن قلت إنكم مبعوثون بعد الموت ،
ليقولن الذين كفروا إن ههنا إلا سحر مبين^٦ ، و « بل قالوا مثل ما قال
الأولون . قالوا أثنا متنا وكنا تراباً وعظاماً إنا لمبعوثون^٧ ، و « ان تعجب
فعبج قوهم : إذا كنا تراباً إنا لنفي خلق جديداً^٨ ، و « أبعثكم أنكم إذا
متمم وكنتم تراباً وعظاماً إنكم مخرجون . هيهات هيهات لما توعدون . ان هي
إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين^٩ . و « قسأل الذين كفروا إذا كنا تراباً
وآبائنا إنا لمخرجون . لقد وعدنا هذا ، نحن وآبائنا من قبل إن هذا إلا أساطير
الأولين . قل : سيروا في الأرض فالظنوا كيف كان عاقبة المجرمين . ولا تحزن
عليهم ولا تكن في شيق مما يحكمرون . ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين .
قل عسى أن يكون ردف لكم بعض الذي تستعجلون^{١٠} ، و « وقالوا : إذا
ضلنا في الأرض إنا لنفي خلق جديداً ، بل هم بلقاء ربهم كافرون . قل يتوفاكم

-
- ١ الانعام ، الآية ٢٩ .
 - ٢ النحل ، الآية ٣٨ ، تفسير الطبري (١٠٤/٨) وما بعدها .
 - ٣ الاسراء ، الآية ٤٩ وما بعدها ، تفسير الطبري (١٠٤/١٤) وما بعدها ، روح
المعاني (١٢٨/١٤) .
 - ٤ التباين ، رقم ٦٤ ، الآية ٧ .
 - ٥ الحج ، رقم ٢٢ ، الآية ٥ .
 - ٦ هود ، رقم ١١ ، الآية ٧ .
 - ٧ المؤمنون ، الآية ٨٢ ، الصفات ، الآية ١٦ .
 - ٨ الرعد ، الآية ٥ .
 - ٩ المؤمنون ، الآية ٣٥ وما بعدها .
 - ١٠ سورة النمل ، رقم السورة ٢٧ ، الآية ٦٧ وما بعدها .

ملك الموت الذي وكل بهكم ، ثم الى ربكم ترجعون ١ . و : إن هؤلاء ليقولون : إن هي إلا موتتنا الأولى وما نحن بمنشرين . فأتوا بآياتنا إن كنتم صادقين ٢ .

والآيات المتقدمة وأمثالها ٣ كلها حكاية عن رأي كثير من الجاهلين في نفى البعث وفي عدم إمكان العودة الى حياة أخرى بعد موت بهلك الجسم وبقي العظام فيجعلها رمياً ويحرق كل أثر للجسم ، لذا كان البعث من أهم ما عارض فيه الجاهليون معارضة قاسية شديدة ، وكان من الموضوعات التي تتدروا بها وسخروا وأخطوا عليها الرسول ٤ . وكانوا يقولون : : إن هي إلا موتتنا الأولى التي نموتها . وهي المنة الأولى ، وما نحن بمنشرين بعد مماتنا ولا بمبعوثين تكليةً منهم بالبعث والثواب والعقاب ٥ . وقالوا للرسول : : فأتوا بآياتنا اللتين قد مائوا إن كنتم صادقين إن الله يبعثنا من بعد هلانا في قبورنا ، ومحييتنا من بعد مماتنا ٦ . وقالوا : : أإذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أئنا لمبعوثون ؟ يقولون منكربن بعث الله إياهم بعد بلاكهم . أئنا لمبعوثون أحياء من قبورنا بعد مماتنا ومصبرنا تراباً وعظاماً قد ذهب عنها اللحوم . أو آباءنا الأولون الذين مضوا من قبلنا فبادوا وملكوا ؟ ٧ .

وكان من حاججة قريش للرسول ومحاولتهم لإفحامه وتمجيذه قولهم له يوم اجتمعوا به : : يا محمد ؟ فإن كنت غير قابل منا شيئاً مما عرضناه عليك ، فإنك قد علمت انه ليس من الناس احد أصبق بلاءً ولا اقل ماءً ولا أشد عيشاً منا . فلنا ربك الذي بعثك بما بعثك به قليسر عنا هذه الجبال التي قد ضيقت علينا ، وليسط لنا بلادنا وليفجر لنا فيها أنهاراً كأنهار الشام والعراق . وليبعث لنا من مضى من آباءنا وليكن فيمن يبعث لنا منهم قصي بن كلاب ، فإنه كان شيخ صدق ، فبأنهم عما تقول ، أحن هو أم باطل ، فإن صدقوك وصحت ما سألتك صدقتك وعرفنا به مترتك من الله وأنه بعثك رسولاً كما

- ١ السجدة ، رقم السورة ٣٢ ، الآية ١٠ وما بعدها . تفسير الطبري (٩٦/٢١) ، روح المعاني (١١٢/٢١) وما بعدها .
- ٢ النحل ، رقم السورة ٢٤ ، الآية ٣٤ وما بعدها . تفسير الطبري (٧٦/٢٥) وما بعدها .
- ٣ هود ، ٧ ، المؤمنون ٨٢ وما بعدها . مائا ، ٣ وما بعدها ، الجاثية ، ٢٤ وما بعدها .
- ٤ الكشاف (١٤٨/١) ، (٧٤/٢) ، ١٨٩ ، ١٩٥ وما بعدها ، الطبرسي (٣٩/٧) ، (٧٥/١٤) ، (٥٨/١٥) .
- ٥ تفسير الطبري (٧٦/٢٥) ، (٧٨/١) وما بعدها .
- ٦ تفسير الطبري (٣٠/٢٣) .

تقول ١ : ١ . وسألوه أسئلة أخرى من هذا القبيل ، لتعجيزه في إثبات البعث .
 « جاء عبدالله بن أبيّ إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، يعظم حائل فكسره بيده ،
 ثم قال : يا محمد ، كيف يبعث الله هذا وهو رميم ؟ فقال رسول الله صلى الله
 عليه وسلم ، يبعث الله هذا ويميتك ثم يدخلك جهنم » ٢ . وأبى (أبيّ بن خلف)
 رسول الله (يعظم حائل ففته ثم ذراه في الريح . ثم قال : يا محمد من يحيي
 هذا وهو رميم ؟ قال الله يحييه ثم يميت ، ثم يدخلك النار » ٣ . و « جاء العاص
 ابن واثل السهمي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يعظم حائل ففته بين يديه .
 فقال يا محمد أيعث الله هذا حياً بعدما أرم ؟ قال : نعم يبعث الله هذا ، ثم
 يميتك ، ثم يحييك ثم يدخلك نار جهنم » ٤ .

ومن أنكر البعث على ما ذكره الأخباريون قوم من قريش كانوا زنادقة أنكروا
 الآخرة والربوبية ، أخذوا زنادقتهم هذه من الحبرة * . وإذا كان من هؤلاء من
 كان يقدم القرابين والمدايا لأصنامهم ، فإن ذلك لا يعني أنه كان يفعل ذلك لترضى
 عنه في العالم التالي ، بل كان يفعل ذلك لترضى عنه في هذه الحياة الدنيا ، لنعم
 عليه بالنعم والمغيرات . أما العالم الثاني ، فهو عالم لا يهتم به ، لأنه لم يكن
 يتصور وجوده ولا حدوثه بعد الموت ٥ .

ويجلى هذا الإنكار للحشر والبعث في آيات تنسب إلى (شداد بن الأسود
 ابن عبد شمس بن مالك) يرثي بها قتلى قريش يوم بدر ، وهم الذين قتلوا في
 تلك المعركة وألقوا في القليب :

أبوعدي ابن كبشة أن سحيا وكيف حياة أصداء وهام ؟
 أيعجز أن يرد الموت عسي وينشرني إذا بليت عظامي

أراد الشاعر إنكار البعث، وأن يصير الإنسان مرة أخرى انساناً بعد أن تتحول

-
- ١ ابن هشام (١٨٦/١) ، (حاشية على الروض) .
 - ٢ تفسير الطبري (٢١/٢٣) ، روح المعاني (٥٠/٢٣) .
 - ٣ تفسير الطبري (٢١/٢٣) ، الاشتقاق (٨٠) .
 - ٤ تفسير الطبري (٢١/٢٣) .
 - ٥ المحبر (ص ١٦١) ، بلوغ الأرب (٣٤٥/١) ، المعارف (٦٢١) .
 - ٦ Doane, B. 188.

روح الانسان الى طير^١ .

وذكر ان (الحارث بن عبيد الغزى) ابو رسول الله من الرضاعة ، لما قدم مكة ، قالت له قريش : « ألا تسمع يا حار ما يقول ابنك هذا ؟ فقال : وما يقول : قالوا : يزعم ان الله يبعث بعد الموت ، وان لله دارين يعذب فيها من عصاه ، ويكرم فيها من أطاعه . فقد شئت أمرنا وفرق جهاشنا »^٢ . فهم يتكرون البعث والحساب ، ولا يريدون مصاع شيء عنها ، ولا يصدقون عودة الروح الى الجسد بعد أن فارقت ، فلذلك عندهم من المستحيلات ، ولذلك سخرُوا من البعث لما صمروا به . وكيف يكون بعثاً وقد قنيت الأجساد ، فلم يبق منها بقية !

فأرى من أنكّر الخسر والبعث من أهل الجاهلية ، ان الحياة حياة واحدة ، هي حياتنا التي نحن فيها في دار الدنيا ، ولا يكون بعد الموت بعث ولا حساب ، نحيا ونموت ، يموت بعضنا ونحيا بعضنا ، وما يميتنا إلا الأيام والليالي ، أي مرور الزمان وطول العمر^٣ . فالحياة اذن حياة وموت في هذه الدنيا ، وهي استمرار للآخرين على مدى الدهر ، يولد انسان ثم يموت ليحل محله انسان آخر ، وهكذا بلا انتهاء .

ونجد رأي التاكيرين للبعث في قوله تعالى : « وقالوا : ما هي إلا حياتنا الدنيا ، نموت ونحيا ، وما يهلكنا الا الدهر »^٤ . فهم يقولون : ما هي إلا حياتنا الدنيا ، نموت نحن ونحيا أينزلنا بعدنا ، فجعلوا حياة ابتلاهم بعدهم حياة لهم ، لأنهم منهم وبعضهم ، فكأنهم بحياتهم أحياء . والدهر الزمان ، وهو الذي يهلك ويغنى^٥ . فالحياة بهذا المعنى ، فعل مستمر ، وتطور لا ينتهي ، يهلك جيل ،

١ وهي من أبيات رويت بصور مختلفة ، وفي بعضها زيادات ، راجع ابن هشام (١١٣/١) ، هامش على الروض الأتف ، كتاب الصبح المنير في شعر أبي بصير (ص ٣٠٨) ، مطبعة أوردية ١٩٢٧ ، « بلوغ الأرب (١٩٨/٢) » .
يحدثنا الرسول بشأن مستحيا وكيف حياة أمدها وهام ؟
بلوغ الأرب (١٩٢/٢) .
٢ الروض الأتف (١٠٧/١) .
٣ تفسير الطبرسي (١٣٦/٢٥) ، (بيروت) ، (٧٨/٢٥) ، (طهران) .
٤ الجاثية ، الآية ٢٤ ، تفسير الطبري (٩١/٢٥) ، روح المعاني (١٣٩/٢٥) .
٥ تفسير الطبري (٩١/٢٥) وما بعدها ، (بولاق) ، (١٥١/٢٥) وما بعدها .
(القاهرة ١٩٥٤) .

ليأخذ محله الجليل الذي نبت منه . وكلّ يأخذ دوره في هذه الحياة ، فإذا انتهى دور الإنسان ، قام بدوره نسله ، وهكذا ، وبهذا المعنى تفسر الحياة ، وفسر الموت .

وقد يسأل سائل إذا كان أغلب أهل الجاهلية لا يؤمنون بثواب ولا بحساب وبعث ونشر ، فلم تعبّدوا إذن لإله ، وتقرّبوا إلى الأصنام ، وقدّموا القرابين والثلجور ؟ وجوابي على هذا السؤال ، هو ما ذكره المتقدمون عنه . قالوا : كانت العرب في الجاهلية تدعو في مصالح الدنيا فقط ، فكانوا يسألون الإبل والغنم والظفر بالعلو ، ولا يطلبون الآخرة ، إذ كانوا لا يعرفونها ولا يؤمنون بها . فعبادتهم الله وتقرّبهم إلى الآلهة ، هي لمصلحة دنيوية ، لنفع ولزيادة في مال ، ولدفع شر الأذى والأمراض وحيون الحساد ، ومن كل ما هو شر ، أما الآخرة ، فلا علم لهم بها .

وما يخوفهم من الآلهة إلا لأعضادهم أنها تضرمهم وتهلكهم وتنزل بهم الشر في هذه الدنيا . فلذا أقسم أحدهم كذباً ، انقضت الآلهة منه وأُنزلت به نازلة ، لذلك نجنيوا الإيمان الكاذبة ، وامتنعوا من الحلف جهداً إمكانهم ، لخوفهم من عاقبة الحلف الكذب . والعاقبة السيئة تكون في هذه الدنيا . وهي عواقب مادية ، لأن عقلية أكثر أهل الجاهلية لا تدرك إلا القيم المادية للأشياء . فتصوروا العاقبة السيئة تصوراً مادياً ، كتزول مرض إنسان أو نزول كارثة بماله أو بإبله أو بزوجه أو بأهله ، وهي أمور يخشاهم الجاهلي ، تكون معجزة في نظره ، أي في هذه الدنيا . لأنهم لا يعرفون أن في الحياة داراً غير هذه الدار ، ولا يؤمنون بخسر وبعث .

جاء في الأحبار أن (ضيام بن ثعلبة) السعدي ، ويقال التميمي ، لما قدم على الرسول ، أقبل حتى وقف على رسول الله ، وهو في أصحابه ، فقال : أيكم ابن عبد المطلب ؟ فقال رسول الله : أنا ابن عبد المطلب . قال : أعمد ؟ قال : نعم . قال : يا ابن عبد المطلب إني سألك ومغلف عليك في المسئلة فلا تجدن في نفسك . قال : لا أجد في نفسي . سل عما بدا لك . قال انشدك بالله الملك وإله من كان قبلك وإله من هو كائن بعدك الله امرك أن تعبده وحده

لا نشرك به شيئاً ، وان تخلع هذه الأوثان التي كان آباؤنا يعبدون معه ؟ قال :
 اللهم نعم . ثم سأله عن القرائن ، فأسلم . قلنا قدم على قومه ، فاجتمعوا إليه ،
 (فكان أول ما تكلم به ، ان قال : بثت اللات والعزى . قالوا : مه يا ضياع
 اتق البرص ، اتق الجسام ، اتق الجنون . قال : ويلكم أيها والله ما بضران
 وما بضران)^١ . فالتعاقب عذاب مادي في هذه الدنيا ، ترسله الآفة على الانسان .
 غير ان فريقاً من الجاهليين كما يقول أهل الأخبار كان يؤمن بالبعث وبالخسر
 بالأجساد بعد الموت ، ويستشهدون على ذلك بـ (العقيرة) ونسي (البلية)
 أيضاً . والبلية الناقة التي كانت تعقل عند قبر صاحبها اذا مات حتى تموت جوعاً
 وعطشاً . ويقولون انه يحشر راكباً عليها ، ومن لم يفعل معه هذا حشر راجلاً .
 وهذا مذهب من كان يقول منهم بالبعث ، وهم الأقل . ومنهم زهير فلانه
 قال :

بؤخر فيوضع في كتاب فيدخر ليوم حساب أو يعجل فينقم^٢

ويذكر أيضاً انهم كانوا يعكسون رأس الناقة أو الجمل أي يشدونه الى خلف
 بعد غفر احلى القوائم او كلها لكيلا تهرب ، ثم يترك الحيوان لا يعلف ولا
 يبقى حتى يموت عطشاً وجوعاً ، ذلك لأنهم كانوا يرون ان الناس يحشرون ركبناً
 على البلياء ومشاة اذا لم تعكس مطالبهم عند قبورهم^٣ ، وفي هذا المعنى قال الشاعر
 في البلية :

والبلياء رؤوسها في الولايا ملغعات السموم حر الحدود

والولايا هي البراذع ، وكانوا يشقون البرذعة فيجعلونها في عنق البلية وهي
 معقولة . وأوصى رجل ابته عند الموت بهذه الوصية :

يا سعدُ اما أهلكني فلاني أوصيك إن أخطا الوصاة الأقرب

- ١ الاستيعاب (٢٠٧/٢ وما بعدها) ، (حاشية على الاصابة) .
- ٢ الروض الالنف (٩٦/١) ، الشعر والشعره (٧٦/١) ، (بيروت ١٩٦٤ م) .
- ٣ تاج العروس (٤٣/١٠) ، اللسان (٩٢/١٨) ، النهاية (١١٥/١) ، رسالة
 النفران (٣٣٣ وما بعدها) ، (بنت الساطي) .

لا تتركس أباك يمشي خلفهم نعباً يغرّ عسل اليدين وينكب
احل أباك عسل بعبر صالح وابن الخطيئة إنه هو أصوب
ولعلّ مالي ما تركت مطيئة في ألم أركبها إذا قيل أركبوا^١

وذكر أنهم كانوا يحضرون لليلة حفرة وتشد رأسها الى خلفها وتبلى ، أي
تترك هناك لا تعلف ولا تسقى حتى تموت جوعاً وعطشاً . وكانت النساء ، يقعن
حول راحلة الميت فينحن إذا مات أو قتل ، وقد عرفن بـ (مُبَكِّيَّات)^٢ .
وفي رواية أن بعض المشركين كان يضرب راحلة الميت بالنار وهي حية حتى
تموت^٣ ، يعتقدون أنهم إنما يفعلون ذلك ، ليستفيد منها الميت بعد الحشر^٤ .
وإذا كانت عقيدة الجاهليين في حق الحيوانات المسكينة وإهلاكها قد ماتت
وزالت ، بسبب تحريم الإسلام لها ، فإن فكرة حشر الناس وحيواناتهم لا تزال باقية
حية عند بعض الناس . فالذين يقدمون (العقيقة) في الحياة أو يقدمونها حسين
الوفاة ومع قتل الجنائز أو على القبر ، يختارون أحسن الحيوانات وأقواها للتمكن
من حملهم يوم الحشر ، وتنهض بهم ، فيسير راكباً ، ولا يحشر وهو مترجل
يسير في تلك الساعات الرهيبة ماشياً على قدميه .
ويقال للموت وللحساب (اليزام)^٥ .

ولا أعتقد أن نحر الإبل على القبر وتبليله بدم الإبل المذبوحة^٦ ، مجرد عادة
يراد بها إظهار تقدير أهل الميت له ، أو تمثيل كرم الراحل حتى بعد وفاته ،
بل لا بد أن يكون هذا النحر من الشعائر الدينية والعقائد الجاهلية التي لها علاقة
بالموت وباعتقادهم أن موت الإنسان لا يمثل قتلاً تاماً وإنما هو انتقال من حال
الى حال .

- ١ الشعر لـ (جريبة بن الأشم الفلصسي) ، يوصي ابنه به وقد ورد بصور أخرى ،
والجميع الروض الآنف (٩٦/١) ، النهاية ، لابن الأثير (١١٥/١) ، اللسان
(٨٥/١٤ وما بعدها) ، تاج العروس (٤٣/١٠) ، طبقات الأمم (٤٩) .
- ٢ اللسان (٨٥/١٤ وما بعدها) .
- ٣ المخصص (١٢٢/٦) ، اللسان (١٥/١٦) ، الأغاني (١٢٢/٦) .
- ٤ الأغاني (٤٨/١٦) ، أخبار زيد الخيل ، (١٧٦/١٧) ، (بيروت ١٩٥٥) ،
Reade, II, 180.
- ٥ تاج العروس (٥٩/٩) ، (لزوم) ، المخصص (١٢٢/٦) .
- ٦ الأغاني (٨٨/١٩) .

وذكر (السكري) ، أن أكثر العرب كانوا يؤمنون بالبعث . واستشهد على ذلك شعر للأعشى ، ذكر فيه الحساب . كما ذكر أنهم كانوا يؤمنون بالحساب ، واستشهد على رأيه هذا شعر للأخضري بن شهاب التميمي^١ . وقول (السكري) هذا مردود ، بما ورد في القرآن الكريم من إنكار أهلهم للحساب والبعث والكتاب ، وأما الذين قالوا بالبعث ، فهم طائفة لا تصل إل مستوى الكثرة أو الكل حتى نستعمل صيغة التعميم .

وإذا كان ما تصوره أهل الجاهلية عن البعث والحشر صحيحاً على نحو ما ذكره أهل الأخبار ، فلا يستبعد أن يكون القائلون به أو بعضهم قد تصوروا الحساب على نحو ما يحاسب الإنسان على عمله في دنياه . ويلاحظ أن القيامة والبعث والحشر والجنة والنار هي من الكلمات العربية التي لا يستبعد أن يكون لها مفهوم قريب من مفهومها الإسلامي عند الجاهليين .

أما كيف تصور أولئك الجاهليون حدوث البعث والحشر ، هل هو قصاص وثواب وعقاب وحساب وجنة ونار ، أو هو بعث وحشر لا غير ، فأهل الأخبار لم يأتوا عنه بجواب ، ولم يذكروا رأي تلك الفئة المقررة بالبعث والحشر في ذلك . ولهذا فليس في استطاعتنا إعطاء صورة واضحة عن الحشر وعمّا يحدث بعده من تطورات وأمور .

ولم نتحدث الكتابات الجاهلية عما يحدث للإنسان بعد موته . وكل ما ورد فيها هو توسل إلى الآلهة بأن تنزل غضبها على كل من يحاول تغيير قبر ، أو إزالة معالته ، أو دفن ميت غريب فيه ، وإن تنزل به الأمراض والأفات والمهلك . ولم نذكر تلك التصوص السبب الذي حل أهل القبور على التشدد في المحافظة على القبر وعلى ضرورة بقاءه ودوامه . فلا نفري إذا كان ذلك عن تفكير بوجود بعث ، ويتصور قيام الميت من قبره مرة أخرى ، ورجوعه ثانية إلى الحياة ، أو إلى عالم ثان ، هو عالم ما بعد الموت ، ولغنا حرصوا حرصاً شديداً على عدم السماح بدفن أحد في قبر ، إلا إذا كان من أهل صاحب القبر ومن ذوي رحمه ، حتى لا يتأذى الميت من وجود الغرباء ، وليستأنس بأهله وبذوي قرابته مرة أخرى بعد عودة الحياة إليه ، فيرى نفسه محشوراً معهم ، ومع من أحبه في حياته ، عائلاً

١ . الحبير (٣٢٢) .

معهم ، كما كان قد عاش معهم ، أو أن حرصهم على حرمة القبر ، إنما كان عن مراعاتهم لحرمة القبر ، وعلى منزلة المولى ، فالسبح بحرمة القبر ، مسبح بحرمة الميت ، وانتهاك لقامه ولمكانته ، ولما كان عليه في هذه الحياة !

وهناك من كان يعتقد أن الميت وإن غيب في قبره وانقطعت علاقته بآله وذويه ، إلا أن روحه لن تموت ، وأنه يظل وهو في قبره يقطر ، متنبهاً لأخبار أهله ، تخبره بها هامة التي تكون عند ولد الميت في محلة بفتانهم ، لتعلم ما يكون بعده فتخبره به ، حتى قال الصلت بن أمية لبيه :

هامي تخبرني بما تستشعروا فتجنوا الشعاء والمكروها

ولما ما ورد في الشعر الجاهلي من أمر الحشر والنشر والحساب والكتاب والعالم الثاني ، فهو مما ورد ودون في الاسلام ، ولم أجد في رواية من روايات أهل الأخبار أن أحداً من رواة الشعر الجاهلي ، ذكر أنه نقل ما نقل من هذا الشعر من ديوان جاهلي ، أو من كتاب كتب قبل الاسلام . ومع ذلك ، فإن هذا المروي عن العالم الثاني قليل ، لذلك لا تتمكن لقلته من تكوين صورة واضحة عن ذلك العالم ومن التحدث بطلاقة عن رأي أصحاب هذا الشعر في الحشر والنشر والبعث .

ولما ما ورد في شعر (أمية بن أبي الصلت) عن الحساب والثواب والعقاب والجنة والنار ، فهو أوسع ما ورد في الشعر الجاهلي في هذا الموضوع . وأمية ، هو الشاعر الجاهلي الوحيد الذي جاء أكثر شعره في نزعات دينية وفكرية ، ذلك لأنه كان في شك من عبادة قومه ، وكان على شاككة غيره من مشم تلك العبادة ، بنهى قومه عنها ، وبسفه أعلامها ، وقد تأثر باليهودية وبالنصرانية . وفي شعره اعتقاد بالجنة والنار والبعث . وبوصحة المعاد الجسماني ، وبوجود الجنة والنار بالمعنى الحقيقي ، لا المجازي ، وهو يتفق في ذلك مع الإسلام . كما تحدثت عن ذلك في الفصل الخاص بالأحناف .

وكان (الأعشى) ممن يؤمن بالله وبالحساب ، وقد استشهد من قال ذلك عنه

بأبيات شعر تشعر أنه كان يؤمن بالحساب وقيام الإنسان بعد الموت لحسابه على عمله . من ذلك قوله :

يرأوح من صلوات المليك طوراً سُجوداً وطوراً جُوراً
بأعظم منك تُقى في الحساب إذا التهمت نفوس الغبار^١

وكان (زهير بن أبي سلمى) على ملعب من كان منهم يقول بالبعث ،
وهم الأقل^٢ قال :

يؤخر فيوضع في كتابٍ قد سحر ليوم الحساب أن يعجل فيقيم^٣
وكان (حاتم) عليه من التأملين ، ومن المعتقلين بالحساب . وقد أورد أهل
الأخبار له شعراً في ذلك^٤ .

البلية والحشر :

ولم يذكر أهل الأخبار كيف تصور القائلون بالقيامة وبالحشر من أهل الجاهلية
قيام الموتى ومشيتهم إلى المحشر . فقد ذكروا أن قوماً من الجاهليين كانوا إذا
مات أحدهم عقلوا غافة على قبره وتركوها حتى تئيل ، وتسمى لذلك (البلية) .
وقالوا : « البلية كغفنة الناقة التي يموت ربه ، فتشد عند قبره ، فلا تعلق ولا
تسقى حتى تموت جوعاً وعطشاً أو يحفر لها وتترك فيها إلى أن تموت ، لأنهم
كانوا يقولون صاحبها يحشر عليها ، و (كانوا يزعمون أن الناس يحشرون ركباناً
على البلايا ومشاة إذا لم تعكس مطاياهم عند قبورهم) . وذكر أنهم (كانوا
في الجاهلية يعفرون عند القبر بقرّة أو غافة أو شاة ، ويسمون العقيرة البلية) ،
(وفي فعلهم هذا دليل على أنهم كانوا يرون في الجاهلية البعث والحشر بالأجساد .
وهم الأقل . ومنهم زهير)^٥ . وفي هذا المعنى يقول جريرة بن أسيمة^٦ :

- ١ - رسالة الغفران (١٨٠) .
- ٢ - الروض الأنثى (١ / ٩٦) .
- ٣ - الروض الأنثى (١ / ٩٦) .
- ٤ - رسالة الغفران (٤٨٨) .
- ٥ - تاج العروس (١٠ / ٤٣) وما بعدها ، (بلي) ، القاموس (٤ / ٣٥٠) وما بعدها .
- ٦ - النسان (١٢ / ٦٢٥) ، (حوم) ، تاج العروس (٩ / ١١٢) ، (هيم) ، (جريرة
بن الأشيم القنعسي) ، بلوغ الأرب (٢ / ٣٠٧) .

يا سعدُ إنما اهلكنَ فإني أوصيك أن أعا الوصاة الأقربُ
لا أعرفن أباك يحشر خلقكم تعباً يحرق على اليبين وينكب
واحمل أباك على بعير صالح وتغى الخطيئة انه هو أصوب
ولقل لي مما جمعت مطية في الحشر أركبها اذا قيل: اركبوا

ومن ذلك قول عمرو بن زيد التميمي بوصي ابنه عند موته في البلية :

أبني زودني اذا فارقني في القبر راحة برحلي فاتر
لعبت أركبها اذا قيل: اقلعوا مستوفين معاً لحشر الخائش
من لا يواقيه على عثراته فالخلق بين مدفع أو عاثراً

وقال عويمر التيهاني :

أبني لا تنس البلية إنها لأيك يوم تشوره مركوب

وأوصى رجل ابنه عند الموت بهذا :

لا تتركز أباك يحشر مرة عدواً يحرق على اليبين وينكب

وطريقتهم في ذلك أن أحدهم اذا مات ، يلوا ناقة ، فعكسوا عنقها الى مؤخرها
مما يلي ظهرها ، أو مما يلي كلكتها أو بطنها ، ويأخذون ولبة فيشدون وسطها ،
ويقلدونها عنق الناقة ، ويتركون الناقة في حفيرة لا تطعم ولا تسقى حتى تموت ،
وربما أحرقت بعد موتها ، وربما سلخت وملئ جلدتها ثمناً * .

قال شاعر في البلية :

والبلايا رؤوسها في الولايا ما نحات السموم حر الخلود

١ - اللسان (٦٢٤/١٢) ، (هوم) ، نأج العروس (١١٢/٩) ، (هيم) ، يسوغ
الارب (٣٠٧/٢) وما بعدها .

٢ - بلوغ الارب (٣٠٩/٢) .

٣ - بلوغ الارب (٣٠٩/٢) .

٤ - المروض الآنف (٩٦/١) .

٥ - بلوغ الارب (٣٠٧/٢) ، اللسان (٨٥/١٤) وما بعدها ، (د. بلا) .

والولاية هي البراذع . وكانوا يضيئون البرذعة ، فيجعلونها في عتق الهلثة وهي معقولة حتى تموت^١ .
 أما كلمة (جهنم) ، فيرى العلماء أنها من الكلمات العربية . ويظن المشرقون أنها من أصل عبراني^٢ . ومن أسماء جهنم على رأي علماء اللغة (الهاوية)^٣ .
 و (أم الهاوية)^٤ .

١ - الروض الأنف (٩٦/١) .
 ٢ - العرب ، لنجوا البقي (ص ١٠٧) ، طبعة دار الكتب المصرية ، ، Ency., I, p. 998 .
 ٣ - اللسان (٢٥٠/٢٠) .
 ٤ - الخصص (٣٨/١١) .

الفصل الخامس والستون

الروح والنفس والقول بالدهر

وبحسب قول بعض الجاهليين بوجود البعث ، وبالصدى والحامة ، على التحرش بموضوع الروح وماهيتها عند أهل الجاهلية ، وعن كيفية تصورهم لها . وقد سأل أهل مكة الرسول عن ماهية الروح ، فتركت الآية : « ويسألونك عن الروح ، قل : الروح من أمر ربي ، وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً »^١ . ويذكر القسرون أن اليهود حرضوهم على توجيه هذا السؤال إلى الرسول ، امتحاناً وإحراجاً له^٢ . وفي سؤالهم له عن الروح معنى اهتمام القوم بالموضوع ، ومحاولة إثارة مشكلة للرسول كانت مهمة في العهد الناصر يومئذ ، مما يدل على أهمية هذه القضية في ذلك العهد . وورد أن يهود يثرب هم الذين سألوه عن أمر الروح ما هي؟ وكيف تعذب الروح التي في الجسد ؟ فترد الوحي عليه بالآية المذكورة^٣ .

و (الروح) في تعريف علماء اللغة ما به حياة الأنفس ، والذي يقوم به الجسد وتكون به الحياة . وذهب بعضهم إلى أن الروح والنفس واحد ، غير أن

١ الإسراء ، الآية ٨٥ .

٢ القرطبي ، الجامع (٣٢٥/١٠) .

٣ تفسير الطبري (١٠٤/١٥ وما بعدها) ، القرطبي ، الجامع (٣٢٣/١٠ وما بعدها) ، تفسير الطبرسي (٩٣/١٥) ، (بيروت ، ١٩٥٦) ، تفسير ابن كثير (٦١/٣) ، تفسير البیضاوي (٣٨٢/١٥) ، تفسير أبو السعود (٢٣٠/٢) ، تفسير السيوطي (١٩٩/٤ وما بعدها) ، تفسير الكشاف (١٩٧/٢) ، إرشاد الساري (٢١٢/٧) .

الروح مذكر والنفس مؤنثة^١ . وقال بعض آخر الروح هو الذي به الحياة ، والنفس هي التي بها العقل ، فإذا نام النائم قبضت نفسه ، ولم يقبض روحه ، ولا يقبض الروح إلا عند الموت . وذكر بعض العلماء : لكل إنسان نفس : أحدهما نفس التمييز ، وهي التي تفارقه إذا نام ، فلا يعقل بها ، والأخرى نفس الحياة ، وإذا زالت زال معها النفس ، والنائم يتنفس . وقد يراد بالنفس الدم ، وفي الحديث : ما ليس له نفس سائلة ، فإنه لا يتجس المساء إذا مات فيه . فعبر عن الدم بالنفس السائلة ، وكما ورد في قول السموأل :

تسيل على حد الطيات تقوسا وليست على غير الطيات تسيل

وانما سمي الدم نفساً لأن النفس تخرج بخروجه^٢ .

وقد يعبر بها عن الإنسان جميعه ، وعن الجسد^٣ . وهناك كلمة أخرى ترد في معنى (الروح) ، هي (النسيم) . و (النسم) نفس الروح كالنسمة ، يقال ما بها نسمة ، أي نفس ، وما بها ذو نسم ، أي ذو روح . والنسم نفس الريح إذا كان ضعيفاً كالنسيم^٤ . وقد ربطوا بين النسم والروح ، لما كان قد علق في أذهانهم إذ ذاك من أن الروح نوع من أنواع النسيم ، وهو النفس التي يتنفسه الإنسان ، ومن أن النفس من النسم كذلك ، وإن بسبب التنفس والنفس صلة . والتنفس يكون بالنسيم . ولهذا قالوا لمن يموت موتاً طيباً : (مات حتف أنفه) ، و (مات حتف فيه) ، والحتف الموت ، لأن نفسه يخرج بتنفسه من أنفه أو فيه . ولأنها نهاية الرمي ، ومنها يكون النفس^٥ .

ويظهر من دراسة معاني الكلمات المذكورة ، أن لفظة (نفس) هي بمعنى الإنسان والجسد في الشعر الجاهلي القديم ، أما (الروح) ، فبمعنى النفس ،

١ تاج العروس (١٤٧/٢) ، (روح) .

٢ اللسان (٢٢٣/٦) وما بعدها ، (نفس) .

٣ اللسان (٢٢٤/٦) وما بعدها ، (نفس) .

٤ تاج العروس (٧٤/٦) وما بعدها ، (نسم) ، اللسان (٤٦٢/٢) ، تساج

العروس (١٤٧/٢) .

٥ تاج العروس (٦/٦ حتف) .

أي النفس واستشاق الهواء والريح^١ . وتقابل لفظة (نفس) لفظة (نيفش) Nephesh في العبرانية ، وتطلق على نفس كل كائن حي ، من إنسان أو حيوان ، وبهذا المعنى وردت في العهد القديم^٢ . وتقابل لفظة Soul في الانكليزية و Seele في الألمانية . وقد استعملت لفظة Psyche اليونانية بمعنى نفس في العهد الجديد^٣ . ومن هذه اللفظة اليونانية أخذ العلماء مصطلحهم Psychology Psychologie ، أي علم النفس ، ثم مصطلحات العلوم الأخرى المتعلقة بموضوع النفس . وهي في الوقت الحاضر علوم عديدة .

أما لفظة (الروح) ، فتقابل كلمة (روح) Ruah في العبرانية ، ولفظة Spirit في الانكليزية ، و Geist في الألمانية . وتكون في مقابل النفس في علم النفس ، وتقابل لفظة Pneuma في اليونانية ، ومعناها الهواء والريح والنفس . ونجد بين المعاني التي ذكرها علماء العربية للألفاظ المذكورة ، وهي : النفس ، والريح ، والهواء ، والنسيم ، وبين المعاني الواردة في اللغات الأعجمية عنها شيئاً كبيراً ، يرجع الى وجهة نظر الإنسان في تفسير مظاهر الحياة ، وشعوره بوجود شيء في نفسه خارج عن حدود المادة ، أي عن الجسم أو الجسد ، لا يمكن أن يحسبه ولا أن يلمسه ، جسماء (نفساً) نارة وسما (روحاً) نارة أخرى ، وفرق بين الاثنين نارة ثالثة . وقد تصور أن النفس والروح ، شيئان لهما علاقة بالحياة . فلب الحياة اليها أو الى أحدهما . ونظراً الى أنها غير محسوسين ، ولا يمكن الإمساك بهما أو لمسها ، تصورها الإنسان تصوراً مختلف باختلاف درجة مداركه ومقدار ثقافته ودرجة ما توصل اليه من علم في ذلك الوقت .

وقد تصور اليونان النفس ، على أنها هواء ونسيم ، وتصورها على هيئة طائر صغير في شكل الإنسان ، أو على شكل طير ، أو قراشة^٤ . وهو تصور عرف عند غيرهم أيضاً ، بل يكاد يكون الغالب على الناس . ولا زال الناس يصورون الروح على هيئة طائر ، يسبح في الفضاء ، فإذا مات الإنسان صعدت روحه الى خالقها ، أو الى السماء . فالأرواح طيور تكون في الإنسان ، اذا انفصلت عن

Shorter Ency., p. 433.

التكوين ، الأصحاح الأول ، الآية ٢٠ .

انجيل متى ، الأصحاح السادس عشر ، الآية ٢٦ . Hastings, p. 872.

H. Schmidt, Philosophisches Wörterbuch, S. 518.

الجسد مات ، وأعلنت هي تطير مرفرفة في الأعالي . وبهذا الرأي أخذ بعض الجاهليين تفسير النفس . تصوروا (النفس طائراً ينسط في الجسم ، فإذا مات الإنسان أو قتل لم يزل يطير به مستوحشاً يصدح على قبره) . (وكانوا يزعمون أن هذا الطائر يكون صغيراً ، ثم يكبر حتى يكون كضرب من البوم ، وهو أبداً مستوحش ، ويوجد في الديار المعطلة ومصارع القتل والقبور ، وأنها - أي النفس - لم تزل عند ولد الميت وتحلقه لتعلم ما يكون من بعده فتخبره ^١ . وزعموا أنه إذا قتل قتيل ، فلم يدرك به الثأر خرج من رأسه طائر كالبومة ، وهي الهامة ، والذكر الصدى ، فيصبح على قبره استقوني استقوني ، فإن قتل قتله كفت^٢ عن صياحه . وكان بعضهم يقول أن عظام الموتى تنصير هامة وتطير . وذكر أن الصدى حشو الرأس ، ويقال لها الهامة أيضاً ، أو الدماغ نفسه ^٣ .

وكان من زعم بعض الجاهليين ، أن الإنسان إذا مات أو قتل اجتمع دم الدماغ أو أجزاء منه ، فانتصب طيراً هامة ، ترجع إلى رأس القبر كل مئة سنة ^٤ . ويرجع هذا الرأي إلى عقيدة قديمة تعتبر الدم مقراً للنفس ، بل تجعل الدم في معنى النفس ، والنفس في معنى الدم ، وذلك للصلة الوثيقة الكائنة بين الدم والنفس ، ولأن الإنسان إذا قتل سال دمه ، فتخرج روحه بخروج الدم من الجسم ، أي خروج النفس من الجسم ، بعد أن كانت كائنة فيه . ويمثل هذا الرأي رأي العبرانيين أيضاً في النفس وفي صلتها بالدم ، ورأي غيرهم من الشعوب ^٥ .

وكان اعتقادهم أن مقر الدم ومركز تجمعها في الدماغ ، ومن هنا قيل : بنات الهام : مخ الدماغ ^٦ ، فلا غرابة إذا تصوروا أن الروح تنتصب فيه ، فتكون هامة تخرج من الرأس ، وتطير . ويكون خروجها من الأنف أو الفم ، لأن النفس يكون منها . فتجتمع الأرواح حول القبور ، ويكون في وسعها مراقبة أهل الميت وأصدقائه وقتل أنهارهم إليه . ولهذا السبب ، تصوروا القابر مجتمع

- ١ بلوغ الأرب (٢١١/٢) .
- ٢ تاج العروس (٢٠٧/١٠) ، صدى (١١٢/٩) ، اللسان (١٠٨/١٦) .
- ٣ المعاني الكبير (٩٥١/٢) ، ١٠٠٨ وما بعدها .
- ٤ بلوغ الأرب (١٩٩/٢) ، ٣١١ . الروض الأنف (١٠٩/٢) .
- ٥ Hastings, p. 101.
- ٦ اللسان (٦٢٥/١٢) ، (حوم) .

الأرواح ، تطير فيها مرفقة حول القبور . والى هذه العقيدة أشير في شعر أبي ذؤاد :

سلط الموت ولثون عليهم فلم في صدق المقابر هام

وكتلك في شعر للشاعر لبيد :

قلبي الناس يملك في تقير وليسوا غير أصداء وهام^١

ولها سموا الدماغ (الطائر) لأنهم تصوروه على صورة طير . قال الشاعر :

هم أنشوا صم القنا في نحورهم ويضاً نقيض البيض من حيث طائر

عنى بالطائر الدماغ . وعبر عنه السيب المذكور بـ (الفرخ)^٢

وورد أن (الصدى) ما يبقى من الميت في قبره ، وهو جثته^٣ ، وقيل : حشوة الرأس ، أي دماغ الإنسان الهامة والصدى . وكانت العرب تقول إن عظام الموتى تصبح هامة فتطير . وقال بعض الأخيارين : إن العرب تسمي ذلك الطائر الذي يخرج من هامة الميت إذا بلى ، الصدى^٤ .

وقد نهى الإسلام عن الاعتقاد بالصدى والهامة . ورد في الحديث : لا عدوى ولا هامة ، ولا صفر^٥ .

وذكر بعض العلماء أن المراد من (صفر) في الحديث النبوي المذكور ذابة يقال إنها أحدى من الجرب عند العرب ، فأبطل النبي^ﷺ أنها تعدي . وقال بعض آخر أراد به الشيء الذي كانوا يفعلونه في الجاهلية ، وهو تأخيرهم المحرم إلى صفر في تحريره وجعل صفر هو الشهر الحرام ، فأبطله الرسول^ﷺ .

١ اللسان (٦٢٤/١٢) وما بعدها ، (حوم) ، تاج العروس (١١٢/٩) ، (هيم) .

٢ تاج العروس (٢٧٢/٢) ، (فرخ) ، (٣٦٤/٣) ، (طير) .

٣ قال النمر بن توبل ، وهو من المخضرمين :

أعادل أن يصبح صدائي بقشرة بعيدا نائسي ناصري وقريسي

البرقوقي (ص ٧٥) .

٤ ضربك حيث تقول الهامة اسقوقي

البرقوقي (ص ٧٦) .

٥ اللسان (٦٢٤/١٢) ، (حوم) ، تاج العروس (١١٢/٩) ، (هيم) .

٦ اللسان (١٣٣/٦) ، (٤٦٣/٤) ، (صفر) ، (صادر) .

وقد تلخص (السعودى) آراء أهل الجاهلية في النفس والروح ، فقال :
 « كانت للعرب مذاهب في الجاهلية في النفوس ، وآراء يتنازعون في كیفیاتها ،
 فمنهم من زعم أن النفس هي الدم لا غير ، وأن الروح المسواء الذي في باطن
 جسم المرأة منه نفس ، ولذلك سموا المرأة منه نفساً ، لما يخرج منها من الدم ،
 ومن أجل ذلك تنازع فقهاء الأمصار فيها له نفس سائلة إذا سقط في الماء : هل
 ينجمه أم لا ؟ قال تأبط شراً لحاله الشغرى الأكبر وقد سأله عن قتل قطه ،
 كيف كانت قصته ؟ فقال : أجمته عضياً ، فسلت نفسه سكباً . وقالوا إن
 الميت لا ينبعث من الدم ، ولا يوجد فيه ، بدأ في حال الحياة ، وطبيعته طبيعة
 الحياة والنماء مع الحرارة والرطوبة ، لأن كل حي فيه حرارة ورطوبة ، فإذا مات
 بقي البس والبرد ، ونفث الحرارة »^١ .

ثم تطرق (السعودى) إلى رأي من قال أن النفس طائر ينبسط في جسم
 الإنسان ، فإذا مات أو قتل لم يزل مطبقاً به متصوراً إليه في صورة طائر يصرخ
 على قبره مستوحشاً ، يسمونه الغام ، والواحدة هامة^٢ .

ونظراً إلى قلة ما لدينا من موارد عن الروح والنفس وعلاقتها بالجسد ، عند
 الجاهلين ، فإننا لنا في وضع نستطيع فيه أن نتحدث عن رأي عموم الجاهلين
 في تركيب الإنسان . هل هو من (جسد) و (روح) ، أو (جسد) و (نفس)
 أي ثنائي التركيب ، أو أنه من (جسد) و (روح) و (نفس) ، أي
 ثلاثي التركيب . فقد رأينا أنهم يجعلون الروح والجسد شيئاً واحداً أحياناً ،
 ويفرقون بينها أحياناً أخرى . ولكننا نستطيع أن نقول أن غالبيتهم كانت ترى أن
 الإنسان من جسد ، هو الجسم ، أي مادة ، ومن شيء لطيف ليس بمادة هو
 الروح أو النفس ، وهما مصدران القوى للتركة في الإنسان ومصدرها الحياة . وأن
 بانفصالها عن الجسد ، أو بانفصال الجسد عنها يقع الموت .

ويظهر من محاطبات الوثنيين للأصنام ، كأنهم كانوا يتصورون أن لها روحاً
 وأنها تسمع وتجب . ومن الجائر حلول الروح في الجهاد . وقد ورد عن (ابن
 الكلبي) عن (مالك بن حارثة) أن والده مالك هذا كان يعطيه اللبن ، ويكلفه

١ مردج (١٣٢/٢)
 ٢ مردج (١٣٣/٢)

بأن يلعب به الى الصم ود لبقية، فكان مالك يشربه سرّاً ويبخل به على صنته^١.
 وإذا صح خبر ابن الكلبي هذا ، فإنه يدل على (حارثة) ، وربما غيره أيضاً
 من عبدة الأصنام ، كان يرى ان الصم يعقل ويدرك ، يسمع ويرى ، وأنه وإن
 كان من حجر ، إلا أنه ذو روح . كما ورد أن من المشركين من كان يرى
 أن الشمس ملك من الملائكة ذات نفس وعقل^٢ .

وبين من تشدد النبي في تسوية القبور مع الأرض ، ومن لمن المتخلفين على
 القبور المساجد والسرُج ، ومن النهي عن الصلاة الى القبور ، ومن حديث :
 « اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد »^٣ ، ان المشركين كانوا
 يقدسون قبور اسلافهم ، ويقربون اليها ، لزعمهم انهم احياء ، لهم ارواح ،
 تسمي وتسمع وتذكر ، وتفرح وتغضب وتجب ، وتضع وتضر ، ولهذا حاربها
 الرسول ، وأمر بتسوية القبور ، ابعاداً عن أمر الجاهلية في ذلك ، وعشية العودة
 الى ما كانت عليه : « ما تعبدهم إلا يقربونا الى الله زلفى »^٤ ، تعبير عن
 معنى هذه المشاركة وعن رأيهم في عبادة الأصنام .

الرجعة :

واعتقد قوم من العرب في الجاهلية بالرجعة: أي الرجوع الى الدنيا بعد الموت.
 فيقولون ان الميت يرجع الى الدنيا ككرة أخرى ويكون فيها حياً ، كما كان^٥ .
 ولعل هذه العقيدة هي التي حملت بعض الجاهليين على دفن الطعام وما يحتاج الانسان
 في حياته اليه مع الميت في قبره ، ظناً منهم ، انه سيرجع ثانية الى هذه الدنيا ،
 فيستفيد منها ، فلا يكون معلماً فقيراً . ويفهم من كتب الحديث ان من الناس

١ بلوغ الأرب (٢١٤/٢) .

٢ بلوغ الأرب (٢١٥/٢) .

٣ بلوغ الأرب (٢١٤/٢) .

٤ الزمر ، الرقم ٢٩ ، الآية ٣ .

٥ تاج العروس (٣٤٨/٥) وما بعدها . (رجع) . (والرجعة : مذهب قوم من العرب
 في الجاهلية معروف عندهم . ومذهب طائفة من فرق المسلمين من أولي البدع
 والاهواء . يقولون ان الميت يرجع الى الدنيا ويكون فيها حياً كما كان) . اللسان
 (١١٤/٨) . (رجع) .

من سأل الرسول عن الرجوع الى هذه الدنيا^١ ، مما يشير الى معرفة القوم عند ظهور الاسلام بهذا الرأي .

و لما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قام عمر بن الخطاب ، فقال :
 إن رجلاً من المنافقين يزعمون ان رسول الله توفي ، وإن رسول الله والله ما مات ،
 ولكنه ذهب الى ربه كما ذهب موسى بن عمران ، فغاب عن قومه أربعين ليلة ،
 ثم رجع بعد ان قيل قد مات ، والله ليرجعن رسول الله فليظعن ابدي رجال
 وأرجلهم يزعمون ان رسول الله مات . ثم جاء (أبو بكر) وعمر يكلم
 الناس ، فقال : على رسلك يا عمر ؟ فأنت ، فأبى إلا ان يتكلم ، فلما رآه
 أبو بكر لا ينصت أقبل على الناس ، فلما سمع الناس كلامه أقبلوا عليه ، وتركوا
 عمر ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أيها الناس ، انه من كان يعبد محمداً
 فإن محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت . ثم تلا هذه
 الآية : وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل^٢ . الى آخر الآية .
 وقال عمر : والله ما هو إلا ان سمعت أبا بكر يتلوها ففكرت حتى وقعت
 على الأرض ، ما تحملي رجلاي ، وعرفت ان رسول الله قد مات .

وقد اعتقد بعض الجاهلین به (المسخ) . وهو تحول صورة الى صورة أخرى
 أفصح ، وتحول انسان الى صورة أخرى أفصح ؛ او الى حيوان . كأن يصير إنسان
 قرداً ، او حيواناً آخر^٣ ، او الى شيء جهاد . من ذلك ما يراه بعض أهل
 الأخبار عن (اللات) ، من انه كان رجلاً يلت السويق عند صخرة بالطفائف ،
 فلما مات قال لهم (عمرو بن لحي) ، إنه لم يموت ، ولكنه دخل الصخرة ، ثم
 أمرهم بعبادتها وبني بيتاً عليها يسمى اللات^٤ . وما رووه ايضاً عن (أساف)
 و (نائلة) ، من أنها كانتا رجلاً وامراً ، عملاً قبيحاً في الكعبة ، فسحا
 حجرين . وما رووه من أن (سهيلاً) كان عشاراً على طريق اليمن ظلوماً ،

١ النهاية (٧٢/٢) ، (رجع) .
 ٢ سورة آل عمران . الآية ١٤٤ (٢٢ الطبري (٣/٢٠٠ وما بعدها) .
 ٣ تاج العروس (٢٧٩/٢) ، (مسخ) .
 ٤ تاج العروس (٥٨٠/١) ، (لت) .
 ٥ تاج العروس (٤٠/٦) وما بعدها . - (أسف) ، اللسان (٢٤٨/١٠) ، الاصنام
 (٢٩٠/٦) ، الروض الألف (٦٤/١) ، المحبر (٣١٨) .

فسخه الله كوكباً^١ .

وورد أن بعض الملائكة عصي الله فأهبط إلى الأرض في صورة رجل تزوج أم جرهم فولدت له جرهماً . وأن ما تولد بين الملك والآدمي يقال له (العليان)^٢ . وأن (النسائس) جنس من الخلق يشب أحدهم على رجل واحدة ، أصلهم من من عاد عصوا رسولهم فسخطوا نساءً ، لكل إنسان منهم يد ورجل من شق واحد ، ينقزون كما ينقر الطائر ويرعون كما ترعى البهائم^٣ .

وقد ذكر (الجاحظ) أمثلة من أمثلة المسخ التي وقعت للحيوان على اعتقاد الناس ، من ذلك : اعتقادهم أن السمك (الجري) والضياب كانتا أمثليين من الأمم مسختا . واعتقادهم أن (الإريانة) كانت خيطة تسرق السلوك ، وأنها مسخت وترك عليها بعض خيوطها لتكون علامة لها ودليلاً على جنس سرقتها ، ومن أن (القارة) كانت طحانة ، والحية كانت في صورة جمّل ، وأن الله عاقبها حتى لاطها بالأرض ، وقسم عقابها على عشرة أقسام ، حين احتملت دخول إبليس في جوفها حتى وسوس إلى آدم من فيها . ومن أن الإبل خلقت من أعناق الشياطين ، وأن الكلاب أمة من الجن مسخت ، وأن الوزغة والحكاة من مسحوخ الحيوان^٤ .

ومن أمثلة المسخ : جرهم ، فقد زعم أن جرهماً كان من قنّاج ما بين الملائكة وبنات آدم . وكان بعض الملائكة قد عصي الله ، فأهبط إلى الأرض في صورة رجل ، تزوج أم جرهم فولدت له جرهماً^٥ . وزعموا أن سهيلاً كان عشاراً باليمن ، فلما ظلم مسخه الله نجماً^٦ . و (الزهرة) ، وقد زعموا أنها كانت بغياً عرجت إلى السماء فسخطها الله شهياً^٧ . و (البوس) ، وقد زعموا أنها كانت امرأة مشؤومة اسمها : البوس ، أعطى زوجها ثلاث دعوات مستجابات ، وكان له منها ولد ، فكانت محبة له . فقالت أجعل لي منها دعوة واحدة . قال : فلك واحدة . فإذا تريدني ؟ قالت : ادع الله أن يجعلني أجمل امرأة

١ قنّاج العروس (٣٨٤/٧) ، سهل ، الحيوان (٢٩٧/١) .

٢ الحيوان (١٨٧/١) ، (٧٠/٤) ، حاشية (٦) .

٣ قنّاج العروس (٢٥٧/٤) ، (نس) .

٤ الحيوان (١٨٢/١) ، (٢٩٧) ، (٦٨/٦) ، (١٥٥) ، (٦٨/٤) .

٥ الحيوان (١٨٧/١) ، (٦٩/٤) ، الروض الآف (٩٧/١) .

٦ الحيوان (٢٩٧/١) ، (٦٩/٤) .

٧ الحيوان (٦٩/٤) .

في بني اسرائيل . ففعل فرغيت عنه ، لما علمت أن ليس قبيهم مثلها ، فأرادت سباً . فدعا الله تعالى عليها أن يجعلها كلبية نبأحة ، فذهبت فيها دعوتان . فجاء بنوها ، فقالوا : ليس لنا على هذا قرار ، قد صارت أمنا كلبية يعبرنا بها الناس : فدع الله تعالى ، أن يردعها الى حالها التي كانت عليها ، فنعل . فمادت كما كانت : فذهبت الدعوات الثلاث بشؤمها ، وبها يضرب المثل^١ .

وتجد عقيدة (المسخ) عند غير العرب أيضاً . بقي التوراة أن الله مسخ امرأة لوط ، فصارت عمود ملح^٢ . وتجدعها عند الهنود وعند غيرهم من الأمم القديمة . وقد تسرب من اليهودية الى العرب المسلمين كثير من القصص الواردة في المسخ . وقد أنكر بعض المتكلمين (المسخ) ، وأنكره قوم آخرون ، لكنه جوزوا (القلب) . وهو أن يُقلب ابن آدم قرداً من غير أن ينقص من جسمه طولاً أو عرضاً^٣ .

الزندقة :

وقد أشار بعض الأخباريين الى اعتقاد بعض قريش بالنور والظلمة ، زاعمين أنهم أخذوه من الحيرة . ويسمي الأخباريون أصحاب هذا الرأي (الثنوية) ، وأطلقوا على تلك الفئة المذكورة من قريش : (الزنادقة)^٤ . ولم يذكروا شيئاً عن زندقة تلك الجماعة من قريش ولا عن رجلها . وأشار بعض أهل الأخبار الى وجود الزندقة والتعطيل في قريش : « وكانت الزندقة والتعطيل في قريش »^٥ . وقد وصفوا الزنديق بأنه القائل بدوام بقاء الدهر^٦ ، ولا يؤمن بالآخرة وبوحدانية الخالق . فهو دهري ملحد لا يؤمن بوجود إله واحد ، وهو من (الثنوية) على

- ١ . تاج العروس (١٠٩/٤) . (بس) .
- ٢ . التكوين . الاسحاح ١٩ . الآية ٢٤ وما بعدها .
- ٣ . الحيوان (٧٣/٤) .
- ٤ . اللسان (١٢/١٢) . زندق . (١٤٧/١٠) . « بيروت ١٩٥٦ » . تاج العروس (٢٧٣/٦) . « وكانت الزندقة في قريش أخذوها من الحيرة » . المعارف (٢٢١) .
- ٥ . المغرب . للجواليقي (١٦٦) .
- ٦ . البدء والتاريخ . (٣١/٤) . بلوغ الأرب (٢٢٨/٢) .
- ٧ . اللسان (١٤٧/١٠) . بيروت ١٩٥٦ . اللسان (١٢/١٢) . « زندق » . بولاق .

رأي بعض العلماء^١ . وإلى هذا المعنى في تفسير زنادقة قريش ، ذهب أكثر أهل الأخبار . وقد عدّ (أبو العلاء) المعري (شداد بن الأسود اللبني) المعروف أيضاً بـ (ابن شعوب) ، وهي أمه ، شاعر زنادقة قريش . وذلك لشعره الذي فيه :

ألا من مبلغ الرحمن عني يأتي نارك شهر الصيام
إذا ما الرأس زابل منكبيه قد شبع الأنيس من الطعام
أبو عدنا ابن كبشة أن منجياً ؟ وكيف حياة أصداء وهام
أترك أن ترد الموت عني وتحبيني إذا بليت عظامي^٢

والزندقة كلمة معربة ، ذكر علماء اللغة أنها أخذت من الفارسية ، أريد بها في الأصل الخارجون والمنشقون على تعاليم دينهم ، فهي في معنى (هرطقة) . وقد صار لها في العهدين : الأموي والعباسي مدلول خاص ، حيث قصد بها (المولاي الحمر) ، الذين تجمعوا في الكوفة ، وكانوا يظهرن الإسلام ويبطنون تعاليم المجوسية والإلحاد^٣ .

وفي كلام أهل الأخبار عن الزندقة ووصفهم لزندقة قريش إيهام وغموض وخطأ . وإذا كان الزنديق هو القائل ببقاء الدهر ، وبعدم وجود عالم ثان بعد الموت ، فتكون الزندقة (الدهرية) ويكون الزنديق هو الدهري لقوله بالدهر وبأبدية الكون وللأداة^٤ . أما القول بالتنوية : بالنور والظلمة ، وبالكفر والإلحاد ، فشيء آخر ، يختلف عن القول بالدهر . والظاهر أن الجمع بين القول بالدهر وبالقول بالنور والظلمة وبالكفر والإلحاد ، إنما وقع في الإسلام ، بسبب الخلط الذي وقع بين المعنى المفهوم للظلمة في الفارسية القديمة وفي الفارسية الحديثة ، وبالمعنى الذي ظهر للكلمة في الإسلام . والذي تحول إلى زندقة بعبضة تحوي العناصر المذكورة . والتي كانت تؤدي بمن ينهم بها إلى القتل .

- ١ اللسان (١٤٧/١٠) ، (زندق) ، الفزالي ، فيصل المتفرقة بين الإسلام والزندقة (١٧٣) ، (١٩٦١) .
- ٢ رسالة الفهران (٢٢١ وما بعدها) .
- ٣ والحمراء المعجم ، لبياضهم ، ولأن الشفرة أغلب اللسان عليهم ، ، اللسان (٢٨٨/٥) ، حمر ، ، Shorter Ency. of Islam, p. 659, Muh. Stud., I, 8, 159.
- ٤ المغرب (ص ١٦٦ وما بعدها) ، اللسان (١٢/١٢) ، (١٤٧/١٠) ، طبعة دار بيروت ١٩٥٦ م .

وقد تشير في القرآن الكريم الى وجود القائلين بالدهر : « وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا ، نموت ونحيا ، وما يهلكنا إلا الدهر »^١ . وهم على حد قول المفسرين والأخباريين ، من لا يؤمن بالآخرة وبوحدانية الله . وهو ملذع ودين كان عليه كثير من أهل الجاهلية ، يسخر من البعث بعد الموت ، ويرى استحالة ذلك . ولم يذكر المفسرون أن من عقيدة هؤلاء القول بالثنوية، أي بالنور والظلمة ، وبوجود إلهين : إله الخير وإله الشر .

وقد ذكر (محمد بن حبيب) أسماء (زنادقة قريش) ، فجعلهم : (أبو سفيان ابن حرب) ، و (عتبة بن أبي معيط) ، و (أبي بن خلف الجهمي) ، و (النضر بن الحارث بن كلفة) ، و (منبه) و (نبيه) ابنا (الحجاج) الهمياني ، و (العاص بن وائل) السهمي ، و (الوليد بن المغيرة) المخزومي . وذكر أنهم (تعلموا الزندقة من نصارى الحيرة)^٢ . فربط هنا بين الزندقة وبين (نصارى الحيرة) . وقد ذهب (ابن قتيبة) أيضاً ، الى أخذ قريش الزندقة من الحيرة^٣ .

والذي نعرفه عن المذكورين، أنهم كانوا من المتسككين الأشداء بعبادة الأصنام . وقد كان (أبو سفيان) يتصرخ (هبل) على المسلمين يوم أحد ، ويناديه : (أعل ' هبل ' ، أعل ' هبل ') ، وقد نص على أنه كان من أشد المتحسين لعبادة الأصنام^٤ . ولم يذكر أحد من أهل الأخبار ، أنهم كانوا تنوبين على رأي الجوس ، يقولون بإلهين ، بالنور والظلمة ، وأنهم تعبدوا لتسار ، أو تأثروا برأي مزدك أو ماني الذي أنصف إليه الزنادقة ، ولا نجد في آرائهم التسوية إليهم وفي حججهم في معارضة الرسول ما يشير الى (زندقة) بمعنى (ثنوية) ، لذلك فزندقة من ذكرت لا يمكن أن تكون بهذا المعنى ولا على هذه العقيدة^٥ .

وللوقوف على زندقة من ذكرت من رجال قريش ، ولتحديد معنى زندقتهن ، يجب الرجوع الى ما نسب إليهم من آراء وإلى ما عارضوا به الرسول وحاربه

- | | |
|---|---|
| ١ | الجاثية ، الآية ٢٣ . |
| ٢ | المحبر (١٦١) ، (زنادقة قريش) . |
| ٣ | المعارف (٦٢١) ، الاعتلاق النفسية (٢١٧) . |
| ٤ | اللسان (٢١٢/١٤) ، نأج العروس (١٦٢/٨) ، (هبل) ، الأصنام (٢٨) . |
| ٥ | راجع معنى الزندقة في مروج الذهب (٢٧٥/١) ، (أثناء حديثه على بهرام) . |

من أجله . ويمكن حصر ذلك في أمرين : الشرب الى الأصنام والتعبد لها ، والدفاع عنها بقولهم : « ما نعبدهم إلا ليقربونا الى الله زلفى »^١ ، ولا علاقة لهذه العقيدة بالزندقة . والأمر الثاني ، هو القول بالدهر وبالتعطيل ، أي بتكران البعث والحشر والنشر . ويتجلى ذلك في قولهم لرسول الله : إن كنت صادقاً فيما تقول ، فابعث لنا جدك : (قصي بن كلاب) ، حتى نسأله عما كان وعبدت بعد الموت ، وأمثال ذلك مما له علاقة بنفي وقوع البعث . وهو السلي له صلة بالزندقة . فالزندقة بهذا المعنى قول بالدهر وبدوامه وتكران للبعث ، لا التنويع بمعنى القول : بالتور والظلمة .

ولما ما يرويه أهل الأخبار من أخذ زنادقة قريش زندقته من الحيرة^٢ ، أو من نصارى الحيرة^٣ ، فإن فيه تأكيداً لما قلناه من أن الزندقة لا تعني المجوسية والثنوية ، وإنما القول بالدهر ، وانكار المعاد الجسائي^٤ . وهو قول قريب من قول من أنكر بعث الأجسام ، وآمن ببعث الروح فقط من النصارى ومن غيرهم من أهل الأديان .

والزندقة بهذا المعنى قريبة من رأي القائلين بالدهر ، وهم (الدهرية) الذين أشير إليهم في القرآن الكريم ، في الآية : (وقالوا ما هسي إلا حياتنا الدنيا ، نموت ونحيا ، وما يهلكنا إلا الدهر)^٥ . وهم من يقول ببقاء الدهر ، وينكرون البعث والآخرة ، والنفاتي والرسلي والخلق على بعض الآراء ، وينسبون كل شيء الى فعل الدهر ، أي الأبدية مع التأثير في حياة الانسان وفي العالم . ولهذا أضافوا اليه بعض الألفاظ والتعويضات التي تشير الى وجود هذا التأثير في الحياة فقالوا : يد الدهر ، ورب الدهر ، وعندوا الدهر ، و (الدهر لا يبقي على حديثاته) ، و (الدهر يحصد ريبه ما يزرع) ، وأمثال ذلك من تعابير ، فسبوا اليه الفعل في الكون وفي كل ما فيه^٦ .

- ١ الزمر - سورة رقم ٣٩ ، الآية ٣ .
- ٢ المعارف (٦٢١) .
- ٣ المعبر (١٦١) .
- ٤ مروج (١٠٢/٢) ، (ذكر ديانات العرب وآرائها في الجاهلية) .
- ٥ الجاثية - سورة رقم ٤٥ ، الآية ٢٤ - تفسير الطبري (١٥١/٢٥) . (القاهرة ١٩٥٤) .
- ٦ ألم أخبرك أن الدهر غول وليس على شيء قويم يستمر السنوي (٨٣ ، ١٧١) .

ونسبوا الإمامة الى الدهر ، فقالوا : « وما يهلكنا إلا الدهر » أي وما يميتنا إلا الأيام والليالي ، أي مرور الزمان وطول العمر ، انكساراً منهم للصانع . قال أحدهم :

فانتأثر الدهر الغداة بهم والدهر يرمني وما أرمسى
يا دهر قد أكثرت فجعتنا بسرانا ووقرت في العظم^١

فكانوا في الجاهلية يضيفون التوازل الى الدهر ، والتوازل تنزل بهم من موت أو هرم ، فيقولون أصابتهم قوارع الدهر وحوادثه ، وأبادهم الدهر ، فيجعلون الدهر الذي يفعله ، فيذمونه ويسبونه . وقد ذكروا ذلك في أشعارهم^٢ . ومن الجمل التي تنسب الفعل الى الدهر ، قولهم : « أصابتهم قوارع الدهر وحوادثه » ، وأبادهم الدهر ، والدهر يجلب الحوادث ، ففي هذه الجمل وأمثالها معنى أن ما ينزل بالإنسان من قوارع ، وما يحل به من إبادة هو بفعل الدهر ، فهو إذن المهيمن على العالم والمختر له^٣ .

وقد كان هذا الاعتقاد راسخاً في نفوس كثير من الجاهليين ، وفي نفوس كثير ممن أدرك الإسلام فلم ، فكانوا إذا أصيبوا بمكروه وبحدث مزعج نسبوا حدوثه الى الدهر ، فنبوه كما يتضح من حديث : « لا تسبوا الدهر ، فسلن

١ تفسير الطبرسي (١٢٦/٢٥) ، (بيروت ١٩٥٥) ، (٧٨/٢٥ وما بعدها) ، (طبعة طهران) .

٢ تاج العروس (٢١٨/٣) ، (دهر) .
٣ ديار بني سعد بن ثعلبة الألي
فأذهبهم ما أذهب الناس قبلهم

وولست إذا ما الدهر أحدث لكبة
ورزما يزوار القرائب أخضعنا
Caskel, B. 45.

ولا تعاديني النية أمشكم
على عدواء الدهر جيشاً لهاها
Caskel, B. 51.

ابن قتيبة : الشعراء (٢٢٩) .
ففتيناً زماناً بالتصعلك والغنى
كما الدهر في أيامه العمر واليسر
Caskel, B. 52.

قال زهير بن أبي سلمى :
واستأثر الدهر الغداة بهم
والدهر يرمني ولا أرمسى
ديوان زهير (٣٨٥) .

الله الدهر ، أو (فإن الدهر هو الله) . ومن حديث : « يؤذيني ابن آدم بسب الدهر الدهر » ، وإنما أنا الدهر : أقلب الليل والنهار ^١ . وأحاديث أخرى من هذا القبيل . وقد ذكر (الجاحظ) ، أن من الصحابة والتابعين والفقهاء من نسي الناس من قول : طلع سهيل ويرد سهيل ، وقوس قزح ، كأنهم كرهوا ما كانوا عليه من عادات الجاهلية ، ومن العود في شيء من أمر تلك الجاهلية ، فاحتالوا في أمورهم ، ومنعوه من الكلام الذي فيه أدنى متعلق ^٢ .

وفي هذين الحديثين توفيق لفكرة الجاهليين في الدهر ، وللعقيدة الإسلامية في التوحيد بأن صير الدهر الله ، وصبره بعض العلماء من أسماء الله الحسنى . والذي حلهم على ذلك ، على ما أرى ، صعوبة لإزالة تلك الفكرة التي رسخت في النفوس منذ القدم عن فعل الدهر ، وعن أثره في الكون ، فرأى القائلون بذلك إزالتها يجعل الدهر اسماً من أسماء الله ، أو هو الله تعالى ، وهو واحد أحد ، والدهر واحد أبدي أزلي كذلك ، فلا تصادم في هذا التوفيق بين الرأيين .

وقد وقع هذا التوفيق على ما أعتقد بعد وفاة الرسول في أمور عديدة نسبت إلى الرسول ، وقد ثبت عدم إمكان صدور ما منه . وللحكم على صحة نسبة الحديثين إلى الرسول أحيل القاري على الطرق التي وردا بها : وإلى آراء العلماء فيها ، وأعتقد أنه إن فعل ذلك فسيجد في نسبتها إلى الرسول بعض الشك ، إن لم أقل كل الشك .

وتعبّر لفظة (الزمان) عن معنى (الدهر) كذلك . وقد ذهب علماء اللغة إلى أن الزمان ، أقصر من الدهر ، إذ يقع على الزمان القصير ، أما الدهر ، فالزمان الدائم ، أي الزمان الذي لا ينتهي بتهاية . وأنا لا يهمني في هذا المكان تفريق العلماء بينها في الطول والقصير ، إنما المهم عندي هو أن الجاهليين استعملوا الزمان استعمالهم للدهر ، ونسبوا إليه ما نسبوه للدهر من فعل في الإنسان وفي الحياة والعالم . هذا (زهير بن أبي سلمى) يشكى منه في قصيدته التي يمدح بها (هرم بن سنان) . فيقول في مطلعها :

١ الشان (٣٧٨/٥) ، (دهر) ، تاج العروس (٢١٨/٣) ، (دهر) ، المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي ، تفسير الطبرسي (١٣٦/٢٥) ، (بسبروت ١٩٥٥) ، صحيح مسلم (٢/١٥) وما بعدها .
٢ الحيوان (١/٣٤٠ وما بعدها) .

لَمَنِ الدِّيارُ بِقُنَّةِ الحِجرِ أَقْوَمَ مِنْ حِجَجٍ وَمِنْ دَهْرٍ
لَعَبَ الزَّمانِ بِها وَغَيَّرَها بَعْدِي سِوَايَ الثَّوَرِ وَالْقَطْرِ^١

وتجسد القنطة في أشعار غيره من الشعراء الجاهليين والاسلاميين تعبر عن (غير الزمان) وعن (كذبه)^٢ وتلوته وتلاعبه بمقدرات الانسان^٣. وفي كسل هذه المواضع التي استعملت فيها تعبير عن تلك العقيدة التي لا تزال راسخة في نفوس كثير من الناس، وهي ان الحياة قسمة وتصيب وحظ وبخت، وانه ليس المخلوق على ما يقدره له القدر من سلطان. وان الزمان يلعب بالانسان وبالكون كيف يشاء، مع ان الانسان لو فكر في نفسه وتأمل في عقله، لوجد انه هو الذي خلق الزمان اي الدهر فلو جده على صورته هذه، بأن حده وعينه بستين وبفرون، وليس الزمان إلا دوام وبقاء لهذا الكون، وليس له اي فعل حقيقي في هذا الكون، والانسان هو الذي أوجد السنين ليقس بها طول الزمان، لحاجته الى معرفته، وان حسابه بالسنين معها سيطول، فإنه لن يبلغ ولن يكون في مقدوره بلوغ نهاية الكون.

والمعنى الذي تفهمه من (الدهر) في الشعر الجاهلي، هو الأبدية مع التأثير في حياة الانسان وفي العالم. ولهذا أضافوا اليه بعض الألفاظ التي تشير الى وجود هذا التأثير في الحياة، فقالوا: يد الدهر، ورب الدهر، وعدواء الدهر، وأمثال ذلك من تعابير. فنبوا اليه الفعل في الكون وفي كل ما هو فيه^٤.

١ وفي بعض الروايات « لعب الرياح » شرح ديوان زهير (ص ٨٧)
Caskel, S. 44.

٢ اقترحت ان تحذف الزمان بفارس
يا من قد كذب الزمان عليكم
قلح الكلاب وكنت غير مغلب
ونكأت فرحتكم ولنا الكلب
Caskel, S. 51.

٣ ولو سألت سرات الحي عني
على أنسى تلبون عني زمانني
Caskel, S. 52.

٤ (والدهر لا يبقى على حدثانه) « والدهر يحصد ريبه ما يزرع »
ألم أخبرك أن الدهر غول خنور العهد يلتهم الرجال
ألا إنما الدهر ليل وأصبر وليس على شيء قويم يستمر
Caskel, Die Schicksal in der Altarabischen Poesie, Leipzig, 1926, S. 48, W. L. Schramm, über den Fatalismus der Vordarabischen Araber, S. 12, Bonn, 1931.

ومن نسب إليه القول بالدمر ، الحارث بن قيس ، المعروف بابن القبطلة^١ .

وتؤدي لفظة (الأيام) هذا المعنى كذلك ، بل استعملت أجزاء اليوم مثل (الليالي) لتعبر عن تلك الفكرة أيضاً . فالليالي هي كالأيام ، لا يمكن أن يطمأن إليها ، ولا أن يوثق بها ، لأنها تتلون وتبدل ولا تخلص لأحد . وحيث أن الليالي هي أوقات الراحة والاستقرار والهدوء ، وأوقات الانس والطرب والإفراح بالأحبة ، وهي أوقات الغد والاعتبال والغارات والغزو في الوقت نفسه ، فيكون ذكرها في الشعر وتفضيلها على النهار وتقديمها عليه ، ونسبة الخير أو الشر إليها أكثر من نسبتها إلى النهار شيئاً طبعياً . لذلك يجب ألا يستغرب ما تقرأه في الشعر وما نسمعه من أفواه الناس من نسبة تبدل الحال والتلون إلى الليالي أكثر من النهار^٢ .

وقد استعملت لفظة (عَوْض) في معنى الشعر والزمان ، وردت في شعر شاعر من شعراء بكر بن وائل ، فعبّر بهذه اللفظة عن زمانه . واستخدم بكري مله الكلمة ، يشير إلى العنم (عوض) التي كانت بكر قبيلة هذا الشاعر تتعبد له^٣ . وقد أقسموا بها ، فقالوا : (عوض لا يكون ذلك أبداً)^٤ ، ولا استبعد وجود صلة بينها وبين العنم (عوض) .

وأما (الحيام) ، فإنه قضاء الموت وقدره ، يقال : (حمّ أجله) أي قضى وقدره . وقد وردت لفظة (حم) ومتعلقاتها في أشعار عديدة بهذا المعنى . أي القضاء والتقدير . فورد (ما حمّ واقع) . وورد (أحم الله ...) و (حمّ الله) ، و (حمّ لبقائي) ، و (حمّي) ، و (حمّ الموت) ، و (حمّ

١ اتصاب (١٣٢/١) .

٢ فإن تلك شعراء الخبيبة أصبحت بها قد رأى الحي الجميع بقبطة خلت منهم واستبدلت غير إبدال بها والليالي لا تدوم على حال Caskel, B. 48.

٣ وعوض معناه أبداً أو الدمر . سمي به لأنه كلما مضى جزء عوضه جزء أو قسم . أو اسم صنم بكر بن وائل . . الفاموس (٣٣٧/٢) . قال الأعشى : حلفت بما لرات حول عسوس واتصاب تركن لدى السعير وقيل إن هذا الشعر لرشيد بن رميض الغنزي . والسعير اسم صنم كذلك ، تاج المروس (٥٨/٥) وما بعدها . (عوض) . تاج المروس (٥٨/٥) . (عوض) . تاج المروس (٢٥٨/٨) .

الفس () ، و (حمام النون) ، و (حمام)^١ . وهي من حيث هذا المعنى كالخنف والأجل والآجال والخوف والنون .

القضاء والقدر :

ويسوقنا هذا الموضوع الى البحث عن فكرة القضاء والقدر عند الجاهليين . فقد كان بين أهل الجاهلية من كان يقول بالجبر ، وبأن الإنسان مسير لا يخير . وإن كل ما يقع له مكتوب عليه ، ليس له دخل في حدوثه . ومن هؤلاء القائلون بالدهر والنون والحمام وما شاكل ذلك من مصطلحات تشير الى وجود هذا الرأي عندهم .

ولا يعني القول بالجبر ، أن قائله من المثاليين القائلين بوجود خالق أوجد الكون ، فقد كان من العبرة من كان ملحداً ، لا يقول بخالق ، وكان منهم من كان مشركاً . كما أن بينهم من كان يؤمن بوجود خالق أو جملة آلهة . فليس للمذهب الجبر علاقة بالخالق ، وإنما هو ملعب يرى أن الإنسان مسير ، وأنه يسير وفق ما كتب له ، ومنهم من ينسب الـ علة : هي الله أو الدهر ، ومنهم من لا ينسب الى أحد وهو ملعب موجود في اليهودية وفي النصرانية وفي الإسلام .

وتجسد هذه العقيدة في شعر الشاعر النصراني (عتي بن زيد العبدي) ، وربما نجدتها أيضاً عند سائر إخوانه النصارى ومن كان على هذا الدين من غيرهم من العرب . والسائق أن الاعتقاد بوجود إله خلق الكون منفرداً ، أو آلهة خلقوا الكون مشتركين ، يجعل الإنسان على أن يتصور نفسه أنه لا شيء تجاه خالقه أو آلهته وأنه من صنعهم ، فلا يقوم به ، هو من صنع الله أو من صنع الآلهة .

١ قال البيهقي :
ألا يا لقوم كل ما حم واقع
وقال الأعشى :
تؤم سلامة ذا فائض
وقال خباب بن الخزاعي :
والرمي ينقسي في فسروج كثيرة
تاج العروس (٢٥٨/٨) .

وللتظير مجرى والجنوب مصارع
هو اليوم حم ليعادها
وليس لأمر حم الله صارف

وهي عقيدة لا بد أن يكون للأحوال الاجتماعية والاقتصادية والسياسية إذ ذلك دخل في شيوخها بينهم . ونكاد نجد أكثر الشعوب الشرقية على هذا الرأي . وأما ما ظهر من نظرية حرية الإرادة وقدرية الإنسان على خلق أفعاله واختياره ، فإنه من تأثير الفلسفة الاغريقية التي دخلت النصرانية .

ونرى (حاتم الطائي) وهو من النصارى على رأي ، مؤمناً بالقضاء والقدر وبما يأمر به الله ، إذ يقول :

انسح له من أرضه وسمائه حماماً ، وما يأمر به الله يفعل

فأسند الأمر وانتهي في هذا البيت الى الله ، وأما الانسان فإنه مأثور مسير . ونجده بكل أمره الى الله ، ويدعو قومه الى تسليم أمرهم للإله الذي يرزقهم اليوم ويرزقهم غداً :

كلوا اليوم من رزق الإله وأيسروا وإن على الرحمن رزقكم غدا

ونجد (المتنبي العبد) مؤمناً بالله ، والقدر . فما يقع للانسان يكون بمشيئة الإله وقدره :

وأبقت إن شاء الإله بأنه سيبلغني أجلها وقصيدها^١

و (القدر) و (المقدر) و (المقدور) و (الأقدار) و (القضاء) ، من الألفاظ القديمة التي كانت تؤدي هذا المعنى الذي تبحث فيه قبل الاسلام . واستعمال المتكلمين للقضاء والقدر والقدرية ، لا يعني ان تلك الكلمات من الألفاظ التي تبعت في الاسلام . بل ان ظهورها في هذا العهد والتميزها فيه ، هو لاستخدام العلماء لها في مدلولات معينة وفي مصطلحات وأفكار توسعت واستقرت في هذا العهد .

ونجد الإشارة الى القدر في شعر الجاهليين والمخضرمين بالمعنى الذي تنصده هنا ، أي شيء مقدر مفروض على كل انسان . هذا ليد الشاعر المخضرم يذكر ان ما يرزقه هو من فضل الله عليه ، وما يحرمه فإنه مما يجري به

١ . تاج العروس (٤/٤٦٨) . (قصد) .

القدر^١ . ونجد فكرة القدر مركزة قوية صريحة في شعره ، فهو يعتقد ان القدر
خيره وشره من الله ، وان ما يصيب الانسان مكتوب عليه ، ولا راد لما هو
مكتوب . ولا دخل لامرئ في عمله ، فليحمد الله على خيره ، ولشكره على
شره ايضاً ، فهو العالم وحده بما هو صالح وضار^٢ . وشعره هذا لا بد ان يكون
مما نظمه في الاسلام ، اذ لا يعقل ان يكون من نظم عصر وثني ، لما يتجلى عليه
من الطابع الاسلامي في الفكر وفي الأسلوب والعرض .

كذلك نجد هذه العقيدة عقيدة القدر في شعر (زهير بن أبي سلمى) وفي
شعر غيره من الشعراء . هذا زهير يقول : إن النابا أمر لا مفر منه ، وإن من
جاءت منيته لا يد أن يموت ، ولو حاول الارتقاء الى السماوات فراراً منه^٣ .
ثم نجده يقول :

وجدت النابا يحيط عشواء من نصب تمته ومن تخطى به بحر فيهرم^٤

فليس للإنسان دخل في عمله ، وإنما كل شيء يقع له في حياته هو مكتوب
عليه . مكتوب عليه أن يموت في أجله ، وأن يعيش الى أجله ، وان يكون غنياً
وأن يكون فقيراً ، وليس للإنسان عمل على سلطان الحظ .

ومن القائلين بالقدر ، (عبيد بن الأبرص) ، الشاعر الجاهلي الشهير ، لقول
في قصة معروفة مشهورة ، نجد في الشعر المنسوب اليه اسم (الله) يتردد في كثير
من المواضع ، وتراء من المتشاككين المؤمنين بالنابا وبالبحر المكتوب ، وتراء بتوكل
على الله ، ويدعو الناس الى الاعتماد عليه ، فيقول :

١ أما وزقت فإن الله جالبه وما حرمت فما يجري به القدر

ديوان لبید (ص ٥٤) ، (طبعة لندن ١٨٩١)^{*}

ولا أقول اذا ما أزمة أزممت يا ويح نفسي مما أحدث القدر

Castel, B. 21

٢ من يسط الله عليه اصعبا بالخير والشر باني أولعنا

ديوان لبید (٨ ، ١١ ، ٢٨ ، ٣٣ ، ٥٣ ، ٥٤ ، ٥٥) (طبعة بروكلمن)
Ency., III, p. I.

٣ ومن هاب أسباب النابا يتلفه ولو نال أسباب السماء يسلم

شرح ديوان زهير للشعلب (ص ٣٠) ، وطر بالذي قد حم ، ، Castel, B. 84.

٤ العيون (١٠٣/٢)^{*}

من يسأل الناس يحرموه وسائل الله لا تحجب
بالله يدرك كلَّ غير والقول في بعضه تلغيب
والله ليس له شريك سلام ما أغضت القلوب^١

ونراه يقول في المنايا :

فأبلغ بني^٢ وأعمامهم بأن المنايا هي الواردة
لما مدة فطوس العباد إليها وإن كرهت قاصده
فلا تجزعوا الحرام دنسا فطموت ما نكد الوالده^٣

وفي كثير من مواضع شعره يذكر المنايا ويذكر الموت ، ثم هو يتجلد ويتصبر في ملاقاته الشدائد والأهوال ، وينصح الناس بالسبر على هذا المنوال ، والذي يقرأ شعره ، يشعر انه أمام رجل حضري رقيق عاطفي المزاج ، ذي نفس ميالة الى التفكش والتصوف ، مؤمن بالعدل ، كاره للظلم ، فهل كان عييد على هذه الشاكلة ؟ وهل هذا الشعر وخاصة ما جاء منه في البائية هو نظم من منظومه ؟ او هو من نظم من عاش بعده في الاسلام ؟.

ونجد (عمرو بن كلثوم) في جملة من آمن بالقضاء والقدر ، وبأن الموت مقدر لنا ، ونحن مقدرون له ، وذلك في قوله :

وإن سوف تدركنا المنايا مقدره لنا ومقدرينا^٤

وهو من المؤمنين بالله ، الحائقين به . وذلك كما جاء في بيت شعر نسبوه اليه :

معاذ الله يدعوني لحث ولو أفقرت أياماً قنار^٥

وكما ورد في أشعار أخرى تنسب اليه .

والشاعر (ليد) من هذه الطبقة التي اعتقدت ان الله خالق كل شيء ،

- ١ البيان والبيان (٢٢٦/١) ، شعراء النصرانية ، القسم الرابع (ص ٦٠٧) .
- ٢ شعراء النصرانية ، القسم الرابع (٦٠٤ وما بعدها) .
- ٣ التبريزي ، شرح القصائد العشر (٣٨٤) ، (البيت رقم ٧ من المعلقة) ، شرح القصائد السبع للزوزني (١٤٦ وما بعدها) ، جبهة أشعار العرب (١٢٠) .
- ٤ الحبر (٤٧١) .

يهدي من يشاء ويضل من يشاء ، فلا دخل للإنسان في عمله . تراه يقول :
من هداه سبل الخير اعتنى ناعم الحال ومن شاء أصل^١

وتؤدي لفظة (منا) معنى القدر ، ومنها (الماتي) بمعنى القادر ، و(النبيّة) بمعنى الموت ، لأن الموت مقدر بوقت مخصوص^٢ . وهي من الكلمات السامية المشتركة الواردة في مختلف لهجات هذه المجموعة . ولعله الكلمة صلة باسم الإله الكنعاني (مني) ، وهو إله القدر . ولها أيضاً صلة بالصنم (منوات) (منوت) من أصنام عمود ، وبـ (مناة) من أصنام الجاهليين^٣ .

ومن أصل (منا) (المنايا) الواردة في أشعار الجاهليين^٤ . و (الماتي) الواردة في شعر منسوب إلى سويد بن عامر المصطلق^٥ ، هو :

لا تأمن الموت في حل ولا حرم إن المنايا توافي كل إنسان
واسلك طريقك فيها غير محتشم حتى تلاقى ما يمضي لك الماتي

في رواية . و :

لا تأمن وإن أميت في حرم حتى تلاقى ما يمضي لك الماتي
فالحبير والشر مقرونان في قرن بكل ذلك يأتيك الجليدبان

١ الانشائي (١١٢/٩) . (١٢٦/٢٩) .

٢ تاج العروس (٣٤٧/١٠) وما بعدها .

٣ ان النبيّة منهمل لا بد ان اسقى بكاس المنهل

الانشائي (٧٩/١٥) .

٤ واذا النبيّة انشبت اطفاؤها القيت كل تبيبة لا تنفع

ولو كنت في بيت نمد خصاصه حوالي من اجناء نكرة مجلس

ولو كان عندي حازبان وكاهن وعلى انجاسا غسل للنجس

اذا لانتى حيث كنت منيتى يخب بها عاد الى معسر

Caskel, B. 28.

Caskel, B. 22, Ency. Religi. I, p. 661.

٥ قال النابا ثغر كل نبيّة قهل ذلك عما يتفق القوم محضر

وغيره مخشي رداها مخولة اخوها باسباب المنايا مفر

ديوان عروة بن الورد (ص ٣٨) ، (تحقيق تولدكه) ، كوتنكن (١٨٦٣) .

على رواية أخرى .

وفي هذا البيت الذي ينسب بعض الرواة الى أبي فلابية المثلثي :

فلا تقولن لشيء سوف أفعله حتى تلاقى ما يعني لك الماني^١

وتؤذي كلمة (المتون) معنى الدهر والموت^٢ ، وقد تسبق بكلمة (ريب) في بعض الأحيان ، فيقال : (ريب المتون) كما يقال (ريب الدهر)^٣ . ويرى (تولدكه) ان هذه الكلمات هي أسماء آفة ، وليست أسماء أفعال ، هي أسماء تعبر عن معان مجردة للألوهية ، وهي مما استخدم في لغة الشعر للتعبير عن هذه العقائد الدينية . فالزمان مثلاً أو الدهر ، لا يعينان على رؤية هذا إلهاً معيماً ، ولا صنماً خاصاً ، إنما هي تعبر عن فعل الآلة في الانسان^٤ .

وبعض هذه الكلمات - في رأي (وهوزن) - مثل قضاء ومنية ، هي بقايا جمل اختصرت ، ولم يبق منها غير بقايا ، هي هذه الكلمات . فكلمة قضاء هي بقية جملة أصلها (قضاء الله) ، سقطت منها الكلمة الأخيرة ، وبقيت الأولى . وكذلك الحال في منية ، فلأنها بقية جملة هي : منية الله ، سقط عجزها ، وبقي صدرها . وهي تعني ان المنية هي منية الله نصيب الانسان^٥ .

يبدو ان من الغريب ذكر الدهر والزمان والحمام والمنايا وأمثالها في الشعر ونسبة الفعل اليها ، بينما يهمل ذكر الأصنام فيه أو نسبة الفعل الى الله . فهل يعني هذا ان الجاهليين لم يكونوا يعلمون ان الله سلطاناً وحولاً ، وان المنايا والحفوف وكل غير أو مكروه هو من فعل الله ؟ الواقع ان هذا الذي نذكره يلعب اليه أهل

١ تاج العروس (٣٤٧/١٠) ، اللسان (٢٩٢/١٥) ، (منى) .

٢ تاج العروس (٣٥٠/٩) وما بعدها .

٣ « أم يقولون شاعر لتربص به ريب المتون » ، الطور ، الآية ٣٠ .
إن رأيت رجلاً أعشى أضرب به ريب المتون ودهر مفند خبيل

نخرفني ريب المتون وقد مضى لنا سلف فيس معاً وريبع

ديوان حمزة بن الورد (ص ١٣) ، تولدكه .

أمن المتون وديبها تتوجع والدهر ليس بمعتب من يجزع

Caskel, B. 41.

Ency. Religi. I, p. 661. t

Reste, B. 222. *

الجاهلية ولم يقصدوه . وما ذكر الدهر في الشعر ، إلا كتشكي الناس من الزمان
أو من الحظ أو التصيب في هذه الأيام . وشكواهم من ذلك لا يعني تحديد سلطان
الله ، أو نكرانه ، وإنما هو بقية من تصور الساني قديم بنسبة كل فعل وعمل
إلى قوة خفية هي القوة العاملة ، وهي ما عبرت عنها بالدهر وبالزمان . وذلك
لما يتصورونه من مرور الأيام والسنين وبلاء الإنسان فيه ، وبقاء الأرض والكون ،
ومثل هذه النسبة والشكوى عامة عند جميع الشعوب البدائية والمتطورة المتقدمة ،
فأراها عند القبائل البدائية وأراها عند الغربيين .

ولا يقتصر هذا الاستعمال على الشعر وحده ، بل نجد ذلك في النثر وفي كلام
الناس الاعتيادي . لذلك لا أرى صحيحاً ما ذهب إليه بعض المشرقيين من أن
نسبة الفعل إلى الدهر هو من الاستعمالات الخاصة بالشعر^١ .

وهناك كلمات أخرى تشير معانيها إلى هذه الفكرة فكرة القدر ، وإن الخبر
والشر وكل ما يصيب الإنسان هو مقدر مكتوب . وهي نظرية لا بد أن تكون
قد انبعثت من الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، ومن أثر المحيط في
الإنسان . ومن شعور الإنسان بأن قوى خفية تلعب به وتوجهه حيث يشاء^٢ .
فتنب كل ذلك إلى غيره ، وصير نفسه مسطراً موجهاً كالريشة في مهب الريح .
وتؤدي عقيدة القدر بصاحبها إلى التشاؤم ، وإلى القنوط والاستسلام . والتوجه
والثلم ، والتشكي من عبث الدهر بالإنسان ، وهو ليس له دخل في رده وصدده .
وقد تؤدي بمعنتها إلى اللجوء والكسل ، وإلى العجز في هذه الحياة ، وإلى رد
كل ما يصيبه بسبب كسله وعدم استخدام قابلياته ومواهبه إلى غدر الدهر به
وحق الزمان عليه ، ولتلاعب الحداث بأموره . ونجد أكثر شعراء أهل الجاهلية ،
هم على هذه الشاكلة ، يهكون أيامهم ، ويذكرون الماضي ، ويترجعون ، لأنهم
سائرون نحو مستقبل مؤلم مومج ، لا حول فيه لإنسان ولا قوة . إنه عالم الشبخوخة
أو عالم الموت أو عالم الفقر . وأمثال ذلك من العوالم المفزعة . يستوي في ذلك
امرؤ القيس والشعراء المخضرمون . فأنت إذا تصفحت دواوينهم قلنا نجد فيهم
شاعراً متفائلاً ، أو شاعراً غير مهال بالأيام ، لا يهده ما يأتي به الدهر ، حتى

Castel, B. 54.

١ والمال ما حول الآله فلا
٢ شرح ديوان زهير (ص ٣١٤) .

ليخيل الينا أن هذا طبع . والواقع أننا نجد الشعراء في الجاهلية والإسلام وأكثر
الكتاب والخطباء على هذا النوال ، مما يجعل المرء على القول بوجود التشاؤم في
طبع العرب .

وموضوع (القدر) من المواضيع التي حيرت المسلمين أيضاً . فاتفقوا في
ذلك الى مذاهب . وقد مرّ الرسول بناس كانوا يتناكرون في القدر ، فقال :
انكم قد أخذتم في شعبين بعيدي الغور . أي يبعد أن تدركوا حقيقة علمه ، ككلام
الغائر الذي لا يقدر عليه ^١ .

وقد ذكر علماء التفسير أن قريشاً عاشموا الرسول في القدر ، وأن رجلاً جاء
الى الرسول فقال : يا رسول الله قيم العمل ؟ أي شيء نشتاقه ، أو في شيء
قد فرغ منه ؟ فقال رسول الله : اعملوا فكل ميسر لما خلق له ، سنيسره لليسرى ،
وسنيسره للعسرى ^٢ . ويظهر من ذلك أن قريشاً أو جمعاً منهم ، لم يكونوا يؤمنون
بالقدر ، بل كانوا يؤمنون بأن فعل الانسان منه ، وان لا لأحد من سلطان في
تصرفه وفعله .

القدريّة :

وذكر ان الشاعر (الأعشى) كان قدرياً ، يرى ان للانسان دخلاً في فعله ،
وأن له سلطاناً على نفسه ، حيث يقول :

استأثر الله بالوفاء وبالهـ جعل وولي الملامة الرجلاً ^٣

فالانسان مسؤول عن فعله ، ملام على ما يرتكبه من قبيح . فالحق عادل ،
لا يجازي الانسان إلا على فعله ، ولو كان قد قدر كل شيء له ، وحتمه عليه
كان ظالماً . وقد أخذ الأعشى رأيّه هذا « من قبل العبادين تصارى الحيرة ، كان
يأتهم بشري منهم الخمر فلقنوه ذلك » .

- ١ قاج العروسي (٤٥٧/٣) ، (غور) .
- ٢ تفسير الطبري (٦٤/٢٧ وما بعدها) .
- ٣ الاغانى (١١٢/٩) ، (١٢٦/٢١) .

فمن أمام عقيدتين . عقيدة تقول : إن الله خالق كل شيء ، وإن فعله
الإنسان من تقدير الله وأمره ، فهو يفعل بفعله وبحسب ما قدره له ، ورأي يقول
إن الإنسان خالق فعله ، فهو حر مختار ، ولهذا فهو وحده مسؤول عن عمله ،
من غير أو شر . والرأي الأول أظهر عندهم وأقوى من الرأي الثاني .

الحظ :

وحظ الإنسان ، أي ما يصيبه في حياته ، هو جزء من هذا الموضوع أيضاً .
مشتبك به ، متصل بأجزائه . والحظ في اللغة النصيب والجد . أو خاص بالنصيب
من الخير والفضل^١ . والنصيب ، هو ما قدر وما قسم لك ، أي حظك والحظ^٢
وهو (البخت) . وقيل : البخت من المعربات ، وقيل من الألفاظ التي تكلمت
العرب بها قديماً^٣ . وذكر علماء اللغة أن الجذ البخت والحظ في الدنيا . وبفهم
من الأمثلة الواردة في شرح معنى القفلة ، أنها في معنى الخطوة والرزق^٤ . أي
في معنى الشيء الحسن المقترح مما يصيب الإنسان .

قالوا : والحظ موجود في المرزوق والمحروم ، وفي المحارف ، وفي القبائل ،
فربما سعدت بالحظ ، وربما حظيت بالجد . وهو كذلك في الشر وفي النجاة ،
ورب عاقل قاهم أديب ، لا يكون إلا دالماً الصبر على الشدة ، لسلطان الحظ
على الإنسان* .

ونظرية (القسمة والنصيب) ، معروفة في الاسلام ، وقد بحث فيها علماء
الكلام . فهي من الموضوعات التي بحثت في الجاهلية والاسلام . ونجد أحد الشعراء
يقول :

وليس الغنى والفقر من حيلة القى ولكن أحاط قسمت وجدود

وهو بيت ينسب لسويد بن حذاف العبدى ، ويروى للمعلوط بن بديل الفريجي ،

وصلوه :

- ١ تاج العروس (٢٤٩/٥) . (حظ)
- ٢ تاج العروس (٤٨٦/١) . (نصيب)
- ٣ تاج العروس (٥٢٥/١) . (بخت)
- ٤ تاج العروس (٣١٣/٢) . (جد)
- ٥ الحيوان (١٠٢/٢) وما بعدها .

متى ما يرى الناس الغني وجاره فقير يقولوا عاجز وجليل

أي : إنما أثناء الغني بجلالته ، وحرَمَ الفقير لعجزه وقلة معرفته ، وليس كما
ظنوا ، بل ذلك من فعل القسام وهو الله سبحانه وتعالى ، لقوله : نحن قسمنا
بينهم معيشتهم^١ . وفي هذا المعنى قول الشهاب القرني :

سبحان من قسم الحظوظ فلا عتاب ولا ملامه^٢

وأهل الجاهلية يرجعون القسمة إلى الدهر والزمان والحظ . فأبطل الإسلام ذلك ،
إذ جعلها بأمر الله وقدره . فإنه هو مقدر الأقدار ، ومقسم القسَم ، وموزع
الحظوظ والأرزاق .

الطبع والطبيعة :

ومن الموضوعات التي لها صلة بالقضاء والقدر ، موضوع الطبع ، أي الخليفة
والسجية التي جبل عليها الإنسان . فرأى كثير من الجاهليين ، أن الإنسان مجهول
على طبيعته التي ولد فيها ، وكل إنسان على طبيعته ، ولن يستطيع تبديل طبعه ،
ولا تغيير السجاء ، لأنها مكتوبة على الإنسان مسنونة ، ولا تبديل لما طبع المرء
عليه^٣ . ومطابع الإنسان لا يغيرها إلا الموت . جاء في شعر ليبي :

فانفع بما قسم إليك ، فإنما قسم الخلاق بيتا علامها^٤

وهو شعر قد يكون مما قاله في الإسلام .

و (زهير بن أبي سلمى) ، ممن يعتقدون بهذه العقيدة ، ويأخذون بهذا
الرأي . فهو القائل :

ومها تكن عند امرئ من خلقه ولو خالفا نحقى على الناس تعلم^٥

١ تاج العروس (٢٤٩/٥) ، (حظ) .

٢ المصدر نفسه .

٣ اللسان (٢٣٢/٨) ، (طبع) .

٤ اللسان (٨٦/١٠) ، (خلق) .

٥ الثبريزي ، شرح القصائد العشر (٢٤٠) ، (البيت ٥٨ من المعلقة) ، (الفاصلة
١٩٦٤) .

الفصل السادس والتون

الالهة والتقرب اليها

لا نملك - وبنا للأسف - نصوراً جاهلية فيها وصف طبائع الآلهة ، ولا أساطير فيها شيء على رأي أهل الجاهلية في أخلاق أربابهم . ولهذا صار مرجعنا ومسندينا في تكوين صورة عن طبائع الآلهة وأخلاقها ، دراسة وتفسير أسماء الآلهة ونعوتها التي نعتت بها ، لاستخراج شيء منها يعيننا على تكوين هذه الصورة .

وتفسير أسماء الآلهة ومعرفة أصولها وجذورها ، عملية ليست سهلة يسيرة ، بسبب جهلنا بمعاني بعض تلك الأسماء ، وعدم وقوفنا على أصولها التي اشتقت منها ، لأن اللهجات التي دوتت بها ، لا تزال بعيدة عن مداركنا ، ولأن قواعد نحوها وصرفها تختلف بعض الاختلاف عن قواعد وصرف عربيتنا ، ونحن لا نملك اليوم المؤهلات الكافية ، للحكم في تلك اللهجات حكماً في عربيتنا .

واسم الإله هو صفة في الغالب ، ألبسها الزمن بمضي الوقت لباس العلمية ، فعدت اسماً علمياً ، فإذا استطعنا الرجوع إلى أصول وجذور هذه الأسماء الصفات ، نكون قد استنبطنا شيئاً من طبائع تلك الآلهة من صفاتها المذكورة ، ونجملنا بعض النجاح من تكوين رأي عن تلك الديانات الجاهلية .

هناك أسماء مثل (ال) (أيل) ، يجد الباحثون صعوبة في الاتفاق على تعيين أصولها ، وضبط معانيها ، وهناك أسماء واضحة جلية ظاهرة ، تدل على أشياء معروفة محسوسة ، مثل (شمس) و (ورخ) بمعنى قر ، و (عثر) ، و (الشعري العبور) و (نجم) ، و (ثريا) وأمثال ذلك من أسماء تشير إلى

أشياء مادية ، هي كواكب ونجوم ، يستدل منها على وجود عبادة الأجرام السماوية عند الجاهليين . وهناك أسماء ، هي نعوت في الواقع ، لا تدل على ظواهر حسية وإنما تعبر عن أمور معنوية ، مثل (ودّ) بمعنى (حب) و (رضى) و (سعد) ، و (حكّم) ، و (نهي) ، و (صلّى) ، و (رحمن) ، و (رحم) (ها - رحم) (الرحيم) ، و (سمع) ، (سميع) ، و (مكرم) (مكرم) ، وأمثال ذلك من ألفاظ ، هي نعوت ، جرت بين الناس مجرى الأسماء . وعلى هذه الصفات الأسماء سيكون جلّ اعتدائها في استنباط الصورة التي نريد تكوينها عن طبيعة آله العرب الجنوبيين .

وعلى أن نضيف على ما تقدم الأعلام المركبة المضافة للأشخاص ، مثل (عبد ود) ، و (عبد مناف) ، و (عبد شمس) ، و (عبد يغوث) ، و (امت العزى) (أمة العزى) ، فالكلمات الثانية من الاسم ، أسماء أصنام . وفي تركيب الاسم على هذا النحو ، دلالة على تذلل الإنسان تجاه ربه ، واعتبار نفسه عبداً له ، وفيه تعبير عن صلة الأشخاص برهبهم ، أضف إليها الأعلام المركبة تركيباً إخبارياً ، مثل (ودم اسم) ، أي (ودأب) أو (أب ود) ، ففي هذا التركيب دلالة على حقو الإله على المؤمنين به ، واشفاقه عليهم ، إشفاق الأب على أولاده .

ودراسة الأمور المذكورة ، هي مصدر مهم ، بل هي تكاد في هذا اليوم أن تكون المصدر الوحيد لفهم ذات الآلهة وأدراك شخصيتها ، ولفهم تطور الدين على مر العصور والأجيال ، وكيف تطور الدين عند الجاهليين إلى يوم ظهور الإسلام .

هذا ، ونجد في النصوص العربية الجنوبية المتأخرة ، أسماء آله لا نجد لها موضعاً في النصوص العربية الجنوبية المتقدمة ، واختفاء" لأسماء الآلهة القديمة التي كانت لامعة ساطعة في سماء الألوهية عند العرب الجنوبيين قبل الميلاد . ونجد أسماء آلهة قبائل تعبد عند قبائل أخرى مع معبوداتها القديمة ، وأسماء آلهة كانت لامعة شهيرة ، تحولت إلى آلهة صغيرة . وفي كسلي هذه الملاحظات دلالة على حدوث تطور في الحياة الدينية عند الجاهليين ، وعلى تأثر العقائد بعوثرات داخلية وخارجية ، فأحدثت هذا التطور الذي نبحث عنه .

ومن بين أسماء الآلهة ، أسماء مركبة ، استهلت بـ (ذ) ، أو بـ (ذت) .
و (ذ) ، بمعنى (ذو) في صريتنا ، و (ذت) بمعنى (ذات) . و (ذ)
للمذكر ، و (ذت) للمؤنث ، أما الكلمات التالية ، فهي صفات . فجملة
(عثر ذو قبض) ، تدل على إله ذكر ، اسمه (عثر ذو القبض) (عثر
ذو قبض) ، أو (عثر القابض) بتعريف أصبح . وجملة (ذو شقرن) ،
و (ذو صهرم)^١ ، و (ذو عذبت) ، و (ذو يرم)^٢ ، و (ذا مروهم) ،
أي الأمر الناهي^٣ ، و (ذاتي) ، هي جمل تشير إلى إله ذكر ، لوجود
(ذ) علامة التذكير فيه . وجملة (ذات حم) ، و (ذات بعلن) ، و (ذات
برن) ، و (ذات خضرن) ، و (ذات رحبن) ، و (ذات صهرن) ،
و (ذات صتم) ، و (ذات ظهون) ، تشير إلى آلهة إناث ، لوجود (ذت)
(ذات) في الاسم . ومعنى هذا أن العرب الجنويين كانوا قد جعلوا الآلهة
كالإنسان إناثاً وذكرراً . وهو ما ورد في القرآن الكريم عن أهل مكة وبعض
قبائل الحجاز ، من قوله تعالى : « ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم ما يشتهون »^٤ ،
ومن قوله : « فاستغنمهم آل ربك البنات ولهم البنون »^٥ . وقوله تعالى : « واسمى
البنات على البنين »^٦ ، و « أم اتخذ مما يخلق بنات وأصفاكم بالبنين »^٧ ، و « أم
له البنات ولكم البنون »^٨ . وقد ذكر علماء التفسير أنه لا ينبغي أن يكون لله
ولد ذكر ولا أنثى . سبحانه نزه جل جلاله بذلك نفسه عما أضافوا إليه ونسبوه
من البنات ، فلم يرضوا بجهلهم إذ أضافوا إليه ما لا ينبغي إضافته إليه ، ولا ينبغي
أن يكون له من الولد أن يضيفوا إليه ما يشتهونه لأنفسهم ومحبوته لها ولكنهم
أضافوا إليه ما يكرهونه لأنفسهم ولا يرضونه لها من البنات ما يقتلونها إذا كانت
لهم »^٩ . وذكروا « أن مشركي قريش كانوا يقولون : لللائكة بنات الله »

Rep. Epigr. 504.	١
HSP. EPIGR. 2831, 4688.	٢
Handbuch, I, S. 244.	٣
التحل ، الرقم ١٦ ، الآية ٥٧ .	٤
الصافات ، الرقم ٣٧ ، الآية ١٤٩ .	٥
الصافات ، الرقم ٣٧ ، الآية ١٥٣ .	٦
الزحرف ، الرقم ٤٣ ، الآية ١٦ .	٧
الطور ، الرقم ٥٢ ، الآية ٣٦ .	٨
تفسير الطبري (٨٢/١٤) . روح المعاني (١٥٦/١٤) .	٩

وكانوا يبدونها^١ . وقد وعظهم القرآن الكريم على قولهم هذا، واستخف بأحلامهم
وعما قالوه جهلاً وحماقة .

وذكر علماء التفسير أن كفار قريش قالوا : « الملائكة بنات الله » . فسأل
أبو بكر من أمهاتهن ؟ فقالوا سروات الجن . يحسبون أنهم خلقوا مما خلق منه
إبليس^٢ . وإنهم قالوا : « أن الله وإبليس اخوان » ، وإن بين الله وبين
الجنة نسباً^٣ . ولم يذكر علماء التفسير من قال هذا القول من كفار قريش . ولا
كيف صارت الملائكة بناتاً لله ، أو كيف اصطفى الله له البنات ، ولم يفضلهن
على البنين ، إذ لم يذكروا أن أهل الجاهلية نسبوا له ولداً ذكراً ، ولم يذكروا
هل اختار الله البنات اختياراً من خلقه ، أو من زواج ؟ وقد رأيت أن رواية
نسبت إلى قريش قولهم إن أمهات الملائكة سروات الجن ، وذلك حين سألهم
أبو بكر من أمهاتهن^٤ .

ولا نجد في نصوص المسند إشارة إلى زواج الآلهة ، وإلى وجود بنات لها .
وما قلناه من وجود آلهة ذكور ، وآلهة أنثى ، هو استنباط من وجود علامة
التذكير (ذ) وعلامة التأنيث (ذات) في أسماء الآلهة . أما موضوع زواج القمر
بالشمس ، وظهور ولد ذكر منه هو (عثر) . فهو من استنباط علماء العربيات
الجنوية ومن آرائهم التي استخلصوها من دراستهم للنصوص . فليس في المسند
أي شيء عنه . وليس في المسند ، أي شيء عن دين العرب الجنوبيين ، وعن
أساطيرهم في الآلهة وفي الخلق ، ولا عن سلوكهم وأدعيتهم وكل ما يتعلق بالدين
من أمور .

وكل اسم ورد في المسند استعمل بلقطة (ذات) ، (ذات) ، فإراد به الشمس ،
وهي إلهة ، وكل لقطة بدأت بـ (ذ) ، (ذي) ، قلها تعني إلهاً ، هو القمر
أو عثر . فنحن أمام ثلاث سماوي ، يمثل عقيدة الجاهليين في الألوهية ، كما
يمثل عقيدة الساميين عموماً . والثالث السماوي هو نواة الألوهية عند جميع الساميين ،
ومنه انبثقت عقيدة التوحيد فيما بعد .

- ١ تفسير الطبري (٦٧/٢٣) وما بعدها ، روح المعاني (١٣٥/٢٣) .
- ٢ تفسير الطبري (٦٩/٢٣) .
- ٣ المصدر نفسه .
- ٤ تفسير الطبري (٦٩/٢٣) .

وعشر ، هو (النجم الثاقب) المذكور في القرآن الكريم^١ . وقد ذهب المفسرون الى ان العرب كانت تسمي النجم الثاقب . وذكر بعض منهم ان النجم الثاقب هو زحل . والثاقب الذي قد ارتفع على النجوم^٢ . وذكر بعض آخر ان النجم الثاقب هو الجدي^٣ . وأقسم في موضع آخر من القرآن الكريم به (النجم)^٤ . وقد ذهب المفسرون الى ان النجم الثاقب^٥ ، ونحن لا يهنا هنا اختلاف علماء التفسير في تثبيت المراد من النجم ، انما يهنا ان المراد به نجم من النجوم . فتكون أمامنا ثلاث معبود : هو الشمس والقمر والنجم الثاقب ، الذي هو (عشر) في نصوص العرب الجنوبيين .

وقد ذكر ان العرب تعبدت للشمس والقمر ، وان طائفة منها، تعبدت لكواكب أخرى مثل الشعري ، حيث تعبدت لها غزاةة وقيس ، ومثل (سهيل) ، حيث تعبدت لها (عليه) ، و (عطارد) ، وقد تعبد له (بنو أسد) . و (الأسد) ، وقد تعبد له بعض قريش . و (الدبران) ، وقد تعبدت له (طسم) . و (الزهرة) ، وقد تعبد لها أكثر العرب . و (زحل) ، وقد تعبد له بعض أهل مكة . حتى ان من الباحثين من زعم ، ان (الكعبة) كانت معبداً لزحل في بادىء الأمر . وتعبد للمشركي قوم من نهم وجذام^٦ .

ونجد في الكتابات العربية الجنوبية جملة : (ودم ايم) ، أي (ودم أب) و (ايم ودم) ، أي (أب ودم) . كما نجد جملة : (ولد ود) و (اولد ود) (ايم ودم) ، أي (اولاد ود) بمعنى (شعب معين) . وتعتبر الجمل الأولى عن معنى ان الإله (ود) ، هو إله شقيق رحيم عطوف عمل الإنسان ، هو بالنسبة له بمنزلة الأب من الابن . فهو (أب) للإنسان لا بالمعنى الحقيقي بالطبع ، أي بمعنى ان الانسان انحدر من صلبه ، بل بالمعنى المجازي الذي أشرت اليه . وبهذا المعنى تفسر جملة : (أولاد ود) تعبيراً عن معنى (شعب

١ سورة الطارق . رقم ٨٦ . الآية ٣ .

٢ تفسير الطبري (٩١/٣٠) .

٣ تفسير القرطبي ، الجامع (١/٢٠) .

٤ سورة النجم ، الرقم ٥٣ ، الآية ١ .

٥ تفسير الطبري (٢٤/٢٧) .

٦ Johann Ernest Oslander, Studien über die Vorislamische Religion der Araber, in ZDMG, 1853, S. 463 - 506, Grohmann, S. 81.

معين) ، فالإله (ود) هو أب هذا الشعب يحويه وبدافع عنه ويعطف عليه .
وبهذا المعنى وردت أيضاً جملة (ولد عم) عند القنانيين و (ولد الله) عند
السبئين . فـ (عم) الذي هو (القمر) في لغة القنانيين ، هو بمرتلة الأب
لشعبه ، وكذلك (الله) ، الذي هو (القمر) في لهجة سبأ^١ .

وقد عبر عن الشمس بلفظة (هـ الت) ، أي (الإله) في النصوص العربية
الشمالية^٢ . وقيل لها (نكروح) في النصوص المعبية ، و (ذات حم) (ذات حم)
(ذات حم) في النصوص السبئية ، كما قيل لها (ذات بعدن) و (ذات حضرن) ،
و (ذات برن) ، و (ذات ظهون) ، في هذه النصوص كذلك . وقيل لها
(ذات صنم) و (ذات صهون) و (ذات رحبن) في النصوص القنانية^٣ ،
ومن الممكن التعرف على بعض هذه الأسماء التي أريد بها الشمس . فـ (ذات حم) ،
بمعنى (ذات حم) ، و (ذات حم) . وقد وردت لفظة (حم) و (بحوم)
في القرآن الكريم^٤ . والحميم الحار الشديد الحرارة ، المتقد من شدة الحر الساخن
الشديد سخونة^٥ . وقد ذكر علماء التفسير أن (البحوم) ، دخان حم ،
ودخان شديد السواد يخرج من نار جهنم^٦ . فعنى (ذات حم) ، إذن ، الإله
ذات الحرارة الشديدة المتقدة المهلكة ، التي تلتفح وتحرق . والشمس ، نفسها
حارة ، ملتهبة متقدة . لذلك يكون الناس قد أدخلوا صفتها هذه منها ، فأطلقوها
عليها ، وصاروا يعتنونها بها ، ويخيفون الناس منها ، بانتقامها منهم إن خالفوا
أمرها وعملوا عملاً يثير غضبها عليهم .

ويقابل هذه الإله ذات الحميم ، الإله (إل حون) (حون) و (بعـل
حون) عند الساميين الشماليين . فهذا الإله الذكر عند الساميين الشماليين ، بسبب
أن لفظة (الشمس) ، نفسها مذكورة عندهم ، هو ذو حم وحماء أي ذو سخونة
وحماوة وشدة حرارة^٧ . وقد نعت عندهم بالنعت الذي نعت به عند العرب

Handbuch, I, S. 217, D. Nielsen, Der Sabäische Gott Elmukah, S. 81.

Handbuch, I, S. 224.

Handbuch, I, S. 224, 260.

الواقعة ، الرقم ٥٦ ، الآية ١٣ .

تاج العروس (٢٥٩/٧) وما بعدها ، (حم) .

تفسير الطبري (٢٧/١١٠) وما بعدها .

Handbuch, I, S. 225.

الجنوبيين . فهو إله ذو حرارة مقرعة ، وحم لا يوصف . وقد استمد هذا الوصف من الطبيعة بالطبع . فالشمس تبعث الحرارة على هذه الأرض ، يدرك الإنسان حرارتها في كل مكان . فهي اذن (ذات حم) حقاً .

وعرفت الشمس بـ (الثرت) في كتابات قنانية ، ومعناها : (اللامعة) ، أو الشديدة اللمعان بعبارة أصبح والمتوهجة . فهي في معنى (ذات حم) . وعرفت أيضاً بـ (ذات اثر) ، (ذات أثر) ، وبـ (ريت اثر) ، (ربة اثر)^١ . ونجد في التصوص النبطية الإلهة الشمس وقد عرفت بـ (ريت الاثر) بمعنى ربة التوهج ، مما يدل على ان (الثرت) ، و (ذات اثر) ، و (ريت اثر) ، في القنانية هذه الإلهة الشمس^٢ .

وقد يعبر عن (الشمس) بـ (القرمس) . والقرمس من الحيوانات التي قتلها قدماء الساميين . وقد كان العرب الجنوبيون يتقدمون بناتيل الخيل ، تقرباً الى الآفة . ومنها الإلهة (ذات بعدن) (ذات البعد) ، أي البعيدة ، وهي الشمس^٣ .

وأما (عثر) ، الذي هو (الزهرة) ، فإد اسمها في نصوص عربية جنوبية كثيرة . ولأسمه هذا صلة بأسماء بعض الجاهليين الواردة البنا ، مثل : (أوس عث) بمعنى (عطية عثر) و (لجعث) (على عث)^٤ .

وفي الكتابات العربية الجنوبية أسماء يظن أنها تخص الإله (عثر) . منها : (ذقبضم) ، و (ذهبرق) ، و (ذجفت) ، و (ذجرب) ، و (جرب) ، و (متب نطين) ، و (متب قبت) ، و (متب مضجب) ، و (يهر) و (ير) وغيرها^٥ .

وقد عرف (عثر) بـ (الشارق) في الكتابات ، فورد (عثر شرقن) أي (عثر الشارق) . وعرف بـ (شرقن) فقط . وقد ذهب بعض الباحثين الى أن المراد من (شرقن) بمعنى الطالع من الشرق ، أو (عثر المشرق) . وهو تفسير رده بعض آخر من الباحثين ، إذ رأوا أن (شرقن) ، بمعنى

Handbuch, I, S. 226.	١
Handbuch, I, S. 226.	٢
Handbuch, I, S. 221.	٣
Handbuch, I, S. 221.	٤
Handbuch, I, S. 221.	٥

(الشارق) . وهي لفظة ترد في اللهجات العربية الشمالية^١ . وقد سبق لي أن بينت رأيي المفسرين في (النجم الثاقب) المذكور في القرآن الكريم ، وقلت باحتمال المراد به هذا الكوكب، وإن ذهبوا إلى أنه الثريا أو زحل أو الجدي . و (الشارق) صم من أصنام الجاهليين تسمى به عدد من أهل الجاهلية، سموا به (عبد الشارق)^٢ قد يكون رمزاً لهذا الإله .

وورد في بعض كتابات المسند : (ذ غريم) ، و (عشر ذ غريم) أي (الغارب) و (عشر الغارب) . ومعنى ذلك (نجمة الغروب) ، أو (نجمة المساء) ، و (كوكب المساء) ، في مقابل (نجمة الصباح) و (كوكب الصباح)^٣ .

وورد (عشر نورو) ، و (نورو) ، أي (عشر نور) ، (نور)^٤ . ونور صفة من صفات الله في الإسلام . (الله نور السماوات والأرض . مثل نوره) . ولفظة (نورو) ، هي نعت من نعوت (عشر) . وورد (سحر) ، بمعنى السحر . والسحر ، قبيل الصبح وآخر الليل ، فبراد بذلك (كوكب السحر) ، أي الكوكب الذي يطلع عند طلوع السحر . كما ورد (متب فطين) ، أي (الحامل لمرطوبة) ، وورد (عشر فهم) ، أي (عشر القدير) و (عشر القادر) و (القاهر) ، و (سمعم) ، أي (السمع) ، و (نوم) و (نهمن)^٥ و (يغل) (يغلن) بمعنى المدمر ، والمتنقم . وقد ورد هذا النعت في أحجار القبور بصورة خاصة . وذلك لتذكير من يحاول تغيير الحجر أو أخذه من موضعه أو تدميره أو إلحاق أذى به ، أو الاستفادة منه في أغراض أخرى ، بأنه في حماية إله قدير منتقم^٦ .

وقد ذهب بعض الباحثين إلى أن الإله (رضى) (رضى) الذي يرد في النصوص التمودية والصفوية ، هو الإله (عشر) . وهو صم ذكره أهل الأخبار، لكنهم لم يذكروا شيئاً عن صلته بالكواكب ولا عن المعبود الذي يمثلها^٧ .

Handbuch, I, S. 228. Feil, in ZDMG, 54, (1900), S. 231 - 259.

١ تاج العروس (٣٩٣/٦) ، (شرق) .

٢ Arabien, S. 245.

٣ سورة النور ، الآية ٣٥ ، تفسير الطبري (١٠٤/١٨) ، (١١٤/١٨) .

٤ Rep. Epigr. 4194.

٥ Arabien, S. 245.

٦ Handbuch, I, S. 229.

وقد ورد في الأخبار المتعلقة بـ (الرها) أن أهل هذه المدينة ، كانوا يعبدون الشمس ويعتقدون بوجود إله يطلق قبلها اسمه (أزيروس) Azizos ، وإلهه يظهر بعدها ، يسمى (مونيموس) Monimos . وذهب الباحثون إلى أن (أزيروس) ، هو (عزيز) . وهو نجم الصباح ، ويطلع قبل طلوع الشمس . ويمثل (رضى) (رضو) ، و (عثر) . ويرد اسم (رضى) في الكتابات النصرية كذلك^١ . و (عزيز) (العزيز) من صفات الله في الإسلام .

وقد ذهب بعض الباحثين إلى أن العنم التحوت على شكل طفل هو رمز لـ (عثر) ، أي (رضى) (رضو) ، و (عزيز) . وقد حفر على شكل طفل عاري الجسم في الكتابات النصرية . أما الشمس والقمر ، فقد مثلا إنسانين كاملين . ونجد هذا التصور للآلهة في الفتيات القطرية ، التي استندت ادراكها ليكنة الآلهة عن مظاهر الطبيعة^٢ .

ولعل تصور الجاهليين الإله (رضو) على هيئة طفل ، هو الذي يحمل لنا المشكلة الواردة في أخبار (نيلوس) Nilus عن تقديم العرب Saracens قرابين أطفالاً لكوكب الصباح . ذكر (نيلوس) أن العرب سرقوا ابنه الجميل الصغير (ثيودولس) Théodulus ، وقرروا تقديمه قرباناً لكوكب الصباح . وقد قضى الطفل ليلة نعمة صعبة ، فلما طلع الكوكب ، وحان وقت تقرب القنصل قرباناً له ، نام غتظفوه ، ولم يستيقظوا إلا وقد طلعت الشمس ، وقات وقت القربان ، وبذلك نجا الطفل من الهلاك^٣ . وقد تفسر جملة : « إنا نقدم لك قرباناً يشبهك » الواردة في دعاء عثر على نعه في (حران) قصة تقديم الأطفال الجميلة قرابين إلى هذا الإله^٤ .

وقد أشار كتاب يوفان إلى تعبد العرب إلى الشمس والقمر وكوكب الصباح ، وهي أجرام سماوية تراها العين . ذاكرون أن العرب لا يعبدون لآلهة روحية لا يصرونها بأعينهم . ولذا تعبدوا لهذه الأحرار المادية وللأحجار^٥ .

Handbuch, I, S. 229. ١

Handbuch, I, S. 231. ٢

Handbuch, I, S. 233, Nil Opera, Tomus, 79, 1865, in Migne, Patrologia, Series Graeca. ٣

Handbuch, I, S. 231. ٤

المصدر نفسه . ٥

وأما (مونيموس) Monimeos ، فإنه (منعم) . و (منعم) من صفات الله في الإسلام . فإنه هو (المنعم) المتفضل على عباده العزيز المقنن .

وذبح بعض الباحثين إلى أن الصنم (ذو الخلصة) المذكور في كتب أهل الأخبار ، والذي كان له بيت يدعى : (الكعبة البانية) ، ويقال له (الكعبة الشامية) أيضاً ، والذي هدم في الإسلام ، هو تعبير آخر عن الصنم (عثر) ، أي الإله المكون مع القمر والشمس للثلاث^١ .

ويقال إن (ملك) اسم آخر من أسماء (عثر) . وقد تسمى به رجل عرف به (عبد ملك) . كما ورد اسم (عبد ملكا) في النصوص النبطية والإرامية ، بمعنى (عبد الملك)^٢ . ويرد اسم (ملك ال) (ملك ابل) كثيراً في الكتابات المودية . كما ورد في كتابة من الكتابات القبطية (عثر ملكن)^٣ . وقد ظن أن لفظة (ملك) تعني ملكاً ، أي رئيس حكومة ملكية ، فترجمت جملة (عثر ملكن) بـ (عثر الملك) ، أي ملك قتيان . غير أن هذه الترجمة وإن كانت ترجمة مقبولة ، إلا أنها غير دقيقة . ولو ترجمت لفظة (ملكن) بمعنى (الملك) ، على أنه اسم إله لكأن الترجمة أدق وأصح . فنحن نجد النص القبطي الذي وردت فيه جملة (عثر ملكن) يقول : « بني الملك ورم معبد ود وأثرت وعثر الملك » ، ولو ترجمناها على هذه الصورة : « بني الملك ورم معبد ود وأثرت ومعثر الإله الملك » ، كانت الترجمة أنسب وأقبل . ويجب أن نتذكر أن الله هو : الملك ، في الإسلام ، وإن (عبد الملك) ، وهو من أسماء المسلمين كذلك يعني : عبد الله . وإن (الملكوت) من الملك مختصة بملك الله . ورد في القرآن : « وكذلك فرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض »^٤ .

ومن الممكن فهم الصلة بين لفظة (ملك) التي تعني إله ، وبين لفظة (ملك) مالك على الأرض ، أي الملك الدنيوي . فالإله مالك ، والملك مالك أيضاً ، مالك شعبه . ومن هنا فلا غرابة إذا ما رأينا عقيدة تقديس الملوك عند الشعوب

Handbush, I. B. 212. ١

Handbush, I. B. 212. ٢

Hommel, Aufs. B. 206. ٣

١ تاج العروس (١٨١/٧) ، (ملك) . ٤

القدمة ، واعتبار بعضها ملوكها من نسل الآلهة . فالآلهة قوة خارقة ، والملوك قوة مهيمنة ، تفعل في القديم ما نشاء بغير حساب ، وهي ألسنة الآلهة الناطقة على الأرض ، فلا بد وان تكون للآلهة إذن صلة بالملوك ، ولا بد وان يكون لملوك الأرض نسب وان تكون لهم قرابة بالآلهة . وقد فسر بعض الباحثين جملة : (ولد ود) ، التي نعت بها أحد ملوك قنبان ، تفسيراً بهذا المعنى ، تفسيراً يعبر عن اعتقاد القوم ، بأن ملوكهم هم من نسل الإله (ود) . ولكنني أرى أننا لو فسرنا لفظة (ولد) بالمعنى المجازي ، أي ولد الإله ود على سبيل المجاز ، بمعنى ان الإله منه بمنزلة الوالد من الولد ، في العطف والود ، فإن هذا التفسير يكون مقبولاً أكثر من تفسير الولد المتسلل من صلب الإله ود .

الآلهة :

توصلنا من دراستنا المتقدمة ، الى أن الآلهة كالإله ذكوراً وأنثى . وتوصلنا منها الى أن القمر ، هو مذكر عند جميع العرب على اختلاف لغاتهم ، وأما (الشمس) ، فهي أنثى عندهم . وأما (النجم) ، الذي هو (عثر) ، فهو ولد ، عند العرب الجنوبيين . وعلى ذلك فنحن أمام ثلاث مساوي يتألف من الآلهين ذكرين ومن إلهة أنثى .

وقد عجزنا عن الإهتمام الى كيفية ظهور هذا الثلاث . أو العائلة الصغيرة المختارة المكونة من ذكرين وأنثى . لأننا لم نعثر على نص جاهلي أو غير جاهلي يتحدث عن كيفية ظهوره . وعجزنا عن التوصل الى علاقة أعضاء هذا الثلاث بعضهم ببعض ، وذلك لسبب مماثل ، هو عدم وجود نص لدينا يشرح لنا هذه العلاقة ! ولم نتمكن من العثور على أي مورد يشرح لنا كيفية ظهور هذه الآلهة ، ولا سيما الإله (عثر) الذي يعدّ ابناً للقمر والشمس .

ولم نعثر وبا للأسف على نصوص جاهلية فيها بعض الشيء عن كيفية التقاء القمر بالشمس ، وفي كيفية طلوع (النجم) (عثر) . فربما نجد في اللغات اليونانية والهندية واللاتينية تعابير عن التقاء الشمس بالقمر ، فيها معنى التكاثر ،

نجد أنفسنا قد صجزنا عن الحصول على مثل هذه المصطلحات في النصوص الجاهلية، ولهذا لم نتمكن من تكوين رأي عن تصور الصلة التي كان يراها الجاهليون بين الشمس والقمر . وفي اليونانية والهندية وأساطير الشعوب الأخرى ، أن القمر اقترن بالشمس ، وتزوج بها ، وتلقت بذلك الزواج^١ .

وبالنظر لوجود الإله الذكر والإلهة الأنثى في نصوص المسند ، وفي مؤلفات أهل الأخبار ، فلا يستبعد احتمال مجيء يوم قد تعثر فيه على نصوص قد تتعرض إلى أسطورة زواج القمر بالشمس . وفي عربيتنا لقفلة (اقتران) نطلقها على اقتران الشمس بالقمر وعلى اقتران الكواكب بعضها ببعض ، وتورد في كتب النجوم والأنواء . وفي هذه القفلة معنى الأزواج .

إن هذه الأسطورة التي جعلت من الأجرام السماوية لفة ، وحصرت الألوهية في ثلاثة أجرام منها في الغالب ثم زوجها وأولدها ، حولت هذا الزواج إلى زواج حقيقي سماوي يشبه زواج الإنسان على سطح الأرض . زواج تكون من ذكر وأنثى ، من أب وأم ، التبع ولداً عند العرب الجنوبيين ، وولدين عند شعوب أخرى غير عربية هما كوكبا الصباح والمساء ، أو بناتاً هي الملائكة أو البنات عند فريق من الجاهليين .

ونجد الإله (القمر) يلعب دوراً كبيراً في الأساطير الدينية عند الجاهليين . دوراً يتناسب مع مقامه باعتباره رجلاً بعلاً أي زوجاً ، والزواج هو (البعل) ، والرب والسيد وصاحب الكلمة على زوجته وأهله عند العرب . وهو القوي ذو الحق ، وعلى الزوجة حق الطاعة والخضوع له . وبناءً على هذه النظرية جعل الإله القمر صاحب الخول والصول والقوة في عقيدة أهل الجاهلية في الأرياب . ومن هنا الإله القوي الجبار ، جاء (الله) بعد أن تحول الثالث عند بعض الجاهليين إلى (واحد) ، واستخلصوا منه عبادة (الله) .

وقد عرف القمر بـ (ثور) . ولعل ذلك بسبب قرنيه اللذين يذكران بالحلل . دعي بهذه التسمية ، أي (ثور) في الكتابات^٢ . وقد رمز إلى الإله القمر بـ (ثور) عند شعوب سامية قديمة أخرى^٣ .

Handbuch, I, B. 206 ff.

Glaser 1546, Wiener Museum 5.

Handbuch, I, B. 214, D. Nielsen, Altarische Mondreligion, S. 110.

ونظراً لأن القمر هو الإله الذكر ، صار يمزّلة الأب . فدعي به (أب) ، أي (أب) . ونعت بحب ، فقبل له (ودم) (ود) ، لأنه يحب عبده ويشفق عليهم . وهو (كهان) ، أي القادر والقدير ، وهو (حكيم) ، أي الحاكم والحكيم ، وهو (سمع) ، أي السامع والسميع ، وهو (علم) ، أي العالم والعلم ، والبصير البصير ، وهو (نهي) ، أي الناهي ، وهو (صدق) الصادق الصديق المتعالي للنعمة الكريم الی غیر ذلك من نعوت عرف بها ورمز بها الیه فی النصوص .

ويجب ان نتبه الى ان الكتابات الجاهلية وكذلك أخبار أهل الأخبار ، قد نصبت على اسم الإله الشمس ، فدعوها باسمها ، أي الشمس . أما القمر ، فلا نجد لاسمه الخاص ذكراً يتناسب مع مقامه . نعم ذكر به (شهر) و (سين) في النصوص العربية الجنوبية . و (شهر) القمر في العربيات الجنوبية ، ولا زال الناس يسمونه بهذه التسمية في جنوبي جزيرة العرب . لكننا نجد أسماء المأخوذة من النعوت ، أي من صفاته تغطي عليه . فهو (ود) في الغالب في النصوص المعبية . ويظن من لا علم عبق له بالعربيات الجنوبية ، انه اسم إله خاص ، بينما هو اسم من أسماء عديلة للإله القمر عند شعب معين ، وهو (المقه) ، أي اللبّ والنور عند السبئيين ، أي صفة للقمر . وهكذا قسّل عن باقي أسماء ، فهي صفات له في الغالب ، لا اسم علم خاص به ، كما في حالة الشمس .

ونحن نجد هذه الظاهرة في روايات أهل الأخبار أيضاً . فبينما تص أخبار أهل الأخبار على تعبد بعض العرب للشمس ، وعلى مخاطبتهم لها به (الإلهة) وبـ (لاهة)^١ . وعلى تعبد بعضهم لزحل أو المشتري أو لغيرهما من الأجرام السماوية كما تحدثت عن ذلك في موضع آخر ، لا نجد للقمر ذكراً في أخبار أهل الأخبار . فلم يشيروا الى اسمه ولا الى تعبد الجاهليين له ، حتى يلعب الفن بعد تتبع جميع ماورد في تلك الأخبار واستقصاء استقصاء تاماً ان الجاهليين لم يعرفوا عبادة القمر . والظاهر أن أهل الأخبار كانوا في جهل من عبادة الجاهليين للقمر ، بسبب ما شاهدوه من تعبد أهل مكة وغيرهم وكذلك القبائل الى الأصنام وتفرغهم

Handbuch, I. 8. 215. D. Nislen, Neue Katabanische Inschriften, 8. 18.

١ ابن الجعفي (٧٩) .

إليها ، وقولهم أنها تقربهم إلى الله ، وبسبب نص القرآن الكريم على تعبد الجاهليين وتقربهم للأصنام والأوثان . فذهبوا إلى أنهم كانوا مجرد عبدة أوثان ولم يفتنوا إلى أنهم اغفلوا الأصنام واسطة وشفيعا للآلة التي هي أجرام مجاورة في الأصل . أو لأن أهل الجاهلية القريين من الإسلام ، كانوا قد ابتعدوا عن عبادة الكواكب ولم يعودوا يذكرونها ذكر أجدادهم لها ، وانحصروا عبادتها ، بأن جعلوا من الثالوث إلهاً واحداً ، هو (الله) . فتقربوا إليه ، وصكفوا يتقربون إليه بالتقرب إلى الأصنام والأوثان . وذلك باتخاذهم إياها رموزاً مشخصة ومثلة للإله على الأرض . فكان لكل قبيلة صم يقربهم في زعمهم إلى الله .

وإذا أردنا تلخيص ما توصلنا إليه عن آلفة العرب الجنوبيين ، قلنا أنهم تعبدوا كما ذكرنا لثالوث سماوي تألف من القمر والشمس ومن عثر ، وهو الزهرة في رأي معظم الباحثين . وقد عرف القمر بـ (ود) عند المعينيين ، وبـ (الله) عند السبئيين ، وبـ (عم) عند قتيان ، وبـ (سن) (سين) عند حضرموت ، وبـ (ود) عند أوسان . وعرفت الشمس بـ (نكروح) عند المعينيين ، وبـ (شمس) عند السبئيين ، وبـ (الرث) (الثرت) عند القتيانيين ، وبـ (شمس) عند أهل حضرموت وأوسان . وعرف (عثر) بـ (عثر) عند المعينيين والسبئيين وعند قتيان وأهل حضرموت والأوسانيين^١ .

وقد رمز الفن العربي الجنوبي إلى هذا الثالوث السماوي المقدس برموز . فرمز إلى القمر بهلال تحت أو نقش على الأحجار والأخشاب والمعادن . والهلال ، يشير بالطبع إلى مطلع القمر في أول الشهر القمري . كما أشير إليه برأس ثور ذي قرنين . أما الشمس ، فقد صورت قرصاً أو دائرة ، أو كتلة أو هالة ، والقرص ، صورة طبيعية لقرص الشمس ، التي تظهر في السماء قرصاً وهالجاً يبعث الحرارة والنور . وأما الزهرة ، فرمز إليها بصورة نجمة في النقوش العربية الجنوبية وبأبلة غيوط الشعاعية في النصوص البابلية^٢ . وهي ذكر وولد عند العرب الجنوبيين .

١ A. Jamme, La Religion Sudarabe Préislamique, in M. Brillant et R. Aigrain, Histoire des Religions, IV, Paris, 1954, 229-307, G. Ryckmans, Les Religions Arabes Préislamiques, Bibliothèque de Muséon, 28, Louvain 1951, 23-34.

G. Ryckmans, De Maangod in de Voorislam.

Handbuch, I. S. 201, Grohmann, Göttersymbole, S. 37-44, H. Primy.

Orientalische Symbolik, Berlin, 1915, S. 75, 76, 142.

وقد هدم الإسلام عبادة الكواكب ، وحرم السجود للشمس والقمر ، والصلاة لها ، وحاول اجتثاث كل ما له صلة بتلك العبادة ، فلم يبق اليوم من العرب من يتعبد للثالوث السماوي المقدس . ولكننا لا نزال نرى بعض العوام يغضبون إذا سب أحدهم الشمس أو القمر ، ويتقرب الأحمق إلى الشمس بأستانهم التي غلغلوها ، لتعطيلهم أستان غزال ، أي استانا جميلة بيضاء ، إلى غير ذلك من أوابد يعرفها الأعراب .

وفي القرآن الكريم : « ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر . لا تسجدوا للشمس ولا للقمر . واسجدوا لله الذي خلقهن إن كنتم إياه تعبدون »^١ . « قل هاسجدوا لإياه فاعبدوا دونهما ، فإنه إن شاء طمس ضوءهما فترككم حيارى في ظلمة لا تهتدون سبيلاً ولا تبصرون شيئاً »^٢ . وقد خاطب الله قريشاً وغيرهم بذلك ، مما يدل على أنهم كانوا يسجدون للشمس والقمر . ولعلهم كانوا يفعلون ذلك عند الشروق وعند الغروب . وقد ذكر (ابن كثير) في تفسيره الآية المذكورة ، ما يأتي : « لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذي خلقهن إن كنتم إياه تعبدون . أي ولا تشركوا به لما تفتكح عبادتكم له مع عبادتكم لغيره ، فإنه لا يغفر أن يشرك به »^٣ .

والسجود الخضوع ، ومنه سجود الصلاة ، وهو وضع الجبهة على الأرض ، والانحناء ، وسجد طامعاً رأسه . وكان النصارى يسجدون لأجبارهم ، أي سادتهم من رجال دينهم . و (المسجد) من الألفاظ المعروفة عند الجاهليين . وهو البيت الذي يسجد فيه ، وكل موضع يتعبد فيه ، فهو مسجد^٤ .

صفات الآلهة :

ومعظم أسماء الآلهة هو كما سبق أن ذكرت صفات في الأصل ، استعملت

١ فصلت ، رقم ٤١ ، الآية ٣٧ .

٢ تفسير الطبري (٧٧/٢٤) .

٣ تفسير ابن كثير (١٠٢/٤) .

٤ قال حميد بن ثور :

ففضول أزمتهما أسجفت سجود النصارى لأجبارهما

تاج العروس (٣٧١/٢) ، (سجد) .

استعمال الأسماء الأعلام . وهي كثيرة يتبين من دراستها ان الآلهة كالانسان ، تغضب وترضى ، تحب وتبغض ، قوية شديدة ، ورؤوفة رحيمة شفيقة ، اذا رضى عن انسان أبعده في هذه الدنيا ، وإن غضبت عليه أهلكته، سمجة بصيرة حكيمة حليلة . باقية خالدة خلود الدهر ، بينا الانسان هالك .

ومن الثعوت الواردة في تفصوص المستد : (رحم) ، أي (رحيم) ، فالآلهة رحيمة بعبادها ، تغفر ذنوبهم وتصفح عن سيئاتهم ، وهي (حليلة) (حلم) ، سمجة (سمع) ، قدسة (كهان) ، تحمي عبادها حابة الأب لأبنائه (احمي) ، ترضى عنهم رضاء الأب عن أولاده (اب رضو) . شفيقة بهم شفقة الأب بأبنائه (اب شفق) ، ونهم بهم (اب شعر) ، وهي فتورة (ايل فخر) (الفخر) ، عالية سيادة العالم (ال تعل) (ايل تعل) ، (ايل تعالى) ، و (بعل) (بعلت) ^١ .

ومن الصفات والثعوت التي أطلقها تفصوص الثعودية على الآلهة : (عم) ، بمعنى رحيم ورؤوف ، و (سمع) ، بمعنى (صحيح) ، و (رم) بمعنى العظيم ، و (الرامي) ، والكبير . و (ايتز) (أيتز) بالمعنى المفهوم من القطة في عربيتنا ، أي ، ليس له ولد^٢ . ولهذا الصفة أهمية كبيرة بالنسبة للدارس الحياة الدينية وتطور فكرة الألوهية عند الجاهليين ، لأنها تشير الى ان صاحب النص الذي خاطب إليه بقوله : (هاله ايتز) ، (ها إله ايتز) ، بمعنى (فيا إله الأيتز) ، أي الإله الذي لم يلد ولا ولد له ، كان يعتقد ان إله لم يلد أحداً ، فهو فرد واحد أحد . وقد وردت لفظة (ايتز) في نص ختم بهذه الجملة : (هاله ايتز بك سر لن) ^٣ ، أي : (فيا إله ايتز بك سرور لنا) . او بتعبير أوضح : (فيا إلهي أو إلهنا الذي ليس له ولد ، بك سرور) ، أو (فيا إلهنا ايتز بك سرور لنا) ، أو (أنت سرور لنا) .

والآلهة تساعد الناس وتعاونهم وتغيثهم . هذا نص ثمودي كتبه رجل من قوم ثمود ، توصل فيه الى إلهه أن يرسل المرات (ميسر) ، الى من نزلت بهم

Arabien. 246.

Hu 475, JHA 302, 306, 308, H. Grönnroos, S. 66.

السطر الرابع من النص المذكور .

الدواهي من الناس . وان يعاون العاملين . (ذ انا يعمل)^١ . وهذا نص آخر ،
كتبه شخص آخر ، وجهه الى الإله (رضو) ، يقول فيه : (ه رضو ات
عون عمل)^٢ ، أي (يا رضو امنح العون لمن يعمل) ، أو (يا إلهي رضو
العون للعامل) .

والآله ضياء للناس ، تضيء لهم سواء السبيل ، تمنحهم نعمة الرؤية وترسلهم
الى النور . هذا نص يقول : (الى نامت ضي ل ن)^٣ . فهو يطلب من
الإله أو من المعبود ، أن يضيء لكاتبه النص السبيل ، وأن ينقلهم من الغفوة
التي أصيبوا بها ، لينجّل لهم الحق . وفي نص آخر : بك ري نور تحت حيت^٤ ،
ومعناه : بك رأينا النور . وتمت الحياة ، أو : بك نور . ضياء .. حياة ،
أو ما شابه ذلك . فالإله هو نور لهذه الحياة ، وضياء للناس .

واقف عالم بكل شيء ، ذو المعرفة والعلم . وقد وردت صفة (ه ع ر ف)
(ه ا ع ا ر ف) (ه ا ع ر ف) أي العارف في نص رسم بـ JSA 568^{*} . وفي نص
آخر ، رسم بـ Hu 626^١ . وهو العالم المحيط بكل شيء . وقد عبر عن
هذه الصفة بلفظة (حصي) ، و (أحصى) بمعنى أحاط وأحصى كسل شيء
عدداً^٢ ، فافقه محيط بكل شيء . عالم لا يخفى على علمه شيء .

ووصفت الآلهة في النصوص التمودية بأوصاف أخرى ، مثل (عبر) بمعنى
(التدبير) والقوي والمعتبر ، و (ذ عبر) ، (ذو عبر) بمعنى ذو الخول
والطول ، وذو القوة والقدرة . و (ذبر) ، وهي بهذا المعنى أيضاً^٣ . وهو
(العوذ) ، (عوذ) ، والملجأ لكل إنسان^٤ . وهو (العلي) ، وقد وردت
جملة (عل رضو) ، بمعنى (أعل رضو) ، وهي جملة تذكرنا بقول (أبو سليمان)

Idu 643/8, JSA 409, 504, Grimme, S. 33-34.

Idu 643/8, Grimme 33.

Grimme, S. 35, 41.

Grimme, S. 41.

Grimme, S. 37.

Grimme, S. 42.

١. تاج العروس (٩١/١٠) .

Grimme, S. 44.

Grimme, S. 44.

يوم معركة (أحد): «اعلُ هيل ، اعلُ هيل»^١ . وإني أرجح أن لفظة
(عل) في هذا النص ، تعني (عل) ، أي حرف جر ، فيكون المعنى (عل
رضو الملجأ) ، و (عل رضو الملجأ) .

ولم أعر في التصوص الجاهلية على نعت بشر إلى استخفاف أو حطة بالآلهة .
فلم أجد إلهاً نعت فيها باللؤم أو بالسرقة ، أو بالاعتداء على الأعراس ، أو رمي
بالحسد ، حسد الناس أو حسد أمثاله من الأرباب ، كما لم أجد ما نجده في
الأساطير اليونانية من وجود فروق بين الآلهة ، وتباين بينها في المنزلة والمكانة ،
بحيث نجد آلهة كبيرة غنية ، وآلهة ضعيفة فقيرة تحسد الأول وتنقم عليها ، وآلهة
تسرق وتهب لحاجتها إلى المال ولتفقرها ، ولم أجد فيها التخصص الذي نجده في
الآلهة اليونانية ، من وجود آلهة للبحار ، وآلهة للهواء ، وآلهة للحب ، وآلهة للخمر ،
ونحو ذلك . وكل ما نجده عندهم ، هو وجود آلهة شعوب وقبائل ، مثل ود إله
شعب معين ، واللقه إله شعب سبأ ، وهيل إله قريش ، وهكذا نشأت من
الظروف المحلية التي عاش فيها الجاهليون .

ولا أستبعد وجود (ميثولوجيا) أي أساطير عند الجاهليين ، تدور حول آلهتهم ،
فقد تحدثت عن رأي بعضهم في (الشعرى) ، ولكنني أستبعد وجود أساطير دينية
معقدة عندهم على شاكلة الأساطير اليونانية ، أو الأساطير المصرية أو الهندية ، لما
بين الظروف المحيطة بالجاهليين وبين الشعوب المذكورة من فروق . والأساطير هي
من حاصل المجتمع والظروف المتحركة في الإنسان .

وإذا وجدنا آلهة أهل الجاهلية على هذا النحو من الصفات المذكورة ، حساسة
ذات حسٍّ مرهف ، تتفعل بسرعة ، تغضب وترضى ، فيجب أن نعرف أن
هذه الصفات ، تمثل تخليقاً من أطلقها على أربابها ، فأرباب الناس من صنعهم ،
هو الذي أوجد تلك الأصنام وسواها ، فإدام هو موجدتها ، فلن تكون آلهته
إلا على شاكلته ، إنها صورة صادقة له .

الثواب والعقاب :

وما يفعله الإنسان من خير أو شر ، سيكون ثوابه وجزأؤه في هذه الدنيا .

والآلهة ، هي التي تتيب وتمتدح . تتيب المتقي المتعبد لها المخرب اليها بالنلور وبالبر بمعابدها ، فتعطيه مالا وتبارك له في نفسه وفي أهله ، وتمطيه ذرية صالحة ذكورا ، وتنجيه من البلايا والآفات ومن الأوبئة والأمراض ، وترجعه سالما معافى من الحروب ، تشفي جروحه اذا جرح ، وتغلق عليه بالنعم من غنائم الحرب . فهذا هو الثواب . ثواب في الدنيا وكفى .

أما العقوبة ، ففي الدنيا وحدها أيضا ، وتكون بإزالة البلاء بمن يستحقه من الخارجين على أوامر الآلهة ، المتجاوزين على حرمة المعابد ، المارقين على النظام ، المخالفين لسلوك المجتمع ، المتجاوزين على حقوق غيرهم . ومن البلاء الأمراض ، من عى وعور ، وإصابة عضو من أعضاء الجسم يعطب ، والأوبئة . وتجد في النصوص توسلات الى الآلهة بأن تصيب من يغير التصوص للدولة الموضوعة شواخص على القبور ، ومن يتطاول على حرمة المقابر ، أو يذل غريبا فيها بغير إذن ، بالعمى والعور ، لتجاوزته على حرمة القبور . وكان في روع أهل مكة وما حولها ان من يعرض للسبابة ، أو لحرمة الله ، أصابته عقوبة في الدنيا . وعقوبات الدنيا أشد تخويفا للأعرابي ، وأكثر وقعاً في نفسه من العقوبات المؤجلة في العالم الثاني ، ثم إن معظم أهل الجاهلية لا يؤمنون باليوم الثاني ، ولا بعشر وبعت ونشر .

ولولا الثواب والخوف من العقاب في هذه الدنيا ، لما تقدم انسان وهو فقير بائس ، بأعز ما عنده الى آفته ، على فقره وجوعه ، ليقدمه قربا اليه ، وهو في أشد الحاجة له ، ولما بنى الناس المعابد ، وتقدموا اليها بالهدايا والنلور ، ولما ذكر رجل آفته وتبرك باسمها ، ووضع ملكه في حمايتها ورعايتها ، ولعمت القوضى المجتمع ، وأكل بعضهم بعضاً ، ونهبوا المال . والخوف من العقوبة في هذه الدنيا ، ساعد بالطبع كثيراً في ردع الأشرار عن لجبهم ، وفي منعهم من الاعتداء على الحرمات ، كما ان الإثابة في هذه الدنيا حملتهم على عمل الخير ، وعلى الضرب الى المعابد والعمل بأوامر رجال الدين ، لتحقيق رضى الآلهة ، وفي نيل رضاها كسب مادي وريح ملموس أكيد في هذه الحياة .

ولولا الأمل في الرضى والثواب ، والخوف من الآلهة ، لما جعل الناس أنفسهم عبيداً الى الآلهة . فسموا أنفسهم (عبد ود) و (امت العزى) (أمة العزى) ،

١ تفسير الطبري (٥٩/٧) ، تفسير القرطبي (٣٣٦/٦) .

و (عبد يغوث) ، و (عبد مناة) ، وما شابه ذلك من أسماء دُعي أصحابها بها ، أملاً في العمر الطويل ، وفي التهرب من الموت . فقد كان الآباء والأمهات يُلَبِّسون نلراً ، انه ان ولد لهم مولود ، أخدموه إلهاً من الآلهة ، ودعوه عبداً له حتى يعيش . يفعل هذا الفعل من لا يعيش له مولود ، ومن يولد له مولود لكنه لا يعمر طويلاً ، بل يموت طفلاً أو في مقتبل العمر . فأمل الإنسان في ان يضع الإله حياته ورعايته للمولود ، دفعه على ركوب هذا المركب ، لاقناع الآلهة بدفع الموت عن أبنائهم وحمايتهم منه .

ولبنا نصوص جاهلية عديدة ، تخبر عن تلبية الآلهة توسلات المتعبدين لها ، ووفائها لهم بما طلبوه منها . ففي نص تمودي يخاطب انسان ربه (مناف) (مناف) بقوله : (سمعت مناف)^١ ، أي (سمعت قناني يا مناف) ، أي استجبت لندائي ، فوفيت لي يا إلهي مناف . وقد دونه حذاً له وشكراً واعتراضاً بفضله عليه . وفي نص آخر ، يخبر صاحبه انه يرى . وان ربه شفاه مما ألم به من مرض . فيقول (يرات) ، أي (يرات)^٢ ، و (يرات)^٣ ، و (يرات)^٤ . وفي نص آخر يشكر انسان ربه (سلم) . ولم يرد في النص السبب الذي حمل صاحب النص على شكر إلهه (صلى) ، لكننا نستطيع ان نحزر ، فنقول انه طلب منه شيئاً ، فصار على نحو ما أراد فشكر إلهه لذلك . وفي نص آخر ، نوسل من شخص الى إلهه (سلم) لكي يعينه في القاجعة التي فجع بها^٥ . وفي نص آخر ، نوسل الى إلهه لأن يمنحه : (خلود) ، أي الخلود ، بمعنى طول العمر^٦ .

ومن التوسلات الجميلة التي وجهها المودبون الى آلهتهم ، قول أحدهم : (يا إلهي است) ، (يا إلهي اموت)^٧ ، (يا إلهي اموت) ، أو (يا إلهي حب إلهي اموت) ، أو (يا إلهي أقمي) . فهو يخاطب ربه . وقد ملأ قلبه العشق نحوه . العشق الإلهي الذي تقرأه في كتب المتصوفة ، وتسمعه في تغاريدهم يخاطبون

1Eu. 421, Eu. 775, Hu 565/37, H. Grimme, B. 58.

2Eu. 504/34.

3Hu. 497.

4JSA 533.

5JSA 17. سلم شكر .

Grimme, B. 34, 40.

Grimme, B. 35, 41.

Hu 255/20, Eu 250, Grimme, B. 66.

بها الله . ونجد هذا الحب الإلهي والمروءة إلى الله في نص ثمودي آخر، هذا نصه :
 (يم مرد . ب ل ه ي جرت . ب ل ه ي ام ت لب ذه غ ث ت)^١ .
 أي (من مر . يلقي استجرت . يلقي أموت . اعطني لك . يا مغيث) ،
 وبعبارة أوضح : (من مر) و (مر) اسم صاحب النص ، فهو يوجه ندائه
 إلى ربه (استجرت) يلقي . ويلقي أموت . اسمع ندائي يا من يغيث) ، أو
 (يا مغيث) . ففي هذه التوسلات وأمثالها رقة الشعور الديني ، والحس المرهف
 الذي يكون عند كبار المتصوفة في مناجاتهم الله .

التطاول على الأرباب :

وفي روع أهل الجاهلية أن من سب الأرباب أو تطاول في كلامه عليها، نزلت
 به قارعة . فلما أسلم (ضيام بن ثعلبة) السعدي أو التميمي ، وقدم على قومه ،
 (فكان أول ما تكلم به ، أن قال : بشت اللات والعزى . قالوا : مه يا ضيام
 اتق البرص ، اتق الجسدام ، اتق الجنون . قال : إنها والله ما يضران ولا
 ينفعان)^٢ . ولما تحرش الرسول بالأصنام خوفاً للمشركين من أن يصاب بسوء ،
 وإلى تخويفهم هذا أشير في القرآن الكريم : « ويخوفونك بالدين من دونه ، ومن
 يسئل الله ، فما له من عاذ »^٣ . يعني « ويخوفونك (هؤلاء المشركون) يا محمد
 بالدين من دون الله من الأوثان والآلهة أن تصيبك بسوء ، براءتك منها وعيبك
 لها ، والله كافيك ذلك »^٤ . و « كانت زبيرة رومية ، فأسلمت فذهب بصرها ،
 فقال المشركون : أعمتها اللات والعزى » ، « وقالت قريش ما أذهب بصرها
 إلا اللات والعزى »^٥ .

Hu 518/27, Grimme, B. 87.

١ الاستيعاب (٢٠٨/٢) ، حاشية على الإصابة) ،
 الزمر ، ٢٩ ، الآية ٣٦ .
 ٢ تفسير الطبري (٥/٢٤) ، تفسير القرطبي (٢٥٨/١٥) .
 ٣ الإصابة (٣٠٥/٤) ، (رقم ٤٦٥) .

الفصل السابع والستون

التقرب الى الالهة

وكما تقوم الصداقة بين الناس على أساس الود والتقرب والانصال والتذكر بتقديم الهدايا والأعطاف ونفائس الأشياء ، كذلك تقوم الصلة بين الانسان وآلهته على أساس من الود والصداقة أيضاً . وإذا كانت الآلة أقدر من الانسان ، كان من اللازم على البشر التودد اليها بشئ الطرق المعبرة عن معاني التقرب والتعجب والتعظيم ، لتذكركه ، فتمن عليه بالبركة والسعد وبخير ما يشتهي ويرغب فيه . والبشر عبيد لآلهتهم ، فعليهم ان يؤدوا لها ما يجب أن يؤديه العبد لسيده . إن على العبد واجبات وفروضاً يجب ان يؤديها لصاحبه ومالكه ، وعلى الانسان كائناً ما كان ان يقوم بأداء ما فرض عليه لآلهته وأربابه في اوقات مكتوبة وفي المناسبات .

ولما كانت عقلية الانسان القديم وعقلية كل بدائي تقوم على فهم الإدراك الحسي في الدرجة الأولى ، كان للهدايا وللنذور والقرايين والشعائر العملية المقام الأول في دياناته ، لأنها ناحية ملموسة تراها الأعين وتذكرها الأبصار ، وفيها تضمينة تقنع القديس التقى المتقرب بها الى آلهته بأنه قد قدم شيئاً ثميناً لها ، وانها لذلك سترضى عنه جنماً ، لأنه قد أثرها على نفسه فقدم اليها أعز الأشياء وأغلاها . انها سترضى عنه ، لأنه لم ينسها ، ولم يغفل عنها ، ولم يفترجه لها . وسترضى عنه كلما تذكروها وقام بأداء هذه الواجبات المقروضة أو المستحقة لها ، كما يرضى الصديق عن صديقه أو السيد عن عبده ، بإظهار الاخلاص وبالحرص على أداء الأعمال المرضية.

والدين عقيدة ، أي (إيمان) Belief وعمل . والعمل أبين وأظهر وأقوى في البيانات القديمة من الإيمان ، بسبب أن الإيمان بالقلب ، وهو لا يكون إلا بين المرء وربه ، ولا يمكن لأحد الاطلاع على كنهه . أما العمل فهو تجسيد للإيمان وتعبير عنه بصورة عملية واقعية . وهو الناحية المحسوسة الظاهرة للدين . ولا يفهم اليدائي من الدين إلا مظاهره ، التي تتركز على نفسية وبذل مادي لارضاء الآلهة ، فعتقه أنه متى بذل أمر ما يملكه في سبيل آفته عداً مؤمناً تقياً ، ترضى عنه الآلهة ، وألستها الناطقة بلسانها على الأرض : طبقة رجال الدين . ولهذا رأى بعض العلماء ، أنه لدراسة دين من الأديان القديمة يجب الاهتمام بشعائره وبالأحكام التي فرضها على أتباعه ، لأنها هي أساس ذلك الدين وجوهره .

لقد كانت ديانات الجاهليين ذات حدود ضيقة ، آفته كلفة عملية ، فالإله إما إله قبيلة وإما إله موضع . وطبيعي أن تكون صلة الإنسان بإلهه متأثرة بدرجة تفكير ذلك الإنسان وبالشكل العام للمجتمع . والإله في نظرهم هو حامي القبيلة وحامي الموضع ، وهو المدافع عنها وعن في أيام السلم وفي أيام الحرب ، ما دام الشعب مطيعاً له مفضلاً لأوامره وأحكامه ولشعائره المرسومة التي يعرفها ويقررها ويقوم بتنفيذها رجال الدين .

ويكون ارضاء الآلهة بالتقرب إليها وتنفيذ أوامرها التي تمنيتها وتبتهل خاصتها المختصة بين القبيلة أو الشعب ، أعني كهانها ورجال الدين الذين يعرفون أوامرها وأحكامها خير معرفة ، وهم الذين يفسرونها ويأمرون بتنفيذها بين الناس . وقد يكون هذا التنفيذ في أيام أو أشهر ثابتة معينة تكون لها قدسية وحرمة خاصة ، وقد يكون في مواسم . يرى الناس أن كلفتهم تكون في تلك الأوقات حاضرة منهية قريبة منهم تسمع شكواهم وما عندهم من مطالب . ويكون هذا التنفيذ بصورة غنظة أهمها زيارة المعابد والتبرك بأصنامها ، وتقديم النور لها ، وإيقاف الخيوس عليها ، والحلج إليها في الأوقات المقررة وفي كل وقت أخسر ممكن ، وأداء الصدقات والتركاة ، تركية للآل ، وتطهيراً لنفس من الذنوب .

ومن أهم ما تقرب به الإنسان إلى آفته (النور) و (القرايين) و (المنح) ، أي الصدقات والعطايا . وتدخل (اللبايح) في باب النذور والقرايين كذلك .

ويجب ان الضيف (القرى) اي الضيافة عليها أيضاً ، لما لها من صبغة أخلاقية دينية ، حتى صارت الضيافة من الواجبات المثبتة في نظام (مكة) . وهي (الرفادة) أي تقديم الطعام لمن يحتاج إليه .

والمنحة عند العرب ان يعطي الرجل صاحبه مثال هبة أو صلة فيكون له ، أو ان يمنح الرجل أنعامه ناقة أو شاة يجلبها زماناً وإياماً ثم يردّها . وقد نفّس على الأرض، وهي ان يعطي الرجل غيره أرضاً ليزرعها ويستفيد منها، هبة أو عارية^١ . ويظهر من الإشارة إليها في الحديث ، انها كانت من أعمال البر المعروفة عند أهل الجاهلية ، وكانوا يقرّبون بها إلى آلهتهم .

ولم تحدد الوثنية الأشياء التي كان على الإنسان ان يقدم بها إلى آلهته قربان إليها أو وقاءً لنذر ، بل تركت له الأبواب مفتوحة ، فله ان يتقرب إلى آربابه بكل ما يختار ويشاء ، من امور بسيطة وخبصة إلى أشياء ثمينة غالية ، كل حسب مقدوره وقابليته . فنجد بين النذور مياخر وتمائل ومصاييح ، وأشياء نفيسة من ذهب أو من جواهر . كما كانوا يتركّون يوضع حصونهم ويوتنهم ويساتينهم ومزارعهم في حراسة الآلهة ورعايتها ، لتحفظها ولتحتفظ أصحابها .

ويمكن تقسيم ما تقدم به الجاهليون إلى أربعين : قسم إجباري ، يجب الوقاء به بسبب (نذر) مثلاً ، وقسم تطوعي ، أي اختياري مثل (المنح) والذبايح التي تقدم في المراسم وفي سائر الأيام ، ويقال لها (نذب) و (نذبت) (نذبة) . و (المندوب) في عريتنا المستحب^٢ . وأدخل في القسم الأول ما يقال له (خطت) (خطات) (خطاة) ، أي (الخطيئة)^٣ . ويراد بها تقديم (فدية) عن عمل يخالف قام به انسان ، مثل تقديم ذبيحة بسبب دخول انسان نجس في المعبد .

وإذا كنا في شيء من الجهل بالنسبة إلى الزكاة التي كان الناس يدفعونها في نجد أو العربية الشرقية أو في الحجاز إلى المعابد وإلى رجال الدين ، لعدم وجود تعرض جاهلية تكشف القباب عنها ، فإن لنا بعض المعرفة عن الزكاة التي كان

١ تاج العروس (٢٢٢/٢) ، (منح) .
٢ تاج العروس (١٨١/١) ، (لب) .
٣ Ancient Israel, 418-421, 425, 429.

يقدمها أهل العربية الجنوبية إلى معابدهم ، فظهرنا بها في الكتابات التي عثر عليها هناك ، وقد وردت فيها إشارات إليها في نصوص تعرضت لها بالمشائبات .

وهذه الزكاة حصص عينية مقررة تدفع إلى المعبد على شاكلة الحصص التي تدفع إلى أصحاب الأرض والحكومة ، تخزن في مخازن المعابد ، لتصدر إلى الخارج ، أو لباع في الأسواق ، أو ليصرف منها على المعابد ورجال الدين والمحتاجين . فكان التنبانيون مثلاً يدفعون عشر حاصلهم إلى المعبد ، ويعرف ذلك عندهم بـ (عصم)^١ ، تدفع هذه الضريبة عن حاصلات الأرض ، وذلك في كل سنة . وقد عرفت هذه الضريبة بـ (عشر) عند المعينين . وهي ضريبة تدفع أيضاً عن الحيوان إلى المعبد . وهذه الضريبة هي في الواقع من الضرائب العامة التي كانت تدفعها أُمم أخرى عديدة إلى المعابد ، وتستند إلى تقاليد تاريخية قديمة ، وإلى نظرية أن الأرض هي ملك للآلهة ، فهي التي تنعم على الإنسان بالحاصل وبالخير والبركات ، فعمل الإنسان تخصيص جزء من حاصله لتلك الآلهة . فإذا قصر إنسان في أداء ما عليه إلى الآلهة ، تعرض للعقاب ولحرمان الآلهة إياه من البركة والخصب^٢ .

ويتبين من نصوص المسند أنه كانت في العربية الجنوبية أرضون واسعة مسماة بأسماء الآلهة ، أجرت لها المعابد لرؤساء أو سلمتها إلى أيدي (الكبراء) لاستغلالها في مقابل أجر يدفعونه إلى المعبد يتفق عليه . وهذه الأرضون هي أوقاف حيث على الآلهة تعرف بـ (وتقم) (وتنف)^٣ . ومن لحلات هذه الأوقاف ومن (المعصم) والتدور والمبات الأخرى يتفق على المعابد وعلى رجال الدين .

وقد ظهر في العربية الجنوبية نظام إقطاعي (كهنتي) ، أسباده رجال الدين ، تولوا الإشراف على إدارة أملاك المعبد الواسعة وعلى استغلالها وإدارة شؤونها ، وجباية الأرضين التي يوقفها المؤمنون أصحابها على الآلهة ، وعلى استحصال حقوق المعبد من التملكين . وقد أشير في كتابات المسند إلى أرضين واسعة كانت أوقافاً للمعابد ، أجرت إلى سادات القبائل لاستغلالها في مقابل أجر اتفق عليه . ويظهر أن بعض أولئك السادات كانوا أقوياء وأصحاب نفوذ فاستولوا على (الجبوس)

١ السطر الثالث من النص الموسوم بـ : Kataba. Texte, I, Glaser 1661
٢ Hastings, p. 340.
٣ Kataba. Texte, II, B. 30.

استيلاءً في مقابل أجور زهيدة كانوا يدفعونها للمعبد ، ولما لم يكن في وسع المعبد فعل شيء تجاههم ، اضطر الى قبول الأجر الزهيد الرمزي الدال على تملك المعبد للأرض . أما السادات فكانوا يؤجرون الأرض لأتباعهم بأجور عالية ، ويربحون من ذلك أرباحاً كبيرة .

وعثر المتفحون على وثائق في خرائب بعض المعابد ، تبين منها أنها كانت تصوص عقود إيجار واستئجار لأمالك المعبد ، أي للأوقاف المهيمنة على أرباب المعبد . وقد ذكر المستأجرون فيها الشروط التي اتفقوا عليها مع المعبد في مقابل استغلال الوقف . وإذا كان المستأجر غير متمكن من أداء ما عليه للمعبد في مقابل استغلال الأرض ، فإن من حقه الاستئانة من غيره أو الاتفاق مع غيره على المساهمة معه في الاستغلال والاستئجار على شرط أخذ موافقة رجال المعبد على ذلك، وإدخال اسم الشخص الثاني في العقد ، كي يكون مسؤولاً شرعاً عن تنفيذ شروط العقد في حالة عدم تمكن زميله من ذلك .

وقد اقتضى تضخم أمالك المعابد خلق جهاز خاص لإدارة الأملاك والأوقاف والاشراف على استحصال (الأعشار) من الدخل وتركات الارث والمشتريات الى جانب التلوز والقراين وتوقيع العقد . جهاز رأسه كبار رجال الدين ، الذين يمثلون الآلهة على الأرض، وقاعدته صغار رجال الدين ومن عهد اليهم أمر الإدارة من غير رجال الدين . فصار للمعبد بذلك نفوذ كبير في اقتصاد العربية الجنوبية في ذلك الوقت .

وفي المعابد مواضع يرمي الزوار فيها ما يجودون به على المعبد ، تكون أمام الأصنام في الغالب . وهي خزائن تتجمع فيها التلوز والمبات ، فأخذها السادة . وأغلب ما يرمى فيها الحلي والمصوغات المصاغة من الذهب والفضة ، والأشياء النفيسة الأخرى . كما كانوا يعلقون السيوف والألبسة الثمينة على الأصنام وعلى الأشجار المقدسة قرباً إليها ، ووقاء بتلوز نذروها لها .

ولم يخل الجامعيون على أصنامهم، تقدموا لها حتى المأكول والمشرب، لاعتقادهم أنها تسرّ بذلك وتفرح . فقد علقوا على (ذي الخلصة) ، وهو صنم نصبه

(عمرو بن لحي) ، القلائد وبيض النعام ، والبرد النفيسة ، وقدموا له الخنطة والشعر ، بل واللبن أيضاً ، ليشرب منه ، وذبحوا له ^١ . فهم يعضدون أن في الصنم روحاً ، وأن في مقدوره التلذذ بهذه النذور . وكان في روعهم أنه يشرب من ذلك اللبن .

وقد أشير إلى الهبات التي تقدم إلى المعبود والآلهة بكلمة (وهيم) في النصوص القنطارية . بمعنى (وهب) و (هبات) . ووردت كلمات أخرى تؤدي هذا المعنى أيضاً . منها : (ودم) ، و (شقم) ، و (بنم) ^٢ . وتقابل هذه ما يقال له : (منحة) و (لئحة) عند العرب الشاليين .

وفي جملة ما يدخل في هذا الباب (بكرت) ، أو (الباكورة) أول كل شيء . مثل الثمر وأول مولود بالنسبة للحيوان ، حيث يهدى للآلهة . وقد كان معروفاً عند العبرانيين وعند غيرهم من الساميين . وذلك أن يجعل صاحب المال ثمرة أول زرعه أو حيوانه فلدراً لآلهته ^٣ . وقد أشير إلى هذا النذر أو الهبة في نصوص المسند . ومن (الباكورة) العقيقة التي تحدث عنها في موضع آخر من هذا الكتاب .

وتلعب النذور دوراً عظيماً في الحياة الدينية عند الجاهليين ، حتى صارت عندهم بمثابة المظهر الأول والوحيد للدين . فالعامة لا تكاد تفهم من الدين إلا تقديم النذور للآلهة ، لتجيب لها طلباتها وتنعم عليها بنعماتها . والنذور هي وعد على شرط . يتوصل الناذر إلى آلهته بأنها إن أجابت طلباً عيته ، وحقت مطلباً نواه ، فعليه كذا نذر ، يعينه ويذكره . فهنا عقد ووعد بين طرفين في مقابل تنفيذ شرط أو شروط ، أحد طرفيه السائل صاحب النذر ، أما الطرف الثاني فهو الإله أو الآلهة . وأما الشرط ، فهو تنفيذ المطالب التي يريدتها الناذر . وأما النذر ، فهو أشياء مختلفة ، قد تكون ذبيحة ، وقد تكون جملة ذبائح ، وقد تكون نقوداً ، وقد تكون فاكهة أو زرعاً ، وقد تكون أرضاً ، وقد تكون تمثالاً ، وقد تكون حياً لإنسان يهب نفسه أو مملوكه أو ابنه لإله أو لآلهته ، وقد يوهب

١ الأزرقى ، أخبار مكة (٧٨) ، (لا ييزك) .

٢ N. Rhodokanakis, Kalab Texts, I, B. 18, 28.

٣ في العبرانية « بكوريم » . Ancient Israel, 383, 404, 423.

ومن هذه النذور (الریط) . فقد كان الجاهليون ينذرون أنهم إذا عاش لهم مولود جعلوه خادماً للبيت ، أي لبيت الصنم . ومن هنا لقب (الغوث بن مر) بالریط ، لأن أمه كانت لا يعيش لها ولد ، فنذرت لئن عاش هذا لربطن برأسه صوفة ، ولتجعلنه ریط الكعبة : فعاش ففعلت وجعلته خادماً للبيت حتى بلغ الحلم ، فترعته فلقب الریط ^١ .

ويظهر من بعض الروايات أنهم كانوا يربطون الریط بالبيت . فقد ذكروا أن أم (الغوث) لما ربطته عند البيت أصابه الحر ، فرت به ، وقد سقط وذوى واسترخى ^٢ ، فيظهر أنهم كانوا يربطونه برباط بالموضع المقدس ، ليكون على اتصال تام به ، كما يفعل الناس اليوم من ربط مرضاهم ومن لا يعيش طويلاً من الأولاد بقبور الأولياء خيط أو حبل ، رجاء الشفاء وطول العمر . وقد يعتقدون خيطاً أو شريطاً بالقبر ، لهذا الغرض .

وقد كان اصحاب النذور يتسككون ويكثرون من تعبدهم ومن تحريم الصنم الذي نذروا له ، ليمن عليهم ويحقق لهم ما طلبوه . وقد اشار (ليد) الى الناسكات ينتظرن النذر بقوله :

توجس النُّبُوحُ شُعْثًا غُبْرًا كالنَّاسِكَاتِ ينتظرن النُّذْرًا ^٣

ومن نذورهم في الجاهلية ، أنهم كانوا ينذرون بالأشياء الصبا حتى يلجأوا أو ينحروا ^٤ . ويظهر ان هذه عادة كانت لها صلة بطقوس دينية جاهلية قديمة، نجدها عند اهل مكة وعند الأعراب .

وتكون النذور في حالات الشدة والضيق في الغالب . فإذا أصيب انسان بمكروه أو أصيب عزيز له بذلك ، نذر الى آله نذراً ، يقدمه لما حالة تحقق الشرط ، فإن صادف ان تحقق ما طليه ، وجب على الناذر الوفاء بنذوره . ونظراً لظروف ذلك الوقت ، فقد كانت النذور كثيرة ومتنوعة . منها نذور مادية ، ومنها نذور

- ١ تاج العروس (١٤٢/٥) . (ریط) .
- ٢ الروض الأنف (٨٥/١) .
- ٣ ديوان لبيد (٢٣٦) .
- ٤ الكامل (٥٢/٢) وما بعدها .

معنوية ، مثل التعبد والتبتل وخلعة بيوت الأصنام وما شاكل ذلك من تلذز .
وقد كانوا لا يحلّون لأنفسهم التماس والتخلص من الوفاء بالنذور ، لاعتقادهم
أنهم إن أكلوها ولم يوفوا بها ، غضبت عليهم الآلهة ، ولا سيما الإله الذي جعلوا
نذرهم له ، فيصابون بغضب منها ، وينالهم مكروه ، فهم لذلك يوفون تلذزهم
ولا يقصرون في الأداء ، إلا لحاجة أو لاستهتار أو لتغلب الشح على النفس ، ومع
ذلك ، فقد كانوا يلجأون إلى الحيل للشرعية في هذا التهرب ، بإيجاد الحلول
والأعذار .

ونجد في نصوص المسند عدداً كبيراً من الكتابات تفيد أن صاحب الكتابة قد
قدّم إلى الإله القلاني كلنا وكلنا ، لأنه أجاب طلبه وأعطاه ما أراد ووفاه بحسب
طلبه ، فقدم إليه كلنا وكذا وفاه لنذره . وتذكر في النص أحياناً جملة لتزول
اللغة أو ليتزل الهلاك والدمار أو ما شابه ذلك على من يحاول إزالة النذر والأثر
عن موضعه أو إلحاق الأذى به أو ما شابه ذلك من عبارات . وقد ورد مثل ذلك
في النصوص التمودية واللبائية والنصوص الأخرى . وتفهم فكرة التلذز والغاية منه
صروحة من هذه الكتابات ، فالنذر قدّم نذره ، لأن الإله المذكور أو الآلهة
المذكورة أجابت طلبه ووفت له ما أراد ، فوفى هو له أو لها ما اشترط على نفسه
تقديمه عند عقده صيغة النذر . فالإله أو الآلهة طرف يسمع ويتعاهد ويجب ويفعل
أو تفعل تماماً كما يفعل الإنسان ، وهي تشترط على الطرف الثاني أي على السائل
الوفاء بالنذر ، لأنه حين يجب عليه دفعه في مقابل تنفيذ الآلهة الشروط المذكورة ،
وإلا فإن الآلهة تغضب عليه وتوقع العقاص عليه ، وقد تسحب ما قدمت له حينها
عقدت النذر معه .

وكانت القرابين البشرية في جملة الأشياء التي قدمها الإنسان تلذزاً إلى آلهته .
وكان (عبد المطلب) ، كما يذكر أهل الأخبار قد نذر إن توافي له عشرة
رهط أن ينحر أحدهم . فلما اكتمل العدد ، قرر الوفاء بنذره ، وذلك بتبيع
أحدهم . وإذا لم يكن قد عين الولد الذي سيذبحه ، ذهب كعادة أهل مكة إلى
هبل يستقسم عنده . فلما أصاب التصيب (عبداً) ، ذهب إلى (إساف) ونائلة

١ طبري (١٤٤/٣ وما بعدها) ، روح المعاني (٥٦١/١ وما بعدها) ، تاج العروس
(٥٦١/٣) ، (نذر) ، تفسير البيضاوي (٢٠/٣ وما بعدها) .

وثني قريش الذين تنحروا عندهما ، ليذبحه ، « فقامت إليه قريش من أئمتها : فقالوا : ماذا تريد يا عبد المطلب ؟ قال : أذبحه . فقالت له قريش وبشوء : والله لا نذبحه أبداً حتى نعلم فيه ، لئن فعلت هذا لا يزال الرجل يأتي بابنه حتى يذبحه ، فما بقاء الناس على هذا ؟ » . ثم سأله أن يذهب إلى عرّافه كانت بالمدينة لها (تابع) ، ترى رأيا في الموضوع وتختفي فيه ، فلما ذهب إليها ، وجدها بخير ، فأشارت عليه أن يعود إلى مكة ، ثم يضرب بالقداح على ابنه وعلى عشر من الإبل وهو مقسدار الدية عندهم ، فإن خرجت القداح على عبداه ضربوا القداح مرة أخرى ، فإن خرجت القداح على عبداه مرة أخرى ، أعادوا الضرب حتى يقع على الإبل ، فيكون الرب قد رضي عنه ، فتنحر الإبل عندئذ . فسمع نصيحتها وفعل ، ونحرت الإبل فدية عن ابنه (عبداه)^١ . والظاهر أن عادة نحر الأبناء عند الكعبة قد بقيت حتى بعد دخول العرب في الإسلام ، بدليل ما ورد عن نذر امرأة أن تنحر ابنها عند الكعبة في أمر إن فعلته ، ففعلت ذلك الأمر ، فجهزت إلى المدينة تسطي علامها في الأمر . فأشار عليها من استفتهم بوجوب الوفاء بالنذر ، ولكنهم ذكروا لها أن الله قد نهي عن قتل أنفسكم ، وذكروا لها قصة عبد المطلب المذكورة ، ومعنى ذلك تقديم القداء^٢ .

كذلك كان من عادة الجاهليين النذر في ساعات الشدة والخطر ، فكان بعض النساء ينظرون أن يجعلن ولدن (حملاً) إن شفي الرب ابنها من مرض ألم به ، كما كانوا ينظرون يخلق شعر الرأس أو جز شعر الناصية أو الاعتكاف والازواء بعيداً عن الناس^٣ . وهي عادات نجدها عند غير العرب أيضاً^٤ .

وقد أشار المفسرون وأصحاب الحديث والأخبار إلى نذور كانت معروفة في الجاهلية ، فمنها الإسلام . وفي بعضها نوع من التحايل والتلاعب ، حيث كانوا يتصرفون بحسب أهوائهم وشهواتهم ومنافعهم وقت استحقاق النذر . ومن ذلك ما أشير إليه في القرآن الكريم : « وجعلوا لله مما خزا من الحرث والأتعام نصيباً ، فقالوا : هذا لله يزعمهم ، وهذا لشركائنا ، فما كان لشركائهم فلا يصل إلى

١ الطبري (١٧٢/٢) وما بعدها ، ابن الأثير الكامل (٢/٢) .
٢ الطبري (١٧٢/٢) .
٣ الأزرق (١٢٣/١) .
٤ Shorter Ency. p. 429.

الله ، وما كان لله فهو يصل الى شركائهم ساء ما يحكمون ^١ . وقد ذكر القسرون ان من الجاهلين من كان يزرع لله زرعاً وللأصنام زرعاً ، فكان اذا زكا الزرع الذي زرعه الله ولم يرك الزرع الذي زرعه للأصنام ، جعلوا بعضه للأصنام وصرفوه عليها ، ويقولون ان الله غني والأصنام أحوج ، وان زكا الزرع الذي زرعه للأصنام ، ولم يرك الزرع الذي زرعه الله لم يجعلوا منه شيئاً لله . وقالوا هو غني .

وكانوا يقدمون الصنم ، فيجعلون بعضه لله ، وبعضه للأصنام ، فما كان لله أطعموه الضيقات ، وما كان للصنم أنفقوه على الصنم . وكانوا اذا اختلط ما جعل للأصنام بما جعل لله تعالى رده ، واذا اختلط ما جعل لله بما جعل للأصنام تركوه . وقالوا الله أغنى . واذا هلك ما جعل للأصنام ، بدّلوه بما جعل لله ، واذا هلك ما جعل لله لم يبدّلوه بما جعل للأصنام ^٢ .

فهم يتناولون على ما خصصوه لله من نصيب ، ويتصرفون به كما يشاؤون ، ويحفظون على ما خصصوه للأصنام ، بزعمهم أنها شركاء لله ، ويقدمونه لها . ولعل ذلك بسبب أن ما كان مخصصاً للأصنام كان مجداً له معقلاً وسائلاً ، يراجع أصحاب الحرث أي الزرع وأصحاب الأنعام لاستحصان حق الأصنام منهم . وهو حق مفروض ، وهم السادة ورجال الأصنام ، فكانوا يستحصلون حقوق الأصنام منهم ، على حين كان ما يخصصونه لله فلا يعرف به غير النادر ، فكان يتلاعب به ، ويعطيه أو يعطي جزءاً منه الى جامعي حق الأصنام ، على اعتبار أنها شريكة لله ، وبذلك ينهرب من أداء التلذذ كاملاً بهذه الحيلة الشرعية ، فلا يستخرج من ماله الذي خصصه لنفسه شيئاً عن الوفاء بالتلذذ وفاء تاماً ، أو لاعتقادهم أن الله بعيد عنهم ، وهو غفور رحيم ، أما الأصنام ، فقرية منهم ، وهي متقدمة أشد الانتقام .

ويبين من دراسات التطور عند الشعوب القديمة أنها كانت نتيجة حاجة ، وتصور الانسان أن بإمكانه التأثير على كفته بهذه التدوير ، فيجعلها تخيل الى اجابة طلبه

١ الانعام . الآية ١٣٦ .
٢ تفسير الطبرسي (٣٦٩/٨ وما بعدها) . تفسير الطبري (٣٠/٨ وما بعدها) ، روح المعاني (٢٨/٨) . تفسير التبيان ، للطوسي (النجف ١٩٦٠) ، (٣٠٧/٤) وما بعدها ، القرطبي ، الجامع (٨٩/٧) ، الكشاف (٤٧١/١) .

وحل مشكلاته ، وذلك بتقديم مطالب مغرية تظلمها ، وهدايا سارة تفرح بها ، كما يفرح الانسان عند تقديم أمثاله اليه ، فيهبش لصاحب الهدية ويرتاح له ويقترب اليه ، ويعد الهدية نوعاً من التقرب والتودد والتحبب ، فمن واجب من أهديت اليه الهدية مقابلة التودد بالمثل . ولما الحاجات التي كان يرجو التافدون تحقيقها ، فهي في الغالب الحصول على ثروة ، أو صحة وعافية أو ذرية أو نصر وتوفيق . والتأثر على يقين بالطبع من أن الإله الذي نلزم له التلزم قادر على تحقيق ذلك ، وإلا لم يقدم اليه بهذا التلزم .

وبدخل في باب التلزم ما يأخذه المرء عهداً على نفسه بتجنب الطيبات والتلذذ من العيش ، أو بالابتعاد عن الناس واعتزالهم على نحو ما يفعله الرهبان والتاسكون لأمد ممين أو لأجل غير معلوم . ونجد أمثلة عديدة من هذا العهد في أخبار الجاهليين ، كالذي ذكروه عن (امرئ القيس) من أنه قال حيناً بلغه مصرع والده : « الخمر علي والنساء حرام حتى أقتل من بني أمد مئة وأجز نواصي مئة »^١ ، وكذلك روى عن غيره من الجاهليين . وهي كلها من هذا الطراز . أخذ الشخص عهداً على نفسه بالأقرب امرأة أو يشرب خمر أو يضع طيباً أو يقرب اللذائذ حتى يأخذ بثأره أو يتحقق ما نوى عليه ، وقد يحدد ذلك بوقت بأن يعين أجل العهد^٢ .

وإذا كان التلزم عهداً ، كان من اللازم تنفيذ العهد ؟ فإذا مات من أخذ عهداً على نفسه بأن يفعل شيئاً لم يفعله ، فعل ورثته وقيته الوفاء بعهد . فإذا مات شخص كان قد نلزم على نفسه الأخذ بثأر قاتل ولم يوف بعهد ، بسبب موته ، فعل اهله وذوي قرابته وأفراد قبيته الأخذ بالتأثر . ولذلك كانت أحقاد الثأر تنتقل من الآباء الى الأبناء فالأحفاد ، وتستغرق أحياناً زمناً طويلاً حتى يؤخذ بالتأثر . وقد نشأت عن هذه العهود مشكلات خطيرة في المجتمع الاسلامي في موضوع العهود التي يمكن تنفيذها والعهود التي لا يجوز تنفيذها ، أو التي يسمح بعدم تنفيذها وفي مبلغ التبعة التي تثرب على الورثة في تنفيذ العهود^٣ .

Ency. Religi. 12, p. 698.

الاماني (٦٥/٨) . (ذكر امرئ القيس ونسبه وأخباره) .

ابن هشام (٥٢٣) . Shorter Ency. p. 428.

Shorter Ency. p. 429.

القرايين :

وتؤلف القرايين جزءاً مهماً من عبادة الأمم القديمة ، بل تكاد تكون العلامة الفارقة عندهم للدين . والرجل المتدين في عرفهم هو الرجل الذي يتذكر آلمته ويضعها دائماً نصب عينيه ، وذلك بتقديم القرايين لها ، وليست أخطأه إذا قلت أنها كانت عندهم أبرز من العبادات العملية كالصلوات ، لأن الإنسان القديم لم يكن يفهم أكثر من الحياة إلا مفهومها المادي . وهو يرى بعينه ويدرك أن ما يقدم إليه من هدايا يؤثر في نفسه كثيراً ، ولذلك كان من الطبيعي أن يتصور بعقله أن القرايين هي أوقع في نفوس آلمته من أي شيء كان ، فقدمها على كل شيء ، وجعلها عبادة يتقرب بها إلى الآلهة كما يتقرب أهل الأديان السابوية إلى الإله بالدعاء والصلوات ، فهي في نظره عبادة تقربه إلى الأرباب .

وقد كان الجاهليون ، يعظمون البيت بالدم ، ويتقربون إلى أصنامهم بالذبائح ، يرون أن تعظيم البيت أو الصنم لا يكون إلا باللبس ، وأن الذبائح من تقوى القلوب . واللبس هو الشعار الدال على الاخلاص في الدين عندهم ، وعلامة التعظيم . وقال المسلمون : يا رسول الله ، كان أهل الجاهلية يعظمون البيت بالدم ، فنحن أحق أن نعظمه ^١ .

ويظهر من قول أحد الشعراء الجاهليين :

فلا لعمر الذي مسحت كعبته وما هربق على الأنصاب من جسد

أن الجاهليين كانوا يريقون دم الضحية على الأنصاب ، وهي موضوعة في الكعبة ، ويمسحون الكعبة ^٢ .

وكلمة (قربان) وجمعها (قرايين) ، هي من أصل (قرب) ، وقد استعملت وخصصت بهذا المعنى لأنها تقرب إلى الآلهة . والقربان هو كل ما يتقرب به إلى الله . فليس القربان خاصاً بالذبائح ، وإن صار ذلك مدلوله في الغالب ^٣ .

١ تفسير الطبري (٤٨/٦) .

٢ الاشتقاق (ص ٢٠٦) .

٣ تاج العروس (٤٢٢/٦) ، (قرب) ، اللسان (١٥٨/٢) ، (قرب) .

ومن القرابين ما يقدم في أوقات معينة موقوتة، ومنها ما ليس له وقت محدد ثابت بل يقدم في كل وقت . ومن أمثلة النوع الأول ما يقدم في الأعياد أو في المواسم أو في الأشهر أو في أوقات معينة من اليوم وفي ساعات العبادات ، ومن أمثلة النوع الثاني ما يقدم عند ميلاد مولود ، أو إنشاء بناء أو القيام بعمل عسكري أو لنصر وما شابه ذلك من أحوال . ويدخل في النوع الأول الاحتفاء بأعياد الآلهة ، حيث تكسى أصنامها أحسن اللؤلؤ ، وترى بأجمل زينة ، ثم يوضع أمامها ما لن من الطعام وما حسن من القديا ، وتذبح لها الذبائح ، تذبح على الأنصاب ، ويأتي الكهنة ليقوموا بتأدية الشرائع الدينية المقررة في هذه الأحوال . ومعظم نصوص المسند كتابات دولت عند تقديم قربان أو فطر إلى الآلهة في ميلاد مولود ، أو شفاء مريض ، أو بناء معبد أو بيت ، أو فطر غنسلق أو تشييد برج أو سور ، أو فطر بئر أو زواج وما شاكل ذلك . ويظهر منها أن الناس في ذلك العهد كانوا يقدمون القرابين إلى آلهتهم في مناسبات كثيرة ، تقريباً إليها ولرضاء لها ، ولكي تمنّ على أصحابها بالخير والبركة .

وقد استعملت نصوص المسند لفظة (ذبح) و (ذبحم) بمعنى (ذبحوا) و (ذبح) و (ذبيحة) و (ذبائح) . وقد سبق بكلمة (يوم) ، فتكون (يوم ذبح) ، أي (يوم ذبحوا) ، ثم يذكر بعدها عدد ما ذبح ونوعه ، ثم كلمة (الذبح) بمعنى (ذبائح) في بعض الأحيان . والذبائح التي تقدم إلى الآلهة هي الإبل والبقر والثيران والغنم والماعز ، وهي أكثر الحيوانات شيوعاً في الذبح عند الشعوب السامية الأخرى . ولم نجد في نصوص المسند ذكراً لحيوانات أخرى كالأسماك أو الدجاج مثلاً ، ولعل ذلك بسبب ضآلة قيمتها وقصارتها بالقياس إلى أثمان الحيوانات الأخرى ، مما جعل الناس يأتقون من الإشارة إليها في النصوص . وفي بعض الأدیان حرق الذبائح وسكب دمائها على النار كما يفعل العبرانيون، إذ اتخذوا مذبحاً للمحروقات . ويسمى أيضاً بمذبح النحاس . وكانت تارة لا تطفأ، وتقدم إليه الذبائح على الدوام ، ويعرف ذلك عندهم بـ (عولاه) Olah ، وتفسير الكلمة الشيء الذي يعلو .

وينبغي (ولوزن) وجود المحارق عند الجاهليين ، وعنده أن العرب لم يكونوا

يحرقون الذبائح للأرباب ، بل كانوا يكفون بالذبيح ويسكب دم الذبيحة على
التصب كله أو بعضه ، أو أنهم يتركونه يسيل الى (الغيب) . وليس في الذي
بين أيدينا من نصوص ما يدل على ان الجاهليين كانوا يحرقون ذبائحهم لأربابهم
على نحو ما كان يفعله العبرانيون ، غير أن ذلك لا يمكن أن يكون مع ذلك دليلاً
قاطعاً وحجة كافية في اثبات أن هذه العادة لم تكن عند جميع الجاهليين .

وهناك ذبائح من نوع آخر قدمها الانسان الى آلهه ، من نوع لا تشمله كلمة
محروق او شاة او بقرة او ثور او جمل ، من نوع آخر لا تشمله اية تسمية
من هذه التسميات التي تنطلق على هذه الحيوانات التي يأكلها الانسان في العادة ،
هي ذبائح يعاقب القانون كل من يمارسها في الوقت الحاضر بأشد العقوبات ، هي
ذبائح بشرية قدمها الانسان الى آلهه لاعتقاده انها زلقت محبة الى نفوسها ، وانها
ستفيد للجموع وتغلبه من كثير من الأوبئة والأمراض وأنواع الشر والضرر ، إن
كان الانسان الحديث يتبرأ منها في الزمن الحاضر ويشكر لها ويحاول تبرئة أجداد
أجداده من ممارستها قبل مئات من السنين ، فالتأريخ لا يستطيع ان يجد دليلاً
يثبت تبرئة أكثر أديان شعوب العالم القديمة من تقديم هذا النوع من القرابين ،
وفي التوراة أمثلة عديدة تتحدث عن تقديم العبرانيين لهذا النوع من القرابين الى
(يهوه) ، ليرضى عن شعبه ، ويعفو عنه ، ويتقرب منه . كذلك نجد هذه
العادة عند اليونان والرومان والهنود والفراعنة والصينيين واليابانيين وغيرهم .

أما عند الجاهليين ، فلذكر (فورفيروس) Porphyrius أن أهل (دومة)
Duma كانوا يذبحون في كل سنة إنساناً عند قدم العثم تقرباً اليه^١ . وذكر
(نيلوس) Nilus أن من عسادة بعض القبائل تقديم أجمل من يقع أسيراً في
أيديهم الى (الزهرة) ، ضحية لها تذبح وقت طلوعها ، وقد وقع ابنه (تيودولس)
Theodolus أسيراً حوالي سنة ٤٠٠ م في أيدي الأعراب Saracens ، وهيء ليدبح
قرباناً الى الزهرة غير ان أحوالاً وقعت أوقات عليهم الوقت المخصص لتقديم

١ الملوك الأول ، الأصحاح السادس عشر ، الآية ٣٤ . الملوك الثاني ، الأصحاح
السادس عشر ، الآية ٣ . الأصحاح السابع عشر ، الآية ١٧ . الأصحاح الحادي
والعشرون ، الآية ٦ . صموئيل الأول ، الأصحاح الخامس عشر ، الآية ٢٢ . الملوك
الثاني ، الأصحاح الثالث ، الآية ٢٧ . القضاة ، الأصحاح الحادي عشر ، الآية ٣٠
وما بعدها ، ومواضع أخرى . Hastings, p. 813, Ency. Religi., p. 884.
Beste, 8. 115.

الذبايح ، أنقلته من اللبح ، فاكضى آسروه بيعه في أسواق الرقيق بـ (ألوسة) Elusa ، فاستقر هناك الى أن صار أسقفاً على المدينة^١ . وذكر أيضاً أن الملك (المنذر) ملك الحيرة قدم أحد أبناء الحارث الذي وقع أسيراً في يديه ونحو من أربع مئة رابية قرابين الى العزى^٢ . غير أننا يجب أن نكون في حذر شديد من قراءة أمثال هذه الروايات ، لأن مصدرها في الغالب هو الخيال . كذلك يجب أن نحرّ برواية الأخباريين عن قصة عبد المطلب وعبد الله بشيء من الاحتراس والحذر ، بل والشك والريبة ، ويغفل إلى أن الأخباريين استقادوا في هذه القصة من حكاية ابراهيم واسحاق .

وليس في الذي بين أيدينا من نصوص المسند نص^٣ ما فيه خبر يشير الى تقديم شخص ما ملك أو كاهن أو أي انسان آخر ذبيحة بشرية الى الآلهة ، كذلك لا نجد في النصوص الأخرى مثل النصوص التهودية أو النحباتية أو العنصرية مثل هذه الاشارات .

وتلعب (المذابيح) التي سبق ان تحدثت عنها ، دوراً خطيراً في العبادة عند الساميين ، بل تكاد تكون المظهر الأساسي للدين والتعبّد عندهم في ذلك العهد . ولهذا كان المتدين بكثّر من ذبح الذبايح لأنها تقرّبه الى الآلهة في نظره .

الرجيب :

وقد عرف شهر (رجب) بكثرة ما كان ينحر فيه من عتائر للأصنام ، فلا بد ان يكون للملك أصل وسبب ، كأن يكون هذا الشهر من الأشهر التي كان لها حرمة خاصة في الجاهلية القديمة . وشهر رجب هو من الأشهر الحرم المعظمة التي لم يكن يحل فيها القتال^٤ . وقد سمّي اللبح في هذا الشهر بـ (الرجيب) ، وقبل للذبايح التي تقدم فيه (العتائر) جمع (عترة) . وقد عدّت العتائر من عتائر الجاهلية . وأطلق بعض علماء اللغة كلمة (العتائر) على ذبح الحيوانات

Ency. Religi., 6, p. 853.

Hastings, A Dictionary, Vol. I, p. 75.

٣ تاج العروس (٢٦٦/١) (رجب) .

الأليفة ، وأطلق لفظة (النافرة) على ذئب الحيوانات الوحشية^١ . وفي الحديث : هل تلدون ما العترة ، وهي التي يسمونها الرجبية ؟ كانوا يذبحون في شهر رجب ذبيحة ، وينسبونها إليه . يقال هذه أيام ترجيب وتعتار . وكانت العرب ترجب ، وكان ذلك لهم نسكاً^٢ .

وذكر بعض أهل الأخبار أن أول من عثر العنائر وسن العترة للعرب ، هو (بورا) ، وهو (بوز) ، وهو ابن شوحا ، وهو سعد رجب ، وهو أول من سن الرجبية للعرب . وهو ابن يمانا ، وهو قوال ، وكان في عصر سليمان ابن داوود^٣ . والظاهر أن أحد أهل الكتاب قص^٤ على الأخباريين هذه القصة ، فسبوا هذه السنة الجاهلية إلى هؤلاء الأشخاص .

وكان بعض السادة ينحرون إذا أهل^٥ (الشهر الأصم) ، أي (شهر رجب) . روي : أن (حاتم الطائي) كان ينحر إذا أهل^٦ الشهر ، ينحر عشراً من الإبل ويطعم الناس لحومها ، وذلك لحرمته ومترلته عنده ، ولتعظيم (مضر) . فهو من شهود مضر الخاصة^٧ .

وعرفت (العترة) بـ (الرجبية) عند الجاهليين كذلك ، لأنها كانت تذبح في شهر رجب ، فتسبوا إليه . وعرفت أيام رجب بـ (أيام الرجيب) . وورد (أيام ترجيب وتعتار) . وقيل للذبايح التي تقدم فيه (النسائك) كذلك^٨ .

وأصل (النُسك) : الدم ، وبهذا المعنى ورد من فعل كذا وكسباً فعليه نسك ، أي دم يهريقه . و (النسيكة) : الذبيحة . و (مَنَسَك) : الموضع الذي تلبح فيه النسيكة ، وهذا هو المعنى القديم الأصلي للكلمة . وقد صار من معانيها في العربية الشامية ، العبادة والطاعة ، وكل ما يتقرب به إلى الله تعالى ، لما كان للذبح من شأن في الديانات القديمة بحيث كان يعدّ عبادة أساسية عندها ،

Reste, S. 118.

- ١ ناج العروس (٢٢٦/١ وما بعدها) . (رجب) . مسند أحمد بن حنبل (١٧٣/٢) .
- ٢ الطبري (٢٧٤/٢) .
- ٣ الاغانى (٩٤/١٦) .
- ٤ ناج العروس (٢٦٦/١ وما بعدها) . النسان (٣٩٦/١) . المعاني الكبير (١١٧١/٣) . المختص (٩٨/١٣) . مجمع البيان للطبرسي (١٥٠/٢) .

ولذلك قبل لمن انصرف الى التمسك : التمسك^١ .

وقد فسر علماء التفسير لفظة (نسك) الواردة في الآية : « فصدقة من صيام أو صدقة أو نسك »^٢ ، يليح ذبيحة شاة أو ما فوق ذلك^٣ .

والعرف في الملبح عتصم ، أنهم كانوا يسوقون ما يريدون تعاره أي ذبحه الى النصب الخاص بالعتصم أو الى العتصم نفسه ، ثم يلجونه بعد التسمية باسم ذلك العتصم ، ويبان السبب في ذبح هذه العتيرة ، ثم يقطع رأس العتصم بشيء من دم تلك العتيرة^٤ . وقد منع المسلمون من أكل ذبائح المشركين ، لأنها مما أهل لغير الله ، ولأن المشركين لم يكونوا يذكرون اسم الله عليها ، بل كانوا يذكرون اسم العتصم الذي يلجونه له عليها . فحرم ذبائح المشركين لذلك على المسلمين^٥ . وقد أبطل الاسلام (الرجعية) وهي العتيرة ، كما أبطل (القرع) ، وهو ذبيح أول نتاج الإبل والغنم لأصنامهم ، فكانوا يأكلونه ويلقون جلده على الشجر . ويذكر أنهم كانوا إذا أرادوا ذبح القرع زينوه وألبسوه^٦ ، ليكون ذلك لوكد في نفوس الآلهة ، وتعريفاً للناس . وكانوا يفعلون ذلك تبركاً . وفي الحديث : لا قرع ولا عتيرة^٧ .

وذكر أنهم كانوا إذا بلغت الإبل ما يشاء صاحبها ذبحوا ، أو إذا تمت إبل أحدهم مائة عئر عنها بغيراً كل عام فأطعمه الناس ولا يذوقه هو ولا أهله ، قبل بل قدم بكرة فخره لعتصمه . وقد كان المسلمون يفعلونه في صدر الاسلام ثم نسخ^٨ . وذكروا ان العتيرة الذبيحة التي كانت تليخ للأصنام ويصب دمها على رأسها^٩ . و (العير) العتصم الذي يصاب رأسه من دم العئر . قال زهير :
قول عنها وأولى رأس مرقية كناصب العئر دمي رأسه النسك^{١٠}

- ١ تاج العروس (١٨٦/٧ وما بعدها) ، (نسك) ، اللسان (٣٨٩/١٢) ، (نسك)
- ٢ البقرة ، الآية ١٩٦ .
- ٣ تفسير الطبري (١٣٤/٢ وما بعدها) .
- ٤ ديوان زهير ، للأعلم التستيري (٤٦) .
- ٥ تفسير الطبري (١٢/٨ وما بعدها) ، سورة الانعام ، الرقم ٦ ، الآية ١١٨ وما بعدها .
- ٦ بلوغ الأرب (٤٠/٣ وما بعدها) .
- ٧ تاج العروس (٤٤٩/٥) .
- ٨ تاج العروس (٤٤٩/٥) .
- ٩ اللسان (٥٣٧/٤) ، (عئر) ، المرزوقي ، الأئمة والامكنة (٢٧٨/١) .
- ١٠ اللسان (٥٣٧/٤) ، (عئر) .

وكانوا يؤكدون على بلطخ الصم الذي يعثر له ، أو (النصب) بشيء من دم العترة . يفعلون ذلك على ما يظهر ، ليحس الصم بالدم فوقه . فيقبله وبرضى به عنهم ، ويتقبل عترةهم .

ويظهر من غربة ما جاء في روايات علماء اللغة والأخبار عن العترة والرجية ، أن العترة بمعنى اللبيحة ، وأن (العتر) اللبغ عامة ، في رجب وفي غير رجب . و (العتار) اللبائح التي كانوا يلجأونها عند أصنامهم وأنصابهم في رجب وفي غير رجب ، والتي كانوا يطمحون بدمائها الصم الذي كانوا يعثرون له . وأما (الرجية) فهي العتار التي تعثر في رجب خاصة ، وقد كانت كثيرة . ولذلك نسبت إلى هذا الشهر . ونظراً إلى كون الرجية عترة ، ذهب البعض إلى أن العترة الرجية^١ . فظن أنهم قصدوا بذلك أن العترة هي الرجية ، مع أن الرجية من العتار ، أي بعض من كل ، وليست مساوية لها .

وقد كان بعض أهل الجاهلية إذا طلب أحدهم أمراً نذراً لئن عقر به ليفيخ من عترة في رجب كلها وكلها ، أو أن يقول : إن بلغت ليلي مائة عترة عنها عترة ، فإذا ظفر به ، أو بلغت مائة ، فربما ضاقت نفسه عن ذلك ، وضمن بغيره ، فساد ظيماً فذبحه ، أو يأخذ عندها ظباً^٢ ، فيذبحها مكان تلك الغنم ، وهي (الربيض) . ولعل ذلك أشبه في شعر للحارث بن حلزة البشكري :

عتاً باطلاً وظلاً ، كما تدرى عن حجرة الربيض الظباء^٣

فذلك نوع من أنواع التحايل لتخلص من الوفاء بالنذور .

وكان أهل الجاهلية لا يأكلون من هديهم^٤ ، وإنما يأكل لحومها غيرهم . كما كانوا يفرجون البيت بدماء البدن^٥ ، ويخرجون أصنامهم بها . وورد في رواية

١ اللسان (٥٣٧/٤) ، (عتر) ، الأصنام (٣٢) ، (مطبعة دار الكتب المصرية .

٢ ١٩٢٤ م) . تاج العروس (٣٨٠/٣) ، (عتر) ، المخصص (٩٨ وما بعدها) .

٣ عتاً ، اللسان (٥٣٧/٤) ، (عتر) ، عتاً ، تاج العروس (٣٨٠/٣) .

٤ (عتر) ، البهيت رقم (٥١) من المعلقة ، شرح القصائد العشر ، للتبريزي (ص ٤٦٣ وما بعدها) .

٥ تفسير القرطبي (٦٤/١٢) .

٦ تفسير القرطبي (٦٥/١٢) .

أخرى ، أنهم يتحرون هديهم عند الأصنام ، فإذا تحروا هدباً قسموه فيمن حضرهم^١ .

ومن ذبائح أهل الجاهلية (الشريطة) . كانوا يقطعون بسيراً من حلق الشاة ويتركونها حتى تموت ويجعلونه ذكاة لها . وقد نهي عن ذلك في الإسلام . وقبل ذبيحة الشريطة ، هي أنهم كانوا يشربونها من العلة ، فإذا ماتت قالوا قد ذبحناها^٢ .

ومما يلاحظ في تقديم اللبائح ، ان التأخر يراعي الجنس في اختيار الذبيحة ، فإذا كان مقرب القربان ذكراً ، اختار قربانه حيواناً ذكراً ، وان كان المقرب أنثى ، اختيرت الذبيحة أنثى . ولا زال الناس يراعون ذلك حتى اليوم . ول نجد هذه العادة عند غير العرب أيضاً ، فقد كان أهل العراق يقدمون كتف حيوان ، في مقابل شفاء كتف انسان ، ورأس ذبيحة في مقابل رأس ثائر ، وهكذا . وكانوا يجعلون الرأس رمزاً أحياناً ، فينترون تقديم رأس المريض أو الصبي الى الإله ، إن من عليه بالعالية وبالصحة . ويقضون بذلك بدلاً ، رأس حيوان أو رمزاً يرمز اليه من ذهب أو فضة^٣ .

البحيرة والسائبة والوصيلة والحام :

ومن النذور والقربان ما يكون حيوانات حية ، تسمى كلها او بعضها باسم الأرباب ، فتجس عليها ، وتكون حرة طليقة لا يجوز مسها بسوء . وقد أشير في القرآن الكريم الى (البحيرة) ، و (السائبة) ، و (الوصيلة) ، و (الحام)^٤ ، وللعلماء في هذه المصطلحات كلام ، منها تطارب واختلف ، فإنه يوصلنا الى نتيجة هي ان الجاهليين كانوا يراعون هذه الأمور مراعاة شديدة ، ولهم فيها قواعد وأحكام ترجع الى تقاليد موروثة قديمة ، حافظوا عليها ، وظلوا يحافظون عليها الى ان منعها الاسلام .

١ ابن هشام (٦٥/١) ، هامش على الروض الالاف .

٢ تاج المروس (١٦٧/٥) ، (شرط) .

٣ Ancien Israel, p. 434.

٤ المائدة ، الآية ١٠٣ .

فأما البحيرة ، فالناقة أو الشاة تترك فلا يتنفع من لبنها ولا تحمل ولا تتركب ، وترعى وترد الماء فلا ترد ، فإذا ماتت حرموا لحمها على النساء وأباحوه على الرجال ، ذلك بعد أن تنتج حمة أبطن أو عشرة أو ما بين ذلك^١ . وقيل أيضاً الناقة إذا نجت حمة أبطن نظروا في البطن الخامس فإن كان ذكراً بحروه ، فأكله الرجال والنساء جميعاً ، وإن كانت أنثى شقوا أذنبا ، فذلك البحيرة ، فلا يجوز وبرها ولا يعمل عليها ، وحرم على النساء أن يلقن من لبنها شيئاً وإن يتنفع بها ، وكان منافعها للرجال دون النساء^٢ . وقيل الشاة التي تشق أذنبا ، وذلك شيء كان لأهل الجاهلية . تشق أذنبا أو أذن الناقة بنصفين ، وقيل بنصفين طولاً ، ليكون التبعر علامة لها^٣ .

وقيل : البحيرة هي التي يمنع درها للطواغيت ، فلا يحلبها أحد من الناس^٤ . قيل لها البحيرة ، لأنهم يحرموا أذنبا ، أي شقوها ، وكان البحر علامة التخلية . وقال بعض العلماء : البحيرة هي ابنة السائمة^٥ . وقال بعض آخر : البحيرة من الإبل يحرم أهل الجاهلية وبرها وظهورها ولحمها ولبنها إلا على الرجال ، فأولدت من ذكر وأنثى ، فهو على هيئتها ، وإن ماتت اشترك الرجال والنساء في أكل لحمها^٦ . وورد أن البحيرة من الإبل ، كانت الناقة إذا نجت حمة أبطن نحرها الخامس إن كان سقياً ، وإن كان ربيعة شقوا أذنبا واستحبوها وهي بحيرة . وأما السقب فلا يأكل نساؤه منه ، وهو خالص لرجالهم ، فإن ماتت الناقة أو نتجوها ميتاً فرجالهم ونساؤهم فيه سواء يأكلون منه^٧ . وللرار من (السقب) الذكر من ولد الناقة^٨ .

وورد في الأخبار أن أول من بحر البحائر رجل من (بني مدليج) ، كانت له ناقتان فجذع أذنبا وحرم ألبانها وظهورهما ، وقال هاتان قد ، ثم احتاج

-
- ١ . ناج الغروس (٢٨/٣) ، (بحر) ، اللسان (١٠٦/٥) .
 - ٢ . مجمع البيان ، للطبرسي (٢٥١/٢) ، شمس العلوم (١٠٠ ق ١ ، ص ١٣٣) ، المفردات (٣٦) .
 - ٣ . الاشتقاق (١١٨) ، اللسان (١٦/٤) وما بعدها .
 - ٤ . الطبري (٥٩/٧) ، القرطبي ، الجامع (٣٣٥/٦) .
 - ٥ . القرطبي (٣٦٣/٦) .
 - ٦ . تفسير الطبري (٥٨/٧) .
 - ٧ . تفسير الطبري (٥٩/٧) وما بعدها .
 - ٨ . اللسان (٤٦٨/١) ، (شعب) .

اليها ، فشرب ألبانها وركب ظهورها^١ . كما نسب البحير إلى (عمرو بن لحي) ،
لأن قيل إنه كان أول من بحر البحيرة وسب السائبة^٢ .

وأما السائبة ، فهي الناقة أو البعير أو الدابة تترك لتذر ، أو يعد بلوغ نناجها
حياً معلوماً ، فلا تترك ولا يحمل عليها ولا تمنع من ماء وكلاء ، وتترك سائبة
لا يحمل لأحد كائناً من كان مخالفة ذلك^٣ . وكان الرجل في الجاهلية إذا قدم
من سفر بعيد ، أو يرى من علة ، أو نجته دابة من مشقة أو حرب ، قال
ناقتي سائبة ، أي تسب ، فلا يتنفع بظهرها ، ولا تحلب عن مساء ، ولا تمنع
من كلاء ، ولا تترك ، وقيل : بل كان يتزع من ظهرها فقارة ، أو عظاماً ،
فتعرف بذلك . فأغبر حل رجل من العرب ، فلم يجد دابة يركبها ، فركب سائبة ،
فقيل : أتركب حراماً ؟ فقال : يركب الحرام من لا حلال له ، فذهبت مثلاً^٤ .
و قيل : هي أم البحيرة ، كانت الناقة إذا ولدت عشرة أبطن ، كلهن أنثى :
سميت فلم تترك ، ولم يشرب لبنها إلا ولدتها أو الضيف حتى تموت . فإذا
ماتت أكلها الرجال والنساء جميعاً ، وبهرت اذن بنتها الأنخيرة ، تسمى البحيرة ،
وهي بمنزلة أمها في أنها سائبة^٥ . وقيل السائبة : كان الرجل من أهل الجاهلية
يسب من ماله من الأنعام ، فلا يمنع حوضاً أن يشرب فيه ، ولا مرعى أن
يرتع فيه ، فيحمل في الحصى ، فلا يتنفع بظهره ، ولا بولده ولا بلبنه ولا بشعره
ولا بصوفه ، فهو خلاصة لا قبض عليه ، ولا راعي له . وكان في روعهم أن
من تعرض للسواب أصابته عقوبة في الدنيا^٦ .

وبذكر أهل الأخبار أن أول من سب السواب (عمرو بن عامر الخزاعي) ،
أي (عمرو بن لحي بن قعدة بن خثلف) ، أنصا بني كعب ، وهو أول من
غير دين إبراهيم . وقد رجعوا خبرهم هذا إلى رسول الله^٧ . وقيل إن أول من

- ١ تفسير الطبري (٥٦/٧) .
- ٢ اللسان (١٦/٤) وما بعدها ، ابن هشام (٧٨/١) . (البابي) .
- ٣ الكشاف (٣٦٨/١) ، الطبرسي (٢٥١/٢) وما بعدها . تاج العروس (٣٠٥/١) .
- ٤ الاشتقاق (٧٦ وما بعدها) .
- ٥ اللسان (٤٧٨/١) .
- ٦ تفسير الطبري (٥٩/٧) وما بعدها ، تفسير القرطبي (٢٣٦/٦) .
- ٧ تفسير الطبري (٥٦/٧) وما بعدها ، القرطبي ، الجامع (٢٣٧/٦) وما بعدها .

ابتدع ذلك (جنادة بن عوف)^١ ، وهو من النساء ، كما سيأتي الكلام عنه فيها بعد .

وأما الوصيلة . فالناقة التي وصلت بين عشرة أبطن . أو الشاة التي وصلت سبعة أبطن . وفي رواية : ان الشاة اذا ولدت ستة أبطن فلقوا ، فإن كان السابع ذكراً ذبح وأكل منه الرجال والنساء ، وان كان أنثى تركت في الغنم ، وان كان ذكراً وأنثى قاتلوا : وصلت أختها ، ولم يذبح ، وكان لحمه حراماً على النساء . وفي رواية : ان لبن أم الوصيلة حلال على الرجال دون النساء^٢ . وقالوا : الوصيلة الشاة اذا أنامت عشر اناث متتابعات في حصة أبطن ، ليس بينهما ذكر ، فكان ما ولدت بعد ذلك للذكور دون الاناث . إلا ان يموت شيء منها فيشترك في أكله ذكورهم وأنثاهم^٣ .

وأما الحام ، فالبعير اذا نتج عشرة أبطن من صلبه ، قالوا : قد حمى ظهره ، فلا يركب ولا يحمل عليه ، ولا يمنع من ماء ولا مرعى^٤ . وقالوا : الحام من الإبل ، كان الفحل اذا انقضى ضرابه جعلوا عليه من ريش الطواويس وسبيوه^٥ . وقالوا بل الحام ان الفحل اذا نتج له عشر اناث متتابعات ليس بينهما ذكر حمى ظهره ولم يركب ولم يجز ويره ويحل في إبله يضرب فيها لا يتفع به بغير ذلك . وذكر ان الحام ، الفحل يضرب في الإبل عشر سنين ، ويقال : اذا ضرب ولد ولده قبل قد حمى ظهره ، فيتركونه لا يمس ولا ينحر أبداً ولا يمنع من كسلاً يريده ، وهو من الأنعام التي حرمت ظهورها^٦ .

وذكروا ان أول من حمى الحامي هو (عمرو بن لحي) ، وذلك في سنن أخرى سنها لأهل الجاهلية^٧ .

وقد أشير في سورة (الأنعام) الى أشياء كان يفعلها أهل الجاهلية ، ينزبون بها الى آلتهم ، كانوا يحرمون من أنعامهم أشياء لا يأكلونها ويعزلون من حرثهم

- ١ القرطبي . الجامع (٢٣٧/٦) .
- ٢ تاج العروس (١٥٥/٨) . الكشف (٣٦٨/١) .
- ٣ القرطبي . الجامع (٢٣٧/٦) .
- ٤ الكشف (٣٦٨/١) . تاج العروس (١٠٠/١٠) . اللسان (٢٢٠/١٨) .
- ٥ القرطبي . الجامع (٢٣٦/٦) .
- ٦ تفسير الطبري (٥٧/٧) وما بعدها .
- ٧ تفسير الطبري (٥٦/٧) وما بعدها .

شيئاً معلوماً لأهلهم ويقولون لا يحل لنا ما سمينا لأهلنا^١ . فورد : « وجعلوا الله
 بما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً . فقالوا : هذا لله بزرعهم ، وهذا لشركائنا ،
 فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله ، وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم .
 سواء ما يحكمون » وورد : « وقالوا هذه أنعام وحرث ، حجر لا يطعمها إلا
 من نشاء بزرعهم ، وأنعام حرم ظهورها ، وأنعام لا يذكر اسم الله عليها
 أفراء عليه ، سيجزيهم بما كانوا يفترون . وقالوا : ما في بطون هذه الأنعام
 خالصة للذكورنا ومحرم على أزواجنا وإن يكن ميثه فهم فيه شركاء . سيجزيهم
 وصفهم إنه حكيم عليم »^٢ .

وذكر المفسرون أن من المشركين من حرم ظهور بعض أنعامهم ، فلا يركبون
 ظهورها ، وهم يتفعمون يرسلها وتناجها وسائر الأشياء منها غير ظهورها للركوب .
 وحرموا من أنعامهم أنعاماً آخر فلا يحجون عليها . وقد ذكروا أن المراد بذلك :
 البحيرة والسائبة والحام . وأنهم كانوا قد جعلوا ألبان البحائر للذكور دون الإناث .
 وإن كانت ميثه اشترك فيها ذكورهم وإناثهم . وكانت الشاة إذا ولدت ذكراً
 ذبحوه ، وكان للرجال دون النساء ، وإن كانت أنثى ترك فلم تلبح ، وإن
 كانت ميثه فهم فيه شركاء^٣ . فالمراد بهذه الآيات ما ذكرته عن الأمور المتقدمة .
 وقد كان بعض أصحاب التنوير يئس ، فإذا تم التمر وصار وبلغت أبلهم أو
 غنمهم ذلك العدد ، يحل لإبله أو شاته وشاقت نفسه عن الوفاء وعن إبله وبغتمه
 فاستعمل التأويل ، وقال : إنما قلت إني أذبح كذا وكذا شاة ، والقطياء شاء ،
 كما أن الغنم شاء ، فيجعل ذلك القران شاء كله مما يصيده من القطياء فلذلك يقول
 الحارث بن حلزة الشكري :

عنتاً باطلاً وظلماً كما تعد سر عن حجرة الربيض القطياء^٤

وكان الرجل من العرب في الجاهلية إذا بلغ إبله ألفاً عار عين بغير منها ،

١ تفسير الطبري (٣٥/٨) .

٢ الأنعام ، الآية ١٣٦ وما بعدها .

٣ تفسير الطبري (٣٧/٨) وما بعده .

٤ الاصنام (١٣) ، شرح العلاقات للزوزني (ص ١٦٧) ، المعاني الكبير (١٠١٢/٢) .

وسرحه لا ينتفع به^١ . وكان من عادتهم اذا بلغ لإبلهم المئة ، ترك ركوب ظهر
بغير منها ، فلا يركب ولا ينتفع به ، ويقولون لذلك : الأخلاق^٢ .

وكانوا يتصدقون بمائة من الإبل على الفقراء والمحتاجين والمعابد ، وما شاكل
ذلك . روي ان (حنيفة) النعم ، وهو من أرباب الجاهلية ، لما شعر بدنو أجله ،
جمع بنيه ، ثم أوصى بمائة من إبله على يثيمه صدقة . وكانوا يسمونها (الطيبة)^٣ .

وقد عرف ما كان يحبه أهل الجاهلية على أصنامهم من السوابب والبحائر
والحوامي وغيرها به (الحيس) . وقد أطلق الاسلام ما حبسوا وحلل ما حرموا ،
وهو جمع حيس^٤ .

وكانت لهم مكرمات ، فعلوها في الجاهلية عن خلق ودين ورغبة في شهرة
وسمعة. منها أنهم كانوا يتصدقون بأموالهم على أبناء السيل وعلى الفقراء والمحتاجين.
ذكر ان (الأسود بن ربيعة بن أبي الأسود) الشكري ، قال لرسول الله :
« يا رسول الله إن أبي كان تصدق بماله على ابن السبيل في الجاهلية ،
فلأن تكن لي مكرمة تركتها ، وإن لا تكن لي مكرمة ، فأنا أحق بها . فقال :
بل هي لك مكرمة فقبلها » . وذكر ان رسول الله قال : « ألا ان كل مكرمة
كانت في الجاهلية ، فقد جعلتها تحت قدمي ، إلا السفاية والسدانة »^٥ . وهذه
المكرمات هي من مآثر العرب في الجاهلية ، مكارمها وتفاخرها التي تؤثر عنها^٦ .

وتحريم أكل لحوم الحيوانات في مثل هذه الحالات على النساء وتخصيصه بالرجال ،
وجوازه في حالات أخرى ، ثم تحريم الانتفاع من لبنها على النساء في بعض الحالات
وعلى الرجال والنساء في حالات أخرى إلا التصريف وعلى جواز ركوبها : كل
هذه تشير الى أنها من شريعة قديمة . وقد رجع بعض العلماء ذلك الى الطوطمية ،
غير أن من العبر قبول هذا التفسير .

وقد كان الجزاؤون المجازون شرعاً يقومون ببيع اللبائح عند العبرانيين ، وهم

١ تاج العروس (٩٧/١) ، (فقا) ، (٤٢٨/٣) ، (عور) .

٢ Reste, II, 114.

٣ الاستيعاب (٣٩٥/١) وما بعدها ، (حاشية على الاصابة) .

٤ تاج العروس (١٢٥/٤) ، (حيس) .

٥ الاصابة (٥٩/١) ، (رقم ١٥٨) .

٦ تاج العروس (٥/٣) ، (أثر) .

الذين يقررون صلاح الذبيحة أو عدم موافقتها لأحكام الشرع . أما عند الجاهليين فلا نعرف شيئاً عن كان يقرم بذبح الضحايا التي تقدم الى الأصنام ، كما أننا لا نستطيع أن نتحدث عن الشروط التي كانوا يشترطونها في الذبيحة ليكون لحمها صالحاً للأكل .

والطيب واليخور من أهم المواد التي كان يتقرب الجاهليون الى آلهتهم بإهدائها الى المعابد . ولم تكن هذه عادة خاصة بالجاهليين وحدهم ، بل هي عادة معروفة في جميع الأديان ، ولا تزال باقية مستعملة . يحرق اليخور في المباخر والبخامر ، لتنبعث روائحه الزكية في أياء المعبود . أما الخلق وأنواع الطيب ، فتطبخ بها الأصنام وجدران المعبد ، وطالما تقدم المؤمنون الى آلهتهم بمبخرة لمحرق اليخور فيها . ومن بين نصوص المسند ، نص كتبه مؤمن اسمه (عبد أصدق) وأبناؤه الى الإله (ود) ، ذكروا فيه أنهم قدموا اليه مبخرة تعويضاً عن المبخرة التي سرقها النصوص من معبده^١. وقد عثر في اليمن على مباخر كبيرة نحتت من الصخر، أهديت الى المعابد ، لمحرق فيها اليخور^٢ .

وبين ما قدم الى الآلهة ، الملابس والأكفنة وأنواع الأطعمة ، حتى اللبن قدم الى الصنم (ود) على رواية الأخباريين .

ووردت لفظة (القدي) في القرآن الكريم^٣ . ويراد بها ما أهدى الى مكة من النعم وغيره من مال أو متاع . والعرب تسمي الإبل هدياً ، لأنها تهدي الى البيت لتتحرك ، فأطلقت على جميع الإبل، وإن لم تكن هدياً تسمية للشيء يبعثه^٤ . وذكر ان القدي ما أهدى الى بيت الله من ناقة أو بقرة أو شاة أو ثياب وكل ما يهدي . فهو عام في جميع ما يتقرب به من القبايح والصدقات . إلا ان الإطلاق انما ينصرف الى أحد الأصناف الثلاثة من الإبل والبقرة والغنم ، وسوقها الى الحرم وذبحها فيه^٥ . وقد ذكر (القدي) في شعر جرير بن أبي سلمى :

فلم أر معشراً أسروا هدياً ولم أر جار بيت يشاء

Glaser 324, Handbuch, I, 8. 218.

Ency. Religi. I, p. 252.

البقرة ، الآية ١٩٦ ، الآية ٢ ، الآية ٩٧ ، الفتح ، الآية ٢٥ . تفسير الطبري (٣٧/٦) .

اللسان (٣٥٨/١٥) وما بعدها .

القرطبي ، الجامع (٣٩/٦) .

يذكر رجلاً أمر يشبهه في حرمة بالبدنة التي نهى^١ .
وعرف الهدي المقلد بقلائد ، تشعر انه مما أهدى الى بيت الله بـ (القلائد) .
فلا يجوز لأحد ان يتحرش به ، أو ان يفك قلائده ، لأن ذلك تجاوز على مال
الله ، وهو مال معلم عليه معروف بقلادته انه من الهدي المخصص بالبيت . فإذا
فككت قلادته سرق وحسب من أموال الناس الخاصة^٢ . والظاهر ان من الجاهلين
من كان يتناول على أموال البيت ، فيستولي على الهدي ، ويفك القلائد ، ويسفلو
بذلك على الإبل المقلدة والبقر المقلد ، وذلك كما يظهر من الآية : « لا تحلوا
شعائر الله ، ولا الشهر الحرام ولا الهدي ولا القلائد »^٣ . ومنهم من كان يسفلو
على الهدي قبل وصوله موضعه من البيت .
وكانوا يهدون الإبل والبقر الى بيوت أصنامهم . وقيل لقاعة أو البقرة أو البعير
تهدى الى مكة (البدنة) . وقد أشير الى البدن في القرآن ، فورد : « والبدن
جعلناها لكم من شعائر الله »^٤ . تهدى الى بيت الله فلا تركب^٥ . وذكر ان
البدن السمان من الإبل والبقر^٦ . ويظهر من غزيلة ما ورد في روايات علماء التفسير
عن البدن ، انها الهدايا التي تقدم الى الكعبة ، تحبس قبلى حية ، لا يجوز لأحد
التناول عليها ، وكانوا ينحرونها أيضاً . والإبل تنحر قياماً معقولة . فكانوا اذا
أرادوا نحر البعير ، حقلوا إحدى يديه ، فيقوم على ثلاث قوائم^٧ . ولم يكونوا يركبون
البدن إلا عن ضرورة^٨ . فالبدن إذن ما يهدى الى مكة ، ليحس على اسمها ،
أو ليذبح تقرباً الى رب البيت .

حى الأله :

ولحماية الجروس من أرض ومن حيوان ، شددت شرائع الجاهلين في وجوب

- ١ تفسير الطبري (١٢٨/٢) .
- ٢ تفسير الطبري (٣٧/٦) .
- ٣ المائدة ، الرقم ٥ ، الآية ٣ .
- ٤ الحج ، الآية ٣٦ ، تفسير الطبري (١١٧/١٧) .
- ٥ اللسان (٤٨/١٣) وما بعدها ، (بدن) .
- ٦ تفسير الطبري (١١٧/١٧) . القرطبي ، الجامع (٦٠/١٢) .
- ٧ القرطبي ، الجامع (٦٠/١٢) . تفسير الطبري (١١٧/١٧) وما بعدها .
- ٨ اللسان (٤٨/١٣) وما بعدها ، (بدن) .

المحافظة على حرمتها وعدم الاعتداء عليها . وهددت من يتجاسر على مال الأرباب
بعقوبة تنزل عليه منها ويغضب الآلهة عليه ، وبمصر ميء يلحق به ، فضلاً عن
العقوبة التي تنزلها المعابد به ، قد تصل حد القتل . فصار من المحظور اعتياد
لبات الحرم وصيد الحيوان فيه ، ومن يفعل ذلك يكون آثماً ، وقد يعرض نفسه
لغضب الناس عليه . فصار الحرم مرتعاً آمناً للطيور ، ولا زال الناس لا يحرشون
بطيور المعابد ولا يمسونها بأي سوء ، بل يقدمون لها ما تحبه من المأكول ،
لتعيش عليه .

وجعلت المعابد لحيواناتها وللهدي وللقلائد مواضع خاصة ، اختارها لرمي فيها
جعلت (حمى) للأرباب . لا يجوز لأحد رمي سوائه بها ولا التناول على دواب
تلك الأحمية ، لأنها مما حبس للأصنام . وتكون هذه المواضع مخصصة معشبة ذات
حياة ، وقد تزرع ، وتكون غلتها للمعبد .

الفصل الثامن والستون

رجال الدين

أنصد برجال الدين ، أولئك الذين خخدموا الأصنام ، أو زعموا أنهم السنة الأرياب الناطقة على سلع الأرض ، والذين كانوا يوجهون الناس توجيهاً روحياً دينياً ، ويرعون حرمة المعابد والأماكن المقدسة وشعائر الدين ويحافظون عليها ، ويضعون قواعداً للناس .

ومعارفنا عن هذا الموضوع قليلة ضئيلة ، لعدم وجود نصوص جاهلية نتحدث عن ذلك ، ولعدم ورود شيء مهم عنه في روايات أهل الأخبار . وليس لنا من أمل في زيادة علمنا بهذه الناحية ، إلا في المستقبل ، فقلعه يكشف عن نصوص جاهلية جديدة ، قد يرد فيها شيء جديد عن رجال الدين عند الجاهليين ، أو في موارد أخرى عربية أو غير عربية قديمة ، قد تكون غنية مطمئنة ، يأمر الزمن بإخراجها ، ليقف عليها الباحث عن هذا الموضوع .

ومن الألفاظ الخاصة برجال الدين ، لفظة (رشو) ، الواردة في النصوص المعينة والقنانية ، أطلقت على من كان يقوم بخدمة الإله (ود) إله معين الرئيس و (عم) إله شعب قتيان الرئيس . فهي في معنى سادن في لغة أهل الحجاز . ووردت لفظة (شوع) في المعينة أيضاً في المعنى نفسه . و (رشوت) (رشوة)

بمعنى سادنة وكاهنة ، مما يدل على وجود سادئات وكاهنات بسين رجال الدين الجاهليين^١ .

ووردت في المعينة وفي الحياية لفظة (افكل) (أفكل) بمعنى (رشو) وسادن ، أي القائم بأمر الصنم ، والسادن له . فورد : (افكل ود) ، أي سادن ود^٢ . وتقابل هذه اللفظة لفظة (ابكلو) Apkalo في الأكادية^٣ . وعرفت السادنة والكاهنة بد (افكلت) (أفكلتة)^٤ .

والسدنة ، قومة الأصنام ومتولوا أمرها . وكان أمر فتح البيت بمكة وغلقه وتولي أمره إلى السادن . وهو من (بني عبد الدار) ، وقد أقر الرسول السدانة فيهم عام الفتح^٥ . ويعرف السادن بد (الحاجب) كذلك . فالسدانة والحجابة هما بمعنى واحد^٦ . غير أن الحجابة تخصصت بحجابة الملوك والحكام ، فصارت وتلقب إدارية ذات مدلول خاص . فالحجاب هو الذي يتولى تقديم الناس إلى الملوك أو منعهم من الوصول إليهم ، وذلك في الجاهلية وفي الإسلام . أما السدانة ، فلها ظلت محافظة على معناها هذا الخاص بالمعابد والواضع المقدسة . ولهذا المترلة ولصلتها بالآلهة وبالأصنام عدت السدانة من درجات الشرف والجلال ، وكانت لأصحابها حرمة ومكانة في النفوس .

والسدانة ، تنتقل بالآرث من الآباء إلى أكابر الأبناء وتنحصر في الأسرة فتكون من حقتها ومن نصيبها ، لا يمكن انتزاعها منها إلا بقوة لا يمكن التغلب عليها . ومن واجب العشيرة التي تنتمي هذه الأسرة إليها الدفاع عنها إن حاول غريب انتزاع هذا الشرف منها . لقد كانت سدانة الكعبة في (بني عبد الدار) ، وكانت حجابة (ود) في (دومة) الجندل إلى (بني عامر الأجدار) ، (بنو القرافصة بن الأحوص) من كلب^٧ . وكانت سدنة العزرى (من بني

Arabien, S. 249.

Grahmann, S. 87, Janssen — Savignac, II, 280.

Grahmann, S. 249.

راجع النصوص رقم ٩ ، ١٢ ، ٢١ ، ١٠٤ ، وكتاب W. Caskel, S. 132.

تاج العروس (٢٢٢/٩) . (سدن) .

Reste, S. 130.

Reste, S. 130. — (٣١٦) .

صرمة بن مرة) ، وكان سدنة (جهار) من (آل عوف) من (بني نصر)^١ ،
 وكان سدنة (سواح) (بنو صاهلة) ، من هذيل^٢ . وكان سدنة بيت (الربة)
 أي الشمس ، من (بني أوس بن مخاشن بن معاوية بن شريف بن جروة بن
 أسيد بن عمرو بن تميم) ، وكان سدنة (الفليس) ، (بنو يولان) ، وكان
 سدنة (مناة) (الغطاريق) من الأزد . وسدنة (السعيدة) (بنو العجلان) ،
 وسدنة (ذو الخلفة) ، (بنو هلال بن عامر) ، وكان سدنة (ذو البيا) ،
 (بنو عامر) ، وسدنة (المحرق) ، (آل الأسود) العجليون . وسدنة
 (مرحب) (ذو مرحب) ، أي من يتولى أمر الصنم^٣ .

وكان (مسعود) الثغفي ، زوج (سبيعة) ، وقائد ثقيف في الفجار ، من
 من سدنة اللات^٤ . وهو من سادات ثقيف . ومن أبنائه (عروة بن مسعود) ،
 وأمه (سبيعة) بنت (عيد شمس) . وذكر أنه الذي ذكر الله عز وجل في
 التنزيل من القرينين عظيم . وأحد أربعة اتصل مؤددهم في الجاهلية والإسلام^٥ .

وكان لهذه الأسر التي تولت السدانة ، مكانة كبيرة في قومها ، فعدت من
 الأسر الشريفة ذات النفوذ عند الجاهليين . وقد استفادت من النذور والقرابين التي
 تقدم إلى بيوت الأصنام ، إذ تكون من حقها ونصيبها . وقد ظهر من
 (بني مخاشن بن معاوية بن شريف بن جروة بن أسيد بن عمرو بن تميم) ،
 حكام حكموا بمكة^٦ . والحكومة من أمارات الشرف والجاه والتقدير ، كما ظهر
 منها أئمة تولوا الإجازة بالمواسم ، وهي من علامات التعظيم والتفخيم عندهم .

غير أن هذا الحق لا يستوجب ولا يشترط أن تكون السدانة في أسرة من
 القبيلة أو الموضع الذي فيه بيت الصنم أو الأصنام ، فقد كان كثير من سدنة
 الأصنام من قبيلة لا تنتمي إليها من يقع بيت الصنم في أرضها . فكانت السدانة
 مثلاً لبني أنعم في جرش ، ولبنو الغطريف في قديد ، ولبنو شيبان في نخلة ،

١ المحبر (٣١٥) .

٢ المحبر (٣١٦) .

٣ المحبر (٣١٦ وما بعدها) .

٤ المشرق ، السنة ١٩٣٨ م . (الجزء الأول) ، (ص ٧ وما بعدها) .

٥ الاشتقاق (١٨٦/٢) .

٦ المحبر (١٣٤) .

ولآل أمانة في تباله وهكذا^١. ويظهر ان هؤلاء توارثوا هذا الحق من عهد سابق، إما لأنهم استوردوا الصنم أو تلك الأصنام الى هذه المواضع فأقاموا فيها، وإما لأنهم كانوا يسكنون مع قبيلتهم في تلك الأماكن، ثم حدث لسبب من الأسباب أن جلت قبيلتهم عن الموضع. أما السدنة، ففضلوا البقاء في الموضع الذي كانوا فيه حيث أصنامهم والبيت. ونجد مثل ذلك أيضاً عند العبرانيين^٢.

ويظهر من تفسير لفظة (صوفة) و (صوفان)، على رأي بعض العلماء، أن هذه الكلمة كانت تقال لكل من ولي البيت شيئاً من غير أهله، أو قام بشيء من خدمة البيت أو بشيء من أمر المناسك^٣. ومعنى هذا أن خدمة البيت: بيت مكة أو غيره، لم تكن خاصة بأهل الموضع الذي يكون فيه هذا البيت، بل كان من الجائز أن يتولاهم أناس من أهل ذلك الموضع، وأناس من غيرهم أيضاً كان يقوم أشخاص في ذلك المكان، فتطول إقامتهم به، وتظهر منهم زعامة أو من أولادهم، تؤدي بهم الى الاستحواذ على رئاسة البيت ورئاسة ذلك المكان، كالذي كان من أمر (قصي) مثلاً.

ولا بد من ادخال (النساء)، في رجال الدين. فقد كان الناسي، هو الذي ينسي النسي، يعين موسم الحج ويثبت للناس. فهو اذن فقيه القوم وعالمهم ومفتيهم في أمر الحج^٤.

وقد كان من أهم واجبات (النساء)، تثبيت وتعيين الأشهر. فقد كانت لدى الجاهليين أشهر حرم، لها حرمة ومترلة خاصة في نفوسهم، لما كان لها من علاقة بأقربائهم وتباعدهم لها، وبالْحج فيها الى معابد الآلهة. مثل شهر (ذالالت) (ورغن ذالالت)، وهو شهر خصص بالآلهة، كما يظهر من تسميته بها. يظهر أنه كان شهر تقرب وعبادة للأرباب، ومثل شهر (ذعم)، (ذو هم)، و (عم) هو إله قتيان الرئيس، فيظهر أنه شهر مقدس خصص بعبادة هذا الإله، أو أن يوماً أو عبداً خاصاً به، كان يقع فيه، فدعي لذلك باسمه. ومثل شهر (ذحجن)، أي شهر (ذو الحجة)، وهو شهر خصص

Reste, S. 130.

RESTE, S. 31.

الروض الاليف (٨٥/١)

الخبير (١٥٦ وما بعدها)، المعاني الكبير (١١٧١/٣)

بالحج . ومثل الأشهر الأربعة الحرم التي تتحدث عنها الموارد الإسلامية .
والإجازة بعرفة من الأعمال التي لها تماس بالدين ، فهي من شعائر الحج ومناسكه .
ولا بد وان تعدّ (المجيز) ، وهو الذي يميز الناس من المردقة الى منى من رجال
الدين . ومن كانت له منزلة وحرمة في قومه ، لما لمركزه من أهمية في الحج .
وقد أشار (الكري) الى (أئمة العرب) ، فذكر انهم الذين تولوا أمر
المواسم ، وأمر القضاء بعكاظ ، والذين كانوا سادتهم على دينهم وأمنائهم على
قبلتهم ، وكانوا من قريش ، والذين تولوا الإفتاء في دينهم . وهم من
(بني مالك بن كنانة)^١ . ولما تحدث عن (النساء) ، قال : « نساء الشهور
من كنانة وهم الفلامسة ، واحدتهم قلمس ، وكانوا فقهاء العرب والمفتين لهم
في دينهم »^٢ . والفقيه العالم (وفقيه العرب عالمهم)^٣ . والفقه العلم ، (وقد
جعلته العرب خاصاً بعلم الشريعة) . وفقهه تفقيهاً علمه . (ومنه الحديث : اللهم
علمه الدين وفقهه في التأويل ، أي علمه تأويله)^٤ .

وفي القرآن الكريم : « فلولوا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين »^٥ .
والفقه العلم بالشيء . والفهم له والفطنة^٦ . وقد خصصت الفقه بعلم الفقه في الاسلام .
فما يدل على أن لها صلة منذ أيام الجاهلية بالعلم وبالدين . وأن (الفقهاء) ، العلماء
بأمور الدين عند الجاهليين كذلك . وفيه الفاظ يستدل منها على وجود مفهوم العلم
والعلماء والتعلم والدين وفقهم والشريعة والأحكام عند الجاهليين ، ولا تكون هذه
عند قوم ليس لهم علماء ورجال دين يعلمون من هم دونهم أحكام الدين ، ليتفقهوا
فيه ، وليتعلموا ما هو واجب عليهم وما هو غير واجب ومفروض عليهم .
والإفتاء الإجابة عن مسألة . ومنه قوله تعالى : قل : الله يفتيكم في الكلاله
و (الفتيا) و (الفتوى) مما أفتى به الفقيه في مسألة^٧ . وقد استفتى أصحاب

- ١ المحير (١٨١ وما بعدها) .
- ٢ المحير (١٥٦) .
- ٣ تاج العروس (٤٠٢/٩) . (فقه) .
- ٤ تاج العروس (٤٠٢/٩) . (فقه) .
- ٥ القوية ، الرقم ٩ ، الآية ١٢٢ ، تفسير الطبري (٤٨/١١) ، روح المعاني (٤٣/١١) .
- ٦ تاج العروس (٤٠٢/٩) . (فقه) .
- ٧ تاج العروس (٣٧٥/١٠) . (فتى) .

رسول الله الرسول في أمر النساء ولأرسلهن فترز الوحي : « ويستفتونك في النساء . قل : الله يفتيكم فيهن »^١ . فقد كان أهل الجاهلية يستفتون فقهاءهم وأهل الفقه منهم فيها بشكل عليهم من أمور الدين ، فيفتون لهم ما يرونه من رأي واجتهاد . فتحن ، إذن أمام فقه في الدين واجتهاد فيه عند أهل الجاهلية .

والإمام ما ائتم به قوم من رئيس أو غيره ، كانوا على دين أو كانوا مشركين . فهو الذي يقتدى به^٢ . وقد وردت الكلمة في سبعة مواضع من القرآن الكريم في حالة الأفراد ، ووردت خمس مرات في حالة الجمع ، أي (أئمة) ، أطلقت على أئمة الكفر وعلى الفؤاة كما أطلقت فيه على المؤمنين الهادين إلى الحق . وأئمة الكفر في قوله تعالى : « فقاتلوا أئمة الكفر » ، أبو جهل بن هشام ، وأئمة بن خلف ، وعتبة بن ربيعة ، وأبو سفيان ، وهم الذين كانوا يؤذون الرسول ، وهموا بإخراجه وعادوه^٣ . فالإمام إمام دين وإمام دنيا : رجل دين يقتدى به ، ورئيس قبيلة وشريف قوم وسيدهم . ونظراً لقلة استعمال الكلمة في الرئاسة الدينية ولاستعمالها في معنى الرئاسة الدينية في الغالب ، ولا سيما في الإسلام حيث خصصت برئاسة دينية ، من إمامة للمسلمين ، وإمامة في الفقه ، وإمامة في الصلاة ، ولعدم إطلاق الجاهليين لها على سادات القبيلة أو سادة القوم ، إلا في القليل . فإن في استطاعتنا القول أنها كانت عندهم في معنى الرئاسة الدينية كما هو الحال في الإسلام .

ونجد في أعيان أهل الأخبار ما يفيد بوجود رجال دين كان لهم رأي في الخلق وفي الخلق وفي الحياة ، منهم من بشر برأيه وحاول نشره : ومنهم من تبسل واعتكف وقنع بإيمانه برأيه وبصحة عقيدته . حتى أن منهم من كان قد تبسل وتسل وسلك طريق الزهاد في اجتناب الطيبات ولذات الحياة ، ومن ذلك أكل اللحم . فقد عرف (عبدالله بن عبد الملك بن عبدالله)^٤ الغفاري ، به (أبي اللحم) (أبي اللحم) ، لأنه كان يأبى أن يأكل اللحم . وكان شريعاً شاعراً ، يتزل (الصغراء) ، وشهد (حيناً) وقتل بها^٥ .

- ١ النساء . الآية ١٢٧ ، تفسير الطبري (١٩١/٥) ، روح المعاني (١٢٣/٥) .
- ٢ تاج العروس (١٩٣/٨) ، (أم) .
- ٣ النبوة ، الرقم ٩ ، الآية ١٢ ، تفسير الطبري (٦٢/١٠) .
- ٤ ذكر « ابن الكلبي » أن اسمه « خلف بن عبد الملك » ، وقيل اسمه الحويرث .
- ٥ الإصابة (٢٣/١) ، (رقم ١) .

وعرف (عثمان بن مظعون) ببنته ، حتى انه ابتعد عن زوجته ، فلم يقربها ، وكاد ان يختصي ، حتى نهاه عن ذلك رسول الله . وكان على هذا الرأي في جاهليته من شدة التمسك بالزهد عن الدنيا والابتعاد عن ملذاتها ، وقد كان نصرانياً متأثراً بالرهابية ، أخذ آراءه هذه من زهاد النصارى ، الذين غلب التصوف عليهم ، وابتعدوا عن الدنيا ، ورأوا ان الخلاص من الخطيئة والإثم ، هو بالتقشف وبالابتعاد عن كل حلو محبوب في هذه الدنيا ^١ .

وقد عرفت الجاهلية رجالاً آخرين كانوا مثل عثمان بن مظعون والرهبان في التأمل والتفكير والابتعاد عن الناس . وهي رهبانية حاربها الاسلام ، لذا نهى عن الرهبنة . رأى (عمر) رجلاً مطأطأ رأسه ، فقال : ارفع رأسك ، فإن الاسلام ليس بمريض . ورأى رجلاً مفاوئاً ، فقال : لا تمت علينا ديننا ، أمانك الله . ونظرت عائشة الى رجل كاد يموت تخافتاً ، فقالت : ما هذا ؟ قيل : انه من القراء ، فقالت : كان عمر سيد القراء ، وكان اذا مشى أسرع ، واذا قال أسمع ، واذا ضرب أوجع ^٢ . وذكر ان عشرة من الصحابة اجتمعوا في بيت (عثمان بن مظعون) ، وانفقوا على ان يصوموا النهار ، ويقوموا الليل ولا يناموا على الفراش ، ولا يأكلون اللحم والودك ، ويلبسون المسوح ، فسمع رسول الله بهم ، فنهاهم عن ذلك ^٣ .

و (الصارورة) والصرار الذين تبنوا وتركوا النكاح . وهذا من فعل الرهبان . وهو معروف عند العرب . والصرورة الرجل في الجاهلية يحدث حدثاً فياجأ الى الكعبة ، فلا يهج ، فكان اذا لقيه ولي الدم في الحرم ، قيل له هو صرورة ولا تهجه ، تعظيماً للبيت واحتراماً له ^٤ .

ومثل (صرمة) المعروف بـ (أبي قيس) ، وكان ترهب في الجاهلية واغتسل من الجنابة ، وهم بالنصرانية ثم أمسك . وكان قوآلاً بالحق لا يدخل بيتاً فيه جنب ولا حائض الى أن أدرك الإسلام ، فأسلم ^٥ . ويظهر من ذلك ،

١ ارشاد الساري (١٠/٨ وما بعدها) .

٢ اللسان (٩٤/٢) ، (موت) .

٣ الطبرسي ، مجمع البيان (٢٣٦/٣) .

٤ اللسان (٤٥٣/٤) ، (صرد) ، تاج العروس (٢٢١/٣) ، (صرد) .

٥ الاصابة (١٧٦/٢) ، (رقم ٤٠٦١) .

أن الاغتيال من الجناية والابتعاد عن الحائض من الشعائر التي راعاها المتدينون من أهل الجاهلية ، من اللوحدين الذين تأثروا باليهودية ، لكنهم لم يدخلوا فيها ولا في النصرانية ، بل أمسكوا عن الديانتين ، ودعوا إلى عبادة واحد أحد ، وماتوا على هذا الدين .

ومثل (وكيع بن سلعة) الإباضي ، صاحب الصرح بجزيرة مكة ، فقد كان كاهناً ورجل دين ، وقالوا كان صديقاً من الصديقين . اتخذ صرحاً يصعد إليه بسلام ، فكان يدعي أنه يتأجى ربه من ذلك الموضع . وكان يعطى الناس ويتصحهم بالدين يدينه وبالابتعاد عن عبادة الأوثان ، على شاكلة الأحناف . وهو في الواقع واحد منهم ، ويجب اعتباره أحدهم ، لأن ما ينسب إليه ينسب أيضاً إلى الخلفاء . والصديق الكثير الصلوة ، ومن صدق بقوله واعتضاده وحقق صدقه بفعله . قال الله تعالى وأذكر في الكتاب إبراهيم . أنه كان صديقاً نبياً . وقال تعالى : وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام ، أي مبالغة في الصلوة والتصديق . وهم من آمن بالله وصدق به ويشتر بعبادته بين الناس ، وكان باراً بنفسه وبغيره . وهي بمعنى (بار) في لغة بني لدم .

وقد نسب أهل الأخبار إلى رجال من الجاهليين فتاوى وأحكام صارت مستأ في قومهم . من ذلك ما نسبوه إلى (قصي) من أمور ، زعموا أنها صارت سنة احتلت بها قريش ، وإن بعضاً من أحكامه بقيت إلى الإسلام ، فأقرها ، وما نسبوه إلى (عامر بن الظرب) العدواني من حكم في (الخنثى) جرى حكم الإسلام به . وما ذكروه من افتاء (عامر بن جشم بن غنم) ، المعروف بـ (ذي المجاهد) في التورث على قاعدة : أن للذكر مثل حظ الأنثيين ، وهو حكم حكم به الإسلام . ومن أمور أخرى ، يرد ذكرها في المواضع المناسبة من هذا الكتاب ، مما يدل على أن الحياة الدينية عند الجاهليين ، هي آراء وفتاوى ، ألغى بها رجال من أهل الدين والمروءة والعقل والعلم من أهل الجاهلية ، فأخذ بها قوم من

- ١ المحبر (١٣٦) .
- ٢ تاج العروس (٤٠٥/٦) وما بعدها . (صديق) ، تفسير الطبري (٦٧/١٦) .
- ٣ غرائب اللغة (١٩٢) .
- ٤ المحبر (٢٣٦) .
- ٥ المحبر (٢٣٦) .
- ٦ المحبر (٢٣٦) وما بعدها .

أتباعهم ، وساروا بموجبها . وبقي بعض منها الى الاسلام . غير ان تلك الفتاوى لم تكن عامة ، شملت كل العرب ، بل حتى كسل قوم ذلك المفتي أو الإمام ، إذ لم تكن عند العرب سنة واحدة ملزمة ، لسبب أنهم كانوا شعباً وقبائل ، ولكراهتهم الخضوع للقيود العامة ، إلا كرهاً ، وذلك في الأمور التي لا يد لهم من الخضوع لحكمها لأنها من أصول الأعراف التي يقوم عليها وجودهم مثل عرف الأخذ بالثقل .

ومن الصعب تصور وجود طبقة خاصة كبيرة لرجال الدين على نحو ما كان عند المصريين مثلاً أو الآشوريين أو البابليين أو اليونان أو الرومان، أو في الكنيسة ، بسبب النظام القبلي الذي كان غالباً على جزيرة العرب . وصغر المجتمعات الحضرية . فالأصنام هي أصنام محلية ، أصنام قبيلة ، لذلك كان عديتها هم عبدة القبيلة أو القبائل المتحددة لها . وفي محيط اجتماعي ضيق مثل هذا المحيط ، لا يمكن ظهور طبقة خاصة برجال الدين ذات نفوذ واسع ، إنما تكون قدرتها بقدرة المحيط الذي تعيش فيه . ولما كانت حياة البداوة حياة بسيطة غير معقدة ، تعلمر علينا أن نتصور حياة دينية معقدة عند أبناء البادية . وكل ما يمكن وجوده عندهم ، هو ما كان له علاقة بمحيطهم وبمعيشتهم البسيطة ، مثل السدانة والكهانة وأمثال ذلك مما يحتاج اليه البدوي لحل مشكلات حياته وجلب السعادة له .

ولم نجد في نصوص الجاهليين ولا في أخبار أهل الأخبار ، ما يفيد قيام رجال الدين من أهل الجاهلية ، بخلق الناس أصول الدين وتعاليمه ، أو شرح نصوص دينية لهم . أو تعليمهم الناس مبادئ القراءة والكتابة في المعابد على نحو ما كان يفعل اليهود والنصارى في ذلك الوقت . ولكن هذا لا يكون دليلاً على نفي وجود شيء من ذلك عندهم . فقد يجوز أن يعثر في المستقبل على نصوص تفيد بوجود ذلك عندهم . ذكر أن رجلاً من (نخشم) قال : « كانت العرب لا تحرم حلالاً ولا تحلل حراماً . وكانوا يعبدون الأوثان ويتحاكمون إليها »^١ . وفي القرآن الكريم آيات مثل : « وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً ، فقالوا : هذا لله يزعمهم . وهذا لشركائنا ، فما كان لشركائهم ، فلا يصل إلى الله ، وما كان لله ، فهو يصل إلى شركائهم . ساء ما يحكمون .

١ ابن عساکر ، التاريخ الكبير (١ / ٣١٧) .

وكذلك زين لكثير من الناس قتل أولادهم، شركائهم ليردوهم ، وليلبسوا عليهم دينهم . ولو شاء الله ما فعلوه، فلرهم وما يفترون . وقالوا : هذه أنعام وحرت حجر لا يطعمها إلا من نشاء بزعمهم، وأنعام حرمت ظهورها ، وأنعام لا يذكرون اسم الله عليها ، افتراءً عليهم ، سيجزيهم بما كانوا يفترون ^١ ، وآيات أخرى وكلمات نفيد وجود تشريع ومشرعين لدى الجاهليين ، أي رجال دين يبنون لهم الحلال والحرام وأوامر الأصنام ، ويشرعون لهم من تشريع كالذي نراه في هذه الآيات وغيرها من أحكام وضعوها للناس باسم آلهتهم ، فويخبرهم الله في القرآن على افتراءهم هذا على الله وعلى الأصنام التي لا تتنطق ولا تعقل .

وكان من أهم واجبات رجال الدين والزهاد والمتسكبين ، الإشراف على المعابد وصيانة أموالها ، وخدمة الأصنام وتنفيذ الأحكام ، وتلبية طلبات الناس في التوسط لدى الآلهة برفع القرص والكرب عنهم ، أيام الشدة وساعات العسر . من ذلك التوسل إلى الآلهة . يحفظ القوافل ، وانزال الرحمة بالناس سبي القحط . ومن ذلك ما يسمونه بالاستسقاء . فقد كانوا يستقون إذا أجذبوا ، فإذا أرادوا ذلك أخذوا من ثلاثة أشجار وهي : سلع وعشر وشبرق ، من كل شجرة شيئاً من عيدانها وجعلوا ذلك حزمة ، وربطوا بها ظهر ثور وأضرموا فيها النار، ويرسلون ذلك الثور ، فإذا أحس بالنار عدا حتى يحترق ما على ظهره ويتساقط . وقد يهلك ذلك الثور فيسقون ^٢ .

وذكر أنهم كانوا إذا أرادوا الاستسقاء في الجاهلية اجتمعوا وجمعوا ما قتلوا عليه من البقر ثم عقدوا في أذنابها وبين عراقيبها السلع والعشر ، ثم صعدوا بها في جبل وعر ، وأشعلوا فيها النيران ، وضجوا بالدعاء والتضرع ، فكانوا يرون أن ذلك من أسباب السقا . ولأمية بن أبي الصلت شعر في ذلك ^٣ .

وكان من عادة أهل مكة في الاستسقاء ، أنهم كانوا إذا أجذبوا وقحطوا ، واشتد بهم الحاجة ، خرج من كل بطن منهم رجل ، ثم يقتلون بالساء ، ويتطيبون ، ثم يلتمسون الركن ويغوفون بالبيت العتي سبعة ، ثم يرقون أبا قيس ،

١ الأنعام ، الرقم ٦ ، الآية ١٣٧ وما بعدها .

٢ السيرة الحلبية (١٣٢/١) .

٣ الحيوان (٤٦٦/٤ وما بعدها) .

فيقدم رجل منهم ، يكون من خيارهم ، ومن رجال الدين فيهم ، ممن يتبركون به ، فيدعو الله ويستغيث ، طالباً الرحمة والغوث بالمتوسلين اليه . ويذكرون ان (عبد المطلب) ، كان ممن استقى لأهل مكة ولغيرهم مزاراً^١ .

التبرك برجال الدين :

ويظهر من أخبار أهل الأخبار ، ان رجال الدين من أهل الجاهلية كانوا يباركون أتباعهم ويقدمونهم ويلمسون رؤوسهم لمنحهم البركة والشفاء من الأمراض . فكان أحدهم يضع يده على رأس مريض ، أو يلمس جبهته ، ليمنحه بركة تشفيه ، أو عافية نصيبه ، أو تبركاً وتقرباً يملك الى الآلة . وكانتوا يطلون في قم الصيال ، لتكون القفلة بركة لهم ، وعافية ، وشفاء من مرض ، أو علماً يصيب الصبي ، حيناً يكون رجلاً .

ويظهر من القرآن ومن الحديث النبوي ، ان أهل الكتاب من الجاهليين كانوا يبالغون في التقرب من رجال دينهم وفي التبرك بهم ، حتى أنهم كانوا يتسابقون في الحصول على قطعة من ملابس أوليائهم ورجال دينهم ورهبانهم ونسألكهم للتبرك بها ، وفي شعر امرئ القيس ، وشعر غيره إشارة الى هذا التبجيل والتعظيم .

تنفيذ الأحكام :

ولم يكن تنفيذ الأحكام الدينية إلزامياً ، انما كان عن مطاعة وموافقة . ثم إن العرب لم يكونوا على دين واحد يرجع الى شرائعه ، حتى يلزم المرء بتنفيذ ما جاء في حكمه^٢ . فكان أمر إطاعة أحكام رجال الدين رهناً بمكانة رجل الدين وبماله من هبة وفلذ بين قومه .

وقد رأينا أن من الناس من كان يشور حتى على آفته ، إذا وجد أنها لم تلب طلباته . وأنه كان ينوسل اليها ويلوذ بها لمساعدته عند الشدة ، ثم يهددها ويتوعدها

١ السيرة الحلبية (١/ ١٣٢ وما بعدها) .

٢ اليعقوبي (٢٢٧/١) - (أحكام العرب) .

بالإتماد عنها ويترك زيارتها ويبلغها ، إن هي صمت آذانها عنه ، ولم تجب ما طلبه منها . وقد قصصنا حكاية امرئ القيس مع صنمه ، إذ رمى السهام في وجهه وعقده وشتمه ، لأن جواب الاستقسام لم يكن على نحو ما كان يريد . ولم يكن ذلك من عمل أهل الجاهلية وحدهم ، بل نجد وقوع مثل هذه الحوادث في الإسلام أيضاً .

وقد رأينا أن في الجاهليين - كما في كل قوم - أناس كانوا لا يقيمون وزناً للحلال أو حرام ، فكانوا يستحلون المظلم ، ولا يجعلون للحرمات حرمة ، ويعتدون في الأشهر الحرم . كانوا إذا حضروا الأسواق ، أباحوا لأنفسهم الاعتناء فيها على أموال الناس فسموا : « المحلون » . ومنهم قبائل من أسد وطى وبني بكر ابن عبد مناة بن كنانة ، وقوم من بني عامر بن صعصعة^١ . هؤلاء لا يعرفون الحلال ولا الحرام ، والشهور والأيام عندهم سواء سواء ، يغزون فيها متى شاءوا ، حتى في الأشهر الحرم . إذا لا حرمة عندهم لشهر .

وكان فيهم من ينكر ذلك وينصب نفسه لنصرة المظلوم والنزع من سفك الدماء وارتكاب المنكر ، فيسمون اللادة المحرمون^٢ . وهم من بني عمرو بن نعيم ، وبني حنظلة بن زيد مناة ، وقوم من هذيل ، وقوم من بني شيان ، وقوم من بني كلب بن وبرة . فكانوا يلبسون السلاح لنفهم عن الناس . وكان العرب جميعاً بين هؤلاء تضع أسلحتهم في الأشهر الحرم .

ولم تكن للجاهليين أحكام في الحلال والحرام بالنسبة إلى المأكول على ما يظهر ، بل كان مرجع الحرمة والإباحة عندهم إلى عرف القبائل . فلما نزل الأمر في الإسلام بتحريم أكل الميتة ، أي الحيوان الميت ، صجبت قريش من ذلك ، واحتجوا قائلين : كيف تعبون شيئاً لا تأكلون مما قتل ، وتأكلون أنتم مما قتلتم ؟ وكانوا يقولون ما الذي يموت ، وما الذي نذبحون إلا سواء . وذكر^٣ أن ناساً من المشركين دخلوا على رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، فقالوا : أخبرنا عن الشاة إذا ماتت من قتلها ؟ فقال الله قتلها . قالوا : فترحم إن ما قتل أنت

١ اليعقوبي (٢٤٠/١) . (أسواق العرب) .

٢ اليعقوبي (٢٤٠/١) . (أسواق العرب) .

وأصحابك حلال ، وما قتله الله حرام !^١ . وذكر ان فارس أوحى الى أوليائها من مشركي قريش ان يخاصوا محمداً وقلولوا له : ان ما ذهبت فهو حلال وما ذبح الله بشمشار من ذهب ، فهو حرام . فوقع في أنفاس ناس من المسلمين من ذلك شيء .^٢ . فقد كانت قريش تأكل كل شيء ، من ميتة ومختلفة ومن تطيحة وما أكل السبع وما أهل للصنم ، فنزل تحريم ذلك في الاسلام .

وذكر انهم كانوا يقطعون يسيراً من حلق الشاة ويتركونها حتى تموت ، يجعلون عملهم هذا ذكاة لها . وقبل : ذبيحة الشريطة ، هي انهم كانوا يشربونها من العلة ، فإذا ماتت ، قالوا : قد ذبحناها . وذكر ان الشريطة الشاة أثر في حلقها أثر يسير كشرط المحاجم ، لا يستقصى في ذبحها ، والشريطة أيضاً المشقوقة الأذن من الإبل ، لأنها شرعت آذانها ، وإذا كان التعريف الأول صحيحاً ، فإن معنى هذا انهم كانوا يراعون بعض الأحكام في الذبح ، أي ان لهم أحكاماً دينية في كيفية الذبح . وقد نهى الاسلام عن أكل الشريطة^٣ .

واستباح الجاهليون أكل (التطيعة) ، وهي المنطوعة التي ماتت من النطح . واستباحوا أيضاً أكل الفريسة والأكلة والزمية^٤ .

وقد كان رجال الدين وسادات القبائل ، يحرمون بعض الأشياء على أنفسهم ، إذا شعروا بوجود ضرر بها ، وبأن في فعلها إلحاق أذى في الإنسان وخساراً في الاسم . فحرم بعض رجال الجاهلية الخمر على أنفسهم تكريماً وصيانة لأنفسهم . منهم : عامر بن الظرب العدواني ، وقيس بن عاصم ، وصفوان بن أمية بن محرز الكعبي ، وعفيف بن معديكرب ، وسويد بن غندي بن عمرو بن سسله الطائي ، وغيرهم . لما وجدوا فيها من ضرر على الأبدان ، وأثر في العقل ، واضاعته للهالك^٥ . وورد في بعض الموارد أن أول من حرم الخمر في الجاهلية (الوليد بن المغيرة) ، وقيل : (قيس بن عاصم) ، ثم جاء الإسلام بتقريره^٦ .

- ١ تفسير الطبري (١٢/٨) وما بعدها .
- ٢ تفسير الطبري (١٢/٨) .
- ٣ ناج العروس (١٦٧/٥) ، (شرط) .
- ٤ ناج العروس (٢٤٠/٢) ، (تطيح) .
- ٥ الأمالي ، للقالبي (٢٠٤/١) وما بعدها .
- ٦ صحيح الإعرابي (٤٣٥/١) .

وذكروا أن أول من حرم القمار في الجاهلية (الأقرع بن حابس) التميمي ، ثم جاء الإسلام بتقريره . وأن أول من رجم في الزنا في الجاهلية (ربيعة بن حذان) ، ثم جاء الإسلام بتقريره في المحصن . وأول من حكم أن الولد للفرأش أكرم بن صبيح ، حكيم العرب ، ثم جاء الإسلام بتقريره . وأن أول من قطع في السرقة في الجاهلية : (الوليد بن المغيرة) ، ثم جاء الإسلام بتقريره . وأن أول من سنّ القدية مائة من الإبل (عبد المطلب) جد النبي ، ثم جاء الإسلام بتقريرها . وأن أول من أوقد النار بالمزدلفة ، قصي بن كلاب ، وأن أول من أظهر التوحيد بمكة (قس بن ساعدة الإيادي)^١ .

ولكننا نجدهم يتقيدون بعرفهم وعاداتهم تقيداً شديداً ، والعرف عندهم هو ما استقر في نفوسهم وثبت في ذهنهم ، حتى صار في حكم الدين عندهم ، فلا يجوز لأحد الخروج عليه وكسر حكمه . وعرف القبيلة ، الذي هو دينها ، هو الذي يمين لها الحرام والحلال ، والمباح والمحرم . وأحكام رجال القبيلة من رؤساء وسادة وحكام ، هي منبع التشريع والإفتاء في أمور الدين والحق في القبيلة . وما يلائم طبيعة القبائل ، ويناسب عقليتها وينبع من محيطها ، يكون ديناً على القبائل إطاعته ، لأنه في صالحها جميعاً ، ولأن في مخالفته ضرراً بالغا ، فصار من ثم في درجة أحكام الشرع عندها .

ومن قبيل الأعراف التي صارت ملزمة عندهم لكل أحد ، وفي حكم الأحكام الزومية ، وجوب احترام العقود والعهود وما اتفق عليه من عهود . مثل مراعاة الأشهر الحرم بالنسبة للمحرمين . فلا يجوز لأحد القتال فيها ولا الاعتداء على أحد ، ولو كان قاتلاً مطلوباً بدم . ومثل مراعاة حرمة الأماكن المقدسة ، كالمسجد الحرام ، فلا يجوز لأحد التعرض لحبوان بلأ إليه ، أو لإنسان لاذ به ، ولو كان قاتلاً . وهذا ما حل البعض على ملازمة (البيت الحرام) وعدم الخروج منه ، لأنه غير آمن على نفسه ، ولأنه مطلوب بدم .

ومثل ما كان يفعله الناس من التمسك بالعهود والمواثيق والأحلاف . وقد عيب رجلان قتلا رجلين كانا تقلدا لحاء شجر الحرم الذي كان أهل الجاهلية يفلدونه ،

١ صبيح الاعشى (١٣٥/١ وما بعدها) .

ليأمنوا به على أنفسهم ، لأنها قد خالفا بذلك العهد وما اتفق عليه من وجوب مراعاة الحرمات^١ .

وقد كان من عرفهم : أنهم كانوا يتقلدون من لحاء شجر مكة ، فيقيم الرجل بمكاته ، حتى إذا انقضت الأشهر الحرم فأراد أن يرجع إلى أهله فلد نفسه وناقته من لحاء الشجر فيأمن حتى يأتي أهله . وكان من عرفهم في رواية من روايات أهل الأخبار ، أنهم إذا خرجوا من بيوتهم يريدون الحج ، تقلدوا من لحاء السر ، وإذا أرادوا العودة إلى ديارهم تقلدوا قلادة شعر ، فلم يعرض لهم أحد بسوء^٢ . وذكر أيضاً ، أن الرجل منهم ، كان يتقلد قلادة من لحاء شجرة من شجر الحرم ، ثم يذهب حيث يشاء ، فيأمن بذلك^٣ . وإن أهل مكة كانوا يفعلون ذلك في تجارتهم ، فيضعون القلائد في أعناقهم وفي أعناق بهائمهم ، فلا يعرض لهم أحد بسوء . إذ كانوا يرون الوفاء بالميثاق عهداً في أعناقهم وديناً يلزمهم بالوفاء في أحكامهم .

كسوة رجال الدين :

يقول أهل الأخبار في معرض كلامهم على كسوة العرب : « وأما أهل الحضر وسكنة المدن منهم ، فكانوا يفتشون في لبوسهم ، ويختلفون في كسوتهم ، فكان الكاهن لا يلبس المصبغ والعراة لا يدع تذييل قبضه وسحب رداءه ، والحكم لا يفارق الوبر ، والشاعر منهم كان إذا أراد المجاء دهن أحد شقي رأسه ، وأرعى إزاره ، وانتعل لعلاً واحدة ، وكان لحرائر النساء زي^٤ ، ولكل مملوك زي ، وللنواب الرايات زي .. »^٥ . فيظهر من قولهم هذا أنه قد كان لرجال الدين أو لبعضهم زي ، يميزون أنفسهم به عن بقية الناس ، وهو شيء معروف عند البشر من قديم الأيام إلى اليوم . فلا نستبعد وجود زي خاص لرجال الدين عند الوثنيين الجاهليين . أما رجال الدين من أهل الكتاب ، فقد كانوا يترقبون زي خاص يميزهم عن بقية أتباعهم . وقد نص على ذلك أهل الأخبار .

١ ألم تقلدوا الحرجين إذ أعودا كما يبران بالأيدي اللحاء المضفرا

تفسير الطبري (٣٨/٦) .

٢ تفسير الطبري (٣٧/٦) وما بعدها .

٣ المصدر نفسه .

٤ بلوغ الأرب (٤٠٧/٣) .

الفصل التاسع والستون

الاصنام

نجد في كتاب الأصنام لابن الكلبي وفي المؤلفات الإسلامية الأخرى ، أوصاف
عدد من الأصنام كان الجاهليون يعبدونها ، وهي على الأكثر أصنام كان يتعبد لها
أهل الحجاز ونجد والعربية الشمالية ، وذلك قبل الإسلام . ومن هذه الموارد الإسلامية
استفينا علما عن هذه الأصنام^١ .
وقد ذكر أهل الأخبار ان بعض هذه الأصنام اثاث . ومن اللات ، والعزى ،
ومناة . وهي أصنام ذكرت في القرآن الكريم : « أفرأيتم اللات والعزى ومناة
الثالثة الأخرى »^٢ . ويجب ان نقف إليها الشمس .

اللات :

واللات من الأصنام القديمة المشهورة عند العرب . ذكر ابن الكلبي أنه كان
صخرة مربعة بيضاء ، بنت ثقيف عليها بيتا صاروا يسبحون إليه ، يضاهون به

١ كتاب الأصنام ، لابن الكلبي ، بتحقيق المرحوم ، أحمد زكي ياشا ، القاهرة ١٩٢٥ م
(مطبعة دار الكتب المصرية) ، (كتاب الأصنام وما كانت العرب والعجم تعبد من
دون الله تبارك اسمه) ، الفهرست (١٢٥) ، (الرد على عبدة الأوثان) ، معجم
الأدباء (١٣٢/١) ، (كتاب الأصنام) ، للجاحظ ، وقد نقل منه النويري ، نهاية
الآرب (١٥/١٦) .
٢ سورة النجم ، الآية ٢٠ .

الكعبة ، وله حجة وكسوة ، ويحرمون واديه . وكانت سدانه لآل أبي العاص ابن أبي يسار بن مالك من ثقيف ، أو لبني عتاب بن مالك . وكانت قريش وجميع العرب يعظمونه أيضاً ، ويقرّبون إليه ، حتى أن ثقيفاً كانوا إذا ما قدموا من سفر ، توجهوا الى بيت اللات أولاً للتعزّب إليه ، وشكره على العلامة ، ثم يذهبون بعد ذلك الى بيوتهم^١ . فبين من ذلك أن معبد اللات الشهير كان في مدينة الطائف ، مركز قبيلة ثقيف ، يقصده الناس لتبرك به . وقد كانت له معابد كثيرة متشرة في مواضع عديدة من الحجاز .

وذكر ابن كثير ان اللات (صخرة يضاء منقوشة ، عليها بيت بالطائف له أستار وسدنة ، وحوله فناء معظم عند أهل الطائف ، وهم ثقيف ومن تابعها ، يفتخرون بها على من عداهم من أحياء العرب بعد قريش)^٢ ، فلم تكن صخرة اللات صخرة ملء حسب ، بل كانت الى ذلك منقوشة ، وكانت في داخل بيت له أستار على شاكلة الكعبة . والفناء هو حرم معظم عند أهل الطائف ، تعظيم قريش لحرم البيت . حرم على الناس قطع شجره ، وصيد حيوانه ، ومن دخله صار آمناً^٣ .

وكانت تحت صخرة اللات حفرة يقال لها (غيب) ، حفظت فيها الهدايا والتلذذ وال أموال التي كانت تقدم الى الصنم . فلما هدم المغيرة الصنم أخذ تلك الأموال وسلمها الى أبي سفيان امتثالاً لأمر الرسول^٤ .

ويظهر من وصف أهل الأخبار لبيت اللات انه كان على طراز البيت بمكة من حيث المثلثة والاحترام والكسوة . فقد كان يكسى في كل عام كسوة . ويظهر ان ثقيفاً اتخذت له سدنة وخداماً يقومون بحراسة البيت وخدمته وتنظيفه على نحو

١ البلدان (٣١٠/٧) (اللات) ، الاصلان (١٦) ، اللسان (٣٨٨/٢) ، تاج العروس (٥٨٠/١) الحير (٣١٥) ، الواقدي (٣٨٤ وما بعدها) ، سبائك الذهب (١٠٤) ، بلوغ الأرب (٢٠٣/٢) ، قاموس المحيط (١٥٦/١) ، تفسير البحر المحيط ، لأبي حيان الاندلسي (١٦٠/٨) وما بعدها ، (الطليعة الأولى ١٣٢٨ هـ) ، تفسير الطبري (٥٨/٢٧) وما بعدها ، فتح الباري (٢٣٥/١٠ ، ٢٥٣) ، تفسير ابن كثير (٢٥٣/٤) .

٢ تفسير ابن كثير (٢٥٣/٤) وما بعدها .

٣ العرب في سوريا قبل الاسلام (١١١ وما بعدها) .

٤ الطبري (٦٩/٣) وما بعدها (دار المعارف) ، Reste, B. 31.

ما كان في مكة وفي بيوت الآفة الأخرى^١ .

ويرى ابن الكلبي ان العنم (اللات) ، هو أحدث عهداً من مناة^٢ . أما نحن ، فلا نستطيع ان نجرؤ فنقول بهذا القول ، لأن الصنمين هما من الأصنام القديمة التي ورد ذكرها في كتابات التبت والصغوين ، ثم ان (هيرودوتس) أشار الى (اللات) ، كما سأذكر ذلك . وليس من السهل حتى بالنسبة الى ابن الكلبي أو غيره ، ممن تقدم عليه بالزمن الحكم على زمن دخول عبادة الصنمين الى جزيرة العرب ، لأن ذلك يعود الى زمن سابق لا تصل ذاكرة الرواة اليه .

ومكان بيت اللات في موضع مسجد الطائف ، أو تحت منارة مسجد الطائف . وقد عرف البيت الذي بني على اللات بيت الربة ، ويقصدون بالربة اللات ، لأنه أنثى في نظر عابديه^٣ . ولا تدري أكان انشاء مسجد الطائف على موضع معبد اللات رمزاً لحلول بيت الله محل بيت الربة ، وبيت الأصنام ، وتعبيراً عن حلول الإسلام محل عبادة اللات والأصنام ، لم كان ذلك لسبب آخر ، هو وجود أسس سابقة وحجارة قديمة موجودة ، فاستعمل لذلك إقامة بناء المسجد في هذا المكان ؟ وقد فسر بعض المشرقين إقامة المسجد في هذا المكان ، بأنه تخليد للذكرى الوثنية في نفوس بعض من أسلم لسانه وكفر قلبه ، فسرهم قيام المسجد في هذا المكان ليبقى أثراً بذكرهم بلذكرى صنمهم القديم اللات^٤ .

وللأخباريين روايات عن صخرة اللات ، منها أنها في الأصل صخرة كان يجلس عليها رجل ، يبيع السمن واللين للحجاج في الزمن الأول ، وقالوا : إنها سميت باللات لأن عمرو بن لحي كان يلبث عندها السوق للحجاج على تلك الصخرة ، وقالوا : بل كانت اللات في الأصل رجلاً من ثقيف . فلما مات ، قال لهم عمرو بن لحي : لم يمض ، ولكن دخل في الصخرة ، ثم أمر بعبادتها ، وأن ينوا بيتاً يسمى اللات . وقالوا : قام عمرو بن لحي ، فقال لهم : إن ربكم كان قد دخل في هذا الحجر ، يعني تلك الصخرة ، نصبها لهم صنماً يعبدونها . وكان فيه وفي العزى شيطانان يكلئان الناس ، فالتفتا ثقيف طافوا ، وبنت لها

Das Gotzenbuch, B. 93.

١ الاصنام (١٦) .

٢ العرب في سوريا قبل الاسلام (١١٢) .

٣ العرب في سوريا قبل الاسلام (١١٢) .

بيتاً ، وجعلت لها سدنة ، وعظمت ، وطافت به . وقيل : كانت صخرة مربعة ، وكان يهودي يلت عندها السويق ^١ .

وذكر المفسر (أبو السعود) أن هناك رواية تزعم أن حجر اللات كان على صورة ذلك الرجل الذي قبر تحت ، وهو الذي كان يلت السويق ، فلما مات ، عكفوا على قبره فعبده ^٢ . وقيل إن اللات : الذي كان يقوم على آلتهم ، ولت لهم السويق ^٣ .

فمنعهم أمام رأي يزعم أن (اللات) إنسان في الأصل مات ، وكان يخدم الأصنام ، فيقدم إليها يلت السويق ويعطيه للناس ، فلما توفي ، دفن في موضعه الذي كان يلت السويق عنده ثم اتخذ قبره مزاراً ، كما اتخذت قبور أخرى مزارات ينحرون عندها ويتبرك بها الناس ، ولهذا نهي الإسلام ، عن اتخاذ القبور مزارات ، حتى لا تعظم من دون الله ، كالذي حدث عند الجاهليين ^٤ .

وذكر بعض أهل الأخبار أن صنم اللات إنما سمي لاناً ، من (لوى) لأنهم كانوا يلون عليها ، أي بطوفون ^٥ ، ويعتكفون للعبادة عنده . ومعنى هذا أن عبادة هذا الصنم لم يكونوا يكتفون بالذبح عنده ، بل كانوا بطوفون حوله ، طوافهم حول أصنام أخرى . وذكر أنه سمي لاناً ، من اللات ، وكل شيء يلت به سويق أو غيره نحو السمن ^٦ .

ولدينا رأي آخر في سبب تسمية اللات لاناً ، خلاصته : أن الناس اشتقوا اللات من اسم (الله) ، فقالوا (اللات) ، يعنون مؤنثه منه ^٧ . وذكر

١ الاصنام (١٦ وما بعدها) ، البلدان (٣١٠/٧) (اللات) ، التناقض (١٤٦) ، تاج العروس (٥٨٠/١ وما بعدها) ، اللسان (٣٨٨/٢) ، روح المعاني (٤٧/٢٧) وما بعدها ، الأزرقى ، أخبار مكة (٧٩ وما بعدها) (طبعة لايزيك) ، تفسير الخازن (١٩٤/٤) وما بعدها .

٢ تفسير أبي السعود (١١٢/٥) .

٣ تفسير الطبري (٣٥/٢٧) .

٤ كان النهي عن ذلك في أول ظهور الإسلام ، ثم أذن به ، بدلالة الحديث : (كنت نهيتكم عن زيارة القبور ، ألا فزوروها ، فإنها تذكركم بالآخرة) .

٥ تفسير البيضاوي (١٩٩/١) (سورة التجم) .

٦ روح المعاني (٣٧/٢٧) وما بعدها .

٧ اللسان (٨٣/٢) (بيروت ١٩٥٥) .

٨ تفسير ابن كثير (٢٥٣/٤) وما بعدها .

الطبري ان « اللات هي من الله ، ألحقت فيه التاء ، فألثت ، كما قيل عمرو للذكر وللأثني عمرة ، وكما قيل للذكر عباس ثم قيل للأثني عباسة »^١ .

وورد في بعض روايات أهل الأخبار ان الثقيف الذي كان يلت السوق بالزيت ويقدمه للناس ، لما توفي قبر في موضع اللات ، فعكفوا على قبره ، فعبدوه وجعلوه وثناً ، وزعم بعض آخر انه قبر عامر بن الطرب العدواني^٢ . فترى هذه الروايات ان (بيت الربية) ، هو قبر رجل ، دفن فيه ، فعبد وصير إلهاً . وزعم قوم انه كان رجلاً من ثقيف ، يقال له (صرمة بن غم) ، وكان يسأل السمن ، فيضعه على صخرة ، فتأثبه العرب ، فلما مات ، عبدته ثقيف^٣ .

ونفسر أهل الأخبار لاسم (اللات) ، هو بالطبع من تفسيراتهم المألوفة الكثيرة التي لا يمكن أن نتق بها ، ولا يمكن أن نحملها على عمل الصدق والعلم . فالاسم هو من الأصنام القديمة التي عرفت قبل الميلاد . ويرى بعض المشرقين أنه ادغام وسط بين (الآلهة) (الالهات) Al Alahat والإدغام التام (اللات) (الال) Allat ، على نحو ما حدث لفظ الجلالة : (الآلاء) (ال - الاله) الذي صار (الله)^٤ .

وفي قول أهل الأخبار أن صخرة اللات كانت ليهودي ، يلت عندنا السوق ، أو لرجل من ثقيف ، غمز وطعن في ثقيف ، وقد غمز بها في أمور أخرى أشرت إليها في مواضع أخرى . ويعود سبب هذا الغمز الى المنافسة التي كانت بين أهل الطائف وأهل مكة ، ثم الى الكراهية الشديدة التي حملها أهل العراق وأهل الحجاز وغيرهم للحجاج لأعماله القاسية ، وعدم مبالاة ومراعاته للحرمان حتى بالنسبة الى الكعبة ، مما حمل الناس على كرهه وكره قومه ثقيف ، وعلى وضع قصص عن ثقيف .

ولا يستبعد أن تكون صخرة اللات صخرة من هذه الصخور المقدسة التي كان يقدمها الجاهليون ومن بيتها (الحجر الأسود) الذي كان يقدمه أهل مكة ومن

- ١ تفسير الطبري (٢٧/٣٤) ، تفسير الطبرسي (٢٧/٤٨ وما بعدها) .
- ٢ روح المعاني (٢٧/٤٧ وما بعدها) ، تفسير ابن كثير (٤/٢٥٢ وما بعدها) ، تفسير أبي السعود (٥/١١٢) (سورة النجم) .
- ٣ الخازن (٤/١٩٤ وما بعدها) .
- ٤ رينه ديسو : العرب في سوريا قبل الاسلام (١١٤) .

كان يأتي إلى مكة للحج وفي غير موسم الحج ، لذلك كانوا يلمسونه ويتبركون به . وإذا أخذنا برأي ابن الكلبي من أن عمرو بن لحي قال لقناس : « إن ربكم كان قد دخل في هذا الحجر » ، أو أن الرجل الذي كان عند الصخرة لم يمض ، ولكن دخل فيها أو أن روح ميت حلت فيها ونظرنا إلى رأيه هذا بشيء من الجدل ، فلا يستبعد أن يشير هذا الرأي إلى ما يسمى به (الفيتشيزم) *fetichiam* أي عبادة الأصنام في اصطلاح علماء الأديان . ويعنون بها عبادة الأرواح التي يزعم المتبعون لها أنها حالة في تلك الأحجار ، وخاصة الأحجار الغريبة التي لم تصلها الأيدي ، بل عبدت على هيأتها وخلقتها في الطبيعة ، وهي من العبادات المنحلة بالنسبة إلى عبادة الصور والتماثيل والأصنام^١ .

وذكر أن قريشاً تعبدت للعنم الثلاث بموضع نخلة عند سوق عكاظ ، وقيل أنه كان بالكعبة^٢ . وذكر أن (الثلاث بيت كان بنخلة تعبد قريش)^٣ . ويلاحظ أن من أهل الأخبار من جعل العزى بيتاً كان بنخلة^٤ أي هذا البيت المذكور . ويظهر من روايات أهل الأخبار أن منهم من رأى أن الثلاث بيت للعنم ، الذي كان بالطائف ، وأن منهم من رأى أنه كان بنخلة تعبد قريش . وأما عباد البيت الأول ، فهم ثقيف . ولا أستبعد وجود بيوت عبادة أخرى في غير هذين المكانين في الحجاز وفي غير الحجاز .

والثلاث من الآلهة المعبودة عند النبط أيضاً ، وقد ورد اسمها في نصوص (الحجر) و (سملط) و (تدمر) ، وهي من مواضع النبط^٥ . وهو (هـ لث) (هـ - لث) (ها - لث) في النصوص الصفوية^٦ ، ومعناها (الثلاث) ، لأن (الهاء) حرف تعريف في اللهجة الصفوية . وقد ذكر أكثر من ستين مرة في الكتابات الصفوية . وهو أكثر آلهة الصفويين وروداً في نصوصهم ، وبذلك على شيوخ عبادته بينهم^٧ .

١ Robertson, p. 209.

٢ الخازن (١٩٤/٤ وما بعدها) ، البيضاوي ، سورة النجم (١٩٩/١) ، روح

المعاني (٤٧/٢٧ وما بعدها) .

٣ تفسير الطبري (٣٥/٢٧) .

٤ تفسير الطبري (٣٥/٢٧) .

٥ Hestie, B. 32, Vogue 6, 3, Euting 3, Waddington 2203, Dussaud - Macler,

Mission, p. 55.

٦ Ency. Religi., I, P. 481.

٧ العرب في سوريا قبل الإسلام ، (١١١) .

ويذكر الباحثون ان التبط عدتوا اللات أما للآفة ، وهي في نظر (روبرتس) سمث (الإلهة الأم لمدينة بطر) ، وتقابل الإلهة Artemis عند أهل قرطاجنة^١ . وقد عرفت اللات في تدمر ، وفي أرض (مدين) عند الليحياتيين^٢ . وقد وصف (أفيثانيوس) Epiphanius معبد الإلهة اللات في مدينة (بطرا) ، فذكر انه معبد (الأم العذراء Virgin mother . كما انها كانت معبودة عند أهل (الوسة) (الوس) Elusa كذلك . ويظهر ان عبادتها كانت قد انتقلت من التبط ومن القبائل العربية الشمالية الى أهل الحجاز^٣ .

وصنم اللات ، هو (أيلات) (اللات) Allat = Alelat المذكور في تاريخ (هيرودوتس) . ذكر أنه من آفة العرب الشهيرة^٤ . والتسمية عربية التجار ، وقد غيرت تغييراً طفيفاً ، اقتضته طبيعة اللغة اليونانية ، فذكره (هيرودوتس) على النحو المذكور . فهنا الصنم إذن هو أول صنم عربي يرد اسمه في نص مؤرخ يوناني . وهو يقابل الإلهة Minerva أي (أثينا) Athene عند اليونان^٥ . وقد ذهب بعض المستشرقين الى أن (اللات) تمثل (الشمس) ، وهي أنثى أي إلهة^٦ أما (رينه ديسو) ، فيرى أنها لا تمثل الشمس ، وإنما تمثل كوكب الزهرة ، وخطأ رأي من يقول إن اللات الشمس^٧ .

وقد انتهت النساء أسماء رجال أضيفت إلى اللات ، مثل : (بيم اللات) ، و (زيد اللات) ، و (عائذ اللات) ، و (شيع اللات) ، و (شكيم اللات) ، و (وهب اللات) وما شاكل ذلك من أسماء . وما يلفت النظر أننا لم نلاحظ ورود اسم (عبد اللات) بين أسماء الجاهليين^٨ . وقد أقسموا باللات ، كما أقسموا بالأصنام الأخرى ، ونسب الى أوس بن حجر قوله^٩ :

- ١ Smith, p. 54, Reste, S. 33.
- ٢ Arabien, S. 82.
- ٣ Smith, p. 54, Das Gotzenbuch, S. 91.
- ٤ Herodotes, I, 181, III, 8, Arabien, S. 82.
- ٥ Arabien, S. 82.
- ٦ Ency. Relig., I, p. 661.
- ٧ العرب في سوريا قبل الاسلام (١١٥) .
- ٨ الأصنام (١٨) . الحبير (٢١٣) . ٢٢٧ . ٣٥٠ . ٤٥٣ .
- ٩ الأصنام (١١) . (روزا) .

وباللات والعزى ومن ذان دينها وبالقير ، ان الله منهن أكبر

وهدم اللات في جملة ما هدم من الأصنام، وأحرق البيت وقوضت حجارتها ،
هدمه بأمر الرسول المغيرة بن شعبة في أغلب الروايات . وكان الناس ينظرون الى
هدمه في خوف وفزع وقلق خشية أن يتألم شيء من أذى انتقاماً منهم ، لأنهم
لم يدافعوا عن بيت ربهم ، وكانت نساء ثقيف حسراً يبكين عليه . فلما انتهى
الهدم ، ولم يحدث لمن شيء ، أخذ المغيرة مالها وحليها من الذهب والجزع وأعطاه
أبا سفيان ، وكان الرسول قد أرسله مع المغيرة في وفد ثقيف الذي جاء إليه
عارضاً عليه الاسلام ، فأخذه منه أبو سفيان ، ليقتني من مال اللات دين عروة
والأسود ابني مسعود^١ .

ولما أصيبت ثقيف بهزيمة ، واحتمت بالطائف قال الشاعر :

وفرت ثقيف الى لاتها بمنقلب الخائب الخاسر^٢

ويظهر من هذا الشعر الذي ينسب الى (شداد بن عارض الجشمي) ، وقد
قاله حين هدمت وحرق اللات :

لا تنصروا اللات ان الله مهلكها وكيف نصركم من ليس ينتصر ؟
ان التي حرقت بالنار فاشتعلت ، ولم نقاتل لدى أحجارها ، هدر
ان الرسول متى يتزل بساحكم يظعن ، وليس بها من أهلها بشر

ان ثقيفاً بقيت محلصة لصنمها مؤمنة به ، حتى بعد هدمه وتحريقه ، فقال
الشاعر شعره ، ينهى ثقيفاً عن العود إليها والغضب لها^٣ .

ويظهر من بيت ينسب الى كعب بن مالك الأنصاري ، هو قوله :

وننسى اللات والعزى ووداً ونسبها القلائد واليوقا^٤

١ الطبري (٩٩/٣ وما بعدها) ، البلدان (٣١٠/٧) ، البداية والنهاية (١٤٩/١) ،
نهاية الأرب (٥٩/١٨ وما بعدها) ، ابن سيد الناس ، عيون الأثر (٢٢٩/٣ وما
بعدها) ، ابن هشام (٣٢٦/٣) ، الروض الأنف (٣٢٦/٣) .
٢ الاغانى (٨٠/١٩) ، المشرق ، السنة ١٩٣٨ م (١٠) (ص ٤) .
٣ الأصنام (١١) (روزا) ، الإصابة (١٣٩/٢) ، (رقم ٣٨٥٢) .
٤ ابن هشام (٦٣/١) (هامش روض الأنف) .

ان الناس كانوا يعلقون القلائد والسيف على تلك الأصنام . وروايات الأغياريين تزيد هذه الدعوى ، إذ تذكر ان الجاهليين كانوا يقدمون الحلي والثياب والتفاس وما حسن وطيب في أعين الناس هدية وتلوا إلى الأصنام ، فكانوا يعلقون ما يمكن تعلقه عليها ، ويسلمون الأشياء الأخرى إلى سدة الأصنام .

وقد ذكر الرحالة الانكليزي (جيمس هاملتون) ان صخرة ثلاث كانت لا تزال في أيامه بالطائف . وقد شاهدها فوصفها بأنها صخرة من القرانيت ذات شكل خماسي ، وان طولها زهاء اثني عشرة قدماً^١ .

ويظهر انه كان ثلاث بيت وقبة يحملها الناس معهم حين يخرجون إلى قتال ، فيتصبان في ساحة الجيش ، ليشرح المحاربون قسيتهم في القتال ، ويتأذي المقاتلون بنداء تلك الأصنام مثل : يا ثلاث ، وقد كانت لبقية الأصنام بيوت وقياب أيضاً^٢ . وعادة حمل الأصنام إلى المعارك والحروب واشراكها مع الناس في القتال بإحضارها ساحة المعارك عادة قدعة، معروقة عند العرب وعلم غيرهم . وقد سبق أن قلت إن الآشوريين ذكروا أنهم أسروا أصنام (لزيي) العرب في أثناء فتاحهم معهم ، أسروها مراراً ، وكانوا يشتون عليها خبر الأسر ، كما ان الفلسطينيين والعبرانيين وغيرهم كانوا يحملون معهم أصنامهم في القتال^٣ .

العزى :

والعزى صنم أنثى كذلك ، وهي أحدث عهداً في نظر ابن الكلبي من الثلاث ومائة . وأما الذي اتخذ العزى على رواية ابن الكلبي ، فهو ظالم بن أسعد . وضعت (بواد من نخلة الشامية ، يقال له حراض ، بأزاء القمير ، عن يمين المسعد إلى العراق من مكة ، وذلك فوق ذات عرق إلى البستان بسعة أميال ، فبنى عليها بساً (يريد بيتاً) . وكانوا يسمعون فيه الصوت)^٤ وينسب إليه بيت العزى كذلك .

James Hamilton, Sinai, The Hegaz and Soudan, London. p. 150, (1867).

Das Götzenbuch, B. 83.

١ صموئيل الأول . الأصحاح الرابع . الآية ٥ وما بعدها . صموئيل الثاني . الأصحاح الخامس . الآية ٢١ . الأصحاح ١١ . الآية ١١ .
٢ الأصنام ١٧ وما بعدها . البلدان (١٦٥/٦) (العزى) . سبائك الذهب (١٠٤) . بلوغ الأرب (٢٠٣/٢ وما بعدها) . تفسير الطبري (٢٧/٢٥) . المنبر (١٢٤ ، ٣١١ ، ٣١٥) . تفسير الطبرسي (٢٧/١٧٥) (طهران) .

وقد زعم بعض أهل الأخبار أن (العزى) كان بيتاً بالطائف تبعده ثقيف ،
ويظهر أن هذا اشتباه قد وقع لهم ، وأنهم خلطوا بين اللات والعزى ، فتوهموا
أن بيت اللات هو العزى فقالوا ما قالوه . ونجد في تفسير الطبري تأييداً لهذا
الرأي ^١ .

وورد في بيت شعر ينسب إلى (حسان بن ثابت) أن بيت العزى كان
(بالجزع من بطن نخلة) ^٢ .

ويظهر أن العزى كانت (سميرات) ، لها حمى ، وكان الناس يتقربون إليها
بالتنوير . وهي بالطبع عبادة من العبادات المعروفة للشجر ^٣ . وقد ذكر الطبري
روايات عديدة تفيد أن (العزى) شجيرات ، ولكنه أورد روايات أخرى تفيد
أنها حجر أبيض ^٤ . فمن إذن أمام رأيين : رأي يقول إن العزى شجيرات ،
ورأي يرى أنها حجر . وذكر (ابن حبيب) أن العزى شجرة يتخللها عندنا
وثن تبعدها غطفان ، سدنتها من بني صرمة بن مرة ^٥ . وذكر غيره أنها سمرة
لغطفان ^٦ .

وقد تسمى العرب وقريش بالعزى ، فقالوا : (عيد العزى) ^٧ . وقد أقسموا
بها ، ولها يقول درهم بن زيد الأوسي :

إني ورب العزى السعيدة وافقه الذي دون يته سرفاً

وأقدم من سمي باسم (عيد العزى) في رأي ابن الكلبي هو عيد العزى بن
كعب ^٨ . وقد ذكر ابن دريد أسماء عدد من أهل مكة عرفوا بـ (عيد العزى) ،

- ١ تفسير الطبري (٢٧/٣٥) ، (العزى بيت بالطائف تبعده ثقيف) .
- ٢ الأزرقي ، (ص ٧٨ وما بعدها) .
- ٣ أخبار مكة ، للأزرقي (٢/٧٤) ، اللسان (٥/٢٧٨) ، (عز) ، تاج المعروس (٥/٥٥) ، تفسير الخليل (٦/٢١٧ وما بعدها) ، التوكلاني ، فتح (٥/١٠٥) ، تفسير البحر المحيط ، لأبي حيان الأندلسي (٨/١٦٠ وما بعدها) ، تفسير ابن كثير (٤/٢٥٣) .
- ٤ تفسير الطبري (٢٧/٣٥) .
- ٥ المعبر (٣١٥) ، تفسير الطبرسي (٢٧/٤٨ وما بعدها) ، تفسير البيضاوي (١/١٩٩) .
- ٦ مراصد الإطلاق (٩٣٧) .
- ٧ الاصنام (١٦ وما بعدها) .
- ٨ الاصنام (١٣) (روزا) ، مراصد الإطلاق (٩٣٧) .
- ٩ الاصنام (١٨) .

منهم به (عبد العزى بن قصي) ، و (عبد العزى بن عبد مناف) ، و (عبد العزى بن عبد المطلب)^١ .

ويظهر من هذا الشعر المنسوب الى (زيد بن عمرو بن ثعلبة) :

تركنا اللات والعزى جميعاً كذلك يفعل الجلد الصبور
فلا العزى أدين ولا ابتيها ولا صني بني غم أزور^٢

ان عباد العزى كانوا يتصورونها أما ، ولها ابتان ، ولعله أراد به (ابتيها) اللات ومناة . وقد نسب بعض أهل الأخبار عبادة العزى الى عمرو بن لحي جرياً على عادتهم في نسبة عبادة الأوثان اليه ، فقالوا انه قال لعمر بن ربيعة والحارث ابن كعب : إن ربكم يتصيف باللات لبرد الطائف ، ويشتر بالعزى لحر تامة^٣ . وفي رواية لابن اسحاق : ان عمرو بن لحي اتخذ العزى ينخلة ، فكانوا اذا فرغوا من حجهم وطوافهم بالكعبة ، لم يحلوا حتى يأتوا العزى ، فيطوفون بها ، ويحلبون عندها ، ويعكفون عندها يوماً . وكانت لخزاعة . وكانت لفريش وبنو كنانة كلها تعظم العزى مع خزاعة وجميع مضر . وكان سديتها اللين يحجبونها بنو شيبان من بني سليم ، حلفاء بني هاشم^٤ .

وتشير رواية من زعم أن عمرو بن لحي قال لقومه : إن ربكم يتصيف باللات لبرد الطائف ، ويشتر بالعزى لحر تامة ، صحت او لم تصح ، الى وجود صلة بين اللات والعزى . وقد ذكرت العزى بعد اللات في القرآن الكريم . وكذلك ترد بعد اللات في جميع روايات الأخباريين . مما يشير الى وجود صلة بين اللات والعزى . ولا يستبعد ان تكون هذه الصلة بين الصنمين قد جاءت الى أهل الحجاز من بلاد الشام من أهل تدمر وبادية الشام والصفوين ، إذ وردا وكأنهما لسان متقابلان ، فحمل ذلك بعض المستشرقين على تصور أنها يمثلان كوكبين : كوكب الصباح وكوكب المساء^٥ .

١ الاشتقاق (٣٤٨) (التهرست) .

٢ الاصنام (١٤) (روزا) .

٣ الأزرقى - أخبار مكة (٧٤/١) (باب ما جاء في اللات والعزى) .

٤ الأزرقى (٧٤/١ وما بعدها) .

٥ العرب في سوريا قبل الاسلام (١٢٥) .

والعزى مثل اللات ومناة من الآلهة المعبودة عند عرب العراق وعرب بلاد الشام ، وعند النبط والصقوبين . وقد ذكر اسم العزى مرتين في المصادر المؤلفة بعد الميلاد ، وأشار اسحاق الأنطاكي Isaac of Antioch من رجال القرن الخامس للميلاد ، الى اسم العزى في حديثه عن مدينة (بيت حور) Beth-Hur ودعاها بـ Beltis ، ومماها (كوكبتا) . ويقال ان (كوكبتا) Kawkabta ، أي (كوكبة) المذكورة في المصادر السريانية ، هي أنثى كوكب ، تعني الكوكب الذي يظهر عند الصباح ، وهو العزى عند الجاهليين^١ . ويراد بها (الزهرة) Venus ، عند النبط^٢ . حيث اتخذوا لها معبداً في مدينة (بصرى) في منطقة (رم) حرف بـ (بيت ابل) . وقد نص (بروكوبيوس) Procopius ، على انها (أفروديت)^٣ . وهي كناية عن القمر على رأي بعض المستشرقين^٤ .

ولعل العزى هي (ملكة السماء Melakheth Hash-Shama المذكورة في سفر (ارميا)^٥ ، وقد جاء فيه : ان أهل (اورشليم) كانوا يصنعون كعكاً ، يقرّبون به الى تلك الإلهة : إلهة السماء . وقد كان الجاهليون يقرّبون بالخبز والكعك الى (كوكب السماء)^٦ .

ويظهر من ورود اسم امرأة هو : (أمت عزى) ، (أمة العزى) ، في نص عربي جنوبي ، ان عبادة العزى كانت معروفة هناك ، وقد قدم أحد العرب مثالا^٧ من ذهب الى هذه الإلهة^٨ .

وقد كان آل لحم ، ملوك الحيرة ، ينحرون الأسمى قرباناً للعزى . وقد زعم بعض المؤرخين السريان ان (المنذر بن ماء السماء) ضحى بأربع مئة راهبة للعزى^٩ .

1 Reste, S. 40, Ency. Vol. IV, p. 1039, Rothstein, S. 81, 141.

2 Shorter Ency. of Islam, p. 617.

3 Arabien, S. 82.

4 Procopius, De Bello Persi, II, 23, Arabien, S. 28, 82.

5 Arabien, S. 82, Reste, S. 40, Ryckmans, 15.

6 أرميا - الاصحاح السابع ، الآية ١٨ وما بعدها .

7 Hastings, p. 778, Das Gotzenbuch, S. 95.

8 Das Gotzenbuch, S. 94.

9 Malalas, II, 166, Noldeke, Sassaniden, S. 173, Ohaas, II, Ann. 3.

Theophanes, 273, Land, Anecd. Syr., III, 247, Rothstein, S. 81,

Paulys-Wissowa, Erster Halband, 1893, S. 1281.

وذكر (إسحاق الأنطاكي) ان العرب كانوا يقدمون الأولاد والبسات قرابين
للكوكبة (كوكبتا) ، فيحرقونها لها ، ويقصد به (كوكبتا) العزى .
وكانت قريش تتعبد للعزى ، وترورها وتهدي إليها ، وتقرّب إليها بالذبائح .
وذكر ابن الكلبي انها كانت أعظم الأصنام عند قريش ، وان قريشاً كانت تطوف
بالكعبة وتقول : « اللات والعزى ، ومناة الثالثة الأخرى . قلن الفرائق العلا ،
وان شفاعتهن لرتجى » . وكانوا يقولون : هن بنات الله ، وهن يشفعن إليه .
وكانت قريش قد حث لها شعباً من وادي حراض ، يقال له سقام يضاهون به
حرم الكعبة . وكان لها منحدر ينحرون فيه هداياهم ، يقال له البغب ، فكانوا
يقسمون لحوم هداياهم قسماً حضرها وكان عندها^١ .
وكانت قريش تستعين بأصنامها حين تحارب ، تستجير بها وتستمد منها العون
في الحرب^٢ ، تبيح الهمة والنشاط في النفوس بذكرها . فلما كان يوم أحد نادى
(أبو سفيان : « اعلّ هبل ، اعلّ هبل » فقال المسلمون : « الله أعلى وأجل ») .
فقال (أبو سفيان) : « لنا العزى ولا عزى لكم » . فقال المسلمون : « الله
مولانا ولا مولى لكم »^٣ .
ويقول ابن الكلبي أيضاً : « ولم تكن قريش بمكة ومن أقام بها من العرب
يعلمون شيئاً من الأصنام إعظامهم العزى ، ثم اللات ، ثم مناة . فلما العزى ،
فكانت قريش تخصها دون غيرها بالزيارة والهدية . وكانت تضيف تخص اللات
كمخاصة قريش للعزى . وكانت الأوس والخزرج تخص مناة كمخاصة هؤلاء الآخرين ،
وكلهم كان معظماً لها) ، أي للعزى^٤ .
ولابن الكلبي رأي في إقبال قريش على العزى ، إذ يقول : « فلما العزى ،
فكانت قريش تخصها دون غيرها بالزيارة والهدية . وذلك قبل أن تزلزل قريشها
منها »^٥ . فجعل قرب بيت العزى من قريش ، هو السبب في إقبال قريش عليها .

Isaak von Antiochia, Opera, I, 220, (Ed. Böckel), Reste, S. 40.

Das Gotzenbuch, S. 94.

٢ الأصنام (١٨) وما بعدها ، (١٢) (طبعة روزا كلينكه روزنبيركر) بمدينة (لايبزك

١٩٤١ م) .

Arabien, S. 83.

٤ تفسير ابن كثير (٢٥٣/٤) ، الطبري (٥٢٦/٢) ، معركة أحد .

٥ الأصنام (٢٧) .

٦ الأصنام (١٦) (روزا) .

وهو يرى هذا الرأي نفسه حين تكلم على الأصنام : ود ، وسواع ، ويعوق ، ونسر ، وقارن بينها وبين الأصنام اللات والعزى ومناة . إذ قال : « ولم يكونوا يرون في الخمسة الأصنام التي دفعها عمرو بن لحي .. كراهم في هله ولا قريباً من ذلك . فظننت أن ذلك كان لبعدهم منهم »^١ .

وقال ابن الكلبي في كتابه الأصنام : « وقد بلغنا أن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، ذكرها يوماً ، فقال : لقد أهديت للعزى شاة عفراء ، وأنا على دين قومي »^٢ .

وكان فيمن يتقدم إلى العزى بالتلويح والمدايا ، ولد خالد بن الوليد . ذكر خالد أن والده كان يأتي العزى بخير ما له من الإبل والغنم ، فيلبسها للعزى ، ويقيم عندها ثلاثة أيام^٣ .

ومن تعبد للعزى بنو سليم وخططان وجشم ونصر وسعد بن بكر^٤ . وفي وباهة وعزاعة وجميع مضر وبنو كنانة . وقد ارتبطت قبائل خططان بعبادة العزى وتقديسها بصورة خاصة ، حتى لقد ذكر (ياقوت الحموي) أن (العزى سمرة كانت لخططان يعبدونها ، وكانوا بنو عليها بيتاً ، وأقاموا لها سدة)^٥ . وقد عرف البيت بـ (كعبة خططان)^٦ . وذكر (الطبري) أن العزى (صم لبني شيان) ، بطن بن سليم حلفاء لبني هاشم ، وبنو أمجد بن عبد العزى ، يقولون : هلا صنمتا ، وأنها (كانت بيتاً يعظمه هذا الحي من قريش وكنانة ومضر كلها)^٧ . وقد تعبدت لها ثقيف كذلك ، بأن اتخذت لها صنماً^٨ . والظاهر أن قريشاً كانت تعبد العزى حامية وشفيعة لها^٩ .

وكان لحرم العزى شعب حته قريش للعصم ، يقال له سقام في وادي حراض

- ١ الأصنام (١٧) (روزن) .
- ٢ الأصنام (١٨) وما بعدها ، (١٢) (طبعة روزنبركر) .
- ٣ الأزرقي ، أخبار مكة (٧٨ وما بعدها) .
- ٤ تفسير الطبرسي ، مجمع البيان (٣٦٤/٥) ، اليعقوبي (٢٢٥/١) .
- ٥ البلدان (١٦٦/٦) ، (١١٦/٤) (صادر) .
- ٦ Shorter Ency., p. 617, Arabien, B. 83.
- ٧ الطبري (٦٥/٣) ، (دار المعارف) .
- ٨ Arabien, B. 83, Doughty, Documents Epigraphiques, 35, Travels in Arabia Deserta, II, p. 511, 515.
- ٩ Arabien, B. 83.

على طريقة قريش في اتخاذ حرم للكعبة. وقد صار هذا الحرم موضعاً آمناً لا يجوز التعدي فيه على أحد ، ولا قطع شجره ، ولا القيام بعمل يحل بحرمه للمكان^١ . لذلك قول أبي جندب الحلبي تم القردي في امرأة كان يهاها ، فذكر حلقها له بها :

لقد حلفت جهداً بمنأى غليظة بفرع التي أعت فروع مقام^٢

وينسب (ابن الكلبي) بناء (بيت العزى) الى (ظلم بن أسعد) ، إذ يقول : « بس : بيت لغطفان بن سعد بن قيس عيلان كانت تعبده . بناء ظالم بن أسعد بن ربيعة بن مالك بن مرة بن عوف ، لما رأى قريشاً بطوفون بالكعبة ويسعون بين الصفا والمروة ، ففرع اليث . ونص العباب : وأخذ حجراً من الصفا وحجراً من المروة ، فرجع الى قومه ، وقال : يا معشر غطفان ، لقريش بيت بطوفون حوله والصفا والمروة ، وليس لكم شيء ، فبني بيتاً على قدر اليث ، ووضع الحجرين فقال : هذان الصفا والمروة فاجترثوا به عن الحج . فأغار زهير بن جناب بن هبل بن عبدالله بن كنانة الكلبي ، فقتل ظالمًا ، وعدم بناءه^٣ . »

وجاء في رواية أخرى ان (بني صفاء) قالوا : أما والله لتتخذن حرمًا مثل حرم مكة ، لا يقتل صيده ، ولا يعصد شجره ، ولا يهاج عائلته ، فوليت ذلك بنو مرة بن عوف . ثم كان القائم على أمر الحرم وبناء حائلته رباح بن قالم ففعلوا ذلك ، وهم على ما لم يقل له بس ، فلما بلغ فعلهم هذا وما أجمعوا عليه زهير بن جناب ، قال : والله لا يكون ذلك وأنا حي ، ولا أخلي غطفان تتخذ حرمًا أبدًا ، ثم سار في قومه حتى غزا غطفان ، وتمكن منها ، واستولى على الحرم ، وقطع رقبة أسير من غطفان به ، وعطل الحرم وهدمه^٤ .

وذكر بعض أهل الأخبار ، ان العزى صنم كان لقريش وبني كنانة ، أو سمرة عبدتها غطفان بن سعد بن قيس عيلان . أول من اتخذها منهم : (ظلم بن أسعد)

١ البلدان (٩١/٥) ، (١٦٦/٦) .

٢ الاصنام (١٢) (روزا) .

٣ الاغانى (٦٣/٢١) ، تاج العروس (١٠٩/٤) ، البلدان (١٧٩/٢) ، اللسان

(٣٢٧/٧) ، (بس) .

٤ الاغانى (٦٣/٢١) .

فوق ذات عرق إلى البستان بسعة أميال ، بالتخلة الشامية بقرب مكسة ، وقيل
بالعلائف ، بنى عليها بيتاً وصفاً بياً ، وقيل بساء ، وأقاموا لها سدنة مضاهاة
للحكمة ، وكانوا يسمعون فيها الصوت ، فيحث إليها رسول الله خالد بن الوليد ،
عام الفتح ، فهدم البيت ، وقتل السادن وأحرق السرة^١ .

ويظهر مما تقدم أن البيت هدم مرتين : مرة في الجاهلية ، على يد زهير بن
جذاب ، وقتل إذ ذلك بانيه ظالم ، والمرة الثانية عام الفتح على يد خالد بن الوليد^٢ .
وأما سدنة العزى ، فكانوا من بني صرمة بن مرة ، أو من بني شيان بن
جابر بن مرة بن عيس بن رفاعة بن الحارث بن عتبة بن سليم بن منصور . فهم
من بني شيان ، من بني سليم خلفاء بني هاشم^٣ .

وكان آخر سادن للعزى (دبية بن حرمي السلمي ثم الشيباني) ، قتله خالد
ابن الوليد بعد هدمه الوثن والبيت وقطعه الشجرة أو الشجرات الثلاث^٤ . وفي
رواية : أن هدم العزى كان لخمس ليال بقين من شهر رمضان سنة ثمان ،
وكان سادتها أفلح بن النضر السلمي من بني سليم . فلما حضرته الوفاة دخل عليه
أبو لب بعوده وهو حزين ، فقال له : مالي أراك حزينا ؟ قال : أخاف أن
تضيق العزى من بعدي . قال أبو لب : فلا تحزن ، فأنا أقوم عليها بعدك .
فجعل أبو لب يقول لكل من لقي : إن تظهر العزى ، كنت قد التفتت عندها
بدأ بقيامي عليها ، وإن يظهر محمد على العزى ، وما أراه يظهر ، فإني أخفي .
فأنزل الله نهارك وتعالى : تبت بدأ أبي لب وب^٥ . وتدل هذه الرواية إن
صحت على أن أفلح بن النضر لم يكن آخر سادن للعزى ، وإن القدم لم يكن في
حياته ، وإنما كان بعد وفاته .

وتشبه هذه القصة قصة أخرى وردت في الموضوع نفسه ، عن أبي أحبيحة

- ١ تاج العروس (٥٥/٤) ، (عزز) .
- ٢ تاج العروس (١٠٩/٤) ، (بس) .
- ٣ الطبري (٦٥/٣) (دار المعارف) ، تاج العروس (٥٦/٤) ، (عزز) .
- ٤ البلدان (١٦٧/٦) وما بعدها ، بلوغ الأرب (٢٠٥/٢) ، ابن هشام (٦٥/١)
(هامش الروض الأنف) ، الطبري (١٢٣/٣) ، (٦٥/٣) (دار المعارف) ،
الاصنام (٦٥) (روزا) ، ودبية بن حرمي السلمي سادن للعزى ، تاج العروس
(١٢٤/١٠) ، (دي) .
- ٥ أخبار مكة - للأزرقي (٧٦/١) ، البلاذري ، أنساب (١٢١/١) .

وأبي لب . فلما مرض أبو أحيحة ، وهو سعيد بن العاص بن أمية بن عبد شمس ابن عبد مناف ، مرضه الذي مات فيه ، كان أهم ما شغل باله عيادة العزى وعشيته أن لا تعبد من بعده ، فلما أجابه أبو لب مهووناً عليه الأمر : رد والله ما عبدت حيالك (لأجلك) ، ولا تترك عبادتها بعدك لموتك ! سره هذا الجواب ، وأخرج عنه . فقال : « الآن علمت أن لي خليفة »^١ .

وبروي ابن الكلبي أن الرسول أمر بالقضاء على العزى ، وذلك عام الفتح ، فلما افتتح النبي صلى الله عليه وسلم مكة بعث خالد بن الوليد فقال له : أيت بطن نخلة ، فإنك تجد ثلاث سمرات ، فاعضد الأولى . فأتاها فعضدها ، فلما جاء إليه عليه السلام : هل رأيت شيئاً ؟ قال : لا ، قال : فاعضد الثانية ؟ فأتاها فعضدها . ثم أتى النبي عليه السلام ، فقال : هل رأيت شيئاً ؟ قال : لا . قال : فاعضد الثالثة . فأتاها . فلذا هو بحشية ناقشة شعرها ، واضعة يديها على عاتقها ، تصرف بأثيابها ، وخلقها دية بن حرمي الشيباني ثم السلمي ، وكان سادتها . فلما نظر إلى خالد ، قال :

أعزّ شدي شدة لا تكذبني على خالد ألقى الخمار وشري
فإنك لا تغفل اليوم خالداً تبوئي بئله عاجلاً وتنصري

فقال خالد :

يا عز كفرانك ، لا سيحانك إني رأيت الله قد أهانك

ثم ضربها ففلق رأسها ، فلذا هي حمة . ثم عضد الشجرة ، وقتل دية السادن . ثم أتى النبي ، صلى الله عليه وسلم ، فأخبره فقال : تلك العزى ، ولا عزى بعدها للعرب . أما أنها لن تعبد بعد اليوم^٢ .

١ الاصنام (٢٢) .

٢ الاصنام (١٥ وما بعدها) (روزا) ويختلف نص الشعر المذكور التسوية إلى (دية) في كتاب الاصنام بعض الاختلاف عن نص تاريخ الطبري (٦٥ / ٣) ، امتناع الاسماع (٣٦٨ / ١) ، تفسير الطبرسي (٤٨ / ٢٧ وما بعدها) ، روح المعاني (٤٧ / ٢٧ وما بعدها) ، الأزرقلي (٧٨ وما بعدها) .

ويظهر من شعر لـ (أبي خراش الهذلي) أن (دبية) كان كريماً ، يطمع الناس ، عظيم القدر، له جفنة حين الشتاء ، وقد مدحه ، إذ حلاه تعلين جيلين ، كما وثاه يوم قتل بأبيات ذكرها (ابن الكلبي) في كتابه الأصنام^١ .

وذكر بعض أهل الأخبار أن (خالد بن الوليد) هدم بيت العزى عام الفتح ، وقتل إذ ذاك سادسه (ربيعة بن جرير السلمي)^٢ . وروايات الأخباريين عن العزى يكتنفها شيء من الغموض واللبس ، وبدل ذلك على أنهم لم يكونوا على علم تام بالعزى . فبينما هم يذكرون أن العزى شجرة أو سمرة^٣ . تراهم يذكرون في روايات أخرى أنها شيطانة تأتي ثلاث سمرات ، أي أن العزى هي تلك الشيطانة ، لا السمرة أو السمرات الثلاث^٤ . ثم تراهم يذكرون في روايات أخرى أن العزى صنم ، وأن الرسول حينما أمر خالد بن الوليد بهدمه ، قال له لما هدم العزى ، وعاد : « رأيت شيئاً ؟ قال : لا ، قال : فارجع فأهدمه ، فارجع خالد إلى الصنم ، فهدم بيته ، وكسر الصنم ، فجعل السادن يقول : العزى افضي بعض غضباتك . فخرجت عليه امرأة حبشية عريانة مولودة ، فقتلها وأخذ ما فيها من حلية ، ثم أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأخبره بذلك ، فقال : تلك العزى ، ولا تعبد العزى أبداً^٥ . ومعنى هذا أن العزى صنم ، كان في داخل بيت العزى ، وأن خالد بن الوليد كسره ، وهدم بيته . ولم يكن شجرة . أما تلك السمرة أو السمرات الثلاث ، فلم تكن إلا أشجاراً نبتت في حرم البيت . لذلك صارت محرمة لا يجوز مسها بأي سوء كان .

وقد سمى بعض أهل الأخبار اسم آخر سدنة العزى (دُهيّة) و (دبية بن

- ١ الأصنام (١٤ وما بعدها) (روزا) .
- ٢ تاج العروس (١٠٩/٤) ، (بس) ، ابن سعد ، حلفاء (١٤٦/٢) .
- ٣ السمرة : شجر صفار الورق قصار الشوك وله برمة صفراء يأكلها الناس ، وليس في الأعضاء شيء أجود خشباً من السمرة ، بلوغ الأرب (٣٠٤/٢) ، تاج العروس (١٠٩/٤) ، (بس) .
- ٤ البلدان (١٦٧/٦ وما بعدها) ، المعبر (٣١٥) ، بلوغ الأرب (٣٠٤/٢) ، الأصنام (١٥ وما بعدها) (روزا) .
- ٥ الطبري (٦٥/٣) (دار المعارف) ، روح المعاني (٤٧/٢٧ وما بعدها) .

حرمس السلمي^١ ، وسماه بعض آخر (ربة السلمي) ، و (ربة بن جرمي)^٢ ، و (ربة بن جرير السلمي)^٣ .

والرأي المعقول المقبول ، هو ان العزى صنم ، له بيت ، وأمامه خنقب ، أي عزاة يضع فيها العباد المؤمنون بالعزى هداياهم وتلويهم لها ، كما كانوا ينحرون لها ، إذ لا يعقل ان يقال إن خالداً كسر الصنم وهدم بيته^٤ . ثم لا يكون العزى ، صنماً بل يكون شجرة ، أو شجرات . وأما الشجيرات ، فلأنها شجيرات مقدسة أيضاً ، لأنها في حرم العزى ، وشجر الحرم هو شجر مقدس لا يجوز قطعه ، ولذلك كان أهل مكة يتجنبون مس شجر الحرم بسوء ، فلما أراد (قصي) اعتصاده ، هابت قريش عمله وخافت سوء العاقبة ، ونهته عن مسه بسوء ، ولكنه أقدم على قطعه ، لم يبال برأيهم ، ولم يحفل بتعاليمهم ، ففقطعه . وكان بيت العزى يسمع فيه الصوت . وقد ذكر الأخباريون انه كان في كل من اللات والعزى ومناة شيطانة ، تكلمهم ، وتظهر للعدة وقد نسبوا ذلك الى صنم ابليس^٥ . والظاهر ان الحبشية المذكورة التي قتلها خالد ، وزعم انها شيطانة ان صح ما ذكره الرواة عن وجودها ، كانت امرأة كان السادن يحلقها في موضع سري ، وهي التي تجيب عن أسئلة السائلين فينسب السادن كلامها الى العزى .

وبما يؤيد رأسي في ان (العزى) صنم ، ما ورد في تفسير (الطبري) من قوله : « بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، خالد بن الوليد الى شعب يسقام ليكسر العزى ، فقال سادتها ، وهو قبيحها : يا خالد أنا أحضركها إن لها شدة لا يقوم اليها شيء . فشق اليها خالد بالفأس فهشم أضراسها^٦ . مما يدل على انها كانت صنماً أنثى ، أي تمثلاً لامرأة ، لأنها أنثى .

ويظهر من هذا البيت :

أما ودعاء مائرات تخالفاً على قة العزى وبالنسر ، عتدا^٧

- ١ - بلوغ الأرب (٢٠٤/٢) .
- ٢ - تاج العروس (٥٥/٤) وما بعدها ، (عزز) .
- ٣ - تاج العروس (١٠٩/٤) ، (بس) .
- ٤ - المعبر (١٢٣) .
- ٥ - الأزد (٧٥/١) ، (باب ما جاء في اللات والعزى) .
- ٦ - تفسير الطبري (٥/٢٤) ، تفسير القرطبي (٢٥٨/١٥) .
- ٧ - اللسان (٣٤٩/١٣) ، (قلن) .

ان عباد العزى كانوا قد لطلخوا فنة الصنم ، أي أعلاه ورأسه بدم الأصاحي .
وكذلك فعل عباد الصنم نسر بقنة صنمهم .

منارة :

وبعد الصنم منارة أقدم الأصنام عند الأخباريين . وهو من الأصنام المذكورة في القرآن الكريم : « أفرأيتم اللات والعزى ومنارة الثالثة الأخرى »^١ . وهذه الأصنام الثلاثة هي إناث في نظر الجاهليين .

وموضع منارة بالمشلل على سبعة أميال من المدينة^٢ ، وبقيد بين مكة وللمدينة^٣ ، ولعل أيضاً انه بموضع (ودان) أو في موضع قريب منه^٤ . وذكر البقوي ان منارة كان منصوباً بفندق مما يسلي ساحل البحر^٥ . والرأي الغالب بين أهل الأخبار انه كان على ساحل البحر من ناحية المشلل بقيد^٦ . وذكر (محمد بن حبيب) أنه كان بسيف البحر وكانت الأنصار وأزد شتوة وغيرهم من الأزد تتعبد له . وأما سدنته ، فهم (الغطاريق) من الأزد^٧ . وذكر أن ثلث كانت على هذه الصورة : « ليك اللهم ليك ، لولا ان يكرأ دونك ، يرك الناس ويهجرونك ، وما زال حج عثج يأتونك . أنا على عدوئهم من دونك »^٨ .

ونسكت أكثر روايات أهل الأخبار عن معبد (منارة) فلم تذكر شيئاً عنه ،

- ١ النجم . الآية ١٩ وما بعدها .
- ٢ تاج العروس (٣٥١/١٠) ، تفسير الطبري (٢٢/٢٧) وما بعدها ، تفسير ابن كثير (٢٥٣/٤) وما بعدها ، تفسير الخازن (١٩٤/٤) وما بعدها ، تفسير أبي السعود (١١٢/٥) ، اللسان (١٦٧/٢٠) ، تفسير الطبرسي (٤٨/٢٧) .
- ٣ مجمع البيان (١٧٦/٩) ، البلدان (٩٤٤/٢) ، عمدة القاري (٢٨٧/٩) .
- ٤ البلدان (١٦٧/٨) وما بعدها .
- ٥ البقوي (٣١٢/١) ، (٢٢٥/١) .
- ٦ ابن هشام (٨٧/١) ، الأصنام (١٣) وما بعدها ، الروض الانف (٦٥/١) ، أخبار مكة (١٧٣/١) وما بعدها ، البداية والنهاية (١٩٢/٢) ، عمدة القاري (٢٨٧/٩) .
- ٧ المعبر (٣١٦) .
- ٨ المعبر (٣١٣) .

ولكن (الطبري) يشير في تفسيره إلى أنه كان بينا بالمثل^١ ، وهو كلام منطقي معقول ، إذ لا يعقل أن يكون هذا الصنم ، مجرد صخرة أو صنم قائم في العراء تعبت به الرياح والشمس ، ثم إن له سدقة ، ولا يعقل أن تكون للصنم سدقة ، ثم لا يكون له بيت يؤويه . ولست أستبعد أن يكون له ، (جب) يلقي المؤمنون فيه هداياهم ولذورهم . وذكر (الطبري) أيضاً أن معبده كان به (قديد) . وأما عبده ، فخرافة ، ويثر كعباً .

والأخباريون على خلاف فيما بينهم على هيئة (مناة) وشكله ، منهم من يقول إن مناة صخرة ، سميت بذلك لأن دماء النسائك كانت تنقي عندها ، أي تراق^٢ . ومنهم من يقول إنه صنم كان منصوباً على ساحل البحر ، فهو على هيئة ومثال ، وقد نحت من حجارة^٣ ، وجعله بعض الرواة في الكعبة مع بقية الأصنام^٤ .

والذين يذكرون أن مناة صخرة ، يرون أن الناس كانوا يلجئون عندها فتعني دماء النسائك عندها ، أي تراق ، فهي إذن ، وبهذا الوصف مذهب تراق عنده الذبائح الذي تقدم نسكة للإلهة . ويذكرون أنهم إنما كانوا يفعلون ذلك ، كأنهم كانوا يستمطرون عندها الأنواء تبركاً بها^٥ . ويتبين من ذلك أن هذا الموضع كان مكاناً مقدساً ، وقد خصص لإله ينشر السحب ويرسل الرياح فتأتي بالأمطار لتغيث الناس ، وإن لهذا الإله صلة بالبحر وبالماء ، ولذلك أقيم معبده على ساحل البحر^٦ . وقد تكون هذه الصخرة مذبحاً أقيم عند الصنم ، أو عند معبده لتلجح عليه ما يهل للصنم ، فسمي باسمه ، ولذلك يمكن التوفيق بين الرأيين : كونه صخرة ، وكونه صنماً .

ويظهر من أقوال ابن الكلبي أن هذا الصنم كان معظماً ، خاصة عند الأوس

٢ تفسير الطبري (٣٥/٢٧) -

١ تفسير الطبري (٣٥/٢٧) -

٣ تفسير الطبري (٣٢/٢٧) وما بعدها -

٤ تفسير الطبري ، مجمع البيان (١٧٦/٩) ، البلدان (١٦٧/٨) وما بعدها -

٥ مجمع البيان (١٦٧/٨) وما بعدها -

٦ تفسير الطبري (٣٢/٢٧) وما بعدها ، الكشف (١٤٤/٣) وما بعدها ، تفسير

البيضاوي (١٩٩/١) -

٧ وكان منصوباً على ساحل البحر من ناحية الشمال بقديد ، بين المدينة ومكة وما

قارب ذلك من المواضع ، البلدان (١٦٧/٨) وما بعدها -

والخزرج ، أي أهل يثرب ومن كان يأخذ مأطعهم من حرب المدينة والأزد
ولسان (فكانوا يحجون ويقفون مع الناس المواقف كلها ، ولا يحلقون رؤوسهم ،
فإذا نفروا أتوا مائة وحلقوا رؤوسهم عنده وأقاموا عنده لا يرون لحجهم تماماً إلا
بذلك^١ . ولكن القبائل العربية الأخرى كانت تعظمه كذلك ، وفي جعلتها فريش^٢
وهذيل وخزاعة^٣ . وأزد شؤة ، وغيرهم من الأزد . ولعل ثقيف أيضاً ،
وذكرت رواية أخرى أن العرب جميعاً كانت تعظمه وتذبح حوله^٤ . أما سدنته ،
فالعطاريف من الأزد^٥ .

وكانت خزاعة والأوس والخزرج يعظمون مائة ، ويهلون منها للحج الكعبة^٦ .

فئة اذن من الأصنام المعظمة المقدسة عند (الخزرج) . وكانوا يحلقون بها
ويقفون عندها . وفي ذلك ورد شعر ينسب إلى عبد العزى بن ودبة المزني أو
غيره من العرب :

إني حلفت بيمين صلي برة بمائة عند محل آل الخزرج

فالمحل الذي يقف فيه (آل الخزرج) ، هو المحل الذي يحلف به أمام
مائة . وكان العرب في الجاهلية يسمون الأوس والخزرج جميعاً : الخزرج ،
ولذلك يقول الشاعر في بيته : (عند محل آل الخزرج)^٧ .

وترجع بعض الروايات تأريخ مائة إلى (عمرو بن لحي) فتزعم أنه هو الذي
نصبه على ساحل البحر مما يلي قديماً^٨ . وقد أخذت من الرواية التي ترجع أساس
عبادة الأصنام وانتشارها بين العرب إلى ذلك الرجل .

- ١ - الاصنام (١٤) . البلدان (١٦٩/٨) (مائة) الأزرقى (٧٣/١ وما بعدها) .
- ٢ - الاصنام (١٣ ، ١٥) . البلدان (١٦٩/٨) .
- ٣ - البلدان (١٦٩/٨) . اللسان (١٦٧/٢٠) .
- ٤ - الكشف (١٤٤/٣ وما بعدها) .
- ٥ - الحبر (٣١٦) . البلدان (١٦٧/٨ وما بعدها) .
- ٦ - تفسير ابن كثير (٢٥٣/٤) . اللسان (١٦٧/٢٠) .
- ٧ - الاصنام (١٣ وما بعدها) .
- ٨ - أخبار مكة (٧٣/١ وما بعدها) . البلدان (٦٥٣/٤) .

وكان المتعبدون لهذا الصنم يقصدونه ، فيذهبون حوله ، ويهدون له . ويظهر من روايات ابن الكلبي عن هذا الصنم ، أنه كان من الأصنام المظلمة المحترمة عند جميع العرب . وقد قصد ابن الكلبي بعبارة : « وكانت العرب جميعاً تعظمه وتذبح حوله »^١ عرب الحجاز على ما أعتقد . وكان سدنة يجتوب من سدنتهم له أرباحاً حسنة من هذه الهدايا التي تقدم إلى معبده باسمه .

وقد بقي سدنة هذا الصنم يرتزقون باسمه ، إلى أن كان عام الفتح ، فانقطع رزقهم بهدمه وبانقطاع سدنته . فلما سار الرسول في سنة ثمان للهجرة ، وهي عام الفتح أربع أو خمس ليال من المدينة ، بعث علياً إليه ، فهدمه وأخذ ما كان له ، فأقبل به إلى النبي ، « فكان فيما أخذ سيفان كان الحارث بن أبي شمر الغساني ملك غسان أحدهما له ، أحدهما : يسمى غلاماً ، والآخر رسوباً . وهما سيفا الحارث الغسان ذكرهما علقمة في بيته :

مظاهر سربالي حديد عليها غليلاً سيف : مخدوم ورسوب

فوهبها النبي لعلي ، فيقال : إن ذا الفقار ، سيف علي أحدهما . ويقال : إن علياً وجد هذين السيفين في الفلج ، وهو صنم علي . حيث بعثه النبي فهدمه »^٢ .

وفي رواية للواقدي أن الذي هدم الصنم هو سعد بن زيد الأشهلي ، هدمه سنة ثمان للهجرة^٣ . وفي رواية أخرى أن الذي هدم الصنم هو أبو سفيان^٤ . وقد كانت قبائل تنجب أن تجعل ظهورها على (مئة) إعظماً للصنم ، ولذلك كانت تنحرف في سيرها ، حيث لا يكون الصنم إلى ظهورها^٥ . وفي ذلك قال الكعب بن زيد الشاعر ، أحد بني أسد بن خزيمة بن مدركة :

وقد آلت قبائل لا تولى مئة ظهورها متحرقات

- ١ الاصنام (١٥) ، الاصنام (٤٩) ، (القاهرة ١٩١٤) .
- ٢ الاصنام (١٥) ، البلدان (١٦٨/٨) .
- ٣ الطبري (١٢٣/٢) ، روح البيان ، لاسماعيل حلي أقندي ، (٥٥١/٤) ، تاريخ الخميس ، للديار بكر (١٠٧/٢) وما بعدها ، امتاع الاسماع (٣٩٨/١) ، البخاري (١٨/٥) .
- ٤ البداية والنهاية (١٩٢/٢) ، الروض الاتق (٦٥/١) ، ابن هشام (٨٧/١) .
- ٥ ابن هشام (٩٠/١) .

ويظهر من ورود اسم هذا الصنم في القرآن الكريم ، ومن انتشار التسمية به في مثل (عبد مناة) و (عبدة مناة) و (زيد مناة) و (هوذ مناة) و (سعد مناة) و (أوس مناة) بين عدد من القبائل المختلفة ، مثل نجيم وطيه وكنانة ، ان عبادة (مناة) كانت منتشرة انتشاراً واسعاً بين القبائل^١ . ولهذا الكلمات المتقدمة على كلمة (مناة) شأن كبير في وصف الصورة التي كانت في حيلة عبدة مناة عنه ، إذ تمثله إلهاً كريماً يسعد عياده ويساعدتهم في المكابر والملمات ويعطيهم ما يحتاجون إليه .

والصنم مناة هو (منوتن) (منوت) Manavat عند النبط ، ويقطن ان لاسمه صلة يد (منانا) Menata في هجة بني إرم ، و (منا) Mma في العبرانية ، وجميعها (مانوت) (منوت) Manot ، وباسم الإلهة (منى) Meni ، وبكلمة (منية) ، وجميعها (منايا) في عربية القرآن الكريم ، وهي لذلك تمثل الخطوط والأمانى ، وخاصة الموت^٢ . ولهذا ذهب بعض الباحثين الى ان هذه الإلهة هي إلهة المنية والمنايا عند الجاهليين^٣ .

وقد ذكر (منى) Meni مع (جد) Gad في العهد القديم . والظاهر ان كلمة (جد) كانت مصدراً ، ثم صارت اسم علم للصنم . وذكر (منى) مع (جد) له شأن كبير من حيث معرفة الصنمين . فالأول هو لمعرفة المستقبل وما يكبه القدر للإنسان من منايا ونجيات لا تكون في مصلحة الإنسان . والثاني ، وهو (جد) ، لمعرفة المستقبل الطيب والخط السعيد (tyche) (fortune) في اليونانية ، فهما يمثلان إذن جهتين متضادتين^٤ .

هبل :

يقول ابن الكاكي : « وكانت لفريش أصنام في جوف الكعبة وحولها ، وكان أعظمها هبل . وكان فيها بلغني من عقيق أحمر على صورة إنسان ، مكسور اليد

١ تاج العروس (٣٥١/١٠) .
 ٢ Reste, S. 28, Ency. Religi., 1, pp. 231, 231.
 ٣ Das Götzenbuch, S. 87.
 ٤ Hastings, pp. 275, 604.

اليعنى . أدركته قريش فجعلت له بدأ من ذهب . وكان أول من نصبه خزيمه
 ابن مدركة بن الياس بن مضر . وكان يقال له هبل خزيمه .
 وكان في جوف الكعبة قدامه سبعة أقداح ، مكتوب في أولها : صريح والآخر
 ملصق . فإذا شكوا في مولود أهدوا اليه هدية ، ثم ضربوا بالقداح ، فإن خرج
 صريح الحقوه ، وإن خرج ملصق دفعوه . وقندح على الميت ، وقندح على النكاح ،
 وثلاثة لم تفسر لي على ما كانت . فإذا اختصموا في أمر ، أو أرادوا سقراً أو
 عملاً ، أنوه فاستشفوا بالأزلام عنده . فما خرج ، عملوا به وانتهوا اليه . وعنده
 ضرب عبد المطلب بالقداح على ابنه عبدالله^١ .
 وتذكر رواية أخرى أن خزيمه بن مدركة كان أول من نزل مكة من مضر ،
 فوضع هبل في موضعه ، فكان يقال له صنم خزيمه ، وهبل خزيمه . وورث
 أولاده سدائنه من بعده^٢ . وقد ذهب (ابن الكلبي) هذا اللعب أيضاً ، إذ
 قال : « وكان أول من نصبه خزيمه بن مدركة »^٣ .
 ولا خلاف بين أهل الأخبار في أن (هبل) ، كان على هيئة انسان رجل^٤ .
 وهناك روايات تنسب هبل الى عمرو بن لحي ، تقول إنه جاء به الى مكة من
 العراق من موضع هيت ، فصبه على البئر وهي الأنصف والجب الذي حفره
 إبراهيم في بطن الكعبة ، ليكون خزانة لليت ، يلقي فيه ما يهدي الى الكعبة ،
 وأنه هو الذي أمر الناس بعبادته ، فكان الرجل إذا قدم من سفر بدأ به صلى
 أهله بعد طوافه بالبيت ، وحلق رأسه عنده ، وكان على هذه الروايات من خرز
 العقيق على صورة إنسان ، وكانت يده اليمنى مكسورة ، فأدركته قريش فجعلت
 له بدأ من ذهب . وكانت له خزانة للقربان وكان قريانه مائة بعر . وله حاجب
 يقوم بخدمته^٥ .

- ١ الاصطفا (٢٧ وما بعدها) (تحقيق احمد زكي باشا) . سيالك الذهب (١٠٤)
 الأزرقى (٦٨/١ وما بعدها) . ابن هشام (٦٤/١) . الطبري (٢٠٢/٢) .
 (الاستقامة) . (٢٤٠/٢) . المعارف ، خزانة لادب (٢٤٤/٣) . سيالك
 الذهب (١٠١) . ابن الأثير ، الكامل (١٨/٢) . مروج الذهب (٢٢٨/١) . (محمد
 محيي الدين عبد الحميد) . البداية والنهاية (١٨٧/٢) .
 طبقات ابن سعد (٣٩/١) .
- ٢ الاصطفا (٢٧) . نهاية الارب (١٢/١٦) .
- ٣ الطبرسي ، مجمع البيان (٦٨/٢٩ وما بعدها) . بيروت ١٩٥٤ م .
- ٤ اخبار مكة ، للأزرقى (٢٧/١ ، ٦٨ وما بعدها) . الروض الانب (٦٥/١) .

وجاء في رواية أن عمرو بن لحي خرج من مكة إلى الشام في بعض أموره ، فلما قدم مآب من أرض البلقاء ، وبها يومئذ العماليق ، وهم ولد عملاق ، ويقال عمليق ، وجدهم يعبدون للأصنام ، فقال لهم : ما هذه الأصنام التي أراكم تعبدون ؟ قالوا له : هذه الأصنام نعبدها ، فتستعطرها فتعطرنا ، ونستعصرها فتعصرنا . فقال لهم : أفلا تعطلوني منها صنياً ، فأسير به إلى أرض العرب ، فيعبدوه ؟ فأعطوه صنياً يقال له هبل ، وأعطاه ، فتقدم به إلى مكة فنصبه ، وأمر الناس بعبادته^١ .

ولما نجد في كتب أهل اللغة أو الأخبار تفسيراً مقبولاً لمعنى (هبل) . وقد ذهب بعضهم إلى أنه من (الهبله) ، ومعناها القبلة . وذكر بعض آخر أنه من (الهليل) ، بمعنى الراهب ، وذكر أن (بني هبل) كانت تعبد له^٢ . وذكر أنه من (هبل) بوزن (زُفَر) ، ومعناها كثرة اللحم والشحم ، أو من (هبل) بمعنى غم ، وما شاكل ذلك من آراء^٣ . ويمكن سبب اضطراب العلماء في تسميته في أنه من الأصنام المستوردة من الخارج التي حافظت على تسميتها الأصلية ، فوقع لديهم من ثم هذا الاضطراب .

وكانت تلبية من نسك هبل : **يا ليك اللهم ليك** . اننا لفاح ، حرمتنا على أسنة الرماح ، يحسدنا الناس على النجاح^٤ .

ويذكر أهل الأخبار أن (هبل) كان أعظم أصنام قريش ، وكانت تلوذ به وتتوسل إليه ، ليمن عليها بالخير والبركة ، ول يدفع عنها الأذى وكسل شر . وكانت لقريش أصنام أخرى في جوف الكعبة وحولها ، ولكن هبل هو المقدم والمعظم عندها على الجميع . وقد نصب على الجب الذي يقال له (الأنصف) ، وهو بئر ، وكانت العرب تسميها (الأنخشف)^٥ .

وذهب بعض المشتريين إلى أن (هبل) ، هو رمز إلى الإله القمر ، وهو

- ١ سيرة ابن هشام (٦٢/١) ، (وقد طبعت في هامش كتاب الروض الأنس للسهيلي) ، ديوان حسبان (تحقيق هرشفلد) ، سيرة ابن هشام (٨٢/١) .
- ٢ البداية والنهاية (١٨٧/١) وما بعدها ، اليعقوبي (٢١١/١) ، مروج (٢٢٨/٢) .
- ٣ اللسان (٦٨٦/١١) ، تاج العروس (١٦٨/٨) ، (هبل) .
- ٤ البلدان (٤١٦/٨) .
- ٥ البحر (ص ٣١٥) .
- ٦ أخبار مكة (٦٦/١) وما بعدها .

إله الكعبة ، وهو الله عند الجاهليين^١ . وكان من شدة تعظيم قريش له أنهم وضعوه في جوف الكعبة . وأنه كان الصنم الأكبر في البيت .

ويرى بعض الباحثين أن صورة الحية أو تمثالا بشيرا إلى هبل ، أو إلى هبل وود . وقد عثر على صورة لحية في (رم) ، يظهر أنها رمز إلى (هبل) أو وود^٢ .

وذكر (ياقوت الحموي) أن هبل (صنم) لبني كنانة : بكر ومالك وملكان ، وكانت كنانة تعبد ما تعبد قريش ، وهو اللات والعزى . وكانت العرب تعظم هذا المجمع عليه . فتنسب عليه كل عام مرة^٣ . وقال غيره : « وكان هبل لبني بكر ومالك وملكان وسائر بني كنانة . وكانت قريش تعبد صاحب لبني كنانة ، وبني كنانة يعبدون صاحب قريش »^٤ .

وقد ورد اسم هبل في الكتابات النبطية التي عثر عليها في الحجر ، ورد مع اسم الصنمين : دوشرا (ذي الشرى) ، و (منوتو) (مناة)^٥ . وقد تسمى به أشخاص ويطون من قبيلة كلب ، مما يدل على أن هذه القبيلة كانت تعبد له ، وأنه كان من معبودات العرب الشماليين^٦ . ويسمى هذا الصنم سمي (هبل بن عبد الله بن كنانة الكلبي جد زهير بن جناب)^٧ .

ولما أراد النبي الإنصراف من أحد ، علا صوت أبي سفيان : أعل هبل ، أعل هبل . فقال النبي لعمر : أجبه ، قال : ما أقول له ؟ قال : الله أعل وأجل . فقال : لنا العزى ولا عزى لكم . فقال النبي لعمر قل : الله مولانا ولا مول لكم^٨ .

١ Hesté, S. 73, 221, Grohmann, S. 87.

٢ Grohmann, S. 87, Jausen — Savignac, Mission, I, 149.

٣ البلدان (٤٤٢/٧) وما بعدها .

٤ النجر (٣١٨) .

٥ Ency. II, 321, CIB, II, NR : 189, Jausen et Savignac, Mission, I,

p. 169, Hesté, S. 73, 221, L. Krehl, Über die Religion der

Vorislamischen Araber, S. 90, Oelander, in ZDMG., VII, S. 493.

٦ Ency. Religi. I, p. 664.

٧ كتاب المعمرين (ص ٢٩) (هبل) .

٨ الإصنام (ص ٢٨) ، اللسان (٦٨٦/١١) ، (٢١٢/١٤) ، تساج العروس

(١٦٢/٨) ، الاشتقاق (٣١٦/٢) .

أصنام قوم نوح :

وزعم ابن الكلبي أن خمسة أصنام من أصنام العرب ، من زمن نوح ، وهي : ود^١ ، وسواع ، ويغوث ، ويعوق ، ونسر^٢ . وقد ذكرت في القرآن الكريم : وقال نوح : رب^٣ إنهم عصوني واتبعوا من لم يزده ماله وولده إلا خساراً ، ومكروا مكراً كباراً ، وقالوا : لا تذرون آلتكم ، ولا تذرنا ودّاً ولا سواعاً ولا يغوث ولا يعوق ونسراً ، وقد أضلوا كثيراً^٤ . ويظهر أن ورود اسمها على هذا النحو في القرآن ، هو الذي حمله على رجح هذه الأصنام إلى أيام نوح .

وزعم (ابن الكلبي) أن الأصنام المذكورة كانت في الأصل قومًا صالحين ، ماتوا ، في شهر ، وذلك في أيام (قابيل) ، فجزع عليهم بنو قابيل ، وذوو أقاربهم ، وقام رجل من قومهم ، فحث لهم خمسة أصنام على صورهم ونصبها لهم ، فصار الناس يعظمونها ويسعون حولها ، ثم جاء من بعدهم من بعدهم ، وعظم أمرها ، ولم يزل أمرها يشتد ، حتى أدرك (نوح) فدعاهم إلى الله ، وإلى نيل هذه الأصنام ، فكذبوه ، فكان الطوفان ، فأبسط ماء الطوفان هذه الأصنام من جبل (نود) إلى الأرض ، وجعل الماء يشتد جريه وعبابه من أرض إلى أرض حتى قذفها إلى أرض جدة ، ثم نصب الماء وبقيت على الشط ، فسفت الريح عليها حتى وارتها . وبقيت مطمورة هناك أمداً ، حتى جاء (زئبي) (عمرو ابن لحي) وكان يكنى أبا ثعلبة ، فقال له : عجل بالسير والظعن من نهامة ، بالسعد والسلامة . قال عمر : جبر ولا إقامة . فقال الزئبي أبت خفف جدة تجد فيها أصناماً معدة ، فأوردها ولا تهاب ، ثم ادع العرب إلى عبادتها تجاب . فأتى شط جدة فاستأثرها ، ثم حملها حتى ورد نهامة . وحضر الحج ، فدعا العرب إلى عبادتها قاطبة . فأجابه سادات القبائل ، ووزع تلك الأصنام عليهم ، وأشاعوا عبادتها بين الناس^٥ ، ومن ثم عيّد العرب هذه الأصنام .

ونذكر أيضاً أن الأصنام المذكورة هي أصنام تحتها الشيطان على صورة خمسة بنين من أبناء (آدم) ، ماتوا فجزع الناس عليهم ، لأنهم كانوا عبادةً صالحين .

- ١ الأصنام (٨) (روزا) .
- ٢ سورة نوح ، الآية ٢٦ وما بعدها .
- ٣ الأصنام (٣٣) وما بعدها (روزا) .

فسوّل لهم الشيطان أن يصنع لهم تماثيل على هيأتهم وصورهم ، لتذكّركم بهم
فسروا برأيه ، وصنعها لهم ، فلما لبث الناس أن عبدوها ، حتى تركوا عبادة
الله ، وكان (ود) أكبرهم وأبرهم ، فصار أول معبود عبد من دون الله^١ .

ود :

وكان الصنم ود من نصيب (عوف بن غليرة بن زيد اللات بن رفيلة بن
ثور بن كلب بن وبرة بن تغلب بن حلوان بن عمران بن الحلف بن قضاعة) ،
أعطاه إياه (عمرو بن لحي) فحمله إلى وادي القرى ، فأقره بدومة الجندل .
وسمى ابنه عبد ود ، فهو أول من سمي به ، وهو أول من سمى عبد ود ، ثم
سمت العرب به بعد^٢ . وقد تعبد له بنو كلب^٣ .

ومنهم من يهمز فيقول أد^٤ . ومنه سمي (عبد ود) و (أد بن طابخة)
و (أد) جد معد بن عدنان^٥ .

ويجعل عوف ابنه عامراً الذي يقال له عامر الأجدار سادناً له ، فلم يزل بنوه
يستدلونه حتى جاء الله بالإسلام .

وقد استتج (ياقوت الحموي) من هذه الرواية التي يرويها (ابن الكلبي)
أن الصنم اللات أقدم عهداً من ود ؟ لأن ودأ على هذه الرواية قد سلم إلى عوف
وعوف هو حفيد زيد اللات الذي سمي به (زيد اللات) ، نسبة إلى الصنم اللات ،
فودأ على هذا أحدث عهداً من اللات^٦ .

وفي رواية لمحمد بن حبيب أن ودأ كان لبني وبرة ، وكانت سدنته من
بني القراصة بن الأحوص من كلب^٧ . وبشك (ولسون) Wellhausen في

- ١ روح المعاني (٧٧/٢٩ وما بعدها) .
- ٢ الاصنام (٣٤) (روزا) اللسان (٤٦٨/٤) (يولاق) روح المعاني (٧٧/٢٩ وما
بعدها) .
- ٣ اللسان (٤٦٨/٤) تفسير أبي السعود (١٩٨/٥) ، تفسير الخازن (٣١٤/٤) ،
تفسير ابن كثير (٤٢٦/٤ وما بعدها) ، الروض الآلف (٦٢/١) ، ابن هشام
(٦٣/١) ، (هامش على الروض) .
- ٤ اللسان (٤٥٥/٤) . (ود) .
- ٥ البلدان (٤١٠/٨) (نهاية مادة ود) .
- ٦ المحبر (٣١٦) . البلدان (٤٠٧/٨) (ود) .

صحة هذه الرواية ، فقد كان الفرافصة بن الأحوص على رأيه نصرانياً ، وهو والد نائلة زوج الخليفة عثمان . ثم ان (الفرافصة) لم يكن من بني عمرو بن ود ، ولا من بني عوف بن عذرة ، فلا يعقل أن تكون السلالة اليه وفي نسله ^١ .

وود على وصف (ابن الكلبي) له في كتابه الأصنام « تمثال رجل كأعظم ما يكون من الرجال قد ذير عليه حلطان ، متزر بحلة ، مرتد بأخرى ، عليه سيف قد ثقله ، وقد تنكب قوساً ، وبين يديه حربة فيها لواء ، ووفضة فيها نبل » ^٢ . وقد أخذ ابن الكلبي وصفه هذا لود من أبيه عن مسالك بن حارثة الأجداري .

ومالك بن حارثة الأجداري ، هو من بني عامر الأجدار ، وهم سدة ود . وزعم ابن الكلبي ان أباه محمد بن السائب الكلبي حدثه عن مالك بن حارثة أنه قال له : إنه رأى ودّاً ، وأن أباه كان يبعثه ، وهو صغير ، بالبن اليه ، فيقول : اسقه إلك ، فيشربه مالك ، فيعود وقد شرب اللبن . أما أبوه فيقتل انه قد أعطى ودّاً لباه ^٣ .

وذكر (جارية بن أصرم الأجداري) ، من بني عامر بن عوف ، المعروف بعامر الأجدار ، انه رأى ودّاً بدومة الجندل في صورة رجل ^٤ . وورد أن من عبدة (ود) بعض تميم ، وطيه ، والخزرج ، وهذيل ، ولخم ^٥ .

ويظهر انه (أدد) عند ثمود . وأدد من الأسماء المعروفة . وقبيلة (مرة) ، نسبة الى (مرة بن أدد) . وقد عرف به (كهلن) ، أي (الكاهن) . (هكهل) (ها - كهل) . ويظن أن الإله (قوس) (قيسو) (قوسو) ، هو (ود) ، أي اسم نعت له . وذهب بعض الباحثين الى أن (نسرأ) و (ذالغابة) (ذ غيت) يرمزان اليه ^٦ .

1 Reste, B. 17, Ency. Religi., I, p. 682.

2 الأصنام (٥٦) ، (٣٥) (روزا) سياك الذهب (١٠٤) ، البلدان (٩٠٤ / ٨) (ود) .

3 الأصنام (٥٥) .

4 الأصابة (٢١٩ / ١) ، (رقم ١٠٤٤) .

5 Reste, 14 - 18, Ryckmans 16, Grohmann, B. 81.

6 Jausen - Savignac, Mission, II, 395, 581, Grohmann, B. 87.

وقد بقي ود قائماً في موضعه الى ان بعث رسول الله خالده بن الوليد من غزوة تبوك لخدمه . فلما أراد خالده خدمه ، اعترضه بنو عبد ود وبنو عامر الأجدار ، وأرادوا الحيلولة بينه وبين خدمه ، فقاتلهم وأوجعهم ، وقتل منهم ، فهدمه وكسره . وذكر ابن الكلبي انه كان قيعن قتل رجل من بني عبد ود يقال له قطن بن شريح ، ورجل آخر هو حسان بن مصاد ابن عم الأكبر صاحب دومة الجندل^١ .

ويرى بعض المستشرقين استناداً الى معنى كلمة (ود) بأن هذا الصنم يرمز الى الود ، اي الحب ، وانه صنم للإلهين (جيل) Gil و (عبد) Padad عند الساميين . ويستندون في رأيهم هذا الى بيت لتابغة مطلعته : (حياك ود)^٢ ، غير ان من العسير علينا تكوين رأي صحيح عن هذا الصنم . ولا أستبعد أن تكون كلمة (ود) صفة من صفات الله لا اسم علم له .

وهناك من يرى وجود صلة بين (ود) و (ايروس) Eros الصنم اليوناني ، ويرى انه صنم يوناني في الأصل استورد من هناك ، وعبدته العرب . وهو رأي يعارضه (نولدكه) ، لانقفاء التشابه في الحياة بين الصنمين^٣ .

و (ود) هو الإله الأكبر لأهل معين . وسوف أتحدث عنه فيما بعد .

سواع :

أما سواع ، فكان موضعه برهاط ، من أرض ينبع . وذكر انه كان صنماً على صورة امرأة ، وهو صنم هذيل . وينسب ابن الكلبي انتشار عبادته - كعبادته - الى عمرو بن لحي ، فلذلك ان مضر بن نزار أجهت عمرو بن لحي ، فدفن الى رجل من هذيل (يقال له الحارث بن تميم بن سعد بن هذيل بن مدركة بن الياس بن مضر) سواعاً ، فكان بأرض يقال لها رهاط من بطن نخلة ، يعبد من يليه من مضر^٤ . وذكر (ابن حبيب) انه كان به (نعمان) ، وأن

١ الاصنام (٥٥) .

٢ Rasté, B. II, Ency. Religi., VIII, p. 120.

٣ Ency. Religi., I, p. 662.

٤ الاصنام (٥٧) - البكري (٦٩٧/٢) (رهاط) ، اللسان (٣٤/١٠) (يولاق) .

عبدته : بنو كنانة ، وهليل ، ومزينة ، وعمرو بن قيس بن عيلان . وكان
سندته بنو صاعلة من هليل . وفي رواية أن عبدة سواع هم آل ذي الكلاع^١ .
وذكر (اليعقوبي) أنه كان لكنانة^٢ .

وفي رواية أخرى يرجع سندها الى (ابن الكلبي) كذلك ، تزعم أن سواعاً
صنم كان يرهباط من أرض ينبع ، وينبع عرض من أعراض المدينة . وكانت
سندته بنو لحبان . ثم نقول إنه لم يسمع بورود اسم هذا الصنم في شعر هليل ،
إنما بورود اسمه في شعر رجل من اليمن^٣ .

وورد في رواية أخرى أن (سواعاً) صنم من أصنام همدان^٤ .
ويرى (نولدكه) أن سواعاً لم يكن من الأصنام الكبرى عند ظهور الإسلام ،
وهو في نظره من الأصنام التي لم ترد أسماؤها في الأعلام المركبة ، ويسئل علم
ورود اسمه في هذا الأعلام على دخول عبادته بين الجاهليين^٥ .

وفي السنة الثامنة من الهجرة هدم سواع ، وكان الذي هدمه عمرو بن العاص ،
فلما انتهى الى الصنم ، قال له السادن : ما تريد : قال : هدم سواع ، قال :
لا تطبق نهده ، قال له عمرو بن العاص : أنت على الباطل بعد ، فهدمه عمرو ،
ولم يجد في خزانته شيئاً ، ثم قال للسادن : كيف رأيت ، قال : أسلمت والله^٦ .

و (سواع) من الأصنام التي ورد اسمها في القرآن الكريم : « وقالوا :
لا نؤمن لكشكم ولا نؤمن وداً ولا سواعاً ولا يقرث ويعوق ونسراً »^٧ . وقد
ذكر بعض العلماء ، أنه صنم عبد في زمن نوح ، فدفعه الطوفان ، فأشار (ابليس)

- ١ المحبر (٣١٦) ، البكري (٦٧٩/٢) .
- ٢ اليعقوبي (٢٢٥/١) .
- ٣ الأصنام (٦) (روثا) ، اليلندان (٣٤١/٣) ، (رباط) ، تاج العروس (٢٩٠/٥)
اللسان (٢٤/١٠) ، القاموس (٤٢/٣) (سوع) .
- ٤ الأصنام (٥٧) ، الطبرسي ، مجمع البيان (٣٦٤/٥) ، الكشف (١٤٣/٤) ،
تفسير البيضاوي (٢٣٩/١) ، روح المعاني (٧٧/٢٩) وما بعدها ، تفسير ابن
كثير (٤٢٦/٤) وما بعدها ، تفسير أبي السعود (١٩٨/٥) .
- ٥ Ency. Relig. I, p. 663.
- ٦ الطبري (٦٦/٣) (دار المعارف) ، (حوادث السنة الثامنة) ، امتاع الاسماع
(٣٩٨/١) .
- ٧ نوح ، ٧١ ، الآية ٢٢ وما بعدها ، تفسير الطبري (٦٢/٢٩) ، روح المعاني
(٧٧/٢٩) .

على الجاهليين بالتعبد له ، فعبده همدان ، ثم صار لهذيل ، وكان برهاط وحج^١
إليه . وقال (ابن الكلبي) انه لم يسمع يذكره في أشعار هذيل . وقد قال رجل
من العرب :

تراهم حول قبائلهم عكوفاً كما عكفت هذيل على سواع
ينقل جنباه برهاط صرعى عتائر من ذخائر كل راع^٢

وذكر بعض أهل الأخبار ان سواعاً وبقية الأصنام التي ذكرت معه في سورة
نوح ، كانوا قوماً صالحين من بني آدم ، وكان لهم أتباع يقتلون بهم . فلما
ماتوا قال أصحابهم الذين كانوا يقتلون بهم لو صورناهم كان أشوق لنا إلى
العبادة إذا ذكرناهم ، فصوروهم ، فلما ماتوا وجاء آخرون دبو إليهم ابليس ،
فقال : انما كانوا يعبدونهم وهم يسقون المطر فعبدوهم^٣ .

ورهاط من بلاد بني هذيل ، ويقال وادي رهاط ببلاد هذيل ، ذكر انه على
ثلاثة أميال أو ثلاث ليال من مكة^٤ .

ونسب بعض أهل الأخبار هدم الصنم (سواع) إلى (غاوي بن ظالم السلمي)
(غاوي بن عبد العزى) . ذكروا أن هذا الصنم كان (لبني سليم بن منصور) ،
فبينما هو عند الصنم ، إذ أقبل ثعلبان يشتتان حتى تسبياه ، فبالا عليه فقال :

أرب يسول الثعلبان برأسه لقد ذل من بالث عليه الثعالب

ثم قال : يا معشر سليم لا والله هذا الصنم لا يضر ولا ينفع ولا يعطي
ولا يمنع ! فكسره ولحق بالنبي^٥ عام الفتح . فقال النبي صلى الله عليه وسلم ، ما
اسمك ؟ فقال : غاوي بن عبد العزى . فقال : بل أنت راشد بن عبد ربه .
وعقد له على قومه . وقيل إن هذه الحادثة إنما وقعت لعباس بن مرداس السلمي ،
وقيل لأبي ذر الغفاري^٦ .

١ تاج العروس (٣٩٠/٥) ، (سواع) .

٢ تفسير الطبري (٦٢/٢٩) .

٣ تاج العروس (١٤٥/٥) ، (رهط) ، نوادر المخطوطات ، أسماء جبال تهامة
وسكانها (٤٠٩) .

٤ اللسان (٢٣٧/١) ، (ثعلب) ، (صادر) ، (كان الصنم الذي يقال له سواع
بالعلاء ، فذكر قصة إسلامه وكسره إياه) ، الإصابة (٤٨٢/١) وما بعدها ،
(رقم ٢٥١٧) .

يغوث :

وأما يغوث ، فكان أيضاً على رواية ابن الكلبي ، في جملة الأصنام التي فرقتها عمرو بن لحي على من استجاب إلى دعوته من القبائل ، دفعه إلى أنعم بن عمرو المرادي ، فوضعه بأكمة مذكح حج باليمن ، فعبثت ملحج ومن والاه وأهل جرش^١ . وقد بقي في أنعم إلى أن قاتلتهم عليه بنو لخطيف من مراد ، فهربوا به إلى نجران ، فأقروه عند بني النزار من الضباب ، من بني الحارث بن كعب . واجتمعوا عليه جميعاً^٢ . وفي رواية أن عبدة يغوث هم بنو لخطيف من مراد^٣ .

وفي رواية أن يغوث بقي في أنعم وأهل من مراد ، إلى أن اجتمع أشرف مراد ونشاوروا بينهم في أمر الصنم ، فقر رأيهم أن يكون فيهم ، لما فيهم من العدد وأشرف . فبلغ ذلك من أمرهم إلى أهل وأنعم ، فحملوا يغوث وهربوا به حتى وضعوه في بني الحارث بن كعب ، في وقت كان النزاع فيه قائماً بين مراد وبني الحارث بن كعب . فلما أبت بنو الحارث تسليم الصنم إلى مراد ، وتسوية أمر الديات ، أرسلت عليها مراد جيشاً فاستجدت بنو الحارث بهمدان ، فنشبت بينهما معركة عرفت بيوم الرزم ، انهزمت فيها مراد ومنيت بحسارة كبيرة قيحة ، وبقي الصنم في بني الحارث . وقد وافق يوم الرزم يوم بدر^٤ .

وذكر (الطبرسي) أن بطنين من طيء أخذوا يغوث ، فذهبوا به إلى مراد ،

١ الأصنام (١٠ ، ٥٧) ، اللسان (٤٨٠ / ٢) (يغوث) تاج العروس (٢٢٧ / ١) (لغوث) ، قال الشاعر :

وسار بنو يغوث إلى مراد فناجزناهم قبل الصباح

البلدان (٥١١ / ٨) (يغوث) الروض الآنف (٦٣ / ١) سبائك الذهب (١٠٤) ، بنو الأريب (٢٠١ / ٢) القاموس (١٧١ / ١) ، روح المعاني (٧٧ / ٢٩) وما بعدها ، تفسير البيضاوي (٢٢٩ / ١) .

٢ المحبر (٣١٧) .

٣ الطبرسي (٣٦٤ / ٥) ، الكشاف (١٤٣ / ٤) ، تفسير أبي السعود (١٩٨ / ٥) ، تفسير الخازن (٣٦٤) ، تفسير ابن كثير (٤٢٦ / ٤) .

٤ البلدان (٥١١ / ٨) ، (يغوث) .

Reste, B. 29, Ency. Religi., I, p. 443, A. Fischer, in EDMG., 58, 569, Noldeke, in EDMG., 40, 161, 168, Das Götzenbuch, B. 29.

فعبده زماناً ، ثم أن بني ناجية أرادوا أن يترعوه منهم ، فطروا به إلى بني الحارث بن كعب^١ .

ويظهر من غرقة هذه الروايات أن الصنم يغوث كان في جرش أو على مرتفع قريب من هذه المدينة . لما سئلته ، فكانوا من بني أنعم بن أعل من طيء ، وكانوا في جرش . وفي حوالي سنة ٦٢٣ ، أي السنة التي وقعت فيها معركة بدر ، حدث نزاع على الصنم : أراد بنو مراد أن يكون الصنم فيهم وسئلته لهم ، وأراد بنو أنعم الاحتفاظ بحقهم فيه . فهرب بنو أنعم بصنمهم إلى بني الحارث ، واحتفظوا به بعد أن وقعت الموقعة في مراد^٢ .

وفي الحرب التي وقعت بين (بني أنعم) و (غطفان) حل عبدة (يغوث) صنمهم معهم وحاربوا ، مستملين من العون والممدد . وفي ذلك يقول الشاعر :

وسار بنا يغوث إلى مراد فناجوناهم قبل الصباح^٣

ويظهر أن (بني أنعم) ، وسائر عبدة هذا الصنم ، كانوا يحملون صنمهم معهم في غالب الأحوال عند قتالهم القبائل الأخرى^٤ .

ولا يستبعد أن تكون لاسم هذا الصنم علاقة بفكرة المتعبد له عنه ، بمعنى أن المتعبد له كانوا يرون أنه يغوثهم ويساعدهم . وقد ظن بعض الباحثين أنه يمثل الإله الأسد . وأنه كان (طوطم) قبيلة مذحج ، يدافع عنها ويلب عن القبيلة التي تستغيث به ، على نحو ما فعله الأسرايليون من استغاثتهم به (حبة النحاس) المسماة (نحتشان) Nehushtan^٥ ، التي كانت (طوطماً) في الأصل على رأي (سميت)^٦ .

وتجدر بين أسماء الجاهليين عدداً من الرجال سموا به (عبدة يغوث) ، منهم

١ الطبرسي (٣٦٤/٥) .

٢ Reste, S. 21, A. Fischer, Der Gotze Jaguth, in ZDMG.

BD., 58, S. 869, Leipzig, 1904.

٣ البندان (٥١١/٨) .

٤ Reste, S. 20, Das Botsenbuch, S. 83.

٥ الملوك الثاني ، الأصحاح الثامن عشر الآية ٤ .

٦ Das Götzenbuch, S. 82, Smith, The Religion of the Selves, London,

1921, p. 227, Journal of philo., IX. 99.

من كان في ملحج ، ومنهم من كان في قريش ، ومنهم من كان في هوازن .
وقد كان قائد بني الحارث بن كعب على تميم في معركة (الكلاب) عبد يغوث ،
كما كان لندريد بن العصة أخ اسمه (عبد يغوث) . ومن ملحج : (عبد يغوث)
ابن وقاص بن صلاء الحارثي ، الذي قتله (التيم) يوم الكلاب الثاني^١ . ومن
بني زهرة : عبد يغوث بن وهب ، وعبيد يغوث ، وأمه صفية بنت هشام بن
عبد مناف^٢ . وبدل ذلك على أن عبادته كانت معروفة بين ملحج وأهل جرش
وقريش وهوازن ، وقبائل أخرى مثل ثعلب^٣ .

ولم يرد اسم هذا الصنم في الكتابات^٤ . وقد ذهب (روبرتسن سمث) إلى أنه
(يعوش) Ye'ush المذكور في سفر التكوين ، وهو أحد أجداد آدم^٥ . وبمثله
الأسد في نظر (روبرتسن سمث)^٦ .

يعوق :

ويعوق أيضاً في جملة هذه الأصنام التي فرقها عمرو بن لحي على القبائل . لقد
سلمه عمرو إلى مالك بن مرثد بن جشم بن حاشد بن جشم بن خيوان بن نوف
ابن همدان فوضعه في موضع خيوان ، حيث عبادته همدان وخولان ومن والآه من
قبائل . وكان في أرحب^٧ .

وذكر (ياقوت الحموي) أن ابن الكلبي قال : « والتغلت خيوان يعوق ،
وكان بقرية لهم يقال لها خيوان من صنعاء على لبنتين مما يلي مكة ، ولم أسمع لها

١ المحبر (٢٥١) ، (عبد يغوث بن الحارث بن وقاص ، قتل يوم الكلاب وكان على
ملحج يومئذ) ، الاشتقاق (٢٢٩) .

٢ الاشتقاق (٩٥) .

٣ Ency. Religi. I, p. 603.

٤ Ency. Religi. I, p. 603.

٥ التكوين ، الإصحاح ٣٦ ، الآية ٥ ، ١٤ ، ١٨ ، وأخبار اليوم الأول ، الإصحاح
الأول ، الآية ٢٥ .

٦ Robertson, p. 228.

٧ الأصنام (٥٧) ، القاموس (٢٧٠/٣) ، الطبرسي (٣٦٤/٥) ، سبائك الذهب
(١٠٤) ، الأكليل (٥٦/١٠) ، الكشف (١٣٤/٤) ، الاشتقاق (٢٥٣) ، البلدان
(٤٣٨/٥) ، روح المعاني (٢٧/٢٩ وما بعدها) ، تفسير ابن كثير (٤٢٦/٤ وما
بعدها) ، تفسير الخازن (٣١٤/٤) ، تفسير أبي السعود (١٩٨/٥) .

ولا لقبها شعراً فيه . وأظن ذلك لأنهم قريبوا من صنعاء واختلطوا بحبر، فدانوا معهم باليهودية أيام يهود ذي نواس ، فتهودوا معه ^١ . ونسب (الطبرسي) عبادة يعوق إلى كهلان ، وذكر أنهم توارثوه ككبيراً عن كبير، حتى صار إلى همدان ^٢ . وذكر في رواية أخرى أن يعوق اسم صنم كان لكتانة ^٣ .

وذكر بعض أهل الأخبار : (يعوق) صنم كان لكتانة ، وقيل كان لقوم نوح عليه السلام ، كما في الصحاح . أو كان رجلاً من صالحى أهل زمانه . فلما مات جزعوا عليه فأتاهم الشيطان في صورة إنسان . فقال : أمثلة لكم في عرايكم حتى تروه كلها صليماً ، ففعلوا ذلك به وبسبعة من بعده من صالحهم ، ثم تمادى بهم الأمر إلى أن اتخذوا تلك الأمثلة أصناماً يعبدونها ^٤ .

وتشير ملاحظة (ابن الكلبي) من أنه لم يسمع بأن همدان أو غير همدان سميت (عبد يعوق) ^٥ إلى أن يعوق لم يكن من الأصنام المهمة بين العرب عند ظهور الإسلام ، وإن عبادته كانت قد تضاءلت ، وانحصرت في قبائل معينة . وهناك بيت ينسب إلى مالك بن نبط الهذلي الملقب بـ (بني العشار) وهو من بني عشارف أو من يام بن أصى ، هذا نصه :

يريش الله في الدنيا ويبري ولا يبرى يعوق ولا يريش ^٦

نسر :

وأما نسر فكان من نصيب حبر ، أعطاه عمرو بن لحي قيل ذي رعين المسمى (معديكرب) فوضعه في موضع يلخع من أرض سبأ ، فتعبدت له حبر إلى أيام

١ البلدان (٥٦٠/٨) (يعوق) . . Hesté, B. 22, Ency. Religi., I, p. 663.

٢ الطبرسي (٣٦٥/٥) .

٣ اللسان (٢٨١/١٠) (صادر) تاج العروس (٢٩/٧) . . اللسان (١٥٤/١٢) (بولاق) .

٤ تاج العروس (٢٩/٧) ، (يعوق) .

٥ الاصنام (٧) (روزا) ، البلدان (١٠٢/٤) .

٦ الروض الائق (٦٣/١) ، ابن هشام (٦٣/١) ، (هامش الروض) .

ذي نواس ، فتهودت معه ، وتركت هذا الصنم^١ . وكان عباد نسر آل ذي الكلاخ من حمير على رواية من الروايات^٢ . وذكر (محمد بن حبيب) ، أن حمير تسكت لنسر ، وعظمت وداث له ، وكان في عمدان قصر ملك اليمن^٣ . وذكر اليعقوبي أنه كان لحمير وعمدان منصوباً بصنمها^٤ .

ونسر هو (نسر) Neshar في العبرانية^٥ . وهو صنم من أصنام الحيثيين كذلك ، ويجب أن يكون من أصنام العرب الشماليين لورود اسمه في الموارد العبرانية والسريانية على أنه اسم إله عربي^٦ .

وأشير في التلمود إلى صنم ذكر أن العرب كانوا يعبدونه اسمه (نشرا) Neshra و (نشرا) هو (نسر) . وقد ورد اسم الصنم (نسر) عند السبئين كذلك ، وكان من الآلهة المعبودة عند كثير من الساميين ، وقد عبد خاصة في جزيرة العرب^٧ .

ولم يشر ابن الكلبي إلى صورة الصنم نسر ، ولكننا نستطيع أن نقول استناداً إلى هذه التسمية أنه كان على هيئة الطائر المسمى باسمه ، وقد وجدت أصنام على صورة نسر منحوتة على الصخور خاصة في أعالي الحجاز^٨ . ويؤيد هذا الرأي رواية ذكرها الطبرسي في أشكال الأصنام ، أسندها إلى الواقدي ، قال فيها : « كان ود على صورة رجل ، وسواع على صورة امرأة ، وبغوث على صورة أسد ، ويعوق على صورة فرس ، ونسر على صورة نسر من الطير »^٩ .

١ الأصنام (٥٧ وما بعدها) ، البلدان (٢٨٦/٨) (نسر) ابن هشام (٦٣/١) ، (هامش الروض) ، سبائك الذهب (١٠٤) ، الكشف (١٤٣/٤) بلوغ الأرب (٢٠١/٢) ، القاموس (١٤١/٢) .

٢ الطبرسي (٣٦٤/٥) ، تاج العروس (٥٦٣/٣) ، اللسان (٦٠/٧ وما بعدها) ، (نسر) .

٣ الحمير (٣١٧) .

٤ اليعقوبي (٢٢٥/١) .

٥ Hastings, p. 200.

٦ Handbuch, I, S. 44.

٧ Ency. Religi., I, p. 663.

٨ XXIX, B. 632. Robertson, p. 228, Noldeke, in ZDMG., 1888, S. 184.

٩ الطبرسي (٣٦٤/٥) .

عميانس :

وعميانس (عم أنس) ، هو صنم حولان ، وموضعه في أرض حولان . وكان يقدم له في كل عام نصيبه المقرر من الأنعام والحروث^١ . وذكر ابن الكلبي ان اللين تعبدوا له من حولان هم بطن منهم يقال لهم (الادوم) وهم الأسوم . وفيهم نزلت الآية : « وجعلوا الله بما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً ، فقالوا: هذا لله ، بزعمهم ، وهذا لشركائنا ، فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله ، وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم ، ساء ما يحكمون »^٢ . وكانوا « يقسمون له من أنعامهم وحروثهم قسماً بينه وبين الله بزعمهم . فما دخل في حق الله من حق عميانس ، ردوه عليه ، وما دخل في حق الصنم من حق الله الذي صنوه له ، تركوه له »^٣ .

وقد ورد ذكر هذا الصنم في خبر (وقد حولان) الذي قدم على رسول الله في شعبان سنة عشر ، إذ ذكر أن رسول الله قال لهم : « ما فعل عم أنس » ، فقالوا : بشر وعمر^٤ ، أهدنا الله به ، ولو قد رجعنا إليه هدمناه^٥ . « وقد بقيت منا بعد بقايا من شيخ كبير وعجوز كبيرة متمسكون به »^٦ .

وقد كانوا يقدمون له القرابين حتى في أيام الضيق ولوفات المحنة ، تقريباً إليه . لقد قالوا للرسول حين سألهم : « ما أعظم ما رأيتم من فتنة » ، لقد رأينا وأستننا حتى أكلنا الرمة ، فجمعنا ما قدرنا عليه ، وابتننا مئة ثور ، ونحرقها لعن أنس قرباناً في غداة واحدة ، وتركناها ترددها السباع ، ونغن أحوج إليها من السباع ، فجاءنا القيث من ساعتنا . لقد رأينا العشب يوارى الرجال ، ويقول قائلنا : أنعم علينا عم أنس^٧ . وذكروا له أنهم كانوا يقسمون لصنمهم هذا من أنعامهم وحروثهم ، وأنهم كانوا يجعلون من ذلك جزءاً له^٨ .

- ١ سيأتك الذهب (١٠١) ، خزينة الادب (٢١٥/٣) ، سيرة محمد (٥٣/١) .
- (طبعة قرانكفورت) ، ابن خلدون (١٦٩/٢) ، الاغانى (١٢٤/٣٠) .
- ٢ الأنعام ، الآية ١٣٧ .
- ٣ الاصنام (٤٤) .
- ٤ نهاية الادب (٨٢/١٨) ، ابن سعد (٣٢٤/١) (صادر) .
- ٥ عيون الاثر (٢٥٣/٢) .
- ٦ عيون الاثر (٢٥٣/٢) وما بعدها .
- ٧ المصدر نفسه .

اساف وثالثة :

وللأخباريين قصص في اساف وثالثة ، وهما في زعم بعضهم إنسانان عملاً عملاً قبيحاً في الكعبة ، فسحبا حجرتين ، ووضعوا عند الكعبة ليشعظ الناس بهما . فلما طال مكنتها ، وعبدت الأصنام ، عبدا معها . وكان أحدهما يلمص الكعبة ، والآخر في موضع زمزم . فنقلت قريش السدي كان يلمص الكعبة الى الآخر ، فكانوا ينحرون ويلبسون عندهما^١ . وفي رواية أن اسافاً كان حياض الحجر الأسود . وأما ثالثة ، فكان حياض الركن اليماني^٢ . وفي أخرى أنها « أخرجا الى الصفا والمروة فتصبيا عليها ليكونا عبرة وموعظة ، فلما كان عمرو بن لحي ، نقلها الى الكعبة وتصبها على زمزم : فطاف الناس بالكعبة وبها حتى عبدا من دون الله^٣ » . وذكر (اليعقوبي) ، أن (عمرو بن لحي) وضع (هبل) عند الكعبة ، فكان أول صنم وضع بمكة . ثم وضعوا به اساف وثالثة كل واحد منها على ركن من أركان البيت . فكان الطوائف إذا طاف بدأ بأساف فقبله وختم به . ونصبوا على الصفا صنماً يقال له مجاور الريح وعلى المروة صنماً^٤ . يقال له مطعم الطير^٥ . فاليعقوبي ممن يرون أن اسافاً وثالثة كانا عند الكعبة ، لا على الصفا والمروة .

ولذكر رواية أخرى أن أساف صنم وضعه عمرو بن لحي الخزاعي على الصفا، وثالثة على المروة . وكانا لقريش . وكان يذبح عليهما تجاه الكعبة . أو هما رجلان من جرهم ، أساف بن عمرو وثالثة بنت سهل فجرا في الكعبة ، وقيل أحدهما فيها ، فسحبا حجرتين ، فعبدهما قريش^٦ . وورد أن موضع أساف وثالثة عند الحطيم^٧ . وورد أن اسافاً رَجَسَ من جرهم ، يقال له اساف بن يعلى ، وثالثة

- ١ الاصنام (١٨) (روا) الروض الانف (٦٤/١) ، سبائك الذهب (١٠٤) ، ابن هشام (٨٦/١) ، الطبري (٢٨٤/٢) ، المعبر (٣١٨ ، ٣١٩) ، اليعقوبي (٢٢٤/١) ، الطبري (٢٤١/٢) ، (المعارف) .
- ٢ الطبرسي (٣٦٤/٥) ، روح المعاني (٤١/٢) .
- ٣ الروض الانف (٦٥/١) ، ابن هشام ، تاج العروس (٤٠/٦) ، اللسان (٦/٩) ، (أسف) ، البلدان (١٧٠/١) .
- ٤ اليعقوبي (٢٢٤/١) .
- ٥ تاج العروس (٤٠/٦) وما بعدها ، اللسان (٣٤٨/١٠) ، الروض الانف (٦٤/١) ، بلوغ الأرب (٢٠٥/٢) ، ابن هشام (٦٤/١) ، اللسان (٦/٩) ، (أسف) ، (صادر) .
- ٦ الأزدقي ، أخبار مكة (٧٠/١) .

امرأة من جرهم يقال لها نائلة بنت زيد ، وكان اساف يتعشقها في أرض اليمن ، فأقبل حجاجاً ، فدخل الكعبة ، فوجد غفلة من الناس وعطوة في البيت ، فحجر بها في الكعبة ، فسحا حجرين ، فأصبحوا فوجدوها ممسوخين ، فوضعهما موضعها . فعبثت غزاة وقريش ، ومن حج البيت بعد من العرب^١ .

وذكر (محمد بن حبيب) ان اسافاً كان على الصفا . وأما نائلة ، فكان على المروة . (وهما صنان . وكانا من جرهم . فحجر اساف بنائلة في الكعبة ، فسحا حجرين ، فوضعا على الصفا والمروة ليعثر بهما ، ثم عبدا بعد^٢ . وكان نساك قريش لأساف : « لبيك اللهم لبيك ، لبيك ، لا شريك لك إلا شريك هو لك ، تملكه وما ملك »^٣ .

وورد اسم اساف في بيت شعر ينسب إلى أبي خازم الأسدي ، هو :

عليه الطير ما يدنون من مقامات العوارك من اساف^٤

وورد ان نائلة حين كسرها الرسول عام الفتح ، خرجت منها سوداء شطاء تحمش وجهها وتنادي بالويل والثبور^٥ .

ويظهر أن مرد^٦ هذا القصص الذي يقصه علينا أهل الأخبار عن الصنمين ، إنما هو إلى شكل الصنمين . كان (اساف) مثال رجل على ما يظهر من روايات الأخباريين ، وكان (نائلة) مثال امرأة . يظهر أنها استوردت من بلاد الشام ، فنصبا في مكة ، فتولد من كونها صنمين لرجل وامرأة ، هذا القصص المذكور ولعله من صنع القبائل الكارهة لقريش ، التي لم تكن ترى حرمة للصنمين .

وكانت قريش خاصة تعظم ذنك الصنمين وتتقرب إليها ، وتلجج عندهما وتسمى بينهما . أما القبائل الأخرى ، فلم تكن تقربها ، لهذا لم تكن تتقرب إليها ، ومن هنا لم يكن الطواف بها من مناسك حج تلك القبائل .

١ الأصنام (٦) (روزا) ، (٦) ، (القاهرة ١٩١٤) .

٢ المحبر (٣١١) .

٣ المحبر (٣١١) ، صبح الأعشى (٤٦٢/٤) ، أخبار مكة ، للأردقي (٧٢) ، (طبعة لايبزك) ، (نائلة بنت وهب) ، (أساف بن عمرو ، ونائلة بنت سهل) ، تفسير الطبري (٤٣/٢) ، (١٩٥٤ م) .

٤ ديوان بشر بن أبي خازم ، ملحق الديوان رقم ١١ ، (صفحة ٢٣٣) .

٥ الروض الأثرف (٦٥/١) .

وكانت قریش تحلف عند هذين الصنمين ، ولها يقول (أبو طالب) ، وهو يحلف بها حين تحالفت قریش على بني هاشم :

أحضرت عنداليت رهطي ومعشري وأمسكت من أنوابه بالوصائل
وحيث ينخ الأشعرون ركابهم بمغضي السيول من أساف ونائل

فكانا على ذلك الى أن كسرهما الرسول يوم الفتح فلما كسر من الأصنام^١ .
ويظهر من الشعر المتقدم ، أن أسافاً وثلاثة كانتا في موضعين مكشوفين ، وعندهما كان ينخ الأشعرون . ويؤيد ذلك هذا الشعر المنسوب الى بشر بن أبي خازم الأسدي :

عليه الطير ما يدلون منه مقامات العوارك من أساف^٢

حيث يظهر أن الطير كانت تقف مكتظة عليه ، لا تخاف من أحد ، ولا تفرح من قادم ، لأنها في حرمة صنم .

رضى :

ورضى ، ويكتب رضاء في بعض الأحيان ، هو صنم آخر . وذكر ابن الكلبي أنه كان لبني ربيعة بن كعب بن سعد بن زيد مناة بن تميم ، قهقهة المستوغر ، وهو عمرو بن ربيعة بن كعب بن سعد بن زيد مناة بن تميم . هدمه في الاسلام^٣ . وتعبدت لهذا الصنم قبيلة تميم . وقد ورد اسم (عبد رضى) بين أسماء الجاهليين . ويظهر أن قبيلة طيء كانت قد تعبدت له كذلك^٤ .

و (رضى) من الأصنام المعروفة عند قوم ثمود . وقد ورد اسمه في كتابات

١ تاج العروس (٢٠/٦) ، « أسف » .

٢ ابن الكلبي (٢٩ وما بعدها) ، ديوان بشر بن أبي خازم ، ملحق الديوان ، رقم ١١ ، (ص ٢٢٣) .

٣ الأصنام (٣٠) ، (١٩) ، (روزا) ، الروض الالنف (٦٧/١) ، تاج العروس (١٥١/١٠) ، (رضى) .

٤ الاغانى (١٤٧/٧) ، (١٦/٩) ، (٤٧) .

نمودية عديدة^١ . وكانت عيادته منتشرة بين العرب الشماليين . وورد في نصوص تدمر وبين أسماء بني لادم^٢ ، كما ورد في كتابات الصقويين . وورد على هذا الشكل : (رضو) و (رضى)^٣ ، و (هررضو) (ها-رضو) . ويظن أنه يرمز إلى كوكب .

ويظهر من بيت شعر ينسب إلى المستور في كسره رضى في الاسلام ، هو :

ولقد شددت على رضاء شدة فتركها فلا تتأزع أسما^٤

إن الصنم (رضى) (رضاء) ، هو أنثى ، بدليل استعمال ضمير التأنيث في لفظة (فتركها) . فهو إلهة . ويرى بعض الباحثين ، أنه إلهة أيضاً عند العرب الصقويين .

مناف :

و (مناف) : صنم من أصنام الجاهلية ، قال عنه ابن الكلبي : « وكان لهم مناف ، فيه كانت تسمى قريش (عهد مناف) . ولا أدري أين كان ، ولا من نصبه ؟ »^٥ . وسمي به أيضاً رجال من هذيل^٦ . و « به سمي عهد مناف . وكانت أمه أعطته هذا الصنم »^٧ .

وفيه يقول بلعاء بن قيس :

وقرن وقد تركت القطر منه كمعبر العوارك من مناف^٨

Reste, B. 58, Ency. Religi., I, p. 663, Hubert Grimmer.

Die Lösung des Sinal., B. 43, 44.

Vogue 6, 84, Reste, B. 59.

العرب في سوريا قبل الإسلام (١٣٥ وما بعدها) .

الإصنام (١٩) ، (روزا) ، (٣٠) ، (أحمد زكي) ، الروض الأنف (٦٧/١) ،

(فتركها قفرا بفراع أسحما) ، سبائك الذهب (١٠٤) ، ابن هشام (٦٦/١) ،

(حاشية على الروض) ، تساج العروس (١٥١/١٠) ، ابن كثير ، البداية

(١٩٢/١) .

الإصنام (٣٢) ، (٢٠) ، (روزا) ، تساج العروس (٢٦٣/٦) ، (ناف) .

Reste, B. 57.

تساج العروس (٢٦٣/٦) ، (ناف) ، الإصنام (٣٢٢) ، البلدان (١٦٦/٨) ،

النقائض (١٤١) ، بيفان) ، بلوغ الأرب (٢٠٦/٢) .

تساج العروس (٢٦٣/٦) ، (ناف) .

ويتبين من ورود اسم (مناف) بين عرب الشام أنه كان إلهاً معبوداً عندهم كذلك . وقد عُثر على اسمه في كتابة دُونَهَا شخص اسمه : (أبو معن) على حجر توجه بها إلى الإلهة مناف ، ليمن عليه بالسعد والبركة ، وحفرت على الحجر صورة الإلهة (مناف) على هيئة (رجل لا حية له) يتحدر على عارضيه شعر رأسه الصناعي المرموز به إلى الإلهة الشمس ، وحول جفنيه وحدقتيه خطان قاعمان ، ويزين جبهته قلادة ، كما ترى غالباً في تصاوير الآلهة السوريين ، وعلى صدره طيات ردائه ، ويرى طرف طيلسانه الإلهي الذي ينمط من كتفه الأيسر فيصل إلى الأيمن ويعقد به ^١ . وقد ذهب المتخصصون الذين فحصوا هذه الكتابة إلى أنها من حوران .

وقد عُثر على كتابة وجدت في حوران ، ورد فيها اسم (مناف) مع إله آخر ، ورد اسم مناف فيها على هذا الشكل (MN, PHA) وقد عُثر على كتابة أخرى وجد فيها الاسم على هذه الصورة : (منافيوس) Manaphios ، مما يدل على أن المراد بالإسمين شيء واحد ، هو الإله مناف ^٢ .

ذو الخلصة :

أما ذو الخلصة ، فكان صنم نحشم وبجيلة ودوس وأزد السراة ومن قاريهم من يطون العرب من هوازن ، ومن كان ببلادهم من العرب بقبالة ^٣ ، والحارث بن كعب وسجرم وزبيد والغوث بن مر بن أد وبنو هلال بن عامر، وكانوا سديته ^٤ . وذكر ابن الكلبي أن سديته بنو أمامة من باهلة بن أعصر ^٥ .

١ المشرق - السنة الرابعة والعشرون ، العدد ٣ ، آذار ١٩٣٣ م ، (ص ١٩٨ وما بعدها) .

٢ المشرق - السنة ٢٤ ، آذار ١٩٣٣ ، العدد ٣ ، (ص ١٩٨ وما بعدها) .

Ency. Relig., I, p. 683, Ephem. Epigr., II, 390

No. 22, Mordtmann, in ZDMG., XXIX, 1875, S. 106.

٣ الاصنام (٣٥ ، ٤٧) ، (٢٢) (روزا) ، ابن هشام (٣٠/١) ، الأزرقى (٢٥٦/١) ، الروض الأنف (٦٦/١) ، بلوغ الأرب (٢٠٧/٢) ، اليعقوبي (٢٢٥/١) .

٤ المشعر (٣١٧) .

٥ الاصنام (٢٢) (روزا) .

وصفته انه (كان مروة يفضاء منقوشة ، عليها كهيئة الناج) . وكان يتبالة
بين مكة واليمن على مسيرة سبع ليال من مكة^١ . وله بيت يحج اليه . وجعل
(ابن حبيب) موضع البيت في العلاء على أربع مراحل من مكة^٢ .

وفي رواية لابن اسحاق ان عمرو بن لحي نصب ذا الخلصة بأسفل مكة ، فكانوا
يلبسونه القلائد ، ويهدون اليه الشعر والحنطة ، ويصبون عليه اللبن ، ويلبسون له ،
ويعلقون عليه بيض النعام^٣ .

وهناك روايات جعلت ذا الخلصة (الكعبة البالية) تلطم ، ومنهم من سمى
كعبة الهامة . وأظن ان هاتين الروايتين هما رواية واحدة في الأصل ، صارت
روايتين من تحريف النساخ . ومنهم من جعل ذا الخلصة بيتاً في ديار دوس^٤ .
ويستتج من كسل هذه الروايات ان ذا الخلصة بيت كان يدعى كعبة أيضاً ،
وكان فيه صنم يدعى الخلصة ، لدوس وخثعم وبجيلة وغيرهم^٥ .

ويظهر من حديث : « لا تقوم الساعة حتى تضطرب أليات نساء دوس على
ذي الخلصة ، والمعنى انهم يرتدون ويعودون إلى جاهليتهم في عبادة الأوثان ،
فتسعى نساء بني دوس طائفات حول ذي الخلصة ، فترج أعجازهن »^٦ . ويستتج
من ذلك ان بني دوس وغيرهم كانوا يطوفون حول كعبة ذي الخلصة التي في
جوفها صنم الخلصة .

وكان (بيت ذي الخلصة) من البيوت التي يقصدها الناس للاستقسام عندها

- ١ الاصنام (٢٢) (رولا) (٣٤) (احمد ذكي) . الأزرقى (٧٣/١) .
- ٢ الحبر (٣١٧) بلوغ الأرب (٢٠٧/٢) . سفة جزيرة العرب (١٢٧) .
- ٣ الأزرقى ، أخبار مكة (٧٣/١) (ياب ما جاء في الاصنام التي كانت على الصفا
والقروة) ، تاج العروس (٣٨٩/٤) (خلص) ، البلدان (٤٣٤/٨) .
- ٤ ابن هشام (٢٠/١) ، الألفاني (٧/٩) ، الأكليل (٨٤/٨) ، بلوغ الأرب
(٣٢٩/٢) ، وقد أجعل السيد رشدي الصالح ملخص الروايات الواردة عن ذي
الخلصة في نهاية الأول من تاريخ مكة للأزرقى . وهو يرى أن البجلي لم يهدم
بنيان بيت ذي الخلصة تهديماً تاماً ، وأنه بقي إلى أيام الملك عبد العزيز آل سعود ،
فأزاله ، وأحرقت الشجرة التي كانت بجانب البيت وهي شجرة العلاء . وذهب
أيضاً أن ذلك البيت لم يكن يتبالة ، لما كان في تروق وقد عرف البيت بالولية
كذلك . الأزرقى (٢٥٦/١) وما بعدها) ابن هشام (٦٤/١) (حاشية على الروض
الأنف ، تاج العروس (٣٧٨/٢) ، الروض الأنف (٦٥/١) وما بعدها) .
- ٥ النسان (٢٩/٧) (خلص) (صادر) .
- ٦ النسان (٢٩/٧) (خلص) .

بالأزلام . وكانت له ثلاثة أقدح : الأمر ، والنهي ، والترهيب^١ .

وفي ذي الخلصة قال أحد الرجال :

لو كنت يا ذا الخلصة الموتوراً مثلي ، وكان شيخك المقيوراً

لم تنه عن قتل العداة زوراً

وكان سبب قوله أنه قُتل أبوه ، فأراد الطلب بثأره ، فسأني ذا الخلصة ، فاستقسم عني بالأزلام ، فخرج السهم بنهائه عن ذلك ، فقال تلك الأبيات . ومن الناس من ينحلها امرأ القيس^٢ . وذكر (ابن الكلبي) أيضاً أنه لما أقبل امرؤ القيس بن حجر ، يريد الغارة على بني أسد ، مرّ بذي الخلصة ، فاستقسم عنده ثلاث مرات . فخرج الناهي . فكسر القداح وضرب بها وجه الصنم ، ثم غزا بني أسد ، فظفر بهم^٣ .

وقد هدم البيت في الإسلام ، فلما فتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة ، وأسلمت العرب ووفدت عليه وفودها ، قدم عليه جرير بن عبد الله مسلماً . فقال له : يا جرير : ألا تكفيني ذا الخلصة ؟ فقال : بلى . فوجهه إليه . فخرج حتى أتى بني أميس من بجيلة ، فسار بهم إليه . فقاتلته خشم وباهلة دونه . فقتل من سدنته من باهلة يومئذ مئة رجل ، وأكثر في خشم ، وقتل مشين من بني قحافة بن عامر بن خشم . فظفر بهم وهزمهم ، وهدم بنيان ذي الخلصة ، وأضرم فيه النار فاحترق^٤ . وورد في رواية أن هدمه كان قبل وفاة الرسول بشهرين أو نحوهما^٥ .

ويذكر (ابن الكلبي) أن موضع بيت ذي الخلصة عند عتبة باب مسجد نبال^٦ أما (ابن حبيب) ، فذكر أنه صار بيت قصار في العلاء^٧ . وذكر أن موضعه

- ١ - الاستقام (٢٢ ، ٢٩) (روزا)^{*}
- ٢ - الاستقام (٣٥) (٢٢) (روزا) (الروض الاتف (٦٥/١) ، ابن هشام (٦٥/١) (هامش على الروض الاتف) بلوغ الأرب (٢٠٧/٢)^{*}
- ٣ - الاستقام (٢٩) (روزا)^{*}
- ٤ - الاستقام (٢٣) (روزا) ، الطبري (١٥٨/٣) (دار المعارف)^{*}
- ٥ - الروض الاتف (٦٦/١)^{*}
- ٦ - الاستقام (٢٣) (روزا)^{*}
- ٧ - المحبر (٣١٧)^{*}

مسجد جامع لبلدة يقال لها العبلات من أرض خثعم^١ .
ويظهر من رثاء امرأة من خثعم للذي اتخلصة حين هدمه جرير بن عبدالله ،
وأحرق بيته ، وهو قولها :

وبنو أمانة بالولاية صرعوا ثملاً يعالج كلهم اتبوا^٢

ان (اتخلصة) كان صيلاً أنثى ، أي إلهة ، ولذلك قيل له (الولاية) ،
كما ترى ذلك في البيت المذكور . ويجد في مواضع أخرى من روايات أهل الأخبار
ما يؤيد هذا الرأي ، فقد استعملوا ضمير التأنيث للتعبير عنها^٣ ، كما قالوا فيه
(المروة البيضاء)^٤ . وأما تعبیرهم عنه بضمير التذكير ، مثل قولهم (وكان) ،
فإنهم أرادوا بذلك لفظ (صم) فذكروه .

سعد :

وكان لما لك وملكك ، أبي كنانة ، ساحل جنة وتلك الناحية صم يقال له
سعد . وكان صخرة طويلة^٥ . وذكر (يعقوبي) أنه كان لبني بكر بن كنانة^٦ .
وذهب (ابن اسحاق) إلى أنه في موضع قعر ، وقيل أنه قرب الهامة . وقد
أورد الأخباريون عنه هذه القصة : « أقبل رجل منهم بإسل له ليقيها عليه ،
يتبرك بذلك فيها . فلما أدناها منه نفرت منه ، وكان يهراق عليه الدماء ، فذهبت
في كل وجه وتفرقت عليه ، وأسف فتناول حجراً فرماه به ، وقال : لا يارك
الله فبك إلماً . أنفرت علي إيل » . ثم خرج في طلبها حتى جمعها ، وانصرف عنه ،
وهو يقول :

- ١ الروض الاتف (٦٥/١) .
- ٢ الاصنام (٢٣) (روزا) .
- ٣ الأزرق (٧٣/١) ، تاج العروس (٣٨٩/٤) .
- ٤ قال خدش بن زهير العامري :
وبالمروة البيضاء يوم قبالة ومحبة النعمان حيث كنصرا
- ٥ الاصنام (٢٢) (روزا) .
- ٦ الاصنام (٣٦) وما بعدها (٢٣) (روزا) ابن هشام (٦٤/١) (حاشية على
الروض) تاج العروس (٣٧٨/٢) .
- ٧ يعقوبي (٢٢٥/١) .

أتينا إلى سعد ليجمع شملنا ففشتنا سعد ، فلما نحن من سعد
وهل سعد إلا صخرة بتتوفة من الأرض لا يدعي لغني ولا رشد^١

وذكر (ابن قتيبة) أن سعداً صنم على ساحل البحر بتهامة ، تعبد به عك
ومن يليها ، ويقال كانت تعبد هذيل^٢ .

وقد ورد اسم (سعد) في أسماء الأشخاص المركبة المضافة ، مثل (عبد سعد) ،
وهو مما يدل على أن الناس كانوا يتركبون به بتسمية آبائهم باسمه^٣ .

وقد ورد اسم هذا الصنم في كتابات النبط ، فدعي به (سعدو)^٤ . كما ورد
في كتابات الصغويين ، مما يدل على أنه كان بين الأصنام التي تعبد لها أولئك
القوم . ويظن أنه يرمز إلى كوكب .

ذو الكفين :

وهناك صنم عرف عند الأخباريين بـ (ذي الكفين) وكان للبوس ، ثم لبني
منهب بن دوس . فلما أسلموا ، بعث النبي صلى الله عليه وسلم ، الطليل بن عمرو
الدوسي ، فحرقه وهو يقول :

يا ذا الكفين لست من عبادك مبلدنا أكبر من ميلادك
التي حشوت النار في فؤادك^٥

ويظهر من هذا الرجز أنه أحرقه بالنار . ومعنى هذا أنه لم يكن صنماً من

١ الاصنام (٣٧) ، (٢٢) (روزا) ابن هشام (٦٤ / ١) . حاشية على الروض
الأنف (الروض الأنف (٦٤ / ١) ، تاج العروس (٣٧٨ / ٢) ، اللسان (٢٠٢ / ٣)
(سعد) بلوغ الأرب (٢٠٨ / ٢) ، اللسان (٢١٨ / ٣) (صادر) .

٢ الاشتقاق (٢٥) . تاج العروس (٣٧٨ / ٣) ، (سعد) .
الإنشائي (١٧١ / ١١) . Reste, S. 60.

٣ O. Eliafeldt, 150, Arabien, S. 85. Handbuch, I. S. 234.

٤ Ency. Religi., I. p. 642.

٥ الاصنام (٣٧) ، (٢٢) (روزا) الأزرق (٧٨ / ١) ، ٢٦٩ ، تاريخ الخميس
(١٠٩ / ٢) ، تاج العروس (٢٣٥ / ٦) ، (كف) ، البعقوبي (٢٢٥ / ١) ، (أقدم) .
الروض الأنف (٢٣٥ / ١) .

حجر ، وإنما كان من خشب ، أو أنه أراد بيت الصنم . وذكر أن هذا الصنم كان صنم (عمرو بن حمزة الدوسي) أحد حكام العرب^١ .

ذو الشرى :

وكان لبني الحارث بن يشكر بن مبشر من الأزد ، صنم يقال له ذو الشرى^٢ . وورد في رواية للأخباريين أن (ذا الشرى) صنم لدوس كان بالسراة^٣ . وقد ورد اسم هذا الصنم في الحديث النبوي ، وورد بين أسماء الجاهليين اسم (عبد ذي الشرى)^٤ .

ويرى بعض القويين أن الشرى ما كان حول الحرم ، وهو لإشراء الحرم^٥ ، فإذا كان هذا التعريف صحيحاً ، فإنه يكون في معنى (ذات حمى) عند السبيين^٦ . وكان له حمى ، به ماء يبط من جبل ، حته دوس له^٧ . و (ذو الشرى) إله ورد اسمه في كتابات (بطرا) و (بصرى) ، كما سأحدث عن ذلك فيما بعد .

الأقبصر :

أما الأقبصر ، فكان صنم قضاة وتلم وجذام وعاملة وقطقان ، وكان في مشارف الشام . وقد ذكر اسمه في شعر لزهير بن أبي سلمى ، ولربيع بن ضبع الفزاري ، ولشمرى الأزدية^٨ . وكانوا يحجون إليه ويعلقون رؤوسهم عنده ، ويلقون مع الشعر قرعة من دقيق^٩ . وهي عادة كانت متبعة عند بعض قبائل اليمن كذلك .

- ١ امتاع الاسماع (٣٩٨/١) .
- ٢ الاصنام (٣٨) ، (٢٤) (روزا) بلوغ الادب (٢٠٩/٢) .
- ٣ تاج العروس (١٩٧/١٠) .
- ٤ Ency. Religi. I, p. 663, Hestie, B. 48.
- ٥ وإشراء الحرم : نواحيه ، والواحد شرى) ، اللسان (٤٢٨/١٤) (صادر) .
- ٦ Hestie, B. 51.
- ٧ نهاية العرب (١٤/١٨) وما بعدها .
- ٨ الاصنام (٣٨) وما بعدها ، (٢٤) (روزا) ، تاج العروس (٤٩٧/٣) ، اللسان (٤١٦/٦) ، (٤١٦/٢١) .
- ٩ البطلان (٣٤١/١) وما بعدها (الأقبصر) الاصنام (١٨) .

ويذكر (ابن الكلبي) أن هوازن كانت تفتاب حجاج الأفيصر ، فإن أدركت
الموسم ، قبل أن يفتي الفرة ، أي قبضات من دقيق ، قال أحدهم لمن يفتي :
« أعطني . فإني من هوازن ضارح » ، وإن فاته ، أخذ ذلك الشعر بما فيه من
الفعل والدقيق ، فخبزه وأكله . وقد عبرت هوازن في ذلك ، فقال معاوية بن
عبد العزى بن ذراع الجرهمي ، في (بني جعدة) وكانوا قد اختصموا مع بني
جرهم في ماء لهم إلى النبي يقال له العقيق ، فقتل به رسول الله لجرم ، شعراً منه :

لم تر جرماً أجدت وأهوكم مع الفعل في جفر الأفيصر شارع ؟
إذا فرة جاءت بقول : أصب بها سوى الفعل ؟ إني من هوازن ضارح^١

ويظهر من بيت شعر رواه (ابن الأعرابي) ، هو :
وأنصاب الأفيصر حين أضحت تسيل على مناكبها الدماء

ومن بيت لزهير بن أبي سلمى ، هو :
حلفت بأنصاب الأفيصر جاهداً وما سحقت فيه المقادير والفعل^٢

انه كان عند الصنم الأفيصر أنصاب ينحر الناس عليها ذبائحهم التي يتقربون
بها إلى هلا الإله . وكانت أكثر من نصب واحد ، وقد تلطخت بالدماء من
كثرة ما ذبح عليها .

وأشير إلى (أنواب الأفيصر) في بيت للشعري الأزدي^٣ . ويظهر أن عباده
كانوا يطوفون حوله ، وهم يلبون ويغنون^٤ .

-
- ١ الاصنام (٣٠) (روزا) .
 - ٢ الاصنام (٣٠) (روزا) ، نأج العروس (٤٩٧/٣) ، اللسان (٤١٦/٦) ، الاغانى (١٤١/٢١) .
 - ٣ وان امراء اجار عمرا ورعطه غلي ، وأنواب الافيصر ، يعنف
الاصنام (٢٥) (روزا) .
 - ٤ البلدان (٣٤٠/٦) .

نهم :

وكان لمزينة صنم يقال له : نهم ، كسره سادته خزاعي بن عبد نهم ، وهو من مزينة من بني عداء ، وأعلن إسلامه^١ . ويظهر من أبيات لأمية بن الأسكر ان أتباع الصنم كانوا يقدمون الذبائح له ، ويقسمون به . وقد سمي منهم جملة رجال عرفوا به (عبد نهم) من بني هوازن وبجيلة وغزاة^٢ . وهذا مما يدل على انتشار عبادة هذا الصنم بين هذه القبائل أيضاً .

عالم :

وكان لأزد السراة صنم يقال له عالم . ورد اسمه في شعر لزيد الخير ، المعروف أيضاً بزيد الحبل^٣ .

سعير :

أما سعير ، فهو صنم عترة^٤ . وكان الناس يحجون إليه ويطوفون حوله ، ويعترون العنائر له ، وقد ورد في شعر الجعفر بن خلّاس الكلبي ، وكان راجباً ناقة له ، فرت به ، وقد عتوت عترة عنده ، ففرت ناقة منه ، فأنشأ يقول :

نفرت قلوصي من عتائر صرعت حول الصعير تزوره ابنا يقدم
وجموع يذكر مهطعين جنبه ما ان يحسب اليهم يتكلم^٥

١ (وكان سادته نهم يسمى خزاعي بن عبد نهم ، من مزينة ثم من بني عداء . فلما سمع بالنبي صلى الله عليه وسلم ، ثار إلى الصنم فكسره . وأنشأ يقول : ذهبت إلى نهم لأذبح عنده عترة نسله كالتي كنت الفعل فقلت لنفسى حين راجعت عقلها لهذا اله أبكم ليس يعقل ؟ أبنت فديني اليوم دين محمد اله السماء لتاجد المنفصل الأصنام (٣٩ وما بعدها) (٢٥) (روزا) معجم الشعراء (٢٢٨) . بلوغ الأرب (٢١٠ / ٢) .

Reste, B. 58.

٢ الأصنام (٤٠) ، (٢٥) (روزا) الألفاني (٥٧ / ١٦) . بلوغ الأرب (٢١٠ / ٢) .
٣ الأصنام (٤١) ، (٢٥) (روزا) بلوغ الأرب (٢١٠ / ٢) .
٤ الأصنام (٢٥) (روزا) (٤١) (أحمد زكي باشا) .

وبين أسماء الرجال أناس عرفوا بـ (سعر) ^١ . والسعر النار واللهب ، ولا استبعد وجود صلة بين هذا المعنى وبين هذا الصم . بأن يكون هذا الصم بدلاً للشمس ^٢ .

الفلس :

وكان لطيف صم يقال له الفلس ، وكان أنفاً أحر في وسط جيلهم الذي يقال له أجا ، أسود ، كأنه تمثال إنسان . وكانوا يعبدونه ، ويهدون إليه ، ويعتزون عنده عتائهم ، ولا يأتيه خائف إلا أمن عنده ، ولا يطرد أحد طريدة فليجأ بها إليه إلا تركت له ولم تخفر حويته أي حوزته وحرمة ^٣ . ذكر (ابن حبيب) أنه كان بتجد ، وكان قريباً من ليد وسدنة بنو بولان ^٤ .

وبولان جد بني بولان هو الذي بدأ بعبادته على رواية ابن الكلبي . وكان آخر من سدنة منهم رجل يقال له صيفي « فأطرد ناقة خلية لامرأة من كلب من بني عليم ، كانت جارة لملك بن كلثوم الشمجي ، وكان شريفاً ، فانطلق بها حتى وقفها بفناء الفلس . وخرجت جارة مالك ، فأخبرته بذهابها بناتها ، فركب فرساً عربياً وأخذ رحمه ، وخرج في أثره ، فأدركه وهو عند الفلس ، والناقة موقوفة عند الفلس ، فقال له : خل سبيل ناقة جاري . فقال : أنها لريك . قال : خل سبيلها . قال : أنتظر إليك ؟ فبأ له الرمح ، فحل عقلاً ، وانصرف بها مالك ، وأقبل السادن على الفلس ، ونظر إلى مالك ، ورفع يده وقال ، وهو يشير بيده إليه :

يا رب إن مالك بن كلثوم أغفر لك اليوم بتاب عليكوم
وكتت قبل اليوم لغير مقشوم

1 Rosta, S. 61.

2 نأج العروس (٢٦٨/٣) ، (سعر) .

3 الاصنام (٥٩ وما بعدها) ، (٣٧) (روضة) (٦٥/١) نهاية الأرب

(٧٧/١٨) ، البلدان (٩١١/٣) ، جبهة (٣٨/٣) .

4 المحبر (٣١٦) ، اليعقوبي (٢٢٥/١) .

يعرضه عليه . وعندي بن حاتم يومئذ قد عثر عنده وجلس هو وتفرع معه يتحدثون بما صنع مالك . وفزع لذلك علي بن حاتم وقال ، انظروا ما يصيبني يومه هذا . قضيت له أيام لم يصبه شيء . فرفض علي عبادته وعبادة الأصنام وتصر . فلم يزل متصراً حتى جاء الله بالاسلام ، فأسلم .

فكان مالك أول من أعقره . فكان بعد ذلك السادن إذا أطرده طريفة ، أخذت منه . فلم يزل الفلاس يعبد حتى ظهرت دعوة النبي عليه السلام ، فبعث إليه علي بن أبي طالب ، فهدمه ، وأخذ سيفين كان الخارث بن أبي شمر القسائي ، ملك غسان قلده أباهما ، يقال لما عظم ورسوب ، فقدم بهما علي بن أبي طالب على النبي ، فقتل أحدهما ، ثم دفعه إلى علي بن أبي طالب ، فهو سيفه الذي كان يقتله^١ . وجاء في بعض الروايات ذكر ثلاثة سيوف ، هي : عظم ، ورسوب ، والبالي^٢ .

وقد عرف (مالك بن كاثوم بن ربيعة) الشمجي المذكور ، بـ (محقر الفلاس) ، لأنه أخفر ذمته ، وكان لا تحقر ذمته^٣ .

و (الفلاس) ، هو (هفلس) (ها - فلس) ، عند الحبان . وقد تعبدوا له مع أصنام أخرى ، وردت أسماءها في نصوصهم^٤ .

ويلاحظ أن (ابن الكلبي) الذي يروي هذا الخبر ، كان نفسه قد روى قبل ذلك أن السيفين عظمًا ورسوبًا ، كانا على الصنم مائة ، صنم الأوس والخزرج ، وأن الذي أحدهما له هو الخارث بن أبي شمر القسائي ، وأن علي بن أبي طالب لما هدم مائة ، أخذ السيفين معه ، فجاء بهما إلى الرسول . فيظهر من ذكره للخبر مع صميم أنه وقع في هفوة أو نسي ، فجعل من القصة الواحدة قصتين.

أصنام أخرى :

وكانت لطيف أصنام أخرى ، منها يعبوب ، وهو صنم لجذيلة علي ، وكان

- ١ الأصنام (٣٧ وما بعدها) ، (روزا) ، نهاية الارب (٧٧/١٨) ، تاج العروس (٢٦٠/٤) ، (الفلاس) .
- ٢ Das Gotzenbuch, S. 140.
- ٣ الاشتقاق (٢٣٥/٢) .
- ٤ Jausen — Savignac, Mission, II, 484, Grohmann, S. 984.

لهم صنم أخذته منه بنو أمّ ، فقبلوا اليعسوب بعده . وقد ورد ذكره في شعر لعبيد :

فقبلوا اليعسوب بعد إلههم صنماً ، ففروا ، باجذيل ، وأعلموا
أي : لا تأكلوا على ذلك ، ولا تشربوا ^١ .

وأما باجر ، فكان صنماً للأزد ومن جاورهم من طيء وقضاعة ^٢ .
ولم يذكر ابن الكلبي في كتابه الأصنام اسم الصنم الجلسد . وهو صنم كانت
كنة تعبد له ، وكذلك تعبد له أهل حضرموت . وكان سدنة بنو شكامة من
السكون ، وهم من كننة . وكان للصنم حمى ، ترعاه سوامه وغممه ، فإذا
دخلته هوائي الغم ، حرمت على أربابها ، وصارت ملكاً للصنم ^٣ .

وقد وصف بأنه كان كجثة الرجل العظيم ، من صخرة بيضاء ، لها كالرأس
أسود ، إذا تأمله الناظر رأى فيه كصورة وجه الإنسان . وكانوا يكلمون منه ،
وتخرج منه هممة ، ويقربون القرابين إليه ، ويطبخون بدمه ، ويكثرون ثياب
السدة يلبسوها حينما يقربون قرباناً إليه ويريدون مكالته ^٤ . ويلاحظ أن تغير الملابس
وايداعها للتطهر ، له مثيل عند العبرانيين ^٥ .

المحرق :

وكان للمحرق (محرق) صنماً ليكر بن وائل وبقية ربيعة في موضع سلمان .
ولما سدنته ، فكانوا أولاد الأسود العنبري . وقد نسب إليه بعض الرجال فورد

١ الأصنام (٣٩) (روزا) ، (٦٣) (أحمد زكي باشا) ، الترق ، السنة ١٩٣٨ م .

الجزء الأول (ص ٥) .

٢ الأصنام (٦٣) (٣٩) (روزا) .

٣ البلدان (١٢٢/٣) . قال الثقب العبدى ، وقيل عدي بن وداع :

فبسات يجتنب شقارى كما يقصر من يمشى إلى الجلسد

تاج العروس (٣٢٤/٢) ، (جلسد) .

٤ البلدان (١٢٢/٣) وما بعدها .

٥ التكوين . الأصحاح الخامس والثلاثون ، الآية ٢ .

(عبد محرق)^١ . ويظن بعض المشرقين انه عرف بـ (محرق) لأن عبده كانوا يقدمون اليه بعض القرابين البشرية محروقة^٢ . وكان بنو بكر بن وائل وسائر ربيعة ، قد جعلوا في كل حي من ربيعة له ولداً . (وكان في عترة بلج بن المحرق . فكان في عترة وغفيلة عمرو بن المحرق . وكان سدنة آل الأسود العجلون)^٣ .

الشمس :

والشمس صنم كان لبني تميم ، وله بيت . وكانت تعبد بنو أد كلها : حبة ، وتميم ، وعدي ، وعكلى ، وثور . وأما سدنة ، فكانوا من بني أوس بن غاشن ابن معاوية بن شريف بن جروة بن أسيد بن عمرو بن تميم . فكسره هند بن أبي هالة وصفوان بن أسيد بن الحلال بن أوس بن غاشن^٤ . وقد قيل لها : الإلهة^٥ . وذكر (اليعقوبي) ان قوماً من (عترة) تعبدوا للصنم يقال له : شمس^٦ .

وقد ذكر بعض أهل الأخبار ، ان الشمس صنم قديم . وأول من تسمى به سياً بن بشجب^٧ . وذكر (اليعقوبي) ، انه صنم قوم من عترة^٨ .

وقد وردت جملة أسماء منسوبة إلى الشمس ، عرف أصحابها بعبد شمس ، منهم من قبائل أخرى من غير تميم . ويدل ذلك على ان عبادتها كانت معروفة في مواضع مختلفة من جزيرة العرب . وعرف بعض الأشخاص بـ (عمرو شمس) عند العرب الشماليين^٩ .

- ١ الاصنام (١١١) (تكملة الاصنام) البلدان (٢٩٣/٧) (المحرق) . تاج العروس (٣١٣/٦) . (حرق) .
- ٢ Reste, B. 97, Ency. Religi., I, p. 880.
- ٣ المحبر (٣١٧) .
- ٤ المحبر (٣١٦) . البلدان (٢٩٣/٦) (شمس) .
- ٥ شمس العلوم (ج ١ ق ١ ص ٩٣) .
- ٦ اليعقوبي (٢٢٥/١) .
- ٧ تاج العروس (١٧٢/٤) . (شمس) .
- ٨ اليعقوبي (٢٢٥/١) .
- ٩ Ency. Religi., I, 880.

وفي جملة أصنام نعيم الأخرى ، الصنم تيم ، وبه سمي رجال من نعيم ومن
غيرهم ، مثل (عبد تيم) و (تيم الله)^١ .

وهناك أسماء أصنام أخرى لم ترد في كتاب الأصنام ، إنما وردت في كتب
أخرى . وقد ذكرها (ابن الكلبي) نفسه في بعض مؤلفاته . ومن هذه الأصنام :
الأسحم ، والأشهل ، وأوال ، والبجة ، وبلج ، والجهة ، وجريش ، وجهار ،
والدار ، وذو الرجل ، والشارق ، وصدا ، وصمودا ، والضياف ، والضيون ،
والعيب ، وعوض ، وعوف ، وكثري ، والكسة ، والمسدان ، ومرحب ،
ومهب ، والمبا ، وذات الودع ، وبالب^٢ ، وذريح^٣ ، وباجر ، والجسد ،
وحلال ، والحمام ، وذو القبا ، والسعيدة ، وغنم ، وفراض ، وقزح ، وقيس ،
والمنطبق ، ونبيك^٤ .

أما أوال ، فإنه إيال ، وهو صنم بكر وتغلب^٥ .
وأما جهار ، فقد كان من أصنام هوازن ، وموضعه بمكاظ ، وسدنته آل
عوف النصريون ، ومعهم محارب فيه . وكان في أسفل أقطع^٦ . وكانت تليسة
من نك لجهار : « ليك ، اللهم ليك ، ليك ، اجعل ذنوبنا جبار ، وأهدنا
لأوضح المنار . ومتعنا وملنا بجهار »^٧ .

وأما الدار ، فصنم سمي به عبد الدار بن قصي بن كلاب^٨ .
وأما الدوار ، فصنم كانت العرب تنصبه ، يجعلون موضعاً حوله ، يدورون به ،
واسم ذلك الصنم والموضع الدوار ، ومنه قول امرئ القيس :
فمن لنا سرب كأن تعاجه عذارى دوار في ملام مذبل^٩
وقد ذكر (ابن الكلبي) أن العرب تسمي الطواف حول الأصنام والأوثان

- ١ الاغانى (١٦٨/١٨) ، كتاب المعمرين (٣١) .
- ٢ الاصنام (١٠٧ وما بعدها) (تكملة) .
- ٣ الجبير (٣١٤ ، ٣١٨) .
- ٤ Reate, B. 84.
- ٥ الاصنام (١٠٧) .
- ٦ الجبير (٣١٥) .
- ٧ الجبير (٣١٢) .
- ٨ الاصنام (١٠٨) ، نأج العروس (٢١٦/٣) ، الاشتقاق (٩٧ ، ٩٦) .
- ٩ اللسان (٣٨٤/٥) .

الدَّوَارُ^١ . وعرف بعض أهل الأخبار الدَّوَار بأنه (نك للجاهلية يدورون فيه لصنم أو غيره)^٢ .

ويظهر من دراسة ما ورد في كتب أهل الأخبار وفي كتب اللغة عن (الدَّوَار) أن الدَّوَار لم يكن صنماً ، وإنما هو طواف حول صنم من الأصنام ، أي عبادة من العبادات لا تختص بصنم معين . وقد كان من عادة الجاهليين الطواف حول الأصنام . فظن بعض أهل الأخبار أن الدَّوَار صنم معين ، أو أنه صنم ينصب ، فيدور الناس حوله .

وأما ذو الرجل ، فهو صنم من أصنام أهل الحجاز^٣ . ويظهر أن هذا الصنم ، وكذلك الصنم (ذو الكفين) ، هما من الأصنام التي تغلبت صفاتها على أسمائها ، فغلبت بهلته الثعوت ، كأن تكون لرجل أحد الصنمين ، ولكفي الصنم الأخضر ميزة خاصة وعلامة فارقة مثل كسر أو دقة صنعة ، جعلت الناس يدعون للصنمين بالثعنين البارزين . ويرى (فولدكه) احتمال كون هذين الصنمين حجرين في الأصل من الأحجار المقدسة Petish التي كان يجعلها الناس في القديم ، ثم تحولت إلى صنمين بعد أن رسمت عليها بعض التصاویر مبهرتها على شكل السانين^٤ .

وسمي بالصنم (الشارق) جملة رجال عرفوا بعد الشارق^٥ . ولكلمة الشارق علاقة بالشروق . وقد ذهب (ولغوزن) إلى أن المراد به الشمس لشروقها^٦ . و (الشريق) اسم صنم أيضاً^٧ . وعندي أن الشارق وشريقاً نعتان للألقة ، وليسا اسمين لصنمين ، وإنما في معنى (شرقن) الواردة في نصوص المسند ، وتعني (الشارق) ، أي الفظة المذكورة تماماً . وقد وردت نعتاً في نصوص عربية جنوبية كثيرة ، مثل جملة : (عثر شرقن) ، أي (عثر الشارق) . قال الشارق إذن نعت من نعوت الآلهة ، أو اسم من أسماء الله الحسنى ، بالتعبير

- ١ الاصنام (٢١) (روزا) .
- ٢ تركست الطير عاكفة عليه كما عكف النساء على دوار شرح ديوان لبيد (ص ٤٤) ، المعاني الكبير (١٠٥/١) .
- ٣ الاصنام (١٠٩) .
- ٤ Enzy. Religi. I, 663.
- ٥ الاصنام (١٠٩) ، تاج العروس (٣٩٢/٦) ، القاموس (٢٤٨/٣) .
- ٦ Rosta, II, 65.
- ٧ اللسان (٤٦/١١) .

الإسلامي . وقد يقابل لفظة (نور) الذي هو نعت من نعوت الله في الإسلام ، كما ورد في القرآن الكريم : « الله نور السماوات والأرض »^١ .
وأما صندا وصمودا والعبا ، فلأنها من أصنام قوم عاد على رواية الأخباريين^٢ .
وأما الضيار ، فكان صنماً عبده العباس بن مرداس السلمي^٣ ، وبشو سليم^٤ .
ولما حضرت مرداس الوفاة ، أوصى به إلى ابنه العباس ، وطلب منه العناية به ، لأنه يضر وينفع . فلما ظهر الإسلام ، أحرق العباس ضياراً ، وأنى النبي فاسم^٥ .
والععب ، هو صنم كان لقضاة ومن دانتهم . وقد يقال بالغين المعجمة ، فيخلط بينه وبين الغيبة^٦ . ورأيت أن الكلمتين أصلها كلمة واحدة ، حرقها النساخ فصارت كلمتين .

وأما (عرض) فهو صنم كان من أصنام بكر بل وائل . وقد ذكر مع الصنم صغير في بيت شعر نسب إلى الأعشى ، أو إلى رشيد بن رميض العزى^٧ .
وكان (جد) (الجند) صنماً معروفاً عند عدد من الشعوب السامية ، وليس من المستبعد أن يكون لاسم القبيلة الإسرائيلية (جد) (جاد) علاقة باسم هذا الصنم^٨ . وقد ورد في التبتية (جدا) . وورد في الأسماء العربية (عبد جد)

- ١ سورة النور ، السورة رقم ٢٤ ، الآية ٣٥ .
- ٢ الأصنام (١١٠) ، (وصمود كزبور : اسم صنم كان لعاد يعبدونه . قال يزيد بن سعد ، وكان آمن بهود عليه السلام :
عصمت عاد رسولهم فأمنوا عفاً لا تسهم السماء
لهم صنم يقال له صمود يقابله صده والهباء
وان الله عود هو الهى على الله التوكل والرجاء
وهو مذكور في كتب السير ، تاج العروس (٤٠٢/٢) .
- ٣ الأصنام (١١٠) ، (وضار : صنم عبده العباس بن مرداس ورجله) ، تاج العروس (٣٥٣/٣) ، (ضمير) ، الروض الأثل (٢٨٣/٢) .
- ٤ البكري (٨٨١) (ضيار) .
- ٥ البلدان (٤٤٠/٥) ، ابن هشام (٨٣٢) ، (ضمار) الأغانى (٦٢/١٣) ، (أخبار العباس بن مرداس) .
- ٦ الأصنام (١١٠) ، تاج العروس (٣٦٣/١) ، اللسان (٦٤/٢) ، (عب) .
- ٧ الأصنام (١١٠) (وبه فسر ابن الكلبي قول الأعشى :
حلقت بماترات حول عرضي وأنصبت تركسن لدى السعير
قال : والسعير : اسم صنم كان لعنزة خاصة ، كما في الصحاح . قال الصاقاني : ليس البيت للأعشى ، وإنما هو لرشيد بن رميض العزى) ، تاج العروس (٥/٥) ، اللسان (٥٦/٩) .
Reise, S. 68.
- ٨ Robertson Smith, Marr., p. 43, Kinship, p. 281, Noldke in ZDMG., XXXI, 86, CDB, IV, p. 20, Ency. Religi, I, p. 661.

و (عبد الجدد)^١ .

و (كثرى) من الأصنام المنسوبة الى طسم وجديس ، ظل يالياً معروفاً الى أيام الرسول ، فكسره نهشل بن عرعرة ولحق بالنبي^٢ . وقد ورد بسين أسماء الجاهليين من دعي بـ (عبد كثرى) . ويرى (نولدكه) في عدم ورود أدلة التعريف (ال) مع (كثرى) في (عبد كثرى) ، دلالة على أن هذا الصنم هو من الأصنام القديمة . ويرى أيضاً أن كلمة (كثرى) هي مجرد لقب من ألقاب (العزى) ، نسبي فظن أنه اسم صنم مستقل^٣ .

وأما المدان ، فصنم يظهر أنه كان من أصنام أهل الحجاز . وقد سمي بـه جملة رجال عرقوا بـ (عبد المدان) ، وكان له بيت^٤ .

وأما (مرحب) ، فصنم من أصنام حضرموت ، وبه سمي (ذو مرحب) سادن هذا الصنم^٥ . وكانت تلبية من نسك له : **إليك . إليك ، اتنا لديك . إليك ، حبيبتا إليك**^٦ .

وللأخباريين جملة آراء في معنى ذات الودع ، وهي أنثى . وقد ورد اسمها في الشعر ، وكانت العرب تقسم بها . قبل أنها وثن بعين ، وقبل هي مكة لأنه كان يعلق الودع في ستورها ، وقبل صفينة نوح ، كانت العرب تقسم بها ، فقول بلات الودع ، قال عدي بن زيد العبادي :

كلا يميناً بلات الودع لو حدثت فيكم وقابل قبر الماجد الزارا^٧

Ency. Religi., I, p. 662.

١ الأصنام (١١٠) ، (وكثرى كسرى : صنم كان لجديس وطسم ، كسره نهشل بن الربيع بن عرعرة ولحق بالنبي ، صلى الله تعالى عليه وسلم ، وكتب له كتاباً . قال عمرو بن صحرة بن أشجع :

حلفت بكثري حلقة غير برة لتستبين أنواب فيس بن عازب

تاج العروس (٥١٢/٣) .

٢ الاشتقاق (٢٣٥) . Hestie, B. 87, Ency. Religi., I, p. 660.

٣ الأصنام (١١١) ، تاج العروس (٣٤٢/٩ وما بعدها) ، اللسان (٢٨٩/١٧) .

٤ الاشتقاق (٢٣٧/٢) .

٥ الأصنام (١١١) ، تاج العروس (٢٦٩/١) ، (رحب) ، المحبر (٣١٨) .

٦ المحبر (٣١٤) .

٧ الأصنام (١١١) ، اللسان (٢٦٧/١٠) (ودع) ، تاج العروس (٥٣٥/٥) .

وباليل ، اسم صنم كذلك ، أضيف إليه قبيل (عبد باليل) ، كما قبل
(عبد يغوث) و (عبد مناة) و (عبد ود)^١ .

وأما (ذريح) (ذرح) ، فكان لكتلة بالنجف من اليمن ناحية حضرموت .
يظهر أنها كانت تحج إليه ، وأن له بيتاً يقصد ، بدليل ورود تلبية من نسك
إليه ، وهي : « ليك اللهم ليك ، ليك ، كلنا كنود ، وكلنا لنعمة جود .
فاكفنا كل حية رصود » . ويقال (ولوزن) أنه يمثل الشمس . (وذرح)
اسم من الأسماء ، ويرد في الأعلام العربية الجنوبية المركبة ، مثل (ذرح ايل) .
ودعب (نولدكه) إلى أن (ذرح) هو مثل الشارق و (عرق) صنم يمثل
الشمس . والظاهر أن عبادة هذا الصنم لم تكن منتشرة خارج حدود العربية الجنوبية^٢ .
وأما باجر ، فإنه من أصنام الأزد ومن دلتهم من طيء . وقد سمي به رجال
عرفوا به (عيد باجر)^٣ .

وحلال ، هو صنم فزارة . أما الهمام ، فإنه صنم بنو هند من بني عذرة .
وكان في المشقر صنم لبني عبد القيس يسمى ذا القبا ، سلكته بنو عمرو^٤ .
وكانت تلبية من نسك له : « ليك اللهم ليك ، ليك ، رب فاصرف عنا مضر .
وسلم لنا هذا السفر . ان عما قبهم لمؤجير . واكفنا اللهم أبواب حجر »^٥ .

وكان المنطبق صنماً ، للسلف وعك والأشعرين ، وهو من نحاس ، يكلمون
من جوفه كلاماً لم يسمع بمثله . فلما كسرت الأصنام ، وجدوا فيه سيفاً ، فاصطفاه
الرسول . وسمّاه (مخدماً)^٦ . وذكر (ابن حبيب) أن تلبية من نسك لمنطبق :
« ليك اللهم ليك ، ليك » . ويلاحظ أن الأخباريين ذكروا أن السيف (مخدّم)
(مخدّم) كان سيفاً على الصنم مناة أو (القلس) صنم طيء ، كما ذكروا أن
السيف (وسوب) كان على الصنم (مناة) ، أو القلس كذلك .

وأما الصنم نهيك . فقد كان من الأصنام الموضوعة في مكة . وذكر (الأزرق)
أن عمرو بن لحي نصب هذا الصنم عند الصفا ، واسمه كان يعرف به (مجاود

١ الأصنام (١١١) .
٢ Reste, S. 65, Ency. Relig., I. p. 693.
٣ Reste, S. 64.
٤ Reste, S. 65.
٥ المحبر (٣١٤) .
٦ البلدان (١٧٩/٨) (المنطبق) المحبر (٣١٨) .

(الريح) (مجاور الريح) ، وانه نصب الصنم : مطعم الطير عند المروة^١ ، فكان الناس في موسم الحج يحجون إلى الصنمين .
ولعل هذين الصنمين كانا من الأصنام التي خصصت بالسباء، وإن الناس كانوا يضعون الحبوب عندهما لتأكلها الطيور . ولذلك قيل لتهيك (مجاور الريح) ، ولصنم المروة (مطعم الطير) .
وغنم ، ذكر أنه كان في جملة الأصنام الموضوعة بمكة . وقد ورد اسم رجال ، واسم أسرى^٢ .

وفراض ، صنم كان يأرض سعد العشرة^٣ . وقد حطه رجل منهم اسمه (ذباب) ، وهو من (بني أنس الله بن سعد العشرة) . حطه ، صنم وقد إلى النبي فأسلم ، وقال شعراً في ذلك ، أشار فيه إلى هدمه ذلك الصنم^٤ . وكانوا يدعون له ويلطخونه بالدم^٥ .

أما قرح (قراح) ، فالظاهر أنه صنم ، كان الناس يتصورون أنه يبعث الرعد والعواصف . وقد نسي على ما يظن . ولا بد أن يكون لقوس قرح علاقة ما بهذا الصنم القديم . وقد يكون لاسم قرح ، وهو من مواضع الحرم بمكة ، علاقة باسم هذا الوثن العتيق . وقد تعبد بنو أدوم لصنم اسمه (قرح) Kose مما يدل على أنه هو الصنم العربي الذي تحدث عنه . والظاهر أنه كان من الأصنام القديمة المعروفة ، غير أنه فقد متركة وقلَّت أهميته ، فلم يكن من الأصنام الكبرى عند ظهور الإسلام^٦ . ويخالف (نولدكه) رأي بعض المستشرقين الذين ذهبوا إلى أن المراد بقرح الشيطان ، لا صنم من الأصنام^٧ .

و (قيس) اسم صنم قديم . نسبت عبادته ، وصار اسم أشخاص . ودليل كونه صنم قديم وروده في الأعلام المركبة ، مثل (عيد القيس) ، فإن في هله

- ١ المحبر (٣١٣) - الأزرقى (٧٣/١) .
- ٢ ابن هشام (١٤٥) ، (بنو عثم) ، المحبر (٢٨٨) .
- ٣ في نهاية الأرب (فراض) ، نهاية الأرب (١٨/١٨) .
- ٤ تبعث رسول الله الأجاه بالهدى وشهدت عليه وشهدت فقركه .
- ٥ نهاية الأرب (١٨/١٨) .
- ٦ نهاية الأرب (١٥١/١٨) .
- ٧ Josephus, Antiq., XV, 253.
- ٨ Ency. Religi., I, p. 981.

التسمية دلالة على أن قيساً اسم إله . وليس علاقة به (قوس) Quas ، وهو إله من لكه أدوم^١ .

وقد ورد اسم (قيس) (قس) و (قوس) في الكتابات . وهما اسم إله واحد . عثر على معبد له في مدائن صالح^٢ .

ولما (عوف) ، فقد استدل من التسمية به (عبد عوف) على أنه اسم صنم ، غير أننا لا نعرف من أمر عبادته شيئاً ، فقلعه من الأصنام التي ذهب ذكرها قبل الإسلام بزمان طويل . وقد ذكر أهل الأخبار أنه (صنم) ، ولم يذكروا اسم عبده^٣ .

وذكر (اليعقوبي) أن للأزد صنم ، يقال له (رقام)^٤ .

والسعيدة ، صنم أنثى وعلامة تأنيثه وجود ناء التأنيث بأنصره . وكان لسعد هذيم وسائر قضاة إلا (بني وبرة) ، وعبدته الأزد أيضاً وكان سدنته (بنو عجلان) وموضعه بأحد^٥ ، وورود أن (السعيدة) بيت كان يحججه ربيعة في الجاهلية^٦ .

ورود في جملة أسماء أهل الجاهلية اسم (سعد العشرة) . وقد ذهب أهل الأخبار إلى أن (ملحقاً) كان يعرف بذلك الاسم^٧ . و (العشرة) اسم صنم من الأصنام القديمة ، وله علاقة بعبادة الساميين . فقد كان الكنعانيون يضعون وثناً في محلات العبادة يسمونه (العشرة) ، كما كانوا يتعبدون له لأنه من آلهتهم القديمة . وهو إله ، أي أنثى عند الكنعانيين . ويظهر أن (العشرة) من الآلهة السامية القديمة التي كانت تعبد بصورة خاصة عند الساميين الغربيين ، كما عبر بلقطة (العشرة) عن (المذبح) (المزيح)^٨ . واسم (عبد عشرة) مرتبط بالطبع باسم هذا الإله .

1. Hestie, B. 67.

2. بيت قيسو ، بيت قيسو .

Hestie, 67, Ryckmans 13, Grohmann, B. 85, Jausseu — Savignac,

Mission, II, 501, 520, 523, I, 169, 206, CIB, II, 209, Doughty,

Documents Epigraphiques, 33, CIB, II, 198, J. Euting, Tagebuch, II, 262.

3. تاج العروس (٢٠٦/٦) ، (عوف) .

4. اليعقوبي (٢٢٥/١) .

5. الحبير (٣١٦ وما بعدها) .

6. اللسان (٢١٥/٢) (صادرة) ، تاج العروس (٣٧٨/٢) (سعيد) .

7. الاشتقاق (٢٢٧/٢) .

8. Encyclopaedia Biblica, By Cheyne, Vol. I, 3330.

ومن دلائل عبادة (الأشهل) ، ورود الأشهل في الأعلام المركبة ، مثل (عبد الأشهل) . وقد ذكر (ابن دريد) أن الأشهل صنم^١ .
وأشار (محمد بن حبيب) إلى صنم قال له : (زائدة) ، لم يذكر من كان يتعبد له^٢ .

وذكر علماء اللغة اسم صنم قالوا له : (الضيزن) . وقال بعضهم : « والضيزنان صهان للملح الأكبر ، كان اتخذهما يباب الحيرة ليسجد لهما من دخل الحيرة امتحاناً للطاعة »^٣ .

وأدخل بعض علماء اللغة (الغري) في عداد الأصنام . فقال : « والغري : صنم كان على يدم » . وذكر بعض آخر أن الغري : نصب كان يلبح عليه النسل . وذكروا أن الغريين بناءً على طوليلان ، يقال هما قبر مالك وعقبيل ندعي جذيمة الأبرش ، وصحبا الغريين لأن الثمان بن المنذر كان يغريهما يدم من يقتله في يوم يؤسه^٤ .

ومن الأصنام صنم اسمه (عبر) ، قيل إنه كان لعبد عمرو المعروف بـ (بكر ابن جبلة الكلبي) ، كان قومه يعظمونه^٥ . وصنم اسمه (جريش) ، إليه نسب : (عبد جريش)^٦ .

وذكر بعض أهل الأخبار أن (كعباً) و (كعبياً) المذكورين في قصة (الفليس) التي أقامها (أبرهة) يستعاه ، هما صهان^٧ .

-
- ١ الاشتقاق (٢٦٣) ، تاج العروس (٢٠٢/٧) ، (شهول) .
 - ٢ الاشتقاق (ص ١٣) .
 - ٣ اللسان (٢٥٤/١٣) ، (ضزن) ، تاج العروس (٢٦٤/٩) ، (ضزن) .
 - ٤ اللسان (١٢٢/١٥) ، (غرا) ، تاج العروس (٢٦٤/١٠) ، الجوهرى ، تاج اللغة (٥٢٦/٢) .
 - ٥ الاصابة (١٦٦/١) .
 - ٦ تاج العروس (٢٨٨/٤) ، (جريش) .
 - ٧ البداية ، لابن كثير (١٧٠/٢) وما بعدها .

الفصل السابع

أصنام الكتابات

أقصد به (أصنام الكتابات) الأصنام التي عرفنا خبرها وأمرها من الكتابات الجاهلية ومن الكتابات الآشورية ومن كتب الكتبة (الكلاسيكيين) ، وذلك تمييزاً لها عن الأصنام التي أخذنا علمنا بها من روايات الأخباريين في الغالب . وقد سبق لنا أن وقفنا على أسماء بعض آله الأعراب ، وذلك أثناء حديثنا عن الآشوريين والعرب . وقد ذكرت تلك الأسماء في الكتابات الآشورية لمناسبة سقوط أصنامها أسيرة في أيدي الآشوريين . وكان الأعراب الذين حاربوا الآشوريين قد حملوها معهم ، لمسا بركاً وتيمناً بها ، وتفاوضاً من وجودها معها بالتصبر والغنائم ، وأما لأنها كانت معهم في خيبتها المتخلة معبداً لها فسقطت في أيدي الآشوريين باكتساح الآشوريين لمازل أولئك الأعراب . فأخذوا الآشوريون معهم ، وحملوها إلى عاصمتهم أسيرة كما يؤسر البشر ، وسجنوها عندهم ، إذلالاً لعبادها وإهانة لهم ، وازدواءً بشأن تلك الآلهة المغلوبة لبنة الحفظ التي لم تتمكن من مساعدة عبادها في القتال والتي لم تتمكن حتى من تخليص نفسها من الأسر ، فوقعَت هي نفسها أسيرة ذليلة في أيدي عبدة آله أخرى . وبقيت في أسرها هذا ، حتى وجد الأعراب ألا مناس لهم من استردادها من الآشوريين إلا باسترضائهم وإعلان خضوعهم لهم . فذهبوا إلى نينوى ، وقدموا طاعتهم لملك آشور ، وأمر عندئذ بإعادة أصنامهم إليهم ، وكتب الآشوريون فوقها كتابة تشير إلى سقوطها في أسرهم ، وإلى تغلب آله الآشوريين على آله الأعراب ، وتغلب إله آشور على

تلك الأصنام ، وبعد أن نقش عليها اسم الملك . ثم أعيدت وهي على هذه الصورة إليهم^١ .

ومن هذه الأصنام دلبت (دلبات) Dilbat^٢ ، و (عتر سمين) (عشر السماء) Atarsamain (A-tar-sa-ma-a-in) و (عتر قرمبة) (عتر قرمي) (Atar Kurumiaa) ، و (ديه) (دابا) (Diya) = (Di'a) ، و (نوهيا) (نحيا) (نيا) (نسي) (Nuhala) ، و (ابيريلو) (Ebirillu) . وهي الأصنام التي كتب عليها أن تسجن فأعيدت إلى أصحابها ، ووضعت في أماكنها وسر^٣ أنبأها ولا شك بهذه العودة^٤ .

وقد حرق أسماء هذه الأصنام، حتى صار من الصعب علينا تشخيصها. ولعل اسم الصنم (دلبت) هو تحريف (ذات بعل) ، أي (الشمس) . والشمس إلهة عند العرب ، تعبدت لها قبائل عديدة ، كما تكلمت عنها في موضع آخر ، وقد عرفت به الإلهة عندها . وأما (عتر سمين) ، فهو (عشر السماء) ، و (عتر) من الآلهة المعبودة عند العرب ، وقد ورد اسمه في نصوص المسند . ويرى بعض الباحثين أنه إلهة ، أي أنثى^٥ . ويرمز إلى (الزهرة) في رأي غالب العلماء^٦ . وقد أشير في النصوص القنابية إلى قبيلة عرفت بـ (عتر سمين) ، أي باسم هذا الصنم^٧ ، لعلها من عبدة ، فنسبوا إليه .

وأما (نوهيا) (نحيا) (نسي) (نيا) ، فهو الإلهة (نسي) . وقد ورد في الكتابات السعوية ، اسم صنم بهذا الاسم^٨ . فلعل له صلة بالصنم المذكور .

- ١ جواد علي ، تاريخ العرب قبل الإسلام (٢ / ٢٢٠) ، الفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام (١ / ٥٩١) ، (١ / ٦٠٠) ، Pritchard, p. 291.
- ٢ Reallexi, I, S. 125, Winckler, AOF., I, S. 526, Schell, Le Prisme D'Assaraddon, (1914), p. 18, British Museum Tablets, K3087, Smith, History of Sennacherib, (1878), p. 138.
- ٣ Pritchard, p. 291, D.J. Wisman, The Vassal-Treaties of Esarhaddon, p. 4.
- ٤ Schrader, KAT., S. 434.
- ٥ Handbuch, I, S. 238.
- ٦ جواد علي ، تاريخ العرب قبل الإسلام (٢ / ٢٢٢) .
- ٧ جواد علي ، تاريخ العرب قبل الإسلام (٥ / ١٥١) .

وحدثنا (هيرودوتس) - في أثناء كلامه على حملة (قيز) على مصر - عن لغتين من آلهة العرب ، هما : (باخوس) Bacchus و (اورانيا) (Urania) . وذكر أن العرب تسمي (باخوس) (اوراتل) Oratal ، وتسمي (اورانيا) (أيلات) Allat^١ . و (أيلات) ، هو الصنم (اللات) ، الذي يرمز إلى (الشمس) ، فهو إلهة ، أي أنثى . ويقابل (ائنة) Athene التي ظهرت عبادتها متأخرة بعض التأخر بالنسبة إلى الآلهة الأخرى^٢ . و (اللات) من الأصنام العربية المعروفة التي ذكرت في القرآن ، وفي النصوص النبوية والصفوية ، كما سأحدث عن ذلك في المواضع المناسبة . وأما Oratal ، فهو تحريف على ما يظهر لاسم صنم من الأصنام العربية ، صار من الصعب إرجاعه إلى صنم من الأصنام التي نعرفها الآن^٣ .

وقد حفظت النصوص الجاهلية أسماء عدد لا بأس به من الأصنام ، كان الناس يقضون الليالي سهراً في عبادتها والتودد إليها ، لتضعهم ولتدفع الأذى وكل سوء عنهم ، وكانوا يتقربون إليها بالنذور والقرابين . ثم ذهب الناس وذهبت آلتهم معهم ، وبقيت أسماء بعض منها مكتوبة في هذه النصوص ، وبفضل هذه الكتابات عرفنا أسماءها ، ولولاها لكانت أسماءها في عداد النسيات ، كأسماء الآلهة التي نسبت لعدم ورود أسمائها في النصوص .

وبين هذه الأسماء أسماء يجب اعتبارها من (الأسماء الحسنى) ، أي (أسماء الله الحسنى) في المصطلح الإسلامي لأنها نعوت وصفات للآلهة ، التصفت بها حتى صارت في منزلة الأسماء العلمية . وهي نفيد المؤرخ كثيراً ، إذ أنها تعينه في فهم طبيعة تلك الآلهة ، وفي فهم رأي المؤمنين بها ، في ذلك الوقت .

وفي طليعة أسماء الآلهة المدونة في نصوص المسند ، اسم الإله (ود) . إله معين الكبير ، وإله قبائل عربية أخرى ، منها (ثمود) ، حيث ورد اسمه في كتاباتهم ، و (الحبان) ، حيث ذكر في كتاباتهم أيضاً . كما كان من الأصنام الكبرى في الحجاز عند ظهور الإسلام . وقد ذكر في القرآن الكريم مع أسماء

١ جواد علي ، تاريخ العرب قبل الإسلام (٢ / ٣١٣) و Herodotus, I, p. 213.

٢ Ency. Religi., I, p. 661.

٣ المصدر نفسه .

أصنام أخرى عبدت في عهد نوح^١ . وقد ظن بعض المستشرقين ان هذا الصنم لم يكن معبوداً في الجاهلية القريبة من الاسلام وعند ظهور الاسلام ، وهو رأي غير صحيح ، إذ ورد ذكره في شعر للناطقة ، وكان له معبد في دومة الجندل ، وسدنة وأنباع . ولدينا أسماء جملة رجال جاهليين عرفوا بـ (عبد ود) . وقد ذكر ان قريشاً كانت تتعبد لصنم اسمه ود ، ويقولون له أد^٢ أيضاً^٣ .

ولعت (ود) بالإله (الدمن) (المن) في بعض الكتابات ، جاء في أحد النصوص (ودم المن) ، أي (ود الإله) . و (كهلن) ، أي (الكاهل) بمعنى التقدير والمقتدر^٤ . وهما من صفات هذا الإله التي كان يراها المعنيون فيه . ويرمز (ود) إلى القمر ، عند المعنيين ، وهو الإله الرئيس عندهم . وقد وردت لفظة (شهرن) ، أي (الشهر) بعد كلمة (ود) في بعض الكتابات . فورد : (ودم شهرن) ، أي (ود الشهر) . وتغني لفظة (شهر) القمر في عربية القرآن الكريم^٥ . و (ود) ، هو الإله (القمر) عند بقية العرب الجنوبيين . ومنى ورد اسمه في نص ، قصد به القمر .

وقد نعت (ود) بـ (الأب) ، تعبيراً عن عطفه على المتعبدين له وعن رحمته بهم . فورد في النصوص المعنية : (ودم إم) ، و (إم ودم) أي (ود أب) ، و (أب ود) ، فهو بمثابة الأب للإنسان . والأب من كان سيئاً في الجاهلية أو اصلاحه أو ظهوره . وقد عثر على أخشاب وأحجار حفرت عليها أسماء ود أو جمل (ودم إم) أو (إم ودم) ، وذلك فوق أبواب المباني ، لتكون في حمايته ورعايته ، ولتترك باسمه ولتضمن به ، كما وجدت كلمة (ود) محفورة على أشياء ذات تقوى ، تعلق على عتق الأبطال لتكون تيمنة وتعويدة بتبرك بها^٦ . فعلوا ذلك كما يفعل الناس في الزمن الحاضر في التبرك بأسماء الآلهة والتبرك بها لمنحها الحب والبركة والخيرات .

ويظن ان لفظة (ود) ، ليست اسم علم للقمر ، بل هي صفة من صفاته ، تعبر عن الود والمودة . فهي من الأسماء الحسنى للقمر إذن .

- | | |
|---|--|
| ١ | سورة نوح ، الآية ٢٣ . |
| ٢ | البلدان (٤٠٧/أ) ، (ود) . |
| ٣ | Hommel, Grundriss, I, 8, 136, Glaser 204, Halevy 237, Chrestom., 91, 97. |
| ٤ | Glaser 324, 504, Handbuch, I, 8, 37. |
| ٥ | Halevy 534, 535, 583, 586, 587, 591, 685, Glaser 80, 84. |

وقد ورد اسم (ودّ) في كتابة تمودية دوتها أحد المؤمنين الفانين في حب (ودّ) ، جاء فيها : « أموت على دين ودّ » ، « بلين ودّ أمّ » ، وجاء في كتابة أخرى : « يا إلهي احفظ لي ديني » ، « يا ودّ أبلي » .^١

وورد اسم (ودّ) في النصوص الليمانية^٢ . فتكون عبادة هذا الإله قد انتشرت في العربية الغربية من أعالي الحجاز إل العربية الجنوبية . وذلك منذ ما قبل الميلاد إلى ظهور الإسلام .

وقد اقترن اسم (ودّ) مع (ال) (أبل) في بعض الكتابات العربية الجنوبية . و (أبل) هو الإله السامي القديم . ولعلّ في (ودّ ال) (ودّ أبل) معنى (حب أبل) ، فتكون (ودّ) هنا صفة من صفات الإله . وأما (أبل) ، فإنها قد تعني ما تعنيه كلمة (إله) في عربيتنا ، وقد تعني إلهاً خاصاً في الأصل هو إله الساميين المشترك القديم^٣ .

وقد وردت في نص قناني جملة : (بت ودم) أي (بيت ود) .^٤ ومعناها معبدخصص بعبادة الإله (ودّ) . ولا بد أن تكون هناك جملة معابد خصصت بعبادة هذا الإله .

ويرى بعض المشرقين استناداً إلى معنى كلمة (ودّ) أن هذا الصم يرمز إلى الودّ ، أي الحب وأنه صمو للإلّين (جبل) Gil و (بحر) Pahad عند الساميين . ويستندون في رأيهم هذا إلى بيت للتأبغة هو :

حيالك ودّ وأنّي لا يحل له
هو النساء وإن الدين قد عزما *

١ Herbert Grimme, Die Lösung des Sinainschriften, Die Althameditische Schrift, Münster, 1920, S. 48.

Handbuch, I, S. 414.

Handbuch, I, S. 217, H. Bauer, in ZDMG., Bd. 69, 1915, S. 541.

Hommel, Die Sodarabische Alterthumer, S. 2.

البلدان (٤٠٨) ، (ود) -

قلت أراك أبا رجل وراحة
حيالك ود قانلا لا يحل لنا
مشربين على خوض مزمة
شعراء النصرانية (ص ٧٠٥) -

Reste, S. 17, 31, 42, 53, Ency. Religi. VIII, p. 180.

وهناك من يرى وجود صلة بين (ود) و Eros الصنم اليوناني ، ويرى أنه صنم يوناني في الأصل استورد من هناك ، وعبد عند العرب . وهو رأي يعارضه (نولدكه) لعدم وجود تشابه في الحياة بين الصنمين^١ .

ومن آلهة المعينين الإلهة : (كهان) ، أي (الكهل) و (الكاهن) . وقد ورد اسمه في النصوص التي عثر عليها في الأقسام الشمالية من العربة الغربية كذلك^٢ . وهو يرمز مثل (ود) إلى (القمر) .

وعرف (ود) بـ (نحس طب) (نحسطب) . (ونحس) بمعنى (نحش) ، أي الحية ، و (طب) بمعنى طب ، فيكون المعنى (الحية الطبية) . والحية رمز لود . فيكون المراد من (نحس طب) الإله ود^٣ .

ومن بين أسماء الآلهة التي ورد اسمها في النصوص المعينة، اسم الإله (نكرج) . ويرى بعض الباحثين أنه إله البغض والحرب . وأن (نكرج) في معنى (كره) في عربيتنا . وأنه (نكرو) أو (مكرو) Makru = Nakru عند البابليين . وهو (العلو) فهو على طرفي نقيض مع الإله (ود)^٤ . ويرون أنه يرمز إلى الشمس ، وأنه في منزلة (ذات حم) (ذات الحميم) عند السبئيين^٥ .

وقد وجد من دراسة الكتابات المعينة أن آلهة المعينين ترد مرتبة على هذه الصورة في بعض الأحيان : (عثر) يليه (ود) ثم (نكرج) ، وتذكر بعدها جملة (اللات معن) ، بمعنى (آلهة معين)^٦ .

وهناك آلهة أخرى وردت أسماءها في كتابات المعينين ، لا نعرف من أمرها شيئاً يذكر . منها : (بلو) إله الهلاك والتوازل واللوث ، و (حلفن) (حلفان) ، وهو خاص بالقسم ، و (ورفو) ، وهو حارس الحدود ، و (منضج) (منضجت) (منفحة) ، إله الماء والري والحدود ، و (منقبط) ، إله الحصاد^٧ . غير أن من الجائز في رأسي ألا تكون هذه الأسماء أسماء آلهة ، وإنما

Ency. Religi., I. p. 662.

Handbuch, I, S. 216.

Grohmann, Göttersymbole, S. 71.

Ency. Religi., 10, P. 882, Handbuch, I, S. 20, 40.

Handbuch, I, S. 189, Timukah, S. 94.

Timukah, S. 88, Glaser 1089, 1099, Halevy 208, N. Rhodokanakis,

Stud. Lexi., II, S. 26, Glaser 1144, Halevy 353.

Arabien, S. 246.

هي مجرد مصطلحات يراد بها أمور أخرى .

وتعبد السبثيون للإله (الملقه) ، إلههم الكبير . وبعد في مترلة (ود) عند المعينين ، ويرمز إلى (القمر) . وهو اللقمة عندهم على سائر الآلهة . إليه تقرب (المكربون) والملك بالأدعية والندايا ، وإليه نوسل الشعب في كل ملعة تنزل به . ونجد اسمه مدوناً في كثير من النصوص السبئية . بل تعبد له أهل الحبشة كذلك ، فتجد له معبداً عند (يحا) (يها) . انتقلت عبادته إليهم من السبثيين الذين كان لهم نفوذ سياسي وثقافي على الساحل الأفريقي المقابل لليمن ، ويظهر أثر ذلك في الخط الحبشي حتى اليوم .

وليس العلماء رأي واضح صحيح في معنى (الملقه) ، ويرى (إيwald) Ewald أن الكلمة من أصل (ملق) ، وهي بمعنى (ملح) ، فيكون الاسم - على ذلك - معنى اللعانة^١ ، ويمكن أن تكون كلمة (الملقه) اذن ، بمعنى (الثاقب) و (اللامع) . وقد كان الجاهليون يسمون بالنجوم الثاقبة ، أي النجوم التي يتوقد ضياؤها ويتوهج . ورد في القرآن الكريم : « والسماء والطارق » ، وما أدراك ما الطارق . النجم الثاقب . وقال المفسرون : « النجم الثاقب » يعني يتوقد ضياؤه ويتوهج . وذكروا أن العرب كانت « تسمي النجماً : النجم » . ويقال إن الثاقب : النجم الذي يقال له زحل . والثاقب أيضاً الذي قد ارتفع على النجوم^٢ . وقد ذهب (هومل) إلى أن (الملقه) ، إنما تعني (سبده)^٣ . وذهب بعض الباحثين إلى أن اللفظة من (ال) (ايل) ، اسم الإله (ايل) الشهير ، المعروف عند جميع السابئين . ومن (مقهور) بمعنى قوي . فيكون الاسم (ايل قوي) ، (ال مقهور)^٤ .

وتدل روايات الأنباريين عن (الملقه) على عدم وقوفهم على حقيقة هذه النسبة ، فقد حاروا فيها ، واضطربوا في أمرها ، ولم يظهر أحد من بينهم من عرف حقيقتها . فصبرها بعضهم اسماً من أسماء الملكة (بلقيس) ، وصبرها بعض آخر مصنعة من مصانع الجن التي ينتها على عهد (سليمان) ، وجعلها

١ سورة الطارق ، رقم ٨٦ .
٢ تفسير الطبري (٩٠ / ٣٠) وما بعدها .
٣ Handbuch, I. 8. 48.
٤ Arabien, 8. 244.

(الممداني) الزهرة : لأن اسم الزهرة في لغة حمير : يلمقه والقي . ذكروا أن بناء (يلمقه) ظل قائماً بالقياً إلى أيام غزو الحبشة لليمن ، فهدموه^١ . وإذا صحت رواية الهدم هذه ، فلا يستبعد حيث أن يكون ذلك بسبب كونه معيداً وثنياً خصص بعبادة الأوثان ، والأحباش تصارى سعوا لطمس الوثنية ونشر النصرانية في البلاد . ولعلنا أراد به معبد (المقة) مأرب ، فهدمه الجيش للاستفادة من أحجاره لبناء كنيسهم التي بنوها بهذه المدينة . وقد كان ذلك المعبد قد خصص بعبادة (المقة) إله سبأ الكبير ، فعرف به (المقة) ، و (يلمقه) عند سواد الناس .

وقد حفظت لنا نصوص السند أسماء جملة معابد خصصت بعبادة المقة ، وللتمييز بينها ذكرت أسماء المواضع التي شيدت عليها تلك المعابد . ومن أشهرها معبد (المقة) الكبير بمدينة (مأرب) ، المعروف بمعبد (المقة بعل أوم) (المقة بعل أوم) ، وهو معبد لا تزال آثاره باقية ، زارته وفقيت فيه بعثة (وتدل قبليس) الأمريكية إلى اليمن^٢ . وتعرف بقايا هذا المعبد عند أهل اليمن باسم (حرم بلفيس) و (محرم بلفيس) . فأهل الدهر اسم امرأة محمل اسم إله قديم كبير .

ووردت في بعض النصوص هذه الجملة : (المقة ثور بعل ...) ، ومعناها : (المقة ثور رب)^٣ . أي (المقة الثور هو رب ...) كما وردت جمل مثل : (المقة ثون) ، بمعنى : (المقة المتكلم) . ومثل (المقة ثون بعل أوم) ، أي (المقة المتكلم رب أوم) ، (أوم) . ويظن أن المراد بذلك الكاهن المتكلم باسم الرب (المقة) . فقد كان لبعض المعابد كهنة ، يزعمون أن الآلهة تتكلم فيها ، ويقومون أنفسهم بدور الوساطة والترجمة . فإذا أراد شخص سؤال إلهه عن مشكلة يريد حلها ، أو عن قضية عويصة ، أو عن سرقة وما شاكل ذلك ، يلجأ إلى المعابد المختصة ، التي يزعم أن الآلهة تجيب فيها ، فيضمد إلى الكاهن ينلر ويهدايا مناسبة ، ثم يلقي سؤاله ، فيظهر عندئذ صوت مسموع ، يزعم أنه

١ البكري (١٣٦٨)
D. H. Müller, Burgen, II, S. 972. Nielsen, Der Sabäische Gott Ilmukah, II, 1.
Wendall Phillips, Qataban and Sheba, 1965.
٢
D. Nielsen, Die Altarabäische Mondreligion, S. 107.
٣

صوت الإله الذي لا يرى، يجيب على السؤال أو على الأسئلة، بما يناسب السؤال . وقد كُتِبَ من (الملقه) بـ (ثور) في بعض الكتابات . ومما يؤيد أن المراد (ثور) هذا الإله ، هو صورة رأس الثور في كثير من الكتابات ، وهي ترمز إليه ، كذلك رمز إليه بنسر وبصور الحيات . وهذه الصور من الرموز الثلاثة على الإله القمر عند قدماء الساميين^١ . وقد صور العبرانيون (يهوه) على هيئة عجل^٢ . ويلاحظ أن أكثر الأوثان والصور (صلمن) التي كان الناس يقدمونها إلى معابد (الملقه) وفاء لنذور فلذوها لها ، اشتملت على صور ثيران ، ويلاحظ كذلك أن الثيران ، كانت من أكثر الحيوانات التي كان المتعبدون يقدمونها ذبائح لهذا الإله . وقد استتج (دتلف فلسن) من هاتين الملاحظتين ومن تسمي أشخاص وأسر وعشائر وقبائل باسم (ثور) ، أن الثور رمز يراد به هذا الإله (الملقه)، أي القمر^٣ .

وورد في النصوص السبئية اسم إله هو (هوبس) (هيس) ، ورد منفرداً ، وورد مع الإله (الملقه)^٤ . وقد قصد به الإله القمر . ومعنى (هوبس) عجل رأي (فرسنل) Fresnel اليابس والجاف ، وهو وصف للقمر^٥ . ويعمل ذلك بفعل القمر البارز في أحداث الجزر حيث تنسحب المياه من الساحل مسافة إلى البحر . وقد أشار (الحمداني) إلى أن اسم القمر (هيس) ، والظاهر أن هذه التسمية للقمر ظلت معروفة في اليمن بعد الإسلام^٦ .

ووردت جملة (الملقه ذ قيسم) في بعض النصوص ووردت (هوبس) ، و (الملقه ذ هوبس)^٧ ، بمعنى اليابس . وذكر بعض العلماء أن معنى ذلك (الملقه) الذي يؤثر في المد والجزر^٨ ، وذلك لما لاحظته المتعبدون له من وجود أثر له في أحداث المد والجزر .

Imukah, S. 51.	١
الفلوك الاول ، الإصحاح الثاني عشر ، الآية ٢٨ ، الخروج - الإصحاح ٣٢ ، الآية ٤ -	٢
Imukah, S. 52.	٣
Hommel, Grundriss, I, S. 85. Altertumer, 1899, S. 26.	٤
Handbuch, I, S. 40.	٥
Bergen und Schlosser, II, S. 20-22, Hommel, Sudarabische Altertumer, S. 20.	٦
Rep. Epigr. 4921, 4963.	٧
Arabien, S. 244.	٨

وقد أُشير إليه بـ (هـل) بمعنى هلال ، وبـ (ريج) ، أي الريح الأول من الشهر ، وبـ (حول) ، بمعنى تمام الشهر ، أي القمر كاملاً ، ومن صفاته (سمع) ، أي سميع^١ .

و (عم) هو إله شعب قتيان الرئيس . وقد ورد اسمه مقرونًا مع الإله (أنبي) في نصوص قتيانية عديدة . وهو يقابل الإله ود عند اللعبيين ، والإله (المفه) عند السبيين ، والإله (سن) (سين) عند أهل حضرموت . فهو الإله القمر اذن عند القتيانيين .

وكلمة (عم) من الكلمات السامية القديمة الواسعة الانتشار عند الساميين . وقد ذكرت في نص يقدر أنه كتب حوالي سنة (١٥٠٠) قبل الميلاد ، وهي من كلمات عهد الأمم ، ثم صارت من المصطلحات الدينية مثل (آل) (إبل) El ، و (بعل) Baal ، و (ادون) Adon ، و (ملك) Malku وما شابهها من أسماء الألوهية : كانت نعتاً في الأصل من جملة النعوت التي كان يطلقها الساميون على آلهتهم ، ثم جعلت علماً لإله^٢ .

وترد لفظة (أنبي) في الكتابات القتيانية علماً على إله ذكر هو القمر . وقد وردت بعد اسمه كلمة (شيمن) ، ومعناها (الحامي) والحافظ ، فورد (أنبي شيمن) ، أي (أنبي المحامي) و (أنبي الحافظ) ، والمضارع عن المؤمنين به . فهو اذن في معنى (عم)^٣ . ولا بد أن يكون لهذا التبع صفات بصفات هذا الإله ، أي أنه اسم من أسماء الله الحسنى .

ومن آلهة قتيان التي ذكرت مع (عم) الإله (حوكم) و (الثرت) و (تسور) و (ال فطر) . ويرى (هومل) أن الإله (الثرت) هو إله أنثى . هي في نظره زوج الإله (عم)^٤ . ويظن أن (الثرت) هي الشمس ، ويظن أيضاً أن هذه الكلمة قريبة في المعنى من كلمة (عشيرة) (عشيرات) العبرانية ، و (عشرتو) الآشورية البابلية ، وأنها تعني في القتيانية الشروق أو الشارقة والشرقة الشديدة .

HEP. EPIGR. 3945, 4087, 4228, 4091, 4982, 4993, CIL 282, Arabie B. 244.

Ency. Religi., I, p. 387, Glaser, Mitteilungen, II, B. 21.

Glaser 1902, SE 84, Ilmukah, B. 56, D. Nielsen, Neue Katabanische Inschriften, B. 14.

Sedar. B. 22, Glaser 160.

• شغتم لعم وآثرت •

من (عثر) بمعنى شرق وإشراق ، أضيف الى نهاية الكلمة حرف التأنيث ، لأن الشمس مؤنثة ، كما فعل في عثر إذ عد مؤنثاً عند الساميين الشماليين ، قصار (عثرث) (عشرث) (عشروت) ، أي أنثى . وكما فعل في (كوكب) و (ملك) ، و (ذي الخلقى) ، و (ذي الشرى) ، حيث أضيفت إليها التاء ، فصارت (كوكبت) (كوكبة) ، و (ملكث) (ملكة) ، و (الخلصت) و (شرث) ^١ .

ويحتمل على رأي (هومل) ، أن يكون (حوكم) (حوك) إله السماء ، ويظهر أنه من الآلهة الخاصة بشعب قبان ^٢ . أما (دثلف تلسن) ، فيرى احتمال تكون الكلمة من (حكيم) ^٣ .

وقد عبر عن الإلهة (الشمس) بـ (ذت حم) ، أي (ذات حميم) ، (ذات حم) ، (ذات الحميم) ، أي ذات الحرارة الشديدة والأشعة المتوهجة التي تشبه الحميم من شدة الحر . وهذا المعنى قريب من (ال حمون) El-Hamon و (يعل حمون) Ba'al Hammon في العبرانية ، ويراد بها الشمس ، و (حمث) (حمه) Hamma في العبرانية هي الشمس . وورد في بعض النصوص التدمرية اسم الإلهة (حمن) Hamman ، وورد هذا الاسم في بعض النصوص النبطية التي عثر عليها في حوران . وهذا الإله هو الشمس . وقد كُتبت عنها بالأشعة الحارة المحرقة التي ترسلها خاصة في أيام الصيف ^٤ .

وهناك من فسر (ذت حم) بـ (ذات حمى) (ذات الحمى) ، والحمى الموضع الذي يحمى ، ويخصص بالإله أو المعبود أو الملك أو سيد قبيلة ، والمكان الذي يحيط بالمعبد ، فيكون حرماً آمناً لا يجوز لأحد انتهاك حرمة . وفي جزيرة العرب جملة مواضع يقال لها (حمى) ذكر أسماءها الأخباريون .

Handbuch, I, S. 237, Glaser 1395, 1604, SE 84, Rhodokanakis, Katabanische
Inscripten, II, S. 121, ١
Hommel, Grundriss, I, S. 140, ٢
D. Nielsen, Neue Katabanische Inscripten, S. 15, ٣
Handbuch, I, S. 125, Hommel, Aufsätze und Abhandlungen, II, S. 171, ٤
Ilmukah, S. 53, Oslander, in ZDMG., Bd., 20, S. 282, ٥
Handbuch, I, S. 231, Oslander, in ZDMG., Bd., 20, 1896, S. 232, Hommel, ٦
Aufsätze, II, S. 171, Mordtmann, Himjarische Inscripten, S. 27, ZDMG.,
Bd., 31, S. 88, Saba, Denkmäler, S. 258, Fell, in ZDMG., Bd., 54, S. 250.

وعبر عن الشمس بـ (ذت بعلدن) (ذات بعلدان) كذلك ، أي ذات البعد . وهي كنية قصد بها الشمس حينما تكون بعيدة عن الأرض أي في أيام الشتاء . وقد استدل على ذلك بجملة وردت في نصوص المسند ، هي : (بعلدن وقرين) ، أي (بالعالم البعيد والقريب) ، بمعنى في الماضي والحاضر^١ . وقصد بذلك الشمس في هذا الوقت من السنة حيث تكون أشعتها غير محرقة ولا شديدة مؤذية للناس^٢ . وأنا لا استبعد أن يكون المراد من ذات البعد، الإله التي تشمل برحمتها وبركاتها الأبعاد ، أي المسافات الواسعة والأماكن البعيدة فضلاً عن القرية أو الإله البعيدة عن الناس التي لا يمكن أن يصل إليها أحد .

وكني عن الشمس في النصوص القنانية بكئي أخرى ، منها : (ذت صتم) ، (ذات صتم) ، (ذات صت) ، و (ذت رحبان) ، (ذات رحبان) (ذات الرحاب) ، و (ذات صهون) (ذات الصهر)^٣ ، و (ذت غلرون) أي (ذات الغلر) و (ذات الغلران) ، و (ذت برن) ، (ذات بران) ، (ذات البر) ، و (ذت صهون) ، (ذات صهران) ، و (ذ محرضو ومشرقن) ، أي ذات اللون الذهبي المشرق . و (مشرقن) ، بمعنى الغروب والشروق ، و (تدن) (تدان) (تلون) ، و (تنف) ، وذلك في الكتابات الدينية ، و (ذت حوالم) (ذات حوالم) ، أي شمس الشتاء ، وذلك في النصوص المعينية^٤ .

وقد عرف إله حضرموت الرئيس بـ (سن) (سين) ، وهو القمر . وهو إله شعب حضرموت الخاص . وقد نعت بنعوت ، مثل (ذو علم) ، أي (ذو العلم) ، بمعنى العالم ، وبنعوت أخرى . وورد اسمه في كتابات عمر عليها في (عبا) بالحيثة^٥ .

و (عشر) من الآلهة التي ورد اسمها في نصوص كثيرة من نصوص المسند .

Glaser 418, CIS, 541.

Handbuch, I, S. 226.

W. Feil, Sedarabische Studien, in ZDMG., Bd., 54, S. 236, (1900), Neue Kalabrische Inschriften, S. 15.

Arabien, S. 245.

Rep. Epigr., 3616, Grohmann, S. 245.

ورد في نصوص معينة وسبئية وحضرية وقبانية . ويقال Atargatis للسود
اسمه في كتب (الكلاسيكيين) ، و (عثر) Atar عند السريان ، و (عثر)
(عشتر) . وقد ذكر في نصوص الآشوريين والبابليين والكتنانيين والعبرانيين
والحبش وغيرهم ، مما يدل على انه كان من الآلهة التي كانت عبادتها شائعة في
منطقة واسعة ، وانه كان من الآلهة الكبرى قبل الميلاد^١ .

وقد ورد (ام عثر) ، و (ام عثر) في بعض النصوص . وقصد بالجملة
الأول : (ام عثر) ، وبالجملة الثانية (أب عثر) (عثر أب) . وقد
استج (دلف نلسن) من ذلك ان (عثر) هنا هو بمثابة الإله الرئيس ،
فهو أب وأم للآلهة يليه القمر في الترتيب ثم الشمس^٢ . وذهب في بحث آخر له
عن ديانة العرب الى ان المراد به (ام عثر) الشمس ، باعتبارها أئى إلهة أمأ .
أما ولدعا فهو (عثر)^٣ . وليس بمستبعد ان يكون المراد من (ام عثر) ،
ان (عثر) بمنزلة الأم للمتعبدين لها ، تريد لهم الخير والبركة وتعطف عليهم
وتحبه عطف الأم على ولدعا . وان المراد من (عثر ام) (عثر أب) ،
ان (عثر) هو بمنزلة الأب للمتعبدين له ، يشفق عليهم ويحبهم ، ويمنحهم الخير
والصحة والبركة . وذهب بعض الباحثين الى ان المراد من عبارة (ام عثر) ،
الإلهة الشمس ، لأنها أم (عثر) ، وان المقصود من (ام عثر) (أب عثر)
لإله القمر ، الذي هو زوج الشمس ، ومن زواجها ولد الابن (عثر) .

وقد جاء في نص سيني وجد في مدينة (صرواح) ان صاحبة النص قدمت الى
الإلهة (ام عثر) (ام عثر) أربعة تماثيل من ذهب ، لأنها وهبت لها أربعة أطفال ،
هم ولد واحد وثلاث بنات ، كلهم أحياء يرزقون . ولأنها سرت قلبها بهسلة
القرية . وهي لذلك قدمت هذه التماثيل ، ولترجو منها ان تستمر في الإنعام
عليها وعلى ابنها وبناتها بالصحة والعافية^٤ . وقد قصد به (ام عثر) هنا

Winckler, Altorient. Forschungen, I, S. 538, Hilprecht, Baby. Exped. IX,
51, 74, Ency. Religi., Vol., II, p. 145.

D. Nielsen, Mondreligion, S. 42.

Handbuch, I, S. 228.

Handbuch, I, S. 228, Derenbourg, Etudes Sur L'Epigraphie du Jemen, Paris,
1884, NO : II.

الإلهة الشمس . ويتبين من هذا النص أن السبئين كانوا ينظرون إلى (أم عثر) ،
نظرة البابليين إلى (عشتار) على أنها إلهة الخصب^١ .

وقد عثر في النصوص البابلية ، على اسم إلهة هي (ربة العثر) (ربت عثر) ،
أي الشمس^٢ .

وورد اسم (عثر) في عدد كبير من نصوص المسند على هذا النحو :
(عثر شرقن) ، و (عثر ذ قبضم) ، و (عثر ذ بهرق) . و (عثر
ذ بهر) ، وهكذا . وتعني جملة (عثر شرقن) ، عثر الشرق . وقد ذكر
أهل الأخبار أن (الشرق) صم كان في الجاهلية وبه سموا عيد الشرق . مثل
(عيد الشرق بن عبد العزى) الجهني شاعر من شعراء الجاهلية^٣ . فلفظة (شرقن)
إذن ، نعت لـ (عثر) ، معناه (الشرق) .

ويرى بعض الباحثين أن (عثر شرقن) ، هو الإله الحارس للمعابد والمقابر
إليه يصل ويدعى أن تصلى لهبات إلى المعابد^٤ . وإليه توسل المتوسلون لحفظ قبورهم
من حيث العائنين بها المتعبرين لأحبارها الطامعين في كنوزها ، ولهذا نعت
به (عثر يغل) ، أي (عثر المتغم)^٥ .

وأما جملة (عثر ذ قبضم) ، فتعني (قبضم) معني (القابض) أو
(الجالس) ، أو اسم موضع يقال له (قبض) . فيكون المعنى : (عثر
رب موضع قبض)^٦ . وأما (بهرق) و (بهرق) (بهرق) ، فهو اسم مدينة
من مدن معين . كان بها معبد لعبادة (عثر)^٧ .

وورد أيضاً (عثر قربن) ، أي (عثر الغارب) ، كناية عن غروبه ،
أو عن طلوعه عند الغروب ، فهو إذن نجم الشروق ونجم الغروب ، أو النجم
الشارق والنجم الغارب . كما ورد (عثر نورو) (عثر نورن) ، أي (عثر

١ D. Nielsen, Altarabische Mondreligion, S. 41.
٢ Littmann, NO : 24, Lidbarski, Ephem., Bd., 1, S. 292, Handbuch, I, S. 227.
٣ تاج العروس (٢٩٢/٦) ، (شرق) .
٤ Ency. Religi., 10, p. 883.
٥ Arabien, S. 245.
٦ Rhodokanakis, Stud. Lexi., II, S. 27, Ency. Religi., 10, p. 882, Glaser 1089,
1089, Halevy 208.
٧ Handbuch, I, S. 228, Hommel, Grundriss, I, S. 85, W. Fell, in EDMO., Bd.,
54, S. 221-229.

نور) و (عشتار المنير) ، تعبيراً عن لمعانه وعن النور القاهر عليه . وجاء (عشتار سحر) ، أي (عشتار السحر) ، بمعنى عشتار الذي يظهر عند السحر ، وعبر عنه بـ (متب نطين) ، أي الحامل للرطوبة ، تعبيراً عن الرطوبة التي تكون عند ظهوره ، فسيوها إليه^١ .

وقد تكرر ذكر اسم (عشتار) في بعض النصوص ، على سبيل التوكيد والتشديد في القسم وفي الدعاء ، كما تفعل نحن أحياناً من إعادة اسم الله في الإيمان المغلظة وفي التوسلات عند ساعات المحنة والشدة . ورد : (بعشتار شرقن ، وبعشتار ذقبضن ، وود ونكرحم ، وبعشتار ذو يهرق ، وبكل الال ات معن)^٢ . أي : (بعشتار الشارق وبعشتار ذو قبضن وبود^٣ ، ونكرح ، وبعشتار ذو يهرق ، وبكل^٤ آله معن) ، أو (وبعشتار عشتار الشارق ، وبعشتار عشتار القابض أو رب موضع قبض ، وبعشتار ود^٥ ، ونكرح وعشتار رب يهرق ، وبعشتار كل آله معن) .

ولدينا جملة أسماء مركبة ورد فيها اسم (عشتار) ، مثل (اوس عشتار) (او سعت) و (هوف عشت) (هو فعشت) ، و (لحي عشت) (لحيعث) . و (عشت) هنا هو اختصار (عشتار)^٦ .

ومن آلهة العرب الجنوبيين الإلهة (قين) (قينان) ، وهو إله قبيلة (سقيم) ، النازلة بـ (شام) ، (شام سقيم)^٧ .

ومن بين أسماء آلهة العرب الجنوبيين اسم الإلهة : (ال) (ابل) ، ذكر اسمه مستقلاً كما ورد مقروناً باسم الإلهة (عشتار) كما في الكتابتين الموسومتين بـ 144 Halevy ، وبـ 150 Halevy ، وقد قدم ذكره فيها على اسم الإلهة (عشتار)^٨ . وقد ورد بكثرة في الأعلام المركبة .

ومن بين أسماء الآلهة التي ورد اسمها في النصوص العربية الجنوبية ، اسم الإلهة (تل ب ريم) (نال ب ريام) . وهو إله خاص بقبيلة (همدان) . كما أن (الله) هو إله (سبأ) و (سين) (سن) إله حضرموت ، و (عم) إله قنابان ،

Arabien, S. 245.

الفقرة الخامسة من النص : Glaser 1150, Halevy 192.

Handbuch, I, S. 228.

Arabien, S. 245.

Handbuch, I, S. 218, Halevy, in Journal Asiatique, 1873, Tome 19, p. 152.

و (ود) إله معين . وقد ظهر بظهور نجم (بنى شمع) واشتهر بهم . وكان ظهوره حوالى الميلاد بصورة خاصة . ففي ذلك العهد اشتد أمر أفيال همدان ، فاستأثروا بالحكم ، ودعوا أنفسهم ملوكاً ، ورفعوا إله قبيلتهم فوق الآلهة الأخرى ، فتحروا له الذبائح ، وقدّموا له التذور ، وتنافسوا في بناء معبده . ودام عزيزاً مكرماً ما دام تقوّد ملوك همدان^١ .

وقد كانت لهذا الإله مثل سائر الآلهة الأخرى جملة معابد ، غير أن معبده الأكبر هو المعبد المعروف بمعبد (ثلب ريم بعل ترعت) أي : (تسألب ريم رب ترعت)^٢ . ويظهر أن كلمة (ترعت) هي اسم موضع ، أقيم المعبد عليه . وهو معبد كانت تقدم إليه أفيال (سمعى) وقبائل همدان الأخرى التذور والقرابين والهدايا ، وتخبس له الأرضين .

ومن الآلهة التي ورد اسمها في الكتابات العربية الجنوبية ، الإله (حول) (حويل) ، والإله (جلد) (الجلد) . وتدل لفظة (حول) على الحول والقوة . فلعل معنى اسم هذا الإله هو (الحويل) ، أي صاحب الحول والقوة . بمعنى القوي . وهو من كلمة حضرموت^٣ .

وورد اسم الإله (حلفن) في جملة أسماء الآلهة المذكورة في الكتابات العربية الجنوبية . وقد ورد في جملة نصوص تتعلق بحبس أموال ويعقد عقود . ويلاحظ أن أصحابها استعانوا بهذا الإله لانزال الثقة والعذاب وأشد الجزاء بكل من يحاول أن يغير أو يبدل تلك العقود والنصوص ، أو يتجرأ فيسولي على الأموال والحبوس المقررة ، كما رجوا منه أن يشملهم هم وجباعتهم برحمته ويلطفه بكرمه لأخلاصهم له ولقناتهم في حبه^٤ .

ومن بين الآلهة إله عرف به (ذسموي) ، أي (رب السماء) ، وهو إله ظهر اسمه قبل الميلاد بقليل^٥ . وقد بقي اسمه متألقاً في سماء اليمن ، يقدم اليه الناس التذور والقرابين إلى ما بعد الميلاد . ويرى بعض الباحثين ، أن عبادته تدل

Ilmukah, S. 68.

Hommel, Grundriss, I, S. 143.

Handbuch, I, S. 188, Ilmukah, S. 55, Hommel, Sudarabische, S. 22.

Halevy, 147, 148, Rhodokanaka, Stud., I, S. 57, 59.

Handbuch, I, S. 88.

على ظهور عقيدة التوحيد عند العرب الجنوبيين ، إذ تدعو الى عبادة إله واحد ، هو (رب السماء)^١ .

ولدينا كتابة مخرومة أسطراً ، لكنها لا تزال مع ذلك مفهومة ، تفيد ان جماعة من الأشرار المارقين تطاولوا على حرم (الوثن ذسموي) أي (الوثن رب السماء) ، فسرقوه ، ونهبوا ما كان فيه ، واستولوا على ما كان حيس له . ولكن عهده عادوا ، فجمعوا ما سرق ، وأصلحوا ما أفسد ، ونفروا الى الإله (رب السماء) بطلب التوبة والغفران ، وعثموا نصهم بهذه الجملة : (و ذسموي ليزامن شعبه) ، أي (وليتبع رب السماء شعبه)^٢ . ويقصد النص بشعبه أتباع هذا الإله وعهده .

وإل هذا الإله ، الإله : (ذسمي) (ذسموي) ، إله السماء تعبدت قبيلة (امر) (أمر) . ويعد (بل سمين) (بل سمين) (بل السماوات) إلهاً للمركبة والنصب ، إذ يرسل المطر فينشر الخير للناس^٣ .

ونقرأ في النصوص العربية الجنوبية اسم إله جديد ، هو الإله (الرحمن) ، أي (الرحمن) . وهو إله يرجع بعض المستشرقين أصله الى دخول اليهودية الى اليمن وانتشارها هناك . وهذا الإله هو الإله (رحمنه) Rahman-n (رحمن) في نصوص تدمر^٤ .

وورد في نص : (رحمن بل سمين) (رحمن بل سمين) ، أي (الرحمن رب السماء) ، أي انه إله السماء . فصار في منزلة الإله (ذسموي) . ثم لقب بـ (رحمن بل سمين وارضن) ، أي (الرحمن رب السماء والأرض) في نصوص أخرى^٥ . فصار إله السماوات والأرضين .

وقد نشر نص بالمسند ، وردت فيه جملة : (الرحمن الذي في السماء واسرائيل رب يهود)^٦ . وهو نص ، إن صح نقله عن الأصل بدقة وعناية ، وإن صح

Handbuch, I, S. 104, Rivista, 1955, Fasc. I, II, p. 109, Le Muséon, 1954, Tome, LXVII, p. 118.

REP. EPIOR. 858, Rhodokanakis, Stud., S. 102, Mordtmann, Beiträge, S. 188.

REP. EPIOR. 4142, Arabien, S. 245.

Handbuch, I, S. 104, 263.

Le Muséon, 1954, Tome, LXVII, p. 103.

Margoliouth, Relations, p. 68.

انه نص صحيح غير مزيف ، يشير الى تأثر صاحبه باليهودية وبعبارة الرحمن . وقد استشهد به من قرأه على تهود صاحبه .

ويرد اسم الإله (بعل سمن) (بعل السماء) (بعل السماوات) في الكتابات الصفوية ، وفي كتابات تلعر ، حيث ورد (بعل شمن) (بعل شمين) ، وفي كتابات بعلبك ، وفي كتابات النحيانيين . وقد ظهرت عبادته قبل الميلاد . ويظهر لذلك انه من الآلهة المعروفة عند الساميين وعند العرب الشماليين قبل الميلاد ، ومن الجائز ان يكون قد انتقل الى العرب الجنوبيين من العرب الشماليين .

ووردت في الكتابة الموسومة بـ SE 48 أسماء آلهة هي : (م ح ر ض و) (محرضو) ، و (م ش ر ق ي ت ن) (مشرقيتن) و (نسور) و (ال فخر)^١ . وقد ذهب (رودوكناكس) الى ان المراد من محرضو ومشرقيتن الشمس . وذهب آخرون الى ان المراد بها القمر والزهرة . وذهب فريق آخر الى ان المراد بذلك غروب الشمس وشروقها^٢ . أما (نور) ، فاسم إله ، لعل له صلة بـ (نسر) . وقد وردت في نص سبتي هسله الجملة : (بت نسور وبت ال) (بيت نسور وبيت ال) ، ويقصد بـ (بت) (بيت) معبد لعبادة هذين الإلهين : (نسور) و (ال) . و (ال) هو (ايل) (ابلو) إله الساميين القدم^٣ .

وورد في أحد النصوص السبئية هذا التعبير : (اهل نسور) مؤدياً معنى (قوم نسور) و (ملة نسور) ، وبراد بهم جماعة هذا الإله التي كانت تتعبد له . وعرف أحد أشهر السبئية المتأخرة بـ (ذنسور) ، ولعله أريد بذلك نية الشهر المذكور الى هذا الإله^٤ .

و (نسور) هو (نسر) على رأي بعض الباحثين . ويرمز الى (القمر)^٥ . وقد حصل المتقبون على أحجار حفرت عليها صورة النسر ، فعلوا ذلك على سبيل التبعن والتبرك بهذا الإله .

١ Arabien, S. 38, Ryckmans 28.

٢ الجملة الخامسة والسادسة من النص : Rhodokanakia, Katabanische, II, S. 28.

٣ Katabanische, II, S. 38, Hommel, Grandriss, S. 629, 719, Sab. Denkm.,

S. 80, Sadarabische, S. 22.

Glaser 418, 419.

٤ Glaser 418, 419, 1549, Katabanische, II, S. 36.

٥ D. Nielsen, Neue Katabanische Inschriften, S. 14.

وورد اسم إله دعي بـ (نسر) ، يظن أنه إله (ذ قلع) ، (ذو قلاع) ،
اسم موضع أو قبيلة . ويرى الباحثون أنه الإله (نسر) الذي تحدث عنه^١ .
و (نسر) هو اسم صنم من الأصنام التي عرفها أهل الأخيار . فقد زعموا
أنه أحد أصنام نوح الحمسة ، وأن (عمرو بن لحي) جاء به إلى حبر ، فأشاع
عبادته بينهم^٢ .

ولما اسم الإله (ال فخر) ، فيظهر أنه مؤلف من كلمتين ، هما : (ال)
اسم الإله (إبل) المعروف عند الساميين ، و (فخر) ، وهي نعت من
نعت الآلهة . كما في كلمة (ال نعل) في التصوص القنابية ، وهي بمعنى
(الله تعالى) في لغتنا . و (فخر) العربية ، هي مثل (بخرو) في الآشورية ،
ومنها العلم المركب : (نبخر بلو)^٣ .

وورد اسم الإله : (يعوق) أي الصنم يعوق المعروف ، في نص متأخر ،
يعود عهده إلى ما بعد الميلاد ، وورد معه اسم : (رحمن بعل سمن) ، أي
(الرحمن رب السماء) . وقد أرخ النص بشهر (ذ دون) (ذ داون) (ذي
دوان) لسنة (٥٧٤) من التاريخ الحميري . المقابلة لسنة (٤٥٩) للميلاد^٤ .

وهناك أسماء لكفة لا تعرف من أمرها في الوقت الحاضر شيئاً كثيراً ، من بينها
الإله (بلو) ، وقد عبر عنه بأنه إله البلاء والموت والفتن . وإله يقال له
(حلفن) (حلفان) ، ويقال إنه إله القسم والحلف واليمين ، والإله (ورفو) ،
وهو إله الحدود ، أي الإله المختص بالحفاظ على الحدود ، و (منضح)
(منضحت) ، وهو إله الماء والري ، و (منببط) ، وهو إله الحصاد عند
المعنيين ثم الإله (يهرهم) ، وهو إله المطر^٥ .

ولا يك من الإشارة إلى اسم إله ورد في كتابات عمر عليها في (شيام سخيم)

١ راجع النص : Rep. Epigr., 4725, Arabien, B. 246.
٢ Reste, B. 23, Ryckmans 16, Winkler, Arabisch-Semitisches Orientalisch,
B. 118, Arabien, B. 85,
Katabanische, II, B. 31.
٣ Ryckmans, in Le Muséon, 1954, Tome, LXVII, pp. 100, A. Fakhry, An
Archaeology. Journey to Yemen, III, p. 195, Pl. : XXXLX, XXX.
٤ Arabien, B. 246.

وهو الإله (قين) (قيتان) . وهو إله (بني سقيم)^١ .

لقد تجمع لدى علماء العربية الجنوبية من أسماء آلهة العرب الجنوبيين ما ينيف على مئة اسم إله ، غير أن أكثر هذه الأسماء ليست في الواقع أعلاماً ، وإنما هي صفات ونعوت للآلهة ذكرت بدلاً من ذكر اسم الإله الخالص . أو كتابة تشير إلى أسماء المواضع التي كانت فيها معابد تلك الآلهة ؛ فقد كان لبعض المدن معابد خصصت لعبادة إله ، ربما كان إله المدينة أو جملة آلهة لها بالطبع صلة بالمدينة وبالشعب الذي تنتمي المدينة إليه . غير أن هذه الآلهة جميعها يمكن رجعها إلى ثلاثة ، هي القمر والشمس والزهرة . أي إلى ثلاث يرمز إلى هذه الكواكب الثلاثة^٢ .

وهناك أسماء مثل (بنعم) في السبئية ، و (ككون) في المعبشة ، و (لون بدع)^٣ ، و (سميهت) ، و (ذابت) ، و (تقين) ، و (نوشم) و (هروم) ، يظن أن لها صلة بالآلهة .

وكما حفظت نصوص المستد أسماء بعض آلهة العرب الجنوبيين ، حفظت النصوص النعودية والمعبشة والصفوية والنبطية كذلك أسماء بعض آلهة تلك الشعوب . وهي كما يظهر من دراستها وتحليلها خليط من آلهة ترد أسماؤها في روايات الأخباريين ، ومن آلهة ترد أسماؤها في النصوص العربية الجنوبية ، كما أن بينها أسماء آلهة لم ترد إلا في أخبار الأخباريين ولا في نصوص المستد . ولاتصال مواطن هذه الشعوب بمواطن الساميين الغربيين وبمواطن الساميين الشرقيين ومناخاتها لعرب العراق وسجن والقبائل العربية في الحجاز ولصلاتها التاريخية القديمة بالعرب الجنوبيين ، كان للدراسة الناحية الدينية عند هذه الأقوام أهمية كبيرة في معرفة التطورات الدينية قبل الإسلام ، وهذا الخليط الذي أشرت إليه هو في حد ذاته دراسة قيمة تشير إلى التفاهات الدينية واتصالها بهذه البقاع .

وحفظت النصوص النعودية أسماء جملة آلهة ، تعبدوا لها وتقربوا إليها بالفرايين والنلور . منها الإله : (ود) و (جد هدد) و (شمس) و (عزير)

Arabien, B. 245 ١

Ency. Beitani, Vol. 10, p. 466. ٢

Arabien, B. 246. ٣

و (نعرجد) و (عى شجا) و (رصو) و (منت) و (كهل) و (سى)
و (ايل) (ال) و (لث) (اللات) و (عرسم) (عرسمن)
و (صل) و (متف) (مناف) .

و (جد) هو إله عرف عند بني إدم وعند العرب الشماليين وفي المقاطعات
السورية ، وهو إله (السعد) في اليونانية ، يسعد الأشخاص واليوت . وقد
سمي به موضع (بعل جد) وموضع (مجد جد) ، وأسماء مواضع أخرى فيها
كلمة (جد)^١ .

وقد وجدت جملة (الإله أزيروس القى الطيب) مدونة على جدران أحد
المعابد باللغة اللاتينية، ووجدت جملة أخرى فيها : (الإله الطيب القى فوسفورس)^٢ ،
وفي وصف الإلهين يد (القى) وب (الطيب) دلالة على أن المتعبدين لهما كانا
يتصوران أنهما كانا فتيين طيبين خبيرين يمثلان الطيب والقوة . ونجد في نص
تدمري وصفاً للإلهين : (ارسو) و (أزيرو) ، أي (رصو) و (عزيز) ،
يشبه الوصف المتقدم ، إذ ورد : (لارصو ولازيرو : الإلهان الخيران المجزيان) ،
و (أزيرو : الإله الطيب والرحيم) . فوصف الإلهان بأنهما خيران ، ومجزيان
الناس خيراً . وهي نعوت تمثل وجهة نظر القوم إلى هذين الإلهين .

وقد عثر في (تدمر) على نص ورد فيه : « لا رصو ولا زيرو . الإلهان
الخيران المجزيان . قد عملهم بعكي (بعلي ؟) بن ير حبيولا . أفكل أزيرو الإله
الطيب والرحيم . لسلامته ولسلامته إخوته . في شهر أكتوبر من سنة ٢٥ . فليذكر
الناس برحى النحات »^٣ . فنحن أمام إلهين : (ارسو) و (أزيرو) ، من آلهة
تدمر .

وورد اسم الإله (أزيروس) والإله (مونيموس) في كتابات عثر عليها
في (الرها) وفي حوران وتدمر . وقد ظهر الإلهان في نقش ، حفر عليه موكب
عربة الشمس . نقش (أزيروس) ، وهو يتقدم العربة ، و (مونيموس) ،
وهو يتبعها^٤ .

Hastings, p. 274.

- | | |
|---|--|
| ١ | دینه دیسو : العرب في سوريا قبل الاسلام (١٤٠) . |
| ٢ | دینه دیسو (١٣٥) وما بعدها . |
| ٣ | دینه دیسو (١٣٤) وما بعدها . |

و (ارضو) (ارضو) ، هو الإله (رضو) على ما يظن . وأما (اريزوس) (اريزو) ، فهو اسم إله لعلته (عزيز) ، تحرف فصار على النحو المذكور في الكتابات اللاتينية : والإرمية . وأما (موليوس) ، فهم (منعم) . ولرى أن عزيزاً ورضياً ومنعماً هي من الأسماء الحسنى ، أي تعوت من نعوت الآلهة لا أسماء عظم . وذلك على نحو ما تسمي اليوم بـ : (عبد الرضا) ، وبـ (عبد العزيز) ، وبـ (عبد المنعم) .

و (هدد) هو اسم إله تعبدت له شعوب عديدة من شعوب الساميين ، منهم بنو إرم والعرب الجنوبيون والشاليون ، كما تعبد له الآشوريون . وقد اقترن اسمه عند الآشوريين والبابليين بـ (رمان) ، ودخلت عبادته إليهم من بني إرم الغربيين . ويمثل (هدد) مثل (رمان) (رمون) Rimmon = Rammon = Ramman إله المطر والرعد والعواصف ، ويظهر أنه من أصل عربي هو (هد) . ومن اسم هذا الصنم الاسم (بنهد) (بن هدد) (يتحد) المذكور في التوراة^١ . ولا بد أن تكون لهذا الإله صلة بالإله (جد) ، ومن هذا الاقتران ظهر (جد هدد) في كتابات قوم ثمود .

و (رضو) هو الصنم (رضى) عند الأخباريين ، وهو صنم بقي حياً تعبد له القبائل العربية حتى الإسلام ، فكسر^٢ . ويرى (دتلف نيلسن) ، أنه يمثل الزهرة عند قوم ثمود والصفويين ، وأنه في منزلة (عثر) عند العرب الجنوبيين^٣ . وقد تعبدت له (بنو ربيعة بن كعب) ، كما تعبد له أهل ندمر والنبط وأهل الصفاة ، وعرف بـ (ه - رضو) (هارضو) ، أي بادخال (هـ) (ها) أداة التعريف على الاسم . وقد انتشرت عبادته بين قبائل نجد والحجاز^٤ .

ويرى (رينه ديسو) أن (رضى) إلهة عند الصفويين ، وأنها كانت إلهة كذلك عند بقية العرب . أما (ارضو) ، فإنه مذكور عند أهل ندمر^٥ .

Hastings, p. 323.

١ الإصنام (ص ٢٠) .

٢ Handbuch, I, S. 229.

٣ E. Oslander, 499, Rosta, S. 58, Ryckmans 18, Jausen-Savignac, Mission,

II, 565, 583, 598, Arabien, S. 84.

٤ رينه ديسو (١٢٦) .

أما (عزيز) ، فإنه الإله (عزيزو) Azizo المعروف عند أهل (الزها) ، الذي تحدث عنه . وقد ذهب بعض الباحثين إلى أنه يمثل كوكب الصباح ، أي الزهرة . وقد وصف في كتابة مدونة باليونانية أنه : *Deus bonus puer phosphorus* : أي الإله الجميل اللامع ذو الأشعة البراقة التي تشبه في لمعائها لمعان الفوسفور^١ . و (كهل) أو (كاهل) ، هو (كهان) المذكور في كتابة معينة . وقد ورد الاسم مقروناً في نص تمودي بأداة التعريف (هـ) (ها) ، أي (هكاهل) (ها - كهل) (هكهل) . وتعني لفظة (كهل) المعنى المقهوم منها في عربيتنا ، كما تعني (القدير)^٢ .

وتعني كلمة (نهي) في التمودية ما تعنيه لفظة (حكم) في العربية الجنوبية ، أي (حكم) وحاكم و (حكيم) في بعض الآراء ، ولعلها تعني (الناهي) وتكون بذلك صفة للإله . وقد ورد اسم هذا الإله في مواقع عديدة من الكتابات التمودية^٣ .

وأما (منف) ، فإنه الصنم (مناف) المذكور عند أهل الأغبار^٤ . وقد تعبدت له قریش ولحيان ، كما تحدثت عنه في موضعه .

وقد ورد اسم (صلم) في عدد من الكتابات التمودية . ويظهر أن التموديين كانوا قد أنحلوا عبادة هذا الإله من أهل (تباہ) . فقد كانت تباہ من أهم الأماكن المتعلقة بعبادة هذا الصنم في حوالي السنة (٦٠٠) قبل الميلاد . وقد جاءت عبادته إليهم من (بني إرم) . ومنهم انقلبت عبادته إلى العرب . وتدل بعض الأسماء المركبة الواردة في الكتابات اللحيانية مثل اسم (صلم يه) (صلميهب) على أنه كان معبوداً عند اللحيانيين كذلك^٥ . ومن لفظة (صلم) جاءت كلمة (صنم) على رأي بعض المستشرقين .

وقد ورد اسم (عترسم) (هـ - عترسم) في عدد من الكتابات التمودية .

Handbuch, I, S. 220.

Handbuch, I, S. 215, Glaser 299, Halevy 237, Hommel, Grundriss, S. 163.

E. Lüttmann, Zur Entzifferung der Thamudischen Inschriften, 1904, S. 75.

Handbuch, I, S. 215.

Ryckmans 16, Resté, S. 18, Arabien, S. 84. (٧٨/١) أخبار مكة . للأزرقي .

Hubert Grimme, Die Lösung des Sinaitischen Problems, Die Althamudische Schrift, Münster, 1928, S. 23, Arabien, S. 84.

وقد توسل فيها أصحابها منه أن يمن عليهم بالبركة والخير والصحة والسلامة^١ .
وقد جاء اسم هذا الصنم من (عثر سمن) (عثر سماء) أي (عثر السماء) .
والإله (ود) هو إله معروف عند النوبيين كما سبق أن ذكرت . وقد
تورد إليه عباده والمؤمنون به ، فذكروه في كتاباتهم ، ورمزوا إليه بصورة حية ،
كما رمز إليه العرب الجنوبيون بصورة رأس ثور . وقد تعبر صورة الحية عن
الروح التي في بدن الإنسان^٢ .

وذهب (دتلف نلسن) إلى أن من بين آلهة نمود إله اسمه (ملك) ، وهو
يرى أن الاسم المركب (عبد ملكن) ، أي (عبد الملك) ، لا تعني كلمة
(ملك) ، الواردة فيه بالمعنى السياسي الذي تفهمه منها ، وإنما المراد بها اسم
إله . وذهب أيضاً إلى أن لفظة (ملكن) الواردة في النص الفثاتي الموسوم
بـ (Glaser 1600) لم يقصد بها ملكاً من ملوك قنابن ، بل أريد بها إله اسمه
ملكن ، أي (الملك) . وذكر أيضاً أن اسم (عبد الملك) من الأسماء المعروفة
في الجاهلية ، ورد في نصوص النوبيين والصنوبيين^٣ .

وفي الكتابات النوبية أسماء مركبة مثل (يعثر ال) (يعلر ايل) ، و (صلـم ال)
(صلـم ايل) ، و (عزـر ال) (عزـر ايل) ، و (سعد ال) (سعد ايل) ،
و (ود ال) (ود ايل) ، اختصت باسم الإله (ال) (ايل) ، مما يدل
على أن (ال) (ايل) كان من الآلهة التي تعبد لها قوم نمود .

ومن الأسماء النوبية المركبة الأخرى (بعثر) وفيه اسم الإله (عثر) الذي
عرفناه في المسند ، و (بيع امر) (بيع أمر) . وفيه اسم الإله (بيع) ، وهو من الأسماء
المستعملة بكثرة في العربية الجنوبية . و (صلـم دع) و (صلـم دعـم) : فد (صلـم)
اسم الإله (صلـم) من آلهة قوم نمود المعروفة ، و (تيم بعث) (تيم يغوث) ،
وهو اسم مركب من اسمي إلهين هما : (تيم) و (يغوث)^٤ .

Hubert Griffls, S. 43.

Arabien, S. 269.

Handbuch, I, S. 232, D. Nielsen, Studier over Oldarabiske Indskriftter, København, 1906, p. 136, O. Weber, Studien zur Sudarabischen Altertums-
kunde, in MVAG, 1917, S. 28-31.

Griffls, S. 33.

ووردت في الكتابات النحائية ، أسماء جملة آلهة . منها : (ذغابت) (ذو غابة)
و (عوض) ، و (ود) ، و (بعل سمن) ، و (سلمان) (سلمن) ،
و (العزى) ، و (متف) (مناف) ، و (جدت) ، و (ال) (ابل) ،
و (إله) ، و (لت) (الت) ، و (سمن) ، و (نعر) ، و (منت) ،
و (هفلس) ، و (عجلبون) (عجلبن) ، وأكثر هذه الآلهة كما نرى معروفة ،
وردت أسماؤها في الكتابات وفي مؤلفات أهل الأخبار .

والإله (ذ غبت) (ذو غابة) ، هو من أشهر آلهة النحانيين . ولعله
إلههم الأول والأكبر . ومع ذلك ، فإتينا لا نعرف عنه شيئاً كثيراً . وقد كان
له معبد في (الديدان)^١ . وخطوب بكلمة (قدست) ، أي القدس أو المقدس
في كتابة من كتاباتهم ، وقيل أنه في جملة ما قدم إليه من قرابين ، قرابين من
البشر^٢ .

ولبت كلمة (ذ غبت) (ذو غابة) ، اسم علم للإله ، بل هي صفة
له ، تعني : (صاحب الغابة) ، أو (صاحب غابة) . وقد وردت لفظة
(ذ غبت) في الأعلام المركبة ، مثل : (عبد ذ غبت) (عبد ذو غابة) ،
و (فلح ذ غبت) (فالح ذو غابة) ، و (خرح ذ غبت) (خرح ذو غابة) ،
و (مسر ذ غبت) ، أي (مرأ ذو غابة) ، و (زيد ذ غبت) ، أي
(زيد ذو غابة) . وورد (عرر ذ غبت) ، أي (عرر ذو غابة) . والعرو
والعر ، الجرب ، وهو مرض جلدي معروف . فكان صاحب الكتابة أراد بها ،
أن الإله (ذو غابة) يرسل هذا المرض إلى مخالفيه ومن يعارض أحكامه أو
يعتدي على غيره^٣ .

وأما (عوض) ، فقد ورد اسمه في الأعلام المركبة مثل : (عبد عوض) ،
و (جد عوض) ، وقد تعبد له الصغريون كذلك^٤ .
وأما ود ، فهو إله عام له شهرة عند العرب ، وقد عمت عبادته كل جزيرة

Ryckmans 19, Jausen-Savignac, Mission, II, 368, 371, 376, W. Gaskel, ١

Lihsan, B. 45, Arabien, B. 85.

Histoire Generale des Religions, Tome, IV, p. 312, Preislamiq., p. 19. ٢

W. Gaskel, Lihsan, B. 44. ٣

Histoire, IV, p. 312, Preislamiq., p. 19, Handbuch, I, B. 193. ٤

العرب . والظاهر أنه كان من الألفة العربية القديمة، وقد بقي معبوداً حتى الإسلام : وهو من الأصنام المذكورة في القرآن^١ . وقد نعت به (افكل) ، وورد اسمه في الأعلام الليثانية المركبة^٢ . وتعدت له نعيم ، وطيه ، والخزرج ، وهليل ، ونلم ، وقريش . وأقيم له صنم في دومة الجندل ، صنع على هيئة انسان . ويرى البعض انه الإله (أد) عند ثمود . ويظن أن الصنم (قوس) يرمز إليه ، ويرى بعض الباحثين أن (نسرأ) والصنم (ذو عاقب) يرمزان إليه كذلك^٣ .

وقد نعت (ود) في بعض النصوص العربية به (تحسب) (تحس طب) ، ومعناه (الحية العظيمة) (الحية الطيبة) ، لأن الحية رمز للإله (ود)^٤ . ويظن أن الليثانيين كانوا يتعبدون لهذا الإله مثل كانوا في موطنهم الأول ، فلما هاجروا الى (ديدان) لم ينسوه ، ولكنهم بقوا يتعبدون له ويتضرعون إليه ، لأنه إله الآباء والأجداد وإله لحيان الأكبر ، كما تفعل بقية القبائل في اتخاذ إله الآباء والأجداد الإله الأول للقبيلة ، والصنم الأكبر بين الأصنام^٥ .

وأما (بل سمن) أي (رب السماء) ، فقد تحدثت عنه ، ووجدنا أنه كان معبوداً عند العرب الجنوبيين ، والغالب أنهم أدخلوا عبادته من العرب الشماليين . وقد كان له معبد في (ديدان) . وقد نعت معبده به (احرم) (احرام) ، بمعنى (الحرم) : أي حرم الإله (بل سمن) (رب السماء)^٦ . وتعبد له (البسط) وكانوا قد أقاموا له معبداً في (سج) ، وذلك فيما بين السنة ٣٢/٣٣ - ١٢/١٢ قبل الميلاد^٧ .

والظاهر أن الليثانيين قد أدخلوا هذا الإله من البسط . وقد تشرف أحدهم بتسمية نفسه به (عبد سمن) أي (عبد السماء)^٨ . وقصد به (سمن) الإله

١ سورة نوح ، رقم ٧١ ، الآية ٢٢ .

٢ Histoire, IV, p. 312.

٣ Arabien, B. 87, Reste, B. 14, Ryckmans, 16, Jaussem-Savignac, Mission,

II, p. 388, 581.

٤ Grchmann, Göttersymbole, S. 71.

٥ Lihiyanish, S. 44.

٦ Histoire, IV, p. 312, Preislamiq, p. 23.

٧ W. Caskel, Lihiyan, S. 45.

٨ W. Caskel, Lihiyan, S. 124.

(بعل سمع) ، أي (رب السماء) . وقد اختصر الاسم ، فصار (سمع) (سمين) .

والعزى من الأسماء المعروفة عند أهل الأخبار . وقد بقيت عبادته معروفة إلى الإسلام . وقد أشير إليه في القرآن . وقد ذكر اسمه في كتابات عمر عليها في (العلاء) .
وتعبد له النبط كلذك ، وصنعت له معبداً في (بصرى) دعي (بيت ايل) .
وعبر عنه بـ (كوكبتا) ، أي (الكواكب) ، وهو أنثى ، أي إلهة ^١ .

وقد ورد اسم (العزى) على هذه الصورة : (هنزى) في كتابة لحياة ،
دوتها رجل اسمه (أوس بن حجر) ^٢ . ويظن بعض الباحثين ، أن العزى
تمثل كوكب الصباح . ويظهر أن اللحيانيين قد أخذوا عبادتها من نبط بلاد الشام .
وأما لم تكن من آفة اللحيانيين في الأصل ، بدليل عدم ورود اسمها كورود
(ذو غابة) أو الآلهة اللحيانية الأخرى في النصوص اللحيانية ^٣ .

وورد اسم العزى في الأعلام المركبة ، مثل : (بل عزيني) (بال عزيني)
و (بـ ايل عزيني) ، أي بـ (العزني) ، وذلك في الكتابات النمودية .
و (تيم العزى) و (عبد العزى) و (امت العزى) ، وفي كتابات أخرى
تعود إلى ما بين القرن الخامس قبل الميلاد ، والقرن الرابع بعد الميلاد ^٤ .

ويظهر من بعض الأعلام اللحيانية المركبة ، مثل (اوس به) (اوس يهو) ،
و (عزريه) (عزريه) ، أن القسم الثاني من الاسم ، وهو (به) (يهو) ،
قريب من (يهو) ، وهو الإله الكبير المعروف عند العبرانيين . فـ (به) (يهو)
هو اسم إله من آفة اللحيانيين .

وأما الإله (جدت) ، فالغالب أنه إلهة ، أي إلهاً أنثى بدليل وجود تاء
التأنيث في آخر الاسم . والأصل هو (جد) ، وهو اسم إله تكلمت عنه ^٥ .

- | | |
|--|---|
| Histoire, IV, p. 312, Preislamiq, p. 20. | ١ |
| Doughty, Travels in Arabia Deserta, II, p. 511, 515. | ٢ |
| W. Caskel, Lihyān, S. 82. | ٣ |
| Lihyān, S. 262. | ٤ |
| Lihyān, S. 45. | ٥ |
| Littmann, Thamud und Saba, S. 29. | ٦ |
| Ryckmans, Preislamiqes, p. 19, Histoire, IV, p. 312. | ٧ |

ولما (هفلس) (ها - فلس) ، قرآه (الفلس) ، عند أهل الأخبار .
وقد ذكروا أنه كان على هيئة حجر أسود تعبدت له (سليم) ، أو على صورة
إنسان قد من حجر عند (طيء)^١ .

و (قيس) و (قيسو) من أسماء الآلهة المذكورة في الكتابات الليمانية .
وقد كان له معبد عرف به (بت قس) (بيت قيس) في مدائن صالح^٢ .
وبدل وجود اسمه في الأعلام العربية المركبة ، مثل (عبد قيس) و (عبد
القيس) ، أنه كان من الأصنام المعروفة المعبودة عند بقية العرب في مختلف أنحاء
جزيرة العرب .

وورد في كتابة لحيانية اسم إله هو : (عر) (ه - عر) (محسر)
وبعد اسم إله آخر ، هو (هنا كنب) . ويظهر أنه من الآلهة التي كانت
تعبد في العربية الجنوبية وعند المعينين الشماليين ، وتعني لفظة (عر) شريعة ،
أو قانون أو أمر ، أو سنة . وهو من الآلهة التي اختفى اسمها في الكتابات
الليمانية المتأخرة^٣ .

ولما (هنا كنب) (هانيء كاتب) (هني) (هاني) ، و (هني كنب)
(هاني كنب) المذكور مع (ه - محسر) (محسر) (هحسر) ، قبرى
(كاسكل) W. Caskel أنه الإله (ثوت) Thot^٤ . و (توت) هو إله
مصري ، ويرمز إليه بصورة قرد . ويمثله الإله (نبو) عند البابليين . ويمثل
(توت) (هرمس) و (المريخ) Merkur . فهو الإله الكاتب . ولعل
الليمانيين أخذوا إلههم هذا من المصريين^٥ . ولكننا لا نستطيع أن نجزم أن الليمانيين
قد تصوروا إلههم هذا على صورة (قرد) محاكاة للمصريين لأنهم أخذوه منهم ،
إذ لا دليل لدينا نستدل به على أنهم تصوروا ذلك الإله بصورة قرد^٦ .

E. Oslander, 594, Reste, B. 51, Préislamiques, p. 17 Arabien, B. 84, Jausen-

Savignac, Mission, II, p. 84.

Reste, B. 67, Préislamiques, p. 48, Arabien, B. 85, Jausen-Savignac, Mission,

II, 501, 520, 528, I, 189, 200, CIB, II, 209, Daughy, Documents Epigraphiques,

p. 38, CIB, II, 198, J. Euting, Tagebuch, II, 8. 262.

Lihyan, B. 45.

Préislamiques, p. 20, Arabien, B. 86.

Lihyan, B. 45.

Lihyan, B. 45.

ووردت في بعض الكتابات اللحيانية أعلام مركبة ، جاء فيها اسم هذا الإله ، مثل (جرم هنا كتب) ، و (زيد هنا كتب) . ومعنى (جرم) و (زيد) خادماً أو عبد ، فيكون الاسم (عبد هنا كتب) ، (عبد هنا كاتب)^١ .

وأما (سلمن) (سلمان) ، فإنه من الآلهة التي ظهرت عبادتها عند اللحيانيين المتأخرين . ويرى بعض الباحثين أنه والإله (اب الف) (أبو ايلاف) من الآلهة التي كان واجبها حماية القبور . وقد رمز عن (ابي ايلاف) بصورة أسد يوضع عند جانب القبر ليحميه^٢ .

وقد ورد اسم الإله (ابا الف) (ابو ايلاف) اسم علم لشخص كان كبيراً على قومه ، وذلك في أيام الملك (عبدان بن هانواس)^٣ .

وورد اسم إله هو (شمس) ، وقد عبد عند أهل تدمر أيضاً ، كما تعبدت له تميم . وتجد بين أسماء رجال قريش وقبائل أخرى أسماء تدل على تعبد الناس للشمس ، ومن هذه الأسماء : (عبد شمس)^٤ .

وأما الإله (عجلن) (عجلون) (عجل بن) ، فإنه من الآلهة اللحيانية المتأخرة . ويظهر أن اسمه الأصلي هو (عجل بل) (عجل بول) (عجل بل) أي (عجل) و (بول) . وتجد اسمه مع (يرحى بول) (يرح بل) (يرحل) ، و (بل) في الكتابات التدمرية . ويظهر أن تاجراً جاء به إلى اللحيانيين ، وأدخل عبادته عندهم . ويظهر أنه جاء به من العراق^٥ .

ولدينا أسماء ونعوت آلهة تعبد لها اللحيانيون من غير شك ، وإن لم نعتبر عليها في كتاباتهم ، توصلنا إلى معرفتها والوقوف عليها من دراستنا للأسماء اللحيانية المركبة ، مثل (كبر ال) (كبر ايل) ، و (منع ال) (منع ايل) ، و (ذرح ال) (ذرح ايل) (ذرحال) ، و (عذر ال) (عذر ايل) ، وأمثال ذلك ، فإن اللفظة الثانية وهي (ال) (ايل) ، هي الإله (ايل)

Lihsan, S. 45. ١

Lihsan, S. 45. ٢

Lihsan, S. 113. ٣

Starcky, Palmyre, 37, 80. O. Eissfeldt, 96, 101, Arabien, S. 87. ٤

Lihsan, S. 45. ٥

(ايلو) ، وهو من الآلهة السامية القديمة ^١ .

وبين الأسماء التي وصلت إلينا ، اسم رجل عرف بـ (عبد قتي) (عبد قاني) ^٢ ، مما يدل على أن لفظة (قتي) ، هي اسم إله أو نعت من نعوت الآلهة .

وورد في الكتابات الحيثية المتأخرة اسم رجل عرف بـ (عبد غث بن زد له سم) ^٣ ، أي (عبد غوث بن زيد لاه بن سم) (سموم) ، كما ورد (زد غث) ، أي (زيد غوث) ^٤ ، وذلك يدل على أن لفظة (غوث) اسم إله . وعندني أن (غوثاً) نعت من نعوت الآلهة ، أي اسم من أسماء الله الحسنى لا اسم علم لإله خاص .

و (خرج) من الآلهة التي تعبد لها الحيثيون ، بدليل ورود اسمه في أسماء الأعلام المركبة مثل : (زيد خرج) و (عبد خرج) ^٥ .

ويعد (رعن) من آلهة الحيثيين كذلك ، إذ ورد في الأعلام المركبة ، مثل : (رعنامر) ، أي (رعن أمر) ، وهو اسم رجل من (ديدان) . فـ (رعن) من آلهة الديتانيين أيضاً ، ومثل : (رعنامد) (رعن امد) ، ومعنى (امد) أغضب ، و (رعنتع) ، (رعن تع) ، أي (رعن احاط) و (رعن ادرك) . فـ (رعن) إذن اسم إله من آلهة الحيثيين والديتانيين ^٦ .

والإله (يشع) و (يشن) ، من الآلهة التي تعبد لها الحيثيون ، فقد ورد في النص الذي وصفه الباحثون برقم (٧٣) وبـ JS 73 و M 26 ، اسم امرأة عرفت بـ (اميشن بنت دد) ، أي (أمة يشن بنت داد) ، (أمة اليشع بنت داد) ، وورد في الكتابات اسم رجل عرف بـ (يشع حيو) ^٧ ، واسم رجل آخر هو

١ (جرم ال) (جرم ايل) (عزال) (عز ايل) (عم ال) (عم ايل) . (ايس ال) (ايس ايل) ، (سعد ال) (سعد ايل) . (يمسك ال) (يمسك ايل) .
Lihsan, B. 46.

Lihsan, B. 47, 143, JB 214.

JB 41, Lihsan, B. 199.

JB 298, Lihsan, B. 47, 154.

Lihsan, B. 47.

Lihsan, B. 47, JS 194, JS 116, JB 142.

Lihsan, B. 100.

(يشعن) ، مما يدل على ان (شع) كان إلهاً معبوداً ومعروفاً عند (بني لحيان) .
وقد ورد في كتابة من كتابات (ديدان) اسم رجل عرف به (يشع امر)
(يشع أمر) ، فقد ورد في النص الموسوم بـ (٢) من الكتابات القيصرية :
(كهف : يشاعر) ، أي (قبر : يشاعر) (قبر يشع أمر)^١ . واسم (يشع
أمر) هو من الأسماء الشائعة المعروفة عند العرب الجنوبيين ، وقد تسمى به ملوك
من ملوك (سبأ) . فالظاهر أنه من الأسماء التي أعطها الديدانيون واللحيانيون
عن العرب الجنوبيين ، ومن الجاليات العربية الجنوبية التي كانت قد استقرت في
أيام عز الحكومات العربية الجنوبية في هذه الأماكن . فـ (يشع) إذن ، هو إله
من لغة العرب الجنوبيين في الأصل ، انتقلت عبادته منهم الى أهل ديدان
واللحيانيين .

ومن الآلهة التي نجد لها أثراً في عبادة اللحيانيين من دراستنا لأسمائهم ، الإله:
(حد) (حيد) . فقد ورد في اسم امرأة عرفت بـ (امتحمد بنت عصم)^٢ .
وأرى ان (حد) أو (حيد) ليس اسم إله ، أي اسم علم ، وإنما هو نعت
من نعوت الآلهة ، أي اسم من الأسماء الحسنى ، التي يسم الإنسان بها لفته ،
على سبيل التاديب والاحترام .

ونرى أثر عبادة الإله (مناة) عند اللحيانيين من دراستنا للأعلام المركبة
أيضاً ، مثل : (عيد مناة) (حيد منة)^٣ ، و (اسمت) (أوس منة) ،
أي (أوس مناة)^٤ ، و (عيمنت) المختصار (عيد مناة) و (عيدة مناة) ،
و (علمنت) ، أي (عوذ مناة) ، و (عابذ مناة) ، و (هون منة)
(هون مناة) ، و (نعم منة) (نعمت) أي (نعم مناة) ، و (نسعت)
(نأ مناة) ، و (قن منة) (قنمت) ، أي (قن مناة) ، و (مسفنت)
(سف مناة) ، و (شمنمت) (شها مناة) ، الى غير ذلك من أعلام مركبة،
ورد فيها اسم ذلك الإله^٥ الذي هو لغة ، أي أثنى عند العرب . وقد ذكرت

Liḥyan, B. 78.

^٢ راجع السطر الأول من النص المرقم بـ : ٧٨ ، المنشور في كتاب :

Liḥyan, B. 115.

Liḥyan, B. 103.

JB 10, Liḥyan, B. 143.

Diḥyan, B. 66.

في القرآن الكريم . ولا أستبعد ان يكون أنثى عند اللحيانيين أيضاً . ولعل لأصل الكلمة التي أخذ اسم هذه الإلهة منه ، وهو (منوتو) Manotu في النبطية ، وتعني (منبة) في عربيتنا صلة ، يجعل الإلهة إلهة ، أي تحويلها الى لغة أنثى . والصنم (اللات) من الأصنام النبطية ، المعبودة عند النبط ، والمعبودة عند ثمود كذلك ، والظاهر ان عبادته انتقلت الى عرب الحجاز ونجد من العرب الشماليين ، الذين تأثروا بعبادة النبط^١ .

ووردت لفظة (هتهم) في كتابة لحيانية ، وردت بمعنى (إلهتهم) ، أي تعبيراً عن لغة أنثى^٢ . ويظن (كاسكل) ، أنها تصغير (لات) (لث) . و (اللات) ، من الآلهة المعروفة المعبودة عند النبط ، وكذلك عند العرب الشماليين ، وعند عرب الحجاز . وقد ذكرت في القرآن الكريم ، وهي إلهة ، أي أنثى . وترد اللفظة عنهم في الأعلام المركبة مثل : (تيم اللات) (تيم لات)^٣ . وقد وردت لفظة (هله) (ه - لاه) في كتابة لحيانية ، وردت بصيغة التوسل والنداء والخطاب ، أي بمعنى : (اللهم) و (يا الله)^٤ . ووردت لفظة (لله) ، أي (الى الإله) أو (لله) ، في كتابة أخرى^٥ . وهي لا تعني في كلتا الحالتين إلهاً خاصاً معيناً ، وإنما تؤدي المعنى الذي تؤديه لفظة (إله) و (الإله) في عربيتنا ، و God في الانكليزية ، وربما قصد بها إله لحيان الأكبر (ذو غابة) ، كما يفصده المسلمون بامطلاقها لفظة (الله) ، وذلك للتعبير عن اسم الله بأسلوب مؤدب مهلب^٦ .

ومثل : (هنا له) (هنا لاه) (هني لاه) ، و (ناله) (نساله) (نسي لاه) ، و (ودع لاه) (ودع له) ، و (مراله) (مرأ لاه) ، و (تيم له) (تيم لاه) ، و (وهب له) (وهب لاه) ، و (زيد له) (زيد لاه) ، و (جرم له) (جرم لاه) ، و (سعد له) (سعد لاه)^٧ ،

Lihsan, B. 46.	١
Lihsan, B. 89.	٢
Lihsan, B. 46.	٣
Lihsan, B. 103.	٤
Lihsan, B. 104.	٥
Lihsan, B. 46.	٦
Lihsan, B. 46.	٧

فإن الجزء الأخير من الاسم وهو (له) (لاه) ، هو (إله) . وإله من الألفاظ الدالة على الله ، وترد في أكثر اللغات السامية .

ويلاحظ أن أكثر استعمال (ال) (ايل) في العبرانية هو في الشعر وفي أسماء الأعلام المركبة ، ولم يستعمل في النثر إلا قليلاً^١ . أما في اللهجات العربية وفي اللغات السامية الأخرى ، فقد استعملت اللفظة في الأعلام المركبة في الغالب ، وفي معنى (إله) مثل (ال ثعل) ، أي (الإله تعالى) ، وما شاكل ذلك ، أي بمعنى اسم من أسماء الله الحسنى وإله .

وعلى الرغم من ورود (ال) (ايل) El بصورة يستنبط منها أنها قصدت لفظاً معيناً خاصاً ، أي اسم علم ، لا نستطيع أن نقول إن (ال) اسم علم لإله معين مخصوص ، مثل الآلهة الأخرى التي ترد أسماؤها في الكتابات ، ذلك لأن الذين ذكروا (ال) (ايل) في الأعلام المركبة ، أو في مواضع أخرى من كتاباتهم لم يقصدوا كما يتبين من الاستعمال لفظاً معيناً اسمه (ال) (ايل) ، وإنما أرادوا ما نعبّر عنه بقولنا (إله) والجمع كافة . فلفظة (إله) عندنا ليست اسم علم ، وإنما تعبر عن اسم الجلالة دون ذكر اسمه . وهي كذلك عندهم وعند بقية الساميين بمعنى (رب) ، وإله و (بعل) عند الأقدمين .

ولا يعرف العلماء معنى لفظة (ال) (ايل) على وجه علمي دقيق . ولكنهم يفسرونها عادة بمعنى (القدير) و (الحاكم) . ومعنى ذلك أن (ال) نعت من نعوت الآلهة ، أو اسم من أسماء الله الحسنى بحسب التعبير الإسلامي . ويرى بعض العلماء احتمال عدم وجود صلة له بـ (الوهيم) Elohim الكلمة العبرانية التي تعطى على الإله^٢ .

وأما لفظة المصنوعين ، فهي (الت) (لت) (هلت) ، و (دين) (ديان) ، و (هله) (هل ه) ، و (جدعوذ) ، و (بعل سمن) ، و (شبع ه - قوم) (شبع القوم) ، و (السع) ، و (صالح) ، و (ذو الشرا) (ذو الشرى) ، و (رضا) (رضى) ، و (جدضيف) ، و (رحم) (رحيم)^٣ .

Hastings, p. 299, Lihyon, 8. 46, Le Muséon, 1904.

Tome, LXVII, p. 106.

Hastings, p. 299.

Ryckmans, p. 21.

و (الت) ، أي (اللات) إلهة أي أنثى ، ويراد بها الشمس . وقد مثلت في بعض النصوص الصفوية بقطعة من الشمس رسمت بصورة يداقية ، ورسمت في بعض النصوص السابية الشمالية بشكل امرأة عارية^١ ، رمز إليها بصورة فرس في النصوص العربية الجنوبية، والفرس من الحيوانات المقدسة التي ترمز إلى الشمس عند قدماء الساميين وعند غيرهم من الشعوب ، ولذلك كان الناذرون لها يقدمون لها تماثيل مصنوعة على هيئة فرس^٢ .

ولفظ (دبان) (دبان) ، ليست اسم صنم على ما يظهر، وإنما هي صفة من صفات الآلهة . وهي معروفة في عربيتنا وعند المسلمين ، نطلق على الله . وقد استعمل الصفويون (جد عوض) اسماً لإلهه ، كما استعملوا اسماً آخر قريباً منه هو (جد ضيف) .

وقد ورد اسم الإله : (جد عوض) (هجد عوض) في نص محفوظ في منحف دمشق ، وسم به Damas 1312 ، وورد بعده اسم الإلهين : (شع هقوم) (شع هقوم) ، و (هلت) (اللات)^٣ .

وتقابل لفظة (جد) معنى الحفظ في اللغة اليونانية ، وقد صار في الأقاليم السورية المتحضرة الإله الحارس للمدينة . و (جد عوض) هو إله معروف مشهور عند الصفويين ، وورد اسمه في كتاباتهم . وقد ذهب (رينه ديسو) إلى أن لفظة (عوض) (عويذ) هي اسم عشيرة أو قبيلة كانت تنسب للإله (جد) ، وكانت سدنة منهم ، فنسب إليهم وعرف به (جد عوض) (جد عويذ) على طريقة العرب في ذلك العهد من نسبة الأرباب إلى القبائل أو العشائر أو السدنة التي يخدمونها أو إلى الأشخاص الكبار^٤ .

وقد ورد اسم الإله (جد ضيف) (جد صف) في عدد من الكتابات الصفوية التي عثر عليها في المملكة الأردنية الهاشمية . كما ورد فيها اسم إله آخر هو الإله : (هجد عوض) (ها - جد عوض)^٥ .

- | | |
|--|---|
| Handbuch, I, S. 214. | ١ |
| Handbuch, I, S. 227, Grotmann, Göttersymbole und Symbolik auf Suda-
arabischen Denkmälern, Wien, S. 78. | ٢ |
| Ryckmans, Inscriptions Sufaitiques, Louvain, 1951, p. 87. | ٣ |
| رينه ديسو (١٩٣٧) | ٤ |
| Annual of the Department of Antiquities of Jordan, 1951, Vol. I, p. 27. | ٥ |

لما الإله (شيع التوم) ، فقد ورد اسمه في النصوص النبطية في (بطرا)
وفي (تدمر) ، وهو إله القوافل في نظر بعض المشرقين^١ .

وهو إله يحمي قومه . وقد احتسب به أهل القوافل خاصة من الأعراب وقطاع
الطرق . ولذلك كان التجار وأصحاب القوافل يذكرون اسمه وربما يحملون وثقه
معهم لحمايته لهم في أثناء السفر حتى يلوغهم ديارهم سالمين .

وقد نعت في كتابة نبطية دوتها أحد نبط (تدمر) ، بأنه (الذي لا يشرب
خراً)^٢ . وهذا يعني أن هذا الإله كان يكره الخمر ، ويكره شاربها ، ولعل
في ذلك فكرة تحريم الخمر عند جعته . وقد كان في الجاهليين من حرموا الخمر
على أنفسهم . كما نعت بـ (الإله الطيب المجازي)^٣ ، وهو نعت نُعت به
ومثله آلهة أخرى . وقد ذهب بعض الباحثين إلى احتمال وجود جعته من النبط
ومن غير النبط كانت تحرم شرب الخمر ، بدليل ما جاء في النص النبطي من
نعت بأنه (الإله الطيب المجازي الذي لا يشرب الخمر)^٤ . و (يشع) هو في
جملة الآلهة التي تعبد لها الصغويون ، كما تعبد له غيرهم أيضاً . وقد قلت سابقاً
باحتمال انتقال عبادته إلى هذه الأرضين من العرب الجنوبيين الذين كانوا قد غزوا
إليها واستولوا عليها وذلك قبل الميلاد . وتعني لفظة (يشع) الحامي والناصر والمساعد ،
وقد حُرِف في اليونانية إلى (ايثاؤس) و (يشع) . وقد ورد (يشع) في نص
توسل فيه صاحبه إلى هذا الإله أن يعينه على المكارة ، وتوسل آخر إليه أن يثأر
ممن يثبته ، وطلب إليه آخر أن يشفيه من المرض^٥ .

و (رحم) (رحيم) مثل (رحمن) ، أي (الرحمن) ، لعلها اسمان من
أسماء الله الحسنى في الأصل ، ثم صاروا اسمين علميين . وينطبق هذا القول على
لفظة (صالح) الواردة في نصوص الصغويين^٦ .

Histoire, IV, p. 14. ١
Littmann, Semitic Inscriptions, 1904, p. 70, Montgomery, p. II, Cooke, North
Semitic Inscriptions, p. 304. ٢
رحمة ديسو (١١٥) ٣
رحمة ديسو (١١٥) ٤
رحمة ديسو (١١٢ وما بعدها) ٥
Préhistoriques, p. 23. ٦

هم كما ذكرت قبائل عديدة طافت في هذه الأرضين التي صُر على الكتابات الصفوية بها ، وهم من مواضع متعددة ، ولم يكونوا من موطن ثابت ، لذلك كانوا يعبدون آلهة مختلفة ، آلهة قبائلهم ، وآلهة قبائل سبقتهم ، وآلهة قبائل اختلطوا بها فاختلطوا عنها معبوداتهم ، مثل هذا الإله (يعل سمين) ، أي يعل السماء ، أو رب السماء .

وتعدّ اللات من أهم الآلهة عند الصفويين ، بدليل كثرة ورود اسمها في كتاباتهم . فقد ورد اسمها في أكثر من ستين مرة في الكتابات^١ .

و (ه ل ه) ، (هله) هي بمعنى : (اللهم) . فلفظة (له) هي بمعنى (إله) و (لاه) . وقد ذهب بعض المستشرقين إلى أنها تعني (الله) . وإذا صح هذا الرأي ، دلّ على أن لفظة الجلالة (الله) كانت معروفة عند العرب الجاهليين قبل الإسلام بقرون . وقد وردت في عدد من النصوص الصفوية مسبوقة بحرف (الهاء) في الغالب ، وهو حرف النداء ، كالذي ورد في نص صفوي مسجله شخص اسمه (سني بن سني بن عثان) ، ذكر فيه أنه عثر على أثر عمه ، ثم توسل إلى (له) إذ خاطبه بقوله : « فلهه سلم للساد وغيرت » ، أي : « فيا الله انتج السلامة لمن سار بمعنى سافر وساعده »^٢ .

و (رضى) (رضا) هو من الآلهة التي تعبد لها الصفويون كذلك ، وقد تحدثت عنه في مواضع عدة ، إذ كان معبوداً عند غيرهم أيضاً . وهو (ارضو) (ارضو) في الغالب ، الذي يرد في نصوص تلعر . وقد ورد اسم (رضى) في عدد من الكتابات الصفوية ، يتوسل فيها أصحابه إليه أن يمنّ عليهم بالسلامة والنعم ، وأن يعبد عنهم شر الأعداء وكبدهم ، وأن ينزل الثقمة وغضبه على أعدائهم ، إلى أمثال ذلك من توسلات وأدعية^٣ .

وورد (عبد حت) ، أي (عبد حوت) ، في الكتابات المتأخرة^٤ ، يدل على أن (حوتاً) من أسماء الآلهة التي تعبد لها الحيانيون .

١ العرب في سورية قبل الإسلام (١١١) .
٢ رينه ديسو (١٣٤) .
٣ رينه ديسو (١٣٤) .
٤ Lihyan, B. 47, 143, JB 89.

و (حمل) اسم إله أيضاً ، لورود اسمه في الأعلام المركبة مثل : (عبد حمل)^١ ، وهو من الأسماء التي وردت في الكتابات الميثانية المتقدمة^٢ .
وكثيراً ما نجد أناساً يتوسلون إلى هذه الآلهة بأن تمنحهم السلام والرحمة ، وأن تنكل بأعدائهم ، بل نجد شواخص القبور ، ترجوها أن تصيب بالعمى من يطمس كتابة الشاخص ، الذي يحمل اسم صاحب القبر المدفون فيه وأن تنزل به الأمراض والآفات^٣ . ومعنى هذا أن المؤمنين بها كانوا يعتقدون أنها تتيب وتعاقب ، تمنح السلام والخير ، وتنفذ وتنصر ، وتترك الأذى بمن تريد وتشاء ، ولهذا توسل الناس إليها وخاطبوها ، إما لرجاء وإما لابتلاء .

لما آلهة التبت ، تبت (بطرا) ، فهسي : (ذو الشرى) Dushara ،
و (اللات) ، وهو إلهة ، (أم الآلهة)^٤ ، و (منوتو) ، أي (مناة)^٥ ،
و (قشع) ، و (هيلو) ، أي (هيل) ، و (شيع القوم) حامى القوم ،
وإله القوافل^٦ .

وأما (ذو شرا) Dousares = Dausarya (دوسرا) ، فإنه (ذو الشرى)
الذي يرد اسمه عند أهل الأخبار . وهو من آلهة (بطرا) ، وقد زعم أنه في منزلة
(ديونيسوس) Dionysos . وعرف به Dios Arabiques = Deus Arabikes
في بعض الكتابات اليونانية التي عثر عليها في الأردن ، والتي يعود عهدها إلى
سنة (١١٦ - ١١٧) أو (١٢٦ - ١٢٧) للميلاد ، مما يدل على أنه كان
من الآلهة المعروفة بين العرب ، وأنه إلههم الخاص بهم^٧ .

وذكر أن Dousares هو في منزلة Dionysos ، وقد عرف عند اليونان بأنه
إله العرب ، كما ذكرت . وأنه الإله Pakades عند التبت ، وله معبد في
(جرش) Geraah^٨ .

Lihsan, 8, 47.

Lihsan, 8, 143.

راجع النصوص في رينه ديسو (ص ١٢٦ فما بعدها) .

CIS, II, 85, 98, NBI, 88, Ency. Religl., 9, p. 112.

CIS, II, 97, 98, NBI, 79, Ency. Religl., 9, p. 22.

Ency. Religl., 9, p. 22.

R. De Vaux, Une Nouvelle Inscription au dieu Arabique, ADAJ, I, 1951,

p. 23, Arabien, 8, 88.

BASOR, NUM : 83, 1941, p. 8.

وورد اسم (دشر) (دوشرا) Dushares في عدد من النصوص الصفوية. ورد في هذه الجملة مثلاً : (فقلت وهدشرا ثار لمن حولت)^١ ، أي (قباللات ويا ذو الشرى ، إثأراً بمن يحول) . ويقصد به (يحول) ، يحول شاهد القبر الذي كتبت عليه هذه الكتابة . كما ورد في عدد من الكتابات ، يرجو فيها أصحابها من هذا الإله أن ينعم عليهم بالسلامة وأن يتقبل منهم أعمالهم .

وقد ورد مع اسم (ذي الشرى) في بعض الكتابات النبطية ، اسم الإله (هيل) واسم (مناة) . و (هيل) هو صنم قريش الرئيس . وهو إله الكعبة ويرمز إلى القمر . وقد وضع في الكعبة على هيئة إنسان ، وأمامه حفرة عبر عنها بالفضة (بفتح) ، وكانت يده اليمنى مكسورة ، فعوضه قريش بيد من ذهب ، والظاهر أن الحية ترمز إليه ، أو إلى ود ، وأن الحية التي قبيل أنها كانت في بئر زمزم ، هي رمز هيل^٢ .

وورد اسم (اللات) مدوناً في نصوص نبطية عديدة ، فقد عثر به (صلخد) على كتابات من سنة (٤٠) قبل الميلاد ، وسنة (٥٠) بعد الميلاد ، وسنة (٩٥) للميلاد ، وعلى نصوص أخرى ، وقد ذكر فيها اسم هذه الإلهة ، وأشير فيها إلى تشييد معبدخصص لعبادتها ، وإلى سدة كانوا يقومون بخدمتها . ووجدت كتابات في مواضع نبطية أخرى ، ورد فيها اسم (اللات) ، وبديل كل ذلك على أن اللات كانت من المعبودات المقدسة عند نبط هذه الديار^٣ .

أما الكتابات النبطية المتنوعة في أماكن أخرى من بلاد الشام وفي أعالي الحجاز ، فقد ورد فيها اسم (اللات) . ورد فيها على أنه من الآلهة الكبيرة ، التي يخدمها سدة ، ولها معابد تخصصت لعبادتها . فقد جاء في نص مؤرخ سنة (٤٧) للميلاد أن شخصاً اسمه (ملكو بن قصيو) (مالك بن قصي) ، أو (مليك بن قصي) ، كان كاملاً (لات) في موضع (حبرن) (حبران) ، وهو من جبل حوران^٤ .

١ Annual of the Department of Antiquities of Jordan, Vol., II, p. 28, 1963.

٢ الأزرقي ، أخبار مكة (٦٨/١) وما بعدها .

٣ رينه ديسو (ص ١١٦ وما بعدها) .

٤ رينه ديسو (١١٥) ، Janssen-Bavignac, Mission, II, p. 508.

وأما آلهة (تدمر) ، فهي (بل) ، أي (يعلى) و (عزيزو) ، و (ارضو)
 (ارضو) ، و (شمع القوم) ، و (شمش) (شمس) و (اللات) ،
 و (ايل) ، و (يعلى شمين) ، و (سعدو) . ويلاحظ ان الكتابات التدمرية
 تستعمل في الغالب الكتابات والتموت الإلهية بدلاً من أسماء الآلهة ، فاستعملت
 (تبارك اسمه) ، و (رب العالم) ، و (الله المجسن) ، و (رب العالمين) ،
 وأمثال ذلك كتابة عن آلهة تدمر . وهي تشير الى وجود فكسرة التوحيد عند
 التدمريين . والى اغراب أهل تدمر عن التصريح بأسماء الآلهة ، والاكتفاء بذكر
 نوعها وأسمائها الحسن ، على طريقة العبرانيين في تجنب ذكر اسم الإله ،
 والتكينة عنه بتعوته . وقد يكون لأراء الفلاسفة اليونان أثر في معضدات أهل تدمر
 في آلهتهم^١ .

وبرى (لينزيبارسكي) Lidzbarski ان (بل) ، هو إله تدمر الأكبر .
 وهو (يعلى) . ولمركزه الخطير عند أهل تدمر ، دعاء اليونان (زيوس) Zeus
 أما (ملك بل) ، فإنه الشمس ، وأما (صلي بل) ، فهو القمر . ويقدم
 عادة على (ملك بل) في الكتابات . وتقدم القمر على الشمس عادة قديمة عند
 أهل تدمر لا بد أن يكون لها سبب بالطبع^٢ .

أما الإله (عزيزو) ، فهو العزى . ويؤيد ذلك ما ذكره أحد الكتبة اليونان
 من انه كان كوكب الصباح عند العرب ، وأنه الإله الرؤوف الرحيم الذي عبدته
 العرب قبل الاسلام . ويلاحظ ان هذا التعت وارد في نص تدمري ، مما يثبت
 كون (عزيزو) هو (العزى) الإله الشهير^٣ .

وأما (ارضو) (ارضو) ، فيظن (لينزيبارسكي) انه Oratal الذي ذكر
 المؤرخ (هيرودوتس) ، انه أحد آلهة العرب الكبرى مع الإله (اللات) .
 ويظن ان (ارضو) ، هو (رضا) (رضى) الإله الذي أشار اليه الأخباريون .
 وأما (اللات) ، فقليل الورد في النصوص التدمرية مع شيوع الأسماء المركبة

Ency. Religi., 9, p. 592.

Ency. Religi., 9, p. 593.

Ency. Religi., 9, p. 594.

المؤلفة منها ومن كلمات أخرى عندهم^١ .

وأما (منو) ، فإنه (مائة) المذكور في القرآن^٢ . وكان له معبد في (قنيد) ، بين مكة والمدينة ، وقد صنع من حجر ، وتعبدت له الأوس والخزرج ، وهذيل ، ونخاعة . وتعبدت له النبط كذلك ، وأقاموا له معبداً أشير إليه في كتابات (مدائن صالح) ، كما تعبدت له نهود وحيان ونبط تدمرا^٣ . وهو أنشئ في نظر أهل الأخبار ، والظاهر أن بينه وبين المنيّة صلة ، كما بينت ذلك قبلاً .

وقد عبد الإله (بعل شمن) (بعل شمين) في تدمر . وقد رأينا أنه عبد عند اللحيانيين والعقويين ، وعند غيرهم أيضاً . وقد وجد اسمه في كتابة تعود إلى القرن الثاني قبل الميلاد ، تبين منها أنه كان معبوداً في (بعلبك) . وهو كما قلت الإله (بعل سمن)^٤ .

وأما (سعدو) ، فقد رأى بعض المستشرقين أنه الإله (القمر) ، وأنه الصنم (سعد) ، وهو من الأصنام التي ذكرها أهل الأخبار . وقد تعبّد له بعض كتانة ، ويقال هذيل ، كما تحدثت عنه^٥ .

وورد في بعض كتابات (حوران) اسم إله دمي يد (قصي) . واليه تنسب بعض الأعلام المركبة التي ورد فيها اسمه ، مثل (عبد قصي) . ويظن أنه الإله المسمى بـ (زيوس كاسيوس) Zeus Kasios وبـ Jupiter Casius = Jupiter Casiu في الكتابات اليونانية^٦ . وفي جملة هذه الأسماء المركبة المعروفة التي وردت لنا ، اسم (وهب لث) ، أي (وهب اللات) ، وهو اسم ابن الملك (أذينة) من زوجه (زنوبيا) ، أي (الزيناء)^٧ .

١ Ency. Religi., 9, p. 594.

٢ سورة ٥٣ ، الآية ٢٠ .

٣ Jaussen-Savignac, Mission, I, p. 169, 192, CDS, II, No. : 224, J. Starcky,

Palmyre, 85, Arabien, 8, 84.

٤ Arabien, 8, 86. Ryckmans, 89.

٥ O. Eusefeldt, 150, Arabien, 8, 85, Handbuch, I, 8, 234.

٦ Arabien, 8, 86.

٧ رينه ديسو (١٢٢) .

وقد ذهب (رينه ديسو) ، الى ان العنصر العربي كان مهماً في تدمير ،
وله أثر في حياة المدينة ، وأنه هو الذي أدخل عبادة اللات الى تدمر . وقد عبر
عنها بـ (اثينا) ، ولهذا ترجموا اسم ابن الزبابة ، أي (وهب اللات) ،
بـ (اثينودور) Athendore^١ .

وجاء في كتابات نبط (مدائن صالح) اسم إله عرف بـ (شيع هقوم)
(شيع هقم) (شيع هقم) (شيع هاقوم) (شيع القوم) ، وهو إله القوافل
والمحاربين . يدافع عن القوافل وعن رجالها ويصد عنها لصوص الطرق وقطاعها ،
ولهذا كان يقرب اليه التجار بالنور وبالدهوات لينزل بمن يتحش بنجلتهم
العلاب الأليم^٢ . وهو أيضاً من آلهة قوم نمود والصفوين^٣ ، كما تحدث عن ذلك .
وقد بني للزى معبد في (بصرى) ، عرف بـ (بت ال) ، أي
(بيت ايل)^٤ .

وأما آلهة (ديدان) ، فلا نستطيع التحدث بإفاسة عنها ، لعدم وصول
كتابات ديدانية اثنا ، فيها ذكر لتلك الآلهة . وفي الأسماء الديدانية المركبة أسماء
آلهة ، على رأسها (ال) (ايل) الذي ورد في (كبر - ال) (كبر ايل) ،
و (منع ال) (منعال) (منع ايسل) ، و (ذرحال) (ذرح ايل) ،
و (وسقال) (وسق ايل) ، و (ال - ير) (ايل - ير) ، و (العلم)
(ايل - عم) ، و (شبال) (شيم - ايل) ، و (الاب) (ال اب) ،
(ايل اب) ، فإن (ايل) (ال) في هذه الأسماء هو الإله (ايل)^٥ .

ثم : (إله) ، و (يثع) ، و (حرج) ، و (رعن) ، و (دد)
(داد) ، و (نعر) ، و (قس) (قوس) (قيس) . وبعض هذه
الألفاظ تعوت للآلهة ، لا أسماء أعلام ، وبعضها من أصل عربي جنوبي ، مثل
(يثع) ، فإنها تعت من تعوت الآلهة ، معناه : (المساعد) (الناصر) (المؤيد) ،

- | | |
|---|---|
| رينه ديسو (١٢٢) | ١ |
| Arabien, S. 84. | ٢ |
| P. V. Wineth, Saffaitic Inscriptions from Jordan. University of Toronto | ٣ |
| Press, 1931, p. 20. | |
| Arabien, S. 82. | ٤ |
| Lihyan, S. 37. | ٥ |

وقد عرف عند السبئيين . وبعض أكثر من أصل شمالي مثل (دد) (داد) ، فإنه من معبودات الكنعانيين والبط^١ .

وبرى (كاسكل) ان (خرجنا) هو إلهه ، والخرج في العربية أول ما ينشأ من السحاب ، وبه سمي (الخرج) . وقد ورد في الأعلام العينية المركبة : (عبد خرج) ، و (زيد خرج)^٢ . ويحتمل أن يكون قد جاء الى الديلمانيين من العنانيين الذين كانوا أصحاب ديدان قبل الديلمانيين .

ويرد (دد) (داود) في الأسماء المركبة كذلك ، وكذلك بصيغة التأنيث ، أي (ددت) (دادت) ، أي إلهة . ويعني (دد) عسم^٣ . ففقد ورد (حي - دد) (حي داد) ، وورد (عبد ددت) ، أي (عبد دادت) ، يدل على ان (داد) إله من الآلهة المعبودة ، وان (ددت) إلهة .

و (قس) أي (قوس) هو أيضاً من أسماء الآلهة ، إذ ورد مكوناً لاسم رجل ، عرف به (جلنفس) ، أي (جلن قوس)^٤ . وورد اسم آخر في الأعلام المركبة كذلك ، هو (قس) ، في اسم (عبد قس) ، ويمكن ان يقرأ (قوساً) كما يمكن ان يقرأ (قيساً) ، أي (عبد قيس) ، و (عبد قيس) و (عبد القيس) من الأسماء المعروفة عند العرب . فـ (قوس) و (قيس) من الآلهة المعروفة عند العرب .

و (قوس) هو من آلهة (بني أدوم) ، أي الأدوميين ، إذ كان يعبد عندهم . وقد ذهب (بروي) Brauer الى ان الإلهة (قيس) هو إله واجبه حماية الخلود^٥ . ووردت لفظة (صلح) في الأعلام المركبة كذلك ، مثل (صلحجد) أي (صلح جد) ، ومثل (صلحجب) (صلحجب)^٦ ، ومعنى ذلك ان (صلحا) هو اسم إله .

يلاحظ ان بين الآلهة المذكورة أسماء ، هي في الواقع ليست أسماء ، وانما هي

١ Lihsan, B. 38.
٢ Lihsan, B. 38.
٣ Lihsan, B. 38. Lihsan, B. 47, 145.
٤ Lihsan, B. 47, 145.
٥ Lihsan, B. 47. Brae, in WZKM., XXXII, 56.
٦ Lihsan, B. 47, 152, 38 314, 382.

صفات ، أو ما يقال له (أسماء الله الحسنى) في الإسلام ، استعملت وأطلقت على الآلهة حتى صارت في منزلة الأسماء . كما نجد صفات وضعت قبلها لفظاً (ذ) أي (ذو) أو (ذات) ، أي (ذات) ، وأطلقت على الآلهة إطلاق الأسماء على المسميات . ومن هذا القبيل (ذعقل) ، أي (ذو عقل) ، و (ذشري) ، أي (ذو الشري) ، و (ذقبض) ، أي (ذو قبض) ، و (ذات النوط) ، أي (ذات النواط) ، و (ذات حم) ، أي (ذات حم) ، و (ذات بعدن) ، أي (ذات البعد) ، فليست هذه أسماء في الأصل ، وإنما هي على ما ذكرت ، وقد عبر بها عن آلهة معينة ، حتى صارت عندهم في منزلة الأسماء .

الآلهة التي ورد ذكرها في النصوص :

وأود أن أدون هنا أسماء ونعوت الآلهة التي أشير إليها في نصوص المسند ، وفي النصوص الأخرى باختصار ، ليحيط بها القارئ ، وهي : (ود) إله معين الكبير . وقد ورد في نصوص أخرى عثر عليها في أعالي الحجاز . و (الملقه) إله سبأ الكبير ، و (سن) (سين) إله حضرموت الكبير ، و (ورخ) و (شهر) ، و (عم) إله شعب قنبان . وهي كلها في معنى واحد ، إذ قصد بها الإله القمر .

ومن الأسماء الأخرى : (أنبي) (أنبي) ، و (شرقن) (الشارق) ، و (رحم) (الرحيم) (رحيم) ، و (رحمن) (الرحمن) ، و (عثر) ، و (اثرت) (اثبرت) ، و (يعل) ، و (يعلت) ، و (ذات أنوت) (ذات أنوات) ، و (دبت اثر) ، و (بعدن) ، و (ذات بعدن) ، و (برون) ، و (ذات برون) ، و (غضرون) ، و (ذات غضرون) ، و (حم) (حميم) ، و (ذات حم) (ذات حم) ، و (تشقم) (تشق) ، و (رحبن) (رحاب) (الرحاب) ، و (ذات رحبن) (ذات الرحاب) ، و (صهون) (الصهر) ، و (ذات صهون) (ذات الصهر) ، و (صنم) ، و (ذات صنم) ، و (صهون) ، و (عم ذ دون) ، أي (عم رب داون) (عم صاحب داون) ، و (ال) (ايل) ، و (كهان) (الكاهل) . و (حرمن) (الحرم) ، بمعنى الإله ، و (حرمت) (حرمة) ،

بمعنى الإلهة . و (هويس) ، و (حلم) (حليم) ، و (حكم) (حكم) ، و (متب قبط) ، و (متب نظين) ، و (هسي) ، و (نكرح) ، و (نسر) ، و (نور) ، و (رب شهر) ، و (رب ثون) ، و (صدق) (صديق) ، و (صادق) ، و (شمس) ، و (سموى) ، و (شرقن) ، و (سمع) (سميع) (سامع) ، و (تالب) (تالب) ، و (تلب ريمم) (تالب ريام) ، أي الإلهة (تالب) رب موضع (ريام) لوجود معبد كبير له به . و (عثر) ، و (عززي) ، و (تلب سمى) (تالب سمى) ، و (حول) (حويل) ، و (ذ جرم) (ذو جرب) ، و (ذ قبضم) (ذو قبض) (ذو القبض) (القابض) ، و (سمى) ، و (شريت) (شرى) ، و (عثر شرفن) ، و (عزبن) ، و (قزح) ، و (متب ملجب) ، و (نرو) ^٢ .

ومن أسماء آلهة ثمود : (ود) ، و (جدد ددد) ، و (شمس) ، و (عزيز) ، و (نمرجد) ، و (عمى شجا) ، و (رضو) و (منت) ، و (كهل) ، و (هسي) ، و (ابل) (ال) ، و (لت) (لات) ، و (عترسم) (عثر سمن) ، و (صلم) ، و (متف) ، و (عثر) ، و (بثع) ، و (بث) (بغوث) ، و (بعلت) ، و (هيو) ، و (قلس) ، و (عوذ) .

وتمكن الباحثون من الحصول على أسماء عدد من آلهة لحيان ، منها : (ابلف) (اب الف) (ابالف) ، بمعنى (أبو ابلاف) ، و (عجلين) ، و (بدع سمع) (بدسمع) ، و (يعلمن) ، (بعل السماء) ، و (ذ غبت) (ذو غابسة) ، و (هنا كتب) (هاتىء كتب) ، و (لاه) (لاه) ، و (لحت) (لحات) ، و (لت) (لات) ، و (همجر) (هاجر) ، و (سلمن) (سلان) ، و (هنزى) (هائزى) ، و (ود) ^٣ .

Handbuch, I, S. 293-294. ١

Handbuch, I, S. 299. ٢

W. Caskel, Lihjan, S. 141. ٣

وحصلنا من الكتابات الصفوية على أسماء بعض الآلهة ، مثل : (اللات)
 (لت) ، و (المزى) ، و (مناة) (منات) ، و (رنسا) (رنسو) ،
 و (هله) (هالاه) (الله) ، و (جدعوذ) ، و (شمس) ، و (رحم) ،
 و (شبح هنوم) (شبح القوم) ، و (انع) (اتاع) ، و (بعل سمين)
 (بعل سم) ، و (دوشر) (ذو الشرى) (دشر) ، و (جد ضيف)
 (جد ضيف)^١ .

Annual of the Department of Antiquities of Jordan, Vol. I, 1951, p. 27.

والعدد الثاني الصادر سنة ١٩٥٣ (من ٢٣ - ٢٤ - ٢٦ - ٢٧ - ٢٨ - ٢٩ - ٣٠ - ٣١ - ٣٢ - ٣٣ - ٣٤ - ٣٥ - ٣٦ - ٣٧ - ٣٨ - ٣٩ - ٤٠ - ٤١ - ٤٢ - ٤٣ - ٤٤ - ٤٥ - ٤٦ - ٤٧ - ٤٨ - ٤٩ - ٥٠ - ٥١ - ٥٢ - ٥٣ - ٥٤ - ٥٥ - ٥٦ - ٥٧ - ٥٨ - ٥٩ - ٦٠ - ٦١ - ٦٢ - ٦٣ - ٦٤ - ٦٥ - ٦٦ - ٦٧ - ٦٨ - ٦٩ - ٧٠ - ٧١ - ٧٢ - ٧٣ - ٧٤ - ٧٥ - ٧٦ - ٧٧ - ٧٨ - ٧٩ - ٨٠ - ٨١ - ٨٢ - ٨٣ - ٨٤ - ٨٥ - ٨٦ - ٨٧ - ٨٨ - ٨٩ - ٩٠ - ٩١ - ٩٢ - ٩٣ - ٩٤ - ٩٥ - ٩٦ - ٩٧ - ٩٨ - ٩٩ - ١٠٠)

الفصل الحادي والسبعون

شعائر الدين

ولكل دين شعائر تكون له سمة وعلامة تميزه عن غيره من الأديان . ولما كنا قد ذكرنا أن الجاهليين كانوا شعوباً ولبائلاً ، لم تجمع بينهم وحدة فكر ولم تضمهم دولة واحدة ، أو عقيدة مشتركة ، فنحن لا نستطيع أن نتحدث عن شعائر واحدة لجميع عرب الجاهلية .

وما سأذكره عن ديانات أهل الجاهلية ، مستمد إما من نصوص جاهلية ، وذلك فيما يخص العربية الغربية والعربية الجنوبية في الغالب ، وإما من موارد إسلامية ، وهو ما يتناول أهل الحجاز ، قبيل ظهور الإسلام ، وبعض أنحاء نجد . وهو مما جاء عنهم في القرآن الكريم وفي الحديث النبوي وفي كتب التفسير والسيرة والأخبار مما له صلة بأيام الجاهلية المتصلة بالإسلام ، ويظهر الإسلام .

وفي مقدمة شعائر الدين عند أهل الجاهلية : الأصنام ويوتها والتقرب إليها بالصلاة وبالسجود وبالطواف حولها ، وبالتلويح ، وبالحيوس وبالقسم بها ، وذلك لتتمنّى على عبدها الإنسان فتمنحه ما يرجوه في هذه الحياة من صحة وعافية ومال ونسل وذكرور . وتكاد تنحصر الكتابات الجاهلية^١ التي عثر عليها حتى الآن بهذه الأمور ، إذ لا تكاد نجد فيها شيئاً له علاقة بالآلهة يخرج عن حدود ما ذكرت . ويكاد يقتصر ما جاء في روايات أهل الأخبار عن ديانة أهل الجاهلية بهذه الأمور

Orchmann, S. 89, Jaussen - Savignac, Mission, II, 397, 431, 452.

أيضاً ، فلا تتجاوز ما ذكرته من تقرب الى صم أو توسل اليه وطواف به ،
لئيل شيء منه يتمناه ويرجوه في هذه الحياة الدنيا .

أما الصلاة الى الآلهة على نحو ما يفهم من الصلاة في الإسلام فلا نجد لها
ذكراً في النصوص الجاهلية ، ولا نكاد نجد لها صورة واضحة صحيحة في روايات
أهل الأخبار ، اللهم إلا فيما يخص صلوات اليهود والنصارى والعرب فقد كان
هؤلاء يصلون في كتاباتهم في أوقات معينة ، وقف بعض أهل الجاهلية عليها ،
فشاروا إليها في أشعارهم وفي حديثهم عن أهل الكتاب .

وقد ذكر ان عبدة (الشمس) كانوا قد (اتخذوا لها صنماً يبدع جواهر حل
لون النار ، وله بيت خاص قد بنوه باسمه وجعلوا له الوقوف الكثيرة من القرى
والضياع وله مدنة وقوام وحجبة يأتون البيت ويصلون فيه ثلث كرات في
اليوم ، ويأتيه أصحاب المعاهد فيصومون لذلك الصنم ويصلون ويدعونه ويستشفعون
به . وهم اذا طلعت الشمس سجدوا كلهم لها ، واذا غربت واذا توسطت الفلك .
ولهذا يقرنها الشيطان في هذه الأوقات الثلاثة ، لتقع عبادتهم وسجودهم له . ولهذا
نهي النبي ، صلى الله عليه وسلم ، عن تحري الصلاة في هذه الأوقات قطعاً لمشابهة
الكفار ظاهراً ، وسداً للريبة الشرك وعبادة الأصنام ^١ . وذكر (يعقوبي)
ان العرب كانت اذا أرادت حج البيت الحرام ، وقفت كل قبيلة عند صنمها
وصلوا عنده ثم لبوا ^٢ . وفي هذين الخبرين دلالة على وجود الصلاة عند
الجاهليين ، ولا سيما في غير عبدة الشمس ، حيث كانوا يصلون ثلاث كرات
لها في اليوم .

وذكر ان (النسيح) بمعنى الصلاة والذكر ، روي ان (عمر) جلد رجلين
سبحا بعد العصر ، أي صلياً . وان قول الأعمش :

وسبح على حين العشيات والضحى ولا تعبد الشيطان والله فاعبدا

يعني الصلاة بالصباح والمساء وعليه فسر قوله : فبالحق الله حين تمسون وحين
تصبحون ، يأمرهم بالصلاة في هذين الوقتين ^٣ .

١ - بلوغ الأرب (٢١٥/٢) وما بعدها .

٢ - يعقوبي (٢٢٥/١) .

٣ - اللسان (٤٧٣/٢) ، (سيب) .

وذكر أنهم كانوا يصلّون على موتاهم ، وكانت صلاتهم أن يجعل الميت على سرير ، ثم يقوم وليّه ، فيذكر محاسنه كلها ويثني عليه . ثم يقول : عليك رحمة الله . ثم يدفن^١ .

وقد أشير إلى سجود الناس للشمس والقمر في القرآن الكريم : « ومن آياته الليل والنهار ، والشمس والقمر . لا تسجدوا للشمس ولا للقمر ، واسجدوا لله الذي خلقهن إن كنتم إياه تعبدون . فإن استكبروا ، فالذين عند ربك يسبحون له بالليل والنهار وهم لا يسأمون^٢ » . « يقول تعالى ذكره : فإن استكبر يا محمد هؤلاء الذين أنت بين أظهرهم من مشركي قريش وتعظموا عن أن يسجدوا لله الذي خلقهم وخلق الشمس والقمر ، فإن الملائكة الذين عند ربك لا يستكبرون عن ذلك ولا يتعظمون عنه^٣ » . كما أشير إلى سجود أهل (سبأ) إلى (الشمس) في الآية : « وجئتكم من سبأ نبياً يقين . إني وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شيء . ولها عرش عظيم . وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله ، وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل ، فهم لا يهتدون^٤ » . وفي هذه الآية وصف لعباد أهل سبأ للشمس وسجودهم لها . وقد ذكر المفسرون أن ملكة سبأ كانت لها كوة مستقبلة للشمس ، ساعة تطلع الشمس تطلع فيها ، فتسجد لها^٥ . فسجودهم للشمس ، هو عبادة لها وتعظيماً لشأنها .

الصوم :

وأما (الصوم) ، فتحن لا نجد له ذكراً في الكتابات الجاهلية بالمعنى القهوم منه عند أهل الكتاب أو المسلمين . وهو في اللغة الإمساك عن الشيء وتركه . وقيل للصائم صائم لأمساكه عن الطعام والمشرب والمتكح ، وقيل للصائم صائم لأمساكه عن الكلام . « وقوله عز وجل : إني نذرت للرحمان صوماً . قبل :

- ١ الحبر (٢٢٠ وما بعدها) .
- ٢ سورة فصلت - الرقم ٤١ . الآية ٣٧ وما بعدها .
- ٣ تفسير الطبري (٧٧ / ٢٤) .
- ٤ التلم ، الرقم ٢٧ ، الآية ٢٤ .
- ٥ تفسير الطبري (٩٤ / ١٩ وما بعدها) ، تفسير القرطبي (١٩٠ / ١٣ وما بعدها) .

معناه صوماً ، ويقويه قوله تعالى : فلن أكلم اليوم إنسياً^١ . والصوم : الصبر كذلك .

وقد ذكر (الصوم) في السور الثلثة ، أما في السور المكية ، فقد ذكر مرة واحدة ، في (سورة مريم) : « فقولي : إني نذرت لرحمن صوماً . فلن أكلم اليوم إنسياً »^٢ . وقد حددت السور المدنية أصول الصيام في الإسلام .

والصوم المعروف عند اليهود والنصارى معروف عند أهل الجاهلية الذين كان لهم اتصال واحتكاك بأهل الكتاب . فقد كان أهل يثرب مثلاً على علم بصوم اليهود ، بسبب وجودهم بينهم . وكان عرب العراق وبلاد الشام على علم بصوم النصارى ، بسبب وجود قبائل عربية منتصرة بينهم . وكان أهل مكة ، ولاسيما الأحناف منهم والتجار على معرفة بصيام أهل الكتاب . وبصيام الرهبان ، المنسل في السكوت والتأمل والجلوس في خلوة ، للتفكير في ملكوت السموات والأرض . ويظهر من أخبار أهل الأخبار أن من الجاهليين من اقتدى بهم ، وسلك مسلكهم . فكان يصوم ، صوم السكوت والتأمل والامتناع عن الكلام والازدواء في غار حراء وفي شعاب جبال مكة .

ويذكر أهل الأخبار أن قريشاً كانت تصوم يوم عاشوراء . وفي هذا اليوم كانوا يحفلون ، ويعتدون ، ويكون الكعبة ، وعظماؤهم ذلك بشأن قريشاً أقنعت ذنباً في الجاهلية ، فعظم في صدورهم ، وأرادوا التكفير عن ذنبهم ، فقرروا صيام يوم عاشوراء ، فصاموه شكراً لله على رفعه اللب عنهم^٣ . وذكر أن رسول الله كان يصوم عاشوراء في الجاهلية ، ولما قدم المدينة واطب عليه وأمر الناس بصيامه حتى نزل الأمر بصيام رمضان . وقد ذكر العلماء أنه يحتمل أن قريشاً اقتتلت بصيامه في الجاهلية ، بشرع سالف ، ولذا كانوا يعظمونه بكسوة البيت الحرام فيه^٤ . وذكر بعضهم : كان يوم عاشوراء ، يوماً تصومه قريش في الجاهلية ، اقتداءً بشرع سابق ، وكان النبي يصومه في الجاهلية ، فلما قدم المدينة صامه على عادته وأمر أصحابه بصيامه في أول السنة الثانية ، فلما نزل رمضان ، كان من

١ اللسان (٣٥٠ /) . (صوم) .

٢ سورة مريم ، رقم ١٩ ، الآية ٢٦ .

٣ بلوغ الأرب (٢٨٨ / ٢) .

٤ إرشاد الساري (٤٢١ / ٢) ، (باب حكم صيام عاشوراء) .

شاء صام يوم عاشوراء ومن شاء لا يصومه . وعقلوا سبب صيام (قريش) هذا اليوم ، انه كان أصابهم قحط ثم رفع عنهم ، فصاموه شكراً^١ . وورد : ان قريشاً كانت تعظم هذا اليوم ، وكانوا يكسون الكعبة فيه ، وصومه من تمام تعظيمه . وذكر ان رسول الله ، كان يتحرى صوم يوم عاشوراء على سائر الأيام ، وكان يصومه قبل فرض رمضان . فلما فرض رمضان ، قال : من شاء صامه ، ومن شاء تركه . وبقي هو يصومه تطوعاً ، فقيل له : يا رسول الله انه يوم تعظمه اليهود والنصارى ، فقال ، صلى الله عليه وسلم : اذا كان العام المقبل ان شاء الله صمنا اليوم التاسع ، فلم يأت العام المقبل حتى توفي رسول الله^٢ . وذكر أيضاً ان قريشاً كانوا اذا أصابهم قحط ثم رفع عنهم صاموا شكراً لله وحداً له على اجابة دعوتهم^٣ .

وقد أشار أهل الحديث الى صيام (يوم عاشوراء) ، فجعله بعضهم الصيام الذي كان في الإسلام قبل فرض صيام شهر رمضان ، وذكر بعضهم أنه كان مفروضاً الى السنة الثانية من الهجرة ، ثم نسخ بصوم رمضان^٤ .

وقد أشير الى الصيام في السور المكتبة من القرآن الكريم كما أشير اليه في السور المدنية ، ويدل نزول الوحي به في مكة وفي المدينة أنه كان من الشعائر الدينية القديمة ، وأن قريشاً كان لها علم به . ويظهر من بعض الآيات أن المراد من الصوم لم يكن الامتناع عن الأكل والشرب حسب ، بل كان يعني في أول عهد النبوة الامتناع عن الكلام كذلك^٥ .

ورواية أن قريشاً كانت تصوم في يوم (عاشوراء) ، لا تتفق مع الروايات الأخرى في كيفية فرض صيام شهر رمضان . ففي هذه الروايات أن النبي وحين قدم المدينة رأى يهود تصوم يوم عاشوراء ، فسألم : فأنبروه أنه اليوم الذي غرق الله فيه آل فرعون ، ولجئني موسى ومن معه منهم . فقال : نحن أحق بموسى منهم ، فصام ، وأمر الناس بصومه . فلما فرض صوم شهر رمضان ،

١ ارشاد الساري (١٧٤/٦) . باب أيام الجاهلية .

٢ زاد المعاد (١٦٤/١) وما بعدها .

٣ ارشاد الساري (١٧٤/٦) .

٤ راجع كتب الحديث : باب الصوم .

٥ سورة مريم ، الآية ٢٦ . وهي سورة مكية . رقمها ٥٨ حسب نزول السور بمكة .

لم يأمرهم بصوم يوم عاشوراء ، ولم ينههم عنه ^١ . وورد أن يهود نجف والمدينة كانوا يعظمون صيام عاشوراء ويتخللونه عيداً ^٢ .

ويقصلون بصوم اليهود يوم عاشوراء ، ما يقال له (يوم الكفارة) ، وهو يوم صوم وانقطاع ، ويقع قبل عيد المظال بخمسة أيام ، أي في يوم (١٠ تشرى) وهو يوم (الكبور) Kipur . ويكون الصوم فيه من غروب الشمس إلى غروبها في اليوم التالي ، وله حرمة كحرمة السبت ، وفيه يدخل الكاهن الأعظم قدس الأقداس لأداء القروض الدينية المقرضة في ذلك اليوم ^٣ .

وبما يلاحظ أن علماء التفسير والحديث ، قد اختلفوا اختلافاً كبيراً في موضوع الصيام قبل نزول الأمر به وفرضه . فقال بعضهم كان المسلمون يصنعون كما تصنع من صيامهم خمسين يوماً (حتى كان من أمر أبي قيس بن صرمة وعمر بن الخطاب ما كان ، فأحل لهم الأكل والشرب والجماع إلى طلوع الفجر) ^٤ . وقال بعض آخر ، كان صيام الناس قبل فرض رمضان صوم ثلاثة أيام من كل شهر ، وذكر أن ذلك كان تطوعاً لا فرضاً ، ولم يأت خبر تقوم به حجة بأن صوماً فرض على أهل الإسلام غير صوم شهر رمضان ^٥ . ولم يتمكن من العثور على خبر قاطع يفيد بأن المسلمين كانوا يصومون بمكة قبل الهجرة إلى المدينة .

ولا صلة لقصة (أبي قيس بن صرمة الأنصاري) (أبو صرمة الأنصاري) و (عمر بن الخطاب) بصيام عاشوراء ولا بعدد أيام الصوم . وكمل ما ورد فيها أن المسلمين كانوا في أول ما افترض عليهم في رمضان إذ أفطروا وكان الطعام والشراب وغشيان النساء لهم حلالاً ما لم يرقدوا ، فإذا رقدوا حرم عليهم ذلك إلى مثلها من القابلة ، فلم يزل المسلمون على ذلك ، حتى نام (أبو قيس بن صرمة) بعد افطاره وكان يعمل في حيطان المدينة بالأجر ، فلما أفاق أبى أن يأكل شيئاً وأصبح صائماً ، وكان (عمر) قد وقع على جارية له ، فنزل الوحي

- ١ الطبري (٢٦٥/٢) . ذكر بقية ما كان في السنة التالية من الهجرة ، إرشاد الساري (٤٢١/٣) .
- ٢ إرشاد الساري (٤٢٢/٣) .
- ٣ قاموس الكتاب المقدس (٢٦٠/٢) .
- ٤ تفسير الطبري (٧٥/٢) وما بعدها .
- ٥ تفسير الطبري (٧٦/٣) وما بعدها .

ينسخ ذلك عنهم في آية : « أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم هن لباس لكم وأنتم لباس لهن . علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم »^١ . فلا صلة لقصصها بموضوع الصوم .

ويظهر أنه خبر صيام قريش يوم (عاشوراء) ، هو خبر متأخر ، ولا يوجد له سند يؤيده . ولا يفضل صيام قريش فيه ، وهم قسوم مشركون . وصوم (عاشوراء) ، هو من صيام يهود . وهو صيام كفارة واستغفار عندهم ، فلم يستغفر قريش ويصومون هذا اليوم ؟ وماذا فعلوا من ذنب ، ليطلبوا من كفنتهم العفو والغفران ؟ وإذا كان هناك صوم عند الجاهليين ، فقد كان بالأحرى أن يصومه الأحناف ، ولم يرد في أخبار أهل الأخبار ما يفيد صيامهم في (عاشوراء) ولا في غير عاشوراء . ثم إن علماء التفسير والحديث والأخبار ، يذكرون أن الرسول صام (عاشوراء) مقدمه المدينة على نحو ما ذكرت قبل قليل . وأنه بقي عليه حتى نزل الأمر بفرض رمضان . ويظهر أن الرواة ألحوا اسم قريش في صيام (عاشوراء) ، لإثبات أنه كان من السن العربية القديمة ، التي ترجع إلى ما قبل الإسلام . وأن قريشاً ، كانت تصوم قبل الإسلام^٢ .

ويظهر من روايات أهل الأخبار ، أن صوم أهل الجاهلية : صوم امتناع عن الأكل والشرب وإتيان النساء . وهو صوم الإسلام ، وصوم امتناع عن الكلام وحبس للسان ، إما لأمد معين قصير ، مثل يوم أو أسبوع ، وإما لأمد طويل . وقد أشير في القرآن الكريم أن هذا الصوم في قوله تعالى : « فقل لي نلت للرحمن صوماً ، قلن أكلتم اليوم آمياً »^٣ . وروي أن رجلاً من زهاد أهل الجاهلية كانوا يصومون هذا الصوم .

وقد اتخذ الصوم نائراً ، روي أن (أبا بكر) دخل على امرأة من (أحسن) يقال لها (زينب) ، فرآها لا تتكلم ، فقال : ما لها لا تكلم ؟ قالوا : حجت مُصنعة ، قال لها : تكلمي . فإن هذا لا يحل . هذا من عمل الجاهلية ، فتكلمت .

١ البقرة ، الآية ١٨٧ ، تفسير الطبري (٩٤/٢ وما بعدها) .

٢ Sprenger; Leben, III, S. 54.

٣ سورة مريم ، الرقم ١٩ ، الآية ٢٦ ، تفسير الطبري (٥٦/١٦) ، روح المعاني (٧٩/١٦) .

فَقَالَتْ لَهُ : مَنْ أَنْتَ : قَالَ امْرُؤٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ . قَالَتْ : أَيُّ الْمُهَاجِرِينَ ؟ قَالَ
لَهَا : مِنْ قُرَيْشٍ . قَالَتْ لَهُ : مِنْ أَيِّ قُرَيْشٍ أَنْتَ ؟ قَالَ : إِنَّكَ لَسُؤْلٌ . أَنَا
أَبُو بَكْرٍ . قَالَتْ : مَا بَقَاؤُنَا عَلَى هَذَا الْأَمْرِ الصَّالِحِ الَّذِي جَاءَ اللَّهُ بِهِ بَعْدَ الْجَاهِلِيَّةِ ؟
قَالَ : بَقَاؤُكُمْ عَلَيْهِ مَا اسْتَفَافَتْ بِكُمْ أَنْفُسُكُمْ . قَالَتْ : وَمَا الْأَكْمَةُ ؟ قَالَ لَهَا : كَانَ
لِقَوْمِكَ رُؤُوسٌ وَأَشْرَافٌ يَأْمُرُونَهُمْ فَيَطِيعُونَهُمْ ؟ قَالَتْ : بَلَى . قَالَ : فَهَمُّ أَوْلَئِكَ
عَلَى النَّاسِ^١ .

فَالْتَصَبِيَتْ ، وَهُوَ الصُّومُ عَنِ الْكَلَامِ ، مِنْ فِعْلِ أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ . وَهُوَ مَعْرُوفٌ
عِنْدَهُمْ ، وَلَعَلَّهُ وَقَعَ لَهُمْ بِتَأَثُّرِهِمْ بِأَهْلِ الْكِتَابِ .

التحنت :

وَمِنْ طَرِيقِ عِبَادَةِ أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ : التَّحْنُتُ ، أَيُّ التَّعَبُّدِ وَالْقُرْبِ إِلَى الْآلِهَةِ ،
وَمِنْ ذَلِكَ حَدِيثُ (حَكِيمُ بْنُ حَزَامٍ) : « لَرَأَيْتُ أُمُورًا كُنْتُ أَتَحْنُتُ بِهَا فِي
الْجَاهِلِيَّةِ مِنْ صَلَاةٍ رَجُمَ وَصَدَقَ ، أَيُّ أَنْقَرِبَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى بِأَفْعَالٍ فِي الْجَاهِلِيَّةِ »^٢ .
وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ « يَجَاوِرُ فِي حَرَامٍ مِنْ كُلِّ سَنَةٍ شَهْرًا ، وَكَانَ يَمَّا تَحْنُتُ بِهِ
قُرَيْشٌ فِي الْجَاهِلِيَّةِ . وَالتَّحْنُتُ : التَّبَرُّعُ » . « فَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَسَلَّمَ يَجَاوِرُ ذَلِكَ الشَّهْرَ مِنْ كُلِّ سَنَةٍ ، يَطْعَمُ مَنْ جَاءَهُ مِنَ الْمَسَاكِينِ ، فَلِذَا قَضَى
رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جَوَارِهِ مِنْ شَهْرِهِ ذَلِكَ ، كَانَ أَوَّلَ مَا يَفْعَلُ بِهِ
— إِذَا انْتَصَرَ مِنْ جَوَارِهِ — الْكَعْبَةَ قَبْلَ أَنْ يَدْخُلَ بَيْتَهُ ، فَيَطُوفُ بِهَا سَبْعًا » ،
ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى بَيْتِهِ . وَذَكَرَ أَنَّ ذَلِكَ الشَّهْرَ هُوَ شَهْرُ رَمَضَانَ^٣ .

الاختتان :

وَمِنْ شَعَائِرِ الدِّينِ عِنْدَ الْجَاهِلِيِّينَ الْاِخْتَتَانُ . وَهُوَ مِنَ الشَّعَائِرِ الْفَاسِيَةِ بَيْنَهُمْ ،

١ إرشاد الساري (١٧٥/٦ وما بعدها) ، (إنها مصبغة ، إنها تدرت أن لا تنكلم .
لَقَالَ : تَكَلَّمِي إِنَّمَا هَذَا مِنْ فِعْلِ الْجَاهِلِيَّةِ) . الْإِسَابَةُ (٣١٥/٤ وما بعدها) ، (رَفَعُ
٥١٣ ، ٥١٥) ، اللِّسَانُ (٥٥/٢) .
٢ تاج المروس (٦١٦/١) ، (حنث) .
٣ الطَّبْرِي (٣٠٠/٢) .

حتى أنهم كانوا يعيرون (الأقول) ، وهو الشخص الذي لم يختن . وكان منهم ولا سبأ أهل مكة من يختن البنات أيضاً ، بقطع (بقلورهن) . وتقوم بذلك (الختانة) (الخاتنة) . وقد كانوا يعيرون من تكون أمه (ختانة) نساء ، فإذا أرادوا ذم أحد قالوا له : يا ابن مقطعة البظر ، وإن لم تكن أم من يقال له : خاتنة^١ .

وأما الاغتسال من الجنابة وتغسيل الموتى ، فمن السنن التي أقرت في الاسلام ، وقد أشير الى غسل الميت في شعر للأفوه الأودي^٢ . وأشير الى تكفين الموتى والصلاة عليهم في أشعار منسوبة الى الأعشى وإلى بعض الجاهليين^٣ . وورد أن قريشاً كانت تغسل موتاهم وتحنطهم ، ولكننا لا نستطيع تعميم هذه الأمور على كل العرب ، ولا الإدعاء بأنها كانت من شعائر الدين عندهم ، لما ذكرته مراراً من اختلاف العرب بأمور دينهم ، وعدم عضدوعهم للدين واحد . بل ورد أن المشركين لم يكونوا يغتسلون من الجنابة ، وقد ذهب المفسرون الى أن لفظة (نجس) الواردة في الآية : يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس ، فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا . وإن خفتم عيلة ، فسوف يغنيكم الله من فضله^٤ . فإما قصد بها أجناب ، وسميهم بذلك لأنهم يحبون فلا يغتسلون . فقال : هم نجس ولا يقربوا المسجد الحرام ، لأن الجنب لا ينبغي له أن يدخل المسجد^٥ . ولما نزل الأمر بمنع المشركين من دخول مكة ، شق ذلك على أصحاب رسول الله ، صل الله عليه وسلم ، وقالوا : من يأتينا بطعامنا ومن يأتينا بالمتاع ؟ فترلت وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء . و كان المشركون يجيئون الى البيت ويجيئون معهم بالطعام ويتجرون فيه . فلما نهوا أن يأتوا البيت قال المسلمون من أين لنا طعام ؟ فأنزل الله وإن خفتم عيلة ، فسوف يغنيكم الله من فضله^٦ .

والقرايين والنذور وزيارات المعابد والحج ، هي من أبرز الشعائر الدينية عند

١ تاج العروس (٥٢/٣) . (بظر) . نهاية الارب (١٧/١٠٠) .

٢ الحبير (٣٦٩ وما بعدها) .

٣ سورة التوبة . الآية ٢٨ .

٤ تفسير الطبري (٧٤/١٠) .

٥ تفسير الطبري (٧٥/١٠) .

سواد الناس . وتكاد تكون مفهوم الدين عندهم ، وذلك لما فيها من تماس مباشر
بأمور حياتهم ومصالحهم . فهم يفعلون ذلك لغايات استرضاء الآلهة والتوسل إليها
بأن تعطى غلة وافرة ومالاً ، فكانوا إذا تقربوا إلى صنم أو دعوا ربهم أو أدوا
مناسك حجهم (فلا يسألون ربهم) إلا متساع الدنيا (فن الناس من يقول :
ربنا آتانا في الدنيا . هب لنا غناً ، هب لنا إيلاً) . (وكانوا يعني في الجاهلية
يقفون يعني بعد قضاء مناسكهم ، فيقولون : اللهم ارزقنا إيلاً ، اللهم ارزقنا
غناً) ، وفي هؤلاء نزلت الآية : « فن الناس من يقول : ربنا آتانا في الدنيا ،
وماله في الآخرة من خلاق »^١ .

والفقر هو الذي حمل هؤلاء على أن يتقربوا إلى آلهتهم بالتطور والقرابين وبالرجوع
على فقرهم وجوعهم ، على أمل أن تعطف الآلهة عليهم ، فتعطيهم بالمال
والبركة والصحة ، تماماً كما يفعل شركاء أوراق (النصب) أو أوراق
سباق الخيل من الفقراء والمحتاجين على أمل الربح والكسب .
وهذه النظرة المادية الساذجة ، هي التي حملت عوامهم على تهديد آلهتهم وإخبارها
أنهم سيبتعون عن تقديم أي نذر أو أداء أية زبارة لها ، إن لم تمنّ عليهم
وتسجيب لأدعيتهم ، فتنفذ طلباتهم وما طلبوه منها . وهي التي تحملهم بعد ذلك
على التراجع عن تهديداتهم هذه ، وعلى الاستغفار وإظهار الندم لها ، لما بدر منهم
من سوء أدب ، على أمل استرضائها من جديد ، بعد أن فشلت وسائل التهديد
من تخويف تلك الآلهة .

الحلال والحرام :

يقول (ابن عساکر) في رواية تنسب إلى رجل من خشم : « كانت العرب
لا تحرم حلالاً ولا تحل حراماً . وكانوا يعدون الأوثان ويتحاكمون إليها »^٢ .
ومعنى هذا أنهم كانوا يحلون ويحرمون . وأن أمر الحلال والحرام إلى رجال الدين
منهم ، وهم سدنة الأوثان .
وقد تعرض (البغوي) لموضوع (أدیان العرب) وشعائرها ، فقال :

١ البقرة ، الآية ٢٠٠ . معبر الطبري (١٧٤/٢) وما بعدها .
٢ التاريخ الكبير ، لابن عساکر (٣١٧/١) .

وكانت أديان العرب مختلفة بالمجاورات لأهل المال ، والانتقال الى البلدان ، والانتجاعات . فكانت قريش وعامة ولد (معد) بن عدنان على بعض دين ابراهيم ، يحجون البيت ويقبضون المناسك ، ويقرون الفيف ويعظمون الأشهر الحرم ، وينكرون الفواحش والقاطع والتظلم ، ويعالجون على الجرائم ^١ . فأدخل في الدين أموراً تعدها اليوم من الأعراف وقواعد الأخلاق والسلوك ، وجعلها من سنة ابراهيم ، أي دين العرب القديم قبل افساده بالتعبد للأصنام .

وذكر (السكري) ، أن العرب كانت دون من سواها من الأمم . تصنع عشرة أشياء منها : في الرأس خمسة . وهي المفضضة والاستشاق والسواك والفرق وقص الشارب . وفي الجسد خمسة . هي : الختانة وحلق العانة وتنف الأبطان ، وتقليم الأظفار والانتجاء . - . خصت بهذا العرب ، دون الأمم ^٢ . فهذه الأمور العشرة هي من شعائر العرب في نظر (السكري) . وهي شعائر ، لا يمكن أن تجاريه في رأيه ، فنقول إنها كانت في جميع العرب ، وإنها كانت فيهم خاصة ، دون غيرهم من الأمم وفي كلام (السكري) أمور كثيرة لا يمكن التسليم بصحتها بل نجد أنه هو يناقض نفسه في مواضع أخرى من كتابه . من ذلك قوله : « وكانوا يؤمنون بالحساب » ^٣ « ولا يأكلون الميتة » ^٤ ، فعمم رأيه ، وجعله شاملاً كل العرب ، بينما هو رأي طائفة من الجاهليين ، وليس جميع أهل الجاهلية . ولقد قرآن الكريم دليل ذلك ، فقد حل عليهم لنكرانهم البعث والحساب ، وحرم على المسلمين أكل لحم الميتة . « حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير » ^٥ . وكانوا يأكلونها في الجاهلية .

وورد أن ممن حرم أكل الميتة على نفسه (حارثة بن أوس) الكلابي ، وهو جاهلي ، يقول : -

لا أكل الميتة ما عمرت نفسي وإن أبرح أملاقي
والعقد لا أنقض منه القوى حتى يوارى القبر أطباقي

- | | |
|---|--|
| ١ | اليعقوبي (٢٢٤/١) ، (أديان العرب) . |
| ٢ | المعبر (٢٢٩) . |
| ٣ | المعبر (٢٢٢) . |
| ٤ | المعبر (٢٢٩) . |
| ٥ | المائدة ، الآية رقم ٣ ، تفسير الطبري (٤٤/٦) ، روح المعاني (٥١/٦) . |
| ٦ | المعبر (٢٢٩) . |

الفصل الثاني والسبعون

الحج والعمرة

والحج الذهاب الى الأماكن المقدسة في أزمته موقوفة ، وللحج الى الآلهة ، وإلى صاحب ذلك الموضع المقدس . وتقابل هذه الكلمة Pilgrimage في الإنكليزية^١ . والحج بهذا المعنى معروف في جميع الأديان تقريباً ، وهو من الشعائر الدينية القديمة عند الساميين .

وكلمة (حج) من الكلمات السامية الأصلية العتيقة ، وقد وردت في كتابات مختلف الشعوب المنسوبة الى بني سام^٢ . كما وردت في مواضع من أسفار التوراة^٣ . وهي تعني قصد مكان مقدس وزيارته .

وفي روع الشعوب السامية القديمة وغيرها أن الأبواب لها بيوت تستقر فيها ، قيل لها في الأزمنة القديمة (بيوت الآلهة) . ولذلك يرى المتعبدون والمثنون شدة الرحال إليها ، للتبرك بها وللحج إليها ، وذلك في أوقات محددة وثابتة ، وفي أيام معينة تكون أياماً حراماً لكونها أياماً دينية ينصرف فيها الإنسان إلى كلفته ، ولذلك تعد أعياداً ، يعمد فيها الناس ، بعد اقامتهم الشعائر الدينية المقررة

١ تفسير الطبري (٤٤/٢) ، (الباسي) ، النسان (٢٢٦/٢) ، الاقتناع (٣٣٤/١) ،

الكشاف ، للزمخشري (٣٨٩/١) وما بعدها .

Ency. Brita., Vol. 17, p. 925, Ency. Religi., Vol. 10, p. 10.

٢ تاج العروس (١٦/٢) وما بعدها ، النسان (٤٨/٣) وما بعدها .

Ency. Religi., 10, p. 22.

Shorter Ency. of Islam, p. 123.

ويعد أدائهم القواعد المرسومة ، الى الفرح والسرور والرقص ، ليدخلوا السرور الى قلوب الأرياب . ففي الحج إذن مناسك وشعائر دينية وعبادة تؤدي ، واجتماع وسرور وحبور .

ويكون الحج بأدعية وبمخاطبة الى الآلهة وبتمولات لتقبل حج ذلك الشخص الذي قصدوا تقرباً اليها . وهذا هو الشائع والمعروف عن الحج ، غير أن من الجاهلين من كان يحج حجاً مصطنعاً ، أي دون كلام ، فلا يتكلم الحاج طلبة أيام حجه . وقد كان ذلك من عمل الجاهلية ^١ .

وقد ميّز الشهر الذي يقع فيه الحج عن الأشهر الأخرى بتسميته بـ (شهر ذي الحجة) وبـ (شهر الحج) . وذلك لوقوع الحج فيه . وهذه التسمية المعروفة حتى الآن في التقويم المجري ، هي تسمية قديمة ، كانت معروفة في الجاهلية ، وردت في نصوص الجاهلية . فبين أسماء الأشهر الواردة في نصوص المسند اسم شهر يعرف بـ (ذ حجت) أي (ذي الحجة) ، ويدل ذلك على أنه الشهر الذي يحج فيه . وقد وردت كلمة (حج) في نصوص المسند كذلك ^٢ .

وقد ذكر (أفيثانيوس) Epiphanius أن من أسماء الأشهر عند العرب شهراً اسمه Aggathalbaeith (حج البيت) ^٣ ، أراد به شهر (ذي الحجة) . والعرب الذين قصدهم هذا الكاتب هم عرب (الكورة العربية) ، ومعنى هذا أن العرب الشماليين كان لهم شهر يسمى بـ (ذي الحجة) كذلك ^٤ .

ولفظ Aggathalbaeith ، هي لفظة عربية التجار حرفت على لسان (أفيثانيوس) وقومه ، لتناسب منطقتهم ، فصارت على هذا النحو ، وهي من كلمتين عربيتين في الأصل ، هما (حجة البيت) ، أو (حج البيت) . ويكون نص (أفيثانيوس) هنا من النصوص المهمة بالنسبة لنا ، التي تساعدنا في الرجوع بتاريخ استعمال هذا المصطلح الى إيلانه ، ولا بد وأن يكون ذلك المصطلح قد استعمل قبل أيام ذلك الكاتب ولا شك .

ويقع شهر الحج (ذي الحجة) - على رواية (أفيثانيوس) - في (تشرين

١ ارشاد الساري (١٧٥/٦) .
٢ D. Nielsen, Mondreligion, S. 60, Glaser 1054, Wiener Mus., No. 7.
٣ Shooter Ency. of Islam, p. 124.
٤ Rosta, S. 85, Ency. Religi., 10, p. 10.

الثاني (١) ، وأشار (بروكوبيوس) الى ان العرب كانوا قد جعلوا شهرين من السنة حرماً لأنهم لا يغزون فيها ولا يهاجم بعضهم بعضاً^١ ، كما أشار (فوتيوس) الى الأشهر الحرم عند العرب^٢ . والشهران اللذان أشار اليهما (بروكوبيوس) ، هما شهرا ذو القعدة وذو الحجة في نظر (ونكلر) ، وهما بمثلان - في رأيه - (جولاي) و (أغسطس) أي تموز وآب^٣ .

إننا لا نستطيع في الوقت الحاضر أن نقول إن شهر (ذو حجت) المذكور في المسند ، أو Aggathalbnedth الذي ذكره (أفيثانيوس) ، هو شهر (ذو الحجة) الشهر المعروف الذي كان من شهور أهل مكة . فمن الجائز أن يكون حج العرب الشماليين أو حج العرب الجنوبيين في وقت آخر يختلف عن وقت حج أهل مكة ، فيكون شهرهم المذكور شهر آخر يقع في موسم آخر من السنة ، ولا ينطبق مع شهر (ذي الحجة) .

ويرى (ونكلر) أن ما ذكره (فوتيوس) من احتفال العرب مرتين في السنة بالحج الى معبدهم المقدس : مرة في وسط الربيع عند اقتران الشمس ببرج الثور ، وذلك لمدة شهر واحد ، ومرة أخرى في الصيف وذلك لمدة شهرين ، إنما يراد بذلك شهر رمضان لا اقتران الشمس فيه ببرج الثور . وأما الشهران الآخران فهما ذو القعدة وذو الحجة^٤ .

ويظهر من غريسة ما أورده أهل الأخبار من روايات عن موسم الحج في الجاهلية ، أن الحج الى مكة كان في موسم ثابت ، هو الربيع على رأي كثير من المستشرقين ، أو الخريف على رأي (ولغوزن)^٥ . وذلك بسبب ما ذكر عن النبي ومن رغبة قرش وغيرها من أن يكون في وقت واحد ، كما تحدثت عن ذلك في باب النبي . وقد ذهب (ولغوزن) الى أن (الشهر الحرام) المذكور في القرآن الكريم ، هو (شهر الحج) ، وهو الشهر الأول من السنة ،

Reste, B. 100, Epiphanius, Haer., 51, 24.

Procopius, II, 14.

Reste, 101.

Winckler, ALF, II, Reihe, Ibd., S. 336.

Winckler, ALF, II, Reihe, Ibd., S. 336.

Shorter, p. 124.

أي شهر محرم ، بينما يرى المفسرون أنه رجب ، أو ذو القعدة أو ذو الحجة^١ .
والأصح أنه أي شهر من الأشهر الحرم .

وقد ورد في القرآن الكريم : « الحج أشهر معلومات ، فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج »^٢ . وقد قال (الطبري) : « اختلف أهل التأويل في قوله : الحج أشهر معلومات . فقال بعضهم : يعني بالأشهر المعلومات : شوالاً وذو القعدة ، وعشرًا من ذي الحجة » ، جعلن الله سبحانه للحج ، وسائر الشهور للعمرة ، فلا يصلح أن يحرم أحد بالحج إلا في أشهر الحج . والعمرة يحرم بها في كل شهر »^٣ ، وذكر أن الله لم يسم أشهر الحج في كتابه ، لأنها كانت معلومة عندهم^٤ ، وأن المراد بذلك أنه لا يحرم بالحج إلا في أشهر الحج ، فإن من سنة الحج أن يحرم بالحج في أشهر الحج^٥ . وبناءً على ذلك ، فلا يكون المراد من الآية أن الحج يقع في كل وقت من أوقات هذه الأشهر . وإنما هو في وقت معين ، ولكن الإحرام للحج ، أي العزم عليه يكون في أي وقت من هذه الأشهر المذكورة ، وليس في الأشهر الأخرى . وذكر (المسعودي) أن أشهر الحج : شوال ، وذو القعدة ، وعشر من ذي الحجة^٦ . ومعنى ما تقدم أن الجاهليين كانوا يتهاون للحج من دخول شهر شوال ، فيصلحون أمورهم ، ويحضرون ما يحتاجون إليه من لوازم السفر ، فإذا أراد أحدهم تجارة وكسباً ذهب إلى الأسواق ، حتى يهل شهر ذو الحجة ، وإن لم يرد تجارة ، ذهب في أي وقت يراه مناسباً له . فبدا موسم الحج اذن والتهيؤ له يكون من شهر شوال .

ويظهر من شعر نسب إلى (عوف بن الأحوص) أنه سمى شهر (ذي الحجة)
(شهر بني أمية) ، إذ يقول :

ولاني والذي حببت قرينتي محارمه وما جمعت حراء
وشهر بني أمية والهدايا إذا حببت مضرجهما الدماء^٧

Shooter, p. 409.

١ البقرة ، الآية ١٩٧ .

٢ تفسير الطبري (١٠٥/٢) .

٣ القرطبي ، الجامع (٤٠٥/٢) .

٤ تفسير الطبرسي (الجزء الثاني) (ص ٢٩٢ وما بعدها) . تفسير ابن كثير

(٢٣٥/١) .

٥ مروج (١٨٩/٢) ، الكشف (٢٥٤/١) .

٦ شرح ديوان البيه (٢١) .

وقد ذهب (ولوزن) وجاعة آخرون من المشرقين الى تعدد بيوت الأرباب التي كان يحج اليها الجاهليون في شهر (ذي الحجة) والى عدم حصر الحج عند الجاهليين بموضع واحد^١ . ومعنى هذا أن حج أهل الجاهلية لم يكن الى (مكة) وحدها ، بل كان الى صحبات عديدة أخرى . بحيث حج كل قوم الى (البيت) الذي قدسوه وكانوا يتقربون اليه ووضعوا أصنامهم فيه . ويتفق هذا الرأي مع ما يراه أهل الأخبار من وجود بيوت للأصنام ، وكان الناس يزورونها ويتقربون اليها ويلبسون عند أصنامها ويطوفون حولها ويلبسون ثلبية القسم الذي يطوفون حوله .

والحج الى مكة والى البيوت المقدسة الأخرى ، مثل بيت اللات في الطائف وبيت العزى على مقربة من عرفات وبيت مناة وبيت ذي الخليفة وبيت نجران وبقية البيوت الجاهلية المعظمة ، إنما هو أعياد يجتمع الناس فيها للاحتفال معاً بذلك الأيام وهم بذلك يدخلون السرور على أنفسهم وعلى أنفس ألفتهم بحسب اعتقادهم وتفترون هذه الاحتفالات بذبج الحيوانات ، كل يذبج على قدر طاقته ومكانته ، فيأكل منها في ذلك اليوم من لم يتمكن من الحصول على اللحم في أثناء السنة لفقره ، فهي أيام يجد فيها الفقراء لذة ومنعة وعبادة .

ويذكر أهل الأخبار أن الحج الى مكة كان في الجاهلية كذلك، وأن الجاهليين كانوا يحجون الى البيت منذ يوم تأسيه ، وأنهم كانوا يفصلون مكة أهواجاً من كل مكان . وأن ملوكهم كانوا يتقربون الى (بيت الله) بالهدايا والثلور، وأن منهم من حج الى . وأن الناس كانوا يقسمون بالبيت الحرام لما له من مكانة في نفوس جميع الجاهليين .

غير أننا نجد في روايات بعض أهل الأخبار ما ينافي تعظيم كل العرب للبيت وحجهم اليه واحترامهم للحرم وللأشهر الحرم . فقد ورد أن من العرب من (كان لا يرضى للحرم ولا للأشهر الحرم حرمة) ، ومنهم (خشم) و (طيء)^٢ ، وأحياء من قضاة ويشكر والحارث بن كعب^٣ . وورد أن ذؤبان العرب وصعاليكها

Reste, B. 84.

١ تاج العروس (٢٤١/٨) - (حرم)
٢ الجاهل . الحيوان (٢١٦/٧) وما بعدها ، النجدي . إيمان العرب (١٢) ،
المحير (٣١٩)

وأصحاب التطاول ، كانوا لا يؤمنون على الحرم ، ولا يرون للحرم حرمة ، ولا للشهر الحرام قدراً . وقد كانوا خطراً يهدد البيت وأهله لذلك ، ألف (هاشم) بن قريش وسادات القبائل ألفاً ليحمي بهم البيت . قال (الجاحظ) في تفسيره للإيلاف : « وقد فسرهم قوم بغير ذلك . قالوا : إن هاشماً جعل على رؤوس القبائل ضراباً يؤدونها إليه ليحمي بها أهل مكة . فإن ذؤبان العرب وصعاليك الأحياء وأصحاب التطاول ، كانوا لا يؤمنون على الحرم ، لا سباً وناس من العرب كانوا لا يرون للحرم حرمة ولا للشهر الحرام قدراً ، مثل طيء وخثعم وقضاعة وبعض بلحارث بن كعب »^١ . ورؤوس القبائل الذين جعل هاشم عليهم ضراباً يؤدونها إليه ليحمي بها أهل مكة ، هم رؤساء مكسة ولا شك ، ومن كانت له مصلحة تجارية مباشرة بمكة ، فكان يأخذ من هؤلاء ما يأخذ ثم يجمعه ويعطيه إلى (المؤلف قلوبهم) من سادات القبائل التازلين حول مكة وعلى مقربة منها ، كما ألف بين مكة وبين سادات القبائل الذين تمر قوافل مكة بأرضهم في طريقها إلى الشام أو العراق أو اليمن ، يروابط (الإيلاف) ، أي العقود التي عقدوها معهم ، باعطائهم جعلاً معيناً ، أو حقوقاً تبين وتكتب ، أو ربحاً يدفع مع رؤوس المال عن البضائع التي تدفع لقريش ، لتقوم قوافلها ببيعها في الأسواق . وبذلك أمنت مكة وسلمت تجارتها ، ودانت بعض القبائل بدين قريش في الأشهر الحرم ، لما فيها من فائدة ومنفعة مادية بيّنة ظاهرة ، فاحترمتها ، وبهنا أمن الحج واستراح التجار من قريش ومن غيرهم في ذهابهم بحرية وبأمان في هذه الشهور إلى الأسواق .

وليس لدينا وبإلأسف أخبار مدققة عن «تلك الحج وشعائره عند الجاهليين . لعدم ورود شيء من ذلك في النصوص الواردة إلينا . ما خلا الحج إلى (بيت الله الحرام) بمكة ، حيث حفظت الموارد الإسلامية لنا شيئاً من ذلك ، بسبب فرض الحج في الإسلام ، وافتراق الإسلام لبعض شعائره التي لم تتعارض مع مبادئه ولولا ذلك لما عرفنا شيئاً عن الحج إلى مكة عند الجاهليين . ولهذا فسأقتصر في كلامي هنا على الحج إلى مكة فقط . إلا إذا وجدت خبراً أو نصاً عن حج غير

١ رسائل الجاحظ (٧٠) ، Kister, p. 119, 143 . طبقات الشعراء . لابن سلام (٦١) ، التعاليبي ، المضاف والنسوب (٨٩) ، التقاتض (٦٧١/٢) ، ابن هشام (٦٠٣/١) ، الأزمنة والامكنة ، للمزدلفي (١٦٦/٢) ، الاغانى (٤٢/٢١) .

أهل مكة من الجاهليين إلى مكة أو إلى بيوت أخرى فسانكلم عنه حيثل .
ويظهر من غزيلة ما جاء في روايات أهل الأخبار عن (حج البيت) ، أن
مناسك الحج لم تكن واحدة بالنسبة للمحتاج ، بل كانت تختلف باختلاف القبائل .
فقد انفردت (قريش) بأمر من أمور الحج ، واعتبرتها من مناسك حجها ،
وانفردت قبائل أخرى بمناسك لم تعتبرها (قريش) موجبة لها ، ولم تعمل بها
ووقفت قريش في مواقف ، اعتبرتها مواقف خاصة بها . وأوجب على من يفد
إلى مكة للحج ، مناسك معينة مستحدث عنها . فلما ظهر الإسلام وحشد مناسك
الحج وثبتها . وأوجب على كل مسلم اتباعها .

ويبدأ الحج في الإسلام بلبس (الأحرار) حين بلوغه (الميقات) المخصص
للجهة التي جاء منها . و (ميقات) الحج موضع إحرامهم^١ . وقد عين الرسول
أكثر (المواقيت) وثبتها ، فجعل (ذا الحليفة) ميقاتاً لأهل (يرب) ،
و (الجحفة) ميقاتاً لأهل الشام ، و (يللم) ميقاتاً لأهل اليمن ، و (قرن
المنازل) لأهل نجد ومن يأتي من الشرق نحو الحجاز . وأما (ذات عرق) ،
فميقات أهل العراق ، قبل أن الرسول لبته ، وقبل إقامته ثبت بعد فتح العراق .
أما أهل مكة ، فكانوا يحرمون من بيوتهم^٢ . ويجوز أن تكون هذه المواقيت من
مواقيت أهل الجاهلية كذلك ، وقد ثبتها الإسلام .

ويستعد الجاهليون للحج عند حضورهم موسم (سوق عكاظ) . فإذا انتهت
أيام السوق ، وأراد منهم من أراد الحج ، ذهب إلى (بجنة) ، فأقام بها إلى
هلال ذي الحجة ، ثم ارتحل عنها إلى (ذي المجاز) ، ومنه إلى (عرفة) ،
فإذا كان يوم التروية ، تزودوا بالاء وارتفعوا إلى عرفة. هنا بالنسبة إلى التجار،
الذين كانوا يأتون هسله المواضع للتجارة . أما بالنسبة إلى غيرهم ، فقد كانوا
يقصدون الحج في أي وقت شاءوا ، ثم يذهبون إلى (عرفة) للوقوف موقف
عرفة ، يقصدها (الحلة) ، أما (الخمس) فيقفون به (نحر) ، ثم يلتفون
جميعاً بمزدلفة للإفاضة^٣ .

١ نأج العروس (٥٩٤/١) ، (وقت) .
٢ شرح النووي على صحيح مسلم (١٩٠/٥) وما بعدها ، (حاشية على الإرشاد
الساري) ، الإرشاد الساري (٩٧/٣) وما بعدها .
٣ الأذوقي ، أخبار مكة (١٢١/١) وما بعدها .

وبدأ حج أهل الجاهلية بالإحلال . فكانوا يهلون عند أصنامهم ، ويلبسون إليها ، فإذا انتهوا من ذلك قدموا مكة ، فكان الأنصار مثلاً يهلون لمناة في معبده ، أي أنهم كانوا يغادرون (يُترَب) إلى معبد الصنم، فيكونون فيه لمراقبة هلال ذي الحجة ، فإذا أهلوا لبوا ، ثم يسير من يسير منهم إلى مكة ، لحج البيت^١ .

والطواف بالبيوت وبالأصنام ، ركن من أركان الحج ، ومنسك من مناسكه . وكانوا يفعلونه كلما دخلوا البيت الحرام ، فإذا دخل أحدهم الحرم ، وإذا سافر أو عاد من سفر ، فأول ما كان يفعله الطواف بالبيت . وقد قفل غيرهم قفل قريش ببيوت أصنامهم ، إذ كانوا يطوفون حولها ، كالذي كان يفعله أهل يثرب من طوافهم بـ (مناة)^٢ .

وقد ذكر الأخباريون أن أهل الجاهلية كانوا يطوفون حول الرجيمات ، وهي حجارة تجمع فتكون على شبه بيت مرتفع كالمنارة ، ويقال لها الرجمة^٣ . وكان الجاهليون يطوفون حول الأصنام والأنصاب كذلك . وذكر (نيلوس) Nilus أن الأعراب كانوا يطوفون حول الذبيحة التي يقدمونها قرباناً للأئمة^٤ . وكانوا يطوفون حول القبور أيضاً : قبور السادات والأشراف من الناس .

وطافوا حول (الأنصاب) ، ويسمون طوافهم بها (الدوار) . فكانوا يطوفون حول حجر يتصبونه طوافهم بالبيت ، وسموا تلك الأحجار الأنصاب^٥ . وللطواف كلمة أخرى هي (الدوار) من (دار) حول موضع من المواضع ، وطاف حوله الشيء . وإذا عاد إلى الموضع الذي ابتداء منه . ونجد هذا المعنى في شعر الشاعرين الجاهليين : امرئ القيس ، وعنترة بن شداد العبسي^٦ . وقد ذكر علماء اللغة أن (الدوار) صنم كانت العرب تنصبه ، يجعلون موضعاً حوله يدورون به ، واسم ذلك الصنم والموضع الدوار . ومنه قول امرئ القيس :

فَعِنَ لَنَا سِرْبٌ كَانَ يُعَاجِهُ عِلَارِي دَوَارٍ ، فِي مَلَأٍ مَذْبِلٍ^٧

- ١ صحيح مسلم (٦٨/٤ وما بعدها) .
- ٢ شرح صحيح مسلم ، للنووي (٢٦/٨ وما بعدها) .
- ٣ تاج العروس (٤٢٢/٣ وما بعدها) . - عشر ، اللسان (٢٨٤/٦) .
- ٤ Reste, B. 108.
- ٥ الأصنام (٤٢ ، ٢٣) .
- ٦ اللسان (٢٩٦/٤ وما بعدها) . - Shorter Ency. of Islam, p. 585.
- ٧ اللسان (٢٩٧/٤ وما بعدها) .

وقيل إنهم كانوا يدورون حوله أسابع كما يطفأ بالكعبة . وقيل حجارة كانوا يطوفون حولها تشبهاً بالكعبة^١ .

وتلعب عبادة الحجر دوراً بارزاً في (الدور) . فقد كان قوم من أهل الجاهلية يقيمون الأحجار ، ثم يطوفون حولها ، يشخلون الدور عبادة لهم . وقد تكون الأحجار أصناماً ، وقد تكون حجارة تنقى ليطاف حولها . و « عن أبي رجاء العطاردي ، قال : لما بعث النبي ، صلى الله عليه وسلم ، فسمعنا به لحقنا بمسيلة الكذاب ، فلحقنا بالثار ، وكنا نعد الحجر في الجاهلية ، فإذا وجدنا حجراً هو أحسن منه ، ألقينا ذلك وأخذناه ، فإذا لم نجد حجراً جمعنا حصى من تراب ثم جئنا بغنم فحلبناها عليه ثم طقنا به . وكنا إذا دخل رجب قلنا جاء منصل الأمة ، فلا ندع سهماً فيه حديده ، ولا حديدته في رمح إلا نزعناها وألقيناها »^٢ .

ويلاحظ أن الجاهليين كانوا يقيمون وزناً لحليب في أمور العبادة ، فقد كانوا يسكبونه على الأصنام ، كما رأينا في باب الأصنام ، وفي القصة المتقدمة . ويلاحظ أن الرواية قد خصصت حليب الغنم ، ولم تشر إلى حليب الإبل ، أو حليب أبة مائبة أخرى ، مما قد يدل على وجود رابطة بين هذا الحليب وبين (الدور) وأن له علاقة بالأساطير ، وذلك في حالة صدق الخبر بالطبع .

والطواف من أهم طرق التعبيد والتقرب إلى الآلهة . يؤدونه كما يؤدون الشعائر الدينية المهمة مثل الصلاة ، وليس له وقت معلوم . ولا يخص ذلك بمعبود معين ولا بموسم خاص مثل موسم الحج ، بل يؤدونه كلما دخلوا معبداً فيه نصم ، أو كعبة أو ضريح ، فهم يطوفون سبعة أشواط حول الأضرحة أيضاً : كما يطوفون حول الذبائح المقدمة إلى الآلهة . فالطواف ، إذن من الشعائر الدينية التي كان لها شأن بارز عند الجاهليين .

وكانوا يطوفون بالبيت في نعلهم ، لا يظفون أرض المسجد تعظيماً له^٣ . إلا أن يكون الحاج فقيراً حافياً ، فقد كان منهم من لا يملك نعلان ولا خفان ولا

١ تاج العروس (٢١٦/٣) . (دار) .
٢ زاد المعاد (٣٢/٣) . (فصل في قدوم وفد بني حنيفة) . ارشاد الساري
(٤٣٥/٦) . (باب وفد بني حنيفة) .
٣ اليعقوبي (٢٢٦/١) . (أديان العرب) .

سائر ما يليس بالرجل لفقره . وذكر أن رسول الله قال : « من لم يجد نعلين ، فليلبس خفين »^١ . وقد ذكر (السكري) ، أن (الخمس) كانوا « لا يطوفون بالبيت إلا في حذائهم وثيابهم » ، ولا يمسون المسد بأقدامهم تعظيماً لبقعته »^٢ . وذكر أن (الحلي) كانوا على العكس منهم . « فإذا دخلوا مكة بعد طراغهم تصدقوا بكل حذاء وكل ثوب لهم » ، ثم استكروا من ثياب الخمس تبرئاً للكعبة أن يطوفوا حولها إلا في ثياب جدد . ولا يجعلون بيوتهم وبين الكعبة حذاء يباثرونها بأقدامهم »^٣ .

وكانوا يدخلون جوف الكعبة بنعالهم ، لا يتأثمون من ذلك . وذكر أن (الوليد بن المغيرة) كان أول من خلع نعليه لدخول الكعبة ، تعظيماً لها ، فخلع الناس نعالهم »^٤ .

وعدّة الطواف حول الكعبة عند الجاهليين سبعة أشواط ، ولا أستبعد أن يكون هذا العدد ثابتاً بالنسبة إلى الطواف حول البيوت الأخرى أو حول الرجبات والأنصاب والقبور أيضاً . فقد كان الطواف سبعة أشواط مقررأ عند غير العرب أيضاً ، وقد ذكر في (التوراة) ، أن كان العبرانيون يمارسون^٥ . والعدد سبعة هو من الأعداد المقدسة المهمة عند الشعوب القديمة . ولهذا أرى أن غير قريش من العرب كانوا يطوفون هذا الطواف أيضاً حول محبتاتهم في ذلك الوقت .

وقد ورد أن من الجاهليين من كان يطوف ويده مربوطة بيد إنسان آخر ، يحمل أو يسير ، أو بزمام أو متدلي ، أو خيط أو أي شيء آخر ، يفعلونه نفراً ، أو حتى لا يفترقا . وقد نهى عن ذلك في الإسلام . فقد روي أن الرسول رأى أحدهما وقد فعل ذلك ، فقطع يده فذلك الرباط^٦ .

-
- ١ صحيح مسلم (٢/٤ وما بعدها) ، (كتاب الحج) ، ارشاد الساري (٣/٣١٣ وما بعدها) ، (باب ليس الخفين للمحرم إذا لم يجد النعلين) .
 - ٢ المحبر (١٨٠) .
 - ٣ المحبر (١٨٠ وما بعدها) .
 - ٤ ابن رسته ، الأعلان (١٩١) .
 - ٥ Shooter Ency. of Islam, p. 588.
 - ٦ صحيح البخاري (١٧٩/٢) ، ارشاد الساري (٣/١٧٣ وما بعدها) ، (باب الكلام في الطواف) .

الحمس والطلس والحلة :

والأخباريون يذكرون ان الطاطنين باليت كانوا على صفتين : صنف بطوف عرباناً ، وصنف بطوف في ثيابه . ويعرف من بطوف باليت عرباناً بـ (الحيلة) . أما الذين بطوف بثيابهم ، فيعرفون بـ (الحمس)^١ . وأضاف بعض أهل الأخبار الى هذين الصفتين ، صنفاً ثالثاً قالوا له : (الطلس)^٢ .

وقبائل الحلة من العرب : تميم بن مر^٣ كلها غير يربوع ، ومازن ، وضبة ، وحيس ، وطاعة ، والقوث بن مر ، وقيس عيلان بأسرها ما خلا ثقيفاً وعبدوان ، وعامر بن صعصعة ، وربيع بن نزار كلها . وقضاة كلها ما خلا علافاً وجناباً . والأقمار وخشم ، وبجيلة ، ويكر بن عبد مائة بن كتانة ، وهذيل بن مدركة ، وأسد وطى ، وبارق . وقد ذكر هذه الأسماء (محمد بن حبيب)^٤ . وذكرها (اليعقوبي) على هذا النحو : تميم وضبة ومزينة والرباب وعكل وثور وقيس عيلان كلها ما خلا عبدوان وثقيف وعامر بن صعصعة وربيع بن نزار كلها ، وقضاة وحضرموت وعك وقبائل من الأزد^٥ .

وهم يذكرون ان (الحيلة) هم ما عدا الحمس وأنهم كانوا بطوفون عراة إن لم يجدوا ثياب أحس ، وكانوا يقصلون من طرحهم ثيابهم طرحهم ذنوبهم معها^٦ . ويذكرون أنهم كانوا يقولون : « لا نطوف في الثياب التي قارغنا فيها الذنوب » ، « ولا نعبد الله في ثياب أذليتنا فيها » ، « ولا نطوف في ثياب عصينا الله فيها » ، وذكر أنهم « كانوا اذا طافوا خلعوا ثيابهم وقالوا لا نطوف في ثياب عصينا الله فيها » ، فيلقونها عنهم ، ويسمون ذلك الثوب التقي^٧ . وفي رواية ان من بطوف

- ١ تفسير الطبري (١٧٠/٢) . البخاري . (كتاب الحج . الباب ٩١) . (كتاب التفسير . الباب ٣٥) . البلدان (٦٢٠/٤) وما بعدها . الأزرقى (١١٣/١) . اليعقوبي (٢٢٦/١) . النجف ١٩٦٤ م . (المجبر ١٧٨) . ابن هشام (٢١٢/١) . الكشف (٢٥٦/١) . شرح حسانة أبي تمام . للتبريزي (٧/١) . شرح الفضليات . للاتباري (٢٥٩) . ابن رشيق . العمدة (١٨٨/٢) . ابن الفقيه . مختصر كتاب البلدان (١٨) .
- ٢ المجبر (١٧٨) وما بعدها .
- ٣ المجبر (١٧٩) .
- ٤ اليعقوبي (٢٢٦/١) . (النجف ١٩٦٤ م) .
- ٥ الروض الانف (١٣٣/١) .
- ٦ الأزرقى (١١٧/١) . اللسان (١٢٢/٢٠) . الكشف (٦٠/٢) .

من (الحلة) ثيابه يضرب وتسترع منه ثيابه^١ . فجعلت هذه الرواية خلع الثياب واجب على الحلة عثم عليهم ، لا يجوز مخالفته ، وإلا تعرض المخالف للعقاب . وتخفض النساء هذه القاعدة أيضاً إذا كن من الحلة ، فكانت المرأة تطوف بالبيت وهي عريانة^٢ . وقبل تضع احداهن ثيابها كلها إلا درعاً مفرجاً عليها ثم تطوف فيه^٣ . وقبل كانت تقف على باب المسجد ، فتقول : من يعير مصوناً؟ من يعير ثوباً ؟ من يعيرني تطواً ؟ فإن أعارها أحد ثوباً أو كراه لها طافت به ، وإلا طافت عريانة كما يطوف الرجال على حد زعم الروايات . لا يستر عورتها لباس أو قماش ، بل كانت تضع إحدى يديها على قبلها واليد الأخرى على دبرها وتطوف حول البيت على هذا النحو . وهم يروون في ذلك بيتاً ينسبونه لامرأة جبيلة ، قبل هي : ضبابة بنت عامر بن صعصعة ، طافت بالبيت عريانة وهي تقول :

اليوم يبدو بعرضه أو كله وما يشاء من فلا أحله^٤

وشاءت بعض الروايات أن تخفف من وقع طواف النساء على هذه الصورة في النفوس ، فذكرت أن بعض النساء كانت تنظف سيوراً فتعلقها في حقونها لتستر بها^٥ ، وذكرت روايات أخرى أنهن كن يظفن ليلاً ، وبذلك يتخلصن من وقوع سترهن في أعين الرجال ، لأن طواف الرجال في النهار^٦ .

وقد وصفت بعض الروايات طواف العريان فقالت : « يبدأ بإساف فيستلمه ، ثم يستلم الركن الأسود ، ثم يأخذ عن يمينه ويطوف ويجعل الكعبة عن يمينه ، فإذا عثم طوافه سباً ، استلم الركن ثم استلم ثالثة فيختم بها طوافه ، ثم يخرج فيجد ثيابه كما تركها لم تمس ، فيأخذها فيلبسها ولا يعود إلى الطواف بعد ذلك

١ الكشاف (٦٠/٢) ، الأزرق (١١٢/١) وما بعدها .

٢ صحيح مسلم (١٦٢/١٨) .

٣ سيرة ابن هشام (١٣٣/١) ، حاشية على الروض ، .

٤ الأزرق (١١٥/١ ، ١١٧) ، اللسان (١٢٩/١١) ، طوف ، الروض (١٣٣/١) .

٥ صحيح مسلم (١٦٢/١٨) ، تفسير الطبرسي (١١٨/٨) ، تفسير القرطبي ،

الجامع (١٨٩/٧) .

٦ الأزرق (١١٧/١) .

٦ الأزرق (١١٧/١) ، الطبرسي (٤١٤/٣) .

عرباناً^١ . هذا هو طواف أهل الجاهلية قبل الاسلام على رواية أهل الأخبار ، وجاء في بعض الروايات : « كانت العرب تطوف بالبيت عراة إلا الحمس ، والحمس قریش وما ولدت ، كانوا يطوفون بالبيت عراة ، إلا ان تعطيم الحمس ثياباً ، فيعطي الرجال الرجال والنساء النساء » ، « فن لم يكن له من العرب صديق بمكة يعبره ثوباً ولا يسار^٢ يستأجر به ، كان بين أحد أمرين : إما ان يطوف بالبيت عرباناً ، وإما ان يطوف في ثيابه ، فإذا فرغ من طوافه ألقى ثوبه عنه ، فلم يمس أحد . وكان ذلك الثوب يسمى القتي^٣ » . وجاء أيضاً ان (الحمس) كانوا « يقولون نحن أهل الحرم ، فلا ينبغي لأحد من العرب ان يطوف إلا في ثيابه ، ولا يأكل اذا دخل أرضنا إلا من طاعتنا »^٤ .

وورد أنهم « كانوا يطوفون بالبيت عراة ، وهم مشبكون بين أصابعهم يصفرون فيها ويصفقون »^٥ .

ويذكر بعض أهل الأخبار ان طواف الطائف عرباناً انما يكون للمرة الأولى ، فإذا عاد فطاف بعد ذلك ، لبس ملابسه ، وطاف بملابسه كالحمس لا يلقبها خارج حدود الحرم .

والتفسير الذي ذكره الأخباريون لطواف العربي ، هو رغبة الطائف حول البيت ان يكون نقياً متحرراً عن ذنوبه وآثامه بعيداً عن الأدران . واعتقاده ان طوافه بملابسه طواف غير صحيح ، لأن ملابسه شاركت في آثامه ، فهي ملوثة نجسة ، ولذلك هاب من لبسها ، فإذا أتم طوافه تركها في موضعها ، ولبس ملابسه أخرى جديدة^٦ .

ويذكر الأخباريون ان تلك الملابس التي يلبسها المحرم تبقى في مكانها ، لا يمسه أحد ، ولا يحركها حتى تبلى من وطء الأقدام ومن الشمس والرياح . ويقال لهذه الثياب التي تطرح بعد الطواف (القتي) . وقد أشير إليها في شعر

- ١ - الأزرق (١١٤/١) .
- ٢ - تفسير القرطبي (١٨٩/٧) .
- ٣ - المصدر نفسه .
- ٤ - تفسير التيسابوري (١٥٧/٩) ، حاشية على تفسير الطبري ، تفسير الطبري (١٥٧/٩ وما بعدها) .
- ٥ - الأزرق (١١٧/١) ، النسان (١٢٢/٢٠) ، الكشف (٦٠/٢) .

ل (ورقة بن نوفل)^١ . ولعل اعتقاد القوم بأن تلك الملابس ملوثة بالأدران ، هو الذي منع الناس الآخرين من لمس تلك الملابس والاستفادة منها، فركوها لذلك للأرض وللشمس والرياح تعبت بها إلى أن تتمزق وتهرى^٢ .

ولكننا نجد الأخباريين يهودون فيروون روايات تناقض ما ذكره عن (القي) . إذ يقولون : كان الحلة إذا ختموا طوافهم وأتموه بنائلة ، خرجوا إلى ثيابهم التي ألقوها خارج باب المسجد ، فلبسوها ، فإذا أرادوا الطواف مرة أخرى طافوا بملابسهم^٣ . فهم يقولون في هذه الرواية طواف العري ، ولكنهم ينكرون ترك (القي) على الأرض لتدوس عليها الأقدام ولتلعب بها الرياح وتعبث بها الأهوية والأثرية ، ويجعلون أصحابها يهودون إليها فيلبسوها ثارة أخرى .

ونقرأ في كتبهم رواية أخرى تذكر أن أحداً من الحلة إذا لم يجد ثياب أحمر يطوف فيها ومعها فضل ثياب بلبسها ، غير ثيابه التي عليه فقطاف في ثيابه ثم جعلها لقي بطرحها بين أساف ونائلة فلا يمسه أحد ولا يتنفع بها متنفع حتى تبل من وطء الأقدام والشمس والرياح والأمطار^٤ .

وقد ذكر (محمد بن حبيب) أن (الحلة) كانوا إذا دخلوا مكة ، تصدقوا بكل حذاء وكل ثوب لهم ثم استكروا لهم من ثياب الخمس تنزيهاً للكعبة أن يطوفوا حولها إلا في ثياب جدد . ولا يجعلون بينهم وبين الكعبة حذاء يباشرونها بأقدامهم . فإن لم يجدوا ثياباً طافوا عراة . وكان لكل رجل من الحلة حرمي من الخمس يأخذ ثيابه . فمن لم يجد ثوباً طاف عرياناً . وإنما كانت الحلة تستكري الثياب للطواف في رجوعهم إلى البيت لأنهم كانوا إذا خرجوا حجاجاً لم يستحلوا أن يشرؤا شيئاً ولا يبيعوه حتى يأتوا منازلهم إلا اللحم . وكان رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، حرمي عياض بن حمار المجاشعي : كان إذا قدم مكة طاف في ثياب رسول الله^٥ .

١ . نفس حزننا كرمي عليه ، كاله . القي بين أيدي الطائفين حريم الأزرق (١١٢/١) ، اللسان (١٢٢/٢٠) . النهاية في غريب الحديث (٢٩/٤) . تفسير القرطبي . الجامع (١٨٩/٧) .

٢ . Robertson Smith, p. 191.

٣ . الأزرق (١١٤/١) .

٤ . الأزرق (١١٤/١) .

٥ . المعبر (ص ١٨٠ وما بعدها) .

قالذي يطوف بالبيت عرياناً ، هو ضعيف (الحلة) ، ممن لا قبل له على استكراه ثياب له من أحسي ، ومن لا صاحب له من الخمس ، يعطيه ثياباً ليلبسها . أما المتمكن من (الحلة) ، ومن له صديق من الخمس ، فلا يطوف عرياناً ، وإنما يطوف بثياب أحسي .

ويرى (روبرتسن سمث) أن الذي أوصى إلى الجاهلين وجوب طرح ملابس الحلة إذا أحرم فيها ، اعتقادهم بتقدس تلك الملابس في أثناء الإحرام مما يجعلها في حكم الـ (Tabu) عند الأقوام البدائية ، ولذلك لا يجوز استعمالها مرة أخرى ، وهم أنفسهم قوم غير مقدسين^١ .

وقد منع الإسلام طواف (العري) في أي وقت كان ، وحتم على الجميع فريش وغيرهم لبس (الإحرام)^٢ . وقد ذكر علماء التفسير في تفسير قوله تعالى : « وإذا فعلوا فاحشة ، قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها . قل : إن الله لا يأمر بالفحشاء . أتقولون على الله ما لا تعلمون »^٣ . إن هذه الآية نزلت في حق المتعبرين الذين كانوا يطوفون بالبيت عراة ، « فإذا قيل لهم : لم تفعلوا ذلك ؟ قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها » ، « فنحن نفعل مثل ما كانوا يفعلون » ، ونقتلدي بهديهم ونستن بسنتهم . والله أمرنا به فنحن نتبع أمره فيه^٤ . فنحن إذن أمام سنة جاهلية قديمة ، ترجع طواف العري إلى أمر سابق وشرعية سابقة .

وأما (الخمس) ، فهم الذين كانوا يطوفون بثيابهم ، ثم يحفظون بها فلا يلقونها ، فلهم من هذه الشاحية ميزة امتازوا بها على الحلة . ولهم على الحلة ميزة أخرى ، هي أنهم كانوا يقفون الموقف في طرف الحرم من (عرة) : يقفون به عشية عرفة ، ويظلون به يوم عرفة في الأراك من نخرة ، ويقضون منه إلى المزدلفة^٥ . ولا يقفون موقف غيرهم بعرفة ، فقتصروا عن مناسك الحج والموقف من عرفة وهو من الحل . وحجبتهم أنهم أهل الحرم فلا يخرجون منه مثل سائر

R. Smith, p. 701.

١
٢ الأزرقي ، أخبار مكة (١١١/١) .
٣ الاعراف ، الرقم ٢٧ الآية ٢٨ .
٤ تفسير الطبري (١١٤/٨) ، تفسير القرطبي ، الجامع (١٨٧/٧) .
٥ الأزرقي (١١٦/١) وما بعدها (١٥٨/٢) وما بعدها ، النهاية (٢٢٢/١) ، شرح النووي ، (١٨٠/٨) وما بعدها ، Ency., II, p. 335.

الناس . ويقولون : « نحن أهل الحرمه وولاء البيت وقطان مكة وساكنها ، فليس لأحد من العرب مثل حقتا ولا مثل مترلتنا ولا تعرف له العرب مثل ما تعرف »^١ .

وتفسير كلمة (الحرم) في رأي علماء اللغة التشدد في الدين ، «محموا حمأ» لأنهم كانوا يتشددون في دينهم ، فكانوا إذا زوّجوا امرأة منهم لغريب عنهم ، أي لمن كان من الحلة اشترطوا عليه أن كل من ولدت له ، فهو أحسب على دينهم . وكانوا إذا أحرموا لا يأخذون الاقط ، ولا يأكلون السم ولا يسألونه ولا يحضون اللبن ، ولا يأكلون الزبد ، ولا يلبسون الوبر ولا الشعر ولا يستقلون به ما داموا حرمأ ، ولا يزلون الوبر ولا الشعر ولا ينسجون ، وإنما يستقلون بالأدم ، ولا يأكلون شيئاً من نبات الحرم . وكانوا يعظمون الأشهر الحرم ولا يخفرون فيها القمة ولا يقلعون فيها ، ويطوفون بالبيت وعليهم ثيابهم . وكانوا إذا أحرم الرجل منهم في الجاهلية وأول الاسلام ، فإن كان من أهل المدبر تقب نقباً في ظهر يته فته يدخل ومنه يخرج ولا يدخل من بابه . وكانوا يقولون : لا تعظموا شيئاً من الحل ، ولا تجاوزوا الحرم في الحج فلا يهاب الناس حرمكم ، ويرون ما تعظمون من الحل كالحرم ، فقصروا عن مناسك الحج والموقف من عرفة وهو من الحل ، فلم يكونوا يقفون به ولا يفيضون منه ، وجعلوا موقفهم في طرف الحرم من نمرة : يقفون به عشية عرفة ، ويظلون به يوم عرفة في الأراك من نمرة ، وفيضون منه إلى المزدلفة . فإذا عممت الشمس رؤوس الجبال دفعوا . وكانوا يقولون : نحن أهل الحرم ، لا نخرج من الحرم ، ونحن الحرم . وكانوا إذا أرادوا بعض أطمعتهم ومناعمهم ، تسوّروا من ظهر بيوتهم وأدبارها حتى يظهروا على السطوح ، ثم يتزلون في حجرتهم ، ويحرمون أن يمرّوا تحت حبة الباب . فهم يحرمون إذن أشياء لم تكن العرب تحرمها^٢ .

١ ابن هشام (١٣٢/١) ، هامش على الروض ، *

٢ الأزدني (١١٦/١ وما بعدها) ، النهاية (٢٢٣/١ - ٢٩٣) ، الاشتقاق (١٥٣) ،

ابن هشام (٢١١/١) ، الكامل ، لابن الأثير (٢٩١/١) ، الطبرسي (٤١١/٢) *
Caetani, Annali, I, B. 121, Esay., II, p. 335, Snouck Hurgronje, Het Mek-
kaansche Feest, p. 21, 77, 111, 130.

٢ المعالي (٩٩٨/٢) *

والحمس : قريش ومن ولدت قريش وكنانة وجديلة قيس على رواية^١ .
تضاف اليهم خزاعة والأوس والخزرج وجشم وبنو ربيعة بن عامر بن صعصعة
وأزد شنوءة وجذلم زييد وبنو ذكوان من بني سليم وعمرو اللات وثقيف وخطلفان
والغوث وعدوان وعلاف وقضاعة على رواية للأزرقي^٢ . وهم : (قريش) وكنانة
وجديلة قيس ، وفهم ، وعدوان ، وثقيف ، وعامر بن صعصعة على رواية
أخرى^٣ . وقد ذكر (ابن سعد) ، ان الحمس هم : قريش وكنانة وخزاعة
ومن ولدت قريش من سائر العرب . أو حليف قريش . وذكر بعض الرواة انهم
قريش وعامر بن صعصعة ، والخارث بن كعب^٤ . وذكرهم بعض الآخر على هذا
الشعر : قريش ، وكنانة ، وخزاعة ، وثقيف ، وخثعم ، وعامر بن صعصعة ،
وتصر بن معاوية . وأضاف (القرطبي) جشماً اليهم^٥ . وورد ان الحمس لقب
قريش ومن ولدت قريش ، وكنانة وجديلة قيس . وهم : فهم وعدوان ابنا
عمرو بن قيس عيلان ، وبنو عامر بن صعصعة ، ومن تابعهم في الجاهلية .
هؤلاء الحمس . وانما سموا لحمسهم في دينهم أي تشددهم فيه ، وكذا في
الشجاعة فلا يقاتلون ، أو لالتجاليهم بالحمساء وهي الكعبة^٦ .

وأورد (ابن حبيب) أسماء الحمس من العرب ، فقال : « قبائل الحمس
من العرب : قريش كلها . وخزاعة لتزولها مكة ، ومجاورتها قريشاً . وكل من
ولدت قريش من العرب وكل من نزل مكة من قبائل العرب .

فمن ولدت قريش : كلاب ، وكعب ، وعامر ، وكلب بنو ربيعة بن عامر
ابن صعصعة . وأهمهم محمد بنت تيم بن غالب بن فهر . وإياها حتى ليبدن ربيعة بقوله :

سقى قومي بني محمد وأسقى نحرأ والقبائل من هلال

- ١ . النهاية في غريب الحديث (٢٩٢/١) ، تاج العروس (١٣٢/٤) وما بعدها .
(حمس) ، اللسان (٢٥٧/٧) وما بعدها . (حمس) ، « إرشاد الساري (٢٠٠/٣) .
- ٢ . البليخي ، البدء والتاريخ (٣٢/٤) وما بعدها .
البلدان ، مكة . Kister, p. 128.
- ٣ . الطبقات (٧٢/١) . (صادر) .
- ٤ . ابن هشام (٢١٢/١) ، ابن قتيبة ، المعارف (٢٦٩) ، المعاني (٦٨٩) ، المزدوني ،
شرح الحماسة (٣١) . Kister, p. 132.
- ٥ . القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن (٣٤٥/٢) ، أبو حيان ، البحر المحیط (٦٣/٢) ،
Kister, p. 132.
- ٦ . تاج العروس (١٣٢/٤) ، (حمس) .

والخارث بن عبد مناة بن كنانة . ومذليج بن مرة بن عبد مناة بن كنانة ،
يتزولهم حول مكة . وعامر بن عبد مناة بن كنانة . ومالك ، وملكان ، ابنسا
كنانة ، وثقيف ، وعدوان ، ويربوع بن حنظلة . ومازن بن مالك بن عمرو بن
نجم . وأمها جندلة بنت فهر بن مالك بن النضر . ويقال : ان بني عامر كلهم
حس لحمس انوشهم من بني ربيعة بن عامر . وعلاف ، وهو ريثان بن حلوان
ابن عمران بن الخاف بن قضاة . وجناب بن هيل بن عبدالله من كلب . وأمه
أمسة بنت ربيعة بن عامر بن صعصعة . وأمها مجد بنت تيم الأدم بن غالب
ابن فهر ^١ .

وبين مما تقدم ان (الحمس) ، لم يكونوا قريشاً وحدهم وسكان الحرم ،
وانهم لم يكونوا جماعة قامت وظهروا على رابطة الدم والنسب ، كما هو الحال
بالنسبة الى القبيلة . بل هم قريش وكل من نزل الحرم وسكن مكة ، وطوائف
من العرب شاركت قريشاً في مناسك حجها ، وسارت على شجها في الحج ،
وشاطرتها الرأي في دينها . وقد ذكر (الملاحظ) ان (عامر بن صعصعة) ،
و (خزاعة) ، و (ثقيفاً) ، والخارث بن كعب ، كانوا دينين ، أي على
رأي ودين ^٢ . وكانوا على دين قريش . وقال غيره : « وصارت بنو عامر من
الحمس وليسوا من ساكني الحرم لأن أمهم قرشية . وهي مجد بنت تيم بن مرة .
وخزاعة انما سميت خزاعة ، لأنهم كانوا من سكان الحرم فخرعوا عنه ، أي
خرجوا . ويقال انهم من قريش انتقلوا بينهم الى اليمن . وهم من الحمس » ^٣ .

وقد ميز بعض العلماء بين (الحمس) وهم نزلاء الحرم ، وبين المحمسين
الذين دخلوا في الحمس ، لأن أمهاتهم من قريش ، بأن أطلقوا عليهم لفظة
(الأحمس) . فقالوا : « والأحمس من العرب الذين أمهاتهم من قريش » ^٤ .

وجاء في بعض الأخبار ان (خططان) ، لما التحلت لها بيتاً أرادت به مضاعفة
الكعبة ، وجعلت له حرماً كحرم مكة . أغار (زهير بن جناب الكلبي) عليه

١ المحير (١٧٨ وما بعدها) . ابن دريد ، الاشتقاق (٥٤٠) . ابن عبد البر ، الباء

(٨٧) ، الفضليات ، شرح الأنباري (٢٥٩) ^٢

Clouston, p. 138.

٣ تاج العروس (١٣٢/٤) ، (حمس) .

٤ تاج العروس (١٣٣/٤) ، (حمس) .

وهذه^١ . وكان زهير من الخمس .

وقد وصف (ابن سعد) (الخمس) بقوله : « والخميس أشياء أحدثوها في دينهم تحمسوا فيها ، أي شددوا على أنفسهم فيها ، فكانوا لا يخرجون من الحرم إذا حجوا ، فقصروا عن بلوغ الحق ، والذي شرع الله ، تبارك وتعالى ، لإبراهيم وهو موقف عرفة ، وهو من الحسل ، وكانوا لا يسألون السمن ولا ينسجون مظال الشعر ، وكانوا أهل القباب الحمر من الأدم ، وشرعوا لمن قدم من الحاج أن يطوف بالبيت وعليه ثيابه ما لم يذهبوا إلى عرفة ، فإذا رجعوا من عرفة لم يطوفوا طواف الإفاضة بالبيت إلا امرأة أو في ثوبيه أمسي^٢ ، وإن طاف في ثوبه لم يحل له أن يلبسها^٣ » .

وللجاحظ ملاحظات قيمة عن قريش لما صلة بالخميس ، وقد تفسر لنا معنى الخمس وسبب شموله أناساً هم من غير قريش .

ذكر أن الإسلام لما ظهر ، لم تكن هناك أية امرأة قريشية ، كانت مسبية عند غير قريش . ولم تكن هناك أية امرأة مسبية في أيدي القبائل وأما من قريش . ويذكر أيضاً أن قريشاً لم تكن تزوج بناتها من أبناء أشراف القبائل حتى تشترط عليهم أن من تلد منهن ، فيكون من بلدن من الخمس . أما هم ، فكانوا إذا تزوجوا من بنات قبائل أخرى ، فإنهم لم يشترطوا على أنفسهم أي شرط ، وكان من هذه القبائل عامر بن صعصعة وثقيف وخزاعة والحارث بن كعب ، (وكانوا دينيين) . وكانوا على دين قريش في أمورهم . وكانت قريش كريمة ، ولم ترض بالغارات والغزو ولا بالظلم ولم تقبل بالوآد ولا بالدخول بمن يقع في أيديهم أسرى من النساء . وكان من فضائلهم أن من الله عليهم بالإبلافا . فأغناهم وجعلهم (لقاحاً) ، فلم يخضعوا لملك ، ولم يستعبدهم سلطان أجبي^٤ . ولم يدفعوا أي شيء عنهم لملك من الملوك . بل كانت الملوك تأتي إلى مكة وتعظم البيت وتحترم سكانه . وهم قريش الخمس^٥ .

١ الاغانى (١٢/١٢١) ، (٩٣/٢١) .

٢ ابن سعد ، الطبقات (٧٢/١) ، (صادر) .

٣ أخذت هذه الملاحظات من (كستري) (Kistee) ، لعدم وجود مخطوطة الجاحظ التي نقل منها عندي . وهي : مختارات فصول الجاحظ ، الموجودة في المتحف البريطاني برقم ٣١٨٣ .

٤ ابن الفقيه ، كتاب البلدان (١٨) .

ويظهر من ملاحظات الباحث المذكورة ، ان من أهم مبادئ الخمس ، نية الغارات ، أي الغزو ، حتى جعله قريش ركناً من أركان دينها . كما تمسكت بركن آخر ، هو عدم الدخول بمن يقع في أيديهم من النساء السبايا في حالة ما اذا غارت قبيلة عليهم ، واعتدت عليهم ، فالتصرت قريش عليها ، وأخذت منها سبايا . أما الخمس الآخرون ، مثل عامر بن صعصعة وثقيف والحارث بن كعب ، وأمثالهم ممن تحمسوا ، فلم يتمسكوا بهذه الأصول . وذكر (ابن القتيبة) ان القبائل المذكورة لم تكن في الأصل حمياً ، على دين قريش ، وإنما تحمست وصارت من الخمس بتأثير قريش عليها^١ . وقريش تمسكوا وحدهم بالخمس ، (وصاروا بأجمعهم تجاراً خطاه)^٢ . وقد عرفت مكة بـ (دار الخمس) ، كما جاء ذلك في شعر ينسب الى (الكاهن اللهي)^٣ . وعرفت قريش بـ (أهل الله)^٤ .

ونجد بين (الخمس) والحرم صلة متينة ، تشير الى الأصل الديني للخمسة والى ارتباطهم بالكعبة . فذهب (الزمخشري) الى ان (خمس) من (حرم)^٥ ، ومن دلائل هذه الصلة أيضاً ما ورد في كتب أهل الأخبار من ان الكعبة كانت قد عرفت بـ (الحماء) . سميت بذلك (لأن حجرتها أبيض الى السواد)^٦ . ومن ان (الخمس) هم نزلاء الحرم^٧ . فبين الخمس والحرم ، صلة متينة اذن . حتى قبل ان المنسوب الى الحرم من الناس (حرمي)^٨ . و (ان عياض بن حمار المجاشعي ، كان حرمي رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، فكان اذا حج طاف في ثيابه . وكان أشرف العرب الذين يتحسسون على دينهم ، أي يتشددون اذا حج أحدهم لم يأكل إلا طعام رجل من الحرم : ولم يطف إلا في ثيابه .

١ Kister, p. 137.

٢ التعالبي - تمار القلوب (أ) ، (أهل الله) . Kister, p. 137.

٣ الروض الأنف (١/١١٨) - ابن دريد ، الاشتقاق (٤٩١) ،
Wellhausen, Reste, S. 134. Kister, 139.

٤ Kister, p. 139.

٥ الزمخشري ، الفائق ، (خمس) . Kister, p. 139.

٦ تاج العروس (٤/١٣٢) ، (خمس) .

٧ تاج العروس (٤/١٣٢) ، (خمس) .

٨ بالكسر .

فكان لكل رجل من أشرافهم رجل من قريش . فيكون كل واحد منها حيرمي صاحبه ^١ . ويقصر لنا هذا المعنى أيضاً قولهم : « رجل حرام : فاحصل في الحرم » ، و « الحرم بالكسر الرجل المحرم . يقال : أنت حل وانت حرم » ^٢ . وقد أنجب الزواج المشروط بين قريش وبين من يتزوج منها حراً جنداً ، انضل الخمس اليهم عن طريق (شرط عقد الزواج) من جهة الأمهات . أما نسل هؤلاء الخمس الجدد ، الذين هم في الواقع أنصاف أحاس ، فقد صار حراً مثل قريش ، لأنهم ولدوا من ولد حسب من الخمس ومن ولادة أحسية . وبذلك لم يعد الخمس أهل مكة وحدهم ، بل شمل أهل مكة ومن تزوج مكيات فأنجبين ولداً ، عدواً حراً بشرط العقد .

وتذكر بعض الروايات ان عقيدة (الخمس) لم تكن قديمة ، بل ظهرت قبيل الاسلام . قال ابن اسحاق : كانت قريش لا أدري قبل القبيل أو بعده ، ابتدعت أمر الخمس رأياً . فتركوا الوقوف على عرفة والإقامة منها ، وهم يعرفون ويقولون انها من المشاعر والحج ، إلا أنهم قالوا : نحن أهل الحرم ، ونحن الخمس . والخمس أهل الحرم . قالوا : ولا ينبغي للخمسة ان يتألفوا الأقط ولا يسلزوا السمن ، وهم حرم . ولا يدخلوا بيتاً من شعر ، ولا يستقلوا إن استقلوا إلا في بيوت الأدم ما كانوا حراً ، ثم قالوا : لا ينبغي لأهل الحل ان يأكلوا من طعام جاءوا به من الحل الى الحرم اذا جاءوا حجاجاً أو عسكراً ، ولا يطفوا بالبيت اذا قدموا لول طوافهم إلا في ثياب الخمس ^٣ . ولم تذكر هذه الرواية سبب ظهورها ، ولا من أوجدها من رجال قريش .

ويبين من غريفة ما ذكره أهل الأخبار عن الخمس : ان الخمس هم أهل مكة الأحرار في الأصل ، ثم من دان بدينهم . وجدوا أنفسهم في ضئك شديد ، في واد غير ذي زرع ، لا شيء عندهم غير (البيت) ، فتحصوا في دينهم وتشددوا وتعاونوا فيها بينهم على العمل معاً ، وعلى الدعوة الى عبادة رب البيت والقرء الضيف والامتناع عن غزو غيرهم ، وعن التحرش بأحد ، إلا اذا تحرش بهم ، وعلى إغاثة الملهوف ومساعدة من يأت اليه حاجاً أو معتمراً أو قاصداً

١ تاج العروس (٢٤٣/٨) . (حرم)

٢ تاج العروس (٢٤٣/٨) . (حرم)

٣ إرشاد الساري (٢٠٠/٣)

تجارة ، وتقديم الرفادة له . ونصرة الغريب . وحافظوا على الحرمات : حرمة البيت وحرمة الحج وحرمة الأشهر الحرم ، ووضعوا لأنفسهم قواعد صارمة في آداب السلوك في موسم الحج وفي غيره ، تشعروا أنهم كانوا ينظرون إلى أنفسهم كأهم (جنس) ، فضله الله على بقية أجناس العرب ، لهم مناسكهم ، وللبقية العرب مناسكهم ، ولهم قباب خاصة بضربونها لأنفسهم في سوق عكاظ وفي المواضع الأخرى تميزهم عن سائر من يقف إلى هذه المواضع ، وترفعوا عن مصاهرة سائر الناس إلا إذا وجدوا أنهم أكفاء لهم ، والكفافة : القوة والمال . وأقاموا مجتمعهم الخاص هذا على قواعد دينية تعاونية اقتصادية (صاروا بأجمعهم تجاراً خططاء)^١ . شعارهم أنهم (أهل الله)^٢ ، دينهم : التمسك والتشدد في الدين ، فتركوا الغزو كراهة للشي واستحلل الأموال ، فلما ذهبوا في الغنص لم يبق مكسبة سوى التجارة : فغزبوا في البلاد إلى قيصر بالروم ، والنجاشي بالحبشة ، والقوقس بمصر ، وصاروا بأجمعهم تجاراً خططاء^٣ . وكان أن تغردوا بالإيلاف ، وللايلاف ارتباط بالחס ، وتوجهوا إلى التجارة والاتجار ، وجمعوا بين الدين والمال ، وأفسحوا المجال لمن به نشاط وهمة أن يجمع مالا وأن يكون غنياً على أن يساهم بتسوية في تحمل أعباء مجتمعهم ، للدفاع عن (بيت الله) ولحسب المتحالفين معهم وتوزيع العدل فيما بينهم ، توزيعاً يخفف من حدة التفاوت فيما بين الغني والفقير ، حتى لا يقع اختلال في التوازن بين طبقات المجتمع ، يحمل الفقراء على انتزاع المال من الأغنياء كرهاً وقسراً . وجعلوا ذلك واجباً من واجباتهم ، فحشوا على رفع الظلم ، واتخذوا السقاية والرفادة ، وعندوا (حلف الفضول) للدفاع عن المحتاج ، وجعلوا (الإيلاف) الذي سألتكم عنه في الجزء الخاص بالحياة الاقتصادية ، سبباً من أسباب إشاعة الرحمة ومساعدة الفقراء وتخفيف وطأة الفقر في هذه القرية : (أم القرى) ، وفي ذلك يقول (مطروود بن كعب الخزاعي) في رثائه عبد المطلب :

١ النعالي ، تمار القلوب (١٨) ، (أهل الله) ، (ص ١١) ، (تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم) .

٢ تمار (ص ١٠) .

٣ تمار (ص ١١ وما بعدها) ، سيرة ابن دحلان (١ / ١٤٠) ، (حاشية على السيرة الحلبية) .

يا أيها الرجل المحول رحله ألا نزلت يأكل عبد مناف
هبتك أمك لو نزلت عليهم فممنوك من جوع ومن إفراف
الآنجلون العهد من آفاقها والراجلون لرحلة الإسلاف
والمطعمون إذا الرياح تناوحت ورجال مكة مستون عجاف
والمفضلون إذا المحول تراءفت والقاللون هائم للأضياف
والخالطون غنيهم بفقيرهم حتى يكون فقيرهم كالكافي
كانت قریش بيضة فظلفت فالبح خالصة لعبد مناف

قام رجال من رجال مكة بالاتفاق على المحتاجين، فعدوا ذلك ديناً ومروءة وشهامة. فكان (نعيم بن عبدالله) العدوي، ينفق على أراذل بني عدي وأيتامهم^١. وكان (حكيم بن حزام) ينفق من أرباحه على المحتاجين من آلته وذويه^٢. وكان صديق النبي قبل البعث^٣، وتذكر كتب السير والراجم أسماء رجال آخرين عرفوا بتصدقهم على الفقراء والمحتاجين، اعتبروها منقبة وقربة لهم في الجاهلية، وقد أقرهم الرسول عليها.

فالحمس (أهل الله)، وأمنه، تجمعهم عبادة الله والأصنام، والمتأسك والشعائر التي وضعوها لهم، والتجارة التي جعلوها مثل شعائر دينهم، ينفقون من أرباحهم منها في سبيل (الله). أي بيت الله وأهله المستضعفون، حتى جعلوا الصدقة وإطعام المحتاج من أمور الدين. فجمعهم مجتمع جمع بين الدين والتجارة، وبين الدين والمال. حثهم على التعاون بخلف رؤوس أموالهم والاتجار معاً بقوافل، وفيه ربح كبير مقصود، وحشهم على إنصاف من ليس له شيء حتى يصير

- ١ أخذت هذه الآيات من أمالي المرتضى (٢/٢٦٨)، وتختلف بعض الاختلاف عن أمالي القالي (١/٢٤١ وما بعدها)، التي فيها:
منهم علي والنبي محمد القائلان هائم للأضياف
وعن سيرة ابن هشام (١/١١٧)، (حاشية على الروض الآنف)، وعن معجم الشعراء (٢٧٥)، وشرح ابن أبي الحديد (٣/٤٥٣)، والعيني (٤/١٢٠)، والبكري، مسط (٥٤٧ وما بعدها)، وعن تفسير الطبرسي (٣٠ ص ٥٤٥)، (طبعة طهران)، تفسير سمورة لأيلاف قریش، وعن ابن العربي، محاضرات الأبرار (٢/١١٩)، والبلاذري، أنساب (١/٥٨)، والديلميكري، تاريخ الخيبر (١/١٥٦).
- ٢ الإصابة (٣/٥٢٧)، (رقم ٨٧٧٨).
- ٣ نسب قریش (١/٣٦٧)، (رقم ١٤٤)، Kister, p. 128.
- ٤ الإصابة (١/٢٤٨ وما بعدها)، (رقم ١٨٠٠).

مكتفياً غير محتاج ، لا يوجه عنه نحو غيره حسداً وحقدًا . شعار هذا المجتمع الله والأصنام والحج والتجارة ، مجتمع لم يكن يخلو بالطبع من أحاسيس بخلاء ، شلوا عن الطريق ، واغتصبوا أموال الفقراء ، كما هو الحال في كل مجتمع بشري .

وقد اقتضت (قريش) ، وهم من الحرس ، على استعمال القباب المصنوعة من آدم لا يضربها غيرها يد (مئي) ^١ . لأنهم (كانوا لا ينسجون مقال الشعر ، وكانوا أهل القباب الحمر من آدم) ^٢ . وقد استعمل الرسول في حجة هذا النوع من القباب ^٣ . ولا بد أن يكون لاقتصار قريش على استعمال هذا النوع من القباب دون غيرها في هذا الموضع ، سبب ما ، الأرجح أنه عامل ديني واجتماعي ^٤ . وبلاحظ أنه كان للقباب الحمر ذكر خطير ، وجاء عظيم في نظر الجاهليين ، فكان أصحابها ينتفخون على غيرهم بأنهم (أهل القباب الحمر) ^٥ ، وقد كان الملوك والسادة يضربون لأنفسهم القباب الحمر . فهي من إشارات الجاه والمكانة والنفوذ .

ويظهر من بعض الأسماء أو الجمل التي وردت فيها كلمة (أحمس) و (حمس) أن هذه الكلمة هي نعت أو اسم من أسماء الآلهة عند الجاهليين في الأصل ، ثم تغير معناها بعد ذلك فصارت على النحو الذي ذكره علماء اللغة نقلاً عن الروايات التي ترجع ذلك المعنى إلى الجاهلية المتصلة بالاسلام . ففي الأسماء الواردة إلينا : (أحمس الله) ، و (بنو أحمس) ، و (أبو أحمس) ، و (الأحامس) ^٦ ، ما يقيد أن الأصل بعيد جداً عن المعنى الذي فهمه وذهب إليه أهل الأخبار ، وأن للكلمة معنى دينياً خاصاً قديماً ، هو التشدد في الدين والتمسك به ، وعبادة الصم ، والمحافظة على سنة الآباء والأجداد مع تصلب وتخشع .

- ١ (كانت قباب قريش من آدم ، لا يضربها غيرهم بمئي) ، المشرق ، السنة السابعة والثلاثون ، كانون الثاني - آذار ، ١٩٣٩ (ص ٩٥) .
- ٢ ابن سعد ، الطبقات (٤١/١) .
- ٣ ابن سعد ، الطبقات (٨٨/٢) . أسد الغابة (٢٥١/١) .
- ٤ المشرق ، السنة السابعة والثلاثون ، كانون الثاني - آذار ، ١٩٣٩ (ص ٩٥) .
- ٥ أهل القباب الحمر .
- ٦ ديوان عبيد الأبرص (٢٩) . (طبعة لايل) .
- ٧ الأغاني (٤٦/٢) ، الاشتقاق (١٥٣) ، تاج العروس (١٣٢/٤) وما بعدها ، (حمس) .

والأحاس من العرب الذين أمهاتهم من قريش^١ ، صاروا من الحمس بسبب أمهاتهم .

هذا وقد نزل الوحي بتنظيم الحج وفق مبادئ الإسلام ، فأباح للحجاج ما كانت الحمس حرمة على نفسها من طعام الحج إلا طعام أحصي ، صلى نحو ما ذكرت قبل قليل . وما ذكر من أن قوماً كانوا قد حرّموا على أنفسهم ما يخرج من الشاة لبنها وصفنها ولحمها ، إذا حجوا أو اعتصموا^٢ . كما نزل بوجوب ستر العورة وليس الإحرام في الحج ، وذلك بالنسبة إلى المحلّين ، وأغلبهم من الأعراب ومن الفقراء ، حيث كانوا يطفون عراة ، وفي ضمنهم النساء^٣ . فنزل الوحي بـ : « يا بني آدم خلدوا زيتكم عند كل مسجد ، واكلوا واشربوا ولا تسرفوا » ، انه لا يحب المسرفين^٤ . ونهوا عن ذلك^٥ . وذكر عن أبي هريرة انه قال : « بعثني أبو بكر الصديق في الحجة التي أمره عليها رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، قبل حجة الوداع في رعدة يؤذنون في الناس يوم النحر ، لا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان^٦ » .

كما نزل الوحي بمحواز دخول الحجاج بيوتهم وخيامهم وما يلبسون اليه من يوتها ، من أبوابها ، لا كما كان يفعل بعضهم في الجاهلية وفي أول الإسلام ، من انه اذا أحرم الرجل منهم بالحج أو العرة لم يدخل حائلاً ولا بيتاً ولا داراً من بابه ، فإن كان من أهل المدن نقب نقباً في ظهر بيته منه يدخل ويخرج أو يتخذ سُلماً فيصعد فيه ، وإن كان من أهل الريف خرج من خلف الحبة والقساط ولا يدخل من الباب حتى يحل من إحرامه ويرون ذلك ذمّاً ، إلا ان يكون من الحمس . وهم : قريش وكنانة وخزاعة ولخيم وخثعم وبنو عامر بن صعصعة ، وبنو النضر بن معاوية . نزل الوحي بفلك في الآية : « وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها ، ولكن البر من اتقى » ، وأتوا البيوت من أبوابها ، واتقوا الله لعلكم تفلحون^٧ .

١ تاج العروس (٤/١٢٣) . (حمس) .

٢ تفسير الطبري (٨/١٢١) .

٣ تفسير الطبري (٨/١١٨) .

٤ الاعراف ، الآية ٣١ .

٥ تفسير الطبري (٨/١١٨) وما بعدها . أسباب النزول (١٦٨) وما بعدها .

٦ صحيح مسلم (٤/١٠٧) ، (باب لا يحج البيت مشرك ولا يطوف بالبيت عريان

وبيان الحج الأكبر) .

٧ البقرة ، الآية ١٨٩ .

وقد ذهب بعض أهل الأخبار والسير إلى أن الآية المذكورة ، نزلت في أمر
 الخمس ، « لأن الخمس لا يدخلون تحت سقف ولا يحول بينهم وبين السماء
 حنية باب ولا غيرها ، فإن احتاج أحدهم إلى حاجة في داره تنم البيت من
 ظهره ، ولم يدخل من الباب »^١ . وذهب المفسرون إلى أنها نزلت في الأنصار ،
 فقد كانوا إذا حجوا فجاموا لا يدخلون من أبواب بيوتهم ، ولكن من ظهورها ،
 فجاء رجل فدخل من قبل بابه ، فكأنه غير بذلك ، فنزلت هذه الآية . وورد :
 « كانت قرى تدعى الخمس ، وكانوا يدخلون من الأبواب في الاحرام ، وكانت
 الأنصار وسائر العرب لا يدخلون من باب في الاحرام ، فبينما رسول الله ، صلى
 الله عليه وسلم ، في بستان ، إذ خرج من بابه وخرج معه قطبة بن عامر الأنصاري ،
 فقالوا : يا رسول الله : إن قطبة بن عامر رجل فاجر ، وإنه يخرج معك من
 الباب ! فقال له : ما حملك على ما صنعت ؟ قال : فإن ديني دينك ! فأنزل
 الله : « وليس البر بآن تأتوا البيوت من ظهورها »^٢ . وقد أفضلت بعض
 الروايات اسم من كان لا يدخل البيوت من أبوابها ، بأن قالت : « كان أهل
 الجاهلية يأتون البيوت من ظهورها وبروتهم برأ » ، أو « كانوا في الجاهلية إذا
 أحرموا أتوا البيوت من ظهورها ، ولم يأتوا من أبوابها » ، أو « إن غاماً كانوا
 إذا أحرموا لم يدخلوا حائطاً من بابه ولا داراً من بابها أو بيتاً » ، أو « كان
 ناس من أهل الحجاز ، إذا أحرموا لم يدخلوا من أبواب بيوتهم ودخلوها من
 ظهورها »^٣ ، وذكر أن من كان يفعل ذلك ، فأنما يفعله ، لأنهم كانوا يخرجون
 من أن يكون بينهم وبين السماء حائل^٤ .

وقد جعل (يعقوبي) العرب في الجاهلية على دينين : دين الخمس ودين
 الحلة . وذلك بالنسبة للمشركين . وذكر أن منهم من دخل في دين اليهودية وفي
 النصرانية ، ومنهم من تزندق وقال بالتبوية ، وبهذه الفرق حصر (يعقوبي)
 أديان أهل الجاهلية . إذ قال : « فهاتان الشريعتان اللتان كانت العرب عليهما .
 ثم دخل قوم من العرب في دين اليهود ، وفارقوا هذا الدين ، ودخل آخرون

- ١ الروض الأنف (١/١٣٤) وما بعدها .
- ٢ أسباب النزول (ص ٣٥) وما بعدها .
- ٣ تفسير الطبري (٢/١٠٨) وما بعدها .
- ٤ المصدر نفسه .

في النصرانية ، وتزندق منهم قوم ، فقالوا بالشنوية ^١ .

والتعميم الذي يطلقه (اليقوي) وبقية المؤرخين والأخباريين في قولهم « وكانت العرب في أديانهم » ، لا يمكن التسليم به ، إلا بالنسبة لأهل مكة ولمن كان يقصدهم من العرب . أما بالنسبة لجميع العرب ، فهذا ما لا يمكن التسليم به .

وأما (الطلس) ، فقد وصفهم (محمد بن حبيب) بقوله أنهم : « بين الحلة والحس : يصنعون في أحرامهم ما يصنع الحلة ، ويصنعون في ثيابهم ودخولهم البيت ما يصنع الحس . وكانوا لا يتعرون حول الكعبة ، ولا يستعبرون ثياباً ، ويدخلون البيوت من أبوابها ، وكانوا لا يثدنون بئانهم ، وكانوا يلقون مع الحلة ويصنعون ما يصنعون ^٢ . وهم سائر أهل اليمن ، وأهل حضرموت ، وعك وعجيب ، وإياد بن نزار ^٣ .

وذكر أن من الحجاج من كان يحج بغير زاد ، وإن منهم من كان إذا أحرم رمى بما معه من الزاد ، واستأنف غيره من الأزودة ، وإن « قاتل من العرب يعمرون الزاد إذا خرجوا حجاجاً وعشراً » ، فنزل الوحي : « وتزودوا فإن خير الزاد التقوى ^٤ » ، فأمر من لم يكن يزود منهم بالتزود لغيره ، ومن كان منهم ذا زاد أن يحتفظ بزياده فلا يرمي به ^٥ . وقد عرف هؤلاء بـ (المتوكلة) ، لثقتهم على (رب البيت) في الطعام أنفسهم ، واعتادهم في ذلك على السؤال.

وقد ذكر علماء التفسير أن الآية : « وتزودوا فإن خير الزاد التقوى » نزلت « في طائفة من العرب كانت تحج إلى الحج بلا زاد ، ويقول بعضهم : كيف نحج بيت الله ولا نطعمنا ، فكانوا يبقون عالة على الناس ، فنهوا عن ذلك ، وأمروا بالزاد . وكان النبي صلى الله عليه وسلم في مسيره راحلة عليها زاد ، وقدم عليه ثلثائة رجل من مزينة ، فلما أرادوا أن يتصرفوا قال : يا عمر زود

١ اليقوي (٢٢٦/١) .

٢ الحجير (ص ١٨١) .

٣ الحجير (ص ١٧٩) ، الروض (١/١٣٣) .

٤ البقرة ، الآية ١٩٧ .

٥ تفسير الطبري (١٦٢/٢) ، « إن قوما كانوا يرمون بأزوادهم ويتسعون بالمتوكلة ، فقبل لهم تزودوا من الطعام ، ولا تلقوا كلكم على الناس » ، تفسير الطبرسي

(٢٩٤/١) .

القوم كما روى البخاري عن ابن عباس قال : كان أهل اليمن يحجّون ولا يتزودون ويقولون : نحن المتوكلون ، فإذا قدموا مكة سألوها الناس^١ .

ويظهر مما تقدم ان (المتوكلة) لم يكونوا جميعاً من الفقراء المحتاجين ، بل كان منهم قوم أغنياء فضل الله عليهم ، يدلّل الهيم كانوا اذا حجّوا رموا زادهم ، أو أعطوه للمحتاج اليه ، يفعلون ذلك ديانة وتقرباً الى الله ، كما فعل (المتوكلة) من بعدهم في الاسلام . فهم اذن طائفة من الطوائف الجاهلية المتديّنة ، ترى ان التقشف في الحج ، يزيد في ثوابه ، ويقرّب أصحابه الى رب البيت .

ويريد أهل الأخبار بالثياب (الإحرام) على ما يظهر . وهو قديم وقد عرف عند غير العرب أيضاً . وهو محاكاة للباس رجال الدين الذين يخدمون المعابد ، ويقربون الى الآلهة . وهو يتكون من قطعتين من : لذار ومن وشاح . ويكون أبيض اللون . واللون الأبيض من الألوان التي تعبر عن معان دينية . فقد كان رجال الدين والكهنة يلبسون الثياب البيض . كما أنه شعار الحزن عند بعض الشعوب ، وفي جملتهم عرب الحجاز^٢ . ويظهر ان أهل مكة وهم قريش ، كانوا يلبسون الإحرام ، أو يكرهونه لغيرهم من العرب أو يعبرونه لهم إن كانوا من حلفائهم ، فيحرمون كإحرام قريش . أما من لم يتمكن من الحصول على الإحرام ، فقد كان يضطر بحكم الضرورة الى الطواف عرياناً على نحو ما يقصده علينا أهل الأخبار .

أما بالنسبة الى أهل العربية الجنوبية من معينين وسبئيين وقبائليين وحضرميين ، فإننا لا نستطيع ان نتحدث عن سنة الطواف حول المعابد عندهم ، لعدم ورود شيء عن ذلك في النصوص الواصلة إلينا . ولكني لا أستبعد احتمال طوافهم حول بيوت أصنامهم على نحو ما كان يفعله أهل الحجاز ، لأن الطواف حول بيوت الأصنام أو حول الصنم من السنن الشائعة بين العرب وعند جماعات من بني لؤم والنبط .

١ تفسير القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن (٤١١ / ٢) ، تفسير ابن كثير (٢٣٩ / ١) .
٢ Shorter Ency. of Islam, p. 190.

التلبية :

وذكر (محمد بن حبيب) ان طواف أهل الجاهلية بالبيت اسبوعاً ، وذكر
 أنهم كانوا يحسون الحجر الأسود ، ويسعون بين الصفا والمروة . وكانوا يلبنون .
 وذكر ان نسك قريش كان لإساف ، وان تلبيتهم : « ليك اللهم ليك ، ليك ،
 لا شريك لك إلا شريك هو لك ، تملكه وما ملك »^١ . وان تلبية من نسك
 الغزى : « ليك اللهم ليك ، ليك وسعديك ، ما أحبنا إليك » . وان تلبية
 من نسك للات : « ليك اللهم ليك ، ليك ، كفى بيتنا بثبة ، ليس بمهجور
 ولا بلية ، لكنه من تربة زكية أربابه من صالحى البرية » . وكانت تلبية من
 نسك لجهار : « ليك ، اللهم ليك . ليك ، اجعل ذنوبنا جباراً ، واهدنا لأوضح
 المنار ، ومنعنا وملنا بجهار » . وكانت تلبية من نسك لشمس : « ليك ، اللهم
 ليك ، ليك ، ما نهارنا نجمة ، ادلاجه وجره وفروه ، لا نقى شيئاً ولا نضره ،
 حجاً لرب مستقيم بره » . وكانت تلبية من نسك لمحرق : « ليك ، اللهم
 ليك ، ليك حجاً حقاً ، تعبداً ورقاً » . وكانت تلبية من نسك لود : « ليك
 اللهم ليك ، ليك ، معلرة اليك » . وكانت تلبية من نسك ذا الخلصة :
 « ليك ، اللهم ليك ، ليك ، بما هو أحب اليك » . وكانت تلبية من نسك
 لمطبق : « ليك ، اللهم ليك ، ليك » . وتلبية عك : أنهم كانوا اذا بلغوا
 مكة ، يبعثون غلامين أسودين أمامهم ، يسيران على جعل ، مملوكين ، قد جردا ،
 فيها عرباتان ، فلا يزيدان على ان يقولوا : « نحسن غراباً عك » . واذا نادى
 الغلامان بملك صاح من خلفهما من عك : « عك اليك عانية ، عبادك الهانية ،
 كيا نحمج الثانية ، على الشداد الناجية »^١ .

وكانت تلبية من نسك مناة : « ليك اللهم ليك ، ليك ، لولا ان بكرأ
 دونك يترك الناس ويهجرونك ، ما زال حج عشح بأثونك ، إنا على عدواتهم
 من دونك » . وتلبية من نسك لسعيدة : « ليك اللهم ليك ، ليك ، ليك ، لم
 نأتك للمياحة ، ولا طلباً لفرقاحة ، ولكن جئتك للتصاحبة » . وكانت تلبية من
 نسك لعروق : « ليك اللهم ليك ، ليك ، بغض الينا الشر ، وحجب البشا
 الخير ، ولا تبغرتنا فأنشر ، ولا تفسدنا بعثار » . وكانت تلبية من نسك ليغوث :

١ الحجر (٣١٣) -

« لبيك ، اللهم لبيك ، ليك ، أحبنا بما لديك ، فتحسن عبادك ، قد صرنا
 اليك » . وكانت تلبية من نك لتسر : « اللهم لبيك ، اللهم لبيك ، ليك ،
 انا عبيد ، وكلنا ميسرة عند ، وأنت ربنا الحميد ، اردد الينا ملكنا والعبيد » .
 وكانت تلبية من نك ذا اليا : « ليك اللهم لبيك ، ليك ، رب فاصرف
 عنا مضر ، وسلمنا لنا هذا السر ، إن عما فيهم لزدجر ، واكفنا اللهم أبواب
 هجر » . وكانت تلبية من نك لمرحب : « ليك اللهم لبيك ، ليك ، انا
 لديك . ليك ، حبيبنا اليك » . وكانت تلبية من نك لذريح : « ليك ،
 اللهم لبيك ، ليك ، كلنا كتود ، وكلنا لنعمة جحود ، فاكفنا كل حية رصود » .
 وكانت تلبية من نك ذا الكفين : « اللهم لبيك ، ليك ، إن جرها
 عبادك ، الناس طرف وهم تلادك ، ونحن أول منهم بولالك » . وتلبية من
 نك هبل : « ليك اللهم لبيك ، انا لقاح ، حرمتنا على أسنة الرماح ، بحسنا
 الناس على التجاح »^١ .

وقد تعرض (اليعقوبي) لموضوع التلبية ، فقال : « فكانت العرب ، اذا
 أرادت حج البيت الحرام ، وفقت كل قبيلة عند صنمها وصلوا عنده ، ثم تلبوا
 حتى يقدموا مكة . فكانت تليياتهم مختلفة . وكانت تلبية قريش : ليك اللهم
 ليك لا شريك لك ، تملكه وما ملك . وكانت تلبية كنانة : ليك اللهم لبيك ،
 اليوم يوم التعريف ، يوم الدعاء والوقوف . وكانت تلبية بني أسد : ليك اللهم
 ليك ، يا رب أقبلت بنو أسد ، أهل التواني والوفاء والجلد اليك . وكانت تلبية
 بني تميم : ليك اللهم لبيك ، ليك عن تميم ، قد نراها قد أخلقت أنوارها
 وأنوار من وراءها ، وأخلصت لربها دعاءها . وكانت تلبية قيس عيلان : ليك
 اللهم لبيك ، ليك أنت الرحمان ، أنتك قيس عيلان ، راجلها والركبان . وكانت
 تلبية ثقيف : ليك اللهم إن ثقيفاً قد أتوك ، وأعطوا المال وقد رجوك . وكانت
 تلبية هذيل : ليك عن هذيل قد أدبلوا بليل ، في إبل وخيل . وكانت تلبية
 ربيعة : ليك ربنا ليك ، ليك إن قصدنا اليك . وبعضهم يقول : ليك عن
 ربيعة ، سامعة لربها مطيعة . وكانت حمير ومهسلان يقولون : ليك عن حمير
 ومهسلان والحليين من حاشد والحان . وكانت تلبية الأزدي : ليك رب الأرياب ،

١ التحرير (٣١١ - ٣١٥) ١

تعلم فصل الخطاب ، لك كل مثاب . وكانت تلبية ملحق : ليك رب الشعري ،
ورب اللات والعزى . وكانت تلبية كتفة وحضرموت : ليك لا شريك لك ،
تملكه ، أو تهلكه ، أنت حكيم فاتركه . وكانت تلبية غسان : ليك رب غسان ،
راجلها والقرمان . وكانت تلبية بجيلة : ليك عن بجيلة في بارق وبجيلة ، وكانت
تلبية قضاة : ليك عن قضاة ، لربها دفاعة ، سمعاً له وطاعة . وكانت تلبية
جلذام : ليك عن جلذام ، ذوي النهي والأحلام ، وكانت تلبية عك والأشعرين :

نحج لرحمان يثاً عجياً مشراً مضيباً عجياً^١

و (التلبية) اجابة المنادي ، أي اجابة الملبّي ربه . وقولهم : ليك اللهم
ليك ، معناه اجابتي لك يا رب ، وانخلاصي لك^٢ . وقد كان الجاهليون يلبّون
لأصنامهم تلبيةً مختلفة . وقد ذكر (أبو العلاء المعري) ، ان تلبية العرب
جاءت على ثلاثة أنواع : مسجوع لا وزن له ، ومنهوك ، ومشطور . فالمسجوع
كقولهم :

ليك ربنا ليك والخير كله بيدك

والمنهوك على نوعين : أحدهما من الرجز ، والآخر من التسرّع ، فالذي من
الرجز كقولهم :

ليك إن الحمد لك والملك لا شريك لك
إلا شريك هو لك تملكه وما ملك
أبو بنات بفدك

وكقولهم :

ليك يا معطي الأمر ليك عن بني النمر
جنتك في العلم الزمر فأمل غيثاً ينهمر
يطرق بالسيل الحمر

١ اليعقوبي (١/٢٢٥ وما بعدها) .
٢ السمان (١/٧٣٢) ، (لبيب) .

والذي من المنسرح جنسان : أحدهما في آخره ساكنان كقولهم :

ليك رب همدان من شاحط ومن دان
جنناك نبلي الإحسان بكل حرف مدحان
نطوي اليك النيطان نأمل فضل العفوان

والآخر لا يجمع فيه ساكنان كقولهم :

ليك عن يمينه القمصة الرجل
ونعمت القيلة جاعتك بالوميلة
تؤمل القفيلة

وربما جاءوا على قوافٍ مختلفة ، من ذلك ثلثية بكر بن وائل :

ليك حقاً حقاً تعبداً ورقياً
جنناك للتصاحبة لم نأت الرقابة

وروي في ثلثية (تميم) قولها :

ليك لولا أن بكرأ دونكا يشكرك الناس ويكفرونكا
ما زال منا عثج يأتونكا

وروي أن من ثلثيات همدان :

ليك مع كل قبيل ليك همدان أبناء الملوك تدعوك
قد تركوا أصنامهم واتبوك فاصمع دعاء في جميع الأملاك

ومن ثلثياتهم قولهم :

ليك عن سعد وعن بنتها وعن نساء خلفها تعينها
سارت إلى الرحمة تجتنبها

وختم (أبو العلاء المعري) رأيه عن الثلثية بقوله : « والموزون من الثلثية ،
يجب أن يكون كله من الرجز عند العرب ، ولم تأت الثلثية بالقصيد . ولعلمهم
قد لبوا به ولم تنقله الرواة »^١ .

١ رسالة العفوان (ص ٥٣٥ - ٥٣٧) - (بنت الشاطر) .

والنبلية هي من الشعائر الدينية التي أبقاها الإسلام ، غير أنه غير صحتها القديمة بما يتفق مع عقيدة التوحيد . فصارت على هذا النحو : « لبيك اللهم ليك ، لا شريك لك لبيك ، إن الحمد والنعمة لك ، والملك لا شريك لك »^١ . كما جعلها جزءاً من حج مكة ، بعد أن كانت ثم خارج مكة ، إذ كانت كل قبيلة تقف عند صنمها ، وتصلي عنده ثم تلي ، قبل أن تقدم مكة^٢ . وذلك بالنسبة لمن كان يحج مكة . فأبطل ذلك الإسلام ، وألغى ما كان من ذلك من حج أهل الجاهلية . وقد رأينا صيغ التلييات ، وكيف كانت تلييات القبائل خاصة بها ، تلي كل قبيلة لصنمها ، وتوجه فداءها إليه .

وتردد جعل التلية بصوت مرتفع ، ولعل ذلك لاعتقاد الجاهليين أن في رفع الصوت إلهاماً للصنم الذي يطاف له بأن الطائف قد لبى داعيه ، وأنه استجاب أمره وحرم على طاعته . وقد أشار بعض الكتاب (الكلابيين) إلى الصنم والضجيج الذي كان يرتفع في مواضع الحج بسبب هذه التلية .

وهناك مواضع أخرى غير متصلة بالبيت الحرام ، كانت مقدمة ودخلة في شعائر الحج ، منها عرفة ومنى والمزدلفة والصفاء والمروة ، ومواضع أخرى كان يقصدها الجاهليون لقديمتها أو لوجود صنم بها ، ثم حرمها الإسلام ، فنبت وأهملت فذهبت معالمها مع ما ذهب من معالم الجاهليين .

وقفت الخمس في حجها على أنصاب الحرم من نخرة على نحو ما ذكرت أما الحلة والظلس ، أي غير الخمس من بقية العرب فيقفون على الموقف من عرفة ، عشية يوم (عرفة) . فإذا دفع الناس من عرفة وأفاضوا أفاضت الخمس من أنصاب الحرم حتى يلتقوا بمزدلفة جميعاً . وكانوا يقدمون من عرفة إذا طفت الشمس للغروب وكانت على رؤوس الجبال كأنها عائم الرجال في وجوههم . فيبتون بمزدلفة حتى إذا كانت في الظلس وقفت الحلة والخمس على (فزع) ، فلا يزالون عليه حتى إذا طلعت الشمس وصارت على رؤوس الجبال كأنها عائم الرجال في

١ البخاري ، كتاب الحج ، الحديث ٣١ وما بعده ، عمدة القاري (١٧٢/٩) وما بعدها ،
 بلوغ الأرب (٢٨٨/٢) ، إرشاد الساري (١٩٧/٣) ، (باب التلبية والتكبير إذا غدا
 من منى إلى عرفة) .
 ٢ اليعقوبي (٢٢٥/١) ، (أديان العرب) .

وجوههم دفعوا من مزدلفة ، وكانوا يقولون : أشرق ثبر كما نغير^١ .
ومن مناسك الحج الطواف بالصفاء والمروة ، وعليها صبيان : أساف وثالثة .
وكان الجاهليون يسمونها^٢ . وكان طوافهم بها قدر طوافهم بالبيت ، أي سبعة
أشواط . تقوم بذلك قریش ، أما غيرهم فلا يطوفون بها ، وذلك على أغلب
الروايات . ويظهر أن الصفا والمروة من المواضع التي كان لها أثر خطير في عبادة
أهل مكة . ففي حج أهل مكة طوافان : طواف بالبيت ، وطواف بالصفاء
والمروة .

وبين الصفا والمروة يكون (السعي) في الإسلام ، ولذلك يقال للحسافة بين
المكائن (السعي) . وكان إساف بالصفاء ، وأما ثالثة فكانت بالمروة^٣ . ولا بد
أن يكون لافتران الاسمين دائماً سبب ، و (السعي) هو الرابط المقدس بين
هاتين الموضعين المقدسين عند الجاهليين .

وكان أهل مكة يتبركون بلمس الحجر الأسود ، ثم يسعون بين الصفا والمروة .
ويطوفون إساف أولاً ويلمسونه ، كل شوط من الطواف ثم يتنهون بثالثة .
ويلبثون لها : وكانت تلبيتهم لها : « لبيك اللهم ليك ، لا شريك لك ، إلا
شريك هو لك ، تملكه وما ملك »^٤ . وذكر أن (الأنصار) ، لما قدموا مع
النبي في الحج ، كرهوا الطواف بين الصفا والمروة لأنها كانتا من مشاعر قریش
في الجاهلية ، وأرادوا تركه في الإسلام . وذكر أن قوماً من المسلمين قالوا :
يا رسول الله لا نطوف بين الصفا والمروة ، فإنه شرك كننا نصنعه في الجاهلية .
فكان أهل الجاهلية إذا طافوا بين الصفا والمروة مسحوا الوثنيين ، فلما جاء الإسلام
وكسرت الأصنام ، كره المسلمون الطواف بينها لأجل الصنمين ، فأنزل الله :
« إن الصفا والمروة من شعائر الله »^٥ . ويتبين من غرلة الأخبار أن الذين كانوا
يطوفون بالصنمين المذكورين ويسعون بينها ، هم من عبادة الصنمين وهم قریش

١ - الأزرقي (٢٢٦/٢) ، مسند ابن حنبل (١/٣٩ ، ٤٢ ، ٥٠ ، ٥٢) ، الأم للشافعي
(١٨٠/٢) .

٢ - الجبلان (٣٦٥/٥) ، (٣٨/٨) ، إرشاد الساري (١٨٧/٣) .
Iste, B. 77.

٣ - الحبير (٣١١) ، الأزرقي (١١٢/١) .

٤ - البقرة . الآية ١٥٨ ، أسباب النزول (٣٠ وما بعدها) ، تفسير الطبري (٤٣/٢) ،
(طبعة الجاوي ١٩٥٤ م) .

خاصة ، وليس كل من كان يهجر إلى مكة من العرب ، ولذلك كرهوا الطواف في الإسلام بالصفاء والمروة . وقد استبدل الإسلام بالطواف السعي ، لحدم الصنمين الذين كان الناس يطوفون حولهما واكتفى بالسعي بين الموضعين .

وذكر بعض العلماء أن العرب عامة كانوا لا يرون الصفا والمروة من الشعائر ولا يطوفون بينها فأنزل الله : « إن الصفا والمروة من شعائر الله »^١ ، أي لا تستحلون ترك ذلك^٢ . وذكر أن الأنصار كانوا يهلون لمكة في الجاهلية ، فلما جاء الإسلام قالوا : يا نبي الله إنا كنا لا نطوف بين الصفا والمروة تعظيماً لمكة ، فهل علينا من حرج أن نطوف بهما ، فأنزل الله الآية المذكورة . وكان أهل (نهامه) ممن لا يطوفون أيضاً بين الصفا والمروة ، فلما جاء الإسلام ونزل الأمر بالطواف بالبيت ، ولم يترد بالطواف بين الصفا والمروة ، قيل للنبي : إنا كنا نطوف في الجاهلية بين الصفا والمروة وإن الله قد ذكر الطواف بالبيت ولم يذكر الطواف بين الصفا والمروة فهل علينا من جناح أن لا نطوف بهما . فنزل الوحي : « إن الصفا والمروة من شعائر الله » ، فصار الطواف بين الصفا والمروة لجميع الحجاج ، لا كما كان في عهد الجاهلية . من اقتصره على قريش وبعض العرب المتأثرين بهم . فكانوا يطوفون بهما ويمسحون بالوثنيين إساف وثالثه ، فلما جاء الإسلام تخرج بعض الناس وفيهم قوم من قريش من الطواف بينها لأنها من شعائر الجاهلية ، فنزل الأمر به^٣ .

وذكر أهل الأخبار أن السعي بين الصفا والمروة ، شعار قديم من عهد هاجر أم إسماعيل . وأما رمل الطواف ، فهو الذي أمر به النبي ، أصحابه في عمرة القضاء ليُري المشركين قوتهم ، حيث قالوا : وهتهم حتى يثرب^٤ .

- ١ البقرة ، الآية ١٥٨ .
- ٢ تاج العروس (٣/٣٠٤) ، (شعر) ، روح المعاني (٢/٤١) ، تفسير القرطبي ، الجامع (٢/١١٤) ، الأزرق (٧٤) ، تفسير ابن كثير (١/١٦٨) ، صحيح البخاري (١/٤١٤) ، الموطأ (١/٣٧٣) ، إرشاد الساري (٣/١٨٧) .
- ٣ تفسير الطبري (٢/٢٧ وما بعدها) ، الطبرسي (٢/٤٥) ، ابن كثير (١/١٨٨) ، (٢٠٠) ، البخاري (١/٤١٤) ، (باب ٧٩) ، الموطأ (١/٦٥٣) ، (١/٣٧١) ، (باب ٤٠) .
- ٤ التسان (١١/٢٩٥ وما بعدها) ، (رمل) .

وورد في خبر عن (عائشة) أنها قالت : « إن الأنصار كانوا يهتفون في الجاهلية لصنمين على شط البحر ، يقال لها : إساف وثالثة ، ثم يجيئون ، فيطوفون بين الصفا والمروة ثم يحلقون ، فلما جاء الإسلام ، كرهوا أن يطوفوا بينهما الذي كانوا يصنعون في الجاهلية ، فأنزل الله عز وجل : إن الصفا والمروة من شعائر الله إلى آخرها . قالت : فطافوا » . وهو خبر يتناقض أخباراً أخرى يتصل سندها بـ (عائشة) ، تجمع على أنها قالت : إن الأنصار أو الأنصار وغسان كانوا قبل أن يسلموا يصيرون لمائة ، فلا يحل لهم أن يطوفوا بين الصفا والمروة ، وكان ذلك سنة في آباءهم من أحرمت لمائة لم يطف بين الصفا والمروة^١ ، ولم أجسد في خبر آخر شيئاً يفيد أن إسافاً وثالثة كائناً على ساحل البحر .

و (السمي) في الإسلام سبعة أشواط ، تبدأ بالصفا ، وتختتم بالمروة . وعندما يصل الحاج حد (السمي) يسمى ويهرول ، فإذا جاز الحد عشى . وكان الجاهليون يدأون بـ (الصفا) ويتنهون بـ (المروة) كذلك^٢ .

ومن مناسك حج أهل الجاهلية الوقوف بـ (عرفة) ، ويكون ذلك في التاسع من ذي الحجة ويسمى (يوم عرفة) . ومن (عرفة) تكون (الإجازة) للإفاضة إلى (المزدلفة) ، ومن (المزدلفة) إلى (منى) . وقد كان الجاهليون من غير قریش يفيضون في عرفة عند غروب الشمس ، وأما في المزدلفة فعند شروقها . وكان الذي يتولى الإجازة رجلاً من تميم يقال له (صوفة) ، ثم انتقلت إلى (صفوان) من تميم كذلك^٣ . ولم يكن (الخمس) يحضرون عرفة ، وإنما يقفون بالمزدلفة ، وكان سائر الناس يقف بعرفة . ولما رأى أحد الصحابة رسول الله واقفاً بعرفة عجب من شأنه وأنكر منه ما رأى لأتفه من الخمس ، وما كان يظن أنه مخالف قومه في ذلك ، فساوى نفسه بسائر الناس^٤ . فأنزل الله : « ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس ، واستغفروا الله إن الله غفور رحيم »^٥ ،

- ١ صحيح مسلم (٦٨/٤) . (باب بيان أن السمي بين الصفا والمروة دكن لا يصح الحج إلا به) .
- ٢ وأجمع باب الحج في كتب الحديث والفقه .
- ٣ ابن هشام (٧٧ ، ٨٢) . اللسان (١٩١/٧) . تاج العروس (١٩٣/٦) . الروض الأنف (٨٦/٦) . الصحاح (١٠٩٩/٣) . التلبدان (١٠٤/٤) .
- ٤ إرشاد الساري (٢٠٠/٣) ، تفسير الطبرسي (٢٩٦/٣) . تفسير ابن كثير (٢٤٢/١) وما بعدها . أسباب النزول (٤٢) .
- ٥ البقرة . الآية ١٩٩ .

فشمّل ذلك الحرم وغيرهم . فأتخلوا يقفون كلهم موقف عرفة ، ووضع عن قریش ما فعلوه من تمييز أنفسهم عن الناس^١ .

وورد في روايات أخرى ، أن قریشاً وكل حليف لهم وبني أخت لهم ، لا يقيضون من عرفات ، إنما يقيضون من الغمس ، وورد أن قریشاً وكل ابن أخت وحليف لهم ، لا يقيضون مع الناس من عرفات ، يقفون في الحرم ولا يخرجون منه . يقولون : إنما نحن أهل حرم الله ، فلا نخرج من حرمه ، وأنهم قالوا : نحن بنو إبراهيم وأهل الحرم وولادة البيت ، وقاطنوا مكة وسكنتوها ، فليس لأحد من العرب مثل حقنا ، ولا مثل مترنا ، ولا نعرف له العرب مثل ما نعرف لنا ، فلا تعظموا شيئاً من الحل ، كما تعظمون الحرم . فإلکم إن فعلتم ذلك استخطت العرب بحرمکم ، وقالوا : قد عظموا من الحل مثل ما عظموا من الحرم فتركوا الوقوف على عرفة والأفاضة منها^٢ .

وذكر أن قریشاً ومن دان بدينها تفيض من (جمع) من الشعر الحرام^٣ . و (جمع) المزدلفة^٤ .

و (عرفة) أو (عرفات) موضع على مسافة غير بعيدة عن مكة* . لا بد وأن يكون من المواضع التي كان يقلمها أهل الجاهلية ، وأن يكون له ارتباط بصنم من الأصنام ، وإلا لما صار جزءاً من أجزاء مناسك الحج وشعائره عند الجاهليين . ويقف الحجاج موقف عرفة من الظهر إلى وقت الغروب . وقد يكون لموقف الجاهليين في عرفة وقت الغروب علاقة بعبادة الشمس . فإذا غربت الشمس انجم الحجاج إلى (المزدلفة) .

١ تفسير الطبري (١٦٦/٢) وما بعدها .

٢ تفسير الطبري (١٧٠/٢) .

٣ أمسياب النزول (٤٢) .

٤ قال أبو ذؤيب :

فبسات يجتمع لم تم إلى منسى فاصبح وإذا يبتغي المزج بالسحل

تاج العروس (٣٠٥/٥) . (جمع) .

٥ وعرفات ، موقف الحاج ذلك اليوم على اثني عشر ميلاً من مكة ، تاج العروس (١٩٣/٦) ، تفسير الطبري (١١٤/٤) وما بعدها . أخيار مكة (١١٥/١) وما بعدها .

الإفاضة :

ومن (عرفة) تكون الإفاضة الى (المزدلفة) . و (المزدلفة) ، موضع يكاد يكون على منتصف الطريق بين (عرفة) و (منى) . وفيه يحضي الحجاج ليلتهم ، ليلة العاشر من (ذي الحجة) . ومنه تكون الإفاضة عند الشروق الى (منى) . وقد نعت بـ (الشعر الحرام) في القرآن الكريم^١ . ويذكر أهل الأخبار أن (قصي بن كلاب) ، كان قد أوقد ناراً على (المزدلفة) حتى يراها من دفع من عرفة ، وأن العرب سارت على سنته هذه ، وبقيت توقدها حتى في الإسلام^٢ . ولا بد وأن يكون من المواضع الجاهلية المقدسة كذلك ، التي كان لها صلة بالأصنام . وقد ذكر علماء اللغة اسم جبل بالمزدلفة دعوه (قزحاً) ، قالوا إنه (هو القرن الذي يقف عنده الإمام)^٣ ، وذكروا أن (قزح) اسم شيطان^٤ . ونحن نعرف اسم صنم يقال له (قزاح) ، قد تكون له صلة بهذا الموضع .

ويفيض الحجاج في الجاهلية عند طلوع شمس اليوم العاشر من ذي الحجة من (المزدلفة) الى (منى) ، لرمي الجمرات ولنحر الأضحية . و(منى) موضع لا يبعد كثيراً عن مكة . ولعلسبها اللغة آراء في سبب التسمية ، من جعلتها أنها عرفت بذلك لما بمعنى بها من الدعاء^٥ . وذكر بعض أهل الأخبار أن (عمرو بن لحي) نصب بمعى سبعة أصنام ، نصب على (القرين) القرن الذي بين مسجد منى والجمرة الأولى صنماً ، ونصب على الجمرة الأولى صنماً ، وعلى الجمرة الوسطى صنماً ، وعلى شفير الوادي صنماً^٦ . ولا بد أن يكون لهذا الموضع صلة بالأصنام ، نظراً لما له من علاقة متينة بمحلسك الحج . وقد يكون لرمي الجمرات ولنحر الذبائح صلة بتلك الأصنام .

- ١ سورة البقرة . الآية ١٩٨ . تفسير الطبري (١٦٤/٢) ، روح المعاني (٧٤/٢) . تفسير ابن كثير (٢٤٢/١) .
- ٢ نهاية الأرب (١٠٩/١) . (ذكر نيران العرب) . صبح الاعشى (٤٠٩/١) ، الأزدني (٣٦ ، ١٣٠ ، ٤١١ ، ٤١٥) ، (وستنفلد) ، ابن هشام (٧٧) ، ابن سعد (٧٢/١) . (صائد) ، اللسان (١٣٨/٩) ، البلدان (٥١٩/٤) ، تاج العروس (١٣١/٦) .
- ٣ تاج العروس (٢٠٧/٢) . (قزح) .
- ٤ تاج العروس (٢٠٧/٢) . (قزح) .
- ٥ تاج العروس (٢٤٨/١٠) ، (منى) .
- ٦ الأزدني (١٤٢/٢) .

وقد ذكر العلماء « أن المشركين كانوا لا يقبضون حتى تطلع الشمس، ويقولون: أشرق نير »^١. وأن النبي خالفهم، فأفاض حين أسفر قبل طلوع الشمس^٢. وفي فعل المشركين ذلك، ووقفهم انتظاراً للإفاضة عند طلوع الشمس، دلالة على عبادة الشمس عندهم، ولهذا غير الرسول هذا الوقت.

و (رمي الجمرات) بمعنى من مناسك الحج وشعائره. وهو من شعائر الحج كذلك المعروفة في المحججات الأخرى من جزيرة العرب. كما كان معروفاً عند غير العرب أيضاً. وقد أشير إليه في التوراة^٣. وهو معروف عند (بني إرم)^٤. وكلمة (رجم) من الكلمات السامية القديمة. وقد وردت في حديث (عبدالله ابن مغل) : لا ترجموا قبري، أي لا تجعلوا عليه الرجم، وهي الحجارة، على طريقة أهل الجاهلية، ولا تجعلوه مستمراً مرتفعاً^٥. وقد فعله أهل الجاهلية على سبيل التقدير والتعظيم. فكان أسنهم إذا مرّ بقبر، وأراد تقدير صاحبه وتعظيمه وضع رجمة أو رجاماً عليه.

(والجمرات)، أي مواضع (رمي الجمرات) عديدة عند الجاهليين، يضاف حولها، ويحج إليها^٦ منها مواضع أصنام، وأماكن مقدسة، ومنها قبور أجداد. وقد ورد قسم بها في بيت ينسب إلى شاعر جاهلي^٧. وترمي الجمرات على مكان عرف به (جمرة العقبة) وبـ (الجمار) وبـ (موضع الجمار) وهو بـ (منى)، وتتجمع وتتكوم عنده الحصى. وهي جمرات ثلاث: الجمرة

١ ارشاد الساري (٢١٠/٣) .

٢ المصدر نفسه .

٣ التكوين، الأصحاح الحادي والثلاثون، (وقال لابان ليعقوب : هوذا هذه الرجمة، وهو ذا النصب الذي وضعت بيثي وبينك)، الآية ٥١ .

٤ Shorter Ency., p. 464, Baste, 8. 112.

٥ النهاية (٧٤/٢) (اللسان (١١٧/١٥ وما بعدها)، تاج العروس (٣٠٤/٨ وما بعدها)، (رجم) .

٦ المشرق : السنة : السنة التاسعة والثلاثون، تموز - أيلول ١٩٤١ م، (٢٤٦)، Reste, 8. 111.

٧ فاقسم بالذي قد كان رمي وأنصاب لسدي الجمرات مقر ابن هشام (٥٣٤)، المشرق، الجزء المذكور - قال حذيفة بن أنس الهذلي : لأدركهم شعث النواصي كأنهم سواشق حجاج توالي المجرا اللسان (٢١٧/٥) .

الأول ، والجمرة الوسطى ، وجمرة العقبة ^١ .

ويرجع أصل الأخبار مبدأ رمي الجمرات الى (عمرو بن لحي) . يذكرون أنه جاء بسبعة أصنام فنصبها به (منى) ، عند مواضع الحجرات ، وعسل شقير الوادي ، ومواضع أخرى ، وقسم عليها حصص الجبار ، إحدى وعشرين حصاة ، يرمي كل منها بثلاث جمرات ، ويقال للوثن حين يرمي : أنت أكبر من فلان الصنم الذي يرمي قبله ^٢ .

وكانت إفاضة الجاهليين على هذا النحو : كان أمر الإفاضة بيد رجل من أسرة ثابرت هذا العمل أباً عن جد . وقد اشتهر منهم رجل عرف به (عبيلة ابن عمالك العدواني) ، واشتهر بين الناس به (أبي سيارة) . كان يميز الناس من المزدلفة الى منى أربعين سنة . يركب حماراً أسود ، وينظر الى أعالي جبل (ثبير) ، فإذا شاهد عليها أشعة الشمس الأولى نادى : أشرق ثبير ، كما تغير ! ثم يميز لهم بالإفاضة وفيه يقول الشاعر :

دخلوا الطريق عن أبي سيارة وعن مواليه بني فزاره
حتى يجيئهم سالماً حماره مضطرب القيلة يدعوه جاره
فقد أجار الله من أجاره ^٣

وضرب به المثل ، فقيل : أصبح من غير أبي سيارة ^٤ .

وذكر (الجاحظ) أن اسم (أبي سيارة) (عبيلة بن أزل) ، دفع بأهل الموسم أربعين عاماً ، ولم يكن غيره غيراً وإنما كان أناثاً ، ولا يعرفون حماراً وحشياً عاش وعمر أطول من غير (أبي سيارة) ^٥ .

١ . تاج العروس (١٠٧/٣) ، (حجر) ، (٣٤٨/١٠) ، (منى) .

٢ . الأزهري ، أخبار (ص ٤٠٢) ، (لا يترك) .

٣ . اللسان (١٩١/٧) ، الروض الانتق (٨٦/١) ، الميداني (٤٢١/١) وما بعدها ، البلدان (٦/٣) ، (ثبير) ، البكري (٣٣٥/١) ، (طيبة السقا) ، (وأبو سيارة : عبيلة بن أزل) ، الحيوان (٢١٥/٧) ، (عبد السلام محمد هارون) ، إرشاد الساري (٢١٠/٣) .

٤ . تاج العروس (٢٨٧/٣) ، (سبر) ، نهاية الأرب (٣٦/١٦) وما بعدها .

٥ . الحيوان (١٣٩/١) .

وورد أن الذين كان لهم أمر الإجازة بالحجاج، وهي الإفاضة ، هم (صوفة) .
 وهم حي من مضر من نسل (القوث بن مر بن اد بن طابخة بن الياس بن
 مضر) ، وقد سموا (صوفة) و (آل صوفة) ، لأن (القوث) أبوهم
 جعلت أمه في رأسه صوفة وجعلته ريبطاً للكعبة بخدنها . وكانوا يخدمون الكعبة
 ويعجزون الحاج ، أي يفيضون بهم ، فيكونون أول من يدفع . وكان أحدهم
 يقوم فيقول : أجيزي صوفة ، فإذا أجازت ، قال : أجيزي خدنف ، فإذا
 أجازت أذن للناس كلهم في الإجازة . وكانت الإجازة بالحج إليهم في الجاهلية .
 وكانت العرب إذا حجت وحضرت عرفة لا تدفع منها حتى تدفع بها صوفة ،
 وكذلك لا يتفرون من (منى) حتى تنفر (صوفة) ، فإذا أبطأت بهم ، قالوا :
 أجيزي صوفة . وورد أن (صوفة) قوم من (بني سعد بن زيد مناة)
 من تميم^١ .

ويفهم من رواية أن كلمة (صوفة) لم تكن اسم علم ، وإنما هي لفظة
 أطلقت على من كان ينزل البيت أو قام بشيء من خدمته ، أو بشيء من أمر
 المناسك^٢ . فهم من رجال الدين ، تخصصوا بالإجازة بالناس في مواسم الحج .
 ولعلهم كانوا يضعون على رأسهم صوفة على هيئة عمامة أو عصاية ، أو عطر ،
 لتكون علامة على أنهم من أهل بيت دين وشرف . فعرفوا بـ (صوفة)
 وبـ (آل صوفة) وبـ (صوفان) . وفي ذلك قال (مرة بن خليف الفهمي) ،
 وهو شاعر جاهلي قديم :

إذا ما أجازت صوفة النقب من منى ولاح قنار فوقه سفع الدم^٣

و (يظهر) من الروايات الواردة عن (ثبير) ، أنه كان من المواضيع القديمة
 عند الجاهليين ، أو أن على قننه صنماً أو بيتاً كانوا يصعدون إليه لزيارته ولتبركه به^٤ .
 ومن الشعائر المتعلقة بمنى بحر الدبالح ، وهي الأصحية في الإسلام و (المتائر)

- ١ تاج العروس (١٦٩/٦) ، (صوف) ، معجم الشعراء (٣٨٢) ، ابن هشام
 (٨٢ - ٧٧/١) .
- ٢ الروض الآنف (٨٥/١) .
- ٣ معجم الشعراء (٣٨٢) .
- ٤ المشرق ، السنة التاسعة والثلاثون (١٩٤١ م) ، (ص ٢٥٩) .

في الجاهلية . ولذلك عرف هذا العيد : عيد الحج بـ (عيد الأضحى) . وعرف اليوم الذي تضحي به الأضحية بـ (يوم النحر) وبـ (الأضحى) وبـ (يوم الأضحى) . وكانوا ينحرونها على الأنصاب وعلى مقربة من الأصنام ، فتوزع على الحاضرين ليأكلوها جماعة أو تعطى للأفراد . وقد ترك الكواسر الجوزي والبرقلا (يصد عنها النان ولا سبع)^١ . وتبلغ ذروة الحج عند تقديم العتائر ، لأنها أسمى مظاهر العبادة في الأديان القديمة .

وكان الجاهليون يقتلون هديهم بقلادة ، أو بنعلين ، يعلقان على رقبتهم الهدي ، اشعاراً للناس بأن الحيوان هو هدي ، فلا يجوز الاعتداء عليه ، كما كانوا يشعرونه . والإشعار الإعلام . وهو أن يشق جلد البقرة أو يقطع في اسمها في أحد الجانبين بمضغ أو نحوه ، وقيل في سماها الأيمن حتى يظهر الدم ويعرف أنها هدي . والشعيرة البقرة المهداة^٢ .

وكان بعض أهل الجاهلية ، يسلخون جلود الهدي ، ليأكلوها معهم . وينفق هذا مع لفظة (تشرى) التي تعني تقديم اللحم . ومنه سميت أيام التشرى ، وهي ثلاثة أيام بعد يوم النحر ، لأن لحوم الأضاحي تشرى فيها ، أي تشرى في الشمس^٣ . وقيل سمي التشرى تشرى ، لأن الهدي لا ينحر حتى تشرق الشمس^٤ . ويظهر أن الجاهليين كانوا ينحرون قبيل شروق الشمس وعند شروقها ، بدليل ما ورد في الحديث من التهي عن ذلك . ومن حديث : من ذبح قبل التشرى فليمد . أي قبل أن يصل صلاة العيد ، وهو من شروق الشمس واشراقها ، لأن ذلك من وقتها^٥ .

ولا محل للحجاج في الجاهلية خلق شعورهم أو تقصيرها طيلة حجهم ، وإلا بطل حجهم . وبلاحظ أن حسب العرب من الساميين كانوا لا يسمحون بقص الشعر في مثل هذه المناسبات الدينية أيضاً ، لما للشعر من أهمية خاصة في الطقوس

١ ابن هشام (١٠٠) ، المشرق : السنة السابعة والثلاثون ، كانسون الثاني - آذار ١٩٣٩ م ، (٩٢) .

٢ لقنهم جيلا فجيلا تراهم شعائر قربان بها يتقرب

تاج العروس (٣/٣-٣) وما بعدها ، (شعر) .

٣ تاج العروس (٦/٣٩٣) ، (شرق) .

٤ المصدر نفسه .

٥ تاج العروس (٦/٣٩٣) ، (شرق) .

الدينية عندهم ، ولا سيما التحية لما لها من علاقة بالدين . ولهذا نجد رجال الدين والزهاد والأقفياء الورعين يحافظون عليها ويعتبرونها مظهراً من مظاهر التدين^١ . وقد كانت القبائل لا تخلق شعورها في مواسم حجتها إلا عند أصنامها ، فكان الأوس إذا حجوا وقضوا مع الناس المواقف كلها ولا يحلقون رؤوسهم ، فإذا فروا أتوا منهم مائة فحلقوا رؤوسهم عنده ، وأقاموا لا يرون لحجهم تماماً إلا بذلك^٢ . وكانت فضاة ولحم وجلد تخرج للأقصر وتحت عنده^٣ .

وكان من عادة بعض القبائل ، مثل بعض قبائل اليمن ، لقاء قرة من دقيق مع الشعر^٤ . وذلك أن أهل اليمن كانوا إذا حلقوا رؤوسهم يمتحنون كل رجل على رأسه قبضة دقيق ، فإذا حلقوا رؤوسهم سقط الشعر مع ذلك الدقيق ، ويحصلون ذلك الدقيق صدقة ، فكان ناس من أسد وقيس يأخذون ذلك الشعر بدقيقه ، فيرمون بالشعر ويتفخعون بالدقيق . وفي ذلك يقول معاوية بن أبي معاوية الجرمي :

ألم تر جرمياً أتجئت وأبوكم مع الشعر في قص الملبد شارع
إذا قرة جاءت تقول أصب بها سوى القمل لاني من هوازن ضارع^٥

وكان من يقصد العزى يذبح عند شجرة هناك ثم يدعون ، وكان من يقصد مائة يهدي لها كما كان غيرهم يهدي للكعبة ويطلقون بها ثم ينحرون عندها ، وكان عبدة ذي الخلصة في أسقل مكة يذبحون عنده كذلك^٦ . وكذلك كانت بقية القبائل تطوف في أعيادها حول أصنامها ، وتهدى إليها ، ثم تنحر عندها عند اكتمالها هذه الشعائر دلالة على اكتمالها شعائر الحج إلى هذه المواضع وانتهائها منها على أحسن وجه .

وتميز الحيوانات التي يهدى أصحابها أو مشروها للذبح في الحج بعلامات ، بأن توضع عليها فلا تد تجعلها معروفة ، أو أن يحدث لها جرح ليسيل منه الدم ليكون ذلك علامة أنها هدي . ويقال لذلك إشعار ، ومنه إشعار البدن ، وهو أن يشق

Smith, p. 323.

١ الأصنام (ص ٦٤) . البلدان (١٦٩/٨) . الأزرقى (٧٢/١) .

Reste, B. 82.

٢ الأصنام (ص ٤٨) . البلدان (٣١٤/١) . وما بعدها (Reste, B. 82. ff.) .

٣ الأصنام (ص ٤٨) . البلدان (٣١٤/١) . وما بعدها () .

٤ تاج العروس (٤٨٦/٣) . (قرر) .

٥ بلوغ الأرب (٣٤٤/١) وما بعدها () .

أحد جنبي ستام البدة حتى يسيل منه الدم ليكون ذلك علامة الهدي^١ . وقد كان من أهل مكة من يتخذ من لحاء شجر الحرم قلادة يضعها في عنق البدن ، لتكون دلالة على أنها هدي ، فلا يعرضها أحد^٢ .

ويجوز للحجاج مقادرة (منى) في اليوم العاشر من ذي الحجة ، أي في اليوم الأول من العيد ، ففي هذا اليوم يكمل الحجاج حجهم ، ولكن منهم من يحكث في هذا الموضع حتى اليوم الثالث عشر ، وذلك ابتهاجاً بأيام العيد ، ومشاركة لآخوته فيه . ويقال لذلك (التشريق) . وأيام التشريق هي ثلاثة أيام بعد يوم النحر^٣ .

وكان أهل الجاهلية إذا قضوا مناسكهم وفرغوا من الحج ، وذبحوا نسائهم ، يجتمعون فيثاقفون بآثار آبائهم ، فيقول بعضهم لبعض : كان أبي يطعم الطعام ، ويقول بعضهم : كان أبي يضرب بالسيف ، ويقول بعضهم : كان أبي جزّ نواصي بني فلان . يقولون ذلك عند (الجمرة) ، أو عند البيت ، فيخطب خطيبهم ويحدث حديثهم . أو أنهم كانوا إذا قضوا مناسكهم وأقاموا بمنى قعدوا حلقاً ، فذكروا صنيع آبائهم في الجاهلية وفعالمهم به ، يقوم الرجل ، فيقول : اللهم ان أبي كان عظيم الجفنة عظيم القبة كثير المال ، وما شاكل ذلك ، فنزل الوحي : « فإذا قضيتُم مناسككم ، فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشد ذكراً^٤ » .

وكانوا إذا خرج أحدهم من بيته يريد الحج ، تفلد قلادة من لحاء السر ، دلالة على ذهابهم إلى الحج ، فيأمن حتى يأتي أمه . وذكر أنه كان يفلد نفسه وناقته ، فإذا أراد العودة عادوا مقلدين بلحاء السر . وروي أنهم إذا أرادوا الحج مقبلين إلى مكة يتقلدون من لحاء السر ، وإذا خرجوا منها إلى منازلهم متصرفين منها ، تقلدوا قلادة شعر فلا يعرض لهم أحد بسوء . بقي ذلك شأنهم حتى نزل الأمر بمنع دخول المشركين مكة وبوجوب قتلهم حيث وجدوا^٥ .

- ١ النهاية (٤٤٢/٢) .
- ٢ اللسان (٣٦٩/٤) ، (٨١/٦ وما بعدها) ، اللوطا (٢٤٩/١) ، مسند ابن حنبل (٢١٦/١ ، ٢٥٤ ، ٢٨٠ ، ٢٤٩ ، ٣٣٤ ، ٣٣٩) ، (٣٥/٦ ، ٨٢ ، ٨٧) .
- ٣ تاج العروس (٣٩٣/٦) . (شرق) .
- ٤ البقرة ، الآية ٢٠٠ ، تفسير الطبري (١٧٢/٢) وما بعدها ، تفسير الطبرسي (٢٩٦/٢ وما بعدها) .
- ٥ تفسير الطبري (٣٧/٦ وما بعدها) ، اللسان (٣٦٧/٣) ، (قلند) .

التجارة في الحج :

قال علماء التفسير : كان متجر الناس في الجاهلية : عكاظ وذو المجاز ، فكانوا إذا أحرموا لم يتبايعوا حتى يفضوا حجهم . ويقولون أيام الحج أيام ذكر . وقالوا : « كان هذا الحي من العرب لا يرجون على كسر ولا ضالة ليلة النفر . وكانوا يسمونها ليلة الصدر ، ولا يطيون فيها تجارة ولا بيعاً » . وقالوا : « كان بعض الحاج يسمون الداج . فكانوا يترلون في الشق الأيسر من منى » . وكان الحاج يترلون عند مسجد منى ، فكانوا لا يشعرون حتى نزلت ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم . هي التجارة . قال : اتجهروا في الموسم ^١ . والصدر الإفاضة . ومنه طواف الصدر . وهو طواف الإفاضة ^٢ .

والداج : الأجراء والمكاريون والأعوان ولجوهم الذين مع الحاج ^٣ . وذكر أن قوماً جاءوا إلى (عبدالله بن عمر) ، فقالوا : « انا قوم نكسرى ، فبزعمون انه ليس لنا حج . قال : ألسن نحرمون كما يحرمون ، ونطوفون كما يطوفون ، ونرمون كما يرمون ؟ » قالوا بلى . قال فأنتم حاج ^٤ . ومن يكرى لخدمة الحاج ، فهو من الداج .

العمرة :

و (العمرة) هي بمثابة (الحج الأصغر) في الاسلام ، وكان أهل الجاهلية يقومون بأدائها في شهر (رجب) . وللعمرة في الاسلام شعائر ومناسك ، وتكون بالطواف بالبيت وبالسعي بين الصفا والمروة . ولا بد أن يكون لها عند الجاهليين شعائر ومناسك . وهي في الاسلام فردية اختيارية ، وهي تختلف بذلك عن الحج الذي هو فرض على كل مسلم مستطيع ، وجباي ، أي ان المشتركين فيه يؤدونه جماعة ^٥ . أما بالنسبة إلى الجاهليين ، فيظهر من ذكر العمرة في القرآن

- ١ تفسير الطبري (١٦٤/٢) وما بعدها .
- ٢ تاج العروس (٢٢٨/٣) . (صدر) .
- ٣ تاج العروس (٣٩/٢) . (دج) .
- ٤ تفسير الطبري (١٦٤/٢) وما بعدها .
- ٥ Shorter Ency. of Islam, p. 604. ff.

الكرام انهم كانوا يؤدونها كما كانوا يؤدون الحج ، ولوقوعها في شهر رجب ، وهو شهر كان الجاهليون يلجئون العتائر فيه ، لعلنا لا نخطئ. اذا قلنا انهم كانوا يلجئون ذبائحهم في العمرة ، حينما يأتون أصنامهم فيطوفون حولها ، أما في الإسلام ، فالعمرة دون الحج . وإذا كانت في شهر رجب في الجاهلية . كانت حجاً خاصاً مستقلاً عن الحج الآخر الذي يقع في شهر ذي الحجة. حرص الجاهليون على ألا يوافق موعداً موعد مواسم الحج ، لما كان لها من أهمية عظيمة عندهم قد تزيد على الطواف المألوف في شهر الحج^١ .

وورد أن أهل الجاهلية كانوا يرون أن العمرة من أشهر الحج : شوال وذي القعدة وتسع من الحجة وليلة البحر ، أو عشر أو ذي الحجة من القصور في الأرض ، أي من الذنوب^٢ ، ولكن بعضاً آخر كان يعتمر في كل شهر ، ولا سبباً في رجب ، حيث كانوا يحلقون رؤوسهم ويجيئون إلى معجالتهم للعمرة . وورد أن أهل الجاهلية كانوا يرون العمرة في أشهر الحج من أكبر الكبائر . ويقولون : إذا برأ الدبر ، وعفا الأثر ، وانسلخ صفر ، حلت العمرة لمن اعتمر^٣ .

وذكر أن الأشهر الحرم ثلاثة سردياً وواحداً فرداً ، وهو رجب . أما الثلاثة ، فليأمن من الحجاج واردين إلى مكة وصادرين عنها ، شهراً قبل شهر الحج ، وشهراً بعده ، قدر ما يصل الراكب من أقصى بلاد العرب ، ثم يرجع . وأما رجب ، فللعتمر يأمنون فيه مقبلين وراجمين نصف الشهر للإقبال ونصفه للأياب ، إذ لا تكون العمرة من أقصى بلاد العرب كما يكون الحج . وأقصى منازل المعتمرين بين مسيرة خمسة عشر يوماً^٤ .

وبليس المعتمر (الاحرام) أيضاً . وقد كان الجاهليون يكفون في عمرتهم بالطواف بالبيت ، أما (السعي) بين الصفا والمروة ، فأغلب الظن أن العرب لم يكونوا يقومون به . بليل ما ورد في القرآن الكريم من قوله : « إن الصفا والمروة من شعائر الله ، فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما .

١ المشرق . الجزء ٣٩ (١٩٤١) . (ص ٢٥٠) .
 ٢ إرشاد الساري (١٧٤/٦) .
 ٣ الروض الاتف (٣٥١/١) .
 ٤ الروض الاتف (٦٠/٢) .

ومن تَطَوُّع خَيْراً فإن الله شاكر عليم^١ . ففي هذا النص دلالة على أن الجاهليين من غير قریش لم يكونوا يدخلون السعي بينها في شعائر الحج أو العمرة ، وإن الله أمر بإدخاله فيها . أما موقف الجاهليين بالنسبة لطواف العمرة ، فهو نفس موقفهم بالنسبة للطواف بالبيت في أثناء الحج ، والفرق بين الحج والعمرة ، أن الحج هو الإحرام ثم الطواف بالبيت والسعي بين الصفا والمروة وقضاء مناسك عرفة والمزدلفة والوقوف بالمواضع التي أمر بالوقوف بها ، بينما العمرة الطواف بالبيت والسعي بين الصفا والمروة^٢ ، فلا يكون موقف عرفة من العمرة . وكان الجاهليون يحلقون رؤوسهم للعمرة ، ويكون حلق الرأس علامة لها . فإذا وجدوا رجلاً وقد حلق رأسه علموا أنه من (الهار) ، فلا يحسونه بسوء ، إلا إذا لمس أحداً بسوء احتراماً للعمرة ولشعائر الدين^٣ .

والفرق بين العمرة والحج في الإسلام ، أن العمرة تكون للأنسان في السنة كلها ، والحج في وقت واحد في السنة . وتنام العمرة أن يُطاف بالبيت ، ويسعى بين الصفا والمروة ، والحج لا يكون إلا مع الوقوف بعرفة يوم عرفة وإجراء بقية المناسك^٤ .

وتقبيل الأحجار والأصنام واستلامها في أثناء الطواف أو في غير الطواف من الشعائر الدينية عند الجاهليين . كان في رؤسهم أن هذا التقبيل مما يقرهم إلى الآلهة ، ويوصلهم إليها ، فضربوا إليها ونصبوها في مواضع ظاهرة ، ومسحوا أجسامهم بها تبركاً . وكلمة (تمسح) من الكلمات التي لها معاني عند الجاهليين ، وكذلك كلمة (استلم) و (استلام) عند أهل مكة خاصة حيث استعملت بالنسبة للحجر الأسود . وطريقتهم أن يمر الإنسان يده على الحجر المقدس أو أن يمسه بها إن صعب استلامه كله . وقد يعرض عن ذلك بعضا يمدحها الإنسان إلى الحجر حتى

١ البقرة ، الآية ١٥٨ .

٢ تفسير الطبري (١٢٠/٢) وما بعدها .

٣ وقد كان حلق رأسه ، قلما رأوه أعنوا ، وقالوا : عمار فلا بأس علينا منهم ، تفسير الطبري (٢٠٢/٢) .

٤ اللسان (٢٨٢/٦) ، تاج العروس (٤٢٢/٣) وما بعدها . - اللسان (٦٠٤/٤) ، (صادر) ، البلدان (١٥٤/٤) ، الاقناع (٣٢٤/١) ، ٣٩٧ وما بعدها .

تلعسه ، وإذا تعذر الوصول إليه بسبب ما ، فيجوز أن يفعل ذلك راكباً على جمل^١ .

ومن هذا القبيل أيضاً طرق مطارق أبواب البيوت المقلّمة طرقات خفيفة ، وأمرار بعض الأشياء مثل الملابس على الأصنام والصخور والمواضع المقدسة لاكتساب البركة ، والتمسح بمجران البيت أو استلام أركانه أو التعلق بأطراف الكسوة . وتلطّيح الأحجار بدماء الضحية التي تقدم للأوثان وذلك بصب الدماء عليها ، أو بتلطّيحها وتلوّثها كلها أو جزء منها بدم الضحية ، توكيداً لإذابة دم الضحية في نفس من ضحيت الضحية من أجله^٢ .

وقيل إن من شعائر الجاهليين في الحج أن الرجل منهم كان إذا أحرم ، تقلّد قلادة من شعر ، فلا يتعرض له أحد . فإذا حجّ وقضى حجّه ، تقلّد قلادة من (إذخير) ، والإذخير نبات زكي الرائحة ، وأن الرجل منهم يقلّد بعبيره أو نفسه قلادة من لحاء شجر الحرم ، فلا يخاف من أحد ، ولا يتعرض له أحد بسوء^٣ . وتذكّرنا هذه العادة بما يليه بعض الحاجاج عند انقائهم حجّهم وعودتهم إلى بلادهم من لباس (كوفية) خاصة بأهل مكة ومن تتقال حجازي وذلك بالنسبة للرجال ، ولحار أبيض بالنسبة للنساء ، وذلك طيلة الأيام السبعة الأولى من احتفالهم بالعودة من الحج .

ولم يكن الجاهليون القريبون من مكة أو البعيدون عنها يقصدونها في حج (عرفة) وعمره (رجب) حسب ، بل كانوا يقصدونها في أوقات مختلفة وفي المناسبات ، للطواف حول الأصنام ، واستلام الحجر الأسود ، والتضرع إلى الآلهة المحلية . وقد ساعد ذكاء سادة قريش السلي تجلّ في جمعهم أكثر ما أمكنهم جمعه من أصنام القبائل في (البيت الحرام) ، على اجتذاب القبائل إليها ، وبذلك نشطوا في استغلال مواسم الحج والعمرة بالاستفادة من القادمين بالأنهار معهم ، وبيع ما

١ وفي الحديث أن الرسول طاف وسعى بين الصفا والمروة ، وهو على ظهر جمل ، البخاري (٦٦/١ ، ٢١١) . السنن (٣٧/٢ - ٣٩) . مسلم (٤٨٦/١ ، ٤٨٨) ، الإلهام (١٦٦/١٣) . المشرق . السنة السابعة والثلاثون ، كانون الثاني - آذار ١٩٣٩ م (ص ٨٧ وما بعدها) .

Reste, B. 109.

٢ يلوغ العرب (٢٨٩/٢) .

يحتاجون اليه من طعام وزاد ، فحصلوا على مال ، حصدهم عليه الآخرون .
فكان الفضل في ذلك لليت . والى ذلك أشير في القرآن ، في سورة (قريش) :
« فليعبدوا رب هذا البيت ، الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف »^١ .

هذا ما عرفناه عن شعائر الحج الى مكة وعن مناسكه في الجاهلية المتصلة
بالاسلام . أما عن الحج الى البيوت الأخرى وعن شعائره ومناسكه ، فلا تكاد
نعرف من أمرها شيئاً يذكر . ولكننا نستطيع ان نقول ان من أهم أركان الحج
عند جميع الجاهليين ، وجوب مراعاة النظافة ، نظافة الجسم ونظافة الثياب .
ولذلك ، كانوا اذا حجوا لبسوا ملابس خاصة بالحج هي (الاحرام) أو ملابس
جديدة ، أو ملابس مستعملة نظيفة مغسولة ، وذلك لحرمه هذه المواضع وتقدسيتها ،
فلا يجوز دخولها بملابس وسخة دنسة ، واذا كانوا يلبسون أحسن ما عندهم عند
ذهابهم الى مقابلة عظيم أو سيد قبيلة أو رجل محترم ، احتراماً له واجلالاً لشأنه ،
أفلا يجب إذن لبس خير ما عند الإنسان من ثياب لدخول بيوت الآلهة ، ولا سيما
في مواسم الحج ؟ . وكان منهم من يوجب على نفسه الغسل وتطهير جسده حين
دخوله للمبعد أو اعتزامه الحج .

وتقبيل الأصنام والأحجار واستلامها في أثناء الطواف ، والتسبح لها ، من الشعائر
الدينية اللازمة في الحج وفي غير مواسم الحج عند الزيارات . كان في روعهم ان
هذا التقبيل مما يقربهم الى الآلهة ، ويوصلهم اليها ، فتجعلها ترضى عنهم وتنقيهم
عما هم فيه من سقم وأمراض ، فتقربوا اليها ومسحوا أجسامهم بها تبركاً وتقرباً .
و (التسبح) بالصنم أو الحجر المقدس ، التبرك به لفضله وعبادته ، كأنه يتقرب
الى الآلهة بالدنو منه ولمه^٢ . وقد ذكر أهل الأخبار ان الجاهليين كانوا
يمسحون بأصنامهم ، ويمسحون ظهورهم بها ، لاعتقادهم انها تنقيهم من كل
الم وسوء .

واستلام الصنم أو الحجر المقدس ، هو نوع من أنواع التقدير والتعظيم والتقرب .
ويراد بذلك تقبيل الحجر ولمه وتناوله باليد ومسحه بالكف . واذا صعب الوصول

١ سورة قريش ، الرقم ١٠٦ . رقم الآية ٣ وما بعدها ، تفسير الطبري (١٩٧/٣٠) .
روح المعاني (٢٤١/٣٠) .
٢ تاج العروس (٢٢٦/٢) . (مسح) .

إليه لشدة الازدحام ، فقد يمدّ أحدهم قصبة أو عوداً أو عصاً إليه لمسه ، فيكون لمس هذه الأشياء له ، كأنه لمس حقيقي ، يجلب لصاحبه ما تمنّاه وطلبه ورجاه من ذلك العصم أو الحجر^١ .

وقد أشار بعض (الكلاسيكيين) إلى وجود غابة من النخيل في ركن من البحر الأحمر ، كان يؤمها النبط للتبرك بها ، إذ كانت في فقرهم أرضاً مقدسة ، عليها معبد من الحجر عليه كتابة ، وصفوها بأنها كتابة لا يستطيع اليوناني قراءتها ، وبه كهان وكاهنات يقضون عمرهم في خدمة ذلك المعبد . قالوا : وفي كل خمس سنين يحج الناس إليه ، ويتجمعون عنده ، ويحضر معهم من في جوار المعبد من ناس ، فيلبحون ، ويتبرون إلى آلهتهم . فإذا عادوا أخذوا معهم مساةً من ذلك المكان ، للتبرك به ، لاعتقادهم أنه يمنحهم الصحة والعافية . وذكر بعض آخر أن الحج إلى هذا البيت كان مرتين في السنة : الحج الأول في مطلع السنة ، ويستغرق شهراً واحداً . أما الحج الثاني فيكون في نهاية الصيف ، ويستغرق شهرين . وتكون هذه الأشهر الثلاثة أشهراً محرماً لا يحل فيها قتال ، بعمتها سلم أوجنته الألفة على الإنسان والحيوان^٢ .

ولرى في هذه الشعائر مشابهة كبيرة لشعائر الحج في مكة . ولولا تعيين هؤلاء الكتبة المكان ، ونصهم على أنه على البحر الأحمر ، وأنه غابة نخيل ، لانصرف الدهن إلى مكة ، إذ نجد أن شعائر الحج فيها تشبه هذه الشعائر ، واستأذهم من ماء (زمزم) للتبرك به ، يشبه استقاء هؤلاء من بئر معبدتهم هذا ، وقد أهل أولئك الكتبة أسماء الأشهر الحرم الثلاثة ، فأضاعوا علينا فرصة ثمينة كانت تساعدنا كثيراً في الوقوف على تثبيت الأشهر عند الجاهليين .

ويلاحظ أن النبط كانوا يعتقدون في أثناء هذه الأشهر الحرم سوقاً ، تذكرنا بسوق عكاظ التي كان يعقدها أهل الحجاز . ولا شك أن موسم الحج في المعبد المذكور ، الذي يتحول إلى سوق للبيع والشراء ، يشبه موسم الحج في مكة حيث ينقلب أيضاً إلى سوق .

١ اللسان (١٢ / ٢٩٧) ، (سلم) .

٢ Die Araber in der Alten Welt, I. B. 32. f.

الأعياد :

والأعياد من جملة مظاهر الأديان وشعائرها . والحج في حد ذاته عيد من أعياد الجاهليين . وقد كانت للجاهليين أعياد لها صلة بأديانهم ، غير أننا لا نستطيع أن نتحدث بالطبع عن وجود أعياد عامة يعبد فيها جميع الجاهليين عبدة الأصنام ، لأن الأعياد العامة تستدعي وجود ديانة واحدة وعبادة إله أو آلهة مشتركة يعبدونها جميع القوم ، وإذا كانت العرب لا تعبد إلهاً واحداً أو آلهة مشتركة يقدمونها أهل الوبر وأهل المدر منهم جميعاً ، فلا يمكن أن نتصور وجود أعياد عامة لجميع العرب ، في عهود ما قبل الإسلام .

ولقطة العيد اسم لما يعود من الاجتماع العام على وجه معتاد على رأي علماء اللغة^١ . وهو بالمعنى المعروف الذي يخص الاحتفالات الدينية من الألفاظ العربية المأخوذة عن لغة بني إرم على رأي المشرقين . فـ (عيداً) في الإرامية هي (العيد) في العربية^٢ .

١ : تاج العروس (٤٣٨/٢) ، اللسان (٣١٣/٤) ، بلوغ الأرب (٣٤٤/١) .
٢ : Ency. II, p. 444.

الفصل الثالث والسبعون

بيوت العبادة

والمعبد هو الموضع المخصص للعبادة . وقد وردت في النصوص الجاهلية وفي عربية القرآن الكريم ألفاظ تؤدي هذا المعنى ، فقد كان الجاهليون قد اتخذوا معابد ثابتة ومعابد متنقلة مثل بيوت الوبر ، تعبدوا بها إلى معبوداتهم قبل الإسلام وقبل الميلاد .

فقد كانت القبائل في حركة دائمة ، بحثاً عن الغزو والكلاء والماء . وكانت آلتها في حركة دائمة أيضاً ، ترحل مع المتعبدين لها ، وتستقر عند استقرارهم بمكان ما . وعند نزول القبيلة في موضع ما توضع الأصنام في قبعتها ، وهي خيمة تقوم مقام المعبد الثابت عند أهل المدر . وتكون للخيمة بسبب ذلك قدسية خاصة ، ولموضع الذي ثبتت عليه حرمة ما دامت الخيمة فوقه . وقد كانت معابد القبائل المتنقلة كلها في الأصل على هذا الطراز^١ . ولم يكن من السهل على أهل الوبر تغيير طراز هذا المعبد ، واتخاذ معبد ثابت . لخروج ذلك على سنن الآباء والأجداد . ولذلك لم يرفض العبرانيون عن المعبد الثابت الذي أقامه سليمان ، لما فيه من نهضة للخيمة المقدسة التي كانت المعبد القديم لهم وهم في حالة تنقل من مكان إلى مكان . ثم إن أهل الوبر قوم رحل ، ولا يمكن لمن هذا حاله اتخاذ معبد ثابت له ، لما كان عليه من وجوب نقل أصنامهم معه حيث ينسحب .

Die Araber, III, 8. 132.

وليوت الأصنام سدنة ، يحفظون الأصنام بها ويرعونها ، وينظونها معهم حيث ترحل القبيلة ، فإذا نزلت نزلوا بها ، ليقيموا لها الواجبات الدينية المقررة في الحيمة المقدسة . حيث فرضت طليعة البداوة على أصحابها هذا النوع من أنواع البيوت المقدسة ، وهذه الطقوس الدينية التي تلائم حياة الأعراب .

وبيوت العبادة عند الجاهليين ثلاثة أنواع : بيوت عبادة خاصة بالمشركون عبدة الأصنام ، وهم الكثرة الغالبة ، وبيوت عبادة خاصة باليهود ، وبيوت عبادة خاصة بالنصارى . أما بيوت عبادة المجوس ، فقد عرفت في الرية الشرقية وفي الرية الجنوبية ، ولكن عبادة هم من المجوس ، أي العجم ، فالمجوسية لم تنتشر بين العرب ، ولم تدخل بينهم إلا بين عدد قليل من الناس .

وما ذكرته عن بيوت العبادة ، خاص بالعابد العامة ، وهناك مواضع عبادة خاصة ، جعلت في البيوت ، وضع أصحابها أصنامهم في ركن من أركانها ، وتقربوا إليها . روي أن العباس ، كان قد أقام الصنمين أسافاً وثالثة في ركن داره ، وكانا حجرين عظيمين^١ . واحتفظ غيره بأصنام في بيوتهم لتبرك بها ، ولحماية البيت ، وكانوا إذا سافروا حملوا أصنامهم الصغيرة معهم للاحتباء بها ، وأخذ بعض شباب المدينة ما وجدته من أصنام في البيوت ، تعبد لها آبائهم فحطموها ، ومنهم من رماها في مواضع العلرة والقاذورات .

وقد استغلنا اليوم بفضل جهود السباح والمقبن والباحثين من الحصول على بعض المعلومات عن معابد جاهلية كانت عامرة يوماً ما . وذلك بعثور المذكورين على ألواح مكتوبة وجعلت في خرائب تلك المعابد . ولكن ما عثر عليه ، لا صلة له بالدين في الغالب ، فليس فيه أدعية أو صلوات أو كتابات تفصح عن عقائد القوم وعن أمور دينهم . ولهذا فإن علمنا بديانات الجاهليين لا يزال ضحلاً ، لم يتقدم تقدماً مرضياً ، وأملنا الوحيد في زيادته هو في المستقبل ، فلهذا يخرج من صناديق سره المكتومة ما يفصح عن عقائد القوم .

وقد اتخذ بعض العرب ، وهم المشركون ، بيوتاً وكميات لعبادة أصنامهم ، وضعوا أصنامهم في أجوافها ، ومنهم من اتخذ صنماً ، فلم يكن عليه بناء ، لعدم استطاعته ذلك . ومن لم يقدر عليه ، ولا على بناء بيت ، نصب حجراً أمام

١ - الأزدقي (١١٢/١) ، (١٨٨/٢) .

الحرم ، وأمام غيره ، مما استحسن ، ثم طاف به كطوافه بالبيت ، وسجدها
الأنصاب^١ .

وذكر أن (وكيع بن سلمة بن زهير الإباضي) ، كان قد اتخذ له صرحاً
بالجزيرة ، سوق كانت بمكة ، يرتقبه بسلام يتعد فيه ، فعرف بصاحب الصرح^٢ .
والبيت ، مأوى الانسان ومسكنه في الأصل ، ثم تجوز الناس فأطلقوا اللفظة
على المعبود ، باعتبار أنه بيت الآلهة أو الإله ، لاعتقادهم أن الآلهة تحمل به^٣ .
وقد كانوا يضعون الصنم أو الأصنام فيه . ويقال للبيت عندئذ (بيت الله) أو
(بيت ربهم) وهو بيت يذكر (ابن الكلبي) أنه كان الحميمير يصنعها ، وأن
الناس كانوا يعظمونه ويتقربون عنده باللبائح^٤ ، أو (بيت الزينة) وما شاكل
ذلك ، بحسب اختصاص البيت بالصنم .

كذلك أطلقت كلمة (بيت) بمعنى معبد في تصوص المسند،فورد : (وقدسو
بيت مرب) ، أي (وقدسوا بيت مأرب) أو (وبيت مأرب المقدس)^٥ .
فلفظه بيت هي اللفظة التي استعملت لمواضع العبادة ، أي المعبود ، أطلقت قبل
اسم الإله أو الموضع عندئذ على التخصيص . وهي ترد في لغات سامية أخرى في
هذا المعنى نفسه .

وأما (الكعبة) فالبيت المربع ، وكل بيت مربع كعبة عند العرب . وقد
خصصت في الإسلام بالبيت الحرام بمكة . والكعبة الغرفة أيضاً . وقد كان لربيعة
بيت يطوفون به ، يسمونه الكعبات ، وقبل : ذو الكعبات ، وقد ذكره الأسود
ابن يعفر في شعره ، فقال :

والبيت ذي الكعبات من ستاد^٦

والمسجد كل موضع يتعبد فيه^٧ . وقد استعملها الجاهليون بهذا المعنى أيضاً .

-
- ١ الاصنام (٢١) : روزا * .
 - ٢ تاج العروس (١٣٩ / ٢) ، (صرح) .
 - ٣ المفردات (٦٤) .
 - ٤ الاصنام (٧) : روزا * .
 - ٥ CIH 541, Le Muséon, 1934, LXVII, p. 103.
 - ٦ اللسان (٧١٨ / ١) : المفردات (٤٤٦) .
 - ٧ اللسان (٢٠٤ / ٢) وما بعدها ، تاج العروس (٣٧١ / ٢) ، (مسجد) .

وقد وردت اللفظة في نصوص بني إرم وفي النصوص النبطية والصفوية . ورد على هذه الصورة (مسجداً) في نصوص بني إرم ، وورد على هذه الصورة في النصوص الصفوية أيضاً ، وقد عنت به معبداً^١ .

وقد عبر عن المعبد باللفظة (مكرين) ، أي (المكرب) أو (الكراب) في بعض نصوص المسند ، إذ ورد (مكرين يعق) ، بمعنى (معبد يعوق)^٢ . ومن هذا الأصل أخذت كلمة (مكراب) في الحبشية ، ومعناها (معبد)^٣ . ولهذا ذهب (كلاسر) وغيره إلى أن (مكرية) Meccoraba ، المدينة المذكورة في (جغرافيا) (بطليموس) هي (مكة) ، لأنها (مقرية) إلى الأصنام ، فهي بمعنى (البيت) و (الكعبة) في لغتنا^٤ .

وتقابل كلمة (المعبد) كلمة Templum اللاتينية التي تعني موضعاً مربعاً ، فهي بمعنى (الكعبة) ، و (كعبة) في اللغة العربية . ويلاحظ توافق تام بين معنى الكلمتين في هاتين اللغتين^٥ . ولا بد أن يكون لاتخاذ هذا الشكل للمعبد سبب ، إذ لا يفضل أن يكون قد جاء ذلك عفواً ، ولا سيما أننا نلاحظ أن الكلمتين : اللاتينية والعربية ، قد جاءتا من شكل البناء ونوعه وطرازه .

وذكر علماء اللغة أن في جملة الألفاظ التي تنطلق على بيوت الأصنام والعبادة والتصاوير ، لفظة (البد) . وهي تؤدي معنى (صنم) كذلك . وذكروا أنها من الألفاظ العربية عن الفارسية . خرجت من (بت)^٦ ، وأنها تعني البيت إذا كان فيه أصنام وتصاوير^٧ .

وذكروا أن في جملة الألفاظ التي أطلقت على بيوت الأصنام لفظة (الطواغوت) والجمع (الطواغيت) . ورد أن العرب كانت قد اتخذت مع الكعبة طواغيت ، وهي بيوت نعظمها كتعظيم الكعبة ، لها سدة وحجاب ، وتهدى إليها ، كما

١ العرب في سورية قبل الإسلام (١١٩) .
Shorter Ency. of Islam, p. 330, Cooke, North Hemitic Inscriptions, p. 238.
Le Muséon, 1954, LXVII, p. 100.
٢ Ency., II, p. 584.
٣ Glaser, Skinner, II, 8, 325.
٤ Ency. Religi., Vol. 12, p. 234.
٥ تاج العروس (٢٩٥/٢) ، (بدد) .
٦ شمس العلوم (١٠٠ ق ١ ، ص ١١٩) ، غرائب اللغة (٢١٨) .

تهدي إلى الكعبة ، وتطوف بها كطوافها بها ، وتنحر ، عندها ، وهي تعرف
فضل الكعبة عليها ، لأنها كانت قد عرفت أنها بيت إبراهيم الخليل ومسجده^١ .
وورد أن (الطائفت) الصنم ، وكل معبود من دون الله ، ولما تقدم سمي
الساحر والكاهن والمارد من الجن والصارف عن طريق الخير طاغوتاً^٢ . واللفظة
تعني في لغة (بني إرم) : رئيس عقيدة ضلال ، وشيطان وصنم^٣ .

و (الهيكل) من الألفاظ الدالة على موضع العبادة ، استعملت لبيوت الأصنام
بجاءاً ، ولعابيد النصارى^٤ . والظاهر أن استعمالها كان عند العرب الشماليين في
الغالب ، مثل عرب العراق وعرب بلاد الشام ، ولا سيما عند النصارى منهم .
أدخلوها من الآراميين ، إذ هي بمعنى بيت الصنم ، أي معبد الوثنيين عندهم^٥ .
وقد وردت في لغة (المسند) كذلك ، وردت بمعنى (قصر)^٦ ، ومعبد في
أيام دخول النصرانية إلى اليمن .

وقد أطلق (الديديانيون) على بيت (بعل ممين) ، لفظه : (الحرم)
بمعنى (الحرم) تعظيماً وتمجيذاً له . فهو ذلك الإله^٧ . ونرد لفظه (محرم)
— التي لا زالت حية معروفة يطلقها أهل اليمن على محرم (بقريس) — في لغة
المسند ، بمعنى المعبد ، والمسجد الحرام . وقد وردت في عدد من النصوص^٨ .
وبيوت العبادة أنواع . بيوت عبادة كبيرة ، يحج إليها في أوقات معينة ،
ومواسم محددة ، من مواضع قروية أو بعيدة ، هي محجيات يحج إليها في وقت
معين ثابت ، يقرب بها المتعبدين إلى رب المحجة أو أربابها بأداء واجب الخضوع
والطاعة . وتكون محجة واحدة في الغالب ، اختارها الإله أو الآلهة من بين سائر
أماكن الأرض لتكون موضعاً مقدساً وحرماً آمناً ، فهي أقدس بقعة وأعز مكان
في نظر المتعبدين لها على وجه هذه الدنيا . فلا تدانيها المعابد الأخرى ولا تبلغ
مترتها في الحرم والمكانة .

- ١ ابن هشام (٨٦/١ وما بعدها) ، هامش على الروض الأنف (٦٤/١) .
- ٢ المفردات ، للأصفهاني (٣٠٧) ، الإصنام (٦) ، تاج العروس (٢٢٥/١٠) ، (طفا) .
- ٣ غرائب اللغة (١٩٤) . Hughes, Dictionary of Islam, p. 628.
- ٤ تاج العروس (١٧٠/٨) ، (هيكل) .
- ٥ غرائب اللغة (٢٠٩) .
- ٦ Jamme, South Arab. Inscriptions, p. 433.
- ٧ Histroire, IV, p. 312, Preislamiques, p. 20.
- ٨ Jamme, South Arab. Inscriptions, p. 440.

وهناك بيوت عبادة أخرى تكون دون المحجات في الأهمية والدرجة ، لأن الآلهة لم تحترها لنفسها ولم تنص على اسمها ، وإنما هي دور عبادة أقامها الناس تقرباً إلى تلك الآلهة . وهي متفاوتة في الدرجة أيضاً ، فيها المعابد الكبيرة التي صرف على إقامتها مال كثير ، وفيها معابد بسيطة ، يقيمها الناس تقرباً إلى أربابهم .

والناس في ذلك العهد ، كالناس في أيامنا هذه ، لا يكتفون بتشيد معبد واحد في المدينة ، بل يجدهم يقيمون جملة بيوت للعبادة ، وقد تُخصص بعضها بعبادة جملة آلهة ، ويخصص بعضها بعبادة إله واحد معين ، يذكر اسمه على باب المعبد . وقد تبين في الموضع الواحد جملة معابد لإله واحد ، لأن المعابد من الأعمال الخيرية التي يقوم بها المؤمنون تقرباً إلى الآلهة ، لذلك يصادف قيام جملة أسر ببناء معابد لتلك الإلهة ، تسميها باسمه وتنقش اسم الأسرة أو المبرع بالبناء على موضع بارز من المعبد . ويفضل هذه الطريقة القديمة ، التي لا تزال البشرية تتبعها ، نتجنا من الحصول على معلومات عن تلك المعابد وعن الآلهة التي خصصت لها وعن أسماء المؤمنين الذين أقاموها .

وقد اتخذ الإنسان من الكهوف بيوتاً للعبادة ، كما اتخذ من الجبال والمواقع المرتفعة أماكن يبنى عليها معابده ، ليكون في رأيه ونظره أقرب إلى السماء ، حيث تقم الآلهة ، فتسمع دعاءه ، وتصل إليها كلمته ، وتستجيب له ، أكثر من استجابتها له لو كان على سطح الأرض . ويبني الحضري معبده في المواطن التي يقيم فيها ، وحاول بهذه الإتفاق عليها ، والتفنن في بنائها وزخرفتها ، لتكون بيوتاً تلبق بسكنى الأرباب . أما البدو ، فكانت معابدهم في الخيام ، تحفظ فيها أصنامها ، فتنقل معها ، وتضرب في الموضع الذي تحمل القبيلة فيه ، ينظرون إليها نظرة تقديس وإجلال ، لأنها حرم الآلهة وأماكنها وبيوتها المقدسة ، فلا يجوز تلويثها ولا انتهاك حرمتها . لهذا لم يكن يسمح لأحد بالدخول إليها إلا إذا كان من رجال الدين .

ولهذه الخيام المقدسة سدنة ، يضعون الصنم أو الأصنام في جوفها ، ويسهرون على خدمتها ، وينقلونها معهم حيث تنقل القبيلة . وهم يتوارثون خدمتها . وإذا استقرت القبيلة وتحضرت ، تحضر معبد صنمها بتحضرها كذلك . ووجد الصنم

عندئذ له مستقراً دائماً ومقاماً ثابتاً ، ويصير عندئذ في عداد الأصنام الثابتة .
ويكون للصنم عندئذ معهد متناسب قيمته وأهميته ودرجة عمرانه ، مع مكانة القبيلة
وعدد رجالها وغناها وما عندها من مال .

والعين أهمية كبيرة في تقييم المعبد وفي نشر العبادة وفي تكوين شخصية الإله
رب المعبد فيها بين الناس . فكما أن قيمة الإنسان بحسبه وبأناقته وبحسن مظهره ،
كذلك تكون قيمة المعبد بصفحاته وبما يزين به من نقوش وزخارف وبما يعلق
على الموضع المقدس منه من ذهب وفضة وأحجار كريمة . فالمعبد الضخم ، يدل
على قوة الإله وقدرته في نظر من ينظر بعينه لا بعقله إلى قيم الأمور ، أي في
نظر السواد ، وهم الكثرة الغالبة ، ولذلك يحلبهم إليه ، وتلقى صفحاته في نفوسهم
تأثيراً كبيراً يجعلهم يشعرون أنهم أمام بيت إله حقا ، لما فيه من روعة ولما
تفوح في داخله من روائح البخور والطيب ، لذا حرص رجال الدين على جعل
معابدهم ضخمة فخمة ، لتجلب لها أكبر عدد ممكن من المتعبدين .

ومن أشهر المواضع المرتفعة التي حج إليها المتعبدون للثبيل والتعبد ، والتي ورد
ذكرها في قصص أهل الأخبار : حراء ، وأبو قيس ، وثبير .

أما (حراء) فقد ورد في بيت منسوب إلى شاعر جاهلي :

فليلي والذي حجت قرش حارمه ، وما جمعت حراء^١

وجعل أحد الأجيال الخمسة التي بُني من حجارتها البيت^٢ . وإليه كان يلجأ
كبار قرش لدعوة آلهتهم في الملمات ، وإليه أيضاً كان يأتي بعض التوحشين النساء
الزاهدين في عبادة الأولاد للتفكير والتأمل . وفيه غار تحث فيه النبي ، ويعرف
به (جبل النور)^٣ . وورد أن أبا طالب أرسل عبداً ليأسي بالرسول إليه ،
فلعب إلى (كبس) ، وأخرجه منه . والكيس الغار^٤ . ويظهر أنه أراد به
غار حراء .

- ١ البكري (٤٣٢/٢) ، (حراء) ، هو : عوف بن الأعرس ، العامري ، شرح ديوان
لبيد (٢١) .
- ٢ الأزدقي ، أخبار مكة (٢٦/١) ، ما ذكر من بناء إبراهيم عليه السلام الكعبة .
- ٣ تاج العروس (٨٧/١٠) ، (حرو) .
- ٤ تاج العروس (٢٢٩/٤) ، (كبس) .

وأما (أبو قيس) ، فيظهر من غربة أخبار الأخباريين أنه كان من المواضع المقدسة الداخلة في شعائر الحج ، يرتقي الحجاج ظهره ، ليمسوا بذلك مناسك حجهم ، وليدعوا أنفسهم بما يظنون ويرغبون . وكان مقصوداً عند نزول الشدة والبلاء . فالظلم يمدح محله فوق هذا الجبل للدعاء عند انحباس المطر ، لنزول الغيث^١ .

وقد زعم بعض أهل الأخبار ، أنه سمي (أبا قيس) برجل من مذبح حداد ، لأنه أول من بنى فيه ، أو بقيس بن شالح ، رجل من جرهم ، كان قد وثى بين عمرو بن مضاض وبين ابنة عمه (مية) ، فنزلت أن لا تكلمه ، وكان شديد الكلف بها فحلف ليقتلن قيساً ، فهرب منه في الجبل المعروف به ، وانقطع خبره . فلما مات ولما تردى منه ، فسمي الجبل أبا قيس . « وله خبر طويل ذكره ابن هشام في غير هذا الكتاب . وكان أبو قيس الجبل هذا يسمى الأمين ، لأن الركن ، أي الحجر الأسود ، كان مستودعاً فيه »^٢ . « وكان الله عز وجل استودع للركن أبا قيس حين فرق الله الأرض زمن نوح » ، فلما أقام (إبراهيم) قواعد البيت ، (جاءه جبريل بالحجر الأسود)^٣ . والظاهر أن بيتاً للعبادة كان عليه ، وأنه كانت له صلة بالبيت ، فتجست هذه الصلة في النبي ذكره عن الحجر الأسود ووجوده فيه .

وأما (ثبير) ، فقد كانوا يفيضون منه في الحج على نحو يذكر في شعائر الحج .

ويلاحظ أن أهل العربية الجنوبية وأهل السراة قدسوا قم الجبال ، فجعلوا فيها معابد لعبادة الآفة ، مثل معبد (اوم) (أوأم) في (الو) . وقد أزيلت معالم تلك المعابد في الإسلام ، ولكن بعضها أخذ طابعاً إسلامياً فصير مثلاً قبرا من قبور الأنبياء مثل : (حضور أبي شعيب) ، الذي يقع على قمة جبل تعد من أعلا قم جبال العربية الجنوبية ، و (نبي ايوب) و (مفل) على عر (مبلقة)^٤ .

- ١ المشرق : السنة التاسعة والثلاثون ، تموز - أيلول ١٩٤١ ، (ص ٢٥٢ ومسا بعدها) .
- ٢ تاج العروس (٢١٢/٤) ، (قيس) .
- ٣ الأذرقني (٢٧/١) ، (ما ذكر من بناء إبراهيم عليه السلام الكعبة) .
- ٤ تاج العروس (١٤٨/٣) ، (حضر) ، Beitrage, S. 85, Ency. II, p. 222 .

وترجع قدسية المواضع المقدسة وحرمتها الى الاعتقاد بتزول الآلهة في هذه المواضع ، والى وجود قوى خارقة فيها ، أو الى وجود مقدسين فيها قُبروا في باطنها ، فقدمت تلك المواضع لهذه الأسباب . وتعرف هذه المواضع المقدسة بأسماء من تقدمت بهم ، وبأسماء المواضع التي تقع فيها .

وإننا نرى كثيراً من الأماكن المقدسة قد أقيمت في جزيرة العرب عند الينابيع والآبار المقدسة حيث تروى الأرض بالماء فتتمو به المزروعات ويستفي منها الناس . وقد صور هذا الخصب لكان تلك المناطق وجود قوى خارقة كامنة في تلك الأرضين كانت السبب في فقرهم في بحث الحياة للإنسان ولعله الأرض^١ .

وقدمت بعض المواضع وأقيمت المعابد بها ، بسبب وجود أشجار مقدسة بها ، ونجد في أخبار أهل الأخبار أن بعض المعابد مثل معبد العزى ، كان المتعبدون يتقربون بها الى سمرة ، أي شجرات ثلاثة ، أو الى شجرة واحدة ، فكانوا يعلقون عليها الحلى ويزينونها ، ومثل معبد (ذات أنواط) ، وهي شجرة كانت تعبد في الجاهلية ، وهي سمرة كان المتعبدون لها ينوطون بها سلاحهم ويعكفون حولها^٢ .

وقدمت مواضع أخرى لوجود أحجار مقدسة بها ، كانوا يطوفون حولها من هذه المواضع : (عكاظ) . فكان الناس يأتون الموضع في الموسم ، فينصبون فيه خيامهم ، ويقومون سوقهم ، ويطوفون بأحجار عكاظ ، يقيمون على ذلك أيام الموسم . فهي أيام عبادة وتجارة وفرح .

ولهذه القدسية والحرمة ، لم يسمح للسواد الأعظم من الناس بدخول الغرف المقدسة المخصصة بالآلهة ، لأنها بيوت الآلهة ، وعوض لهم عن هذا التحريم بالطواف حولها أو بلمس جدرانها ، وللسبب نفسه ، حُتم على القاصدين لها غسل أجسامهم وتنظيفها وليس ملابس ظاهرة نظيفة ، كان سدة بعض تلك المعابد ، أو أهل المواضع التي تقع فيها المعابد يؤجرونها للناس بأجر معين مرسوم ، إن كانت تلك المعابد من المعابد الكبيرة وفي مواسم الحج . كذلك لم يكن يسمح لأحد بالدخول الى المعابد والأحذية في أرجلهم فلا يد من خلعتها والدخول بغير أحذية

Ency. Religi., 6, p. 153, Robertson, p. 113.

١ : تاج العروس (٢٣٦/٥) ، (نوط) .

احتراماً لقدسية المكان وخشية التدنيس^١ . وقد حث الجاهليون على من يريد دخول الكعبة من التمتكين طلع نعليه ، احتراماً للبيت . ذكر أهل الأخبار أن أول من طلع نعليه لدخول الكعبة (الوليد بن المغيرة) ، فخلق الناس نعالهم في الاسلام^٢ . وقد عثر على كتابات جاهلية تبين منها ، أن الجاهليين كانوا يعدّون طهارة الملابس وطهارة الجسم من الأمور الملازمة لمن يريد دخول المعبد ، فإذا دخل انسان معبداً وهو نجس عدّ آثماً ، وقد ورد أن رجلاً اتصل بامرأة ، ثم دخل المعبد بملايسه التي كان يلبسها حين اتصل بها ، فعُدّ آثماً ، ودفع فدية عن إثمّه ارضاءً للألهة^٣ . وورد أن رجلاً دخل معبد الإله (رب السماء) (ذمجوی) معطفاً نجس . فدفع فدية عن ذلك ، جزاء ما ارتكبه من إثم^٤ . فلدخول المعابد بملايس نجسة ، نجاسة : مادية أو معنوية ، إثم ، تعاقب الآلهة عليه ، لهذا اشترطت ديانتهم عليهم عدم دخول بيوت الآلهة ، إلا بملايس طاهرة نظيفة حرمة وتقديراً لهذه البيوت .

ولديت المذاهب اشترطت سدنة الصنم (الجليل) على من يريد من عباده عدم قربان إليه ، أو تخليصه كراه ثياب سدنة ، لبسها بدلاً من ملايسهم ، لأنها ملايس نظيفة طاهرة . لم تحسها أدران مادية أو معنوية^٥ . وهو شرط نجده عند سائر العرب أيضاً فالتعربانيين^٦ . وقد كانت المعابد تدخر ملايس تكريمها لمن يريد أداء شعائره وبارء بيوت الأصنام .

وورد في كتب أهل الأخبار ، أن الجاهليين حثوا على المرأة الحائض ألا تنمس الصنم ولا تمسح به ، ولا تدخل بيته لتجاسة الحيفس^٧ . وورد أن (فالحنة) أم (حكيم بن حزام بن غويلك) ، كانت دخلت الكعبة وهي حامل متم بحكيم

1 Ency. Religi., 8, p. 753.

2 ابن رسته ، الاعلاني (١٩١) - مسجج الاخسي (٤٢٨/١) .

3 Glaser 1092. Hofmann 8, III 522, Erdmann, B. 251. f.

4 Rep. Kpigr., 2006, Erdmann, B. 252.

5 البلدان (١٢٢/٣) .

6 ثم قال الله ليعقوب : قم فاصعد الى بيت ايل ، وإذم هناك ، واصنع هناك مذبحاً لله الذي ظهر لك عند هريك من وجه عيسو أخاك . فقال يعقوب لأخيه وسائر من معه : أزيلوا هذه الآلهة الغريبة التي بينكم وتطهروا وابدلوا ثيابكم . وعلموا لاصعد الى بيت ايل ، الكومن ، الفصل (٣٥) . الآية ١ وما بعدا .

7 الاصنام (٣٣) ، خزانة الادب (٢٤٥/٣) .

ابن حزام فلجامها المخاض ، فلم تستطع الخروج من الكعبة ، فوضعتها فيها فلفت في الأنطاخ هي وجنتها وطرح مثيرها وثيابها السني كانت عليها ، فجعلت لقي لا تقرب^١ . فيظهر من هذا الخبر ان اهل مكة كانوا يعتبرون دم المخاض والولادة نجساً ، ولهذا اعتبرت الأنطاخ التي وضعت (فاختة) جنتها عليها ، بل اعتبرت هي نجسة أيضاً ، فلفت بالأنطاخ ، وألقيت ، وجعلت لقي لا يمسه أحد . وعثر المتقون على أحواض داخل المعابد في العربية الغربية ، يظهر أنها كانت للوضوء ، لتطهير الجسم قبل الدخول الى المسجد ، موضع الصنم . وذلك بغسل الوجه واليدين والقدمين وربما الأبدان كذلك ، قبل الدخول الى بيت الصنم . ولكون هذا الوضوء تطهيراً للجسم ، عرفت (الميضاة) بالمطهرة ، لأنها تظهر من الأدران^٢ . ولهذا السبب ، حقرت الآبار في المعابد ، لتعوين هذه الأحواض بالماء ، ولتترك أيضاً بالماء للقدس ، ولاستعماله في أغراض أخرى ، منها تنظيف الجسم من الأدران بعد قضاء الحاجة .

ولم آداب انبورها حين دخولهم بيت الصنم وحين خروجهم منه . من ذلك ان القبائل كانت تتجنب ان تجعل ظهورها على مائة اعظاماً للصنم . فكانت تنحرف في سيرها ، حتى لا يكون الصنم الى ظهرها . وفي ذلك قال الكميث بن زيد ، أحد بني أسد بن غزيمة بن مدركة :

وقد آلت قبائل لا تولى مائة ظهورها مُشترقينا^٣

وقد تطورت أشكال المعابد وهندستها بتطور الحضارة ، وبشكل طبيعة الأرض التي يقام المعبد عليها . وهي تتناسب مع درجة تطور الشعوب ودرجة رقيها وطرأ تفكيرها واختلاطها بالأمم المجاورة . ولذلك نجد معابد (تدمر) مثلاً قد تأثرت بطراز البناء الإغريقي ، لتغلغل الثقافة اليونانية فيها ، وتأثر سكان المدينة باليونان . كذلك نجد هذا الأثر والأثر الروماني في معابد بلاد الشام وقلسطين ، فالمعبد اذن

١ الروض الاتف (١٣٤/١) ، الاصابة (٣٤٨/١) ، (رقم ١٨٠٠) ، كتاب نسب فريش (٢٣١) .
٢ تاج العروس (١٣٤/١) ، (وضوء) .
٣ ابن هشام (٩٠/١) ، الشرق ، السنة ١٩٣٨ م ، (الجزء الاول) ، (ص ١١) ، ابن هشام (٦٥/١) ، (حاشية على الروض الاتف) ، (قصة عمرو بن لحي) ، وذكر أسلم العرب .

هو نموذج معبر عن نفسية الناس وعن حضارتهم ودرجة تفكيرهم وعن هئولتهم ، ومدى تأثير فن البناء عندهم بالمؤثرات الداخلية الأصيلة أو المؤثرات الدخيلة في الزمن الذي قام فيه البناء .

ومن هنا نجد معابد اليمن ، اتخذت لها الحجارة الضخمة المقطعة من الصخور في بناء الجدر والأرض وفي الأعمدة ، ونجد المعمار قد تفنن في تزويق الجدر والأعمدة والسقوف وفي زخرفتها ، فصارت المعابد ضخمة جميلة ، لا تضاهيها المعابد التي أقيمت في مواطن سهلة من جزيرة العرب ، لعدم وجود المواد الصالحة للبناء فيها ، ولأن الطبيعة لم تهيب للمعمار فيها ما يدفعه إلى بناء أبنية ضخمة فيها تضاهي معابد أهل اليمن .

الاستفسار عن المغييات :

ولم تكن المعابد مواضع عبادة وتقرب إلى الأصنام حسب ، بل كانت مواضع استفسار عن المغييات كذلك ، يقصدها أهل الحاجات لسؤال الآلهة عما عندهم من مشكلات ، أو عما سيخبره لهم المستقبل من أمور ، أو عن أعمال يريدون القيام بها ، أو عن سرقة ، وما شابه ذلك من طلبات .^١ ومن هذه البيوت بيت رثام ، وقد كانوا يكلمون منه ويتحرون عنده .^٢ وبيت العزى ، وكانوا يسمعون فيه الصوت .^٣ والمنطق وكان صنماً من نحاس يكلمون من جوفه ، فبأنبيهم الجواب .^٤ وبيت (الجلسد) ، صنم كتلة وأهل حضرموت .^٥ وقد ذكر (الجاحظ) : « أنهم كانوا يسمعون في الجاهلية من أجواف الأوثان هممة ، وأن خالد بن الوليد حين هدم العزى رمته بالشر حتى احترق عامة فخله ، حتى عادته النبي ، صلى الله عليه وسلم » . وهو بمن يشكون في صدور مثل هذه الأمور إذ يقول : « وهذه فتنة لم يكن الله ليعتحن بها الأعراب وأنشأه الأعراب من العوام . وما أشك أنه كان للسنة حيل والطلاف فكان التكسب » .

١ - الأصنام (ص ١٢) - الطبري (٩٧/٢) .

٢ - الأصنام (ص ١٨) .

٣ - الجدر (ص ٣١٨) .

٤ - البلدان (١٢٢/٣) وما بعدها .

٥ - الحيوان (٢٠١/٦) .

تكليم الأصنام :

ويقوم الكهان بتكليم الصنم ، وهم الذين يفسرون للسائلين المهمة أو الأصوات الصادرة من تلك الأصنام ويتكلمون على ألسنها بما يلائم السائل مقابل لذر وهدايا واللطاف يقدمونها الى السنته . وهذا النوع من التنبؤ ، معروف عند اليونان والرومان ، مشهور ومعروف عند غيرهم من الأمم كالبابليين والآشوريين والعبرانيين ، بل هو يؤلف جزءاً مهماً من أركان الديانات القديمة ، ويطلق عليه Oracle في الإنكليزية من Oraculum اللاتينية ، ومعناها التكلم . ولهذا النوع من التنبؤ صلة كبيرة بالسحر Magic وبالكهانة في الديانات القديمة والديانات البدائية عند بعض الشعوب الأفريقية والآسترالية في الزمن الحاضر . وقد اكتسبت بعض معابد اليونان شهرة كبيرة في هذا النوع من التنبؤ بالليب ، وأشهرها معبد (دلفي) Delphi الذي كسب شهرة عظيمة في هذا الباب^١ .

وقد ورد في بعض النصوص ، ان قوماً كلموا آلهتهم في شهر (ذ الحجي ذ عثر) و (ذ فرعم ذ عثر) ، فأجابهم الإله (عثر) على ما سألوا عليه . وورد ان جماعة من المؤمنين بـ (عم) ، كلموه ، فأجابهم على ما سألوا عنه . وكانوا اذا كلموا الآلهة ، فوجدوا ان الأجوبة غير متسجمة مع الأسئلة ، أعدوا الأسئلة عليها وقدموا قرايين جديدة لها ، أو وزادوا في الحلوان ، يفعلون ذلك حتى يسمعوا الجواب المناسب لأسئلتهم^٢ .

ولم أسمع بوجود تكليم في مكة . فلم يذكر أحد من أهل الأخبار أن الجاهليين كانوا يأتون الكعبة لسأع أجوبة الأصنام عن أسئلة يوجهونها إليها ، ولا عن وجود سدنة كانوا يقومون بأي نوع من التكليم . وإنما ذكروا أنهم كانوا يسألون الأصنام النصيح والإرشاد ، والأمر والنهي بفعل فعل أو تركه ، ويكون ذلك بالاستقسام بالأزلام . وقد خصص الصنم (هبل) بهذا النوع من الإرشاد . وكانت عنده سبعة قداح ، كل قداح منها فيه كتاب : قدح فيه العقل ، إذا اختلقوا في العقل من يحمله منهم ، ضربوا بالقداح السبعة عليهم . فإن خرج العقل ، فعل

Ency. Brit., Vol., 18, p. 830, T.D. Dempsey, The Delphic Oracle, 1918, L.R.

Farnell, Cults of the Greek States, Vol. IV, p. 179.

Grohmann, S. 251.

من خرج حله . وقدح فيه (نعم) للأمر ، إذا أرادوه يضرب به في القدح ،
 فإن خرج قدح فيه نعم ، عملوا به . وقدح فيه (لا) ، فإذا أرادوا الأمر
 ضربوا به في القدح ، فإذا خرج ذلك القدح ، لم يفعلوا ذلك الأمر . وقدح
 فيه (منكم) ، وقدح فيه (ملصق) ، وقدح فيه (من غيركم) ، وقدح فيه
 (المباء) ، فإذا أرادوا أن يحفروا لهم ضربوا بالقدح ، وفيها ذلك القدح ،
 فحيثما خرج به ، عملوا به . وكانوا إذا أرادوا أن يختنوا غلاماً أو ينكحوا منكحاً
 أو يدفنوا ميتاً أو شكوا في نسب أحدكم ، ذهبوا به إلى هبل وبمئة درهم وجزور ،
 فأعطوها صاحب القدح الذي يضرب بها ، ثم قربوا صاحبهم السلي يريدون به
 ما يريدون ، ثم قالوا : يا إلهنا فلان ، أردنا به كذا وكذا ، فأخرج الحق
 فيه . ثم يقولون لصاحب القدح : إضرب ، فإن خرج عليه (منكم) كان منهم
 وسيطاً ، وإن خرج عليه من (غيركم) كان حليفاً ، وإن خرج عليه (ملصق) ،
 كان ملصقاً على منزله فيهم لا نسب له ولا حليف ، وإن خرج عليه شيء مما
 سوى هذا مما يعملون به (نعم) عملوا به ، وإن خرج (لا) أنعروه عامه
 ذلك ، حتى يأتوا به مرة أخرى ، ينتهون في أمرهم ذلك إلى ما خرجت به
 القدح^١ .

وهكذا كانت قريش والقبائل التي تنهج إلى مكة تأتي إلى هبل لاستشارته في
 قضايا بينهم . فما يخرج في القدح مما هو مكتوب ، يكون الجواب . غير أن
 بعض الأجوبة قد تأتي على خلاف رغبة السائلين ، ولذلك كانوا يفرون المضارب
 على القدح بالضرب إلى أن يخرج القدح الذي فيه يريدون ويشتبهون . وقد يؤخرون
 ذلك بعض الوقت . وهم يفسرون النتيجة التي تظهر أنها رغبة الصم وإرادته
 بوجهها ، فتظهر بالقدح .

وذو الخلصة من الأسماء التي كان يستقسم عندنا كذلك . وإلى هذا الصم
 ينسب قول أحد الشعراء لهذه الأبيات :

لو كنت يا ذا الخلصة الموثورا مثلي وكان شيخك القبورا
 لم ته عن قتل العداة زورا

١ الأزدقي (٦٨/١ وما بعدها) ، الطبري (١٧٢/٢ وما بعدها) .

وهي أبيات ينسبها بعض الرواة الى امرئ القيس . وكان أبوه قتل ، ف
الطلب بأثره ، فأتى ذا الخلصة ، فاستظم عنده بالأزلام ، فخرج السهم ين
عن ذلك ، فقال هذه الأبيات التي تتحدث عن غضب الشاعر على هذا الصنم
لنفيه إياه عن الأخذ بالثأر . ولو كانت النتيجة كما يشتهي ، لما قال الشاعر
الأبيات بالطبع ، وتجمهر على الصنم^١ .

ولما كانت الحروب والغزوات من القضايا المهمة ، كانت استشارة الآلهة
والاستقسام بشأنها من الأمور المألوفة ، فكان أهل مكة اذا أرادوا الحرب
عقد هدنة أو لإبرام أمر خطير أتوا (هُبَل) يستقسمون عنده ليعطيهم الر
المصيب في هذا الموضوع .

والغالب ان يكون الاستقسام أمام الصنم ، ليقع في روع طالب الاستقسام
ما يجري انما هو يعلم الصنم ويوحيه ، فيكون ذلك أؤكد في نفسه وأعنى تأثير

أشكال المعابد :

هذا ولا بد لي ان أشير الى اننا لا نملك حتى الآن رأياً واضحاً قاطعاً
شكل المعابد عند الجاهليين . ولا يمكن تكوين رأي واضح عن هذا النحو إلا
قيام علماء الآثار المتخصصين بدراسة آثار المعابد والكشف عنها ورسم مخططات
صحيحة لقواعدها وأسسها . ولذلك ، لا بد من مرور زمن ، حتى يتمكن ال
من تكوين رأي في أصول المعابد ، وكيفية إقامتها من الوجهة الدينية الأصولية
عند العرب قبل الاسلام .

واذا كان في استطاعتنا تحديد شكل (بيت الله) مكة ، و (كعبة نجران
و (كعبة سندان) ، أو (كعبات سندان) ، كما يسميها البعض ، فإن
الصعب علينا تحديد هيئة بيوت الأصنام في المعابد الأخرى ، لعدم ورود نص ي
صفة تلك البيوت في أخبار أهل الأخبار . فلا ندري أكانت مكعبات ، أم
أشكال أخرى .

ولما كانت المعابد بيوت الأرباب ، صارت لها حرمة خاصة وقدسية في

١ الاستقسام (٣٥ ، ٤٧) .

دين ، فلا يجوز انتهاك حرمتها ، ولا القيام بأعمال شائنة دنسة فيها ، خاصة بالقياس الى الأماكن المقدسة جداً التي تعدّ بحجة للناس . وقد اختلفت حول البيوت مواضع عدت جزءاً من المعبد حددت بحدود ، فما كان داخلها عدّ حرماً آمناً ، وما كان خارج الحد كان خارجاً عن المعبد ، فليست له تلك الحرمة التي عينتها شريعة القوم للمعابد .

وأقدس مكان في المعبد هو (البيت) ، أي الغرفة التي تضم الصنم أو الأصنام . فقد كان البيت ، وهو المسمى الكعبة في مكة ، أقدم موضع عند قريش وعند غيرهم من عبدة الأصنام الذين كانوا يقدسون (البيت الحرام) ، وذلك بسبب وجود الأصنام فيه .

ويعبّر في العربية الجنوبية عن البيت الذي توضع فيه الأصنام ، بـ (مثن)^١ فهو إذن بمثابة الكعبة بمكة .

ويقال للأرض الحرام المقدسة التي تحيط بـ (البيت) ، (الحرم) . قيل سمي (الحرم) حرماً لتحريم الناس فيه كثيراً مما ليس محرم في غيره من المواضع^٢ . وقد وردت المفظة في الكتابات النبطية . فوردت في كتابة نبطية عثر عليها في (بطرا) علماً لحرم الإله ذي الشرى ، قصد به الأرض المقدسة المحيطة ببيت ذلك الصنم ، والمعبد كله ، لأنه محرم ومقدس : (حرم ذي الشرى الإله ربنا)^٣ . ولا يجوز لأحد انتهاك حرمة الحرم والاعتداء عليه . وإذا دخل انسان الحرم صار آمناً مطمئناً ، لا يجوز أن يعتدى عليه ، ولا أن يمس بسوء ، وإن كان قاتلاً . وحدود الحرم أنصابه ، وهي علاماته ، فن اجتازها وصار في داخلها ، دخل في حرمة الحرم .

وما كان خارج الحرم ، هو من الخل ، أي من المنطقة الخارجة عن حرمة المعبد . فلا تشملها الأحكام المفروضة على الحرم .

وكان الرجل في الجاهلية إذا أحدث حدثاً ولجأ الى الكعبة ، لم يهج ، فكان إذا لقيه وليّ الدم في الحرم ، قيل له : هو ضرورة ولا تهج^٤ .

Grohmann, S. 249.

المفردات (١١٣) .

Lidzbarski, Nord Semi. Epigr., S. 280, C18, II, p. 350, G. A. Cooke, North Semi. Inscriptions, Oxford, 1903, p. 79. Ency. Religi., 6, p. 763.

١ تاج العروس (٣/٣٣١) ، (ضرر) .

وملكة الحرم في ظوس الجاهليين ولأنه موطن آمن من دخل فيه صار آمناً ، كان لا بد من تحديده ووضع معالم تشير الى نهايته ، إما بوضع أنصاب على أطرافه من تجاوزها الى داخله صار آمناً فلا يخاف على نفسه ، وإما ببناء حائل كجدار أو سياج أو أمثال ذلك ليكون الإشارة الى حرمة ما وراءه في الداخل . وقد جعل أهل مكة حدود حرم البيت أنصاباً من تجاوزها الى الداخل صار في حرمة الحرم وفي حماية رب البيت .

وكانت أرض المعابد ، أي حرمة ، واسعة في الأصل ، ذات ماء وأشجار وحى ، ثم تقلصت وضيقته وحددت بحدود ، يسكن الناس حولها ، ويقرّبهم من المعبد ، ويزيادة عدد عباده . فعندما يتألق نجم معبد ، ويكثر المؤمنون بصاحبه ، يكثر زواره ، ويتسابق الناس الى السكن بجواره والتفرب منه جهد إمكاناته ، إذ يكون ذلك شرفاً لهم . شرف مجاورة البيت ، كما يكون مكسباً ومورداً طيباً لئال ، لرغبة الزوار في مجاورة المعبد ، فيدفع هذا الطمع ، أصحاب النفوذ والجاه على اختلاس الأرض والتجاوز على حدود الحرم فتضيق . كاللي حدث بمكة ، إذ كان الحرم واسعاً كبيراً ، يشمل الوادي كله ، فلما هبط (قصي) به وابنى البيوت ، امتدنى من جاء بعنه على الحرم حتى صغر ، مما دفع الخلفاء على شراء البيوت المجاورة وهدمها لاعادة أرضها الى الحرم لينبع صدره للناس .

وتلحق بالمعابد أرضون ، يقال لها (حى) لأنها في حابة الأرياب والأصنام ورعايتها ، فلا يعتدى عليها ، ولا يقطع شجرها ولا يرعى فيها ولا يسمح بصيد الحيوان فيها والاعتناء عليه في أرض الحى^١ . فكان في الطائف (حى) ، وهو (حى اللات) ، وقد خصص به ، وكان حى في جرش^٢ . بل كان وادي مكة الذي أقيم البيت به (حى) لرب البيت ، ولم يكن يسمح لأحد قبل (قصي) بقطع شجره ، ولا التجاوز على ما فيه من نبت . وقد كان (قصي) كما يقول أهل الأنصار أول من اقتطع شجره ، وأقام البيوت لسكنائه وسكنى قريش في ذلك الوادي .

ويهمهم من كلام (نيلوس) Nilus أن العرب لم يكونوا يحيطون مواضعهم

١ اللسان (١٩٩/١٤) . العرب في سوريا قبل الاسلام (١١١) .

٢ Ency. Religi. 6, p. 753.

المقدسة التي فيها أصنامهم بأسوار ، وإنما كانوا يعملون لحرمها حجارة تكون حداً وعلامة للحرم . ويتبين من كلام هذا المؤرخ الذي أسر العرب ابنه وأرادوا تقديمه إلى الزهرة قرباناً على حدّ قوله ، أنه قصد بالعرب الأعراب ، ولا سيما أعراب طور سيناء ، وقد كانوا أشداء غلاتاً يلقون الرعب في القفوس ، وكانوا يتاجرون بالرفيق يقبضون على من يقع في أيديهم ويبيعونه في أسواق الرقيق . وجماعة هذا شأنها لا تستقر في مكان ، لا يمكن بالطبع أن يكون لها معبد ثابت ، وإنما يكون معبدها الموضع الذي يوضع صنم القبيلة فيه . ولتعيين الأرض الحرام توضع تلك الحجارة .

إلا أن هذا لا يعني أن معابد أهل المدر كانت مسورة أو ذات حائل دائماً ، فقد ذكرت أن حرم بيت الله بمكة لم يكن مسوراً ، بل كان معلماً بأنصاب . ومكة موضع حضر . أما حرم معبد (الله) بمأرب وكذلك أكثر معابد أهل اليمن ، فقد كانت مسورة بأسوار عالية قوية ، لها أبواب يدخل المتعبدون منها ، تفتح وتغلق كما تفعل هذا اليوم في دور العبادة عندنا .

ومن المعابد الشهيرة : (البيت الحرام) ، أي (الكعبة) بمكة ، وسأتكلم عليه في موضع خاص . ومعبد (ذو الشرى) Dushare بمدينة (بطرا) ، و (كعبة سنداد) ، و (كعبة نجران) ، ومعابد عديدة في مواضع أخرى من جزيرة العرب ، ولا سيما اليمن .

والفضل في ظفرنا ببعض المعارف عن (بيت الرب) بمدينة (بطرا) ، يعود إلى الكتابات النبطية ، وإلى ما كتبه بعض الكتيبة اليونان والسرمان عنه . وقد خصص هذا البيت عبادة الإله (ذي الشرى) ، الذي هو (رب البيت)^١ التي أطلقها النبط على إلههم ، نذكرنا بمجلة أخرى معروفة في الجاهلية عند أهل مكة ، كما هي معروفة عند المسلمين حتى اليوم ، هي جملة : (رب البيت) ، التي تعني إله البيت ، وهو الكعبة ، وقد أقرها وثبتها الإسلام . وقد نعت (رب البيت) ، (رب بيت ذي الشرى) ب (الذي يفرق الليل عن النهار)^٢ وهو نعت له أهمية كبيرة في تكوين فكرة عن وجهة نظر عبادة إله .

CIB, II, 235, REB, 1008.

REB, 1102, Ency. Relig., p. 122.

وقد نصب في هذا المعبد الصنم (ذو الشرى) على قاعدة مكسوة بالذهب ، في بيت موثى بالذهب وبالصور التي تمثل مشاهد تقديم القرابين إليه . وهو في موضع مرتفع على صخرة عالية ، يحج إليه الناس من مواضع بعيدة ، لتتقرب إلى ذلك الإله الذي يقابل الإله (باخوس) و (ديونيسوس) (Dionysos - Bacchus) في رأي الكتبة اليونان واللاتين^١ .

وكان لهذا المعبد حج يقع في اليوم الخامس والعشرين من شهر كانون الأول من كل عام ، فيغد إليه الناس من أماكن بعيدة لتتقرب إلى (رب البيت) ، فينحرون ويقضون الأيام المعينة ، ثم يعودون إلى ديارهم . والظاهر أن هذه الكعبة لم تكن خاصة بأهل (العربية النبطية) ، إنما كانت محجة لغيرهم من العرب ، كما يتبين ذلك من تصريحات بعض الكتبة (الكلاسيكيين) عنها .

وقد عرفت بعض معابد الجاهليين بـ (الكعبات) ، ويدل ذلك على أن بناءها كان على هيئة مكعب كشكل بناء الكعبة ، وعلى أن العرب كانوا يبنون بيوت الأصنام الكبرى على هذا النحو . من هذه كعبة (سنداد) على ما يذكره الأخباريون ، وهي قصر كانت العرب تحج إليه فيطوفون حوله ، وقد عرف بـ (الكعبات) جمع كعبة وهو البيت المربع والمرتفع ، وبـ (ذات الكعبات) . و (ذي الكعبات) وكان مركز حجاج قبائل بكر بن وائل وإياد^٢ . ولكن الأخباريين لم يتحدثوا بشيء من التفصيل عن هذا المعبد وعن كنيسته وشكله وعن الأصنام التي كانت فيه . وقد ذكر (ابن الكلبي) أن هذا البيت لم يكن بيت عبادة ، إنما كان منزلاً شرباً^٣ .

وذكر أن (ذات الكعبات) بيت كان ليكر وتغلب ابني وائل وإياد ، وذكر أنه بيت كان لربيعة ، كانوا يطوفون به . وذكر أنه كان لإياد ، وكان كعبة

Ency. Religi., 9, p. 122. Epiphanius, Hier., I, 22.

١ البلدان (١٥٠/٥) ، سنداد ، (٢٥٥/٧) ، النلسان (٧١٨/١) ، (كعب) ، تاج العروس (١٥٦/١) وما بعدها ، Ency., II, p. 590.

٢ الأصنام (ص ٤٥) ، وكان لربيعة بيت يطوفون به ، يسوته الكعبات - وقيل : ذات الكعبات ، وقد ذكره الاسود بن يعقوب في شعره ، فقال : والبيت ذي الترفات من سنداد .

النلسان (٧١٨/١) ، (كعب) .

بستداد بين الحيرة والابلة^١ . وهو من منازل إنياد أسفل سواد الكوفة ، وكان عليه قصر تحج العرب اليه^٢ .

وكان بنجران بيت عبادة عرف بـ (كعبة نجران) . وهو بناء بني عسل حياة الكعبة . وفي رواية تنسب لابن الكلبي أنها كانت قبة من آدم من ثلاث مئة جلد ، كان اذا جاءها الخائف أمن ، أو طالب حاجة قضيت ، أو مسترفداً رقد^٣ . ويستخلص من الأخبار الواردة عن هذه الكعبة ومن أسماء أصحابها ومن كونهم أساقفة أنها كانت بيعة أسسها النصارى في مركز النصرانية في اليمن ، وهو موضع نجران ، وأنه لا علاقة له بالوثنية . ويذكر الأخباريون ان بني عبد المذان ابن الديان الحارثي أقاموها هناك ، مضاهاةً للكعبة^٤ . وقد ذكر (ابن الكلبي) ان كعبة نجران لم تكن كعبة عبادة ، وإنما كانت غرفة يعظمها القوم من بني الحارث بن كعب^٥ . وهو الحارث بن كعب هم رؤساء نصارى نجران .

وذكر بعض أهل الأخبار ان كعبة نجران وكانت للصحج وبني الحارث بن كعب ، عرفت بـ (الربة)^٦ .

وقد ذكر (ابن الكلبي) ان رجلاً من جهة يقال له عبد الدار بن حذيب أراد بناء بيت بأرض من بلادهم يقال لها الحوراء ليضاهي به الكعبة حتى يشمّل به العرب ، فأعظم قومه ذلك ، وأبوا عليه^٧ . ونجد في كتاب (الأصنام) لابن الكلبي ، وفي كتب أهل الأخبار أسماء مواضع ذكر أنها كانت بيوت عبادة حج إليها العرب حجهم لمكة . وذكر ان قريشاً بنتت للعزى بيتاً بوادي حراض بلزاة الغمير ، وحت له شيعاً من وادي حراض يقال له مقام ، يضاؤون به

- ١ تاج العروس (١٥٧/١) ، (كعب) ، الأصنام (٤٥) ، البلدان (١٢٩/٥) .
- ٢ تاج العروس (٢٨٣/٢) ، (سلة) .
- ٣ البلدان (٢٦٢/٨) وما بعدها ، تاج العروس (٥٥٦/٣) ، (نجر) .
- ٤ البلدان (٢٦٢/٨) .
- ٥ الأصنام (ص ٤٥) .
- ٦ تاج العروس (٢٦٢/١) ، (ربة) ، قال الأعشى :
وكعبة نجران حتم عليك حتى تناجسي بأبراهيمها
يزور يزبد وعبد المسيح وقبلاً هم شيع أرباهيمها
- ٧ تاج العروس (٥٥٦/٣) ، (نجر) .
- ٨ الأصنام (٤٥) .

الكعبة ، وقد حجت إليه ، وكانت تنحصر عنده ، ويتقربون إلى العزى بالدبابح^١ .
وقد ذكر الأخباريون أنه كان بمكاظ صخور يطوف الجاهليون بها ويحجون إليها^٢ . وإذا تذكرنا (دومة الجندل) ومعبد الكبر ، فلا يستبعد أن تكون الأسواق الأخرى مواضع مقدسة قدمة كانت محجة للناس عامرة تفد إليها القبائل في مواسم الحج ، ثم فقدت خطورتها قبيل الإسلام ، ولم يبق عليها إلا طابع الأسواق التجارية .

وتكون في المعابد مواضع يلقي فيها العباد وأصحاب التنوير هداياهم وتلويحهم التي يتقربون بها إلى آفة المعبد . وقد أشار أهل الأخبار إلى وجودها في الكعبة وفي المعابد الجاهلية الأخرى . ويظهر من وصفهم لها أنها كانت على شكل حفر ، تلقى فيها تلك الهدايا والتنوير . فذكر الأخباريون أنه كان على يمين الداخل إلى البيت (جب) ، اتخذ خزانة للبيت يلقي فيه ما يهدي إلى الكعبة ، وهو الجب الذي نصب عليه عمرو بن لحي (هبيل) وهو صنم كانت قريش تعبد . وقد عرف علماء اللغة الجب بأنه البئر^٣ ، ووصفها (الأزرق) ، فقال : لأنها كانت في جوف الكعبة على يمين من يدخلها ، وكان عمقها ثلاث أذرع ، وإن اسمها (الأخضر) ، وكانت العرب تسميها (الأخضر)^٤ .

السقاية :

وفي المعابد سقاية ، يستقى منها الماء للشرب وللتطهر ، كان تغسل الأوجه والأيدي والأرجل بالماء ليسمع نواثر بدخول المعبد ، أو لتحل له إقامة الشعائر الدينية . وبعد الماء ماء مقدساً ، لأنه من أرض مقدسة . ولذلك يتبرك به أيضاً ، ويستشفى بالشرب منه . وقد عثر المتقربون على آثار آبار وأحواض مطمورة في حرم المعابد ، كان المتعبدون يستفيدون من مياهها عند زيارتهم بيوت أربابهم ،

١ الاصنام (ص ١٦ ، ١٨ وما بعدها) .

٢ البلدان (٢٠٣/٦) ، المشرق ، السنة ٣٧ ، نيسان - حزيران ، ١٩٣٩ م (ص ٢٢٠) .

٣ البلدان (٢٥٠/١) ، مصادر .

٤ أخبار مكة (٦٨٠/٢٧) ، البلدان (٢٥٨/٧ وما بعدها) .

وعند أدائهم الشعائر الدينية . ويشتر زمزم ، هي البئر الوحيدة الباقية من آبار بيوت الله التي كانت في الجاهلية .

وقد كانت سقاية الحاج من المآثر الكبيرة عند أهل مكة، وهي نسفة الحاج من الزيب المنبوذ بالماء . وكان يليها في أيام الرسول العباس بن عبد المطلب^١ . وكان بعضهم يسقي الحاج اللبن بالعسل .

المناسك :

وتلحق بالمعابد مناسك تدعى عليها القرابين التي يقرب بها المؤمنون إلى الله تعالى، ويقال للواحد منها ، (منسك) و (نصب) و (منصب) و (غيب) . وقد وردت لفظة (منسك) و (منسكت) ، أي (المنسكة) ، في طائفة من الكتابات . وهي مواضع المنسك ، حيث يكون تقرب القرابين إلى الآلهة .

وقد ذهب علماء اللغة مناهج في تحديد معنى (المنسك) ، فرأى بعضهم أن المنسك كل ما عبد من دون الله ، وذهب بعض آخر إلى أن المنسك صنم أو حجر كانت الجاهلية تنصبه ، وتذبح عنده ، فيحمر الدم ، وذهب آخرون إلى أن المنسك أصنام حجارة كانت حول الكعبة تنصب ، ويذبح عليها لغير الله تعالى^٢ . وعرفها بعضهم بقوله : « المنسك الأوثان من الحجارة ، جماعة أصنام كانت تجمع في الموضع من الأرض ، فكان المشركون يقربون لها وليت بأصنام » ، وقال ابن جرير : المنسك ليست بأصنام . الصنم بصور وينقش ، وهذه حجارة تنصب ثلثة وستون حجراً . منهم من يقول ثلثة منها بغزاة . فكانوا إذا ذبحوا نضحوا الدم على ما أقبل من البيت وشرحوا اللحم وجعلوه على الحجارة . فقال المسلمون : يا رسول الله ؟ كان أهل الجاهلية يعظمون البيت بالدم ، فمن أحق أن نعظمه ؟^٣ . ولو أخذنا برواية (ابن جرير) ، خلصنا إلى أن هذه

١ اللسان (٢٩٢/١٤) ، (منسك) ، الإصابة (٢٦٣/٢) ، (رقم ٤٥٠٧) .
٢ اللسان (٧٦٠/١) ، صادر ، (٢٥٩/٢) ، بولاق ، القاموس (١٣٢/١) .
٣ تاج العروس (٤٨٦/١) ، الأصنام (٩٧) ، تفسير الطبري (٤٤/٦) ، الأصنام (٣٣) ، (المطبعة الأميرية ١٩٦٤) .
٤ تفسير الطبري (٤٨/٦) .

الأنصاب ، كانت بعدد أصنام الكعبة ، أي أنهم كانوا قد خصصوا بكل صنم نصباً ، يذبحون عليه ما يقرّبون به إليه من عتائر . فقد كان عدد أصنام الكعبة ثلاثاً وستون حجراً عظام الفصح على ما يذكره أهل الأخبار ، إلا إذا اعتبرنا ما ذكره عن عدد الأصنام وهما ، وأخذنا برواية (ابن جريج) التي هي دون الرواية الأخرى في الشهرة والذكر .

وأشير إلى (النصب) في شعر ينسب إلى (الأعشى) ، يقال إنه قاله في مدح الرسول . هو :

وذا النصب المنسوب لا تنسكه لعاقبة والله ربك فاصبدا^١

وعلى كل ، فنحن لو أخذنا بالروايتين ، أو برواية واحدة منها ، فإن العدد (٣٦٠) يلفت النظر حقاً . فلم يخصص رواة الخبرين عدد الأصنام أو الأنصاب بهذا الرقم ، وهل يمثل ذلك شيئاً له صلة بالقلك ، أو بأسطورة دينية قديمة كانت عند أهل مكة ؟

وقد وردت كلمة (النصب) في آية التحريم المحرمات التي لا يجوز أكلها في القرآن الكريم : « حرمت عليكم الميتة ، والدم ، ولحم الخنزير ، وما أهل لغير الله به ، والمنخنقة ، والموقوذة ، والمتردية ، والنطيحة ، وما أكل السبع » ، إلا ما ذكيت^٢ ، وما ذبح على النصب^٣ . فجعلت الذبائح التي تليح على النصب للأصنام في جملة التي لا يحل للمسلم أكلها ، فيفهم من هذه الآية أن النصب مواضع تذبح عليها القرابين . كما وردت في موضع آخر من سورة المائدة : « يا أيها الذين آمنوا ، إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان . فاجتنبوه »^٤ . وقد ذكر علماء التفسير ، أن الأنصاب التي يذبحون عندها^٥ .

وقد ذكر علماء التفسير ، أن أهل الجاهلية كانوا قد وضعوا حول الكعبة

١ تاج العروس (٤٨٦/١) ، (نصب) .

٢ المائدة ، الآية ٣ .

٣ المائدة ، الرقم (٥) ، الآية ٩٠ .

٤ تفسير الطبري (٢١/٧) .

أنصاباً ، أي حجارة كانوا يذبحون عليها ، فكانوا إذا ذبحوا فضحوا الدم غسل ما أقبل من الزيت وشرحوا اللحم : وجعلوه على الحجارة . وكانوا يدلوها إذا شافوا بحجر هو أحب إليهم منها^١ . كما كانوا قد وضعوا الأنصاب في بيوت الأصنام الأخرى ، يذبحون عليها ذبائحهم لها . وقد أشير إلى (المآثرات) ، أي الدماء : دماء الذبائح لـ (رشيد بن رمض العززي) :

حلقت بمآثرات حول عوض وأنصار تركن لدى المعبر^٢

و (عوض) صنم لكر بن وائل ، و (السُعَيْر) صنم لعزة خاصة .
و (نصب) هي (نصب) و (مصب) في اللهجات العربية الجنوبية ،
و (نصب) و (مصبت) في التيفينية ، و (مصبه) Masseba في العبرانية .
ويراد بها مذبح ، تذبح عليها القرابين والضحايا التي يقدمها المعبودون إلى معبودهم Dalty . ويعرف بـ Altar أي مذبح في الإنكليزية . وهو من حجر واحد في الأصل ، قد يذبح عليه ، فيسبل الدم فوقه ويتلطف به ، وقد يكون في نظهرهم بمثابة المعبود الذي تقدم الضحية إليه . وقد يذبح عليه ، فيسبل الدم من فتحة تكون فيه إلى بئر تتجمع فيها دماء الذبائح ، تكون عند قاعدة النصب .
وقد تخصص المذابح بحرق لحم اللييحة كله أو بعضه عليها ، تقريباً إلى الأصنام ، كالذي كان يفعله العبرانيون^٣ .

وقد عثر المقبون على أحجار عديدة اتخذت أنصاباً للذبح القرابين عليها أو عندنا ، عثر عليها في العربية الجنوبية بصورة خاصة . وفي بعضها فتحة على هيئة ثقب تسيل منه دماء القرابين إلى موضع تتجمع فيه . وفي بعض آخر مسابيل جانبية ، تسيل الدماء منها إلى الخارج . وهذه الأنصاب هي (مذابح) ويقال للواحد منها (مذبح) في العرييات الجنوبية أي (مذبح) . وللمذبح القرابين (ذبح) و (ذبحم) ، أي (الذبح) و (ذبح) .

١ تفسير الطبري (٤٨/٦ وما بعدها) ، وهي أحجار كانت حول الكعبة يذبحون عليها للأصنام ، ارشاد الساري (١٧٢/٦) .
٢ تاج العروس (٢٦٨/٣) ، (سمر) ، (٥٥٠/٣) ، (مور) .
٣ Hastings, p. 23.

فالنصب اذن ، الأحجار التي تدبح عليها القرابين وما يهل للأصنام . والعادة أن تكون أمام الصنم ، وعلى مقربة منه . فإذا ذبح القرбан سال دمه على النصب الى ثقب يؤدي الى حفرة يتجمع فيها الدم . هي (الغيب) . و (النصب) هو (مصبه) Massabah في العبرانية ، حيث كانوا يلجئون عليها القرابين . ولكثرة ما كان يذبح عليها صارت تبدو حراء من لون الدم ، وقد أشير الى الحفرة في حديث اسلام (أبي ذر الغفاري) ، إذ ذكر أنه وصف تعلب قريش له بقوله : « فرماني الناس حتى كآني نصب أحمر »^١ .

وليس لأهل الأخبار رأي واحد في (الغيب) ، وإنما ذهب بعضهم الى أن الغيب هو الشجر ، وذهب بعض آخر الى أنه خزانة المعبود ، يلقي التاذرون فيها ما عندهم من ثلور وقربات ، وذهب فريق آخر الى أنه بيت كان الناس يحجون اليه ، كما يحج الى البيت بمكة^٢ . وقيل إنه كان لمعبود بن قيس بيت يقال له غيب ، كانوا يحجون اليه^٣ .

والذي عليه أكثر أهل الأخبار أن (الغيب) الشجر . وقد صرح بذلك (ابن الكلبي) في كتاب (الأصنام) : وهو يتحدث عن (العزى) ، فقال : « ولما منحر ينحرون فيه هداياها ، يقال له الغيب »^٤ . كما صرح بذلك علماء اللغة إذ عرفوا الغيب بأنه المنحر ، أو نصب كان يذبح عليه في الجاهلية ، أو كل مذبح نجى . وقد خصصه بعضهم بمذبح منى^٥ . أو هو حجر ينصب بين يدي صنم ، وكان لثنايف مستقبل ركن الحجر الأسود غيب ، وقيل كانا اثنتين . ويظهر من شرح علماء اللغة للعثل : (رب رعية من غير رام) ، ينسب قوله الى الحكم بن عبد الوث أن الغيب هو المذبح ، أي المنحر الذي ينحر عليه^٦ .

- ١ الإصابة (٩٣/٤) ، (الرقم ٣٨٤) ، « فخرت منشيا علي ، ثم ارتفعت كالسي نصب أحمر » ، الأصنام (١١١) .
- ٢ مرآة الأطلاع (١٨٣/٢) ، البلدان (١٨٥/٤) ، اللسان (٦٣٧/١) ، تاج العروس (٤٠٣/١) ، البلدان (١١٢/٦) ، الأصنام (١١١) ، ابن هشام (٥٥/١) .
- ٣ ابن هشام (٥٥/١) ، البلدان (١١٢/٦) .
- ٤ الأصنام (١٣) ، روزا ، .
- ٥ اللسان (٦٣٧/١) .
- ٦ اللسان (٦٣٧/١) ، صادر ، . (١٢٨/٢) وما بعدها ، . بولان ، تاج العروس (٤٠٣/١) ، (غيب) ، البلدان (٢٦٥/٦) ، (الغيب) .

ويظهر من روايات أهل الأخبار عن (بيوت) الآلهة كان لكل (بيت)
(غيب) ، تذبح فيه هداياها ، أي ما يهدي إلى تلك البيوت من قرابين .
وقيل : الغيب : المنحر ، وهو جبل يمتد ، فلهذا . وقيل كل منحرف عن
غيب . قال الشاعر :

والراقصات إلى متى فالغيب^١

ويذكر علماء اللغة أن (الغيب) (العيب) كذلك^٢ . وأن العيب موضع
الصنم . وصنم لقضاة ومن دناهم^٣ . وبيت كان لعب بن قيس ، كانوا يحجون
إليه كما يحجون إلى البيت^٤ . ويظهر من هذا الشرح أن (الغيب) و (العيب) ،
كلمة واحدة ، لشيء واحد .

و (الغيب) (الجيب) كذلك . وهو حفرة يجمع فيها دم البدن ، والجمع
(الجبايب) . قال الزبير بن بكار : الجبايب جبال مكة حرسها الله تعالى ،
أو أسواقها أو منحرف . وقال البرقي ، 'حفر' بمعنى كان يلقى به الكروش ، أي
كروش الأصاحي في إيام الحج ، أو كان يجمع فيها دم البدن والهدايا ، والعرب
تعلمها وتفخر بها^٥ .

ويفهم أحياناً أن (الغيب) ، حفرة أو بئر ، كان المتعبدون للأصنام يرمون
بها نذورهم وهداياهم وما يقرّبون به إلى أصنام من نذور نفيسة ، من ذهب أو
فضة أو حجارة كريمة . فكانت تحت صخرة (ثلاث) حفرة عرفت بـ (الغيب)
حفظت فيها الهدايا والثلور والأموال التي كانت تقدم إلى الصنم . فلما هدم الصنم
أغلقت من الغيب تلك الأموال^٦ . ويرادف الغيب (الجيب) ، الذي يقال له
(الأخشف) و (الأخشف) ، وهو بئر في جوف الكعبة نصب (هبل) عليه .
كان الناس يرمون فيها نذورهم وهداياهم . وتقع على يمين من يدخل البيت ،
وكان عمقها ثلاث أذرع^٧ .

- ١ تاج العروس (٤٠٤/١) ، (غيب) .
- ٢ تاج العروس (٤٠٣/١) ، (غيب) .
- ٣ تاج العروس (٣٦٣/١) ، (عب) ، البلدان (١١٢/٦) ، الاصنام (١١١) .
- ٤ البلدان (١٨٥/٤) .
- ٥ تاج العروس (١٧٤/١) ، (جيب) .
- ٦ الطبري (٩٩/٣) وما بعدها .
- ٧ أخبار مكة ، للأزرق (٦٦/١) وما بعدها .

و (الغري) مذبج على ما يظهر من تفسير علما اللغة لهذه اللفظة . يظهر أنه كان صخرة تدبج عندها اللبائح وتعلل بدمها ، أو نصب تدبج القرابين عليه ^١ . ويعبر عن المذبج الذي تدبج عليه الحيوانات الكبيرة ، مثل البقر بلفظة (خردن) ^٢ . ومن الألفاظ التي تطلق على المذبج ، (منطفت) و (منطقت) ، أي (المنطقة) ، وهي المذبحة ^٣ . والمذبج ، هو (مذبحت) في نصوص المسند ، أي موضع الذبج .

المحارق :

وتلحق بالمعبد محارق ، تحرق فيها القرابين ، يقال لها (مصرب) ^٤ . وقد كان العبرانيون يحرقون قرابينهم ، في محارق تلحق بالمعبد ، وتكون جزءاً منه . أما العرب ، فلأننا لا نستطيع أن نقول إنهم كانوا يحرقون قرابينهم في كل جزيرة العرب ، لأننا لا نملك أدلة آثارية على ذلك ، إلا معابد اليمن واهالي الحجاز ، حيث عثر على آثار المحارق في معابدها ، مما يدل على أنهم كانوا يحرقون القرابين . و (المصرب) ، المحرقة ، الموضع الذي يحرق به الخشب ذي الرائحة الطيبة أو البخور ، وهو مبخرة ، تكون في المعابد ، يحرق بها ، لتفوح منها روائح طيبة ، أثناء العبادة . وقد أشير إليها في نصوص المسند .

البخور والمباخر :

وللتبخير شأن كبير في أداء الفروض في المعابد ، إذ لا بد من حرق البخور فيها ، فيبخر بها المذبج والأصنام كما يبخر القائمون بأداء تلك الفروض . وتسمى المبخرة بـ (مسلم) ، وبـ (مقطر) وذلك في لغة بعض الجاهليين ^٥ .

١ اللسان (١٢٢/١٥) ، (غرا) ، تاج العروس (١٠/٢٦٤) .

٢ Grohmann, Arabien, S. 247.

٣ Grohmann, Arabien, S. 249.

٤ Grohmann, Arabien, S. 247.

٥ Grohmann, Arabien, S. 247.

و (المجرمة) والمجر ، اللّوَض الذي يوضع فيه الحجر بالدخلة للتجبير^١ .
وقد أُشير إلى المجرمات والمبائر في كتابات المسند . وعثر المُنْبُون على نماذج
منها ، قدمها التاذنون لذوراً إلى آلتهم ، وقد وضعوها في معابدها ، وهي في
جملة الهدايا المرموقة التي تقدم إلى المعابد بعضها من أحجار وبعضها من معدن
بلل جهداً في صنعه وفي زخرفته حيث يكون هدبة قيّمة تكون خليقة بوضعها في
المعابد .

وقد كان الناس يأتون بالمجامر ليجمروا بها الكعبة تقريباً بعملهم هذا إلى
الأصنام ، وذكر أن حريقاً أصاب الكعبة ، بسبب نظائر شر من مجرمة امرأة
جمرت البيت ، فأصاب مئزر الكعبة ، فاحترق . والتجبير ، هو من شعائر
التقدير والتعظيم . وهو مما يدخل في العقوس ، وقد صرفت المعابد القديمة أموالاً^٢
على شراء (العود) وغيره لاحتراقه في المجامر ، لتطيب المذبح والمعبد به . وكان
البحرور مما يبحر به في المعابد أيضاً . وقد استعمله الجاهليون في بيوتهم المعظمة
كذلك .

ونلاحظ بالمعابد مواضع يحزن فيها ما يقدم إلى المعبد من هدايا ونذور ، وما
يرد إليه من غلات أوقافه . وإذا كانت النذور والهدايا ماشية ، فقد تحفظ في
مواضع بعيدة عن المعبد، أو توضع في أحياء المعابد لترعى بها . ولا يجوز التعرض
لها بسوء . وتعلم بعلامات تشير إلى أنها مما حبس على الأصنام . وكانت لبل
غزالة للقرابين . وكان قربانه مئة بعير ، وله حاجب يقوم بخدمته^٣ . وفي جملة
ما أعداه الناس إلى أصنامهم السيوف والملايس ، وكانوا يعلقونها أحياناً على
الأصنام^٤ .

سلسلة الآلهة :

وليبيت العبادة سدنة وحجية وخدم ، يقومون كلهم بخدمة البيت وما فيه من
أصنام . ويعبر في عربيتنا عن الذي يتولى أمر العنم بـ (السادن) و (سادن العنم) .

١ تاج العروس (١٠٨/٣) ، (جمر) .
٢ الأزرقى ، أخبار مكة (٦٨/١) وما بعدها .
٣ نهاية الأرب (١٩/١٦) .

وهو المسؤول عن الصنم أو الأصنام ، ومتولي أمرها . وهو المرجع الأعلى في سلسلة الترتيب بالنسبة إلى المعابد . ويعبر عنه بلفظة (شوع) في المعينية^١ ، ولفظة أخرى هي (رشو) . وأما إذا كان السادن امرأة ، فيقال لها (رشوت) (رشوة) عندئذ^٢ .

ويقال لسادن الآلهة (المكل) (أفكل) في اللحيانية . جاء (أفكل لت) (أفكل لات) أي (سادن اللات)^٣ . وتقابل هذه اللفظة لفظ (ابكالو) Apkallu في اللغة الأكادية^٤ .

وتعد السدانة من المنازل الدينية والاجتماعية الرفيعة عند الجاهليين . ويبدأ السادن في العادة مفتاح بيت الصنم أو الأصنام . وتكون وراثية في الأغلب تنتقل في أفراد العائلة من الأب إلى ابنه الأكبر أو إلى غيره من البارزين في الأسرة . وهي منزلة شرف ، تكسب صاحبها جاهاً ، كما تكسبه مالا^٥ ، لما تأتي به إليه من حبوس وتلور وقرابين . لذلك صارت سبباً لوقوع خصومات بين الأسر ، من أجل الاستحواذ عليها ، كالذي حدث مراراً في مكة من أجل الحصول على مفاتيح البيت .

وسدنة الأصنام في الجاهلية قومتها وحجباها ، وكانت السدانة واللواء بمكة لبي عبد الدار في الجاهلية ، فأقرها النبي لهم في الإسلام . فكان اليهم أمر مفتاح البيت^٦ .

ومن قداماء من كانت اليهم ولاية أمر البيت الحرام أي سدانته ، رجل زعموا أنه ولي أمر البيت بعد جرهم ، ودعوه (وكيع بن سلمة بن زهير) (زهر) (الإبادي) . جعلوه سادناً ، وجعلوه كاهناً ، فنسبوا إليه سجعاً من نوع سجع الكهان . ذكر أنه جمع إباداً قبيل وقائه فنصحها وأوصاها . وزعم أنه بنى صرحاً بمكة ، وجعل فيه سلماً كان يرقاه ليناجي الله . وكان الجاهليون يرون أنه صديق

١ راجع النص رقم ١ و ٥ من كتاب : نقوش خربة معين .

٢ Grohmann, Arabien, S. 248.

٣ Grohmann, Arabien, S. 82, Jausen-Savignac, Mission, II, 508.

٤ Grohmann, Arabien, S. 248.

٥ تاج المروس (١/٢٣٣) ، (سदन) .

من الصديقين ، وأنه ينطق بالخبر اليقين من السماء . وذكر انه صاحب الصرح المعروف بمزورة مكة ، وأنه هو القائل : « اسمعوا وصيتي : الكلام كلمتان ، والأمر بعد البيان . من رشد فاتبعوه ، ومن غوى فارقضوه ، وكل شاة معلقة برجلها » . فكان أول من قال هذه الكلمة ، قلعت مثلاً^١ .

ويذكر أهل الأخبار انه لما مات وكيع ، نعي على الجبال . وفيه يقول بشر بن الحجير الإباضي :

ولحن لإياد عباد الإله ورهط متاجيه في سلم
ولحن ولالة الحجاب العتيق زمان النخاع على جرحهم

ويفسرون زمان النخاع بأنه داء يقال له النخاع ، سلق على جرحهم ، فألنى منهم ثمانين كهلاً في ليلة واحدة ، سوى الشباب . وفي هذا الداء قال بعض العرب :

هلكت جرحهم الكرام فعلاً وولاة البنية الحجاب
نغموا ليلة ثمانين كهلاً وشباباً كفى بهم من شباب^٢

ويظهر ان داء كان قد نفى في عهد غير بعيد عن الاسلام بين جرحهم ، فثبت ذكراه في القوس . ولا بد ان يكون (وكيع بن سلمة) ممن عاشوا قبل الاسلام أيضاً ، فثبت ذكراه في أهل مكة ، وإلا لما حفظت الذاكرة اسمه .

وقد ذكر أهل الأخبار أحياناً أسماء الأسر التي تولت سداة البيوت المعظمة والمحجيات ، كما ذكروا أسماء السدة ، ولا سيما السدة الذين كانت اليهم سداة تلك البيوت عند ظهور الاسلام . وهم من أسر عريقة ، توارث هذا المنصب من عهد بعيد ، وحافظت عليه ، وصارت بذلك من أشرف القوم .

١ الحجير (ص ١٢٦) ، الامثال للميداني (٨١/٢) ، البيان والتبيين (١٠٩/٢) .

٢ بلوغ الأرب (٢٦٠/٢) .

٣ بلوغ الأرب (٢٦٠/٢) وما بعدها .

حرمة المعابد :

ومع الحرمه التي كانت للمعابد ، انتهك المشتهرون وذوو الحاجة حرماتها ، فسرَقوا ما تمكّنوا عليه من خزائنها . فقد سرقت خزانه الكعبة مراراً . ذكر أهل الأخبار أن سارقاً سرق من مالها في زمن جرهم ، وأنه دخل البئر التي فيها كتّرها ، فسقط عليه حجر فحسبه فيها حتى أخرج منها وانزع المال منه . وسرقت قبيل بنيانها في أيام الرسول ، سرقها غنيان من غنيان قريش وأودعوا المال عند (دويك) مولد لبني ملج بن عمرو من خزاعة . ففقطعت قريش يده^١ .

١ الروض الألف (١/١٣٠) .

الفصل الرابع والسبعون

الكعبة

وكعبة مكة ، هي الكعبة الوحيدة التي بقيت محافظة على اسمها ومقامها حتى اليوم ، من بين الكعبات التي كانت في الجاهلية ، فقد اندثر أثر الكعبات الأخرى وزالت معالمها ، ولم يبق لها مكان . وإلى الإسلام يعود ولا شك فضل بقائه (البيت الحرام) . وبفضل الإسلام أيضاً جمع العلماء ما تمكنوا من جمعه من تاريخ المدينة القديم والعالم المتصلة بها ، ومن أخبار قريش ، لما لهذا التاريخ من صلة بظهور الإسلام^١ .

ويذكر أهل الأخبار أن الكعبة كانت معروفة عند العرب خارج الحجاز كذلك ، وأنهم كانوا يحجون إليها ويقدسونها ويقسمون بها . وأن بمن أقسم بها وذكر البيت

١ آل عمران ، الآية ٩٦ ، تفسير الطبري (٦/٤ وما بعدها) ، (دار المعارف) ، الطبرسي (٤٧٦/٢) ، سورة الحج ، الرقم ٢٢ ، الآية ٢٦ ، تفسير الطبرسي (٤٧/٣ وما بعدها ، ٦٦ وما بعدها) ، تفسير الطبرسي (٧٨/٧ وما بعدها) ، سورة إبراهيم ، الرقم ١٤ ، الآية ٣٧ ، تفسير الطبري (١٥٢/١٣) ، روح المعاني (٢١٢/١٣) ، تفسير الطبرسي (٣١٧/٦ وما بعدها) ، البقرة ، الآية ١٢٧ ، (٥٤٦/١) ، تفسير الطبرسي (٢٠٦/١) ، البقرة ، الآية ١٥٨ ، تفسير الطبري (٤٣/٢) ، تفسير الطبرسي (٢٢٨/١ وما بعدها) ، سورة المائدة ، الآية ٩٧ ، تفسير الطبري (٧٦/٧ وما بعدها) ، تفسير الطبرسي (٢٤٦/٣ وما بعدها) ، سورة الأنفال ، الآية ٣٤ ، تفسير الطبري (٢٢٨/٣) ، تفسير الطبرسي (٥٣٩/٣) ، سورة الأبلاف ، الآية ٣ ، تفسير الطبري (٣٠٧/٣٠ وما بعدها) ، تفسير الطبرسي (٥٤٣/١٠) .

في شعره (زهير)^١ و (الثابتة)^٢. وقد عرفت بـ (البيت العتيق) ، وبـ (البيت المعمور)^٣ . ورووا أن (عدي بن زيد العبادي) قصدها بقوله :

كلا يمينا بذات الودع لو حدثت فيكم وقابل قبر المساجد الزارا

دعاهما (ذات الودع) لأنه كان يعلق الودع في ستورها^٤ .

وقد أفسم بها شاعر جاهلي آخر ، هو (عوف بن الأحوص) إذ قال :

ولإني والذي حجت قريش عماره وما جمعت حراء

وشاعر عامري آخر ، إذ قال :

فأقسم بالسني حجت قريش وموقف ذي الحجيح إلى إلال^٥

يريد بذلك مكة . وبمكة بيت الله .

ومعارفنا عن (البيت الحرام) ضئيلة ، وفي الذي يذكره أهل الأخبار عنه ما لا يمكن قبوله ولا الأخذ به ، لأنه لا يدخل في حدود التأريخ ، ولغلبة الطابع القصصي عليه . ثم إن بعضه يتناقض بعضاً ، وفي بعضه تحيز وتعصب لبيت قرشي على بيت آخر . وحتى القسم الذي يتناول الأيام القريبة من الإسلام ، لا يتخلو من اضطراب ومن تناقض ، وفيه شعر محل على أناس ، أقحمت أسماؤهم في قصص مكة ، لشيئته على طريقتهم في تثبيت الأخبار برواية شعر يتعلق بها .

ولم يثر حتى الآن على كتابة جاهلية تكشف الفتاع عن تأريخ (البيت الحرام). ولذلك انحصر علمنا بتاريخه بما ورد في الموارد الإسلامية عنه .

وقد نص في القرآن الكريم ، على أن إبراهيم وإسماعيل هما اللذان رفعا القواعد من البيت « ولإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمناً وانقلوا من مقام إبراهيم مصلين ،

- ١ - فالقسمت بالبيت الذي طاف حوله رجال يئونه من قريش وجرحهم ديوان زهير (١٥) ، النعالي ، تمار القلوب (١٦) .
- ٢ - فلا ورب الذي قد زرت حبيبا وما هريق على الانتصاب من جسد (فلا لعمر الذي مسحت كعبته) في رواية أخرى - ديوانه (٢٥) ، النعالي ، تمار (١٧) .
- ٣ - البيلقان (٥٢١/١) ، (بيروت ١٩٥٥) .
- ٤ - تاج العروس (٥٢٤/٥) ، (ودع) .
- ٥ - المحبر (٢١٩) ، شرح ديوان لبيد (٢١) .

وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتي للطائفين والماكين والركع السجود .
 وإذا قال إبراهيم رب اجعل هذا بلداً آمناً وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم
 بالله واليوم الآخر . قال : ومن كفر فأنتمعه قليلاً ثم اضطره إلى صلاب النار
 وبئس المصير . وإذا رفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك
 أنت السميع العليم .^١ وقد كان تأسيس البيت في أيام العرب الأولى ، في أيام
 جرهم ، على روايات أهل الأخبار ، وفيهم تزوج . وفي عهده ظهر ماء يثر
 زمزم .^٢

ويذكر أهل الأخبار أن مكة حرم آمن ، لا يحل فيه قتال ، ولم يكن أهله
 يقاتلون فيه ، وإن أول بني وقع فيه ، كان حرب وقعت بين (بني السباق بن
 عبد الدار) وبين (بني علي بن سعد بن تميم) ، حتى تفانوا ، ولحقت طائفة
 من (بني السباق) بكم ، فهم فيهم . وقبل أول بني كان في قريش : بني
 (الأقيش) ، وهم (بنو أقيش) من بني سهم ، بني بعضهم على بعض ،
 فلما كثر بينهم على الناس ، أرسل الله عليهم فأرة تعمل فتيلة ، فأحرقت الدار
 التي كانت فيها مساكنهم فلم يبق لهم عقب .^٣

وقد بقي البيت معبوداً مقدساً عند أهل مكة وعند غيرهم ، غير أن المشركين
 حولوه إلى بيت لعبادة الأصنام والأوثان والشرك حتى عام الفتح ، حيث أزال
 الرسول عنه آثار الجاهلية ، وأمر بطمس معالم الوثنية . وصار حرمًا آمناً خاصاً
 بالإسلام لا بدخله مشرك ولا تطأ أرضه أقدام غير مسلم مؤمن بالله وبرسوله .

ويذكر أهل الأخبار أن أهل مكة كانوا يعظمون البيت ، وأن من سنن تعظيمهم
 له ، أن من علا الكعبة من العبيد ، فهو حر لا يرون الملك من علاها ، ولا
 يجمعون بين عز علوها وذل الرقي .^٤

- ١ البقرة ، السورة رقم ٢ ، الآية ١٢٦ وما بعدها .
- ٢ الطبري (٢٧٥/١) ، قصص الأنبياء ، (٦٩) .
- ٣ Shorter Ency. of Islam, p. 178. ff. Grünbaum, Neue Beiträge zu Sem. Sagenkunde, S. 102, Goldziher, Die Richtungen der Islamischen Koran-auslegung, S. 79, J. Harvitz, Koranische Untersuchungen, S. 61.
- ٤ الروض الأنف (٢٨/١) .
- ٥ الشعالي ، معارج (١٨) .

وانهم لم يكونوا يتنون بيتاً مربعاً بمكة تعظيماً للكعبة^١ . وأن أول من بنى بها بيتاً مربعاً ، (بديل بن ورقاء) الخزاعي ، وهو أول من اتخذ بمكة روضاً ، وكانوا قبل ذلك يتحامون الرياح في البناء كيلا يشبه بناء الكعبة^٢ وأن أول من سقى بمكة سقياً (قصي بن كلاب) ، وكان الناس قبل ذلك إنما يتزلون في العريش . وأن أول من بوب بمكة باباً (حاطب بن بلتعة)^٣ .

و (بديل بن ورقاء) ، هو (بديل بن ورقاء بن عبد العزى) ، شريف كتب إليه النبي يدعوهُ الى الاسلام ، وكان له قدر في الجاهلية بمكة^٤ . فلو أنقلنا برواية من قال انه كان أول من بنى بيتاً مربعاً بمكة ، وأول من اتخذ بها روضاً ، وجب جعل حدوث ذلك في أيام النبي ، أو بسنين قليلة قبل المبعث ، فهل يعقل ذلك ؟ والروشن الرف ، و (الرشن) الكوة ، من الألفاظ المعربة عن الفارسية^٥ .

وأما (حاطب بن أبي بلتعة) فهو (حاطب بن أبي بلتعة بن عمرو بن سلمة بن صعب بن سهل التميمي) ، حليف بني أسد بن عبد العزى ، من الصحابة ومن شهد بدرأ ، كان حليفاً للزبير ، وكان قد كتب كتاباً الى قریش يخبرهم بشجهيز رسول الله اليهم ، فضبط الكتاب قبل وصوله مكة ، واعتلر . فهو من الصحابة^٦ ، وذكر ان الرسول أرسله الى (المقوقس) صاحب الاسكندرية^٧ . فهل يعقل أن يكون أول من بوب باباً بمكة ، وقد كانت البيوت قبله بمكة منذ وجدت ، فكيف كان يدخل الناس إليها ، وقد رأينا قصصاً لأهل الأخبار يروونه عن امتناع (الحمسي) عن دخول البيوت من أبوابها ، والخمس هم قریش وأهل مكة قبل دخول (حاطب) إليها !

ويذكر أهل الأخبار أن البيت قد تهدم مراراً ، وأن السيول قوضت قواعده عدة مرات ، لسلطك لم يتمكن (بيت ابراهيم واسماعيل) من البقاء ، ولكن

- ١ النعالي ، تمار القلوب (١٦) .
- ٢ صبيح الأعشى (١ / ٤٢٦) .
- ٣ صبيح الأعشى (١ / ٤٢٦) .
- ٤ الاستغاثي (٢٨٠) .
- ٥ تاج العروس (٢١٦ / ٩) ، (رشن) .
- ٦ الإصابة (١ / ٣٠٠) ، (١٥٢٨) ، المعبر (٧٢) .
- ٧ المعبر (٧٦) .

الجاهليين حرصوا على المحافظة على أسسه وشكله وموضعه . وإلهم كانوا بعد كل هدم أو تصدع يصيبه يحاولون إرجاعه إل ما كان عليه في أيام آباءهم وأجدادهم جهد امكانهم ، لا يحدثون فيه تغييراً ولا يدخلون على صورة بنائه تبديلاً .

و (البيت الحرام) بناء مكعب ، ولذلك قيل له (الكعبة) . وصفه أهل الأخبار ، فقالوا كانت الكعبة قبل الاسلام بخمسة أعوام صنياً ، أي حجارة وضعت بعضها على بعض من غير ملاط ، فوق القامة ، وقيل كانت تسع أذرع مسن عهد اسماعيل ، ولم يكن لها سقف ، وكان لها باب ملتصقة بالأرض . وكان أول من عمل لها غلقاً هو تبع^١ . ثم صنع (عبد المطلب) ، لها باباً من حديد ، حلالها بالذهب من ذهب الغزاليين . وهو أول ذهب حليت به الكعبة^٢ .

ووصف أهل الأخبار لها على النحو المذكور ، يجعلنا نتصورها وكأنها خربة بناية بسيطة ، هي ساحة تكاد تكون مربعة أحيطت بجدار من أحجار وضمت بعضها فوق بعض من غير مادة بناء تحسك بينها ، تحط في قائلها الطيور وسباع السماء ، ولا يحول بين أرضها وبين أشعة الشمس المحرقة والأمطار التي تنزل على مكة أحياناً على شكل مياه خارجة من أفواه قرب ، أي حائل . لأنها في الواقع حائط من أحجار لا يزيد ارتفاعه على قامة إنسان .

ويذكر بعض أهل الأخبار أن أول من بنى جدار الكعبة ، (عامر) الجادر من الأزدي . فقبل له : (الجادر)^٣ . وكان أول من جدر الكعبة بعد اسماعيل^٤ . وأول تسقيف لها كان - كما يذكر أهل الأخبار - في التعبير الذي أجري عليها في النصف الأول من القرن السابع للميلاد ، وذلك قبل الاسلام بخمس سنين ، وعمر الرسول يومئذ خمس وثلاثون سنة . وسبب ذلك حريق أصابها - كما يزعمون - فقرروا إعادة بنائها ، واجتمعوا وعملوا رأبهم فكان قرارهم تسقيفها بخشب ، وقد أقيم السقف على ستة أعمدة من الخشب ، وزعت في صقين . وزاد فيها تسع أذرع ، فصارت ثمانى عشرة ذراعاً ، ورفعوا بابها عن الأرض ، فكان لا يصعد إليها إلا في درج أو سلم . ورفعوا من جدرانها التي بنوها بساف

١ الروض الألف (١٢٧/١) . الطبري (٢٨٣/٢) وما يندعا) .

٢ الروض الألف (١٠١/١) .

٣ ابن سعد ، طبقات (٦٤/١) . (صادر) .

٤ الاشتقاق (٣٥) .

من حجر وساف من خشب ، حتى زادت على ما كانت عليه في الأصل^١ .
وورد في الأخبار ان رسول الله ﷺ دخل الكعبة عام الفتح ، قام عند سارية فدعا ،
وفيهما ست سوار^٢ .

وذكر أهل الأخبار ، ان سب بيان الكعبة ، هو أنها كانت رصعة فوق
القائمة ، وأنها كانت قد تصدعت حتى تناعت جدرانها وتناقلت أحجارها ،
فلأرادوا رفعها وتسقيفها ، وذلك ان نفراً من قريش وغيرهم سرقوا كثر الكعبة ،
وأما كان يكون في بئر في جوف الكعبة ، فأجمعوا أمرهم في هدمها وبنائها^٣ .

ولم يكن هذا البناء الجديد بناءً قهلاً ، كما يظهر من الوصف الوارد في كتب
أهل الأخبار . كل ما فيه أنه غرفة سقطت الآن بخشب ، أقيم سقفها على صفيين
من أعمدة ، كل صف ذي ثلاثة أعمدة . وأما حيطانها ، فقله زيد ارتفاعها فصار
ثمانى عشرة ذراعاً ، بعد أن كانت تسع أذرع ، أو ارتفاع قائمة أو أعلى من
ذلك بقليل . وقد بنيت هذه المرة من مادة بناء قوية ، جعلت مدمكاً من حجارة
ومدمكاً من خشب ، فكان الخشب خمسة عشر مدمكاً ، والحجارة ستة عشر
مدمكاً . وجعلوا سقفها مسطحاً له ميزاب ، يسيل منه ماء المطر . وهو عسل
الجملة لا يقاس بشيء . بمعابد العربية الجنوبية مثل معبد (الله) بمدينة مأرب أو
المعابد الأخرى التي تمكن الباحثون من الوقوف على أسسها ومعالمها ، من حيث
مساحة البناء أو الفن أو الروعة والعظمة .

ويذكر أهل الأخبار أن أهل مكة استعانوا بتسقيف البيت بخشب سفينة رجل
من تجار الروم رعى البحر بسفينة إلى الساحل إلى (الشعبة) ، وهو مرفأ السفن
من ساحل الحجاز ، وكان مرفأ مكة ، ومرسى سفنها قبل (جدة) . فجاءوا
بالخشب إلى مكة ، وكان بها نجار (قبلي) ، استعين به في تسقيف البيت بذلك
الخشب . وذكر أن الذي سقف البيت عالج كان في السفينة ، يحسن التجارة اسمه

- ١ الروض الانف (١٢٧/١ وما بعدها) ، الطبري (٢٨٣/٢ وما بعدها) . دار
المعارف ، البلدان (٢٥٩/٧) . (الكعبة) ، مروج الذهب (١٦٩/١) . (معبد
محيي الدين عبد الحميد) .
- ٢ صحيح مسلم (٩٧/٤) ، (باب استحباب دخول الكعبة للحاج وغيره والصلاة
فيها والدعاء في نواحيها كلها) .
- ٣ الطبري (٢٨٣/٢) .

(بالقوم) . فجاء به مع الخشب، وسقف الكعبة . وقد سألهم عن كيفية تسقيفها هل يجعل السقف قبة أو مسطحاً ، فأمروه أن يكون مسطحاً ، فعمله على ما أمروه به ^١ . ويذكرون أن قريشاً حين أرادوا بناء الكعبة أتى (عبدالله بن هبل ابن أبي سالم) ، ومعه مال ، فقال : دعوني أشرككم في بنائها ، فأذنوا له فبنى الجبابرة الأيمن ، فـ (لبني كلب يد بيضاء في نصرته) لقريش حين بنوا الكعبة ^٢ . وصاحب هذا الخبر هو (ابن الكلبي) ، ولا استبعد أن يكون خبره هنا من وحي العاطفة نحو قومه الكلبيين .

وذكر أن (بالقوم) الرومي ، كان ينجر إلى (المندب) ، فالتكرت سقيته بالشعبية ، فخرجت إليه قريش فأخذوا خشبها . وقالوا له ابنها على بنيان الكنائس ، وقال لقريش : هل لكم أن تجروا حيري في عبركم ، يعني التجارة ، وأن أمدكم بما شتم من خشب ونجار ، فبنوا به بيت إبراهيم ^٣ .

ويذكر الأخباريون أنه كان في بطن البيت قرناً كبش معلقان في الجدار تلقاه من دخلها معلقان وبطيان إذا طيب البيت ، وقد علق عليها معاليق من حلي كانت تهدي إلى الكعبة . ويرمز القرنان إلى قرني الكبش الذي ذبحه إبراهيم الخليل ^٤ . وقد بقيا في الكعبة إلى أيام (عبدالله بن الزبير) فاحترقا مع الكعبة ^٥ .

وقد زوقت الكعبة بعد هذا الحريق، زوق سقفا وجدرانها من بطنها ودعائها، وجعلت في دعائها صور الأنبياء وصور الشجر وصور الملائكة ، فكان فيها صورة إبراهيم خليل الرحمن ، شيخ يستقيم بالأزلام ، وصورة عيسى بن مريم وأمه ، وصورة الملائكة عليهم السلام أجمعين . فلما كان يوم فتح مكة ، دخل رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، البيت ، فأرسل الفضل بن العباس بن عبد المطلب . فجاء بماء زمزم ، ثم أمر بثوب قبل بالماء ، وأمر بطمس تلك الصور فطمست . ووضع كعبه على صورة عيسى بن مريم وأمه عليها السلام ، وقال :

١ - الأزدقي (١٠٤/١) . ابن هشام (١٣٠/١) وما بعدها) . (حاشية على السروض

الاتف) . السروض الاتف (١٣٠/١) .

٢ - ناج العروس (١٠٩/٤) . (بس) .

٣ - الإصابة (١٤٠/١) وما بعدها) . (رقم ٥٨٣) .

٤ - الأزدقي (١٠٠/١) .

٥ - القاسمي ، شفاء الغرام (١٩) .

أمح جميع الصور ، إلا ما تحت يدي ، فرفع يديه عن عيسى بن مريم وأمه . ونظر الى صورة ابراهيم ، فقال : قاتلهم الله جعلوه يستقسم بالأزلام ، ما لا يبراهيم والأزلام ^١ . وقد بقيت صورة عيسى بن مريم وأمه ، الى أيام عبد الله بن الزبير ، فلما تهدم البيت ، تهدمت الصورة معه ^٢ .

وأعاد الجاهليون - كما يذكر أهل الأخبار - الصنم هيل الى مكانه ، تصبوه أمام (الغيب) ، وأعادوا معه بقية الأصنام ، التي كانت تعبد لها بعض القبائل . ووضعوا حول الكعبة أصناماً أخرى ، يجب أن تكون من الدرجة الثانية في المنزلة أي أصنام قبائل ضعيفة ، لذلك وضعت خارج البقعة المقدسة . وقد أوصلت الروايات عدة أصنام الكعبة عام الفتح الى (٣٦٠) صنماً ، كان بعضها منحوتاً من الحجارة ، وبعضها معمولاً من النحاس ، وبعضها قوارير ، وكان صنم خزاعة قوارير صغر . ولما دخل الرسول مكة ، أمر بها فأزيلت وحطمت ، فلم يبق من يومئذ بها صنم ^٣ . وذكر أن النبي دخل مكة ، وحول الكعبة ثلاثمائة وستون نصباً . فجعل يقطعنها يعود كان بيده . ويقول : جاء الحق وزهق الباطل ، إن الباطل كان زهوقاً ^٤ .

وذكر في بعض الروايات أن رسول الله بعد أن طاف بالبيت سبعا على راحلته دخل الكعبة فوجد فيها حمامة من عيذان فكسرها بيده ثم طرحها ^٥ . وأنه لما طاف بالبيت وجد حولها أصناماً مشدودة بالرصاص ، فحطمت ، وأعظمها (هيل) صنم قریش ^٦ .

ويتبين من الروايات الواردة عن بناء الكعبة وعن اختلاف أهل مكة ونشأتهم وثنائهم فيها بينهم على شرف وضع (الحجر الأسود) في مكانه أنه كان لهذا الحجر أهمية خاصة في نظرهم ، وأنه كان أقدس شيء عندهم . وإلا لما اختلفوا

- ١) الأذلي (١٠٤/١ وما بعدها) ، السيرة الحلبية (٨٧/٣) ، ابن الأثير (١٠٥/٢) .
- ٢) نهاية الأرب (٣١٣/١٧) .
- ٣) الأذلي (١٠٤/١) .
- ٤) السيرة الحلبية (١٤٤/١) ، ابن الأثير (١٠٥/٢) .
- ٥) صحيح مسلم (١٧٣/٥) ، باب إزالة الأصنام من حول الكعبة ، ، إرشاد الساري (٢١٠/٧) ، ، باب وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً .
- ٦) الروض الأنف (٢٧٤/٢) ، نهاية الأرب (٣١٢/١٧) .
- ٧) الروض الأنف (٢٧٦/٢) ، نهاية الأرب (٣١٤/١٧) .

هذا الاختلاف على وضعه ، حتى ليتمكن أن يقال إنه كان فوق أصنام الكعبة مترلة ، بدليل عدم ورود إشارة ما إلى وقوع اختلاف بشأن إعادة صنم من تلك الأصنام إلى مواضعها . ولو كانت الأصنام أقدس منه ، لكان الاختلاف على شرف وضع تلك الأصنام لا الحجر الأسود بالطبع . وهذا التقديس الزائد يجعلنا على التفكير في أسبابه وفي الميزة التي ميزت هذا الحجر على الأصنام وهي في طبيعتها حجارة مثله . لقد ذهب (ولوزن) إلى أن قضية البيت عند أهل الجاهلية ، لم تكن بسبب الأصنام التي فيه ، بل كانت بسبب هذا الحجر . لقد كان هذا الحجر مقدساً في ذاته ، وهو الذي جلب القضية للبيت ، فصار البيت نفسه مقدساً ، مقدساً في حد ذاته ، بحجره هذا الذي هو فيه ، ولعله شهاب (نيزك) ، أو جزء من معبود مقدس قديم^١ .

وقد ذهب بعض المشرقين إلى أن البيت لم يكن إلا بمثابة إطار للحجر الأسود الذي كان من أهم معبودات قريش ، لأنه يمثل بقايا حجر قديم كان مقدساً عند قدماء الجاهليين ، غير أنه لم يكن معبود قريش الوحيد^٢ .

ويلاحظ أن التقرب إلى الأحجار في بيوت العبادة كانت شائعة بين الجاهليين . وقد ذكر أن في (غيان) موضع عبادة وفيه (حجر قحقم) (حجر قاحم) (حجر قاحم) ، وهو يشبه الحجر الأسود الذي كان يتقرب إليه الجاهليون في مكة . والحجر الذي كان في كعبة نجران وفي (نلال) ، وفي مواضع أخرى عديدة ذكرها (الحمداني) . وقد عثر على مقابر جاهلية عديدة تبين للذين تفقوا فيها أن لها صلة بعبادة الأحجار ، وأن تلك المقابر أقيمت عند موضع مقدس لوجود حجر مقدس فيه^٣ .

وقد كان الجاهليون يلمسون الحجر الأسود للتبرك به ، وهو مبني في جدار الكعبة ، فيكون التمس بالطبع للجانب البارز منه . وبين موضع (الحجر الأسود) وباب البيت يكون (المنزوم) ، وفي الناحية الشمالية الغربية (الحجر) أو (الحطيم) .

Reste, B. 74.

المشرق : (١٩٤١) ، تموز - أيلول ، (ص ٢٤٧) .

Beiträge, B. 84.

وكانت الجاهلية تتحالف وتحلف عنده^١ . ويقال للجهة التي فيها (الحجر الأسود) (الركن) . وذكر ان العرب في الجاهلية كانت تطرح بموضع الخطيم ما طافت به من الثياب ، فيبقى حتى يتحطم بطول الزمان ، فسمي الموضع حطياً^٢ . وقد كانت الجاهلية تتحالف عند (الملتزم) بالإيمان ، وتدعو على الظالم ، وتعتقد الخلف^٣ .

وذكر (البخاري) ان الجاهليين كانوا قد وضعوا (إسافاً) و(ناثلة)، داخل المسجد الحرام . وضعوا كل واحد منها على ركن من أركان البيت ، فكان الطائف إذا طاف بدأ بإساف فقبله ونخم به . وذكر أنهم نصبوا على الصفا صنماً ، يقال له (مجاور الريح) ، وعلى المروة صنماً يقال له (مطعم الطير)^٤ . وفي روايات أهل الأخبار عن تزويق الكعبة بالصور ليس وغموض . وهي روايات عديدة ، يفهم من بعضها أن هذه الصور كانت بالزيت ، رسمت على دعائم السقف . ويفهم من بعض آخر أنها كانت قد رسمت على أشياء متحركة ، وأنها كانت معلقة على جدران البيت . ويفهم من بعض الروايات أن الرسول أمر فطمت معالم جميع الصور ، ويفهم من بعض آخر ، أنه استثنى منها صورة مريم وابنها عيسى ، وأنها بقيت كما ذكرت إلى أيام عبدالله بن الزبير . فلما تهدم البيت : تهدمت الصورة معه . أما رسم شجر أو صور ملائكة أو أشباه ذلك في الكعبة ، فأمر لا اعتراف عليه ، إذ يجوز أن يكون ذلك في معبد وثني ، يضم الأصنام . ولكن ما للوثنية والأنبياء ، وما شأن الشرك بمريم وابنها وببقية الرسل حتى ترسم صورهم على جدران أو أعمدة البيت ؟ ثم هل كانت الكعبة مزوقة قبل هذا التزويق بالرسوم والصور ؟ وهل كانت هذه الصور من بقايا صور قديمة ؟ أم هي صور حديثة رسمت بعد أن أعادت قريش بناء البيت ؟ ورأيت أن هذه الصور هي من عمل عمال نصارى أراهم الروم الذين جلبهم أهل مكة مع (ياقوم) بعد تحطيم سفيتهم عند الساحل للتجار معهم ولبناء الكعبة .

- ١ تاج العروس (١٢٥/٣) ، (٢٥١/٨) ، اللسان (١٦٦/٤) ، (٢٩/١٥) .
- ٢ البلدان (٢٢٣/٢) وما بعدها ، (١٩٠/٥) ، أخبار مكة ، للأزرق (٢٤٦) ، تاج العروس (٥٩/٩) .
- ٣ اللسان (١٣٩/١٢) ، (حطيم) ، تاج العروس (٢٥١/٨) .
- ٤ البلدان (١٤٦/٨) ، الملتزم .
- ٥ البخاري (٢٢٤/١) .

و (بالقوم) كما يقول الأخباريون هو الذي أشرف على إقامة البناء وهندسته . وهو الذي سقف البيت وأقامه على عمد . ولا أستبعد أن يكون هو الذي رسم تلك الصور وحده أو بالاستعانة بإخوانه من بني جنسه الروم . وقد كان هؤلاء نصارى ، فرسموا على جدران البيت أو أعدته صور قصص كتابي ، ومنه صور الانبياء ، للزينة والزخرف . لم يجد أهل مكة فيها ما يناقض عقيدتهم في الاصنام . ومن يدري ، فلهذه رسم لهم ذلك على أن له صلة بعقيدتهم التي كانوا عليها ، فلم يمتثلوا لذلك عليه . أما طمس الاسلام لتلك الصور ، فللعلماء في ذلك كلام . وقد أشير إليه في كتب الحديث ، وأكثرهم على أن الرسول لم يستثن من ذلك الطمس صورة^١ .

وفي الحرم بشر (زمزم) ، وهناك مقام ابراهيم ، وبين زمزم ومقام ابراهيم كان موضع التبع ، ذبح القرابين . ويرى (ولهو زن) احتمال كون موضع المقام هو المكان الذي كان الجاهليون يدعون فيه^٢ .

ويرجع الأخباريون تأريخ بشر (زمزم) الى يوم بناء الكعبة وعهد اسماعيل . ويقال لها (بشر اسماعيل) أيضاً . وهي في الحرم في جهة الجنوب الشرقي من الكعبة في الجهة المقابلة للركن . ولا نعرف من أمرها شيئاً يذكر . ويظهر من روايات أهل الأخبار عنها أنها دفنت في أيام جرهم ، وإن أهل مكة صاروا يستقون الماء من آبار أخرى اجفروها ، ويستوردونه من الخارج إليها ، حتى إذا كانت أيام عيد المطلب ، ألقى في قلبه أن يحفرها ، فحفرها واستخرج منها كثيراً ، وظهر الماء بها منذ ذلك اليوم^٣ . ولأهل الأخبار تفسير عديدة للفضة (زمزم) ، تلك على أنهم لم يكونوا على علم بأصل التسمية ، مما جاء فيها أن الملك (سابور) لما حج البيت أشرف عليها وزمزم فيها ، فقيل لها (زمزم)^٤ . وهكذا جعلوا (سابور) من المؤمنين للحجاج للبيت الحرام ، المتبركين بجاء زمزم!

١ - الأزرقى (١٠٤/١) . تعليقات السيد رشدي الصالح منحس على الأزرقى .
Hesse, II, 38.
٢ - الطبري (٢٥١/٢) . دار المعارف ، . الروض الأنف (٨٠/١) . ٩٨ وما بعدها .
الأزرقى (٢٤/١) . ٢٨٠ وما بعدها . البلدان (٦٤٣/٢) .
Shorter Ency. of Islam, p. 657.
٣ - البلدان (١٤٧/٣) . الصحاح (١٦٤٥/٥) . اللسان (٢٧٥/١٢) . البكري .
٤ - معجم (٧٠٠/٢) . عمدة القاري (٢٧٧/٩) . البلدان (٩٤٠/٢) وما بعدها .

وكان حرم (الكعبة) كما يظهر من روايات أهل الأخبار واسعاً شامعاً ذا نبت وشجر . ولم يجرؤ أحد على احتطاب شجره أو قطعه لحرمه المكان والحرمه ما فيه ، فبقيت أشجاره على ما هي عليه ، حتى إذا ما كانت أيام (قصي) ، ضاقت مكة بمن وفد عليها من قريش ، ممن جاء بهم (قصي) إليها ، وقطعها (قصي) رباعاً ، وأرادوا البنيان ، ولكنهم هابوا قطع شجر الحرم للبنيان ، وتذكر رواية أنهم قالوا لقصي : كيف تصنع من شجر الحرم ؟ فحذرهم قطعها وخوفهم العقوبة في ذلك . فكان أحدهم يخوف بالبنيان حول الشجرة حتى تكون في منزله^١ . وتذكر روايات أخرى العكس . تذكر أن قريشاً هابت قطع شجر الحرم في منازلهم ، فقطعها قصي بيده ، وأعادته^٢ . وبذلك انفصلت أرض الحرم وقلت أشجاره بالتدريج .

وتذكر رواية أن أهل مكة كانوا يهابون حتى في الإسلام قطع شجر الحرم . وقطع كل شجرة دخلت من أرض الحرم في دور أهل مكة . وإن (عمر) لما قطع (دوحه) كانت في دار (اسد بن عبد العزى) ، وكانت تنال أطرافها ثياب الطائفين بالكعبة ، وذلك قبل أن يوسع المسجد ، ودأبها بقرة . وتذكر أيضاً أن (عبدالله بن الزبير) حين انتهى دوراً بـ (قعيقعان) ترخص في قطع شجر الحرم للبنيان ، وجعل دية كل شجرة بقرة . وذكر أن (أبا حنيفة) ، قال إن كانت الشجرة التي في الحرم مما يفرسها الناس ويستبتونها فلا فدية على من قطع شيئاً منها ، وإن كان من غيرها ففيه القيمة بالغاً ما بلغت^٣ . وفي الحديث أن الله حرم مكة ، وحرم شجر الحرم في جملة ما حرمه على الناس^٤ .

ويظهر أن أرض مكة كانت كلها في الأصل قبل أيام (قصي) حرم للكعبة ، على عادة الجاهليين في تخصيص (حرم) لأربابهم تكون حول بيوتها ، ولهذا كانت أشجار هذا الحرم أشجاراً مقدسة لا يجوز قطعها ولا احتطابها ، سوى أخذ بعض أغصانها أو لحائها لعمل فلاتد منها للاحتباء منها . فلما استباح أهل مكة لأنفسهم

١ الروض الاتف (٨٧/١) وما بعدها .

٢ الطبري (٢٥٨/٢) = دار المعارف .

٣ الروض الاتف (٨٧/١) وما بعدها .

٤ الروض الاتف (١٢٨/١) .

التطاول على الحرم ، أي على هذا الحصى ، بقطع شجره وتحويل أرضه الى بناء ، أو بإبقاء بعض أشجاره في داخل الدور ، بقوا ينظرون الى ذلك الشجر الباقي في البيوت نظرة هينة وتقدير ، باعتبار انه من بقايا الحرم القديم . وبذلك صغرت مساحة الحرم ، وقلت مساحته ، حتى اضطر الخليفة (عمر) الى توسيعه بشراء البيوت التي أقامها الناس عليه وادخلها في الحرم من جديد ، وذلك حين ضيق الناس على الكعبة وألصقوا دورهم بها ، فقال : « إن الكعبة بيت الله ، ولا يد لبيت من فناء ، وانكم دخلتم عليها ولم تدخل عليكم » ، فاشتري بعض الدور من أهلها وهدمها وبني المسجد المحيط بها ، ثم اشترى عثمان دوراً أخرى وأغل في ثمنها^١ ثم زاد في المسجد من جاء بعدها حتى وصل الى النحر السلي هو عليه الآن .

ولم يكن للحرم في الجاهلية سور ، إنما كانت تحدد معالمه وحدوده أنصاب نصبت على أطرافه . لتكون علامة على ابتدائه وانتهائه . أما ما نراه في الوقت الحاضر من وجود سور مرتفع له ، أي حائط به غرف ، فإنه مما حدث في الاسلام . وذكر أهل الاخبار ان الحرم قد ضرب على حدوده بالمنار القديمة التي بين ابراهيم مشاعرها ، وكانت قريش تعرفها في الجاهلية والاسلام ، لانهم كانوا سكان الحرم ، ويعلمون ان ما دون المنار الى مكة من الحرم ، وما وراءها ليس من الحرم . فما كان دون المنار فهو حرم لا يحل صيده ولا يقطع شجره ، وما كان وراء المنار ، فهو من الحل يحل صيده ، إذا لم يكن صالده محرماً^٢ .

الكسوة :

وكسوة البيت عادة قديمة ، كان يقوم بها الجاهليون . ينسبها الاخباريون الى (نوح أسعد الحميري) ، فيذكرون انه كساها بالأنطاع ، ثم كساها بشباب جدة من عصب اليمن ، أغل ثياب معروقة في تلك الأوقات^٣ . ولا يستبعد ان يكون الإكساء من بقايا المنشأ القديم للبيت ، حيث كان خيمة في الأصل . وقد

١ الروض الاتف (١٦٩/١ وما بعدها) .

٢ تاج العروس (٢٣٩/٨) ، (حرم) ، اللسان (١٢٢/١٢) ، (حرم) .

٣ الأذقي (١٦٥/١) ، الروض الاتف (٢٤/١) .

ورد في الأخبار أنه كان في موضع البيت خيمة قبل أن تكون الكعبة^١ . وكذلك كان معبد بني اسرائيل خيمة في الأصل قبل أن يبنى الهيكل .

ويذكرون أن النج الذي كسا البيت ، هو النج الذي أتى به (مالك بن عجلان) إلى يرب لطرده اليهود عنها . وذكروا أن ذلك النج هو (أسعد أبو كرب الحميري)^٢ . وقد كساها الوصائل ، ثياب حبرة من عصب اليمن . وكانت الكعبة تكتسى بالحبرة والبرود وغيرها من عصب اليمن ، تكتسى بها ويوضع ما يفضل منها في عزاة الكعبة . فإذا تمزقت الكسوة ، تبدل بكسوة أخرى تؤخذ من الخزاة . تكتسى من الداخل والخارج ، وتطيب بالخلوق وتبخر بالجواهر^٣ .

وقد سبق لي أن تحدثت عن (النج أسعد) ، وذكرت ما قاله رواة الأخبار عنه ، وما جاء عنه في نصوص المسند . وكان قد علق في ذاكرة أهل الأخبار أشياء عنه وعن بعض من جاء بعده ، زوقت وتمتت على طريقتهم في رواية أكثر أخبار اليمن . ولعل ما ذكروه عن اكسائه البيت ، هو من مصنوعاتهم التي وضعوها في الإسلام ليجعلوا لأهل اليمن فضلاً على الكعبة ، فقبل سبق فضل العدنانيين عليها ، وقد رأينا أنهم أوجدوا لهم جملة أنبياء نسبهم إلى قحطان ، ووضعوا أشياء أخرى كثيرة ، في اظهار فضل القحطانيين على الاسماعيليين المتعربين يوم فات الحكم من قحطان وصار في أهل مكة في الإسلام . فكان النزاع القحطاني العدناني المعروف .

ولو جازينا أهل الأخبار ، وأخذنا بروايتهم في أن النج (أسعد أبو كرب الحميري) ، كان أول من كسا الكعبة ، نكون قد رجعنا بمبدأ تأريخ اكساء الكعبة إلى نهاية القرن الرابع وأوائل القرن الخامس للميلاد . وقد سبق أن تحدثت عن هذا الملك في الجزء الثاني من هذا الكتاب^٤ .

ويظهر من روايات أهل الأخبار أن كسوة الكعبة لم تكن كسوة واحدة ، ولا من نسج واحد ، بل كانت انطاعاً ، أي أبسطه من آدم ، وحبرة وبروداً ، وغيرها من عصب اليمن . وهي برود يمنية يعصب لحزها ثم يصبغ وينسج ، فيأتي

١ الأزرقي (٦/١) « ذكر هبوط آدم إلى الأرض » .

٢ البلدان (٤٦٣/٤) .

٣ أخبار مكة ، للأزرقي (١٧٣/١) وما بعدها .

٤ (ص ٥٦٩ فما بعدها) .

موشى^١ ، وقبل هي يرود مضطلة^٢ . وذكر ان النبي كساها الثياب البانية ، وان عمر وعثمان كساها بالقباطي^٣ .

وذكر ان أول من كسا البيت الحرير (نثيلة بنت جناب بن كليب) وهي من (بني عامر) المعروف بالضمحيان ، وكان من ملوك ربيعة . وكان العباس ابن عبد المطلب ابنها ، قد ضاع وهو صغير ، فتلوث له إن وجدته ان تكسو البيت الحرير ، فكتسه ، فهى أول من كساه ذلك^٤ . وقيل أول من كسا البيت الديباج خالد بن جعفر بن كلاب . أخذ لطيفة من البر وأعطى فيها أنماطاً فعلقها على الكعبة^٥ .

وروي أنهم كانوا يكون الكعبة يوم (عاشوراء) ، وذكر ان (بني هاشم) كانوا يكتسوها يوم التروية بالديباج ، لتظهر في أحسن حال ، ويراعها الناس على ذلك . أما اذا حلّ يوم عاشوراء ، فأنهم يعلقون الأزار عليها . وورد أنهم كانوا يكون الكعبة بالديباج يوم التروية ، فيعلق عليها القميص ولا يحاط ، حتى اذا ما انصرف الناس من (منى) خيط وترك الأزار ، ثم تكسى بالقباطي يوم عاشوراء ، ويعلق عليها الأزار ، ويوصل بالديباج^٦ .

ولا تستبعد احتمال كون يوم (عاشوراء) من الأيام التي كانت لها حرمة وقنسية عند أهل الجاهلية ، وإن كنا نجعل كل شيء عنه وعن سبب احتفال أهل مكة به ، وصومهم فيه . وقد ذهب بعض المستشرقين الى احتمال تأثر قریش بعاشوراء اليهود ، كأن يكون أحد سادة مكة قد أخذ ذلك اليوم عنهم فعقله ، فأخذ أهل مكة عنه وجعلوه سنة لهم . غير ان من الجائز ألا يكون لهذا اليوم صلة بعاشوراء اليهود ، وانما كان من تقاليد أهل مكة القديمة المعروفة عند غيرهم أيضاً ، ولا صلة له بيوم يهود^٧ .

ويظهر أنهم كانوا يضعون الأكسية الجديدة فوق الأكسية القديمة ، فلا يرفعونها

- ١ اللسان (٦٠٤/١) - (عصب) .
- ٢ الأزرقي ، أخبار مكة (١٧٣/١) وما بعدها .
- ٣ الإصابة (٣٦٣/٢) - (رقم ٤٥٠٧) . كتاب نسب قریش (١٨) ، الروض الاتف (٧٧/١) .
- ٤ الروض الاتف (٧٧/١) .
- ٥ الأزرقي ، أخبار مكة (١٧٣/١) وما بعدها .
- ٦ Shorter Ency., p. 47.

عنها ، فكانت تتراكم بعضها فوق بعض ، فلما جاء الاسلام ، استمعوا على ذلك
أمدأ ، ثم رأى (شبة بن عثمان) سادن البيت ، تجريدتها من أكسية الجاهلية ،
لأنها رجس من عمل الجاهليين فأزيلت . ثم رأى الخليفة المهدي ، أن الأكسية
قد أثقلت الكعبة ، فأمر بتجريدتها ، تخفيفاً عنها ، واكتفى بثلاث كسي من
القباطي والخز والديباج^١ .

وذكر أهل الأخبار أن أول من حلل البيت (عبد المطلب) ، جد النبي ،
لما حفر (بشر زمزم) ، وأصاب فيه من دفن جرهم غزاليين من ذهب ، ففصر بها
في باب الكعبة^٢ .

المال الحلال :

وقد تجنب أهل الجاهلية بناء معايدهم بحال حرام ، فلما أرادت قريش بنيان
الكعبة نادى منادهم : لا تدخلوا في بنائها من كسبكم إلا ملياً . لا تدخلوا فيه
مهر بني ، ولا بيع ربا ، ولا مظلمة أحد من الناس^٣ . هذا ما يذكره أهل
الأخبار ويروونه عن بناء البيت الحرام .

بقية معجيات العرب :

ومن معجيات العرب وبيوتها المعظمة : بيت عرف بد (بس) لغطفان ،
كانت تعبد . بناء (ظالم بن أسعد بن ربيعة بن مالك بن مرة بن عوف) ،
لما رأى قريشاً يطوفون بالكعبة ويسعون بين الصفا والمروة ، فلزع البيت ، وأخذ
حجراً من الصفا وحجراً من المروة ، فرجع إلى قومه ، فبنى بيتاً على قدر البيت
ووضع الحجرين ، فقال : هذان الصفا والمروة فاجتزئوا به عن الحج ، فأغار
(زهير بن جناب الكلبي) ، فقتل ظالماً وهدم بناءه . وورد في رواية أخرى أن
(العزى) ممرة عبدتها غطفان . أول من اتخذها (ظالم بن أسعد) ، فوق ذات

١ - الأزدقي ، أخبار مكة (١٧٣/١ وما بعدها) . الإصابة (١٥٧/٢) ، (شبة بن عثمان)
٢ - البلدان (٤٦٣/٤ وما بعدها) .
٣ - الروض الأنف (١٣٠/١ وما بعدها) .

عرق الى البستان بنسعة أميال ، بنى عليها بيتاً وسماه بيتاً ، وأقام لها سدنة ، فبعث اليها رسول الله (خالد بن الوليد) ، فهدم البيت وأحرق السدنة^١ .

وفي أخبار أهل الأخبار عن بيت (العزى) ، أوهاج وتناقص . فتراهم يجعلون (العزى) صنماً مرة ويجعلونها (سمرة) أو (شجرة) أو ثلاث سمرة مرة أخرى ، ثم تراهم يحطون بين البيت وبين الحرم الذي كان حوله ، كما بينت ذلك في أثناء حديثي عن (العزى)^٢ . والذي أراه ، أنه كان للعزى بيت هو (بس) ، فيه صنم العزى ، وكان حوله حرم ، كحرم مكة ، به (سمرة) أو ثلاث سمرة ، كان الناس يقسمونها أيضاً ويضربون اليها بالنذور . وهي جزء من صنم لبيت العزى . فلما أمر الرسول خالد بن الوليد ، بهدم العزى ، هدم البيت وحطم الصنم ، فرجع ، فلما سأله الرسول عنه ، واستفسر منه عن السمرة أو السمرة الثلاث ، وعلم منه أنه لم يقطعها ، أمره بالعودة اليها وقطعها اجتثاً لكل علامة من علامات عبادة هذا الصنم . فقطعها . فقطع عن عبادة كسل صلة لهم كانت تربطهم بذلك الصنم .

ومن عجائب الجاهليين ، بيت الصنم (ذو الخلصة) ، ذكر أنه كان بنبالة ، وكان يسمى بـ (الكعبة البالية) ، تميزاً له عن الكعبة التي عرفت بـ (الكعبة الشامية) . وذكر أنه نفسه عرف بـ (الكعبة الشامية) ، كما دعي بـ (كعبة البالية) ، وقد تحدثت عنه في أثناء كلامي على هذا الصنم . ولا هدم البيت والصنم بأمر الرسول ، صار مكانه موضع عتبة ياب مسجد نبالة . وذكر أن البيت هو (ذو الخلصة) ، والصنم (الخلصة) ، وقيل (ذو الخلصة : الصنم نفسه)^٣ وقد عرف البيت بـ (الكعبة) كذلك ، لأنه كان بيتاً مكعباً . وكان بيتاً في خشم باليمن ، وكانت بحيلة تعظمه كذلك . به صنم ، هو (ذو الخلصة) ونصب يدبحون عليه^٤ . ويظهر أنه كان من البيوت المعظمة الكبيرة ، يدلل ما ذكره العلماء من أن الرسول قال لجبريل بن عبد الله البجلي : « ألا ترعني من ذي الخلصة » ؟ فلعب اليه وأحرق البيت وهدم الصنم وكسر الصب . وذكر

١ تاج العروس (٦٠٩/٤) ، (بس) . مرصعة الاطلاع (٩٣٧) .

٢ البلدان (٤١٢/١) ، (بساء) .

٣ تاج العروس (٣٨٩/٤) ، (خلص) .

٤ ارشاد الساري (٤٢٤/٦) وما بعدها .

أن موضع (دي الحلصة) . صار مسجداً جامعاً لبلدة يقال لها . العلات من
أرض غشم^١ .

وقد ذكر (أبو العلاء المعري) أن فلك كانت في الجاهلية ذات أصنام .
وكانوا يقصدونها للحج ، وذكر تليبتهم لها^٢ .

وكان بيت (اللات) من البيوت المعظمة عند ثقيف . كانوا إذا عاد أحدهم
من سفر ، فأول ما يفعله أن يأتي (الربة) ، وهي اللات ليترك بها . وهي
الصخرة التي كانت تعبدها ثقيف . ولما أسلم (عروة بن مسعود الثقفي) . وعاد
إلى قومه دخل منزله ، فأذكر قومه عليه دخوله قبل أن يأتي الربة . يعني اللات .
وفي حديث وفد ثقيف : كان لهم بيت يسمونه الربة . يضاؤون بيت الله^٣ .
وكانت ثقيف تضاهي أهل مكة ، وتنافسهم على الزعامة . وكان لبيت اللات
أستار وسدنة وحوله فناء معظم ، يفخرون به على من عداهم من أحياء العرب^٤ .
ولأهل اليمن بيوت تعبدها لها . وبقيت معظمة عندهم إلى الإسلام . من فلك
بيت حرف به (بيت رثام) . ذكر (ابن اسحاق) أن أهل اليمن كانوا
يعظمونه وينحرون عنده ويكلمون . وكانوا يعتقدون أن رثاماً كان فيه شيطان ،
وكانوا يملأون له حياضاً من دماء القرى ، فيخرج فيصيب منها ، ويكلمهم ،
وكانوا يعبدونه^٥ . وبيت غمدان ، وقد ذكروا أن الفسحاك بناء باليمن على اسم
الزهرة^٦ ، فجعلوه بيتاً ، أي موضع عمادة ، بينها هر دار حكم وبيت الملوك
بصنعاء ، كما سبق أن تحدثت عنه .

وذكر بعض أهل الأخبار أن (ربام) بيت بصنعاء كان لحمبر ، وكان به
كلب أسود . وأن الحبرين اللذين ذهبا مع تبع استخرجاه وقتلاه وهذا البيت^٧ .
وكان (ذو الكعبات) ليكسر ولتغلب ابني وائل وإياد يستنداد ، وله بقول
الأعشى :

- ١ - إرشاد الساري (٤٢٣/٦) وما بعدها .
- ٢ - رسالة الطبراني (٥٣٥) ، (بنت الشاطي) .
- ٣ - باج المروسي (٢٦٢/١) ، (ديب) .
- ٤ - تفسير ابن كثير (٢٥٣/٤) .
- ٥ - الروص الأنف (٢٨/١) .
- ٦ - نهاية الأرب (٦٢/١) .
- ٧ - تفسير ابن كثير (٢٥٤/٤) .

بين الخورنق والسدير وبارق والبيت ذو الكعبات من سنداد^١
وذكر أنه بيت كان لريعة ، كانوا يطوفون به ، وقد ذكره الأسود بن يعفر
في شعره ، فقال :

والبيت ذي الكعبات من سنداد^٢

فالبيت للأسود لا للأعشى على هذه الرواية .

وقد تعرض (ابن كثير) لموضوع بيوت الأصنام : اللات والعزى ومناة ،
فقال : « وقد كانت جزيرة العرب وغيرها طواقيت أخر ، تعظمها العرب كتعظيم
الكعبة ، غير أن هذه الثلاثة التي نص عليها في كتابه العزيز . قال ابن اسحاق
في السيرة : وقد كانت العرب اتخذت مع الكعبة طواغيت ، وهي بيوت تعظمها
كتعظيم الكعبة ، لها سدة وحجاب وتهدى لها كما يهدى للكعبة ، وتطوف بها
كطوافها بها وتتحرك عندها »^٣ . وما فات من أسماء المحجات في العربية الجنوبية
والشرقية وفي نجد ، قد يزيد عدده على ما ذكرنا . فات عنا ، لأن أهل الأخبار
لم يذكروا شيئاً عنها ، لانصراف اهتمامهم إلى الحجاز وما كان له صلة بالاسلام ،
من أرضين ، فحرمتنا بذلك من الوقوف على أخبار المحجات في المواضع الأخرى
من جزيرة العرب .

ومحج الناس إلى هذه البيوت في أشهر معينة من السنة ، هي الأشهر الحرم ،
وهي أشهر مقدسة لا يحل فيها قتال ولا اعتداء على أحد ، فهي أشهر هدنة وسلام ،
أشهر خصصت بالآلهة ، فلا يجوز انتهاك حرمتها . وفي شهر الحج الذي يحج فيه
الناس إلى أصنامهم ، يجتمع الناس في المعبد لأداء القروض المكتوبة المعبدة ، فيكون
الاجتماع اجتماعاً دينياً وسياسياً وتجارياً يتعامل فيه الناس . ويبادلون به السلع ،
ويعود على أهل الموضع الذي فيه المعبد بأرباح كبيرة ولا شك . وقد ذكرت أن
هذه الحرملة لم تكن عامة ، فقد كان من العرب من لا يراعيها ولا يحترمها ،
ثم إننا لا ندرى إذا كان أهل العربية الجنوبية أو العربية الشرقية كانوا يعرفونها
أم لا !

١ تفسير ابن كثير (٢٥٤/٤)
٢ تاج العروس (٤٥٧/١) ، (كعب) ، اللسان (٧١٨/١) ، (كعب)
٣ تفسير ابن كثير (٢٥٣/٤) وما بعدها

ولبت كل المعابد بحجة للناس ، يفصدونها في الأيام أو في المواسم . فقد كان في الموضع الواحد جملة معابد في بعض الأحيان ، ولا يحج إليها ، بل كانت المعابد التي يحج إليها معلومة معينة . لا بد أن تكون لها ميزة شرفتها على سائر دور العبادة الأخرى . ولهذا الميزة قصدت في المواسم من أماكن بعيدة . وإذا استثنينا ما ورد عن مكة ، فلأننا لا نكاد نعرف شيئاً ذا بال عن المعابد الكبيرة الأخرى . ثم إن في أكثر ما ذكره أهل الأخبار عن مكة غموض ومجال واسع للفتد ، لأنه منقول عن أهواء رجال يقتلهم أنهم نقلوا ما قيل لهم دون تحفظ أو تمحيص .

المزارات :

وقد عظم بعض أهل الجاهلية قبور ساداتهم ورؤسائهم واتخذوها أضرحة يزورونها ويتقربون إليها ويتبركون بها ، وقد بلغ من بعضهم أن جعلها حرم وملاذاً من دخل إليها أمن ، ومن جأ إليها وكان محتاجاً أغيث ، ومن طلب العون واستغاث بصاحب القبر أغيث ، حتى صارت في منزلة المعابد . ومنها أضرحة السادة والكهنة وسادات القبائل ، فقد كان قبر (تميم) جد قبيلة (تميم) مزاراً معظماً عند أبناء القبيلة من احتسب به من (بني تميم) ومن غيرهم صار آمناً . ولم نجد في أخبار أهل الأخبار ما يفيد بوجود أضرحة في مكة ، اتخذت مزاراً وموضعاً يتبرك به . يعظمونه ويتقربون إليه بالنذور واللبائح . لقد كان قبر قصي معروفاً عند أهل مكة ، ولكنهم لم يتخلوه مزاراً ومصل على ما يشين من روايات الأخباريين .

الفصل الخامس والسبعون

الحنفاء

وقد أشار القرآن الكريم الى جماعة من العرب لم تعبد الأصنام ، ولم تكن من اليهود ولا النصارى ، وانما اعتقدت بوجود إله واحد عبده^١. وقد ذكر المفسرون وأهل الأخبار أسماء جماعة من هؤلاء ، غير ان ما ذكروه عنهم غامض لا يشرح عقائدهم ، ولا يوضح رأيهم في الدين ، فلم يذكرنا عقيدتهم في التوحيد ، ولا كيفية تصورهم لخالق الكون .

وقد عرف هؤلاء بالحنفاء وبالأحناف ، ونعتوا بأنهم كانوا على دين ابراهيم ، ولم يكونوا يهوداً ولا نصارى ، ولم يشركوا بربهم أحداً . سفهوا عبادة الأصنام ، وسفهوا رأي القائلين بها^٢.

١ « وقالوا : كونوا هودا أو نصارى تهتوا » قل : بل ملة ابراهيم حنيفا ، وما كان من المشركين » البقرة . رقم ٢ . الآية ١٢٥ ، تفسير الطبري (٤٠٤/١) . روح المعاني (٣٥٢/١) ، تفسير المنار (٢٧٩/١) وما بعدها ، بلوغ الأرب (١٩٦/٢) ، اللسان (٤٠٢/١٠) وما بعدها ، النهاية في غريب الحديث لابن الأثير (٢٦٥/١) الطبرسي ، مجمع البيان (٤٦٧/١) ، (٢١٥/١) وما بعدها ، (طبعة طهران) ، تفسير القرطبي ، الجامع (١٢٨/٢) ، الطبري ، جامع البيان (١٧٧/١) ، (٤٠/٢١) ، البيضاوي (١٥٩/١ ، ٢١٥) ، تفسير القرطبي (١٩٨/١٠) ، الكشاف ، للزمخشري (٢٣٦/١) ، اللسان (٥٦/٩) ، صادره ، تاريخ الخميس ، للديار بكرى (١٧٧/٢) ، الكامل ، لابن الأثير (٢٤٤/١) ، تفسير القرطبي ، الجامع (١٩٨/١٠) ، (حنيفا) ، سورة النحل ، رقم ١٦ ، الآية ١٢٠ .
النهاية (٢٩٩/١)

وقد أُشير إلى (الخفيفة) و (الخفاء) في كتب الحديث^١ . وقد بحث عنها شراح هذه الكتب . ومما نسب إليه حديث : « لم أبعث باليهودية ولا بالنصرانية ، ولكني بعثت بالخفيفة السمحة »^٢ . وحديث : « بعثت بالخفيفة السمحة السهلة »^٣ . وحديث : « أحب الأديان إلى الله تعالى الخفيفة السمحة »^٤ .

ويذكر أهل الأخبار أن الجاهليين جميعاً كانوا قبل عمرو بن لحي الغزاعي على دين إبراهيم . كانوا موحدين يعبدون الله جل جلاله وحده ، لا يشركون به ولا يتفصونه . فلما جاء عمرو بن لحي ، أفسد العرب ، ونشر بينهم أصاليل عبادة الأصنام ، بما تعلمه من وثني بلاد الشام حين زارهم ، وحل بينهم ، فكان داعية الوثنية عند العرب والمبشر بها ومضلهم الأول . وهو على رأسهم موزع الأصنام بين القبائل ، ومقسّمها عليها . فكان من دعوته تلك عبادة الاوثان ، إلى أن جاء الاسلام فأعاد العرب إلى سواء السبيل ، إلى دين إبراهيم حنيفاً ، وما كان إبراهيم من المشركين^٥ .

ولقد فشت دعوة عمرو بن لحي وانتشرت ، حتى دخل فيها أكثرهم ، والفساد سريع الانتشار ، وقلّ عدد من حافظ على دين إبراهيم والمراعي لأحكام دين التوحيد الخفيف : من اعتقاد بوجود إله واحد أحد ، وطواف بالبيت ، وحج إليه ، وعمره ، ووقوف على عرفة وهدي للهدى ، وإعلال بالحج والعمرة ، وغير ذلك . فلم يبق منهم إلا عدد محدود في كل عصر إلى زمن البعثة المحمدية^٦ . ولست نملك وبإ للأسف شيئاً من الجاهلية يعيننا في الوقوف على عقائد الأحناف ودينهم ، فليس في كتابات المستد ولا في الكتابات الجاهلية الأخرى ، بل ولا في كتب اليونان واللاتين شيء عن عقيدتهم وعن آرائهم ، لذلك اقتصر علمنا بأحوالهم على ما جاء في المؤلفات الإسلامية وحدها ، والفضل في حفظ أخبارهم للقرآن

- ١ راجع ونسبك : المعجم المهرست لالفاظ الحديث النبوي الشريف ، حيث تجدد الإشارة إلى تلك الأحاديث .
- ٢ مستند أحمد بن حنبل (١١٦/٤) = (٢٣/١) .
- ٣ اللسان (٥٦/٩ وما بعدها) .
- ٤ مجمع البيان ، للطبرسي (٢١٥/١ وما بعدها) . « أحب الدين إلى العنيفة السمحة » ، الإصابة (٥١/١) ، (رقم ١١٤) .
- ٥ اللسان (٤٠٣/١٠) ، بلوغ الأرب (١٩٥/٢) .
- ٦ بلوغ الأرب (١٩٦/٢) .

الكريم ، قلولا اشارته اليهم وذكره لهم ، لما اهتم القسرون واصحاب الأخبار
بجمع ما كان عالقاً في ذهن الناس عنهم . وللحديث وكتب السير والأدب فضل
في جمع أخبارهم يجب ألا ينسى كذلك .

والعلماء الاسلاميين آراء وتفسيرات في أصل لفظة (حنيف) وحفاء وحناف
وفي معانيها . فهم يقولون ان الأصل (حنف) ، وحنف بمعنى مائل . وحنف
القديم مائل ال واحد منها نحو الأخرى . والحنف هو مائل عن الضلال الى
الاستقامة ، والحنف مائل عن الاستقامة الى الضلال . والحنيف هو المائل . ومن
هذا المعنى أخذ الحنف . وأما الحنيف ، فالثاني يحيل الى الحق، وقيل الذي يستقبل
البيت الحرام ، أو الحاج أو من يختن، والحنيف من أسلم في أمر الله فلم يلتزم في
شيء . والحنيف المستقيم الذي لا يلتزم في شيء^١ .

وقد وردت لفظة (حنيفاً) في عشر مواضع من القرآن الكريم^٢ . ووردت
لفظة (حنفاء) في موضعين منه^٣ . وبعض الآيات التي وردت فيها آيات مكة،
وبعضها آيات مدنية . وقد نص في بعض منها هل إبراهيم ، وهو على الحنيفية،
ولم ينس في مواضع منها على اسمه . وقد وردت لفظة (حنفاء) في سورتين فقط .
هما : سورة الحج وسورة البقرة ، وهما من السور المدنية .

وذكر بعض أهل الأخبار ان الحنيف عند أهل الجاهلية من اختن وحج البيت
فحل من الختن وحج البيت هو حنيف^٤ . وقد رأى الطبري ان ذلك لا يكفي ،

- ١ المبريات . الاصعهاقي (ص ١٣٣) . اللسان (٤٤/١٠) . (٥٦/٩ وما بعدها)
وصادق . . ماج العروس (٧٧/٦ وما بعدها) . النهاية في غريب الحديث والأثر .
لابن الأثير (٢٦٥/١٠) . تفسير الطبري (٢٥٨/١ وما بعدها) . القاموس
الحديث . العمروزي (١٣٠/٣) . تفسير الطبري (٥٦٣/١) . ١٩٥٤ .
(١٠٥/٣) . دار المعارف . . للكل والنحل . (٥٢/٢) . الأغانى (١١٣/٣) وما
بعدها . . دار الفوائد بيروت ١٩٥٥ م . . روح المعاني للالوسي (١٧٣/٣) وما
بعدها . . تفسير الخازن (٩٨/١) .
- ٢ البقرة . رقم ٢ الآية ١٢٥ . آل عمران . ٣ الآية ٦٧ . ٩٥ . النساء . الرقم ٤ .
١٢٥ الآية ١٢٥ . الانعام ٦ . الآية ٧٩ . ١٦٦ بونس . الرقم ١٠ . الآية ١٠٥ . النحل .
١٦ . الآية ١٢٠ . الروم . الآية ٣٠ .
- ٣ الحج . الآية ٣١ . البقرة . الآية ٥ .
- ٤ اللسان (٤٠٣/١٠ وما بعدها) . الكتشاف (١٧٨/١ . ٢٣٦ . ٤٠٧) . الطبرسي .
مجمع البيان في تفسير القرآن (٤٦٧/١ وما بعدها) . (١٠٩/٣ وما بعدها) .
تفسير المحرر الرازي (٥٧/١٣ وما بعدها) . (١٠/١٤ وما بعدها) . (١٧١/١٧)
وما بعدها الطبري (١٠٤/٣ وما بعدها) .

بل لا بد من الاستقامة على ملة ابراهيم واتباعه عليها^١. والذين يذكرون أن الحنيف هو من اختن وحج البيت ، يذكرون أن العرب لم تمسك في الجاهلية بشيء من دين ابراهيم غير الختان وحج البيت ، ولهذا فكل من اختن وحج البيت ، قبل له حنيف . وقد أضاف بعضهم اعتزال الأصنام والإغتسال من الجنابة إلى ما ذكرت ، وجعلوا ذلك من أهم العلامات الفارقة التي ميزت الحنفية عن المشركين^٢ ، لأن الحنيفة على حد قولهم لو كانت حج البيت والاعتتان لوجب أن يكون الذين كانوا يحجّون ويختنون في الجاهلية من أهل الشرك حنفاء، وقد نفى الله أن يكون ذلك تحنفاً بقوله : « ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين »^٣.

وينبأ أهل الأخبار إلى الأحناف بالإضافة إلى ما ذكرت ، اعتناهم عن أكل ذبائح الأوثان وكل ما أهل إلى غير الله . فقد ذكروا عن كل واحد من الأحناف أنه كان قد امتنع عن أكل الذبائح التي تليح للأوثان والأصنام ، لأنها ذبحت لغير الله . كما نسبوا إليهم تحريم الخمر على أنفسهم ، والنظر والتأمل في خلق الله ، ونسبوا إليهم أداء شعائر الحج وغير ذلك^٤.

وقد تلخص (الفخر الرازي) و (الطبرسي) ، آراء العلماء في (الحنيفة) واجملاها في تفسيرهما للآية : « وقالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا » ، قل بل ملة ابراهيم حنيفاً ، وما كنت من المشركين » . فقالا : « وفي الحنيفة أربعة أقوال : أحدها أنها حج البيت ، عن ابن عباس والحسن ومجاهد . وثانيها أنها اتباع الحق ، عن مجاهد ، وثالثها أنها اتباع ابراهيم فيما أتى به من الشريعة التي صار بها إماماً للناس بعده من الحج والختان وغير ذلك من شرائع الإسلام ،

١ تفسير الطبري (١٠٥/٣) وما بعدها (٣٠٦/٣) ، (٢٩٧/٥) ، (٢٥١/٧) .

تفسير القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن (١٢٨/٢) .

٢ اللسان (٥٦/٩) ، سائر ، القاموس (١٣٠/٣) ، تاج المروس (٧٧/٦) وما بعدها (حنف) .

٣ الطبري ، جامع البيان (٥٦٤/١) وما بعدها .

٤ الأصنام (٦) ، ١٩١٤ م ، ، القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ، (١٠٩/٤) ، ١٩٣٧ م ، مطبعة دار الكتب المصرية ، ابن خلدون (القسم الأول من المجلد الثاني) (ص ٧٠٧ وما بعدها) ، بيروت ١٩٥٦ م ، الخازن ، لباب التأويل في معاني التنزيل (٢٣٨/١) وما بعدها ، ٢٥١ ، تفسير الرازي (١٥٠/٨) وما بعدها .

والرابع أنها الاخلاص لله وحده والاقرار بالربوبية والإذعان للعبودية^١ .

ترى مما تقدم ، وسترى فيما بعد ان أهل الأخبار لم يكونوا على بيئة تامة وعلم واضح بأحوال الخبيثة وبآرائها وقواعد أحكامها وأصولها ، وأنهم غلطوا في بعض الأحيان فيما بينها وبين الرهينة ، ولا سيما رهينة النصرانية . فأدخلوا فيها من يجب إخراجهم عنها ، لأنهم كانوا نصارى على ما يذكره نفس أهل الأخبار في أثناء تحللهم عنهم ، ومن هؤلاء : قيس بن ساعدة الأيادي وورقة بن نوفل ، وعثمان ابن الحويرث ، فقد نصوا نصاً صريحاً على أنهم كانوا من العرب المنتصرة ، ثم تجدهم مع ذلك يدخلونهم في جملة الأحناف .

والمستشرقين يحوث في أصلها ومعناها وفي ورودها عند العرب قبل الإسلام . ومنهم من يرى ان اللفظة من أصل إرمي ، وقد كانت معروفة عند النصارى ، وأنشعها الجاهليون منهم ، وأطلقت على الفاتلين بالتوحيد من العرب ، على أولئك الذين ظهروا في اليمن خاصة ونادوا بالتوحيد وعبادة الرحمن . وهي ديانة توحيد ظهرت بتأثير اليهودية والنصرانية ، غير ان أصحابها لم يكونوا يهوداً ولا نصارى ، وإنما كانوا فرقة مستقلة تأثرت بأراء الديانتين^٢ .

وقد ذهب بعض المشرقين الى ان اللفظة من أصل عبراني ، هو : (تخينوت) techinoth ، أو من (حنف) Hnāh ، ومعناه التحنن في العربية ، وذلك لما لهذه اللفظة من صلة بالزهد والرهافة . وقال (نولدكه) أنها من أصل عربي هو (تحنف) ، على وزن تبرر ، وهي من الكلمات التي لها معان دينية . ويلاحظ ان السريان يطلقون لفظة (حنفة) Hanfa على الصابئة^٣ . وقد وردت لفظة (حنف) في النصوص العربية الجنوبية ، وردت بمعنى (صبأ) ، أي مال وتأثر بشيء ما^٤ .

١ مجمع البيان (٢١٥/١ وما بعدها) ، التفسير الكبير ، للفخر الرازي (٨٩/٤ وما بعدها) .

Ency., II, p. 259.

٢ Abraham I. Katsh, Judaism in Islam, New York, 1964, p. 108, f., J.A. Montgomery, Ascetic Strains in early Judaism, in, JBL., Vol., LI, (1932), pp. 183, Tar Andrae, Der ursprung der Islam und das Christentum, uppsala, 1926, p. 48, Charles Lyall, The Ward Hanif and Muslim, in JRAS, 1903, p. 772, Sprenger, Das Leben, Bd. I, S. 48, ff.

٣ Ency., II, 259, Barhebraeus, Chronicle, p. 176.

٤ Rhodakanakis, Stud., II, S. 40.

أي بالمعنى الذي فهمه علماء اللغة. فاللفظة إذن من الألفاظ المعروفة أيضاً عند العرب الجنويين .

عندي أن لفظة (حنيف) ، هي في الأصل بمعنى (صابىء) أي خسارج عن مكة قوم ، تارك لعبادتهم . ويؤيد رأسي هذا ما ذهب إليه علماء اللغة ، من أنها من الليل عن الشيء وتركه ، ومن ورودها بهذا المعنى في النصوص العربية الجنوية . وبمعنى (الملحد) ، و (المنافق) ، و (الكافر) في لغة بني إدم ، ومن الطلاق (المسعودي) و (ابن العبري) لهذه اللفظة على (الصابئة) . ومن ذهب (المسعودي) إلى أن اللفظة من الألفاظ السريانية المعربة . وقد أطلقت على (المنشقين) على عبادة قومهم الخارجين عليها ، كما أطلق أهل مكة على النبي وعلى أتباعه (الصابىء) و (الصباة) ، فصارت علماً على من تنكر لعبادة قومه ، وخرج على الأصنام . ولهذا نجد الإسلام يطلقها في بادئ الأمر على نابلي عبادة الأصنام ، وهم الذين دعاهم بأنهم على (دين إبراهيم) . ولما كان التكر للأصنام هو عقيدة الإسلام لذلك صارت متبحراً لمن أطلق الجاهليون عليهم تلك اللفظة لا ذماً^١ .

وليت الصورة التي رسمها القسرون وأهل الأخبار عن عقيدة الخنفاء واضحة، فهي صورة غامضة مطبوعة في كثير من التواحي ، تخص الناحية الخلقية أكثر مما تخص الناحية الدينية . فليس فيها شيء عن عقيدتهم في الله ، وكيفية تصورهم وعبادتهم له ، وليس فيها شيء عن كتاب كانوا يتبعونه أو كتب كانوا يسرون عليها . نعم ، إن نقرأ منهم كما ذكر الرواة كانوا قد قرأوا الكتب ووقفوا عليها ، ولكن ما تلك الكتب التي قرأوها ، وما أسماؤها . وهل هي التوراة والإنجيل ؟ ولكن أي توراة وإنجيل ؟ التوراة والإنجيل التي كانت بين أيدي الناس أو غيرها ؟ فالذي يفهم من كلام الرواة أن الخنفاء كانوا يرون تحريفاً في الكتابين ، وأن هناك تبانياً قليلاً أو كثيراً بين الأصل الذي أوحاه الله وبين الذي كان بين أيدي الناس ، وأنهم لذلك مالوا عن اليهودية والنصرانية إلى دين إبراهيم الحنيف ، فقرأوا كتبه وتعبدوا بعبادة إبراهيم . ولكن ما هي كتب إبراهيم وما هي عبادته ؟

١ راجع أيضاً : Ency., II, p. 259.

وليس في إمكاننا في الوقت الحاضر وضع حد صريح واضح لمفهوم الأحناف و (الدين الحنيف) عند الجاهليين ، لما ذكرته من عدم وجود موارد واضحة صريحة عن الأحناف ، ولعدم ورود أي شيء عنهم في نصوص جاهلية ، ولأن في الكثير من الذي يذكره القسرون وأهل الأخبار عنهم غموض وإبهام أو صنعة وتكلف ، لذلك فليس أمامنا سوى الانصراف إلى البحث عن جمع كل ما ورد عن الحنيفة في الشعر وفي النثر وتنقيته وغربله لاستخراج المادة الصافية منه التي نقيدنا في الوقوف على تلك الحركة الدينية التي كانت بارزة عند المذكورين قبيل ظهور الإسلام . والوقوف عليها يقيدنا كثيراً ولا شك في فهم الإسلام الذي أتى على الحنيفة ولرجعها إلى ديانة إبراهيم ، وفي فهم اتجاهات الأحناف ودعوتهم التي وجهوها إلى قومهم في نيل عبادة الأصنام والأحجار والمعبودات المادية الأخرى ، والاتجاه إلى عبادة إله أعلى لا يشبه المادة ، هو إله واحد لطيف خبير .

والحنفاء ، كما يفهم من روايات أهل الأخبار ، كانوا طرازاً من السالك ، تسكوا في الحياة الدنيا ، وانصرفوا إلى التمسك بالإله الواحد الأحد إله إبراهيم وإسماعيل ، ساحوا في البلاد على نحو ما يفعله السباح الزهاد بحثاً عن الدين الصحيح دين إبراهيم ، فوصل زيد بن عمرو بن ثعلبة إلى الشام واللقاء ووقف على اليهودية والنصرانية ، فلم ير في الديانتين ما يريد^١ . ومنهم من أخذ على قومه هدايتهم بحشمتهم على ترك عبادة الأصنام ، لذلك لاقوا منهم غشاً ونصباً شديداً . ومنهم من كان يتأمل في هذا الكون ، لذلك تجنب الناس واعتزلهم ، والتجأ إلى الكهوف والمغاور البعيدة ابتعاداً عن الناس للتأمل والتفكير ، وقد تجنبوا الحمره والأعمال المنكرة ، وقول الفحش ، وساروا على مثل الإسلام ، وإن عاشوا قبل الإسلام ، لأن الإسلام دين إبراهيم .

والذي يفهم من القرآن الكريم ، هو أن الحنفاء هم أولئك الذين رفضوا عبادة الأصنام ، فلم يكونوا من المشركين ، بل كانوا يدينون بالتوحيد الخالص ، وهو فوق توحيد اليهود والنصارى ، فلم يكونوا يهوداً ولا نصارى ، و « وما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ، ولكن كان حنيفاً مسلماً ، وما كان من

١ . بلوغ الأرب (٢٤٧/٢ وما بعدهما) . الطبرسي . مجمع البيان (١١٠/٣)
 (٢٥٢/٧) ، (١٠٧/١١) ، (١٣٧/١٤) .

المشركين^١ ، وان قدوتهم في ذلك ابراهيم . وبلاحظ ان لفظة (مسلم) استعملت في مرادف ومعنى لفظة (الحنيف) ، وان ابراهيم هو أبو وأول المسلمين . وقد وصف الاسلام بأنه دين الله الحنيف ، والدين الحنيف ، وان الشريعة الاسلامية، هي الحنيفية السخية السهلة ، وذلك تمييزاً لها عن الرهبانية المتعصبة^٢ .

وقد عدت بعض المشرقين الخفاء شيعة من شيع النصرانية ، وعدتوهم نصارى عرباً زهاداً كبتوا النصرانية بعض التكيف ، وغلطوا فيها بعض تعاليم من غيرها. وقد استدلووا على ذلك بما ورد من تنصر بعضهم ، وبما ورد في بعض الأشعار الجاهلية من مواضع يفهم منها على تفسيرهم ان المراد بهم شيعة من شيع النصرانية^٣ . غير ان القرآن الكريم قد نص نصاً صريحاً على ان الخفاء لم يكونوا يهوداً ولا نصارى ، وانهم يتبنون في عقيدتهم الى ابراهيم . ثم ان الأخباريين وإن أدخلوا في الأحناف أناساً نصوا على أنهم كانوا نصارى ، إلا أنهم نصوا في الوقت نفسه نصاً صريحاً على ان البقية الباقية ، كانت وافقة، لم تدخل في يهودية ولا نصرانية ، إذ وجدت في كل ديانة من الديانتين أموراً جعلتها تراث، فلم تدخل في احدهما، وبقيت مغلصة لسنة ابراهيم ، لذلك فلا يمكن اعتبار الأحناف نصارى خلصاً ، أو شيعة من الشيع النصرانية .

وقد كان من الخفاء نفر من النصارى ، أخلصوا لتصرايتهم وماتوا عليها . فهؤلاء هم نصارى من غير شك ، ويجب اخراجهم من طائفة الخفاء ، وادخالهم في النصارى ، مثل (بحيرا) الراهب ، وأمثاله ممن ساعدت عنهم قبا بعد . وبلاحظ ان جميع من حشرهم أهل الأخبار في الحنيفية ، كانوا من القارئين، الكاتبيين . وكانوا يشربون الكتب ويراجعونها ويشقطن أخبار أهل الآراء والمذاهب والديانات . وبعض منهم - كما يروي أهل الأخبار - علم باللغات الأعجمية مثل السريانية والعبرانية ، كما كان لهم علم ووقوف على تيارات الفكر في ذلك الوقت . وقد أضافوا الى علمهم الذي أخذوه من الكتب ، علماً حصلوا عليه من

١ آل عمران ، الآية ٦٧ وما بعدها ، البقرة ، الآية ٣٥ ، آل عمران ، الآية ٩٥ ، النساء ، الآية ١٢٤ ، الانعام ، الآية ٧٩ ، ١٦٢ ، يونس ١٠٥ .
٢ ابن سعد (١٢٨/١) ، قال عبد الله بن أنيس :
فقلت له خذها بطرية ماجد حنيف على دين النبي محمد
٣ Reste, S. 238, J.A. Montgomery, Ascetic Strains in Early Judaism, JBL, Vol., LI, 1932, p. 183, Abraham J. Katsch, Judaism in Islam. p. 108.

أسفارهم الى الخارج مثل العراق وبلاد الشام ومن اتصلهم بالرهبان وبرجال الكنائس واليهود . فهم بالنسبة لذلك الوقت الطليقة المنقصة من الجاهليين نادت بالاصلاح ورفعت مستوى العقل وبنيت الأساطير والحرفات وتحرير العقل من سيطرة العادات والتقاليد فيه ، وذلك بالدراسات والتأمل وبقراءة الكتب وبالرجوع الى دين القطرة ، الذي لا يقر عبادة الشرك ولا عبادة الناس .

لذلك نستطيع أن نقول عن هؤلاء إنهم كانوا أناساً من النوع الذي نطلق عليهم كلمة (مصلحين) في الوقت الحاضر . من هذا الطراز الذي يريد اصلاح الأوضاع ورفع مستوى العقل . فهم جماعة ضد الأوضاع الاجتماعية السائدة في أيامهم . لأنها في نظرهم أوضاع مؤخرة تمنع الإنسان من التقدم ومن انشراك الواقع . وقد رأيت أن العقل لا يقر التقرب الى أحجار والى التبرك بها والذبح لها ، لأنها حجارة لا تعي ولا تفهم وليس في إمكانها أن تسمع أو تجيب لذلك فقررت منها . ومنهم من آمن بدين كالتصيرية ، ولكنه لم يكن على نصيرية قومه ، لأن عقله لا يقر التقرب الى المادة مثل الصليب والصور والتماثيل ، ومنهم من أبعدته مثل هذه العبادة عن التصيرية ، فصيرته حائراً في أمره من التباينات ، يعتقد بآله ، ولكنه لم يستقر على دين . عائب على قومه من المشركين ما هم عليه من جهل ومن عبادة أحجار ومن كل تقرب إليها .

وقد ذكر أهل الأخبار أسماء تقرر ذكروا أنهم كرهوا عبادة الأوثان وسخطوا أحلام المتعبدين لها ، إذ وجدوا أن من الحق التقرب الى حجر لا يضر ولا ينفع ، وهو جاد ، فلما سمع بعضهم بالاسلام أسلموا . ولكنهم لم يدخلوهم في عداد الأحناف . وقد رأينا أن من أهل الأخبار من جعل (مسيلة) يدعو الى عبادة (الرحمن) قبل مبعث النبي . وقد ذكروا أن « عمرو بن عبسة بن عامر بن خالد » السلمي ، كان قد رغب عن آلهة قومه في الجاهلية ، رأى أنها باطلة ، وأن الناس في ضلال إذ يعبدون الحجارة ، والحجارة لا تضر ولا تنفع ، فكان حائراً ، حتى اعتدى إلى الاسلام^١ .

وليس في أيدينا اليوم مورد يفيد بوجود تكتل وتنظيم لمسن أطلق الأخباريون

١ الاصابة (٥/٣ وما بعدها) ، رقم (٥٩٠٥) ، الاستيعاب (٢/٢٩١ وما بعدها) ، حاشية على الاصابة .

عليهم لفظة : (الحنفاء) : تكتل وتنظيم مع مظاهر خارجية وداخلية تميزهم عن غيرهم من أهل الأديان . لذلك ، فنحن لا نستطيع أن نقول إن الحنيفية كانت فرقة تتبع ديناً بالمعنى المفهوم من الدين ، كدين اليهودية أو النصرانية ، لها أحكام وشريعة تستمد أحكامها من كتب "منزلة مقدسة ومن وحى نزل من السماء ، على نحو ما يفهمه من الأديان السماوية . لذلك ، فأنا لا أستطيع لإقرار رأيي من ذهب إلى أنهم كانوا جماعة دينية منظمة ، كراي المستشرق (شيرنكر) ، الذي ذهب إلى هذا المذهب^١ .

وجل هؤلاء الأحناف ، هم من أسر معروفة ، ويوت يظهر أنها كانت مرتبطة أو فوق مستوى الوسط بالنسبة إلى تلك الأيام ، ولهذا صار في إمكانهم الحصول على ثقافة وعلى شراء الكتب ، وقد كانت غالبية الثمن إذ ذاك ، لنيل العلم منها . كما صار في إمكانهم الطواف في خارج جزيرة العرب لامتصاص المعرفة من البلاد المتقدمة بالنسبة إلى تلك الأوقات ، مثل العراق وبلاد الشام . وقد اتصلوا كما يزعم أهل الأخبار فعلاً برجال العلم والدين فيها ، وتحدثوا معهم وأخذوا رأيهم . ومن يدري فلعلهم قرأوا عليهم الكتب وفي جملتها كتب اليونان ، أو ترجحات كتبهم بالسريانية ، فحصلوا نتيجة لذلك على علم بمقالات اليونان وآرائهم في الفلسفة والدين والحياة . وقد تكون بعض الآراء المنسوبة إليهم ، والتي ترجع إلى أصل يوناني ، قد قالوها من أخذهم لها من تلك الكتب ومن دراستهم على من اتصلوا بهم من العلماء في أثناء وجودهم في العراق وفي بلاد الشام .

ونجد في الأخبار أن الرسول كان بعد "الرهبانة مخالفة للحنيفية ، إذ ورد أن أبا عامر بن صيفي - المعروف بالراهب لأنه كان قد ترهب في الجاهلية وليس المسوح - قدم المدينة ورأى الرسول ، وسأله : ما هذا الذي جئت به ؟ - فقال الرسول : جئت بالحنيفية دين إبراهيم ، قال : فأنا عليها ، فقال الرسول : لست عليها ، ولكنك أدخلت فيها ما ليس منها . وقد سمع الرسول الفاسق . فذهب مغاضباً للرسول كما تقول الروايات ، منرجهاً إلى قيصر ، ليحمله على توجيه جيش إلى المدينة للقضاء على الإسلام ، غير أنه مات وهو في بلاد الشام^٢ .

1. Sprenger, Das Leben, Bd. 1, S. 4, Ency., II, S. 250.

2. مجمع البيان (٦٤/٩ وما بعدها) ، (٥٠٠/٣) ، (طبعة طهران) .

وقد خرج (أبو عامر) واسمه (عید عمرو بن صيفي بن مالك بن النعمان ابن أمة)^١ الراهب أحد (بني ضبيعة) إلى مكة مباعداً لرسول الله ، معه غصون غلاماً من الأوس ، منهم (عثمان بن حنيف) . فكان يعد قريشاً أن لو قد لقي محمداً لم يختلف عليه منهم رجلاً ، فلما كان يوم أحد ، كان أول من لقي أهل المدينة أبو عامر في الأحاشيش وعبدان أهل مكة ، فتأذى يا معشر الأوس ، أنا أبو عامر ، قالوا : فلا أنعم الله بك شيئاً يا فاسق ، وكان أبو عامر يسمى في الجاهلية (الراهب) فسماه رسول الله الفاسق ، فلما سمع ردهم عليه ، قاتلهم ثم راضخهم بالحجارة . ثم رجع مع قريش إلى مكة ثم خرج إلى الروم يوم فطحت مكة فأتى بها سنة تسع ، ويقال سنة عشر . وأعطى (هرقل) ميراثه لكنانة بن عبد البليل الثقفي^٢ ، وكان قد اختصم مع علقمة بن علاثة في ميراثه ، فدفع هرقل ميراثه لكنانة قائلاً لعلقمة : هما من أهل المدبر وأنت من أهل الوبر . وكان له ولد اسمه (حنظلة) أسلم ، واستأذن رسول الله في قتل أبيه ، فنهاه عن ذلك . فلما كان يوم أحد شهده ، والتقى هو وأبو سفيان ، فلما استعلت حنظلة رآه (شداد بن شعوب) فعلاه بالسيف حتى قتله ، وقد كاد يقتل أبا سفيان . فقال النبي : « إن صاحبكم تغلب الملائكة »^٣ ، فعرف به (غسيل الملائكة)^٤ . فكان الابن مع المسلمين في هذا اليوم ، وكان الأب مع المشركين .

وروي أنه كان يتردد في الجاهلية ، فلما جاء الإسلام خرج إلى الشام وأمر المنافقين بالتحاذر مسجد الضرار ، وأتى قبصر فاستجده على النبي^٥ . وروي أنه هو الذي حارب الأحزاب لقتال الرسول : فلما خذل الحق بالروم يطلب النصر منهم ، وقال لأناس من الأنصار ابنو مسجدكم واستعدوا بما استطعتم من قوة وسلاح ،

١ تاريخ الطبري (٥١٢/٢) . (معركة أحد) . المحبر (٤٧٠) . سيرة ابن هشام (١٢٩/٢) . (حاشية على الروض) . أبو عامر بن صيفي بن مالك بن أمية بن ضبيعة بن زيد بن عوف بن عمرو بن عوف بن مالك بن الأوس ، الأوسي . الإصابة (٣٦٠/١) . (رقم ١٨٦٣) . مروج الذهب (٨٨/١) . (دار الاندلس) .
٢ الإصابة (٣٦٠/١) . (رقم ١٨٦٣) .
٣ الاستيعاب (٢٧٩/١) وما بعدها . (حاشية على الإصابة) .
٤ الإصابة (٣٦٠/١) . (رقم ١٨٦٣) . الاستيعاب (٢٧٩/١) وما بعدها . (حاشية على الإصابة) .
٥ تفسير النيسابوري (٧٦/٩) . (حاشية على تفسير الطبري) . روح المعاني (١١١/٩) .

فلما ذهب إلى قيصر ملك الروم فأتى بجند من الروم ، فأخرج محمداً وأصحابه ، وكان قد خرج معه كثافة بن عبد ياليل الثقفي وعلقمة بن علاثة . فلما علقمة وابن ياليل (ابن بالين) ، فرجعا فباعا النبي وأسلما ، وأما (أبو عامر) فتصرف وأقام^١ .

ويظهر أن (أبا عامر الراهب) ، كان قد وضع مع جماعة من الأنصار الخاقدين على الرسول وعلى المهاجرين الذين صاروا يزاحمونهم في أعمالهم ، واستحوذوا على التجارة واستغلوا أرض يثرب فقام قوم منهم بزراعتها ، خططة لعمل مكيدة يخرجون بها الرسول من المدينة ، يساعدهم في ذلك الروم . غير أنها لم تنجح ، وهمد المسجد ، الذي تواعدوا على أن يكون موضع التأمر وملقى الخاقدين على الرسول ، وقضي على المؤامرة ، وبقي (أبو عامر) عند الروم . فلما مات عاد (كثافة بن عبد ياليل) الثقفي ، وكان رئيس ثقيف في زمانه ، وكان يقول : لا يرثني رجل من قريش) ، مما يدل على أنه كان من الكارهين لفريش المتحاملين عليها وعلى الإسلام ، ففر إلى (نجران) ثم توجه إلى الروم . فلما مات (أبو عامر) عاد فأسلم^٢ . وعاد (علقمة) أيضاً . وهناك روايات أخرى ، تذكر أنه ارتد في أيام (عمر) ، والتحق بالروم ، ثم عاد إلى الإسلام^٣ .

ولاشتهار أبي عامر بالراهب ، ولما ورد في بعض الأخبار من أنه كان حنيفاً ، ذهب (ولغوزن) إلى أن الأحناف هم من النصارى ، وأن حركتهم حركة نصرانية ، وأنهم كانوا القنطرة التي توصل بين النصرانية والإسلام^٤ . غير أن ما لدينا من معارف عن الأحناف ، لا يكفي لإسداء رأي كهذا الرأي ، وللتسليم بمثل هذا القول ينبغي لنا الوقوف على آرائهم وقوفاً دقيقاً ومقارنة ما لدينا بما نعرفه من النصرانية لتتمكن من التوصل إلى رأي علمي في هذا الشأن .

وفي بيت منسوب إلى أمية إشارة إلى الخيفية ، ذكر فيه أن كل دين زور عند الله إلا دين الخيفية . وقد رأينا أن أهل الأخبار يدخلون أمية في جملة

١ تفسير الطبري (١٧/١١ وما بعدها) ، تفسير القرطبي (٧/٣٢٠) ، (٨/٢٥٣ وما بعدها) .
٢ الإصابة (٣/٢٠٥) ، (رقم ٧٥٣٢) .
٣ الإصابة (٢/٤٩٦) ، (٥٦٧٧) .
٤ Wellhausen, Reste, S. 239. f.

الحففاء ، ويقولون : انه ليس المسوح تعبدًا ، وكان ممن ذكر ابراهيم واسماعيل وحرم الخمر^١ . ويلاحظ ان الأنصارين ينسبون الى عدد من هؤلاء الأحناف ليس المسوح ، مما يشير الى أنهم كانوا قد تأثروا بالرهبان المتشفيين وبالزهاد النصارى الناسكين، فأخذوا عنهم هذه الطريقة التي أشير اليها في القرآن الكريم وفي الحديث ، والتي عدت من البدع المفضولة في الاسلام .

وقد أورد أهل الأخبار كلاماً ذكروا ان الأحناف قالوه ، هو من نوع كلام الكهان المرتب على طريقة السجع ، أوردوه بنصه على ما ذكروه . غير ان من الصعب تصور صدور ذلك الكلام للشمس من أناس عاشوا قبل الاسلام ، ومحافظة الناس عليه محافظة تامة الى ما بعد الاسلام . ويظهر على كل حال من دراسة روايات أهل الأخبار عن الكهان والأحناف ان كلام رجال الدين قبل الاسلام كان على هذا النمط من السجع ، ومن جمل مكررة معادة عامة . وقد ظل السجع الطريقة المحببة في الكتابة الى أيامنا هذه عند بعض الكتاب .

وبفهم من كلام الرواة ان بعض هؤلاء الحففاء كانوا نصارى مثل ورقة بن نوفل ، أي على عكس ما يذكره الرواة أنفسهم من أن هؤلاء كانوا قد تبنوا اليهودية والنصرانية متبعين ديانة ابراهيم^٢ . والظاهر أن الرواة قد اشتبه عليهم الأمر ، فخلطوا في بعض الأحيان بين النصرانية وبين هؤلاء الذين أنكروا عبادة الأصنام واعتقدوا التوحيد .

ولدينا أمثلة أخرى على هذا الوهم . وسنرى من تراجم عسدد من الأحناف ان منهم من يجب ادخاله في عداد النصارى ، لا الأحناف . وقد نص أهل الأخبار أنفسهم على تنصرهم ، غير أنهم ادخلوهم مع ذلك في جملة الأحناف حين تكلموا عنهم . فكانهم عتوا بالأحناف من كان على حياة الرهبنة والتشفي . وقد أدخل (المسعودي) بعض الأحناف في جماعة أهل الفترة ممن كان بين المسيح ومحمد ، ومن أهل التوحيد ، ممن يقر بالبعث . ثم قال : « وقد اختلف الناس فيهم ، فمن الناس من رأى أنهم أنبياء ، ومنهم من رأى غير ذلك »^٣ .

١ كل دين يوم القيامة عند الله - الا دين الحنيفية زور
الاعناني (١٢٢/٤) طبعة دار الكتب المصرية .
٢ بلوغ الأرب (٢٧٠/٢) .
٣ مروج (٧٨/١) (دار الاندلس) .

وقد ذكر من بينهم (حنظلة بن صفوان) ، و (خالد بن سنان العيسي) ، و (رثاب الشتي) ، و (أسعد أبو كرب الحميري) ، و (قس بن ساعدة الإيادي) ، و (أمية بن أبي السلت الطفي) ، و (ورقة بن نوفل) ، و (عداس) مولى (عتيبة بن ربيعة الثقفي) ، و (أبو قيس) (صرمة بن أبي انس) الانصاري ، و (أبو عامر الأموي) ، و (عبدالله بن جحش الأسدي) ، و (عبيد الراهب)^١ . ومن هؤلاء من كان على النصرانية ، وقد نص (للمعدي) نفسه على ذلك .

والذين ذكر الرواة أسماءهم من الخلفاء هم أناس عاشوا في الجاهلية المتصلة بالاسلام ، ومنهم من أدرك الرسول ، ولا عبرة بالطبع لما زعمه الأخباريون من طول عمر أولئك الأشخاص وبلوغ بعضهم مئتين عدة من السنين ، وادخالهم في المعمرين^٢ ، فإن من عادة الأخباريين إطالة عمر هؤلاء وأمثالهم من الرجال البارزين القاهرين ، ليكون ذلك مناسباً لما يجيء في أخبارهم من الحكم المنسوبة إليهم ، وهي فكرة عامة نجدها عند غير العرب أيضاً ، ولذلك نجد صور الحكماء والفلاسفة في الغالب على صورة شيوخ أصحاب لحى طويلة بيض ورأس جله الشيب أو قضى على شعره الزمن والتفكير ، ففصيح ، لأن هذه من علامات الحكمة والتفكير .

وعندي أن الخلفاء جماعة سخرت من عبادة الأصنام ، وثارت عليها وعلى المثل الأخلاقية التي كانت سائدة في ذلك الزمن ، ودعت إلى إصلاحات واسعة في الحياة وإلى محاربة الأمراض الاجتماعية العديدة التي كانت متفشية في ذلك العهد ، دعاها إلى ذلك ما رآته في قومها من إغراق في عبادة الأصنام ومن اسفاف في شرب الخمر ولعب الميسر وما شاكل ذلك من أمور مضرّة ، فرفعت صوتها كما يرفع المصلحون صوتهم في كل زمن يتأدون بالإصلاح ، وقد أثاروا دعوتهم هذه المحافظين وأصحاب الجاه والنفوذ وسدنة الاوثان شأن كل دعوة إصلاحية . ويجوز أن يكون من بين هؤلاء من مال إلى النصرانية ، غير أننا لا نستطيع أن نقول أنهم كانوا نصارى أو يهوداً ، إنما أستطيع أن أشبه دعوة هؤلاء بدعوة الذين دعوا إلى عبادة الإله رب السماء (ذو صوى) أو عبادة الرحمن في اليمن ،

١ مروج (٧٨/١) وما بعدها .

٢ جعل السجستاني عمر قس بن ساعدة الإيادي ، وهو من الخلفاء ، ثمانين وثلاث مئة سنة ، بلوغ العرب (٢٤٦/٢) .

متأثرين بمبادئ التوحيد التي حملتها اليهودية والنصرانية إلى اليمن . ولكنهم لم يكونوا أنفسهم يهوداً أو نصارى ، انما هم أصحاب ديانة من ديانات التوحيد .

ولا يعني قولنا هذا ان الخنفاء كانوا على رأي واحد ودين واحد كالذي يفهم مثلاً من قولنا يهودي ونصراني ويهود ونصاري ، بمعنى أنهم كانوا طائفة معينة تسير على شريعة ثابتة كالذي ذهب (شبرنكر) إليه^١ . انما كان أولئك الاحناف تقرأ من قبائل مظرفة لم تجمع بينهم رابطة ، انما اختلفت فكريتهم في رفض عبادة الاصنام وفي الدعوة الى الاصلاح . وهذا المعنى واضح في آيات القرآن الكريم التي أشارت الى الخنفاء .

والرجال الذين قال أهل الاخبار عنهم إنهم كانوا على دين ، وكانوا من الاحناف ، هم : قس بن ساعدة الإيادي ، وزيد بن عمرو بن نُهَيْل ، وأميرة ابن أبي الصلت : وارياب بن رثاب ، وسويد بن عامر المصطلق ، وأسعد ابو كرب الحميري ، ووكيع بن زهير الإيادي ، وعمر بن جندب الجهمي ، وعدي بن زيد العبادي ، وأبو قيس صرمة بن أبي انس ، وسيف بن ذي يزن ، وورقة بن نوفل القرشي ، وعامر بن القُشْب العدواني ، وعبد الطائفة بن ثعلب ابن وبرة بن قضاة ، وعلاف بن شهاب التميمي ، والمتمس بن أمية الكناني ، وزهير بن أبي سلمى ، وخالد بن سنان العبسي ، وعبد الله القضاعي ، وعبد ابن الأبرص الاسدي ، وكعب بن لؤي بن غالب^٢ .

وبعض هؤلاء مثل : (قس بن ساعدة الإيادي) و (عثمان بن الحويرث) و (عدي بن زيد العبادي) نصارى ، وبعض منهم مثل (أسعد ابو كرب الحميري) ، (ابو كرب اسعد الحميري)^٣ و (عبيد بن الأبرص) ، و (زهير ابن أبي سلمى) ، مشكوك في أمرهم ، لا نستطيع أن نذكر شيئاً عن دينهم . ولهذا فأنا اذكرهم هنا بحذر ، بحالة لمن أدخلهم في أهل الدين من الجاهليين . ولا أعني أنهم كانوا على الحنيفة ، اي على شريعة التوحيد التي ينص عليها أهل الاخبار .

1. Sprenger, Das Leben, Bd. I, S. 4.

2. بلوغ الأرب (٢٤٤/٢) وما بعدها ، مروج الذهب (٧٨/١) ، (دار الاندلس) .

3. بلوغ الأرب (٢٤٤/٢) ، مروج (٥٢/١) وما بعدها .

وقد اقتصر (محمد بن حبيب) على ذكر بعض من تقدم ، حين تكلم عن (أسماء الذين رفضوا عبادة الأصنام) : فذكرهم على هذا النحو : عثمان بن الحويرث ، وورقة بن نوفل ، وزيد بن عمرو بن نفيل ، وعبيد الله بن جحش ابن رثاب الاسدي . وذكر ان منهم من تنصر ومات على النصرانية ، مثل : عثمان بن الحويرث ، وورقة بن نوفل ، وعبيد الله بن جحش بن رثاب الاسدي^١ . فأما قس بن ساعدة الايادي ، فقد رفعه الاخباريون من مصاف أسوياء البشر ، ووضعوه في صف المعمرين الذين عاشوا مئتين من السنين قبل سبع مئة سنة ، وقيل ست مئة سنة ، أو أقل من ذلك بكثير ، غير أنه لا يقبل عن ثلاث مئة سنة على كل حال^٢ .

وأما مولده ، فجهول . وأما وفاته ، فيكاد يحصل الاتفاق على أنه كان قبيل البعثة . وقد ورد في رواية ان الرسول أدركه ورآه يخطب في سوق عكاظ خطبته الشهيرة المعروفة ، غير أنه لم يحفظها ، وإن أباه يكر ، وكان من جملة من حضر السوق وسمع الخطبة ، كان قد حفظها ، فأعادها على الرسول . وهي الخطبة الشهيرة المتداولة بين الناس والمحفوظة في الكتب . وهناك رواية تذكر ان الرسول كان يحفظها ، وقد تلاها على من حضر عنده ، وتلا بعضاً منها على وقد عبد القيس^٣ .

- ١ الخبر (١٧٦) وما بعدها .
- ٢ وقيل : قس بن ساعدة بن حذافة بن زفر ، وقيل : حذافة بن زهر بن زفر . وقيل : قس بن ساعدة بن عمرو بن عدي بن مالك بن ايدعان بن النمر الخ وقيل : هو ابن ساعدة بن عمرو بن شمر بن عدي بن مالك . وهكذا - بلوغ الارب (٢٤٦/٢) ، البيان والنبين (٥٠/١) ، طبعة السندوبي ، (١٩٢٦) ، شعراء النصرانية (٢١١/٢) ، قس بن ساعدة الايادي بن عمرو بن عدي بن مالك بن ايدعان ، ايدعان ، بن النمر بن وائلة بن الطيمان بن عوذ مناة بن يقدم بن اقيس ، المعبر (ص ١٣٦) ، الاغانى (٤٠/١٤) ، البداية والنهاية ، لابن كثير (٢٣٠/٢) الميداني ، جميع الامثال (١١٧/١) .
- ٣ وفي بعضها بعض الاختلاف ، راجع :
الاصابة (٢٨٥/٥) ، « وقدّم وقد بكر بن وائل على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال له رجل منهم : هل تعرف قس بن ساعدة ؟ فقال رسول الله : ليس هو منكم » هذا رجل من اباد ، تحن في الجاهلية ، فوالى عكاظ والناس مجتمعون ، فيكلمهم بكلامه الذي حفظ عنه ، طبقات ابن سعد : الجزء الاول : القسم الثاني (ص ٥٥) ، « وقد بكر بن وائل » ، محاضر الايراز (ص ٤٨) وما بعدها ، البداية والنهاية (٢٣٠/٢) .

ومما بلغت النظر في الروايات الواردة عن حفظ الرسول لخطبة (قس) ، هو اشارتها الى أن النبي كان يحفظ نص الخطبة ، ولم يكن يحفظ الشعر الملحق بها . مع أن حفظ الشعر أسير من حفظ النثر . ولعل الرواة رويوا ذلك لإظهار أن الرسول كان لا يقول الشعر ، وإنما كان يسمعه . ولكتنا نجدهم من ناحية أخرى يروون أنه كان يتلو من الشعر المناسب ما شاء أن يتلو ، وأنه كان يستشهد به في كلامه ، وأنه كان يحفظ شيئاً من شعر الماضين والحاضرين . ولن يضير النبوة من حفظ الشعر شيئاً .

والنص المحفوظ لخطبة (قس) نص مختلف لم يتفق الرواة عليه . مما يدل على أنه لم يكن مدوناً ، وإنما روي بروايات مختلفة ، ثم دلت فيها بعدد .

وأوصل بعض الأخباريين قصاً الى القيصر ، فزعموا أنه ذهب إليه واتصل به ، وإن القيصر أكرمه وعظمه . وأنه سأله عن العلم قائلًا له : ما أفضل العلم ؟ قال : معرفة الرجل بنفسه . قال : فما أفضل العقل ؟ قال : وقوف المرء عند علمه . قال : فما أفضل الأدب ؟ قال : استبقاء الرجل ماء وجهه . قال : فما أفضل المروءة ؟ قال : قلة رغبة المرء في اختلاف وعده . قال : فما أفضل المال ؟ قال : ما قضى به الحق . وهو كلام ينبتك أسلوبه وطبيعته حسن أصله وقصده ، وله أصل يرجع الى الفلاسفة اليونان . ونسبوا له قبرا جعلوه في موضع (رَوْحِينَ) على مقربة من حلب في الحف جبل ينزل له ^١ .

وتجد حديث قيصر المزعوم مع (قس) ، في رواية أخرى على شكل آخر . وقد أملت هذه الرواية اسم قيصر . فلم تشر إليه ، واكتفت بلفظة (قبل) ، فقالت : « قبل لقبي بن ساعدة : ما أفضل المعرفة ؟ قال : معرفة الرجل بنفسه . قبل له : فما أفضل العلم ؟ قال : وقوف المرء عند علمه ! قبل له : فما أفضل المروءة ؟ قال استبقاء الرجل ماء وجهه » ^٢ .

وقس هو مخترع أوجد للعرب أشياء عديدة على زعم أهل الأخبار ، أحدث لهم أمورا كثيرة . فهو أول من آمن بالبعث من أهل الجاهلية ، وأول من نوکا

١ شعراء النصرانية (٢١١/٢) ، الامالي ، للقالى (٣٧/٣) ، دار الكتب ، ، العقد الفريد (٢٥٤/٢) وما بعدها ، ٢٩٠ وما بعدها .
٢ شعراء النصرانية (٢١٦/٢) ، الاغانى (٤٠/١٤) وما بعدها .
٣ العقد الفريد (٢٩٠/٢) وما بعدها .

عند خطبته على سيف أو عصا وأول من صلا على شرف وخطب عليه ، وأول من قال : « أما بعد » ، وأول من كتب « إلى فلان بن فلان »^١ . وأول من قال : « الينة على من ادعى واليمين على من أنكر » ، فكل ما عرفه العرب من هذه الأمور ، هو من صنعة قس وعمله . ثم انه كان أحد حكماء العرب ، وكان أسقف لبحران ، وخطيب العرب كافة^٢ . وذكروا ان له ولقومه فضيلة ليست لاحد من العرب ، لان الرسول روى كلامه وموقفه على جملة الاوراق بعكاظ وموخطه ، وعجب من حسن كلامه ، وأظهر تصريه^٣ ، وانه قال فيه : « يحشر أمة وحده »^٤ .

وجاء في رواية في تفسير قول الرسول : « يحشر أمة وحده » ، أو « برحم الله قساً » ، اني لأرجو ان يبعث يوم القيامة أمة واحدة ، ان وفداً من إباد قدم على النبي : فسألهم عن قس ، فقالوا : هلك . فقال : رحمه الله ، كأنني أنظر اليه يسوق عكاظ على جمل له أورق (أحمر) وهو يتكلم بكلام عليه حلاوة ما أوجدني أحفظه . فقال رجل من القوم ، أنا أحفظه يا رسول الله . سمعته يقول : ايها الناس اسمعوا وعوا ... إلى آخر الخطبة ، وما جاء بعدها من شعر ، فقال رسول الله عندئذ قوله المذكور فيه^٥ .

ويختلف هذا الخبر بعض الاختلاف مع خبر آخر أشرت اليه قبل قليل ، فقد ورد في ذلك الخبر أن رسول الله كان يحفظ تلك الخطبة ، غير أنه لم يكن يحفظ الايات الملحقة بها ، وكان (أبو بكر) يحفظها ، فأعادها على مسامعه^٦ . كما يختلف عن رواية أخرى ، جاء فيها ان الوفد الذي قدم على الرسول كان وفد (عبد القيس) ، وأن الذي قرأ الشعر عليه هو أحد بني عبد القيس^٧ .

- ١ المؤلف والمختلف . للمزباني (٣٢٨) ، بلسوغ الارب (٢٤٦/٢) ، الاغانى (٤٠/١٤) وما بعدها ، مروج الذهب (٨٢/١) ، (١٠٢/٢) ، (دار الاتدلس) ، البداية والنهاية (٢٣٠/٢) وما بعدها .
- ٢ النسان (٥٨/٨) . شعراء التصراية (٢١١/٢) .
- ٣ بلوغ الارب (٢٤٦/٢) .
- ٤ الاغانى (٤٠/١٤) .
- ٥ الاغانى (٤٠/١٤) وما بعدها ، المعارف (٦٦) ، البداية والنهاية (٢٣٠/٢) وما بعدها .
- ٦ البداية والنهاية (٢٣٠/٢) وما بعدها ، مجمع الامثال ، للميداني (١١٧/١) .
- ٧ البداية والنهاية (٢٣٠/٢) وما بعدها .

ويذكر بعض أهل الأخبار ، ان (الجارود) ، وكان في ضمن رجال وفد (عبد القيس) ، قال الرسول حين سأل عن (قس) : « فذاك أبي وأمي كلنا نعرفه ولاني من بينهم لعالم بخبره » ، واقف على أمره . كان قس يارسول الله سيعلاً من أسباط العمر عمر ستائة سنة ، تقفر منها خمسة أعمار في البراري والقفار . ثم أخذ في وصفه وفي ذكر عقائده ، وفي لقاء له (سمعان) رأس الحواريين . ويخلص بعد ذلك الى ذكر نص خطبته بسوق عكاظ ، ومطلعها : « شرق وغرب ، حتى انتهى منها » ، ثم ألحق بها شعراً^١ . وهي خطبة تختلف تماماً عن الخطبة المعروفة التي تنسب إليه ، وان كانت على نمطها من حيث الأسلوب والأفكار ، وفيها مصطلحات اسلامية ترد في القرن الكريم . ولا يستبعد ان تكون من وضع شخص آخر غير الجارود . وضعها في العصور العباسية ، للبحث على الزهد .

والجارود من سادات عبد القيس ، وكان نصرانياً ، قدم على النبي سنة عشر في وفد عبد القيس الأخير ، وسرّ الرسول بإسلامه ، وكان حسن الإسلام صلياً على دينه ، وقتل بأرض فارس في خلافة عمر ، وقيل بقي الى خلافة عثمان^٢ . ولو صح ما ذكروه من انه كان أسقفاً على نجران ، لوجب اخراجه اذن من الحنفية وإدخاله في عداد النصارى ، ولكن ليس مؤكداً انه كان أسقفاً على ذلك الموضع ، ويرى الأب (لامانس) احتمال كونه نصرانياً ، لان ما نسب إليه يبعث على هذا الظن^٣ . وقد أدخل الأب (لويس شيخو) قساً في جملة النصارى الجاهليين ، وأورد أكثر ما نسب إليه في ترجمته^٤ . غير ان كثيراً من هذا المنسوب اليه منسوب الى غيره . وقد اشار إلى من نسب اليهم العلماء .

وذهب (شبرنكر) إلى ان قساً كان من (الركوسية) ، وهم فرقة عرفهم أهل اللغة بأنهم بين النصارى والصابئين ، شملت جماعة من الحائرين في أمر دينهم ، ولذلك عمدوا إلى السياحة والترهب والازواء^٥ . وقد حسبهم العرب نصارى ، فأدخلوهم فيهم في أثناء كلامهم على هؤلاء^٦ .

١ البداية والنهاية (٢ / ٢٢٠ وما بعدها) .

٢ الاسابغة (١ / ٢١٧ وما بعدها) . (رقم ١٠٤٢) .

٣ Ency., II, p. 1181, Sprenger, Leben, I, S. 45.

٤ شعراء النصرانية (٢ / ٢١١ وما بعدها) .

٥ تاج العروس (٤ / ١٦٢) .

٦ Sprenger, Leben, I, S. 43.

ويرى (لامانس) انه لو كان قس شخصية تاريخية حقاً ، فإن زمانه لا يمكن ان يكون في ايام الرسول او في ايام مقاربة من ايامه ، إذ لا يعقل عنده ان يتكون هذا القصة الذي صير قساً شخصية من الشخصيات الخرافية ، لو كان من المعاصرين او المقاربين له . ثم إن اياً لم تكن في ايام الرسول كتلة واحدة ، حتى ينسب قس إليها . فلا بد إذن ان تكون ايام هذا الرجل بعيدة بعض البعد عن ايام الرسول^١ .

غير ان حجج (لامانس) المذكورة لا يمكن ان تكون سنداً يؤيد ادعائه في ان قساً كان شخصية خرافية ، او انه كان رجلاً حقاً ، ولكنه كان بعيد العهد عن الرسول . فقد روى الاخباريون قصصاً كثيراً عن سلمان الفارسي وعن غير سلمان من الصحابة ، لا يقل نسباً عن نسيج قصص قس ، فهل يتخذ هذا القصة حجة لانتكار شخصية سلمان وغيره ممن ورد هذا القصة عنهم ؟ وهل يجوز ان نقول إن سلمان إن كان شخصاً حقاً فوجب ان تكون ايامه بعيدة عن ايام الرسول.

ولدى الرواة آيات ينسبونها الى بعض الشعراء الجاهليين ، هم : الاعشى ، والخطباء ، ولبيد ، ذكر فيها اسم قس . وقد أشيد فيها بفصاحته وبلاغته وحكمته ، حتى جعل لبيد لقمان دون قس في الحكم^٢ .

وورد اسم (قس) في هذا الشعر وفي أمثاله إن صح انه من شعر الجاهليين حقاً ، وورود اسمه في الحديث وفي الاخبار ، هو تعبير عن رأي أهل الجاهلية في خطيب مقوه عد في نظرهم المثل الأعلى في الخطابة ومثل البلاغة عندهم فهو كشيوخ الخطباء عند اللاتين .

Ency. II, p. 1161.

١ قال لبيد :

وأخلف قساً ليثي ولعلني
الاصابة (٢٨٥/٥) « قس » ، قال الاعشى :
وأحلم من قس وأجسرى من الذي
وفي رواية أخرى :

وأحلم من قيس وأجره مقدما
لدى الدرع من لبت اذا راح حاردا
ديون الاعشى (ص ٤٩) « تحقيق
(ص ٣٣٨) ، وقال الخطباء :
وأقول من قس وأمضى اذا مضى
المؤلف والمختلف (ص ٣٣٨) .

وجميع هذا القصص المروي عن قس ، هو من النوع الذي يحتاج الى تمحيص .
وقد نسبوا اليه شعراً ، زعموا انه قاله وهو يكي بين قبرين بين بينهما مسجداً ،
هما قبرا لعمريه ، على حين ان أكثر الرواة يقولون ان هذا الشعر لغيره ، وان
قصة القبرين لا تخص قساً ، بل تخص أناساً آخرين ، وقد كانا في ابران وأصحابهما
قبرا فيها في الاسلام . ورواة هذا الخبر ، هم رواية خطبة قس الشهيرة ، وهم
محمد بن السائب الكلابي عن ابي صالح ابن عباس وسجاسة آخرون أشار (ابن
حجر) الى بعضهم في كتابه : « الإصابة في تمييز الصحابة » ، وقد ضعف
ابن حجر هذه الطرق ، فقال : « وقد أفرد بعض الرواة طريق حديث قس ،
وفيه شعره وخطبته ، وهو في الطولات للطبراني وغيرها . وطرقه كلها ضعيفة » .
ثم عرج بعد ذلك الى ذكر بعض الطرق التي وردت فيها خطبة قس .

واما (زيد بن عمرو بن ثعلب بن عبد العزى بن رياح بن عبد الله بن قرط
ابن رزاح بن عدي بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر) ، فهو من قريش
من بني عدي ، لم تعجبه عبادة قومه ، فانتقدها وسخطها وهزى عنها ووقف فلم
يدخل في يهودية ولا نصرانية ، وفارق دين قومه ، فاعتزل الاوثان ، ونهى عن
قتل المؤودة ، وامتنع من الذبح للأنساب ومن أكل الميتة والدم وما ذبح للأصنام .
فكان في آرائه هذه مثل نفر آخر من قريش منهم : ورقة بن نوفل وعثمان بن
الحويرث وعبد الله بن جحش ، لاموا قومهم على عبادتهم الأصنام ، واتخاذ
الانصاب وعبادة ما لا يضر ولا ينفع . وهم طائفة من المفكرين ، رأى بعضهم
بلاد الشام ، واتصل ببعض المبشرين النصارى ، ووقف على التطورات الفكرية في
الخارج ، ولعله كان يقرأ ويكتب ، وله اطلاع على مؤلفات في الفلسفة والدين .
وترجع احدي الروايات سبب خروج (زيد) على عبادة قومه ، انه حضر
 يوماً وحضر معه في ذلك اليوم (ورقة بن نوفل) ، و (عبد الله بن جحش)
و (عثمان بن الحويرث) ، عيداً من أعياد قريش ، عند صنم من أصنامهم ،

- ١ الاثني (٤٠/١٤ وما بعدها) ، الإصابة (٢٨٦/٥) .
- ٢ ابن هشام (٢٤٤/٦ وما بعدها) ، ارشاد الساري (١٩٠/٦) ، اسد الغابة (٢٣٦/٢) ، طبقات الشعراء (ص ٦٦) ، طبعة لندن ، البداية والنهاية (٢٣٧/٢) ، ابن خلدون ، القسم الاول ، المجلد الثاني (ص ٧٠٧) ، السعدي ، مروج (٧٠/١) ، محمد محيي الدين عبد الحمدي ، الاعرابي (١١٣/٣) ، البخاري (٥٠/٥) ، المعارف (٢٧) .

كانوا يعقلونه ، ويعكفون عنده ، او يدبرون به ، وكان ذلك عياداً لهم في كل سنة يوماً ، وكانوا ينحرون له ، فلما خلد بعضهم إلى بعض وتصادقوا ، قالوا ليكنم بعضكم على بعض ، وانفقوا على ذلك ، ثم قال قائلهم : تعلمون والله ما قولكم على شيء ، لقد أخطأوا دين ابراهيم وخالفوه . ما وثن يعبد؟ لا يضر ولا ينفع فابتغوا لأنفسكم فانكم والله ما أنتم على شيء . فخرجوا يطلبون ويسبرون في الارض يلتمسون اهل الكتاب ^١ .

وقد زار زيد الشام واللقاء ، وعاش الى خمس سنين قبل البعث ، فهو من أولئك الرهط الثائرين على قومهم ، والذين أدركوا أيام الرسول . وقد نسبوا اليه شعراً في تنفيه عبادة قومه ، وفي فراقه دينهم وما لقبه منهم . وكان قد أودى لثقافته هذه في دين قومه ، حتى اكراه على ترك مكة والتزول بـ (حراء) ، وكان (الخطاب بن قنيل) عمه ، وقد وكل به شباباً من شباب قريش وسفهاء من سفاهم كلفهم ألا يسمحوا له بدخول البلدة ومنعه من الاتصال بأهلها ، مخافة ان يفسد عليهم دينهم وان يتابعه احد منهم على فراق ما هم عليه . واضطر زيد الى العيشة في هذا المحل ، معتزلاً قومه ، إلا فترات ، كان يهرب خلالها سراً ، ليلذهب الى موطنه ومسكنه ، فكانوا اذا أحسوا بوجوده هناك ، آكلوه وآذوه ^٢ .

وورد في رواية ، يرجع روايتها منسجعة الى (هشام بن سعيد بن زيد بن عمرو ابن قنيل) ، اي الى حفيد (زيد) ، تذكر أن (زيد) خرج مع (ورقة ابن نوفل) يلتمسان الدين ، حتى انتهيا الى راهب بالموصل ، فسأله عن الدين ، فلم يقتنع بالنصرانية ، اما (ورقة) ، فافتتح بها وتصرع . وتذكر رواية أخرى ان (زيد بن عمرو) خرج الى الشام ومعه : (ورقة بن نوفل) ، و (عثمان ابن الحويرث) ، و (عبيد الله بن جحش) ^٣ . ويسذكر الرواة أن زيدا كان

- ١ البداية (٢٣٨/٢) ، ابن هشام - سيرة (٢٤٢/١) .
- ٢ ابن هشام (٢٤٠/١) وما بعدها (اليامي) ، بلوغ العرب (٢٥١/٢) وما بعدها . ابن سعد ، الطبقات (١٦٢/١) ، طبعة دار صادر ، مروج الذهب (٧٠/١) ، القاهرة ١٩٥٨ م . ، البداية (٢٣٨/٢) .
- ٣ البداية (٢٣٨/٢) .
- ٤ البداية (٢٤٣/٢) .

نديماً لورقة بن نوفل ، فات ورقة ، وخرج زيد الى الشام ، فقتله لحم وجلده^١.
ويذكر أهل الاعتبار ان حرصه على الخليفة وتمسكه الشديد بها ، حمله على
السفر إلى بلاد شامسة بحثاً عنها وعن مبادئها الصحيحة ، مبادئ ابراهيم الاصلية
الخالية من كل درن وشائبة . فذهب إلى الموصل والجزيرة ، ثم طاف في بلاد
الشام حتى انتهى إلى راهب بـ (ميقعة)^٢ (بيعة)^٣ من أرض البلقاء أو (أيلة) ،
فسأله عما قدم من أجله ، فأرشده إلى ان ما يبتغيه ويراها لا يجده في النصرانية ،
فغادره وتركه ، وعاد يريد مكة موطنه . فلما توسط بلاد لحم أو جلداه ، عدوا
عليه وقتلوه . وقالوا أيضاً انه اتقى في أثناء أسفاره هذه بأخبار اليهود وبعلماء من
النصارى ، ولكنه لم يجد عندهم ما يطمئن نفسه ، وما يرى فيه التوحيد
الحالص ، ومبادئ ابراهيم ، لذلك لم يدخل في ديانتهم ما من تلك الديانتين ،
حتى قتل^٤ .

وتذكر رواية من الروايات ، أن (زيد بن عمرو بن قبيل) مسات بالسم^٥
في بلاد الشام ، سمته بعض ملوك غسان . وتجعل رواية أخرى مقتله بمكان يقال
له (ميقعة) من أرض البلقاء بالشام ، وتذكر ان قتله هم من بني لحم^٦ .
وتذكر رواية ان (ورقة بن نوفل) ، لما سمع بخبر وفاته بكاه في شعر له^٧ .
وهناك روايات أخرى تفيد رجوع زيد الى قومه بعد عودته من الشام ، وفاته
وفاة طبيعية لا قتلاً بيد إنسان . توفي وفريش بني الكعبة قبل ان ينزل الوحي
على رسول الله بخمسين سنين ، ودفن بأصل حواء^٨ .

- ١ المحبر (١٧٥) .
- ٢ ابن هشام (٢٤٩/١) .
- ٣ «بيعة» ، البداية (٢٣٨/٢) .
- ٤ ابن هشام (٢٤٩/١) وما بعدها ، طبقات ابن سعد : الجزء الثالث : القسم الاول (ص ٢٧٦ وما بعدها) ، بلوغ الأرب (٢٥١/٢) وما بعدها ، «فلما توسط أرض جلداه عدوا عليه فقتلوه» ، المحبر (ص ١٧٢) ، سير أعلام النبلاء ، للذهبي (١/٩٠ وما بعدها) ، ابن خلدون (٧٠٧/٢) وما بعدها ، السموني ، مروج (٧٠/١) ، ارتداد الساري (١٧٢/٦) وما بعدها .
- ٥ السموني ، مروج (٥٦/٢) .
- ٦ البداية (٢٤١/٢) .
- ٧ ابن هشام (٢٤٩/١) وما بعدها .
- ٨ طبقات ابن سعد : الجزء الثالث : القسم الاول (ص ٢٧٧) ، البداية (٢٤١/٢) .

وفي رواية تظهر عليها سباه الصنعة ، أن الذي أرشد (زيد بن عمرو) إلى الخنيفة ، حبر النقي به في بلاد الشام ، وعالم نصراني ، وذلك أنه كان قد سألها عن دين صحيح قوم ، فأرشداه إلى الخنيفة دين إبراهيم . فدخل فيها وصار يرفع يديه إلى الله ويقول : اللهم إني أشهدك أنني على دين إبراهيم^١ . ونجد في هذه الرواية أسئلة وجهها (زيد) إلى الخبر في البحث عن الله وعن دينه الحق ، وأجوبة الخبر عليها . كما نجد أسئلة أخرى ذكر أنه وجهها إلى العالم النصراني ، ونجد أجوبة ذلك العالم عليها . وكيف أنها دلاء على الخنيفة^٢ .

وذكر (ابن حبيب) أن زيدا (أول من عاب على قريش ما هم عليه من عبادة الأوثان)^٣ . وقال عنه (ابن دريد) ، وكان قد ترك دين العرب في الجاهلية وقلاه^٤ . وقصد به (دين العرب) الوثنية ولا شك . وزعم أنه « كان يحب الموقودة . يقول للرجل إذا أراد أن يقتل ابنته مهلاً : لا تقتلها أنا أكفيك مؤنتها ، فإذا شرعرت قال لأبيها إن شئت دفعتها إليك ، وإن شئت كفيتك مؤنتها »^٥ . وقبل أنه كان يقول : « اللهم لو أصلم لي الوجه أحب إليك سجدت إليه . ولكني لا أعلمه » ثم يسجد على راحته^٦ . وأنه كان يقول : إلهي إله إبراهيم ، وديني دين إبراهيم . وكان يعيب على قريش ذبائحهم ويقول : الشاة خلقها الله وأزل لها من السماء ماء وأبنت لها من الأرض ، ثم تدبحونها على غير اسم الله تعالى ! اتكساراً لذلك واعظاً ما له^٧ . أو « يا معشر قريش : أيرسل الله قطر السماء ، وبنت بقل الأرض ، ويخلق السائمة فرعى فيه ، وتدبحوها لغيره ! والله ما أعلم على ظهر الأرض أحداً على دين إبراهيم غيري »^٨ . ويستقبل القبلة ثم يقول :

- ١ الطبري ، تفسير (٣/٣٠٦) . صحيح البخاري (٥/٥٠) . مطبعة الأزهر بمصر .
- ٢ الأغانى (٣/١٢٦) وما بعدها . دار الكتب المصرية . البداية (٢/٢٢٨) .
- ٣ الخبر (ص ١٧١) .
- ٤ الاشتقاق (ص ١٠٣) .
- ٥ طبقات ابن سعد . الجزء الثالث : القسم الأول (ص ٢٧٦ وما بعدها) .
- ٦ الخبر (ص ١٧١) .
- ٧ أسد الغابة (٢/٢٣٦) . طبقات الشعراء (٦٦) . طبعة لندن . « بلسوغ العرب (٢/٢٤٨) . البداية والنهاية (٢/٢٣٧) . إرشاد الساري (٦/١٧٦) وما بعدها .
- ٨ الأغانى (٣/١١٩) وما بعدها .

أنني لرب اليت عانٍ والهم مها يُجشني فإني جاشم
 حلت بحا عاذ به إبراهيم مستقبل القبة وهو قائم

وروى ابن أسماء بنت أبي بكر : قالت : لقد رأيت زيد بن عمرو بن نفيل
 مسنداً ظهره الى الكعبة يقول : يا معشر قريش والذي تقس زيد بيده ما أصبح
 أحد منكم على دين إبراهيم خيري . ثم يقول : اللهم اني لو أعلم أحب الوجوه
 إليك عبدتك به . ولكني لا أعلم . ثم يسجد على راحته .^١ ثم يصلي الى الكعبة
 ويقول : إلهي إله إبراهيم ، ودينني دين إبراهيم .^٢

وذكر (ابن دريد) أن (زيد بن عمرو بن نفيل) ، أدرك أيام الرسول ،
 ثم قال : « وكان النبي عليه الصلاة والسلام قبل الوحي قد حجب إليه الأفراد ،
 فكان يخلو في شعاب مكة ، قال : فرأيت زيد بن عمرو بن نفيل في بعض
 الشعاب ، وكان قد نثر أدباً ، فجلبت إليه وقرت إليه طعاماً فيه لحم ،
 فقال لي يا ابن أخي اني لا آكل من هذه الذبائح »^٣ .

وذكر (ابن دريد) ، أن زيد بن عمرو قال شعراً في تجنبه الأصنام ، هو :

فلا عزى أدنين ولا ابتنيها ولا صنم بني عمرو أزور
 أرباً واحداً أم ألف رب أدنين اذا تقست الأمور^٤

ويقوم من هذا الشعر أن (عزى) ، إلهة ، أي التي ، وإن لها ابنتين اثنتين.
 ولم يشر (ابن دريد) الى اسميهما .

وقد صيغت الرواية المتقدمة التي تشير الى التفاء الرسول يزيد في شكل آخر .
 صيغت بهذه الصورة : « أنى زيد بن عمرو بن نفيل على رسول الله صلى الله

١ كتاب نسب قريش ، للزبيري (ص ٣٦٤) .
 ٢ البداية (٢٣٧/٢) ، الذهبى ، تاريخ الاسلام (٥٤/١) - البغدادي ، خزائن
 (١٩٩/٣) .

٣ المصدر نفسه .

٤ الاشتقاق (٨٤) ، ارشاد الساري (١٧١/٦) وما بعدها .

الاشتقاق (٨٤) ، وورد :

أرباً واحداً أم ألف رب عزلت السلات والعزى جميعاً
 أدنين اذا تقست الامور كذلك يعال الجلد الصبور
 ولا صنم بني عمرو أزور ولا صنم بني عسرو أزور

عليه وسلم ، ومعه زيد بن حارثة ، وهما يأكلان من سُفرة لها ، فدعواهما
 لعلامهما ، فقال زيد بن عمرو: يا ابن أخي : أنا لا آكل مما ذبح على النصب^١ .
 وورد خبر النقاء (زيد) مع رسول الله في رواية أخرى . يرجع روايتها
 مستنداً الى (زيد بن حارثة) . يذكرون أنه قال : خرجت مع رسول الله في
 يوم حار من أيام مكة ، وهو مردقي ، فلقينا زيد بن عمرو بن نفيل ، فحبسا
 كل منا صاحبه . فقال النبي : يا زيد مالي أرى قومك قد شقوك ؟ فأجابته
 زيد ، بأنه لا بهم بملك ، وأنه خرج يستغي دين الله ، حتى قدم على أحبار
 عيبر ، فوجدتهم يعبدون الله ويشركون به . ثم سأل أحد الأحبار ، وهو شيخ
 منهم عن الدين الذي يتبعه ، فقال له : ما نعلم أحد يعبد الله به إلا شيعاً بالخيرة ،
 فخرج اليه . فلما كلمه قال له : إن الذي تطلب قد ظهر ببلادك قد بعث نبي ،
 قد طلع نجمه . فعاد الى مكة^٢ . ولو صح هذا الخبر لوجب أن يكون زيد قد
 أدرك بعث الرسول . ولكن أهل الأخبار مجمعون على أنه توفي قبل البعث .
 وإن الرسول نفسه قال عنه : بعث يوم القيامة أمة واحدة . وعلى الخبر سباه
 الصنعة والتزييق .

وروي عنه أن قومه كانوا إذا دعوه الى وليمة ، كان يأبى أن يأكل منها
 قائلاً : " إني لست آكل مما تدعون على أنصابكم ولا آكل إلا ما ذكر اسم
 الله عليه " . وهكذا كان يقاطع أكل لحوم الحيوانات التي تذبح للأصنام .
 ويشاركه في الامتناع عن أكل لحوم هذه الذبائح الأحناف الآخرون ، فقد روي
 أن ورقة بن نوفل كان لا يأكل من لحوم هذه الذبائح أيضاً للسبب المذكور^٣ .
 ويذكر أهل الأخبار أن (زيد بن عمرو بن نفيل) كان إذا خلص الى البيت
 استقبله ثم قال : ليك حقاً حقاً ، تعبدوا ورعاً ، البر أرجو لا الخال ، وهمل
 مهجر لمن قال . ثم يقول :

عذت بما عاذ به ابراهيم مستقبل الكعبة وهو قائم^٤

- | | |
|---|---------------------------|
| ١ | البداية (٢٣٨/٢ ، ٢٤٠) . |
| ٢ | أسد الغابة (٢٣١/٢) . |
| ٣ | البيهقي (٥٠/٥) . |
| ٤ | اللائعاني (١١٩/٣) . |
| ٥ | اللائعاني (١١٧/٣) . |

أو : ليك حقاً ، تعبداً ورقاً ، عذت بما عاذ به إبراهيم ^١ .
 وذكر أنه كان يأمر بالتوحيد وعبادة إله واحد . من ذلك قوله :

لا تعبدن^٢ إلهاً غير خالفكم وإن دعيتم فقولوا دونه حدد^٣

وزعم أنه كان يراقب الشمس ، فإذا زالت استقبل الكعبة ، فصل وسجد سجدتين ، ثم يقول : هذه قبلة إبراهيم وإسماعيل لا أعبد حجراً ولا أصلي له ولا آكل ما ذبح له ، ولا أستقسم بالأزلام ، وإنما أصلي لهذا البيت حتى أموت . وكان يحج فيقف بعرفة ، وكان يلبي ، فيقول : ليك لا شريك لك ، ولا تد لك . ثم يدفع من عرفة ماشياً ، وهو يقول : ليك تعبداً مرفوقاً^٤ .

ويروي أهل الأخبار أقوالاً أخرى لزيد ، كما رويوا له أشعاراً زعموا أنه قالها ، وهي في هذه الأمور التي ينسبونها إلى الأحناف من فكر لديانة إبراهيم والتوحيد ومن ذم إلى الأصنام ومن اصلاح لحال مجتمع ذلك اليوم^٥ . كما روي له أبياتاً من شعر زعموا أنه نظمها يعاتب فيه زوجته (صفية بنت الحضرمي) ، لأنها كانت تمنع في غروجه عن مكة وفي سفره إلى الخارج التماساً لهذا الدين^٦ .

وتفيد رواية من روايات أهل الأخبار بأن (زيد بن عمرو بن نفيل) ، كان في جملة من اشترك في (حرب القجار) ، تقول إنه كان على رأس (بني عدي) وذلك في يوم شطة^٧ .

وروي أن رسول الله سئل عن (زيد بن عمرو) ، فقال : « يبعث أمّة وحده يوم القيامة »^٨ . بل روي أنه ترحم عليه ، وأنه قال : « رأيت في الجنة يسحب ذبولاً »^٩ .

-
- | | |
|---|--|
| ١ | الأنثامي (٢٣٨/٢) . |
| ٢ | تاج العروس (٣٣١/٢) . (حدد) . |
| ٣ | البداية (٢٣٩/٢) . |
| ٤ | الأنثامي (١١٧/٣) . |
| ٥ | ابن هشام ، سيرة (٢٤٧/١) . |
| ٦ | البلاذري ، أنساب (١٠٢/١) . |
| ٧ | البخاري (٥٠/٥) . المعارف (٢٧) . البغدادي ، خزائن (١٠٠/٣) . |
| ٨ | ابن سعد ، طبقات (٢٧٣/٣) . |

وينسب أهل الأخبار لزيد شعراً، هو من هذا الشعر الذي ينسبونه إلى الأحناف،
 ذي الطابع الديني، من بحث عن توحيد، وحث على عبادة إله واحد، وإقرار
 بحساب وكتاب. وأمثال ذلك. وقد نسب بعض منته إلى (أمية بن أبي الصلت)،
 ونسب بعض منته إلى شعراء آخرين. كما أن الرواة يروون هذا الشعر بقراءات
 مختلفة.

ومن ولد زيد رجل كان له سبق وقدم في الإسلام، هو سعيد بن زيد بن
 عمرو بن نفيل. كان من السابقين الأولين ومن المهاجرين، شهد المشاهد والأحداث
 المهمة، إلا بلداً، فإنه لم يكن حاضراً بالمدينة إذ ذاك. وهو أحد العشرة
 المبشرة. ذكر الله أسلم قبل دخول رسول الله دار الأرقم. ولا بد أن يكون
 لرأي والده في دين قومه وما أبداه من ثورة صريحة جاحدة على عقائدهم أثر في
 نشوء هذا الابن وفي اقتناعه مع السابقين على الدخول في الإسلام، بعد أن كان
 والده قد سبق لإسلامه برحيله إلى الآخرة بسنين. وأمه (فاطمة بنت يعجة بن
 أمية بن خويلد بن خالد بن اليعمر) من خزاعة. ولسعيد أخت اسمها عاتكة
 بنت زيد.

وذكر (ابن هشام) أن زيد بن عمرو بن نفيل، وورقة بن نوفل،
 وعبيد الله بن جحش، وعثمان بن الحويرث، اتفقوا في الرأي والمقيدة،
 وتعاملوا على تبذير عبادة قومهم وما كانوا عليه من ضلال، وتصادقوا، وكونوا
 صبية خرجت على عبادة قريش، فلم يشتركوا معهم في أعيادهم، ولم يشاركوهم
 في عيادتهم، وظلوا حتى ماتوا عن عبادة قومهم صابرين.

أما عبيد الله بن جحش بن رثاب بن أسد بن عبد العزى بن قصي، فقد
 بقي مرتاباً في دين قومه، بعيداً عنهم وعن عيادتهم، حتى إذا ظهر الإسلام
 دخل فيه، ثم هاجر مع من هاجر إلى الحبشة، ومعه امرأته أم حبيبة بنت
 أبي سفيان، وكانت مسلمة كذلك. فلما صار في الحبشة، فارق الإسلام

- ١ البداية (٢/٢٤١ وما بعدها).
- ٢ كتاب نسب قريش (٣٦٥)، الاستيعاب (٤/٣٦٥)، الإصابة (٢/٤٤)، (رقم ٣٢٦١).
- ٣ ابن هشام (٢٤٢/١) = طبعة محمد محيي الدين عبد الحميد، المحير (١٧١)،
 (١٧٥، ٢٢٧)، الروض الأنف (١/١٤٥).

وتنصر ، وهلك هناك ^١ .

وأما عثمان بن الحويرث ، فقد بقي مغاضباً قومه في دينهم ، ثم رأى النعاب
الى الروم ، فذهب اليهم ، وتقرب الى قيصر ، وحسنت منزلته عنده ، وتنصر
ومنحه لقب (بطريق) ، وأراد تنصيبه ملكاً على مكة ، ولكن قومه أبوا عليه
ذلك ، فلم يتم له مراده ، ومات بالشأم مسموماً ، سمّه عمرو بن جفنة الغساني ^٢ .
وذكر (الزبيرى) ، أن والدته (عثمان بن الحويرث) ، هي (نخضر بنت
عمر بن أبيب بن حنيفة بن جمح) ^٣ . وأنه خرج الى (قيصر) فسأله أن يملكه
على قريش ، وقال : أحلهم على دينك ، فيدخلون في طاعتك ، ففعل . وكتب
له عهداً وختمه بالذهب ، فهابت قريش قيصر ، وهربوا أن يدينوا له ، ثم قام
الأسود بن المطلب أبو زمعة ، فصاح ، والناس في الطواف : إن قريشاً لفاح ،
لا تملك ولا تملك . فاتت قريش على كلامه ، ومنعوا عثمان مما جاء له ،
فأتى عند ابن جفنة ، فأنهت بنو أسد ابن جفنة بقتله ^٤ . وكان ابن جفنة
حسب أبا ذئب عنده ، وأبا أبيحة بسبب عثمان بن الحويرث ^٥ . ويفصلون بين
جفنة : عمرو بن جفنة الغساني ^٦ .

وتذكر إحدى الروايات ، أن وفاة (عثمان بن الحويرث) كانت بالشأم ،
وقد مات عند قيصر ، وكانت وفاته قبل المبعث بثلاثين سنة ، أو نحوها . وقد
رواه (زيد بن عمرو بن ثعلبة) ^٧ ، وورقة بن نوفل ^٨ .

وبعد (عثمان بن الحويرث) من أشراف (بنو أسد) من قريش ^٩ . وقد
كان مع (نحويلد بن أسد) على رأس (بنو أسد) في (حرب الفجار) ^{١٠} .

١ ابن هشام (٢٤٤/١) . المعبر ٧٦ ، ٨٨ ، ١٧٢ ، ١٧٣ ، البداية (٢٤٣/٢) .
L. Krehl, Das Leben Muhammad, S. 14.

٢ ابن هشام (٢٤٣/١) . الاشتقاق (ص ٥٩) ، المعبر (١٦٥ ، ١٧٠ ، ١٧١ ،
١٧٥ ، ٣٠٧) ، الروض الاتف (١٤٦/١) .

٣ كتاب نسب قريش (٢٠٩ وما بعدها) ، وذكر صاحب المعبر ، أن أمه من
الجبشيات (٣٠٧) .

٤ كتاب نسب قريش (٢١٠) .

٥ جمهرة ابن حزم (١٩٠) .

٦ البداية (٢٤٣/٢) .

٧ كتاب نسب قريش (٢١٠) .

٨ المعبر (١٦٥) .

٩ المعبر (١٧٠) .

وكان ينادمه (شبية بن ربيعة بن عبد شمس) . وقد تنصرا جميعاً ، وقتل شبية يوم بدر كافراً^١ .

وأما (أمية بن أبي الصلت) ، فهو أحسن الخفاء حفظاً في بقائه الذكر ، بقي كثيراً من شعره ، وربما وضع كثير منه على لسانه ، وحفظ قسط لا بأس به من أخباره . وسبب ذلك يفاؤه إلى ما بعد البعث ، واتصاله بتاريخ النبوة والاسلام اتصالاً مباشراً وملاءمة شعره بوجه عام لروح الاسلام . لم يكن مسلماً ولم يرض أن يتصل في الاسلام ، لأنه كان يأمل أن تكون النبوة فيه ، وأن يتزل الوحي عليه ، فيكون نبي العرب والعالم أجمعين . فلما رأى النبوة في الرسول ، حسده ، وأثار المشركين عليه ، ورثى قتلاهم في معركة بدر ، وحرض قريشاً عليه ، حتى مات على حسده وعناده سنة تسع للهجرة بالطائف قبل أن يسلم قومه القنفزيون . لم يمت مسلماً ، ولم يمت على دين الوثنيين من قومه : بل مات كافراً بالذباثنين^٢ .

وقد جاء في بعض الروايات ، ان وفاة (أمية) ، كانت في السنة الثانية من الهجرة^٣ . وورد في روايات أخرى أنه توفي سنة تسع للهجرة ، كافراً قبل أن يسلم القنفزيون^٤ .

ورثاؤه قتل معركة بدر ، محفوظ في قصيدة حالية ، مطلعها :

ألا يكت على الكسرا م بني الكرام أولى المادح
كبكا الحلام على فرو ع الأيك في الغصن الصوادح

- ١ المحبر (١٧٥) .
- ٢ الأغاني (١٢٠/٤) وما بعدها ، ، طبعة دار الكتب المصرية ، ، ابن هشام (١١/١) ، ٤٨ ، ٦١ ، ٦٣ ، ٦٨ ، (١٦٠/٢) ، ٣٢١ ، ٤٠١ ، ٤٠٦ ، (٦٥/٣) ، ، طبعة محمد محيي الدين عبد الحميد ، ، شرح السيرة النبوية ، لابي ذر بن محمد بن مسعود الخشني (٢٤ ، ٢٣/١) ، ، تحقيق بولس بروفله ، نسب قريش (٩٨) ، ، جمهرة الانساب (٢٥٧) ، ابن قتيبة ، الشعراء (٤٢٩) ، شعراء النصرانية (٢١٩/٢) وما بعدها ، ، الأغاني (٦٩/١٦) ، الحيوان للجاحظ (٣٢٠/٢) ، خزائن الادب (١١٩/١) ، الشعر والسعراء (١٧٦) ، النوري ، تهذيب الاسماء (١٣٦/١) ، Enay. IV, p. 997.
- ٣ تاريخ الخميس (٤١٢/١) ، الأغاني (١٢٤/٤ ، ١٢٩) ، الشعراء والشعراء (٣٦٩/١) .
- ٤ الاساية (١٣٤/١) ، (رقم ٥٥٢) .

وهي قصيدة يتوجع فيها أمية لسقوط قتل المشركين ، ودفعهم بالقلب ، وفيهم (عتبة) و (شيبه) ابنا (ربيعة بن عبد شمس) ، وهما ابنا خالة أمية . وقد ذكر بعض الرواة ان الذي حمله على قول هذا الشعر ، هو انه لما وصل الى القلب موضع مدفن قتل قريش في بدر ، وكان ذاهباً الى المدينة يريد الدخول في الاسلام ، قال له بعض من كان معه من غلاظ الأكلاب من المشركين : هل تدري ما في هذا القلب ؟ قال : لا . قيل : فيه شيبه وربيعة وفلان وفلان . فجدع أنف ناقته ، وشق ثوبه ، وبكى ، وعاد الى الطائف^١ .

وذكر ان أمية نال في بيتين من هذه القصيدة من أصحاب رسول الله ، ولذلك أهملها (ابن هشام) صاحب السيرة^٢ . وذكر أيضاً ان الذي نسي عن روايتها^٣ . ولكن الرواة رووها وحفظوها ودوتوها في الكتب ، فكيف تجرؤوا على حذفها وتدوينها لو صح ان الذي نسي عن روايتها على نحو ما يزعمه أهل الأخبار .

ولامية مثل سائر المؤلفين الآخرين من طبقة الحنفاء ، سافر الى الشام ، واتصل بأهلها ، وأوى الى الأديرة ورجال الدين يسأل منهم عما يهمه من مشكلات دينية وما كان يحول في خاطره من عبادة قومه وحقيقة العالم . وكان تاجراً ، يلعب مع التجار في قوافلهم الى تلك السيل التي كانت في أيدي الروم . ثم إنه كان على ما يظهر من الروايات التي وردت في ترجمته وسيرته قارئاً كاتباً ، قرأ الكتب ، ووقف عليها ، ومنها ومن اتصالة برجال الدين وبأهل الكتاب تكونت عنده فكرته عن الدين ، وشكته في عبادة قومه وفيما كانوا عليه من عقائد وعبادات . وقد بدا هذا التأثير في الكلمات والمصطلحات الأعجمية والغريبة المستعملة في شعره وفي الأمثلة والقصص المنتزع من الكتابين : للعهد القديم والعهد الجديد ومن موارد

- ١ ابن هشام (٤٠١/٢ وما بعدها) ، راجع القصيدة في (ص ٢٠) من ديوان أمية ، بيروت ١٩٣٤ ، بلوغ الأرب (٢٥٦/٢) ، خزانة الأدب (١١٩/١) ، الحيوان ، للجاحظ (٣٢٠/٢) ، الشعر والشعراء (١٧٦) ، البيان والنبين (٢٩١/١) ، السعدي ، مروج (٧٣/١) ، محمد محيي الدين عبد الحميد ، ١٩٥٨ م ، الأغاني (١١٩/٣ وما بعدها) ، خزانة الأدب (٣٩/٢ وما بعدها) ، الأغاني (٤/١٢٢) ، الإصابة (١٣٤/١) ، (رقم ٥٥٢) .
- ٢ ابن هشام (٤٠٥/٢) .
- ٣ الأغاني (١٢٣/٤) ، ذكر أمية بن أبي الصلت ونسبه وخبره ، بروكلمان ، تاريخ الأدب العربي (١١٣/١) .

أخرى عديدة من الموارد الشائعة المستعملة عند أهل الكتاب^١ .
وقد ورد في بعض الأخبار أن أمية سافر مرة مع أبي سفيان والد معاوية في
تجارة إلى بلاد الشام ، فكسب كلهما ثل من ثل أخذ فيه سفرأ له يقرأه على من
معه ، كما كان يزور علماء النصارى ويتباحث معهم ، وكان يلبس ثوبين أسودين
حيناً يثيابهم^٢ . ولم تذكر الرواية شيئاً عن السفر أو الأسفار التي كان يقرأ منها
أمية ويشرحها لمن معه من النصارى . وتذكر رواية أخرى أنه كان قد بلغ مع
(أبي سفيان) غزة أو (إيلياء)^٣ .

ولأمية في هذا اليوم ديوان ضم أكثر ما نسب إليه من شعر . كما أن في بطون
كتب الأدب والأخبار أشعاراً أخرى لم يرد لها ذكر في هذا الديوان . ومعظم
شعره هو عن الدين والآخرة وعن الجنة والنار والحساب والكتاب ، وقد تضمن
إشارات إلى حوادث وقعت في أيامه ، أو في أيام قريبة من أيامه مثل قصة القيل ،
كما تضمن بعض قصص الأنبياء ، ولتعرض شعره إلى هذه النواحي نعت بشاعر
الآخرة^٤ .

ومما ذكره الأخباريون ورواة شعر أمية من أمثلة على استعماله للكلم الغريب ،
أنه استعمل (الساهور) لقمر ، وهي كلمة لا تعرفها العرب ، وأنه ذكر
(السلطيط) ، اسماً لله تعالى . وأنه أطلق كلمة (الثغور) على الله تعالى في
موضع آخر من شعره ، وأنه سمى السماء (صاقورة) و (حاقورة) وأنه استعمل
أشياء أخرى من هذا القبيل . ولولاه هذا باستعمال الغريب ، رفض علماء اللغة
الاحتجاج بشعره^٥ .

- ١ الاغانى (١٢١/٤ وما بعدها) ، طبعة دار الكتب المصرية . . . وكان يحكى فسي
شعره قصص الانبياء . ويأتى بالفاظ كثيرة لا تعرفها العرب . ياخذها من الكتب
المنقمة . أو بأحاديث من أحاديث أهل الكتاب . الشعر والشعراء (٣٦٩/١) .
- ٢ البداية والنهاية . لابن كثير (٢٢٠/٢) . الاغانى (١٢٣/٤ وما بعدها) . (دار
الكتب المصرية) .
- ٣ البداية والنهاية (٢٢٤/٢) .
- ٤ تاريخ الادب العربي ، لبروكلمن (١١٣/١) . الترجمة العربية . عيون الاخبار ،
لابن قنينة (٣٧٤/٦) . الحيوان (٣٢١/٧) . عبد السلام محمد هارون ،
البيان والنبين (٢٩١/١) .
- ٥ الاغانى (١٢١/٤ وما بعدها) . شعراء النصرانية (٢١٩/٢) . ديوان أمية
تحويل الشعراء . . . جمع بشير يموت . بيروت ١٩٣٤ م . (ص ٥ وما بعدها) .
سيرة ابن هشام (٤٨/١) .

والساحور ، كلمة آرامية الأصل من أصل (سهر) Sahro ، بمعنى القمر ، أي تماماً بالمعنى الوارد في شعر أمية^١ .

وهذا الشعر المنسوب إلى أمية وغريبه خاصة مادة مهمة جداً يجب دراستها بعناية ، لمعرفة مبلغ صحة ما جاء في أخبار الرواة عن هذه الكلمات وعن أصولها ومواردها الأولى ، إن صح أنها من أشعار تلك الأيام حقاً ، إذ ترشدنا أمثال هذه الدراسات إلى معرفة المنابع التي استقى منها هذا الشاعر علمه وإلهامه ومدى تأثيره وتأثر أمثاله من الجاهليين بالآراء والنباتات الفكرية التي كانت في مكة وفي خارج جزيرة العرب قبل الإسلام .

وقد روى الأخباريون قصصاً عن التفاء أمية بالرهبان ، وعن توسمهم معالم النبوة فيه ، فكأنوا يسألونه أسئلة تستخرج من أجوبتها في نظريهم معالم النبوة . فلما كانوا يقفون على الأجوبة ، يقولون له : كادت النبوة تكون فيه ، لولا بعض النقص في علاماتها عنده ، كما رووا قصصاً عن شق طيرين لقلب هذا الشاعر ، لتطليعه ، وثبته النبوة فيه . ولكنها عندما وقفنا عليه لم نجد أن النبوة خلقت له^٢ . وقد حاكى أهل الأخبار في قصصهم هذا ما رواه رجال السير عن علامات النبوة عند الرسول^٣ . كذلك رووا أنه كان يغمس في لغات الحيوانات ، فيعرف ما تقول وما تريد ويقصه على الناس وأنه كان يسخر الجن^٤ ، وكانت تطيعه ، وأنه نبأ بموته حينما تعب عليه الغراب^٥ . فجعلوه بأخبارهم هذه في مرتبة تضاهي سليمان في علمه بمتعلق الطير وبقية الحيوانات^٦ . وذكر (ابن دريد) : « كان بعض العلماء يقول له لولا النبي صلى الله عليه وسلم ، لادعت ثقيف أن أمية نبي ، لأنه قد دارس النصارى وقرأ معهم ، ودارس اليهود وكل الكتب لمراً^٧ » .

ونسب قصة تنظيف الطيرين لقلب أمية ، وهي القصة التي أشرت إليها قبل

١ - الخرائب اللغة العربية (ص ١٨٩) .

٢ - الإلهام (١٢٣/٤ وما بعدها) ، شعراء النصرانية ، الجزء الثاني (ص ٢١٩) . ابن سلام ، طبقات فحول الشعراء (٢٢٠ وما بعدها) ، دار المعارف .

٣ - Sprenger, Leben, I, S. 119, M. de Duart, Le Livre de la Création et de L'histoire, I, pp. 96, 153, 155, 156, 190, 191, 196.

٤ - البداية والنهاية (٢٢٧/٢ وما بعدها) .

٥ - النمل ، الآية ١٥ وما بعدها .

٦ - الاشتقاق (ص ١٨٤) .

قليل ، خبر (حليمة السعدية) مرضعة الرسول لصبر النبي . ورواة قصة شق صدر أمية وتنظيف قلبه هم من أهل الطائفة ، ويرجعون سند قصتهم الى أخت أمية المسماة (القارعة) ، « وكانت ذات لب » وعقل وجبال ، وكان رسول الله ، صل الله عليه وسلم بها معجباً^١ ، وقد وفدت عليه ، فلما سألتها عن شعر أخيها كما يقول الرواة ، قصت عليه قصة الطيرين ، كما قصت عليه قصة وفاته ، فقال رسول الله : « ان مثل أخيك كمثل الذي آناه الله آياته فانسلخ منها »^٢ . ويشير القصص الوارد عن التقاء (أمية) بالأخبار وبالرهبان وبانصافهم بهم ، الى أن أمية كان يرجو ان يكون نبياً ، وأنه كان يعتقد بقرب ظهور نبي وأنمله أن يكون هو ذلك النبي المرغى :

ألا نبيّ منّا فيخبرنا ما بعد غابتنا من رأس مجراتنا^٣

وقد كشف ونلم كثيراً وأكل الحسد قلبه ، حين قلت الأمر منه ، اذ سمع بإعلان الرسول رسالته ، ودعوة الناس الى دين الله ، الذي كان أمية نفسه يدعو اليه . وقد ورد أنه لما سمع بنبوة الرسول قال : « إنما كنت أرجو ان اكونه »^٤ . ويروي أهل الأخبار أن أمية كان قد مات وهو معتقد بأن الحنيفة حق إذ روى أنه قال في مرض موته : « قد دنا أجلي ، وهذه المرضة فيها مني وأنا أعلم ان الحنيفة حق ، ولكن الشك بداخلي في محمد . وقال : لا يرى فأعترف ولا قوي فأنتصر » .

وفي جملة ما روي عنه ، انه عرف محبي يومه من لعب غراب ، لعب على مقربة منه . فحدث القوم بما سمعه من الغراب ، وكان يعرف منطقته ، وقال لهم

- ١ البداية والنهاية (٢٢٤/٢ وما بعدها) .
- ٢ البداية والنهاية (٢٢٤/٢ وما بعدها) . تهذيب ابن عساكر (١٢٧/٣) ، مروج (٥٧/١ وما بعدها) ، الطبرسي ، مجمع (٦٣/٧ وما بعدها) ، الطبري ، تفسير (١٢١/٩) « طبعة الباي » ، تفسير ابن كثير (٢٦٤/٢) ، شرح الشهاب على البيضاوي (٢٣٦/٤) .
- ٣ البداية والنهاية (٢٢٧/٢) تهذيب ابن عساكر (١٢٧/٣) ، تاريخ الخميس (٤١٢/١) .
- ٤ الاقاني (١٢٣/٤ وما بعدها) .

أنه سيوت وذكر علامة ذلك ، فكان أن مات على نحو ما قال للقوم^١ . وذكر أيضاً أنه لما كان على فراش الموت مختصراً أفاق عدة مرات ، وكان يتلو في كل مرة : « ليكن ليبيكني ، ها أنذا لديكني » ، ثم يتلو هذا الكلام بكلام آخر فيه توسل وتضرع إلى الإله ، إلى أن أفاق للمرة الأخيرة ، فقال شعراً يبين فيه أن الموت أمر لا بد منه ، وأنه هالك في هذه المرة لا محالة ، ثم هلك ، دون أن يؤمن بالرسول^٢ .

وهذا القصص الواردة عن أمية ، هو - بالطبع - من القصص المصنوع الموضوع ، مثل كثير من أخباره وأخبار غيره ، قص على ذوي القلوب العظيمة من الرواة والأخباريين ، فأخذوه ونقلوه كما نقلوا ما شاء الله من الأساطيل والأساطير ، وروي على أنه مما كان يعلمه الأخبار والرهبان والخاصة من أهل الكتاب .

ولا أستبعد أن يكون هذا القصص قد ظهر في أيام الحجاج عصبية وتقرباً إليه ، فقد كان الحجاج من ثقيف ، وكان أمية من ثقيف كذلك . وقد أنتج الوضاحون في أيامه شيئاً كثيراً من الأخبار في قبيلة ثقيف ، كما أنتجوا شيئاً في ذمها وفي ذم رجالها نكابة به .

وقد يكون في قول (الحجاج) حين مثل عن شعر أمية ، شيء من التوجع والتألم أو المبالغة في تقديره حين قال : « ذهب قوم يعرفون شعر أمية ، وكذلك اندراس الكلام » . وقد يكون كلام الحجاج غير ذلك ، لو كان أمية من قبيلة أخرى .

ونحن نستطيع ادخال قول من قال عن (أمية) « قبل الله كان نبياً »^٣ في جملة هذه الدعاوى التي وضعت في هذا العهد ، للرفع من شأن (ثقيف) ومن الرد على التهجمين عليها الطاعنين حتى في نسبها الذين جعلوا (ثقيفاً) من بقية (نمود) ، وأبدوا قولهم هنا بحديث زعموا أن الرسول قاله : « ثقيف من

١ البداية والنهاية (٢٢٧/٢) .
٢ الأغاني (١٢٥/٤) وما بعدها . ابن سلام ، طبقات فحول (ص ٢٢٠ وما بعدها) .
٣ الإصابة (١٣٤/١) . (رقم ٥٥٢) .
٤ تهذيب ابن عساکر (١١٥/٣) .

ثمود^١ ، وجعلوه من عبد لأبي رغال ، وأبو رغال نفسه الذي نسب عبده إليه ، أي جد ثقيف ، هو في نظر العرب وقريش خاصة سبة^٢ .

ويذكرون عنه أنه بعد أن ميا عن قومه وتحنف ، لبس المسوح صلى زي المزمعين الزاهدين في هذه الدنيا ، ورافق الكتب ونظر فيها ، ليستلهم منها العلم والحكمة والرأي الصحيح ، ثم حرّم الخمر على نفسه مثل بقية المثاليين ، وتجنب الأصنام ، وصام ، والتمس الدين ، وذكر إبراهيم وإسماعيل ، وأنه كان أول من أشاع بين قريش افتتاح الكتب والمعاهدات والمراسلات بجملة : « باسمك اللهم » ، وهي الجملة التي نسخت في الإسلام بجملة : « بسم الله الرحمن الرحيم »^٣ .

ويذكر أهل الأخبار أن أمية أخذ جملة : « باسمك اللهم » من شيخ كان متطوياً على نفسه في بيرة نائية ، وذلك حينما ألح عليه قوم كانوا معه من قريش في غير لهم ، كانت قد فقرت ، بأن يجد طريقة لطرده حيث كانت تظهر بين أهلهم فتضرها ، فذهب إلى ذلك الشيخ واستشاره في طريقة ليعده عنهم أذى تلك الحية ، فأشار عليه باستعمال تلك الجملة ، فهرت الحية وفقرت منهم ، وقد كان سبب ظهور تلك الحية كما يذكر أهل الأخبار ، هو أن رجلاً من القوم هو : (حرب بن أمية بن عبد شمس) كان قد قتل حية فقررت زميلتها الانتقام من قتلها ، فقتله الجن انتقاماً منه بثر تلك الحية . وهرت الجن عند سماعها تلك الجملة . وإليه أشير كما يقول أهل الأخبار بقولهم :

وقبر حرب بمكان فقر وليس قرب قبر حرب قبر

فحرب هذا المذكور في هذا البيت ، هو حرب بن أمية ، وأما الشيخ فكان رجلاً من الجن^٤ .

-
- ١ الاغانى (٣٠٧/٤) دار الكتب .
 - ٢ الاغانى (٣٠٢/٤) دار الكتب .
 - ٣ السعدى ، مروج (٥٧/١) وما بعدها ، ديوان ، أمية ، المقدمة ، لبشير يموت « بيروت ١٩٣٤ » ، ابن خلدون (١٧٧/١) وما بعدها ، « بيروت ١٩٦١ م » ، التلبييه والاشراف (٣٥٩) ، مكتبة الخياط .
 - ٤ الحيوان للتدويري (١٩٥/٢) ، الاغانى (١٢٢/٤) وما بعدها ، « دار الكتب المصرية » .

ويُذكر أنه لم يكن يرتضي من الأديان غير دين الحنيفية ديناً . وأنه قال ذلك في شعر له :

كل دين يوم القيامة عند الله ، إلا دين الحنيفية ، زور^١

وأنه كان يعظم الله في شعره وبكبره وجمده ، ويرى أنه إله واحد لا شريك له ، وأن من يشرك به أحداً فقد ظلم نفسه :

الحمد لله لا شريك له من لم يقلها ففسه ظلاماً^٢

وهناك من يروي أن (النابتة الجعدي) ، كان يدعي أن هذا البيت وما بعده هو من نظمها . قال ذلك أئام (الحسن بن علي بن أبي طالب)^٣ .

ويروي أن النبي كان يسمع شعر أمية ، وأن (الشريف بن سويد) (الشريف ابن عمرو) التقى ، كان ينشد له شيئاً منه ، في أنام أحد أسفاره . فكان كلما أنشد له شيئاً منه ، طلب منه المزيد ، حتى إذا ما أنشده مثله بيت ، قال النبي له : كاد ليسلم ، أو كاد ليسلم في شعره . وذكر أن الرسول قال في حديث له عنه : آمن شعره وكفر قلبه ، أو آمن لسانه وكفر قلبه^٤ . وأنه لما سمع شعره في الدين والحنيفية ومطلعه :

الحمد لله مماتاً ومصبحتاً بالخير صيحتا ربي ومماتاً

قال : « إن كاد أمية ليسلم »^٥ .

- ١ - الأغاني (١١٢/٣) ، البغدادي ، خزائن الأدب (٣٩/٢) ، شيخو ، شعراء النصرانية ، الجزء الثاني (ص ٢١٩) ، ابن هشام ، السيرة (٤٠/١) ، (٩٨٢/٢) ، الأغاني (١٢٣/٤) ، دار الكتب ، الإصابة (١٣٠/١) ، مطبعة السعادة .
- ٢ - الشعوذي ، مروج (٧٠/١) .
- ٣ - طبقات ابن سلام (١٠٦ وما بعدها) ، الأغاني (١٠/٥) .
- ٤ - صحيح مسلم ، كتاب الشعر ، (٤٨/٧) ، طبعة محمد علي صبيح ، طبقات ابن سعد : (٣٧٦/٥) ، الشريف بن سويد ، « الرشيد بن سويد » ، بلسوغ الأريب (٢٥٣/٢ وما بعدها) ، المعارف ، لابن قتيبة (٢٨) ، المزهري (٣٠٩/٢) ، خزائن الأدب (٢٢٧/١) ، ابن سعد (٣٧٦/٥) ، الشعر والشعراء (٣٦٩/١) ، الإصابة (١٣٤/١) ، (رقم ٥٥٢) .
- ٥ - الأغاني (١٢٢/٤) وما بعدها ، « دار الثقافة » ، شرح الشهاب على البيهقي (٢٣٦/٤) ، تفسير ابن كثير (٢٦٤/٢) ، ديوان الأعاني ، لأبي هلال العسكري (٢٦/١) .

وروي عن (ابن عباس) ، ان الرسول لما سمع شعر (أمية) :

زحل وثور تحت رجل يمينه والنسر للأخرى وليث مرصدا

قال: صدق أمية .

وفي رواية أنه : « كان قد قرأ الكتب القديمة ، وعلم أن الله تعالى مرسل رسولا ، فرجا أن يكون هو ذلك الرسول ، فاتفق أن يخرج إلى البحرين ، وتنبأ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأقام هناك ثمانين سنة . ثم قدم ، فلقني رسول الله صلى الله عليه وسلم ، في جماعة من أصحابه ، فدعاه إلى الإسلام ، وقرأ عليه سورة يس ، حتى إذا فرغ منها ، وثب أمية بجر رجله ، فتبعته قریش تقول : ما تقول يا أمية ؟ فقال : أشهد انه على الحق . قالوا : فهل نبيعه ؟ قال : حتى انظر في امره . فخرج إلى الشام ، وقدم بعد وقعة بدر يريد أن يسلم ، فلما أخبر بها ، ترك الإسلام . وقال : لو كان ليأ ما قتل ذوي قرابته فلذهب إلى الطائف ومات »^١ .

وفي هذه الرواية المنسوبة إلى الزهري ، عن سماح أمية بن أبي الصلت بنو العتيبي وهو في البحرين ، ثم هجرت إلى مكة والتقاته بالرسول وهاجته له في ظل الكعبة ، ثم الكسافه وتراجعته وذهابه إلى الشام ، ثم عودته منها^٢ ، تكلف قاهر ، وفي تفاصيلها ما يناقض بعضه بعضاً .

وورد في رواية أخرى ، ان أمية بن أبي الصلت قدم المدينة فقال للنبي : ما هذا الذي جئت به ؟ فقال الرسول : الحقيقية دين إبراهيم . قال : فأنا عليها . فقال عليه الصلاة والسلام لست عليها ولكنك أدخلت فيها ما ليس منها . فقال : أدات الله تعالى الكاذب منا طريداً وحيداً ، ثم خرج إلى الشام ، وأرسل إلى المنافقين أن استعدوا للسلاح . ثم أتى قيصر ، وطلب منه جنداً ، ليخرج النبي

١ الاصابة (١٢٩/١) ، الاصابة (١٣٤/١) ، (رقم ٥٥٢) . (القاهرة ١٩٣٩ م) .

٢ روح المعاني (١١٢/٩ وما بعدها) ، تاريخ الخبيس ، للديار بكرى (٤١٢/١) ، مجمع البيان في تفسير القرآن ، للطبرسي (٦٣/٧ وما بعدها) ، (بيروت ١٩٥٧ م) .

٣ راجع البداية والنهاية (٢٢٠/٢) .

من المدينة ، فأت بالشأم طريداً وحيداً . وهي قصة ينسب وقوعها إلى (أبي عامر) الراهب ، كما سبق أن تحدثت عن ذلك ^١ .

وتخالف هذه الرواية الروايات المألوفة الواردة إلينا عن وفاة (أمية) بالطائف . وترغم إحدى الروايات ، أن أمية كان قد أخذ ابتيه وعرب بها إلى أقصى اليمن ، وذلك حين بعث النبي . ثم عاد إلى الطائف ، فبينما هو يشرب مع اخوان له في قصر بالطائف ، إذ سقط غراب على شرفة في النصف فغضب ، وأدرك أمية أنه ميت ، لأنه عرف منطق الغراب ، وحدثت القوم بذلك في قصة مفصلة تجدها في الكتب ثم مات ^٢ . وقصة الشرب هذه تناقض ما يذكر عنه أهل الأخبار من أنه كان لا يقرب من الخمر ، ومن أنه كان قد حرمها على نفسه ، شأنه في ذلك شأن بقية الأحناف . كذلك يتناقض غير تحريره الخمر على نفسه ، غير آخر ، خلاصته أنه كان يشرب يوماً مع عبدالله بن جدعان ، فأخذ الشراب برأس (ابن جدعان) ، وأصاب عين أمية ، فلما كان اليوم الثاني وجلس أيضاً للشرب معه ، سأل (عبدالله) أمية عن سبب الألم البادي على عينه ، فلما أخبره بأنه كان هو سببه ، ترك (ابن جدعان) الخمر استحياء مما فعله وقال شعراً في سبب تركه الخمر . ويقول أهل الأخبار : « ما مات أحد من كبار قريش في الجاهلية ، إلا ترك الخمر استحياء مما فيه من الدنس » ^٣ .

وتؤيد قصة ذهاب (أمية) إلى اليمن وسكنه أمداً هناك قصة ينتهي سندها بـ (أبي سفيان) ، خلاصتها أنه كان قد ذهب في ركب من قريش إلى اليمن في تجارة ، فمر بأمية ، وقال له كالتهزيء به : يا أمية قد خرج النبي الذي كنت تتبعه ؟ فأجابه أمية : أما الله حق فاتبعه . وقال له قولاً يتباً فيه بمصير أبي سفيان وكيف سيؤتى به إلى الرسول ، فيحكم فيه كما يريد ^٤ . قضي هذه القصة توكيداً بخروج أمية إلى اليمن حين بعث الرسول وبمكونه زماناً هناك .

وذكر أنه الشخص الذي نزلت في حقه الآية : « واتل عليهم نبأ الذي آتينا»

- ١ روح المعاني (١١١/٩) ، تفسير الطبرسي (٥٠٠/٣) . (طبعة طهران) .
- ٢ الأغاني (١٣٠/٤) وما بعدها ، الإصابة (١٢٩/١) .
- ٣ الأغاني (٣٣٢/٨) .
- ٤ البداية والنهاية (٢٢٤/٣) .

آياتنا ، فالسلخ منها ^١ . وهي آية قيل أيضاً إنها نزلت في (بلعام بن باهور) (بلعم بن ابر) ، (بلعام بن باعرا) ، أو في زوج البوس ، أو في (النعمان ابن صليفي الراهب) ^٢ .

وأمية كأكثر الشعراء له شعر في المدح وله تعريض . وأكثر مدحه في (ابن جدعان) من أجواد العرب المعروفين المشهورين في الجاهلية ^٣ . وهو في المدح أو في الرثاء أو في كل مناسبة أخرى ، مستعمل للكلمات ذات صلة بالدين وبالأفكار الدينية ومصطلحات لا ترد إلا نادراً في الأشعار المنسوبة إلى الشعراء الجاهليين ، مما يدل على غلبة التفكير الديني عليه ، وتأثير ما قرأه أو أُنشده من غير العرب فيه . مثل الأصمعي عن شعر أمية ، فقال : « ذهب أمية في شعره بعمامة ذكر الآخرة وذهب عنرة بعمامة ذكر الحرب ، وذهب عمر بن أبي ربيعة بعمامة ذكر الشباب » ^٤ .

ووالد (أمية) ، هو (عبدالله بن أبي ربيعة بن عوف الثقفي) أو (ربيعة ابن وهب بن علاج بن أبي سلمة) الثقفي على رواية (الزبير) ^٥ . أما أمه فهي (رقية بنت عبد شمس بن عبد مناف) . وقد كان والده شاعراً . ذكر أنه مدح (سيف بن ذي يزن) ^٦ .

ومن الرواة من ينسب القصيدة التي تنسب إلى والد أمية ، والتي هي في مدح (سيف بن ذي يزن) ، إلى أمية نفسه . وفي هذه القصيدة إشارة إلى ذهب (سيف بن ذي يزن) إلى هوقل ، فلما لم يجد منه أية مساعدة أو اهتمام ، عاقه ، وذهب إلى كسرى ، حيث وجد منه مساعدة ، فجاءت إليه بعد سنين

١ الاعراف ، الآية ١٧٥ ، الاغانى (١٢٥/٤ وما بعدها) ، بيروت ، تفسير الطبري (٨٢/٩ وما بعدها) .

٢ روح المعاني (١١١/٩) ، تفسير الطبرسي (٤٩٩/٣ وما بعدها) .

٣ النجر (ص ١٢٨) ، ديوان أمية بن أبي الصلت : تحقيق « فريدريش شولتس » (Friedrich Scholthess) ، المطبوع بمدينة « لايبزك » سنة ١٩١١ ، وكذلك ديوانه المطبوع ببيروت سنة ١٩٣٤ م .

٤ جمع بشير يموت ، التبريزي ، شرح ديوان الحماسة (١٤٥/٤) ، الاغانى (٣٢٧/٨) ، تهذيب ابن عساكر (١٢٣) ، ابن هشام ، (١٤١/٣) .

٥ الاصابة (١٢٩/١) ، الاغانى (١٣٠/٤ وما بعدها) .

٦ نسب قرشي (٩٨) .

٧ الاغانى (١٢٠/٤ وما بعدها) ، الشعر والشعراء (٣٦٩/١) ، بيروت ، تهذيب ابن عساكر (١١٥/٣) ، اليعقوبي (٢٢/١) ، الاغانى (١٢٠/٤ وما بعدها) ، الأزرقى ، تاريخ مكة (٩٣/١) ، جوهرة الانساب (٢٥٧) .

من تعب ومواقفة^١ .

وينسب الى أمية شعر ، ذكر انه اقتخر فيه يد (نزار) ويد (معبد) .
وبقبيلة (لإباد) ، حيث نعتهم يد (قومي لإباد)^٢ .

ويتلخص ما جاء في شعر هذا الشاعر من عقائد وآراء في الاعتقاد بوجود إله واحد ، خلق الكون وسواه وعده ، وأرمى الجبال على الأرض ، وأبنت النبات فيها ، وهو الذي يحيي ويميت ، ثم يبعث الناس بعد الموت ويحاسبهم على أعمالهم ، وليجازيهم بما كسبت أيديهم ، فريق في الجنة وفريق في النار ، يساق المجرمون عرابة الى ذات المقامع والتكال مكبلين بالسلاسل الطويلة وبالأغلال ، ثم يقضى بهم في النار يصلونها يوم الدين ، يقفون فيها معذبين بها ، ليسوا بميتين ، لأن في الموت راحة لهم ، بل قضى الله ان يمكثوا فيها خالدين أبداً^٣ .

أما الملقون ، فإنهم يندار صدق فاصمون تحت الظلال ، لهم ما يشتهون ، فيها صل ولبن وخمر وقح ورطب وتفتح ورمان ونين وماء بارد علب سليم ، وفيها كل ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين ، وحوار لا يرين الشمس فيها ، نواعم في الأرائك قاصرات ، على سرر ترى متقابلات ، عليهم ستمس وجساد ريط ودياج ، حلوا بأساور من لجن ومن ذهب وعسجد كرم ، لا لغو فيها ولا تأثيم ، ولا غول ولا فيها ملهم ، وكأس لا تصدع شاربها ، يلد بحسن رؤيتها النديم ، تحتهم تمارق من دمقس ، فلا أحد يرى قبحهم مشيم .

والوقوف على آراء (أمية) ، وعلى معتقده الدينية يجب الرجوع بالطبع الى أشعاره وما نسب اليه من كلام . ففي هذا التراث الذي تغلب عليه النزعة الدينية والحكمية ، تتمثل آراء ذلك الشاعر الجاهلي الذي أدرك أوائل المبعث ، وهي آراء قريبة جداً من الاسلام ، وبعضها يكاد يكون قولاً اسلامياً في لفظه وفي معناه مسبوكة في شعر . وفي هذا الشعر قصص الرسل والأنبياء : آدم ونوح وقصة

١ كتاب التيجان ، لوهب ، (٣٠٧) ، الشعراء والشعراء ، لابن قتيبة (٣٦٩/١) ،
بروكلمان (١١٤/١) ، Schultze Oriental Studies, I, 73 .
٢ الأغانى (١٢٠/٤) ، (٣٢٧/٨) وما بعدها ، شعراء النصرانية (٢٢٤/٢) .
٣ وسبق المجرمون وهم عرابة الى ذات المقامع والتكال ديوان أمية (٤٩) .
جهنم تلك لا تبقى يقيا وعدن لا يطالها رجيم ديوان أمية (٥٣) ، (بنير يموت) .

طوفانه ، والغراب والحمامة ^١ ، وقصة ذي القرنين وبليقيس وحكاية المدهد ^٢ ، وقصة ابراهيم وتقديم ابنه للذبح ، وداوود ، وفرعون ، وموسى ، واين عاد ^٣ . وعيسى وأمه مريم وكيفية حملها به ، فوصف ذلك بانياً وصفه على نحو ما جاء في القرآن الكريم عن تكون عيسى ، مضيفاً الى ذلك زبادات في حديث مسرجم مع لللائكة وجواب الملائكة لها ^٤ . كما أورد في الشعر قصة (لوط أنهي سدوم) ^٥ . وهي من القصص المذكور في التوراة ، وأشياء أخرى عديدة من هذا القبيل ^٦ . وفي أكثر ما نسب الى هذا الشاعر من آراء ومعتقدات دينية ووصف ليوم القيامة والجنة والنار ، تشابه كبير وتطابق في الرأي جملة وتفصيلاً لما ورد عنها في القرآن الكريم . بل نجسد في شعر أمية استخداماً للألفاظ وتراكيب واردة في كتاب الله وفي الحديث النبوي ، فكيف وقع ذلك ؟ وكيف حدث هذا التشابه ؟ هل حدث ذلك على سبيل الاتفاق او ان أمية اخذ مادته عن القرآن الكريم ، او كان العكس ، اي ان القرآن الكريم هو الذي أخذ من شعر أمية فظهرت الأفكار والألفاظ التي استعملها أمية في آيات الله وسوره ؟ فكتاب الله اذن هو صدى وترديد لآراء ذلك الشاعر المثالي ، او ان هذا التشابه مرده شيء آخر هو تشابه الدهونين وانفاقها في العظيمة والرأي ، او اعتماد الاثنين على مورد أقدم ، هما الكتابان المقدسان : التوراة والانجيل ، وما لهما من شروح وتفسير ، او كتب لو مولد عربية قديمة كانت معروفة ثم بادت وبقي أثرها في القرآن الكريم وفي شعر أمية بن أبي الصلت ، او ان كل شيء من هذا الذي نذكره ونفترضه

- ١ جزى الله الاجل المسوء نوحاً جزاء البر ليس له كذاب ديوان أمية (١٨ وما بعدها ، ٥٨) . (بشير يموت) الحيوان ، للجاحظ (٢ / ١١٧) ، البدء والتاريخ (٢٤ / ١) .
- ٢ قد كان ذو القرنين قبلي مسلماً من قبله بليقيس كانت عيسى حتى تلقى ملكها بالدهد ديوان أمية (ص ٢٦) ، (بشير يموت) .
- ٣ حي داوود وابن عاد وموسى الذي زار الحديد على النسا ديوان أمية (٥٠ وما بعدها) ، (بشير يموت) .
- ٤ وفي دينكم من رب مريم آية ديوان أمية (٥٨) ، (بشير يموت) .
- ٥ ثم لوط أنهي سدوم أناها ديوان أمية (٦٩) ، (بشير يموت) .
- ٦ راجع التوراة ، ومادة (٤٥٤) في معجمات التوراة .

افتراضاً لم يقع ، وإن ما وقع ونشأه ، سببه أن هذا الشعر وضع على لسان أمية في الإسلام ، وإن واضعيه حاكوا في ذلك ما جاء في القرآن الكريم فحدث لهذا السبب هذا التشابه .

أما الاحتمال الأول ، وهو فرض أخذ أمية من القرآن ، فهو احتمال إن قلنا بجوازها ووقوعه ، وجب حصر هذا الجواز في مدة معينة ، وفي فترة محدودة تبدأ من بعث الرسول ، وتنتهي في السنة التاسعة من الهجرة ، وهي سنة وفاة أمية بن أبي الصلت . أما ما قبل المبعث ، فلا يمكن بالطبع أن يكون أمية قد اقتبس من القرآن ، لأنه لم يكن متراً يومئذ ، وأما ما بعد السنة التاسعة ، فلا يمكن أن يكون قد اقتبس منه أيضاً ، لأنه لم يكن حياً ، فلم يشهد بقية الوحي . ولأن يكون هذا الفرض مقبولاً معقولاً في هذه الحالة ، إلا إذا أثبتنا بصورة جازمة أن شعر أمية الموافق لمبادئ الإسلام ولما جاء في القرآن قد نظم في هذه المدة المذكورة ، أي بين المبعث والسنة التاسعة من الهجرة ، وأن أمية كان يتتبع نزول الوحي ، ويجمعه ، وأنه كان يملك نسخة مما نزل على الرسول ، رجع إليها واقتبس منها ، وإلا سقط العرض . فإذا أثبتنا ذلك وثبتنا تأريخ نظم هذا الشعر ، أمكنت المقابلة عندئذ بين شعر أمية وما جاء في معناه وفي موضوعه من آيات نزلت بين ابتداء نزول الوحي على الرسول وبين السنة التاسعة ، أما الآيات التي نزلت بعد هذه السنة ، فلا تكون شاهداً على أخذ أمية منها ؛ لأنه كان قد توفي في السنة التاسعة ، فلا يقع هذا الافتراض .

ولكن من في استطاعته تثبيت تواريخ شعر أمية وتعيينه ، وتعيين أوقات نظمه ؟ إن في استطاعتنا تعيين بعضه من مثل الشعر الذي قاله في مدح عبدالله بن جعدان أو معركة بدر . ولكننا لا نستطيع أن نفعل ذلك بالغالبية منه ، وهي غالبية لم ينطرق الرواة إلى ذكر المناسبات التي قبلت فيها . ثم إن بعض هذا الكثير منسوس عليه ، مروى لغيره ، وبعضه إسلامي ، فيه مصطلحات لم تعرف إلا في الإسلام ، فليس من الممكن الحكم على آراء أمية الممثلة في شعره هذا بهذه الطريقة . ثم إن أحداً من الرواة لم يذكر أن أمية كان يتحلل معاني القرآن الكريم ، وينسبها إلى نفسه . ولو كان قد فعل ، لما سكث المسلمون عن ذلك ، ولكن الرسول أول الفاضحين له .

بقي لدينا الافتراض آخر . هو أخذ القرآن الكريم من أمية . وهو الافتراض ليس من الممكن تصوره ، فعلى قائله اثبات أن شعر أمية في هذا الباب هو أقدم عهداً من القرآن الكريم ، وذلك قضية لا يمكن إثباتها أبداً . ثم إن قريشاً ومن لف لفقها ممن عارض الرسول لو كانوا يعلمون ذلك ويعرفونه ، لما سكثوا عنه ، ولقالوا له انك تأخذ من أمية ، كما قالوا له : انك تتعلم من غلام نصراني كان مقبلاً بمكة ، وإليه اشير في القرآن الكريم بقوله : « ولقد نعلم أنهم يقولون : إنما يعلمه بشر ، لسان الذي يلحنون إليه أجنبي ، وهذا لسان عربي مبين » . ولقد أشار المفسرون الى اسم الغلام ، كما سأحدث عن ذلك في الفصل الخامس بالنصيرية عند العرب قبل الاسلام ، ولم يشيروا الى أمية بن أبي الصلت . ثم إن أمية نفسه لو كان يعلم ذلك او يظن أن محمداً إنما أخذ منه ، لما سكث عنه وهو خصم له ، منافس عنيد ، أراد ان تكون النبوة له ، وإذا بها عند شخص آخر ينزل الوحي عليه ، ثم يتبعه الناس فيؤمنون بدعوته . أما هو فلا يتبعه أحد . هل يعقل سكوت أمية لو كان قد وجد أي ظن وإن كان بعيداً يفيد ان الرسول قد أخذ فكرة منه ، او من المورد الذي أخذ أمية نفسه منه ؟ لو كان شعر بذلك ، لنادى به حياً ، ولأعلن للناس انه هو ومحمد أخلا من منبع واحد ، وإن محمداً أخذ منه ، فليس له من الدعوة شيء ، ولكانت قريش وثقيف اول القائلين بهذا القول والماديين به .

نعم ، لقد ورد في الحديث ، كما قلت قبل قليل ، ان الشريد بن سويد كان قد أنشد الرسول شعر أمية ، وأنه كان كلها أنشده شيئاً منه طلب منه المزيد ، حتى إذا ما أنشده منه بيت ، قال له الرسول : آمن شعره وكفر قلبه ، او آمن لسانه وكفر قلبه ، ولكتنا هنا بحاجة الى تثبيت تأريخ هذا الإنشاد ، وإثبات صحة الرواية وتلقيح رجال السند ، لاثبات ان ما أنشد لم يكن قد نزل في مثله الوحي .

ومن ذهب الى افتراض أخذ الرسول من أمية من المشرقين (كليان هوار) و (بور) Power . زعم (بور) انه حيث يوجد تشابه بين شعر أمية والقرآن

- ١ النحل . الآية ١٠٣ .
- ٢ سيرة ابن هشام (١/ ٢٢٠) .

الكريم ، فإن ذلك يدل على ان الرسول أخذ من (أمية) ، لأن أمية أقدم من الرسول^١ . وهذا الافتراض مقبول كما لو أثبتنا ان هذا النظم شعر أصيل صحيح ، وأنه نظم قيل نزول مشابه في القرآن الكريم ، وأنه لم يصف اليه في الاسلام . فإن أثبتنا انه له ، جاز لها مثل هذا الادعاء .

وأما الرأي الثالث - وأعني به رأي من يرجع التشابه بين شعر أمية وما ورد من مثل معانيه في القرآن الكريم الى أخذ الاثنين من التوراة والانجيل وتفسيرهما ، والى بعض (الصحف) و (المجلات) التي أشير الى وجودها عند العرب - فهو رأي قديم ، وليس بمجديد . رأي قيل عن الوحي كله ، لا عن القرآن وشعر أمية او غير أمية ، قيل ان يحنئ المشرقون بأكثر من ١٣٠٠ سنة ، فقد زعم « ان النبي يتعلم من غلام نصراني اسمه جبر ١١ » . وقد أشير الى هذا الزعم في كتاب الله ، وجاء الرد عليه في قوله تعالى : « ولقد علم أنهم يقولون ، إنما يعلمه بشر ، لسان الذي يلحدون اليه أعجمي ، وهذا لسان عربي مبين » . فلم يخف القرآن الكريم ذلك الطعن والمغمز ، ولم يتجاهل المفسرون اسم من قيل إنه كان يعلمه ، فذكروا جبراً هذا ، وكان غلاماً مقبلاً بمكة ، وقال بعضهم بل هو رجل رومي اسمه غير ذلك .

ولو كان الرسول وأميه قد أخذوا من منهل واحد ، واستقيا من مورد واحد ، لما سكنت قريش عن القول به ، ولما سكنت أمية نفسه وهو الغائب الحاقدا على الرسول عن الجهر به . وكيف يعقل سكوته عن هذا ، وهو أمر مهم جداً بالنسبة اليه . وسيف يحارب به الإسلام؟ ولما سكنت مسيلة ومن كان على شاكلته من المنبئين من الإشارة اليه في أثناء حروب الردة ، وقد كانت فرصة سانحة لإظهار هذه المقالة . ولما سكنت (يوحنا الدمشقي) وأمثاله من التلميح الى ذلك ، وقد لحن بأمر كثيرة في طعنه على الإسلام .

ثم إن هذا التشابه ، على ما يتبين من نقله وتمحيصه ، ليس من نوع ما يحصل عن أخذ شخصين مستقلين من مورد معين ، إنما هو من قبيل ما يحدث من اعتماد أحد الشخصين على الآخر ، بدليل ورود أمور في القرآن الكريم ،

١ ديوان أمية (ص ٧) - « القصة الإلهامية » - بحقيق فردرش شولثيس ، بروكلمن
CL. Hart, J.A. X, Vol. IV, 1904, p. 123. (١١٣/١)

لم ترد في التوراة ولا في الإنجيل ، ولكنها وردت في شعر أمية ، وبديل ورد
أكثر قصص الأنبياء والآراء والمعتقدات في شعر أمية على شكل إسلامي ، لا على
الحق الوارد عند أهل الكتاب . واستعمال هذا الشعر لجعل وألفاظ وتراكيب
إسلامية واردة في القرآن الكريم وفي الحديث لا في الكتب السماوية المذكورة . فلو
كان مرد هذا التشابه أخذ من مورد واحد ، لوجب انحصار هذا التشابه في
الأمور المشتركة التي ترد في الكتب المقدسة : التوراة والإنجيل والقرآن ، وفي
شعر أمية حسب ، لا في المسائل التي ترد في شعر أمية وفي القرآن الكريم ، ولا
ترد في الكتابين المقدسين أو في الكتب الأخرى .

ثم إن المقابلة بين نصين لمعرفة صلة أحدهما بالآخر، وأخذ أحدهما من الآخر ،
تستوجب التأكد من صحة نسبة هذا الشعر إلى أمية . ففسي هذا الشعر مقدار
لا يمكن أن يشك في وضعه وصنعه ، ومقدار نص العلماء نصاً على أنه لغيره ،
وهم اغماذكروه في شعر أمية ، لأن بعض أهل الأخبار نسب إليه . ولذلك
استدركوا هذا الخبر ، بالإشارة إلى اسم قائله الصحيح . فلم يبق من هذا الشعر
ما يصلح للمقابلة غير القليل منه ، وهو القليل الذي له صلة بعقيدة ودين . وهذا
القليل هو ، في الغالب أيضاً ، تبع لما ورد في القرآن وحده ، لا لما ورد في
الكتابين المقدسين . ولما كان القرآن محفوفاً ثابتاً ، فلم يرتق إليه الشك . أما شعر
أمية ، فليس كذلك ، وهو غير معروف من حيث تعيين تأريخه التنظيم . فهذه
المقابلة إن جازت ، فإنها تكون حجة على القائلين بالسري المذکور ، لا لهم .
وقد كان عليهم أن يشيروا أولاً اثباتاً قاطعاً صحة رأيهم في أصالة هذا الشعر ،
لا أن يفترضوا مقدماً أنه شعر أصيل صحيح ، وأن يذهبوا رأساً إلى أنه هو
والقرآن الكريم من وقت واحد ، بل أنه على حد قول بعضهم أقدم منه ، فكتاب
الله مترع منه .

ومن قال بالاحتمال أخذ القرآن وأميه من مورد مشترك واحد، (فردش شولتس)
Friedrich Schultze فاشترى ديوان أمية. وقد زعم أيضاً احتمال أخذ أمية من بعض
آيات الله التي كانت مترلة يومئذ ، ونظمها في شعره . استند في زعمه القائل
بالقباس الرسول من مورد مشترك إلى ورود بعض كلمات في القرآن الكريم وفي
الحديث وفي كتب السير ، يفهم منها على زعمه أن الرسول كان قارئاً كاتباً ،
ولكنه لم يشترط في هذه المؤلفات كونها الإنجيل والتوراة ، بل ذهب إلى أنها

(مجلة) و (صحيفة) ، تتضمن أحاديث وتفسير وقصصاً دينياً قديماً^١ . أما دليله ، فافتراض واحتمال ، وليس له غير هذين . ولا يقوم علم إلا على دليل ملموس .

أما أنا ، فلأرى ان مردّ هذا التشابه والاتفاق الى المسنة والافتعال . لقد كان أمية شاعراً ، ما في ذلك شك ، لاجماع الرواة على القول به . وقد كان ثائراً على قومه ، فافاً عليهم ، لتبذهم للأوثان . وقد كان على شيء من التوجه والمعرفة باليهودية والنصرانية ، ولكني لا أظن أنه كان واقفاً على كل التفاصيل المذكورة في القرآن وفي الحديث من العرش والكرسي وعن الله وملائكته وعن القيامة والجنة والنار والحساب والثواب والعقاب ونحو ذلك . إن هذا الذي أذكره شيء إسلامي خالص ، لم ترد تفاصيله عند اليهود ولا النصارى ، ولا عند الأحناف . فوروده في شعر أمية وبالكلمات والتعابير الإسلامية ، هو عمل جماعة فعلته في عهد الإسلام : وضعت على لسانه ، كما وضعوا أو وضع غيرهم على ألسنة غيره من الشعراء والخطباء ، لاعتقادها أن ذلك مما يفيد الإسلام ، ويثبت أن جماعة من الجاهليين كانوا عليه ، وأنه لم يكن لذلك غريباً ، وأن هؤلاء كانوا يعلمون الغيب ، يعلمون بقرب ظهور نبي عربي ، وأنهم لذلك بشروا به ، وأنهم كانوا يسمعون لو عادوا فولدوا في أيامه ، أو لو طالع بهم العمر حتى يولدوه فيسلموا ، وأمثلة ذلك من قصص راج وانتشر ، كما راج أمثاله في كل دين من الأديان .

ولا بد وأن يكون هذا الوضع قد صنع في القرن الأول للإسلام ، لأن أهل الأخبار القدامى يذكرون بعض هذا الشعر^٢ . وقد يكون قد وضع أكثره في عهد الحجاج تقريباً اليه ، لأنه من قبيل ، وفي ذلك العهد وضع الموضع أخباراً كثيرة في الغرض من شأن قوم الحجاج ، نكابة بسـ ففتقم قوم آخرون اليه بالرفع من شأنها وإضافة ذلك الشعر الى أمية وغيره ، ليكون ردّاً على كارهي ومبغضي الحجاج .

وتبين آية الوضع في شعر أمية في علم اتساقه وفي اختلاف أسلوبه وروحه .

Ency., IV, p. 998, Tar Andrus, Die Entstehung des Islams und das Christentums, Upsala, 1928, S. 48.

٢ بروكلمان (١١٣/١) .

فريقاً نجد شعره المنسوب إليه في المدح أو في الرثاء أو في الأغراض الأخرى مما ليس لها صلة مباشرة بالدين ، في دياحة جاهلية على نسق الشعر المنسوب إلى شعراء الجاهلية ، نجد القسم الديني منه والحكمي في أسلوب بعيد عن هذا الأسلوب ، بعيد عن الأساليب المعروفة عن الجاهليين ، أسلوب يجعله قريباً من شعراء الفقهاء والصوفيين المزمعين ، ونسألك التصاري ، فهو بعيد جداً من أسلوب الجاهليين ، حتى أسلوب مثل (عدي بن زيد) العبدي والأعشى وبقية من نسب إلى النصرانية من شعراء الجاهلية القريبين من الإسلام^١ . يضاف إلى ذلك ما ذكره الرواة وأهل الأخبار من نسبة بعض ذلك الشعر إلى غيره من الشعراء .

وقد يقال إن أسلوب (أمية) في نظم الشعر الديني والحكمي ، هو أسلوب صحيح لا يمكن إلا أن يكون على هذا الحال ، هو أسلوب بعيد عن أسلوب الجاهليين في النظم ، لأن الشعر الجاهلي المعروف نظم في أغراض أخرى لا صلة لها بالحكم وبالدين ، وما جاء منه إلينا في الحكم وفي الدين هو على أسلوب آخر أيضاً ، بدليل أن بعض الشعراء منهم حين نظموا في الحكم ، رقى شعرهم وبأن عن نظمهم المألوف . وبدليل أن نظم (حسان بن ثابت) في الإسلام ، هو دون نظمه في الجاهلية من حيث الجزالة والفخامة في النظم ، وإن شعر (زيد) في الإسلام ، هو دون ما نظمه في الجاهلية ، بسبب تغير الظروف واختلاف الموضوع . وهو اعتدال صحيح ، ولكن أسلوب أمية في تعبيره عن الجنة والنار والبعث والحساب ، أسلوب آخر ، لا يفصح عن عقلية دينية جاهلية ، وإنما عن عقلية إسلامية . ومن هنا جاء شكنا في صحة هذا الشعر وفي أصالته ، وليس من أسلوب النظم .

ولكن من الذي وضع هذا الشعر ، ثم أنكره على نفسه وأسنده إلى أمية ؟ ومن الذي رصح شعر أمية بأبيات من وزنه وقافيته ، ولكنها أبيات إسلامية ؟ ومن كان أول من جمع شعر ذلك الشاعر في ديوان نسبة إليه ؟ هذه أسئلة يجب أن توجد لها أجوبة ، ولكن أجوبتها كتاب يؤلف في حياة هذا الشاعر وفي شعره وديوانه ، عندئذ يكون هناك مجال للتنقيب عن هذه الأمور ، روي أن الحجاج قال ، وهو على المنبر : « ذهب قوم يعرفون شعر أمية »^٢ . فهل ذهب العالمون

End. IV, p. 298.

١
٢ الألفاني (١٢٣/١) .

به حقاً قبل أيام الحجاج ؟ وهل كان شعره ضحكاً واسعاً ؟ أو هو قول من أقوال الحجاج ، وهو ثقيفي من قوم أمية ، أو هو قول وزعم من زعم الرواة . وما أكثر مزاعم الرواة وحلة الأخبار .

وأثر الوضع على بعض شعر أمية واضح ظاهر لا يحتاج الى دليل ، وهو وضع يثبت أن صاحبه لم يكن يتقن صنعة الوضع جيداً . فالقصيدة التي مطلعها :

لك الحمد والمنة رب العيا د أنت المليك وأنت الحكم

هي قصيدة إسلامية ، لا يمكن أبداً أن تكون من نظم شاعر لم يؤمن بالإسلام إيماناً عميقاً من كل قلبه ولسانه . غل هذا البيت منها مثلاً :

محمداً أرسله بالهدى فعاش غنياً ولم يهتضم

ثم غل الأبيات التالية له وفيها :

عطاء من الله أعطيه وخص به الله أهل الحرم
وقد علموا أنه خيرهم وفي بينهم ذي الندى والكرم
يتعبدون ما قال لما دعا وقد فرج الله إحدى البهائم
به وهو يدعوا بصدق الحديث است إلى الله من قبل ربيع القدم
أطعوا الرسول عباد الإله به تنجون من شر يوم ألم
تنجون من ظلمات العذاب ومن حر نار على من ظلم
دعانا النبي به غنام فمن لم يجيبه أسر الندم
نبي هدى صادق طيب رحيم رؤوف بوصل الرحم
به غنم الله من قبله ومن بعده من نبي غنم
يموت كمات من قد مضى برد إلى الله يساري النسم
مع الأنبياء في جنات الخلود هم أهلها خير حل القسم
وقدس قبلنا بعب الصلاة جميعاً وعلم غلط القلم
كتاباً من الله تقرأ به فمن يعتره فقدماً أم

اقرأ هذه المنظومة ، ثم احكم على صاحبها ، هل تستطيع أن تقول أنه كان

شاعراً مفاضلاً للرسول ، وإنه مات كافراً ، وإن صاحبها رضى كضار قريش في معركة بدر وأنه قال ما قال في الإسلام وفي الرسول ؟ اللهم ، لا يمكن أن يقال ذلك أبداً فصاحب هذا النظم رجل مؤمن عميق الإيمان ، هو واعظ مبشر ، مخاطب قومه فيدعوهم إلى الإسلام وإلى طاعة الله والرسول . إنه مؤمن قلباً ولساناً ، مع أنهم يذكرون أن الرسول قال فيه : آمن شعره وكفر قلبه ، أو آمن لسانه وكفر قلبه ، وإنه مات وهو على كفره وعناده وحسده للرسول ، ثم إن صاحب المنظومة رجل يتحدث عن وفاة الرسول ، مع أن أمية ، كان قد توفي في السنة التاسعة من الهجرة ، فهل يعقل أن يكون إذن هو صاحبها وناظمها ؟

أليست هذه المنظومة وأمثالها إذن دليلاً على وجود أيدٍ لصناع الشعر ومتعجبه في شعر أمية . نحمد الله على أن صناعها لم يتقنوا صنعها ، ففضحوا أنفسهم بها ، ودلّوا على مقاتل النظم .

ثم خلد قصيدة أخرى من القصائد المنسوبة لأمية ، وهي في وصف الجنة والنار استهلت بهذا البيت :

جهنم تلك لا تبقي بغيّاً وعدنٌ لا يطالها رجمٌ

ثم استمر في قراءتها ، وفي ما جاء فيها من وصف للجنة والنار ، ثم انعم النظر في هذه الآيات :

فلما عسل وذا لبنٍ وحرٍّ	وفح في منابت صريمٍ
وتخل ساقط الأكناف عد	خلال أصوله رطب قيمٍ
وتفاح ورمسان وموز	وماء بارد عذب سليم
وطيها لحم ساهرة وبحر	وما فاهوا به لهم مقيم
وحور لا يرين الشمس فيها	على صور الدمى فيها سهوم
تواعم في الأرائك قاصرات	فهن عقال وهن قروم
على سرر ترى متقابلات	ألا ، ثم التنضارة والنعم
عليهم سندس وجياذ رطب	وديباج يرى فيها قنوم
وحلوا من أساور من بلجين	ومن ذهب وصجده كرم
ولا لغو ولا تأثيم فيها	ولا غول ولا فيها مسلم

وكأس لا تصدع شاربها بلذ بحسن رؤيتها القديم
تصفق في صحاف من بلجين ومن ذهب مباركة ردوم^١

ثم احكم بعد ذلك على صاحب هذه الآيات . لقد حاول ناطقها ادخال بعض
الكلمات الجاهلية فيها ، لإلباسها ثوباً جاهلياً ، ولاظهارها بمظهر الشعر الجاهلي
الأصيل ، ولكنه لم يتمكن من ذلك ، بل صيرها في الواقع نظماً لوصف الجنة
والنار في الاسلام . وما يسي حاجة الى ان أحبك على الآيات التي أخذ منها صاحب
هذا الشعر وصفه من القرآن الكريم .

ومن الغريب ان بعض الأخباريين اتخذ هذا النظم وأمثاله حجة لبيان عقائد
الجاهليين ، فذكر مثلاً ان العرب في جاهليتها كانت تؤمن بالجزاء ، وان منهم
من نظر في الكب وكان مقرأ بالجنة والنار . وحجته في ذلك هذه المنظومة المنسوبة
الى أمية^٢ . وقد نسي ان ما قاله على سبيل التعميم او التغليب ، يناقض ما جاء
في القرآن الكريم وما أورده الأخباريون عن الجاهليين .

ثم خذ قصيدته في عيسى بن مريم وحمل أمية به^٣ ، وسائر قصائده الأخرى ،
تجد عليها هذه المسحة الاسلامية بارزة ظاهرة ، ولكن هذا لا يمنع مع ذلك من
القول بوجود آيات قد تكون من نظم أمية حقاً ، في هذا المنظوم النبوي ، غير
ان هذا الموجود ، هو على كل حال مما لا يتعارض مع عقائد الاسلام . ومن
الممكن ادراكه بدراسة ألفاظه وأسلوبه وأفكاره ، وبهذه الطريقة تتمكن من استخلاص
الأصيل من شعره من المعجن .

ولأمية بن أبي الصلت أنت ، اسمها (فارعة)^٤ . قدمت على النبي بعد فتح
الطائف ، وكانت ذات لب وعفاف وجمال ، وكان يعجب بها . وقال لها يوماً :
هل تحفظين من شعر أهلك شيئاً ؟ فأخبرته خبره وقصت قصته في شق جوفه

١ تجد اختلافاً في كلمات هذه القصيدة وأبياتها ، وكذلك في قصائده هذا الشاعر
الأخرى ، فارجع في ذلك الى طبعات ديوانه والى كتب الادب لمعرفة مواضع الاختلاف :
كتاب البدء والتاريخ (٢٠٢/١ وما بعدها) ، ديوان أمية « طبعة بشر يموت » ،
(ص ٥٣) ، ديوان أمية (ص ٥١ وما بعدها) ، « طبعة فرديني شوليس » ،
كتاب البدء والتاريخ (٢٠٢/١) ، (طبعة كليمان هوار) ، « النص العربي » ،
ديوان أمية (ص ٥٨) ، « طبعة بشر يموت » ،
اللسان (٧٩٢/١) ، (وثب) .

واخراج قلبه وردّه مكانه وهو قائم وأنشدته شعره^١ ، على ما يزعمه أهل الأخبار .
 وذكر أهل الأخبار أسماء أربعة بنين لأمية ، هم : القاسم ، ووهب ، وعمرو
 (عمر) ، وربيعة . فأما (القاسم) ، فكان شاعراً ، وله مرثية في عثمان بن
 عفان^٢ . وأسلم (وهب بن أمية) كذلك . وذكر أن رجلاً من ثقيف مات
 في عهد النبي عن غير ولد ، فاختصموا في ميراثه ، فأعطى النبي ميراثه لوهب^٣ .
 وأما (ربيعة) ، فأسلم كذلك ، وله شعر^٤ . وقد ذكر أهل الأخبار أن (حقه)
 بنت (وهب بن أمية بن أبي الصلت) ، تزوجت (عبدالله بن صفوان الأكبر) ،
 فولدت له صفوان بن عبدالله بن صفوان^٥ . وذكر أن (ربيعة) ، قد ولي
 بعض الوظائف في الإسلام . وأنه صاحب (ربهتان) ، نهر بقرب الابلّة . وأن
 من ولده (كلدة بن ربيعة) ، وكان شريفاً شاعراً . وقد ذكر أن بغلاً قتل
 (ربيعة) على باب دار (عبدالله بن عباس)^٦ .

وكل ما يعرف عن سويد بن عامر المصطلي أنه كان على دين الحنيفة وملة
 ابراهيم ، وأنه قال شعراً ، وصلت منه بقعة أبيات في (المنايا) وفي القدر
 على الإنسان ، وإن المنايا محتومة لا مفر منها ، وأن الخير والشر مكتوبان على
 النواصي ، وليس لامرئ يدٌ فيها يصيبه من مقدور . فهي في هذه المشكلة المعضلة
 التي شغلت بال الإنسان ولا تزال تشغله مشكلة : (الجبر والاختيار) ، أو
 (القدر) ، المشكلة التي احتلت منزلة الصدارة في (علم الكلام) . والتي صارت
 من أهم موضوعات الجدل في الاسلام . ويقال أنها أنشدت للرسول ، فلما سمعها ،
 قال : « لو أدركته لأسلم »^٧ .

وأما ورقة بن نوفل ، فهو ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى بن قصي ،
 يلحّم نسيب الرسول في جد جده . ذكروا أنه ساح على شاة من شك في

- ١ - الإصابة (٣٦٣/٤) ، (رقم ٨٢٤) .
- ٢ - الإصابة (٢١٣/٣) ، (رقم ٧٠٥٢) .
- ٣ - الإصابة (٦٠٤/٣) ، (رقم ٩١٥٧) .
- ٤ - الإصابة (٤٩٣/١) ، (رقم ٢٥٩٠) .
- ٥ - الإصابة (٦٠٤/٣) ، (رقم ٩١٥٧) .
- ٦ - كتاب البغال، للجاحظ (٢٥٨/٢) ، (من رسائل الجاحظ) ، الاغانى (١٧٩/٣) .
 الاشتقاق (٣٠٤ وما بعدها) ، (١٢٠/٤) ، الشعر والشعراء (٣٦٩/١) .
- ٧ - الإصابة (١٩٧/٢) أنساب العرب (٢٦٩) .
 بلوغ العرب (٢٥٩/٢) .

دين قومه ، وتبجح اليهود والنصارى ، وقرأ الكتب ، وعدّ في جملة المتصنين في أغلب الروايات ، فقد ذكر انه « تنصر واستحكم في النصرانية ، وقرأ الكتب ومات عليها »^١ . وهذا هو رأي أكثر أهل الأخبار .

ونسب إليه شعر ذكر انه قاله في رثاء زيد بن عمرو بن نفيل ، وفيه إشارة الى النار والى الثواب والعقاب بعد الموت والى فكرة التوحيد والايمان برب ليس رب كمثله والى التنديد بالأوثان^٢ .

وكه أبيات من الشعر بحث فيها على مساعدة الضعيف ونصر المظلوم ، وعلى فعل الخير للناس^٣ .

ولا نعلم عن حياة ورقة في ايام شبابه شيئاً ، ولعله كان يمين اعله او اقربائه في اتجارهم مع بلاد الشام او اليمن شأن أكثر شبان أمر مكة المعروفة في ذلك الوقت . فنعلم بذلك سلوك الطرق الموصلة الى العراق او بلاد الشام ، ومن هنا التلصق نحو غارح الجزيرة بكس الحكمة والوصول الى رأي يقنعه في الحياة . ويظهر انه لم يكن في شبابه من اولئك الشباب الحاملين الذين كانوا يصرفون وقتهم في فراغ دائم ، دون عمل ولا تفكير ، متوسدين الأرض يقتلون فراغهم في ترهات الكلام ، كما انه لم يكن من اولئك الطائفتين الذين يقضون وقتهم في التراع والخسومة وشرب الخمر والاعتناء على الناس ، والحصول على المال للاندفاع على النهوض بأية طريقة كانت ، بل كان شاباً مثملاً مفكراً منكشاً على نفسه ، مكنته علمه بالكتابة والقراءة من قراءة الكتب والاطلاع على آراء الماضين والحاضرين ، حتى جاء يوم ، دفعه اجتهاده الذي وصل اليه على الخروج على تقاليد قومه وانتقاد الأوضاع التي كانوا عليها ، مما حمله على ترك مكة طوعاً او قهراً ، والتجول للبحث او قراراً من غضب قومه عليه .

وهو ابن عم خديجة الكبرى زوج الرسول . وقد أشير إليه في خبر « عجي » جبريل الى النبي في حراء ، وله كلام مع الرسول على ما ورد في بعض الروايات.

- ١ . البعلقوني (٢٩٨/١) ، ٢٢/٢ ، « لندن » ، البداية ، لابن كثير (٢٣٨/٢) .
- ٢ . المحبر (١٧١) ، ابن هشام (٢٤٣/١ ، ٢٥٦) ، الاغانى (١١٣/٢ وما بعدها) ، شيبويه ، النصرانية (١١٨/١) ، خزائن الادب (٣٩/٢ وما بعدها) ، مسروج (٧٣/١) ، الذهبي ، تاريخ الاسلام (٦٨/١) .
- ٣ . خزائن الادب (٣٩/٢ وما بعدها) .

يقال إنه قال للرسول وكان قد ذهب اليه مع زوجته خديجة لیسأله رأيه فيها رآه من الرؤيا : « ليثني أكون حياً حين يخرجك قومك ! » وإن الرسول قال له : أخرجني هم ؟ قال : نعم ، إنه لم يجيء رجل قط بما جئت به إلا عودي ، ولئن أدركني يومك أنصرك نصراً مؤزراً ^١ . وأشير اليه في خبر آخر ، حيث ورد أن (خديجة) ذهبت وحدها الى ابن عمها لتسأله عن الرؤيا التي رآها الرسول وعن هذا (التاموس الأكبر) الذي نُقل له . فلما قصت عليه القصة قال : « لئن كنت صادقة ، إن زوجك لثني ، وليلقين من أمه شدة ، ولئن أدركته لأومنن به » ^٢ .

وذكر في خبر آخر أن الرسول قد رأى (ورقة) في منامه ، وكان لا يلبس ثياباً بيضاً . وإن الرسول ذكر ذلك لمن سأله عنه ، وبين لهم أنه لو كان من أهل النار لما ظهر له في منامه وهو بهذه الملابس . لأن أهل النار لا يلبسون ثياباً بيضاً ^٣ . ويروى أن الرسول قال : « لا تسبوا ورقة بن نوفل ، فلاني رأيت في ثياب بيض » ^٤ . قبل أن شخصاً تساب مع أخ لورقة بن نوفل ، فلبس ورقة ليعرق قلب أخيه ، فبلغ ذلك الرسول ، فنهى عن سبه ^٥ .

وجاء في خبر أن (ورقة) كان يمر بمكة فيرى بلالاً وهو يعذب ، يعذبه المشركون برمضاء مكة ، يلصقون ظهورهم بالرمضاء ، ويضربونه يريدون منه أن يشرك بالله ، فلا يشرك به . ويأبى إلا أن يقول : أحد أحد ، فيرثي ورقة لحاله ويقول : أحد أحد والله يا بلال . والله لئن قتلتموه قاتل من الخاسرين ^٦ . أو « والله لئن قتلتموه ، لأتغلن قبره حناتاً » ^٧ .

- ١ الطبري (٢٩٩/٢) ، دار المعارف ، ابن هشام (٢٥٤/١ وما بعدها) ، السعدي مروج (٥٩/٢) ، (٧٣/١) ، محمد محيي الدين عبد الحميد ، ١٩٥٨ م . ، الكامل ، لابن الأثير (٣١/٢) ، القصي ، تاريخ الإسلام (٧٥/١) ، القسطلاني ، شرح صحيح (٦٦/١) ، الإصابة (٦٣٣/٣) .
- ٢ الطبري (٣٠٠/٢) ، دار المعارف ، ابن سعد ، الطبقات (١٩٤/١) ، بيروت ١٩٥٧ م . ، شرح صحيح البخاري ، لابن حجر العسقلاني (٦٦/١ وما بعدها) .
- ٣ الأغانى (١١٣/٣ وما بعدها) ، بيروت ١٩٥٥ م .
- ٤ كتاب نسب قريش (ص ٢٠٧) ، الترمذي (٢٥١/٣) ، الإصابة (٣١٨/٦ وما بعدها) ، مجمع الزوائد (٤١٦/٩) .
- ٥ الإصابة (٦٣٣/٣) .
- ٦ الأغانى (١١٣/٣ وما بعدها) .
- ٧ النهاية ، لابن الأثير (٢٢٦/١) ، الإصابة (٣١٨/٦) ، كتساب نسب قريش (٢٠٨) .

ويظهر من الأخبار المتقدمة ان (ورقة بن نوفل) ، كان قد أدرك ايام الرسول وعاش الى يوم نزول الوحي عليه . بل يظهر من خبر رؤيته لبلال وهو في حالة تعلية ، انه عاش مدة بعد نزول الوحي . غير ان الأخبار المذكورة لا تنص على اسلامه ، ولم نجد أحداً قد نص على ذلك . أما خبر رؤيا الرسول له في منامه ، فانه يدل على عدم اسلامه ، وعلى انه كان قد توفي قبل نزول الوحي على الرسول . وهو الرأي الراجح . وهذا ما حل أحد المؤرخين على القول : وقد اختلف فيه ، فمنهم من زعم انه مات نصرانياً ولم يدرك ظهور النبي . ومنهم من رأى انه مات مسلماً وانه مدح النبي^١ . وقد ورد في بعض الأخبار ان الرسول قال لما توفي ورقة : « لقد رأيت النفس في الجنة عليه ثياب الحرير ، لأنه آمن بي وصدقني »^٢ . وورد مثل ذلك من أحاديث زعم ان الرسول قالها في حق ورقة ، وهي كلها تشير الى وفاة ورقة قبل المبعث ، وعلى دية ، إذ لم يدرك الاسلام .

وورد في بعض الروايات أنه « كان يكتب الكتاب العربي ، فكتب بالعربية من الانجيل ما شاء أن يكتب »^٣ . وورد في رواية أخرى أنه « كان يكتب الكتاب العبراني ، فكتب بالعبرانية من الانجيل ما شاء أن يكتب »^٤ . والخبران هما خبر واحد ، كما يظهر من وحدة النص ، غير ان اسم اللغة التي زعم أنه كان يكتب بها قد حُرِف ، فقرأه بعضهم العربي ، وقرأه بعض آخر العبراني . ولما كان الانجيل باليونانية وبلغه بني لدم ، فقد أخطأ الرواة بجعل لغة الانجيل هي العبرانية ، وهم يوهمون كثيراً فيخلطون بين العبرانية والسريانية . والغالب أنهم كانوا يريدون بالعبرانية لغة بني لدم التي كانت لغة العلم والأدب والدين في العراق وفي بلاد الشام ، بل وبين ماضي اليهود ورجال دينهم في ذلك الوقت . وذكر أهل الأخبار أنه لم يعقب^٥ . ولم يذكروا سبب ذلك ، هل كان قد

-
- ١ المسعودي ، مروج (٥٩/٢) .
 - ٢ القسطلاني ، شرح صحيح (٦٥/١) ، الذهبي ، تاريخ الاسلام (٦٨/١) ، الذهبي ، سير النبلاء (٨٠) ، خزائن الادب (٤١/٢) .
 - ٣ النصرانية (١١٩/١) .
 - ٤ الاغانى (١١٣/٣) ، الاشتقاق (١٦٤) .
 - ٥ كتاب نسب قریش (ص ٢٠٧) .

تزوج ، ولكنه كان عفيفاً ، فلم يعقب ؟ أو أنه عاش أعزب ولم يتزوج مطول حياته ؟

وكان (أبو قيس صرمة بن أبي أنس) (صرمة بن أنس) وهو من بني النجار ، قد تهرب ولبس المسوح ، وهجر الأوثان ، ودخل بيتاً وأغلقه مسجداً لا تدخله طامث ولا جنب ، وقال : أهد رب إبراهيم ، فلما قدم النبي المدينة أسلم وهو شيخ كبير ، وحسن إسلامه . وفيه نزلت الآية : « وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخطيط الأبيض من الخطيط الأسود من الفجر »^١ ورووا له شعراً^٢ . وزعم أنه اغتسل من الجنابة ، وهم بالانصرانية ، ثم أمسك عنها . وذكر أن (ابن عباس) كان يخلف إليه يأخذ عنه الشعر^٣ .

وأما (وكيع بن سلمة بن زهير الإباضي) ، فهو من زياد ، زعم (ابن الكلبي) أنه ولي البيت بعد جرحهم ، فبنى صرحاً بأسفل مكة ، وجعل فيه أمة يقال لها (حزورة) ، وبها سميت (حزورة مكة) ، وجعل في الصرح سلماً ، فكان يرفاه . يزعم أنه يتاجي الله . وكان ينطق بكثير من الخبر ، يزعم الناس أنه صدِّيق من الصدِّيقين ، وقالوا كان كاهناً^٤ . وذكروا له كلمات مسجعة ، ليس فيها ما بشرح لنا معتقده الديني وبوضحه وضوحاً تاماً^٥ .

والصرح كما يقول علياه القصة ، بيت بيني مغرداً ضخماً طويلاً في السماء

١ البقرة ، الآية ١٨٧ ، مروج ، (٥٢/١ وما بعدها) ، تفسير الطبري (٩٧/٢) « يولاق » .

٢ بلوغ الأرب (٢٦٦/٢) .

٣ بلوغ الأرب (٢٦٦/٢) ، أسد الغابة (١٨/٣) ، الإصابة (١٧٦/٢) ، (رقم ٤٠٦١) ، الاستيعاب (١٩٤/٢) ، حاشية على الإصابة .

٤ الخبر (١٣٦) ، بلوغ الأرب (٢٦٠/٢) .

٥ وقال الأيبادي صاحب الصرح ، الذي اتخذ سلماً لمناجاة الرب ، وهو القائل : مرصعة وفاطمة ، القطيعة والفجيعة ، وصلة الرحم وحسن الكلم ، زعم ربكم ليجزين بالخير ثواباً ، وبالشتر عقاباً . وإن من في الأرض عبيد لمن في السماء . هلكت جرحهم وريئت أباد . وكذلك الصلاح والفساد . من رشد فاليعوى ، ومن غوى فارفضوه . كل شاة معقلة يرجلها .

واياه عن الشاعر بقوله :

ونحن أنساد عبيد الآلهة ورهط مناجيه في السلم

ونحن ولاية حجاب العتيق زمان الرعاف على جرحهم

البيان والنبين (١٠٩/٢) ، الامال ، للميداني (٨١/٢) .

وكل بناء عال مرتفع^١ . والخزورة الراية الصغيرة والثل الصغير^٢ . ويظهر انه كان بنى صرحه فوق تل في محل منفرد ، ليختلي هناك على طريقة الرهبان والناسك .

وكل ما عرفه أهل الأخبار عن (عمر بن جندب) الجُهمي ، انه كان من جهة ، وانه كان موحداً لم يشرك بربه أحداً ، والله مات قبيل الاسلام^٣ . وكان عامر بن الظرب العدواني من الحكماء ، نسبت اليه أقوال في الحكم والدين . منها : « إني ما رأيت شيئاً خلق نفسه ، ولا رأيت موضوعاً إلا مصنوعاً ، ولا جائياً إلا ذاهباً ، ولو كان يميت الناس الداء ، لأحياهم الدواء » . ثم قال : « إني أرى أموراً شتى وحش . قيل له : وما حتى ؟ قال : حتى يرجع الميت حياً ، ويعود اللاشيء شيئاً ، ولذلك خلقت السماوات والأرض ، فتولوا عنه ذاهبين^٤ » .

وقد نسبوا اليه جملة أحكام ، منها حكمه في (الخنثى) ، وقد ذكروا أن حكمه هذا قد أقره الاسلام . وقالوا إن العرب كانت إذا أشكل عليها أمر في قضاء ، أو حارث في أمر معضل ترى وجوب الحكم فيه يرأي صائب وعقل وتدير ، ذهبت اليه ، فإذا حكم كان حكمه الحكم الفصل ، فلا راد له^٥ .

ولبت الى كل من عبد الطائفة بن ثعلب بن وبرة بن قضاة وعسلاف بن شهاب السبيعي آيات ، فيها اقرار بوجود إله واحد خالق لهذا الكون ، وبوجود الحساب والثواب والعقاب^٦ .

وأما (المنلمس بن أمية) الكنتاني ، فذكروا انه كان قد انغل من فناء الكعبة موضعاً بخطب فيه ، ويعظ قومه عظمت دينية ، فكان في جملة ما قاله لهم :

- ١ . تاج العروس (١٧٨/٢) وما بعدها . (صرح) .
- ٢ . تاج العروس (١٣٨/٣) . (حزر) .
- ٣ . بلوغ الأرب (٢٦١/٢) وما بعدها .
- ٤ . المعجم (١٣٥ ، ١٨١ ، ٢٢٦ ، ٢٢٧ ، ٢٣٩) . بلوغ الأرب (٢٧٥/٢) وما بعدها .
- ٥ . الروض الأنف (٨٦/١) . ابن هشام (١٣٤/١) . (محمد مجيب الدين عبد الحميد) . المعرون (٤٤ وما بعدها) . عيون الأخبار (٢٦٦/١) . البيان والتبيين (٢٦٤/١ ، ٣٦٥ ، ٤٠١) . (٧٢/٢ ، ١٩٩) . (٣٨/٣ ، ٣٩ ، ٢٩٩ ، ٣٦٩) .
- ٦ . الأغاني (١١٣/٣) . (طبعة بيروت) . مروج (٦٠/٢) .

« انكم قد ترددتم بالله شئاً ، واني لأعلم ما الله راضٍ به . وإن الله تعالى رب هذه الآلهة ، وانه ليحب ان يعبد وحده » . فنشرت كلماته هذه وأمثالها القوم من ونجيت ، وقالوا عنه انه على دين بني نعيم^١ .

وفي آيات منسوبة الى زهير بن أبي سلمى الشاعر المعروف بإقرار بوجود إله عالم بكل ما في النفوس ، هو (الله) ، لا تحفى عليه خافية ، فلا يجوز كتمان شيء عنه ، وبوجود يوم حساب يحاسب فيه الناس على ما قاموا به من أعمال ، وقد ينقم الله من الظالم في الدنيا قبل الآخرة ، فلا محصل له^٢ .

ونسب الأيمان بالله واليوم الآخر الى أشخاص آخرين ، منهم : عبدالله القضاي والشاعر حميد بن الأبرص الأسدي ، وكعب بن لؤي بن غالب ، والأول منهم هو ابن تغلب بن وبرة بن قضاة ، كان من الحكماء الخطباء ، يتبع الحنيفة ، ويتبع على نهجها مثل الخفاء^٣ .

وأما الثاني ، وهو حميد بن الأبرص ، فشاعر جاهلي شهير ، له في قتلته قصة ، هي من ذيل قصة (الغريتين) للمثلث بن ماء السماء . نجد في الشعر المنسوب اليه اسم (الله) يتردد في كثير من المواضع ، ونراه من التشايعين المؤمنين بالثأب وباللحم المكتوب ، ونراه في القصيدة البالية يتوكل على الله ، ويدعو الناس الى الاعتماد عليه فيقول :

من يسأل الناس يحرموه وسائل الله لا يغيب
بالله يدرك كل خير والقول في بعضه تلغيب
والله ليس له شريك علام ما أخت القلوب^٤

١ بلوغ الأرب (٢٧٧/٢) .

٢ فلا تكتنن الله ما في صدوركم ليخفى ومهما يكتم الله يعلم
يؤخر فيودع في كتاب فيدخر ليوم الحساب أو يعجل فينقم
شرح ديوان زهير بن أبي سلمى ، للإمام تغلب (ص ١٢) ، (طبعة دار الكتب
المصرية) ، شعراء النصرانية ، (القسم الرابع ص ٥١٨) ، بلوغ الأرب (٢٧٧/٢)
وما بعدها .

٣ بلوغ الأرب (٢٨٠/٢) .

٤ البيان والنبين (٢٢٦/١) ، شعراء النصرانية (القسم الرابع ص ٦٠٧ وما
بعدها) ، أسماء المغتالين (٢١١) ، (نواذر المخطوطات) .

ونراه يقول في المنايا :

فأبلسخ بني* وأعمامهم بأن المنايا هسي الوارده
لها مدة فتغوس العباد إليها وإن كرهت قاصده
فلا تجزعوا الهيام دنا فلكموت ما تلد الوالده^١

وفي كثير من مواضع شعره يذكر المنايا ويتذكر الموت ، ثم هو يتجملد ويتصبر
في ملاقاته الشدائد والأهوال ، وينصح الناس بالسبر على هذا المتوال . والذي
يقراء شعره ، يشعر أنه أمام رجل حضري رقيق عاطفي المزاج ، ذي نفس مباله
الى الكشف والتصوف ، مؤمن بالعدل ، كاره للظلم ، فهل كان عيب على هذه
الشاكلة ؟ وهل هذا الشعر وخاصة ما جاء منه في البائية هو نظم من منظومه ؟
أو هو من نظم من عاش بعده في الاسلام ؟

ولما (كتب بن لؤي بن غالب) . فهو من أجداد النبي . وقد كان على
الحنيفية ، وإليه كانت تجتمع قریش في كل جمعة ، فكان يعظهم ويوجههم ويرشدهم
بأمرهم بالطاعة والتفكر في خالق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار وتقلب
الأحوال والاعتبار بما جرى على الأولين والآخرين ، ويعثهم على صلة الأرحام
والإفشاء السلام وحفظ العهد ومراعاة حق القربة والتصدق على الفقراء والأيتام^٢ .

هذه خلاصة موجزة لسير من حشرهم أهل الأخبار في زمرة الحنفاء ، تترك
آراء الجماعة تكاد تكون واحدة : كثر بالأصنام والشرك كله ، وإعراض عن
عادات قومهم ، وثورة على عقائدهم ، وترقب لحدوث تطور وإصلاح يقضي
على الجاهلية ، وقد مهدوا له بدعوتهم تلك التي أشاعوها بين بني قومهم فجلبت
عليهم السخط والغضب الشديد ، مما حل أكثرهم ، وهم في الغالب من مكة
وأطرافها ، على الفرار من بلدتهم إلى أطرافها المنعزلة الآمنة وغيرها من الأماكن
الخالية ، ليكنوا في أمان من ايذاء قومهم لهم ، وفي وسط يفكرون فيه في
خلق السماوات والأرض تفكيراً هادئاً ، فلا يزعجهم مزعج ، ولا ينقص حياتهم
هناك منقص .

١ شعراء النصرانية (القسم الرابع ص ٦٠٤ وما بعدها) .

٢ ابن سعد ، الطبقات (الجزء الاول ، القسم الاول ص ٣٩) . - يسوع الارب (٢ / ٢٨٢) .

لقد جعل أهل الأخبار معظم من تحدثنا عنهم إن لم تقل كلهم من القارئ
الكاتب ، ونسبوا إلى بعضهم قراءة الكتب والصحف والزيور ومجلة لقمان . يريدون
بذلك الكتب المقدسة . ويفهم من كلامهم في بعض الأحيان أن منهم من كان
يعسن فهم العبرانية أو لغة بني لدم . ولكن الأخباريين عفا الله عنهم لم يتسلطوا
لنا في الحديث عن ماهية تلك الصحف وعن معنويات مجلة لقمان وعن الكتب
المترجمة ، ولم يأتوا بناذج مفصلة طويلة أو قطع ترشد إلى المكان التي نقلت منها .
فأضاعوا علينا ، باهمالهم الإشارة إلى هذه الأمور ، أشياء كثيرة مهمة ، بنا حاجة
ماسة إلى معرفتها ، لتوقف على الحالة الدينية في جزيرة العرب قبيل الإسلام وأبان
ظهوره .

ويؤكد أهل الأخبار أن بعض أولئك الحفهاء كانوا يسبرون على سنة إبراهيم
وشريعت ، وأن بعضاً آخر منهم كان يلتبس كلماته ويسأل عنها ، وأنهم في ميل
ذلك تحسوا المشاق والأسفار والصعاب . وقد جعلوا وجهة أكثرهم أعالي الحجاز
وبلاد الشام وأعالي العراق . أي المواضع التي كانت غالبية أهلها على النصرانية
يومنش ، وجعلوا أكثر كلامهم وسؤالهم مع الرهبان . وقد أضاعوا إليهم الأخبار
أحياناً ، وذكروا أن الرهبان والأخبار أشاروا عليهم بوجوب البحث والتأمل ،
فليس عندهم ما يأملونه وبرجونه من دين إبراهيم وإسماعيل ، ولذلك لم يدخلوا في
يهودية ولا نصرانية ، بل ظلوا ينتظرون الوعد الحق ، ومنهم من مات وهو
على هذه العقيدة . مات معتقداً بدين إبراهيم حنيفاً ، غير مشركٍ بربه أحداً .

أما كيف كانت شريعة إبراهيم ، وعلى أي نهج سار الحفهاء ، وهل كان لهم
كتاب أو كتب أو نحو ذلك ؟ فمسئلة لم يجب عنها أهل الأخبار إجابة صريحة
واضحة . لذلك صرنا في جهل بأمر تلك الشريعة : شريعة إبراهيم ، شريعة
التوحيد الحق .

وبذكر أهل الأخبار أنه كان لأتباع إبراهيم من العرب علامات وعادات ميزوا
أنفسهم بها عن غيرهم ، منها : الختان ، وحلق العانة ، وقص الشارب ، وهي
علامات جعلها بعض المفسرين من (كلمات إبراهيم) التي ذكرت في القرآن
الكريم ، في الآية : « وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن »^١ . ذهب القائلون

١ البقرة ، الآية ١٢٤ .

بهذا الرأي الى أن تلك الكلمات هي عشر : وحس في الرأس ، وحس في الجسد .
فأما التي في الرأس ، فالمضمضة والاستنشاق وقص الشارب وفرق الرأس والسواك .
وأما التي في الجسد ، فالاستنجاء وتقليم الأظفار وتنف الإبط وحلق العانة والختان^١ .

ومن سنن شريعة إبراهيم الاختتان . وهو من العادات القديمة الشائعة بين العرب
الجاهليين الوثنيين . أما العرب النصارى ، فلم يكونوا يختنون . فالخفاه في هذه
العادة والوثنيون سواء . وفي أخبار معركة (حنين) أن الأنصار حيناً أجهزوا
حل قتل ثقيف ممن سقط في هذه المعركة مع هوازن وجدوا عبداً ، عندما كشف
ليطلب ما عليه وجد أغرل . فلما تبين ذلك للأنصار ، نادى أحدهم بأعلى صوته :
يعلم الله أن ثقيفاً غُرِّل ما تختن . فقام إليه المغيرة بن شعبة ، وهو من ثقيف ،
فأخذ بيده ، وخشي أن يذهب ذلك عن قومه في العرب ، فقال له : لا تفل
ذلك فذاك أبي وأمي ، إنما هو غلام لنا نصراني ، ثم جعل يكشف له قسلي
قومه ويقول له : ألا تراهم يختنن^٢ ؟

ويتبين من هذا الخبر أن العرب كانوا يعدون الغرل شيئاً معيياً ، ومنقصة تكون
حديث الناس . وهناك خبر آخر يفيد أن العرب جميعاً كانوا يختنون ، وأن
الاختتان كان من السمات التي تميزهم عن غيرهم ، وأنهم في ذلك كاليهود^٣ .
وقد ورد في الموارد اليهودية ما يفيد اختتان العرب . ولعل التوراة التي ذكرت
قصة اختتان إسماعيل ، أشعلت خيبرها هذا من تقاليد العرب الشماليين التي كانت
شائعة بينهم في ذلك العهد^٤ .

الاعتكاف :

وقد نسب الاعتكاف في الكهوف وفي البراري وفي الجبال الى عدد من هؤلاء
الخفاه . فقد ذكر أهل الأخبار أنهم كانوا قد اعتكفوا في المواضع الخالية البعيدة

- ١ تفسير الطبري (٤١٤/١ وما بعدها) ، روح المعاني (٣٧٤/١) ، بلسوغ الأرب
(٢٨٧/٢) ، المعبر (٣٢٩) .
- ٢ الطبري (١٣٠/٣) ، ذكر الخبر عن غزوة رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ،
هوازن يحنن^{*} .
- ٣ الأغانى (٩١/٦) ، ذكر أبي سفيان وأخباره ونسبه .
- ٤ Reste, B. 178.

عن الناس ، وحسبوا أنفسهم فيها ، فلا يخرجون منها إلا لحاجة شديدة وضرورة ماسة^١ . يتحدثون فيها ويتأملون في الكون ، يلمسون الصديق والحق . والتحدث التبعدي . فكأنوا يتحدثون في تلك المواضع الغائبة الساكنة ، مثل غار (حراء) . وقد ذكر أن الرسول كان يتحدث فيه الليالي ، يقضيها في ذلك الغار^٢ . ويعبر عن التبعيد ليلاً بـ (التهجيد) أيضاً . وذكر أن التهجيد الصلاة ليلاً^٣ . وقد كان الرسول يتهجّد^٤ . والتهجيد التيقظ والسهو بعد نومة من الليل . والمجود النوم عند العرب . ويظهر أن تفسير التهجيد بالتبعيد ليلاً ، إنما ورد من تفسيرهم لما ورد في القرآن الكريم : « ومن الليل فتهجد به نافلة ، عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً »^٥ . فخص العلماء التهجيد بالتبعيد ليلاً . ويعبر عن التبعيد بالنسك ، والنسك : العبادة والطاعة وكل ما يضرب به إلى الآلة . والنسك : المتعبدون . وقد كان الخفاء من النسك أي المتعبدين . وعدوا اللذائح من النسك . وجعلوا النسك : اللبحة^٦ . واللبائح ، أي النسك ، هي من أهم مظاهر التبعيد والزهد عند الجاهليين . ومن نسب إلى النسك والرهبة من الجاهليين (أبو عامر عبد عمرو بن صفي ابن مالك بن النعمان) ، أحد (بني قصيصة بن زيد) . وكان في الجاهلية يسمى (الرابع) ، لأنه كان مترهباً ، وقد كان من المقدمين يترهب ، إذ كان رأس الأوس فيها ، فلما جاء رسول الله إلى المدينة ، خاصمه ، ثم خرج إلى مكة مباعداً له ، ومعه خمسون غلاماً من الأوس ، واشترك مع فريش يوم أحد^٧ .

-
- ١ تاج العروس (٢٠٣/٦) . (عكف) .
 - ٢ تاج العروس (٦٦٦/١) . (حلت) .
 - ٣ تاج العروس (٥٤٣/٢) . (هجد) .
 - ٤ الاسراء ، الآية ٧٩ ، تفسير الطبري (٩٥/١٥) . روح المعاني (١٢٧/١٥) .
 - ٥ التيسار (٤٩٨/١٠) وما بعدها . (نسك) .
 - ٦ نهاية الأرب (٨٩/١٧) . (ذكر غزوة أحد) . امتناع الاسماع (١١٥/١) .
 - ٧ غزوة أحد .

الفصل السادس والسبعون

اليهودية بين العرب

والحديث عن اليهودية بين العرب ، وعن وجود يهود في أنحاء من جزيرتهم ، لا يمكن ان يكون حديثاً تاريخياً مبنياً على العلم اذا ارتفعنا به الى الميلاد والما قبل الميلاد . ولا يعني كلامي هذا عدم وصول يهود الى جزيرة العرب ، وعدم إقامتهم في أماكن منها . فهذا كلام لا يمكن أن يقال ، ولا يمكن قبوله . انما أريد ان أقول اننا لا نملك نصوصاً تاريخية نخولنا ان نتحدث عن اليهود في جزيرة العرب قبل الميلاد حديثاً علمياً ، بأن نعين المواضع التي نزلوا فيها ، والأماكن التي وصلوا اليها ، وما فعلوه هناك ، وفي أي عهد كان ذلك ، ومن قادهم الى تلك الأنحاء ، ومن استقبلهم استقبالا حسناً ، أو استقبلهم استقبالا سيئاً من الجاهليين ؟

وقد عرف اليهود عند الجاهليين ، وورد ذكرهم في الشعر الجاهلي . ولا بد من وعرف الجاهليين على أحوالهم ، لأنهم كانوا كما سنرى يسكنون في مواضع عديدة معروفة تقع ما بين فلسطين ويثرب ، كما سكنوا في اليمن وفي اليمامة وفي العروص . وكان تجار منهم يقيمون في مكة وفي مواضع أخرى من جزيرة العرب للتجارة والقراض المال برأ فاحش للمحتاجين اليه .

ومعارفنا عن يهود جزيرة العرب مستمدة من الموارد الإسلامية . والسبب في ورود خبرهم في هذه الموارد ، هو اصطدامهم بالإسلام ، ومقاومتهم له حينما دعاهم الرسول الى الدخول فيه ، فزل فيهم الرحي ، وأثير اليهم في الحديث ،

وذكروا في كتب التفسير والسير والتواريخ والأدب . ومن هنا تجمعت معارفنا عن
يهود الجاهلية . ولهذا تجد الحديث عن يهود الجاهلية لا يرتقي كثيراً من عصر
النبوّة ، ولا يتعد عنه ولكني لا استبعد احتمال تغير الحال ، إذا ما عثر القاصون
في المستقبل على كتابات جاهلية قد تكون معلومة في الوقت الحاضر في باطن
الترية ، يكون لها صلة بيهود جزيرة العرب ، أو إذا ما عثر على مؤلفات ووثائق
مكتوبة عبرانية أو غير عبرانية قد تكون مجهولة عن ذوي العلم في الوقت الحاضر ،
تكون لها صلة وعلاقة بأمر يهود جزيرة العرب قبل الإسلام .

وقد وردت لفظة (يهود) معرفة في القرآن الكريم . أي على هذا الشكل :
(اليهود) . وردت في مواضع من سورة البقرة^١ ومن سورة المائدة^٢ ومن سورة
التوبة^٣ . وكلها سور مدنية . ولم ترد في سورة من السور المكية . كما وردت
لفظة (يهودياً) في سورة آل عمران ، وردت في شرح ديانة (ابراهيم) :
« ما كان ابراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً »^٤ . وهي من السور
المدنية كذلك .

وعبر القرآن الكريم عن اليهود وعن معنفي اليهودية بـ « الذين هادوا »^٥ ،
وبـ « من كان هوداً »^٦ و « كونوا هوداً »^٧ و « كانوا هوداً »^٨ . وسورتي
الأنعام والنحل من السور المكية . وبناء على ذلك تكون جملة « الذين هادوا »
قد نزلت قبل زول لفظة (اليهود) في القرآن الكريم .

وقد عبر عن العبرانيين عامة بـ (بني اسرائيل) في القرآن الكريم . عبر عنهم
في سور مكية وفي سور مدنية . ويلاحظ ان ورود هذا التعبير في القرآن الكريم ،
هو أكثر بكثير من ورود لفظة (اليهود) فيه .

-
- | | |
|---|--|
| ١ | البقرة ، الآية ١١٣ ، ١٢٠ . |
| ٢ | المائدة ، الآية ١٨ ، ٥١ ، ٦٤ ، ٨٢ . |
| ٣ | التوبة ، الآية ٣٠ . |
| ٤ | آل عمران ، الآية ٦٧ . |
| ٥ | البقرة ، الآية ٦٣ ، النساء ، الآية ٤٦ ، ١٦٠ ، المائدة ، الآية ٤١ ، ٤٤ ، ٦٩ ،
الأنعام ، الآية ١٤٦ ، النحل ، الآية ١٨٨ ، الحج ، الآية ١٧ ، الجمعة ، الآية ٩ . |
| ٦ | البقرة ، الآية ١١١ . |
| ٧ | البقرة ، الآية ١٣٥ . |
| ٨ | البقرة ، الآية ١٤٠ . |

ولما كانت فلسطين امتداداً طبيعياً للحجاز ، كان من الطبيعي اتصال سكانها بالحجاز ، واتصال سكان الحجاز بفلسطين ، وذهب جاليات يهودية الى العربية الغربية ، للاستثمار وللإقامة هناك ، خاصة بعد فتوح الدول الكبرى لفلسطين واستيلائها عليها ، وهجرة اليهود الى الخارج . فكانت العربية الغربية لائصالها بفلسطين من الأماكن الملائمة المناسبة لهجرة اليهود اليها ، واقامتهم فيها ، ولا سيما عند مواضع المياه وفي الأرضين الخصبة العامرة . غير اننا لا نستطيع ، كما قلت ، التحدث عن هجرة اليهود هذه الى هذه الأنحاء حديثاً علمياً معززاً بالكتابات والتواريخ . ولم يترك يهود جزيرة العرب لهم أثراً مكتوباً يتحدث عن ماضيهم فيها . وكل ما عثر عليه منهم ، نصوص معدودة ، وجدت في اليمن ، لا تفصح بشيء ذي بال عن اليهود واليهودية . كذلك لم يصل إلينا ان أحداً من المؤلفين والكتبة العبرانيين ذكر شيئاً عن يهود الجاهلية . وليس لنا من تأريخ اليهود في جزيرة العرب إلا ما جاء في القرآن الكريم وفي الحديث وكتب التفسير والأخبار والسير . فادتنا عن تأريخ اليهودية في العربية ، لا ترتقي إلى عهد بعيد عن الاسلام .

لقد ذهب بعض المؤرخين المحدثين الى أن اليهود كانوا في جملة من كان في جيش (نبونيد) يوم جاء الى نينوى . فأقاموا بها وبمواضع أخرى من الحجاز بلغت (بئر) . وأن هؤلاء اليهود أقاموا منذ ذلك الحين في تلك الأماكن واستوطنوا وادي القرى وأماكن أخرى الى مجيء الاسلام . غير أن (نيونيد) لم يشر في أخباره المدونة الى وجود اليهود في جيشه وإلى أسكاته لهم في هذه الأرضين كما أننا لم نعثر على كتابات تتحدث عن هذا العهد أو عن العهد الذي سبقه أو الذي جاء من بعده ، لذلك فإننا لا نستطيع أن نعزز هذا الكلام بنصوص وكتابات . وإن كنا لا نريد نفي احتمال مجيء اليهود الى هذه الديار في عهد (نبونيد) ، أو في عهد (بخت نصر) ، أو قبل العهدين .

نعم ، لقد عثر على عدد من الكتابات البطية في الحجاز وفي مواضع أخرى من أرض النبط وردت فيها أسماء عبرانية تشير الى أن أصحابها من يهود ، ويعود بعضها الى القرن الأول للميلاد . ويعود بعض آخر الى ما بعد ذلك مثل الكتابة التي يعود عهدها الى سنة ٣٠٧ ميلادية ، وصاحبها رجل اسمه (يحيى بن شمعون) أي (يحيى بن شمعون)^١ . غير أن هذه الكتابات شخصية ، ولا تفصح بشيء

Islamic culture, vol., III, No. 2, April 1929, Jadaco — Arabic Relations in Pre-Islamic Times, by Josef Horowitz, p. 178.

ففي حال عن عفيفة أصحابها ، ولا عن تأريخهم في هذين الأرضين .

وقد ذهب اليهود الى العربية الشرقية ، ذهبوا اليها من العراق ، فسكنوا في مواضع من سواحل الخليج ، وتاجروا مع أهل هذه البلاد ومع باطن الجزيرة . وقد ساعدتهم بعض الحكومات على الذهاب اليها . وقد كانت ليهود العراق تجارات مع أهل الخليج ، كما يفهم ذلك من مواضع من التلمود .

وبتين من روايات المؤرخ اليهودي (يوسفوس فلافيوس) Josephus Flavius ان اليهودية كانت قد وجدت لها سيلاً بين العرب . وان بعض ملوك مملكة (حدياب) Adiabene كانوا قد دخلوا فيها ^١ . ويذكر المؤرخ (سوزومين) Souzomenos ان اليهود كانوا ينظرون الى العرب الساكنين شرق الحد العربي Limes Arabicus على أنهم من نسل اسحاق ، وأنهم كانوا يرون أنهم من نسل اسحاق وابراهيم ، فهم من ذوي رحهم ، ولهم بهم صلة قرى . وكانوا يرجون لذلك دخولهم في دينهم ، واعتناقهم دين ابراهيم جد اليهود والعرب . وقد عملوا على تهويد أولئك العرب ^٢ .

ويظهر من مواضع من التلمود ان لغراً من العرب دخلوا في اليهودية ، وأنهم جاءوا الى الأخبار ، فتهودوا أمامهم ^٣ . وفي هذه المرويات (التلمودية) ، تأييد لروايات أصل الأخبار التي تذكر ان اليهودية كانت في حبر ، وبني كنانة ، وبني الحارث بن كعب ، وكندة ^٤ ، وغان ^٥ . وذكر (اليعقوبي) ان ممن تهود من العرب : اليمن بأسرها . كان تبسح حل حبرين من أخبار يهود الى اليمن ، فأبطل الأوثان ، وتهود من باليمن ، وتهود قوم من الأوس والخزرج بعد خروجهم من اليمن لمجاورتهم يهود حبر وفريظة والنضير . وتهود قوم من بني الحارث بن كعب وقوم من غسان وقوم من جلدان ^٦ .

وقد ذكر علماء التفسير في تفسيرهم الآية : لا اكراه في الدين . قد تبين

Die Araber, II, S. 65, ff.

Souzomenos, 6, 38, 10-13, 299, 17, Die Araber, II, S. 74.

Y 'bamot, 16 b, 'Aboda Zara 27a, Die Araber, II, S. 74.

المعارف (٦٢١) ، الاعلاق النقيصة (٢١٧) .

اليمن والتاريخ (٢١/٤) .

اليعقوبي (٢٢٦/١) وما بعدها) .

الرشد من الغي^١، لأنها نزلت في الأنصار . كانت المرأة المقلات في الجاهلية تنذر إن عاش لها ولد أن تهوده ، فتهود قوم منهم . فلما جاء الله بالاسلام أرادوا إكراههم عليه ، فنهاهم الله عن ذلك ، حتى يكونوا هم يختارون الدخول في الإسلام . أو أنهم لما بقوا على يهوديتهم ، وأمر اليهود بالجلاد ، وفيهم منهم ، شق على آبائهم ترك أبنائهم يلعبون مع اليهود ، فقالوا : يا رسول الله أبنائنا واختواتنا فيهم .. فسكت عنهم رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، فأنزل الله تعالى ذكره : لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي^٢ ... فقال رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، قد غير أصحابكم ، فإن اختاروكم فهم منكم ، وإن اختاروهم فهم منهم^٣ . وذكر العلماء أيضاً أن ناساً من الأنصار كانوا مسترضعين في بني قريظة وغيرهم من يهود ، فتهودوا ، وأن من الأنصار من رأى في الجاهلية أن اليهودية أفضل الأديان ، فهودوا أولادهم ، فلما جاء الإسلام ودخلوا فيه ، أرادوا إكراه أبنائهم اللذين تهودوا على الدخول فيه ، فنزل الوحي بالآية المذكورة^٤ . فقد كان ابن يهود جزيرة العرب ، عرب دخلوا في دين يهود .

وذكر أهل الأخبار أن (جبل بن جوال بن صفوان) الثعلبي ، من بني ثعلبة بن سعد بن ذبيان ، كان يهودياً فأسلم . فهو عربي ، يظهر أنه لو أهله قبله قد تهودوا ، فكان على دين يهود ، وعاش مع (بني قريظة) ، حتى اعتنق الإسلام^٥ . وذكروا أسماء آخرين كانوا من منهودة الجاهليين .

وبرى بعض المؤرخين اليهود أن يهود جزيرة العرب كانوا في معزل عن بقية أبناء دينهم وانفصال ، وأن اليهود الآخرين لم يكونوا يرون أن يهود العربية مثلهم في العقيدة ، بل رأوا أنهم لم يكونوا يهوداً ، لأنهم لم يحافظوا على الشرائع الموسوية ولم يخضعوا لأحكام التلمود^٦ . ولهذا لم يرد عن يهود جزيرة العرب شيء في أخبار المؤلفين العبرانيين .

وعندي أن عدم ورود شيء عن يهود الحجاز في أخبار المؤلفين العبرانيين

- ١ البقرة ، رقم ٢ ، آية ٢٥٦ .
- ٢ تفسير الطبري (١٠ / ٣) وما بعدها .
- ٣ تفسير الطبري (١٠ / ٣) وما بعدها ، تفسير القرطبي (٢ / ٢٨٠) وما بعدها .
- ٤ الإصابة (١ / ٢٢٣) وما بعدها ، (رقم ١٠٧٦) .
- ٥ إسرائيل ولفنسون : تاريخ اليهود في بلاد العرب (ص ١٢) ، (القاهرة ١٩٢٧) .

لا يمكن ان يكون دليلاً على عزلة يهود الحجاز عن بقية اليهود . فقد عمل غيرهم أيضاً ولم يشر اليهم ، لأن التأليف والنشاط الفكري عند العبرانيين كانوا قد تركزا في هذه العهود على المستوطنات اليهودية في العراق وعل فلسطين ، وعل (طبريا) بصورة خاصة ، ولم تنتشر الجاليات اليهودية التي انتشرت في مواضع أخرى بالتأليف ، فكان من الطبيعي ان تنحصر أخبار اليهود في هذا العهد في هذين القطرين . ولهذا لم يشر الى يهود الحجاز والى يهود بقية جزيرة العرب . ثم إن الحجاز على اتصال بفلسطين ، وفلسطين جزء من الحجاز متم له جغرافياً ، وهو متصل بفلسطين منذ القدم ، وفلسطين منفذ التجاري ، وميناء (غزة) من المواضع التي كان يقصدها تجار الحجاز للتجارة ، والحركة مستمرة دوماً بين فلسطين والحجاز ، وقد كان تجار اليهود من أهل الحجاز يتاجرون مع بلاد الشام وفي جعلتها أرض فلسطين ، فلا يعقل بالطبع ان يصير يهود الحجاز في عزلة عن يهود فلسطين ، والا يكون بين اليهودين اتصال . أما من ناحية الآراء الدينية والاعتقادية ، فقد يكون بين اليهودين بعض الاختلاف ، فقد وقع اختلاف في الآراء بين أحبار يهود العراق وبين أحبار يهود فلسطين ، فلا يستبعد ان رأي من يقول بوجود اختلاف في وجهة نظر يهود فلسطين بالنسبة ليهود الحجاز ، إذ قد يكون يهود الحجاز ويهود جزيرة العرب قد تأثروا بالعرب الذين نزلوا بينهم فاضطروا الى التخفيف من التمسك بشعائر دينهم ، لا سيما وان من بين يهود جزيرة العرب يهود متهودون ، كانوا في الأصل من أدوم ومن التبت ومن العرب ، دخلوا في اليهودية لأمامل متعددة ، فلم يكونوا للكل على سنة اليهود الأصليين في المحافظة على شريعتهم محافظة شديدة تامة .

وقد انتشر اليهود جماعات جماعات استقرت في مواضع المياه والعيون من وادي القرى وثبأ وخيبر الى يثرب ، قينوا فيها الآطام لحماية أنفسهم وأرضهم وزرعهم من اعتداء الأعراب عليهم . وقد آمنوا على أنفسهم بالانصاف مع رؤساء القبائل الساكنة في جوارهم على دفع إتاوة لهم ، وعل تقديم الهدايا اليهم لاسترضائهم . وكان من شأنهم أيضاً التفريق بين الرؤساء وإثارة الشقاق بين القبائل حتى لا تصفو الأحوال فيها بينها وتلتئم ولئلا يكون اتفاقها وائتلافها خطراً يهدد اليهود .

وليس الذي يرويه أهل الأخبار عن إرسال موسى جيشاً الى الحجاز ، واستقرار ذلك الجيش في يثرب بعد فتنه بالعاليق وبعد وفاة موسى ، ثم ما يذكره عن

هجرة داوود مع سبط يهوذا الى خيبر وتملكه هناك ثم عودته الى اسرائيل^١ وأمثال هذا إلا قصصاً من هذا النوع الذي ألقنا قراءته في كتب أهل الأخبار، لا نستبعد أن يكون مصدره يهود تلك المنطقة أو من أسلم منهم ، لإتيان أنهم ذوو نسب وحسب في هذه الأرضين قديم ، وأنهم كانوا ذوي بأس شديد ، وأن تأريخهم في هذه البقعة يمتد الى أيام الانبياء وابتداء اسرائيل ، وأنهم لذلك الصفوة المختارة من العبرانيين .

وقد زعم أهل الأخبار ، ان العاقلة كانوا أصحاب عز وبقي شديد ، وكانوا يتزلون الحجاز في جملة ما نزلوا من أماكن في أيام موسى . وكان منهم : بنو هف وبنو سعد وبنو الأرق وبنو مطروق . وملكهم إذ ذاك رجس من اسمهم (الأرقم) ، ينزل ما بين نيباء وفلك . وكان سكان يثرب من العاقلة وكذلك سكان بقية القرى . فلما تغلب عليهم العبرانيون انتزعوا منهم مساكنهم ، وأقاموا في مواضعهم في الحجاز^٢ .

وقد أخذ أهل الأخبار ما رووه عن دخول اليهود الى يثرب في أيام موسى ، وما ذكروه عن إرساله جيشاً الى هذه المنطقة ، ثم ما رووه عن سكنتهم القديم في أطراف المدينة وفي أعالي الحجاز ، من سفر (صموئيل الأول) من التوراة^٣ . وقد حسب أهل الأخبار العاقلة من سكان يثرب القنعاء ، ومن سكان أعالي الحجاز ، فزعموا ان تلك الحروب قد وقعت في هذه المنطقة ، وان اليهود قد سكنوها لذلك منذ أيام موسى . وقد أخذ الأخباريون رواياتهم هذه من اليهود ، ومن دخل منهم في الاسلام^٤ .

ويرى بعض الأخباريين أن ابتداء أمر اليهود في الحجاز وتزولهم وادي القرى وخيبر ونيباء ويثرب إنما كان في أيام (بنحصر) ، فلما جاء (بنحصر نصر)

١ الإيعالي (٩٤/١٩ وما بعدها) . أخبار لوس ونسب اليهود بيثرب وأخبارهم . ابن خلدون (٨٨/٢) . (٥٩٤/٢) . دار الكتاب اللبناني . بيروت ١٩٥٦ . أبو العلاء . (١٢٣/١) . ابن الأثير . الكامل (٤٠١/١) وما بعدها . ابن خلدون (٥٩٤/٢) . بيروت ١٩٥٦ . ابن هشام (١٧/٢) . الإيعالي (٩٤/١٩) . ابن هشام (١٧/٢) . صموئيل الأول : الإصحاح الخامس عشر . الآية ٥ وما بعد .
Nöldeke, Beiträge, B. 82.

الى فلسطين ، هرب قسم منهم الى هذه المواضع واستقروا بها الى مجيء الإسلام^١. وليس في هذا الخبر ما يحملنا على استنباطه ، فهروب اليهود الى أعالي الحجاز ودخولهم الحجاز أمر سهل يسير ، فالأرض واحدة وهي متصلة والطرق مفتوحة مطروقة ، ولا يوجد أي مانع يمنع اليهود أو غير اليهود من دخول الحجاز . لا سيما وأن اليهود كانوا خائفين قارين بأنفسهم من الرعب ، فهم يبحثون عن أقرب ملجأ اليهم يحميهم من فتك ملك بابل بهم . وأقرب مكان مأمون اليهم هو الحجاز .

أما ما ورد في روايات أهل الأخبار عن هجرة بعض اليهود الى أطراف يثرب وأعالي الحجاز على أثر ظهور الروم على بلاد الشام وفتكهم بالعبرانيين وتشكيلهم بهم مما اضطر ذلك بعضهم الى القرار الى تلك الأمانات البعيدة عن مجالات الروم ، فإنه يستند الى أساس تاريخي صحيح^٢ . فالذي نعرفه أن فتح الرومان لفلسطين أدى الى هجرة عدد كبير من اليهود الى الخارج ، فلا يستبعد أن يكون أجداد يهود الحجاز من نسل أولئك المهاجرين .

وكان يقم به (مقنا) عند ظهور الإسلام قوم من اليهود اسمهم (بنو جنة) ، وقد كتب اليهم الرسول وإلى أهل (مقنا) يدعوهم الى الاسلام ، أو الى دفع الجزية^٣ . وكتب الى قوم من يهود اسمهم (بنو غادبا)^٤ ، وإلى قوم آخرين اسمهم (بنو عريض)^٥ .

ومن هؤلاء المهاجرين على رأي الأخباريين بنو قريظة وبنو النضير وبنو بئيل . ساروا الى الجنوب في اتجاه يثرب ، فلما بلغوا موضع الغابة ، وجلدوه وبيساً ، فكرهوا الإقامة فيه ، وبعثوا راثداً أمروه ان يلتمس لهم منزلاً طيباً ، وأرضاً عذبة ، حتى إذا بلغ (العالية) ، وهي بطنحان ومهزور وادبان من حرة على تلاع أرض عذبة . بها مياه وعيون غزيرة ، رجع اليهم بأمرها ، وأصبرهم بما

١ الانصاري (٩٤/١٩) . ابن خلدون (٥٩٤/٢) «دار الكتاب» ، أبو الفداء (١٢٣/١) ، الكامل (٤٠١/١) . R. Donny, Des Israélites zu Mekka, p. 135.

٢ ابن خلدون (٥٩٤/٢) . بيروت ١٩٥٦ .

٣ ابن سعد ، طبقات (٢٧٦/١) .

٤ ابن سعد ، طبقات (٢٧٩/١) .

٥ ابن سعد ، طبقات (٢٧٩/١) .

رآه منها ، فقرر رأيهم على الإقامة فيها . فترحل بنو النضير ومن معهم على بطحان ، ونزلت قريظة وبهمل ومن معهم على مهزور ، فكانت لهم ثلاثة وما سقى من بعث وسموات^١ .

وسكن اليهود يثرب . سكنها منهم بنو عكرمة وبنو ثعلبة وبنو عهر وبنو زعورا وبنو قينقاع وبنو زيد وبنو النضير وبنو قريظة وبنو بهمل وبنو صوف وبنو القصبص وبنو ماسلة ، سكن هؤلاء المدينة وأطرافها ، وكان يسكن معهم من غدير بني اسرائيل بطون من العرب ، منهم : بنو الحرمان حسي من اليمن ، وبنو مرثد حسي من بني بكر^٢ ، وبنو نيف وهم من بني أبي أيضاً ، وبنو معاوية حسي من بني سليم ثم من بني الحرث بن بهمة ، وبنو الشقبة حسي من غسان . وظل اليهود أصحاب يثرب وسادتها ، حتى جاء الأوس والخزرج ، فترلوها واستغلوا الخلافات التي كانت قد وقعت بين اليهود ، فتغلبوا عليهم ، وسيطروا على المدينة ، وقسموها فيما بينهم ، فلم يبق من يومئذ عليها سلطان^٣ .

وتذكر روايات أهل الأخبار أن عبي الأوس والخزرج إلى يثرب كان بعد حادث سيل العرم . جازوا إليها لفقر حالهم ، والتمسوا لوطن صالح جديد ، وأنهم حينما نزلوها لم يكن لهم حول ولا قوة . ولذلك قنعوا بالذي حصلوا عليه من أرض ضعيفة موات ، ومن رزق شحيح . أما المال والثروة والملك والجاه ، فليهود . بقوا على ذلك أمداً حتى إذا ما ذهب مالك بن العجلان ، وهو منهم ، إلى أبي جيلة الغساني رئيس غسان يومئذ ، ونزل عنده ، شكوا لأمر غسان سوء حال قومه وما هم عليه من بؤس وضنك . فوعده أبو جيلة أن يأتي على رأس جيش من قومه لمساعدته ، على أن يقوم بعد عودته ببناء حائر عظيم ، يعلن أنه بناء لاستقبال الأمير فيه ، وأن يطلب من اليهود الخروج لاستقباله والشرف بزيارته في ذلك الحائر ، فإن فعلوه ، فتك بهم وأبادهم . فلما تم البناء ، ووصل الأمير في الأجل الموقوت ، ودخل المدعوون رؤساء اليهود الحائر ، فتكت عساكر أبي جيلة بهم وأهلكتهم . وتمت الغلبة من يومئذ للأوس والخزرج ، وعاد

١ الاغانى (٩٤/١٩) وما بعدها ، ابن خلدون (٥٩٤/٢) . تاريخ أبو الفداء (١٢٣/١) . مطبعة النظم .

٢ الاغانى (٩٥/١٩) ، الكامل ، لابن الأثير (٤٠١/١) .

أبو جبيلة الى مقر ملكه^١ .

غير ان اليهود ظلموا مع هذه الغلبة يتهاثرون مع الأوس والخزرج ويعترضونهم ويتأوبونهم ، فعمد مالك بن العجلان إلى الخيلة ، فظاهر أنه يريد الصلح معهم ، وأنه عزم على تسوية العداوات وطمس الحزازات ، وأنه لذلك يدعو رؤساءهم إلى طعام ، ليتفاوضوا مع سادات قومه في أمر الصلح . فلما حضر رؤساء يهود ، فثك بعشرات منهم ممن استجاب لدعوته ، وفرّ أحدهم ليخبر قومه بما حدث ، وحذر أصحابه الذين بقوا ، فلم يأت منهم أحد .

« فلما قتل مالك من يهود من قتل ، ذلوا ، وقلّ امتناعهم ، وخافوا خوفاً شديداً ، وجعلوا كلما هاجمهم أحد من الأوس والخزرج بشيء يكرهونه لم يمش بعضهم لبعض كما كانوا يفعلون قبل ذلك ، ولكن يذهب اليهودي إلى جيرانه الذين هو بين أظهرهم ، فيقول : انما نحن جيرانكم ومواليكم ، فكان كل قوم من يهود لجأوا إلى بطن من الأوس والخزرج يتعززون بهم ، ومنذ ذلك الزمن لم يبق لليهود على هذه الأرضين سلطان^٢ .

وورد في رواية أخرى أن (مالك بن عجلان) ، كان من الخزرج ، وكان سيد قومه يرمث ، وكان على اليهود رجل منهم اسمه (الفطّيون) ملك عليهم ، واستبد بأمر الناس ، وكان يهودياً ومن بني ثعلبة ، وكان أمراً سوء فاجبراً ، قرر ألا تدخل امرأة على زوجها إلا بعد دخولها عليه . فاشتاق مالك من فطيل القطييون ومن استدلاله للعرب ، ولما كان زفاف اخته لزوجها ، وكان لا بد من ادخالها على (الفطّيون) أولاً ليستمع بها ، كبر ذلك عليه ، فدخل معها في زني امرأة ، فلما أراد (الفطّيون) الخلو بها ، وثب مالك عليه وعلاه بسيفه وقتله ، وخلّص قومه منه ، وفرّ عندئذ إلى أبي جبيلة ملك غسان^٣ .

وتذكر هذه الرواية أن (أبا جبيلة) لم يكن من غسان ، بل كان من الخزرج ، وكان عظيماً ذا منزلة كبيرة في الناس ، حتى صار ملكاً على الغساسنة ، وبرجع

١ الاثناني (٩٧/١٩ وما بعدها) ، ابن خلدون (٥٩٦/٢) . أبو الغداء (١٢٣/١) ، الكامل (٤٠٦/١) .
٢ الاثناني (٩٥/١٩ وما بعدها) ، ابن الأثير ، الكامل (٤٠٦/١) وما بعدها .
٣ ابن الأثير ، الكامل (٤٠٦/١) ، وفي بعض النسخ « الفطّيون » ، بحرف القاف . وهو تعريف ، المعبر (١١٢) ، جبهة أشعار العرب (٢٤٣) ، (القاهرة ١٩٢٦ م) .

روايتها أنه لم يكن ملكاً على آل غسان ، بل كان مقرباً عند ملكهم ، عظيم
الخطوة لديه . ودليلهم على ذلك عدم اعتراف الفساسة بوجود ملك عليهم اسمه
(صيد بن سالم بن مالك بن سالم) ، وهو اسم (أبو جيلة) المذكور . ويذكرون
أن (الرمق بن زيد الخزرجي) مدحه بشعر قاله فيه ^١ .

وتذكر رواية أن القبطيون اسم عبراني ، واسمه (عامر بن عامر بن ثعلبة بن
حارثة) ، وكان تملك يثرب . فلما قتل خرج مالك بن العجلان ، حتى قدم
على (أبي جيلة) ملك غسان ، فأعلمه غلبة يهود على يثرب وفعله بهم ، فقدم
(أبو جيلة) يثرب ، ثم صنع طعاماً ، ومكن الأوس والخزرج بمن دعاهم
إلى الطعام من قتل مائة من أشرف اليهود ، فقويت الأوس والخزرج عليهم ^٢ .

وجاء في رواية أخرى ، أن (مالك بن العجلان) ، إنما قرأ إلى (تبع) ،
بعد قتله (القبطيون) فاستصرخه على اليهود ، فجاء حتى قتل ثلثمائة وخمسين رجلاً
غيلة من سادات يهود يثرب (ذي حرض) ، ولما أدبهم رجع إلى أرضه اليمن ^٣ .

أما مالك بن العجلان ، فقد صورته اليهود شيطاناً ملعوناً ، وصوروه في بيعهم
وكتائبهم ليلعنوه كلما دخلوا وراؤهم ، وذكروه في شعرهم في أقبح هجاء قالوه ^٤ .

وقد كان بين يهود يثرب قوم يقال لهم (بني القبطيون) بقوا حتى جاء الرسول
إلى يثرب . فأجلاهم في السنة الثالثة من الهجرة ^٥ . وذكر (ابن دريد) أن
بعضاً من (بني القبطيون) الذين هم من نسل (القبطيون) ملك يثرب ، قد
شهد (بدرأ) واستشهد بعضهم يوم اليمامة . وذكر أن نسب (القبطيون) في
غسان . وأن من ولد القبطيون : (أبو القشعر) واسمه (أسيد بن عيد الله) ^٦ .

١ ابن الأثير ، الكامل (١ / ٢٠٦ وما بعدها) .

٢ نوافر المخطوطات ، أسماء الغناتين (١٣٦) وما بعدها .

٣ البدء والتاريخ (٣ / ١٧٩) .

٤ الألفاني (١٩ / ٦٩) ، الاستبلاق (ص ٢٧٠) .

Graetz, Geschichte der Juden, V, S. 431, Hirschfeld, Essai de l'histoire des
Juifs de Médine, in Revue Etudes Juives, VII, 1883, p. 173, Caussin de
Perceval, Essai, II, p. 682, Wellhausen, Skizze, IV, S. 33, Nallino, Raccolta,
III, p. 111.

٥ الخبر (١١٢) .

٦ الاستبلاق (٢ / ٢٤٩) ومستغفله .

وقد فسر أهل الأخبار كلمة (القطييون) بـ (مالك) ، وقالوا إنها تقابل (النجاشي) عند الحبشة ، و (خاقان) عند الترك . وذكروا أسماء نفر من كانوا يلقبون بالقطييون^١ .

وفهم من روايات الأخباريين أن يهود الحجاز كانوا قبائل وعشائر وبطوناً ، منهم : بنو النضير ، وبنو قريظة ، وبنو قينقاع ، وبنو صكرمة ، وبنو عكر ، وبنو زعورا ، وبنو زيد ، وبنو الشظية ، وبنو جشم ، وبنو بهدل ، وبنو عوف ، وبنو القصيص (العيص) ، وبنو ثعلبة^٢ . غير أنهم لم يكونوا أمراً ، أي بدواً يتقلون من مكان إلى مكان ، بل كانوا حضراً استقروا في الأماكن التي نزلوا فيها ، ومارسوا مهنة أهل المدن ، كل جماعة مستقلة تحمل اسماً من تلك الأسماء التي ذكرها الأخباريون .

وقد عرف بنو قريظة وبنو النضير من بين اليهود بـ (الكاهنين) ، نسبوا ذلك إلى جدتهم التي يقال له (الكاهن) . و (الكاهن) هو الكاهن بن هارون بن عمران على زعم بعض أهل الأخبار^٣ . فهم على هذه النسبة من أصل رفيع ومن نسب حبيب ، يميزهم عن بقية طوائف يهود . ولهذا كانوا يفتخرون بنسبهم هذا ، ويرون لهم السيادة والشرف على من سواهم من الخوادم في الدين . ويرى (نولدكه) احتمال كون بني النضير وبنو قريظة من طبقة الكهنة في الأصل : هاجروا من فلسطين على أثر الحوادث التي وقعت فيها ، فسكنوا في هذه الديار . وهناك جملة عشائر وأسر يهودية تفتخر بإلحاق نسبها بالكاهن هارون شقيق موسى النبي^٤ .

كل ذلك يرجع (أولبري) كالمثال من المستشرقين أصل بني قريظة وبنو النضير إلى اليهود ، ويرى أنهم غادروا ديارهم وجاءوا إلى هذه المنطقة في الفترة الواقعة ما بين حراب الهيكل في عام ٧٠ للميلاد وتشكيل (هديران) باليهود في عام ١٣٢ للميلاد^٥ .

١ الاشتقاق (٢٥٩/٢) .

٢ الأغاني (٩٥/١٩) وما بعدها . سيرة ابن هشام (١٤٧/٢) وما بعدها .
Nöldeke, Beilage, B. 54.

٣ الأغاني (٩٥/١٩) ، تاج العروس (٢٥٩/٥) ، (قرط) .
Margoliouth, p. 59, Graetz, History of the Jews, III, p. 56.

Nöldeke, Beilage, B. 54.

٤ O'beary, p. 171.

ويرجع بعض بقية يهود جزيرة العرب نسبهم الى الكاهنين والى الأسباط العشرة كذلك، فيدعون أنهم من تلك الأسباط المفقودة ، وأنهم من نسل قدماء اليهود^١ . وقد كانت منازل بني النضير حينما غزاهم الرسول في وادي بطحان وموضع البويرة^٢ . ووادي بطحان ، هو أحد أودية يثرب الثلاثة ، وهي : العقيق وبطحان وقنافة . وهو واد فيه مياه غزيرة وعيون ، اتخذ به اليهود الخدائق والأطام . وقد كان موضع البويرة عامراً كذلك ، وهو من تيهام ، فيه نخل وزرع وأشجار . وقد غزاهم الرسول بعد سنة أشهر من غزوة أحد ، فأحرق نخيلهم وقطع زرعهم وشجرهم لتطاولهم على المسلمين . ومن ساداتهم : حيي بن أخطب ، وأخوه ياسر بن أخطب ، وسلام بن مشكم ، وكنانة بن الربيع ، وهو أبو رافع الأعور ، والربيع بن أبي الحقيق^٣ . وعمر بن جهاش . ومن بني النضير ، كعب بن الأشرف ، وكان معاصراً للرسول ، وكان صاحب لسان وثقوة . أبوه من طيء على رواية ، ومن بني النضير على رواية أخرى . أما أمه فهي من بني النضير بإجماع الرواة . توفي أبوه - على رأي من يقول إنه من طيء - وهو صغير ، فحملته أمه الى أخواله ، فقتلوا قتلهم ، وقال الشعر عندهم ، وساد . ولما جاء الرسول الى يثرب ، كان كعب فيمن ناصب الرسول العداء فعلاً وقولاً ، فهجا الرسول ، وهجا أصحابه ، وقتل هذا شأنه بالرغم من محاولة المسلمين استصلاحه واسترضائه . حتى جنى عليه لسانه ، فأعند النبي دمه ، فذهب اليه نفر من المسلمين ، فاقتحموا داره وقتلوه . وقد كانت له مناقضات مع حسان بن ثابت وغيره في الحروب التي كانت بين الأوس والخزرج^٤ .

^١ Nallino, Raccolta, III, p. 99, Friedlander, The Jews of Arabia and the Rechabites, in Jews quarterly Review, 1910-1911, p. 284.

^٢ بالضم ثم السكون ، وقيل بفتح أوله وكسر ثانيه وبفتح أوله وسكون ثانية ، (البلدان) (٢١٦/٢) ، (٥١٢/١) وما بعدها ، (السعادة) .
^٣ (البلدان) (٣١٠/٢) وما بعدها ، البكري ، معجم (٢٨٥/١) ، طبعة مصطفى السقا ، بوزية ، شرح ديوان حسان ، للبرقوقي (ص ١٩٣ وما بعدها) ، الطبرسي (٢٢٤/٢) ، (الاستقامة) ، فتوح البلدان ، للبلاذري (٢٢/١) ، (١٩٢٢ م) ، (القاهرة) .

^٤ الإغاني (١٠٦/١٩) وما بعدها ، المحير (ص ١١٧ ، ٢٨٢ ، ٣٩٠) ، ديوان حسان (ص ٤٦) ، طبعة هرشفلد ، شرح ديوان حسان (ص ٢٧٢ وما بعدها) ، للبرقوقي ، الكامل ، لابن الأثير (٢٩٩/٢) ، الطبرسي (١٧٧/٢) ، معجم الشعراء ، للبرزباني (٣٤٣) ، ابن خلدون (٧٥٧/٢) ، ابن هشام (٥٤٨/٢) ، البداية والنهاية (٧٤/٤) .

وكان قد ذهب الى مكة ، فعرض قريشاً على الرسول ، ولما عاد الى موضعه ، ألب المشركين من أهل يثرب عليه . ورثا قتل القلب ، فقتله المسلمون كما ذكرت^١ .

وكانت لبني قريظة حصون ، يتحصنون بها وقت الخطر ، ولم آبار ، ومنهم (محمد بن كعب القرظي)^٢ . والزبير بن باطلان بن وهب ، وعزال بن شويل ، وكعب بن أسد ، وشويل بن زيد ، وجيل بن عمرو بن سكين .

وكان بنو قينقاع أول اليهود الذين ناصبوا الرسول العداء ، وكانوا يسكنون في أحياء يثرب ، وكانوا أغنياء على غير وفاق وولام مع بقية أبناء قومهم بني قريظة وبني النضير . وقد اشتركوا في يوم بُعث . ووقعت بينهم وبين بني النضير وبني قريظة معارك فلك فيها بني قينقاع ، وأصيبوا بخسائر كبيرة اضطرتهم على ما يظهر الى اللجوء الى يثرب والإقامة فيها في حبي واحد من المدينة^٣ .

ويرى (أوليري) احتمال كون بني قينقاع من أصل عربي متهود ، أو من بني أدوم^٤ .

وقد تكون بعض القبائل اليهودية التي ذكر أسماءها الأخباريون قبائل يهودية حقاً ، أي من الجماعات اليهودية التي هاجرت من فلسطين في أيام القيصر (تيطوس) Titus ، أو (هادريان) Hadrian ، أو قبل إقامتها ، أو بعدها . ولكن بعضاً آخر منها ، لم يكن من أصل يهودي ، إنما كانت قبائل عربية دخلت في دين يهود ، ولا سيما القبائل المسماة بأسماء عربية أصيلة . وبعض هذه

١ التنبيه (٢٤٣) ، والمصادر المذكورة ، السيرة الحلبية (٩٤/٢) وما بعدها ، الكامل ،

لاين الاتير (٤٠١/١) وما بعدها ، ابن خلدون (٦٠٨/٢) ، ابن عساکر (٤٠/١) .

البداية والنهاية (٧٤/٤) وما بعدها .

٢ تاج العروس (٢٥٩/٥) ، (قرط) ، البداية والنهاية (١١٦/٤) ، الاغانى (٩٤/١٩) .

فتوح البلدان ، للبلاذري (٢٣/١) ، ٣٥ ، الطبري (٢٤٥/٢) ، (الاستقامة) ، السيرة

الحلبية (١٤٥/٢) وما بعدها ، ابن خلدون (٧٧٧/٢) .

٣ البداية والنهاية (٣/٤) ، الطبري (١٧٢/٢) ، (الاستقامة) ، البلد والتاريخ

(١٩٥/٤) ، البلدان (١٩٩/٧) ، ولقتسون (١٢٨) وما بعدها ، السيرة الحلبية

(٢/٢) وما بعدها ، ابن خلدون (٦٠٨/٢) .

٤ O'beary, p. 172 f.

الأسماء ، صلة بالوثنية تشير أنها كانت على الوثنية قبل دخولها في دين يهود^١ .
والظاهر أنها تهودت إما بتأثير التبشير ، وإما باختلاطها ودخولها في عائل يهودية
جاورتها فتأثرت بديانيتها . وقد ذكر البكري (٢٩/١) «طبعة السقاء» ، وهم
من بني قنلوا نقرأ من بني الربعة ، ثم لحقوا بنباء ، فأبى يهود أن يدخلوهم
حصنهم وهم على غير دينهم ، فتهودوا ، فأدخلوهم المدينة . فكانوا معهم
زماناً ، ثم خرج نفر إلى المدينة ، فأظهر الله الاسلام ، وبقيت من أولادهم بها^٢ .
وهناك بطون أخرى عربية الأصل كانت على دين يهود^٣ .

وقد اشتهر يهود خيبر من بين سائر يهود الحجاز بشجاعتهم . وخيبر موضع
غزير المياه كثيرة ، وقد عرف واشتهر بزراعته وبكثرة ما به من نخيل . وعند
اجلاء اليهود عن خيبر ، تفرقوا فذهب بعض منهم إلى العراق ، وبعض آخر إلى
الشام ، وبعض منهم إلى مصر . وقد بقوا في كل هذه المواضع متعصبين لوطنتهم
القديم خيبر ، ينادون بشعارهم الذي كانوا ينادون به قبل الاسلام ، وهو :
(يا آل خيبر)^٤ .

وقد اشتهرت (خيبر) وعرفت بالخمى . حتى نسبت إليها ، قليل لها (خمى
خيبرية) . وكان من أساطيرهم إذا ذك ، أن من أراد دخولها فعليه بالتبشير
ليخلص منها . وكان من أولادهم فيما يزعمون أن الرجل إذا ورد أرض وباء
ووضع يده خلف أذنيه ، فنهق عشر نهقات تهب المهار ، ثم دخلها آمن من
الوباء^٥ .

وزعم أن يهود خيبر هم من نسل (ركاب) المذكور في التوراة^٦ ، وأن
(يونادب) Jonadab (جندب) ابنه : تيشى مع أبنائه ومن اتبعه ، وعاش

١ Margoliouth, p. 50, Noldeke, Beiträge, S. 32, Wustenfeld, Geschichte von Medina, S. 38.

٢ البكري (٢٩/١) «طبعة السقاء» , Islamic Culture, III, Vol. 2, p. 171.

٣ Noldeke, Beiträge, S. 55.

٤ المشرق : السنة السادسة والثلاثون . ١٩٢٨ (ص ١٥٢ وما بعدها) .

٥ قال عمرو بن الورد :
والى وإن عثرت من خشية الردى
لهاتى حماراتى لجزوع

ناج العروس (٤٠٢/٣) . (عشر) *

٦ الملوك الثاني : الأسحاح العاشر ، الآية ١٥ - ٢٨ . Hastings, p. 784.

عيشة نقشف وزهد وخشونة ، وأن نسلهم هاجر بعد خراب القيسل الأول الى الحجاز حتى بلغوا خيبر ، فاستقروا بها ، واشتغلوا بزراعة النخيل والحبوب ، وأنهم أقاموا فيها قلاعاً وحصوناً تحميهم من غارات الأعراب عليهم . ذكر بعض الأخباريين أنها ولاية من سبعة حصون ، منها : حصن ناعم ، والقصص حصن ابن أبي الحقيق وهو أقواها وأعزها وقد أقيم على مرتفع من الأرض حماه وعزز دفاعه ، وحصن الشق ، وحصن التلطة ، وحصن السلام ، وحصن وجده ، وحصن الوطيح ، وحصن الكيبة (الكثبة) . وقد أخرجوا منها وأجلوا عنها زمان عمر بن الخطاب^١ .

وقد زعم بعض الأخباريين أن خيبر لفظة عبرانية ، وإن معناها الحصن في عبريتنا^٢ . وزعم بعض آخر أنها نسبة الى رجل اسمه (خيبر بن فانيه بن مهلايل) ، سميت خيبر باسمه ، لأنه كان أول من ثراها^٣ . وذهب (وايل) Well ، الى أن اللفظة لفظة عبرانية ، وهي بمعنى مجموعة مستوطنات^٤ . أما (دوزي) ، فقد أخذ بالرواية العربية ، فزعم أن (خيبر) ، كناية عن جماعة من اليهود هاجرت في أيام النبي من فلسطين الى هذا الموضع ، وهي من نسل (شغيب بن مهلايل) من (بني فارس)^٥ . وإن (فانيه) ، هو تحريف (شغيبا) Shattja المذكور في سفر (نحميا) من أسفار التوراة ، وهو ابن (مهلايل) ، الذي هو (مهلايل) عند أهل الأخبار . وزعم أن زمان هجرة هذه الجماعة يتناسب تماماً مع الرواية القائلة أن هجرة اليهود الى جزيرة العرب كانت في أيام (يحيى نصر)^٦ .

وذهب المستشرقون ان كلمة (خيبر) ، كلمة عبرانية الأصل (Kheber

١ البلدان (٢/٢٩٥ وما بعدها) ، البكري ، معجم (١/٥٢١) ، تاج العروس (٣/١٦٨) ، (خبر) ، زاد المعاد (٢/١٣٣) ، تاريخ الاسلام (١/٢٩٤ وما بعدها) ،

Graetz, III, p. 56, Ency., II, p. 809, Caetani, Annali, II, I, 8-33.

٢ ابو الفداء ، (ص ٨٩) ، البلدان (٣/٤٩٥) ، البكري ، معجم (٢/٥٢١ وما بعدها) ، تاج العروس (٣/١٦٨) ، (خبر) .

٣ R. Dozy, Mekka, II, 134.

٤ Mohammed der Prophet, II, 185.

٥ نحميا ، الإصحاح الحادي عشر ، الآية ٤ وما بعدها .

٦ R. Dozy, Mekka, II, 134. f.

ومعناها العاطفة والجماعة^١ . وذهب بعضهم الى ان معناها الحصن والمسكر^٢ . وهي من أقدم المواضع التي لجأ اليها اليهود في الحجاز .

ومن الصعب تعيين الزمن الذي هاجر فيه اليهود الى هذا الموضع . لقد رجع بعضهم ذلك الى أيام هجوم الرومان على فلسطين . غير ان من الجائز ان تكون هجرتهم اليها قد وقعت قبل ذلك ، ومن الجائز ان تكون في أثناء السبي واستيلاء البابليين على القدس ، وقد يجوز ان يكون قوم منهم قد جاءوا مع (نيونيد) ملك بابل الى تيماء حين اتخذ (تيماء) عاصمة له . فهاجر قسم منهم الى خيبر وإلى نواحي أخرى من الحجاز^٣ .

والقدم إشارة كتابية ورد فيها اسم خيبر ، نص : حرّان الحجاة ، ويرجع تأريخه الى سنة أربع مئة وثلاث وستين من الأندلسية الأولى ، وتقابل سنة ٥٦٨ للميلاد . وقد ورد فيه : « بعد مفسد خيبر بعم »^٤ . أي بعد حرب خيبر بعام . وهو يشير الى غزو لهذا الموضع أنزل به خسائر كبيرة ، ولاهيبته وفداحته في نفوس أهله أرغوا بوقوعه . ويعود النص المذكور المذكور باليونانية والعربية الى (شراجيل بن ظلمو) (شراجيل بن ظلم) ، وقد دونه لمناسبة بنائه (مرطولا) ، فأرخ بتاريخ خيبر المذكور . وهو يشير الى غزوة قام بها أحد أمراء غسان على خيبر^٥ .

وقد وجدت كتابات بحروف المستد وكتابات نبطية في خيبر ، هي أقدم عهداً من نص (حرّان الحجاة) ، يفهم منها بوجود سكن في هذه الأرضين يعود بعضه الى ما قبل الميلاد . ولم تكتشف تربة خيبر حتى الآن ، وكل ما عثر عليه من عاديات فيها هو من النوع الذي وجد ظاهراً على سطح الأرض ، وليس يستبعد أن يعثر فيها على كتابات قد تكتشف عن تاريخ هذه البقعة .

ولما بلغ أهل تيماء ما حدث لإخوانهم في خيبر ووادي القرى ، وقتلك ، قبلوا

Charles Cutler Torrey, The Jewish Foundations of Islam, New York, 1933, p. 13.

Ency., II, p. 879.

Torrey, p. 17, A. Müller, Der Islam, Bd. I, S. 36, ff.

جواد علي ، العرب قبل الإسلام (١٩٥/١) وما بعدها .

المصدر المتقدم ، المعارف (٣١٣) ، والفنسون ، السامية (١٩٢) .

الجزيرة ، وصالحوا الرسول في سنة تسع للهجرة ، فضمن بذلك لهم حرية بقائهم في دينهم . وعلى نيباء كان يشرف حصن السموأل (الأبلق الفرد) . وقد نمت نيباء في بعض الأشعار بنيباء اليهود^١ .

ونيباء من المواضع القديمة . وقد مرّ الحديث عنها في أماكن من هذا الكتاب . وقد سبق أن قلت بأن الملك (نبوتيد) قد أقام زماناً فيها ، حيث اتخذها عاصمة له . وهي في موقع حسن ، وملئى طرق هامة يسلكها التجار . وقد استبد بها اليهود فأقاموا بها وجعلوها من أهم مستوطناتهم في الحجاز . استغلوا أرضها فزرعوها ، واستنبطوا الماء من الآبار بالإضافة إلى واحتيا ذات المياه العذبة القريبة التي كان لها الفضل في تكوين هذا الموضع واهما . وقد ذكرت في شعر (امرئ القيس) ، وفيها كان حصن السموأل بين عادياء المذكور في قصص امرئ القيس الشاعر .

ويرى بعض المستشرقين أن (شمعون النيبائي) Simeon of Temanite المذكور في التلمود والمدرائش ، هو من أهل (نيباء)^٢ . ولا يستبعد أن يكون من بين أهل هذه المدينة من حصل على شهرة في العلم بفقه اليهود وبأحوال دينهم . فإن مركزها وموقعها يجعل من السهل على سكانها الوصول إلى فلسطين وبقية بلاد الشام وأخذ العلم من علماء تلك البلاد .

وقد عثر الرحالة (أويتنك) Euting على كتابة مدونة بقلم بني إرم تعود إلى عهد كان القريش قد استولوا فيه على هذا المكان ، تتحدث عن أهمية نيباء وبقية في هذا العهد^٣ . ولا يستبعد العثور على كتابات عديدة إذا ما قام العلماء بالتنقيب عنها في باطن الأرض ، فإن موضعاً مثل هذا الموضع لا بد أن يكون غنياً بالكتابات والآثار . وقد وجد (أويتنك) آثار معبد قديم ، وآثار مواضع عتيقة أخرى ترجع إلى ما قبل الإسلام^٤ . ووجد (جوسن) Jaussen و (سافيت) Savignac آثار مقابر على تلال من النوع الذي يطلق عليه الآثاريون اسم

١ البلدان (١١٢/٢) : نيباء ، : فتوح البلدان (٢٩/١) .
٢ Mishna Yadayim, I, 3, Yebamoth, 4, 13, Tosephta Berachoth, 4, 24, Sanhedr, 12, 3, Besa, 2, 19, Bab. Talmud, Zebachim, 32 b. Baba gamma, 90 b, Besa, 21a Tarrey, pp. 28 Margollicuth, p. 68.
٣ Ency., IV, p. 622.
٤ Euting, Tagebuch einer Reise in Innerarabien, II, 148, 199.

(تمولي) Tumuli ، ومرفأة مدمجة تؤدي الى بناء مربع لعله معبد من معابد القوم 'يبي على هذا التل' .

ولا توجد اليوم بقية للأبلى الفرد ، الذي اقتصر السموأل وآل السموأل به ، وكذلك يهود تها . وليس يستبعد ان يكون ذلك الحصن من بقايا قصر (نيونيد) أو من بقايا قصور رجاله ، أو من بقايا أبنية غيره ممن نزل هذا المكان . وقد يكون بناء أقدم السموأل وبناء بحجر تلك الأبنية القديمة . وقد اكسب قصر السموأل هذا الموضع شهرة ، وأكسبه خبر وفاة السموأل شهرة كذلك على النحو المذكور في كتب الأدب والأخبار .

وفدك موضع آخر من المواضع التي غلب عليه اليهود ، وسكانه مثل أغلب يهود الحجاز مزارعون عاشوا على الزراعة كما اشتغلوا بالتجارة وبعض الحرف التي تخصص فيها اليهود مثل الصياغة والحداة والتجارة . والموضع من المواضع القديمة التي يعود عهدها الى ما قبل الإسلام ، وقد ذكره الملك (نيونيد) في جملة المواضع التي زارها والتي خضعت لحكمه في الحجاز . وكان رئيس فدك عند ظهور الإسلام وهجرة الرسول الى يثرب يوشع بن نون^١ .

ووادي القرى ، هو من المواضع التي غصت باليهود ، فكان أكثر أهلهم منهم . وقد كان يهوده من المزارعين ، وقد حفروا به الآبار ، وتحالفوا مع الأعراب ، وعاشوا معهم متحالفين . يعملون بالزراعة . وقد غزاهم الرسول مرجعه من غير سنة سبع للهجرة ، على أثر إصابة (مدغم الأسود) مولى الرسول بسهم غارب قتله . وهو مولى مولد من (حسمى) ، كان أهداه (رفاعه بن زيد الجلفامي) أو (فروة بن عمرو الجلفامي) الى الرسول^٢ .

Jasssen and Savignac, Mission Archéologique, II, pp. 123, 163.

- ١ أبو القداء ، تقويم البلدان (٨٦) ، البكري ، معجم (٣٢٩/١) ، البلدان (٦٧/٢) ،
- ٢ اللسان (٧٦/١٢) ، صادر ، ابن حوقل ، صورة الأرض (٣٠) ، ابن خلدون (٥٧٤/٢) ، دائرة المعارف الإسلامية ، الترجمة العربية ، (١٣٠/٦) .
- ٣ البكري ، معجم (٣٢٧/١) ، تقويم البلدان (٧٨) .
- ٤ الطبري (٦٨/٢) ، حوادث السنة السابعة ، ابن الأثير (٦٣/٢) ، ذكر فدك ،
- البلاذري ، فتوح (٣٦ وما بعدها) ، Nallino, Raccolta, I, 198, III, 91.
- ٥ زاد المعاد (١٤٦/٢) .
- ٦ الطبري (١٦/٢) ، ذكر غزوة رسول الله ، صل الله عليه وسلم ، وادي القرى ،
- الإصابة (٣٧٤/٣) ، (رقم ٧٨٥٨) .

وكان بين أهل مقنا وأبله في إمام الرسول قوم من اليهود كذلك ، وكذلك أهل بقية القرى الواقعة في أعالي الحجاز وعلى ساحل البحر ، وقد صالحوا الرسول على الجزية ، وبذلك ضمنوا لهم البقاء في هذه الأنحاء^١ . ومن هؤلاء اليهود (بنو جنية) ، وهم يهود يد (مقنا)^٢ ، و (بنو غاديا)^٣ ، و (بنو عريض)^٤ .

وكان بالطائف قوم من اليهود طردوا من اليمن ويثرب ، فجامعوا إليها ، ولم تكن قد أسلمت بعد ، فأقاموا بها للتجارة . فلما صالح أهل الطائف الرسول - على أن يسلموا ويقرهم على ما في أيديهم من أموالهم وركائزهم ، واشترط عليهم ألا يربوا ولا يشربوا الخمر وكانوا أصحاب ربا - وضعت الجزية على يهودها ، وبثوا فيها ، ومن بعضهم ابتاع معاوية أمواله بالطائف^٥ .

ويظهر أنه لم تكن لليهود جاليات كبيرة في جنوب المدينة حتى اليمن ، لعلم إشارة أهل الأخبار إليهم ، وإن كنت لا أستبعد وجود أفراد وأسر منهم في مكة وفي عدن وفي المدن التي اشتهرت بالتجارة كبعض موانئ البحر الأحمر وموانئ سواحل العربية الجنوبية . غير أن وجودهم في هذه المواضع ، لم يكن له أثر واضح مهم ، فلم يتجاوز محيط التجارة والاتجار .

وقد ذهب بعض المشرقين ، استناداً إلى دراسة أسماء يهود الحجاز عند ظهور الاسلام ، إلى أن أولئك اليهود لم يكونوا يهوداً حقاً ، بل كانوا عرباً متهودين ، تهودوا بتأثير الدعوة اليهودية^٦ . ولكن الاستدلال من دراسة الأسماء على أصول الناس ، لا يمكن أن يكون حجة للحكم على أصولهم وأجناسهم . فالقرس والروم والهنود وغيرهم ممن دخل في الاسلام ، تسموا بأسماء عربية ، وبعضها أسماء عربية خالصة . وتسمياتهم هذه لا تعني أن من تسمى بها كان عربي الأصل . ثم إن كثيراً من اليهود في الغرب وفي أمريكا وفي البلاد العربية والاسلامية ، سموا أنفسهم بأسماء غير عبرانية ، ولكنهم كانوا وما زالوا على دين يهود .

١ البلدان (١٢٨/٨) « مقنا » - البلاذري ، فتوح (٦٦) ، زاد المعاد (١١٧/٢) .

الطبري (٢٢٢/٢) وما بعدها .

٢ ابن سعد ، طبقات (٢٧٦/١) .

٣ ابن سعد ، طبقات (٢٧٩/١) .

٤ ابن سعد ، طبقات (٢٧٩/١) .

٥ البلاذري ، فتوح (٦٣) .

٦ W. Gaskel, Das attarahische königreich Lihyan, S. 18.

فالأسماء وحدها لا تكفي في إعطاء رأي علمي في تعيين الأصول والأجناس ، ولا سيما في المواضع الكثيرة على طرق التجارة والمواصلات وفي الأماكن التي يكثر فيها الاختلاط .

وللمشرق (ونكسر) رأي في هذا الموضوع ، خلاصته : ان أولئك اليهود لو كانوا يهوداً حقاً هاجروا من فلسطين الى هذه المواضع ، لكانت حالتهم وأوضاعهم ومستواهم الاجتماعي على خلاف ما كان عليه هؤلاء اليهود . كانت حالتهم أرقى وأرفع من الحالة التي كانوا عليها ، إذ لا يعقل ، على رأيه ، وصول جماعة الى ذلك المستوى الاجتماعي الذي كان عليه يهود جزيرة العرب لو كانوا من بلاد مستواها الثقافي والمذهبي أرقى من مستوى من هو دونهم كثيراً في شؤون الحياة . ومستوى الحياة في جميع نواحيها ، في فلسطين ، أرقى وأرفع من مستواها في الأماكن التي وجد فيها اليهود من بلاد العرب . فهم على رأيه عرب متهودون ، لا يهود مهاجرون^١ .

غير أن هناك من يؤخذ ونكسر على هذا الرأي ، لأن رأيه لا يمكن ان يطبق على من ترك دياره وهاجر ، واستقر في موطن جديد لأمد طويل ، لأن الأوضاع المحيطة بالوطن الجديد سرعان ما تؤثر في المهاجرين ، ولا سيما إذا كانوا جماعات صغيرة أو جماعات ليست ذات بأس شديد ، فتجعلها تتصاع للمحيط الذي نزلت به بعض الإنصباغ ، فتفقد بعض خصائصها ، لتكتسب خصائص المجتمع الجديد . ثم إن اليهود الذين نزلوا في الحجاز ، كانوا يختلفون مع ذلك عن كان في جوارهم أو بينهم ، إذ كانوا يشتغلون بالزراعة ويمتهنون بعض المهن التي يأنفها العربي الأصل ، كما أنهم كانوا لا يرغبون في القتال ، ولا يميلون الى الغزو والحروب ، ولم يشتركوا إلا اضطراراً وإلا يلحاح المصالح الضرورية فيها ، وهم يختلفون في هذه الناحية من الأعراب^٢ .

ويلاحظ أن يهود الجاهلية لم يحافظوا على يهوديتهم وعلى خصائصهم التي يمتازون بها ويحافظون عليها بحافظة شديدة ، كما حافظوا عليها في الأقطار الأخرى . فأكثر أسماء القبائل والبطون والأشخاص ، هي أسماء عربية ، والشعر المنسوب الى شعراء منهم ، يحمل الطابع العربي ، والفكر العربي . وفي حياتهم الاجتماعية والسياسية

Winkler, Mitt. Var. Asat. Ges., VI, S. 221.

Margoliouth, p. 62.

لم يكتفوا بخلطهم باختلاف كبيراً عن العرب ، فهم في أكثر أمورهم كالعرب فيما سوى الدين^١ . ولعل هذا بسبب تأثير العرب المتهودة عليهم ، وكثرتهم بالنسبة إلى من كان من أصل يهودي ، مما سبب تأثيرهم ، وهم ذوو أقلية ، في اليهود الأصليين الذين أثروا فيهم فأدخلوهم في دينهم ، فأثروا هم فيهم ، وطبعوهم بطابع عربي .

وقد عاش اليهود في جزيرة العرب معيشة أهلها ، فلبسوا لباسهم ، وتكلموا معهم ، فتنزج اليهود عربيات ، وتزوج العرب يهوديات ، ولعل كون بعض يهود من أصل عربي ، هو الذي ساعد على تخطيم القيود التي تحول بين زواج اليهود بالعربيات وبالعكس . والفرق الوحيد الذي كان بين العرب واليهود عند ظهور الإسلام هو الاختلاف في الدين . وقد تمتع اليهود بحرية واسعة لم يحصلوا عليها في أي بلد آخر من البلاد التي كانوا بها في ذلك العهد^٢ .

ومن الأسماء التي قد تكون من أصل عبراني (زعورا) ، وهو اسم عبراني متأثر بلهجة بني لدم ، و (يساف) ، وقد يكون من (يوسف) ، و (نبتل) وقد يكون من (نقتال) Nafthali ، وأسماء أخرى لم تتمكن من المحافظة على أصلها العبراني ، فتأثرت بخواص اللسان العربي . وليس بين أسماء البطون اليهودية الأحد عشر ، التي كانت في الحجاز في أيام ظهور الإسلام ، اسم يظهر عليه الملامح العبرانية غير الاسم الذي ذكرته وهو (زعوراء)^٣ .

وكانت يثرب عند هجرة الرسول إليها ، في أيدي أصحابها الأوس والخزرج ، لهم السيطرة والسلطان ، واليهود آطامهم وقلاعهم في عيبر وفي نهاء وفي بعض قرى وادي القرى وفي أعالي الحجاز ، يتاجرون ، ويزرعون ، ويقرضون الأموال بالربا القاحش للأعراب ، ويعترفون بعض الحرف مثل الصياغة ، وهي حرفة اشتهروا بها منذ القديم ، ويعقدون الأسواق ليقتصدوا الأعراب للامنيار .

ولكن اليهود مع ما كان لهم من قلاع وآطام وقرى عاشوا فيها متكئين مستقلين لم يتمكنوا من بسط نفوذهم وسلطانهم على الأعراب التي أنشأوا مستوطناتهم

Nöldeke, Beiträge, S. 55. f.

Gracia, III, p. 58, f., 60.

Margoliouth, p. 60, Nallino, Raccolta, III, p. 104, H. Hirschfeld, Essai sur l'histoire des Juifs de Médine, in Revue des Etudes Juives, X, 1883, p. 11. f.

فيها ، ولم يتمكنوا من انشاء ممالك وحكومات يحكمها حكام يهود ، بل كانوا مستقلين في حياة سادات القبائل ، يؤدون لهم إتاوة في كل عام مقابل حمايتهم لهم ودفاعهم عنهم ومنع الأعراب من التعدي عليهم . وقد لجأوا الى عقد المحالفات معهم ، فكان لكل زعيم يهودي حليف من الأعراب ومن رؤساء العرب المتحضرين .

وقد كان اليهود يخضعون في نظامهم السياسي والاجتماعي لرؤسائهم وساداتهم ، يدفعون لهم ما هو مفروض عليهم أداؤه في كل سنة . وهؤلاء السادة هم أصحاب الأطلام والحصون والأرض . ولم يشغل في الأرض تسديد ما عليه لصاحبها في مقابل استغلاله لها . وقد اعتنوا صناية خاصة بزراعة التخليل . وعرفت القطعة من الأرض المزروعة نخلاً عندهم بـ (الصورين) (الصور)^١ . ولما كانت الأرضون المزروعة واسعة ، كانت خارج الأطلام والحصون ، يحميها حراسها والمشتغلون بها أيام ثمرتها . وأما في أيام الغزو والحروب ، فقد كانت معرضة لهجوم المهاجمين . وهذا ما كان يعرض أعظم غلة لليهود للخطر ، ولهذا شق عليهم كثيراً ، وانهارت مقاومتهم حين أمر الرسول بقطع النخل وتحريقه ، وأخذوا يلتمسون منه وقف ذلك . ويتولى الأعيان الأمور الدينية وتنفيذ الأحكام والنظر فيما يحدث بين الناس من خصومات . يقيمون لهم الصلوات وبقية شعائر دينهم ، ويعلمونهم في بيوت المدارس .

وقد أدى التنافس بين سادات يهود الى نشوب معارك بينهم في الجاهلية . وقد أشار اليها القرآن الكريم وأنبههم على ذلك . واضطرت بنو قينقاع بسبب ذلك وبضغط بني النضير وبني قريظة الى الالتجاء الى أحياء يثرب والى محالفة الخزرج ، وفي مقابل ذلك تحالفت بنو النضير وبنو قريظة مع الأوس ، فصاروا فرقتين : فرقة مع الخزرج ، وفرقة مع الأوس .

وفي تأليب يهود ، لتخاصمهم وتنازلهم وإخراجهم بعضهم بعضاً من ديارهم وأمر بعضهم بعضاً واغتداء الأسرى كالذي وقع بين بني قينقاع وبني النضير ، نزل الوحي : « وإذ أعلننا ميثاقكم ، لا تسفكون دماءكم ، ولا تخرجون أنفسكم

١ الروض الأنلب (٢/ ١٩٤) ، ابن هشام (٢/ ١٩٥) ، حاشية على الروض ، (الصور) : أصل التخليل ، (الصور : النخلة) ، تاج العروس (٢/ ٢٤٣) ، (صور) .

من دياركم ، ثم أقررتم وأنتم تشهدون ، ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم ، وتخرجون فريقاً منكم من ديارهم تظاهرون عليهم بالإثم والعدوان . وإن يأتوك أسرى ، فتشددوهم وهو محرم عليكم إخراجهم ، أفئذمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض ؟ فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزي في الحياة الدنيا ، ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب ، وما الله بغافل عما تعملون ^١ . أنتم لأنهم فعلوا فعل المشركين والأعراب ، مع أنهم أهل دين واحد وكتاب . أما المشركون فلا لوم عليهم ، لأنهم لم يكونوا على دين ، وليس لهم كتاب يأمرهم وينهاهم .

وفي المعارك والخصومات التي تقع بين يهود ، كانوا يؤدون الذببة . وهي على ما يظهر من روايات أهل الأخبار مختلفة ، وغير متكافئة . فكان بنو النضير يؤدون الذببة كاملة لشرفهم في يهود ، أما بنو قريظة ، فكانوا يؤدون نصف الذببة . وفي خلاف في أداء الذببة وقع بينهم ، التجأوا إلى الرسول للحكم بينهم ، فذكروا له هذا الاختلاف ، فحكم بالذببة متساوية . وفي هذا الحكم نزلت الآية : « سماعون للكذب ، أكناولون للسحت » ، فإن جازوك فاحكم بينهم أو أعرس عنهم ، وإن تعرض عنهم فلن يضروك شيئاً ، وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط ، إن الله يحب المقسطين ^٢ . ذكر علماء التفسير عن (ابن عباس) أنه قال : « كانت قريظة والنضير ، وكان التفسير أشرف من قريظة ، فكان إذا قتل رجل من قريظة رجلاً من النضير قتل به ، وإذا قتل رجل من النضير رجلاً من قريظة ودى مائة وسق من تمر ، فلما بعث رسول الله صل الله عليه وسلم ، قتل رجل من النضير رجلاً من قريظة فقالوا : ادفعوه إلنا لقتله ، فقالوا : بيننا وبينكم النبي ، صل الله عليه وسلم ، فزلت : وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط . النفس بالنفس ، وزلت الحكم الجاهلية يبهون ^٣ .

وذكر علماء التفسير في تفسيرهم للآيات المتقدمة ، أن أخبار اليهود لم يكونوا يحكمون بالحق فيما بين الناس ، كانوا يحايون وينحزبون ويحكمون بالباطل ويأكلون (السحت) أي الرشا ، جزاء حكمهم بالباطل . وكانوا يتساهلون في تطبيق أحكام

١ البقرة . الآية ٨٤ وما بعدها ، روح المعاني (٣٠٩/١) . ابن هشام (٢٣/٢) .
(حاشية على الروض) .
٢ المائدة . الآية ٤٢ .
٣ تفسير القرطبي . الجامع (١٨٧/٦) . تفسير الطبري (١٥٧/٦) .

الشرعة مع الشريف لشرفه ، ويتشددون مع الدنسيه لذمائه وفقر حاله ، ولا يراعون التساوي في أخذ الديّات . « كان الشريف إذا زنى بالدنيئة وجموها هي وحوا وجه الشريف وحملوه على البعر ، أو جعلوا وجهه من قبل ذنب البعير . وإذا زنى الدنيء بالشريفة ، رجموه » . وكان هذا شأنهم « الى ان زنى شاب منهم ذو شرف ، فقال بعضهم لبعض لا يدعكم قومه ترجمونه ، ولكن اجلدوه ومثلوا به ، فجلدوه وحملوه على حمار أكاف وجعلوا وجهه مستقيل ذنب الحمار . الى ان زنى آخر وضع ليس له شرف ، فقالوا ارجموه . ثم قالوا فكيف لم نرجموا الذي قبله ، ولكن مثل ما صنعتم به فاصنعوا بهذا » ، واعتلقوا فلعب فریق منهم الى الرسول ، فحكم بينهم بما جاء بحكم التوراة^١ .

وذكر ان (حبي بن أخطب) كان قد حكم ان للتضري ديّتان والقرطي ديّة ، لأنه كان من التضير^٢ .

وذكر أهل الأخبار انه كان لليهود حكام يحكمون بينهم ، ويقيمون حدودهم عليهم . فلما جاء الرسول الى يثرب ، صار اليهود يعترضون على عدالة حكم بعضهم ، ولا يرضون بتنفيذ أحكامهم عليهم . فكان الحكام او هم يلعبون الى الرسول لكي يحكم بينهم فيما هم فيه مختلفون وفق شريعته^٣ .

وكان جلّ اعتماد اليهود في هذه المنطقة عند ظهور الاسلام على التجارة ، ومعاطاة الربا والزرع ، وبعض أنواع الصناعة : كالصباغة ، وثرية ماشية والدجاج ، وصيد الأسماك في أعالي الحجاز على ساحل البحر الأحمر . واشتهروا بالانجار بالبلح وبالبز والشعير والخمر ، وكانوا يجلبون الخمر من بلاد الشام ، وكانوا يبيعون بالزمن ، يرهن المشرون بعض أمتعتهم عندهم ليستدينوا منهم ما يحتاجون اليه . وقد ورد ان الرسول رهن درعاً له عند يهودي من أهل يثرب في مقابل شعير كان به حاجة شديدة اليه^٤ .

ومن الصناعات التي اشتغل بها اليهود، النسيج وهو من اختصاص نساءهم على

١ تفسير الطبري (١٥٧/٦) .

٢ تفسير الطبري (١٥٧/٦) .

٣ تفسير القرطبي ، الجامع (١٨٧/٦) .

٤ البخاري (١٦/٢ ، ٤٥) ، فتوح البلدان (٦٠) ، والفسون (ص ١٨) .

Islamic Culture, 1929, III, No. 2, p. 187.

الأكثر ، والصياغة وقد اقتص بها بنو قينقاع ، والحدادة ، وهي صناعة يألف منها العرب ويزدرونها ويرونها من الحرف المعقونة الحظيرة .

ولم يكن من مصلحة اليهود ، وهم أهل زرع وضرع ومال وتجارة وأرض ثابتة وقصور وأطنام ، أن يشتركوا في الحروب أو يشجعوا وقوعها في ديارهم وفي جوارهم ، بل كان من مصلحتهم أن يعم الاستقرار للبلاد التي يقيمون فيها ، ليعيشوا عيشة هينة ، وليبيعوا ما عندهم من الأعراب وليشترؤا منهم ما عندهم من سلع وليقبضوا أموالهم منهم والأرباح التي استحققت على تلك الأموال .

وفي النزاع الذي يقع بين القبائل ، لم يكن من مصلحتهم تأييد حزب على حزب ، خوفاً من الوقوع في الخطأ نجر عليهم أخطاراً ومهلكاً هم في غنى عنها وفي مسائل من شرها . ثم إنهم يتحزبون لطرف يقضون الطرف الآخر ، فيضمر عندئذ شراً لهم ، فيخسرون بذلك مشرباً وبائعاً ، وهم أناس أصحاب سوق وتجارة . غير أن الظروف كانت تكرههم في بعض الأحيان على الاشتراك في الحرب ، وعلى إثارة الحرب أيضاً متى وجدوا في إثارتها فائدة لهم ومصلحة تمنحهم كان يتهكوا العدو بحرب مع عدو آخر بإيقاع الفتنة وإشعال النيران ، كما أوقعوا بين الأوس والخزرج ، لإضعاف الطرفين معاً ، حتى لا تبقى لهم قوة تهددهم وتكون خطراً عليهم .

وفي يوم بعث استعان الأوس ببني قريظة والنضير ، فبلغ ذلك الخزرج فأرسلوا إليهم يحذرونهم من سوء عاقبة الاشتراك في هذا النزاع ، فتوقفوا ، غير أنهم عادوا فعاونوا الأوس ، وانضم إليهم بنو النيث . فلما كسب الأوس الحرب ، كسب بنو قريظة والنضير والثبث غنائم من الخزرج ، وخرجوا في هذا اليوم منتصرين بانتصار الأوس .

ويذكر أهل السير والأخبار : أن يهود يثرب كانوا إذا تصايقوا من الأوس والخزرج هددوهم بقرب ظهور نبي يستعلن به عليهم . فقصي رواية عن بعض الصحابة أنهم قالوا : « كنا قد علمناهم في الجاهلية ، ونحن أهل شرك وهم أهل كتاب ، فكأنوا يقولون لنا : إن نبياً يبعث الآن تبعه ، قد أطل زمانه ،

١ ابن هشام (٣/٩٤) ، اليهود (ص ٦٢ وما بعدها) .

تقتلكم معه قتل عاد وإرم^١ . ولما ذكرهم معاذ بن جبل وبشر بن البراء بن معرور ونقر آخرون بدعواهم تلك ، وبظهور النبي العربي بقولهم لهم : يا معشر يهود ، اتقوا الله ، واسلموا ، فقد كنتم تستفتحون علينا بمحمد ، ونحن أهل شرك ، ونخبروننا أنه مبعوث وتصفونه لنا بصفته ، فكان جواب يهود لهم ما جاء على لسان سلام بن مشكم أحد بني النضير : ما جاءنا بشيء نعرفه ، وما هو بالنبي كنا نذكره لكم . وقد أشير إلى ذلك في القرآن الكريم : ولما جاءهم كتاب من عند الله مصفق لما معهم ، وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا . فلما جاءهم ما عرفوا ، كفروا به ، فلما الله على الكافرين^٢ .

واستفتاح اليهود على المشركين ، هو للتفريج عن أنفسهم ولتخريف الأوس والخزرج ولاعتقادهم حقاً بظهور مسيح منهم ، أي من بني إسرائيل . ولذا أنكروا نبوة الرسول ، وأبوا التسليم بها ، لأنه لم يكن منهم ، ولأن النبوة لا تكون — على رأيهم — إلا في بني إسرائيل . فكيف يصنفون بنبي عربي من الأميين (نبي أموت ها عولام) Nebi'e Ummot ha-Olam .

يهود اليمن :

والموضع الثاني الذي عشت فيه اليهودية وباشت ، هو اليمن . ففي هذه الأرض من جزيرة العرب ظهر اليهود فيها ظهوراً واضحاً ، وصارت اليهودية ديانة البلاد الرسمية . أما كيفية مجيئها وانتشارها هناك ، ومتى كان ذلك ، فليس لدينا علم واضح دقيق عن ذلك . ويزعم أهل الأخبار أن تبعاً ، وهو التبّع (تَبَّان) أسعد أبو كرب) ، اعتلى إلى هذه الديانة عند اجتيازه يثرب وهو عائد إلى اليمن من حرب قام بها في الشمال وفي إيران ، وذلك بتأثير بعض الأخبار عليه ، ومنذ ذلك الحين صارت هذه الديانة ديانة رسمية للبلاد^٣ .

وتجمل بعض روايات الأخباريين اسم هذا التبّع (تبع بن حسان) أو (حسان) ،

١ ابن هشام (١٦٦/٢) ، (طبعة محمد محيي الدين عبد الحميد) ، تفسير الطبري (٢٢٤/١) .
٢ البقرة ، الآية ٨٩ ، تفسير الطبري (٢٢٤/١) . روح المعاني (٢٨٩/١) .
٣ الطبري (١٠٥/٢) وما بعدها ، (طبعة دار المعارف بمصر) .

وهو (تبع الأصغر) ، او (أبو كرب بن حسان بن اسعد الحميري) أو غير ذلك . وترجم ان حبرين من أحبار اليهود من بني قريظة عالين راسخين في العلم ، هما اللذان هدبا التبغ الى اليهودية ، وأبعداه عن عبادة الأوثان^١ .

وقد يكون لهذه الروايات شيء من الصحة ، غير أنني أرى ان دخول اليهودية الى اليمن مرده ايضاً الى اتصال اليمن من عهد قديم بطرق القوافل التجارية البحرية والبرية ببلاد الشام . وفي قصة سليمان ومملكة سبأ إشارة الى تلك الصلات ، وإلى هجرة جماعات من اليهود الى هذا القطر عن طريق الحجاز ، بعوامل متعددة ، منها : التجارة والهجرة الى الخارج ، وهروبهم من اضطهاد الرومان لهم ، وحوامل أخرى جعلتهم يتجهون من الحجاز الى اليمن ، فأقاموا هناك .

وأما يهود اليمن المحدثون فإن أحبارهم ورجال العلم والفهم منهم يرجعون وجودهم في اليمن الى أيام النبي ، أي الى أيام (نعت نصر) ، وهم يزعمون أنهم بقوا في اليمن منذ ذلك الحين ولم يعودوا الى فلسطين^٢ . وقد غادروا اليمن بعد التوسيم .

وقد أشار حبر يسمى (ربي عاقبة) (رباي عقيبة) Rabbi 'Aqiba ، في حوال سنة (١٣٠ م) ، الى زيارته لملك عرسي كوشي (مليخ عرابيم) كانت زوجته كوشية كذلك ، وإلى تحفته معه ، ويراد به (كوش) الأحباش غير ان بعضهم كان يقصد بها العربية الجنوبية كذلك . ولا يستبعد ان يكون مراد الحبر بذلك اليمن ، أو منطقة أخرى من العربية الجنوبية كان الحبش قد استولوا عليها^٣ . وربما قصد منطقة الفريضة ساحلية كان يحكمها ملك عرسي في ذلك الوقت .

وتدل رحلة (ربي عقيبة) R. 'Aqiba هذه إلى اليمن على وجود يهود فيها ، إذ لا يغفل سفره هذا إلى تلك البقعة النائية وتبعثه مشقة ، لو لم تكن هناك

١ الانباري (١٠٩/١ وما بعدها) ، (١٢٠/١٣ وما بعدها) .

Causin de Perceval, Essai, I, 91, Nallino, Raccolta, III, p. 88.

Travels and adventure of the Rev. Pöseph Walf, London, 1881, p. 509, S.

Dosy, Die Israeliten zu Mekka von David Zeit bis in's fünfte Jahrhundert unserer Zeitrechnung, 1864, S. 135.

Islamic Culture, III, 2, p. 190 (1929), Josephus, Antiquitates, XV, 3, 29, Die

Araber, III, S. 22, Talmud Babil, in Rosh Hashnab, 28a, Kraus, in ZDMG.,

S. 333, 1908.

جالية يهودية فيها . وقد يجوز أن تكون سفرته إلى اليمن مجرد سفرة استطلاع وعبور ، لغاية الذهاب من اليمن إلى الحبشة ، ولكنني لا أستبعد مع ذلك وجود اليهود في اليمن في هذا العهد ، إذ كان (أوليوس غالوس) قد جاء بجمع منهم معه في حملته على اليمن ، فيجوز أن يكون بعضهم قد فضل البقاء في اليمن والسكن فيها لطبيعتها ونخسب أرضها وتعبهم من السفر ، ففضلوا لذلك البقاء على الرجوع وتحمل المشقات والجوع والعطش والمهلك . وقد هلك بالفعل القسم الأكبر من رجال الحملة بسبب صعوبة الطريق والحرق الشديد والجوع والعطش .

وقد عثر على كتابة من كتابات القبور في (بيت شعاريم) Beth She'arim في جنوب شرقي حيفا ، ورد فيها : (منحم قولن حيرن) Mahm Kwin hmyrn أي (مناحيم قيل حير) . والموضع الذي وجدت هذه الكتابة فيه ، هو مقبرة من مقابر كبار الأعيان ، وقد وجدت معها كتابات أخرى ، تشير إلى أسماء أعيان معروفين قبروا فيها . لذلك فإن (مناحيم) (قيل حير) هو يهودي ، قد كان جاء إلى فلسطين للزيارة أو للاتصال بعلماء اليهود الذين كانوا قد تجمعوا في (بيت شعاريم) ، فمرض ومات هناك . ودفن في مقبرة هذا الموضع . ويرجع الباحثون تأريخ الكتابة المذكورة إلى حوال سنة (٢٠٠ م) .

واستدل بعض المستشرقين بنص دونه (شرحيل يعفر بن أبي كروب أسعد) على سد مأرب ، وردت فيه جملة (يعمل سمن وأرضن) ، أي (رب السماء والأرض) على أنه يهودي بحجة أن هذه العبارة تشير إلى التوحيد الخالص ، والتوحيد الخالص هو عقيدة يهود .

وقد ذكر المؤرخ النصراني (فيلستورجيوس) Philostorgius في حوال سنة ٤٢٥ م ، أن أهل سبأ كانوا يتبعون في (السبت) سنة (إبراهيم) ، ولكنه ذكر أيضاً أنهم كانوا يعبدون الشمس والقمر ومعبودات أخرى ، وأن بعضاً منهم كان على دين يهود ، وأنه قاوم رسالة (ثيوفيلس) Theophilus الذي أرسله القيصر

Ullendorff, in Journ. of Sem. Stud., Vol. I, Num. 3, July 1956, p. 223.

B. D. Goltz, Jews and Arabs, New York, 1955, p. 47, Die Araber, III, 8, 16.

ff., Corp. Inscript. Judaic, 2, 1933, 207, Nr. 1137, Driver, in Hebrew and

Semitic Studies, 1963, 151. f.

Islamic Culture, 1929, III, 2, p. 191, Margoliouth, Relations, p. 68.

قسططين (٣٤٠ - ٣٦١ م) لتبشير بين الحميريين . وذكر المؤرخ (ثيودور لكتور) Theodorus Lector ، وهو من رجال النصف الأول للقرن السادس للميلاد ، ان الحميريين كانوا في بادئ أمرهم على دين يهود ، دخلوا فيه في أيام ملكة سبأ المعروفة بقصتها مع سليمان ، بدعوتها إياهم إلى هذا الدين. ولكنهم كما يقول هذا المؤرخ عادوا فارتدوا إلى الوثنية ، ثم دخلوا بعد ذلك في النصرانية في أيام القيصر (أنسطاس) Anastasus (٤٩١ - ٥١٨ م) . ولم يشر هذا المؤرخ إلى وجود اليهودية بين الحميريين ، كما أنه لم يشر ولا للمؤرخ الآخر إلى يهود أحد من ملوك حمير .

ويهم من الجمل : « وان اليهود الكاثنين في طبرية يرسلون سنة فسنة ووقفاً فآخر كهنة منهم إلى هناك لإثارة السجس بين نصارى الحميريين. فلو كان الأساقفة نصارى وليسوا بشركاء لليهود ، ويودون ان تستقيم النصرانية ، لرغبوا إلى الملك وعظماؤه ، ليلقوا القبض على رؤساء كهنة طبرية وبقية المدن، ويلتفهم في السجن . ولا نقول هذا لنجازي سبغة بسبغة ، بل ليتوقفوا عنهم بكفلاء حتى لا يعودوا يرسلون رسائل وأشخاصاً وجبهين إلى ملك الحميريين ، فيصب صاعقة الأرزاء على شعب المسيح في حمير ... » ، وهي جمل اقتبسها من رسالة (شمعون) عن تعذيب نصارى نجران ، ان يهود اليمن لم يكونوا بمعزل عن يهود فلسطين ، بل كانوا على اتصال بهم ، وان أخبار طبرية كانوا يرسلون رجالاً منهم إلى اليمن ومعهم أموال ووجوه إلى يهودها وملوكها وكبارها لتأثير فيهم ولتوثيق صلاتهم وروابطهم بهم . وقد نسب شمعون إلى أخبار طبرية ، أنهم كانوا يخرضون ملك حمير ويهود حمير على الضغط على نصارى اليمن وعلى اضطهادهم انتقاماً منهم ، فطالب الحكومة والنصارى على الضغط على يهود فلسطين وعلى أخبار طبرية بصورة خاصة ، ليكتبوا إلى يهود حمير بالكف عن التحرش بنصارى اليمن ، وعن تهديدهم بإتزال العقوبات بهم انتقاماً منهم إن لم يسدوا لهم النصيح .

وورد في أخبار الشهداء الحميريين : أن أخباراً من فلسطين مسن (طبريا) Tiberias ، كانوا قد جاؤوا لإخوانهم في الدين يهود اليمن وسكنوا معهم . ومعنى

Margoliouth, p. 62 f., Migne, Patrologia Graeca, XXXV, p. 211, Islamisme
culture, 1929, III, 2, p. 190, Philostorgius, Hist. Eccl., III, 8.
Margoliouth, p. 68.

هذا أن الصلات بين يهود اليمن ويهود فلسطين كانت موجودة ، وأن يهود اليمن لم يكونوا معزول عن يهود فلسطين ، ويجب أن يقال مثل ذلك عن يهود الحجاز ، إذ لا بد وأن يكون لليهود الحجاز اتصال بيهود فلسطين ويهود اليمن . وكيف لا يكون لهم اتصال بهم ، وهم جيران فلسطين ولهم تجارات معهم ، ثم لأنهم على طريق اليمن وفلسطين ، فإذا أراد يهود فلسطين الذهاب إلى اليمن ، أو يهود اليمن الذهاب إلى فلسطين فلا بد من المرور بأرض يهود الحجاز والتزول بهم .

وقد عثر في اليمن على نص مكتوب بالسند ، وردت فيه كلمة (إسرائيل) و (رب يهود) . ويدل هذا على أن صاحبه كان على دين يهود . عثر عليه المستشرق (كلاسر) ونشره المستشرق (وتكلر) ، وهذا هو : « تبارك اسم رحمن ذو بسمين (سمين) ويسر إل والقو رب يهود . ذ هرد عيدهو وشحرم واهووم (؟) وحشكهو ششم واولدهو ذم (؟) وأبشعر ومار وكل إيه »^١ . وأما كتابته بلهجتنا ، فعلى هذا النوال : « تبارك اسم الرحمان الذي في السماء واسرائيل وإله رب يهود الذي ساعد عبده شحراً وأمه يم (؟) وزوجته ششاً وأولاده ذم (؟) وأبشعر ومثاراً وكل أهله (بيته) » .

غير أن من الباحثين من يشك في صحة نقل هذا النص نقلاً صحيحاً تاماً ، ولم يتأكد من صحة نقل كلمة (إسرائيل)^٢ .

واليهودية وإن ضعفت في اليمن بدخول الحبشة فيها ، بقيت مع ذلك محافظة على كيانتها ، فلم تنهزم ، ولم تبحث من أصولها ، وبقيت قائمة في هذه البلاد في الإسلام كذلك فلم يجل أهلها عنها كما أجلى أهل خيبر ، وظلت بقيتهم هناك إلى سُنَيَات قريبة حيث غادروها على أثر حوادث فلسطين .

وقد كانت (نجران) من المستوطنات المهمة التي نزل بها اليهود في اليمن^٣ . وهي مكان خصيب ، وقد عاش اليهود فيها مع غيرهم من العرب من نصارى وعبدة أصنام .

ووجد اليهود في مواضع أخرى من جزيرة العرب . وجدوا في العربية الشرقية

Glaser 394-395, Revue des Etudes Juives, 1891, vol. 23, p. 122, Winckler, 1
AOP, I, 8, 337.
Margolouth, p. 68. 2
معجم (١/٢٢٧) 3

وفي نجد وفي مواضع من العربية الجنوبية . ولما ارتد (بنو وليعة) والأشعث بن قيس بن معديكرب بن معاوية الكندي ، وتحصن (الأشعث) في النجبر) ، وهو حصن لهم ، كانت فيه امرأة من يهود ، عرفت بشيائها بوفاة الرسول ، اسمها (هند بنت يامين) اليهودية ^١ . مما يدل على وجود اليهود في هذا المكان . وكان بالبحرين قوم من اليهود ، صالحوا المسلمين مثل النصارى على دفع الجزية عن رؤوسهم ^٢ . وقد كتب (المنذر بن ساوى) العبدي ، يخبر الرسول أن بأرضه يهود ومجوس ، فكتب اليه الرسول : « من أقام على يهودية ، أو مجوسية فعليه الجزية » ^٣ .

-
- ١ البلاذري . فتوح (١١١) ، « ردة وليعة والأشعث بن قيس بن معديكرب بن معاوية الكندي » .
 - ٢ البلاذري ، فتوح (٨٩ ، ٩١) ، (البحرين) .
 - ٣ ابن سعد ، طبقات (٢٦٢/١) .

الفصل السابع والسبعون

اليهود والاسلام

ويتبين من القرآن الكريم ، أن اتصال الرسول باليهود اتصالاً مباشراً إنما كان في يثرب . أما في مكة ، فلم يكن لليهود فيها شأن يذكر ، لذلك لا تجسد في الآيات المكتبة ما تجده في الآيات المدنية، ولا سيما المتأخر منها ، من تخريم لليهود وتوبيخ لهم ، لوقوفهم موقفاً معادياً من الاسلام ، واتفاقهم مع المشركين في معارضة الرسول ومقاومته . وقد بدأ اليهود يعارضون الرسول والاسلام ، حينما طلب اليهم الدخول في الاسلام والإيمان برسول الله ، وحينما تبين لهم أن الأمر سيفلت من أيديهم ، وأن الرسول ليس كبقية رجال قريش أو غير قريش سهل الانقياد مطواعاً لهم ، وأن تعاليم الاسلام متضدّة للعرب عليهم ، ولا سيما بعد تحريم الربا . والربا مورد مهم كان يدرّ ربحاً عظيماً على يهود ، لهذا وجدوا مصلحتهم في معارضته ومقاومته وفي الاتفاق مع المشركين عليه .

ويظهر أنه لم يكن لليهود نفوذ كبير ولا جاليات كبيرة في مكة . فلو كان لهم نفوذ فيها أو رأي مسموع ، لسمعنا به كما سمعنا بخبرهم في يثرب ، ولكان لهم حيّ خاص بهم ، ومكانة بين رجال قريش ، كالذي كان عليه يهود يثرب في اتصالهم بالأوس والخزرج . ولأشير اليهم في السور المكتبة ، على نحو ما أشير اليهم في السور المدنية ، ثم لما اضطر رجال قريش للعقاب إلى يثرب مراراً ، لاستشارتهم في أمر سلوكهم مع المسلمين، ولما جاء سادات يهود يثرب إلى مكة ، لتحريض أهلها على مقاومة الرسول ، ولعقد حلف معهم عليه .

وقد أمل المسلمون ان يساعد اليهود الاسلام على الوثنية وان يلقوا منه موقف ود أو حياد ، ذلك بأنهم أصحاب كتب متزلة ودين توحيد ، والاسلام قريب منهم ، وقد اعترف بالأديان السابقة له ، ونزه الأنبياء والمرسلين ، وهو دين توحيد كذلك . ثم إن الرسول تودد اليهم حين دخوله يثرب ، وأمنهم على أموالهم وأنفسهم ، وزارهم وطمأنهم ، ثم تعاهد معهم في صحائف كتبت لهم ، فيها العهد بالوفاء لما اشترط لهم ، ما داموا موفين بالعهد وبالعهد . وقد طلب الى جميع المسلمين الوفاء بما جاء فيها ، ومنعوا من التجاوز والتجاوز على من في يثرب من يهود^١ . وجعل لليهود نصيباً في الغنم إذا قاتلوا مع المسلمين كما شرط عليهم النفقة معهم في الحروب .

ولم تكن علاقات اليهود مع المسلمين سيئة في الأيام الأولى من بعث الرسول الى يثرب . رأت جمهرة يهود ان الاسلام دين اعترف بالأنبياء . وأنه دين توحيد وأنه في جملة أحكامه قريب من أحكام ديانتهم وقواعدهم ، وأنه يناهض الأوثان ، وقد أشاد بفضل نبي اسرائيل وبنفوذهم على غيرهم بظهور الأنبياء من بينهم ، ثم إن قبلته الى القدس ، وقد تسامح معهم فأباح للمسلمين طعام أهل الكتاب^٢ . وهو دين اعترف بأبوة ابراهيم للعرب ، وجعل ستة سنة له . وقد تسامح معهم وحفظ ذمتهم ، فلم تر في انتشاره بين أهل يثرب ما يضرهم شيئاً أو يلحق بهم أذى ، ولذلك أظهرت استعدادها لعقد حلف سياسي معه ووقوفها موقف ود منه أو موقف حياد على الأقل ، على ألا يطلب منها تغيير دينها وتبديله والدخول في الاسلام .

ولما دخل أهل يثرب في الإسلام أفواجا ، وتوجه المسلمون الى اليهود بدعوتهم الى الدخول فيه والى مشاركتهم لهم في عقيدتهم باعتبار أنهم أهل دين يقول بالوحي ويؤمن بالتوراة ، وبرسالة الرسل ، فهم لذلك أول بقبول هذه الدعوة من الوثنيين ، أفرحت جمهرتهم ان الإسلام إذا ما استمر على هذا المنوال في المدينة من التوسع والانتشار ومن توجيه دعوته الى اليهود أيضاً ، فيقتضي على عقيدتهم التي ورثوها وهي عقيدة لا تعترف بقيام نبي من غير نبي اسرائيل ولا يكتب غير التوراة

١ ابن هشام (٧٤/٣ ، ١٩٧) ، الروض الأنف (١٦/٢) ، (كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما بينه وبين اليهود) .
٢ الخائف ، الآية ٤٨ .

والكتب التي دونها علماءهم ، ثم هم يرون ان النبوة قد نختمت ولن يكون المسيح
إلا منهم ، فكيف يعتقدون بنبي عربي وهو من الأميين ؟

وقد رفض اليهود الدخول في الإسلام ، وأبوا تغيير دينهم ، ودافعوا عن
عقيدتهم وتمسكوا بها ، ورفضوا التسليم بما جاء في رسالة الرسول من أن الرسول
نبي أرسل للعالمين كافة وأنه خاتم الأنبياء والمرسلين ، وأن القرآن كتاب مصدق
من الله ، وأن أحكامه مؤيدة لما جاء في التوراة ناسخة لبعضها . وقد جادلوا في
ذلك ، وانبرى أجابهم للدفاع عن عقيدتهم ولمجادلة من يأتي اليهم من المسلمين
لإقناعهم في الدخول في الإسلام . وفي القرآن الكريم صور من جندهم هذا
ومن حاجتهم الرسول في دعوته ، كما نجد مثل ذلك في الحديث النبوي وفي
كتب السير .

ويبين من نتائج دراسة صور هذا الجدل والخصام الذي وقع بين اليهود
والمسلمين ، وهو خصام مهم خطير ، أن الخصومة كانت في مرحلتها الأولى
رفضاً لدعوة الرسول إليهم للدخول في الإسلام ، وتمسكاً شديداً بعقيدتهم ودينهم
وبما ورد عندهم من أن النبوة قد بدأت وانتهت في نبي إسرائيل ، ثم تطورت
واشتدت عنفاً وقوة لما تبين لهم أن الإسلام يرفض نظريتهم هذه ، وأنه قد حرم
أموراً ستؤثر في مستقبلهم . وقد ألف بين قلوب أهل يثرب وأوجد منهم كتلة
واحدة ، وأنه سيحدث من سلطانهم لا محالة ، وأن ملكهم سيزول ، فوسعوا
مقاومتهم له ، وانصلوا بمن وجدوا فيه حقاً وبغضاً للرسول ، وبمن تأثر سلطانه
بدخول الاسلام في يثرب من أهلها ، ثم لما وجدوا أن كل ذلك غير كاف ،
تراسلوا مع أعداء الرسول في خارج يثرب من قريش ، لتوحيد خطتهم معهم ،
ولحملهم على مهاجمة المسلمين في مدنتهم ومعقلهم قبل أن يستفحل أمرهم ويقوى
مركزهم ، فيعجزون جميعاً هم وأهل مكة عن التغلب عليهم والقضاء على الاسلام .
وهكذا بدأت خصومة اليهود للاسلام خصومة فكرية ، هم يرفضون الاعتراف
بنبوة الرسول ، ويأتون دعوته موجهة اليهم ، ويرفضون نبوة في غير نبي إسرائيل ،
والرسول يدعوهم الى الإيمان بالله وإلى الدخول في دعوته المبينة على الإيمان بالله
رب العالمين ، رب العرب وبني إسرائيل والعجم ، وعلى الإيمان بنبوته ونبوة
الأنبياء السابقين ، ثم تطورت هذه الخصومة الى معارك وحروب ، والحروب كما
نعلم تبدأ نزاعاً في الآراء والأفكار ثم تتحول الى صراع ونزاع وقтал .

ومن أشهر سادات يهود الديس وقفوا موقفاً معادياً من الرسول ، وعارضوه معارضة شديدة ، وصمموا على الإيقاع به ، حتى بن الخطب ، وأخواه ياسر بن الخطب وجدتي بن الخطب^١ ، وسلام بن مشكم ، وكنانة بن الربيع بن أبي الحقيق ، وسلام بن الربيع بن أبي الحقيق ، وهو أبو رافع الأعور الذي قتله أصحاب الرسول بحجر ، والربيع بن الربيع بن أبي الحقيق ، وعمرو بن جحاش ، وكعب بن الأشرف ، والحجاج بن عمرو حليف كعب بن الأشرف ، وكردم بن قيس حليف كعب بن الأشرف ، وكل هؤلاء من بني النضير ، وعبد الله بن مسوري الأعور^٢ ، وابن صلوبا ، وهما من بني (ثعلبة بن القطبون) ، وزيد ابن العيث (الغيب)^٣ ، وسعد بن حنيف ، وعمود بن سبجان (سبجان) ، وعزير بن أبي عزيز ، وعبد الله بن صيف (صيف) ، وسويد بن الحارث ، ورفاعة بن قيس ، وفنحاص ، وأشيع ، ونعمان بن أضا (أضا) ، وبحري ابن عمرو ، وشاس بن عدي ، وشاس بن قيس ، وزيد بن الحارث ، ونعمان ابن عمرو ، وسكين بن أبي سكين ، وعدي بن زيد ، ونعمان بن أبي أوفى أبو أنس ، وعمود بن حجة ، ومالك بن الصيف (الصيف) ، وكعب بن راشد ، وعازر ، ورافع بن أبي رافع ، وعالدة ، ولأزار بن أبي لأزار (أزار بن أبي أزار) ، ورافع بن حارثة ، ورافع بن حرملة ، ورافع بن خارجة ، ومالك بن عوف ، ورفاعة بن زيد بن النابوت ، وكل هؤلاء من يهود بني قينقاع^٤ .

أما الذين حاربوا الاسلام من بني قريظة ، فكانوا : الزبير بن باطن وهب ، وعزال بن كشمول (سجول) ، وكعب بن أسد ، وهو صاحب عقد بني قريظة الذي تقص عام الأحزاب ، وكشمول بن زيد ، ونافع بن أبي نافع ، وأبو نافع ، وعدي بن زيد ، والحارث بن عوف ، وكردم بن زيد ، وأسامة بن حبيب ، ورافع بن زميلة (زميلة) ، وجبل بن أبي قشير ، وهب بن يهودا .

أما من بقية بطون يهود ، فكانوا : لبيد بن أعصم ، وهو من يهود بني ذريق ،

١ (جد بن الخطب) ، (جدي بن الخطب) ، (حدي بن الخطب) ، (الروض الأنف (٢٤/٢) .
٢ (ابن الغيب) ، (ابن هشام (١٣٦/٢) .
٣ (ابن الغيب) ، (ابن هشام (١٣٦/٢) وما بعدها) ، (الروض الأنف (٢٤/٢) ، (تسمية اليهود الذين نزل فيهم القرآن) .
٤ (ابن الغيب) ، (ابن هشام (١٣٦/٢) وما بعدها) ، (الروض الأنف (٢٤/٢) ، (تسمية اليهود الذين نزل فيهم القرآن) .

وكتانة بن صورياء (صوريا) ، وهو من بني حارثة ، وفردم (فردم) بن عمرو ، وهو من يهود بني عمرو بن عوف ، وسلسلة بن برهام ، وهو من يهود بني النجار^١ .

ويظهر من أقوال علماء التفسير في تفسير لفظة (الطافوت) الواردة في القرآن الكريم ، أن (كعب بن الأشرف) ، كان من أبرز سادات اليهود في أيام الرسول^٢ . فقد كانوا يتحاكمون إليه ويأخذون برأيه ، وكان المقدم عندهم وعند الأوس والخزرج ، حتى أن الأنصار كانوا يتحاكمون إليه .

ونجد في القرآن أمثلة من أسئلة وجهها اليهود إلى الرسول لإحراجهم وإظهار فساد دعوتهم بزعمهم . سألوه أن يأتي لهم بمعجزة ، إذ قالوا له : « إن الله عهد إلينا ألا نؤمن لرسول حتى يأتينا بقربان تأكله النار »^٣ ، فنزل الرد عليهم : « قل قد جاءكم رسل من قبلي بالبينات وبالحق قلتم ، قلتم قتلوهم إن كنتم صادقين »^٤ . « نزلت في كعب بن الأشرف ، ومالك بن الصيف ، ووهب بن يهودا ، وفنحاص بن عازورا ، وجهاة أنوا النبي صلى الله عليه وسلم ، فقالوا : له : أتزعم أن الله أرسلك إلينا ، وأنه أنزل علينا كتاباً عهد إلينا فيه ألا نؤمن لرسول يزعم أنه من عند الله حتى يأتينا بقربان تأكله النار ، وإلّا جئنا به صدقتك ، فأنزل الله هذه الآية »^٥ . وسألوه « أن يصعد إلى السماء وهم يرونه فيترل عليهم كتاباً مكتوباً فيها يدعيه على صدقه دفعة واحدة ، كما أتى موسى بالثوراة »^٦ . وسألوه أسئلة عن أشياء مذكورة في الثوراة ، وسألوه عن أشياء أخرى مخرجة عديدة ، وأوحوا إلى غيرهم من المشركين بأسئلة مماثلة ليلقوها على الرسول لامتحان وإحراجهم ، وقد نزل الوحي بالرد عليهم ، وبأنبيهم على أقوالهم هذه ، وبتكبيرهم

١ وتختلف المواضع في ضبط هذه الاسماء ، ابن هشام (٢/١٢٧) وما بعدها ، الروض الأنف (٢/٢٤) .

٢ تفسير الطبري (٥/٩٧) وما بعدها .

٣ سورة آل عمران ، الآية ١٨٣ .

٤ الآية نفسها .

٥ تفسير القرطبي (٤/٢٩٥) ، روح المعاني (٤/١٢٨) وما بعدها . تفسير الطبري (٤/١٣١) وما بعدها .

٦ سورة النساء ، الآية ١٥٣ . تفسير القرطبي (٦/٦) ، تفسير الطبري (٦/٦) وما بعدها . روح المعاني (٦/٥) ، ابن هشام (٢/١٩٨) .

بما قام به أجدادهم وأسلافهم في مقام أنبيائهم من عدم التصديق برسالتهم ومن الطعن بهم ومن إصرارهم على عبادة الأوثان والكفر بالوحدانية^١.

ووقع جدل بين المسلمين وبين سادات يهود ، أثار نزاعاً بين الطرفين . دخل أبو بكر ، بيت المدراس ، فوجد من يهود ناساً كثيراً قد اجتمع إلى رجل منهم يقال له (فنحاص) كان من علمائهم وأخبارهم ومعه حبر يقال له : أشيع . فقال أبو بكر لفنحاص : وبحك يا فنحاص اتق الله وأسلم ، فوافقه أنك لتعلم أن محمداً رسول الله قد جاءكم بالحق من عند الله تجدونه مكتوباً عندكم في التوراة والإنجيل . قال فنحاص : والله يا أبا بكر ما بنا إلى الله من فقر وإنه البنا للفقر ، وما ننصرع إليه ، كما ينصرع البنا وإنما عنه لأغنياء . ولو كان عنا غنياً ما استقرض منا ، كما يزعم صاحبكم . بنهاكم عن الربا ويعطيناه ، ولو كان غنياً عنا ما أعطانا الربا ، فغضب أبو بكر ، فضرب وجه فنحاص ضربة شديدة وقال : والذي نفسي بيده لولا العهد الذي بيننا وبينك لضربت عنقك^٢ . ووقع مثل ذلك في مناسبات أخرى ، جعل اليهود يحقدون على المسلمين .

وعند اليهود إلى استغلال الأحقاد والبغضاء الكمنية التي كانت كامنة في نفوس أهل يثرب من الأوس والخزرج من إمام الجاهلية ، فأثاروها ، كما استفادوا مما كان بينهم وبين رجال من المسلمين من الخلاف والجوار في الجاهلية للاحتواء بهم وللانقياد بهم مما قد يلحق بهم من أذى في أثاره الفتنة .

وفي عهد (عمر) أمر بإجلاء اليهود ممن لم يكن لديهم عهد من رسول الله . أما من كان له عهد منه ، فقد بقي في وطنه وعلى دينه بالشروط التي ذكرت في الصحف ، وقد كان في يثرب نفر من اليهود عاشوا فيها في زمن الرسول حتى بعد إجلاء بني النضير وبني قريظة وبعد غزوة خيبر . وقد ورد في رواية أن النبي لما أمر أصحابه بالتهوي لغزوة خيبر ، شق ذلك على من بقي بالمدينة من يهود^٣ . ولما مرض عبدالله بن أبي ، كان اليهود في جملة من التفت حول سريرته في مرضه الذي هلك فيه ، ثم كانوا في جملة من شيعته إلى قبره ومن

١ سورة البقرة ، الآية ١٠٦ - ابن هشام (١٦٧/٢ - ١٧١ - ٢٠١) .

٢ آل عمران - الآية ١٨١ ، تفسير الطبري (١٢٩/٢ وما بعدها) ، تفسير الطبرسي (٥١٨/١) ، (طهران) .

٣ الطبقات - لابن سعد (الجزء الثاني من القسم الأول (ص ٧٧) .

نثر التراب على رأسه حزناً على فراقه^١ . وقد بقيت أسر يهودية في وادي القرى وفي نيهام قروناً عديدة بعد صدور أمر عمر بالإجلاء ، بل ورد أن عسداً منهم عاش في المدينة أيضاً .

وقد كانت اليهودية فائقة بما أوتيت ، وبما كسبته من مواطن وتجارة ، إن وجدت سيلاً إلى اقناع سادات القبائل والأمراء والملوك باليهود وبال دخول في دعوتها ، فذلك خير وتوفيق . وإن لم نجد في هؤلاء ميلاً إلى اليهودية ، رضى منهم باكتساب العطف والحمية ورعايتهم في تحصيل ديونهم والأرباح التي يحصلون عليها من الربا ، وبالساح لهم بالتجارة والبيع والشراء ، وهو ما يصبوا إليه كل يهودي .

لذلك نستطيع ان نقول ان اليهودية كانت من ناحية التشير عند ظهور الاسلام جامدة خامدة ، لا يبعها نشر الدين بقدر ما تبعها المحافظة على الحياة وعلى المركز الذي توصلت اليه وعلى تجارتها التي تعود عليها بحال غزير . فكانت لهذا لا تهم بحركة إلا إذا وجدت فيها فائدة لها ، ومنفعة توجب منها ، ولا تحارب رأياً إلا إذا وجدت انه سيكون خطراً عليها ، فحاربت النصرانية في اليمن لما وجدت الروم يسرون على سياسة معادية لليهود ، وان النصرانية مها كانت كنيتها هي فرع من شجرة واحدة هي الشجرة التي يقدسها الروم ، فامتداد أي فرع منها إلى اليمن ، كغليل بالحق الأذى الذي لاقاه اخوانهم من البيزنطيين بهم . وحاربت الاسلام بعد هجرة الرسول إلى المدينة ، لما تبين لها انه يدعو إلى رب العالمين ، وانه لم يكن على ما ظنته حينها سمعت بدعوة الرسول وهو في مكة ، من انه سيقض لها ، او سيميل اليها ، فتسجدت له على الأكل ، فلما وجدت الأمر غير ما ظنت ، عندئذ عاصته وانقضت إلى المشركين في محاربة الاسلام .

ولسنا نجد بين القبائل العربية يهوداً وفدوا اليها وأجباراً سكنوا بينها لاقتناعها بمختلف الوسائل والطرق للدخول في دين يهود . نعم لم يفعل اليهود هذا كما فعله النصارى ، ولهذا انحصرت سكنى اليهود عند ظهور الاسلام في هذه المواضع الخصبية وطرق المواصلات والتجارة البرية والبحرية من جزيرة العرب ، وانحصرت عملهم في التجارة وفي الربا وفي الزراعة وفي بعض الصناعات التي تخصصوا بها . وهي أمور جعلت لهم نفوذاً عند سادات القبائل والأمراء والملوك .

١ الواقدي (٤٦٥) ، اليهود (١٧٧) .

وقد كانت لليهود مواضع يتدارس فيها رجال دينهم أحكام شريعتهم، وأيامهم المأهبة ، وأخبار الرسل والأنبياء ، وما جاء في التوراة والمشنا ، وغير ذلك . عرفت بن الجاهليين به (المدراس) و (بيت المدراس) (والمدراش) . وأطلق الجاهليون على الموضع الذي يتعبد اليهود فيه (الكنيس) و (كنيسة اليهود) تمييزاً لهذه الكنيسة عن (الكنيسة) التي هي لفظة خاصة بموضع عبادة النصارى^١ . وقد ذكر بعض علماء اللغة أن الكنيسة كلمة معربة من (كنيشت) وهي لليهود ، والبيعة للنصارى . وذهب بعض آخر إلى أنها متعبد الكفار مطلقاً^٢ . وقد أخذ الجاهليون مصطلح (المدراس) من العبرانيين ، من لفظة (مدراش) Midrash التي هي من أصل (درش) Darash التي تقابل (درس) في العربية ، وتؤدي هذه الكلمة المعنى المقهور من لفظة (درس) العربية تمام الأداء . ويقصد بالمدراس درس نصوص التوراة وشرحها وتفسيرها وإيضاح الغامض منها وأسرارها وأمثال ذلك ، وينهض بذلك المفسر الشارح (درشن) Darahan ، ولكل طريقة واسلوب . وقد نجمت عن هذه الدراسة ثروة أدبية ودينية طائلة للعبرانيين . نتجت من اتساع جملة طرق في الشرح والتفسير ، منها (مدراس هلالحه) Midrash Halachah و (مدراس هاكاده) Midrash Haggadah ، وتختلف هذه في كيفية اتباع طرق العرض والشرح والتفسير^٣ .

ولم يكن المدراس (المدراس) موضع عبادة وصلوات حسب ، بل كان إلى ذلك دار ندوة لليهود يجتمعون فيه في أوقات فراغهم لاستئناس بعضهم ببعض ولبحث في شؤونهم ، ولتت في القضايا الجسيمة الخطيرة على اختلاف درجاتها . فهو إذن مجمع الأخبار ومجمع الرؤساء والسادات وأصحاب الشرف فيهم ، وإليه كان يقصد الجاهليون حين يريدون أمراً من الأمور أو الاستفتاء عن شيء يريدون الوقوف عليه ، وإليه ذهب الرسل وكبار المسلمين لمحادثة يهود ومجادلتهم فيها

١ اللسان (٣٨٢/٧) ، المعجم المجهز لالفاظ الحديث النبوي (١٢٠/٢) ، صحيح مسلم (١٢٢/٥) ، البخاري ، كتاب الجزية والموادعة من أهل الذمة والحرب ، الحديث ٦ ، غرائب اللغة (ص ٢١٣) ، النهاية (٢٠/٢) ، محيط المحيط (١٤٣/١) ، القاموس (٢١٥/٢) .
٢ اللسان (٨٣/٨) ، المغرب (٨١) ، النصيراتية ، القسم الثاني ، الجزء الاول (ص ٢٠١) .
٣ Ency-Brita., 15, p. 458. Moore, Judaism, I, 125, Jew. Ency., VII, p. 538. E

كان يحدث بينهم من خلاف أو من أمر يريدون^١ البت فيه . ويقال أنهم عرضوا أمام الرسول كتبهم ، فكان يقرأها له بعضهم ممن دخل في الاسلام كعبدالله بن سلام أو بعض المسلمين ممن كان له علم وفهم في العبرانية لغة يهود .

قال (ابن عباس) : « دخل رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، بيت المدراس على جماعة من يهود ، فدعاهم الى الله ، فقال له نعيم بن عمرو ، والحارث بن زيد : على أي دين أنت يا محمد ؟ فقال : على ملة ابراهيم ودينه . فقالا : فإن ابراهيم كان يهودياً . فقال لما رسول الله صلى الله عليه وسلم : فهللوا الى التوراة ، فهي بيتنا وبينكم ، فأبوا عليه^٢ . ويظهر ان هذا المدراس كان من بيوت مدراسهم يثرب .

وعرفت مساجد اليهود ، أي المواضع التي كان يصلون بها ، بالمحاريب جمع حراب . وقد جاءت الإشارة إليها في بيت شعر منسوب الى (قيس بن الخطيم)^٣ . أما في النصرانية ، فقد خصصت الكلمة بصدر الكنائس ، وذلك على ما يفهم من الكلمة في الاسلام^٤ .

وعرف علماء اليهود ورجال دينهم بـ (الأخبار) جمع (الخبر) وبـ (الرياتين) وقد وردت الكلمتان في القرآن الكريم^٥ . وللإسلاميين آراء في أصل (الخبر) ، وهم يذكرون أن من معانيها العلم ، والرجل الصالح^٦ . واللفظة من الألفاظ المعربة عن العبرانية أصلها (خبر) Haber وجمعها خبريم Habarim ، ومعناها (الرفيق) camrade و associate ، وكانت ذات مدلول خاص ومعنى معين . وقد أطلقت في العهد التلمودي على العضوية في جمعية معينة ، فأطلقت في العصر الأول والثاني للميلاد على من كان من (الفروشيم) ، وهم شيعة يهودية أمنت على نفسها بمراعاة النصوص الدينية (اللاوية) على نحو ما نزلت وعلى نحو ما يفعله اللاويون .

١ الطبري (١٤٥/٧) .

٢ Margobloth, p. 73.

٣ النصرانية : القسم الثاني ، الجزء الثاني (ص ١٧٤) .

٤ خبر بالضم وبالكسر ، الثالثة ، الآية ٤٤ - ٦٣ ، البقرة ، الآية ٣٦ ، ٣٤ .

٥ نوح الخروسي (١٢٠/٣) ، (ص) ، اللسان (٢٢٨/٥) ، المفردات ، للاصفهاني (ص ١٠٤) .

وللفظة (حبر) أهمية كبيرة عند اليهود ، فإنها تشير الى العلم والمعرفة ، وان كانت لا تصل الى درجة (راسي) (ربي) Rabbi . ولا تزال مستعملة عندهم فيمن درس الشريعة اليهودية والعلوم الشرعية وتقدم فيها وأنقذ الأحكام ، وقضى بين الناس ، غير أنها دون درجة Rabbi^١ . فهي في العبرانية بمعنى عالم ولكن دون المعنى المفهوم في العربية عند علماء اللغة الاسلاميين ، فهذا المعنى هو في مقابل لفظة Rabbi أي (ريسان) لا (حبر) .

وقد وردت لفظة (حبر) في شعر للشياخ :

كما خطَّ عبرانية بيمته ببناء حبر ثم عرض أسطرًا^٢

أما (الريائيون) ، فهم العلماء بالاحلال والحرام والأمر والنهي ، على رأي بعض العلماء الاسلاميين . وقال بعض آخر : الريان العالم الراسخ في العلم والدين ، او العلم العامل المعلم ، او العالي الدرجة في العلم . ومرتق بعضهم بين الريانيين وبين الأخبار بأن جعل الأخبار أهل المعرفة بأنباء الأمم وبما كان ويكون ، وذهبوا الى أنها من الألفاظ المعربة العبرانية او السريانية^٣ . وهي من الألفاظ التي وردت في القرآن الكريم في البناء الكلام على علماء يهود^٤ .

ويتبين من القرآن الكريم انه قد كان للأخبار والريانيين نفوذ عظيم على اليهود ، فكانوا يطيعون أوامرهم ويفعلون ما يأمرهم به ، وان غالبيتهم لم تكن تفقه شيئاً ولا تعرف من أحكام دينها إلا ما يقوله لهم اولئك الأخبار^٥ . وبعض هؤلاء الأخبار هم من المقيمين في جزيرة العرب في الموطن التي أقامت فيها يهود ، وبعض منهم كان يأتي الى يهود العرب من فلسطين : ولا سيما من (طبرية) التي اكتسبت شهرة عظيمة بعد خراب القدس (اورشليم) حيث استقر فيها (السندريم) ولقدت مراكزاً عظيمة للعلوم عند اليهود ، وفيها جمعت (المشت) (المشنا) Mishna و (المسورة) الكتاب الذي بين كيفية تحريك كلمات التوراة^٦ .

١ اليهود (ص ٢٠) . The Universal Jewish Ency., Vol. V, p. 145.

٢ تاج العروس (١١٧/٣) ، (حسن) .

٣ تاج العروس (٢٦٠/١) . (٢١١/٩) ، العرب ، للجواليقي (ص ١٦١) ، سيرة ابن هشام (٣٩٥/١) .

٤ المائل : الآية ٤٤ ، ٦٣ ، آل عمران ، الآية ٧٩ ، تفسير الطبري (٢٥١/٦) .

٥ التوبة ، الآية ٣١ .

٦ قاموس الكتاب المقدس (٤٦/٢) .

وقد ذكر أهل الأخبار أسماء عدد من رجال يهود ممن أدرکوا الإسلام، ذكر عنهم أنهم كانوا أحراراً ، وأنهم كانوا أصحاب علم بالتوراة وبكتب الأنبياء . وفي مقدمة من ذكروا ، عبدالله بن صوري الأعور ، قالوا : أنه لم يكن بالحجاز في زمانه من كان أعلم بالتوراة منه ، وأنه كان من بني ثعلبة بن القطيون . ويقولون : إن القطيون كلمة تقال لمن يلي أمر اليهود وملکهم ، كما أن النجاشي نقال لمن يلي ملك الحبشة^١ .

وذكر (الفلقشندي) أن المشهور من ألقاب أرباب الوظائف عند اليهود ثلاثة ألقاب : الأول الرئيس ، وهو القائم فيهم مقام البطرک في النصارى ، والثاني الخزان ، وهو فيهم بمثابة الخطيب يصعد المنبر ويعظهم ، والثالث الشبلحصبور ، وهو الإمام الذي يصلي بهم^٢ .

وقد أطلق القرآن الكريم على أسفار اليهود ، أي كتبهم المقدسة (التوراة)^٣ . وعرفت بهذه التسمية في الحديث وفي كتب التفسير، وصارت علماً لها في الإسلام . كذلك أطلقت هذه اللفظة على معابد اليهود ، ولم يعرف ورودها في الشعر الجاهلي خلا بيتاً ينسب إلى شاعر جاهلي يهودي اسمه (سمك)^٤ .

ولعلماء اللغة الإسلاميين آراء في أصل كلمة (التوراة) ، حتى ذهب بعضهم إلى أنها عربية . ولكن ذوي أكثرهم ترى أنها عبرانية ، لأن لغة موسى كانت العبرانية ، وهذه اللغة نزلت التوراة^٥ . ثم هم يحتفظون في تعيين حدود التوراة ، فيرى بعضهم أنها خمسة أسفار ، ويرى بعض آخر أنها أكثر من ذلك ، وأنها تشمل الزبور ونبوة أشعيا وسائر النبوات ، لا يستثنى إلا الأنجيل^٦ .

١ ابن هشام (١٣٦/٢) ، محمد مجيب الدين عبد الحميد .

٢ صبيح الاعشى (٤٧٤/٥) .

٣ آل عمران - الآية ٣ - ٤٨ - ٥٠ - ٦٥ - ٩٣ - المائدة ٤٦ وما بعدها - ٤٩ - الصف -

الآية ٦ - النسخ - الآية ٢٩ - الجمعة - الآية ٥ .

٤ Ency., IV, p. 700.

٥ اللسان (٢٠/٢٦٥ وما بعدها) ، ، وري ، ، داج العروس (١٠/٣٨٩) ، القراؤون

والريانون (١٧٩) ، المردات ، للاصفهاني ، (ص ٧٤) .

٦ Und. Jew. Ency., 10, p. 207, Katsch, p. 101.

صبيح الاعشى (١٣/٢٥١ وما بعدها) ، Katsch, p. 101.

وليس في القرآن الكريم تحديد لأسفار التوراة ، ولكن اقتران اسم موسى بها في بعض الموارد منه يشير الى ان المراد بها ما يقال له بـ (الأسفار الخمسة) Pentateuch عند الغربيين . وهذه الأسفار الخمسة هي الأسفار المنزلة المكتوبة التي نزلت على موسى على رأي قدماء العبرانيين . ثم توسعوا في مدلول اللفظة فيما بعد ، فأطلقوها على جميع الأسفار التي يقال لها العهد القديم . وأطلقوها بعض الفرق على غيرها من الأسفار مثل الأنبياء (نبيم) Neblim ، والكتب (كتوبيم) Kettubim .^١

وقد أورد القرآن في مخاطبة يهود وتزويجهم قصصاً عن الأنبياء والمرسلين والامم القديمة ، منه ما هو مذكور عندهم في الأسفار الخمسة ، ومنه ما هو وارد عندهم في (المكاهة) وفي (المثنى) . ولما كان في احتكاك الاسلام بيهود كان لأول مرة في منطقة يثرب ، صارت معظم الاشارات الواردة في القرآن الكريم الى التوراة في السور المدنية لمخاطبة الوحي لهم ، وتوجيه الكلام مباشرة اليهم ، ولم ترد تلك التسمية في الآيات المكية إلا في موضع واحد هو في سورة الاعراف^٢ .

والمراد من (الكتاب) الذي أنزل على موسى ، والمذكور في مواضع من القرآن الكريم التوراة ، أي هذه الأسفار الخمسة التي تحدث عنها^٣ . وهو تعبير قرآني لا نستطيع أن نقول إنه كان من مصطلحات الجاهليين ، كما أننا لا نستطيع نفى ذلك ، إذ يجوز أن يكون الجاهليون قد أطلقوه على تلك الأسفار ، أو على العهد القديم كله ، بمعنى هذه الأسفار وبقية ما ورد فيها من أخبار الأيام والملوك والأنبياء .

وقد ورد في الأخبار عن (أبي هريرة) ، أنه : كان أهل الكتاب يقرءون التوراة بالعبرانية ، ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام . فقال رسول الله ، صلى الله عليه وسلم : لا تصفحوا أهل الكتاب ، ولا تكذبوهم ، وقولوا : آمنا بالله^٤ .

1. Und-Jew. Ency., 10, p. 268, Katal., p. 191. f.

2. الاعراف : الآية ١٥٧ . Ency., IV, p. 706.

3. ولقد آتينا موسى الكتاب ، البقرة . الآية ٧٨ ، روح المعاني (١/٣١٦) ، تفسير

الطبرسي (١/١٥٥) ، المفردات ، للاصفهاني (ص ٤٣٧) .

4. كتاب تفسير القرآن ، سورة البقرة : ٢ رقم ١١ . البخاري (٣/١٩٨) ، طبعة

ليكن ، .

وقصد بعبارة أهل الكتاب ، اليهود ، لأنهم أصحاب كتاب موسى ، وبينهم كان نزوله ، ولذلك عرفوا به . ويظهر من خبر أبي هريرة هذا ومن أخبار أخرى في هذا المعنى ان اليهود كانوا يقرؤون على المسلمين كتبهم وهي بالعبرانية ، ثم يفسرونها لهم بالعربية ، وذلك في أيام حياة الرسول .

أما الزبور والزبر ، فقد وردتا في القرآن الكريم . ويراد به (الزبر) في بعض الآيات مثل : « والله لفي زبر الأولين » الكتب المنزلة القديمة^١ . وقد وردت الكلمتان في بعض الشعر النسوب الى الجاهليين كأمريء القيس^٢ والمرقس الأكبر^٣ وأمية بن أبي الصلت^٤ . وذكر علماء اللغة ان معنى زبر كتب ونقش . ويرى بعض المستشرقين احتمال كونها من الكلمات العربية الجنوبية . ويرى بعض آخر انها من أصل (مزسور) Maxmor العبراني . و (مزسور) Mazmör في اللهجة السريانية ، و (مزور) Mazmur في الحبشة . أخذت الكلمة وأجري عليها بعض التغير حتى صارت على هذا الشكل^٥ .

وقد وردت لفظة (الزبور) مفردة في موضعين من القرآن الكريم ، في سورة النساء^٦ وفي سورة الأنبياء^٧ . أما في الموضع الأول ، فقد ورد فيه : « وآتينا داوود زبوراً » ، ومعنى هذا أن زيوراً أو كتاباً من الكتب المنزلة نزل صلى داوود . أما الموضع الثاني ، فقد أشير فيه الى (زبور) معروف بأداة التعريف

- ١ الشعراء : الآية ١٩٦ .
- ٢ أنت حجج بمعنى عليها فأصبحت كقط زبور في مصاحف رهبان وينسب اليه أيضاً هذا البيت :
- لن مقلل أبصرته فتجساني كقط زبور في عسيب يماني
- شرح ديوان امرئ القيس . تأليف السندوبي (ص ١٨٤) ، قصيدة رقم ٨٦ ، النصرانية : القسم الثاني ، الجزء الثاني ، القسم الأول (ص ١٨٤) .
- ٣ وكذلك لا عسير ولا شئ على أحد بسديهم قد خط ذلك في الزبور
- اللسان (١٦/٣) ، النصرانية : القسم الثاني ، الجزء الثاني ، القسم الأول (ص ١٨٤) .
- ٤ وأبرزوا بصعيد مسنوى جرز وأنزل العرش والميزان والزبر
- كتاب البه (١٤٦/٢) ، النصرانية : القسم الثاني ، الجزء الثاني (ص ١٨٤) .
- اللسان (٣١٤/٤) وما بعدها . Enq. IV, p. 1184 .
- ٦ الآية ١٦٣ .
- ٧ الآية ١٠٥ .

(أ ل) : « ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر ان الأرض يرثها عبادي الصالحون » . ولكن لم يصف ال اسم نبي من الأنبياء ، كما رأينا في الموضع السابق . وقد فسر بعض المفسرين كلمة (الزبور) في هذا الموضع بمعنى الكتاب وكتب الله المنزل ، أي على التعميم لا التخصيص^١ .

ويراد بالزبور ما يقال له (المزامير) في الترجمات العربية للتوراة ، و Psalms في الانكليزية ، من أصل Psalms اليونانية التي هي ترجمة لفظة (مزبور) Mimmor العبرانية ، ومعناها المدائح والأناشيد . وهي أناشيد شعرية تُرثم في حمد الإله وتمجيده ، ولذلك قبل هذه المزامير (تخليل) tehillim في العبرانية . و tilling على سبيل الاختصار ، و tilling في لهجة بني إدم^٢ .

وقد « قال أبو هريرة : الزبور ما أنزل على داوود » من بعد الذكر من بعد التوراة^٣ . وذكر بعض العلماء ان الزبور يخص بالكتاب المنزل على داوود^٤ . وقد ذهب الشعبي ان ان الزبور ، الكتاب المنزل على داوود ، أما الذكر فما نزل على موسى . وذهب آخرون مذاهب أخرى في تفسير المراد من الزبور ومن الذكر . ولكن الرأي الغالب ان المراد من الزبور ، مزامير داوود . وذلك لنص القرآن على ذلك .

وقد أشار القرآن الكريم الى وجود اختلاف بين بني اسرائيل في فهم كتاب الله وتفسيره ، وأنهم انقسموا لذلك شيعاً وأحزاباً . ولا يستبعد أن يكون هذا الاختلاف شاملاً ليهود الحجاز أيضاً ، كأن يكون أحبارهم قد ساروا في اتجاهات مختلفة في التفسير وفي شرح الأحكام وكان أصحابهم يتعصبون لهم ويتحزبون ، على نخط الأعراب في عصبيتهم لقبائلهم ، وفي اتباع أقوال ساداتهم دون تعقل وتفكير . أمما مواضيع الاختلاف ومواطن القرقة التي كانت تفرق فيما بينهم ، فلا نعرف اليوم من أمرها شيئاً ، لأنها لم تدون ولم تذكر ، ولم يشر القرآن إليها ، ولكنها على كل لا تخرج ولا شك عما نعرفه من خلاف في أوجه النظر في المسائل المعروفة حتى اليوم في أمور الفروع .

- ١ تفسير الجلالين (٢/ ٢٢٣) .
- ٢ Urd-Jew. Ency., Vol. 9, p. 13.
- ٣ اللسان (٤/ ٣١٥) ، صادر .
- ٤ المفردات (ص ٢١٠) .

ونحن لا نستطيع أن نتصور أن سواد يهود الجاهلية كانوا عسل علم بالكتابة وبالقرأة ثم بأحوال دينهم وأمورهم . وفي القرآن الكريم أن هذا السواد كان جاهلاً^١ ليس له علم ولا خبر بأمور دينه وشرعته ، وأنه مقلد تابع لما يقوله له أصحابه وريائيوه . فكل ما كانوا يقولونه له ، كانوا يروونه حقاً وعلماً^٢ . مع أن من بين أولئك من كان دجلاً ليس على درجة من دراية وعلم ، ومن كان ينطق بالباطل ولا يخشى الكذب ، لينال بذلك كسباً ومالاً ، وأنه كان هؤلاء على أنبياءهم ومقلديهم سلطان عظيم .

وقد تعرض (ابن خلدون) لموضوع علم اليهود العرب وثقافتهم ، فقال : « إذا تشوقت العرب الى معرفة شيء مما تشوق اليه النفوس البشرية في أسباب المكنونات وبسده الخليفة وأسرار الوجود ، فإنما يسألون عنه أهل الكتاب قبلهم ويستفيدونه منهم . وهم أهل التوراة من اليهود ، ومن تبع دينهم من النصارى . وأهل التوراة الذين بين العرب يومئذ بادية مثلهم ، ولا يعرفون من ذلك إلا ما تعرفه العامة من أهل الكتاب ، ومعظمهم من غير الذين أدخلوا يدين اليهودية . فلما أسلموا بقوا على ما كان عندهم مما لا تعاق له بالأحكام الشرعية التي يختلطون لها مثل أخبار بده الخليفة وما يرجع الى الحدثن والملاحم وأمثال ذلك^٣ . فغالبية يهود جزيرة العرب في الجاهلية ، هم في مستوى ، بعدد، دون مستوى يهود البلاد الأخرى ، بسبب تديتهم وانقطاعهم عن غيرهم من اليهود .

وقد كانت لليهود مدارس تدارسوا فيها أحكام شريعتهم ، وكان لهم أخبار وحاشامون علّموهم أمور دينهم . ذكر أهل الأخبار أنهم كانوا يكتبون بالعبرانية او بالسريانية ، وذلك لاختلاف أهل الأخبار في تعيين تلك اللغة ، وعدم تمكنهم من التمييز بينها . وفي كتب الأخبار والتواريخ اشارات الى اتصال بعض رجال مكة وبئر ب باليهود والاستنصار منهم عن أمور الرسل والأنبياء والمأصين وعن بعض الأحكام . وفيها قصص اسرائيلي وجد له سبلاً الى العربية، برويه القصاصون عن الرسل والأنبياء ، وأساطير لا يشك في كونها اسرائيلية الأصل. كما نجد ألقافاً

١ - ومنهم من لا يعنون الكتاب الا آماي . وان هم الا يظنون ، ، السقرة . الآية

٨٧ ، تفسير القرطبي ، الجامع (١/٢٩٦ وما بعدها) .

٢ ابن خلدون (١/٤٣٩) .

عبرانية لاشك في أصلها وجدت لها سيلاً إلى عربية الجاهليين بسبب اتصال اليهود بهم ، واستعمالهم أباها ، فتأثر بهم الجاهليون وأخذوها منهم واستعملوها أيضاً فصارت من المعربات .

وينسب إلى الشاعر (الأسود بن يعفر) بيت شعر هو :

سُطُورُ يهوديين في مهرقبيها مُجَبِّدين من ثِياء أو أهل مدين^١

وإذا صحت نسبة هذا البيت إليه ، يكون قد تعرّف على يهوديين اثنين ، وجدهما يجيدان الكتابة ، وقد كتباً على المهارق . ولم يكن الشاعر على علم أكيد بموطنها ، فلم يدر إذا كانوا من أهل ثِياء أو من أهل مدين .

ولتعبّر (مجيدين) أهمية خاصة ، إذ يشير إلى تمييزه بين الكتابة الجيدة والكتابة الرديئة ، وإلى وجود مصطلح (مجيد) عند الجاهليين ، يطلقونه كما نطلقه اليوم على من يجيد الكتابة ويتقنها .

ولما كانت اللغة العبرانية لغة الدين عند العبرانيين ، وبها نزل الوحي على موسى ، فلا بد أن يكون لعلمائهم ورجال دينهم في جزيرة العرب علم بتلك اللغة وفقه بها . ولكن هذا لا يعني ضرورة كونهم كعلماء طبرية أو قيسرية في فلسطين أو بعض المواضع التي اشتهرت بعلمائها في التلمود بالعراق ، ولست أستبعد أن يكون لهم علم بلغة بني إرم أيضاً ، لأن هذه اللغة كما نعلم كانت لغة العلم والثقافة قبل الميلاد وبعده ، وبها كتبت كتب عدة من التلموديين ، ثم إنها انتشرت بين سواد الناس حتى صارت لغة سواد يهود يتكلمون بها ولو برطانة وبلهجة خاصة هي اللهجة التي يمتاز بها سواد اليهود في كل قطر يعيشون فيه .

أما سواد يهود جزيرة العرب في الجاهلية : فلا أظن أنهم كانوا يتكلمون العبرانية أو لغة بني إرم ، إنما أرى أنهم كانوا يتكلمون لهجة من هذه اللهجات العربية . أعني لهجة العرب الذين كانوا يعيشون بينهم ويتزولون بين أظهرهم ، ولم يرد في الأخبار ما يقيد أنهم كانوا يتحدثون بالعبرانية ، بل الذي ورد أن عامتهم لم تكن تعرف تلك اللغة . وأن الخاصة منهم والمزاولين لحرفة الكتابة

١ ناصر الدين الأسد ، مصادر الشعر الجاهلي وبسنتها التاريخية - (ص ٨٢) .

والبحر كانوا يعرفونها ويكتبون بها ، وبها يعرّفون أنفسهم وغيرهم من الناس .
 وكانوا يفسرون التوراة والتلمود والكتب المقدسة لسواد الناس من العبرانية الى
 العربية ، لأنهم لم يكونوا يعرفون العبرانية ، لا سيما وقد كان بينهم عرب متهودة .
 ولم يظهر في يهود جزيرة العرب من حاز على شهرة في العلم والفقه والتأليف
 والمطابطة على نحو ما ظهر بين يهود العراق او فلسطين او مصر ، وإلا لاشتهر
 أمره وذاع خبره ، كما ذاع خبر علماء يهود بابل وفلسطين ومصر . ولا يمكن
 ان تكون عزلتهم عن بقية يهود الأقطار المذكورة سبباً كافياً في تعليل عدم شيوع
 اسم أحد من هؤلاء ، إن قضية عزلتهم عن بقية انوائهم في الدين ، هي نفسها
 تحتاج الى سند يثبت وجود تلك العزلة . فواضعهم في أعالي الحجاز ، على اتصال
 ببلاد الشام ، وهي لا تبعد كثيراً عن مساكن انوائهم في فلسطين . ثم أنهم كانوا
 على اتصال مستمر بهم بالتجارة ، وقد كانوا يشترون حاصل بلاد الشام من خور
 وحبوب وما شاكل ذلك ، وينقلونه الى يثرب ، يذهبون اليها للتعامل والاتجار ،
 فكيف يكون يهود جزيرة العرب في معزل عن غيرهم مع وجود الأسفار والتجارة
 لا سيما ان احبار (طبرية) كانوا يأتون الى يهود اليمن ليلقنوهم أمور الدين ،
 ولا يستبعد ان يكون من بين اولئك الاحبار من ذهب الى يهود يثرب او خيبر
 او تباه .

فالقضية على ما يظهر ، ليست قضية عزلة يهود جزيرة العرب عن بقية يهود
 واتصالهم بذلك ثقافياً وعلمياً عن بني دينهم اتصالاً يؤثر في مستواهم الثقافي
 والعلمي ، فيجعلهم دون غيرهم من انوائهم في العلم والثقافة ، انما يظهر ان هنالك
 جملة عوامل حالت دون نبوغ أحد فيهم . فببؤ جزيرة العرب بها قيل عنهم
 وعن رقيهم وارتفاع مستواهم عن مستوى من كان في جوارهم ، لم يكونوا في
 ثقافتهم وفي مستواهم الاجتماعي أرقى من الفلاحين وسكان القرى ومساكنها في
 العراق او فلسطين او مصر ، كما ان حالتهم المادية لم تكن على مستوى عالٍ .
 بحيث يمكن ان تقاس بالأحوال المادية التي كان عليها اليهود الآخريين في الأرضين
 المشار اليها ، او أصحاب تلك الأرضين من غير يهود . ثم ان عندهم بها قيل
 فيه ، لم يكن كبيراً . وقد رأينا ان رجالهم المحاربين لم يكونوا يتجاوزون كلهم
 في الحجاز كله بضعة آلاف ، وفي مثل هذا العدد والقروى والأحوال لا يمكن
 بالطبع ان تتوفر الامكانيات المساعدة على البحث والتتبع والتعمق في العلم .

وقد عرف يهود يثرب بمعرفتهم السحر والافتاء منه ، ويعلمهم بالتعاويذ ، فكان المشركون يلجؤون اليهم إذا احتاجوا الى السحر أو اذا اعترضتهم مشكلات يرون أنها لا تحل إلا بقراءة التعاويذ عليها . وقد ذكر القسرون أن اليهود عملوا السحر للنبي ، عمله رجل اسمه (لييد بن الأعصم) أو بنته وهو من يهود يثرب^١ . وقد أشير الى سحر اليهود في الحديث^٢ .

وقد لجأ العرب الى اليهود بأخذون منهم الرقى والتعاويذ . فقد ورد في الأخبار : « أن أبا بكر دخل على عائشة وهي تشتكي ويهودية نرقبها ، فقال أبو بكر : أرقبها بكتاب الله . يعني : بالتوراة والانجيل ... »^٣ .

وقد حافظ يهود جزيرة العرب على حرمة السبت ، ويوم السبت عن الأيام المقدسة التي يجب مراعاة حرمتها مراعاة تامة ، فلا يجوز ليهودي الاشتغال فيه ، والقيام ببعض الأعمال . ومن خالف حرمة هذا اليوم ودنسه بالاشتغال فيه يكون قد ارتكب جرماً عظيماً .

وقد وردت إشارات الى يوم السبت في مواضع من القرآن الكريم ، في معرض الكلام على بني اسرائيل ، وأشير في بعضها الى أخذ موسى العهد منهم بوجوب مراعاة حرمة هذا اليوم ، والى تقضيمهم له وعدم مراعاتهم جميعاً لهذا العهد ، والى أنهم اعتدوا فيه^٤ . وفي هذه الإشارات دلالة على أن من اليهود عامة من خالف حرمة هذا اليوم ، فلم ينفذ ما ورد في أحكام شريعته عنه . ولكن هذا عام غير خاص بيهود العرب الجاهليين ، وإنما يشير الى خروج بعض بني اسرائيل على أحكام دينهم وعدم مراعاتهم لها ، وهذا اليوم من أقدم الأيام في نظرهم .

١ تفسير الطبري (٢٢٦/٢١) ، تفسير الطبرسي (٥٦٨/٥) ، روح المعاني (٢٨٢/٣٠) .

٢ البخاري : باب السحر ، عمدة القاري (٢٧٩/٢١) وما بعدها ، ، الحديث رقم ٧٧ وما بعده .

٣ عمدة القاري (٢٦٢/٢١) .

٤ الأعراف : الآية ١٦٢ ، النحل : الآية ١٢٤ ، البقرة : الآية ٦٥ ، النساء : الآية ٤٦ ، ١٥٣ ، أو النساء الألويسي ، روح المعاني (٢٥٦/١) وما بعدها ، اللسان (٣٧/٢) ، صادر ، محيط المحيط (٩١١/٢) وما بعدها ، الطبري ، تفسير (٦٥/٩) ، الطبرسي ، مجمع البيان (١٢٩/١) وما بعدها ، الرمضاني ، الكشف (٢١٨/١) ، الطبرسي (٣٩١/٥) ، طهران ، ، الطبري ، تفسير (١٢٤/١٤) ، السكشاف (١٧٨/٢) .

وقد وقف العرب الذين كانوا على اتصال باليهود على بعض أحكام دينهم مثل : الرجم بالنسبة للزنا ، واعتزال النساء في الحيض . فذكر العلماء ان حكم الاسلام في الحيض ، انقصاد بين الفراط اليهود الأخذين في ذلك باخراجهن من البيوت ، وتفريظ التصاري ، فانهن كانوا يجامعون ولا يباليون بالحيض^١ ، ومثل الدعاء الى الصلاة عند اليهود بالتفخ في (الشور)^٢ ، وذلك كسبا تحدثت عنه في موضع آخر ، ومثل صوم (عاشوراء) وأعيادهم ، ومثل الصلاة وأوقاتهم عندهم .

واستعمل يهود يثرب (القرن) في معابدهم ، لاعلان صلواتهم وأعيادهم وإعلان احتفالهم والحوادث المهمة التي قد تقع لهم . وقد كانوا يستعملون آتين ، يقال لاحدهما الـ (شوقار) Shophar ومعناها القرن ، ويقال للآخرى القرن ، وتصنع من القرون كذلك . ولذلك اختلط الأمر بينهما . والظاهر انها كانتا تختلفان في نوع قرون الحيوانات التي تتخذان منها^٣ .

وقد اختلط يهود جزيرة العرب عن الجاهليين في الأمور التي حرمتها شريعتهم عليهم في مثل المأكولات ، كما اختلفوا عنهم في عبادتهم وفي اعتقادهم بوجود إله واحد ، هو (إله اسرائيل) ، وفي أمور عقائدية أخرى ، واختلفوا عنهم في بعض العادات والمظاهر الخارجية ، فكان اليهود مثلاً يبدلون شعورهم ، أما المشركون فكانوا يفرقون رؤوسهم . ورد عن ابن عباس : « أن النبي ، صلى الله عليه وسلم ، كان يبدل شعره وكان المشركون يفرقون رؤوسهم ، وكان أهل الكتاب يبدلون رؤوسهم ، وكان النبي ، صلى الله عليه وسلم ، يحب موافقة أهل الكتاب فيما لم يؤمر فيه بشيء ، ثم فرق النبي ، صلى الله عليه وسلم ، رأسه^٤ . ولا يستبعد اختلافهم عنهم في لبس بعض الملابس التي لم تكن مألوفة عند الجاهليين . وقد ظهر بين اليهود شعراء ، نظموا الشعر بالعربية وعلى طريقة العرب في نظم الشعر . منهم السموأل المشهور ، و (كعب بن الأشرف) وممالك اليهودي ، وسأتكلم عنهم في أثناء حديثي عن الشعر .

١ ارشاد الساري (٦/٣٤٠) ، (كتاب الحيض) -

٢ ارشاد الساري (٢/٢) وما بعدها ، (كتاب الآذان) -

٣ A Relig. Ency., Vol. III, p. 1898.

٤ عمدة القاري (١٧/٧١) -

لم يسلّم من يهود في أيام الرسول غير عدد قليل من الثيبين منهم . مثل :
عبد الله بن سلام ، ولم يتعاون معه غير عدد قليل منهم مثل يامين بن عمر بن
كعب النضري ، ويامين بن يامين الاسرائيلي ، ومخيريق ، وكان رجلاً غنياً
صاحب نخيل ، وهو أحد بني ثعلبة بن الفطيلون ، حث قومه على مساعدة الرسول
ومعاونته في غزوة أحد . وكان الرسول قد طلب مساعدتهم لوجود صحيفة بينه
وبينهم . فلما اعتزلوا له بالسب ، خالفهم مخيريق قائلاً لهم : لا سب لكم ،
وقاتل معه حتى قتل ، فقال الرسول : مخيريق خير اليهود . وقد وصف بالعلم ،
وذكر أنه كان جبراً عالماً فيهم^١ . آمن بالرسول وجعل ماله له ، وهو سبعة
حوائط فجعلها الرسول صدقة^٢ .

أما عبد الله بن سلام ، فكان يدعى ، وهو في يهوديته ، الحميم بن سلام بن
الحارث . وسلام اسم والده . فلما أسلم سمّاه رسول الله (عبد الله) ، وهو من
بني قبتاق ، أسلم والرسول في مكة لم يهاجر بعد ، وذلك في رواية من الروايات .
وأسلم بعد الهجرة على أكثر الروايات . ذكر أنه كان شريفاً في قومه ، سيداً ،
صاحب نسب وحسب ، وأنه كان جبراً عالماً . فلما أسلم ، لبذه قومه ، وتحدوا
فيه^٣ . وقد نزلت فيه بضع آيات^٤ .

أما أنه كان جبراً من الأخبار ، عالماً في شريعتهم ، فلا يمكن اليث فيه ،
فقد جرت عادة أهل الأخبار على إطلاق كلمة (الخبر) على نفر ممن أسلم من
يهود في أيام الرسول ، كما أطلقت على نفر ممن أسلم بعده ، مثل كعب الذي
عرف بكعب الأخبار . ولا يمكن في نظري اليث في درجات علم أمثال هؤلاء
وفي مقدار فهمهم للتوراة ولكتب يهود إلا يجمع ما نسب إليهم من قول ، ودراسة .
عندئذ نستطيع أن نحكم على علمهم إن كان لهم علم بأحكام ديانة يهود وبالعالم
وبما كان يتناثره علماء ذلك العهد . ورأيت أن هذه الدرجات إنما منحها لهم

١ ابن هشام (٢/١٤٠) ، (٣/٢٨) . (محمد محيي الدين عبد الحميد) .
Gesta, Vol. III, p. 78.

٢ البلاذري . فتوح (٢٤) . الإصابة (٣/٣٧٣) . (رقم ٧٨٥٢) . (عن بني النضر ...
ويقال أنه من بني قبتاق . ويقال من بني الفطيلون) .

٣ ابن هشام ، سيرة (٢/١٣٧) . أسد الغابة (٣/١٧٦) . تهذيب الأسماء واللغات
(١/٢٧٠ وما بعدها) . الروض الأنف (٢/٢٥) .

٤ تهذيب الأسماء (١/٢٧١) ، الإصابة (٣/١١٦) ، (٢/٢١٢) ، (رقم ٤٧٢٥) ،
(١٩٣٩ م) .

بعض ذوي القلوب العلية من المسلمين الأولين ، لما رأوه فيهم ، ولما سمعوه منهم من أقوال نسبوها الى الأنبياء والعلماء والى كتب الله القديمة ، ولم يكن لهم بطبيعة الحال علم بها ، لعدم وقوفهم على ما كان يتداوله الأخبار ، فعجبوا من علمهم هذا ، ومن إحاطتهم بأحوال الماضين ، فعدّوهم أخباراً لهم في قومهم علم ورأي . وقد تساهل بعضهم في ذلك لظنهم أن في منح هؤلاء أمثال هذه الثمرات مما يفيد الاسلام ، إذ يعني هذا تقدير أولئك الأخبار أصحاب العلم الأول له ، وإن تقديرهم هذا شهادة مزكّية له . وقد يكون لهم نصيب أيضاً في منحهم هذه الدرجة لأنفسهم للنيامي ولتصغر بذلك بين المسلمين .

وقد نسب أهل الأخبار أقوالاً لابن سلام ، نجد بعضها في كتب التفسير والحديث ، ونجد بعضها في كتب السير والأخبار . لبعضها طابع إسرائيلي ، فهو من النقص المعروفة بالإسرائيليات ، وبعضها طابع الأفاقيص ، قد يكون (ابن سلام) صاحبها ومرجعها ، وقد يكون غيره قد نسبها إليه .

وقد كان له ابنان ، هما يوسف ومحمد ، رويَا عنه الحديث^١ . وقد كنّي باسم ولده يوسف ، فعرف بأبي يوسف^٢ . ويعد يوسف من الصحابة ، وله حديث عن الرسول ، ويقال إن الرسول هو الذي سمّاه يوسف^٣ ، وقيل ليست له صحبة . وقد روي عن جماعة من الصحابة^٤ .

وقد أسلم يامين بن يامين الاسرائيلي ، على أثر إسلام عديله بن سلام^٥ . وأما يامين بن عمير بن كعب ، أبو كعب التميمي ، فهو من بني النضير . وقد ساعد اثنين من فقراء أصحاب رسول الله على تجهيزهما بشيء من التمر ليتمكنّا بذلك من الالتحاق بالجيش الذي سار في السنة التاسعة من الهجرة لغزوة تبوك^٦ . أسلم فأحرز ماله من بني النضير ، ولم يحرز ماله من بني النضير لحسبه وغير أبي سعيد بن عمرو بن وهب ، فأحرزوا أموالهما . وذكر أن النبي قال

Ency. I, p. 30-31, Caetani, Annali, I, p. 413, Harovitz, in ZDMG., IV, 524.

١ أسد الغابة (١٧٦/٣) .
٢ تهذيب الاسماء والنقات (٢٧١/١) .
٣ تهذيب الاسماء (١٦٦/٢) .
٤ الاصابة (٣٣٣/٦) - (٦١٢/٣) - (رمم ٩٢١٤) .
٥ الطبري (١٤٣/٣) ، (حوادث السنة التاسعة) ، الاصابة (٣٣٣/٦) ، (الفاعرة ١٩٠٧م) - (٦١١/٣) - (رمم ٩٢١٣) .

ليامين : ألم ترَ الى ابن عمك عمرو بن جحاش وما همَّ به من قتلني ؟ وكان أراد أن يلقى علي النبي رضى فيقتله . فجعل يامين لرجل جعلاً على أن يقتل عمرو بن جحاش فقتله .

وكان فيمن أسلم من بني قريظة (كعب بن سليم القرظي) ، وهو من سبهم في الاسلام ، وبعد في الصحابة ، ولكن لا تعرف له رواية . وهو والد محمد بن كعب القرظي المعروف بروايته عن أحداث يهود مع النبي ، وعن بعض أخبار بني اسرائيل^١ . وله روايات في حديث الرسول عن بعض الصحابة ، وبعد من التابعين . يقال : انه ولد في حياة الرسول ، وتوفي ما بين سنة ثمان ومئة وستة وعشرين ومئة . وقد عدّه علماء الحديث في طبقة الثقات الورعين^٢ .

وفيمن أسلم من يهود بني قريظة رفاعه القرظي ، وهو رفاعه بن سمؤال (سمؤال) ، وقبل : رفاعه بن رفاعه القرظي من بني قريظة ، وهو خال صليبة زوجة النبي ، لأن أمها برة بنت سمؤال (سمؤال) ، أما أبوها ، فهو (حبي بن أعطب) من رؤساء يهود ، وكان من كبار المعارضين له ، وهو من بني النضير^٣ .

وبعد (زيد بن سَعْبَة) (سَعْنَة) في طبقة الصحابة ، ويقال انه كان أحد أخبار اليهود الذين أسلموا ، وانه كان أكثرهم علماً ومالاً ، وقد شهد مع النبي مشاهد كثيرة ، وتوفي في غزوة تبوك مقبلاً الى المدينة^٤ .

وبعد (عطية القرظي) من الصحابة كذلك ، كان صغيراً حين غزا النبي بني قريظة ، ولذلك لم يقتل ، فأسلم ، وصحب النبي^٥ .

ولم يظهر من يهود اليمن في الاسلام ممن عرفوا برواية الإسرائيليات سوى رجلين ، هما : كعب الأخبار ، ووهب بن منبه . فأما كعب الأخبار ، فقد أدرك زمن الرسول ، غير أنه لم يره ، ولم يدخل في الاسلام إلا في أيام أبي بكر أو عمر . وهو أبو اسحاق كعب بن مائع بن هينوع (يسوع) ، وقد عرف

- ١ تهذيب الاسماء (٦٧/٢) . اسد الغاية (٢٤٢/٤) .
- ٢ الطبري (٤٤/٣) . (السنة الخامسة) . تهذيب الاسماء (٩٠/١) .
- ٣ الاصابة (٥٠٤/١) . (رقم ٢٦٦٨) . تهذيب الاسماء (١٧١/١) وما بعدها (١٩١) . (٣٤٨/٢) وما بعدها .
- ٤ تهذيب الاسماء (٢٠٤/١) . الاصابة (٢٨/٣) . (٥٤٨/١) . (رقم ٢٩٠٤) . (الانجارية ١٩٣٩م) . (واستشهد في غزوة تبوك مقبلاً غير مدبر) .
- ٥ تهذيب الاسماء (٢٣٥/١) . الاصابة (٤٧٩/٢) . (رقم ٥٥٨١) .

بين المسلمين بكعب الأخبار وبكعب الخبر من باب التعظيم والتقدير لعلمه . وقد أتاه هذا القلب من علمه بالشرعة وبكعب الأنبياء وبأخبار الماضين ، وهو علم لا نستطيع أن نحكم على درجته ومقدار بعده أو قربيه من العلم الذي كان منتشرًا بين أخبار ذلك العهد ما لم نقف على الأقوال الصحيحة التي صدرت عن ذلك الخبر . أما هذا المروي عنه والمذكور في تفسير الطبري وفي تأريخه وفي كتب من كان يعني بجمع القصص ولا سيما قصص الرسل والأنبياء ، فليس في استطاعتنا التصديق بأنه كله صادر من قم كعب ، إذ يجوز أن يكون من رواية أناس آخرين ثم حل على كعب .

ولم ينسب أحد إلى كعب مؤلفاً ، وكل ما نسب إليه فهو مما ورد عنه بالمشافهة والسباع . وهو بين صحيح يمكن أن يكون قد صدر منه ، وبين مشكوك في أمره وضع عليه ، وفيه ما هو اسرائيلي صحيح ، أي أنه مما هو وارد في التوراة أو في التلمود أو في الكتب الاسرائيلية الأخرى وفيه ما هو قصص اسرائيلي نصراني ، وما هو محض افتعال وغلط . وبالجملة ، إن هذا الوارد عنه يصلح أن يكون موضوعاً للدراسة ، لمعرفة أصوله وموارده والمتابع التي أخذت منه . وعندئذ يمكن الحكم على درجة أصله ونسبه في علم بني اسرائيل ، وامكان صدوره من كعب أو من غيره ، ومقدار علم كعب ووقوفه على الإسرائيليات .

وأما وهب بن منبه ، فيعد من التابعين ، وبعد مرجعاً مهماً في القصص الاسرائيلي . ويقال انه حصل على علمه من كتب الأولين ، وإن أنحاً له كان يلجأ إلى الشام للتجارة فيشتري له الكتب ليطلعها ، وأنه كان على علم غزير بأحوال الماضين ، وكان ملماً بجملة لغات^١ . وإذا كان وهب من المتأخرين وكان نشاطه في الحركة الفكرية في الإسلام لا في الجاهلية ، لم نجعل له في هذا الموضع مكاناً ، إنما مكانه في الأجزاء المتعلقة بتاريخ الإسلام .

علمه قصة يهود جزيرة العرب قبل الإسلام ، قصة لا تستند إلى مؤلفات تاريخية كتبت في تلك الأيام ، ولا إلى نصوص جاهلية عربية أو أعجمية لها علاقة بيهود كتبت في ذلك العهد ، ولكن تستند ، في أكثر ما حكيناه ، إلى موارد إسلامية ، ذكرتهم وأشارت إليهم لمناسبة ما وقع بينهم وبين الرسول من خلاف . وقد ورد

١ لي مقال عنه في مجلة الجمع العلمي العراقي ، الجزء الاول والساني منها .

شيء كثير بحقهم في القرآن الكريم وفي الحديث وفي الأخبار ولا سيما أخبار الغزوات ، يتعلق معظمه بأمر الخصومة التي وقعت بينهم وبين النبي عند قدومه بئرب ، فهو لا صلة له لذلك إلا بما له علاقة بهذه الناحية . وما ورد عنهم إذن هو من مورد واحد وطرف واحد . أما الطرف الثاني من أصحاب العلاقة بهذا التاريخ والشأن ، وأعني بهم اليهود ، فلا صوت لهم فيه ، ولا رأي . فلم تصل إلينا منهم كتابة ما عنهم في علاقتهم بالاسلام . كذلك لم تصل إلينا كتابة أو رواية أو خبر عن أولئك اليهود في الموارد التاريخية التي دونها غيرهم من مؤرخي يهود وكتائبهم عن علاقة يهود جزيرة العرب بالاسلام ، وعن اجلاء يهود الحجاز من مواضعهم الى بلاد الشام ، لا في العربية ولا في العبرانية ولا في بقية اللغات ، مع ما لهذا الحادث من عظم في تاريخ اليهود في جزيرة العرب . ولعل الأهم تكشف لنا عن موارد في العبرانية أو في لغة بني لدم تذكر أحوال يهود جزيرة العرب قبيل الاسلام وعند ظهوره ، ونكشف عن آثار يهود قسي المواضع التي كانوا يسكنونها في الحجاز ، فثبت في أمور كثيرة عن حياة هؤلاء . وليس احتمال عثورنا على مثل هذه الآثار بعيد ، فلا بد أن يعثر على حجر من الحجارة المكتوبة التي توضع فوق القبور ، فنعرف منه ما لغة الكتابة التي كان يستعملها أولئك اليهود ، أي العبرانية ، أو العربية ، أو لغة بني لدم ، أو أعجبية من الأعجيبات المشتقة من القلم المستقيم وقد يعثر على نصوص أطول من هذه النصوص التي توضع على القبور ، نكشف النقاب عن أمور أخرى مهمة. نعيدنا في معرفة أحوال اليهود ببلاد العرب قبل الاسلام .

وما دمت لا نملك نصوصاً يهودية جاهلية ، ولا نصوصاً عربية جاهلية نتعرض لليهود ، فليس في وسعنا إذن أن نتحدث باطمئنان عن أثر اليهود في الجاهليين أو أثر الجاهليين في اليهود . لقد تحدث عدد من المشرقين عن أثر اليهود في الجاهليين ، فزعموا أن لليهود أثراً عميقاً فيهم ، فالتحان مثلاً هو أثر من آثار يهود في العرب ، وشعائر الحج عند الوثنيين أكثرها هي من اسرائيل ، فالطواف حول البيت يرجع أصله الى بني اسرائيل ، ذلك أن قدماءهم كانوا يطوفون حول عيمة الإله (يهوه) إله اسرائيل ، ومنهم تعلمه الجاهليون واتبعوه في طوافهم بالبيت . والاجازة بمعرفة يهودية كذلك ، لأن الذي كان يجيز الحجاج بمعرفة فيأمر الحج بالرمي بعد أن يلاحظ الشمس وقت الغروب يعرف بـ (صوفة) ، وصوفة

تسمية عبرانية لها علاقة وصلة بهذه الوظيفة وظيفة مراقبة غروب الشمس وتثبيت وقته ، فالإجازة اذن عبرانية الأصل . و (منى) صنم من أصنام اسرائيل ، ووادي منى على اسم هذا الصنم الإسرائيلي ، وأسماء أيام الاسبوع هي تسميات أخذت من يهود ، ولقطة (المدينة) التي تطلق على يثرب ، أطلقها اليهود على هذا الموضع قبل الاسلام ، وقد أخذوها من الإرامية ، لتمييز هذا المكان عن (وادي الفري) . وأشياء أخرى عديدة من هذا القبيل .

وقد غالى بعض اليهود في تقدير يهود جزيرة العرب ، فذهب الى أن أولئك اليهود جلهم إن لم يكونوا كلهم كانوا يحسنون قراءة الكتاب المقدس ، بدليل إطلاق القرآن الكريم عليهم (أهل الكتاب) . وقد فانه أن عبارة (أهل الكتاب) لا تعني أهل الكتابة ، بمعنى أنهم كانوا أصحاب علم بالكتابة ، وإنما المراد من ذلك أهل كتاب منزل سماوي . ويدخل في ذلك التصاري أيضاً لوجود كتاب سماوي لديهم كذلك هو الانجيل . وقد رأيت أن القرآن الكريم قد وصف بعض الأحبار بالعلم ، كما رمى أكثرهم بالجهل . أما السواد الأعظم منهم ، فقد جعلهم عامة " تتبع الأقوال رجالها ، فلا علم لها ولا معرفة بأمر الماضين أو الحاضرين .

وأنا لا أريد هنا أن أجادل في نفي هذه الأمور ، أو إثباتها ، فأخذ الشعوب واقتباسها بعضها عن بعض ، من القضايا التي لا يمكن أن ينكرها إلا المعاندون الجاهلون المتعصبون . وقد رأيت أن ابن الكلبي وغيره من قدامى الأخباريين قد أشاروا الى أن أصل بعض الأصنام عند العرب هو من الشمال ، استورد في مناسبات أشاروا اليها ، كما أن التفتيات الأثرية قد أثبتت وجود صلات فكرية بين جزيرة العرب وبين العالم الخارجي ، وأن ما يزعمه القائلون بعزلة الجاهليين عن بقية العالم هو هراء لا يستند الى دليل . ولكنني في هذه الأمور من الحذرين . أكثره الجزم بشيء من غير برهان قاطع ودليل محسوس . فكلام أهل الأخبار ، أكثره ممسا لا يمكن الاعتماد عليه ، وقد رأينا طبيعة أكثره وتوجه . ثم إن الكثير مما له علاقة يهود وبالدين هو مما أخذ من أهل الكتاب في الاسلام أو من أفواه مسلمة أهل الكتاب . فهو متأخر عن الجاهلية ، فلا يمكن أن يشمل الجاهليين من أهل الكتاب ومن وثنيين . وعلينا الآن التمييز بين هذا الذي أدخل بين العرب بعد أيام الجاهلية

وبين ذلك الذي كان معروفاً عند الجاهليين وقد ورد عنهم ، وذلك لتتمكن من ابداء رأي في هذه القضايا المعقدة .

ثم إن العرب كانوا شعباً سامياً ، كاليهود في اصطلاح العلماء، وتشترك البطون السامية في كثير من أصول التفكير والعقيدة ، ومعنى هذا ان ما نجده عند يهود قد يكون عند العرب وعند غيرهم ممن يدخلهم المستشرقون في هذه الزمرة . فلم كل شيء لليهود ، ونعكم على ان الجاهليين قد أخذوا منهم ، ولا نقول إن هذا من ذلك التراث القديم الموروث ؟ أنا لا أقول ذلك متأثراً بدافع من العصبية ، انما أقول ذلك لأنني أدين بفكرة هي ان الاستعجال في اصدار الأحكام بغير دليل خطأ فاحش لا يجوز لآسان يشعر بالنسائية أن يوقع نفسه فيه .

هذا ولا بد بالطبع من ان يتأثر الجاهليون المجاورون لليهود بعض التأثير بهم ، بأن يأخذوا منهم بعض الأشياء ويتعلموا منهم بعض الأشياء التي تقتضهم والتي هم في حاجة ماسة اليها . فذلك أمر لا بد منه . كما ولا بد وان يكون اليهود قد اقتبسوا أشياء من جيرانهم العرب ، وعملوا على محاكاةهم في حياتهم الاجتماعية ، لا سيما وبينهم يهود من أصول عربية .

الفصل الثامن والسبعون

شعر اليهود

واللغة التي كان يتكلم بها اليهود ، هي اللهجات العربية التي كان يتكلم بها أهل المناطق التي يترلوها . ولتكلم اليهود في كل قطر يحلون فيه بشيء من الرطاقة ، لا يستبعد أن تكون لغتهم العربية التي كانوا يتكلمون بها عربية تشوبها الرطانة العبرانية . ولكن هذا لا يمنع من وجود أناس فيها بينهم كانوا يتكلمون ويكتبون بالعبرانية ، ولا سبأ أنهم كانوا يستعملون العبرانية في دراسة أمورهم الدينية وفي كتابة النشرات والتعاوية ، كما كانوا يستعملونها في السحر . وقد وردت إشارات إلى ذلك في كتب الحديث . وقد ورد أيضاً أنهم كانوا يعلمون أطفالهم العبرانية في الكتاب .

ويروي رواية الشعر شعراً جاهلياً زعموا أن قاله هم من يهود . وأكثره أبيات لشعراء لا نعرف من أمرهم شيئاً ، لعلها بقايا قصائد . أما القصائد ، فينسب أكثرها إلى السموأل بن عادباء صاحب حصن الأبلق في ثباه ، وصاحب قصة الوفاء المشهورة^١ . وهذا الشعر المنسوب إلى اليهود ، لا يختلف في طريقة نظمه وفي تراكيبه ونسقه عن شعر الشعراء الجاهليين ، ولا نكاد نلمس فيه أثراً لليهودية ولا للعبرانية . فالفاظه عربية صافية نقية مثل ألقاظ أهل الجاهلية ، وأفكاره على

١ تاريخ الأدب العربي ، لكارل بروكلمان (١٢١/١) ، (طبعة دار المعارف بمصر) .
(طبعة ثانية) ، (مترجم الدكتور عبد الحليم النجار) .

نحط أفكار الجاهليين . وبصعب ان نجد فيه أثراً للتوراة والتلمود ، مما يحسبنا على التفكير في صحة هذا الشعر وفي درجة تعمق صاحبه وتفهمه لدين يهود .

ومن الشعراء الذين روى الأخباريون شيئاً من شعرهم بعد السؤال : (أوس ابن دنن) ، وهو من بني قريظة ، و (كعب بن سعد القرظي) ، و (سارة القرظية) ، و (سبعة بن غريص بن عادياء) (شعبة بن غريص بن عادياء) ، و (الربيع بن أبي الخثيق) ، و (أبو الديال) (أبو الزناد) ، وله شعر في رثاء يهود نباء الذين أجالهم الرسول ، و (شريح بن عمران) ، و (كعب ابن الأشرف) ، و (أبو رافع اليهودي)^١ .

وروى ابن (جعفر بن محمد العجلي) جمع أشعار اليهود في ديوان ، ويظهر انه أخذ ذلك من كتاب للسكري . ويقال إن الموفق بالله أنما الخليفة المعتمد العباسي طلب من الوزير (اسماعيل بن بلبل) ان يقدم اليه ديواناً في شعر اليهود ، فطلب الوزير من العالم اللغوي الأديب (المبرد) ان يقدم اليه ديواناً في شعر يهود ، فأخبره المبرد انه لا يعرف شعراً لليهود . فطلب الوزير من العالم (ثعلب) ان يقدم اليه ما عنده من شعر لليهود ، فأجابه ان لديه ديواناً من شعرهم ، فقدمه اليه^٢ .

وقد كانت بين المبرد وثعلب خصومة شديدة ومنافسة عنيفة ، فلعل هذا الخبر هو من مرويات الجماعة المتعصبة لأحسد الطرفين في العطن في أحدهما والخط من شأنه ، فقد تحزب طلاب العلم وانقسموا جاعتين ، كسل جماعة كانت تنصر لصاحبها ، إذ لا يعقل ألا يكون للمبرد علم بشعر لليهود ، وقد ذكر من سبقه مثل أبي تمام في حماسه والجمحي في طيقات الشعراء كما ورد في الأصمعيات شعراً لهم^٣ ، كما ان في كتابه الكامل نظماً من شعرهم ، أو لعل إنكاره لشعرهم بمعنى ان أكثر ما نسب اليهم من شعر هو في نظره مزيف مصنوع ، ولهذا لم يجمع ما ورد عنهم ، ولا يمكن ان يكون ديواناً في شعر يهود^٤ .

١ الاغانى (٩٤/١٩ وما بعدها) ، الميдами ، (٢٧٦/٢) ، المشرق ، السنة الثانية عشره
Margollouth, p. 76. - (١٦٢) - (١٩-٩)

Margollouth, p. 75.

٢ طيقات الشعراء للجمحي (٧٠/ وما بعدها) -
Margollouth, p. 74.

والشعراء اليهود الذين ذكرهم^١ الجهمي في كتابه (طبقات الشعراء) ، هم :
 السماأل بن عادياء ، والربيع بن أبي الخبيق ، وهو من (بني النضير) ،
 وكعب بن الأشرف ، وشرح بن عمران ، وشعبة بن غريص (شعبة بن غريص)
 وأبو قيس بن رفاعة ، وأبو الليثال ، ودرهم بن زيد . وقد ذكر لهم أبياتاً مما
 قالوه من الشعر .

والسماأل ، وهو من سادات يهود الحجاز ومن أثريائهم وملاكهم ، أحسن
 الشعراء اليهود حقاً في الخلود . بقيت أشعاره ، وحفظت قصائده ، ولم يبخل
 علماء الشعر عليه ، فجمعوا شعره في ديوان . ولم يشأ الزمان أن يبخل عليه ،
 فهياً له من طبعه . ولا تزال تلك القصة : قصته مع علفات امرئ القيس مقرب
 الأمثال . وصير هذا الشاعر الملاك المراسي مثلاً وقدوة للأوقياء ، فضرب به المثل
 وقيل : أوفى من السماأل ، ولعل القصيدة المبتدئة بهذه الأبيات :

وفيت بأدع الكندي ، إني إذا ما ذم أقوام وفيت
 وأوصى عاديأ يوماً بالآل تهشم يا سماأل ما بنيت
 بني لي عاديأ حصناً حصيناً ومساء كلما شئت استقيت

هي التي خلدت هذه القصة ، وصيرت لها فروعاً وذبولاً ، وهي قصة تجعل
 الكندي المقصود بها هو الشاعر الشهير امرأ القيس ، وهي التي خلدت اسم صاحب
 ذلك الحصن .

وتجد هذه القصة في قصيدة للأعشى ، يقال إنه قالها مستجيراً بابن السماأل
 شريح ، ليفكه من أسره ، وكان قد وقع أسيراً في يد رجل كلابي كان الأعشى
 قد هجاه ، ثم ظفر به الكلابي ، فأسره وهو لا يعرفه ، فترل بشريح بن السماأل
 وأحسن صباه ، فلما مرّ بالأسرى ، قال الأعشى أبياتاً بمدحه فيها ، ومدح
 أبيه ، ويذكر كيف أن أباه اختار أذراع الكندي ، وأبى إلا أن يسلمها إلى
 آل وذويه ، حل أن يسلمها إلى أسري ابنه إذا أطلقوه . وهي أبيات نجته من
 أسر الكلابي ، ففر منه بعد أن وهبه لشريح وهو لا يعرف به . فلما عرف به ،
 ندم . ولكن ندمه هذا لم يفته شيئاً لأنه جاء بعد قرات الوقت .

١ (ص ٧٠ وما بعدها) .

٢ (الغاني ٩٩/١٩ وما بعدها) .

ويروي الأخباريون ورواة الشعر أشعاراً أخرى للأعشى قالها في مدح السموأل وفي وصف حصنه وفي سرد قصة وفاته ، نجد فيها مصطلحات وجملاً وكلمات ترد أيضاً في الشعر المنسوب الى السموأل . وهذا ما جعلنا على التذكير في كيفية حدوث ذلك ووقوعه . هل حدث ذلك لوقوف الأعشى على شعر السموأل واقتباسه منه ، باعتبار أن السموأل أقدم عهداً منه ، أم حدث بتوارد الخسوافر والمعاتي فهو من قبيل المصادفة ليس غير ، أم صنع لها يعد على لسان السموأل بعد شيوخ هذا الشعر المنسوب الى الأعشى صاحب الأهلئ الفرد ، أم الشعران مصنوعان صنعاً في الإسلام ووضعاً على لسان الرجلين ؟ وبالجملة إن أكثر ما ينسب الى السموأل ، هو من النوع المصنوع الذي شك فيه ، وبعضه مما نسب الى غيره من الشعراء . أما جامع شعر السموأل في ديوان ، فهو إبراهيم بن عرفة الملقب بقطويه (٣٢٣ - ٣٢٤ هـ) ، من مشاهير علماء العربية . وبعض ما هو مذكور في هذا الديوان^١ ، مثل قصيدته الشهيرة :

إذا المرء لم يندس من التؤم عرضه فكل رداء يرتديه جميل

ملكسور في حاسة أبي تمام ، وبعضه من مرويات الأصمعي . ولم يذكر قطويه جامع الديوان سنه في رواية هذا الشعر . وهذا السند مهم جداً عند المؤرخ للوقوف على كيفية حصول هذا العالم على شعر السموأل ، ولعرفة صحة نسبه إليه . وفي الشعر المنسوب الى السموأل جزء منقول مصنوع ، وضع عليه ، وجزء منسوب الى غيره ، وقد أشار إليه العلماء . ونحن إذا قلنا بقربكته وتنقيته نجد أقله له وأكثره لغيره ، قد يكون من صنعة شاعر آخر ، وقد يكون من وضع وصنعة الشعر ومقتضيه . ثم إذا فحصنا هذا القليل الذي يتفق أهل الأخبار على أنه له ، لا نجد فيه ما يشير الى وجود أثر لدين يهود في هذا الشعر . وقد استدلل الأب (شيخو) على نصرانية ذلك الشاعر ، من قصيدة نسبت الى السموأل ، ورد فيها شيء من القصص الديني ، والأب شيخو لا يكتب بصنراية

١ طبع هذا الديوان في بيروت (سنة ١٩٠٩ م) في مجلة المشرق للسنة المذكورة (ص ١٦١ وما بعدها) ، كما نشره عيسى سايا بعنوان شعر السموأل ببيروت كذلك . وأعاد نشره الشيخ محمد حسن آل ياسين بعنوان : ديوان السموأل ، صنعة أبي عبد الله قطويه وطبع ببغداد سنة ١٩٥٥ م .

السؤال وحده ، بل يرى ان التصراتية هي ديانة جميع الشعراء الجاهليين ، ولهذا ألف فيهم كتابه (شعراء التصراتية) وتحدث فيه عنهم على أنهم نصارى مؤمنون بدين المسيح^١ . وقد فاتته شيء واحد لا أدري كيف عذب عن باله ، عفا الله عنه ، هو : تعيينه ملتحهم في التصراتية ، ونصه على ترهيبهم وتنسكهم ولبسهم المسوح على طريقة الرهبان .

ومن القصائد المنسوبة الى السؤال ، قصيدة مطلعها :

ألا أيها الضيف الذي عاب سادني ألا اسمع جوابي لست منك بغافل

ختمها بهذا البيت :

وفي آخر الأبيام جاء مسيحنا فأهدى بني الدنيا سلام^٢ التكامل

وهي قصيدة تختلف في أسلوب نظمها وفي العرض العام عن طرق النظم المألوفة في الشعر قبل الاسلام ، والشعر المنسوب الى السؤال . وقد وردت فيه كلمة (رحلتهم) وأشير فيها الى قصة ابراهيم الخليل ، والنيح ابنه ، والى تسميته باسرائيل ، ثم الى الأسباط . وقصة بني اسرائيل مع فرعون مصر . وقد أفرق الله فرعون في البحر . والى القدس والطور ، وأمثال ذلك .

وهذه القصيدة هي رد^٣ لأقوال رجل يظهر أنه عاب بني اسرائيل ، وتهجم عليهم ، فأثار هذا الطاول صاحب هذه الأبيات فنظمها في الرد عليه ، وفي القبح بقومته ، مستشهداً على ذلك بالقصص الواردة في التوراة عن بني اسرائيل وعن الأنبياء : ابراهيم وإسحاق ويوسف ، وختمها بالبيت الذي رويته منها عن مجيء المسيح ، وقد دعاه بـ (مسيحنا) ، لأن المسيح من اليهود . ذكر المسيح فيها بعد حديثه عن موسى وتكليم الرب له على جبل الطور ، وهو انتقال فجائي غريب ليست له صلة ما بالأبيات المتقدمة .

^١ Nallino, Raccolta, III, p. 109, Noldeke, Sammanai, in Zeitschrift für Assyriologie, XXVII, 1912, S. 177, Weilhausen, Zum Koran in ZDMG, LXVII, 1913, S. 639, Eisenburg, Zu Samaw'al, in ZDMG, LXVIII, 1914, S. 944, Al-Samaw'al ibn Adfya, in Zeitschrift für Assyriologie, XXVI, 1912, S. 319.

^٢ شعر السؤال (ص ٥٣) - (عيسى سابع) - بيروت ١٩٥١م ، -

والحوادث المذكورة في هذه القصيدة ، والاستشهادات التي استشهد بها الشاعر ، وإن كانت مما هو مذكور في (الكتاب المقدس) بجزمه ، تدل على أن ناظمها قد استعان في نظم المصطلحات التي استعمالها وطريقة تعبيره عن الحوادث بالقرآن الكريم ، وبالفصص الواردة في كتب سيرة الرسل والأنبياء ، وأن الغاية من نظمها هو إثبات مجيء المسيح ، وقد جاء . وشهادة شاعر يهودي مفسدة ولا شك في هذا الباب .

ولم ترد هذه القصة في ديوان السمؤال ولا في كتب الأدب القديمة . وعلم ورودها في تلك الموارد ، دليل بالقطع على أنها مما وضع بعد تدوين شعر السمؤال في الديوان المنسوب إليه وفي كتب الأدب القديمة . وأن هذه القصيدة هي من الشعر المصنوع المتأخر بالنسبة إلى بقية ما نسب إليه .

والسمؤال آراء دينية تراها في هذا الشعر المنسوب إليه ، في بعضه إقرار بالبعث والحساب ، وأن الملك وهو الرب يجازي الإنسان على ما قام به وما فعله من خير أو شر^١ ، وأن الله قد فسّد كل شيء وقضى به ، وإن كل ما قدره كائن ولكل رزقه^٢ ، وإن الإنسان ميت من يوم يولد ، وفيه جرثومة الموت ، ولد من ميت ، ثم يموت ، ثم يبعث تارة أخرى للحساب والكتاب ، ولكل أجل^٣ . وفي قصيدة نالية :

نطفة ما منيت يوم منيت أمرت أمرها وفيها يريت
كنها الله في مكانٍ خطي وخفي مكانها لو خفيت

وهي في كيفية نشوء الإنسان من "مئي" بمعنى - وهي فكرة يظهر أن صاحب هذا الشعر اقتبسها من القرآن الكريم ، نظراً لمظهر التأثير به في تعبيره عن كيفية خلق الإنسان . وقد تطرق في هذه القصيدة إلى ما ذكرته من اعتقاده بالموت والبعث بعده وبالحساب والثواب والعقاب ، وإلى سليمان والحواري يحيى وبقايا

- ١ شعر السمؤال (بيروت ١٩٥١) ، عيسى سبابا ، (ص ٢٦) .
- ٢ ليس يعطى القوي فضلاً من الرزق في ولا يحرم الضعيف السحب بل لكل من رزقه ما قضى الله - وإن حسرت أنفسه المسكين
- ٣ شعر السمؤال (٢٨) .
- ٤ شعر السمؤال (ص ٢٩ وما بعدها) .

الأسباط أسباط يعقوب دارس التوراة والثابت^١ . وإلى انغلاق البحر لموسى وأشار إلى طالوت وجالوت . والأشارات الموجزة هذه ، وإن كانت لفصوص موجود في التوراة ، لم يعتمد الشاعر عليها ، بل اعتمد على القرآن الكريم^٢ . فـ (طالوت) مثلاً غير مذكور في التوراة ، إنما ذكر في القرآن الكريم . وهو اسم الملك (شاقول) في التوراة^٣ . وفي أصل الشاعر بهذه التسمية القرآنية التي لا وجود لها في التوراة دليل على أنه وضع شعره بعد نزول القرآن ، أي في الإسلام . وأما (جالوت) فلفظة وردت في كتاب الله كذلك ، وهي تقابل Goliath في العهد القديم^٤ . وبلاحظ أن صاحب القصيدة قد أخذ مصاب (جالوت) من القرآن الكريم ، كما أنه سار على نهجه في ذكر طالوت جالوت ، وهو بغرد بذلك عن التوراة .

وشعر فيه هذه المصطلحات وهذه المعاني ، لا يمكن أن يكون شعراً يهودياً جاهلياً ، بل لا بد أن يكون من الشعر المصنوع المنظوم في الإسلام .

فليس في شعر السؤال إذن شيء خاص من الأشياء التي انفردت بها يهود ، وهذا الفخر الذي نراه في إسرائيل وفي الأسباط هو فخر يقوم على نظم فخر القبائل بقبائلهم ، وليس شيئاً من دين . ثم إن بنا حاجة إلى إثبات أنه من نظم السؤال خطأ ، وأنه ليس من نظم إنسان آخر قاله على لسان السؤال في مدح اليهود وفي الفخر بهم . ولا عجب أن يقوم إنسان بوضع شعر على لسان السؤال أو غيره من الشعراء الجاهليين ، فكذب الأدب مليئة بشواهد تذكر أسماء قصائد متحللة ، وضعت على ألسنة شعراء جاهليين ، وأسماء من انتحل ذلك الشعر . ولم يكن انتحال ذلك الشعر عملاً سهلاً ، إذ لا بد له من قدرة وعلم ومعرفة بأساليب شعر الماضي . وقد كان حماد الراوية ، وهو أديب كبير وراوي شهير ، على رأس طبقة المتحلين الوضاعين للشعر .

١ دارس السوراة والثابت
٢ سي ويصه المصنوع الطالوت
٣ واذا صلب حينه الجالوت

وبعاب الأسباط أسباط يعقوب
وانغلاق الأمواج طور من عن مو
ومصاب الإفريس حين عسى الله

سعر السؤال (ص ٢٧) - ديوان السؤال (ص ٢٥) .

سورة البقرة - الآية ٢٤٦ وما بعدها .

Ency., IV, p. 642.

Ency., I, p. 1008, Hastings, p. 303.

وأشهر القصائد والأشعار المنسوبة الى السموأل ، القصيدة المنقولة في الصخر التي
مطلعها :

إذا المرء لم يدنس من اللوم عرضه فكل رداء يرتديه جميل

وهي قصيدة شهيرة معروفة تعد نموذجاً في القمطر والحفاة وفي حسن النظم ،
ولذلك تحفظ في المدارس حتى اليوم ، ويضيف إليها بعض العلماء هذا البيت :

هو الأبلق القرد الذي سار ذكره بحر عسل من رامة وبطول

وبعض العلماء يزيد عليها وينقص منها أحياناً أخرى . وهي مع ذلك مما يعزوه
بعض العلماء الى شعراء آخرين ، فعزاهما بعضهم الى عبد الملك بن عبد الرحيم
الحارثي ، أو عبد الله بن عبد الرحمن ، وقيل ابن عبد الرحيم الأزدي ، وهو
شاعر شامي إسلامي .

وينسب بعض الرواة القصيدة المذكورة الى شاعر إسلامي آخر يسمى (دكن)
الراجز . فترى من هذا مبلغ الاختلاف في صحة نسبة هذه القصيدة الى السموأل .
ولم يرد في ديوان السموأل ولا في بعض الكتب الأخرى البيت المتقدم ، وأهني
به قوله :

هو الأبلق القرد الذي سار ذكره بحر عسل من رامة وبطول

ولعدم وروده في ديوانه أهمية بالطبع ، إذ يجوز أن تكون هذه الزيادة متصلة
لآياتها من شعر السموأل حقاً ، وآية فلك ورود (الأبلق القرد) في هذه
القصيدة ، وليس هناك حصن اشهر وعرف بهذه التسمية غير هذا الحصن .

وينسب الى السموأل قوله معتزلاً لرجل من ملوك كتنة :

وإن كنت ما بكتعت عني فلامني صديقي وحزت من يدي الأنامل

١ ديوان السموأل (ص ١٠ وما بعدها) ، الحماسة (ص ٤٩) ، العيس (٧٧/٢) .

الأناني (٢٧٢/١) .

٢ الأناني (٢٦٢/٩) ، (طبعة دار الكتب المصرية) .

وقد ذكر هذا البيت ، وكذلك بيت آخر معه في ديوانه ، غير ان بعض العلماء ينسبها الى معشان بن جواس بن فروة السكوني^١ .

وللأخباريين روايات تختلف بعض الاختلاف في اسم والد السموأل ، فبعضهم من جعله عادياً ، ومنهم من دعاه أوفى ، ومنهم من سماه حيان ، (حسان) ، ومنهم من قال له (السموأل بن غريض بن عاديا)^٢ . وهم يقولون انه يهودي ، ويقولون أحياناً انه من غسان ، وغسان بالطبع ليست من يهود . ومنهم من قال ان والده من يهود ، أما أمه فكانت من غسان . فهو إذن ذو نصفين - اذا صح التعبير - نصف يهودي ، ونصف آخر عربي . ثم هم يذكرون انه كانت له صلات وثيقة بأمرأه غسان ، ولصلته هذه بهم قصده امرؤ القيس ، طالباً وساطته له عند الحارث بن أبي شمر الغساني ، ليوصله الى قبصر ، فينال بمساعدته حقه من خصومه^٣ . أما نحن ، فلا يهمنا من أمر السموأل في هذا المكان شيء ، وكل ما يهمنا هو ما له صلة بدين اليهود ، وعقيدة يهود الجاهلية في الحجاز . ويستشهد الذين يذكرون ان اسم والد السموأل هو (عاديا) بيت شعر نسبوه الى السموأل هو :

بني لي عاديا حصناً حصيناً وعيناً كلما شئت استغيت

فقالوا أن أباه (عاديا) اليهودي ، وهو باني ذلك الحصن^٤ .

وقد جعل (ابن هويد) نسب (السموأل) في (بني غسان) ، وجعل عمود نسه على هذا النحو : (السموأل بن حيان بن عاديا بن رفاعه بن الحارث ابن ثعلبة بن كعب)^٥ .

- ١ ديوان السموأل (ص ٤٣ وما بعدها) ، مسط اللؤلؤ (٤٥٧) .
- ٢ الأغاني (١٦٣/٣) ، (٩٨/١٩) ، الميداني (٢٧٦/٢) ، تاج العروس (٣٨٢/٧) ، (السموأل بن أوفى بن عاديا بن رفاعه بن جفنة) ، التاج (٣٨٢/٧) ، للشرق ، السنة الثانية عشرة (١٩٠٩) ، (ص ١٦٢) ، اليهود (ص ٢٧) ، معاهد التنصيص (١٣١/١) ، مروج (١٧٦/٢) ، (دار الادب) .
- ٣ الأغاني (٩٨/١٩) ، الشرق ، العدد المذكور .
- ٤ الأغاني (٩٨/١٩) .
- ٥ تاج العروس (٢٩٨/٦) .
- ٦ الاشتقاق (٢٥٩/٢) ، ويستفاد .

ولا يستبعد بعض المشرقين احتمال كون السؤال من أصل عربي ، هو من
 غسان . فهو في جملة من يهود من العرب ، لا سيما أن في منطقة يثرب أحباء
 نص على أصلها العربي ، دخلت في هذا الدين . وقد ذهب بعضهم إلى احتمال
 وجود رجلين بهذا الاسم : رجل غساني عربي ، وآخر يهودي^١ .
 وفي هذا البيت المنسوب إلى الأعشى :

أرى عاديا لم يمنع الموت ما له وفرد بنياء اليهودي أبلق

ما يشير إلى يهودية السؤال ، وهو يشير أيضاً إلى غنى عادياه وكثرة ماله .
 وقد عرف حصن السؤال بالأبلق ، وبالأبلق الفرد ، وهو حصن مشرف
 على تيماء ، وقد ذكر الأحيارون أنه إنما دعي بالأبلق ، لأنه كان في بنيائه يياض
 وحررة ، وكان أول من بناه عادياه أبو السؤال . وقد ذكر باقوت الحموي أن
 موضعه على رابية فيها آثار أبنية من لبن لا تدل على ما يحكى عنه من العظمة
 والحصانة ، وهو غراب^٢ . ولست أرى أن الأبلق أو الأبلق الفرد هي تسمية ذلك
 الحصن ، إنما هي صفة له ، أخذت من البيت :

هو الأبلق الفرد الذي سار ذكره يعز على من رآه ويطول

وهو بيت ينسب قوله إلى السؤال . ومن أبيات أخرى تنسب إلى الأعشى .
 وورد في أبيات منسوبة إلى الأعشى أن باني الأبلق هو (سليمان) ، قال :

ولا عاديا لم يمنع الموت ما له وحصن بنياء اليهودي أبلق
 بنياء سليمان بن داود حقة له أرج عال وطي موثق
 يوازي كبيدات السماء ودونه بلاط ودارات وكلس وخندق^٣

ولكن هذا البيت يتناقض ما ينسب إلى السؤال من شعر فيه أن بانيه ذلك

Zeitschrift für Assyriologie, 1912, S. 174.

١ البليدان (٨٦/١) ، القزويني ، آثار البلاد (٤٨) ، المشرق (١٩٠٩) ، (١٦٣) ، تاج
 العروس (٢٩٨/٦) ، (بلى) .
 ٢ البليدان (٨٧/١) ، تاج العروس (٢٩٨/٦) .

الحصن ، هو أبوه (عاديا) (عادياء) . ولست أستبعد ان يكون أكثر هذا الشعر من الشعر المصنوع في الاسلام . وأما نسبة بناء الحصن الى سليمان ، فهي من الأمور المألوفة التي رواها أهل الأخبار عن أبنية سليمان في جزيرة العرب . وردت من أساطير روتجها اليهود بين العرب في الجاهلية وفي الاسلام عن عظمة سليمان وبنايه الأبنية العظيمة . وقد خصصوا سليمان دون سائر رجال اليهود بالنساء ، لبنائه الهيكل الذي أدهش العبرانيين ولا شك ، ولم يكن لهم عهد يمثل هذا العهد من قبل . ومن يدري ، قلعل هذه الآيات المنسوبة الى الأعشى هي من عمل أناس في الاسلام كلّفهم اليهود صنعها ، للتفاخر والتباهي بمآثرهم الماضية ، أو أنها حقاً من قول الأعشى ، صنعها لليهود بعد ان فك شريح أسره وأعطاه شيئاً من المال ، والمال مالك لكل لسان .

وزعم أهل الأخبار ان الملكة (الزباء) قصدت هذا الحصن ، وحسن مارد ، فمجزت عنها ، فقالت : « تمرد مارد وعزّ الأيتى » ، فسبرته العرب مثلاً لكل عزيز ممنوع^١ . و (مارد) حصن بدومة الجندل^٢ .

ونحن إذا تتبعنا الشعر النسوب الى السمؤال ، نجسد معظمه كما قلت متحلاً موضوعاً ، صنع فيما بعد . وإذا تتبعنا سيرة هذا الشخص وما قيل فيه ، نجسد أكثره مما لا يستطيع الثبات لتقد . ولعل هذا هو الذي حل بعض المستشرقين على الشك لا في شعر السمؤال وحده ، بل في شخصية السمؤال نفسها ، فذهبوا الى أنها من اختراع أهل الأخبار ، اخترعوها لما سمعوه من قصص مذكور في التوراة عن (صموئيل)^٣ .

وقد نسب بعض المستشرقين بقاء شعر السمؤال وعدم ذهابه في الاسلام الى أهله الذين دخلوا في الإسلام ، ويقوا في أماكنهم من بناء ، فلم يكن من حين عليهم نيل شعره وتركه ، ولما حافظوا عليه ، فكانت محافظتهم هذه عليه سبب بقاءه حتى اليوم^٤ .

١ تاج العروس (٦/٢٩٨) - (علق) .

٢ تاج العروس (٢/٥٠٠) - (مرد) .

٣ Margoliouth, p. 72, Winckler, in MVAO., Bd., VI, S. 262.

٤ Islamic Culture, III, 2, p. 190. (1939).

وقد ذكر الأخباريون أسماء ثلاثة أولاد للسموأل . أولهم شريح الذي مر ذكره ،
وثانيها حسوط ، وثالثها منذر . ولا نعرف من أمرهما غير الاسم . ويظن أن
حوطاً هو الذي وقع في الأسر فليح^١ .

أما (سعية بن غريض) (شعية بن غريض بن سموأل) (شعبة) ، فهو
أخو سموأل على رواية لأبي الفرج الاصبهاني ، جعلت اسم والد سموأل :
(غريض بن عادياء)^٢ ، وهو حفيده على رواية أخرى . وقد أورد له الاصبهاني
جملة أبيات في أثناء كلامه على سموأل^٣ . ويذكر أنه كان غنياً صاحب أملاك
وأموال ، يعقد المجالس ، ويتأدمه قوم من الأوس والخزرج ، وأن بعض ملوك
اليمن أقار عليه فأنصف من ماله حتى افتقر ولم يبق له مال ، ثم عاد إليه حاله ،
وأنه عاش طويلاً إلى أيام معاوية ، وأنه دخل في الاسلام ، وأن معاوية رآه
يعلي في المسجد الحرام ، فطلب حضوره ، وسأله عن شعر أبيه الذي يرثي به
نفسه ، فأنشده قصيدته :

يا ليت شعري حين أدب هالكاً مائفاً تسؤبتني به أنواحي

ويذكر رواية هذا الخبر أن (سعية) كان شيخاً طاعناً في السن يومئذ . وأنه لم
يكن يرى حقاً لمعاوية في الخلافة ، ولذلك لم يقبل أن يسلم عليه بالخلافة ، وأنه
أجاب أجوبة فيها خشونة وجفاء ، وأن الخليفة كلف أصحابه من الإساءة إليه
قائلاً لهم : قد عرف الشيخ ، فأقيموه . فأخذ بيده فأقيم .

والقصيدة المذكورة ينسبها بعض الرواة إلى سموأل ، وهذه النسبة تجعل سموأل
أبا لسعية لا أخاً له . أما إذا جعلناها من شعر غريض (غريض) ، والد سعية ،
فلا يكون هناك إشكال ما من ناحية نسبة القصيدة ، غير أن علينا حينئذ جعل
(سعية) (شعية) حفيداً لسموأل ، في رواية من جعله (شعية بن غريض بن
السموأل) . بإضافة ولد آخر على أولاد سموأل ، اسمه (غريض)
(الغريض) .

١ - المشرق ، السنة (١٩٠٩) ، (ص ١٦٣) .

٢ - الأغانى (١٩٠٠ / ١٩) ، طبقات الشعراء ، لابن سلام (١١١) ، اليهود (٣٦) .

٣ - Noldeke, Beiträge, S. 84.

وذكر البحري في (حاشية) اسم شاعر يهودي آخر ، هو : عريض بن شعبة ،
ونسب إليه هذا الشعر :

ليس يعطى القوي فضلاً من الرزق ولا يحرم الضعيف الخيـث
بل لكل رزقه ما قضى الله له ولو كد نفسه المستعيت^١

وهو من شعر السؤال نفسه على رواية بعض الأخباريين، يروونه له مع شيء
من الاختلاف^٢.

أما (الربيع بن أبي الحقيق) ، فهو من بني قريظة على رواية ، أو من
بني النضير على رواية أخرى . وقد اشترك في يوم يثرب ، وعاصر النابغة الشاعر
الشهير ، وخلف جملة أولاد ناصبوا الرسول العدا^٣.

ومن بقية شعراء يهود : (أوس بن دثي) من قريظة^٤ ، و (كعب بن
الأشرف)^٥ ، و (سمك اليهودي) . وهو شاعر قوي في رده على المسلمين
عنيف^٦.

وكان (كعب بن الأشرف) رجلاً شاعراً يهجو النبي وأصحابه ويحرض
عليه ويؤذيهم . خرج إلى مكة ونزل على (المطلب بن أبي وداعة السهمي) ،
بعد معركة (بدر) وجعل يحرض على رسول الله وينشد الأشعار ويبكي أصحاب
القلب . فكان حاصل هجائه القتل^٧.

وكان (أبو عفاك) اليهودي ممن يحرض على رسول الله ويقول الشعر ،
وكان شيخاً كبيراً . قتل لتحريضه على رسول الله وقوله الشعر فيه^٨.

Nöldeke, Beilage, S. 71.

١ ليس يعطى القوي فضلاً من الرزق ولا يحرم الضعيف الخيـث
بل لكل من رزقه ما قضى الله له وإن حسر نفسه المستعيت
شعر السؤال (٢٧ وما بعدها) -

Nöldeke, Beilage, S. 72. - الأغاني (٦١/٢١) .

٢ الأغاني (٩٤/١٩) .

٣ الأغاني (١٠٦/١٩) ، ابن هشام (١٢٣/٢) ، حاشية على الروض .

٤ ابن هشام (١٧٩/٢) ، حاشية على الروض .

٥ نهاية الأرب (٧٢/١٧) وما بعده .

٦ نهاية الأرب (٦٦/١٧) وما بعدها .

الفصل التاسع والسبعون

النصرانية بين الجاهليين

ولم تكن اليهودية ، الديانة السماوية الوحيدة التي وجدت لها سبيلاً إلى جزيرة العرب ، بل وجدت ديانة سماوية أخرى طريقاً لها إلى العرب ، هي الديانة النصرانية . وهي ديانة أحدث عهداً من الديانة الأولى ، لأنها قامت بعدها ، ونشأت على أسسها ومبادئها ، ولكنها كانت أوسع أفقاً وتفكيراً من الأولى . فبينما حيث اليهودية نفسها في بني اسرائيل ، وجعلت إلهها إله بني اسرائيل شعب الله المختار ، جعلت النصرانية ديانتها ديانة عالمية جاءت لجميع البشر . وبينما قيّدت اليهودية أبناءها بقيود تكاد تضبط حركاتهم وسكناتهم ، وفرضت عليهم فروضاً ثقيلة ، نجد النصرانية أكثر تساهلاً ونساعاً ، فلم تقيد أبناءها بقيود شديدة ، ولم تفرض عليهم أحكاماً اشترطت عليهم وجوب تنفيذها . وقد قام رجال الدين النصارى منذ أول نشأتها بالتبشير بها ، وبشرها بين الشعوب ، وبذلك تميزت عن اليهودية التي جمدت ، واقتصرت على بني اسرائيل .

ولفظ (النصرانية) و (نصارى) التي تطلق في العربية على أتباع المسيح ، من الألفاظ العربية . يرى بعض المستشرقين أنها من أصل سرياني هو : (نصرويو) Nasroyo ، (نصرايا) Nasraya^١ ، ويرى بعض آخر أنها من Nazarenus النسخية العبرانية التي أطلقها اليهود على من اتبع ديانة المسيح . وقد وردت في

١ عرائب اللغة (ص ٢٠٧) . - Ency., III, p. 848.

المعهد الجديد في (أعمال الرسل) حكاية على لسان يهود^١ . ويرى بعض المؤرخين أن لها صلة (بالناصر) التي كان منها (يسوع) حيث يقال : (يسوع الناصري) أو أن لها صلة بـ (الناصريين) Nasarenes = Nazarenes إحدى الفرق القديمة اليهودية المنتصرة . وقد بقي اليهود يطلقون على من اتبع ديانة المسيح (النصارى) ، وبهذا المعنى وردت الكلمة في القرآن الكريم ، ومن هنا صارت النصرانية علماً لديانة المسيح عند المسلمين .

ولعلماء اللغة الاسلاميين آراء في معنى هذه الكلمة وفي أصلها ، هي من قبيل الضمير المألوفة المعروفة عنهم في الكلمات الغريبة التي لا يعرفون لها أصلاً . وقد ذهب بعضهم إلى أنها نسبة إلى الناصرة التي نسب إليها المسيح^٢ . وزعم بعض منهم أنها نسبة إلى قرية يقال لها (نصران) ، قليل نصراني وجمعه نصاري^٣ . وذكر أن (النصرانية) هي مؤنث النصراني^٤ .

ولم أضر حتى الآن على نص جاهل منشور وردت فيه هذه التسمية . أما في الشعر الجاهلي ، وفي شعر المخضرمين ، فقد ذكر أن أمية بن أبي الصلت ذكرهم في هذا البيت :

أيام يلقى نصاراهم مسيحيهم والكائنين له وداً وقربانا *

وذكر أن شاعراً جاهلياً ذكر النصارى في شعر له ، هو :

اليك تعلو قلعا وضيقها معترضا في بطنها جنبها
مخالفاً دين النصارى دينها

١ أعمال الرسل : الاسحاح ٢٤ - الآية ٥ ، فأننا إذ وجدنا هذا الرجل مفسداً ، ومهيجاً فتنة بين جميع اليهود الذين في المسكونة ومقدم شبيعة الناصريين .
Ency. Relig. Eshde. III, p. 574.

٢ اللسان (٦٨/٧) - تاج العروس (٥٦٨/٣) - (نصر) -

المفردات ، للاصفهاني (ص ٥١٤) -

٣ فكنتاهما خرت وأسجد رأسها كما أسجدت نصرانية ثم تحلف
اللسان (٦٨/٧) - (نصر) ، والنصرانية واحدة النصارى ، تاج العروس (٣/٥٦٩) - (نصر) -

٤ النصرانية وآدابها - القسم الثاني ، الجزء الثاني ، القسم الأول (ص ١٨٧) -

وذكر ان جابر بن حنن قال :

وقد زعت بهراء ان رماحا رماح نصارى لا تخوض الى دم^١

وان حاتم الطائي قال في شعر له :

وما زلت أسمى بين غاب ودارة بلحيان حتى خفت أن أنصرا^٢

وان (طخيم بن أبي الطحماء) قال في شعر له في مدح بني تميم :

ولاني وإن كانوا نصارى أحبهم وبرتاح قلبي نحوهم وبُشوق^٣

وان حسان بن ثابت قال :

لمحت نصارى يثرب ويهودها لما نوارى في الضريح الملحد^٤

غير ان هذه الأبيات وأمثالها إن صح أنها لشعراء جاهليين حقاً، هي من الشعر المتأخر الذي قيل قبيل الاسلام . أما قبل ذلك ، فليس لنا علم بما كان العرب يسمون به النصارى من تسميات .

والذي نعرفه أن قدماء النصارى حينما كانوا يتحدثون عن أنفسهم كانوا يقولون : (تلاميذ) Disciples ، و (تلاميذ المسيح) ، ذلك أنهم كانوا ينظرون الى المسيح نظرتهم الى معلم يعلمهم* وكذلك نظروا الى حواريه ، فورد (تلاميذ يوحنا) وقصدوا بذلك النصارى^٥ . وهذه التعابير من أقدم التعابير التي استعملها النصارى للتعبير عن أنفسهم .

كذلك دعا قدماء النصارى جماعتهم بـ (الاخوة) وبـ (الاخوة في الله) Brethren in Lord للدلالة على الجماعة ، وبـ (الأخ) للتعبير عن المقرب ،

-
- ١ النصراتية وآدابها ، القسم الثاني ، الجزء الثاني ، القسم الاول (ص ١٧١ - ٢٢٥) . شعراء النصراتية (١٩٠) ، المشرق ، السنة السابعة ١٩٠٤ ، (٦٢٠ وما بعدها) .
 - ٢ الاماني (١٦/١٠٤) ، النصراتية وآدابها ، القسم الثاني ، الجزء الثاني ، القسم الاول (٢٢٥، ١٧١) .
 - ٣ المشرق ، السنة السابعة ١٩٠٤ (٦٢٠ وما بعدها) .
 - ٤ ديوان حسان (٢٤) .
 - ٥ Hastings, p. 192.
 - ٦ انجيل مرقس : الاصحاح الثاني ، الآية ١٨ .

ذلك لأن العقيدة قد آمنت بينهم ، فصار النصارى كلهم اخوة في الله وفي الدين^١.
ثم تخصصت كلمة (الأخ) بـرجل الدين^٢ ، ودعوا أنفسهم (القديسين) Saints^٣
والمؤمنين^٤ والمختارين الأصفياء والمدعوين ، ويظهر أنها لم تكن علمية ، وإنما
وردت للإشارة إلى التسمية التي تليها .

وقد كُتِبَ عن مجتمع النصارى بـ (الكنيسة) Ecclesia ، وتعني (للجمع)
في الإغريقية ، بمعنى المحل الذي يجتمع فيه المواطنون . فكُتِبَ بها عن المؤمنين
وعن الجماعة التابعة للمسيح . كما عبر عن النصارى بـ (الفقراء) وبـ (الأصدقاء)^٥ .

وقد عرف النصارى بـ Christians نسبة إلى Christos اليونانية التي تعني
(المسيح) Messiah ، أي المنتظر المخلص الذي على يديه يتم خلاص الشعب
المختار . ويسوع هو المسيح ، أي المنتظر المخلص الذي جاء للخلاص كما جاء
في عقيدة أتباعه ، ولذلك قيل لهم أتباع المسيح . فأطلقت عليهم اللفظة اليونانية ،
وعرفوا بها ، تمييزاً لهم عن اليهود . وقد وردت الكلمة في أعمال الرسل وفي
رسالة بولس الأولى إلى أهل كورنثوس^٦ .

أما في القرآن الكريم وفي الأخبار ، فلم ترد هذه اللفظة اليونانية الأصل . ولهذا
تجد أن العربية اقتصرت على إطلاق (نصارى) و (نصرائي) و (نصرانية)
على النصارى تمييزاً لهم عن أهل الأديان الأخرى . أما مصطلح (عيسوي)
و (مسيحي) ، فلم يعرفا في المؤلفات العربية القديمة وفي الشعر الجاهلي ، فيها

Hastings, p. 104.

١ أعمال الرسل ، الإصحاح الأول ، الآية ١٥ وما بعدها ،

Ency. Rel. Ethic., 3, p. 573.

٢ رسالة بولس الرسول ، الرسالة الأولى إلى أهل كورنثوس ، الإصحاح الأول ، الآية
الأولى وما بعدها .

٣ أعمال الرسل : الإصحاح الخامس ، الآية ١٤ ، رسالة بولس الرسول إلى أهل
الفسس ، الإصحاح الأول : الآية الأولى وما بعدها .

Ency. Rel. Ethic., 3, p. 574.

٤ أعمال الرسل : الإصحاح الحادي عشر : الآية ٢٦ ، الإصحاح ٢٦ ، الآية ٢٨ ،
رسالة بولس الأولى إلى أهل كورنثوس : الإصحاح الرابع ، الآية ١٦ .

Hastings, p. 127.

من المصطلحات المتأخرة التي أمطقت على النصارى^١ . وقد قصد في القرآن الكريم
به (أهل الانجيل)^٢ النصارى ، إذ لا يعترف اليهود بالانجيل . وقد أدخل علماء
اللغة القسطة في المبررات^٣ .

وأهم علامة فارقة ميزت نصارى عرب الجاهلية عن العرب الوثنيين ، هي أكل
النصارى للخنازير ، وحملهم للصليب وتقديسه . ورد أن الرسول قال لراعيين أتياه
من نجران ليبحثا فيها عنده : « بمنعكها عن الاسلام ثلاث : أكلكها الخنزير ،
وعبادتكما الصليب ، وقولكها لله ولد »^٤ . وورد أنه رأى (عدي بن حاتم الطائي)
وفي عنقه صليب من ذهب ، لأنه كان على النصرانية^٥ .
وورد في شعر ذي الرمة :

ولكن أصل امرئ القيس معشر^٦ يعمل لحم أكل الخنازير والحمر^٧

يريد أنهم نصارى في الأصل ، فهم يختلفون عن المسلمين في أكلهم لحم الخنزير
وفي شربهم للخمر .

وقد أقسم النصارى بالصليب . هذا (عدي بن زيد) يحلف به في شعر ينسب
إليه ، فيقول :

سعى الأعداء لا يألون شراً عليك ورب مكة والصليب^٨

ليس في استطاعتنا تعيين الزمن الذي دخلت فيه النصرانية الى جزيرة العرب .
ونحاول مؤلفات رجال الكنائس رد ذلك التاريخ الى الأهم الأول من التاريخ
النصراني^٩ ، غير أننا لا نستطيع إقرارهم على ذلك ، لأن حججهم في ذلك غير

١ Hughes, Dictionary of Islam, p. 431.

٢ المائدة ، الآية ٤٧ .

٣ النهاية في غريب الحديث (١٣٦/٤) ، المغرب ، للجواليقي (٢٢) .

٤ البلاذري (٧١) .

٥ اللسان (٤٤٣/١٣) ، (وثن) ، السهول ، الدر المنثور (٧٥/١٠) .

٦ النصرانية (٧٥) .

٧ شيخو ، شعراء النصرانية (٤٥١) .

٨ النصرانية وأدائها ، القسم الأول ، تأليف لويس شيخو ، بيروت ١٩١٢ م .

كافية للاقتناع . ولذلك ، فليس من الممكن تثبيت تأريخ لانتشارها في هذه الأماكن في الزمن الحاضر ، وليس لنا إلا التفتيش عن أقدم الوثائق المكتوبة للوقوف عليها بوجه لا يقبل الشك ولا التأويل . ونحن أعلم بحث علمي ، يجب أن تكون العاطفة بعيدة عنه كل البعد .

وإذا كانت اليهودية قد دخلت جزيرة العرب بالمجرة والتجارة ، فإن دخول النصرانية إليها كان بالتشيعر ويدخل بعض النساك والرهبان إليها للعيش فيها بعيدين عن ملذات الدنيا ، وبالتجارة ، وبالرفق ولا سيما الرفق الأبيض المنسود من أقطار كانت ذات ثقافة وحضارة . أما هجرة نصرانية كهجرة يهود إلى الحجاز أو اليمن أو البحرين ، فلم تحدث ، ذلك لأن النصرانية انتشرت في انبساطورية الروم والساسانيين بالتدريج ، ثم صارت ديانة رسمية للقيصرة والروم ولشعوب التي خضعت لهم . فلم تظل النصرانية أقلية هناك ، لتضطر إلى الهجرة جماعاً وكثرة إلى بلد غريب . لذلك كان حديثنا عن نصارى العرب من حيث الأصل والأرومة ، يختلف عن حديثنا عن أصل يهود اليمن أو الحجاز .

وبفضل ما كان لكثير من المبشرين من علم ومن وقوف على الطب والمنطق ووسائل الإقناع وكيفية التأثير في النفوس ، تمكنوا من اكتساب بعض سادات القبائل فأدخلوهم في دينهم ، أو حصلوا منهم على مساعدتهم وحمايتهم . فنسب دخول بعض سادات القبائل عن نصر إلى مداواة الرهبان لهم ومعالجتهم حتى تمكنوا من شفائهم مما كانوا يشكون منه من أمراض . وقد نسبوا ذلك إلى فعل المعجزات والبركات الإلهية ، وذكر بعض مؤرخي الكنيسة أن بعض أولئك الرهبان القديسين شغلوا بدعوائهم وبركات الرب النساء العقيبات من مرض العقم فأولدن أولاداً . ومنهم من توسل إلى الله أن يهب لهم ولداً ذكراً ، فاستجاب دعوتهم ، فوهب لهم ولداً ذكراً ، كما حدث ذلك لضجعم سيد الضجاعة ، إذ توسل أحد الرهبان إلى الله أن يهب له ولداً ذكراً ، فاستجاب له . فلما رأى ضجعم ذلك ، دخل في دينه وتعبد هو وأفراد قبيلته . ومنهم من شفى بعض الملوك العرب من أمراض كانت به مثل (ملوايشو عزعسا) الراهب . ذكروا أنه شفى العمان ملك الحيرة من مرض عصبي ألم به ، وذلك بإخراجه الشيطان

من جلد^١ .

وفي تواريف الكنيسة قصص عن أمثال هذه المعجزات المنسوبة الى القديسين ،
كأني نسبوها الى القديس (سمعان العمودي) (المولود نحو سنة ٣٦٠ م)
يلذكرونها على انها كانت سبباً في هداية عدد من الأمراء ومادات القبائل الى
النصرانية، وبفضل تنصرهم دخل كثير من أتباعهم في هذا الدين^٢ . وكأني نسبوها
الى القديس (أفنيوس) الذي نصر بفضل هذه المعجزات جمعاً من الأعراب
واسكنهم في أماكن خاصة أنشأ فيها كنائس أطلق عليها في اليونانية ماعتاه (المحلة)
أو (المعسكر)^٣ .

ولم يعبأ المبشرون بالمصاعب والمشقات التي كانوا يتعرضون لها ، فدخلوا مواضع
ناحية في جزيرة العرب ، ومنهم من رافقوا الأعراب ، وعاشوا عيشتهم ، وجاروهم
في طراز حياتهم ، فسكنوا معهم الخيام ، حتى عرطوا به (أساقفة الخيام)
وب (أساقفة أهل الوبر) ، وبأساقفة القبائل الشرقية المتخالفة وبأساقفة العرب
البادية . وقد ذكر أن مطران (بصرى) كان يشرف على نحو عشرين أسقفاً
انتشروا بين عرب حوران وعرب لسان وقد نعتوا بالنعوت المذكورة ، لأنهم
كانوا يعيشون في البادية مع القبائل عيشة أهل الوبر^٤ .

وقد دخل أناس من العرب بالنصرانية بالتصالحم بالتجار النصارى وبمجالستهم
لهم . روي أن رجلاً من الأنصار ، يقال له (أبو الحصين) ، كان له ابنان ،
فقدم تجار من الشام الى المدينة يحملون الزيت ، فلما باعوا وأرادوا أن يرجعوا ،
أناهم ابنا أبي الحصين ، فدعوهما الى النصرانية ، فتنصرا فرجعا الى الشام معهم^٥ .

ودخلت النصرانية جزيرة العرب مع بضاعة مستوردة من الخارج ، هي تجارة
الرفيق من الجنتين ، فقد كان تجار هذه المادة المهمة الرائحة يستوردون بضاعتهم
من أسواق عالمية مختلفة ، ولكن أثنى هذه البضاعة وأغلاها هي البضاعة المستوردة
من الإمبراطوريتين الروم والفرس ، لمميزات كثيرة امتازت بها عن الأنواع المستوردة

١ الديورة في ملكي الفرس والعرب ، لنفس بولس شينخو (ص ٣٢ - ٤٧) .

٢ النصرانية وأدائها (١/٨٦ وما بعدها) .

٣ المشرق : السنة الثمانية عشرة ، الجزء ٥ ، آذار (٩ - ١٩ م) . (ص ٣٤٤ وما بعدها) .

٤ النصرانية (١/٣٧) .

٥ تفسير الطبري (١٠/٣) . تفسير القرطبي (٣/٢٨٠ وما بعدها) .

من إفريقيا مثلاً. فقد كان صنفها من النوع الغالي الممتاز بالجمال والحسن والافتان ثم بالابتكار والقيام بأعمال لا يعرفها من هم من أهل إفريقيا. ومن الرومانيات والصقلييات والجرمانيات من صرن أمهات لأولاد عدوا من صميم العرب. وقد كان أكثرهن، ولا سيما قبيل ظهور الاسلام، على النصرانية. ومن بينهن من خللت أسماؤهن لتتحدث للقادمين من بعدهم من الأجيال عن أصولهن في العجم وعن الدين الذي كنّ عليه.

وقد كان في مكة وفي الطائف وفي يثرب وفي مواضع أخرى من جزيرة العرب رقيق نصراني كان يقرأ ويكتب ويفسر للناس ما جاء في التوراة والإنجيل، ويقص عليهم قصصاً نصرانياً ويتحدث إليهم عن النصرانية، ومنهم من تمكن من اقناع بعض العرب في الدخول في النصرانية، ومنهم من أثر على بعضهم، فأبعده عن الوثنية، وسقه رأياً عندهم، لكنهم لم يفلحوا في ادخالهم في دينهم، فبقوا في شك من أمر الديانتين، يرون أن الحق في توحيد الله وفي اجتناب الأوثان، لكنهم لم يدخلوا في نصرانية، لأنها لم تكن على نحو ما كانوا يريدون من التوحيد وتحريم الخمر وغير ذلك مما كانوا يبتغون ويشترطون.

وقد أثرت الأديرة تأثيراً مهماً في تعريف التجار العرب والأعراب بالنصرانية. فقد وجد التجار في أكثر هذه الأديرة ملاحى يرتاحون فيها ومجلات مجهزة منها بالماء، كما وجدوا فيها أماكن للهو والشرب: يأتسون بأزهارها وبخضرة مزارعها التي أنشأها الرهبان، ويطربون بشرب ما فيها من خور وتيل معتنق امتاز يصنعه الرهبان. وقد بقيت شهرة تلك الأديرة بالخمور والنبيل قائمة حتى في أيام الاسلام. ومن هؤلاء الرهبان ومن قيامهم بشعرهم الدينية، عرف هؤلاء الضيوف شيئاً عن ديانتهم وعما كانوا يؤدونه من شعائر. وقد أشير إلى هؤلاء الرهبان الناسكين في الشعر الجاهلي، وذكر عنهم أنهم كانوا يأخذون المصابيح بأيديهم لهداية القوافل في ظلمات الليل.

وقد كانت هذه الأديرة، وهي بيوت خلوة وعبادة وانقطاع إلى عبادة الله والتفكير فيه، مواطن نبير ونشر دعوة. وقد انتشرت حتى في المواضع القصية من البوادي. وإذا طالعا ما كتب فيها وما سجله أهل الأخبار أو مؤرخو الكنائس

عن أسماؤها ، نعجب من هذا النشاط الذي عرف به الرهبان في نشر الدعوة وفي إقامة الأديرة للاقامة فيها في مواضع لا تستهوي أحداً . وهي متقاربة عديدة في بلاد العراق وفي بلاد الشام . بل نجد لها ذكراً حتى في الحجاز ونجد وفي جنوبي جزيرة العرب وشرقيها : تتلقى الاعانات من كنائس العراق والشام ومن الروم ، حتى تمكنت من التبشير بين أكثر القبائل . ولولا ظهور الاسلام ونزول الوحي على الرسول في الحرمين ، لكان وجه العالم العربي ولا شك غير ما نراه الآن . كان العرب على دين النصرانية وتحت مؤثرات ثقافية أجنبية ، هي الثقافة التي اتسمت بها هذه الشج النصرانية المعروفة حتى اليوم .

وقد ذكر (ابن قتيبة الدينوري) : ان النصرانية كانت في ربيعة ، ولسان ، وبعض قضاة^١ . وقال (اليعقوبي) : « وأما من تنصر من أحياء العرب ، فقوم من قريش من بني أسد بن عبد العزى ، منهم عثمان بن الحويرث بن أسد بن عبد العزى ، وورقة بن نوفل بن أسد . ومن بني نعيم : بنو امرئ القيس بن زيد مائة ، ومن ربيعة : بنو تغلب ، ومن اليمن : طيء وملحج وهيراء وسليح وتووخ ولسان وتلم^٢ .

وطبعي أن يكون انتشار النصرانية في العرب ببلاد الشام واضحاً ظاهراً أكثر منه في أي مكان آخر . وأقصى بلاد الشام ما يقصده علماء الجغرافيا العرب من هذا المصطلح . فقد كان العرب هذه الديار علاقة مباشرة واتصال تقاضي بغيرهم من سكان هذه الأرضين الذين دخل أكثرهم في الديانة النصرانية ، والذين صارت هذه الديانة ديانة بلادهم الرسمية بعد دخول الروم فيها واتخاذهم النصرانية ديناً رسمياً للدولة منذ تنصر أول قيصر من القياصرة ، فكان من أول واجبات الروم السعي في تنصير الشعوب الخاضعة لهم ، لا تقرباً الى الله وحده ، بل لتعكسين سلطانهم عليهم . وانخضاعهم روحياً لهم . ولهذا كان من سياسة البيزنطيين نشر النصرانية بين أتباعها وفي الخارج وإرسال المبشرين والاختلاط عليهم ومدتهم بالأموال لنشر الدعوة وتأسيس مكاتب للتبشير ، وبالفعل لبناء الكنائس الفخمة الجميلة على طراز في أثني جميل غير معروف بين من سيشرح بهذا الدين بينهم . وبذلك تهرق حقوقهم ، فتشعر أن للدين الجديد مزايا ليست في دينهم ، وأن معابده أرفع من

١ المعارف (٦٢٦) ، البدء والتاريخ (٣١/٤) ، الاعلاي النعيسة (٢١٧) .

٢ اليعقوبي (٢٢٧/١) .

معدبهم ، ورجال دينة أرلى من رجال دينهم . وبذلك يأتون إليها . واليهجرة
والنخفحة أثر عظيم في كثير من الناس ، فالعين عند أكثر البشر ، تقوم مقام
العقل . وقد يكون ما قام به الأحياء في اليمن من انشاء الكنائس العظيمة فيها
وتفننهم في تزيينها وتجميلها وفي فرشها بأفخر الرياش والفرش لصرف الناس عن
العبادة كما يزعم أهل الأخبار دليلاً على ما أقول .

وقد وجدت النصرانية لها سبيلاً بين عرب بلاد الشام وعرب بادية الشام
والعراق . فتدخلت بين (سليح) ، و (الفاسنة) ، و (تغلب) ، و (نوح) ،
و (لحم) ، و (إباد)^١ . وقد انتشرت بين عرب بلاد الشام بنسبة تزيد على
نسبة انتشارها بين عرب بلاد العراق ، وهو شيء طبيعي ، فقد كانت بلاد الشام
تحت حكم البيزنطيين ، وديانتهم الرسمية ، هي الديانة النصرانية ، وكانوا يعملون
على نشرها وترويجها بين شعوب (الإمبراطورية) ، وبين الشعوب الأخرى ،
لا سيما الشعوب التي لهم مصالح اقتصادية معها . فقي نشر النصرانية بينهم وادخالهم
فيها ، تقرب لتلك الشعوب منهم ، وتوسع لتفوذهم السياسي بينهم ، وتقوية
لمسكرهم المناهض لحصونهم الفرس ، أقوى دولة معادية لهم في ذلك الوقت .
ولذا سعت القسطنطينية لادخال عربهم في النصرانية ، وعملت كل ما أمكنها عمله
لتأثير على سادات القبائل لادخالهم في دينهم ، بدعوتهم لزيارة كنائسهم وبارسال
المبشرين اليهم ، لاقتناعهم بالدخول فيها ، وبارسال الأمراء الخاضعين اليهم
لمعالجتهم ، وللتأثير عليهم بذلك في اعتناق النصرانية . كما دعوهم لزيارة العاصمة ،
لمشاهدة معالها ولأبهار عقولهم بمشاهدة كنائسها ، والاتصال بكبار رجال الدين
فيها ، لتعليمهم أصول النصرانية . وأظهروا لهم مختلف وسائل المعونة والمساعدة
إن دخلوا في ديانتهم ، وبذلك أدخلوهم في النصرانية فصاروا اخوتاً للروم
في الدين .

نعم ، دخل سادات القبائل والحكام العرب التابعون لهم في هذه الديانة ،
فصاروا نصارى ، ولكنهم لم يأخذوا نصرانية الروم ، بل أخذوا نصرانية شرقية
مخالفة لكنيسة (القسطنطينية) . فاعتنقوها ملعاً لهم . وهي نصرانية عدت (هرطقة)
وخروجاً على النصرانية الصحيحة (الأرثوذكسية) في نظر الروم . نصرانية متأثرة

١ . اليعقوبي (٢٢٧/١) . (أدبيات العرب) .

بالترية الشرقية ، وبعقلية شعوب الشرق الأدنى ، نبتت من التفكير الشرقي في الدين ، ولهذا تأثرت بها عقلية هذه الشعوب فانتشرت بينها ، ولم نجد لها اقبالاً عند الروم وعند شعوب أوروبا . وكان من جملة مميزاتها عكوفها على دراسة العهد القديم ، أي التوراة ، أكثر من عكوفها على دراسة الأناجيل^١ .

والتصراية التي شاعت بين عرب بلاد الشام ، هي النصرانية البعقوبية ، أو المذهب البعقوبي بتعبير أصبح . وهو مذهب اعتنقه أمراء الغساسنة وتعصبوا له ، وداقموا عنه ، وجادوا رجال الدين في القسطنطينية وفي بلاد الشام في الذب عنه . فزعم مثلاً أن (الحارث بن جبلة) (ملك العرب التصاري) تغلب في مناظرة جرت له مع (بطريرك افرام) (٥٢٦ - ٥٤٥ م) على (البطريرك) وأفحمه في جوابه . وكان افرام ، وهو على مذهب (الملكيين) ، قد قصده لاقائه بترك المذهب (المتوفيزيئي) والدخول في مذهبه^٢ . ونسبوا الى (المنذر بن الحارث) دفاعاً شديداً عن (المتوفيزيئية) ، أي المذهب الذي كان عليه الغساسنة من مذاهب النصرانية ، وذكروا أنه أنب (البطريرك دوميان) وهو في القسطنطينية على تهجمه على (المتوفيزيين) ، وعمل جهده في التقريب بين مذهبه ومذهب البعصر ، واتصل بالقيصر (طيباريوس) (٥٧٨ - ٥٨٢ م) ليعمل على بث روح التسامح بين المذاهب النصرانية وترك الحرية للأفراد في دخول المذهب الذي يريدونه والصلاة في أية كنيسة يريدونها النصراني^٣ .

ويظهر أن بعض الضجاعة الذين كانوا يتولون حكم عرب الشام قبل الغساسنة كانوا على دين النصرانية . غير أننا لا نستطيع أن نحكم على أي مذهب من مذاهب النصرانية كانوا . فذكروا أن (زوكوموس) ، وهو (ضجعم) جد الضجاعة تنصر على يد أحد الرهبان ، وذلك أن هذا الرئيس كان مثلهفاً الى مولود ذكر ، فجاءه هذا الراهب ، ونظرع الى الله ان يهبه ولداً ذكراً ، فلما استجاب الله له تعمد وتبعته قبيلته^٤ .

١ Noldeke, Geschichte des oecumen, I, B. 7.

٢ المشرق ، السنة الرابعة والسلاون ، كانون الثاني - آذار ، ١٩٣٦ (ص ٦١ وما بعدها) .

٣ النصرانية (٣٥/١) .

وقد كان مشهد القديس (سرجيوس) في (الرصافة) ، من أهم المزارات التي تنصدها المنتصرة من عرب الشام ، مثل الفساة وتغلب . وقد تقرب إليه بعض ملوك الفساة بتقديم الهدايا والتلويح إليه وبتربيته وزيارته ، وبالاغتناء بالمدينة وبصهاريجها تكريماً له ، وتقرباً إليه ، وظل هذا المزار مقصوداً مدة في الاسلام . وقد عدّ التغليون هذا القديس شفيعهم ، جعلوا له راية حملوها معهم في الحروب ، وكانوا يحملونها مع الصليب تبركاً وتيمناً بالنصر^١ .

وكان حاصر (قنسرين) لتتوخ . أقاموا في طرفها هذا منذ زمن قديم ، منذ أول تزولهم بالشام . نزّلوا في طرفها وتصوروا . فلما حاصر (أبو عبيدة) المدينة ، دعاهم الى الاسلام ، فأسلم بعضهم ، وأقام على النصرانية بنو سليج . كذلك كان في طرف قنسرين عشائر من طيء ، نزّلوا بها في الجاهلية على أثر الحروب التي وقعت فيها بينهم ، واستدعت تفرقهم ، فأقاموا عند قنسرين مع القبائل العربية الأخرى التي جاءت الى هذا المكان^٢ .

وكان بقرب مدينة (حلب) حاصر يدعى (حاضر حلب) يجمع أصنافاً من العرب من تتوخ وغيرهم . فلما جاء (أبو عبيدة) الى المدينة ، صالح من فضل البقاء منهم على دينه على الجزية ، ثم أسلم الكثير منهم فيها بعد^٣ .

وتعد بهراء في جملة القبائل العربية المنتصرة عند ظهور الاسلام . تنصرت كما تنصرت غسان وسليج وتتوخ وقوم من كندة ، وذلك لتزولها في بلاد الشام ولاتصالها بالروم^٤ .

١ قال الاخطل :

لما رأونا ، والصليب طالعا ،
وأبصرنا رايائنا لوامعا
فأجابيه جريير :

أببالصليب ومار سرجيس تنفي
وقال :

يسننصرون بمار سرجيس وابنه
المشرق ، السنة الرابعة والمائون ، بيسان - حزيران ، ١٩٣٦ ، (ص ٢٤٦ وما بعدها) .

٢ البلاذري ، فتوح (١٥٠ وما بعدها) ، (أمر جند قنسرين والمدن التي تدعى العواصم) .

٣ البلاذري ، فتوح (١٥١) .

٤ اليعقوبي (٢٩٨/١) ، الخراج (١٤٦) ، النصرانية (١٢٥) .

وقد سكن قوم من (لياد) السواد والجزيرة ، وسكن قوم منهم بلاد الشام ، فخصعوا للفساسة ولاروم وتنصروا . وهم في جملة القبائل التي لم يأخذ علماء العربية اللسان عنها لمجاورتها أهل الشام ، ولتأثرها بهم . وهم قوم بفرعون ويكتبون بالسريانية ، فتأثروا بهم ، لروابط الاحتكاك والثقافة والدين^١ .

وقد ترك لنا رجل من نصارى الشام نصاً قصيراً مؤرخاً سنة (٤٦٣) المقاتلة لسنة (٥٦٨) للميلاد ، وهي غير بعيدة عن ميلاد الرسول جاء فيها : «نا شرحيل بر ظلمو بنيت ذا المرطول سنت ٤٦٣ بعد مفسد خبير بعم» ، أي (أنا شرحيل بن ظالم بنت ذا المرطول بعد مفسد (خبير) بعام) . هو على قصره ذو أهمية عظيمة من الناحية اللغوية ، إذ هو النص الجاهلي الوحيد الذي وصل إلينا مكتوباً باللهجة التي نزل بها القرآن الكريم . وهو على ما أعلم النص الجاهلي الوحيد أيضاً الذي وصل إلينا مكتوباً بصيغة المتكلم ، والنصوص الأخرى التي وصلت إلينا والكتوبة بمختلف اللهجات العربية مدونة كلها بضمير الغائب . وهو أيضاً من النصوص العربية القليلة التي تركها النصارى العرب لمن بعدهم في بلاد الشام .

وقد استغل الروم العرب المنتصرة بأن أثاروا في نفوسهم العواطف الدينية على المسلمين ، حينما عزم المسلمون على فتح بلاد الشام وطرد البيزنطيين منها ، وأغروا سادات القبائل بالمال وبالهدايا وبالوعود حتى اشتروهم فصاروا إلى جانبهم . والمصالح الشخصية هي فوق كل مصلحة عند سادات القبائل ، لا تعلوها عندهم مصلحة ، فاقضوا إليهم ، وجاءوا بقبائلهم لمحارب معهم . ومن هذه القبائل العربية التي حاربت مع الروم ، غسان . حاربوا معهم في معارك عديدة . ففي يوم اليرموك كانوا في صفوف الروم ، وكان رئيسهم (جيلة بن الأهم الغساني) في مقدمة الجيش الذي أرسله هرقل لمحاربة المسلمين . كان على رأس مستعربة الشام من غسان ولحم وجذام^٢ . وقد اشترك مع الروم في حروب أخرى ضد المسلمين .

وكانت (سليح) في جملة القبائل العربية المنتصرة التي حاربت المسلمين . ولما تفهق الروم وأنهمزوا ، دفعوا الجزية لاحتفاظهم بدينهم . وكذلك كانت عاملة ولحم وجذام في جملة القبائل المنتصرة التي ساعدت الروم ، وأزدهم . كانوا مع

١ المزهر (١٠٥/١) ، النصرانية (١٢٤) .

٢ البلاذري ، فتوح (١٢٠) ، (يوم اليرموك) .

الروم مثلاً حين مجيء الرسول الى (تبسوك) ^١ ، وظلوا الى جانبهم يؤيدونهم ، حتى تبين لهم أن النصر قد تحول للمسلمين ، وأن الخزائن قد حالفت الروم ، عندئذ انقضت في جملة من انضم من منتصرة العرب الى المسلمين لمحاربة الروم ^٢ .

وكادت قبيلة (تغلب) الساكنة غرب الفرات ، أن تفر الى بلاد الروم وتلتحق بأرض الروم ، لما غلب البيزنطيون على أمرهم وفتحت بسلاد الشام والعراق أمام المسلمين . ولما عبرت بين البقاء على دينها ودفع الجزية وبين الدخول في الاسلام ، أنفت من دفع الجزية ، ورضيت بدفع ضعف الصدقة التي تؤخذ من المسلمين في كل سائمة وأرض ^٣ .

وقد نزحت (إباد) الى بلاد الروم وبقيت بها ، ثم عاد جميع منها لاجراج القيصر لإياهم ، فتركوا بلاد الشام والجزيرة وانضموا الى اخوانهم في الجنس ^٤ .

وبقي هؤلاء عرب العراق ، لاحتكاكهم بالتصاري ولا انتشار النصرانية في العراق بالرغم من ان ديانة الحاكمين لهذا القطر كانت ديانة أخرى ، وان النصرانية لم تكن في مصلحة القرس . غير ان القرس لم يكونوا يمشرون بدينهم ، ولم يكن يهمهم دخول الناس فيه ، إذ عدت المجوسية ديانة خاصة بهم ، وهذا مما صرف الحكومة عن الاهتمام بأمر أديان الخاضعين لها من غير أبناء جنسها ، إلا اذا وجدتها تتعارض مع سياستها ، وتدعو الى الابتعاد عنها . ثم إن النصرانية التي انتشرت فيها لم تكن من النصرانية المشيعة للروم ، ولهذا لم تجد الدولة الساسانية من هذه الناحية ما يهدد سياستها بالأخطار ، ففقت النظر عنها ، وان قاومتها مراراً واضطهدتها ، وفكك ملوكها بعدد من الداخلين فيها ، أشارت اليهم كتب مؤرخو الكنيسة في تواريتهم عن الشهداء القديسين ^٥ .

وقد أشار أهل الأخبار الى تنصر بعض ملوك الحيرة ، ونسبوا اليهم بناء الأديرة

١ البلاذري (٧١) ، (تبوك وابلة وأذرح ومقنا والحرياء) .
 ٢ الخراج (١٣٨) ، (فصل في الكنائس والبيع والصليان) .
 ٣ البلاذري (١٨٥) ، (أمر نصارى بني تغلب بن وائل) ، السنن الكبرى (٢١٦ / ٩) .
 ٤ الخراج (١٣٠) وما بعدها .
 ٥ الطبري (١٩٧ / ٤) وما بعدها ، « الجزيرة » .
 ٦ هناك عدة مؤلفات في هذا الموضوع ، راجع منها :
 Georg Hoffmann, Auszüge aus Syrischen alten Persischer Märtyrer, Leipzig, 1888.

والكنائس ، كما أشار إلى ذلك بعض مؤرخي الكنيسة . كالذي ذكروه عن (المنذر) وعن (العمان بن المنذر) . غير أننا لا نستطيع اقرار ذلك بوجه عام ، ولا بد من التريث ، إذ يظهر ان أكثر ملوك الحيرة كانوا على الوثنية . وإذا كان كثير من ملوك القساسة قد دخلوا في النصرانية فان ظروفهم تختلف عن ظروف ملوك الحيرة . فقد كان الروم ، وهم سادة بلاد الشام ، على هذه الديانة ، وكانوا يشجعون انتشار النصرانية ويسعون لها ، ولهذا كان هذه السياسة أثر في القساسة أصحاب الروم ، وهم على اتصال دائم بهم بطبيعة حكمهم لبلاد الشام . أما في العراق ، فلم تكن هذه الديانة ديانة رسمية للحكومة ، إنما انتشرت بفضل المبشرين ، ولهذا انتشرت بين سواد الشعب ، ولم تنتشر بين الملوك . ولم تضغط الحكومة الساسانية على ملوك الحيرة للتحويل في هذه الديانة التي لم يكونوا أنفسهم داخلين فيها ، فهي بالإضافة إليهم ديانة غريبة ، لا يعنيه موضوع انتشارها ، ولا يهمهم موضوع انتشارها ، ولا يهمهم شأنها ما دامت لا تتعارض وحكمهم في العراق .

وقد كان (هانيء بن قبيصة الشيباني) ممن كان على النصرانية ، وهو من سادات (بنى شيبان) ، ومات وهو على هذا الدين . وكان في جملة منفاوض (خالد بن الوليد) باسم قومه على دفع الجزية للمسلمين . ومن مناصرة العراق بنو عجل بن الجهم من قبائل بكر بن وائل . وقد عرف منهم (حنظلة بن ثعلبة بن سيار العجلي) الذي سادهم في معركة ذي قار . وقد حاربت (خالد بن الوليد) ، وكان قائدها جابر بن مجبر وعبد الأسود . وكان منها في أيام بني أمية الجهم بن جابر . وهو والد حنظل . وقد بقي على نصرانيته في الاسلام .

وكان في الحيرة سراق نصارى اشتركوا مع سراق فريش في الأعمال التجارية مثل (كعب بن عدي التنوخي) ، وهو من سراق نصارى الحيرة ، وكان أبوه اسقفاً على المدينة ، وكان هو يتعامل في التجارة ، وله شركة في التجارة في الجاهلية مع (عمر بن الخطاب) في تجارة البز ، وكان (عقياً) له . قدم المدينة في وفد من أهل الحيرة إلى النبي ورأى الرسول ، فأسلم في رواية ، ولم يسلم في رواية أخرى . ولما توفي الرسول ، ثبت على الإسلام على رواية من صيرته مسلماً في

١ الاغانى (٤٦/١٣ وما بعدها) . النصرانية (١٣٦) .

أيام الرسول . واشترك في جيش اليمامة الذي أرسله (أبو بكر) ، ووجهه (أبو بكر) في رسالة إلى (المقوقس) ، ثم وجهه (عمر) برسالة إليه في أيامه . وشهد فتح مصر^١ .

وقد أخرجت مدينة الحيرة عدداً من رجال الدين ، مثل مار إيليا وأصله من الحيرة ، والقديس حنايشوع ، وهو من عرب الحيرة ومن عشيرة الملك النعمان^٢ ، والقديس مار يوحنا^٣ ، و (هوشاع) الذي حضر مجمع اسحاق الجاثليق عام ٤١٠ م ، وشمعون الذي أمضى أعمال مجمع (ببلا) الذي انعقد سنة ٤٨٦ م ، وشمعون الذي حضر مجمع (أفاق) ، و (إيليا) المنعقد سنة ٤٨٦ م وأمضى في سنة ٤٩٧ م مجمع (إياي) ، و (نرساي) الذي تحزب سنة ٥٢٤ م لنرساي الجاثليق ضد (اليشاع) و (الفرام) و (يوسف) ، وقد حضر مجمع (أشوعياح الأرزني) الذي انعقد سنة ٥٨٥ م ، وشمعون بن جابر الذي نصر الملك النعمان الرابع في سنة ٥٩٤ على ما يذكره مؤرخو الكنيسة^٤ .

وقد كان (مسار يشوعياح الأرزوني) Jeoujab I. Arzunita المتوفى سنة ٥٩٦ م من أصل عربي . درس الدبابة في (نصيبين) Nisibis ، ثم تقدم فصار أسقفاً على (أرزون) Arzun ، ثم ترقى حتى صار (بطريكاً) (بطريرقاً) على الساطرة سنة ٥٨٠ م . وقد زار الملك (النعمان) . ونوسط عند الروم لمساعدة (خسرو أبرويز) Chosroes Abroizus ضد (بهرام) Beheram - Varames . وقد توفي في حيم (بني معد) (المعديين) Maadenes ، ونقل إلى الحيرة فدفن في دير (هند) ابنة النعمان^٥ .

وقد حُر على آثار كنائس في خرائب الحيرة ، وأشار أهل الأخبار إلى وجود الكنائس والبيع والأديرة في الحيرة . وذكر (ياقوت الحموي) أسماء عدد من الأديرة كانت بالحيرة أو بأطرافها وبالبادية ، منها : « دير ابن يرقاق » بظاهر الحيرة ، و « دير ابن وضاح » بتواحي الحيرة ، وديارات الأساقف ، وهي

- ١ الإصاية (٢٨٢/٣) ، (رقم ٧٤٢٢)
- ٢ الديورة في مملكتي الفرس والعرب (٣٢ وما بعدها) .
- ٣ الديورة (٤٧) .
- ٤ أدب شير (٢٠٨/٢) .
- ٥ W. Smith, A Dictionary, II, p. 370, John of Ephesus, Eccl. Histo., II, 40 ff.

جملة أديرة كانت بالنجف ظاهر الكوفة يحضرتها نهر الغدير ، ودير الأسكون
 وهو بالحيرة راكب على النجف وفيه قلالي وهياكل وفيه رهبان يضيفون من
 ورد عليهم . ودير الأعور ، بظاهر الكوفة بناه رجل من إباد يقال له الأعور
 من بني حذافة بن زهر بن إباد ، ودير بني مرينا ، بظاهر الحيرة عند موضع
 جفر الأملاك ، ودير حنظلة ، منسوب إلى حنظلة بن أبي عفران بن النعمان ،
 وهم عم لإياس بن قبيصة ، وكان من رهط (أبي زيد) الطائي ، وكان
 من شعراء الجاهلية ، ثم تنصر وفارق قومه ، ونزل الجزيرة مع النصارى حتى
 قلته دينهم وبلغ نهايته ، وبني ديراً عرف باسمه ، هو هذا الدير ، وتذهب حتى
 مات^١ . ودير حنظلة بالحيرة ، وهو منسوب إلى حنظلة بن عبد المسيح بن علقمة ،
 ودير حنة ، وهو بالحيرة كذلك بناه المنذر لقوم من تنوخ يقال لهم بنو ساطع ،
 تغابله مائة عالية كالمرقب تسمى القائم ، لبني أوس بن عمرو بن عامر ، ودير
 السوا بظاهر الحيرة يتحالفون عنده ، ودير الشام ، ودير عبد المسيح وهو بظاهر
 الحيرة بموضع الجرعة بناه عبد المسيح بن عمرو بن ببيعة ، ودير علقمة بالحيرة
 منسوب إلى علقمة بن عدي بن الرميح بن ثوب بن أسس بن ديسي بن ثمار بن
 تلح ، ودير قرعة وهو دير يلزاه دير الجاهل بنه رجل اسمه قرعة من بني حذافة
 ابن زهر بن إباد في أيام المنذر بن ماء السماء ، ودير الشج وهو بالحيرة بنه
 النعمان بن المنذر أبو قابوس ، و« كان يركب في كل أحد إليه ، وفي كل
 عيد ، ومعه أهل بيته ، خاصة من آل المنذر ، عليهم حلل الديباج المذهبة ،
 وعلى رؤوسهم أكاليل الذهب ، وفي أوساطهم الزنابير المنقصة بالجوهر ، وبين
 أيديهم أعلام فوقها صلبان ، وإذا قضا صلاتهم ، انصرفوا إلى مشرقه على
 النجف ، فشرب النعمان وأصحابه فيه بقية يومه ، وخلع وذهب ، وحمل ووصل^٢
 وكان ذلك أحسن منظر وأجمله » .

ودير مازت (مارة) مريم . وهو دير قديم من أبنية آل المنذر بنو نوح
 الحيرة بن الخورتن والسدير وبين قصر أبي الخصيب مشرف على النجف ، ودير
 ماز قابون بالحيرة أسفل النجف ، ودير مر عيدا بلذات الأكبراح من نواحي
 الحيرة منسوب إلى مر عيدا بن حنيف بن وضاح اللحياني كان مع ملوك الحيرة ،

١ البكري ، معجم (٥٦٧/٢) ، (دير حنظلة) .

٢ البكري ، معجم (٥٩٦/٥) ، (دير النجف) .

ودير ابن المزعوق ، وهو دير قديم بظاهر الحيرة ، ودير هند الصغرى بنت النعمان بن المنذر المعروف بالخرقة ، وكانت به قبور أهلها ، بنته هند في أيام (عسرو أنوشروان) في زمن مار افريم الأسقف . وأما الدير المعروف بدير هند الأقدم ، فنسب بناؤه الى هند الكبرى ، أم عمرو بن هند^١ .

هذه أسماء اخترتها من بين أسماء أديرة أخرى كثيرة ذكرها (الشاهشي)^٢ ، وياقوت الحموي والبكري ، لأن لها صلة بالحيرة وبمسا جاورها وبالعرب سكان هذه الأرضين . ونجد في بلاد الشام أديرة أخرى بناها عربها في تلك الديار قبل الاسلام . ونجد على تسميات بعضها الصيغة الإرامية كما في تسمية (مار افريم) (مار المرام) و (مار عبدا) و (مار فايشون) ، وغيرها . وكلمة (مار) من كلمات بني إرم ، كما نجد الصيغة النصرانية للأعلام واضحة على بعضها كما في عبد المسيح وحنة ومارث مريم وأمثال ذلك ، وهي من الأعلام التي اختصت بالنصراني . وذلك بسبب ان النصرانية كانت متأثرة بثقافة بني إرم ، وكانت تستعمل اللغة الإرامية في الصلوات وفي نادية الشعائر الدينية الأخرى . ولغة بني إرم هي لغة العلم عند النصراني الشرقيين ، فكان من الطبيعي استعمال نصراني العرب لهذه اللغة في كتاباتهم وديوانهم وفي دراستهم للدين وما يتصل باللاهوت من علوم . ومن هنا استعمل كتابهم قلم بني إرم في كتاباتهم ، ومن هذا القلم تولد القلم النبطي المتأخر الذي تفرغ منه القلم العربي الذي كتب به أهل الحجاز عند ظهور الاسلام ، فصار القلم الرسمي للمسلمين .

وقد نعت الرواة وأهل الأخبار العرب السني دانت بالنصرانية به (العرب المنتصرة) ، تمييزاً لها عن العرب الآخرين الذين لم يدخلوا في هذه الديانة ، بل بقيت على إخلاصها ووفائها لديانة آباؤها وأجدادها ، وهي عبادة الأوثان . ومن القبائل التي يحشرها أهل الأخبار في جملة (العرب المنتصرة) غسان وغلط وتنبوخ وتلم وجذام وسليح وعاملة . ويلاحظ أن الأخباريين يطلقون على هذه القبائل أو على أكثرها (العرب المستعربة) ، وهم لا يقصدون بذلك نسبها ، لأن من بينها كما نعلم من هو من أصل قحطاني على حسب مذهب أهل الأنساب في نسب

١ البكري (٦٠٦/٢) . البلدان (١١٩/٤) وما بعدها . . القول في ذكر الأديرة .
٢ مطبعة المعارف ، بغداد ، تاريخ كلدو وآنود (٢٩/٢) . ذخيرة الأذهان (٣١٧) .

القبائل . وإنما يريدون من هذا المصطلح القبائل التي كانت قد سكنت بلاد الشام والساعة في أطراف الإمبراطورية البيزنطية وفي سيف العراق من حدود نهر الفرات الى بادية الشام ، فهو يشمل إذن القبائل النازلة على طرقي الحلال الحصب وفي طرقي القوس التي تحيط بحدود الإمبراطوريتين . وخاصة تلك القبائل التي دانت بالنصرانية وتأثرت بثقافة بني لدم وبلهجتها ، وذلك لظهور هذا الأثر فيها ، وعلى لهجتها خاصة ، مما حدا بعلماء اللغة أن يخرجوا في الاستشهاد بشعرها في قواعد اللغة . والاستشهاد بشعر قبيلة لاثبات القواعد هو أوثق شاهد في نظر العلماء على التسليم بتقاوة لغة القبيلة التي يستشهد بشعرها وأصالتها .

ووجدت النصرانية بعد بلاد الشام والعراق لما مواضع أخرى دخلت إليها ، هي أطراف جزيرة العرب ، كالعربية الغربية والجنوبية والشرقية . وتفسير دخولها الى هذه الأرضين واضح ، هو اتصالها بطرق القوافل البرية والبحرية في البلاد التي انتشرت فيها النصرانية ، ومجيء التجار النصارى والمبشرين مع القوافل إليها . وتجار النصارى ، لم يكونوا على شاكله تجار يهود : كانوا يرون أن التجارة هي كسب مادي ، ولكن التبشير مع التجارة ربح مضاعف ، هو ربح في الدارين : الدنيا والآخرة ، فكانوا يفتنمون فرصة وجودهم في البلاد التي يزلونها لنشر دينهم فيها . ثم إن في انتشار دينهم بين سكان هذه المواضع التي بطرقها كسباً لهم ولبلادهم ، وأكثرهم مسن الروم . فإنهم يجدون ينتصر الغرباء ، إخواناً لهم يرون رؤسهم ، ويعطفون عليهم . ثم لأنهم سيفضلونهم في معاملهم معهم على غيرهم ، ويستأهلون معهم ولا شك . ثم لأنهم سيقربونهم بتصيرهم من العالم النصراني ، ويمثل هذا العالم وحاماه هم الروم .

وكان أهل دومة الجندل خليط ، فهم نصارى ، قال عنهم أهل الأخبار أنهم (من عباد الكوفة)^١ . ويظهر من خبر أسر خالد للأكيكر ومجيئه به على رسول الله ، ومن مصالحة الرسول له على الجزية ، أنه كان على النصرانية ، إذ لا تؤخذ الجزية من مشرك^٢ .

١ البلاذري ، فتوح البلدان (٧٤) - «دومة الجندل» .

٢ «ثم إن خالداً قدم بأكيكر على رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، فحقت له دمه ، وصالحه على الجزية ، ثم سئل سبيله ، فرجع الى قريته » - الطبري (١٠٩/٣) . (دار المعارف) ، (ذكر الخبر عن غزوة نبوك) .

أما (أيلة) ، فكان اسم صاحبها في أيام الرسول (حنة بن رؤبة) (يوحنا بن رؤبة) . وهو نصراتي كما يدل اسم عليه ، جاء الى تبوك في السنة التاسعة من الهجرة ، وكان الرسول بها ، فصالحه على الجزية وبقي في محله^١ . وقد دعاه المسعودي (أسقف أيلة)^٢ . وورد في محاضر بعض المجامع الدينية (أسقف أيلة والشرقة)^٣ .

وكان في وادي القرى نقر من الرهبان، كما ورد ذلك في شعر جعفر بن سراقه أحد بني قرة ، وهو :

فريقان : رهبان بأسفل ذي القرى وبالشام عرفون فيمن تنصرا^٤

وتعد مليء من القبائل التي وجدت النصرانية سبيلاً إليها . وقد ورد ان (أحدوما) (المغربيان) تنقل بين مليء في سنة (٨٧٠) لليولان المقاتلة لسنة (٥٥٩) للميلاد^٥ . وقد كان عدي بن حاتم الطائي في جملة الداعلين في النصرانية من مليء . ويذكر انه كان (ركوسياً) ، وفد على الرسول ، وأعلن إسلامه^٦ . غير ان هذا لا يعني ان النصرانية كانت هي الغالبة على هذه القبيلة ، فقد كان قوم منها يتبعون للصنم (القلس) ، أي على الشرك .

ولم يذكر أهل الأخبار شيئاً يستحق الذكر عن النصرانية في يثرب . وقد أشار القرآن الكريم في مواضع عديدة من الآيات المدنية الى النصاري ، غير ان تلك الاشارات عامة في طبيعة المسيح وفي النصرانية نفسها لا في نصارى يثرب وفي صلاتهم بالاسلام . ثم إن أهل السيرة لم يشيروا الى تصادم وقسح بين النصاري والمسلمين ولا الى مقاومة نصارى يثرب للرسول كالذي وقع بين يهود يثرب والرسول ، مما يدل على ان النصرانية لم تكن قوية في المدينة، وان جاليتها لم تكن

١ البلاذري (٦٦) ، السنن الكبرى (١٨٥/٩) وما بعدها .

٢ التنبيه (٢٧٢) ، النصرانية (٤٤٨) .

٣ النصرانية (٤٤٨) .

٤ الاغانى (٩٦/٧) ، نسب جميل وأخباره .

٥ النصرانية وآدابها ، القسم الاول (١٣٢) وما بعدها .
Barhebraei, Chronicon Eccl., III, 100.

٦ الاصابية (٤٦١/٢) ، (رقم ٥٤٧٧) ، المشرق ، السنة الثامنة ، العدد ١١ ، (١٩٠٥) .

٧ (٥٠٧) ، النصرانية (١٣٣) .

كثيرة العدد فيها . غير ان هذا لا يعني عدم وجود النصارى في هذا الموضع الزراعي المهم^١ . فكما كان في مكة رقيق وموالي يقومون بخدمة ساداتهم ، كذلك كان في المدينة نفر منهم أيضاً يقومون بمختلف الأعمال التي يعهد أصحابهم اليهم القيام بها . ولا بد ان تكون هذه الطبقة من البشر مكثرة في هذه المدينة وفي أي موضع آخر من جزيرة العرب . فقد كانت هذه الطبقة عموداً خطيراً من الأعمدة التي يقوم عليها بنيان الاقتصاد في ذلك العهد ، فهي بالنسبة لذلك العهد الآلات المنتجة والمعامل المهمة لأصحاب الأموال وللسادة الأثرياء ، تؤدي ما يطلب منها القيام به وما يراد منها انتاجه بأجر زهيد وبدقة ومهارة لا تتوفر عند الأحرار من العرب . ثم إن الأحرار مما بلغ حالهم من الفقر والفاقة كانوا يأنفون من الأعمال الحرفية ونحوها مما يوكل الـ هذه الطبقة القيام به ، لأنها في نظرهم من المهن المنحطة التي لا تليق بالرجل الحر مهما كان عليه من فقر وبؤس ، ولهذا كان لا بد من الاستعانة بالموالي والرقيق للقيام بأكثر متطلبات حياة الانسان .

ويظهر من بيت للشاعر حسان بن ثابت في قصيدة رثى بها النبي ، وهو :

فرحت قسارى يثرب ويهودها لما توارى في الضريح الملحد^٢

أنه كان في يثرب نفر من النصارى كما كان بها قوم من يهود . وذكر أن النصارى كانوا يسكنون في يثرب في موضع يقال له : سوق النبط^٣ .

واعلم هذه السوق هي الموضع الذي كان ينزل فيه نبط الشام السليبي كانوا يقصون المدينة للأنجار في الحبوب ، فصارت موضعاً لسكنى هؤلاء النصارى ، ونسب اليهم^٤ . وقد ورد أن عمر بن الخطاب استعمل أبا زيد الشاعر النصراني على صدقات قومه ، وأن أبا زيد هذا كان مقرباً من الخليفة عثمان بن عفان من بعده^٥ .

وقد كان (أبو عامر) الراهب الذي تحدثت عنه أثناء حديثي عن الاحتاف،

١ السنين الكبرى (١٨٢/٩ وما بعدها) .

٢ ديوان حسان (٥٩) ، تحقيق حرشعل ، .

٣ Nallino, Raccolta, III, p. 100.

٤ البخاري (٤١/٣) وما بعدها ، النصرانية (٤١٩) .

٥ النصرانية (٤١٩) .

من اعتنق النصرانية ، ومن أهل يثرب . ويظهر أنه كان قد تمكن من إقناع بعض شباب الأوس من اعتناق دينه ، بدليل ما ذكره علماء التفسير من أنه لما خرج من يثرب مغاضباً للرسول ، وذهب إلى مكة ، مؤيداً إياهم ومعرضاً لهم على محاربة الرسول أخذ معه خمسين أو خمسة عشر رجلاً من الأوس ، على ما ذكره علماء التفسير ، فلما أيس من نجاح أهل مكة في القضاء على الرسول غرّ إلى بلاد الشام على نحو ما ذكرت ، ليطلب مدداً من الروم يعينه في زحفه على المدينة . وأما لا استبعاد احتمال وجود أناس آخرين من أهل يثرب كانوا قد دخلوا في النصرانية ودعوا إليها ، واحتمال وجود مبشرين فيها ، كانوا يسعون لادخال أهلها في دين عيسى ، يؤيدهم ويمدّهم بالمال والمعونة الروم حكام بلاد الشام .

وكان بين سكان مكة عند ظهور الإسلام جماعة من النصارى هم من الغرباء التازجين إليها ، لأسباب ، منها : الرق ، والاتجار ، والتبشير ، والخرفة . فأما الرقيق ، فتنهم الأسود والأبيض : الأسود من إفريقية ، والأبيض من أوروبا ، أو من أنطايا الشرق الأدنى ، وهم أهل في المثلة وفي الشعر من النوع الأول ، وهم يحكم قانون ذلك العهد وعرفه تبع لسادتهم وفي ملك يمينهم ، يقومون بالأعمال التي توكل اليهم ، ليس لهم التصرف إلا بأمرهم ، فهم في الواقع بضاعة يتصرف بها صاحبها كيف يشاء ، ليس لها صوت ولا رأي ، إن أبقى المملوك قتل ، أو أنزل به العقاب الذي يراه ويختاره صاحبه ومالكه .

وبين الرقيق الأبيض خاصة تفر كانوا على درجة من الفهم والمعرفة ، يعرفون القراءة والكتابة ، ولهم اطلاع في شؤون دينهم ومعارف ذلك العهد . ولهذا أوكل اليهم القيام بالأعمال التي تحتاج إلى مهارة وخبرة وذكاء . وقد كان حالهم لذلك أحسن من حال غيرهم من الأرقاء . ومنهم من كان يشرح لسادتهم أمور دينهم وأحوال بلادهم ، ويقصرون عليهم ما حفظوه ووعوه من أخبار الماضين وقصص الراحلين ، وأكثرهم ممن كانت ألسنتهم لم تتروى بعد على النطق بالعربية ، فكانوا يرددون بها ، أو يتلغسون ، ومنهم من كان لا يعرف شيئاً منها ، أو لا يعرف منها إلا القليل من الكلمات .

ومن هؤلاء رجل نصراني كان بمكة قيل إن اسمه : سليمان ، أو يسار ، أو جبر ، أو بعيش ، أو بلعام ، ادعى أهل مكة أنه كان هو الذي يلقي الرسول

ما كان يقوله للناس من رسالته ، وأنه هو الذي كان يعلمه . وقد أشير إلى قول قريش هذا في الآية : « ولقد تعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر ، لسان الذي يلحدون إليه أعجمي » ، وهذا لسان عربي مبين ^١ . ومن روى من القسرين أن اسمه جبر ، قال : إنه كان غلاماً لعامر بن الحضرمي ، وأنه كان قد قرأ التوراة والإنجيل ^٢ ، وكان الرسول يجلس إليه عند المروة إلى ميعته ، « فكانوا : والله ما يعلم محمداً كثيراً مما يأتي به إلا جبر النصراني ، غلام الحضرمي » ^٣ .

ومن هؤلاء من زعم أنه كان قيناً لبني الحضرمي ، وأنه كان قد جمع الكتب ، وهو رومي ، فكان رسول الله يأتي إليه ويجتمع به ، فكان المشركون يقولون : إنه يتعلم من هذا الرومي ! وذكر بعض الرواة أن (آل الحضرمي) كانوا يملكون عبيدين ، هما : جبر ويسار ، فكانا يقرآن التوراة والكتب بلسنتهما ، فكان الرسول يمر عليهما فيقوم يستمع منهما . وقبل أنهما كانا من أهل (عين الثمر) ، وأنهما كانا يصنعان السيوف بمكة ، وكانا يقرآن التوراة والإنجيل ، فربما مر بهما النبي ، وهما يقرآن فيقف ويستمع . وأما من قال أن اسمه (يعيش) ، فذكر أنه كان مولى لحويطب بن عبد العزى . وأما من ذكر أن اسمه (بلعام) ، فقال أنه كان قيناً رومياً بمكة وكان نصرانياً أعجمي اللسان ، « فكان المشركون يرون رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، حين يدخل عليه وحين يخرج من عنده ، فقالوا إنما يعلمه بلعام » ^٤ . ومهما اختلف المفسرون في اسم هذا الرجل فإنهم اتفقوا على أنه كان أعجمي الأصل ، نصرانياً ، يقرأ الكتب ، وأنه كان بمكة ففر من الموالي كانوا على دين النصرانية يقرأون ويكتبون .

والى هذا الشخص أو هؤلاء الأشخاص ، أعني : يعيش ويقال عائش أو عداس مولى لحويطب بن عبد العزى ويسار مولى للعلاء بن الحضرمي وجبر مولى عامر ، أشير في القرآن الكريم ، في الآية : « وقال الذين كفروا : إن هذا إلا

١ سورة النحل ، الرقيم ١٦ ، الآية ١٠٣ .

٢ تفسير الطبري (١١٩/١٤) ، « وكانوا يقولون : والله ما يعلم محمداً كثيراً مما يأتي به إلا جبر النصراني ، غلام ابن الحضرمي » ، روح المعاني (٢١٢/١٤) وما بعدها . ابن هشام (٤٢٠/١) .

٣ تفسير الطبري (١٢٠/١٤) ، روح المعاني (٢١٢/١٤) ، ابن هشام (٢٦٠) .

٤ تفسير الطبري (١١٩/١٤) ، روح المعاني (٢٢٣/١٤) ، تفسير الطبرسي (المجلد الثالث ٣٨٦) .

إفك^١ الفراء وأعانه عليه قوم آخرون^٢ . وقد ذكر المفسرون أن هؤلاء كانوا كتابين يفسرأون التوراة ، أسلموا ، وكان رسول الله ، صلى الله عليه وسلم يتعهدهم ، فقبل ما قبل^٣ .

وعرفت أسماء جملة رجال ونساء من هذا الرقيق الذي جيء به إلى مكة وإلى مواضع أخرى من جزيرة العرب . من هؤلاء نسطاس ، ويقصد بذلك أنستاس ، وكان من موالى صفوان بن أمية . و (ميتا) (ميناس) ، و (يوحنا) عبد (صهيب الرومي) ، و (صهيب) نفسه لم يكن عربياً ، إنما كان من بلاد الشام في الأصل ، وهو رومي الأصل ولذلك قيل له (صهيب الرومي) . وكان قد جاء مكة فقيراً لا يملك شيئاً ، فأقام بها ، ثم اتصل بعبدالله بن جندب بن الحارث المعروف ، وصار في خدمته ، ولذلك قيل أنه كان مولى من موالى عبدالله بن جندب . وفي رواية أنه كان من (النمر بن قاسط) ، سقط أسيراً في الروم فباعوه ، فاشترى منهم . وقد ورد في حديث : « صهيب سائق الروم » ، فهنا يدل على أنه من أصل رومي . وهو من أوائل المسلمين ، يذكر أنه حينما هم بترك مكة والذهاب إلى المدينة بعد هجرة الرسول إليها قال له كفار قريش : أئبنا صعلوكاً حقيراً ، فكثير مالك عندنا ، وبلغت الذي بلغت ، ثم تريد أن تخرج عنك ونفسك !! والله ، لا يكون ذلك . فقال لهم صهيب : رأيتم إن جعلت لكم مالي أتحلون سبيل ؟ قالوا : نعم ، قال : فإني جعلت لكم مالي^٤ ، وترك قريشاً يلعب إلى الرسول .

وكان لبني مخزوم الأثرياء جملة جوار يونانيات ، كما كان لدى العباس عم النبي جوار يونانيات ، وأشير إلى وجود جوار فارسيات . وكان هذا الرقيق الأبيض ذكوراً وإناثاً من جنسيات متعددة ، منهم من كان من أصل رومي ، ومنهم من كان من عنصر أوروبي آخر ، ومنهم من كان من القرس أو من أهل العراق مثل نينوى وعين النمر ، ومنهم من كان من بلاد الشام أو من أقباط مصر ، وهم على التصارية في الغالب^٥ .

- ١ الفرقان ، الرقم ٢٥ ، الآية ٤ .
- ٢ تفسير الطبري (١٨ / ١٣٧ وما بعدها) . روح المعاني (١٨ / ٢٣٤ وما بعدها) . مجمع البيان (٧ / ١٦١) ، (طهران) ، (الجزء الثامن عشر) ، (سورة الفرقان) .
- ٣ ابن هشام (٢ / ٨٩) ، الإصابة (٢ / ١٨٨) ، (الرقم ٤١٠٤) .
- ٤ المشرق ، السنة الخامسة والثلاثون ١٩٣٧ (ص ٨٨ وما بعدها) .

وقد كانت في مكة عند ظهور الإسلام جالية كبيرة كثيرة العدد من العبيد ، عرفوا بـ (الأحايش) . وبين هؤلاء عدد كبير من النصارى ، استوردوا المخلعة والقيام بالأعمال اللازمة لسراة مكة . وقد ترك هؤلاء الأحايش أثراً في لغة أهل مكة ، يظهر في وجود عدد من الكلمات الحبشية فيها في مثل المصطلحات الدينية والأدوات التي يحتاج إليها في الصناعات وفي الأعمال اليدوية التي يقوم بأدائها العبيد . وقد أشار العلماء إلى عدد من هذه الكلمات ذكروا أنها تعربت ، فصارت من الكلام العربي . وقد أشاروا إلى ورود بعضها في القرآن الكريم وفي الحديث . ويشير أهل الأخبار إلى ورود بعض الرهبان والشماسة إلى مكة . وقد كان من بينهم من يقوم بالطبيب . وقد ذكر الأخباريون أن شماساً كان قد قصد مكة ، فعجب الناس به ، وقد سمعوا أحدهم به ، هو عثمان بن الشريد بن سويد ابن هرمي بن عامر بن مخزوم ، فقالوا له : (شماس) ١ .

وذكر (اليعقوبي) ، أن من تنصر من أحباء العرب ، قوم من قريش من بني (أسد بن عبد العزى) ، منهم (عثمان بن الحويرث بن أسد بن عبد العزى) ٢ . وقد ورد في بعض الأخبار أنه قدم على قبصر ، فتنصر ، وحسنت منزله عنده . وإن قبصر ملكه على مكة . ومنحه براءة بذلك ، واعترف به . وقد سبق أن تحدثت عنه في أثناء كلامي على مكة . وقد ذكرت أن من الصعب تصور بلوغ نفوذ القبصر هذا الحد من جزيرة العرب ، فلم يتجاوز نفوذ الروم الفعلي في وقت ما من الأوقات أعالي الحجاز . ولكن ذلك لا يمنع من تقرب السادات وتزلفهم إلى عمال الروم وموظفيهم في بلاد الشام ، باظهار أنهم من المخلصين لحكم المحبين للروم ، وأنهم من كبار السادات ذوي المكانة والنفوذ ، للحصول على مكاسب مادية ومعنوية منهم ، فجعل لهم مكانة عند أتباعهم وجاهاً ومنزلة ونفوذاً على القبائل الأخرى . وقد كان الروم يعرفون ذلك معرفة جيدة ، بفضل دراستهم لنفسية الأعراب ، ووقوفهم على طبائع سادات القبائل ، فكانوا يشجعون هذا النوع من التودد السياسي لكسب العرب وجرحهم إلى جانبهم .

- ١ . فقال : يا أم خالد . هذا سناء . وسناء بالعيشية حسنة . . أسد الغاية (٥/ ٥٧٩) . المغرب (٢٠٢ ، ٣٠٣ ، ٣٥٢) . صحيح مسلم (١٨٩/٢) .
- ٢ . ابن هشام (٣٢٩/٢) . . من حضر يندرا من بني مخزوم . . الشرق . السنة الخامسة والثلاثون . ١٩٣٧ (ص ٩٠ وما بعدها) . كتاب نسب مريش (٣٤٢) .
- ٣ . اليعقوبي (١/ ٢٢٧) . (أديان العرب) .

وعنه (ورقة بن نوفل) في جملة للتصيرين في بعض الروايات ، فقد ذكر انه « تنصر واستحكم في النصرانية ، وقرأ الكتب ، ومات عليها »^١ .

وقد استدلل (شيخو) من الخبر المروي عن الصور التي قيل إنها صور الرسل والأنبياء وبينها صورة المسيح ومريم ، والتي ذكر أنها كانت مرسومة على جدران الكعبة ، على أنها هي الدليل على أثر النصرانية بمكة . استدلل على فكرته هؤلاء بخبر خلاصته أن الرسول حينما أمر فطمت تلك الصور ، استثنى منها صورة عيسى وأمه مريم ، وبخبر ثان ورد عن تمثال لمريم مزوق بالخلي وفي حجرها عيسى ، باد في الحريق الذي شب في عصر (ابن الزبير) ، وبخبر ثالث عن امرأة من غسان قيل إنها (حجت في حجاج العرب ، فلما رأت صورة مريم في الكعبة ، قالت : يايسي أنتي وأمي : إنك لعربية . فأمر رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، بمحو تلك الصور ، إلا ما كان من صورة عيسى ومريم »^٢ .

وكان في الطائف مقر من الموالي كانوا على دين النصرانية ، لم يتعرض سادتهم كسائر رجال الأماكن الأخرى من الحجاز لدينهم ، فتركوهم على دينهم يقيمون شعائرهم الدينية على نحو ما يشاؤون . من هؤلاء (عداس) ، وكان من أهل لينوى ، أوقفه حفظه في الأسر ، فبيع في سوق الرقيق ، وجي به إلى الطائف فصار مملوكاً لعبه وشية أبي ربيعة . وعند مجيء الرسول إلى الطائف عارضاً نفسه على تقبيل أهلها ، كان هو في جملة من تكلم إليه^٣ . ومنهم الأزرق ، ذكر أنه كان عبداً رومياً حداقاً، وأنه هو أبو نافع الأزرق الخارجي الذي ينتمي إليه الأزارقة . وهناك روايات تنفي وجود صلة لهذا الأزرق بالسد نافع المذكور^٤ .

وأما الحديث عن النصرانية في اليمن، فهو حديث غامض أوله ، مبهم أصله ، لا نعرف مني شيئاً به على وجه التحقيق . فليس لدينا نص بالسند يشير إلى مبدأ

١ - البغوي (٢٩٨/١) ، (ليندن) ، الخبر (١٧١) ، ابن هشام (٢٤٣/١) ، ٢٥٠ وما بعدهما ، النصرانية (١١٩/١) ، المشرق ، السنة الخامسة والثلاثون ، ١٩٣٧ (ص ٢٧٢) .

٢ - النصرانية (ص ١١٧) .

٣ - ابن هشام (٣٠/٢) ، أسد الغابة (٢٨٩/٣) ، الإصابة (٤٥٩/٢) ، (الرقم ٥٤٧٠) ، النصرانية (٤٥٣) .

٤ - البلاذري (٦٢) .

دخول النصرانية العربية الجنوبية. وما لدينا من كتابات مما له بعض العلاقة بالنصرانية إنما دون في الحقة المتأخرة من تاريخ اليمن ، وفي أيام الحيشة في اليمن ، وهو ساكت في الجملة عن المبدأ وعن المبشرين بالنصرانية في العربية الجنوبية . فليس لدينا من ين نصوص المسند في هذا الباب عون ولا سند .

وليس لنا إذن إلا أن نفعل ما فعلناه بالنسبة إلى اليهودية ، فنرجع إلى الموارد الإسلامية والنصرانية لترى رأيها في هذا الباب .

وتزعم الموارد الإسلامية أن النبي نشر النصرانية في اليمن رجل صالح من بقايا أهل دين عيسى اسمه (فيميون) Faymiron = Phemion^١ ، وكان رجلاً زاهداً في الدنيا محاب الدعوة سائحاً ينزل القرى لا يعرف بقريسة إلا أخرج منها إلى قرية لا يعرف فيها ، وكان لا يأكل إلا من كسب يده ، وكان يشاء يعمل الطين وكان يعظم الأحد : إذا كان الأحد لم يعمل فيه شيئاً . فظن لشأنه في قرية من قرى الشام رجل من أهلها اسمه (صالح) ، فأحبه واتبعه على دينه وراقته . وانصرف معه صالح من ضواحي الشام حتى وطئا بعض أرض العرب ، فعدا عليها ، فاغتطفها سبارة من بعض العرب ، فخرجوا بها حتى باعوها بنجران . وأهلها من بني الخارث بن كعب من بني كهلان . وكانوا يعيدون العزى على صورة نخلة طويلة بين أظهرهم . فابتاع رجل من أشراقهم (فيميون) ، وابتاع رجل آخر صالحاً ، وقد أعجب صاحب فيميون به ، لما رآه فيه من صلاح وورع ، فآمن بدينه ، وآمن أهل نجران منذ ذلك الحين بالنصرانية لمعجزة قام بها (فيميون) ، حينما دعا الله يوم عيد العزى أن يرسل عليها رجلاً صرصراً عاتيةً تخشى عليها . فأنت الريح عليها فجعلتها من أصلها فألقنها ، فآمن بدينه أهل نجران . فن هنالك كانت النصرانية بنجران^٢ . وبذكر الطبري أن أهل نجران كانوا يعيدون كل سنة ، إذا كان ذلك العيد علقوا عليها كسل ثوب حسن وجدوه ، وحلوا النساء . ثم خرجوا ، فمكفوا عليها يوماً^٣ .

ويظن أن (فيميون) كلمة يونانية في الأصل حرفت من أصل Euphemion .

- ١ فيميون ، فيميون ، فيميون .
- ٢ الطبري (١٠٣/٢ وما بعدها) ، ابن هشام (٢٠ وما بعدها) ، الكامل ، لابن الأثير (١٧١/١) ، البيضاوي (٣٩٥/٢) ، ابن خلدون (٥٩/٢) .
- ٣ الطبري (١٢٠/٢ وما بعدها) ، دار المعارف .

وزعم أن (فيميون) ابن أحمد النجراتي واسمه (عبدالله بن الثامر) رئيساً عليهم ، وجعلهم تحت رعاية أسقف اسمه (بولس)^١ .

وقد ذكر (الأزرق) أن أهل نجران كانوا من أشلاء سبا ، وكانوا على دين النصرانية على أصل حكم الانجيل ، وبقياً من دين الحواريين ، ولهم رأس يقال له : عبدالله بن ثامر^٢ .

وتذكر رواية اسلامية أخرى أن أهل نجران كانوا أهل شرك ، يعبدون الأوثان وكان في قرية من قرأها قريباً من نجران ساحر يعلم غلمان أهل نجران السحر ، وكان أحد رجال نجران واسمه (الثامر) يرسل ابنه (عبدالله) مع غلمان أهل نجران إلى ذلك الساحر يعلمهم السحر ، فكان يمر على صاحب خيمة بين نجران وتلك القرية ، وقد أعجبه ما رآه من صلاته وعبادته وتقواه ، فجعل يجلس إليه ويسمع منه حتى دخل في دينة ، وصار يدعو إليه بين أهل بلدته . فن تم انتشرت النصرانية في نجران ، وظهرت على الوثنية^٣ .

وتذكر هذه الرواية ، أن (عبدالله بن الثامر) أخذ من ثم يبشر بالنصرانية ، ويأتي بالمعجزات إذ يشفي المرضى ، حتى لم يبق أحد بنجران به ضر إلا أتاه فأنعم على أمره ، ودعا له فعوفي ، حتى رفع شأنه إلى ملك نجران . فدعاه فقال له : أفسدت علي أهل قريتي ، وخالفت ديني ودين آبائي ، لأمثل بك ! قال : لا تقدر على ذلك . فجعل يرسل به إلى الجبل الطويل فيطرح عن رأسه فيقع على الأرض ، ليس به بأس ، وجعل يبعث به إلى ميساء بنجران ، بحور لا يقع فيها شيء إلا هلك . فيلقى فيها فيخرج ليس به بأس ، فلما غلبه ، قال عبدالله بن الثامر : انك والله لا تقدر على قتل حتى توحيد الله فتؤمن بما آمنت به . فلذلك إن فعلت ذلك سلطت علي قتلتي ، فوجد الله ذلك الملك ، وشهد بشهادة عبدالله بن الثامر . ثم ضربه بعضاً في يده فنجته شجرة غير كبيرة ، فقتله . فهلك الملك مكانه . واستجمع أهل نجران على دين عبدالله بن الثامر^٤ . ولم تصرح هذه الرواية التي يرجع سندها إلى (محمد بن كعب بن القزظي)

Pell. in ZDMG., 35, 1881, S. 31, ann., I, O'Leary, p. 143.

١ أخبار مكة (٨١/١) .

٢ الطبري (١٢١/٢) وما بعدها (دار المعارف) .

٣ الطبري (١٢٢/٢) (دار المعارف) .

وبعض أهل نجران ، باسم الرجل الصالح السدي أخذته (عبدالله بن الثامر) نصرانيته . وقد نبّه الى ذلك الطبري ، في التاء سرده لها ، فقال : « ولم يسموه باسمه الذي سمّاه به وهب بن منبه »^١ .

وقد صيرت بعض الروايات (عبدالله بن الثامر) في جملة من قتلهم (ذو نواس) من النصارى ، غير ان (الطبري) ، نبّه الى غلط هذا البعض ، ويثبت ان (عبدالله) كان قد قتل قبل ذلك ، فله ملك كان قبله ، هو كان أصل ذلك الدين^٢ .

وهناك قصة ذكرها (ابن اسحاق) ، تزعم أن رجلاً حضر خربة من غربي نجران لبعض حاجاته ، فوجد عبدالله بن الثامر تحت دفن منها قاعداً واضعاً يده على خربة في رأسه ممسكاً عليها بيده ، فإذا أخرت يده عنها انكبت دماً ، وإذا أرسلت يده ردتها عليها ، فأمسك دمه ، وفي يده خاتم ، فأقر على حاله وردوا عليه الدفن الذي كان عليه ، وكان ذلك بأمر عمر بن الخطاب^٣ .

والظاهر أن النجراتيين ، لم يتسوا رئيسهم (عبدالله بن الثامر) حتى بعد اسلامهم ، فرووا عنه هذا القصص وصبروه على هذه الصورة التي روتها القصة . ويظهر أنه قتل ، فصير شهيداً من الشهداء ، لأنه قتل في سبيل دينه وفي سبيل نشره بين النجراتيين .

وزعم بعض الأخباريين أن الذي أدخل النصرانية ونشرها في الحميريين ، هو النبع عبد كلال بن مثوب : أخذ النبع نصرانيته بزعمهم من رجل من غسان ذكروا أنه كان قد قدم عليه من الشام . فلما علمت حمير ينتصر النبع ويتغير دينه وإعراضه عن عبادتها ، وثبت بالغياني فقتله^٤ . وقد أشير الى تنصره في الفصيدة الحميرية^٥ .

١ الطبري (١٢١/٢ وما بعدها) « دار المعارف » .

٢ الطبري (١٢٣/٢) « دار المعارف » .

٣ الطبري (١٢٤/٢) .

٤ الطبري (٨٦/٢) : « ذكر ما كان من الأحداث في أيام يزيد جرد بن يهرام وفيروز بن عمالها على العرب وأهل اليمن » ، النصرانية (٥٥/١ وما بعدها) .

Nallino, Raccolta, III, p. 124.

٥ أم أين عبد كلال الماضي على دين المسيح الطاهر المساح النصرانية (٥٥/١) .

أما الرواية الأولى فنسب إلى (وهب بن منبه) . وأما الرواية الثانية فنسب إلى (محمد بن كعب القرظي) وال بعض أهل نجران لم يصرح (ابن اسحاق) يذكر أسمائهم ، فالروايتان إذن من مورد واحد هو أهل الكتاب^١ . فوهب بن منبه من مسلمة يهود . وأما محمد بن كعب بن أسد القرظي المنوفى بن سنة ١١٨ - ١٢٠ للهجرة ، فهو من أصل يهودي كذلك ، من قريظة حلفاء الأوس ، وقريظة يهود . وكان مثل وهب قاصاً من القصص يقص في المسجد . وقد جر قصصه هذا عليه البلاء ، فكان يقص في المسجد فسقط عليه السقف فأت^٢ .

وجدت أقوال محمد بن كعب القرظي سيلاً إلى تأريخ الطبري عن طريق سيرة ابن اسحاق ، وهو طريق ابن حيد عن سلمة بن الفضل عن ابن اسحاق صاحب السيرة الذي أخذ منه بلا واسطة كما أخذ منه بالواسطة . أما الأخبار المروية عنه ، فهي في سير الرسل والأنبياء ، وفي انتشار اليهودية والنصرانية في اليمن ، وفي الأمور التي تخص اليهود في الحجاز^٣ . وكان من المقربين إلى الخليفة عمر بن عبد العزيز ، لأنه كانت له به معرفة سابقة قبل توليه الخلافة . فلما ولي الخلافة ، كان يذهب إليه ويتحدث معه في الزهد وفي القصص الذي يحمل طابع الأساطير وفي التفسير الذي اشتهر به^٤ .

فناقل النصرانية إلى نجران إذن رجل غريب جاء إلى البلد من ديار الشام على رواية (وهب بن منبه) . ويرجع (أوليري) هذه الرواية إلى أصل يرى جذوره في السريانية^٥ . واسم هذا الرجل الصالح غير عربي بالطبع . قلعه من المبشرين الذين كانوا يطوفون بين ديار العرب للتبشير .

ولا يستبعد أن يكون المبشرون قد أدخلوا النصرانية إلى اليمن عن طريق الحجاز ،

١ الطبري (١٠٤/٢) ، تفسير الطبري (٨٥/٣٠) .

Nailino, Raccolta, Di Seritti, III, 1941, p. 124.

٢ راجع ما كتبه عنه في مجلة التجمع العلمي العراقي ، المجلد الاول ، ١٩٥٠ ، (ص ١٩٨) ، وتهذيب التهذيب (٤٢٠/٩) ، عيون الاخبار (٢٠١/١) ، ٣٦٤ (٤/٣) ، (٣٤٣ ، ١٤/٢) .

٣ الطبري (١٣٨/١) ، (١٠٤/٢) ، ورد اسمه في ٢٩ موضعاً من تأريخ الطبري .

٤ ابن سعد ، طبقات (٢٧٢/٥) فيما بعدها) ، مجلد ٧ قسم ٢ ص ١٩٤ ، عيون الاخبار (٣٤٣/٢) ، (٤/٣) .

O'Leary, p. 143.

فقد كانوا ينتقلون بين العرب لنشر هذا الدين . وليس يستبعد أيضاً أن يكون قد دُخِلَ عن طريق الساحل أيضاً مع السفن . فقد كان المبشرون ينتقلون مع البحارة والتجار لنشر النصرانية ، وقد تمكنوا بمعونة الحكومة البيزنطية من تأسيس جملة كنائس على سواحل جزيرة العرب وفي سقطرى والهند . كما لا يستبعد أن يكون للمبشرين الذين جاؤوا من العراق كما تذكر بعض الموارد النصرانية السريانية دخل في نشر النصرانية في اليمن . ولا سيما نشر النسطورية في تلك البلاد .

وأما الموارد النصرانية ، فإنها مختلفة فيما بينها في أول من أدخل النصرانية إلى اليمن ، فالموارد اليونانية ترى رأياً ، والموارد السريانية ترى رأياً ، والموارد الحبشية ترى رأياً آخر ، يختلف عن الرأيين . وكل رأي من هذه الآراء الثلاثة يرجع شرف نشر النصرانية في اليمن إليه .

يحدثنا كتيبة التواريخ الكنسية من اليونان أن الفهرس (قسططين) الثاني أرسل في عام (٣٥٤) للميلاد (ثيوفيلوس اندس) Theophilus Indus ، أي (ثيوفيلوس الهندي) ، من جزيرة سرنديب إلى سيلان إلى العربية الجنوبية للبشير بالنصرانية بين الناس . وقد تمكن من إنشاء كنيسة في عدن وأخرى في ظفار وثالثة في هرمز ، وعين المنتصرين رئيساً ثم رحل . وصارت ظفار في سنة ٣٥٦ م مقراً لرئيس أساقفة بشرف على شؤون نصارى نجران وهرمز وسقطرى^١ . وقد عثر على مقبرة من خرائب ظفار على أعمدة من الطراز (الكورنثي) وعلى بقايا تيجانها وعليها نقوش صلبان يظهر أنها من عائلات تلك الكنائس القديمة التي شيدت بمساعدة البعثات التبشيرية وفي أيام الحبشة في اليمن^٢ .

وزعم (فيلوستورجيوس) Philostorgius أن هذا الشعب الهندي يشتر (ثيوفيلوس) بين أفراد النصرانية ، شعب هندي . وكان يدعى سابقاً باسم شعب (سبا) نسبة إلى عاصمته سبا ويعرف اليوم باسم حير Homeritae^٣ . وقد توهم

^١ « تأويل الهندي » النصرانية (٥٦/١) .

Alt. kult., S. 148, Philostorgius, Historia Ecclesiastica, III, 48, Hugh Scott, in the High Yemen, 1947, p. 211, Moedtmann, Miscellen zur himjarischen Alterthumskunde, in ZDMG., 1877, XXXI, S. 64. ff., Migne, Patr. Grea., LXV, Col. 459-637, Conti Rossini, un documento, p. 110.

Alt. Kult., S. 148, Nalino, Raccolta, III, p. 133, Bury, History of the Roman Empire, II, p. 322.

Philostorgius, I, II, 6, ZDMG., 31, 1877, S. 68.

عدد من الكنية (الكلاسيكيين) فحسبوا الحميريين من المنود ، كما ان بعضاً منهم غفلوا ان السبيين من (الكوشيين) الحبش ، والذي أوقعهم في هذا الوهم هو صلات هؤلاء بأفريقية وبالحند ، ولوقوع بلادهم على المحيط الهندي وعلى مقربة من أفريقية ^١ .

وجاء في رواية أخرى ان القيصر (قسطنطين) الثاني أرسل (ثيوفيلوس) إلى ملك حمير Homaritae ونجاشي الحبشة Axume وذلك في عام (٣٥٦) للميلاد . برسائل كتبها القيصر إلى الملكين . فلما أنهى مهمته لدى ملك حمير ، انتهز هذه الفرصة فزار وطنه الهند ، ثم عاد فذهب إلى الحبشة . وعاد منها فذهب إلى أنطاكية Antiochia ومنها إلى القسطنطينية ^٢ . ويظهر من هذه الرواية ان مهمته هذه لم تكن مهمة دينية ، انما كانت ذات طابع سياسي ، الغاية منها ضم حمير والأحباش إلى معسكر البيزنطيين .

وقد كان من مصلحة الحكومة البيزنطية بعد دخول القيصر (قسطنطين) في النصرانية عام (٣١٣) للميلاد واتخاذها ديانة رسمية للدولة ، ان ينشر هذا الدين ويكثر أتباعه ، لما في ذلك من فوائد سياسية ومصالح اقتصادية ، فضلاً عن الأثر العميق الذي يتركه هذا العمل في نفوس أتباعه المؤمنين مما يرفع من مكانة القيصرية في نفوس الشعب ويقوي من مراكزهم وتقوؤهم على الكنية والرعية . وبمساعدة هؤلاء القباصرة تمكن المبشرون من انشاء ثلاث كنائس في (غفار) و (عدن) و (هرمز) ^٣ .

ولم يكن يقصد (قسطنطين) كما يرى المشرق (روسيني) من إرسال الوفد الذي ترأسه (ثيوفيلوس) إلى ملك حمير ، هدفاً دينياً محضاً ، وإنما أراد أن يعقد معاهدة تجارية مع الحميريين ويحقق له منافع اقتصادية وسياسية . بأن يحقق له التجارة البحرية ، ويعرض الباطين على القرس ويدخلهم في معسكره بدخولهم

١ النصرانية (٥٣/١ وما بعدها)

Paulys — Wissowa, Zweite Reihe, Zehnter Halbband, S. 2167, Philostorgius, Hist. Eccl., II, 6, Klidd, A History of the Church, II, 161, III, 429, Bury, History of the later Roman Empire, II, p. 322.

Ency. of Relig. and Ethn., III, p. 589, Franz Stuhlmann, Der Kampf um Arabien, S. 12.

في النصرانية التي تجمع عندهم بينهم وبين الروم^١.

وورد في رواية أخرى أن الحميريين Homeritae دخلوا في عهد (انطس) (انطاسيوس) (٤٩١ - ٥١٨ م) في النصرانية. وذكر أيضاً أنه كان في جملة من قصدوا القديس (سمعان العمودي) رجال من عرب حبر، وقد رأهم (تاودوريطس) في القرن الخامس للميلاد^٢.

وأما الموارد السريانية، ومنها الموارد النسطورية، فترعم أن تاجراً من أهل نجران اسمه (حنان) أو (حيان)، قام في أيام (يزدجرد) الأول (٣٩٩ - ٤٢٠ للميلاد) بصفة تجارية إلى القسطنطينية، ثم ذهب منها إلى الحيرة، وفيها تلقى مبادئ النصرانية ودخل فيها. فلما عاد منها إلى نجران، بشر فيها بالنصرانية حتى تمكن من نشرها بين حبر. وترجع تواريخ البطارقة هذه الحادثة إلى أيام بطرقة (معنى) Ma'na الموافقة لحوالي سنة (٤٢٠) بعد الميلاد^٣. وذكر أنه في عهد البطريق (سيلاس) Silas (٥٠٥ - ٥٢٣ م)، هرب لاجئون من اليعاقبة Jakobiten إلى الحيرة، غير أن النسطورية أجلوهم عنها، فذهب قسم منهم إلى نجران، فنشروا مذهبهم بين السكان^٤.

وتشير الأخبار الكنسية أيضاً إلى أن رسول الكلدان الأولين: (ادي) و (ماري) كانا قد سارا إلى بلاد العرب سكان الخيام، وإلى نجران وجزائر بحر اليمن. وجاء في المصحف الناموسي: «وبشر الجزيرة والموصل وأرض السواد كلها وما يليها من أرض اليمن كلها وبلاد العرب، سكان الخيام وإلى ناحية نجران والجزائر التي في بحر اليمن ماري التي من السبعين»^٥.

وللحجس قصص عن انتشار النصرانية في نجران، خلاصتها: أن قديساً اسمه

١ النصرانية (٥٦/١).

Conti Rossini, un documento sul Cristianesimo nello Yemen, p. 710.

٢ النصرانية (٥٧/١ وما بعدها).

Mordtmann, in ZDMG., XXXI, 1877, S. 65, Theoderus, Lector, Hist. Eccl., I, II, p. 367, (ed. Valentinus and Nicephorus Callistus).

٣ Chronik von Seert, II, 149, ASM, 22, Eduard Sachau, zur Ausbreitung des Christentums in Asien, Berlin, 1919, S. 68.

Chronik von Seert, II, 144.

٤ النصرانية (٥٨/١).

(ازقير) Azkir ، أقام كتيبة ورفع الصليب وبشر بالتصرانية في نجران ، وذلك في أيام الملك (شرحبيل بنكف) ملك حمير ، فاستاء من ذلك (ذو ثعلبان) و (ذو قيقان) ، وأرسلوا رجالهما إلى المدينة لهدم الكتيبة وإزالة الصليب والقض على القديس ، ففعلوا وألقوا به في غياهب السجن . وفي أثناء إقامته فيه هدى قوماً من السجناء إلى التصرانية بفعل المعجزات التي قام بها ، فغضب الملك (شرحبيل) عليه ، وأرسل إلى القليلين الذين كانوا في نجران أن يرسلوا إليه هذا الرجل الذي فتن الناس ، فأرسل محقوراً إليه . وفي أثناء اجتيازه الطريق إلى عاصمة الملك ظهرت منه معجزات خارقة ، آمن بها عدد من رفاقه أو وقفوا على أحواله وتعبدوا على يديه . فلما وصل إلى (ظفار) عاصمة (شرحبيل) ، أنهره الملك وحاجه في دينه وعرض عليه كتب (يهود) ، ثم أغراه بالذهب والمال ، فقال له القديس : « اللعب والقضة فانيان ، أما كمرستس ساكن السماء فيبقى » . وقد حرصه عليه أحد الأخبار ، فأمر الملك عندئذ بمرساله إلى نجران لقتله . فلما بلغ المدينة ، قتله اليهود ، فمات شهيداً في سبيل دينه^١.

وزعم الرواية الحبشية أن نصارى اليمن كانوا يرسلون يهداياهم إلى التجاشي وبالضرائب يدفعونها إليه^٢.

وذكر أن أحد الأساقفة من كان في اليمن ، كان قد اشترك في أعمال مجمع (نيقية) الذي انعقد سنة ٣٢٥ للميلاد^٣ . وإذا صح هذا الخبر ، فإنه يعني أن التصرانية كانت قد وجدت لها سيلاً إلى اليمن في القرن الرابع للميلاد .

بين من هذه الأخبار أن التصرانية لم تدخل العربية الجنوبية من طريق واحد ، وإنما دخلتها من البحر ومن البحر ، دخلتها من البر من ديار الشام إلى الحجاز فاليمن ، ومن العراق أيضاً مع القوافل التجارية المستمرة التي كانت بين اليمن والعراق . ودخلتها من البحر بواسطة السفن اليونانية ودخلتها مع الحبشة كذلك الذين كانوا على اتصال دائم باليمن وبقية العربية الجنوبية منذ أيام ما قبل الميلاد .

Winckler, AOF., IV, 1896, S. 329, ff., British Museum Orient., 686, 687, 688, 689.

Fell, in ZDMG., 35, 1881, S. 50.

التصرانية (٥٧/١)
Nallino, Raccolta, III, p. 122, Caetani, Annali, I, p. 125.

وقد كانت نجران أهم موطن للتصراية في اليمن ، ولعلها الموطن الوحيد الذي رسخت هذه الديانة فيه في هذه البلاد . وقد اشتهرت نجران بالحادثة التي وقعت فيها ، حادثة تعذيب التصاري ، وبما ذكره أهل الأخبار عن الكنيسة التي أنشأها الأحباش فيها وعرفت بـ (كعبة نجران) عند الأخباريين كما عرفت بـ (بيعة نجران) أيضاً . وفي رواية تنسب إلى ابن الكلبي (أنها كانت قبعة من آدم من ثلاث مئة جلد ، كان إذا جاءها الخائف أمن ، أو طالب حاجة قضيت ، أو مسرفد أرفد . وكانت لعظمتها عندهم يسمونها كعبة نجران ، وكانت على نهر نجران ، وكانت لعبد المسيح بن دارس بن عدي بن معقل ، وكان يستغل من ذلك النهر عشرة آلاف دينار ، وكانت القبعة تستغرقها ^١ . وكان يقف عليها من غلة ذلك النهر .

وورد في رواية أخرى أنها كانت بناء بني على بناء الكعبة . وقد بناها بنو عبد المذنان بن الدبران الحارثي ، بنوها على بناء الكعبة ، وعظموها مضاهاة لها . وكان فيها أساقفة معتمون ، وهم الذين جاؤوا إلى النبي ، ودعاهم إلى المباحلة . وتذكرنا قصة (ابن الكلبي) عن أصل كعبة نجران ، وأنها كانت من آدم ، بما نعرفه عن خيمة (يهوه) إله العبرانيين ، وتعيد الأسراليين له فيها قبل بناء الهيكل ، واعتقادهم أنها خيمة مقدسة ، وبما نعرفه من حيم القبائل المقدسة ، وذلك لأنها كانت بيتاً توضع فيها الأصنام ويتعبد أفراد القبيلة بها ، فإذا ارتحلوا إلى مكان جديد نقلوا خيمتهم معهم . والظاهر أن كعبة نجران المذكورة، إن صحت رواية ابن الكلبي ، كانت من هذا النوع ، خيمة مقدسة في الأصل وذلك قبل دخول أهل نجران في التصراية ، فلما دخلوها ، لم تلعب عنها قدسيتها ، بل حولوها إلى كنيسة ، ثم بنوا بيعة في موضعها فيما بعد .

وفي رواية أن قس بن ساعدة الأيادي كان أسففاً على نجران ^٢ ، وهي رواية تحتاج إلى سند موثوق به ، وقد أخذ بها (شبخو) وأمثاله ممن يرجع كل شيء

١ البلدان (١٩٣/٨) ، تاج العروس (٤٥٧/١) ، (٥٥٦/٣) ، ديوان الاعسى (١٢٢) ، (طبعة كابر) " Gezer " ، ابن قتيبة - الشعر والشعراء (٢٨٣) -
Raccolta, III, p. 127.

٢ البلدان (١٩٣/٨) ، نجران ، تاج العروس (٥٥٦/٣) ،
Raccolta, III, p. 128. Lammens, Califat, p. 332.

من هذا القبيل في الجاهلية إلى النصرانية .

وقد كانت نجران المركز الرئيسي للنصرانية في اليمن عند ظهور الاسلام ، لها نظام سياسي واداري خاص تخضع له ، وعليها : (العاقب) ، وهو كما يقول أهل السير : « أمير القوم ، وذو رأيهم ، وصاحب مشورتهم ، والقي لا يصدرون إلا عن رأيه » ، و (السيد) ، وهو « ثمالهم ، وصاحب رحلتهم ويجمعهم » ، و (الأسقف) ، وهو « جبرهم ، وإمامهم ، وصاحب مدارسهم »^١ . وينصرون به رئيس نجران الديني الذي يرجعون في أمور الدين . أما العاقب والسيد ، فإليهما ادارة الجماعة ، والإشراف على شؤونهم السياسية والمالية ، وتبدير ما يحتاج المجتمع اليه من بقية الشؤون^٢ .

وقد صالح أهل نجران خالد بن الوليد ، في زمن النبي ، في السنة العاشرة من الهجرة ، وبذلك دخل أكثر سكان المدينة في الاسلام . أما من بقي على دينه من النصارى ، فقد فرضت عليه الجزية^٣ .

ويذكر أهل السير ان اسم عاقب نجران في أيام النبي ، هو (عبد المسيح) رجل من كتبة . وقد قدم على رأس وفد من أهل نجران إلى يثرب ، فقابل الرسول ، وتحدث معه . وكان معه (الأيهم) وهو سيد نجران يومئذ ، وأبو حارثة بن علقمة أحد بني بكر بن وائل ، وكان أسقفهم وجبرهم وإمامهم يومئذ ، وله مقام عظيم عندهم ، « وقد شرف فبههم ، ودرس كتبهم حتى حسن علمه بدينهم ، فكانت ملوك الروم من أهل النصرانية قد شرفوه ومولوه ، وأخدموه ، وبنا له الكنائس ، ويطفوا عليه الكرامات ، لما يبلغهم عنه من علمه واجتهاده في دينه »^٤ .

وإذا صح ما رواه أهل الأخبار من أن عاقب نجران كان كندياً ، وأن أسقفها كان من (بكر بن وائل) ، فإن ذلك يدل على أن الرئاسة عند النصارى العرب ،

١ ابن هشام (٢٠٤/٢) ، تاج العروس (٢٨٩/١) ، (عاقب) ، (١٤١/٦) .

(أسقف) ، اللسان (٥٧/١١) ، « وصاحب مدارسهم » ، ابن سعد (٣٥٧/١) .

Raccolta, III, p. 128.

٢ الطبري (١٥٧/٣) ، « حوادث السنة العاشرة » ، البلدان (٢٦١/٨) وما بعدها .

٣ ابن هشام (٢٠٤/٣) ، تاج العروس (٢٨٩/١) ، اللسان (١٠٥/٢) ، ابن

سعد (٣٥٨/١) ، نهاية الأرب (١٢١/١٨) .

لم تكن تتبع العرف القبلي في الرعامة ، وإنما كانت عن تسبب واختيار ، وأنا لا استبعد احتمال وجود مراجع دينية عليا ، كانت هي التي تتولى النظر في إدارة الكتائب وفي تعيين رجال الدين وفي النظر في المشكلات التي تقع بين النصارى ، أو بين النصارى وغيرهم ، وفي أمر مساهمة النصارى العرب في الجامع الكنسية التي تنظر في المسائل العامة للطوائف .

ويرى بعض أهل الاختيار أن السيد والعاقب أسقفي نجران اللذين أرادوا مبايعة رسول الله ، هما من ولد الأفعى بن الحصين بن غنم بن رهم بن الحارث الجرهمي ، الذي حكم بين بني نزار بن معد في ميراثهم ، وكان منزله بنجران^١ .

ويذكر علماء اللغة ، أن (العاقب) من كل شيء آخره ، والعاقب السيد ، وقبل الذي دون السيد ، وقبل الذي يخلف السيد ، وقبل : الذي يخلف من كان قبله في الخبر كالعقوب^٢ . والذي أوصى اليهم بهذا التأويل والتفسير ، ظاهر لفظة (عقب) في عربيتنا التي منها اشتقت لفظة (العاقب) على رأيهم . والصحيح أنها لفظة عربية جنوبية وردت في المستد ، بمعنى (رئيس) وممثل قوم ، أي رسول قوم ، فورد (عقبت نشقم) ، أي (رئيس) مدينة (نشق)^٣ ، وبمعنى ممثل مدينة (نشق)^٤ .

وذكر أن نصارى نجران ، أرسلوا العاقب والسيد في نفر لمحاكمة رسول الله فيما نزل عليه في المسيح ، من أنه عبده ، حيث كبر ذلك عليهم سماعه ، فأخذوا يخاصونه ويجادلونه فيه ، وألحوا عليه بالجدل والخصومة ، فدعاهم إلى الملاعة ، فامتنعوا ودعوا إلى المصالحة ، فصالحهم^٥ . وأنه إلى ذلك أشير في القرآن الكريم : « فمن حاجلك فيه من بعد ما جاءك من العلم . قتل : تعالوا : فدع أبناءنا وأبنائكم وأبنائنا ونساءكم وأنفسكم ، ثم تبتهل فتجعل لعنة الله على الكاذبين »^٦ .

١ القبر (١٣٦) .

٢ تاج العروس (٢٨٩/١) . (عقب) .

٣ Jamme 619, Ma Mb 178, Mahram, p. 120.

٤ Jamme, South Arabian Inscription, p. 445.

٥ إرشاد الساري (٢٣٧/٦) .

٦ آل عمران ، الآية رقم ٦١ ، تفسير الطبري (٢٠٩/٣) وما بعدها . روح المعاني

(١٦٥/٣) . أمثال الاسماع (٥٠٢/١) . الواحدي ، أسباب (٧٤) . ابن سعد

(١ قسم ٢ ص ٨٤) . إرشاد الساري (٢٣٧/٦) .

وورد أيضاً انه لما بعث رسول الله وسمع به أهل نجران أتاه منهم أربعة نفر من خيارهم منهم العاقب والسيد ، و (مار سرجس) ، و (مار يمز) ، وقالوا ما يقول في عيسى . فقال : هو عبدالله وروحه وكلمته . قالوا هم : لا، ولكنه هو الله نزل من ملكه ، فدخل في جوف مريم ، ثم خرج منها ، فأرانا قدرته وأمره ، فهل رأيت قط انساناً خلق من غير أب ؟ فأُتزل الله ، عز وجل ، إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ، ثم قال له : كن فيكون .^١

وقد كان نصارى اليمن كنائس أخرى غير كنيسة (نجران) : فقد كانت لهم كنيسة عظيمة في (صنعاء) ، هي (القليس) التي اكتسبت شهرة عظيمة في كتب الأخبار والتواريخ. وهي كنيسة (أبرهة) ، من أصل (اكليسا) Eclystia اليوناني بمعنى الكنيسة ، وموضعها الآن جامع (صنعاء) على ما يظن . وقد أبدع الأحباش في تزيينها وتجميلها ، وأنفقوا عليها مبالغ طائلة .

كما كانت لهم كنائس في (مأرب) و (ظفار) . وقد عهد الأحباش بتدبير شؤون كنيسة (ظفار) الى أسقف شهير يقال له (جرجسيوس) (جورجيسيوس) (جرجسيوس) . وهو مؤلف كتاب شرائع الحميميين . وله مناظرات مع اليهود^٢ .

وقد بقيت النصرانية قائمة في اليمن في أيام الاسلام ، ففي الأخبار الكنسية أن رئيس البطارقة الساطرة (طيموثاوس) ، نصب في أواخر القرن الثامن للميلاد أسقفاً لنجران وصنعاء ، اسمه (بطرس)^٣ . وفي (الفهرست) لابن التميمي ، أنه التقى براهب من نجران يدعى حسان ، كان قد أُنقله الجاثليق الى الصين ، ليُفقد مع خمسة أناسي من النصاري أحوال نصاراها ، فعاد منها سنة (٣٧٧) للهجرة ، وأخبره بعجائب تلك البلاد^٤ . وذكر أنه في حوالي سنة ١٢١٠ للميلاد كان في منطقة صنعاء خمسة أساقفة ، وأسقف في مدينة زبيد وأسقف في نجران ، وأنه كان في حوالي سنة ١٢٥٠ للميلاد أسقف في عدن^٥ .

- ١ تفسير الطبري (١٩/٣) وما بعدها .
- ٢ النصرانية (٦٤/١) . Migne, Patr. Graec., 86, 567-620.
- ٣ النصرانية (٦٧/١) .
- ٤ الفهرست (٥٠٤) ، مطبعة الاسكفانة .
- ٥ النصرانية (٦٧/١) .

إن بقاء النصرانية في نجران وفي مواضع من اليمن وأنحاء أخرى من جزيرة العرب ، وبقاء اليهود في اليمن أو زمن غير بعيد ، يشير إلى أن ما ذهب إليه كثير من المؤرخين من إجلال أهل الكتاب بأمر الخليفة (عمر) عن جزيرة العرب ثم بقية الخلفاء الذين ساروا على حكم : « لا يجتمع دينان في جزيرة العرب » فيه مبالغة^١ . والظاهر أن الإجلال كان قاصراً على المواضع التي تعرضت فيها جاليات أهل الكتاب فيها للإسلام بسوء . فطبق على جاليات يهود يثرب ومن كان يسكن إلى الشمال منهم ، لوقوفهم موقفاً معادياً شديداً من الإسلام ، ولعملهم في إثارة الفتن على المسلمين . ومن يدري فلعلهم ولعل أهل الكتاب عموماً ساعدوا في قيام الردة وتشجيع الثنينة والمرتدين للقضاء على الخطر الذي زعموه ، لخطر ظهور الإسلام وانتشاره في جزيرة العرب وفي خارجها ، وقيام دولة موحدة كبيرة فيها . ومن يدري أيضاً ، فعمل الروم والأحباش كانوا أيضاً في جملة من كان يتعرض أهل الكتاب على الدس للإسلام ، وأن بعض من أعلن الردة مثل (النعمان الغرور) وهو نصراني ، ولجأه من ارتد معه من النصارى ، كانوا قد تلقوا عوناً من الخارج ، وهذا ما حل الخليفة على اتباع قاعدة إجلال النصارى من أهل الكتاب مها كان نوعهم عن جزيرة العرب لحماية الإسلام من خطر الفتن ومسئ الردة ، ولم تكن قواعده قد تركزت واستقرت استقراراً تاماً بعد .

إن الذي أفهمه من سياسة إجلال (عمر) لأهل الكتاب ، هو أن ذلك الإجلال كان خاصاً بالجاليات اليهودية التي كانت تقيم فيا بين فلسطين ويثرب ، وقاصراً عليها ، بسبب وقوفها موقفاً معادياً من الإسلام ، أما النصارى فلم تكن لهم جاليات هناك ، فلم يقع إجلال لهم فيها . ولكن (عمر) ومن جاء بعده لم يطبقوا الإجلال على الأسر والأفراد ، بدليل ما تجده في أخبار أهل الأخبار من وجود أسر وأفراد من يهود والنصارى في يثرب وفي مكة وفي الطائف بعد وفاة عمر .

أما في غير الحجاز من بقية أنحاء جزيرة العرب ، فلم يطبق قانون (عمر) على أهل الكتاب ، بدليل دفع جالياتهم (الجزية) عن رؤوسهم في أيامه إلى وفاته ، ثم في أيام من جاء بعده من الخلفاء . فكان الخليفة ، قد طبق أمر الإجلال على

١ . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لا يخرجن اليهود والنصارى عن جزيرة العرب حتى لا ادع فيها الا مسلماً . . البلدان (٢٦٣ / ٨) .

يهود الحجاز نخوفه من خطر بقائهم في مقر الاسلام وفي مدينة الرسول ومن احتمال عودة من هاجر منهم الى ارضهم وتكتلهم من جديد ، ولذا رتبهم من لم يكن قد تمكن الاسلام من قلبه بعد ، فبقع للاسلام ما وقع في ايام الرسول من اتصالهم سرّاً بكفار قريش ، ومن حدوث ردة جديدة ، فقرر لإجلالهم جماعة عن تلك الديار .

النصرانية في بقية مواضع جزيرة العرب :

وكان التجار الروم يتزلون سواحل العربية الجنوبية للتزود منها بالماء وبالطعام وللاتجار مع سكانها ، ومنهم من أقام بها وقضى حياته فيها ، وتغرب . وكان منهم من بشر بالنصرانية وعمل على نشرها بين السكان . ولعل الحكومة البيزنطية كانت ترسل المبشرين الى هذه المواضع للتبشير ، كذلك أرسل نصارى الحيرة المبشرين لنشر نصرانيتهم في العربية الجنوبية^١ . وبعد دخول هذه البلاد في الاسلام احتفظ قوم من النصارى بدينهم ، مقابل دفع الجزية للمسلمين^٢ .

وأما اليمامة ، فكانت النصرانية قد وجدت لها سيلاً بين قراها وقبائلها . ويظهر من شعر الأعشى مدح به (هذلة بن علي) حاكمها عند بعث الرسول ، انه كان نصرياً من علي قوم من (نجم) ففك وثاقهم يوم أسروا ، ويوم قتلوا وسط (المشرق) ، ومن عليهم (يوم القمص) ، يرجو الإله بما سدى وما صنع^٣ .

وأما العربية الشرقية ، فقد دخلت النصرانية اليها من الشمال ، من العراق في الغالب . ولكن بعض الروم كانوا قد وجدوا سبيلهم اليها ، فدخلوها من البحر أيضاً . فعشت في مواضع منها مثل البحرين ، وقطر ، وهجر ، وبعض جزر الخليج . وكانت غالبية نصارى هذه الأرضين على مذهب نسطور آخذين هذا المذهب من نصارى الحيرة الذين كانوا على اتصال وثيق بهم ، كما كان رجال دينهم يسافرون الى هذه المنطقة للتبشير بها ، فزرعوا فيها بذور مذهبهم ، ونشروه بين من أقبل على النصرانية من العرب .

١ النصرانية (٧٠) .

٢ البلاذري (٨٤) .

٣ ديوان الأعشى (٨٦) ، جواد علي ، تاريخ العرب قبل الاسلام (٢١١/٥) .

ومن رجال البحرين النصاري (الجارود بن عمرو بن حنش الملقب)^١ ، قدم على النبي بالمدينة ، فأسلم وأسلم معه أصحابه . وكان حسن الاسلام صلماً حتى هلك ، وقد لام قومه ممن انضم الى (المنذر بن النعمان بن المنذر) الغرور ، فارتد عن الإسلام وعاد الى دينه الأول^٢ . وقد بقي إلى أيام (عمر) في أغلب الروايات وإلى خلافة عثمان في رواية . واشترك في حروب فارس ، فقتل بها يد (عتبة العطين) ، التي عرفت باسمه ، فقتل لها عقبة الجارود ، وذلك سنة إحدى وعشرين في خلافة عمر ، وقيل قتل بنهاوند مع النعمان بن مقرن . وقد روي له شعرأ . وكان ولده (المنذر بن الجارود) من رؤساء (عبد القيس) بالبصرة . وحفيده (الحكم بن المنذر) الذي مدحه (الأعشى الحرمازي) بشعر حسده الحجاج عليه^٣ .

١ ويقال ابن عمرو بن المعلى ، وقيل الجارود بن العلاء . وورد الجارود بن عمرو بن حنش ، و الجارود لقب بشر بن عمرو بن حنش بن المعلى من بني عبد القيس العبدى الصحابي ، رضي الله عنه . كنيته أبو المنذر ، وقيل أبو غياث ، وهو أصح) ، تاج العروس (٣١٨/٢) - (جرد)^{*}
٢ الطبري (١٣٦/٣ وما بعدها) . « قدم الجارود في وفد عبد القيس »
٣ الإصابة (٢١٧/١) ، (رقم ١٠٤٢)^{*}

الفصل الثامن

المذاهب النصيرية

لقد أصيبت النصيرية بما أصيبت به أكثر الأديان من تشقق وتصدع وانقسام، فظهرت فيها شيع وفرق، تخاصمت فيها بينها وتجادلت. وكان أكثر جدالها في موضوع طبيعة المسيح وعلاقة الأم بالابن، وفي موضوع النفس، وقد عقدت لذلك جملة مجامع كنسية للنظر في هذه الآراء والحكم على صحتها أو فسادها، وفي أمر أصحابها، اجتمع فيها متدبرون من مختلف الأماكن وبينهم بعض الأساقفة العرب. غير أنها لم تتمكن من القضاء على النزعات المختلفة، فظهرت فيها جملة مذاهب، حرمت المجامع أصحابها، وحكمت ببدعتهم وبخروجهم على التعاليم الصحيحة، وطلبت من بعضهم الرجوع إلى الدين الصحيح، غير أن منهم من أصر على رأيه، وتحزب له، وبشر به، فوجد أنصاراً وأعواناً انضموا إليه ونسبوا به.

والواقع أنه لم يكن من السهل على الداخلين في النصيرية فهم قضية معقدة كهذه القضية، وهي قضية فلسفية جدلية أكثر منها عقيدة دينية. ولذلك كان من الطبيعي وقوع الاختلاف فيها، ونشأت آراء النصيرية بالقياس إليها، خاصة وهي حديثة عهد، وأكثر الداخلين فيها هم ممن دخلوا حديثاً في هذا الدين، وليس لهم الإدراك العميق والخيال الواسع لفهم موضوع كهذا الموضوع. ثم إن النصيرية ديانة عالمية، لم توجه لأمة خاصة من الأمم، وقد جاءت ككل الأديان بأحكام لا بد وأن يختلف الناس في فهمها، لاختلاف الممارك والثقافات، وعلمنا

الاختلاف في الفهم ، يؤدي الى ظهور المذاهب والشيع ، والى تناحر هذه المذاهب ،
وادعاء كل واحد منها انه وحده على الحق ، وان ما دونه على الباطل والحرطقة
والكفر .

لقد فتح (بولس الرسول) وأنباع المسيح الآخرون ميداناً واسعاً من الجدل
في موضوع المسيح : هل المسيح إنسان ، أو هو رب ، أو هو من خلق الرب ؟
وهل هو والرب سواء ، أو هو منفصل عن الرب ؟ هذه الأسئلة وأمثالا مما
يتصل بطبيعة المسيح شغلت رجال الكنيسة ، وكنسنتهم كثيراً : كسل كنيسة نري
أن رأيها في الطبيعة هو الرأي الصواب ، وأنه هو الدين الحق القويم ، وأن ما
دونه ضلال وباطل . فظهرت المذاهب : شرقية وغربية ، وانقسمت الكنيسة على
نفسها ، فظهرت من الكنيسة الواحدة كنائس . ولا تزال تنشئ ، ويزيد عددها
وتظهر أسماء جديدة لمذاهب لم تكن معروفة في النصرانية القديمة .

لقد كان الناصريون الأولون ، وهي التسمية القديمة التي عرف بها النصارى ،
في قوضى فكرية . فلم تكن تعاليم المسيح مفهومة عندهم ولا مهضومة ، وكانت
نفاسير للاميله غير منسقة ولا مركزة تركيزاً يكفي لتوجيه الناصريين وجهة معينة
واحدة . ثم إن تعقب اليهود والرومان للناصري وتنكيلهم بهم ، وخوف الناصري
على حياته وعلى ماله إذا تظاهر بدينه : كل هذه كان لها أثر خطير في المجتمع
النصراني الأول . ولولا جلد بعض التلاميذ وتغاليهم في الدعوة ، وتركيزهم
لتعاليمها وثبوتها وصقلها ، لما كان للنصرانية ذكر باقي حتى الآن .

وليس في استطاعة أحد الزعم بأن هذه النصرانية التي تركزت وثبتت عمل
هذه الصورة التي نشهدها ، هي النصرانية التي جاء بها المسيح وكان عليها الناصريون ،
أي أقدم أنباع عيسى . فالنصرانية هي سلسلة تطورات وأفكار وآراء وضعها
البارزون من الآباء ، ثم إنها كأكثر الأديان تأثرت بمؤثرات عديدة لم يكن من
الممكن على الداعلين فيها التخلص منها . فدخلت فيها وصارت جزءاً منها ، مع
أن بعضها مناهض ومناقض لمبادئ هذا الدين .

وتولد عن هذا الجدل ظهور (الأريوسية) أنباع (أريوس) و (السيلية)
Sabellians وأنباع (الثالوث) Trinitarians ومذاهب أخرى نبعت من تلك البلبلة
الفكرية التي أظهرها الاختلاف في طبيعة المسيح . ونظراً الى ما أحدثته هذه الآراء

اللاهوتية من انقسام وتفرق في صفوف النصارى ، وما تركته من أثر خطير في الأحوال الداخلية للامبراطورية . عزم الانباطور (قسطنطين) باني القسطنطينية على عقد مؤتمر للتوفيق بين هذه الآراء وتنسيقها ، فعقد مجمع (نيقية) Nicaea حضره (آريوس) للدفاع عن نفسه وحضره جمع من الأساقفة المخالفين له لمحاكمته ولإبانت هرطقته وخروجه على الإيمان الصحيح . وكانت النتيجة الوحيدة لهذا المؤتمر وضع بيان دقيق عن التالوث ، والحكم بفساد رأي آريوس وبخروجه على عقيدة النصرانية الصحيحة ، ووضع تعريف للإيمان الصحيح^١ .

وعقب هذا المجمع الذي انعقد في سنة (٣٢٥) للميلاد وحدد معنى النصرانية وأصولها ، عدة مجامع عقدت للنظر في أمثال هذه المشكلات الخطيرة التي جابهت الكنيسة ، عقد بعضها في القسطنطينية فعرفت بها ، وعقد بعض آخر في (أنطوس) (٤٣١ م) وفي (خلقدونيا) Chalcedon (٤٥١ م) ، ولكنها لم تستطع ان تعيد الوحدة الى الكنيسة ، فالتصفت الى عسلة كتائس ، وحدث الانفصال الأكبر في سنة (١٠٥٤ م) حيث تجزأت الكنيسة الكبرى للامبراطورية الى كنيستين : كنيسة غربية استعملت اللغة اللاتينية لغة رسمية لها ، وكنيسة أرثوذكسية هي الكنيسة الإغريقية الأصلية ، وذلك بسبب علاقات سييفة ليس لها أثر خطير في جوهر العقيدة . أما الشرق ، أي آسيا وأفريقية ، فقد سبق فصلها عن النصارى الغرب في تحطيم وحدة الكنيسة ، فظهرت عندهم الكنيسة القبطية والكنيسة البغوية ، في زمان مبكر سبق انفصال الكنيسة اللاتينية عن الإغريقية بزمان طويل .

وقد وصلت إلينا أسماء من حضر بعض تلك المجامع الكنسية ، واشترك في جدالها ومناقشتها ووقع على قراراتها ومحاضرها ، وبينها أسماء أساقفة بشرى بسين العرب ، وأساقفة يظهر أنهم كانوا من أصل عربي . بدليل أسمائهم العربية الخالصة أو المقتولة الى اليونانية والسريانية . وقد عرف بعضهم بأساقفة الخيام ، لمراقبتهم للأعراب ومعيشتهم بينهم في الخيام معيشة الأعراب^٢ .

١ مجلة الشرق ، السنة الثالثة والعشرون (١٩٢٥) ، المجلد ٧ ، (٤٨١ وما بعدها) ، خلاصة تاريخ الكنيسة ، لـ لومند ، ترجمة الخوري يوسف السنائي ، مطبعة الآباء المرسلين اليسوعيين ، بيروت ١٨٨١ ، في جزمين (١٧٤/١ وما بعدها) ،
Ency. Religi. and Ethic, I, pp. 775, (Arianism)
٢ النصرانية (٣٣/١ وما بعدها) .

ومن أساقفة الأهراب أسقف عرف باسم (بطرس) ، وقد وقع على أعمال مجمع (أنسوس) بصفة كونه (أسقف محلة العرب) ، والأسقف (ثاوتيوس أسقف العرب) الذي وقع على أعمال مجمع انطاكية الذي انعقد عام ٣٦٣ للميلاد^١.

وقد كان بين أساقفة القدس في نهاية القرن الخامس وبداية القرن السادس للميلاد ، أسقف من أصل عربي ، اسمه الياس (٤٩٤ - ٥١٣ م)^٢.

فالأساقفة الذين كانوا يديرون أمور النصارى العرب ويشرحون بين القبائل الوثنية ، أسهموا في الجدل الديني الذي قام أكثره على بحث موضوع طبيعة المسيح واشتركوا فيه ، وبذلك نقلوا الى العرب هذه الأبحاث اللاهوتية التي شغلت بال العالم المتمدن منذ القرن الأول للميلاد فما بعده ، وكانت أهم مشكلات النصرانية يومئذ مشكلة شغلت بال المؤمنين ، ثم بال الحكومة البيزنطية بعد انتصارها وبال أنباها المؤمنين ، وشغلت العالم الغربي حتى بعد عصر النهضة ، مشكلة أطاحت برؤوس الآلاف من الناس باسم الكفر والإيمان ، البدعة والحق . وكان في جملة ما أسهم فيه رؤساء أديرة اقليم العربية وضع رسالة مضمونها دستور الإيمان، كتبها أولئك الرؤساء ، ووجهوها الى يعقوب البرادعي ، ردوا فيها على رأي يحيى السخري في ثلث الجوهر الفرد ، وذلك بين السنين ٥٧٠ و ٥٧٨ للميلاد . وقد وقعها ١٣٧ رئيساً لـ ١٣٧ ديراً في اقليم العربية الممتد من شرقي بلاد الشام الى القرات^٣.

ومن المذاهب النصرانية التي تدخل في حدود موضوعنا : المذهب النسطوري والمذهب اليعقوبي ، وهما من المذاهب الشرقية ، أي من المذاهب النصرانية التي ظهرت وانتشرت في الشرق ، ووجدت لها مجالاً وانتشاراً في العراق وفي بلاد الشام ومصر والحبشة وجزيرة العرب .

أما المذهب النسطوري ، فينسب الى البطريق (نسطوربوس) (نسطور) Nestorius من (جرمانيقية) Germanicia ، وهي (مرعش) الموغلي سنة (٤٥٠ م) ، وله رأي ومقالة في طبيعة المسيح . فجعل للمسيح طبيعتين

١ اشراق ، العدد ١٢ ، الجزء الخامس (٣٥٣) ، النصرانية (٣٤/١) .

٢ W. Smith, A Dictionary of the Bible, II, p. 84.

٣ النصرانية (١٠٥/١ وما بعدها) .

(اقنومين) : أقنوم الانسان يسوع ، وأقنوم الله الكلمة ، وذكر ان مريم هي بشر ولدت بشراً هو المسيح الذي هو إله من ناحية الأب الإله فقط^١ .

وتستند تعاليم نسطور وتراقوه الى الجدل الذي أثاره من تقدمه من الآباء في موضوع طبيعة المسيح ، والانشقاق الذي حدث نتيجة لهذا الجدل . وأكثر من أثر فيه وكون له رأياً في المسيح هو (ديودورس) Diodorus أسقف (طرسموس) Tarsus و (ليودور المعصبي) (٣٩٣ - ٤٢٨ م) تلميذ (ديودورس) . وفي الطائفة وقف (نسطور) على آراء هذين العالمين ، وكان قد تهرب وسكن هذه المدينة في عام (٤٢٨ م) ونحس لها وبشر بها بين الناس ، فأثار عليه غضب رجال الكنيسة المعارضين لتلك الآراء ، فصاروا يتددون به . وبما يقوله وبشر به ، وعدوه ملحداً خارجاً على تعاليم الكنيسة الصحيحة وعلى مبادئ الدين القويم .

ولنشاط (نسطور) في بث هذه الأفكار وعدم تراجعها عنها ، طلب اليه المثل أمام مجلس اجتمع فيه كبار رجال الدين لمحاكمته عرف به (جميع أفسوس) انعقد في عهد العنصرة من عام (٤٣١ م) ، وبعد محاكمات ومناظرات قرر المجتمعون الحكم بهرطقة هذه الآراء وبمخالفتها للمبادئ العامة التي تدبر بها الكنيسة ، وبذلك كان الحكم على نسطور وأتباعه بالضلال والإلحاد وبغزله من أسقفية القسطنطينية حكماً رسمياً . ومعنى ذلك مقاومة القائلين بهذه الآراء واضطهادهم والتضييق عليهم في حكومة لها كنيسة خاصة ترى أنها على الحق وأن ما دونها على عى وضلال .

وكانت (الرها) Edessa أهم مركز ثقافي للناطقة ، ومن أهم معانل الأدب السرياني . أمها كثير من طلبة العلم السريان لتتقف بها ، ولا سيما في عهد الأسقف (اياس) Ibas (٤٣٦ - ٤٥٧ م) الذي انتخب أسقفاً لهذه المدينة بعد وفاة أسقفها (ربولا) Rabbula في عام (٤٣٦ م) . ثم نالت (نصيبين) Nisibis مكانة كبيرة في السلورية ، خاصة بعد وفاة اياس ، وانتخاب

١ المشرق : السنة ١٩٣١ (٦١٥) . لا يدع احد مريم أم الله لانها كانت امرأة ، ومن المستحيل أن يولد الله من امرأة ، علوم اليونان وسبيل انتقالها الى العرب . أوليري ، تعرض الدكتور وعيب كامل (ص ٢٥٤) ، شرح الاصول الخمسة . لغاضي القضاة ، عبد الجبار بن أحمد ، تحقيق الدكتور عبد الكريم عثمان ، القاهرة ١٩٦٥ . (ص ٢٩٢ ، ٣٩٥ وما بعدها) .

(نونوس) Nouus أسقفاً للمدينة ، وكان هذا متأثراً بالآراء البيزنطية كارهاً للنسطورية ، لذلك رأى النسطورية الانتفال عن (الرها) الى أماكن أخرى لا أثر لغزو هذا الأسقف عليها ، فكانت (نصيبين) الموقع المختار من بين هذه الأماكن ، ونالت الخطوة عند رجالهم ، واحتلت مكانة (الرها) في العلم .

ولكن الأسقف (نونوس) كان أسقفاً واحداً من عدد عديد من رجال الدين الرسميين الذين يمثلون كنيسة الروم ، الكنيسة التي حكمت حكماً رصباً بهرطقية (نسطور) ، لذلك كان على النسطورية مواجهة الاضطهاد والمقاومة في أي مكان من الأماكن الخاضعة للروم ، أو التابعة لكنيستهم ، وللكنائس المعارضة لآراء نسطور . لذلك فكر النسطورية في حل آرائهم ومعتقداتهم الى بلد أملاوا ان يتمتعوا فيه بحريتهم في محاربة شعائرتهم الدينية ، لمعارضته للامبراطورية البيزنطية وتشجيعه كل حركة متولدة لها ، ثم لأن له حكومة ذات دين آخر بعيداً عن النصرانية ، فهي إذن لا تتدخل في أمور المذاهب النصرانية إلا إذا كانت مشابهة للروم ، وليست النسطورية من هذه المذاهب .

وقد أظهر (الشاهنشاه) ملك الملوك ، استعداداه لحماية النسطورية ومنحهم الحرية الدينية وحرية التبشير بملذهم بين رعاياه ، كما أظهر رغبته في الاستفادة من علمهم ودراساتهم ، فاختارهم للأعمال التي لم يكن فيها متخصصون من أتباعه ، وسمح لهم بالتدريس وبتهليل الناس وتعليمهم الفلسفة اليونانية ، ولا سيما فلسفة أرسطو والطب، وغدت (سلوقية) Seleucia على نهر دجلة قبالة العاصمة (طيسفون) مركزاً ثقافياً خطيراً يتنافس (الرها) و (نصيبين) ، وصار هذا المركز من أهم معاقل النسطورية والتبشير في العراق وفي سائر أنحاء الامبراطورية الفرس .

ومن هؤلاء النسطورية تعلم عرب بلاد العراق وعلى رأسهم أهل الخيرة النسطورية ، ومن أهل الخيرة انتقلت الى جزيرة العرب . ولما كانت السريانية هي اللغة الرسمية لهذه الكنيسة ، صارت هذه اللغة بهذه الصفة لغة نصارى العرب ، بها يرنلون صلواتهم في الكنيسة وبها يكتبون ، وإن كانت بعيدة عنهم غير مفهومة لدى

١ أدبي شير (١٣٠/٢) ، المشرق ، ١٩١٠ م (ص ٣٩٠) .
Socrates Scholaasticus, Hist. Eccl., VII, 29-35, O'Leary, p. 113, Ency. Relig.
Ethl., p. 323.

الأكثرية منهم . لقد كانت على كل حال لغة رجال الدين . وجنّهم من رجال العلم في ذلك الزمن . فهي عندهم لغة للدين وللعلم ، كما كانت اللاتينية لغة للدين والعلم عند الرومان ، والإغريقية لغة للدين والعلم عند اليونان ، والعربية عند المسلمين .

وأنا حين أقول ان النسطورية كانت قد وجدت لها سيلاً الى أهل الحيرة ، فدخلت بينهم ، فأنا لا أقصد بقولي هذا ان أهل الحيرة كانوا جميعاً على هذا المذهب ، أو أنهم كانوا كلهم نصارى . فقد كان "جل" أهل الحيرة على دين أكثر ملوكهم ، أي على الوثنية ، أما الذين اعتنقوا النصرانية ، فهم العباديون ، وبينهم قوم كانوا على مذهب القائلين بالطبيعة الواحدة ، أي مذهب البعاقبة ، وبينهم من كان على مذهب آخر .

وقد تسربت النسطورية الى العربية الشرقية من العراق وإيران ، فدخلت الى (قطر) والى جزر البحرين وعمان واليامة ومواقع أخرى . وورد في أسماء من حضر المجامع النسطورية اسم أسقف يدعى (اسحاق) اشترك في مجمع الناصرة الذي عقد سنة ٥٧٦ م ، كما ذكر اسم أسقف آخر يدعى (قوسي) اشترك في مجمع سنة ٦٧٦ م . وقد كانا أسقفين على (هجر)^١ . كذلك وردت أسماء أساقفة من الناصرة تولوا رعاية شؤون أبناء ملائكتهم في جزيرة (دارين) وفي جزيرة (سماسج) وفي مواقع أخرى من الخليج ، تولى بعضهم أعماله قبل الإسلام وعند ظهوره ، وتولى بعضهم رعاية شؤون أتباعه في أوائل عهد الإسلام^٢ .

ومن الحيرة انضلت النسطورية الى اليامة فالأفلاج لمواشي السدواس الى نجران واليمن ، وصلت اليها بالبشير وبواسطة القوافل التجارية ، فقد كانت بن اليمن والحيرة علاقات تجارية وثيقة ، وكانت القوافل التجارية تسلك جملة طرق في تنجبة هذه العلاقات وتوثيقها . وقد قوي هذا المذهب ولا شك بعد دخول الفرس الى اليمن ، لما عرف من موقف رجاله من كنيسة الروم ، ولما كان لأصحابه من نفوذ في بلاط (الشاهنشاه) ومن صداقته لهم^٣ .

١ النصرانية (٧١) .

٢ النصرانية (٧١) .

٣ النصرانية (٥٩/١ وما بعدها) .

Assemani, Bibl. Orient. 3, 603, Philiby, Arabian Highlands, p. 263.

وتعزو التواريخ النسطورية انتشار النصرانية في نجران الى رجل اسمه (حسان)
أو (حنان) أو (حيان) ، ذكرت أنه ذهب في أيام (يزيدجرد) (٣٩٩ -
٤٢٠ م) الى القسطنطينية للتجار . فلما أنجز ما ذهب اليه ، عاد الى وطنه سالكاً
اليه طريق (الحيرة) ، وهناك اتصل بنصاراها ، ودخل في النصرانية التي استهوته ،
فلما بلغ نجران مدينته ، تشط عليها بنشر الدعوة بين الناس حتى دخل فيها كثير
منها ومن بقية حيرا^١ .

وقد ورد ان البطريق (تيموثيوس) Timotheos الأول (٧٨٠ - ٨٢٣ م)
كان قد نصب أسقفاً نسطورياً على اليمن^٢ . وقد سعى الفرس لنشر مذهب النساطرة
بين أهل نجران ، كما سعوا في تقوية الصلات بين الحيرة ونجران . وإذا علمنا
ان الفرس أنفسهم لم يكونوا على دين المسيح ، عرفنا الأهداف السياسية البعيدة
التي كانوا يتفنونها من هذا الضارب ومن نشر المذهب النسطوري في اليمن .

وقد بقيت النسطورية قائمة في اليمن في أيام الاسلام ، ففي الأخبار الكنسية
ان رئيس البطارقة النساطرة (طيموثاوس) ، نصب في أواخر القرن الثامن للميلاد
أسقفاً لنجران وصنعاء ، اسمه (مار بطرس) . وان أساقفة من النساطرة كانوا
في مواضع متعددة من اليمن وفي عدن ، وذلك في القرن الثالث عشر للميلاد^٣ .

أما اليعاقبة ، فقد انتشر مذهبهم بين عرب بلاد الشام والبادية ، وقد اصطدم
هذا المذهب بالكنيسة الرسمية للبيزنطيين ، واعتبرته من المذاهب المنشقة الباطلة ،
لذلك حاربه الحكومة ، وقاومت رجائه . كما عارضه النساطرة ، لاختلافه معهم
في القول بطبيعة المسيح ، وفي أمور أخرى ، وهذا ما حمل النساطرة على الحكم
بهرطقة اليعاقبة ، كما حمل هذا الاختلاف اليعاقبة على الحكم بهرطقة النساطرة ،
حتى صار اختلاف الرأي هذا سبباً في وقوع معارك كلامية وجدل طويل عريض
بين رجال المذهبين^٤ .

واليعاقبة Jacobite church ، ويدعون به (المونوفيسيتين) Monophysite
أيضاً ، أي القائلين بالطبيعة الواحدة ، لقولهم إن للمسيح طبيعة

١ E. Sachau, B. 68, Chro. Seert., I, II, p. 330. Nallino, Raccolta, III, p. 123.

٢ O'Leary, p. 141, Sachau, B. 68, f.

٣ النصرانية (٦٧/١) .

٤ شرح الأصول الخمسة ، للقاضي عبد الجبار بن أحمد (ص ٢٩٢ وما بعدها) .

واحدة وأقنوماً واحداً ، فقبل لهم من أجل ذلك (أصحاب الطبيعة الواحدة) ، هم مله من مذاهب الكنيسة الشرقية ، نسبوا الى (يعقوب البرادعي) Jacobus Baradaeus ويسمى به (جيمس) James أيضاً ، المولود في حوالى سنة (٥٠٠) للميلاد في مدينة (الأجمة) Tella = Tella من أعمال (نصيبين) في شرقي (الرها) Edessa والثوفى سنة ٥٧٨ للميلاد . ولد في أسرة كهنوتية ، وتعلم لـ (ساويرس) الذي صار رئيساً على بطريركية أنطاكية في عام ٥١٤ للميلاد . ثم اضطر الى مغادرة انطاكية الى مصر لاختلافه مع رجال الدين في هذه المدينة في طيعة المسيح ، إذ كان يقول بوجود طبيعة واحدة فيه ، ومنه أخذ يعقوب رأيه هذا في المسيح .

وذهب (يعقوب) في حوالى سنة ٥٢٨ للميلاد الى القسطنطينية ، لحمل القيصرة (ثيودورة) Theodora على التأثير في الكنيسة وحملها على الكف عن اضطهاد القائلين برأيه في طيعة المسيح . وقد مكث في القسطنطينية خمسة عشر عاماً ، وسعى سعياً حثيثاً في نشر ملهه والتبشير به ، وهذا ما أوقعه في نزاع مع بقية رجال الدين هناك لخروجه على تعاليم المجمع الخلقيدوني الذي عين التعاليم الثابتة في طيعة المسيح .

وكان (يعقوب) أسقفاً على (الرها) Edessa في حوالى سنة (٥٤١ م) . وكان (الحارث بن جبلة) من المقلدين له ، والمحبين عنده ، لذلك كان ممن توسطوا لدى بلاط (القسطنطينية) للسماح له بالخروج منها ، والتوفيق بين آرائه وآراء الكنيسة البيزنطية ، كما توسط (المنذر) لدى البيزنطيين للغرض نفسه .

وكان من جملة تلاميذ (يعقوب) والمبشرين بتعاليمه (أحمدة) (أحمدي) الذي اغتيل بأمر كسرى أنو شروان في ٢ آب من سنة ٥٧٥ م . وكان من المبشرين النسطورية ، ذهب الى بني تغلب وبشر بينهم ، وقد عرف هؤلاء عند السريانيين بالأعراب سكنة الخيام ، وأقام بينهم كهناً ورهباناً ، وبني لهم ديراً عرف في السريانية به (عين فنا) أي (عين الوكر) وديراً آخر بتكريت سمى (دير جلثاني) . وكانت في أيامه أسقفيتان على العرب : أسقفية عرفت بأسقفية

W Smith, A Dictionary of the Bible, II, p. 328. Devreesse, Patr. d'Antioche, 15, 88, 96. Bury, Later Roman Empire, II, 391.

العرب ، وأسقفية التخلبيين أو (السن) وكرسيها بـ (عاقولا) (عاقول) .
وعاقولا هي موضع الكوفة . أما كرسي أسقفية العرب ، فكان في الحيرة ^١ .
كذلك كان من تلاميذه (جيورجيوس) (جرجيس) و (غريغور) ،
وقد تمكنا بنشاطها وتبشيرها من نشر هذا المذهب في بلاد الشام وبين الأقباط
والأرمن ^٢ .

وقد يدل (شمعون الأورشامي) Shem'on of Beth Arsham و (مرثا)
Murnatha جهداً كبيراً في نشر هذا المذهب بين أهل العراق، وصارت (تكريت)
القاعدة الكبرى للمذهب العقبوسي في العراق . بقيت محافظة على هذا المركز في
الإسلام ^٣ .

وقد دخل أكثر القساسة في هذا المذهب ، وتعصبوا له ، وظالموا توسلوا لدى
الروم في سبيل حملهم على الكف عن اضطهادهم والتكبل بهم . قتلوا مخلصين لهذا
المذهب إلى ظهور الإسلام . وقد نعت بعض ملوكهم بنعوت تدل على تنصرهم
وتدينهم ، مثل : المحبين للمسيح والمؤمنين . وقد وردت في بعض المخطوطات
إشارة إلى كاهن نعت بـ (كاهن ذي العزة والمحبة للمسيح بطريق المنار بين
الحارث) ، كما أنعم القيصرية على بعض ملوك القساسة بألقاب لا تمنح في العادة
إلا لمن كان على دين النصرانية ^٤ .

وتذكر تواريخ البعاقبة قصصاً عن بعض هؤلاء الملوك يشير إلى ذكائهم وتمسكهم
في قواعد هذا المذهب وتعلقهم به ، ودفاعهم عنه ، وإحسانهم بذكائهم ويعلمهم
أيضاً لحصوم هذا المذهب من أصحاب المذاهب الأخرى ممن أرادوا اقتاعهم بالخروج

١ ذخيرة الأذهان (٣٠٣/١)
٢ دلفالين بالطبيعة الواحدة جملة أسماء ، منها المتوفيسيتيون والأوطاخيون . نسبة
إلى أوطاخ من القائلين بالطبيعة الواحدة ، والدبوسفورين . راجع : أدبي شير :
تاريخ كندو وآشور (١٣٢/٢) . ذخيرة الأذهان (٢٠٨/١) . النصرانية
(٢٨/١ وما بعدها) . المشرق . السنة الأولى . الجزء السادس (٢٤٩) . خلاصه
تاريخ الكنيسة (٢٨٨/١ وما بعدها) .

Ency. Relig. and Ethics, XII, p. 172, Ency. Britan. 12, p. 860, Burkitt, early
Eastern Christianity, 1904.

Araber, I, 8. 10

٣ ذخيرة الأذهان في تواريخ المسابقة والمغاربة السريان . تأليف القس بطرس نصري
الكلداني (١٣٢/١) . النصرانية (٣٦/١) .
O'Leary, p. 192.

من المذهب البقري ونبله ، مع ميلهم الى التوفيق بين المذهب ومنع الفرقة بين النصارى ، كالذي ذكروه من مناظرة وقعت بين البطريرك (البطريرق) افرام (٥٢٦ - ٥٤٥ م) ، وهو من بطارقة الملكيين والحارث بن جبلة ملك القسطنطينية ، وقد ألحهم فيها الملك الحارث خصمه على ما يدعيه اليعاقبة بذكائه وبقوة بديته وحجته ، وكالذي روه عن تعنيف المنذر بن الحارث للبطريرك (دوميان) في أثناء زيارته للقسطنطينية ، لتهجمه على اليعاقبة واثارته بهذا الهجوم الفرقة بين النصارى ، وطلبه منه الاتفاق مع (قولاً) بطريرك اليعاقبة على التآخي وتوحيد المصالح ، وكالذي ذكروه عن هذا المنذر أيضاً من كتابته الى القيصر (طياربوس) للتدخل في حل البطريرك والأساقفة على إيقاف حلالهم على اليعاقبة ، ولكي يسعى في اطلاق الحرية لجميع النصارى ، وأن يصلي كل واحد منهم أينما شاء وحيثما شاء^١ .

وكان لليعاقبة مشهد مقدس يحجون اليه للتبرك به والنذر له ، هو مشهد القديس (سرجيوس) (سرجيس) في مدينة (سرجيوبوليس) Sergiopolis ، وهي الرصافة . وكان عرب بلاد الشام اليعاقبة يسمون به ، ويضعون صورته مع الصليب على راياتهم أملاً في الفوز في المعارك . والى هذا القديس أشار الشاعر الأخطل بقوله :

لما رأونا والصليب طالماً ومارسرجيس وموتا ناقما
وأبصروا راياتنا لوامعاً خلوا لنا راذان والمرارعا^٢

مما يدل على أن شهرة هذا القديس ظلت بين النصارى حتى في أيام الاسلام . وطالما قصد الأعراب كنيسة هذا القديس لتعميد أبنائهم هناك . وقد كانوا يعقبون العقود عند قبره ، ويقسمون الأيمان عنده ، دلالة على التشديد فيها وصدقهم في الوفاء . وكان أمراء القسطنطينية يبالغون في تعظيمه والاحترام به ، ويقصدونه للتبرك به ، على عكس نصارى الحيرة الذين اشتهروا القبر في حروبهم مع القسطنطينية ، واعتدوا على المدينة . وقد كان نصارى الحيرة على مذهب (نسطور) في الأغلب ،

١ المشرق ، السنة الرابعة والثلاثون (١٩٣٦) ، ٦١ وما بعدها .
٢ ديوان الأخطل (٣٠٩) ، المشرق ، السنة الرابعة والثلاثون ، (١٩٣٦) ، كانتون الثاني ، ٢ (٢٤٧) ، النصارية (٩٩/١) .

كما كانوا من الوثنيين ، ولذلك لم تكن لـسرجيوس في نفوسهم مترلة ومكانة .
وقد أشار المؤرخ (يوسابيوس القيصري) (أوسيبوس) ، الى رأي كان
عند بعض نصارى العرب ، خالفوا به مذهب الكنيسة إذ قال : « ونحو هذا
الوقت قام آخرون في بلاد العرب منادين بتعليم غريب عن الحق ، إذ قالوا إن
النفس البشرية في الوقت الحاضر تموت وتبطل مع الجسد . ولكنها يتجددان معاً
يوم وقت القيامة »^١ . وليس في هذا الكلام كما نرى ، أية إشارة الى أولئك
النصارى العرب ، ولا الى مواضع سكنهم . وكل ما يقمهم منه ان خلافهم وقع
في زمن قريب من زمته ، وانه كان في موضوع الروح .

وقد جردل القائلون بهذا الرأي ، ونوقشوا في مجمع العقدة سنة (٢٤٦ م) ،
عرف به (مجمع العربية) Council of Arabia .

وقد كان لـ (بولس السيماطي) Paul of Samosata ، رأي في المسيح ،
حتى قيل انه رأى نفسه في مترلة المسيح ، وقد حكمت الكنيسة عليه بالهرطقة ،
وحرمت ، وأعلنت خلعه عن أسقفية (أنطاكية) ، وكان من المقربين الى الملكة
(الزباء) ، لهذا لم تنفذ ما جاء في حكم الكنيسة عليه^٢ .

وذكر أهل الأخبار أن من بين فرق النصرانية ، أو الفرق التي هي بين بين:
بين النصرانية والصائفة دين يقال له (الركوسية) ، وذكروا أن الرسول قال
لحاتم الطائي : إلتك من أهل دين يقال لهم الركوسية^٣ . ولكنني أشك في صحة
هذا الحديث ، إذ كانت وفاة حاتم قبل مبعث الرسول ، ولم يثبت أنه التقى به .
وهناك شيع عقائدها مزيج من اليهودية والنصرانية . وجدت سبيلها في جزيرة
العرب ، مثل (الايونيين) Ebionites و (الناصريين) Zazarenes
و (الكسائيين) Elkesaites^٤ .

١ تاريخ الكنيسة . ليوسابيوس القيصري ، ترجمة الفس مرقس داود (ص ٢٩٢ وما بعدها) - Eusebius, 6, 37.
٢ A Religious Encyclopaedia, Vol. I, p. 122.
٣ Runciman, The Mediaeval Mansche, 19, 11.
٤ أسند الغاية (٣٩٢/٣) ، المشرق ، السنة ١٩٠٣ (ص ٥٧٤ ، ٧٧٧ ، ٩٢٨) ،
١٩٠٥ ، (ص ٥٠٤) ، ١٩٠٧ م (ص ١١٢٠) ، ١٩٠٨ م ، (ص ٤٨٠) ، ١٩٣٧
(ص ٧٣ وما بعدها) . اللسان (٤٠٥/٧) . تاج العروس (١٦٣/٤) . (ركس)
النصرانية (١١١/١ وما بعدها) .

أما (الأيبونيون) Ebionites ، فجاعة من قدماء اليهود المتصيرين عرقوا بهذه التسمية العبرانية الأصل التي تعني (الفقراء) ، لا يعرف عن كيفية ظهورهم ونشوء عقيدتهم على وجه صحيح أكيد . وكل ما يمكن أن يقال عن معتقداتها لأنها مزيج من اليهودية والتصرانية ، ولها نصرانية بنيت على أسس ودعائم يهودية ، فهي نصرانية يهودية في وقت واحد .

وقد ذهب بعض قدماء المؤرخين الى أنهم انما دعوا بهذه التسمية نسبة الى مؤسس هذا المذهب المسمى (ايبون) Ebion . غير ان من الصعب اثبات صحة هذا الرأي . وهم يعتقدون بوجود الله الواحد خالق الكون ، وينكرون رأي (يولس) الرسول في المسيح ، ويحافظون على حرمة يوم السبت Sabbath وحرمة يوم الرب . وقد ذهب بعض قدماء من تحدث عنهم الى أنهم فرقان بالقياس الى مولد الابن المسيح من الأم العذراء . ويعتقد أكثرهم ان المسيح بشر مثلاً، امتاز على غيره بالنبوة ، وبأنه رسول الله ، أرسله الى الناس أجمعين . فهو رسوله ولسانه الناطق برسائله للعالمين . وهو نبي كيفية من سبقه من الأنبياء المرسلين . وقد آمن بعض منهم بعقيدة (العذراء) وولادتها للمسيح من غير اتصال ببشر ، غير ان بعضاً آخر منهم ، آمن بأن المسيح ابن مريم من (يوسف) فهو بشر تماماً ، وأنكر الصلب المعروف ، وذهب الى ان من صلب ، كان غير المسيح ، وقد شبه على من صلبه ، فظن انه المسيح حقاً . ورجعوا الى الانجيل متى بالعبرانية (The Gospel of Mathew) وأنكروا رسالة (پاولس) Paul على النحو المعروف عند بقية النصاري^١ .

وأما (الناصريين) (Nazarenes) ، فهم فرقة معارفنا عن أصلها وعن كيفية ظهورها قليلة كذلك . وأكثر ما نعرفه عنها مستمد مما كتبه عنها (أيفانيوس) (Epiphanius) و (جبروم) (Jerome) . وقد أدخلهم (أيفانيوس) في جملة (المراهقة) (Heretics) ، وذكر أنهم كانوا يقرأون النسخة العبرانية لانجيل متى ، the Gospel of Mathew وأنهم ظهرتوا في غور الأردن . وقد اعترفوا بالوهمية المسيح (ابن الله) ، قائلين انه ولد من العذراء مريم ،

Ency. Brita., Vol. 7, p. 881. (Ebionites), Hastings, Ency. Rel. Ethic., 3,

p. 574.

Kenneth Scott Latourette, A History of Christianity, p. 112.

واصترفوا برسالة القديس (بولس) ، كما حافظوا على ناموس موسى (Mosaic Law) (شريعة موسى) ، وهم يرون ان ميلاد المسيح شيء خارق للعادة ، وانه (المولود الأول من الروح القدس) ^١ ، وان تعاليمه ، هي متممة للرسالات السابقة ومكملة لها . وقد راعوا حرمة السبت ، وما يخص الأكل وبالحنان ^٢ .

وأما (الكسايتون) (Elkesaites) ، فرقة يظهر أنها ظهرت في أواخر القرن الأول وأوائل القرن الثاني للميلاد في وادي الأردن ، ومعناها القوي (القوي الخفية) ، في لغة بني إرم ، و (المتخفون) ، أو المستترون تحت الكساء في لغتنا . وقد تبعت من اليهودية . وهي تنسب الى رجل اسمه (Elkesai) (الكسايتي) صاحب كتاب نسب اليه ، ويحافظ الكسايتون على الحنان وعلى حرمة السبت وعلى سائر أحكام الشريعة الموسوية ، وينسب اليه أنه كان يرى تحريم أكل اللحوم . والظاهر أن ذلك من وضع المستخفين بتعاليمه . وإنما كان يحرم أكل ذبائح الوثنيين وما أهل ^٣ للأوثان . وقد حثهم على اتباعه التوجه الى بيت المقدس في صلواتهم ، ومنع التوجه الى الشرق . وهو يعتقد بوجود إله واحد ، وباليوم الآخر ، وبملائكته . ويرى أن الشياطين هي النجوم الكائنة في المناطق الشمالية من السماء ^٤ .

ومن أهم تعاليم (الكسايتين) الإغتسال ، أو ما يقال له (التعميد) (Baptism) وذلك بالاغتسال في النهر أو في البحر لغسل الأدران من الأجسام وتطهيرها . ويسمى المغتسل (باسم الله العلي العظيم) (بسم الله الرحمن الرحيم) ، ويستعمل الغسل في الشفاء من الآفات كذلك ، مثل عض الكلب المكلوب أو الحيوانات المؤذية وإخراج الأرواح الشريرة من الجسم . ولذلك يمكن تسمية هذه الفرقة بالمغتسلة ، لجعلها الغسل من أهم أركان الدين .

ولتحيز والملح أهمية خاصة لدى أصحاب هذا المذهب ، فهي بمثابة العهد عندهم . وهم في ذلك على شاكله يهود ، حيث يمثل العهد (Convenant) عندهم بالملح والتحيز ^٥ . ويقسمون بهما الإيمان . وللايمان عندهم قدسية كبيرة ، فلا يجوز لأي

Hastings, Ency. Relig. Kath., 5, p. 141, Ency. Brit., 16, p. 178.

History of Christianity, by, Latouret, p. 121.

Hastings, 5, p. 263.

١ اللاويون ، الأصحاح الثاني . الآية ١٣ ، العدد ، الأصحاح الثامن عشر ، الآية ١٢ ، أخبار الأيام الثاني ، الأصحاح ١٣ ، الآية ٦ .

إنسان كان أن بحث يمينه ، وأن يخالف ما أقسم عليه ، وإلا كان عقابه عند الله عظيماً .

والعرب من الذين يقيمون القسم بالخيز واللح وزناً عظيماً عندهم . فكانوا يحلفون بها كما يحلفون بالله وبأصنامهم . ولا يجوز الحلف كذباً بها . ولا زال الناس يقسمون بالخيز واللح قسمهم بالمقدمات .

وقريب من مذهب (الكسائيين) في الاغتسال ما يذهب إليه الصابئون فيه . فلنفس لتطهير الجسم من الآثام الظاهرة والباطنة ومن الأرواح الشريرة مقام كبير عند الصابئة ، ولهذا تراهم يختارون السكنى عند الآبار والأنهار .

ووجدت فرقة عرفت بـ (القطائريين) (Collyridiens) بالغ أصحابها في عبادة مريم وفي تأليهها ، وكانوا يقدمون لها نوعاً من القرايين أنحصها أقراص المعجن والقطائر ، لذلك عرفوا بالقطائريين . وقد ذكرهم (أفيغانيوس) في كتاب المهرطقات^١ .

وعلى عكس هؤلاء كان من دعوا بـ (Antidicomariantes) ، وهم الذين أنكروا على مريم دوامها في البتل ، فسموا لذلك بالمعادين لمريم^٢ .

وذكر أن فرعاً كسان من الأريوسية ، أي من أتباع (أريوس) ، كان معروفاً بين العرب أطلق عليهم القديس (ايلاريوس) اسم (ألقابيين) نسبة إلى (ألقابوس) . كانوا يقولون إنه المسيح ليس هو ابن الله ، لأن من قال ذلك جعل لله زوجة^٣ .

وقد تحدث أهل الأخبار عن قوم قالوا لهم (الأريسيون) . ذكروا أنهم « فلاحو السواد الذين لا كتاب لهم . وقبل الأريسيون : قوم من المجوس ، لا يعبدون النار ، ويرحمون آسم على دين ابراهيم ... وقبل لهم أتباع عبد الله ابن أريس رجل كان في الزمان الأول قتلوا نبياً بعثه الله إليهم ، ، وقال بعضهم في رهط هرقل فرقة تعرف بالأروسية^٤ .

١ النصرانية (١١٣/١)

٢ النصرانية (١١٣/١)

٣ النصرانية (١١٣/١)

٤ تاج العروس (٦٦/٤) ، (اريس)

الفصل الحادي والثلاثون

التنظيم الديني

وكان لتنصاري العرب تنظيمهم الخاص بدور العبادة والتعليم والإرشاد ، وهو تنظيم أخذ من تنظيم الكنيسة العام ، ومن التقاليد التي سار عليها آباء الكنيسة منذ أوائل أيام النصرانية حتى صارت قوانين عامة. فللكنيسة درجات ورتب، وللمشرفين عليها منازل وسلام ، وقد اتبعت هذه التنظيمات من الأوضاع السياسية والاجتماعية التي عاشت فيها النصرانية منذ يوم ولادتها ، والتي وضعها رؤساؤها لنشر الديانة وتنظيم شؤون الرعية ، حتى صارت الكنيسة وكأنها حكومة من الحكومات الزمنية، لها رئيس أعلى ، وتحتها جماعة من الموظفين ، لها ملابس خاصة تتناسب مع درجاتهم ومنازلهم في مراتب الحكومة ، ولهم معابد وبيوت وأوقاف وسيطرة على أبايعهم، جاوزت أحياناً سيطرة الحكومات .

ومن الألفاظ التي لها علاقة بالدرجات والرتب الدينية عند التنصاري لفظة (البطرك) و (البطريق) . وقد وردت لفظة (البطريق) في شعر ينسب إلى (أمية بن أبي الصلت) ^١ .

١ من كل بطريق لبطريق تلقى الوجه واضح - تاج العروس (٢٩٦/٦) ، النصرانية وإدايتها - القسم الثاني ، الجزء الثاني ، القسم الأول (ص ١٩١) ، تاج العروس (١١١/٧) (الطبعة الأولى بمصر ، مطبعة مصر) ، اللسان (٢١٢/١٠ - ٢٠٦) ، (دار صادر) ، بيروت ١٩٥٦ ، ، اللسان (١٥٧/١١) ، ، بيروت ١٩٢٧ ، ، محيط المحيط (١٠٣/١) ، ، بيروت ١٨٦٧ م ، ، مروج (١٩٩/٢) ، ، صبح الاعشى (٤٧٢/٥) ، (القاهرة ١٩١٥ م) ، الطبعة الاميرية .

وقد ذهب علماء اللغة الى ان (البطرك) ، هو مقدم النصارى ، وهو في معنى (البطريق) أيضاً . وقالوا أيضاً إن البطريق مقدم جيش الروم . و (البطرك) من أصل يوناني هو «Patriarchia» (پترارخيس) ، ومعناه (أبو الآباء) ، وذلك لأنه الأب الأول والأعلى للرجية ، فهو أب الآباء ورئيس رجال الدين . أما لفظة البطريق ، فلها من أصل لاتيني ، هو Patrikios ، وهو يعني وظيفة حكومية وتعني درجة (قائد) في المملكة البيزنطية^١ . فلا علاقة لها اذن بالتنظيم الديني النصراني .

وبين البطريق (البطرك) والأسقف مترلة يقال لشاغلها (المطران) ، وقد عرف بأنه دون البطرك وفوق الأسقف . وقد وسمه (القلقشندي) ، بأنه القاضي الذي يفصل الخصومات بين النصارى^٢ . والنقطة من الألفاظ المعربة عن اليونانية ، أخذت من (متروبوليتيس) « Mitropolitia » أي تختص بالعاصمة ، أو المدينة^٣ . وقد ذكر علماء اللغة ان لفظة (المطران) ، ليست بعربية محضة^٤ .

والأسقف من الألفاظ التي تقل على مترلة فنية عند النصارى ، وقد وردت في كتب الحديث . وقد ذكر بعض علماء اللغة انه انما سمي أسقف النصارى أسقفاً لأنه يتخاضع^٥ . والنقطة من الألفاظ المعربة للأخوذة عن اليونانية، فهي (اسكوبوس) « Episkopos » في الإغريقية ، وقد نقلت منها إلى السريانية ، ثم نقلت منها إلى العربية^٦ . وقد وردت في كتب التواريخ والسير ، حيث ورد في شروط الصلح التي عقدها الرسول مع أهل نجران ، شرط هو : « لا يغير أسقف عن أسقفية ولا راهب عن رهبانية » .

- ١ النصرية وآدابها . القسم الثاني . الجزء الثاني . القسم الاول (ص ١٩٠ وما بعدها) ، « غرائب اللغة » (ص ٣٥٥) .
- ٢ صبح الاعشى (٤٧٢/٥) .
- ٣ محيط المحيط (١٩٨٧/٢) ، « غرائب اللغة » (ص ٢٦٩) .
- ٤ تاج العروس (٥٤٦/٣) ، « مطر » ، النصرية (١٩١) ، البلدان (١٢٢/٤) ، « ديوان الاساقفة » .
- ٥ اللسان (٥٦/١١) ، البلدان (١٢٢/٤) ، تاج العروس (١٤١/٦) ، صبح الاعشى (٤٧٢/٥) ، مقدمة ابن خلدون (٢٣٤) ، تاريخ ابن خلدون (٢٧) ، القسم الاول (ص ٢٩٧) ، اللسان (١٥٦/٩) ، « صادر » .
- ٦ النصرية وآدابها . القسم الثاني ، الجزء الثاني . القسم الاول (ص ١٩١) ، « غرائب اللغة » (ص ٣٥٢) ، محيط المحيط (٩٧٠/١) ، البلدان (١١١/١) ، « النهاية في غريب الحديث » (٢٣٧/٤) .

والقس من الألفاظ الشائعة بين النصارى ، ولا تزال مستعملة حتى الآن .
ويقال لها (قيس) في الوقت الحاضر أيضاً . وهي من أصل آرامي هو « Gachicho »
ومعناه ، كاهن وشيخ^١ . وقد جمعها (أمية بن أبي الصلت) على (قساسة)^٢ .
وذكر بعض علماء اللغة أن « القس » والقسيس العالم العابد من رؤوس النصارى ،
وأن « أصل القس تتبع الشيء وطلبه بالليل . يقال تقيست أصواتهم بالليل ، أي
تتبعها »^٣ . وقد وردت لفظة (قيسين) في القرآن الكريم : « ولتجدن
أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى . ذلك بأن منهم قيسين ورهباناً
وأهم لا يستكبرون »^٤ . وبدل ذلك على أن موقف النصارى تجاه الإسلام كان
أكثر مودة من موقف يهود . وقد نسب ذلك الى القيسين والرهبان .

وردد لفظة (شماس) في جملة الألفاظ التي لها معان دينية عند نصارى الجاهلية .
وهي من الألفاظ الحية التي لا تزال تستعمل في هذا اليوم أيضاً . وتعد من الألفاظ
المعربة عن السريانية . وهي « Chamocho » في الأصل ، وتعني خادم ، ومنها
اليعة . فهي إذن ليست من الوظائف الدينية الكبيرة ، وإنما هي من المراتب الثانوية
في الكنيسة^٥ . وقد ذكر بعض العلماء بأن الشماس يحلق وسط رأسه ويجعل شعره
من جوانب رأسه على شكل دائرة ، وهو الذي يكون مسؤولاً عن الكنيسة ،
ويكون مساعداً للقسيس في أداء واجباته الدينية ، وفي تقديم القداس أيام الآحاد
والأعياد . يعمل كل ذلك للتعبد ، وليس لأخذ المال والكنيسة .

- ١ غرائب اللغة (ص ٢٠٦) ، النصرانية وآدابها ، القسم الثاني ، الجزء الثاني ،
القسم الأول (ص ١٩٢) .
- ٢ لو كان متعلت كانت قساسة يحييهم الله في أيديهم الزبر
ناج (٢٠٧/٤) .
- ٣ تاج العروس (٢١٦/٤) ، محيط المحيط (١٢٢١/١) ، تاريخ ابن خلدون (ص ٢)
قسم ١ (ص ٢٩٧) .
- المفردات ، للإصفهاني (ص ٤١٢) ، اللسان (١٧٤/٦) ، صادر ، صبيح الاعشى
(٤٧٢/٥) ، مقامة ابن خلدون (ص ٢٣٣) .
- المقالة ، الآية ٨٥ ، أسباب النزول (١٥٢) ، تفسير الطبري (٢/٧) .
- النصرانية وآدابها ، القسم الثاني ، الجزء الثاني ، القسم الأول (ص ١٩٣) ،
غرائب اللغة (ص ١٩١) .
- ٦ اللسان (١١٤/٦) ، صادر ، محيط المحيط (١٢٢١/١) ، صبيح الاعشى (٥/
٤٧٢) ، ابن خلدون (٢٩) ، القسم الأول ، ص ٢٩٧ ، اليستان (١٢٥٩/١) .

وورد في كتاب رسول الله الى سادة نجران : « لا يغير أسقف عن سقفاه ، ولا راهب عن رهبانيته ، ولا واقف عن وقفاته »^١ . ويظهر من هذا الكتاب ان الواقف مترلة من المنازل الدينية التي كانت في مدينة نجران . والظاهر انها تعني الواقف على أمور الكنيسة ، أي الأمور الادارية والمالية والمشراف على أوقافها وأعمالها . فهو في الواقع مسؤول اداري ، اختصاصه الاشراف على الأمور المتعلقة بسير ادارة الكنيسة وأموالها . إذ لا يعقل ان يكون الواقف بمعنى خادم البيعة الذي يقوم بالخدمة بمعنى التنظيف والأعمال البسيطة الأخرى ، إذ لا يعقل النص على مثل هذه الدرجة في كتاب صلح الرسول مع سادة نجران . وقد ذكر بعض علماء اللغة : « الواقف خادم البيعة ، لأنه وقف نفسه على خدمتها »^٢ . ولا يعني هذا التفسير بالضرورة الخدمة على النحو المفهوم من الخدمة في الاصطلاح المتعارف . فقد كان الملوك والسادات يلقبون أنفسهم بـ (خدام الكنيسة) و (خدام المعبود) ، أي بالمعنى المجازي . ولا يكون خادماً صارفاً وقته كله في تنظيف الكنيسة وفي القيام بالأعمال التي يقوم بها الخادم الاعتيادي .

وهناك لفظة أخرى لها علاقة بالكنيسة والبيعة وبالتواصي الادارية منها ، هي لفظة (الوافه) و (الواقف) . وقد عرفوا صاحبها بـ (قيم البيعة التي فيها صليب النصرى) ، وفي هذا المعنى أيضاً لفظة (الواقف) ، حيث قالوا : « الواقف سادن البيعة التي فيها صليبهم وقيمها ، كالواقف وعميلها الواقفة » ، والواقفة والمُوقفة . والظاهر انها كلها في الأصل شيء واحد ، وانما اختلف علماء اللغة في ضبط الكلمة ، فوقع من ثم هذا الاختلاف بينهم^٣ . فالوظيفة اذن ، هي مترلة الخازن القيم على شؤون الصليب ، يحفظه من السرقة ، ويضعه في خزانة أمينة ، فإذا حانت أوقات العبادة وضعه في موضعه . فالصليب ثمين ، وفيه ذهب

-
- ١ ابن سعد ، الطبقات (٣٥٨/١) « طبعة صادر » . « لا يغير أسقف من أسقفينه ، ولا راهب من رهبانيته . ولا واقف من واقفيه » . النهاية في غريب الحديث (٢٢٧/٤) . « واقف من واقفيه » ، البلاذري - فتوح (٧٢) . (صلح نجران) . اللسان (٤٥٩/١٧) . تاج العروس (٢٢١/٩) . الثاقب (٢١٧/٢) . النهاية (٢٤٠/٤) .
 - ٢ تاج (٢٦٩/٦) . النصرانية وادائها . القسم الثاني . الجزء الثاني . القسم الاول (ص ١٩٣) . اللسان (٣٦٠/٩) . « صادر » .
 - ٣ تاج (٢٧٣/٦) . (٢٢١/٩) . المخصص (١٠٠/١٣) . اللسان (٥٦١/١٣) . « صادر » .

في الغالب ، لذلك يكون هدفاً لسراق^١ .

ويلاحظ أن علماء الحديث والتأريخ والسير ، لبوا على اتفاق لها بينهم في تدوين نص كتاب الصلح الذي أعطاه الرسول لأهل نجران ، إذ تراهم يختلفون في ضبط نصه : وفي جملة ما اختلفوا فيه جملة : « ولا واقه من وقاهته » ، فقد كتبوها بصور شتى كما رأيت ، كما كتبوا النص بأشكال متباينة ، مما يدل على أن الرواة قد اعتمدوا على نسخ متعددة للكتاب ، وعلى أن أهل نجران كانوا قد نسخوا منه نسخاً ، تحرفت نصوصها بالاستنساخ ، لعدم تمكن الناسخ من ضبط العبارات ضبطاً صحيحاً . فلما دون العلماء صورة النص تباينوا في تدوينه ، وأوجدوا لهم تفسير للفقرة (واقف) و (واقه) و (واقه) ، وهي لفظة واحدة في الأصل ، قرأها الناسخ ثلاث قراءات ، فظهرت وكأنها ألفاظ مختلفة . وحاروا في تعليل المعنى ، فقال بعضهم الواقه : قيم البيعة بلغة أهل الجزيرة ، وقال بعض آخر بلغة أهل الخبرة ، وقال بعض : كلها في معنى واحد^٢ .

وهناك مصطلحات دينية أخرى استعملها النصارى للدلالة على درجات رجال دينهم ، مثل (بابا) ، وهي كلمة (رومية) وهو أعلى مرجع في نظر النصارى (الكاثوليك)^٣ ، و (والجاتلين) ، وهو رئيس أساقفة بلد ما ، والأعلى مقاماً بينهم ، وقد أطلقت اللفظة على رئيس نصارى بغداد في العهد العباسي^٤ ، وهي من أصل يوناني هو (كاثوليكوس) Katholikos ، ومعناه عام^٥ .

والساعي من الألقاب التي تتناول المنازل والدرجات عند النصارى ، وتشمل اليهود أيضاً . ويقصد بها الرئيس المتولي لشؤون اليهود أو النصارى ، فلا يصدر عن رأياً إلا بعد استشارته ، ولا يقضون أمراً دونه . وقد ورد في حديث حليفته في الأمانة : « إن كان يهودياً أو نصرياً ليردنه على ساعيه »^٦ .

- ١ التصريحية وإدائها ، القسم الثاني ، الجزء الثاني ، القسم الأول (ص ١٩٤) .
- ٢ اللسان (٤٥٩/١٧) ، تاج العروس (٤٢١/٩) - النهاية (٢٤٠/٤) .
- ٣ صبيح الأعشى (٤٧٢/٥) ، تاريخ ابن خلدون (٢ - القسم الأول ، ص ٢٩٧) ، مقدسة ابن خلدون (ص ٢٢٤) ، غرائب اللغة (ص ٢٧٧) .
- ٤ تاج العروس (٣٠٥/٦) ، صبيح الأعشى (٤٧٢/٥) ، محيط المحيط (٢١٤/١) ، البستان (٣٠٩/١) .
- ٥ غرائب اللغة (ص ٢٥٦) .
- ٦ تاج العروس (١٧٨/١٠) ، سعي ، اللسان (٣٨٧/١٤) ، محيط المحيط (٩٦٠/١) ، التصريحية (١٩٣) .

والقطة (بابا) وما بعدها ، هي من الألفاظ التي شاع استعمالها في العربية في الاسلام ، وليس لدينا ما يفيد استعمالها بين الجاهليين .

وذكر علماء اللغة أن من الألفاظ المعروفة بين النصارى لفظة (العسوس) ، ويراد بها القائم بأمور الدين ، وهو رئيس النصارى .

أما (الراهب) ، فهو المبتل المتقطع الى العبادة . وعمله هو الرهبانية . وقد ذكر بعض علماء اللغة ان الرهبانية غلو في تحمل التعب من لمرط الرهبة^١ . وقد ذكرت الرهبانية في القرآن الكريم^٢ ، وذكرت في الحديث . وقد نهى عنها الاسلام : « لا رهبانية في الاسلام » . وقد ندد القرآن الكريم في كثير من الأحبار والرهبان ، فورد : « إن كثيراً من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل »^٣ . ويظهر من ذلك ان جماعة منهم كانت تنصرف بأموال الناس التي تقدم إلى الأديرة والبيع ، فيعيشون منها عيشة مترفة ، لا تتفق مع ما يتنادون به من التقشف والزهد والعبادة . كما ان منهم من عاش عيشة رهيبة وبطر ، فتكبر عن الناس وترفع ، حتى جعلوا أتباعهم يحيطونهم بهالة من التقديس والتعظيم ، الى درجة صيرهم أرباباً على هذه الأرض . فتضربوا اليهم وقدسهم قدسية لا تليق إلا للخالق . « انخلوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله »^٤ . ذلك أنهم كانوا يحلون لهم ما حرم الله فيستحلونه ويعزمون ما أحل الله لحسم فيحرمونه . « أما أنهم لم يكونوا يصومون لهم ولا يصلون لهم ، ولكنهم كانوا إذا أحلوا لهم شيئاً استحلوه وإذا حرموا عليهم شيئاً أحله الله لهم حرموه ، فقلت

- ١ تاج العروس (١٩٢/٤) ، اللسان (١٤١/٦) ، محيط المحيط (١٣٩٦/١) .
- ٢ المفردات ، للأصفهاني (ص ٢٠٣) ، اللسان (٤٣٧/١) ، صادر ، القاموس (٧٦/١) ، تاج العروس (٢٨١/١) ، الصحاح ، لنجوهري (١٤٠/١) .
- ٣ المائدة ، الآية ٨٢ ، التوبة ، الآية ٣٦ ، ٣٤ ، سورة الحديد ، الرقم ٥٧ ، الآية ٢٧ ، مجمع البيان (١٥٨/٧) ، تفسير الفخر الرازي (٦٦/١٢) وما بعدها ، روح المعاني (٨/٦) وما بعدها ، النهاية ، لابن الأثير (١٢٠/٢) .
- ٤ التوبة ، الرقم ٩ ، الآية ٣٤ ، مجمع البيان (٤٨/١٠) ، تفسير الطبري (٨/٧) وما بعدها ، تفسير الخازن (٢٣٣/٧) وما بعدها ، تفسير أبي السعود (١٤١/٤) وما بعدها ، القرطبي ، السلوك من معرفة سير الملوك (١٨٢/١) ، دار الكتب المصرية (١٩٣٦) ، السيوطي ، الدر المنثور (٧٥/١٠) .
- ٥ التوبة ، الرقم ٩ ، الآية ٣٦ ، جامع البيان (٨٠/١٠) ، الكشاف (٣١/٢) ، روح المعاني (٧٥/١٠) ، تفسير الخازن (٢١٦/٢) .

كانت رهبنتهم^١ . وكانوا يطعمونهم طاعة عباء ، وبأخلاقهم عنهم ، ويقدمونهم ،
ويقبلون أيديهم ولا يعصون أمراً لهم . وذكر ابن (عدي بن حاتم) الطائي ،
قال لرسول الله لما سمعه يقرأ : « اتخلدوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله » ،
« يا رسول الله ! إنا لننا نعبدهم . فقال : أليس يحرمون ما أحل الله فتحرمونه ،
ويحلون ما حرم الله ، فنحلونه ! قال : قلت بلى . قال فتلك عبادتهم^٢ .

ويظهر من روايات أهل الأخبار ، أن من الرهبان من بالغ في الرهب وفي
التردد ، فخصى نفسه ووضع السلاسل في عنقه أو في يديه أو رجليه ليجس
نفسه ، وامتنع عن المأكّل والأطياب ، مكتظاً بقليل من الماء وبشيء من الخبز
الحسن ، وأن منهم من امتنع عن الكلام وصام معظم أوقاته ، وابتعد عن الناس
متخذاً من الكهوف والجبال والمواضع النائية المخالية أماكن للتأمل والتعبّد . وذلك
كما يظهر من نهي الرسول عن الرهبة والرهبانية ، وحمل الإسلام عليها . لأنها
تبعد الناس عما أحل الله وقد عوض الإسلام عنها بالجهد في سبيل الله^٣ .

ومن عادات الرهبان وتقاليدهم التي وقف عليها أهل الجاهلية ، الامتناع عن
أكل اللحوم والوردك ، أبدأ أو أمدأ ، وحبس النفس في الأدبرة والصوامع ،
والكهوف ، والاقتصاد على أكل الصعب من الطعام والحسن من اللبس ، وليس
السواد والملسوح . وهي عادة انتقلت إلى الأحناف أيضاً وإلى الرهبان من الجاهليين
الذين غفلوا نظرة زهد ونفشت إلى هذه الحياة^٤ . كما كانوا لا يهتمون بشعورهم
فكانوا يظفون بها ولا يهتمون بها ولذلك كانت شعورهم شعثاً ، وعبر عن الراهب

١ تفسير الطبري (٨٠/١٠) وما بعدها . تفسير أبي السعود (١٤٢/٥) . تفسير
الطبرسي (٢٢/٥) .

٢ تفسير الطبري (٨٠/١٠) وما بعدها . « بولاق » .

٣ النهاية في غريب الحديث . لابن الأثير (ص ١٦٣) (١٣٠/٢) « المطبعة الخيرية » .
اللسان (٤٣٧/١) وما بعدها . تأج العروس (٢٨٠/١) وما بعدها . القاموس
المحيط (٧٦/١) . محيط المحيط (٨٠٦/١) . مجمع البيان (١٥٨/٧) . (٦/١)
(١٧٦) . جامع البيان (٢٣٨/٢٧) . (٤٣/١) . (١١٤/١٠) . (١١٧) . الكشف . للزمخشري
(٦٩/٤) . (٣١/٢) . (٤٣/١) . روح المعاني (١٦٥/٢٧) . (٧٥/١٠) . (٣/٧) .
الدر المنثور (٧٥/١٠) . صحيح مسلم (٢٢٩/٨) . كتاب الزهد .
اللسان (٤٣٧/١) « صادر » .

٤ تفسير الطبري (٨/٧) « الطبعة الثانية ١٩٥٦ م » . تفسير أبي السعود (٤/٤)
١٤١ وما بعدها . تفسير الرازي (٦٧/١٢) وما بعدها .

بالأشعث ، لأنه كان يطلق شعر رأسه ولا يحلقه ولا يعني به^١ .

ومن الرهبان من ساج في الأرض ، لطفاف بلاد العرب وأماكن أخرى ، وهام على وجهه في البوادي وبين القبائل ، لا يهيم ما سيلاقبه من أخطار ومكاره ، ومنهم من ابتنى له بناءً في القبايل وفي الأماكن النائية ، واحضر الآبار وحرث البقول ، وعاش عيشة جماعية ، حيث يعاون بعضهم بعضاً في تحمية أمور الديار الذي يعيشون فيه^٢ . ومنهم من عاش في قلل الجبال ، بعيداً عن المارة والناس . قال الشاعر :

لو عاينت رهبان دبر في القلل لأعذر الرهبان عشي وتزل^٣

وقد وقف بعض أهل الجاهلية على أخبار هؤلاء الرهبان وعرفوا بعض الشيء عنهم ، وبهم تأثر بعض الخلفاء على ما يظهر فآخضروا عنهم عادة التحدث والتعبد والازدواء والانطواء في الكهوف والمغاور والأماكن النائية البعيدة لتتسك والتعبد متعبدين بذلك عن الناس منصرفين إلى التأمل والتفكير في خلق هذا الكون دون أن يدخلوا التصراية .

وقد هبى الرسول بعض الصحابة مثل (عيان بن مفلح) ، وهو من النصارى في الأصل من تقليد الرهبان في الإخصاء وفي الامتناع عن الزواج ومن التشدد في أمور أهلها الله للناس^٤ . ويظهر أن هذا التشدد إنما جاء إليه وإلى أشاله من وقوفهم على حياة الرهبان وعسل رأيهم وفلسفتهم بالنسبة لهذه الحياة . وفي حق هؤلاء نزلت الآية : « يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم .

١ تاج العروس (٦٢٨/١) .

٢ تفسير الطبري (١٢٤/٢٧) . روح المعاني (٨/٦ وما بعدها) . تفسير الطبري (٨/٧ وما بعدها) . تفسير الخازن (٢٢٢/٧ وما بعدها) . تفسير أبي السعود (١٤١/٤ وما بعدها) .

٣ تفسير الطبري (٤/٧) .

لو أبصرت رهبان دبر في الجبل لأعذر الرهبان يسعي ويصل
تفسير القرطبي ، الجامع (٢٥٨/٦) .

٤ الدر المنثور (٣٠٧/٢) . مجمع البيان في تفسير القرآن (٦/٧ وما بعدها) . تفسير القرطبي (٢٦٠/٦ وما بعدها) . مجمع البيان (١٥٨/٢٧) . (مطبعة دار الفكر - بيروت) . الدر المنثور . للسيوطي (٣٠٧/٢) . روح المعاني (٣/٧) . (١٦٥/٢٧) .

ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين^١ . وذكر أن الرسول لما سمع بابتعاد (صبيان) من أهله ، دعاه ، فقناه عن ذلك . ثم قال : « ما بال أقوام حرّموا النساء والطعام والنسوم ! ألا أني أنام وأفوم وأفطر وأصوم وأنكح النساء ، فمن رغب عن سنتي ، فليس مني . فتزلة الآية : يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا . يقول لعمري لا تحجب نفسك . فإن هذا هو الاعتداء^٢ .

وورد في الحديث : « لا ضرورة في الإسلام » ، والضرورة التبتل وترك الشكاح ، أي ليس ينبغي لأحد أن يقول لا أتزوج ، لأن هذا ليس من أخلاق المسلمين ، بل هو من فعل الرهبان . وهو معروف في كلام العرب . وعنه قول النابغة :

لو أنها عرضت لأخطأ راهب عبد الإله ضرورة متعبد

يعني الراهب الذي ترك النساء^٣ .

وقد أشير إلى الرهبان في شعر امرئ القيس ، إذ أشار فيه إلى منارة الراهب التي يعمي بها يتبتل فيها إلى الله ، وعنده مصباح يستير بنوره^٤ . كما أشار فيه إليه وهو في صومعته يتلو الزبور ونجم الصبح ما طلعاً^٥ ، دلالة على تهجده وتعبده في وقت يكون الناس فيه نياماً ، كما أشير إليهم في شعر شعراء جاهليين آخرين مثل (النابغة الذبياني) ، الذي أشار إلى ركوع الراهب يدعو ربه فيه ويتوسل إليه^٦ . كما أشار إلى موقف الراهب من رؤية امرأة جميلة ، وكيف سيرفون إليها

١ المائدة ، الآية ٨٧ .

٢ تفسير الطبري (٦/٧) ، روح المعاني (٧/٧) .

٣ تاج العروس (٣/٣٣٦) ، (صرد) .

٤ قطبي ، الظلال بالعشاء كأنها منارة ميس راهب متبتل

النصرانية (الجزء الثاني ، القسم الأول ، ص ١٧٥) .

٥ كأنه راهب في رأس صومعة يتلو الزبور ونجم الصبح ما طلعاً

النصرانية (٢ ، قسم ٢ ، ص ٣٩٢) .

٦ سيبويه علدا لم نجاحاً من امرئ إلى ربه رب البرية راكع

دائرة المعارف الإسلامية ، الترجمة العربية ، (٩/١٠) ، النصرانية ، الجزء الثاني ، القسم الثاني (ص ٣٩٤) .

حتى وإن كان راهباً لاشيط^١ . وقد أشار الى (توبي راهب الدير) والى الحلف بثوبه^٢ .

وورد في الشعر ما يفيد بانقطاع الرهبان في الأماكن الصعبة القصبة مثل قمل الجبال وذراها ، حيث لا يأتيهم الناس ، فيعيشون في علوة وانقطاع عن البشر^٣ . ومن الأماكن التي اشتهرت بوجود الرهبان فيها أرض مدين^٤ . ووادي القرى ومنازل تنوخ وصوران وزبد^٥ .

وقد سبح الرهبان ورجال الدين ، الله ، في الكنائس وفي الأديرة بالخلان عذبة جميلة ، ورتلوا الزبور والأسفار المقدسة الأخرى . وقد عرف الجاهلون ذلك عنهم ، وأشاروا الى ذلك في شعرهم ، وربما كان بعضهم يحضر تلك الترابيل ويستأنس بها على الرغم من وثنيته وعدم اعتقاده بالتصراية .

ويقال للراهب الزاهد ، الذي ربط نفسه عن الدنيا : الربيط . وقيل له : الحيس . وذكر أن الربيط ، هو المتشف الحكيم^٦ ، وأن الحيس هو الذي حبس نفسه في سبيل الله ، قبعوا في الأديرة وابتعدوا عن الناس . فصاروا كالخساء^٧ .

- ١ تفسير القرطبي ، (٢٥٨/٦) .
لو أنها عرضت لاشيط راهب عيبه الآله ضرورة منعبد
كرونا لرويتها وحسن حديثها ولغاله رشدا وإن لم يرشد
- ٢ تاج العروس (٢٨١/١) .
- ٣ لو كلمت رهبان دير في الغلل لانحدر الراهب يسمى فنزل
اللسان (٤٣٧/١) ، صادر ، ، تاج العروس (٢٨١/١) ، المغربي ، السلوك
في معرفة سير الملوك (١٨٢/١) ، تفسير الطبري (١٥٨/٢٧) ، ، البابسي ، ،
الكشاف (٣١/٢) ، الدر المنثور (١٧٧/٦) ، تفسير الخازن (٢١٦/٢) ،
(٢٣٢/٤) .
- ٤ لو أنها عرضت لاشيط راهب في رأس مبرقة الذوي متبتل
الاعاني (٩٢/١٩) ، دار الثقافة بيروت ، ، وقد نسب هذا الشعر الى ربيعة بن
مفروم الصيفي ، وقد مر النصف الاول من هذا البيت من شعر نسب الى التايبة
الديلمي في تفسير القرطبي (٢٥٨/٦) .
- ٥ قال جرير :
رهبان مدين ، لو دأوك تنزلوا والعصم ، من سعلت العقول ، الغادر
اللسان (٤٣٧/١) ، صادر ، ، تفسير الطبري (٤/٧) .
- ٦ التصراية ، الجزء الثاني ، القسم الاول (١٩٦ وما بعدها) .
- ٧ تاج العروس (١٤٣/٥) ، القاموس المحيط (٣٦١/٢) ، المغربي ، سير
(١٨٢/١) ، البلدان (٢١٣/٢) ، صادر ، ،
التصراية ، الجزء الثاني ، القسم الاول (١٩٧) ، البلدان (٢١٣/٢) .

ويقال لراهب : المقدسي . والمقدس الراهب . وصييان النصارى يتبركون به ،
ويتمسحون بملابسه تبركاً^١ . كما قيل له : المتعب ، والأعايد^٢ ونسب الى (امريء
القيس) هذا البيت :

فأدركته بأخسطن بالساق والناس كما شبرق الولدان ثوب المقدسي

ويروى المقدس ، وهو الراهب ينزل من صومعته الى بيت المقدس ، فيعزق
الصييان ثيابه تبركاً به^٣ .

وأما (التهامي) ، فهو صاحب الدبر ، أو الراهب في الدبر^٤ .

ومن الألفاظ التي شاعت بين النصارى ووصل خبرها إلى الجاهليين ، لفظة :
(الأييل) ، وقد اتخذوها للدلالة على رئيس النصارى . وذكر بعض أهل الأخبار
انها تعني أيضاً (المسيح) . وقد كانوا يعظمون الأييل فيحلقون به كما يحلقون
بالق . وهي من الألفاظ المعربة عن السريانية (اييلو) Abillo ، ومعناها في
السريانية الزاهد والناسك والراهب . وكانوا يتخللون عادة رؤسائهم من الرهبان
المتبئين^٥ . وقد وردت لفظة (الأييل) في الشعر الجاهلي ، في شعر : الأعشى
وفي شعر عدي بن زيد . وورد (أييل الأييلين) ، ولريد بذلك المسيح^٦ . وذكر
ان (الأييل) هو صاحب الناقوس ، والراهب أيضاً^٧ . وان (الأييل) ، هو
ضارب الناقوس . و (الأييل) ، العصا التي يذق بها الناقوس^٨ . قال الأعشى :

- ١ اللسان (١٦٩/٦) ، صادر ، *
- ٢ اللسان (٢٧٢/٣) ، *
- ٣ تاج العروس (٣٩٠/٦) ، (شبرق) ، *
- ٤ تاج العروس (٨٨/٩) ، نهم ، (المخصص) (١٠٠/١٣) ، *
- ٥ النصرانية ، الجزء الثاني ، القسم الاول (١٩٠) ، غرائب اللغة (١٧٢) ، *
- ٦ قال ابن عبد الجب ، وقيل عمرو بن عبد الحق :
أما ودماء ما ترات تخالها
وما نفس الرهبان في كل هيكل
لقد ذاق منا عامس يوم لعن
حساما ، اذا ما هز بالكف صمما
- ٧ اللسان (٦/١١) وما بعدها ، (أيل) ، (صادر) ، *
- ٨ اللسان (٦/١١) وما بعدها ، تاج العروس (١٩٩/٧) ، الاب مرمجي ، معجميات
عربية سامية (١٣١) وما بعدها ، شعراء النصرانية ، لشيخو (٤٥٣) ، المخصص
(١٠٠/١٣) ، *
- ٨ ديوان الأعشى (٥٣) ، المطبعة التوذكيرية ، ١٩٥٠ م ، *

وما أبلى على هكل بناء وصاب فيه وصارا
برلوح من صلوات المليك طوراً سجوداً وطوراً جزاراً

يعني بالجوار الصياح . إما بالدعاء وإما بالقراءة^١ .

والساور من أسماء المسيح وهو من أصل (سوعورو) So'oro ، بمعنى زائر ،
وتطلق اللفظة على من يزور القرى ويطلع على أحوالها وذلك بأمر من الأمقف^٢ .
وذكر علماء اللغة أن اللفظة من الألفاظ العربية عن السريانية، وأن الأصل (ساورا) ،
ومعناه متفقد المرضي ، وتطلق اللفظة على مقدم النصارى في معرفة علم الطب^٣ .
ويقال لخادم البعثة: الجللافي^٤ . وذكر أن (الجللي) الرابع والصانع والخادم
في الكنيسة . قال ابن مقبل :

صوت النواقيس فيه ما يفرطه أبلي الجللافي-جون ما يفتبنا

و (الكنيس) و (الكنيسة) موضع عبادة اليهود والنصارى ، فها في مقابل
(المسجد والجامع) عند المسلمين . والكلمة من الألفاظ المعربة عن الآرامية ،
وتعني لفظة «Knoucho» (كنشو) (كنشت) في السريانية ، اجتباع ،
وجمع وأطلقت بصورة خاصة على كنيس اليهود^٥ . ولها نجد العرب يطلقونها
على معبد اليهود كذلك . ويقال في العبرانية للكنيس (كنيتا) ، بمعنى محل الصلاة .
ونجد الكتب العربية تفرق بين موضع عبادة اليهود وموضع عبادة النصارى ، فتطلق
(الكنيس) على موضع عبادة اليهود و(الكنيسة) على موضع عبادة النصارى . وقد
ذهب بعض علماء اللغة ، إلى أن الكنيسة ، هي معبد اليهود ، وأما (البعثة) ،

١ تفسير الطبري (٨٢/١٤) .

٢ غرائب اللغة (١٨٧) .

٣ تاج العروس (٤٦٨/٣) ، الخيرية ، النصرانية ، القسم الأول (١٩٤) ، القاموس
(٤٨/٢) .

٤ اللسان (١٤/٥) ، المطبعة الأميرية ، (٤٨٢/٣) ، صادر ، تاج العروس
(٥٥٧/٢) .

٥ تاج العروس (٥٥٧/٢) ، (ما يعقينا) ، اللسان (٤٨٢/٣) ، (صادر) .

٦ غرائب اللغة (ص ٢٠٤) ، النصرانية وأدائها ، شيخو (٢٠١/٢) وما بعدها ،
الطبعة الثانية بيروت ١٩٢٣ .

فهي متعبد النصرى^١ . وقد عرف علماء اللغة العرب ، أنها من الألفاظ المعربة ، فقالوا : وهي معربة ، أصلها كنت^٢ .

وقد زوّق النصرى كنائسهم ، وجعلوها ، وزينوها بالصور وبالنماثيل ، ووضعوا الصلبان على أبوابها وفي داخلها . ووضعوا بها المصابيح لإتارتها في الليل ، وكانوا يسرجون فيها السرج ، وجعلوا بها التواقيس ، لتفرع ، فترشد المؤمنين بأوقات الصلوات ، ولتشير إليهم بوجود مناسبات دينية ، ككوفة ، أو ميلاد مولود ، أو عرس وأمثال ذلك . ومن الكنائس التي اكتسبت حرمة كبيرة عند النصرى العرب : كنيسة القيامة ، وكنيسة نجران ، وكنيسة الرصافة . ولقد أشير في شعر الثابتة إلى (صليب على الزوراء منصوب) ، أي على كنيسة .

والتمثال الشيء المصنوع مشبهاً بخلق من خلق الله ، أي من إنسان أو حيوان أو جماد^٣ . وأدخل العلماء الصور في النمايل . وقد كانت الكنائس مزينة بالنمايل والصور ، تمثل حوادث الكتاب المقدس وحياة المسيح . وتطلّراً إلى محاربة الأسمان ، وإلى كل ما يعيد إلى ذاكرة الإنسان عبادة الأصنام والصور ، ورد التهي عنها في الإسلام . جاء في الحديث : « أشد الناس عذاباً يوم القيامة المصورون »^٤ .

وقد كان الروم يمدّون الكنائس والبشرىن بالمال وبالفعلة وبالمساعدات المادية لبناء الكنائس والأديرة . والكنائس والأديرة وإن كانت بيوت تقوى وعبادة ، كانت بيوت سياسة ودعوة وتوجيه . ونشر النصرانية معها كان مذهبها ولونها ، مفيد للروم ، فالنصراني معها كان مذهب لا يد أن يحل إلى اخواته في العقيدة والدين . ففي انتشار النصرانية فائدة من هذه الناحية كبيرة للبيزنطيين .

وفي العربية لفظة أخرى للكنيسة ، إلا أنها لفظة خصصت بكنيسة معينة ، هي الكنيسة التي بناها أبرهة بمدينة صنعاء ، واللفظة هي : (القلّيس) . وللأخباريين آراء في معناها وفي أصلها ، ينبت على طريقتهم الخاصة في إيجاد التفسير للكلمات القديمة من عريسة ومن معربة ، التي لا يعرفون من أمرها شيئاً . وهي لذلك

- ١ . ناج العروس (٢٣٥/٤) .
- ٢ . النسان (١٩٩/٦) . ناج العروس (٢٣٥/٤) .
- ٣ . ناج العروس (١٩٩/٨) . (مثل) .
- ٤ . تفسير الطبري (٤٩/٢٢) . تفسير القرطبي (٢٧٣/٤) وما بعدها .

لا نقبلنا شيئاً . والكلمة أعجمية الأصل ، عربت ، وشاع استعمالها ، حتى ظن
 أنها اسم تلك الكنيسة . أخذت هذه اللفظة من أصل يوناني هو (أكليسيا)
 « Ekklesia » ، ومعناه في اليونانية المجمع ، أي الكنيسة . والظاهر أن أهل
 صنعاء سمعوا اللفظة من الحبش ، حينما كانوا يذهبون إلى الكنيسة ، فصبروها
 اسم علم على هذه الكنيسة ، ولم يدروا أنها تعني الكنيسة ، أي موضع عبادة^١ .
 والصوامع والبيع هما من الألفاظ التي استعمالها الجاهليون للدلالة على مواضع
 العبادة عند النصارى . وقد ذهب العلماء إلى أن البيعة من الألفاظ العربية^٢ . أخذت
 من السريانية . وأصل اللفظة في السريانية ، هو (بعنو) بمعنى بيضة ، وقبة ،
 لأنها كانت قبة في كثير من الكنائس القديمة^٣ . وقد استعملت في الحبشية كذلك
 ولذلك ذهب بعضهم إلى أنها من الحبشية^٤ . وقال علماء اللغة العرب : الصومعة
 كل بناء منصع الرأس ، أي متلاصقة ، والأصمغ اللاصقة اذنه برأسه^٥ . وقد
 أشير إلى (البيع) في القرآن : « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت
 صوامع وبيع »^٦ . وقد ذهب بعض علماء اللغة ، إلى أن البيعة متعبد اليهود^٧ .
 ولكن أغلبهم على أنها متعبد النصارى .

وقد وردت لفظة (بيعة) في نص (أبرهة) الشهير الذي دونه على سد
 مأرب . ففي هذا النص جملة : (وقلنس بعن) ، أي (وقلنس البيعة)^٨ .

وذكر أن لفظة (البيعة) قد وردت في شعر ينسب إلى ورقة بن نوفل ، حيث
 زعم أنه قال :

أقول إذا صليت في كل بيعة تباركت قد أكثرت باسمك داعياً^٩

١ (الفخري) ، (العليسة) ، اللسان (١٨٠/٦) ، (قلنس) ،
 Ency., II, p. 144, Raccolta, III, p. 127.

٢ العرب (ص ٨١) .

٣ معجميات (ص ١٠٩ وما بعدها) ، النصارى وآدابها ، القسم الثاني ، الجزء الثاني ،
 القسم الأول (ص ٢١٣) ، غرائب اللغة (١٧٥) .

٤ النصارى (الثاني) ، القسم الأول (٢١٣) ، طبعة ثانية ،

المفردات (٢٨٨) ، اللسان (٢٠٨/٨) ، تاج العروس (٤١١/٧)

٥ الحج ، الآية ٤٠ .

٦ تفسير الطبري (١٧٥/١٥) ، الباني ، اللسان (٢٦/٨) ، مصادر .

٧ راجع النص في مجلة المجمع العلمي العراقي (٢١٥/٤) .

٨ الاغانى (١٦/٣) .

كما ذكر أنها وردت في كلام أناس من الجاهليين والمخضرمين^١ .

وقد أشير إلى ورودها في الشعر الجاهلي وفي بعض الأخبار المنسوبة إلى الجاهليين. وردت في شعر منسوب إلى (عبد المسبح بن بقلعة) ، وهو كما يظهر من اسمه من النصارى^٢ . ووردت في بيت منسوب إلى لقيط بن معبد^٣ ، وفي شعر ينسب إلى الزبير بن بدر التميمي^٤ . ولا بد أن تكون هذه الكلمة من الكلمات المألوفة عند الجاهليين المنتصرين ، وعند غيرهم ممن كانوا على الوثنية ، غير أنهم كانوا على اتصال بالنصارى ، ذلك لأنها من الألفاظ الشائعة المعروفة عند النصارى . وقد كانت البج منتشرة في المدن وفي القرى والبادي ، وطالما قصدتها الأعراب للاحتباء بها من الحر والبرد والاستعانة برجلها لتزويدهم بما عندهم من ماء أو زاد أو لتزهر بها واحتساء الشراب .

والصومعة من أصل حبشي هو (صومعت) على رأي بعض المشرقين . وقد خصصت به (قلابة) الراهب^٥ . أي مسكن الرهبان . وهذا المعنى وردت في القرآن . ويقول علماء اللغة : أنها على وزن فوعلة ، سميت صومعة ، لأنها دقيقة الرأس . وهي صومعة النصارى^٦ . وذكر بعض منهم أن الصومعة كل بناء متصمم الرأس ، أي متلاصقة^٧ . وقد سميت صومعة لتطيف أعلامها^٨ . وبدل ورود هذه اللفظة بصورة الجمع في القرآن الكريم ، على وقوف الجاهليين على

- ١ ابن هشام (٩٣٥) ، طبعة لبنان ، تاج العروس (٢٨٥/٥) ، النصرانية وآدابها ، القسم الثاني ، الجزء الثاني ، القسم الأول (ص ٢٠١ وما بعدها) .
- ٢ كم ترجمت بديسر الجرعة ، خصصاً كقدي بها متصدعة من يهود فوق الفصان على كسب زون احتساباً ببيعته البلدان (١٢٠/٤) ، دير الجرعة ، النصرانية ، القسم الثاني ، الجزء الثاني (٢٠٢ وما بعدها) .
- ٣ تلعت فزادي بذات الخال خرعبة صرت تزيه بذات العذبة البيضا تاج العروس (٢٨٥/٥) ، النصرانية ، القسم الثاني ، الجزء الثاني (٢٠٢) .
- ٤ نحن الكرام ، فلاحني يعادلنا منا الكرام ، وفيها تنصب البيج ابن هشام (٩٣٥/١) ، النصرانية ، القسم الثاني ، الجزء الثاني (٢٠١) .
- ٥ معجميات (ص ١٠٩ وما بعدها) ، Raccolla, III, p. 122 .
- ٦ اللسان (٧٦/١٠) ، معجميات (ص ١٥٣) ، تاج العروس (٤١١/٧) ، النصرانية ، القسم الثاني ، الجزء الثاني (١٧٤ ، ٢١٣) .
- ٧ مفردات ، الأصفهاني (ص ٢٨٨) .
- ٨ اللسان (٢٠٨/٨) ، صادر ، -

الصوامع ووجودها بينهم^١ . وقد كان الرهبان قد ابتنوا الصوامع وأقاموا بها للعبادة بعيدين في مختلف أنحاء جزيرة العرب ، ومنها الحجاز . وقد وقف الجاهليون عليها ، ودخلوا فيها . أما تجارهم ممن قصد بلاد الشام والعراق ، فقد رأوا في طريقهم إلى تلك الأرضين ، وفي تلك الأرضين بالذات ، حيث انتشرت فيها النصرانية صوامع كثيرة . ونجد في كتب الأخبار أمثلة عديدة تشير إلى دخول تجار مكة الصوامع في بلاد الشام وفي وادي القرى ، للحصول على ملجأ أو عون . والقلاية ، وهي كالصومعة ، يتعد فيها الرهبان ، وهي من الألفاظ المبرية ، عربت من أصل يوناني هو « Kallivon » ، ومعناه غرفة راهب أو ناسك^٢ . ومن هذا الأصل انتقلت اللفظة إلى السريانية فصارت (قلبيتا) ، فانتشرت بين نصارى بلاد الشام بصورة خاصة ثم بقية النصارى ، منها دخلت العربية . وقد عرف علماء العربية أنها من الألفاظ المبرية ، فقالوا : هي تعريب كلالدة ، وهي من بيوت عبادتهم ، أي عبادات النصارى . وقد وردت في الحديث ، كما ورد ذكرها في صلح عمر مع نصارى الشام ، حيث كتبوا له كتاباً : إنا لا نحدث في مدينتنا كنيسة ولا قلية^٣ . والظاهر أن النصارى توسعوا في المعنى ، فأطلقوها على المنازل التي يسكنها الرهبان ، ثم توسعوا فيها فأطلقوها على دور المفارقة والبطارقة ، وأصلها بمعنى الأكواخ^٤ .

وللفظة (الدبر) هي من الألفاظ النصرانية الشهيرة المعروفة بين العرب . وهي أكثر شهرة من الألفاظ الأخرى التي لها علاقة بمواضع العبادة أو السكن عند النصارى ، وذلك لانتشارها ووجودها في مواضع كثيرة من العراق وبلاد الشام وجزيرة العرب . ولمرور التجار وأصحاب القوافل والمارة بها ، واضطرتهم إلى الاستعانة بأصحابها وبالحجوة إليها في بعض الأحيان . كما كانت محلاً لمنزلاً لشعراء ولأصحاب النوق والكيف ، حيث كانوا يجدون فيها لذة ومنعة تسر العين والقلب ، من خضرة ومن ماء بارد عذب ومن طريبعث فيهم الطرب والخيال ، ولذلك

- ١ سورة الحج ، الرقم ٢٢ ، الآية ٤٠ ، النهاية ، لابن الأثير (١٢٠/٢) . تفسير الطبري (١٧٥/١٥) .
- ٢ غرائب اللغة (ص ٢٦٥) . النصرانية . الجزء الثاني . القسم الأول (ص ٢١٢) .
- ٣ النهاية (٣٠٩/٣) . البكري . معجم (٥٨٣/٢) . اللسان (٦٢/٢٠) . تاج المروس (٨٦/٨) . (غلل) .
- ٤ معجميات (ص ١٨٠ وما بعدها) .

أكثر الشعراء في الجاهلية والإسلام من ذكرس الأديرة في شعرهم . حتى الشعراء النصارى مثل (عدي بن زيد العبادي) ، يترنم في شعره بذكرس الدير ، لأنه قادم فيه (بني علقما) ، وعاطاهم الخمر ممزوجة بماء السماء^١ .

ولفظ (الدير) هي مثل أكثر الألفاظ النصرانية من الألفاظ المعربة . عربت من أصل سرياني ، هو (دير) Dayr ، بمعنى دار ، أي بيت الراهب^٢ . ومسكنه ، ولا سيما المحصن ، ثم خصوا بها مسكن الرهبان^٣ . وقد عرف علماء العربية أن الدير هو مسكن النصارى ، يتعبد فيه الرهبان ويسكنون به ، وقد ذكر (ياقوت الحموي) أن الدير بيت يتعبد فيه الرهبان ، ولا يكاد يكون في مصر الأعظم ، وإنما يكون في الصحاري ورؤوس الجبال ، فإن كان في مصر الأعظم فإنه كنيسة أو بيعة^٤ غير أن الأديرة تكون في كل مكان ، تكون في القرى وتكون في المدن كما تكون في البوادي وفي رؤوس الجبال^٥ .

و (الديراني) ، صاحب الدير ، وقد ذكر بعض العلماء أن الديراني صاحب الدير الذي يسكنه ويعمره . نسب على غير قياس . ويقال للرجل إذا رأس أصحابه هو رأس الدير^٦ .

ولا تقتصر الأديرة على الرجال ، فللرايات أديرة أيضاً . وبقضي أصحاب الأديرة وقتهم في الزهد والتفكير والعبادة . والقيام بالأعمال اليدوية التي يوكلها رئيس الدير إليهم^٧ . وقد عرف الراهب المعتكف بالدير بـ (الديراني) و (الديرانية) ، هي الراهبة^٨ . وقد عرفت أديرة الراهبات بـ (أديرة العذارى) كذلك .

- ١ نادعت في الدير بني علقما
كان ربح المسك من كاسها
عاطيتهم مشمولة عندما
إذا مزجناهما بماء السماء
- ٢ البلدان (٦٣٩/٢ ، ٦٨٠) ، (٤٤٩/٢) ، بيروت ، النصرانية وآدابها ، القسم الثاني ، الجزء الثاني ، القسم الأول (ص ٢١٢) ، المخصص (١٣/١٠٠ وما بعدها) .
- ٣ لرايب اللغة (ص ١٨٢) .
- ٤ النصرانية وآدابها ، القسم الثاني ، الجزء الثاني ، القسم الأول (ص ٢١٢) .
- ٥ مجمع البلدان (٦٣٩/٢ ، ٦٣٩/٦) .
- ٦ اللسان (٢٨٧/٥) ، النصرانية وآدابها ، القسم الثاني ، الجزء الثاني ، القسم الأول (ص ٢١٢) .
- ٧ اللسان (٢٨٧/٥) ، نأج العروس (٢٣١/٣) .
- ٨ البلدان (٦٣٩/٢ ، ٤٥١/٤) .
- ٩ النصرانية ، القسم الثاني ، الجزء الثاني ، القسم الأول (ص ٢١٢) ، الشعر ، لاين فتية (٢٢٩) .

واذ كان لهذه الأديرة حرمة في نفوسهم، فقد كانوا يعتقدون فيها عقودهم ويعتقدون بها على نحو ما كان يفعلها الوثنيون في معابدهم حيث كانوا يسمون الأيمان ويتعاقدون أمام الأوثان ، فكان للتصاري في الحيرة دير السوا ، وفي هذا الدير كانوا يتناصفون ويحلفون بعضهم لبعض على الحقوق^١ .

وفي الآرامية لفظة هي (عمرو) Oumro ، وقد صارت (العمر) في العربية . ويراد بها البيعة والكنيسة والدير ودار^٢ . وقد وردت في شعر (التلمس)^٣ حيث جاء :

ألك السدير^٤ وبارق ومبايض ولك الخورنق^٥
والعمر ذو الأحشاء واللغات من صاع وديسق^٦

وعرفت العربية لفظة (الكرح) ، و (الأكبراج) ، وقد عرفها علماء العربية بقولهم : « الأكبراج : بيوت ومواضع تخرج إليها التصاري في بعض أعيادهم »^٧ . واللفظة من أصل سرياني هو (كرحو) « Kourho » ، بمعنى كوخ ، ومسكن حبيس ، وبيت ناسك وراهب^٨ . وذكر ياقوت الحموي : أن « الأكبراج بيوت صغار تسكنها الرهبان الذين لا قلائي لهم »^٩ . وهناك دير اسمه (الأكبراج) ، ورد في شعر لأبي نقاس ، ويقع بظاهر الكوفة كثير البساتين والرياحين ، وبالقرب منه ديران ، يقال لأحدهما دير عبد ، وللآخر دير هند^{١٠} .
والحراب من الألفاظ التي استعملها التصاري في أمور دينهم كذلك ، إذ أطلقوها على صدر كنائسهم . وقد استعملت في الاسلام أيضاً ، حيث يشير إلى القبلة ، ويؤم الإمام فيه المصلين . وقد ذكر بعض علماء اللغة ، أن محارب

- ١ البلاذري ، فتوح (٢٩٢) .
- ٢ غرائب اللغة (ص ١٩٦) .
- ٣ البكري ، معجم (٦٩٦) ، النصرانية وآدابها ، القسم الثاني ، الجزء الثاني ، القسم الأول (ص ٢١٣) ، تاج العروس (٣ / ٢٢٠) .
- ٤ يا ديسر حنة من ذات الأكبراج من يصبح عنك فاسي لست بالصاح
- ٥ التلمس (٤٠٥ / ٣) ، البكري ، معجم (٥٧٥ / ٤) ، المخصص (١٣ / ١٠٢) .
- ٦ غرائب اللغة (ص ٢٠٣) ، النصرانية وآدابها ، القسم الثاني ، الجزء الثاني ، القسم الأول (ص ٢١٢ ، ٢١٤) .
- ٧ البلدان (٣٤٥ / ١) .
- ٨ البلدان (٣٤٥ / ١) .

بني اسرائيل مساجدهم التي كانوا يصلون فيها^١ . وقد وردت لفظة المحراب في أشعار بعض الجاهليين^٢ . كما وردت في القرآن الكريم^٣ ، وفي الشعر الجاهلي^٤ . وذكر علماء التصير أن المحراب كل موضع مرتفع . وقيل للذي يصلي فيه : محراب ، وذكروا أن المحاريب دون القصور ، وأشرف بيوت الدار . قال عدي ابن زيد العبدي :

كلمى الحاج في المحاريب أو كالبيض في الروض زهره مستنير^٥

وذكر علماء العربية لفظة (التامور) (التأمور) ، في جملة الألفاظ المتعلقة بالرهبان والرهبة . وقد عرفها بعضهم بأنها صومعة الراهب وقاموسه^٦ . وذكر أن (القوس) ، بمعنى الدير والصومعة أو موضع الراهب . أو معبد الراهب^٧ . وذكر أن أصل الكلمة من الفارسية^٨ . وذكر أن (الغريال) ، هو مكان أيضاً من أمكنة الرهبان ، وأنه كهنة الصومعة في هندسة بنائه وارتفاعه . وأنه كل بناء مرتفع . ويظهر أنها من الألفاظ المعربة^٩ .

والأسطوانة ، وهي السارية من الألفاظ النصرانية التي وقف عليها الجاهليون . وقد اتخذها العرب بمعنى العمود الذي كان يتعد فوقه بعض الرهبان المعروفين بالعموديين Stylites . وقد أشير إلى (أسطوان) في شعر نسبه إلى (ذي الجذنين) . وفُسر لفظة (الأسطوان) ، و (الأسطوانة) ، بأنها موضع الراهب المرتفع^{١٠} .

- ١ النصرانية . الجزء الثاني القسم الأول (١٧٤)^{*}
- ٢ اللسان (٣٠٥/١) . النصرانية . الجزء الثاني . القسم الأول (١٧٤) . اللسان (١٧/٧)^{*}
- ٣ آل عمران . الآية ٣٧ . مريم . الآية ١١ . ص . الآية ٢١ .
- ٤ النصرانية . الجزء الثاني . القسم الأول (١٧٤)^{*}
- ٥ تفسير الطبري (٤٨/٢٢) . تفسير القرطبي (٢٧١/١٤)^{*}
- ٦ النصرانية وآدابها . القسم الثاني . الجزء الثاني . القسم الأول (ص ٢١٢) .
- ٧ تاج العروس (٣٠/٣) . (أمر)^{*}
- ٨ اللسان (٦٩/٨) . معجم البلدان (٢٠٠/٤)^{*}
- ٩ النصرانية وآدابها . القسم الثاني . الجزء الثاني . القسم الأول (ص ٢١٤)^{*}
- ١٠ تاج العروس (٤١٦/٧) . البلدان (٥٢٥/٣) . النصرانية . الجزء الثاني . القسم الأول (٢١٣)^{*}
- ١١ النصرانية . الجزء الثاني . القسم الأول (٢١١) . البلدان (٣٤٥/١) . المخصص (١٣/١٠٠ وما بعدها)^{*}

و (المنهية) مسكن التهام ، والتهامي ، هو الراهب . وأما المنهية فوضع الراهب^١ .

ووردت في شعر للأعشى لفظة (الهيكل) . إذ قال :

وما أبيل على هيكل بناء وصلب فيه وصارا^٢

ويذكر علماء اللغة ، أن الهيكل : بيت النصارى فيه صورة مريم وعيسى ، وربما مُحمّدي به دبرهم . وأن الهيكل:العظيم واستعمل لبناء العظيم ، ولكل كبير ، ومنه سمي بيت النصارى الهيكل^٣ . واللفظة من الألفاظ العربية ، وهي ترد في العبرانية (هيكل) وفي الآرامية (هيكلو) . وتعني في اللغتين المعبد الكبير ومعبد الوثنيين^٤ .

وقد كان الرهبان وبقية رجال الدين وكذلك الأديرة والكنائس يستعملون المصابيح والقنادل للاضاءة بها . ويعبر عن المصباح بالسراج كذلك^٥ . وقد تركت مصابيحهم وقناديلهم أثراً ملحوظاً في محفلة الشعراء فأنشدها في شعر (مزود بن ضرار الليثاني) حيث قيل أنه قال :

كأن شعاع الشمس في حجراتها مصابيح رهبان زهنتها القنادل^٦

وذكر علماء اللغة أن الزيت الذي له دخان صالح ويوقد في الكنائس ، هو (السليط)^٧ .

ولفظه : قنديل من الألفاظ العربية ، أصلها يوناني هو : « Candela » ، أي شمع^٨ . وقد دخلت إلى العربية قبل الإسلام ، عن طريق الاتصال التجاري بين جزيرة العرب وبلاد الشام .

- ١ النصارانية ، الجزء الثاني ، القسم الأول (٢١٤) .
- ٢ اللسان (١٤٤ / ٦) ، الأضداد (٢٤) ، النصارانية ، الجزء الثاني ، القسم الأول (٢٠٣) .
- ٣ المخصص (١٠٠ / ١٣) وما بعدها ، اللسان (٢٢٥ / ١٤) ، العقد النعني (١٨) ، النصارانية ، الجزء الثاني ، القسم الأول (٢٠٢) .
- ٤ النصارانية ، الجزء الثاني ، القسم الأول (٢٠٢) ، غرائب اللغة (٢٠٩) .
- ٥ المفردات ، للأصفهاني (ص ٦٧٤) .
- ٦ الفضليات (٣٦) ، طبعة السندوبي .
- ٧ تاج العروس (١٥٨ / ٥) ، اللسان (٢٢٠ / ٧) ، (سائط) .
- ٨ غرائب اللغة (٢٧٩) .

وكان النصارى العرب يتقربون الى رجال دينهم ويتركون بهم ويحرمونهم حتى قبل ان الصبيان منهم كانوا إذا رأوا الراهب يتزل ليذهب الى بيت المقدس أو غيره خرجوا له فتمسحوا به ولثموا ثيابه ، حتى يمزقوا ثيابه . والى ذلك أشير كما يقول أهل الأخبار - في شعر امرئ القيس :

فأدركته بأغصن بالساق والنسا كما شبرق الولدان ثوب المقدس^١

ولبس رجال الدين ملابس خاصة لتمييزهم عن غيرهم ، غلب عليها السواد . وقد اعتصمت لفظة (المسح) و (المسوح) بالملابس التي كان يلبسها الرهبان والرهبان .

ومن أهم العلامات الفارقة التي ميزت معابد النصارى عن معابد اليهود والوثنيين : (النافوس) ، السدي ينصب فوق سطوح الكنائس وفي منائرها ، للاعلان عن أوقات العبادات ولإدعاء القروض الدينية ، وهو عند الجاهليين خشبة طويلة يقرع عليها بخشبة أخرى قصيرة يطلقون عليها لفظة (الويلة) و (الويل) . وهو في مقابل البوق عند يهود يثرب ، إذا أرادوا الاعلان عن موعد العبادة . وقد عرف هذا البوق بن حرب يثرب يد (القنع) أيضاً^٢ ، وب (الشبور)^٣ . وقد ذكر علماء اللغة ان الشبور شيء يعاطاه النصارى بعضهم لبعض كالقربان يتقربون به . وقال بعضهم : هو قربان بعينه . وذكروا ان الشبور شيء ينسخ فيه ، فهو البوق عند اليهود ، وهو معرب وأصله عبراني^٤ .

وقد وردت كلمة (النافوس) في الشعر الجاهلي : وردت في بيت للشاعر المثلثس^٥ ،

١ المعاني الكبير (٧٦٤/٢) -

٢ القنع ، وورد القنع والقنع والغص ، اللسان (١٣١/١٠) -

٣ عمدة القاري (١٠٢/٥ وما بعدها) ، اللسان (١٢٦/٨) -

٤ اللسان (٥٩/٦) ، تاج العروس (٢٨٩/٣) ، شبر () ، وقد نعت بالويل

النافوس ، تاج العروس (٢٦٢/٤ وما بعدها) -

٥ حنت فلوصي بها والليل مطرق بعد الهدو وشافتها النواويس

ديوان المثلثس (١٧٨) ، (طبعة فولرس) ، (لايبزك ١٩٠٣) -

وفي شعر المرقش الأكبر^١ ، وللأعشى^٢ ، وللأسود بن يعفر^٣ . وقد أشير في هذه الأبيات إلى قرع التواقيس بعد الهدوء إيلاناً يذنو الصجر وحلول وقت الصلاة . وقد كانت هذه التواقيس في القرى وفي الأديرة ، يقرعها الرهبان والراهبات والقبسون^٤ . وقد أدخل بعض علماء اللغة هذه الكلمة في جملة الألفاظ المعربة التي دخلت العربية من أصول أعجمية^٥ . واللفظة من أصل (سرياني) هو (ناقوشا)^٦ .

أعياد النصراني :

وقد ذكر أهل الأخبار أسماء أعياد نصرانية ترجع أصول تسميتها في الأكثر إلى لغة بني إدم ، ويظهر أن أولئك الأخباريين تعرفوا عليها في الإسلام باعتلاطهم وباتصالهم بالنصارى ، إذ لم يشيروا إلى ورود أكثرها في الشعر الجاهلي ، ومن عادتهم أنهم إذا عرفوا شيئاً كان معروفاً عند الجاهليين جازوا بيت أو أبيات يستشهدون بها على ورودها عند الجاهليين .

ومن الأعياد التي ورد فيها شاهد في الشعر الجاهلي ، (الباب) ، وهو (يوم العائين) و (الشعانين) . وقد وردت كلمة الباب في بيت للتأنيب قاله في عيد الشعانين عند بني ضحان ، هو :

- ١ . وتسمع نزلاء من اليوم حولنا كما ضربت بعد الهدوء التواقيس
المفضليات (٢٦٥) . النصرانية (٢٠٧) .
- ٢ . وكأس كعين الديك باكرت حدها بعثيان صدق والتواقيس تضرب
تاج العروس (٣٣١/٢) . (حد) . ويروي لعننرة ، العقد النعسي في دواوين
الشعراء الجاهليين (١٧٩) . (طبعة الوردت) . (Ahlwardt) . (باريس ١٩١٣) .
النصرانية (٢٠٧) .
- ٣ . وقد سبأت لعثيان ذوي كسرم قبل الصباح ولما تفسرع النفس
اللسان (١٢٦/٨) . (نفس) . تاج العروس (٢٦٣/٤) .
- ٤ . النصرانية (٢٠٧) .
- ٥ . عمدة القاري (١٠٢/٥) . العرب (٣٢٩) .
- ٦ . Shorter Ency., p. 437.

رفاق النعال طيب حجراتهم يحبون بالربحان يوم السباسب^١

و (السعاني) و (الشعاني) من أصل عبراني (هوشعا) . وقد وردت هذه الكلمة في صحيفة صلح (عمر) مع نصارى الشام ، وردت معها لفظة أخرى من الألفاظ النصرانية كذلك هي (الباصوث)^٢ ، وهي رتبة تقام في اليوم الثاني من عيد الفصح^٣ ، وصلاة لثاني عيد الفصح في بعض الطوائف^٤ . وقد ذكرها علماء اللغة في جملة الألفاظ المعربة ، والإرمية الأصل ، وجعلها بعضهم (الباغوث) . وذكرها أنها (استسقاء النصارى) ، وإن (عمر) لما صالح نصارى الشام ، كتبوا له أن لا تحدث كنيسة ولا قلية ولا تخرج سعاني ولا باعوثا^٥ .

و (خليس الفصح) من أعياد النصارى كذلك . وهو بعد السعاني بثلاثة أيام ، وكانوا يتقربون فيه بالذهاب الى الكنائس والبيع^٦ .

وقد أشير الى عيد (الفصح) في بيت للأعشى يمدح فيه (هودة بن علي) لتوسطه لدى الفرس بالافراج عن مئة أسير من أسرى بني تميم هم الفرس بقتلهم ، وذلك لمناسبة يوم الفصح . وقد كان نصارى الجاهلية يحتفلون به ، فيوقدون المشاغل ، ويعمرون القناديل ، ويضيئون الكنائس بالمسارج ويقصدونها للاحتفال بها ، حتى قيل للقنديل الذي يعمر لهذا اليوم (قنديل الفصح)^٧ .

١ - والسباسب أيام السعاني . وفي الحديث ان الله تعالى ابدلكم بيوم السباسب يوم العيد . يوم السباسب عيد للنصارى ، ويسمونه يوم السعاني . تاج العروس (٢٩٣/١) ، النصرانية (٢١٥) ، غرائب اللغة (٢١٢) . عن « أحد الشعاني » راجع المشرق : السنة الثامنة ، الجزء ٨ . السنة ١٩٠٥ م . (ص ٣٣٧ وما بعدها)^{*}

٢ - أن لا يحدثوا كنيسة ولا قلية ، ولا يخرجوا سعاني ولا باعوثا . « ويوم السعاني عيد للنصارى » وفي حديث : شرط النصارى ولا يخرجوا سعاني . قال ابن الأثير : هو عيد لهم معروف . قيل عيدهم الكبير بأسيوط . وهو سرياني مغرب . وقيل : هو جمع واحد سمعون . اللسان (٧١/١٧) ، (سمعان) ، (٢٠٩/١٣) ، (صادر)^{*}

٣ - النصرانية (٢١٧) .

٤ - غرائب اللغة (١٧٣) .

٥ - اللسان (٢٠٩/١٣) ، تاج العروس (٩٠٣/١) . (بعث) . اللسان (١١٨/٢) . (بعث)^{*}

٦ - الألغاني (٣٢/٣) ، النصرانية (٢١٦) .

٧ - قال علي بن زيد العبادي :

بكرروا علي بسحرة قصبتهم بأناة ذي كرم كعقب الحالب
بزجاجة ملء السيدين كأنها قنديل فصح في كنيسة راهب

الألغاني (٥٣/٩) ، اللسان (٣٧٨/٣) ، النصرانية (٢١٦) . ورد في شعر لارس بن حجر :

عليه كمصباح العسرين ينسبه لفصح ويحتشوه السديال المفتلا
شعراء النصرانية (٤٩٤) ، النصرانية (٢١٦)^{*}

وقيل لاجتماع النصارى واحتفالهم (المترمن) ، وذكر أن هذه اللقطة من أصل فارسي هو (هتجمن) أو (أنجمن) ، ومنها دخلت الى السريانية فأطلقت على اجتماع النصارى واحتفالهم وتعييدهم^١ .

وقد أشار امرؤ القيس في بعض شعره الى عيد النصارى ، ولبس الرهبان فيه ملابس طويلة ذات أذيال^٢ .

وكانت الكنائس والأديرة والأضرحة والمقابر الأماكن التي يقصدها النصارى في أعيادهم . فتكون موضع تجمع ولقاء . كانوا يقصدونها للتقرب الى الرب وللصلوات له . وللتوسل اليه بأن يمن عليهم ويبارك فيهم . وكانوا يقصدون المقابر اظهاراً لشعورهم بأن موتاهم وإن فارقوهم وابتعدوا عنهم ، غير أنهم لا زالوا في قلوبهم . وأيام الأعياد من أعز الأيام على الانسان ، لذلك فهي أجدر الأيام بأن تخصص لزيارة بيوت الأرباب وبيوت الموتى : القبور .

١ قال الهمشي :

إذا كان هنترمن

ورعت مختصفا

اللسان (٣٢٩/١٧) ، تاج العروس (٣٦٨/٩) ، النصرية (٢١٧) .

فأنت سرياً من بعيد كأنه

رواهب بعيد في ملاء مهذب

النصرية (١٧٣) .

الفصل الثاني والثمانون

أثر النصرانية في الجاهليين

وإذا كنا قد حُرمتنا من الموارد الأصلية التي يجب أن نستعين بها في معرفة أثر النصرانية عند نصارى الجاهلية والجاهليين ، فإن في الشعر النسوب إلى بعض نصارى الجاهلية مثل عدي بن زيد العبادي وإلى بعض الشعراء ممن كان لهم اتصال بالنصارى مثل الأعشى ، فائدة في تكوين صورة يتوقف صفاؤها ووضوحها وقربها أو بعدها من الواقع والحق على مقدار قرب ذلك الشاعر من الصديق والصواب والواقع والافتعال .

وعدي بن زيد هو أشهر من وصل إلينا خبره من شعراء النصارى الجاهليين . هو من العباديين ، أي من نصارى الحيرة ، ولذلك عرف بالعبادي . كان من أسرة اكتسبت نفوذاً واسعاً وتالت حظاً كبيراً عند الفرس وعند ملوك الحيرة ، فكان لها أثر خطير في سياسة عرب العراق في ذلك الزمن . ولما كانت السياسة ارتفاعاً وهبوطاً ، سعادة وشقاء ، لاقى عدي منها الاثنين : ارتفع حتى بلغ أعلى المنازل ، ثم انخفض حتى تلفاه قابض الأرواح وهو في سجنه فقضى عليه بعد أن ترك أثراً خطيراً في سياسة الحيرة وفي تقرير مصير الملك فيها . وعدي ، على ما يذكر أهل الأخبار ، من أهل البهامة في الأصل : هاجر أحد أجداده من البهامة إلى الحيرة بسبب دم أهرقه هناك ، فحاف على نفسه من الثأر ، ولم يجد خلاصاً أصليح له وآمن مقاماً من الحيرة ، لوجود (أوس بن قلام) أحد رؤساء بني الحارث بن كعب فيها ، وهو من أصحاب الجاه والنفوذ ، وبينه وبين أوس

نسب من النساء ، وهو نسب يضمن له الحماية والعيش بسلام ، فجهاد الى الحيرة وأقام بها حيث أكرمته أموس وقربه الى آل لحم ، واكتسب منزلة عالية عند ملوك الحيرة ، انتقلت من بعده الى أبنائه الذين كوثوا لهم صلوات وثيقة مع آل لحم ومع ملوك الفرس ، بما كان لهم من علم وذكاء وحسن سياسة . ويذكر الأخياريون أن جدّ عدي قد تعلم الكتابة في الحيرة ، فصار من أكتب الناس فيها ، وأنه لذلك انتخب كاتباً لملك الحيرة ، واتصل بحكم وظيفته المهمة هذه بدعايقن الفرس ، وأنه لما توفي أوصى بابنه زيد والد عدي الى واحد منهم يعرف بـ (فروخ ماهان) فأخذ هذا الى بيته ، ورباه مع ولده . فتعلم عندهم الفارسية ، وحلقها وكتب بها ويرز ، وكان قد خلق الكتابة بالعربية كذلك ، فأوصله الدغقان الى كسرى ، لعلمه هذا اللغتين ولذكائه ، فعيّنه في وظيفة مهمة لم يكن الفرس يعينون لها أحداً من غيرهم هي وظيفة البريد . وقد مكث في هذه الوظيفة زمناً جعلته يكتسب منزلة محترمة عند عرب الحيرة والفرس .

وعني زيد بتربية ولده عدياً : أرسله الى الكتاب ليتعلم به العربية . فلما برع فيها ، أرسله الى كتاب الفارسية حيث تعلم مع أبناء المرازية فنون القول والكتابة ، ثم تعلم الرماية ولعب الفرس حتى صار من المبرزين فيها . وقد قرّبه علمه وعقله من آل لحم ومن الفرس حتى وصل الى مناصب عالية جعلت لقوله أهمية كبيرة حتى في تثبيت ملك ملوك الحيرة .

وقد أرسله (هرمز بن أنوشروان) في سفارة مهمة إلى القيصر (طياربوس) فأدّاها على خير وجه . وعاد فأقام أمداً بالشام ، ووقف على ما كان فيها من علم ومعالم . وقد زادت هذه الأسفار بالطبع في سعة أفقه وفي ثقافته . ثم عاد الى الحيرة ، فوجد والده قد توفي بعد أن صار المهيمن الحقيقي على البلاد . وزار كسرى ليقيم اليه هدايا قيصر . وارتفع نجمه في البلاطين . وتزوج هنداً بنت الملك النعمان . غير أن تقدمه هذا أوجد له خصومة شديدة من منافقيه (بني مرينا) وهم نصارى مثله ومن أهل الجاه والحسب ، فأغسرى خصمه ومنافيه العنيد (عدي بن مرينا) قلب النعمان عليه . وكان عدي بن زيد صاحب الفضل في حصول النعمان على تاج . وظل (ابن مرينا) يعمل في الخفاء للقضاء على عدي ،

حتى تمكن من ذلك ، إذ سجنه النعمان ، ثم أمر فاقتيل وهو في السجن^١ .
وذكر ابن (كسرى) جعله كاتباً على ما يجنبى من الغور ، وكان هو سب
ملك النعمان بن المنذر^٢ .

والذي يهنا في هذا الموضع من أمر عدي هو مدى وقوف عدي على النصرانية
ومبلغ تسربها في نفسه وفي نفوس أهل الخبرة . أما التواحي الأخرى من حياته ،
فليس لها محل في هذا المكان . وشعر عدي وأضرابه من العباديين هو مستند الوحيه
الذي نستخرج منه رأينا في النصرانية عند عدي وعند اخوانه العباديين .

والشعر المنسوب الى عدي أقرب إلى نفوسنا وأسهل علينا فهماً من الشعر المنسوب
إلى بقية الجاهليين ، معانيه وألفاظه حضرية متحررة من الأساليب البدوية التي تميل
إلى استعمال الجزل من الكلمات ، وهو يخالف مذاهب أولئك الشعراء في كثير من
الأمور . ولهذا كانت الرواة لا تروي شعراً أبى ذؤاد ولا عدي بن زيد
لمخالفتها مذاهب الشعراء^٣ ، و لأن ألفاظه ليست بنجدية^٤ . وقد ورد في
شعره بعض المعربات مما يدل على أثر الفارسية والإرمية فيه^٥ . وكثير من شعره
هو في الزهد ، وفي النلمر من هذه الدنيا التي لا تدوم حلماً على حال ، وفي
تذكير الأحياء بنهاية الأموات بالرغم مما أقاموه وشيدوه من أبنية ضخمة وقصور
شاهقة . وهذا الشعر يتناسب مع ما يذكره أهل الأخبار عن حياة هذا الشاعر .
ونألق نجمه وبلوغه أعلى المراتب ثم سقوطه فجأة ودخوله السجن واغتياله فيه .
وفي شعره قصائد في القيان وفي الخمر تتحدث عن الحياة التي قضاها قاتلها، وهي
حياة لليلة ولكنها لا تدوم بالطبع إلى الأبد ، ولا بد لها ان تزول ثم تنتهي بما

١ المشرق ، الجزء الاول ، كانون الاول ١٩٤٤ ، (ص ٢٩ وما بعدها) ، شعراء
النصرانية (٢٧٦ وما بعدها) ، تاريخ ديسو ، تاريخ الادب العربي في الجاهلية
حتى عصر بني أمية (ص ٧٧) ، (القامره ١٦٥٤) .
Ency., I, p. 137, Bröckelmann, I, S. 29, nothalein, S. 109, Noldeke, Geschichte
der Perser und Araber zur Zeit der Sasaniden, S. 512, Islamic Culture,
IV, p. 31, ff.

٢ نوادر المخطوطات ، أسماء المقتاتين (١٤٠) .
٣ الاغانى (٩٣ / ١٥) ، (مطبعة التقدم) ، (ذكر أخبار أبي ذؤاد الايادي ونسبه) .
٤ ناليو (٧٤) .
٥ ابن قتيبة ، الشعر (١١٥) .
٦ ناليو (٧٤) .

بوجب الأسف عليها والألم والتوجع من قتالها ومن ذهب تلك الأيام .
 أما صميم الديانة والآراء النصرانية الخاصة ، وهي ضاللتنا في هذا الفصل وهدفنا
 الذي نقصده ، فلا نجد منها في شعره الموثوق بصحته شيئاً كثيراً . ونحن لا نستطيع
 بالطبع أن نلوم عديداً على ذلك ، فعدي كما تعلم رجل شعر وسياسة ، وليس برجل
 دين ولا كهانة فيصمت في شعره بإيراد تواريخ الأتبياء والأوامر والنوامي الإلهية
 الواردة في التوراة والإنجيل . ولم يذكر أحد من الأخباريين عنه أنه كان كاهناً
 أو قسيساً فتأمل منه التطرق في شعره إلى موضوعات اللاهوت والكهنوت . فأنجده
 في شعره عن النصرانية هو من حاصل المتناسبات والظروف ، وليس من حاصل
 بحث متعمد قصد به البحث في الدين من أجل الدين .

ولو كان عدي قد تعرض للنصرانية عنده وبين قومه لأفادنا ولا شك كثيراً .
 وما زلنا في الواقع فقراء في ناحية علمنا ببلغ فهم أهل الخبرة وغير أهل الخبرة
 من نصارى العرب في الجاهلية لأحكام النصرانية وقواعدها ، ومقدار رسوخها في
 نفوس أولئك النصارى ولا سيما الأعراب منهم . ولكن علمه كما قلت بين واضح ،
 وليس لنا أن نلومه . وما جاء به عن النصرانية في شعره على كل حال مفيد ،
 أفادنا ولا شك . فلنكن قنوعين غير طامعين ، مكفين بما أورده عدي عنها في
 شعره ، ولننظر إلى المستقبل ، فهو أملنا الوحيد ، فلعله يكشف عن مصادر
 كتابية مطمورة ، يبعثها من قبورها المغمورة بالأتربة المراكمة ، وعندئذ تكون
 أمام المؤرخ ثروة ثغنية ، يستطيع أن يظهرها العشاق للمولعين بمعرفة أحوال الماضين .
 وقد ورد في قصيدة قبل أنه نظمها في معابة النعمان على حبه بيت فيه قسم
 برب مكة والصليب :

سعى الأعداء لا يألون شراً عليك ورب مكة والصليب^١

وهذا البيت يدعو إلى التأمل والتفكير ، فرجل نصراني يؤمن بعيسى وبالصليب ،
 لا يمكن أن يقسم برب مكة . فكيف كما تعلم جميع الأصنام والأوثان وكعبة الوثنية
 في الجاهلية ، فكيف يقسم برها رجل نصراني يرى الأوثان والوثنية رجساً من
 عمل الشيطان وكفراً . بل لو فرضنا أنه أقسم بمكة ورب مكة على سبيل مجازاة

١ شيعو ، شعراء النصرانية (٢٥١) .

العرب الوثنيين وتقريباً إلى الملك النعمان ، فليس لدينا دليل مقنع يفيد أن وثني الحيرة كانوا يؤمنون برب مكة . ولم يذكر أحد من أهل الأخبار أن أصنام أولئك الوثنيين كانت بمكة ، وأن أهل الحيرة كانوا يزورون مكة ويحججون إلى (رب البيت) في جملة من كان يحج إليه من العرب . ولم يرد في روايات أهل الأخبار أن الملك (النعمان) كان وثنيًا مؤمنًا بقدسية مكة وأنه حج إليها حتى نذهب إلى القرض بأن عبدًا ، وإنما أقسم بمكة ، مجازة لهذا الملك ، بل الوارد فيها أنه كان على دين النصرانية ، وأنه كان مؤمنًا بهذا الدين ، يزور الأديرة ويحضر الصلوات ورجل على هذا النحو من التدين لا يمكن بالطبع أن يحفل بقسم بيت من بيوت الأصنام . ثم إن مصطلح (رب مكة) ، هو مصطلح إسلامي ، أخذ من عقيدة التوحيد في الإسلام ، فقبل : (رب البيت) و (رب هذا البيت)^١ .

لقد اتخذ الأب (شيخو) هذا البيت دليلاً على انتشار النصرانية في مكة وعلى تنصر أحياء منها ، وعلى أن النصرانية قديمة فيها ، بل يكاد يفهم من قوله أن البيت هو في الأصل كنيسة بنيت بعد المسيح بعهود قليل : بناها النصارى الذين جاءوا إلى هذه المدينة وسكنوها ، وأن صور الأتياء وصورة عيسى وأمه مريم التي ذكر الأخباريون أنها كانت مرسومة على جدار الكعبة والتي أمر الرسول بطمسها وهو معالجها هي دليل على أثر النصرانية في مكة ، ولهذا كان النصارى الجاهليون يحججون إليها ويقدمونها ، ولهذا السبب أقسم^٢ عدي بها ، وأقسم الأعشى بها كذلك حيث قال :

حلفت بثوبي راحب المدير والتي بناها قصي^٣ والمضاض بن جرهم

وذكر أن من شعر (عدي) هذا البيت :

كلا يميناً بذات الودع لو حدثت فيكم وقابل قبر الماجد الزارا^٤

وقد اختلف العلماء في مراده بـ (ذات الودع) ، فذهب بعض منهم إلى

١ « فليعبدهوا رب هذا البيت » ، سورة قريش ، الآية ٣ .

٢ النصرانية (ص ١١٨) . وفي الديوان :

فأني وثوبي راحب النج والتي بناها قصي وحسنه وابن جرهم

ديوان الأعشى (ص ٩٥) .

٣ تاج العروس (٥ / ٥٣٤) ، (ودع) .

ان (ذات الودع) الأوثان ، أو وثن بعينه ، وقيل سفينة نوح ، وكان يحلف بها ، وكانت العرب تقسم بها ، ونقول : بلمات الودع . وقيل الكعبة ، لأنه كان يعلق الودع في ستورها^١ .

ولم يرد في شعر عدي شيء ما يتحدث عن عقيدة الثلاث ، أي الإيمان بالثالوث . وكل ما ورد فيه هو الإشارة إلى عقيدة بوجود رب واحد هو (الله) . وهو رب مستجيب مبتهج خلاق^٢ . وهذا الرأي إسلامي كما هو معلوم ، وقريب من عقيدة الحنفاء .

ووردت في بيت شعر وجهه إلى التعمان كلمة (أيل)^٣ ، وأيل اسم للمسيح ، وبطلان على جبر النصارى أيضاً ، ومعناها التناك والزاهد . وهي من أصل سرياني ، من فعل (ايل) بمعنى ناح وبكى على خطاياهم ، ولذلك قصد بها التناك والراهب^٤ . وقد دعا الأعشى ضارب ناقوس : الأيل^٥ .

وتب لعدي هذا البيت :

وأهبط الله إبلياً وأوعده ناراً تلهب بالأسعار والشرر^٦

-
- ١ المصدر نفسه .
٢ قاسي قد وكلت اليوم أمري ... إلى رب قريب مستجيب
- أجل أن الله قد قطعكم ... فوق من أحكما صلها يزار
- واللهي يا أميسم أن يشأ الله ... به بنفسي من أزم هذا الخلق
أو تكن وجهه فتلك سبيل الله ... ساس لا تمنع العتوف الرواني
- ليس شبي على المنون بباقي ... غير وجه المسيح الخلاق
شعراء النصرانية (٤٥٢ ، ٤٥٤) ، النصرانية (١٦٢) -
- ٣ النبي والله قافيل حلقي ... لأبيل كلما صلى جبار
وروي :
أني والله قافيل حلقتني ... بأبيل كلما صلى جبار
شعراء النصرانية (٤٥٣) ، النصرانية (١٩٤) -
- ٤ ناج العروس (١٩٩/٧) - (ايل) ، اللسان (٦/١٣) ، مرمزي ، معجيات عربية سامية (١٣١ وما بعدها) .
- ٥ قاسي ورب الساجدين عثية ... وما صك ناقوس الصلاة أبيلها
النصرانية (٢٠٨) .
النصرانية (١٦٨) .

ولم ترد كلمة (ابليس) في شعر منسوب لشاعر جاهلي آخر ، إنما وردت كلمة (شيطان) في شعر منسوب إلى أمية بن أبي الصلت .

ونسب إلى عدي هذا البيت :

ناشدتنا بكتاب الله حرمتنا ولم تكن بكتاب الله تفتتح^١

ويظهر من دراسة الشعر المنسوب لعدي أنه كان على ملعب القائلين بالقضاء والقدر . فكل كائن خاضع لحكم القدر ، يفعل به ما يشاء ، ليس في إمكانه رد شيء مقدر كائن عليه . وقد رسخت هذه العقيدة في نفس عدي ولا شك بعد أن زج به في السجن ، وأصبح وحيداً لا يدري ما الذي سيصنع به . وهي عقيدة يسلم بها أكثر من يقع في مثل هذه الظروف ، لأنها تفرج عن النفس ، وتخفف بعض التخفيف عما يتألم المرء وهو في هذه الحالة من هموم وأحزان . والإيمان بالقدر وبأن الإنسان مسير مجبر ، عقيدة لها صلة كبيرة بالظروف الاجتماعية وبالأحوال التي تحيط بالإنسان ، وهي ليست من الآراء الدينية الخالصة .

ونسب لعدي أبيات فيها حكايات من العهد العتيق ، مثل هذه الأبيات وهي في مبدأ الخلق :

سمع حديثاً لكي يوماً تجاوبه	عن ظهر غيب إذا ما سأل سأل
أن كيف أبدى إليه الخلق لعمته	فينا وعرفنا آياته الأول
كانت رياحاً وماءً ذا عرائة	وظلمة لم يدع فضاء ولا خلا
فأمر الظلمة السوداء فأنكشت	وعزل الماء عما كان قد شغلا
وبسط الأرض بسطاً ثم قدرها	تحت السماء سواء مثل ما فعلا
وجعل الشمس مصراً لا خفاء به	بين النهار وبين الليل قد فصلا
فضى ستة أيام خلقاته	وكان آخر شيء صور الرجال ^٢
دعاه آدم صوتاً فاستجاب له	بنفخة الروح في الجسم الذي جبلا ^٣

١ شعراء النصرانية (٤٧٢) .

٢ فضى ستة أيام خلقاته . وكان آخرها أن صور الرجال .

الحيوان (١٩٨/٤) ، (عبد السلام محمد هارون) .

٣ البدء والتاريخ (١٥٠/١ وما بعدها) ، النصرانية (٢٥٩) ، توجد في النص بعض الاختلاف عن النص الذي توجد في كتاب النصرانية ، وفي المراجع الأخرى .

وطابع هذا النظم وأسلوبه بفصحان انه نظم من النوع التعليمي الديني ،
لا أدري أكان شاعرنا يعترف به وينسب إلى نفسه؟ أما أنا ، فلا أرى انه لشاعر
عربي عاش قبل الاسلام .

ونجد في شعر (عتي) نزعة من نزعات التصوف والتأمل ، جاءت إليه من
الأوضاع التي أحاطت به ، من وشايات ، ومن غضب الملك عليه ومن سجن ،
بعد ان كان السيد المهيمن . حتى صار اللعنة عتده حالاً بعد حال . لا بدوم
صفائه لأحد ، فلا يركن أحد إليه ، ولا يغير إن وجد نفسه في أهل عليين ،
فقد يسقط غداً إلى أسفل سافلين^١ .

وهناك شاعر آخر اسمه (الملمس بن عبد المسيح) يدل اسم أبيه على أنه كان
نصرانياً ، غير أن هناك رواية أخرى تذكر ان اسم والده (عبد العزى)^٢ .
وعبد العزى من أسماء الوثنيين كما هو معروف . ثم اتنا لا نجد في شعره ما يشير
الى آراء وعقائد نصرانية يمكن أن يستبطن منها أنه كان نصرانياً . ورجل يحلف
في شعره باللات والأنصاب لا يفضل أن يكون نصرانياً^٣ .

أما الأعشى ، فهو شاعر عاش في الجاهلية ، وأدرك أيام الرسول . ومدحه
بقصيدة جميلة مشهورة ، جعلت أبا سفيان يحرض قومه على أرضائه خوفاً من ان
يسلم ومن أن ينظم شعراً آخر في مدح الرسول وفي ذم فريش ، فجعل له مائة
من الإبل جمعها من قومه على أن يرجع ويؤجل أمر إسلامه عاماً . فرجع الى
بلدته (منفوحة) بالهامة ، وكان قد ولد بها ، فأت بها بعد حين وعرف قبره
بعين الناس أمداً .

وكان الأعشى كما يروي أهل الأخبار جواباً في الآفاق ، عرف الحيرة وتادم
ملوكها ، وزار التجاني في أرضه ، وتجول في أرض النبط وأرض المعجم .
وتنقل في أرجاء اليمن وفي حضرموت وعمان وبلاد العراق وبلاد الشام ومنع نظره

١ العمدة (٢٢٣/١) .

٢ Vollers, Die Gedichte des Malalamms, Leipzig, 1903, S. 149.

٣ أطردني صدر الهجاء ولا واللات والأنصاب لا تسبل
ديوان الملمس (١٧١) ، (طبعة قولرس) - النصرانية (٤ : ٤) .

بالآثار القديمة واتخذها عبرة للمعتبرين^١ . وقد وسعت هذه الأسفار آفاق نظره وعرفته على شعوب متعددة وعن آراء ومعتقدات متنوعة . ومنها هذه النصرانية التي نبحث فيها .

وقد حله اختلاطه بالنصارى العرب على الإشارة الى بعض مطلقهم وأحوال عباداتهم في شعره . ولما ان يشير إلى قصص معروف بين أهل الكتاب ، وازد بينهم ، فذكره في شعره . فتراه يتحدث عن حامة نوح وعن أخبار سليمان وعن جن سليمان وعن الباني القديمة العادية المنسوبة إليه ، كما تراه يشير إلى عادة النصارى في الطواف حول الصليب أو تمثال المسيح^٢ . ثم تراه يشير إلى الصليب نفسه الراهب في الهيكل بعد ان زينه بالصور^٣ .

وفي الشعر المنسوب اليه لإقرار بإلته واحد كريم^٤ ، ونهي عن عبادة الأوثان ومن التفرغ منها^٥ ، وفيه ان الرب يكفي الانسان ويرعاه ويساعده في حله وفي ترحاله^٦ ،

١ وقد طفت للمال آفاده
أنيت النجاشي في أرضه
فجران فالسرو من حمير
ومن بعد ذلك إلى حضرموت
ألم ترى الحضير الأهل
أقام به ساكن الجنود
فما زاده ربه قوة
ديوان الأعشى : طبعة رودولف كابر ، (ص ٣٣ وما بعدها) .
وقال في العجم ترحالي وتسياري
قد طفت ما بين باتقيا إلى عدن
ديوان الأعشى (١٢٦) .

٢ قال في مدحه : قيس بن معد يكرب الكندي :
تطوف العفصة بأبوابه
ديوان الأعشى (١٩) . اللسان (١٧ / ٣٢٤) . (ونز) .

٣ وما أبلى على هيكل
ديوان الأعشى (٤٠) . النصرانية (٢٠٤) . بروكلمان ، تاريخ الأدب العربي (١٤٧ / ١) وما بعدها .

٤ ربي كريم لا يكدر نعمة
النصرانية (١٦٢) .

٥ وإذا النصب المنسوب لا تسكنه
النصرانية (١٥٩) .

٦ ولكن ربي كفني غربتي
ديوان الأعشى (١٧) .

وان الانسان عبده^١ . وان القناء واقع على كل امرئ ، وليس أحد في هذه الدنيا بخالد ، ولو كان الخلود لأحد لكان لبلان^٢ . وفيه حديث عن البعث والحساب يوم الدين .

ونجد في شعره معرقة بنوح وبسيفته ، أشار الى نوح في مدحه إياساً حيث مخاطبه بقوله :

جزى الإله إياساً خبير نعمته كما جزى المرء نوحاً بعدما شأيا
في فلكه إذ نبدأها ليصنعها وظل يجمع ألواحاً وأبواباً^٣

فهل أخذ الأعشى رأيه هذا عن نوح من أهل الخيرة ؟ وهل كان في ذلك قاصداً متحدثاً مخاطباً رجلاً نصرانياً يعرف الحكاية والموضوع ؟ أو كان متحدثاً عن نوح حديث من يسيدين به ويعتقد ، فهو رأيه ودينه . الواقع أن البت في ذلك أمر لا أراه ممكناً ما لم تتجمع لنا موارد تلميحية كثيرة ، ليتمكن المرء من استنتاج رأي واضح في أمثال هذه الموضوعات المعقدة ، التي لم تدرس مقامها المذمومة ، ولم تستقد حتى الآن .

وقد ذهب (كاسكل) Caskel ، إلى أن (الأعشى) كان نصرانياً . وذهب الأب (شبحو) هذا المذهب أيضاً ، وجوز (بروكلمن) تنصره ، لكنه ذهب إلى أنه لم يكن متعمقاً في النصرانية^٤ . وقد استدل (كاسكل) على نصرانيته من بيتين في ديوانه ، ومن بيت آخر ورد في قصيدة أخرى ، لا يمكن في الواقع أن يكون دليلاً على نصرانية قائله^٥ .

وذكر أنه كان قنبرياً ، روى روايته (يحيى بن متى) وهو من عباء الخيرة ،

- | | | |
|---|--|--|
| ١ | فأقسم بالذي أنا عبده | لتصطفقن يوماً عليك الماتم |
| ٢ | ديوان الأعشى (٥٨) -
ولو كان شيء خالداً ومعمراً
رأه الهسي فاصطفاه عبادة
ومسخر من جنس الملائكة تسعة | لكان سليمان البريء من الدهر
وملكه ما بين سوريا إلى مصر
قياما لديه يعملون بلا أجر |
| ٣ | ديوان الأعشى (٢٤٣) -
شعراء النصرانية (٢٨٩) ، النصرانية (٢٦١) - | |
| ٤ | تاريخ الأدب العربي لبروكلمن (١٤٧/١) وما بعدها . | |
| ٥ | النظر البيتين ١٢ - ١٣ من القصيدة رقم ٣٤ بديوانه ، والبيت ٩ من القصيدة ١٣ بالديوان ، بروكلمن ، تاريخ الأدب العربي (١٤٧/١) ، الترجمة العربية . | |

انه أخذ مذهبه هذا في القدر من العباديين نصارى الحيرة ، كان يأنبهم يشترى منهم الخمر ، فلقضوه ذلك . وقد استشهدوا على قوله هذا في القدر بهذا البيت :
استأثر الله بالوفاء وبالعدل ل ولى الملامة للرجلا^١

وقد راجعت شعر (الأعتى) ، فلم أتمكن من استنباط شيء منه يدلني على مقدار علمه بالنصرانية وعلى مدى تعمقه أو تعمق غيره من النصارى بينهم . فما ذكره مما له علاقة بالنصرانية ، هو شيء عام ، بأنني يحاطر كل شاعر ذكي جواب في الآفاق ، له احتكاك واتصال بالنصارى أو بغيرهم ، وهو لا يصلح ان يكون دليلاً على حقيقة ودين وفهم لذلك الدين .

وفي شعر (الجملي) كلام عن سفينة نوح ، ذكر أنه قال :
يرتفع ، بالقار والحديد من الـ جوز ، طوالاً جذوعها ، عمماً^٢

والنايفة الجملي ، مخضرم ، يقال إنه كان مثل الخفاء ، أنكر الخمر والميسر ، وهجر الأزلام والأوثان . وكان ممن فكر في الجاهلية ، وأنكر الخمر والسكر ، وهجر الأزلام واجتنب الأوثان ، وذكر دين ابراهيم . وقد لقي الرسول ، وأسلم وأنشده من شعره . وذكر أنه هو القاتل القصيدة التي فيها :

الحمد لله ربي لا شريك له من لم يقلها ففسده ظلمها

على نحو شعر أمية بن أبي الصلت ، وقد قبل إنها لأمية ، لكن صححها حماد الراوية^٣ .

ونجد في شعر آخرين من غير من ذكرت ألقاظاً وكلمات كانت معروفة عند النصارى وإشارات إلى عباداتهم وعاداتهم ، وردت في شعر (النايفة الليثاني) وليبد ، وامرئ القيس ، وأوس بن حجر وآخرين غيرهم ممن طافوا في الأرضين وارتحلوا فوقفوا على بعض أحوال النصارى فلأشاروا إليها في شعرهم .

١ الأعتى (٧٩/٨) ، مالىو (١٧) .

٢ القسائل (٤٢٥/١٢) ، (عمم) .

٣ الاصابة ٥٠٨/٣ . (رقم ٨٦٤١) ، أمالي المرتضى (١/٢٦٣ وما بعدها) ، الرزياني (٣٢١) .

ونجد في شعر (الأقنوه الأودي) ، وهو صلامة بن عمرو ، تسجيلاً لأبناء نوح . سجلهم مع من سجل أسماءهم من ملوك النجاشة ممن دانت لهم الأنعام ، فنجدته يقول :

ولا يعصها سام وحام وبافث حبثاً حلت ولام^١

ولا أدري إذا كان هذا البيت من نظم شاعر جاهلي ، هو الأودي ، أو من نظم شخص آخر نظمته على لسانه في الاسلام . ولكنني لا أستبعد بالطبع أن يكون خير أولاد نوح الثلاثة . وهم : سام وبافث وحام . قد عرف عند العرب النصارى وعند من كان على احتكاك واتصال بهم .

ونجد في بيت شعر ينسب لأقنوه التغلبي ذكرساً لولد آدم^٢ . وورود آدم في هذا البيت ، إن صح أنه من شعر ذلك الشاعر الجاهلي ، دليل على وقوف هذا الشاعر على قصة آدم والتخادر البشر من نسله . ولا يستبعد أن يكون اذن قد وقف عليها بالتخاطبة بين قومه تغلب ، وقد كان قسم كبير منهم قد دخلوا في النصرانية . ولا يستبعد أيضاً أن يكون بعض الوثنيين قد وقفوا أيضاً على قصة الخلق كما وردت في الديانتين من اختلافهم بأهل الكتاب واتصال بهم .

وقد وردت ، في بيت آخر من قصيدة يقال أنه قالها في رثاء نفسه ، لفظة (الله) في شكل يفهم منه أنه كان يدين بالتوحيد ، وأن الآجال كلها بيد الله^٣ ، وأشار في بيت آخر إلى عاد ولذم ولقمان وجدن^٤ .

وأشير في أشعار بعض الجاهليين إلى تعبد النصارى وصلواتهم سجداً وقياماً ، وهؤلاء الذين أشير إليهم من الرهبان والناسكين الذين كانوا قد اعتكفوا في الصوامع وفي

١ النصرانية (٢٦٦) ، عن الأقنوه الأودي راجع الأغاني (٤١/١١ وما بعدها) . ابن قتيبة ، الشعر (١١٠) ، ديوان الأقنوه ، (القاهرة ١٩٣٧) ، (تحقيق عبد العزيز الميعني) .

٢ قد كنت أسبق من جاروا على مهل من ولد آدم ما لم يخلصوا رسي
الفضليات (٥٢٤) ، النصرانية (٢٦١) ، شعراء النصرانية (١٩٣) .

٣ لعمر ك ما يدري تعرف كيف ينقي إذا هو لم يجعل له الله وائيا
شعراء النصرانية (١٩٣) .

٤ لو أنني كنت من عساد ومن ارم ربيت فيهم ومن لقمان أو جدن
شعراء النصرانية (١٩٣) .

البيع والأدبرة التالية يعبدون الله ، ويدعون إلى الرب تقرباً وخشية^١ ، ومنهم من ترك السجود أثراً في جباههم . وقد أطلقوا على صلواتهم هذه اسم (الصلاة). وهي من الألفاظ التي أخذها أولئك النصارى من (بني إرم) ، وعرفت المواضع التي كانوا يسجدون فيها بالمساجد ، والمسجد هو الموضع الذي يتعبد فيه^٢ . وقد كان الركوع من العادات المعروفة عند الأحناف والنصارى^٣ ، وكانت العرب في الجاهلية تسمى الخفيف راكعاً إذا لم بعيد الأوتان ، ويقولون : ركع إلى الله^٤ . وأما إحناء الرؤوس ، فكان للتعظيم ، ولذلك حنوا رؤوسهم في الكنائس ولرؤوساتهم على سبيل الاحترام والتعظيم^٥ . وقد كانوا يحنون رؤوسهم وسادتهم كثيراً ، ولذلك نزل الوحي بتأنيبهم وتقريعهم ، إذ جعلهم هذا الاحترام في مصاف الآلهة والأرباب . وتلحق بالصلاة التسابيح ، أي ذكر الله وتقديس اسمه ، وقد كان من عادة الرهبان التسبيح بعد الصلاة ، ولا سيما في الضحى والعشي^٦ .

١ قال منظور الأسدي :

كان مهوواً على الكلكل موقع كمي راحب يصلي
في غيظ الصبح أو الليل
الالفاظ ، لابن السكيت (٤١٢) ، النصرانية (١٧٧) .

وقال البعيت :

على ظهر عادي كان أرومة رجال يملون الصلاة قيام
ناج العروس (٥٣/١٠) ، اللسان (١١١/١٨) ، وقال الأعشى :
لها حارس لا يبرج الدهر بينها وإن ذبحت صل عليها وزمما
ببابل لم تعصر فبالت صلاة تخالط قنديداً ومسكاً مختما
وقال المظفر الأسدي :
وسخال ساجية العيون خواذل يجعدا لبنة كالنصارى السجد
النصرانية (١٧٧) .

٢ اللسان (١٨٧/٥) ، (سجد) .

٣ النصرانية (١٧٨) .

٤ ناج العروس (٣٦٣/٥) .

٥ قال النابغة الذبياني :

سبيل عذرا أو نجاة من امرئ أت دبره رب البرية راكع
النصرانية (١٧٨) .

٦ قال أمية بن أبي الصلت :

سبحانه ثم سبحانا بعسود له وعبثنا سبح الجودي والجند
وقال الأعشى :

وسبح على حين العشيات والضحى ولا تعبد الشيطان والله فاعبده
ناج العروس (١٥٧/٢) ، (سبح) ، اللسان (٢١٠/٣) ، النصرانية (١٧٨) .

وقد كان رجال الدين ، ولا سيما الرهبان منهم ، يقومون بالفروض الدينية فرادى وجماعة ، فيرتلون الترانيم والأدعية بنغمات وألحان شجية . وقد عرف ترتيل النيسيين (الهيم) ، وذلك في حالة النغم بحقوق الصوت^١ . وإذا طرب القس في صوته خطياً قيل لذلك (الرزمة)^٢ . أما إذا تغنى ، فيقال لذلك الشمعة . وقد قيل للمتغنين في تسليدة الزبور (المشمل) . وورد : « شمعة اليهود : قرائتهم ، إذا اجتمعوا في قهرهم »^٣ . وأما إذا أطلق صوته بالدعاء فيقال لذلك الجار^٤ . والمحمون من الكلمات التي أطلقت على ترتيل أهل الكتاب لكنهم المقدسة ، فقد كانوا يقرؤون التوراة والإنجيل في المحافل بالحن . وقد أشير إلى ذلك في بعض الأحاديث^٥ . أما إذا ردد الشخص نغمت الإنجيل في حلقه ، فكانوا يقولون له الرجيع ، ومنه قولهم : رجع الإنجيل^٦ .

و (التصيغ) من الألفاظ التي كانت تدل على معنى خاص عند النصارى ، هو التعميد . وقد عرفه الجاهليون . وذكر علماء اللغة أن الصيغة الدين والمثلة والشريعة والقطرة والحانة . « اختن إبراهيم ، صلوات الله عليه ، فهي الصيغة .

- ١ « الهيمنة : الصوت . وهو شبه قراءة غير بيّنة » . وأنشد لرؤية :
لم يسمع الركب بها رجع الكلم - إلا وسأويس هيانيسم الهيم
وفي حديث اسلام عمر ، رضي الله عنه - قال : ما هذه الهيمنة ؟ قال أبو عبيدة :
الهيمنة : الكلام الخفي لا يفهم ... وفي حديث الطقييل بن عمرو : هيم في المقام -
أي قرأ فيه قراءة خفية - وقال الليث :
إلا يا قبيل ويحك فم فهيم
أي فادع الله . « اللسان (١٠٨/١٦) ، تاج العروس (١١١/٩) » .
- ٢ « قال الجوهري : الرزمة كلام المجوس عند أكلهم » . وفي حديث عمر ، رضي الله عنه ، كتب إلى أحد عباده في أمر المجوس : واللهم عن الرزمة - قال : هو كلام يقولونه عند أكلهم بصوت خفي . وفي حديث قبات بن أشيم : والذي بعثك بالحق ما تحرك به لساني ولا ترمزمت به شفتاي . الرزمة : صوت خفي لا يكاد يفهم . « اللسان (١٦٥/١٥) » .
- ٣ تاج العروس (٣٩٩/٧) ، (اشمل) .
- ٤ « جار يجار جاراً وجواراً : رفع صوته مع تصرع واستغاثة ... وقال يعقوب : هو رفع الصوت إليه بالدعاء . وجار الرجل إلى الله عز وجل إذا تصرع بالدعاء » . وفي الحديث : كآني أنظر إلى موسى له جوار إلى ربه بالنسبية . ومنه الحديث الآخر : لخرجتم إلى الصعدات تجارون إلى الله . « اللسان (١٨١/٥) » .
- ٥ النهاية في غريب الحديث (٥٧/٤) ، معجمات (٤٢ وما بعدها) ، تاج العروس (٢٣٠/٩) ، اللسان (٢٦٣/١٧) .
- ٦ اللسان (١٧٢/٩) ، النصرانية (٣٥٦) .

فجرت الصبغة على الخنانة . وصيغ اللمي ولده في اليهودية أو النصرانية صبغة قبيحة ، أدخله فيها ^١ . و كانت النصارى تغمس أبناءها في ماء المعمودية ينصرونهم ^٢ . وقد صالح عمرُ بني تغلبَ بعدما قطعوا القراة قاصدين المحاق بأرض الروم ، على ألا يصبغوا صبياً ولا يكرهوه على دينهم ، وعلى أن عليهم الصدقة مضعة ^٣ . وعرفوا (المعمودية) بقوطم : « لفظ معمودية معرب معوزة بالدال المعجمة ، ومعناها الطهارة . وهو ماء أصفر للنصارى يقدس بما يتل عليه من الإنجيل ، يغمسون فيه ولدعم معتقدين أنه تطهير له كالختان لغيرهم ^٤ . »

وقد كان نصارى الجاهلية يعمدون أولادهم ، يأخذونهم أطفالاً إلى الكنائس لتعميدهم على نحو ما يفعل سائر النصارى . وقد قيل له : « الغيبس والتصبغ ^٥ . »

والصوم من الأحكام الدينية المعروفة عند اليهود والنصارى ، وقد أشير إليه في شعر لامية بن أبي الصلت وفي بيت ينسب إلى التمر بن توبل ^٦ . وقد عرف أهل الجاهلية أن اليهود كانوا يصومون . وقد أشير إلى صومهم في عاشوراء في انباء الكلام على فرض الصوم على المسلمين بهيامهم شهر رمضان . ولا بد أن يكون للجاهليين علم بصوم النصارى كذلك ، وذلك نتيجة لاتصالهم بهم واختلاطهم معهم .

ومن المصطلحات النصرانية (الحواريون) ، وقصد بها رسل المسيح . وقد وردت اللفظة في مواضع من القرآن الكريم ^٧ . ووردت لفظة (الحواري) في بيت ينسب إلى (ضابيه بن الحارث بن أوطاة البرجمي) ^٨ . وقد رجعت بعض الباحثين

- ١ تاج العروس (١٩/٦) ، (صبيغ) .
- ٢ المصدر المذكور .
- ٣ قال الأزهري : وسمعت النصارى عيسهم أولادهم في الماء صبغاً ، لعيسهم أيهم فيه ، ، اللسان (٣١٩/١٠) . فتوح البلدان (١٩٠) .
- ٤ تاج العروس (٤٣٢/٣) ، (عمد) .
- ٥ التسنن الكبير (٢١٦/٩) ، « ومنه صيغ النصارى أولادهم في ماء لهم . قال الغراء : إنما قيل صبغة لأن بعض النصارى كانوا إذا ولد المولود جعلوه في ماء لهم كالنظير ^٦ فيقولون هذا تطهير له كالختانة ، ، اللسان (٣٢٠/١٠) . »
- ٦ صندت كما صد عما لا يحل له . ساهي نصاري قبيل الصبيغ صوام النصرانية (١٧٩) .
- ٧ آل عمران ، الآية ٥٢ . المائدة الآية ١١٤ وما بعدها ، الصف ، الآية ١٤ .
- ٨ وكرر كما ذكر الحواري يبتغى . آل الله زلفى أن يسكر فيقتل . المسرق ، المجلد ١٩٢٩ (ص ٥٧٥ وما بعدها) ، النصرانية (١٨٩) .

أصل هذه اللفظة الى لغة بني إدم ورجعها القنويون الى أصل عربي هو (حور) ،
 وذهب آخرون الى أنها من أصل حبشي^١ .

والصليب ، من أهم المصطلحات المعروفة عند النصارى ، لاعتقادهم بصليب
 المسيح عليه ، حتى صار رمزاً للنصرانية . وصاروا يعلقونه على أعناقهم تبركاً
 وتيمناً به ، وينصبونه فوق منائر كنائسهم وقبابها ، ليكون علامة على متعبد
 النصارى . وقد أقسموا به . وقد عرف المسلمون تحك النصارى به ، وانفاذهم
 له شعاراً ، حتى كان بعضهم يرسمه على جبهته ، وكانوا يثمنونه ويتسحرون به
 تبركاً ، ويزينون صدورهم به^٢ .

وذكر علماء اللغة (الشبر) على أنه من المصطلحات الشائعة بين النصارى . وهو
 على حدّ تعريفهم له : « شيء يعامله النصارى بعضهم لبعض كالقربان ، يتقربون
 به ، أو القربان بعينه » . وذكروا أيضاً أن (الشبر) الانجيل والعطية والحجر .
 ومن ذلك قول عليّ :

لم أخته والذي أعطى الشبر^٣

ويظهر من كتب الحديث أن أهل الكتاب كانوا يخالفون المشركين في بعض
 عاداتهم ، كالذي ورد عن عبد الله بن عباس من « أن النبي صلى الله عليه وسلم
 كان يبدل شعره ، وكان المشركون يفرقون رؤوسهم ، وكان أهل الكتاب
 يبدلون رؤوسهم . وكان النبي ، صلى الله عليه وسلم ، يحب موافقة أهل الكتاب

١ المشرق ، السنة السابعة ١٩٠٤ (١٢٠) ، النصرانية (١٨٩) ، معجمات (١٣٩) .
 ٢ قال الأختل :

لما رأونا والصليب طالعا
 دبروا الأختل (٣٠٩) . وقال حجار بن أبجر :

هددني عجل وما خلت النسي
 الألفاني (٤٧/١٣) . وقال الأقيشر :
 في فتية جعلوا الصليب الهيم
 النصرانية (٢٠٤) .

ونسب الى عبد الملك بن هشام قوله :
 لا يقاتلن صليبههم

اللسان (٦١٩/١١) . (محل) .

٣ تاج العروس (٢٨٩/٣) . (شبر) .

فما لم يؤمر فيه بشيء . ثم فرق النبي صلى الله عليه وسلم رأسه ^١ . وكالذي ورد من أن أهل الكتاب كانوا يخالفون الجاهليين في كيفية التحية عند ملاقاتهم الآخر ، وإن الرسول أقر المصافحة .

وقد أطلقت لفظة (المصاحف) في شعر ينسب إلى امرئ القيس على أسفار النصارى ، وهو قوله : « كخط زبور في مصاحف رهبان » ^٢ . والكلمة على رأي بعض علماء الساميات والنصرانيات من أصل حبشي ، ومفردتها (مصحف) ^٣ . وصحف بمعنى كتب . وقد وردت لفظة (صحيفة) في بيت ينسب إلى (لقيط الإيادي) ^٤ .

والمجلة من الألفاظ المعروفة بين الجاهليين . وقد اشتهرت في العربية باقترانها باسم (لقمان) ، فقول : « مجلة لقمان » ^٥ . وأطلقت عند العبرانيين على أسفار الكتاب المقدس على سبيل التخصيص أحياناً وعلى باب التعميم في بعض الأحيان ^٦ . وقد وردت في شعر النابغة ، هو :

مجلتهم ذات الإله ودينهم قويم فما يرجون غير العواقب ^٧

وقصد بها كتاب النصارى ، فقد مدح به الغاسنة . وهم على دين المسيح . وقصد بالسفر وبالأسفار الكتاب والكتب من التوراة والإنجيل ، وكلمة (سفر) بمعنى كتاب ^٨ . وكانت النصارى تقرأ كتبها من الصحف ^٩ ، وتفسر للمستمعين ما جاء فيها من مشكل .

ولفظ (جهنم) من الألفاظ المعروفة عند اليهود والنصارى . وهي تعني

-
- | | |
|---|---|
| ١ | عبدة القاري (٧١ / ١٧) . |
| ٢ | أنت حجج بعدى عليه فأصبحت العقد النسي (١٦١) . |
| ٣ | النصرانية (١٨١) . |
| ٤ | كتاب في الصحيفة من لقيط إلى من بالجزيرة من إياد |
| ٥ | الألفاني (٣٤ / ٢٠) ، النصرانية (١٨١) . |
| ٦ | النصرانية (١٨١) . |
| ٧ | معجميات ١٦٧ وما بعدها . |
| ٨ | و مجلتهم ، في بعض الروايات . ديوان النابغة (٨) . |
| ٩ | اللسان (٣٥ / ٦) ، الاشتقاق (١٠٣) ، النصرانية (١٨) . |
| ٩ | النهاية (١٣٦ / ٤) . |

الموضع الذي يكون فيه العذاب بعد الحشر ، فيظن فيه أصحاب الآثام والمعصية. واللفظة من أصل عبراني على رأي المستشرقين وعلماء الساميات هو (جحينوم) (Gehinnom) ، أي (وادي حبنوم) « Hinnom »^١ . وهو وادي يدور حول القدس نحو أربعة كيلومترات، ويعرف اليوم باسم (وادي الرباضي)، وقد كان اليهود الوثنيون يقربون في موضع منه يسمى (توفث) « Topheth »، العبيان قرابين للآله (ملوخ) « Molech » = « Moloch »، يقدمونها ذبائح محروقة لإكراماً له ، ثم صار هذا الموضع محلاً ترمى فيه أقدار المدينة وجثث الحيوانات ، وتحرق هناك لئلا تنتشر منها الأوبئة ، وصار الموضع رمزاً للعجيم ، ومنه أعطت لفظة (جهنم) « Gehenna » التي هي جهنم^٢ ، الموضع الذي يعذب فيه المجرمون بعد الموت . وهو موضع يقع تحت الأرض ، واسع جداً ، وأكبر حجماً من الأرض . يلقى فيه الآثمون جزاء لأنهم في الدنيا ومخالفتهم شريعة الرب. فيقون فيه يعذبون . وقد اختلف في موضوع أبدية التعذيب وبقاء جهنم ، فمنهم من رأى أن جهنم خالدة ، وأن العذاب أبدي ، ومنهم من ذهب إلى أنها ترفع بعد انتهاء التعذيب^٣ .

وقد وردت لفظة جهنم في مواضع متعددة من شعر أمية بن أبي الصلت ، كما ورد فيه وصفها وكيفية التعذيب فيها^٤ . ولمعرفة أصل هذا الشعر : هل هو

Ency., II, p. 996, Shorter Ency., p. 81.

Hastings, p. 285.

متى ، الاسحاح الخامس ، الآية ٢٩ ، الاسحاح العاشر ، الآية ٢٨ ،

Hastings, p. 285.

١ « ورد في تاريخ دمشق لابن عساكر (١٢٤/٣) : قال عبدالله بن مسلم الدينوري : سمعت هل وجدتم لجهنم ذكراً في الشعر القديم ، فقلت : هذا يحتاج إلى تنسيق وطلب . وقد أتذكر فلم أذكر إلا شيئاً وجدته في شعر أمية بن أبي الصلت ، فإنه قال :

ولا عسدن يطالعها أليم	فلا تدنو جهنم من بسري
وأعرض عن فوانسها الجحيم	إذا شبت جهنم ثم وارت
	وروي البيت في المخصص (٦/٦) :
وعسدن لا يطالعها رجيم	جهنم لا تيقس يقيما
وقوله في تاريخ جهنم وجنة الخلد :	وذكر للعديل بن الفرخ (بالقوت ١١٧/٤) :
ولا ترجوان الله في جنة الخلد	أما ترهبان الدار في ابني أبيكنا
قال (الناج ٣٧٢/٧) :	ورد اسم جهنم في شعر الأعشى :
جهنم جدعا للجهنم التسم	دعوت خليلي مسلحاً ودعوا له
	النصرانية (٤٦٢ وما بعدها) .

من شعر أمية حقاً ، أو من شعر آخرين وضعوه على لسانه ، لا بد من دراسته ومقارنته بما جاء في الاسلام عن وصف جهنم وكيفية التعذيب فيها . وهناك رواية نفى ورود لفظة جهنم في أي شعر جاهلي خلا هذا الشعر المنسوب الى أمية بن أبي الصلت ، ويلاحظ انه ذكر (عدن) مع جهنم .

ولم أجد في أشعار الجاهليين ذكراً للإنجيل ، إلا في الشعر المنسوب الى (عدي بن زيد العبادي)^١ . وربما في شعر عدد قليل آخر من الجاهليين ، لم أفت عليه . غير ان عدم ورود لفظة كثيراً في هذا الشعر ، لا يدل على عدم معرفة الجاهليين لها ، ودليلنا على ذلك ورودها في مواضع من القرآن الكريم ، وورودها فيه دليل على وقوف الجاهليين عليها واستعمالهم إياها ، وأصلها من اليونانية ، وقد وقف العرب عليها من السريانية أو من الحبشة^٢ . وقد ذكرت فيها سبق ان نقرأ من أهل الكتاب كانوا قد أقاموا بمكة وكانوا يقرأون التوراة والإنجيل بالسهم ، فلا يستبعد اذن وقوف بعض الجاهليين ، ولا سيما المتفقيين منهم وأصحاب التجارات الذين كانوا يقصدون الحيرة وبلاد الشام ونجران للتجارة وكان لهم اتصال وثيق بنصارى هذه الأرضين على الإنجيل وعلى الكتب الأخرى التي كان يستعملها رجال الكنيسة لفهام الناس أمور الدين .

ويظهر من بعض روايات الأخباريين أن بعض أهل الجاهلية كانوا قد اطلعوا على التوراة والإنجيل ، وأنهم وقفوا على ترجمات عربية للكتابين . أو أن هذا الفريق كان قد عرب بنفسه الكتابين كلياً أو بعضاً ، ووقف على ما كان عند أهل الكتاب من كتب في الدين . فذكروا مثلاً أن (ورقة بن نوفل) « كان يكتب الكتاب العبراني ، ويكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب »^٣ وقالوا : « وكان امرؤ تنصر في الجاهلية ، وكان يكتب الكتاب العربي ، ويكتب من الإنجيل بالعربية ما شاء الله أن يكتب »^٤ . وذكروا مثل ذلك عن (أمية بن أبي الصلت) ، فقالوا إنه كان قد قرأ الكتب المقدسة^٥ ، وقالوا مثل ذلك عن عدد من الأحناف .

- ١ أولئنا الملك والإنجيل نقرؤه
شعبي بحكمته أحلامنا عللا
الحيوان (٦٤/٤) ، النصرانية (١٨٥) .
- ٢ النسان (١٧١/١٣) ، النصرانية (١٨٥) .
- ٣ راجع ما كتبه عنه في فصل الأحناف .
- ٤ ابن قتيبة ، الشعر والسمر (١٧٦) .

Shoeter Ency., p. 168.
Springer, Leben, I, S. 128.

وإذا كانت هذه الروايات صحيحة ، فلأنها تدل على أن الجاهليين كانوا قد وقفوا على ترجمة العهدين . ويرى بعض المشرقين احتمال ترجمة العرب للكتاب المقدس قبل الاسلام وعند ظهوره ، ترجمة من اليونانية على الأرجح . وقد استدلوا في ذلك الى خسر ذكره (ابن العربي) « Barkebraens » يفيد أن الطريق (المونوفيزيتي) المدعو (يوحنا) « Monophysite Patriarch Johannes » كان قد ترجم الكتاب المقدس الى أمير عربي اسمه (عمرو بن سعد) ، وذلك بين سنتي (٦٣١) و (٦٤٠) للميلاد ، وإلى أخبار أخرى تفيد أن بعض رجال الدين في العراق كانوا قد ترجموه الى العربية وذلك قبيل الاسلام وعند ظهوره .

ولا يستبعد وجود ترجمات للكتاب المقدس في الحيرة ، لما عرف عنها من تقدم في الثقافة وفي التعليم ، ولوجود النصارى المتعلمين فيها بكثرة . وقد وجد المسلمون فيها حيناً دخلوها عدداً من الأطفال يتعلمون القراءة والكتابة وتدوين الأناجيل ، وقد برز نفر منهم ، وظهروا في علوم اللاهوت ، وتولوا مناصب عالية في سلك الكهنوت في مواضع أخرى من العراق ، فلا غرابة إذا ما قام هؤلاء بتفسير الأناجيل وشرحها للناس للوقوف عليها . وقد لا يستبعد تدوينهم لتفسيرها أو لترجمتها ، لتكون في متناول الأيدي ، ولا سيما بالنسبة الى طلاب العلم المبتدئين . وقد لا يستبعد أيضاً توزيع بعض هذه الترجمات والتفسير الى مواضع أخرى لقراءتها على الوثنيين وعلى النصارى للتبشير .

ونجد في كتب الأخباريين وفي كتب قصص الأنبياء وفي القصول المدونة عن الماضين قصصاً وأمثلة وكلاماً يرجع أصله الى بعض أسفار التوراة او الى الأناجيل ، غير أننا لا نستطيع ان نؤكد ان هذا المدون قد نقل عن الجاهليين ، وان أهل الجاهلية كانوا يعرفونه ، وأنه ليس مما قصه أهل الكتاب أو مسلمة أهل الكتاب مثل كتب الأخبار وذهب بن منبه على المسلمين ، فدخل بينهم . ثم إن القصص أكثره من (التلمود) و (المشنا) والكتب غير القانونية ، روي بشكل فيه يُعَدُّ في بعض الأحيان عن هذا المدون المعروف ، وهو يفيدنا من هذه الناحية كثيراً في الحكم على مدى معرفة العرب بعلم أهل الكتاب .

والأسماء أهمية كبيرة في تعيين مبلغ أثر اليهودية والنصرانية في الجاهليين . وإذا كانت أسماء الوثنيين قد ساعدت (ولوزن) في الكشف عن أسماء أصنام وأوثان لم ترد في كتاب الأصنام لابن الكلبي ولا في كتب الأخباريين الأخرى ، وساعدت في الكشف عن مدى تغلغل الوثنية في نفوس أهل الجاهلية ، فإن للأسماء اليهودية أو الأسماء النصرانية التي تسمى بها أهل الجاهلية والتي وصل غيرها إلينا أهمية كبيرة في الإفصاح عن مدى تأثير الجاهليين بالديانتين . وليس من اللازم أن تكون هذه الأسماء أسماء أناس كانوا على دين يهود ، أو على دين النصرانية ، فالأسماء وإن كان لها ارتباط في الغالب بأديان حاملها غير أنها لا تكون دائماً دليلاً على دين أصحابها ، فليست وللبعض العادات والاعتقادات دخل في اختيار الأسماء . وعلى ذلك فإن ما سنذكره من أسماء لا نذكرها على أن أصحابها كانوا يهوداً أو نصارى حقاً ، وإنما نذكرها على سبيل الإشارة إلى أن بعض الجاهليين كانوا يحملون أسماء هي في الغالب من أسماء اليهود والنصارى .

وفي طليعة هذه الأسماء التي يجب أن نذكرها ، الأسماء الواردة في التوراة والإنجيل ، فهي أسماء عبرانية ونصرانية معروفة ، وبها تسمى كثير من اليهود والنصارى . ودخولها بين الجاهليين العرب دليل على وجود بعض تلك التسميات بينهم ، ونسبى أهل الجاهلية بذلك الأسماء .

ومن جملة تلك الأسماء : آدم وقد دعي به آدم بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب . قُتل في الجاهلية ، وهو الذي وضع النبي دمه يوم فتح مكة . وقد جاء (ابن دريد) بتفسير لهذه التسمية فذكر أنها من الأدمة أو بمعنى الطويل القامة ذي العنق الناصع ، ولم يشر إلى وجود علاقة لها باسم آدم أبى البشر . لحسب أنني لا أستبعد احتمال أخذها من التسميات التي كانت بين اليهود أو النصارى عند الجاهليين . غير أننا لا نعرف من أمثال هذه التسميات غير عدد قليل محدود بحيث لا يمكن أن نتخذها قاعدة لبناء حكم عليها في ورود هذه التسمية عند الجاهليين .

وأكثر من هذه التسمية شيوعاً اسم (إبراهيم) ، ومن جملة من تسمى بها : إبراهيم جدّ عدي بن زيد بن حمّان بن زيد بن أيوب من بني امرئ القيس بن زيد مناة بن نعيم . فولد أيوب إبراهيم وسلم وثعلبة وزيد . منهم عدي بن زيد

١ الاشتقاق (٤٤) ، النصرانية (٢٢٨) .

ابن حمان بن زيد بن أيوب بن مجروف الشاعر . ومنهم مقاتل بن حسان بن ثعلبة
ابن أوس بن إبراهيم بن أيوب ، الذي نسب إليه قصر مقاتل . وقال ابن الكلبي :
لا أعرف في الجاهلية من العرب أيوب وإبراهيم غير هذين ، وإنما سمياً بهذين
الإسمين النصرانية ^١ .

ومن سمي بإبراهيم : إبراهيم بن كثيف النبهاني ، وهو شاعر قديم ، وإبراهيم
الأشهل ، وإبراهيم بن الحارث بن خالد التيمي القرشي ، وأبو رافع إبراهيم القبطي ،
وهو من موالى الرسول ، وإبراهيم بن عبيد الأوسي ، وإبراهيم بن قيس بن
حجير بن معديكرب الكندي ، وإبراهيم النجار وهو الذي صنع المنبر لرسول الله .
وأكثر هؤلاء هم من الذين عاصروا الرسول وكانوا من صحابته ^٢ . ويجب ألا
نسى أن الرسول سمي ابنه الذي توفي صغيراً في حياته إبراهيم ^٣ .

وعرف من الصحابة رجل اسمه (إسحاق الغنوي) ^٤ ، وعرف ثلاثة صحابين
باسم (اسماعيل) ^٥ . وأما (أيوب) ، فقد عرف به (أيوب بن مجروف)
جد عدي بن زيد العبادي ، وأيوب بن مكرز ، كما نكح به أبو أيوب خالد
ابن زيد الأنصاري من الصحابة ، وهو الذي نزل عليه الرسول يوم مقدمه إلى
يثرب مهاجراً من مكة ^٦ .

واسم (داود) من الأسماء التي وردت في جملة أسماء ملوك بني سليح ، فذكر
منهم (داود الثق) ^٧ . وأظن أن لفظة (دؤاد) التي كني بها الشاعر الجاهلي
أبو دؤاد الإباضي هي من داود ^٨ ، وإن ذهب القسرون فيها مذنباً آخر فقالوا
إنها من الدؤود والدوادة والدودة وأمثال ذلك ^٩ . وعرف شاعر آخر باسم

-
- ١ تاج العروس (١/١٥٦) ، (أوب) ، النصرانية (٢٢٩) .
 - ٢ أسد الغابة (١/٤٠ وما بعدها) ، الإصابة (١/٢٥ وما بعدها) ، النصرانية (٢٢٩) .
 - ٣ ابن هشام (٢٠٦/١) .
 - ٤ أسد الغابة (١/٦٨) ، الإصابة (١/٤٧) ، (رقم ٦٤) ، النصرانية (٢٢٩) .
 - ٥ أسد الغابة (١/٧٩) ، الإصابة (١/٥٥ وما بعدها) ، النصرانية (٢٢٠) .
 - ٦ ابن هشام (٢/٦٦ ، ١٢٥ ، ١٤٤ ، ١٥٠ ، ٣٠٥) ، (٢/٣٤٧ ، ٣٩٢) ، الاستغنى (٢٦٦) .
 - ٧ الاستغنى (٢/١٩) ، النصرانية (٥٢٢) .
 - ٨ النصرانية (٢٣٢) .
 - ٩ الاستغنى (١/٤) .

داوود بن حل الممداني^١ ، ومن الأنصار رجل اسمه داوود بن بلال^٢ وصحابي اسمه داوود بن سلمة الأنصاري^٣ .

وقد عرف داوود في الشعر الجاهلي بتسجبه الدروع حتى ضربت بدروعه عندهم المثل . وهي في نظرهم دروع قوية ممتازة ، صنعها من الحديد الذي كان يلين بين يديه^٤ . وقد تكرر ورود ذلك في أشعار جملة شعراء ، مما يدل على أنها كانت معروفة بين الجاهليين مشهورة . هذا ولا بد أن يكون لذلك أصل بعيد ظهر من قصص بني إسرائيل عن داوود وعن ملكه وحروبه وتغلبه على عاصمته . هذا القصص الذي جعل من داوود رجلاً لا يستطيع التغلب عليه بفضل الحديد الذي لأن بين يديه ، فصار دروعاً لا تحصى فيه سيوف القاتلين .

- ١ النصرانية (٢٢٢) .
 - ٢ أسد الغابة (١٢٩/٢) ، الإصابة (٤٦٣/١) ، (رقم ٢٢٨٧ و ٢٢٨٨) ، الإصابة (١٦٩/٤) ، (٩٨٨) .
 - ٣ الإصابة (٤٦٣/١) .
 - ٤ قال طرفة :
- وهم ما هم إذا ما لبسوا تسج داوود لباسي محتضر
النصرانية (٢٧٢) ، شعراء النصرانية (٣٠٩) ، ديوان طرفة (٥٨) .
- وقال حصين بن الحمام المري :
صلائح بصرى أخلصتها قيونها ومطرذا من تسج داوود بهما
الحماسة لأبي تمام (١٨٩) ، النصرانية (٢٧٢) .
- وقال حسيب بن سجيح الضبي :
وبيضاء من تسج ابن داوود ثقرة تخبرتها يوم الفناء ملايس
الحماسة لأبي تمام (٢٨٤) ، النصرانية (٢٧٢) .
- ولليبيد :
- وتحزن من داوود أحسن صنعه ولقد يسكون بقسوة ونعيم
صنح الحديد لحفظه أسراذه لينال طول العيش غير مسروم
ديوان ليبيد (٨٢) ، (طبعة الخالدي) ، النصرانية (٢٧٢) .
- ولالأعشى :
- ومن تسج داوود يجدي بها على أسر العيس عيرا لمعيرا
النصرانية (٢٧٢) ، شعراء النصرانية (٣٨٨) .
- ولسلامة بن جندب :
- مداخلة من تسج داوود شكلها كعب الجنيا من ألبس منفرد
وله أيضا :
- من تسج داوود وآل محرق غزال غرائهن قس الأمان
النصرانية (٢٧٢) .

ولم يخل شعر الأعشى من اسم داوود ، فورد في مناسبة التحدث عن حوادث الزمان واعتلاء الدهر على الإنسان ، وتبدل الأيام ، كما في موضع آخر في كلامه على الدروع^١ . أما عبيد الأبرص ، فقد ذكره في أثناء كلامه على طول العمر^٢ .

وعرف (سليمان) في أبيات للشافعية قالها في مدح النعمان ملك الحيرة بنسخيره الجن لبناء تدمر^٣ . وعرف بمثل ذلك وبيناته الأبنية القصمة وسعة ملكه في شعر شعراء آخرين^٤ . وإذا كان ما نسب إلى أولئك الشعراء صحيحاً ، كان وأبهم هذا في سليمان بتأثير ما كان يقصه أهل الكتاب على الجاهليين من قصص وأرد في العهد القديم ، في سفر الملوك الثالث وأخبار الأيام الثاني عن ملكه وعجيب أبنيته^٥ .

وقد ورد اسم سليمان علماً لجملة رجال عاشوا في الجاهلية وفي أيام الرسول ، فهناك حاكم من حكام العرب المعروفين في الجاهلية اسمه (سليمان بن نوفل)^٦ .

١. وعمر الليالي كل وقت وساعة
وردد على داوود حتى أبدته
الحباسة ، للبحري (٩٠) ، النصرانية (٢٧٢) .
٢. وطلبت ذا القرنين حتى فالتسي
خرانة الأدب (١/٢٦٢) ، النصرانية (٢٧٢) .
٣. ولا أرى لفاعلا في الناس يشبهه
الا سليمان ، إذ قال الإله له :
وخيس الجن أني قد أدانت لهم
فمن أطاعك فأخضعه بقطاعه
ومن عصاك فعاقبه معاقبة
العهد السمين (٧) ، شعراء النصرانية (٦٦٣) ، النصرانية (٢٧٤) .
٤. حال الأعشى :
فلو كان حيا خالدا ومعمر
براه الهسي واصطفاه عبادة
وسخر من بين الملائكة شيعة
اليد والتاريخ (٣/١٠٨) ، النصرانية (٢٧٤) ، وله أيضا :
هناك سليمان السدي سخرت له
مع الانس والجن الرياح المرائخيا
الحباسة ، للبحري (٨٦ وما بعدها) ، النصرانية (٢٧٥) .
٥. النصرانية (٢٧٢) .
٦. المعقوس (١/٢٩٩) ، النصرانية (٢٣٢) .

وهناك جملة من الصحابة عرفوا بـ"سليمان" . ومن هذه اللفظة نشأت الأسماء : سلام ، وسلام ، وسليم ، كما يتبين ذلك من أبيات للأسود بن يعفر^١ والحطيئة^٢ والنايف^٣ . وعرف بـ"سليمان" رجل من نصارى بني عجل اسمه سليمان العجلي .

وهناك طائفة لأسماء نصرانية خالصة تسمى بها نفر من الجاهليين قبل الإسلام ، مثل : عبد المسيح ، وعبد ياسوع ، وعبد يسوع ، وعبد يشوع ، وابشوع ، وأنجر . وقد عرف بأنجر عدد من ملوك الرها ، كما عرف بها أنجر بن جابر سيد بني عجل ، وأفريم ، وبولس ، وجرجس ، وجريج ، ورومان ، ورومانوس ، وسرجس ، وسمعان ، وشمعون ، وقسطاس ، وحنين ، و (حنينا) و (حننة)^٤ . ومن أسماء النساء : مارية ، ومريم ، وحنة^٥ ، ومن بين هذه الأسماء ما كانت خاصة بـ"طبقه الموالي الذين جلبوا من الخارج ، وبيعوا في أسواق النخاسة ، فحافظوا على أسمائهم القديمة التي تشير إلى أصولهم في النصرانية" .

وفرى ورود (عبد المسيح) بين أسماء أهل الحيرة بصورة خاصة ، ورد علماً لأناس معروفين جداً بينهم ، وكانوا عليهم زعماء ، مثل عبد المسيح بن عمرو ابن قيس بن حيان بن بقله ، وكان في جملة من خرج لملاقاة خالد بن الوليد

١ مثل سليمان بن الحارث ، الاشتقاق (٣١٨/٢) ، وسليمان الليثي بن أكيمة ، وسليمان بن أبي حنيفة القرشي ، وسليمان بن ورد الخزاعي ، وسليمان بن عمرو ابن حديدة ، وسليمان بن منهر ، وسليمان بن هاشم بن عتبة القرشي ، أسد النافذة (٣٥٠/٢) وما بعدها ، الإصابة (١٢٨/٢) وما بعدها ، النصرانية (٢٣٢) ، تاج العروس (٣٤٤/٨) .

٢ ودعا بمحكمة أمين سكها من نسج داود ابن سلام تاج العروس (٣٤٤/٨) .

٣ فيه الرماح وفيه كل سابقة جدلاء محكمة من نسج سلام النصرانية (٢٣٢) .

٤ وكل صموت تنسقة بعبية ونسج سليم كل قضاء ذائل ديوان النافذة (٩٩) ، النصرانية (٢٣٣) ، « أراد نسج داود ، فجعله سليمان ثم غير الاسم ، فقال سلام وسليم » ومثل ذلك في أشعارهم كثير . قال ابن بري : وقالوا في سليمان اسم النبي ، صلى الله عليه وسلم : سليم وسلام فقروه ضرورة ، اللسان (١٩٢/١٥) وما بعدها ، تاج العروس (٣٤٤/٨) .

٥ البكري ، معجم (٥٨٠/٤) ، تاج العروس (١٨٦/٩) .

٦ النصرانية (٢٣٩) ، وقد أورد قائمة بالأسماء النصرانية ، وأورد أمثلة لمن تسمى بها قبل الإسلام من الجاهليين ، البكري ، معجم (٥٧٨/٤) ، « دير حنة » .

للاتفاق معه على شروط الصلح^١ . وعادة جعل المرء نفسه عبداً لإله أو لشخص مقدس ، كما في هذه التسمية ، لم تكن من العادات الخاصة بالتصاري ، فقد رأينا أن أكثر الجاهلين كانوا يمجّعون أنفسهم عبداً لإله من الآلهة ، ثم يتخلون ذلك تسمية لهم ، مثل عبد العزى ، وعبد يغوث ، وعبد ود^٢ ، وأمثال ذلك . فلما كانت النصرانية، تبرأ من تنصر من اسم الآلهة الوثنية، وأحلوا محلها اسم للمسيح . وكان اسم والد حنظلة صاحب دير حنظلة الذي بأرض بني علفمة بالحيرة (عبد المسيح) ، ويذكر الأخباريون أنهم وجدوا على صدر الدير كتابة مكتوبة بالرماس على ساج مخقور : « بني هذا الهيكل المقدس ، حبة لولاية الحق والأمانة ، حنظلة بن عبد المسيح ، يكون مع بقاء الدنيا تقديسه ، وكما يسلك أوليائه بالعصمة ، يكون ذكر الحاطية حنظلة »^٣ .

غير أن هذه الأسماء اليهودية الأصل أو النصرانية قليلة الاستعمال ، فلم تكن مستعملة بنطاق واسع . وأكثر من تسمى بها ، هم من الموالى والأرقاء ، أو من العرب الذين كانوا على أطراف العراق وبلاد الشام ، ومن تأثر بالمؤثرات الثقافية الأعجمية ، أو ممن كان على يهودية أو نصرانية ، فتسمى بأسماء حبة أو مباركة في هاتين الديانتين .

وأهل نجران ، هم الذين كانوا يجادلون الرسول في طبيعة المسيح ، فلم يكن بمكة أو يثرب قوم منهم يستطيعون مجادته في أمور الدين . وقد ذكر بعض القسرين أن أهل نجران كانوا أعظم قوم من التصاري جادلوا الرسول في عيسى . جازوا إلى الرسول ، فقالوا له : ما شأنك تذكر صاحبنا ؟ فقال : من هو ؟ قالوا : عيسى . نزعهم أنه عباده . فقال : أجل أنه عباده . قالوا : فهل رأيت مثل عيسى أو أثبت به ، ثم خرجوا من عنده غاضبين . وقالوا : إن كنت صادقاً ، فلرنا عبداً يحجي الموتى وبريء الأكف ، ويخلق من الطين كهنة الطير فينطق فيه ، فلما عادوا قال رسول الله : مثل عيسى كمثل آدم خلقه من تراب ، ثم قال له : كن فيكون^٤ .

١ البلاذري ، فحول (٢٥٢) ، المعمرين ، للسجستاني (٣٨) ، « طبعة كولدتزبر » .
 المشرق ، السنة السابعة عشرة ، (١٩١٤) ، (ص ١٣٢) ، البلدان (١٧٧/٢) .
 البكري ، معجم (٥٧٢/٢) ، (دير حنظلة) .
 تفسير الطبري (٢٠٧/٣) وما بعدها .

وقد جادل بعض النصارى رسول الله في أمور الدين ، ثم أسلموا . ونظراً
لقلة عددهم يثرب ، لم يقاوموه هنا كما قاومه اليهود .

وطبعي أن يتأثر نصارى الجاهلية بلغة بني إرم ، فيستعملوا المصطلحات الدينية
التي كانت شائعة في الكنية ، وهي مصطلحات لإرمية الأصل في الغالب : فقد
كانت لغة بني إرم لغة العلم والدين عند النصارى الشرقيين . بها يقيمون طقوسهم
الدينية ، ومنها يترجمون الأناجيل إلى أنبياءهم النصارى العرب ، فدخلت بذلك
إلى العربية ألفاظ لإرمية ذات معان خاصة . ومنها الألفاظ التي تكلمنا عنها واللفاظ
أخرى عديدة لم نتطرق إليها ، لعدم وجود صلة لها بهذا الموضوع ، ونخشية
الإطالة والخروج على صلب الموضوع . وهناك مصطلحات يونانية ولاتينية وحشية ،
لها صلة بالدين وبالمجتمع دخلت العربية أيضاً عن طريق النصرانية ، ظهر أثرها
في نصارى بلاد الشام والعربية الغربية خاصة ، بتأثير الاحتكاك المباشر والتبشير .

وقد عني بعض الباحثين بجمع المصطلحات الدينية المعروفة عند أهل الكتاب
في الجاهلية والتي أفرها الإسلام على نحو ما كانت تعرف به ، أو أعطاها معنى
خاصاً ، ومن بينها عدد كبير ورد في القرآن الكريم . ولما كانت غالبية العرب
على الوثنية ، وهي ديانة بسيطة قليلة الشعائر بالنسبة إلى اليهودية والنصرانية ، لذلك
كانت هذه المصطلحات شائعة معروفة بين أهل الكتاب من الجاهليين ، وقد نقلوها
من اللغات الدينية التي كتب بها علماء أهل الكتاب ، فهي في الغالب من أصل
سرياني أو عبراني أو يوناني أو حبشي .

وقد جمع الأب (شيخو) في كتابه : (النصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية)
الألفاظ الخاصة بأهل الكتاب من الآيات الواردة في دواوين شعراء الجاهلية وفي
كتب الأدب ، وهي آيات منها ما أجمع الرواة وأهل الأخبار على نسبتها إلى
أولئك الشعراء ، ومنها ما ورد عند بعض الرواة والأخباريين ولم يرد في دواوين
أولئك الشعراء . ليجعل من تلك الألفاظ دليلاً على أثر النصرانية في الجاهليين ،
وعلى مدى تغلغلها بينهم . وهو حكم لا يمكن أن يكون سليماً ، إلا بعد ثبوت
صحة نسبة تلك الآيات إلى الجاهليين .

Noldeke, Neue Beiträge zur Semit. Sprach. B. 1. ff., J. Horowitz, Jewish
Proper Names and derivatives in Koran, 145, R. Bell, The Origin of Islam
in its Christian Environment, London, 1926.

وقد كان للتصارية أثر مهم في نشر الكتابة العربية ، المخوفة عن الإرمية ، بين الجاهليين ، الكتابة التي تولد منها قلما الذي نكتب به في الوقت الحاضر . وقد وجد المسلمون في فتحهم للعراق مدارس عديدة لتعليم الأطفال القراءة والكتابة ، كما أن تجار مكة ويثرب الذين كانوا يقصدون الشام والعراق وجدوا القسوة تحتم عليهم تعلم هذا الخط ، فتعلموه . ولما نزل الوحي كتب كتابه به ، فصار قلم المسلمين . كما سأحدث عن ذلك في موضوع الخط عند الجاهليين .

ولم يترك رجال الدين من نصارى العرب لنا أثراً كتابياً يتيء عن مدى اشتغالهم في علم اللاهوت وفي العلوم الأخرى ، غير أن هذا لا يعني أن نصارى العرب لم يخرجوا علماء دين منهم ، ولم يعطوا التصارية رجلاً منهم بخمها وبقت حباته الروحية عليها ، بقي قوائم أسماء من حضروا المجامع الدينية التي عقدت للنظر في الأمور الجدلية وفي القضايا التي تخص مبادئ الدين أسماء رجال تتيء أنهم كانوا عرباً ، وقد دونت في محاضر تلك المجالس أسماء المواضع التي مثلوها من بلاد العرب ، كما أن بين رجال الدين الكيلو الذين ثبغوا في العراق من كان أصله من الحيرة ، وإذا كانت غالبية سكان هذه المدينة من العرب ، فلا يستبعد أن يكون من بين هؤلاء العلماء النصاري الحيريين من كان من أصل عربي .

لقد كانت التصارية عاملاً مهماً بالطبع في ادخال الآراء الإغريقية والسريانية إلى نصارى العرب ، فقد كانت الكنيسة مضطرة إلى دراسة الإغريقية ولغة بني إرم ، لما للثنين من قدسية خاصة نشأت من صلتها بالأناجيل . وقد كان أثر الإرمية أهم في الكنيسة الشرقية من الإغريقية ، لكونها لغة الثقافة في الحلال الحبيب في ذلك العهد . ولما وجدنا معظم التعابير والمصطلحات الدينية عند نصارى الشرق هي من هذه اللغة ، ومنها أخذها نصارى العرب ، فصارت عربية . وقد كان السريان قد نقلوا بعض مؤلفات اليونان واللاتين إلى لغتهم . ولا أستبعد نقلهم بعض تلك المؤلفات ، ولا سيما الدينية منها . من هذه اللغة إلى اللغة العربية ، وذلك قبل الاسلام ، أو ترجمتها ترجمة شفوية لطلاب العلم من العرب ممن كانوا لا يفقهون لغة بني إرم ، أو لا يلمون بها إلاماً صحيحاً . وإذا كانت هذه اللغة لغة مقدسة ولغة الكنيسة الرسمية . وكان أكثر رجال الدين من بني إرم ، فقد كانت هذه اللغة اللغة المقررة في الكنيسة . بها يدرس وينبأح رجال الدين وإن كانوا عرباً ، على نحو ما يفعله رجال الدين المسلمين الأعاجم الذين يدرسون العربية بعلومها المختلفة

ليتفقوا بملك في الدين ، والعربية هي لغة الدين الاسلامي. وكما يفعل رجال الدين الكاثوليك أيضاً في دراستهم اللاتينية ويحرمهم بها لأن اللاتينية هي لغة النصرانية عند الكاثوليك .

وكان للنصرانية أثر آخر في نصارى عرب الجاهلية، هو أثرها عليهم من ناحية الفن ، إذ أدخلت النصرانية بين العرب فناً جديداً في البناء . هو بناء الكنائس والأديرة والمذابح والمحارب والزخرفة ، كما أدخلت النحت والتصوير المتأثرين بالترعة النصرانية . ولدخول أكثر هذه الأشياء لأول مرة بين الجاهليين، استعملت مسمياتها الأصلية اليونانية أو الإرمية في اللغة العربية ، بعد أن صقلت وهللت ، حتى اكتسبت ثوباً يلائم الذوق العربي في النطق . وستكشف الحفريات في المستقبل عن مدى تأثير النصارى العرب الجاهليين بالفن النصراني المنقوس عن الروم أو عن بني إرم والأحياس .

الفصل الثالث والثمانون

المجوس والصابئة

يقصد الأخباريون بالمجوس القائلين بالأصلين النور والظلمة : الخير والشر ، فيزعمون أن الخير من فعل النور وأن الشر من فعل الظلمة^١ . وهم يعلمون أن المجوس من الفرس وأنهم عبدة النيران .

وفي القرآن الكريم ذكر للمجوس . وقد ورد ذكرهم في موضع واحد منه : « إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس ، والذين أشركوا ، إن الله يفصل بينهم يوم القيامة ، إن الله على كل شيء شهيد »^٢ . وفي ذكرهم في القرآن الكريم دليل كاف على معرفة أهل الحجاز بهم ، ووقوفهم عليهم . وكيف لا يكون لهم علم بهم ووقوف عليهم ، وقد كان لأهل مكة اتصال وثيق بالحيرة كما كان لأهل الحجاز اتصال باليمن ؟ وقد كان المهيمن على اليمن الفرس عند ظهور الإسلام ، حيث طردوا الأحباش وأدخلوا محلهم ، وقد كان هؤلاء الفرس على المجوسية ، ثم إنه كان في حضرموت وفي العربية الشرقية أناس منهم أقاموا هناك . وقد كان وكلاء الأكاسرة على هذه الأماكن منهم ، وهم على دين

١ النهاية (٨٥/٤) . اللسان (٩٨/٨) (مجس) . ناج العروس (٢٤٥/٤) (مجس) .
القول والحد (٥٧/٢) ، الحيوان (١٩٠/١) . (١٩٠/٤) ، ٢٧٩ ، ٢٨١ ، السعدي .
مروج (٢٥٢/١) ، ٢٥٣ ، ٢٧٣ ، (بيروت) ، عمدة القاري (٧٨/١٥) .
٢ الحج ، الآية ١٧ ، عمدة القاري (٧٨/١٥) وما بعدها ، الطبرسي ، مجمع البيان (٨٨/١٣) وما بعدها ، تفسير أبي السعود (٨/٤) ، تفسير الطبري (٢٠١/٦) .
روح المعاني (١٧٩/٦) ، ناج العروس (٢٤٥/٤) ، (مجس) .

المجوسية . وقد أشير إلى وجردهم في أخبار الفتوح ، حيث دفع الجزية من أبى منهم الدخول في الإسلام . والظاهر أن هؤلاء كانوا مقبضين فيها من أمد طويل بدليل ورود جملة في أخبار الفتوح تفيد ذلك ، وهي : « وأسلم معها جميع العرب وبعض العجم . فأما أهل الأرض من المجوس واليهود والنصارى ، فلأنهم صالحوا العلماء »^١ .

ويروي أهل الحديث حديثين يذكران أن الرسول قالهما هما : « كل مولود يولد على الفطرة ، حتى يكون أبواه يمجسانه » ، أي يعلماه دين المجوسية . وحديث « القدرية مجوس هذه الأمة »^٢ . وفي هذين الحديثين ذكر المجوس ، ولعلماء الحديث كلام عليها . ولا سيما على الحديث الثاني ، وفيه تعريض بالقدرية ، أسلاف المعتزلة .

وكلمة (مجوس) من الكلمات العربية ، عربت عن لفظة (Maghos) الفارسية التي تعني (عابد النار) .^٣ وهي من الألفاظ التي دخلت إلى اليونانية كذلك ، حيث وردت لفظة « Magi » فيها ، وهي جمع (مجوس) « Magus »^٤ . وقد دخلت إلى لغة (بني لدم) أيضاً ، ولا فائدة اليوم على وجه صحيح من أي طريق دخلت لفظة (مجوسي) و (مجوس) إلى العربية ، عن القروس أنفسهم ، أو عن اليونانية أو عن طريق لغة (بني لدم) .^٥

وقد عرف علماء اللغة بأن لفظة (مجوس) من الألفاظ العربية . وقد ذهبوا إلى أنها معربة عن الفارسية القديمة . ولكنهم اختلفوا فيما بينهم في أصل اللفظة وفي بيان معناها ، وذهبوا في ذلك مذاهباً ، وبعض هذه التفسيرات والتأويلات مفتعل يدل على عدم وثوق أصحابها على جلالة الموضوع .

- ١ البندان (٧٤/٢) ، « ومن أبي فعلية الجزية » . فسالهم رسول الله ، صل الله عليه وسلم ، على أن على المجوس الجزية » . « وأخذ الجزية من المجوس » . الطبري (٢٩/٣) .
- ٢ البندان (٢١٣/٦) وما بعدها ، « تاج العروس » (٣٤٥/٤) . « اللسان » (٩٨/٨) « مجس » . طبعة بولاق .
- ٣ غرائب اللغة (ص ٢٦٩) .
- ٤ Hastings, p. 565.
- ٥ Shorter Ency. of Islam, p. 98, Ency., III, p. 97.
- ٦ « اللسان » (٩٨/٨) « طبعة بولاق » . محيط المحيط (٢٥٠/٢) ، « تاج العروس » (٣٤٥/٤) « مجس » . الحيوان ، للجاحظ (٦٩/٥) « عبد السلام هارون » ، العرب : للجراني (٣٢٠) .

ويريد الأخباريون بالمجوسية عبادة النار . وإذا صح ما ورد في شطر يت منسوب الى الشاعر الجاهلي (التوأم الشكري) المعاصر لامرئ القيس ، هو : (كتار مجوس تنصر استعاراً)^١ ، فإن فيه دلالة على ان هذا الشاعر هو وامراً القيس كانا على علم بنار المجوس ، وانها كانت تستعر دائماً ، وربما كانا على علم ببعض تعاليمها أيضاً .

وفي أخبار أهل الأخبار ما يفيد بتمجس بعض العرب ، فورد أن « المزدكية والمجوسية في تميم »^٢ . وورد أن (زرارة بن عديس) وابنه (حاجب بن زرارة) ، وهما من سادات تميم كانا قد اعتنقا المجوسية ، واعتنقها أيضاً (الأفرع بن حابس) و (أبو الأسود) ، جدّ (وكيع بن حسان)^٣ . وقيل إن لشأناً من العرب عهلت النار ، سرى إليها ذلك من الفرس والمجوس^٤ .

وكان مجوس اليمن ، من الفرس السنين أرسلهم كسرى لطرد الحبش من اليمن ، فهم وأبنائهم كانوا على هذا الدين ، دين الإمبراطورية الفارسية . ولما ظهر الإسلام ، نيل هؤلاء المجوسية واعتنقوا الإسلام^٥ .

وأما مجوس عمان وبقية أنحاء العربية الجنوبية ، فقد كانوا من الفرس كذلك : من تجار ومن مقيمين من بقية الفرس الذين كانوا قد استولوا على هذه الأرضين . وعند ظهور الإسلام لم يكن لهم نفوذ سياسي ، فقد كان سادات القبائل قد كونوا مشيخات فيها ، واستقلت في إدارة شؤونها ، غير أن المجوس بقوا فيها ، وعند دخول أهلها في الإسلام ، ودخول البلاد في دين الله ، دفع بعض أولئك المجوس الجزية ، ودخل الباقون في الإسلام . شأنهم في ذلك شأن اليهود والنصارى المقيمين في هذه الأرضين .

وأما مجوس البحرين ، فقد كانوا أكثر عدداً وأكبر نفوذاً من اخوانهم في عمان ، لقرب هذه الأرضين من الإمبراطورية الساسانية ، ولحجة الفرس من السواحل المقابلة ومن طريق الأبله الساحلي . وقد عُثر النقبون على قبور عديدة

١ - اللسان (٦/٢١٣ وما بعدها) ، نأج العروس (٤/٢٤٥) - (مجلس) .

٢ - البدء والتاريخ (٤/٣١) .

٣ - المعارف (٢٦٦) ، الصلوي ، البدء والتاريخ (٤/٣١) ، الاعلاق النفيسة (٢١٧) .

٤ - بلوغ الأرب (٢/٢٢٣) .

٥ - Ency. Vol. III, p. 99.

ثمود اليهم ، وعلى آثار لمعابدهم في العرية الشرقية . وكان على (هجر) ، حين أبلغ الرسول دعوته اليها ، رجل من الفرس اسمه (سييخت مرزيان) ، وقد أسلم وأسلم معه قوم من قومه ، ودفع الجزية من فضل البقاء منهم على دينه ، شأنهم في ذلك شأن أهل الكتاب . وذكر ان الرسول كتب الى (مجوس هجر) يعرض عليهم الاسلام ، فإن أبوا أعلنت منهم الجزية ، وبأن لا تنكح نساؤهم ولا تؤكل ذبائحهم)^١ .

وكان بالهامة قوم من المجوس ، عاشوا في قرأها ومواقعها ، اشتغلوا بالزراعة وبالتعدين . وأرض الهامة أرض غنية ، وهي (ريف) أهل مكة ، وعليها اعتمادهم في الحصول على الحبوب . كما عرفت بوجود المعادن بها ، فهتل أهلها دخول المجوس اليها ، للاستفادة منهم في استغلال الأرض وفي التعدين .

هذا ولم نسمع بدخول أحد من ملوك الخبرة ، أو الأمراء الذين عينهم الفرس على العرب في المجوسية مع علاقتهم بالفرس واتصالهم الوثيق بهم ، ووجود الفرس في أرضهم وفي عاصمتهم ، بينما نجد بعضاً منهم وقد دخل في النصرانية . ولعل ذلك بسبب عدم ميل الفرس الى ادخال أحد من الغرباء عنهم في دينهم والى عداوتهم المجوسية ديانة قومية خاصة بهم ، فلا يهمهم دخول أحد من غيرهم فيها .

هذا ولا نجد صلة بين (الأسبذية) التي زُعم أنها ديانة قوم كانوا يعبدون الخيل بالبحرين ، عرفوا به (الأسبديين) ، وبين (بني دارم) ، وكسوتهم كانوا على هذا الدين . فقد كان أحدهم وهو (المنذر بن ساوى) أسبدياً ، ولم يكونوا كلهم . قيل إنه نسب الى قرية بهجر يقال لها (الأسبد) ، وقيل الى الأسبديين^٢ . ولا صلة لهذه الأسبذية بالمجوسية ، أو الى ديانة دخلت من فارس الى البحرين . وقد تحدثت في مكان آخر عن وجود قوم من العرب قدسوا (الحصان) . ورأيت أن المراد من (الأسبذية) الفرس . وأن (المنذر بن ساوى) كان (أسبدياً) أي بدرجة فارس ، وهي من درجة الشرف والرفعة في الجيش الساساني .

- ١ - البلاذري (٨٥ وما بعدها) ، البلدان (٧٣/٢) وما بعدها .
- ٢ - ابن سعد ، طبقات (٢٦٣/١) ، (صادر) .
- ٣ - فتوح البلدان (٩٨) ، (٨٩) (طبعة المكتبة التجارية) ، محاضرات للدكتور صالح أحمد العلي (١٧١) .

ويذكر علماء اللغة في معرض كلامهم على معنى لفظة (الزمزمة) ان من عادة المجوس الزمزمة عند الابتداء بالأكل ، أي قراءة شيء من كتبهم الدينية قراءة عافتة على المأكول تقدباً وشكراً له . وقد نهى الخليفة عمر عن الزمزمة ، لأنها من علائم المجوس^١ .

وقد عرف عالم المجوس ورئيسهم الروحي عند العرب بـ (الموبد) و (الموبدان) ، وعرف كبيرهم بـ (موبدان موبد) ، وجعل بعض العلماء (الموبدان) بمنزلة قلبي القضاة للمسلمين ، والموبد بمنزلة القاضي^٢ . وتعني (موبدان موبد) الموبد الأعظم . وقد اكتفى أحياناً بلفظة (موبدان) للتعبير عن (موبدان موبد) . وقد فسر المسعودي لفظة (الموبد) بمعنى حافظ الدين ، ورجع أصلها إلى (مو) بمعنى (دين) في رأيه ، و (بد) بمعنى (حافظ)^٣ . ورأى (اليقوي) ان (الموبدان) بمعنى عالم العلماء^٤ . والموبد هي من الألفاظ المعربة عن الفهلوية ، فهي من أصل فهلوي هو Magupat ، بمعنى عظيم المجوس . وينتج هذا الرئيس الديني الأعظم بسلطات دينية واسعة^٥ . وقد أطلق السريان على الموبد جملة (رئس مكوشي) (Resh Magushi) و (Resh dam'gushi) ، أي (رئيس المجوس) ، و (مكوش) تعني (المجوس)^٦ .

وترد في العربية لفظة أخرى ، لها صلة بالمجوسية ، هي (المربد) ، و (المرابدة) . ذكر علماء اللغة أن «المرابدية» : المجوس ، وهم قومة بيت النار التي للهند ... وقيل عطاء الهند أو علماءهم^٧ . وذكروا أن «المربدي» مشبه فيها احتيال ، كمشي المرابدة ، وهم حكماء المجوس . قال امرؤ القيس :

مشى المربدي في دمه ثم فرقا^٨ ،

- ١ اللسان (١٦٥/١٥) ، تاج العروس (١٦٥/٨) ، تاج العروس (٢٢٨/٨) .
- ٢ اللسان (٥١١/٣) ، (موزن) ، النهاية في غريب الحديث (١١٩/٤) ، تاج العروس (٥١٣/٤) .
- ٣ مروج الذهب (٢٦٨/١) ، (ذكر ملوك الساسانية) ، Ency., III, p. 543.
- ٤ تاريخ اليعقوبي (٢٠٧/١) ، Ency., III, p. 543.
- ٥ اللسان (٥١٧/٣) وما بعدها ، (مربن) ، Ency., III, p. 543.
- ٦

واللفظة من الألفاظ العربية عن الفارسية . من أصل (هور) و (بت) ،
يعنى رئيس خدام النار . والموكل على خدمة النار في المعبد^١ .

وقد ذكر (الألوسي) ، أن صغاً من العرب عبد النار ، وقال عنهم :
« وهم أشتات من العرب ، وكأن فلك سرى اليهم من الفرس والمجوس »^٢ .
ولم يذكر أسماء هؤلاء الأشتات . ولم يتحدث عن طريقة تعبدهم للنار . ولكننا
نستطيع أن نجد في (نار الاستمطار) وفي (نار التحالف) وفي النيران الأخرى
التي يذكر أصحابها أهل الأخبار دلالة على وجود فكرة تقديس بعض العرب للنار .
وقد حيب الاسلام هذه النيران .

فقد ذكر أهل الأخبار ان العرب كانت في الجاهلية الأولى ، اذا احتبس عنهم
المطر ، ويشوا من نزوله ، يجمعون البقر ويعقدون في أذنانها وعراقيبها السلسع^٣
والعشر^٤ ويصعدون بها في الجبل الوعر ، ويشعلون فيها النار ، ويذبحون ان ذلك
من أسباب المطر ، قال الشاعر (الورد) الطائي :

أجعل^٥ أنت يبقورا مسلعة وسيلة منك بين الله والمطر^٦

وقد أشير الى هذه النار في شعر ينسب الى أمية بن أبي الصلت^٧ . ويسمونها
بنار الاستمطار^٨ .

وذكروا نارا أخرى قالوا لها : (نار التحالف) و (نار المهول) . وقالوا
ان العرب كانوا لا يعقدون حلفاً إلا عليها ، وكسبوا اذا اختصموا في شيء ،
واتفقوا على اليمين ، حلقوا على النار . ولهذا قيل لها (نار التحالف) . وطريقتهم
في ذلك أن المتحالفين أو المتخاصمين يحفرون أمام نار يوقدون بها ، ثم يلقون عليها

١ - غرائب اللغة (٢٤٨)

٢ - بلوغ الأرب (٢٣٣ / ٢)

٣ - (الوديل الطائي) ، صبح الأعشى (١ / ٤٠٩) ، بلوغ الأرب (٢ / ١٦٤) ، خزائن
الأدب (٣ / ٢١٢) ، الحيوان (٤ / ٤٦٨)

٤ - لا در در رجال خاب سعيهم يستمطرون لدى الازمات بالعشر
أجعل أنت يبقورا مسلعة ذريعة لك بين الله والمطر
٥ - اللسان (٤ / ٧٣) ، (بقر)

٦ - نهاية الأدب ، للتويزي (١ / ١٠٩) وما بعدها ، الحيوان (٤ / ٤٦٦) وما بعدها .

٧ - نزهة الجليس (٢ / ٤٠٦)

ملحاً وكبيراً . واعتدث بذكر منافع هذه النار ويدعون بالخمران من غيرها على من ينقض العهد ويحل العقد. وفي حالة الحلف واليمين يقول صاحب النار للحالف : « هذه النار قد تهدتلك » ، فإن كان مهطلاً نكل ، وإن بريئاً حلف ، ولذلك قيل لها « نار المهول »^١ . وذكروا أيضاً أن هذه النار كانت معروفة في اليمن ، مستمرة دائماً ، ولها سادة مدنة وقبوعون يطرحون الملح والكبريت في النار ، أما السدنة فيقومون بأخذ اليمين . وكان سادتها إذا أتى برجل ليحلف ، هيسوه من الحلف بها ، وخوفوه من الكذب . وقد عرفت هذه النار بـ (نار التحالف) كذلك . وقد أشار إليها الكعبيت بقوله :

هم خوفوني بالعسى هوة الردى كما شب نار الحالفين المهول
كما أشار إليها شاعر آخر هو أوس ، إذ قال :

إذا استقبلته الشمس صد بوجهه كما صد عن نار المهول حالف^٢

وذكر (الجاحظ) أن العرب « يقولون في الحلف : الدّم ، الدّم ، والمدم المدم ، لا يزيد طلوع الشمس إلا شداً ، وطول الليالي إلا مدداً ، ما بل البحر صوفة ، وما أقام رضوى في مكانه ، إن كان جبلهم رضوى . »^٣
« وكل قوم يذكرون جبلهم ، والمشهور من جبلهم . وربما دلوا منها حتى تكاد تحرقهم »^٤ .

بل زعم بعض أهل الأخبار أن حبر كانت تحتكم إلى نار كانت باليمن تحكم بينهم فيما كانوا يختلفون به . تأكل الظالم ولا تضر المظلوم . فلما اعتنق النصارى (تيان أسعد) ، ديانة يهود ، وطلب من قومه الدخول فيها ، أبوا عليه ذلك ، وطلبوا منه الاحتكام إلى تلك النار في قصة يذكرونها في سبب تهود بعض حبر . وللعرب نار السعال والجن والغيلان^٥ . ذكروا أن الغيلان توفد بالليل النيران

-
- ١ اللسان (٢٤٣/٥) . (نور) . نزهة الجليس (٤٠٦/٢) .
 - ٢ اللسان (١٠٢/٧) . صبح الاعشى (٤٠٩/١) . خزائن الادب (٢١٢/٣) . (خوفولاً) . نهاية الارب (١٠٩/١) وما بعدها . بلوغ الارب (١٦١/٢) وما بعدها . الحيوان (٤٧٠/٤) .
 - ٣ الحيوان (٤٧٠/٤) وما بعدها .
 - ٤ سيرة ابن هشام (٢٧/١) .
 - ٥ الحيوان (٤٨١/٤) .

للعبث والتخيل واضلال السابلة . وأنها ترفع المتخلف فينبعها فتهدى به الغول . وأورد أهل الأخبار شعراً في ذلك منه شعر لـ (عبيد بن أبيب) ، المعروف بـ (أبي مطرب) ، وكان يزعم أنه يذاكل القطبساء والوحش ويراقي الغول والسعلاة ، ويبايت اللثاب والأفامي^١ .

وذكر أهل الأخبار قصة عن (خالد بن سنان العبسي) النبي العربي الذي منحه بعضهم في الإسلام جملة (عليه السلام) باعتباره أنه من أنبياء الله ، قد يكون لها صلة بعيدة عبادة النار عند العرب ، إذ ذكروا أن ناراً ظهرت بالبادية بين مكة والمدينة في الفترة ، فسمتها العرب بدءاً ، وكادت طائفة منهم أن تعبدوا مضاهاةً للمجوس . فقام خالد هذا ، فأخذ عصاه ، واقتحم النار يضربها بعصاه ، حتى أطفأها الله تعالى . ثم قال : إني ميت ، فإذا أنا مت ، وحال الخول ، فارصدوا قبري . فإذا رأيتم حاراً عند قبري ، فارموا واقتلوه ، وانهبوا قبري ، فلما أحدثكم بكل ما هو كائن . فات . فلما حال الخول ، رأوا الحمار يقتلوه ، وأرادوا نيشه ، فنعهم أولاده ، وقالوا : لا نسمى بني المنيوش^٢ . وقد عرفت تلك النار بـ (نار الحرتين)^٣ . وذكر أنها كانت ببلاد عيس ، فإذا كان الليل تضيء . فلما تسطع وفي النهار دخان مرتفع . وربما يلزم منها عقق فأحرق من مر بها . فحضر خالد بن سنان النبي ، فدفنها ، فكانت معجزة له^٤ . ويظهر أن حرة ، كانت في تلك المنطقة ، ثم خدت فنسب الناس خودها إلى (خالد بن سنان) .

وللجاهليين استعمالات أخرى للنار ، فكانوا إذا عاقبوا شر رجلاً ، وتحرك عنهم أوقفوا خلفه ناراً ، لينحويك شرهم معه^٥ . ويقولون : « أبعده الله واسحقه وأوقد ناراً في أثره » ، يقولون ذلك لكراهيتهم له ، ويتمنون المسوت له . وتعرف هذه النار بـ (نار الطرد)^٦ . وذكر أن العرب تدعو على العدو فتقول :

- ١ الحيوان (٤٨١/٤) وما بعدها . معجم الشعراء (١٨٢) ، مروج الذهب (٣٢٨/١) .
الحيوان (١٢٣/٥) . صبح الاعشى (٤١٠/١) .
- ٢ محاضرات الأبرار (٧٧/١) . نهاية الأرب (١٠٩/١) وما بعدها . نزهة الجليس (٤٠٦/٣) .
- ٣ الحيوان (٤٧٦/٤) وما بعدها .
- ٤ صبح الاعشى (٤٠٩/١) وما بعدها .
- ٥ النلسان (١٠٢/٧) . نهاية الأرب (١٠٩/١) وما بعدها .
- ٦ خزائن الأدب (٢١٢/٣) . الحيوان (٤٧٤/٤) . صبح الاعشى (٤٠٩/١) .

أبعد الله داره وأوقد ناراً آله^١ .

ولا بد أن يكون للنار الموقدة على المزدلفة صلة ما بمعتقد الجاهليين القديمة في النار . وينسب الأخباريون هذه النار إلى (قصي بن كلاب) ، يقولون إنه أوقدها على المزدلفة حتى يراها من دفع من عرفة في أيام الحج . وقد بقي الناس يوقدون بها إلى الإسلام^٢ .

ومن نيران العرب ، نار الغدر ، وتوقد بمنى أيام الحج على أحد الأخشين ، جبلي مكة : أبي قبيس وقُعبُنعان ، أو أبو قبيس والأحر . فلماذا استعرت ، صاح موقدها : هذه غدره فلان ، ليحضره الناس ، وليعلموا أن فلاناً قد غدر بحاره^٣ .

وأما (نار السلامة) ، فهي التي توقد للقادم من سفر سالماً غانماً ، وقد عرفت لذلك به (نار المسافر) أيضاً^٤ . و (نار السليم) ، هي النار التي توقد للملذوغ والمجروح ولمن ضرب بالسياط ولمن عضه الكلب الكليل ، ويقولون إنها إنما توقد لكي لا يناموا ، فيشتد بهم الأمر ويؤدي إلى الفلاك^٥ .

وأما (نار الحرب) ، فهي النار التي كانوا إذا أرادوا حرباً ، وتوقعوا جيشاً عظيماً ، وأرادوا الاجتماع أوقدوا ليلاً على جبلهم ناراً ، ليبلغ الخبر أصحابهم . وإذا جدوا في جمع عساكرهم اليهم أوقدوا نارين^٦ .
ونار الصيد ، هي نار توقد للقطباء وللمحوانات الأخرى ، فتشأها إذا نظرت إليها^٧ .

قال الشاعر :

وجبة أقوام حملت ، ولم آكن كموقد نار أترهم للتندم

النسائي (٢٤٣/٥) ، (نور) .

٢ أصبح الأعشى (٤٠٩/١) ، نهاية الأرب (١٠٩/١ وما بعدها) ، نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب (٤٦٢) ، الكامل - لابن الأثير (١٧/٢) ، نزعة الجليس (٤٠٦/٢) .

٣ بلوغ الأرب (١٦٢/٢) ، نهاية الأرب (١٠٩/١ وما بعدها) ، نزعة الجليس (٤٠٦/٢) .

٤ الحيوان (٤٧٣/٤) ، نزعة الجليس (٤٠٦/٢) .

٥ بلوغ الأرب (١٦١/٢ وما بعدها) ، أصبح الأعشى (٤١٠/١) .

٦ الحيوان (٤٧٤/٤ وما بعدها) ، (١٣٣/٥) ، أصبح الأعشى (٤٠٩/١) ، نزعة الجليس (٤٠٦/٢) .

٧ أصبح الأعشى (٤١٠/١) ، نزعة الجليس (٤٠٦/٢) .

ونار الأسد ، وهي نار توقد اذا خافوا الأسد ، ليقر عنهم ، فإن من شأنه الغار عن النار ، يقال انه اذا رأى النار حدث له فكر يصده عن قصده ، ويشغله عن السائلة . ويقولون إن الصغدع اذا رأى النار تحير وترك التيق^١ .

ونار الغداء ، وكان الملوك منهم ، إذا أمروا نساء قبيلة ، خرجت اليهم السادة منهم للغداء أو الاستيهاب ، فيكرهون ان يعرضوا النساء نهاراً فيفتضحن أو في الظلمة فيخفى قدر ما يحبسونه لأنفسهم من الصفي ، فيوقدون النار لعرضهن^٢ .

ونار القرى ، هي من أعظم مفاخر العرب ، وهي النار التي ترفع للسفر ، ولن يلمس القرى ، فكلمة كان موضعها أرفع كان أفخر . وهي نار مذكورة على الحقيقة لا على المثل^٣ . وعرفت عندهم بـ (نار الضيافة) وبـ (نار الأضياف) أيضاً . وقد ذكر أهل الأخبار أنهم ربما يوقدون بها بـ (المثلل) ، ليهتدي إليها العميان . فالمندلي خشب ذو رائحة طيبة ، تفوح منه اذا أحرق ، فنشم من مسافة بعيدة^٤ . وذكر أنهم كانوا يوقدون بها في ليالي الشتاء ، خاصة لحاجة الناس إلى القرى في ذلك الوقت . وكلمة كانت النار مرتفعة ضخمة ، كانت أفخر لمصاحبها . وقد أشير إليها في الشعر^٥ .

ويطلق العرب على كل نار تراها العين لا حقيقة لها عند الناس ، نار الجباحب ، ونار أبي الجباحب . وقد ذكر (الجاحظ) أنه لم يسمع في أبي جباحب شيئاً^٦ . ولهم قصص عن شخص زعموا أنه كان يعرف بـ (أبي جباحب) ، وكان رجلاً في سالف الدهر بخيلاً لا توقد له نار بليل ، مخافة أن يقبس منها نار ، أو يراها الضيفان فيقدون إليه ، فإن أوقدها ثم أبصرها مستضيء أطفالها ، فضربت العرب به المثل في البخل ، فقالت : « أخلف من نار أبي جباحب » . وذكر

- ١ صبح الاعشى (٤١٠/١) ، بلوغ الارب (١٦١/٢) وما بعدها ، خزائن الادب (٢١٢/٣) ، نزعة الجليس (٤٠٦/٢) .
- ٢ صبح الاعشى (٤١٠/١) ، بلوغ الارب (١٦١/١) وما بعدها ، خزائن الادب (٢١٢/٣) ، نزعة الجليس (٤٠٦/٢) .
- ٣ الحيوان (١٣٤/٥) ، خزائن الادب (٢١٢/٣) ، نزعة الجليس (٤٠٦/٢) .
- ٤ بلوغ الارب (١٦١/٢) وما بعدها ، نهاية الارب (١٠٩/١) وما بعدها .
- ٥ بلوغ الارب (١٦١/٢) ، صبح الاعشى (٤١٠/١) .
- ٦ الحيوان (٤٨٦/٤) وما بعدها ، المخصص (٢٨/١١) ، بلوغ الارب (١٦١/٢) وما بعدها .

أن (أبا الحبّاحب) رجل كان لا يتنفع بماله لبخله فنسبوا إليه كل نار لا يتنفع بها^١.
ومن النيران الأخرى : نار البرق ، ونار البراعة ، ونار الخلقاء والخراب ،
ونار الوسم ، وهي النار يسم بها الرجل منهم أبله . فيقال له : ما سميتك ؟
فيقول كلها^٢ .

وقد ذكر علماء اللغة أن العرب استعملوا النار في معنيين : معنى حقيقي ،
ومعنى مجازي . وقصدوا بالنيران الحقيقة ، النيران التي كان يوقدها العرب حطباً
وحصروها في أربعة عشر نيراً أو أكثر من ذلك ، أو أقل^٣ . وقصدوا بالنيران
المجازية ، استعمال الكلمة في معان مجازية ، مثل قولهم نار الحب ونار المعصية ،
ونار الخُمى ، ونار الشوق^٤ .

الصابئة :

ونجد في القرآن الكريم إشارة إلى الصابئين ، وقد ذكروا بعد اليهود والنصارى
في موضع من سورة البقرة^٥ ، وذكروا وسطاً بين اليهود والنصارى في موضع
من سورة المائدة وفي سورة الحج^٦ . ويظهر أن معارف أهل الأخبار عنهم نزرعة ،
فليس لديهم شيء مهم مفيد يفيدنا عن عقائد أولئك الصابئة وآرائهم .

وقد ربط أهل الأخبار بين هؤلاء الصابئة المذكورين في القرآن وبين صابئة
حمران وصابئة العراق ، وجعلوهم طائفتين في الأصل : طائفة هم صابئة حنفاء

- ١ بلوغ الأرب (١٦١/٢) وما بعدها .
- ٢ الحيوان (٤٨٦/٤) وما بعدها ، صبح الاعشى (٤١٠/١) ، نهاية الأرب (١٠٩/١) وما بعدها .
- ٣ بلوغ الأرب (١٦١/٢) وما بعدها ، خزائن الأدب ، لليقطيني (٢١٢/٣) ، (بولاتي) ،
نهاية الأرب (١٠٩/١) وما بعدها ، الحيوان (١٠٧/٥) وما بعدها ، نزهة
الجليس (٤٠٦/٢) .
- ٤ نهاية الأرب (١٠٩/١) وما بعدها .
- ٥ البقرة ، الآية ٦٢ .
- ٦ المائدة ، الآية ٦٩ ، الحج ، الآية ١٧ ، ناسخ الطبري (١٤٤/٢) ، « دار المعارف » ،
مجمع البيان ، للطبرسي (٢٧٨/١) ، التل والنحل ، للسهرستاني (٩٨/٢) ، نخبه
الدهر في عجائب البحر والبر ، للمعشقي (٤٤/١) ، بطرسبورغ ، « ابن خلدون
(٣٢/٢) ، دار الكتاب اللبناني ١٩٥٩ م ، « المسعودي ، مروج (٢٤٧/٢) ،
المهرسب (٣٣٢) ، رسوم دار الخلافة (٥) .

وهم في نظرهم أصحاب ابراهيم ممن كان بحراً ومن كان على دعوته ، وصابئة
مشركون وهم من فسدوا من الصابئة فأشركوا واعتقدوا بالكواكب^١ .

ولكن الذي يطعمهم من القرآن الكريم ان الصابئة جماعة كانت على دين خاص ،
وانها طائفة مثل اليهود والنصارى ، أي ان الكلمة مصطلح ولها مدلول معين
مفهوم . فذهب اليه المفسرون من هذا التعريف للصابئة ومن هذا التقسيم ، انما
تكون عندهم في الاسلام ، بعد وقوفهم على أحوال الصابئة واتصالهم بهم .

ويطعمهم من المواضع التي ورد فيها ذكرهم في القرآن الكريم ، ومن ورود اسمهم
مع اليهود والنصارى فيه ، انهم كانوا يعبدون إلهاً ، ويتوجهون في دينهم اليه^٢ .
ولا استبعد أن يكون من بين سكان مكة أناس كانوا من الصابئة ، جاءوا
اليها تجاراً من العراق ، أو جاء بهم الخط إليها ، حيث أوقعهم في سوق النخاسة ،
فاشترأهم تجار مكة وجاءوا بهم الى مدينتهم ، وعرفوا منهم أنهم صابئة .

ونحن إذا ما تتبعنا ما ورد عن لفظة صبا وصابىء في الموارد الاسلامية نرى
أن هذه الموارد تفسر لفظة صبا بمعنى خرج من شيء الى شيء ، وخرج من
دين الى دين غيره . وتذكر أن قريشاً كانت تسمى النبي صائباً ، والصحابه الصباة^٣ .
أي الخارجين على دين قومهم . وهي تستعمل لفظة الصابئة في كثير من الأحوال
في معنى حفاء ، كالذي نراه في ربطهم ابراهيم بهاتين الديانتين ، وعدتهم قدماء
الصابئة في جملة الحففاء ، فإن هذا يدل على أن المراد من الصابئة بين العرب
عند ظهور الاسلام هم المنشقون الخارجون على ديانة قومهم ، أي على عبادة
الأوثان والمثابدين بالتوحيد . وأما ما نراه من إطلاق الصابئة على الصابئة المعروفين
في الاسلام ، فإنما حدث في الإسلام .

وإطلاق قريش لفظة الصابىء والصباة على المسلمين بدلاً من تسميتهم بمسلمين
قضية مهمة جداً ، يجب الاهتمام بها ، وفي الأخبار أمثلة كثيرة على ذلك . فقد

١ - النهاية ، كشاف اصطلاحات الفنون (٨٨٧/١) . ينوع العرب (٢٢٣/٢) وما
بعدها () .

٢ - Dictionary of Islam, p. 581.

٣ - النهاية (٣٦٩/٢) ، اللسان (١٠٢/١) ، وكانت العرب تسمى النبي صلى الله
عليه وسلم الصابىء ، لانه خرج من دين قريش الى الاسلام . ويسمون من يدخل في
دين الاسلام مصيبوا . . ويسمون المسلمين الصباة . . ما ج العروس (٣٠٦/١) ،
طبعة الكويت ، . القاموس المحيط (٣٠/١) .

ذكرت كتب الحديث والسير واللغة أن قريشاً دعت النبي صائلاً ، وفي جملة من دعاه بذلك عمر قبل إسلامه ، ثم رمي 'عمر بها بعد إسلامه أيضاً . ولا أسلم أبوذر الغفاري ، انهال عليه أهل مكة بالضرب ، لأنه صاباً وقتن وخرج عن دينهم . ولا أرادت زوج مطعم بن عدي خطبة ابنة أبي بكر إلى ابنها ، ذكرت له أنها تخشى أن يؤثر على ولدها ، فيكون من الصباة . وقد كانت لفظة الصباة والصباة بمعنى مسلمين عند المشركين ، ففي معركة حنين نجد (دريد بن الصمة) يخاطب أحد رؤوس القوم ويقول له في جملة ما قاله : « ثم ألقى الصباة على متون الخيل »^١ . ولا أرسل بنو عامر ليبدأ إلى النبي ليرى خبره وعلمه ، أسلم ، وأصابه وجع هناك شديد من حمى ، فرجع إلى قومه بسبب تلك الحمى ، وجاءهم بذكر البعث والجنة والنار ، فقال صرافة بن عوف بن الأوحى :

لَعَمْرُ لَيْدٍ إِنَّهُ لَا بِنَ أُمِّهِ وَلَكِنْ أَبُوهُ مِمَّ قَتَمَ الْعَهْدُ
دَفَعْنَاكَ فِي أَرْضِ الْحِجَازِ كَأَنَّمَا دَفَعْنَاكَ فَحَلًّا فَوْقَهُ قَرَعَ الْبَدُ
فَعَالَجَتْ حِمَاهُ وَدَاهُ ضُلُوعُهُ وَتَرْنِيقُ عَيْشٍ مِمَّ طَرَفَ الْجَهْدِ
وَجِئْتُ بِدَيْسِنِ الصَّابِئِينَ تَشُوبُهُ بِالْوَاخِ نَجْدٌ بَعْدَ عَهْدِكَ مِنْ عَهْدِ
وَإِنْ لَنَا دَارٌ زَعَمْتَ وَمَرَجَعٌ وَتَمَّ لِأَبَابِ الْقَارِضِينَ وَذِي الْبَرْدِ

فكان عمر يقول : « وإيم الله لإياب القارضين وذو البرد » . فنصده الشاعر بجملة « دين الصابئين » الإسلام ، فالصابئون في نظر المشركين هم المسلمون . ولا ذهب سعد بن معاذ إلى مكة ، أنه أبو جهل على قدومه إليها بعد أن دخل في دين الصابئين . ولا قدم خالد بن الوليد على بني جذيمة ، نادوه بأسم صباؤا ، أي دخلوا في الإسلام . ويلاحظ أن الوثنيين أطلقوا هذه التسمية على كل من أسلم ، وعلى كل من شككوا فيه ورأوا أنه ميال إليهم ، فكانوا يرمونه بهذه التهمة . أما المسلمون ، فلم يربطوا بها . والظاهر أنها كانت سبة بالنسبة إليهم في ذلك العهد ، بدليل أنهم كانوا يكذبون من كان يطلقها من المشركين عليهم ويرد عليهم رداً شديداً ، فلما نادى جميل بن معمر الجمحي في قريش :

١ الطبري (١/١٦٦) ، معركة حنين .
٢ الإغاني (١٥/١٣١ وما بعدها) ، خبر ليبيد في رواية أخيه .
٣ لقد جمع « والهوذن » أكثر المواضع التي أطلق الوثنيون فيها هذه اللفظة على المسلمين ، راجع كتابه : *Illustr. 8, 234.*

ألا ، ان ابن الخطاب قد صاباً ، وذلك حين دخل في الاسلام ، وشهد بذلك أمام النبي ، نادى عمر من خلفه : كذذب ، ولكني أسلمت ، وقالت قريش : صاباً عمر . ولا بد ان يكون لتكذيب عمر وغيره الوثنيين لتسميتهم المسلمين بهذه التسمية من سبب . وهو سبب يشعر ان أهل مكة انما أطلقوها عليهم إهانة لهم وازدراء لشأنهم وعلى سبيل السبة ، لأنها كانت سبة عندهم وذلك قبل الاسلام . وإلا لما اتزعج المسلمون منها ، وردوا على قريش بسببها رداً قبيحاً . وقد رأيت ان المسلمين كانوا يفتخرون باطلاق الحنيفة عليهم ، وانهم كانوا يرون ان الخطاء هم ملف المسلمين ، وان ابراهيم كان حنيفاً وكان أول المسلمين . فالصائبون اذن هم أولئك الخارجون على عبادة قومهم المخالفين لهم في ديانتهم . شأنهم في ذلك في نظر قريش شأن من يسميهم المسلمون في ايماننا بالملاحدين أو المدامين ، أو أي مصطلح آخر يراد به الرمي بالخروج على مثل المجتمع القائم ونقائذه ، وذلك ازدراء بهم ، وتنقيراً للناس عنهم .

١ ابن الأثير (٣ / ٣٤ وما بعدها) : ذكر اسلام عمر بن الخطاب .

الفصل الرابع والثلاثون

تسخير عالم الأرواح

للعالم الخفي ، وأقصد به عالم الأرواح وكل ما لا تراه العين ويشركه الحس من قوى طيبة أو خبيثة ، أثر خطير في عقائد أهل الجاهلية ، وفي عقائد الشعوب القديمة ، وفي أنفس كثير من الناس حتى اليوم ، إذ يشغل ذلك العالم في الواقع جزءاً خطيراً من الدين ومن حياة الناس عامة . فهناك صلوات وشعائر وأدعية مكتوبة وغير مكتوبة تتلى وتقال وتقرأ للسيطرة على ذلك العالم ، وللارتفاع منه ، ولتسخيره في سبيل غير الإنسان ومصلحته ، ولتجنب أذى الشرع الخبيث منه . وإذا تتبعنا هذه الاعتقادات عند الجاهليين ، وجدنا أنها قد كونت الجزء الأكبر من عقيدتهم وديانتهم ، وأنها والذرائع من الأصول التي ارتكزت عليها ديانات العرب قبل الإسلام .

والواقع أن الاعتقاد بالأرواح يشغل حيزاً كبيراً من فناء الدين عند الجاهليين ، وإن بدا لنا أنه شيء لا علاقة له بالدين . فنحن حين البحث في موضوع العقيدة والدين عند أهل الجاهلية ، لا نتحدث بالطبع عن العقيدة والدين بالنسبة إلى معتقداتنا وبالنسبة إلى تفكير الإنسان في القرن العشرين ، وإنما نتحدث عن رأي أناس عاشوا قبل الإسلام ، وعن جياصة أدركت الإسلام ، كانت الأرواح في نظرها أكثر أثراً في حياة الفرد من أثر الآلهة فيه . فتقرب وتوسل إليها أكثر من تقربه وتوسله إلى آلهته التي كان يرى أن يدها مفتاح سعادته وشفاته . وآية ذلك كثرة الكلمات والمصطلحات الجاهلية المتعلقة بها ، وما ورد في القرآن الكريم وفي

الحديث النبوي والأخبار من أثر الجن في تقوس القوم ، حتى تصوروهم آفة وشركاء للأرباب في إدارة دفة هذا الكون .

هذا ، ونحن إن ذكرنا الأرواح ، فلأننا لا نقصد المعنى المفهوم منها في رأينا ، بل نقصد هذا المعنى وشيئا آخر أعم وأوسع منه ، معنى يشمل أيضاً بعض الأحجار والأشجار والآبار والكهوف وأمثال ذلك من أشياء تصور أهل الجاهلية أنها تكمن فيها قوة خارقة تستطيع التأثير في حياة الناس ، فتقربوا إليها بالزيارات والقرابين وبالتضرع والتوسل والأدعية لتدسبها ولتلك القدرة العجيبة التي فيها ، فهي من حيث النفع أو الضرر كالأرواح : لوجود قوى خارقة غير منظورة فيها ، هي من الأرواح ، فتقرب إليها الإنسان لذلك ، لغرض الاستفادة منها أو دفع أذاها .

وطبيعة الأرواح ، طبيعة غير مربية ولا منظورة ، هي لطيفة خفية مستورة . إنما يجوز لبعضها الظهور في صورة أشباح ، والتجسم على هيئة الأجساد . ثم إنها على طبيعتين : شريرة وخيرة ، غيبية وصالحة . من الطبيعة الأولى الشياطين وبعض أنواع الجن ، ومن الطبيعة الثانية الملائكة والشفير الثاني من الجن . وأثر الحديث من الأرواح أوضح وأكثر في عقلة أهل الجاهلية من أثر الفريق الصالح . وهو شيء منطقي مفهوم ، فالإنسان الـ الشر أقرب منه الـ الخير ، ذلك أن من طبع الخير عدم إلحاق الأذى بالغير ، فلا يخشى منه . أما الشرير ، ففي طبعه إلحاق الضرر والأذى بكل واحد ، وفي كل لحظة يراها ، لذلك التفتت إليه الأنظار حذراً منه ، وخشية من مكروهه ، وتقربت وتوددت إليه ، لا حباً له ، ولا تقرباً إليه لأنه جدير به ، بل إنما تحلفاً وتزلفاً لإبعاد شره ، وأمن جانبته على نخط ما يفعله الناس تجاه الأقوياء من الأشرار حيث يتقربون إليهم أو يتعدون عنهم طمعاً ورهبة ، تخشية لأموال معاشهم ، لا حباً لهم وإخلاصاً لاستحقاقهم ذلك الحب والإخلاص .

وقد ذكر (الجاحظ) أن الأعراب تجعل الخواني والمستجنات جنسين . يقولون جن " وحش " . وقصد به (الخواني) الأرواح ، لأنها لا ترى . وذكر غيره أن (الجن) ، حي من الجن ، كانوا قبل آدم ، يقال منهم الكلاب السود إليهم ، يقال كلب حني ، أو سفلة الجن وضعفاؤهم أو كلابهم ، ومنه حديث

ابن عباس ، رضي الله تعالى عنها ، الكلاب من الجن ، وهي ضعفة الجن ، فإن كان عندكم طعام فالتقوا لمن ، فإن لمن أنفساً ، أي تصيب بأعينها ^١ . وذكر ان (الجن) خلق بين الجن والانس ^٢ .

وذكر (الجاحظ) أيضاً أن بعض الناس يقسم الجن على قسمين ، فيقول : هم جن^٣ و (جن^٤) . ويجعل (الجن) أضعفها ^٥ . وقد ذهب بعض أهل الأخبار الى أن (الجن) ، هم كلاب الجن وسفلتهم ، وشر أنواع الجن^٦ . ويجعلون الجن فوق الجن^٧ .

ويقال للجن الجنان ، و (الجنة) كذلك . و (الجنان) اسم جمع للجن على رأي بعض علماء اللغة ^٨ . وقد ورد في مقابل (الإنس) في القرآن الكريم ، لم يطلعنهن إنس قبلهم ولا جان ^٩ . وصيره اسم أبي الجن بعض العلماء ، أي في مقابل آدم أبي البشر^{١٠} . وقد ذهب بعض المستشرقين الى أن كلمة (الجن) من الكلمات العربية ، وذهب بعض آخر الى أنها عربية ^{١١} . وأرى أنها من الكلمات السامية القديمة ، لأن الإيمان بالجن من العقائد القديمة المعروفة عند قدماء الساميين وعند غير الساميين كذلك . والجن قوم مستترون ، وكلمة (جنون) من هذا الأصل ، ومن معاني أصل الكلمة الاستتار .

ولم يتوصل الباحثون حتى الآن الى وثي ثابت في أصل كلمة (الجن) . ففهم من رأى أنهم اسم صنم من أصنام العرب القديمة ، ومنهم من رأى أنها من أصل

- ١ تاج العروس (١٨٥/٩) ، (جنن) .
- ٢ المصدر نفسه .
- ٣ الحيوان (١٧٧/٧) ، (هارون) ، (١٩٣/٦) .
- ٤ بلوغ الأرب (٣٥١/٢) .
- ٥ قال أعرابي سليم :
لما أنا من جن إلا كنت حائفاً ولست من النسماس في عنصر البشر
وقال آخر :
أبيت أهوى من شياطين نون مختلف بجواهرهم جن وجنس
الحيوان (١٩٣/٦) .
- ٦ تاج العروس (١٦٥/٩) ، (جن) ، روح المعاني (٣٤/١٤) وما بعدها .
- ٧ الرحمن ، الآية ٧٤ .
- ٨ تاج العروس (١٦٥/٩) ، (جن) ، (والجان - أبو الجن) . كما أن آدم أبو البشر .
- ٩ البشر ، (النسان) (١٣/٩٥ وما بعدها) ، (جن) .
Beste, B. 148.
Ency., I. p. 1045, Smith, p. 121, Lane, Lexicon, p. 492.

أعجمي ، ومنهم من وجد لها صلة بالخشية^١ . أما علماء العربية ، قرأوا أن معنى الكلمة الأصلي هو الاستتار ، وأنها من الاجتنان ، ولعدم إمكان رؤية ذلك العالم أطلقت عليه كلمة (الجن)^٢ . وتقابل لفظة (الجن) و (جن) لفظة (Demons) في الإنكليزية .

ويرى (نولدكه) أن فكرة (الجن) فكرة استوردتها العرب من الخارج ، بدليل قولهم أن الجنة من عمل الجن ، ومن تليس الجن بالإنسان . وهي في نظره عقيدة قديمة دخلت العرب من جيرانهم الشماليين ، فقد كان الآيريانيون يطلقون على المجنون لفظة (ديوانه) (Devana) ، أي الذي به (ديو) (dev) من الأصل (ديسو) (Daiva) ، ومعناه (Demon) ، أي جان . ومن هذه الفكرة دخلت العهد الجديد من الكتاب المقدس . وبأني (نولدكه) بدليل آخر على الثابت نظريته في أن فكرة الجن فكرة مستوردة من الخارج شيوع قصص بناء جن سليمان مدينة (تدمر) بين الجاهليين ، وهو قصص ورد من قصة بناء (سليمان) لـ (تامار) في العهد القديم ، وتفسير (تامار) بتدمر عند المفسرين العرب^٣ .

ورأي (روبرتسن سمث) وجوه شبه كبير بين فكرة العرب عن الجن وبين فكرة بعض القبائل البدائية عن الحيوانات . إن رأي الجاهليين في الجن في رأيه شبه رأي المتوحشين الطوطميين في الحيوانات الوحشية . وفي القصص الذي يرويها البدائيون عن الحيوانات الوحشية وعن أرواحها وامكان أحداثها الأمراض والأذى بالإنسان شبه هذا القصص المروي عن الحيوانات الوحشية ، مما جعله يتصور أن فكرة الجن عند الجاهليين هي تطور لهذه النظرية القديمة التي تكون عنها الطوطميين . انتقلت إليهم من عقيدة سابقة تطورت من عهد عبادة الطوطم . وإن الجن (طوطمية) دون أن يكون لها قوم يشعرون بوجود صلة نسب وقربى بها^٤ .

ولكن من الصعب تصور ظهور فكرة الجن عند عرب الجاهلية برمتها من

1. Enzy. Religi., I, p. 689, Noldeke, Moallakat, I, 69, 78, Shorter Enzy., p. 91.

2. Enzy., I, p. 1045.

3. تاج العروس (١٦٥/٩) ، (جن) ، اللسان (٩٥/١٣) وما بعدها ، (جن) .

4. Enzy. Religi., I, p. 670.

5. Robertson Smith, Marriage, p. 128.

الفلوطينية ، لأن هناك أموراً عديدة لا يمكن تفسيرها على وفق هذه النظرية .
ولكننا نستطيع ان نقول انها نوع من أنواع الـ (Animism)^١ . وقد وجدت
عند المبرانيين في عهودهم القديمة ، كما كانت عند البابليين وغيرهم .
وإذا سكن الجنّي مع الناس ، قالوا : عامر ، والجمع عامار ، وإن كان ممن
يعرض للصبيان ، فهم أرواح ، فإن غبت أحدهم وتعرّم ، فهو شيطان . فإن
زاد على ذلك ، فهو مارد . فإن زاد على ذلك في القوة ، فهو عفريت . فإن
ظهر الجنّي وتلف وتقي وصار خبيراً ككاهن فهو ملك . وهم في الجملة جن ونحوها^٢ .
لقد لعب الامان بالجن عند بعض الجاهليين دوراً فاق الدور الذي لعبته الآلهة
في عيانهم ، فسبوا إليها أعمالاً لم ينسبوا إلى الأرباب ، وتفرّبوا إليها لاسترضائها
أكثر من تفرّبهم إلى الآلهة . إنها عناصر مخيفة رابعة . تؤذي من يؤذيها وتلحق
به الأذى والأمراض ، ولذلك كان استرضائها لازماً لأمن تلك الآفات . وهذه
العقيدة جعلت الجن في الواقع كلفة ، بل أكثر سلطة وقوة منها ، وصيرت عمل
الآلهة سهلاً يسيراً تجاه الأعمال التي يقوم بها الجن . ولا زال أثر هذه العقيدة
باقياً في نفوس الناس حتى الأيام ، مع تقليل أهمية عمل الجن على الإنسان في
الاسلام .

ولبت هذه العقيدة عقيدة أهل الجاهلية حسب ، بل هي عقيدة أكثر مسن
اعتقد بأثر الأرواح في العالم وفي عمل الإنسان ، اذ صيرتها كلفة مقرّها الأرض ،
أو آلهة من الدرجة الثانية . والغريب أننا نرى بعض الشعوب تخصص أعمال الآلهة
الكبيرة بخاصة معينة ، وتعتبرها كلفة رئيسة كبرى ، بينما تجعل عمل الجن عملاً
واسعاً يشمل كسل الأرض والانسان ، أي أن عملها أوسع جداً من عمل تلك
الآلهة وأهم .

وفي القرآن الكريم ان قرشاً جعلت بين الله وبين الجنة نسباً : « وجعلوا بينه
وبين الجنة نسباً » ولقد علمت الجنة أنهم لمحضرون^٣ ، وانها جعلت الجن
شركاء له : « وجعلوا لله شركاء الجن وخلقهم وعرفوا له بشعاً ويناتٍ غير
علم ، سبحانه وتعالى عما يعصفون »^٤ . أي جعلوا لله الحسن شركاء في عبادتهم

١ المصدر نفسه .

٢ الحيوان (٦ / ١٩٠ وما بعدها) .

٣ الصافات ، الآية ١٥٨ .

٤ الانعام ، الآية ١٠٠ .

أياه ، وغرطوا له بنين وبنات ، وتحرصوا لله كذباً ، فافتعلوا له بنين وبنات جهلاً وكذباً^١ . وورد أن الله تزوج الجن ، وأن الملائكة هم بناته من هذا الزواج . قال كبار قريش : الملائكة بنات الله . فقال لهم أبو بكر الصديق : فمن أمهاتهم ؟ قالوا : بنات سرافة الجن^٢ .

وبغهم من القرآن الكريم أيضاً أن من العرب من كان يعبد الجن : « قالوا : سبحانه ، أنت ولينا من دونهم ، بل كانوا يعبدون الجن ، أكثرهم بهم مؤمنون »^٣ . وذكر (ابن الكلبي) أن (بني ملح) من نخاعة رهط طلحة الطلحات ، كانوا ممن تعبد للجن من الجاهليين^٤ . ويؤمنون أن الجن تترامى لهم . وفيهم نزلت : « إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم »^٥ . وذكر أن قبائل من العرب عبدت الجن ، أو صنفاً من الملائكة يقال لهم الجن . ويقولون هم بنات الله^٦ ، فأنزل الله : « أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة . أيهم أقرب . ويرجون رحمته ويخافون عذابه . إن عذاب ربك كان محذوراً »^٧ .

وليس لدى المفسرين أو أهل الأخبار علم واضح عن كيفية اعتقاد بعض العرب بالوهمية الجن وبمصاهرتها للألفة أو الإله . وما ورد عن ذلك في القرآن ، مجهل . والظاهر أن ذاكرة الأخباريين لم تتمكن من حفظ تفاصيل هذه العقيدة والعقائد المماثلة الأخرى ، ولا يد وأن تكون لها أسطورة قديمة ، يظهر أنها ماتت قبل الإسلام ، أو أن المسلمين تركوا روايتها لمعارضتها للإسلام ولأنها كانت في نظرهم عرافة تتعلق بأصنام ، فلم يروا الاهتمام بها ، وتركوها ، ولولا ورود ذكرها مقتضياً في القرآن ، فلربما صرنا في جهل تام بأمر تلك العبادة .

ويرى (تولدك) أن الجاهليين لم يتعبدوا للجن ، ولم يتخذوها آفة على نحو

- ١ تفسير الطبري (١٩٧/٧) .
- ٢ لباب النفول في أسباب النزول . للسيوطي (٨١/٢) وما بعدها ، حاشية على تفسير الجلالين .
- ٣ سبأ . الآية ٤١ .
- ٤ الاصنام (٣٤) ، الاستغاثي (٢٧٦) .
- ٥ تفسير القرطبي (٣٠٩/١٤) .
- ٦ الاعراف ، الآية ١٩٣ .
- ٧ تفسير الطبري (٧٢/١٥) .
- ٨ الاسراء . الرقم ١٧ ، الآية ٥٧ .

ما تفهم من معنى الآفة ، وأن (عبد الجن) ، وإن دل على التعبد للجن ، إلا أن هذه التسمية لا تدل حتماً على عبادة للجن^١ .

وتتألف الجن من عشائر وقبائل ، تربط بينها رابطة القربى وصلة الرحم . وهي كعشائر وقبائل جزيرة العرب ، تتقاتل فيما بينها ، ويغزو بعضها بعضاً . ولها أسماء ذكر بعضها أهل الأخبار ، كما أن لها ملوكاً وحكاماً وسادات قبائل . فهي في حياتها تحيا على شكل نظام حياة الجاهليين . وإذا اعتدى معتد على جان انتقم قبيلته كلها من المعتدي أو المعتدين . وبين قبائل الجن عصية شديدة ، كعصية القبيلة عند الجاهليين ، وهي تراعي حرمة الجوار ، وتحفظ الدم والعقود وتعقد الأحلاف . فنحن إذن أمام حياة جاهلية مسترة غير منظورة ، هي حياة جن جاهليين ، ومن الجن (بنو غزوان)^٢ ، (بنو غزوان)^٣ .

وقد تتقاتل طوائف من الجن ، فيسير قتالها عواصف الغبار ، ولذلك فسر الجاهليون حدوث العواصف والزواجيع بفعل الجن . ونجد هذه الفكرة فكرة إحداه الجن للرياح والعواصف في الترامير من أسفار النوراة^٤ .

وهم مثل البشر ، فيهم الحضر ، أهل القرار ، وفيهم المتنقلة وهم أعراب الجن ، وفيهم من يسير بالنهار ، وفيهم من يسير بالليل ، وهم (سراة الجن) ، و (السراة) . قال الشاعر :

أنا ناري فقلت منون قالوا : سراة الجن ، قلت : عموا ظلاماً^٥

والجن كما للإنس سادة ورؤساء وعظماء ، نذكر منهم : الشفتاق والشيبيان . وقد ذكر الأول في شعر (بشار بن برد) وفي شعر لأبي النجم ، وفي شعر حسان بن ثابت^٦ ، و (دحرش) أبو قبيلة من الجن^٧ .

وعقد الجاهليون أخلاقاً مع الجن على التعاون والتعاقد ، فقد ذكر أن قوماً

Ency. Religh, I, p. 670.

١ التلسان (٨٩/٥) ، (بنو غزوان ، حي من الجن) ، (مرد) .

٢ تاج العروس (٢٤١/١٠) = (عز) .

٣ المزمور ١٠٤ ، الآية الرابعة . Haste, B. 181.

٤ تاج العروس (١٧٤/١٠) = (سرى) .

٥ الحيوان (٣٠٨/١) = (٢٢٨/٦ ، ٢٣١) ، تبار القلوب (٥٥) .

٦ تاج العروس (٣١-/٤) = (دحرش) .

من العرب ، كانوا قد تحالفوا مع قوم من الجن من (بني مالك بن أقيش)^١.
ويذكر الرواة قصصاً عن الجن مع الإنسان . يذكرون أن (تأبط شرأ) رفع
كبشاً تحت إبطه ، وأتبعه معه إلى الخي ، فصار يبول عليه في الطريق ، حتى
إذا قرب من مكانه ، ثقل عليه ، فرمى به ، فإذا هو الغول^٢ . ويذكرون أن
ابن امرأة من الجن أراد الحج في الجاهلية ، فخافت عليه أمه من سفهاء قريش ،
ولكنه ألح عليها بأن تسمح له بالذهاب . فلما أكمل الطواف ، وصار ببعض
دور بني سهم ، عرض له شاب منهم قتله ، فثار غيرة شديدة بحكمة ، ومات
من بني سهم خلق كثير قتلهم الجن انتقاماً منهم لقتل الجن ، فتهافت بنو سهم
وحلفائهم ومواليها وعبيدها ، فركبوا الجبال والشعاب بالثنية ، فما تركوا حية
ولا عقرباً ولا عظاية ولا خنفساء ولا شيئاً من الحوام يذب على وجه الأرض إلا
قتلوه ، حتى ضجت الجن ، فصاح صائحهم من على أبي قيس بطلب وساطة
قريش بينهم وبين بني سهم الذين قتلوا منهم أضعاف ما قتل الجن من بني سهم ،
فوسلت قريش ، وأنهى النزاع ، وتغلب بنو سهم على الجن^٣ .

والجن مثل البشر ، يعتدون كذلك ، ولا يردعهم من اعتدائهم إلا القوة .
هذا رجل من (بني سهم) يقص علينا في الإسلام أنه كان يـ (نباله) يراجع
تخللاً له ، وبين يديه جارية له ، فصرعت ، فأدرك أن الجن هم الذين صرعوها ،
فوقف عليها قائلاً : يا معشر الجن ! أنا رجل من بني سهم ، وقد علمتم ما كان
بيننا وبينكم في الجاهلية من الحرب وما صرنا إليه من الصلح والعهد والميثاق أن
لا يغدر بعضنا بعضاً ، ولا يعود إلى مكروه صاحبه ، فإن وفيتم وفينا ، وإن
غدرتم عدنا إلى ما تعرفون . فخلفت الجن من هذا التهديد ، وأفاقت الجارية ،
ولم يصيبها بعد ذلك مكروه^٤ .

وذهب الجاهليون إلى جواز قتل الجن للإنسان . وقد بقي هذا الاعتقاد

١ الطبري (٣٤٩/٢) ، (دار المعارف) .

٢ الأغانى (٢١٠/١٨) وما بعدها .

٣ الأزرقى (١١/٢) وما بعدها . ، الطبعة المأجدة بسكة .

٤ الأزرقى (١٢/٢) وما بعدها .

في الإسلام . فلما قتل (سعد بن عباد بن دليم) ، زعم أن الجن قتله^١ . ولما قتل المغني المعروف (الغريص) ، وهو من الموالي ، وكان نشأ غنيماً ثم أخذ الغناء بمكة عن (ابن مريج) ، زعم أن الجن نهته أن يغني لحته الذي يقول فيه :
تشرب لسون الرزقي يياضه أو الزعفران خالط المسك رادعه

فلما لم يته قتله الجن في ذلك خفياً .

وزعم أن الجن خنقت (حرب بن أبة) ، وقالت الجن في ذلك شعراً^٢ . وقتل (ميرداس بن أبي عامر) ، أبا (عباس بن مرداس) ، واستهوت (سنان بن حارثة) ، ليستحلوه ، فأت بهم . واستهوا (طالب بن أبي طالب) ، فلم يعثر الله له على أثر ، واستهوا (عمرو بن عيسى) اللخمي الملك ، ثم ردّوه على خاله (جذيمة بن الأبرش) ، بعد سنين وسنين . واستهوا (عمارة ابن الوليد بن المغيرة) ، وتفقخوا في أحبله ، فصار مع الوحش^٣ .

وبروي أهل الأخبار أن الجن تتصادق مع الإنسان وتتبايع معه ، وقد نقله ، ورووا في ذلك قصصاً ، وذكروا أنها قد تتألم لوفاة رجل طيب أو شهير محبوب . وقد تعطف على المحتاجين والمعوزين . وفي جملة ما قالوه عن الجن أن (أبا هالة) كان قد خرج في الجاهلية في غير القرى يريد الشام ، فترل وادياً يقال له : (عز) ، وأتته آنس الليل فأذا شيخ قائم على صخرة ، وهو ينشد شعراً في رثاء عبد الله بن جعدان ، وكان ذلك الشيخ جان من الجن . وقد ذكر أهل الأخبار محاوره من الشعر قالوا أنها جرت بين (أبي هالة) ، وبين ذلك الشيخ

- ١ كتاب البقال من رسائل الجاحظ (٣٧٣/٢) . المعارف ١١٢ ، الحيوان (٣٠٩/٦) . الاشتقاق (٤٥٦) . وسمعوا الهاتف يقول :
قد قتلنا سيد الخرز ج سعد بن عباد
ورميناه بسهمين فلم نخط فؤاده
- ٢ الحيوان (٣٠٩/٦) . (هارون) . (٣٠٨/٦) .
- ٣ كتاب البقال من رسائل الجاحظ (٣٧٣/٢) . الاغانى (١٣٦/٢ - ١٤٣) . الحيوان (٣٠٨/٦) . (هارون) . الحيوان (٣٠٧/٦) .
- ٤ الحيوان (٣٠٢/٦) . (هارون) . وقالت الجن :
وقبى حروب بمكان قفى وليس قرب قفى حروب قفى
الحيوان (٣٠٧/٦) . (هارون) .
- ٥ الحيوان (٣٠٩/٦ وما بعدها) . (هارون) .

الجنّي الذي عين وقت وفياة (عبدالله بن جعدان) ، وثبته بالضبط ، فكان كما قال^١ .

وقد يقع الحب بين الجن والإنس . فقد ذكر ان الجنّة قد تتبع الرجل نحباً ، ويقال لها : تابعة . ومن ذلك قولهم : معه تابعة ، أي من الجن . والتابعة جنّة تتبع الإنسان . كما يكون للمرأة تابع من الجن ، يتبع المرأة بحبها^٢ . وقد يعشق الجنّي امرأة ويتصادق معها . هذا (منظور) الجنّي ، عشق امرأة اسمها (حبة) ، وتصادق معها ، فكانت (حبة) تتعجب بما يعلمها منظور^٣ .

وقد يسرق الجن الأطفال والرجال والنساء ، وللأختاريين قصص يروونه في ذلك . وينسب فقدان الأشخاص في البوادي إلى الجن في الغالب . غير أنها قد تنزع الناس أيضاً ، لأن من الجن من هو طيب النفس ، مفيد نافع ، ولا سيما اذا ما تقرب اليها الإنسان وأحسن اليها . رأى الشاعر عبيد بن الأبرص حبة ، فسقاها . فلما ضلّ جمل له وناه ، نادى هاتف بصوت مسموع سمعه عبيد بن الأبرص مشيراً إلى الموضع الذي ذهب الجمل اليه . فذهب عبيد إلى المكان ، وجاء بجمله^٤ . وكان هذا الهاتف هو صوت الحبة التي هي جان من الجن .

وقد يتصاهر الإنسان مع الجن ، فقد كان عمرو بن بربوع بن حنظلة التميمي زوج من الجن : ولكنها لم تبق معه ، بل اختفت بعد ذلك عند ظهور البرق^٥ . ونسبت بعض الأسر والقبائل مثل (بني مالك) ، و (بني شيبان) ، و (بني بربوع بن حنظلة) وعرفوا ببني السعلاة إلى الجنس^٦ . ونسب بعض الأخباريين نسب يلقبهم وبني القرنين إلى الجن^٧ . وذكر أيضاً أن زوج (عمرو بن بربوع التميمي) كانت سعلاة ، أقامت مع زوجها في (بني تميم) : فلما رأته برقا يلمع من شق بلاد السعالي ، حنت وطارت إليهم ، فقال شاعرهم :

١ الاشتقاق (ص ٨٨ وما بعدها) .

٢ اللسان (٢٩/٨) . (تبع) .

٣ تاج العروس (١٩٨/١) . (حب) .

٤ الأساطير العربية (٧٩) . Reste, 154. ff.

٥ الحساسة (٥٦١/١) . (طبعة فرايتاغ) . بلوغ الأرب (٣٤٠/٢) . الحيوان (١) / ١٨٥ وما بعدها (١٨٨) . (هارون) . Reste, R. 154.

٦ الأساطير العربية (٧٥) .

٧ بلوغ الأرب (٣٤٩/٢) . الحيوان (١٨٧/١) وما بعدها .

رأى برقاً فأوضع فوق بكر فلا بك ما أسأل وما ألاما^١

وفي ذلك قال (عليه بن أرقم) :

يا قاتل الله بني السعلاة عمرو بن يربوع شرار الناس^٢

وقد تعرض (الملاحظ) لموضوع زواج الانس بالجن وبالعكس ، أي زواج الجن بالانس . وتعرض لقول من قال إن (بلقيس) كانت من امرأة جنية . وذكر آراء الناس في هذا الزواج المختلط ، الذي شك في إمكان انجاب نسل منه . وقال : « وقد يكون هذا الذي نسمعه من النهاية والتحقانية ، ونفروه في كتب البيرة ، قص به القصاص ، وسعروا به عند الملوك »^٣ . وقد كان لأهل اليمن قصص وأساطير ، بدليل ما نلاحظه من أن معظم رواة القصص القديم كانوا من أهل اليمن في صدر الإسلام . ويظهر أنهم حلّقوا به ونفّروا به على بقية العرب الذين نسبهم العدنانيين بسبب دخول كثير منهم في اليهودية وفي النصرانية وشرائع الكتب ، وفيها قصص من قصص أهل الكتاب والأساطير القديمة ، فزجوه مع ما كان لهم من قصص وثني قديم .

وقد أطلق (الملاحظ) على قول الناس بزواج الانس بالجن وبالعكس (الزواج المركب) ، وأشار إلى قول الشاعر عليه بن أرقم :

يا قاتل الله بني السعلاة عمراً وقابوساً شرار الناس

انه الدليل على أن السعلاة تلد الناس . هذا سوى ما قالوا في الشق وواق واق ودّوال باي وفي الناس والناس^٤ .

وذكر أيضاً أن أعراب بني مرة تزعم أن الجن استهوت سناناً بن أبي حارثة المري ، وهو والد هرم بن سنان ، لتضطره إذ كان منجياً ، وكان سنان قد

-
- ١ الحيوان (١٨٦/١) . (هارون) . (١٩٧/٦) .
 - ٢ الحيوان (١٦٦/٦) . اللسان (٤٠٧/٢) . نوادر أبي زيد (١٠٤ ، ١٤٧) . المخصص (٢٦/٣) (٢٨٣/١٣) . الأمالي ، للفقالي (٦٨/٢) . محاضرات الراغب (٢٨١/٢) . الحصان (٤٥١) . الفصول والغايات (٢٦٠) .
 - ٣ كتاب البقال من رسائل الجاحظ (٣٧١/٢) .
 - ٤ كتاب البقال من رسائل الجاحظ (٣٧٤/٢) . الحيوان (١٨٩/١) . (هارون) .

هام على وجهه^١ .

وقد وجه الانسان جميع مواهبه منذ أقدم ايامه لتسخير عالم الأرواح ، وجعله في خدمته وتحت تصرفه ، أو لتحويله بحسب رغباته ، وتجنب ضرره وأذاه . قام بذلك رجال الدين خاصة ، ورجال الدين بحكم اتصالهم بالآلهة وبالعالم غير المنظور ، هم غطاء الآلهة على وجه الأرض ، وألسنة الأرواح الناطقة بين الناس . فكانوا حكماً ورجال دين وسحرة وأطباء وعلماء ، كما قام بذلك المنجمون والسحرة والكهّان وغيرهم ممن تكهن وتحدث عن الغيب ، وأظهر ان في قدرته التأثير على حياة الانسان وقبضه وضربه بالاستعانة بعالم الأرواح وبمسا عنده من قدرات خارقة في امكانها اختراق حجب الأسرار والتحكم في العالم الخفي لتحويله إلى صالح الانسان أو إلى الاضرار به .

وليس الجاهليون بدءاً في هذه الأمور، بل كان غيرهم من الشعوب كالعبرانيين والبابليين والافريق والرومان والمصريين والهنود وكل الشعوب الأخرى تعتقد بذلك . ولما رجال ادعوا العلم .

وقد كان الجاهليون يعلقون الحلي والجلال على (اللديغ) ، يفعلون ذلك لاعتقادهم انه يفيق بذلك ، فلا ينام ، ولو نام ، سرى السم في جسمه ، مات . وذهب بعضهم إلى ان تعليق الحلي على اللديغ يبركه من آله . أما إذا حلق الرصاص عليه ، أو حلي به ، فإنه يموت^٢ .

وتقوم الجن بأعمالها بشكل غير منظور في الغالب ، لأنها أرواح . وهي قد تحذر الانسان أو ترشده الى شيء يريد به بصوت جهودي مسموع ، يقال له : الهاتف ، دون أن يرى الشخص أو الأشخاص صاحب ذلك الصوت . وهي تنبئ عن المستقبل كما تتحدث عن الماضي^٣ . وقد ذكر (الجاحظ) أن « الأعراب وأنشأه الأعراب لا يتحاشون من الإيمان بالهاتف ، بل يتعجبون ممن رده ذلك » . ثم قال : « قالوا : ولتقل الجن الأخبار علم الناس بوفاء الملوك ، والأمور المهمة ، كما نسامعوا بموت المنصور بالبصرة وفي اليوم الذي توفي فيه بقرب مكة . وهذا الباب أيضاً كثير^٤ » .

١ المصدر نفسه (ص ٣٧٥) ، الحيوان (٢٤ / ٧) ، الميداني (٢٠٢ / ١) .
٢ بلوغ الأرب (٣٠٤ / ٢) .
٣ الحيوان (٢٠٢ / ٦) .
٤ الحيوان (٢٠٢ / ٦) وما بعدها .

والجن وان كانت من الأرواح ، أي أنها غير منظورة ، إلا أن في استطاعتها أن تتجسم متى شامت . فتظهر على هيئة جسم من الأجسام . إذ أن للجن قدرة على التشكل بالشكل الذي تريده ، تظهر في صورة حيوان أو في صورة إنسان أو غير ذلك . ومن هنا نجد قصص مصاهرة الإنسان للجن ، وظهور نسل وأسر من هذا الزواج . وفي استطاعتها أيضاً تغيير الشكل الذي ظهرت به بشكل آخر حيث تشاء^١ . كما ورد ذلك في قصة الشاعر (نابط شرأ) والكيش الذي حله ، بينما هو جني . ومن هنا تختلف طبيعتها عن طبيعة البشر والحيوان .

وقد تمثل الجن في صور حيوانات مشعرة ، أي ذات شعر كثيف ، فالجن عند الشعوب السامية ذات شعر كثيف ، لذلك قيل لها (سعريم) (Sairim) في العبرانية . وهي تختار الأماكن الموحشة المظلمة في الظلام ، مثل رهبان الليل (ليليث) (Lilith) ، وتذهب مع الحيوانات التي تنفر من الإنسان مثل النعامة^٢ .

وفي الأساطير الجاهلية ان البقر اذا أوردت و قلم ترد ، ضربوا الثور ليفتحم الماء ، ففتحهم البقر بعده ، ويقولون إن الجن تصد البقر عن الماء ، وان الشيطان يركب قرني الثور^٣ . وقد ذكرت هذه الأسطورة في أشعار جاهلية ، يظهر من قدها ودراستها أنها من آثار العقائد الجاهلية في الجن . وقد اتخذت مثلاً لمن ينزل عليه مكروه في سبيل إغاثة غيره ، فيكون بذلك كبش القداء . واعتقادهم ان الشيطان يركب قرني الثور ، هو الذي جعلهم يتصورون ان الثور يتقدم البقر في شرب الماء ، ذلك لأن الشيطان ركب قرنيه ، فلا يخشى الثور اذن من الجن ، والشيطان أحيث أنواع الجن وأذكاعا . فتخافه الجن ، وتضج للجل البقر في ورود الماء . أما ضرب الثور لتوجيهه إلى الماء ، فلأجل ان الشيطان ركب قرنيه ، فيضربه ويتقدمه يتقدم الشيطان نحو الماء فتخافه الجن وتفرغ منه ، وتسمح للبقر بورد الماء ، ولذا ضرب ، ليستفيد بذلك غيره^٤ .

Robertson Smith, Lectures on the Religion of the Semite, p. 120.

Robertson, p. 120, B.C. Thompson, Semitic Magic, London, 1908, p. 57.

قال الأعشى :

للكالور والجنس يضرب وجهه
ولفسحه :

أنى وقتلى سليكا حين أعقله

يلوح الأرب (٣٠٣/٢ وما بعدها) .

وأهم مواطن الجن في فطر الجاهليين ، هي المواضع الموحشة ، والأماكن المظلمة التي لا تطرق إلا نادراً والمحللات التي لا تلائم الصحة ، والمقابر والأماكن المظلمة والمهجورة . ففي مثل هذه المواطن تنزل الجن ، وتفضل الإقامة بها ، وسبب ذلك ، هو أن الإنسان يخشى هذه المواضع ، ويحس بشيء من الخوف والوحشة من الدخول إليها ، فقد يتعرض فيها إلى التهلكة ، فأوحى هذا الاحساس إليه أنها (مسكونة) ، وأن سكانها هم الجن . وأنهم قد يتعرضون له بسوء إن لم يعرف كيف يسلك سلوكاً طيباً معها ، ولذلك صار يتحاشى ولوج هذه المواضع ، لا سيما في الليالي المظلمة ، وإذا دخلها مضطراً ، تخيل الأشباح والأرواح وهي تلعب به كيف تشاء ، وتحوم حوله . ومن هنا ظهر عنده القصص المروية عن مواطن الجن .

وسكنت الجن المواضع المظلمة والفجوات العميقة فيها وباطن الأرض ، ولذلك قيل لها : ساكنو الأرض . كما سكنت المقابر^١ . والمقابر هي من المواضع الرئيسية المهمة المأهولة بالجن ، ولذلك يخشى كثير من الناس ارتدادها ليلاً . وهي لا بد أن تكون على هذه الصفة ، فهي مواطن الموتى ، وأرواح الموتى تطوف على القبور ، والموت نفسه شيء مخيف ، والجن أنفسهم أرواح مخيفة ، فهل يوجد موضع أنسب من هذا الوضع لسكن الجن ؟

وترجم الأعراب أن الجن سكنت (وبار) ، ومعناها من كل من أرادها ، وهي بلاد من أعصب بلاد العرب ، وأكثرها شجراً ، وأطيبها ثمراً ، وأكثرها حياً وعباً . فإن هذا إنسان من تلك البلاد ، متعمداً أو غالطاً ، حشوا في وجهه التراب ، فإن أبى الرجوع لحبلوه ، وربما قتلوه . فليس في تلك البلاد إلا الجن ، والإبل الوحشية^٢ .

وقد زعم أن (يبرين) من مواطن الجن ، وكانت في الأصل مواضع عاد . فلما هلكت ، سكنها قبائل الجن . وقد روى أهل الأخبار قصصاً عنها وعن اتصالها بالإنسان . وزعم بعض منهم أن (التناس) ، هم قوم من الجن .

Reste, B. 151.

١ الحيوان (٢١٥/٦) وما بعدها .

٢ تاج العروس (٢٥٧/٤) ، (نس) .

وقد ورد مثل هذه الأقوال عن مواضع أخرى كانت عامرة آفة، ثم أقصرت،
مثل الحجر موضع ديار نمود^١ ، مما يدل على أن من اعتضادات العرب قبل الإسلام
هو أن المواضع التي تصيبها الكوارث تكون بعد هلاك أصحابها مواطن الجن .
ونجد مثل هذه الأساطير عند العبرانيين وعند غيرهم من الشعوب^٢ .

وأشير في شعر (لييد) إلى (جن البدي) . قيل : « والبدي : البادية ،
أو موضع بعينه ، وقيل واد لبني عامر^٣ . وأشار (النابغة) إلى (جنة البقار) .
وذكر أن البقار واد ، أو رملة ، أو جبل ، سكنته الجن ، فنسبت إليه^٤ .
وأشير إلى (جنة عبقر) في شعر (زهير) و (لييد) و (حاتم)^٥ . وعبقر
أرض بالبادية كثيرة الجن ، وذكر بعضهم أنها باليمن^٦ ، قال لييد :

ومن فاد من اخوانهم وبنيهم كهول وشبان كجنة عبقر

وقال بعض العلماء : عبقر قرية يسكنها الجن فيها زعموا ، فكلما رأوا شيئاً فانتقوا
غريباً مما يصعب عمله ويدق أو شيئاً عظيماً في نفسه تسبوه إليها . ولهذا قالوا :
العبقري السيد الكامل من كل شيء ، ولذلك المعنى^٧ .

والمواضع المذكورة هي المواضع المفضلة المختارة لسكنى الجن . غير أن مواطن
الجن غير محدودة ولا معينة ، إنها تسكن كل موضع ومكان ، حتى بيوت الناس
لا تخلو منها ، بل حتى البحار والسياء لا تخلو منها كذلك ، فدولتها إذن صلي
هذا الوصف أوسع من دولة الإنسان . وعلى من سكنت الجن يته ألا يمسا بأذى
ولا يلحق بها أي سوء ، وأن يقوم برضيتها بالبحور وبما شاكل ذلك مما تحبه
الجن ، وإلا أساءت إليه ، وجعلت بينه مؤذياً شؤماً ، لا يرى من يسكن فيه
أي خير .

Hest, II, 150.

Robertson, p. 120.

الحيوان (١٨٩/٦) ، (هارون) .

الحيوان (١٨٩/٦) ، اللسان (٤٧/٦) ، (٣٣٠/١٢) .

الحيوان (١٨٩/٦) ، اللسان (٢٠٩/٦) ، البلدان (١١٣/٦) ، ثمار القلوب
(١٨٨) .

تاج العروس (٣٧٩/٣) ، (عبقر) ، اللسان (٥٣٤/٤) .

تاج العروس (٣٧٩/١) ، (عبقر) .

وكان الرجل في الجاهلية إذا اطّرف داراً ذبح فيها ذبيحة ، ينقي بها أذى الجن ، لاعتقادهم ان في كل دار جنّاً يقيمون بها فلترضيتهم وللتقرب اليهم ، يذبحون ذبيحة عرفت عندهم بـ (ذبائح الجن)^١ . ولا تزال عادة الناس ذبح ذبيحة عند الابتداء ببناء دار ، وعند الانتقال اليها . وكانوا أيضاً يذبحون ذبيحة عند استخراجهم عيلاً ، أو شرائهم داراً ، أو بنيانهم بيتاً ، مخافة أن تصيبهم الجن ، فأضيفت الذبائح اليهم لذلك . وقد نسي النبي عن ذبائح الجن^٢ .

وكان في اعتقادهم ان الأماكن المذكورة مليئة بالجن ، لذلك كانوا يستجرون برجال من الجن في أسفارهم ، اذا تزلوا منازلهم ، يقولون : نعوذ بأمر أهل هذا المكان ، أو اني أعوذ بكبير هذا الوادي . والى ذلك أشير في القرآن الكريم : « والله كان رجال من الانس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقاً »^٣ . روي عن (حجاج بن علاط السلمي) ، « انه قدم مكة في ركب فأجنهم الليل بواد غوف موحش ، فقال له الركب : قم نحل لنفسك أماناً ولأصحابك ، فجعل يطوف بالركب ويقول :

أعيذ نفسي وأعيذ صحتي من كل جني بهذا النقب
حتى ألوب سائلاً وركبي^٤

فوصل وركبه سائلاً الى مكة دون أن يمس أو أن يمس من كان معه من الركب أحد بسوء^٥ .

وروي أن الرجل منهم كان إذا ركب مقازة وخاف على نفسه من طوارق الليل عمد الى واد ذي شجر فأناخ راحلته في قرارته وهي القاع المستديرة وعقلها وخط عليها خطاً ثم قال : « أعوذ بصاحب هذا الوادي . وربما قال بعظيم هذا الوادي »^٦ . قال أحدهم :

١ التلسان (١٣ / ٢١٣) . (سكن) .

٢ التلسان (٢ / ٤٣٧) . (ذبح) .

٣ سورة الجن ، رقم ٧٢ . الآية ٦ . تفسير الطبري (٢٩ / ٦٧ وما بعدها) .

٤ الروض الأنف (١ / ١٣٦) .

٥ الروض الأنف (١ / ١٣٦) . الاساية (١ / ٣١٢) . (١٦٢٢) .

٦ بلوغ الارب (٢ / ٣٢٥) .

قد بت^١ ضيفاً لعظيم الوادي الماسمي من سطوة الأعادي
راحتي في جاره وزادي^٢

وقالوا إنهم كانوا في الجاهلية إذا نزلوا مترلاً يقولون : نعوذ بأهل هذا
المكان . يقولون ذلك عند نزولهم وادياً في الغالب، إذ نجد الرواة يكررون عبارة :
« كانوا إذا نزلوا الوادي ، قالوا : نعوذ بسيد هذا الوادي » ، أو « بعزير
هذا الوادي »^٣ . ويظهر أنهم تخوفوا من الوديان خاصة ، لما قد يقع فيها من
مهالك ، فنسبوا ذلك إلى فعل الجن .

وقال آخر يستجير بجن (عالج) ويوسل إليهم ألا يرهقوه بغوي^٤ هائج ،
إذ يقول :

ياجن أجزاء النوى من عالج عاذ بكم ساري الظلام النالج
لا ترهقوه بغوي^٥ هائج

وقال آخر :

أعوذ من شر البلاد البيد بيد معظم مجيد
أصبح يأوي بلوى زروء ذي عزة وكاهل شديد

وقد استعاذ رجل منهم ومعه ولد ، فأكله الأسد فقال :

قد استعطينا بعظيم الوادي من شر ما فيه من الأعادي
فلم يجرنا من هزير عادي^٦

وذكر أهل الأخبار أن الجاهليين كانوا يرون أن الجن تعزف في المقافز بالليل.
والعزف والعزيف صوت الجن ، وهو جرس يسمع بالمقافز . وهو صوت يسمع
بالليل كالطبل . وروي عن (ابن عباس) قوله : « كانت الجن تعزف بالليل
كله بين الصفا والمروة »^٧ . وقد اشتهر موضع (العزاف) ، وقيل (أبرق

١ بارغ الأرب (٢٢٦/٢) .

٢ تفسير الطبري (٦٨/٢٩) وما بعدها .

٣ بارغ الأرب (٢٢٦/٢) .

٤ ناج العروس (١٩٧/٦) ، (عزف) .

الغراف) بأنه موضع يسمع به عزيف الجن^١ .

وقد موّن القصص الأسرائيلي أهل الجاهلية بشيء مما كان ينقصهم من أساطير الجن ، وتوسع وزاد هذا القصص في الإسلام ، حتى تولد منه هذا الذي نجده مدوناً عن أخبار الجن في المؤلفات الإسلامية .

وتخبر الجن الإنسان بحوادث تقع في مواضع بعيدة ، وهو لا يعلم عنها شيئاً . فلما هبط (نباش بن زرارة بن وقدان) ، زوج (خديجة بنت خويلد) قبل النبي ، وادياً يقال له (عز) ، انبه في آخر الليل ، فإذا شيخ قائم على صخرة ، وهو يقول :

ألا هلك السبيل غيث بني فهر وذو العز والياح القديم وذو الفخر

فقال له نباش :

ألا أيها الناعي أعا الجود والفخر من المراء تنعاه لنا من بني فهر

وبقيا بقولان الأبيات ، حتى أخبره الشيخ بوفاته (عبدالله بن جدعان) في وقت حده وضبطه له . فلما وصل مكة ، علم بوفاته على نحو ما أخبره به ذلك الشيخ ، وهو جني من الجن ، ينظم الشعر ، وقد رثى (ابن جدعان)^٢ .

وتجد في شعر الشعراء الجاهليين أمثال (أمية بن أبي الصلت) و (الأعشى) إشارات إلى الجن . وهم من أهل الجاهلية الذين كان لهم اتصال بأهل الكتاب ويكتبهم ، وقد زعم أن بعضاً منهم كان قد قرأ تلك الكتب ووقف على العبرانية أو السريانية . ولهذا ورد في شعرهم شيء من قصص أهل الكتاب . وفي جبلته ما ذكرته من إشاراتهم إلى الجن . وتراهم يربطون بيتها وبين (سليمان) . أخذوا ذلك ولا شك من الأساطير العبرانية ، التي صيرت الجن في خدمة (سليمان) . نجد الأعشى يقول :

وسخر من جن الملائك تسعة قياماً لديه يعملون محاربا

١ - تاج العروس (١٩٧/٦ ، ٢٨٧) ، (برق) .

٢ - الاستنطاق (٨٨ وما بعدها) .

قصده بذلك (سليمان)^١ . ونجد أن في جملة ما نسب عمله إلى جن سليمان بعض المواضع مثل تدمير وقصر حمدان .

وقال التابعة الليباني :

إلا سليمان إذ قال الإله له قم في البرية فأحددنا عن القند
وختيس الجن إني قد أذنت لهم يبنون تدمير بالصفاح والعمد
فمن عصاك فعاقبه معاقبة تنهى القلوم ولا تقعد على ضمد^٢

وفي هذا الشعر إن صبح أنه من نظم التابعة حف^٣ ، دلالة على تأثير الشاعر بالأسطورة اليهودية عن (تمار) ، وعن جن سليمان .
ونسبوا السيوف الماثورة إلى جن وشياطين (سليمان) . ونسبوا إليه واليههم أشياء عديدة أخرى^٤ .

وقد ادعى الناس من الجاهليين أنهم كانوا يرون الغيلاں والجن ، ويسمعون عزيف الجن ، أي صوت الجن . وقد بالسخ الأعراب في ذلك ، وأغربوا في قصص الجن ، لما كانوا يتوهمونه من ظهور الأشباح لهم في نجواهم بالغياني المقفرة الخالية ، فتصوروه جنًا وغولًا وسعالًا ، وبالغوا في ذلك أيضًا ، لما وجدوه في أهل الحضر ولا سيما في الإسلام من مبل إلى سماع قصص الجن والسعال والقول^٥ . وقالوا أنهم ربما نزلوا بجمع كثير ، ورأوا خيلًا ، وقبأًا ، ونساءً ، ثم إذا بهم يفقدونهم من ساعتهم ، وذلك لأنهم من الجن^٦ .

ونسبوا إلى الجن إحداث كثير من الأمور غير الطبيعية ، مثل الأمراض والأوبئة والصرع والاستهواء والجنون خاصة . فالجنون هو نلبس الجن بالإنسان ودخولهم جسمه . لذلك ربطوا بين الجن والجنون . ويرى (فولكنه) أن فكرة أن الجنون من عمل الجن ، عقيدة قديمة وجدت عند غير العرب كذلك . فقد كان الإيرانيون

- ١ . تاج العروس (١٦٥/٩) . (جن)^{*}
وسخر من جن الملائكة تسعة
- ٢ . اللسان (٩٧/١٣) . (جن)^{*}
الحيوان (٢٢٣/٦)
- ٣ . الحيوان (١٨٧/٦)
- ٤ . الحيوان (١٧٢/٦ وما بعدها ١٨٢)^{*}
- ٥ . الحيوان (٢٠٠/٦) . (حازون)^{*}

يطلقون على الجنون لفظة (ديواته) (Devana) ، أي الذي به (ديو) (Dev) من الأصل (ديوه) (Dalva) ، ومعناها (Demon) أي جان . ومن هذه الفكرة دخلت في العهد الجديد من الكتاب المقدس . ومن الفارسية دخلت (ديوان) (Dalwan) في الإرمية بينما دخلت إلى الفارسية كلمة (شدها) (Shedha) من أصل (شدهان) (Shedhan) الإرمي واستعملت في مقابل (ديو) (Deo) أي جان . و (شبهه) (Shedh) في الإرمية الجان^١ .

وهم يزعمون أن الجن إذا عشت انساناً صرعت . ويكون ذلك على طريق العشق والهو ، وشهوة التكاح . وأن الشيطان يعشق المرأة ، وأن نظراته إليها من طريق العجب بها أشد عليها من 'معي أيام ، وأن عين الجان أشد من عين الإنسان^٢ .

والعرب تزعم أن الطاعون من الجن ، ويسمون الطاعون رماح الجن . قال الأسدي للحارث الملك الغساني :

لعمرك ما خشيت على أبيي رماح بني مقبسة الجمار
ولكنني خشيت على أبيي رماح الجن أو إياك حارث^٣

وللجن حوار مع الإنس وكلام يجده مثوراً كما يجده منقولاً في شعر ينسب إلى الشعراء الجاهليين . ويروي الأخباريون شعراً ينسبونه إلى (جذع بن سنان) ورد فيه وصف ملاقاته للجن ومخاورته معها ودعوته إياها إلى الطعام وامتناعها عن الأكل ، كما رووا شعراً لغيره يصف ملاقاته بين الجن وبين أصحاب هذا الشعر^٤ . وهو قصص لم يدخل على الجن فأعطاهما شعراً من هذا الشعر الجاهلي النصيب ! وقد سطر (الكندي) أحد (بني الشيصان) من الجن من الأشعار التي جمعها (المرزباني) (المتوفى سنة ٣٨٤ هـ) ، من شعر الشعراء الجن ، فما هذا الذي جمعه إلا قطعة من شعرهم ، وهل يعرف البشر من النظم كما يعرف الجن .

1. Ency. Relig., I, p. 670.

2. الحيوان (٢١٧/٦) وما بعدها .

3. الحيوان (٢١٩/٦) .

4. بلوغ الأرب (٢٥٠/٢) وما بعدها .

وأنما للبشر خمسة عشر جنساً من الموزون ، قل ما يعدونها القائلون ، وإن للجن
آلاف الأوزان ما سمع بها الإنسان^١ .

طعام الجن :

وطعام الجن مثل طعام الإنسان ، وهم يشاركونه أكله في بعض الأحيان .
« روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، أنه سأل المفقود الذي استهوته
الجن : ما كان طعامهم ؟ قال : القول . قال : فما كان شربهم ؟ قال :
الجذع . ورووا أن طعامهم الرمة وما لم يذكر اسم الله عليه^٢ . وقد جاء قوم
من الجن إلى ناز (شمر بن الحارث الضبي) ، فدعاهم إلى الطعام بقوله :

أتوا نازي فقلت متون قالوا سرة الجن قلت عموا ظلاما
فقلت إلى الطعام فقال منهم زعيم نخس الإنسان طعاما^٣

والحوشى من الإبل هي التي قد ضربت فيها فحول إبل الجن . فالحوشية من
نسل إبل الجن^٤ . ويقال أنها منسوبة إلى (الحوش) بلاد الجن من وراء رمل
يبرين ، لا يمر بها أحد من الناس ، وقيل هم من بلاد الجن . وقيل الحوشية
إبل الجن ، أو منسوبة إلى الحوش وهي فحول جن ، تزعم العرب أنها ضربت
في نعم (بني مهرة بن حيدان) فتجت النجائب المهرية من تلك الفحول الوحشية ،
فنسبت إليها ، فهي لا يكاد يذكرها التعب^٥ .

الحية :

والحية ، من أكثر الحيوانات وروداً في القصص الذي يرويه الأخباريون عن
الجن . وقد جعلوها فصيلة مهمة من فصائلها ، ونوعاً بارزاً من أنواعها . قال

١ رسالة الفجران (٢٩١) ، (بنت الشاطي) .

٢ الحيوان (٢١٠/٦) وما بعدها .

٣ الحيوان (١٩٧/٦) .

٤ الحيوان (٢١٦/٦) .

٥ الحيوان (٣٠٢/٤) ، (حاشي) .

بعض العلماء : الجن ، حبة بيضاء ، وقال بعض آخر : الجن حبة ، أو ضرب من الحيات^١ . ولما قام (حرب بن أمية) جدد معاوية بن أبي سفيان مع (مرداس ابن أبي عمرو) بإصلاح (القرية) ، وهي إذ ذاك غيضة شجر ملتف لا يرام ، فأقصرما النار في الغيضة ، فلما استطلعت وعلا طيبها سمع من الغيضة أنين وضجيج كبير ، ثم ظهرت منها حيات بيض تطير حتى قطعتها وخرجت منها ، فلما لبث أن مسات الرجلان ، أمانها الجن على ما يزعمه رواة هذا الخبر^٢ . ولعلها مانا بعض حية من تلك الحيات التي كانت ساكنة بين تلك الأعشاب وقد هاجتها تلك التيران . ومثل هذه المواضيع تكون موثلاً للحيات والحشرات ، فابتدعت ضلالة القصاصين هذه القصة عن فرع الجن وطيرانها في صورة ثعابين بيض . ويعمل (نولدكه) وقائهما بفعل الاختناق من الغاز الذي تصاعد من الاحتراق^٣.

وذكروا أن الحبة لا تموت حتف أنفها ، وإنما تموت بعرض يعرض لها . وأنها تصبح على الجوع حتى تضرب بها المثل في ذلك . وأنها إذا هرمت صفرت في بدنها . ولم تثقه الطعام^٤ . وأنها تنطق وتسمع . وقد أورد أهل الأخبار شعراً في ذلك ، ذكروا أنه للنايضة . ومذهب النايضة في الحيات مذهب أمية بن أبي الصلت ، وعدي بن زيد وغيرهما من الشعراء^٥ ، الذين تأثروا برأي أهل الكتاب فلما جاء عن الحبة في العهدين وفي كتب الشروح والتفسير والقصص الإسرائيلية القديم .

ولم تنفرد ضلالة الجاهليين وحدها باختراع أسطورة أن الحيات هي من الجن ، وأنها جنس منها ، فإن غير العرب من الساميين مثل العبرانيين كانوا يقولون أيضاً بهذا القول . وكذلك قال بهذه الأسطورة غير الساميين ، مما يدل على أنه من الأساطير القديمة جداً التي انتشرت عند البشر ، بسبب ما قاسوه في أيام بداوتهم من هذا الحيوان^٦ . ونجد قصة الحبة في سفر التكوين . وهي في هذا السفر أشد

- ١ نأج العروس (١٦٥/٦) . (جن) .
- ٢ الحيوان (١٤٣/٢) . (حاشية) . Robertson, p. 233.
- ٣ Ency. Religi. I, p. 630.
- ٤ الحيوان (١١٨/٤) وما بعدها . (موت الحبة) .
- ٥ الحيوان (٢٠٣/٤) وما بعدها .
- ٦ Ency. Religi. I, p. 660.

الحيوانات حيلة ، فهي التي خدعت حواء خدعتها الشهيرة ، وسيبت طردها وطرده زوجها آدم من الجنة الى الأرض^١ .

ولعقدتهم هذه في (الحيلة) ، كانوا اذا وجدوا حية ميتة كفنها ودفنوها ، فعلوا ذلك في الاسلام أيضاً . جاء انه بينما كان (عمر بن عبد العزيز) يعيش في أرض فلاة ، فاذا حية ميتة فكفنها بفضلة من رداءه ودفنها . وورد انه كان جمع من أصحاب رسول الله ﷺ يمشون فرقع لهم اعصار ، ثم جاء اعصار أعظم منه ، ثم انقطع ، فاذا حية قتيل ، فعمد رجل منا الى رداءه وكفّن الحية ببعضه ودفنها . فلما جن الليل اذا امرأتان تساءلان أيكم دفن عمرو بن جابر ؟ فقلنا ما ندري ما عمرو بن جابر ! فقلنا إن كنتم ابتغيتم الأجسر ، فقد وجدتموه . إن فسقة الجن اقتتلوا مع المؤمنين منهم . فقتل عمرو ، وهو الحية التي رأيتم^٢ . وفي الحديث : انه نهى عن قتل الجنان . هي الحيات التي تكون في البيوت ، واحداها جان ، وهو الدقيق الخفيف^٣ . والجان الشيطان أيضاً . وورد في الحديث : ذكر الحيات ، فقال : من غشي خبثهن وشرهن واربهن ، فليس منها . أي من توقي قتلهن خشية شرهن فليس ذلك من مستناب . وكانت الجاهلية تقول انها تؤذي فأنها أو تصيبه بحبل^٤ .

وذكر العلماء أن (الالاهة) الحية ، أو الحية العظيمة . وأن (اللات) ، الصنم المعروف أصله (لاهة) كانه سمي بها . وإن اسم الجلالة منها^٥ . وفي الأساطير الجاهلية ما يفيد تعبد الجاهليين للحية ، وفي هذا التفسير ما يؤيد هذا الرأي .

ويقال للحية : (بنت طبق) . و (بنات طبق) الحيات ، والحية (أم طبق) و (بنت طبق) وهي (الدواهي) . ومن أساطيرهم أن بنت طبق سلحفاة تبيض نساء وتسعين بيضة كلها سلاحف ، وتبيض بيضة تنقف عن حية^٦ . والحيات شياطين ، وللعرب شجر يطلقون عليه (الصوم) ، كربه المنظ

١ السفر الثالث من الكون ، الآية ١ وما بعدها -

٢ الروض الأنف (١٣٦/١) -

٣ اللسان (٩٥/١٣) ، (حسن) -

٤ تاج العروس (١٤٥/١) ، (أدب) -

٥ تاج العروس (٤١٠/٩) ، (لا) -

٦ تاج العروس (٤١٥/٦) ، (طبق) -

جداً ، يقال لشعره (رؤوس الشياطين) أي الخيات ، وليس له وري

الغول :

وقصص الغول هي من أشهر القصص الجاهلي المذكور عن الجن ، ومع غطر الغول وشرسته في رأي الجاهليين ، ورد في قصصهم تزوج رجال من الإنس منهم . وورد أن الشاعر (نابت شراً) تعرض بغيلة . فلما امتنعت عليه ، جثها باليف فقتلها . وهم يروون أن من الممكن قتل الغول بضربة سيف . أما إذا ضربت مرة ثانية ، فإنها تعيش ولو من ألف ضربة . وهكذا تروى قصصهم يروي تغلب الإنسان على الغيلة في بعض الأحيان . وأكثر قصص الغول منسوب إلى (نابت شراً)^١ . وللقب الذي يحمله هذا الشاعر أو حمل عليه دخل ، ولا شك ، في ظهور هذا القصص .

ويرى علماء اللغة أن من معاني (الغول) الثلوث ، والظهور بصور مختلفة ، والاختيال . ويرون أن الغول أنثى ، ولما ذكرها جسي (قطرباً)^٢ . ولصفة الثلوث والظهور بصور مختلفة سموا الغول (حيموراً) ، وهو كل شيء لا يدوم على حالة واحدة ، ويضمحل كالسراب^٣ . وذكر في وصف غدرها بالإنسان أنها إذا أرادت أن تقتل إنساناً أوقدت له ناراً ، فيقصدها ، فتدنو منه ، وتمثل له في صور مختلفة ، فتهلكه زوراً ، وإن خلقتها خلقة إنسان ، ورجلاها رجلاً حاراً^٤ .

وذكروا أن الغول اسم لكل شيء من الجن يعرض للسفار ، ويثلون في ضروب العور والياب ، ذكراً كان أو أنثى . وقد قال (كعب بن زهير) الشاعر الصحابي ، الذي مدح الرسول ، في وصف ثلوث الغول :

١ نباح العروس (٢٧٤/٨) ، (صام) .

٢ بلوغ الأرب (٣٤١/٢) وما بعدها ، الإعيان (٢٠٩/١٨) وما بعدها ، الحيوان (٢٢٢/٦) ، (٢٢٥) .

٣ بلوغ الأرب (٣٤٦/٢) وما بعدها ، الحيوان (٤٨/٦) ، نباح العروس (٥١/٨) ، (نبال) .

٤ بلوغ الأرب (٣٤٧/٢) .

٥ بلوغ الأرب (٣٤٨/٢) ، الحيوان (٢١٤/٦) .

فما تلبس على حاله تكون بها كما تلبس في ألوانها الغول^١

وفي تلبس الغول يقول (عباس بن مرداس السلمي) :

أصابني العلم رعباً غول قومهم وسط ليوت ولون الغول ألوان^٢

فالغول تتحول في أي صورة شامت ، وتتمثل في صور مختلفة ، إلا رجلها ، فلا بد من أن تكونا رجلتي حار^٣ .

وذكر أن (الغول) (السعلاة) ، وهما مترادفان ، وذكر أن الغيلان جنس من الجن والشياطين ، والعرب تسمي الحية الغول . وقيل أن (ألياب الغول) الواردة في شعر لامرئ القيس ، الحيات ، وقيل : الشياطين^٤ .

وللشاعر (عبيد بن أيوب) شاعر (بني العبر) ، يعود قسط كبير من القصص الواردة عن (الغول) و (السعلاة) . فقد كان يحبر في شعره أنه يرافق الغول والسعلاة ، ويأبى الذئب والأفاعي ، ويأكل القلباء والوحش . وقد أورد أهل الأخبار شيئاً من شعره في هذا الباب^٥ . وذكر بعض علماء اللغة ، أن الغول الذكر من الجن ، والسعلاة الأنثى . والغول ساحرة الجن ، وتقول إن الغول يترامى في القلاة للناس فتضلهم عن الطريق^٦ .

وأما (السعالي) ، وواحدة السعلاة ، فذكر أنها سحرة الجن ، وقيل : إن الغيلان جنس منها ، وأن الغيلان هي إناث الشياطين ، وأنها — أي السعالي — أعيث الغيلان ، وأكثر وجودها في الغياض ، وأنها إذا ظفرت بإنسان ترقصه وتلعب به كما يلعب القط بالفأر ، وإن الذئب يأكل السعلاة^٧ . وذكر أن (السعلاة) اسم الواحدة من نساء الجن إذا لم تتغول لتفتن الفأر . وهم إذا رأوا المرأة

١ الحيوان (١٥٨/٦) وما بعدها .

٢ الحيوان (١٦١/٦) .

٣ الحيوان (٢٢٠/٦) .

٤ تاج (٥١/٨) ، (غال) .

٥ الحيوان (٤٨٢/٤) ، (هارون) ، (١٢٣/٥) ، (١٣٨) ، (٢٤١) ، (١٢٨/٦) ، (١٥٩) .

٦ ١٦٠ ، ١٦٥ ، ٢٣٥ ، ٢٥١ ، (٢٩٥) .

٧ تاج العروس (٥١/٨) ، (غال) .

٨ بلوغ الأرب (٣٤٦/٢) وما بعدها .

حديدية الطرف والذعن ، سريعة الحركة ممشوقة ممحصة ، قالوا : سحابة ، وقال الأعشى :

ورجال قتل بجني لريك ونسام كأنهن السعال^١

وذكر أن في الجن سحرة كسحرة الانس لهم تليس وتخييل ، وهم السعال ، وهم أقدر من الغيلان في هذا الباب^٢ .

الشیطان :

والشیطان هو (Satan) في الانكليزية ، و (Diabolon) في الإغريقية ، ويرجع علماء اللغة كلمة (الشيطان) الى أصل (شطن) ، ويقولون إن من معاني هذه الكلمة الخبث ، ولما كان الشيطان خبيثاً قيل له (شيطان) ومعنى ذلك ان فكرة خبث الشيطان كانت معروفة لصاحبها قبل التسمية^٣ . فلما بحث عن لفظة مناسبة لها ، اختاروا هذه الكلمة التي تدل على الخبث . وهو تعليل من تلك التعليلات المعروفة المألوفة السني كان يرجع اليها علماء اللغة كلما أحياءم الوصول الى أصول الأشياء .

و (الشيطان) (ساطان) (سطن) في العبرانية ، ومعناه : عدو ومشتك في هذه اللغة^٤ . ومن هذه اللغة جاءت لفظة (Satan) في الانكليزية . وذكر (الطبري) : « والشيطان في كلام العرب كل متعرد من الجن والإنس والدواب وكل شيء » ، ثم قال : « وانما سمى المتعرد من كسل شيء شيطاناً لمفارقة أخلاقه وأفعاله أخلاق سائر جنسه وأفعاله وبعدة من الخير . وقد قيل انه أخذ من قول القائل شطنت ذاري من دارك ، يريد بذلك بعدت . ومن ذلك قول نابتة بني ذبيان :

نأت بسعاد عنك نوى شطون فبانت والقواد بها رهين

- ١ الحيوان (١٥٨/٦ وما بعدها) .
- ٢ تاج العروس (٣٧٥/٧ وما بعدها) ، (سعل) .
- ٣ اللسان (١٧/٦٠٤) ، (سطن) ، الحيوان (١٥٣/٦ ، ٢٩١) .
- ٤ غرائب اللغة (٢١٢) .
- ٥ تفسير الطبري (٣٧/٦ وما بعدها) .

والنوى الوجه الذي نوته وقصدته ، والشطون الجبد . فكأن الشيطان على هذا التأويل شطن . ومما يدل على ذلك كذلك ، قول أمية بن أبي الصلت :

أبسا شاطن عصاء عكاه ثم يلقى في السجن والأكبال

ولم ترد لفظة (الشيطان) في شعر الشعراء الجاهلين ، خلا شعر (أمية بن أبي الصلت) و (علي بن زيد العبادي) . والأول شاعر وقف على ما يظهر من شعره ، على شيء من اليهودية والنصرانية . وأما الثاني ، فهو نصراني ، لذلك يجوز لنا أن نرجع علمها بالشيطان إلى ما جاء في اليهودية والنصرانية عنه ، ولذلك نستطيع أن نقول أن هذه اللفظة جاءت العرب عن طريق أهل الكتاب . وذكر علماء اللغة ، أن (الأرب) اسم من أسماء الشياطين ، وذكروا أن (الأرب) شيطان اسمه أرب العقبة ، وقيل هو حية^١ . وأن من أسماء الشيطان : (الحباب) . ويقع على الحية أيضاً ، لأن الحية يقال لها شيطان ، وفي حديث : « الحباب شيطان »^٢ . وذكروا أن من أسماء الشيطان (الطاغوت)^٣ .

ومن الشياطين ، شيطان اسمه (زوبعة) ، وقيل هو رئيس للجن . ومنه سمي الإعصار زوبعة ، ويقال أم زوبعة وأبو زوبعة وهو الذي يشرب الأعصار ، حين يدور على نفسه ، ثم يرتفع في السماء ساطعاً كأنه عمود^٤ .

وأما ما ورد في القصص عن الشياطين عند الجاهلين ، فهو يختلف عما جاء عن الشيطان في الكتب اليهودية والنصرانية ، مما يدل على أن منبعه منبع آخر ، وأن (الشيطان) عند الجاهلين ، هو غير الشيطان المعروف عند اليهود والنصارى ، الذي دخل إلى العرب قبيل الإسلام وفي الإسلام .

ومن القصص المذكورة ، استمد بعض الجاهلين نصصهم عن ذكاء الشيطان وعن حيله . ومن هذا القصص ولا شك استعمل الناس مصطلح (شيطان) و (الشيطنة) بمعنى الذكاء والحيلة ، لما رسخ في ذهنهم من ذلك القصص عن ذكاء الشيطان وسعة حيله وتلاعبه بأذكي البشر . وهو في التوراة ذو طبع شرير ،

١ تاج العروس (١/١٢٧) . (أرب) . (١/٢٨٤) . (أرب) .
 ٢ اللسان (١/٢٩٥) . (حيب) .
 ٣ تفسير الطبري (١٤/٧١) . (٢٣/١٣١) وما بعدها .
 ٤ تاج العروس (٥/٣٦٧) . (تزيغ) .

وزعم العصاة لأوامر الله ، يضل الناس ويسلك بهم سبل الخطيئة ، ولذلك
نعدوا منه ^١ .

ومن القصص المذكور استمد أيضاً علماء اللغة ماذكروه من ان كلمة (الشیطان)
تعني الحية ^٢ ، ففي ذلك القصص ظهور الشيطان على صورة (حية) خدعت
أبونا آدم وحواء في الجنة . وتمثل هذا القصص في الأدبين العبراني والنصراني .
وسبب ذلك هو ما علق بأذهان العبرانيين من مكر الحيات ودعائها ونجبتها وميلها
الى الشر ، وما علق بذهنهم عن هذه الصورة في الشيطان . والحية هي عند أكثر
الشرقيين رمز يشير الى الثورة والعصيان والشر . وهذه الفكرة هي من أسطورة
شرقية قديمة عن سقوط البشرية في الشر ، وتمثل في سقوط آدم وحواء وطردهما
للك من الجنة ، وفي تعاليم زرادشت من ان الشرير ظهر في هيئة حية ، وأخذ
يعلم الناس الشر ^٣ .

وزعم ان (شيطان الخماطة) الحية ^٤ . وورد (شيطان حماط) . ولعل
ذلك بسبب لجوء الحيات الى الخماط ، والخماطة شجرة شبيهة بالنين ، وهي أحب
الشجر الى الحيات ، إذ تألفها كثيراً ^٥ . وفي هذا المعنى ورد في قول الشاعر :

تلاعب مثنى حضرمي كأنه تعجم شيطان بذئ خروع قفر ^٦

والتعجم الثلوي . والمراد هنا ثلوي شيطان بمكان قفر نبت فيه الخروع . وقصد
بالشيطان الحية .

وقد وصف الشيطان بالقيح ، فإذا أريد تعذيب شخص وتقييحه ، قيل له :
يا وجه الشيطان ، وما هو إلا شيطان ، يريدون بذلك القيح ، وذلك عسل
سيل تمثل قيحه بفتح الشيطان . وقيل : الشيطان حية ذو عرف قيح الخلقة ^٧ .

- ١ قاموس الكتاب المقدس (٦٥١/١) .
- ٢ اللسان (١٠٤/١٧) ، تاج العروس (٢٥٣/٩) ، (شطن) ، (والعرب تسمى كل حية شيطاناً) ، الحيوان (٣٠٠/١) .
- ٣ قاموس الكتاب المقدس (٢٠٠/١) ، Hastings, p. 829.
- ٤ الحيوان (١٩٢/٦) .
- ٥ تاج العروس (١٢١/٥) ، (حيط) .
- ٦ الحيوان (١٥٣/١) ، (١٩٢/٦) .
- ٧ العاشر (ص ٢٣٨) ، الحيوان (٣٠٠/١) ، تاج العروس (٢٥٣/٩) ، (شطن) .

وقيل إنه كان حية زعم أنها تأتي حول البيت ، فلا يظوف أحد . ولما شرعوا
 ببناء الكعبة في أيام شباب الرسول، جاء طير فالتقط الحية^١ . ولقيح وجه الشيطان،
 قالوا للذي به لقسوة أو شتر ، إذا سب^٢ : يا لعليم الشيطان . وقالوا للمتكبر
 الضخم : ظل الشيطان^٣ . وكانوا إذا أرادوا ضرب مثل بشيح إنسان قالوا :
 لمز أفبح من الشيطان^٤ . وقالوا لشجرة تكون ببلاد اليمن، لها مظهر كرية (رؤوس
 الشياطين)^٥ . وبهذا المعنى فسرت (رؤوس الشياطين) في الآية : « إنها شجرة
 تخرج من أصل الجحيم : مظهرها كأنه رؤوس الشياطين »^٦ . « يقول تعالى ذكره
 كأن مظهر هذه الشجرة ، يعني شجرة الرقوم في قبحة وسماجة رؤوس الشياطين في
 قبحةا ، « وذلك أن استعمال الناس قد جرى بينهم في مبالغتهم إذا أراد أحدكم
 المبالغة في تشبيح الشيء ، قال : كأنه شيطان ، فذلك أحد الأقوال . والثاني
 أن يكون مثل برأس حية معروفة عند العرب تسمى شيطاناً . وهي حية له عرف
 فيها ذكر ، قبيح الوجه والمنظر ، وإليه عنى الراجز ، بقوله :

عنجد تحلف حين أحلف كمثل شيطان المهاط أعرف

ويروي عجز : « والثالث أن يكون مثل نبت معروف برؤوس الشياطين ،
 ذكر أنه قبيح الرأس »^٧ . ويظهر أن العرب في الجاهلية ، كانوا يظلفون (رؤوس
 الشياطين) على شجر كرية المنظر جداً ، قال علماء اللغة : « والصوم : شجر
 على شكل شخص الإنسان كرية المنظر جداً ، يقال لشجرة رؤوس الشياطين ،
 يعني بالشياطين الحيات ، وليس له ورق »^٨ . وقد جمع هذا التفسير بين
 الشياطين والحيات والقبح . ويمثل الصورة التي رسمها الناس في مخيلتهم للشياطين .
 وكانت الشعراء تزعم أن الشياطين تلقى غسل أفواهها الشعر ، وتلقنها إياه

١ الفاعر (ص ٢٢٨) .

٢ الحيوان (١٧٨/٦) .

٣ الحيوان (٢١٣/٦) .

٤ الحيوان (٢١١/٦) ، (٣٩/٤) وما بعدها .

٥ الصافات ، ٣٧ ، الآية ٦٤ وما بعدها .

٦ تفسير الطبري (٤٠/٢٣) وما بعدها .

٧ اللسان (٣٥١/١٢) وما بعدها . (صوم) .

وتعينها عليه ، وتدعي ان لكل فعل منهم شيطاناً يقول الشعر على لسانه ، فمن كان شيطانه أمرد كان شعره أجود . وبلغ من تحقيهم وتصديقهم بهذا الشأن ان ذكروا لهم أسماء شياطينهم ، فقالوا : إن اسم شيطان الأعشى مسحل ، وللأعشى أشعار فيه ، يمدحه وبني عليه ، لأنه يعاونه ويساعده في نظم الشعر فيلقبه عليه إلقاءً . وقد زعم (حسان بن ثابت) ان شيطانه الذي يلهمه الشعر هو من (بني شيبان) من فصائل الجس . وقد انضلت هذه العقيدة في إلهام الشعر للشعراء إلى المسلمين كذلك . وقد دعا (جرير) شيطانه الذي يلقي عليه الشعر (ابليس الأباليس)^١ .

ويكفى عن الشيطان بالشيخ النجدي^٢ . وقد أشير إليه مراراً في كتب البير والأخبار . أشير إليه في بيان الكعبة ، حين حكموا رسول الله في أمر الركن من يرفعه ، فحضر في ذي شيخ نجدي بين الحاضرين ، وصاح : يا معشر قریش أروسيتم أن يلبه هذا الغلام دون أشرافكم وذوي أستاذكم ، وحضر اجتمع (دار الندوة) . وأيد قرارهم في قتله . وذكر علماء الأخبار ، أنه عرف بالشيخ النجدي ، لأنه تمثل نجدياً ، وقيل لأن نجداً يطلق منها (قرن الشيطان) ودروا أحاديث تذكر ذلك ، وتذكر أن الفن يخرج من المشرق ، والمشرق نجد بالنسبة لأهل الحجاز^٣ .

و (قرن الشيطان) ، تاحية رأسه ، ومنه الحديث : تطلع الشمس بين قرني الشيطان ، فإذا طلعت قارنها ، وإذا ارتفعت فارقتها^٤ . وفي الأساطير أن للشيطان قرنين .

وكان الكهان يستعينون بالشياطين في الأخبار عن المعبيات ، يذكرون أن الشياطين يسترقون السمع من السماء ، فيخبرونهم عن أنباء الأرض . وكان للكاهن (صاف)

١ - التعالبي ، تبار القلوب (٦٩ وما بعدها) . قال الأعشى :
دعوت خليلي مسحلاً ودعوا له جهنم جديماً للهجين المدمم
ومسحلاً !
٢ - حبالى أخى الجلى نفس قدأزه باقبح جيش العشيوات مرجم
٣ - الحيوان (٢٢٥/٦ وما بعدها) .
٤ - تاج العروس (٥١٢/٢) . (تجد) .
٥ - الروض الألف (٢٩١/١) .
٦ - تاج العروس (٣٠٦/٩) . (قرن) .

ابن صياد (شيطان بلقي إليه بما خفي من أنبياء الأرض ، وذكر أن النجوم تقذف الشياطين ، وأن الجاهليين كانوا يرون ذلك ، وهو موجود في أشعار القدماء من الجاهلية ، منهم عوف بن الجزع ، وأوس بن حجر ، وبشر بن أبي خازم وكلهم جاهلي ، وقد وصفوا الرمي بالنجوم^١ .

و (ابليس) من هذه الأفكار التي نقلت إلى العرب عن طريق أهل الكتاب ، والعلماء على أن الكلمة معربة ، وهي كلك^٢ . فأصلها (ديابولس) « Diabolos » . وهي كلمة يونانية استعملت في مقابل لفظة (شيطان)^٣ . وقد أطلقت لفظة (أبليس) في مقابل (شياطين) . وقد ورد أن من أسماء ابليس (قرة) ، وإن لفظة علم للشيطان . ومن المجاز أبو قرة : ابليس . وفي الحديث سموذ بالله من الأعمى ومن قرة وما ولد . الأعمى الحريق والسبل ، وقرة من أسماء ابليس ، وكتبته : أبو قرة . وقرة حية صغيرة ، لا يتجو سمياً^٤ ، ولعل بين التسميتين صلة .

شق :

ومن الجن جنس صورة الواحد منهم على نصف صورة الإنسان ، واسمه (شق) ، وأنه كثيراً ما يعرض للرجل المسافر إذا كان وحده ، فربما هلك فرعاً ، وربما أهلكه ضرباً وقتلاً . ورووا في ذلك قصصاً . منه ما زعموه من أن (علقمة ابن صفوان بن أمية بن محرز الكندي) جد (مروان بن الحكم) ، خرج في الجاهلية ، وهو يريد مالا له بمكة ، وهو على حمار ، وعليه إزار ورداء ، ومعه مفرعة ، في ليلة أصبحت ، حتى انتهى إلى موضع يقال له (حائط حزمان) ، فإذا هو بشق^٥ ، له يد ورجل ، وعين ، ومعه سيف ، وهو يقول :

١ - الروض الأنف (١/١٣٥) . (فصل في الكهانة) .
 ٢ - العرب ، للجواليقي (٢٢) . ناس العروس (١١١/٤) . (ابليس) .
 ٣ - Ency. Religi., 4, p. 608. Geiger, was hat Mohammad aus der Judenthume Aufgenommen. Leipzig, 1902, S. 197. Well, Biblische Legenden der Muselmänner, S. 12. Shorter Ency., p. 144. Grünbaum, Beiträge Zur Sem. Sagen, S. 60.

٤ - النسان (٧٢/٥) . (ابليس) . ناس العروس (٤٨٠/٣) . (قتر) . (١١١/٤) .
 ٥ - (ابليس) .

علقم إني مقتول وإن لحمي مأكول
أضربهم بالملول ضرب غلام شلول
رحب الذراع بهلول

فقال حلقمة :

يا شقها مالي ولك* اغمد عني مُنصك
تقل من لا يقتلك

فقال شق :

حيث لك عيت لك كسبا أتيح مقتلك
قاصير لما قد حم لك
لفضرب كل واحد منها صاحبه ، فخرًا مبتين^١ .

المخالف والولي :

ويؤمن الأعراب بالمخالف، ويتعجبون ممن يرد ذلك . وهم يزعمون أنهم يسمعون
المخالف يخبرهم ببعض الخبر ، فيكون صحيحاً . فن ذلك حديث (الأعشى بن
نيسابن زرارة الأسدي) ، أنه سمع هانقاً يقول :

لقد هلك القيناض غيث^٢ بني فهر وذو الباع والمجد الربيع وذو الفهر

فقال بجياً له :

ألا أيها الناعي أبا الجود والندى من المرء نعاها لنا من بني فهر

فقال :

نعت ابن جدعان بن عمرو أبا الندى وذو الحب القدموس والحب الفهر^٣

١ الحيوان (٢٠٦/٦) . (هارون) .

٢ الحيوان (٢٠٢/٦) .

وزعموا أن لنقل الجن الأخبار ، علم بوفاة الملوك وأصحاب الثبابة والجاه ، وأمثال ذلك من الأمور الخطيرة^١ .

وتتردد في الأخبار كلمة (هاتف) و (الهاتف) ، بمعنى صوت صادر من مصدر غير مرئي ، وردت في مواضع عديدة من القصص الجاهلي ، ووردت بعدها الجمل التي قالها الهاتف لمن وجه خطابه إليه . وهي تكهن واتخا ، عن أمر وقع وحدث ، أو لتحذير من القيام بعمل ما ، أو بإرشاد إلى عمل أو جهة أو مسأ شابه ذلك من الأمور . وقد تستعمل بمعنى (الرئي) الذي يهتف للكهنة ، أو الصوت الذي يزعم أنه يخرج من جوف الصم^٢ .

الرئي :

وكانوا يقولون ، إذا ألف الجن إنساناً وتعطف عليه ، وخبره ببعض الأخبار وجد حسه ورأى خياله ، فإذا كان عندهم كلك قالوا : مع فلان رئي من الجن ، يخبره بما وقع ويقع وعن الأسرار . ومن يقولون ذلك فيه : عمرو بن لحي بن قعدة ، والمأمور الحارثي ، وعنتبة بن الحارث بن شهاب ، وهم من الرؤساء السادة ، وقد كان لكل كاهن وعرفاء رئي يخبر صاحبه بما يُسأل عنه . وذكر أنه قد كان مسيلة يدعي أن معه رثياً في أول زمانه ، ولذلك قال الشاعر حين وصفه :

بَيْتُة قَارُورٍ وَرَايَةَ شَادِنٍ وَخَلَّةَ جَنِيٍّ وَتَوْصِيلَ طَائِرٍ^٣

الملائكة :

والملائكة هم روحانيون ، أي من أرواح في نظر أهل الجاهلية . ويهدل ورود الملائكة في مواضع عديدة من القرآن الكريم ومن الآيات التي تشير إلى مجادلة المشركين ومخادمتهم للرسول في الملائكة ، أن فكرة الملائكة كانت معروفة شائعة

١ المصدر نفسه (ص ٢٠٣) .

٢ نياج العروس (٦ / ٢٧٣) ، (ص ١) .

٣ الحيوان (٦ / ٢٠٥ وما بعدها) ، (حارون) .

بينهم ، وأن بعض العرب كانوا يعبدونها ، كما يظهر ذلك من الآية : « ويوم نحشرهم جميعاً ثم يقول للملائكة : أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون ؟ قالوا : سبحانه أنت ولبتنا من دونهم ، بل كانوا يعبدون الجن ، أكثرهم بهم مؤمنون »^١ .

غير أن المفسرين ، لم يسيروا إلى أولئك الذين تعبدوا للملائكة ، ولم يذكروا أسمائهم ، مع أنهم ذكروا اسم من تعبد للجن^٢ . بل يظهر من تفسيرهم للآية المذكورة ، أنها وردت على سبيل الاستفهام « كقوله عز وجل لعيسى : أنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله . قال النحاس : فالمعنى أن الملائكة صلوات الله عليهم إذا كذبتهم كان في ذلك تبكيك لهم ، فهو استفهام توبيخ للعابدين »^٣ . ولكنهم أشاروا في مواضع أخرى إلى أن عسركي قرين كانوا يقولون : الملائكة بنات الله ، وكانوا يعبدونها . ويقولون إن امهاتهن بنات سروات الجن ، يحسبون أنهم خلقوا مما خلق منه إبليس^٤ .

وقد أشير في القرآن الكريم ، إلى أن من الجاهليين من زعم أن الملائكة بنات الله^٥ . وتحدث المفسرون في تفسير ذلك ، غير أنهم خلطوا في الغالب بين الملائكة والجن . ولم يأتوا بشيء يذكر عن رأي أهل الجاهلية في الملائكة . وما ذكروه هم عن الملائكة ، هو إسلامي ، يرجع في سنده إلى أهل الكتاب ، ولا سيما القصص الأسرائيلي ، ولهذا فهو مما لا يمكن أن يقال عنه أنه يعبر عن رأي الجاهليين . ويظهر أن الجاهليين لم يكونوا يعرفون شيئاً عن الملائكة ، لأن الاعتقاد بالملائكة من عقيدة الديانة اليهودية ثم النصرانية ، وهم لا يعرفون الكتاب ، إلا من كان منهم على دين اليهودية أو النصرانية ، أو كان من الخلفاء أو على اتصال بأهل الكتاب ، كأمية بن أبي الصلت وأمثاله .

وقد أشير إلى الملائكة ، أي (الملائكة) في شعر ينسب إلى (أمية بن أبي الصلت) ، هو :

- ١ - سبأ ، الآية ٤٠ وما بعدها .
- ٢ - راجع تفسير الطبري (٦٩/٢٢) ، روح المعاني (١٣٩/٢٢) ، القرطبي ، الجامع (٣٠٩/١٤) .
- ٣ - القرطبي ، الجامع (٣-٨/١٤) وما بعدها .
- ٤ - تفسير الطبري (٦٧/٢٣) وما بعدها .
- ٥ - الصافات ، الآية ١٤٩ وما بعدها . الاسراء ، الآية ٤٠ ، الزخرف ، الآية ١٥ وما بعدها ، تفسير الطبري (٨٣/١٤) .

وكان يرفع^١ ، والملائك حوله سدر^٢ تواكله القوائم أجرد^٣

وورد (ملائكة) في شعر رجل من عبد القيس جاهلي يمدح بعض الملوك ،
قيل هو النعمان . وقيل هو لأبي وجزة يمدح به عبادة بن الزبير :

فلمت لإنسي^٤ ، ولكن ملائكة تنزل من جو السماء يصوب^٥

وقد زعم أن الملائكة تصافح الناس وتناجيهم . زعم ذلك حتى في الإسلام .
ذكر (ابن دريد) أن (عمران بن الحصين بن عبيد بن خلف) ، وهو من
الصحابة ، وعرف بـ (أبي نجيد) ، كانت تصافحه الملائكة وتناجيها لئلا
كان به ، فاكتمى ، فذهب عنه ذلك . وذهب ما كان يسمع ويرى^٦ .

السكر :

والسكر من أهم الوسائل التي يلجأ إليها البشر وأقدمها منذ اعتق أيامه في التأثير
على الأرواح ، وقد جعله جزءاً من الدين ، لذلك كان من اختصاص رجال الدين ،
يقومون به في المعابد قيامهم بالشعائر .

وإذا كان معظم الناس في الزمن الحاضر يفرقون بين الدين والسكر ، وبعدون
السكر شيئاً بعيداً عن الدين ، بل هو ضد الدين ، فإن قدماء البشر لم يكونوا
ينظرون إليه هذه النظرة ، كانوا ينظرون إليه كما قلت على أنه جزء مهم من
الدين ، بل هو أهم جزء فيه وأعظمه ، بل ما زلنا نجد ديانات القبائل البدائية
تعدّ السكر جزءاً من الدين^١ . وهو كذلك في كل دين يفتني .

وعمل الساحر هو السكر ، والسكر في عرف بعض علماء اللغة الإسلاميين هو

١ النسان (٤٩٦/١٠) -

٢ النسان (٤٩٦/١٠) -

٣ الاستقاني (٢٧٨/٢) ، (طبعة أوربة) ، (أنه كان يرى الحفلة ، وكانت تكلمه حتى
اكتمى) ، الإصابة (٢٧/٢) ، (الرقم ٦٠١٢) -

٤ R. Campbell Thompson, Semitic Magic its Origins and Development,
London, 1908, p. XVII, Smith, p. 90.

« عمل يقرب فيه الى الشيطان »^١ . وقد فسر بعض العلماء كلمة (الجبّت) في القرآن الكريم بمعنى السحر ، كما ذكر أنها تعني الساحر والكاهن والعصم وكل ما عبد من دون الله . وفسر (الطافوت) بمعنى الشيطان^٢ .

وقد وردت كلمة (السحر) و (سحر) و (الساحر) و (السحرون) و (السحرة) و (مسحوراً) و (مسحورون) في مواقع عديدة من القرآن الكريم ، وبذلك ورودها فيه بهذه الكثرة على مبلغ أثر السحر في عقلية الجاهليين . وقد اتهم أهل مكة الرسول أنه ساحر ، حينما أخبرهم بتزول الوحي عليه . وقالوا أنه يستمد وحيه من الشياطين .

وقد جمع البخاري بين الكهانة والسحر بأن قدّم الكهانة على السحر ، لأن مرجع الاثنين شيء واحد هو الشياطين^٣ .

وقد حلت تلك المواضع من القرآن الكريم المفسرين على جميع ما علق بأذهان الناس عن السحر . أما كتب الحديث ففيها مادة مفيدة وردت ضمناً عن عقيدة أهل الجاهلية به . كما وردت في أخبار أهل الأخبار لإشارات اليه ، تجعل جميعها ان الاعتقاد بالسحر بين الجاهليين كان شائعاً معروفاً . وان ممارسته في جزيرة العرب كانوا عرباً ويهوداً ، وأنهم كانوا يزعمون ان أصوله في بابل وعند يهود . وقد كان أكثر السحرة في الجاهلية من يهود^٤ . بقصدتهم الجاهليون من أنحاء بعيدة ، لاعتقادهم بسعة علمهم وباختصاصهم فيه . وكان اليهود يستنون علمهم الى بابل، ولعلنا نجد الأحاديث والأخبار العربية ترجع علم السحر الى بابل واليهود . والفرق بين الكهانة والسحر ان الكهانة تنبؤ^٥ ، فسند الكاهن هو كلامه الذي يذكره للناس . أما السحر ، فانه عمل في الأكثر ، للتأثير في الأرواح ، كي تقوم بأداء ما يطلب منها . ولا يمكن صنع سحر ما لم يقترن بعمل . وبصحب هذا

١ تاج العروس (٢/٢٥٨) ، (سحر) . اللسان (٤/٢٤٨) ، (سحر) .
٢ النساء ، الآية ٥٠ ، وسمي الساحر والكاهن جيباً ، المفردات (٨٣) . ساج العروس (١/٥٣٥) ، شمس العلوم (١ = ١ ، ق ٢ ، ص ٢٤٤) .
٣ عمدة القاري (٢١/٢٧٣ ، ٢٨٢) ، باب السحر ، ارساد الساري (٨/٤٠٦) ، الطبري (٢/٤٢١ ، ٤٤٥) ، الطبرسي ، (١-٢) ، (٣٨٤) .
٤ عمدة القاري (٢١/٢١٣) ، الطبري (٢/٤٣٩) ، المعجم المفهرس (٦/٢٧٦) ، معجم الرازي ، (١٧-١٨) (ص ٩) ، سنن ابن ماجه (٢/١١٧٣) ، روح المعاني (٣٠/٢٨٢) .

العمل كلام مفهوم أو غير مفهوم ، وإشارات ، يدعي الساحر انه انما يقوم به
وبالإشارات لتسخير الأرواح ، وان ما يفعله مفهوم عند جنوده ، وهم الجن
والشياطين .

وفن مثل هذا مغر جداً ، فمن من الناس من لا يريد تسخير القوى الخفية
لغيره ولصالحه ، وإلحاق الأذى بأعدائه ومبغضيه . ولذلك كان للسحر والسحرة
أثر خطير في التاريخ ، بالرغم من مقاومة بعض الأديان له . لما يقوم به السحرة
من أعمال وخفة ، وما لشخصيات بعض السحرة من تأثير نفسي كبير ، تجعل
من الصعب على بعض الناس ان يكذبوا أقوالهم وأفعالهم ، ولذلك يتأثرون بهم ،
ويأخذون بما يقولونه لهم ، حتى تكون للساحر مكانة كبيرة في نفس ذلك الشخص .
وللسحر أغراض عديدة ، وقد استُخدم في معالجة أمور كثيرة ، حتى إدارة
الملك والقضاء على الأعداء ، السحر والسحرة فيها صولات وجولات . ومن الطبيعي
أن يكون للحب المكانة البارزة فيه ، حتى لبكاد يتخصص بهذا الجانب من حياة
الإنسان . ولما كانت العادة أن يتزوج الرجل من جملة نساء صار السحر من أهم
الوسائل التي استعانت بها الزوجات للتأثير في قلب الرجل ، ولحسب المكانة الأولى
عنده ، وللغريش بين الرجل وبين بقية أزواجه . ومصداق ذلك ما ورد في القرآن
الكريم عن السحرة في هذه الآية : « ولكن الشياطين كفروا ، يعلمون الناس
السحر وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت ، وما يعلمان من أحد حتى
يقولا انما نحن فتنه ، فلا تكفر ، فيتعلمون منها ما يفرقون به بين المرء وزوجه^١ .
فالتفريق بين المرء وزوجه ، كان ولا يزال من أهم أعمال السحرة . وتجسد في
الحديث تقريباً ولوماً للسحرة لاستخدامهم السحر في هذا الغرض القاسد .

والساحر في معالجة الحب على طريقين : إشعال جذوة نار الحب في قلب من
يقصد إثارته عنده ، أو اطفاء نارا وإخمادها واماتها في قلب المحور . ولكل
من الطريقين قواعد وأحكام وأصول يجب تطبيقها بعناية ، وإلا بطل فعل السحر .
أما إشعال نيران الحب ، فيكون بطرق متعددة يتبعها الساحر ، فقد يستعين
بالبانانات والأعشاب ، يستخرج أدوية منها يقدمها الى المرأة لتؤجر الرجل بابها
سراً . وقد يستعين بالجعر يقرأ عليه ، ثم يرمى في الممرات التي يمر الرجل ،

١ البقرة : الآية ١٠٢ - عمدة القاري (٢٠ / ٢٧٨ وما بعدها) .

أو الشخص المراد سحره منها . وقد يذفن السحر في موضع كمقبرة أو محل آخر ليؤثر من ذلك الموضع على المسحور . وقد يستعين بالخرز يسحر عليها ، فتجذب المرأة الى زوجها ، وتسمى (النيوقة)^١ .

وكما يستعمل السحر لاشعال نيران الحب في القلب ، كذلك يستعمل لابقصاد البغض والكراهية في النفوس . ففي استطاعة الساحر بما عنده من جنود مجتدة ان يلقي البغضاء والكراهية والحقد في نفس أي شخص يريد انساناً آخر ، فينقلب مبعضاً حاقداً كارهاً لمن كان يحبه ويعشقه . ويجعل هذا الباب واسع جداً للنساء خاصة .

وفي استطاعة الساحر مداواة العاشق وإمالة عشقه بوصفة يعطيها اليه لتفسي على حبه الجامح قضاءً تاماً يسمونها (السلوانة) و (السلوان) . وما هذه الوصفة إلا مادة ذات سحر عجيب يختل بها الانسان أو يشربها ، فتطفيء في الحال أو بعد أمد كل نيران للحب مؤججة في قلب العاشق . والسلوانة هي شيء من تراب قبر ، أو خرزة تسحق ويشرب ماؤها ، فيورث شاربها سلوة . وتكون الخرزة شفاقة ، تدفن في الرمل فتسود ، ثم تستخرج لتسحقها وشربها ، وقد يكتفى بصب ماء المطر على تلك الخرزة لسقي العاشق ذلك الماء الذي يسمونه (السلوان) ، ليشفي من العشق^٢ . ولا بد أن يكون لاختيار الماء وتراب القبر أو مسحوق الخرزة في معالجة العشق ، سبب يمكن تفسيره بأنه لفعل قلب المحب، وإمالة الحب فيه . ومن أهم الأعمال التي يعالجها السحرة ، اخراج الجن من المجانين . فالجنون هو من عمل الجن . تحمل الجنة بالإنسان فتأخذ عقله . ومن هنا قيل لهذا المرض (جنة) و (جنون)^٣ . ومن واجب الساحر اخراج الجن من هؤلاء المرضى ، وهو عمل يقوم به الساحر حتى اليوم ، ويكون ذلك بضرب المريض بالعصا لإخراج

١ بالكسر وبالضم ، « وقيل هي معاذة تعلق على الانسان » . اللسان (٨٥/١٣) .

٢ يا ليت أن قلبي من يعقله أو سافيا فسفاني عنك سلوانا
وورد :

شربت على سلوانة ماء مرنة فلا وجديد العيش بامي ما أصغر وجسا :

جعلت أعراف اليمامة حكمة وعراف نجد ان همسا شغواني
لما تركنا من رقيقة يعلباتها ولا سلوة الا بهما سفيانسي
اللسان (١١٨/١٩) وما بعدها .

٣ تاج العروس (١٦٤/٩) وما بعدها . « جنن » .

الجنة منه . أو يسقيه بعض الأشربة السحرية ، أو يتدليك جسمه وحمله ، ويدخله محلاً مظلماً هادئاً يحرق فيه البخور ، ويتعلق بعض العزائم والحجب وما شاكل ذلك لإبعاد الجن عن المجنون وإعادة عقله إليه .

ويدلوي الساحر أمراضاً عديدة أخرى ، بل كل أنواع الأمراض ، وما الممرض في نظر القدماء إلا أرواح شريرة حلت في الأجساد أو تجمزه منها ، فألحقت بها الأمراض . ولن يشفي الجسد أو الجزء المصاب منه إلا بطرد تلك الأرواح . وطرد الأرواح من أعمال السحر . والساحر هو سلف من أسلاف الأطباء . وكلمة (طيب) العربية هي من هذا الأصل . فالطب في اللغة السحر ، و (الملقطوب) هو المسحور ، والطبيب هو الساحر يستخدم طبه في الشفاء^١ . وقد أدخلت كتب الحديث السحر في (كتاب الطب)^٢ . فالساحر هو طبيب يعالج أشياء عديدة ، ثم تخصص الأطباء بالطب ، غير أن الأطباء ظلوا يمارسون حتى في أوروبا السحر في معالجة مرضاهم مدة طويلة ، إلى أن تطور العلم ، وظهر البحث الحديث .

ويقوم أكثر مداواة المرضى بواسطة السحر بالنفث على المريض أو في فمه وبماسك الرأس أو الجزء المريض ، لقراءة شيء عليه يضمن شفاؤه ، أو بتدليك ذلك الجزء منه . وقد يعطى حبيباً وتماثيل تشفي المريض من مرضه . والنفث في القدم من العادات الجاهلية القديمة ، يقوم به الكاهن والساحر والأب في بعض الأحيان ، لاعتقادهم أن ذلك سلبهم الطفل فيعلمه العلم والحكمة والذكاء ويمتعه الصحة الجيدة .

ومن طرق السحر عند الجاهليين ، النفث في العقد ، وقد دلت عليه هذه الآية الكريمة : « ومن شرّ النقّات في العقد »^٣ . ويكون ذلك بعقد عقد و النفث عليها^٤ . ويذكر المفسرون في سبب نزول هذه الآية أن (ليد بن أعسم

١ صحيح مسلم (١٤/٧) ، اللسان (٤٢/٢) ، ناه العروس (١/٣٥١) ، عمدة القاري (٢٢٩/٢١) .
٢ راجع كتب الحديث : (كتاب الطب) ، إرشاد الساري (٨/٣٦٠ وما بعدها) ، عمدة القاري (٢٧٧/٢١ وما بعدها) .
٣ الفلق : الآية ٤ .
٤ الكشاف (٤/٢٤٤) ، ناه العروس (١/٦٥٠) ، نعت « صحيح مسلم (١٤/٧) ، باب السحر ، عمدة القاري (٢١/٢٨٠ وما بعدها) ، أسباب النزول (٢٤٦ وما بعدها) .

(اليهودي) سحر الرسول ، ودمى ذلك السحر في بئر (لبستي زريق) تسمى (بئر ذروان) (بئر ذي أروان) ، وأنه وضع ذلك السحر في جف طلعة تحت راعوفة ، أي في قشر الطلع وتحت حجر في أسفل البئر . فلما استخرج السحر ، وجدوه مشاطة رأس وأسنان مشطه ، وإذا فيه معقد فيه إحدى عشرة عقدة مغروزة بالإبر^١ . ويقوم بهذا السحر الرجال والنساء . غير أن المفسرين وأهل الأخبار واللغة حينما يذكرون هذا النوع من السحر يذكرون أن النساء الغائات هن القواري كن^٢ يقمن بذلك . أخذوا رأبهم هذا من الآبة المذكورة التي تشير إلى بنات ليد وكن^٣ ساحرات ، والاشارة في هذه الآبة عن حادث معين ، ولم يقصد بها الاطلاق . والنث في العقد ، وعقد سبع عقد توضع فيها مادة السحر ، من طرق السحر القديمة المعروفة عند العبرانيين والآشوريين وغيرهم . وقد عثر في الكتابات المسهارة على تعليقات في كيفية انقاء شر الأرواح الخبيثة وأرواح الأموات الشريرة التي تسحر الناس ، فكان مما جاء فيها عقد سبع عقد ووضع مسادة سحرية فصلت في تلك التعليقات لانقاء شر سحر تلك الأرواح^٤ .

ويذكر المفسرون وأهل الحديث أن الرسول لم يساحره (ليد بن الأعصم) من (بني زريق) ، كان « يغفل إليه أنه كان يفعل شيئاً وما فعله »^٥ ، حتى علم بسحر (ليد) . فلما استخلصه من البئر ، ذهب أثر ذلك السحر عنه . وقد كان السحرة اليهود يقرأون شيئاً ويهمهمون عند عقدهم كسل عقدة من هذه العقد ، ويقال لذلك Ghahar^٦ . ومن هؤلاء اقتبس السحرة العرب طريقهم في النث على العقد .

وللواد التي يستعين بها الساحر لعمل السحر عديدة . أوراق بعض النباتات والملح والبخور والدعاء والعظام وقرون الحيوانات يذقنها أو يحرقها أو يذيقها في الماء . وفي كل سحر لا بد أن يشفع الساحر سحره بطقوس أو بحركات خاصة ، وبتسمة تلقى في الروح أن الساحر يقول شيئاً ويخاطب أشخاصاً هم الجن ، والتمنة

١ الطبرسي ، الجزء التاسع ، المجلد الخامس (٥٦٨) ، ارشاد الساري (٤٠٣/٨ وما بعدها ، ٤٠٧) .

٢ Semite Magic, p. 33.

٣ ارشاد الساري (٤٠٣/٨ وما بعدها) ، شرح صحيح مسلم . للتوحي (١٥/٩)
« حاشية على ارشاد الساري » ، الطبري (٤٣٩/٢) . مستن ابن ماجة (١١٧٣/٢) .
٤ Hastings, p. 569.

هي في الغالب كلام غير مفهوم عند الناس ، ولكنه عند الساحر وجنوده الجن والشياطين كلام واضح بليغ .

وبعد السحرة الى الصور والرموز في سحرهم ، ومنهم من كانوا لا يعرفون الكتابة ولا القراءة فيرمزون الى من يريدون سحره ، أو إلخاف الأذى به ، أو يصورونه . وقد يشيرون بالصور والرموز الى الجن والشياطين . وهم في الغالب يدفنون تلك الصور والرموز في المقابر ، لأنها من أنسب الأماكن للسحر . وقد عثر على عدد من هذه الاشارات والصور السحرية . ومنها ما هو مكتوب بكتابات لها صور بالسحر^١ .

إبطال أثر القوى الخفية :

وقد حل اعتقاد الجاهلين بوجود قوى خفية تؤثر في الانسان ، أهل الجاهلية على العمل على التغلب على تلك القوى أو الحد منها وإيقاف فعلها وذلك بابتداعه طرقاً عديدة لتلك ، مثل استعماله (التفرات) أو السحر ، أو (الرقي) ، أو الهائم ، والتعاويذ وما شابه ذلك من أمور .

و (التفرة) شيء يعلق على الصبي تخوف النظرة^٢ . و (التفير) الطرق التي يستعملها الانسان لتغيير القوى الخفية وإبعادها عنه . وطريقتهم في ذلك شبيهة بطرقهم في تغيير العقلاء وغير المرغوب فيهم من الناس وإبعادهم ، وذلك بالتفاد كل ما ينفر ويفرز ، لتعاف تلك الأرواح الموضع التي اختارتها والأشخاص الذين نزلت بساحتهم وحلت في أجسامهم ، ومنها طريقة (التنجيس) . وطريقتهم في ذلك تعاقب الأقطار من غرق المحيض وعظام الموتى وأمثال ذلك على الصبي ومن يخاف عليه عيون الجن ، لاعتقادهم ان الجن سوف تتعد عن هؤلاء وتهرب منهم . ويقال للمعوذ (المتنجس) ، وللشخص الذي عرّض له (المتنجس) . والتنجيس بشيء إلا من العشق^٣ .

Hastings, p. 569.

١ تاج العروس (٥٧٩/٣) ، (نمر) .
٢ ورد : « وعلق انجاساً على المتنجس » ، اللسان (١١١/٨) ، (نجس) ، بلوغ
الارب (٣١٩/٢) .

وانخذ الجاهليون طريقاً عدة للتخلص من الجن ، ولا سيما من الخبطة والنقرة .
أي من خطف الجن للأطفال ومن حسدها لهم . فهداهم تفكيرهم الى تعليق بعض
الأشياء على الصبي^١ ، مثل سنّ نعلب ، أو سن مرة ، وتقطيع شيء من السوائل
في عينه عند الولادة لتغيير الجن منه . وتسمى هذه الأمور المقررة للجن الثغرات^٢ .

ومن الثغرات التحايل على الجن بتغيير الأسماء ، بتغريبها ، كأن يسمى الصبي
بأسماء بعض الحيوانات الصغيرة أو الأشياء التافهة الحفيرة ، وبذلك تنفر الجن منه ،
فلا تقرب منه ، ولا تمسه بسوء^٣ . قال أعرايس لما ولدت قبيل لأبي نقر
عنه ، فسماي قنفلأ وكناني أبا العداء^٤ .

التحصن من الجن :

والاستعاذة بالجن نفيذ أيضاً في نظر الجاهلين في حماية الشخص من أذاهم ،
فإذا استعبد بعضهم الجن ، استجاب العظيم تداوم المستعبد . فكان المسافرون إذا
خافوا من طوارق الليل ، عملوا الى وادي شجر ، فأناخوا رواجلهم ، وعقلوها
وخطفوا عليها خطاً ثم نادوا : نعوذ بعظيم هذا الوادي ، أو نعوذ بصاحب هذا
الوادي . فيستجيب عندئذ عظيم الوادي لتدأ المستعبد ، فلا يسمح لأحد أن يلحق
به أذى . . . وقد أشير الى ذلك في القرآن : « وأنه كان رجال من الإنس
يعوذون برجال من الجن ، فزادوهم رهقاً »^٥ . وذكر ان العرب كانوا إذا
صاروا في به من الأرض ، وتوسطوا بلاد الخوش ، خافوا حيث الجنان والسعال
والغيلان والشياطين ، فيقوم أحدهم فيرفع صوته : إنا عائلون بسيد هذا الوادي !
فلا يؤذيهم أحد ، وتصير لهم بذلك عفارة^٦ .

١ . بلوغ الأرب (٢/٣١٩) .

٢ . بلوغ الأرب (٢/٣٢٥) . الناج (٣/٥٧٩) .

٣ . بلوغ الأرب (٢/٣٢٥) .

٤ . اللسان (٧/٨٥) . الناج (٣/٥٧٩) . (نقر) .

٥ . سورة الجن ، الآية ٦ .

٦ . الحيوان (٦/٣١٧) .

فبائع الجن :

ولارضاء الجن واسكانها ، وتجنب أذاعها ، قام الجاهليون بتقديم اللبائع لها . فإذا أراد انسان السكن في بيت جديد ، أو استخراج الماء من بئر احفرها أو من عين ماء ، أو ما شاكل ذلك وخاف من وجود الجن فيها فبصح ذبيحة ، يرضى بها الجن ، فلا تتحرض عندئذ به ولا تصيبه بأذى ، لأنه قد تقرب بالذبيحة اليها وبين لها انه صديق لها ، فيعيش عندئذ قريح العين في بيته الجديد ، لا يمس عمارة بسوء . ويقال لهذه اللبائع : (فبائع الجن) . وقد نهى الاسلام عن فبائع الجن . ورد انهم كانوا اذا اشترى داراً أو استخرجوا عيناً أو بنوا بيتاً ، ذبحوا ذبيحة مخافة ان تصيبهم الجن ، فأضيفت اللبائع اليهم لذلك ^١ .

و (النشرة) سلاح مفيد جداً لحل عقد الرجل عن مباشرة أهله . وقد كانت مشهورة في أيام الرسول . وقد أباح العلماء (النشرة العربية التي لا تضر إذا وطئت ، وهي أن يخرج الإنسان في موضع عصاه ، فيأخذ عن يمينه وشماله من كل ، ثم يذيه ويقرأ فيه ، ثم يغسل به ^٢ . ويسدل ثمت هذه النشرة بالنشرة العربية على وجود نشرات غير عربية ، وهي النشرات التي كان يعملها اليهود . وقد كانوا يستعملون الأدعية العبرانية ، لذلك نهى الاسلام عن استعمال تلك النشرات .

و (النشرة) في تعريف علماء اللغة : رقية يعالج بها الجنون والربص ومن كان يظن أن به مساً من الجن . وإذا نشر المسفوح كان كأنما أنشط من عقل ، أي يلعب عنه سريعاً . وفي الحديث أنه سئل عن النشرة ، فقال هي من عمل الشيطان . وقد أدخلها بعضهم في السحر ^٣ .

و (العوذة) ، ويقال لها (المعاذة) و (المعاذات) . تستعمل في التعوذ

- ١ اللسان (٢٦٢/٣) ، تاج العروس (١٣٨/٢) . (ذبيح) . اللسان (١٣٧/٢) ، (ذبيح) . (صادر) .
- ٢ عمدة القاري (٢٨٤/٢١) . تاج العروس (٥٦٦/٣) . سنن أبي داود (٦/٤) .
- ٣ تاج العروس (٥٦٦/٣) . (نشر) . الحيوان (١٨٥/٤) . اللسان (٢٠٩/٥) . (نشر) . (صادر) .

من الفرع والحنون^١ . وتبحث تسميتها على الظن بأنها من المصطلحات الإسلامية ،
وأما أخذت تسميتها من المعوذتين . غير أن ورودها في مواضع عديدة من الحديث ،
واستعمالها في القرآن الكريم للتعبير عن فكرة معينة معلومة ، يدلان على أنها من
المصطلحات التي كانت معروفة بين أهل (يثرب) حتى إن بعض الصحابة ذكروا
أنها نزلت للتعويد . ومعنى (أعوذ) أعصم وأتجىء ، فلا يستبعد أن يكون أهل
يثرب على الأقل قد تعلموا ذلك من اليهود الذين كانوا يقرأون بعض التعاويذ من
التوراة لحماية أنفسهم من شر الأمراض .

وتستعمل (الرقية) في مداواة الآفات ، مثل الحمى والصرع والنظرة ولدغات
العقارب والحيات وأمثال ذلك ، وتكون بقراءة شيء على المريض أو على موضع
المرض ثم الثقب عليه ، أو بحمل شيء مكتوب . وقد جاء في بعض الأحاديث
جوازها في الإسلام ، وفي بعضها النهي عنها . وقد ذكر علماء الحديث أن الإسلام
قد نهى عن الرقية التي تكون بلسان غير عربي ، ويدل هذا على أن الجاهليين
كانوا يلجئون إلى أهل الكتاب ولا سيما اليهود منهم ، فيرقونهم بالعبرانية أو
السريانية ، ولذلك نهوا عنه . وقد عرضت بعض أنواع الرقية التي كان يستعملها
أهل الجاهلية على الرسول لأخذ رأيه فيها ، فأباحها لهم ، وأباح لهم كل رقية
ليس فيها شيء من ألفاظ الجاهلية^٢ .

وقد حفظت الكتب لنا أنموذجات من بعض الرقى ، منها هذه الرقية التي
استعملت في اشعال نيران الحب : « هوا به هوا به ، البرق والسحابة ، أخذته
بحركن ، فحبه تمككن . أخذته بإبره ، فلا يزل في عبره ، جبلته بإشقى ، فقلبه
لا يهدا . جبلته بمرد ، فقلبه لا يبرد »^٣ . فهذه الرقية تلهب قلب الرجل ،
وتجعله كأنه في إجابة غسل الثياب . يعمل على وفق إرادة المرأة التي
استعملت تلك الرقية .

١ اللسان (٣٤/٥) ، سنن ابن ماجة (١١٦٣/٢) ، اللسان (٤٩٩/٣) ، العقد المفرد
(٢٧٤/٦) .

٢ شرح الإمام النووي على متن مسلم (٣٩/٩) ، ارشاد الساري (٣٩١/٨) ، سنن
أبي داود (١٠/٤) وما بعدها ، اللسان (٣٣٢/١٤) ، (صادر) ، (٤٩/١٩) ،
تاج العروس (١٥٤/١٠) ، اللسان (٤٩٩/٣) ، (٣٣٢/٤) ، صحيح مسلم
(١٨/٧) ، سنن ابن ماجة (١١٦٦/٢) ، (كتاب الطب ٣٨) .

٣ بلوغ الأرب (٧/٣) .

أما إذا شمت المرأة زوجها ، وأرادت الابتعاد عنه ، وطرده عنها ، فليها في ذلك رقبة بعد الرجل ، وتضره منها ، وذلك بأن تقول : « بأفول القمر ، وظل الشجر ، شمال تشمله ، ودبور تدبره ، ونكباء تنكبه ، شيك فلا انتفش » . فإذا أتمت ذلك ، رمت في أثره بحصاة ونواة وروثة وبمرة . ثم تقول : « حصاة حصت أثره ، ونواة نأت داره ، وروثة رائت خبره ، لقعته ببعرة »^١ .

و (العزائم) الرقي ، أو ضروب منها . يقال عزم الرائي ، كأنه أقسم على السداء ، وعزم الحوآء ، إذا استخرج الحية . كأنه يقسم عليها . والعزيمة من الرقي التي يعزم بها على الجن والأرواح^٢ . ومن اعتقادات الأعراب أن الجن لا تجيب صاحب العزيمة ، حتى يكون المعزم مشاكلاً لها في الطباع^٣ . وأن للمعزمين جنوداً من الشياطين والجن تتبع أوامرهم وتطيعهم وتخدمهم وتتصرف بين أمرهم ونهيهم^٤ .

ومن ضروب الرقية ، ما يدعيه الحوآء من اخراج الحية من جحرها ، بعزيمة يقوم بها ، تجبرها على الخروج منه . وقد قالت بئلك الشعراء في الجاهلية والأسلام . وكانوا يؤمنون بئلك ويصدقون به . وقد أشير في شعر لأمية بن أبي الصلت ، إلى اخراج الحية من جحرها . وقد تحدث (الملاحق) عن ذلك ، وعلى سبب خروجها وجاء بآيات شعر في ذلك ، وتحدث عن تمويه الحوآء والرائي^٥ .

و (الهائم) ومفردها (التيممة) ، هي عوذة على هيئة قلادة من سبور نضم خرزاً ، وقد تكون من خرزة واحدة تستعمل للصبيان والنساء في الغالب اتقاء النفس والعين . فإذا كبر الطفل ، انتزعت التيممة منه . وقبل : الهائم «خرزات كان الأعراب يعلقونها على أولادهم يتقون بها النفس والعين يزعمهم ، فأبطله الإسلام » . وذكر أن التيممة خرزة رقطاء تنظم في السبر ثم يعقد في العنق . وكانوا يعتقدون أنها تمام الدواء والشفاء^٦ . وقد أشير إليها في الشعر الجاهلي .

-
- ١ . بلوغ الأرب (٧/٣) .
 - ٢ . اللسان (٤٠٠/١٢) . (عزم) . الحيوان (١٨٤/٤) .
 - ٣ . الحيوان (١٨٥/٤) وما بعدها .
 - ٤ . الحيوان (١٨٤/٤) وما بعدها . المهرست . (المن الثاني من القامة السائمة) .
 - ٥ . الحيوان (١٨٤/٤) وما بعدها .
 - ٦ . اللسان (٦٩/١٢) وما بعدها . (نعم) .

وكانوا يستعملونها بكثرة ، يتعذرون بها ، لذلك عندما بعض الصحابة من الشرك ، لأنهم جعلوها واقية من المقادير والموت وأرادوا دفع ذلك بها ، وطلبوا دفع الأذى من غير الله^١ .

والخرز عند الجاهليين وعند الأعراب حتى اليوم ، أهمية كبيرة في السحر ، وفي دفع أذى الأرواح والعين ، وفي النفع والحب ، وأمثال ذلك . ولما كانت الخرز فصائل وأنواعاً ، فقد حصوا كل فصيلة باسم معين ، وجعلوا لكل قسم وصنف ثراً خاصاً يمتاز به عن بقية الأصناف الأخرى . فالثولة مثلاً الخرزة التي تحب المرأة إلى زوجها^٢ ، و (العقرة) (خرزة العقر) خرزة تشدها المرأة على حنجرها كطلاء . يزعم الأعراب أنها إذا علفت على حقن المرأة لم تعمل إذا وطئت . وقيل العكس : العقرة خرزة تعلق على العاقر لذلك^٣ ، و (البنجل) خرزة للتأخير ، تفيد في رجوع الرجل بعد الفرار وفي اكتساب عطفه بعد وقوع بغضه^٤ . وكانوا يقولون أقوالاً في ذلك مثل : « أخذته بالبنجل » فلا يرم ولا يغيب ، ولا يزل عند الطيب ، و « وأعمله بالبنجل » أن يقيم وإن يغيب . فهم يربطون الرجل بهذه الخرزة . فيجعلونه لا يفارق بيته وأهله .

و (الخَصْمَة) ، وهي خرزة للدخول على السلطان والخصومة تجعل تحت الخاتم أو في زر القميص أو في حائل السيف^٥ . و (العطفة) هي خرزة تجلب العطف لصاحبها^٦ . و (السلوانة) خرزة تسحق ويشرب مائها ، فيورث^٧ شاربها سلوة . وقيل : خرزة للتأخير ، يؤخذ بها النساء الرجال ، وقيل خرزة للبغض بعد المحبة ، وقيل خرزة شفاقة تدفن في الرمل . فتسود فيبحث عنها ويسقاها الإنسان فتسليه ، أو يسقاها العاشق فيسايه عن المرأة . وقيل خرزة كانوا يقولون : إذا صب عليها ماء المطر ، فشربه العاشق سلاً . أو هو أن يؤخذ تراب قبر ميت ، فيجعل في ماء فيسقى العاشق ، فيموت حبه . أو هو دواء يسقاها الحزين

-
- ١ اللسان (٧٠/١٢) . (سم) . سنن أبي داود (٩/٤) . النهاية (١٤٣/١) . باج العروس (٢٤٢/٧) . حسن العلوم (١ ق ١ ص ٢٦٥) .
 - ٢ باج العروس (٢٤٢/٧) .
 - ٣ باج العروس (٤١٤/٣) . (عمر) . بلوغ الأرب (٧/٣) .
 - ٤ باج العروس (٣٧٩/٨) . بلوغ الأرب (٧/٣) .
 - ٥ باج العروس (٣٧٩/٨) . (خصم) .
 - ٦ باج العروس (٢٠٠/٦) . بلوغ الأرب (٧/٣) .

فبفرجه^١ ، و (القزحلة) ، وهي خرزة من خرز الضرائر^٢ .

وكانوا يرقون بالخرز . فلخرزة (الغنمة) ، رقية خاصة ، هي : « أخذته بالغنمة ، بالليل زوج وبالنهار أمة »^٣ . وللقيلة و (الدرديس) ، وهي خرزة مؤثرة ذات قوة فعالة ، يتحجب بها النساء الى أزواجهن، تؤخذ من القبور العادية، أي القبور الجاهلية القديمة ، رقية خاصة ، هي : « أخذته بالدرديس تدر العرق اليبس ، وتلر الجلبد كاللدريس » . وقيل الدرديس خرزة سوداء ، كأن سوادها لون الكبد ، اذا رقعها واستشفقتها رأيتها تشف مثل العنية الحمراء للحب ، تتحجب بها المرأة الى زوجها ، توجد في قبور عاد^٤ .

ومن خرزهم : (كزار) ، خرزة تؤخذ بها نساء الأعراب . وقيل خرزة تؤخذ بها النساء والرجال . ورقبتها : « يا كزار كزريه ، يا همرة همريه ، ان أقبل فسريه ، وان أدير فقصريه ، من فرجه الى فيسه »^٥ . ومنها (الفصرة) ، خرزة للتأخير . وهي خرزة الحب ، يستعطف بها الرجال ، ورقبتها : « يا همرة همريه ، وبأ غمرة همريه ، ان أقبل فسريه ، وإن أدير فقصريه ، من لسته الى فيه ، وماله وبنيه »^٦ . ومثلها (الفصرة) ، خرزة للتأخير^٧ .

ومن الخرز المعروفة : (الكحلة) ، خرزة من خرزات العرب للتأخير ، تؤخذ بها النساء الرجال . أو هي خرزة سوداء تجعل على الصبيان لعين والفس من الجن والإنس ، فيها لونان بياض وسواد^٨ .

أصباة العين :

كان للجاهلين رأي وعقيدة في العين وفي أثرها في الحياة ، فهم يعتقدون بأثر

- ١ تاج العروس (١٨١/١٠) - (سلا) .
- ٢ بلوغ الأرب ٦/٣ وما بعدها .
- ٣ اللسان (١٠٧/١٦) . تاج العروس (١١١/٩) . (الهينمة) .
- ٤ تاج العروس (١٤٩/٤) . (الدرديس) .
- ٥ تاج العروس (٥١٩/٣) وما بعدها . (كزار) . بلوغ الأرب (٧/٣) .
- ٦ تاج العروس (٦٢٣/٣) . (حمر) . بلوغ الأرب (٧/٣) .
- ٧ تاج العروس (٦٢١/٣) . (حصر) .
- ٨ تاج العروس (٦٥/٨) . (كحل) . اللسان (٥٨٥/١١) . (كحل) .

العين وإصابةها . وتلحق هذه الإصابة وأهميتها ، تقتوا في ابتداء وسائل الوقاية منها ، وحماية أنفسهم من أثرها . وقد زعموا أن عيون بعض الناس تصيب ، وأنها إن أصابت شيئاً أهلكته ، فإن (العين) لا تتج إلا شراً ، وهي لا تكاد تكون في خير مطلقاً . ولذلك نجسوا (العائن) واعتدوا عنه . و (العائن) و (المعيان) و (العيون) هو من تصيب عيونه . فكان أحدهم إذا ما انفصل بإنسان ، وصادف أن نظر ذلك الإنسان إلى شيء أعجبه ، أو رأى شيئاً لفت نظره ، ثم صادف أن وقع مكروه لمن نظر إليه ، أو إلى ما كان قد رآه (العائن) ، نسب ذلك المكروه إليه ، ورمي بإصابة العين ، وقد يحدث من ذلك الرجل مثل ما حدث له مع من وقع المكروه عليه ، فيرمى عندئذ بإصابة معين ، ويبتله الناس خوفاً من إصابتهم بعينه . فيقال إن فلاناً لعيون : إذا كان يستشرف للناس لبصيتهم بعين . ويقال للعيون أنه لغرس ، وما أنقسه ، وقد أصابته نفس أو عين^١ .

ولا تقتصر الإصابة بالعين على إصابة عيون الإنسان، فقد تصيب عيون الحيوان كذلك . وهناك حيوانات عديدة لها قدرة على الإصابة بعينها مثل الحيات والثعالب والطاووس . وأكثر الحيوانات التي تكون لعيونها بريق أو لمعان خاص ، هي من هذا القبيل . وقد حمل هذا الاعتقاد بعض الناس على التخوف من تلك الحيوانات والابتعاد عنها ، بل بلغ الخوف بعضهم أن امتنعوا من ذكر اسم أمثال تلك الحيوانات أو نهجتي حروف اسمائها خشية العين^٢ . والكلاب من الحيوانات التي تصيب عيونها . ورد عن (ابن عباس) قوله : « الكلاب من الجن ، فإن فشيتكم عند طعامكم . فالقوا لمن ، فإن لمن أنفأ . أي أعيناً »^٣ . ولخوفهم من إصابة عيون الحيوان كرهوا الأكل بين يديها . فكانوا إما أن يشغلوها عن النظر إليهم بشيء يرمونه لما لذأكله ، ولو بعظم . وإما أن يطردها ، فيتخلصوا من إصابتهم بعيونها^٤ .

١ الحيوان (٢/١٤٢ وما بعدها) .

٢ روح المعاني (٣٠/٢٨٤) . Enay. Heligl. 5, 610.

٣ اللسان (٦/٢٣٦) ، (نفس) . « إن الكلاب من الجن ، وإن الجن من طمعة الجن ، فإذا فشيتكم منها شيء . فالقوا إليها شيئاً واطردوها » ، فإن لها أنفوس سيئة » ،

الحيوان (٢/١٣٦) .

٤ الحيوان (٢/١٣٢) .

ويُعبّر عن العين التي تصيب (المعين) بـ (النفس) . يقال تقصته بنفس ، أي أصبته بعين ، وأصابته فلاناً نفس ، أي عين . وفي الحديث : أنه نهى عن الرقية إلا في النملة والحُمّة والنفس ، أي العين ^١ . و (الناس) : العائن ، والمنفوس المعيون . و (النفوس) : العيون الحسود المتعين لأموال الناس ليصيبها ، وما أنفسه ، أي ما أشد عينه ^٢ .

و (السفة) العين . ورجل مسفوع ، أي معيون أصابته سفة ، أي عين . ويقال به سفة من الشيطان ، أي مس ، كأنه أعطى بنصيبه . ويعبر عنها بـ (النظرة) كذلك . وقبل : النظرة الإصابة بالعين والسفة العين ^٣ . و (النظرة) الغيبة أو الطائف من الجن ، وقد نظر، فهو منظور ، أصابته غيبة أو عين . وفي الحديث أن النبي ، صلى الله عليه وسلم ، رأى جارية ، فقال : إن بها نظرة ، فاسترقوا لها . قيل معناه : إن بها إصابة عين من نظر الجن إليها وكذلك بها سفة ^٤ . وقد يخصصون (النظرة) بإصابة عين الجن ^٥ .

وللحاسد نفس على المحسود . وقد يصل نفس الحاسد إلى حد الإهلاك . والعائن ربما لا يعتمد الأذى ، إنما عينه هي التي تصيب بمجرد المقابلة أو وقوع النظرة على الشيء ، ولذلك كان أذاه عند المقابلة ووقوع عين العائن على المعيون. أما الحاسد ، فله أنه يصيب في الغيبة وفي الحضور ، لأن عينه تقصد وتصل إلى المحسود ، وإن كان غائباً عن الحاسد ^٦ . ولخطر الحسد وشدة أذاه ، اتخذت الحمايل الخاصة بمقاومة عيون الحسود .

ولحماية النفس من العين ، استعملت الخرز والعاويذ والرقى . ومن الخرز التي استخدمت في حاية الأطفال من إصابة العين ، (الكحلة) ، وهي خرزة سوداء

١ تاج العروس (٢٥٩/٤) ، (نفس) .

٢ اللسان (٢٣٦/٦) ، (نفس) .

٣ تاج العروس (٢٨١/٥) ، (سفع) .

٤ تاج العروس (٥٧٤/٣) ، (نظر) .

٥ صفة القاري (٢٦/٢٦) وما بعدها ، اللسان (١٧٦/١٧) .

٦ روح المعاني (٢٨٤/٣٠) .

تجعل على الصبيان لدفع العين عنهم ، و (القبلة) ، وهي خرزة بيضاء تجعل في
عنق الفرس من العين^١ .

و (الودعة) ، تغيد في دفع أذى العين عن الإنسان . وذكر أنها مما يقدفه
البحر ، وهي تتفاوت في الصغر والكبر ، وهي خرزة تنقب وتتخذ منها القلائد ،
والحماية من العين^٢ .

١ تاج العروس (٧١/٨) ، بلوغ الأرب (٧/٣) .
٢ تاج العروس (٥٣٤/٥) ، (ودع) .

الفصل الخامس والثلاثون

في أوابد العرب

وهي أمور كانت العرب عليها في الجاهلية ، بعضها يجري مجرى الديانات ، وبعضها يجري مجرى الاصطلاحات والعادات ، وبعضها يجري مجرى الخرافات ، وقد كانت قد هيمنت وسيطرت على عقليتهم ، ولا سيما تلك الأمور التي كانت تتصل بحياتهم . كالكهانة والحداثة والرقية والتنجيس والتنجيم ، وغير ذلك مما له علاقة بحياة الإنسان حتى قيل أنهم كانوا (بين متكهن وحداس وراق ومنجس ومنجّم)^١ .

الكهانة :

وفي طليعة بعض الناس الموهوبين ، بما لهم من قدرة خفية خارقة والحام ، الاتصال بالآفة وبالأرواح . والاستئناس بها والأخذ منها ، والحصول على علم غريب منها يتعلق بالمستقبل عامة وبمستقبل كل إنسان خاصة ، أو التأثير عليها بصرف الخبر إلى شخص ودفع الأذى عنه ، ويتوجبه الشر إلى شخص يراد توجيئه إليه وإيقاظه . ويقال للاتصال بالآفة أو الأرواح لمعرفة المستقبل والتنبؤ عما سيحدث :

١ . إرشاد الساري (٨ / ٤٠٠) ، صحيح مسلم (٧ / ٣٥) وما بعدها ، عمدة القاري (٢١ / ٢٧٥) ، اللسان (١٧ / ٢٤٤) ، الروض الأنف (١ / ١٣٦) ، مروج الذهب (٢ / ٨٢) ، (محمد محيي الدين عبد الحميد) .

(الكهانة) « Divination » ، ويقال لمن يقوم بذلك الكاهن . أما الذي يزعم أن في امكانه التحكم في الأرواح وتوجيهها الوجهة التي يريد ، فيقال له (ساحر) ويقال لعمله (السحر) . وتقابل كلمة (السحر) في العربية كلمتا « Magic » و « Sorcery » في الانكليزية .

والكهانة في اللغة العربية تعاطي الخير عن الكائنات في مستقبل الزمان ومعرفة المصائب والأسرار ، وتقابل بهذا التعريف في العربية كلمة « Soothsayer » في الانكليزية . وتقابل كلمة (كاهن) لفظة (كوهين) « Kohen » في العبرانية و (كهنا) « Kahna » في لغة بني إرم ، وكلها من الأصل السامي القديم^١ .

ومن مرادفات الكاهن : (الطافوت) . وبهذا التفسير فسر العلماء قوله تعالى : « فمن يكفر بالله ويؤمن بالطافوت »^٢ . قالوا : الطافوت : الكاهن . وهم كهان تنزل عليهم شياطين يلقون على ألسنتهم وقلوبهم ، والطوافيت التي كانوا يتحكمون فيها ، كان في جهة واحدة ، وفي أصل واحد ، وفي كل حي واحد . وهم كهان تنزل عليهم الشياطين^٣ . وذكر بعض علماء التفسير ان الطافوت : الشيطان في صورة انسان يتحكمون اليه . وقد وردت اللفظة في موضع آخر من القرآن الكريم بعد لفظة (الجيت) ، إذ جاء في الترتيل : « ألم تر الى الذين أتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجيت والطافوت »^٤ . وقد ذكروا ان الجيت السحر والساحر ، بلان الخيشة والطافوت الكاهن^٥ . وان الجيت والطافوت صنان ، أو ان الجيت الأصنام والطافوت تراجمة الأصنام ، والذين يكونون بين أيدي الأصنام يعبرون عنها الكذب ليضلوا الناس ، أو ان الجيت والطافوت اسمان لكل معظم عبادة من دون الله أو طاعة أو خضوع له ، كائناً ما كان ذلك المعظم من حجر أو انسان أو شيطان . وإذا كان ذلك كذلك . وكانت الأصنام التي كانت الجاهلية تعبدتها كانت معظمة بالعبادة من دون الله ، فقد كانت جبوتاً وطوافيت.

١ - إرشاد الساري ٣٩٨/٨ ، اللسان ٣٦٢/١٣ وما بعدها ، (كهن) ، مفتاح السعادة ، لطائف كبرى زائدة ٢٩٣/١ وما بعدها .

Nöldeke, Neue Beiträge Semitischen Sprachwissenschaft, S. 36.

٢ - البقرة ، الرقم ٢ ، الآية ٢٥٦ .

٣ - تفسير الطبري ١٣/٣ وما بعدها .

٤ - النساء ، الآية ٥٦ .

٥ - تفسير الطبري ٨١/٥ .

وكذلك الشياطين التي كانت الكفار تطيعها في معصية الله، وكذلك الساحر والكاهن اللذان كانا مقبولاً منها ما قالوا في أهل الشرك بالله ، وكذلك حيي بن أخطب وكعب بن الأشرف لأنها كانا مطاعين في أهل ملتها من اليهود في معصية الله والكفر به ورسوله ، فكانا جيتين وطافونين^١ .

وذكر علماء التفسير في قوله تعالى : « ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك ، وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت ، وقد أمروا أن يكفروا به . ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالاً بعيداً »^٢ ، أن (الطاغوت) الكاهن الذي كان يحكم بين الناس ، ويتحاكمون إليه . وأنها نزلت في حيي بن أخطب المختص مع مسلم ، فكان المسلم أو المنافق يريد الاحتكام إلى الكاهن ، وكان اليهودي يدعو إلى النبي أو المسلمين ، لأنهم لا يقبلون الرشوة ، فاصطالحوا أن يتحاكموا إلى كاهن من جهة ، أو إلى كاهن بالمدينة ، أو إلى كعب بن الأشرف ، فترل الوحي بتوبيخ ذلك المسلم أو المنافق^٣ .

والتكهن عن المستقبل والتحدث عن الماضي ، موضوع له فروع عديدة . وقد عدّ علماء من العلوم عند كثير من الأمم ، وألفوا فيه . وتنبؤ الأصنام هو نوع من هذه الأنواع . ويدخل في التكهن التنبؤ بواسطة وسيط : مكالمة صنم ، أو (تابع) أي (ربي) ، وقراءة كيد الشاة وقراءة أعضائها كما كان عند البابليين وعند المصريين . والتكهن بحركات الطيور ، وتفسير الأحلام . وتفسير بعض الظواهر الطبيعية وما شابه ذلك وكل هذه كانت معروفة عند الجاهليين .

وليس من الضروري أن يكون التكهن بتكليم الصنم حتماً وفي المعبود بالضرورة ، فقد كان من الكهنة من يقم في بيته ويتكهن مع ذلك للناس ، ينطق بما يوحى إليه وما يشعر به . وغاصدوه يرون أن فيه قوة خارقة وقابلية لتلقي الوحي من تلك القوة التي يتصورونها على هيئة شخص غير منظور يلتقي إلى الكاهن الوحي ، فينطق بما يناسب المقام وما يكون جواباً على الأسئلة التي توجه إليه . ويطلقون على ذلك الشخص الخفي اسم (تابع) أو (صاحب) أو (مولى) و (ولي) و (ربي) ، لأنه يكون تابعاً وصاحباً للكاهن . يتبعه ويصاحبه ويلتقي إليه

- ١ تفسير الطبري (٥ / ٨٣) وما بعدها .
- ٢ سورة النساء ، الآية ٦٠ .
- ٣ تفسير الطبري (٥ / ٩٦) وما بعدها .

(الزئي) . يكشف له الحجب ويأتيه بالأسرار . فهو (حاز) و (حزاه) و (حازية) و (الزائي) في العهد القديم^١ .

وكان من رأي الجاهليين ان هناك وحياً يوحى الى الكاهن بما يقوله ، وقد قالوا لذلك المصدر الذي يوحى اليه : (شيطان الكاهن) ، كما قالوا للمصدر الذي يوحى الى الشاعر يوحى شعره : (شيطان الشاعر) ، ذلك لأن شيطان الكاهن يسترق السمع ويلقي به الى الكهنة^٢ . يسترقه من السماء ، فيأتي به الى الكاهن ويلقي ما استرقه اليه ، فيلقي الكاهن ما ألقى عليه شيطانه الى الناس ، وبذلك يتنبأ لهم^٣ . « سأل رسول الله - صلى الله عليه وسلم ، ناس^٤ عن الكهان ، فقال : لبسوا بشيء ، فقالوا : يا رسول الله ، انهم يحدثونا أحياناً بشيء ، فيكون حقاً ، فقال رسول الله ، صلى الله عليه وسلم : تلك الكلمة من الحق ، يخطفها من الجن فيقراها في اذن وليه ، فيخطفون معها مئة كذبة^٥ » .

وقد وردت كلمة (كاهن) في القرآن الكريم في معرض الرد على قريش الذين اتهموا الرسول بأنه (كاهن) . وبأنه يقول القرآن على نمط سجع الكهان . فجاء فيه : « لما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون »^٦ ، و « إنه لقول رسول كريم . وما هو بقول شاعر قليل^٧ ما تؤمنون ، ولا بقول كاهن ، قليل^٨ ما تذكرون »^٩ . فرد عليهم بقوله : « ما هذا القرآن يقول شاعر ، لأن محمداً لا يحسن قبل الشعر ، فتقولوا هو شعر ، قليل^{١٠} ما تؤمنون . يقول تصدقون قليل^{١١} به أنتم ، وذلك خطاب من الله لشركي قريش . ولا يقول كاهن ، قليل^{١٢} ما تذكرون . يقول ولا هو بقول كاهن ، لأن محمداً ليس بكاهن ، فقولوا هو

Reste, B. 134, Shorter Encyc., p. 207.

١ تاج العروس (٢٢٦/٩) وما بعدها ، النسان (٢٤٤/١٧) ، الطبرسي (٣٤٩/٥) ،
٢ (٣٦٧) ، بقرع الارب (٢٦٩/٢) ، مروج الذهب (١٧٢/٢) وما بعدها . مفتاح
السعادة ، لطاش كبري زاده (١١٣/١) وما بعدها . ارشاد الساري (٣٩٨/٨) ،
مقدمة ابن خلدون (١٠١/١) وما بعدها .
٣ صبح الاعشى (٣٩٨/١) .
٤ ارشاد الساري (٤٠٠/٨) ، صحيح مسلم (٣٥/٧) وما بعدها . عمدة القاري ،
(٢٧٥/٢١) ، النسان (٢٤٤/١٧) ، السروض الانب (١٣٦/١) ، نهاية الارب
(١٢٨/٣) ، (في اخبار الكهان) .
٥ سورة الطور ، الآية ٢٩ ، تفسير الطبري (١٨/٢٧) .
٦ الحاقة ، الآية ٤٢ .

من سجع الكهان^١ . فكان للكهان أسلوب خاص في كلامهم عند التنبؤ والتكهن هو أسلوب السجع . ولذلك عرف به (سجع الكهان) . وقد امتاز سجعهم هذا باستعمال الكلام الغامض ، والتعابير العامة الغامضة التي يمكن تفسيرها تفسيراً متناقضة ومختلفة . وهو أسلوب تقتضيه طبيعة التكهن ، لكي لا يلزم الكاهن على ما يقوله من قول ربما لا يقع ، أو قد يقع العكس . ففي مثل هذه الحالة ، يمكن أن يكون للكاهن مخرج باستعماله هذا النوع من الكلام .

وقد ورد أن الرسول نهي عن محاكاة الكهان في سجعهم ، فذكر عنه قوله :
« أسجع^٢ كسجع الجاهلية^٣ » .

ويذكر أهل الأخبار أن (تابع) الكاهن ، وهو شيطانه وجنيته ، كان يترق في الجاهلية الأخبار من السماء ، فيلقي بها إلى الكاهن المختص به . فيخبر الكاهن من يأتي إليه للكهانة . بقوا على ذلك إلى ظهور النبوة ، فلما نزل الوحي انقطعت الكهانة ، إذ وجد الشياطين الذين كانوا يترقون السمع لهم شهاباً رصداً . وقالوا إن قوله تعالى : « وإنا لمنا السماء فوجدناها ملئت حرساً شديداً وشهاباً » . وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع ، فمن يستمع الآن يجد له شهاباً رصداً^٤ » ، إنما عني به هذا الحادث . حادث منع الشياطين من استراق السمع^٥ .

ويذكر أهل الأخبار أيضاً أن « القلوب بالنجوم قد كان قدماً ، وذلك موجود في أشعار القدماء من الجاهلية . منهم : عوف بن الجزع ، وأوس بن حجر ، ويشر بن أبي خازم ، وكلهم جاهلي . وقد وصفوا الرمي بالنجوم^٦ » . وإن من عقائد أهل الجاهلية أن في تساقط النجوم والشهب دليل على موت عظيم أو ميلاد مولود عظيم^٧ . وذكر أن الرسول كان جالساً مع قوم من الأنصار إذ رمي بنجم فظهر نوره ، فقال لهم : ما كنتم تقولون في هذا النجم الذي يرمى به في

١ تفسير الطبري (٤٢/٢٩) .

٢ البيان والتبيين (٢٨٧/١) .

٣ سورة الجن ، رقم ٧٢ - الآية ٨ وما بعدها .

٤ تفسير الطبري (٦٩/٢٩) وما بعدها ، الكامل - لابن الأثير (١٠/٢) ، (الطبرية) ،

نهاية الأرب (١٢٤/٣) وما بعدها ، مفاتيح السعادة (٢٩٣/١) وما بعدها ، نوح

العروس (٣٢٦/٩) وما بعدها ، (كهن) - مروج الذهب (١٥٢/٢) وما بعدها .

٥ الروض الأنف (١٣٥/١) .

٦ الروض الأنف (١٣٦/١) وما بعدها .

الجاهلية ؟ قالوا : يا رسول الله كنا نقول حين نراه يرمى به مائت ملك ، ولد مولود^١ .

وقد جعل (المعبودي) حدة الأذهان مع نقصان الأجسام وتشويه الخلق ، من جملة العوامل التي دفعت على التكهن والإخبار عن الغيب . وضرب مثلاً على ذلك : شق ، وسطيح ، وسملقة ، وزوبعة ، وسديف بن هوماس ، وطريفة الكاهنة ، وحرمان أنخي مزبقياء ، وحارثة ، وجهينة ، وكاهنة باهلة وأشباههم من الكهان^٢ .

وقد يلحق التابع من الجن أشخاصاً لم يشتهروا بالكهانة وإنما عرفوا بشدة ذكائهم ومعرفتهم بعواقب الأمور، مثل (أحيحة بن الجلاح) وكان من أشرف المدينة ، وقد اشتهر عندهم بكثرة صوابه وسرعة ادراكه للعواقب . فعملوا ذلك بوجود تابع له من الجن كان يعلمه المغيبات^٣ .

قال (الجاحظ) : « وكانوا يقولون ، إذا ألف الجن إنساناً وتعطف عليه ، وغيره بعض الأخبار ، ووجد حبه ورأى خياله ، فإذا كان عندهم كذلك قالوا : مع فلان رثي من الجن . ومن يقولون ذلك فيه عمرو بن لحي بن قعدة ، ولأُمّور الحارثي ، وعتيبة بن الحارث بن شهاب . فلما الكهان ، فنل حارثة جهينة ، وكاهنة باهلة ، ولُغزى سلمة ، ومثل شق وسطيح وأشباههم^٤ .

والكهان يرون تابعهم ، وقد يتجلى لهم في صورة إنسان . ويظهر على صورة رجل للكواهن كذلك . فقد كان للفيظة ، وهي على ما يزعمه أهل الأخبار كاهنة أبوها مالك بن الحارث بن عمرو بن الصق بن شوق بن مرة ، وشوق أخو مدليج ، تابع يفد إليها ، ويدخل لحرفتها ، ويجلس تحتها . كما كان لفاطمة بنت النعمان النجارية ، وهي كاهنة كذلك ، تابع من الجن « كان إذا جاءها ، افتحم عليها في بيتها . فلما كان في أول البعث ، أنها ، فقعده على حائط الدار ولم يدخل ، فقالت له : لم لا تدخل ؟ فقال : قد بعث نبي بتحريم الزنى »^٥ .

١ السيرة الحلبية (١/١٤٠) .

٢ مروج (٢/١٥٤) .

٣ الاماني (١٣/١١٥) ، ذكر أحيحة بن الجلاح ، .

٤ الحيوان (٦/٢٠٣ وما بعدها) .

٥ الروض الانف (١/١٣٧) .

فالكاهن اذن ، هو الذي يتنبأ بواسطة تابع ، ولا يستطيع غير الكاهن رؤية التابع . وتكون الكهانة كلاماً يلقيه الكاهن نفسه ، أو تابعه ، جواباً عن أسئلة الكاهن . ولا كان التابع روحاً ، كان من الطبيعي تصور صدور ذلك الكلام من روح لا يمكن لمسها ولا رؤيتها ، ترى وتسمع وتعقل ، وتجبب ما يطلب منها الاجابة عنه .

ويكون الكاهن في أثناء تكهته في غيبوبة أو في شبه غيبوبة في الغالب ، ذلك بأنه متصل في هذه الأثناء بعالم مجهود صعب لا يتحملة كل انسان، ولاتصال الروح فيه ، واتصال الروح بجسم الكاهن شيء جد صير ، يتصبب العرق منه . خاصة اذا كان المتكلم الكاهن نفسه .

ويكون التكهن ، في الغالب ، في مكان هادئ تكتنفه ظلمة أو عتمة ، لأن للهدوء والظلام أثراً عظيماً في النفوس ، ويسبقه حرق بخور في الأكثر يشمر الى ما بعد انتهاء التنبؤ ، لأن البخور من الروائح الطيبة التي تؤثر في الأرواح ، فتجلبها الى المكان بسرعة . ثم إن له تأثيراً خاصاً في الأعصاب، وهو بذلك مادة صالحة في الأعمام لمن يقصد استشارة الكهان .

ويروي الأخباريون ان الناس كانوا اذا قدموا على الكهان امنحوتهم ليتأكدوا من صدق تكهنتهم ومقدار علمهم . وذلك باعطاء شيء اختفاء لا يمكن الاهتداء اليه ، أو بوضع لآثر ، أو ما شابه ذلك ، فيبدؤون الكاهن بالسؤال عنه . فاذا أجاب جواباً دل على معرفة وسعة علم ، سألوه عن الأمر الذي عندهم والذي من أجله قصدوه . ويكون لمؤلاء الكهان أجر يدفع اليهم . والعرف الغالب ان الكهانة لا تكون ولا تصح إلا بتقديم شيء للكاهن ، لأن التابع لا يرضى بالتنبؤ إلا اذا رأى حلاوة التنبؤ .

ومن قبيل الامتحانات التي امنحن بها الكهان ، امنحان (عتية بن ربيعة) الى بعض كهان اليمن ليتأكد من صدق تكهته قبل النظر في أمر اختلاف ايتسه (هند) مع زوجها (الفاكه بن المغيرة) في غربة رماها (الفاكه) زوجته بها^١ . وامنحان (عبد المطلب) للكاهن (ربيعة بن حنار الأسدي) حين الخصم مع (بني كلاب وبني رباب)^٢ . وامنحان (الكاهن الخزاعي)^٣ وغير ذلك .

١ - نهاية الارب (١٣٦/٣) - صبح الاعشى (٣٩٨/١) وما بعدهما .

٢ - نهاية الارب (١٣٣/٣) .

٣ - نهاية الارب (١٣٢/٣) .

وما يعطاه الكاهن ويجعل له على كهنته ، يقال له (الحلوان) و (حلوان الكاهن) ، وهو شيء غير معين ولا ثابت ، إنما يفتق عليه ، والرأي الشائع بين العامة حتى الآن أن الكهانة لا تصدق إذا لم يعط الكاهن أو الساحر (حلوانه) ، لأن ما يقدم الى الكاهن لا يخصه ولا يكون له ، إنما هو للرئيس ، والرئيس لا يقوم بعمله ولا يحسن أدائه إلا بحلوان ، يقبله معها كان ، وعلى الكاهن استشارة (التابع) ومراجعته فيه حتى يقنع ، ويوافق على الأجر . ولما كان الاسلام قد منع الكهانة ، كان من الطبيعي نهيها عن دفع الحلوان ^١ .

والكهنة إنما صاروا كهناً ، أي متبشرين بالغيب ، لأن « الكهنة قوم لهم أذهان حادة ، وتقوس شريفة ، وطباع غريبة ، فألفتهم الشياطين لما بينهم من التناسب في الأمور ، وساعدتهم بكل ما تصل قدرتهم اليه » ^٢ . وهذا هو تعليل إسلامي بالطبع لمصدر تنبؤ الكهان ، أما رأي الجاهليين عنه ، فلا علم لدينا عنه ، لعدم ورود شيء منهم اليها .

وتقدم الكهانة على القدرة الشخصية وعلى ذكاء الكاهن ، لذلك لم تكن كالسدانة مثلاً ، إذ لا ينتقل من الآباء الى الأبناء ، بل كان في إمكان كل شخص يرى في نفسه القدرة على التنبؤ بالغيب والتحدث عما سيحدث للسائلين ان يدهي الكهانة وان يعد نفسه كاهناً يتكلم باسم الأرباب ، وينطق بالقوة الخفية التي توحى اليه بالتنبؤات ، فيتخذ له مكاناً في معبد أو في موضع آخر أو في بيته ليقصده من يريد استشارته في عظام الأمور مما اختلفت وتنوعت عن المستقبل وعن الأخبار وعن الأسرار والمفاتيح وعن القيام بعمل من الأعمال .

وفي الأقوال المنسوبة الى الكهان ، قسم بالكواكب كالشمس والقمر وبالنجوم وبالنيل وبالنهار وبالأشجار وبالرياح والكلمات وبالحيال والأنهار وبالطيور وبما شابه ذلك أمور طبيعية ، الغرض منها التأثير في نفوس السامعين والأغراب في الكلام ، ليكون بعيداً عن الأسلوب المألوف . وقد روى الأخباريون نماذج من هذا الكلام ،

١ « أعطيت الكاهن حلوانه ، أي كراه كهنته » ، الاستغاثي (٣/٣١٤) ، « نهى النبي صلى الله عليه وسلم ، عن ثمن الكلب ومهر البهي وحلوان الكاهن » ، ارشاد الساري (٨/٤٠٠) ، اللسان (١٨/٢١١) ، تاج العروس (١٠/٩٦) ، اللسان (١٤/١٩٤) ، (صادر) ، « حلوان » ، النهاية (٣/٢٥٦) وما بعدها ، مفتاح السعادة (١/٢٩٣) وما بعدها .

٢ عبدة القاري (٢١/٢٧٥) ، ارشاد الساري (٨/٣٩٨) وما بعدها .

من هذا السجع المعروف بـ (سجع الكهان) ، نسبوه الى أصحابه من كهان الجاهلية . وهي نسبة مها حلولوا اثبات صحتها وصدق روايتها ، فانهم عاجزون في رأيي عن اقتناعنا بصحة ما يقولون. كيف حفظوا ذلك الكلام وتناقلوه بالحرف الواحد بوزنه وبأسلوبه وبنصه وبقصه الى أن أوصلوه الى أيدي العلماء واللدونين فثبتوه بالتدوين ؟ وكيف لم يخطئوا في ذلك ولم يشوا منه حرفاً ، حتى لكأنه كلام مقدس وارد عن وحى سماوي ، فلا بد من المحافظة على نصه وروايته على نحو ما ورد وحفظ ؟ وإذا كان العلماء قد تساهلوا في رواية متن حديث رسول الله فسمحوا بالتصرف فيه بشرط المحافظة على المعنى محافظة تامة ، لصعوبة التمسك برواية النص على نحو ما ورد عن الرسول . فكيف يعقل محافظة الرواة على حرفية كلام الكهان على نحو ما نسب إليهم . وكلام الكهان ليس بشيء بالقياس الى كلام الرسول ، ثم انه أقدم منه ، ولم يكن مدوناً ولا مكتوباً في كتاب على ما يفهم من روايات الأخباريين .

وقد كان للكهان على ما يتبين من قصص الأخباريين أثر كبير في حياة العرب قبل الإسلام . ففسد كان الناس يستشيرونهم في إبرام مهمات الأمور ، كإعلان حرب أو كشف عن جريمة أو بحث عن شيء مفقود وما شاكل ذلك . لفسد كانوا يستشيرونهم في الحروب ، ينتظرون للناس بقرب حدوث غزو أو نزول كارثة أو خير سيقع قريباً . لفسد كان هجوم بني أسد على (حجر) بمشورة الكاهن وبرأييه ، وكان تركهم نجماً وافتراقهم عنهم في يوم جيلة بتخليص من الكاهن كذلك^١ . وقد استعان النعمان أو يزيد بن عمرو اللساني بالكاهن (الخمس التلطي) ، لأخباره عن تجاسر على ناقة قتلها ، كما استعان (عتية بن ربيعة) في اثبات نسب ابنته (هند) منه^٢ .

وقد اشترك الكهان أنفسهم في الغزوات وفي الحروب . كانوا يشجعون قومهم ويحثونهم على القتال ، وكان بعضهم من مشاهير الفرسان ، مثل (زهير بن جناب) ، و (جذيمة) العبيسي ، وقلطف الكاهن ، والمأمور كاهن ملجج .

١ الاغانى (٣٦/١٠) . مروج الذهب (١٧٣/٢) وما بعدها . نهاية الارب . للتويري (١٢٤/٣) . صبح الاعشى (٣٩٨/١) . Rosta, B. 136.
٢ الاغانى (٢٧/١٠) . ذكر مقتل خالد بن كلاب . . صبح الاعشى (٣٣٨/١) وما بعدها . Rosta, B. 136.

ولم يكن الكهان من الطبقات الدنيا عند عرب الجاهلية ، ولا من سواد الناس . لقد كان منهم من هو من سادة القبيلة ومن الأشراف . ولا بد أن يكونوا من هذه الطبقة ، ليكون حكمهم نافذاً بين الناس بما لهم من عز وامتزلة وجاه . وقد عدّ الأنباريون (زهير بن جناب) رئيس كلب في جملة الكهان^١ . وقد كان للقبائل (كهان) تلجئ إليهم في الملأ ، لتستشيرهم وتعمل برأيهم في الغزو والحرب . يسرون معها ، وقد يفودونها في المعارك .

وقد كان لكل قبيلة كاهن منها أو عدة كهان ، تلجئ إليهم القبيلة إليهم لاستشارتهم في كل أمر عظيم يحدث لهم . ولا يشترط أن يكون كاهن القبيلة رجلاً ، إذ يجوز أن يكون امرأة . وكان كاهن ثقيف (قريش) عند ظهور الاسلام رجلاً يقال له (خطر) ، وكان لجنب كاهنهم كذلك ، وكان لقريش حين ظهور الاسلام كاهنة تدعى (سوداء بنت زهرة بن كلاب) ، وهكذا كان شأن بقية القبائل . فلما ظهر الاسلام ، ودّع أولئك الكهان رتبهم وتابعهم ، وكهانتهم ، إذ نسي الاسلام عنها . وقد كان لبعضهم أثر مهم في إعداد قبائلهم للدخول في الاسلام^٢ .

وقد أشار بعض الكتبة الكلاسيكيين إلى وجود كهان عند العرب ، كما أنه ورد في كتابات طور سيناء ما يدل على وجودهم عند القبائل^٣ .

ولم يكن الكاهن ، كاهناً ، بمعنى المخبر عن المعبود فقط ، بل كان حاكماً يحكم بين الناس فيما يقع بينهم من خلاف . فالكاهن حاكم يفصل في الخصومات . وقد كان أكثر حكام العرب كهاناً ، يقصدهم المتخاصمون من مواضع بعيدة لما عرفوا به من إصالة الرأي ، وصحة الحكم .

وقد ذكر أن الكاهن كان لا يلبس المصوغ . أما العراف فإنه لا بدع تدبيل قبضه وسحب رداءه^٤ ، ويدل ذلك على أنها كانتا يميزان أنفسهما بعميزات وعلامات وأنهما كانتا يتجنبان بعض الأمور .

- ١ الإغاثي (٦٦/٨) - (٧٣/١٥) - (٩٩/٢١) .
- ٢ الروس الألب (١٣٧/١) وما بعدها ، مفتاح السعادة - (١١٣/١) وما بعدها ، نهاية الأرب (١٢٤/٢) - صبيح الأعشى (٣٩٨/١) .
- ٣ Ency. Religl. I, p. ٥٥٧.
- ٤ تفسير الطبري (٥٧/١٨) ، ثمار اللطوب (١٩٣) - بلوغ الأرب (٤٠٧/٣) .

وقد اشتهر في الجاهلية عدة كهّان ذكر الأخباريون أسماءهم ، منهم : شق ،
وسطيح ، وأوس بن ربيعة ، والخمس التغلي ، وعزى سلمة الكاهن ، ونفيل
ابن عبد العزي ، وخنافر بن التوأم الحميري ، وسواد بن قارب الدوسي ، وعمرو
ابن الجعيد ، وابن الصياد ، والأبلى الأزدي ، والأجلح الدهري ، وعروة بن
زيد الأزدي ، ورباح (رباح) بن عجلة ، وهو المعروف بمراف البامة ،
والكاهن الخزاعي ، وهو جد (عمرو بن الحنق) ، وكان متركة بصفان ،
وإليه احتكم هاشم وأمية ، و (كهل) ، أحد الكهنة الجاهليين^١ .

وأشهر الكهّان وأعرفهم : شق وسطيح ، وللاخباريين عنها قصص أخرجهما
من عالم الواقع ، وجعلها في جملة الأشخاص الخرافيين . فشق في زعمهم إنسان
له يد واحدة وعين واحدة ، وجعلوه من التشيطة صورته صورة نصف آدمي .
وذكروا أنه كان معاصراً لماك بن نصر اللخمي ، وأنه استنعاه واستدعى سطيحاً
معه لتفسير رؤيا رآها ألزعته ، وأنها أخبره بوقوع غزو الحبشة لليمن ويظهر
سيف بن ذي يزن . وقالوا : إنه من بني جليحة ، وأنه عمر ثلاثمائة سنة^٢ .
وقالوا إن سطيحاً كان كتلة من لحم يدرج كما يدرج الثوب ، ولا عظم فيه
إلا الجمجمة ، وأن وجهه في صدره ، ولم يكن له رأس ولا عنق ، وكان في
عصره من أشهر الكهّان ، وإن كسرى بعث إليه عبد المسيح بن بقلبة الغساني
ليأله في ثوبيل رؤيا رآها ، فأخبره بظهور أمر رسول الله ويقرب زوال ملك
المجسم ، فأخبر (عبد المسيح) كسرى بذلك^٣ .

وزعم أن سطيحاً جسد ملقى لا جوارح له ، ولا يقدر على الجلوس ، إلا
إذا غضب انتفخ فجلس . وكان شق شق إنسان ، له يد واحدة ، ورجل
واحدة ، وعين واحدة . وولد سطيح وشق في اليوم الذي مات فيه طريقة الكاهنة ،

١ تاج العروس (٣٢٦/٩) ، بلوغ الأرب (٢٦٩/٢) وما بعدها ، مسروج الذهب
(١٧٥/٢) وما بعدها ، الكامل - لابن الأثير (١٠/٢) ، البيان والتبيين (٢٨٩/١) .
نهاية الأرب (١٣٢/٣) ، النعالي ، شمار (١٠٥) وما بعدها ، Beale, B. 134. f.
٢ تاج العروس (١٠٦/٨) ، (كهل) .
٣ الاشتقاق (٣٠٣) ، المستطرف (٨٠/٢) وما بعدها ، (ربيعة بن نصر اللخمي) ،
الآزمنة والإمكانة (١٩٣/٢) ، الاشتقاق (٢٨٦) .
٤ القزويني : عجائب المخلوقات (٣٧١/١) ، طبعة وستمنستر ، الطبري (٩٩/٢) ،
نهاية الأرب (١٢٨/٣) وما بعدها ، (في أخبار الكهّان) ، Ency., Vol. IV, p. 379.

ة (عمرو بن عامر) ، وهي بنت الخبير الحميرية ، ودعت بسطيح قيل إن
ت ، فأثبت به ، فضلت في فيه ، وأخبرت أنه سيخلفها في علمها وكهانتها .
ن وجهه في صدره ، ولم يكن له رأس ولا عتق ، ودعت بشق ففعلت به
فعلت لسطيح ، ثم ماتت وقبرها بالجحفة^١ .

وقد ذكر (المسعودي) ، نسب الكاهن (شق) على هذا النحو : (شق
مصعب بن شكران بن أنرك بن قيس بن عتقر بن أنمار بن ربيعة بن نزار) .
كر نسب (سطيح) على هذه الصورة : (هو ربيع بن ربيعة بن مسعود بن
ن بن ذئب بن عدي بن مازن بن حسان)^٢ . ودعاه به (سطيح الغساني) في
مع آخر . وأورد سجعاً من سجعته ، كما أورد أخباراً لشق المعاصر له^٣ .
دعاه (الجاحظ) به (سطيح الذئبي) ، كما دعاه (ابن اسحاق) بذلك ،
ينسب إلى جد اسمه (ذئب)^٤ .

وإذا كانت رواية أهل الأخبار عن وجود الكاهن (سطيح) صحيحة ، فيجب
يكون قد عاش في القرن السادس للميلاد ، إذ هم يذكرون أنه كان معاصراً
سرى أبو شروان ، وللعناب بن المثلث ، ويروون أنه أخبر (عبد المسيح بن
بان) ، الذي جاء إليه ليستفسر منه عن رؤيا رآها كسرى في منامه فأزعجته ،
بجهد بحولد الرسول . وذكروا أيضاً أن كسرى كان يستعين في حكمه بالكهان ،
تشبههم ، وأنه كان لديه ثلاثة وستون كاهناً وسحرة ومنجمين ، وكان من
هم كهنه من العرب ، وأشهرهم : السائب^٥ .

وذكر بعض أهل الأخبار أن خالد بن عبد الله القسري كان من ولد شق
أ . فهو خالد بن عبد الله بن أسد بن كرز . وذكر أن كرزاً كان ذهباً ،
كان من اليهود فحسب جناية ، فهرب إلى بجيلة ، فأنسب فيهم . ويقال
ن عبداً لعبد القيس ، وهو ابن عامر ذي الرقعة . وسمي بلذي الرقعة ، لأنه

الروضي الألف (١٨/١) وما بعدها .

مروج الذهب (١٦٠/٢) ، دار الأندلس ، سيرة ابن اسحاق (٤٧) ، (طبعة
لوزية) ، عجائب المخلوقات (٣١٠) ، الحيوان (٢١٠/٣) ، (٢٠٤/٦) ، ٢٠٦ وما
بعدها .

مروج الذهب (١٧٥/٢) وما بعدها ، الحيوان (٢٠٤/٣) ، (٢٠٤/٦) ،
الحيوان (٢١٠/٣) ، البيان والتبيين (٢٨١/١) ، ابن اسحاق (٤٧) ، (كوتشكن)
تاريخ الخميس (٣٢٢/١) ، نهاية الأرب (١٢٨/٣) وما بعدها .

كان أعور يغطي عينه برفعة ابن عبد شمس بن جون بن شق الكاهن بن صعب^١.
ويظهر أن أعداء (القصري) ، قد أوجدوا له هذه القصة للحط منه ، كما أوجدوا
قصصاً شبيهة بهذه القصة ، حكوها عن ثقيف ، نكابة بالحجاج المكره .

والى هؤلاء نجب اضافة (الأقمى الجرهمي) ، وكان متره بنجران ، واليه
احتكم ولد نزار في لإرث والدهم^٢ .

ورويوا ان الكاهن (الخزاعي) كان من الكهان المعروفين واليه تحاكم (أمية بن
عبد شمس) و (هاشم بن عبد مناف) في أمر مقاضرتها ، فحكم هاشم على
أمية ، فخرج الى الشام وأقام بها عشر سنين . وانه قال في حكمه كلاماً مسجعاً
ختمه بقوله : « ولأمية لو انخر » ، فكانت أول عداوة بين بني هاشم وبني أمية^٣.
وهكذا جعلوه يتباً يظهر ملك بني أمية . وربما كان هذا الملك هو الذي أوحى
الى مفتعل القصة بابتداع موضوع اختيار (أمية) الشام لتكون داراً له أقام بها
مدة زواجه مع هاشم ، فحكم ان الملك عليها كان مكتوباً لبني أمية منذ عهد
الجاهلية .

وتشبه هذه القصة ، قصة شك (الفاكه بن المقيرة) في سيرة زوجه (هند
بنت عتبة بن ربيعة) ، وتكلم الناس فيها ، وذهب والدها وزوجها بها الى
كاهن من كهان اليمن ، فلما امتحنه عتبة ، وتبين له ان الكاهن حاذق لا يغفل .
قال له : قد جشاك في أمر هؤلاء النسوة ، فجعل يأتي الى كل واحدة منهن
ويضرب يده على كتفها ، ويقول لها : انهضي حتى يبلغ هنذا . فقال : انهضي
غير رسحاء ولا زانية وستلدين ملكاً اسمه معاوية ، فنهض اليها الفاكه ، فأخذ
يدها ، فجلبت يدها من يده ، وقالت اليك عني ، فوالله لأحرص ان يكون
فلك من غيرك ! فتزوجها أبو سفيان ، فولدت له أمير المؤمنين معاوية^٤ .
وهي قصة تتحدث عن نفسها ، ولا حاجة لي الى ابتداء أي تعليق عليها .

وكان (صاف بن صياد) يتكهن ويدعي النبوة . وغباً له التي عيشاً فعلمه .

- ١ الروض الامت (١٩/١) .
- ٢ مجمع الامثال (١٧/١) وما بعدها .
- ٣ المستطرف (٨١/٢) . نهاية الارب (١٢٣/٣) وما بعدها .
- ٤ المستطرف (٨٢/٢) . نهاية الارب (١٣١/٣) وما بعدها . (الباب الثالث من القسم
الثاني من الفن الثاني . في أخبار الكهنة) .

وكان يدعي أن شيطانه كان يأتيه بما خفي من أخبار الأرض^١، ويذكر أن الرسول سأله : كيف يأتيك هذا الأمر^٢ قال : يأتيني صادقاً وكاذباً^٣ . وأن رسول الله ذهب إليه ليرى أمره وكان (ابن صياد) في نخل ، فكلمه رسول الله . وذكر أنه انطلق مرة مع (عمر بن الخطاب) في رهط قبل ابن صياد ، فوجده عند (أطم بني مغالة)^٤ .

وكان في بني لحب كاهن لهم يقال له خطر بن مالك . وكان في أيام الرسول . وكان اذ ذاك شيخاً كبيراً^٥ . وكان (أبو برزة) الأسلمي من الكهان المعروفين في المدينة أيام الرسول ، وقد تحاكم إليه بنو قريظة وهو التفسير في أمر الديات التي كانت بينها^٦ .

وذكر أن (خطر بن مالك) كان من أعلم كهائن (بني لحب) ، وأنهم كانوا بأثوة في اللات، أتت عليه مائتا سنة وثمانون سنة ، وقد تنبأ لقومه بانقطاع الكهانة وظهور الرسول بمكة حين سأله عن سبب تساقط النجوم في السماء^٧ .

وكان في دوس كاهن اسمه سواد بن قارب اللثومي أو اللثومي . وقد وفد مع وفد من قومه على الرسول وأسلم معه أمامه . وكان له رثي يأتي إليه^٨ . وذكر أهل الأخبار أنه كان حاذقاً في الكهانة ، مصيباً بها ، خرج لحمة تقصر من طيء من دور الحمى ، منهم : برج بن مسهر ، أحد المعمرين ، وأنيف بن حارثة ، ولأم عبدالله بن سعد والد حاتم ، وعارف الشاعر ، ومرة بن عبد رضاء ، يريدون سواد بن قارب ، ليحتجوا عليه . فقالوا : ليخبرك كسل منا خبيث ولا يخبر أصحابه ، فإن أصاب عرفنا علمه ، وإن أخطأ ارتحنا عنه . ثم وصلوا إليه فأهدوا إليه إبلًا ومرفقاً ، فضرب عليهم قبة ونحر لهم ، فلما مضت ثلاثة أيام دعاهم ، فتكلم برج ، وكان أسهم فذكر القصة بجميع ما خبروه ثم بمعرفته بأعيانهم وأنسابهم فقال فيه عارف الشاعر :

- ١ الروض الأنف (١/١٣٧) *
- ٢ مقدمة ابن خلدون (١/٩٥ وما بعدها) *
- ٣ زاد المسلك (٢/١٠٤ وما بعدها) *
- ٤ الروض الأنف (١/١٣٨ وما بعدها) *
- ٥ تفسير الطبري (٥/٩٧ وما بعدها) *
- ٦ السيرة الحلبية (١/١٣٩) *
- ٧ الروض الأنف (١/١٣٩ وما بعدها) ، نزعة الجليس (١/٢٧٧) *

الله أصل لا يجارى إلى القالات في حصني سواد
كان غيثا لما انتخبنا بعينه بصرح أو ينادي^١

ومن الكهان المعروفين (الحصين بن فضالة) وقد عرف به (الكاهن) ،
وقيل : إنه سيد أهل نهامة في أيامه^٢ . و (عمرو بن الحق) ، وقد أسلم
وصحب النبي ، وشهد المشاهد مع علي^٣ .

وكان (ربيعة بن حنظل الأسدي) من الكهان المعروفين ، وأبيه نحاتم (بنو
كلاب) و (بنو رباب) لما خاصموا (عبد المطلب) في مالٍ قريب من الطائف ،
فحكم له (عبد المطلب)^٤ .

وذكر (المسعودي) أمم كاهنين ، دعاهما به (سملقة) و (زبيعة)^٥ .
وقد أشار (الجاحظ) إليها في معرض كلامه على الخرافات^٦ .

وأشار (الجاحظ) إلى كاهن ظهر في (بني جهينة) ، عرف به (حارثة
جهينة)^٧ ، وإلى (عزي سلمة) . وقد قال (الجاحظ) عن (عزي) ، أنه
كان من أكهن العرب واسجهم . ودعا به (سلمة بن أبي حبة)^٨ .

وكان (عتاف بن التوام الحميري) كاهناً ، وكان قد أوتي بسطة في الجسم ،
وسعة في المال ، وكان عاتياً ، فلما وفدت وفود اليمن على النبي ، وظهر الإسلام
أغار على إبل لمراء فاكتسحها وخرج بأهله وماله ولحق بالشجر ، فعالف (جودان
ابن يحيى الفيرضي) ، وكان جيداً متبعاً ، ونزل يواد من أودية الشحر ، ثم
جاءه (شصار) رثيه ، فنصحه بالعودة إلى اليمن ، والدخول في الإسلام . فأسلم
على يد معاذ بن جبل بصنعاء ، فترك الكهانة وتعلم سوراً من القرآن^٩ .

- ١ - الإصابة (٦٥/٢) . (رقم ٣٥٨٢) .
- ٢ - الاشتقاق (ص ٢٧٩) .
- ٣ - الاشتقاق (٢٧٩) ، الإصابة (٥٢٦/٢) . (رقم ٥٨٢٠) .
- ٤ - نهاية الأرب (١٢٣/٣) .
- ٥ - مروج الذهب (١٦٠/٢) . (رقم ١٧٦) .
- ٦ - الحيوان (٣٠٩/١) .
- ٧ - الحيوان (٢٠٤/٦) . مروج الذهب (٢٣٧/١) ، نوار العلوب (٨١) .
- ٨ - الحيوان (٢٠٤/٦) . البيان والبيان (١٩٥/١) ، رسائل الجاحظ (١٣٠) .
- ٩ - الأمالي ، للقالبي (١٣٤/١) وما بعدها ، الإصابة (٤٥٦/١) . (رقم ٢٣٤٢) . ناسخ
العروس (١٩٢/٣) . (ختام) .

ومن الكهان (المأمور) ، وهو (الحارث بن معاوية) الكاهن . وكانت
ملحج في أمره تتقدم وتتأخر^١ . و (قلطف) الكاهن ، وهو من طيء^٢ .
وكان (زهير بن جناب الكلبي) ، و (جلدعة) العبي ، كهناً^٣ . وزهير
من الفرسان ، فكان من فرسان كلب ، وكان شاعراً^٤ .
وبعد^٥ (الأفكل) من الكهان الفرسان ، وله فرس اسمه هبود^٦ .

ولم تحرم النساء الكهانة ، فكان لمن فيها حصص ونصيب . وقد حفظ الأخباريون
أسماء عدد من الكاهنات اشتهرت كهانتهم في الجاهلية ، منهن طريفة الكاهنة ،
وزبراء ، وسلمى الحمدانية ، وعفراء الحميرية ، وقاطمة بنت مرثد الحشمية ،
وسجاح ، وغيرهن . وقد نسبوا إلى طريفة إخبارها عمرو بن عامر أحد ملوك
اليمن بزوال ملكه وبخراب سد مأرب ، وذكروا أنها عارت مع القبائل حين
خافت سيل العرم^٧ . ونسبوا إلى بقية الكاهنات أمثال هذا القصص عن أمور سئف
قالوا أنها وقعت كما تنبأ به .

وذكر (المسعودي) ، أن (طريفة) كانت كاهنة لعمرو بن عامر . وقد
لعتها يد (طريفة الخير) . وقد تنبأت له بقرب تهديم السد ، وظهور سيل العرم .
كما تنبأ بذلك أخ للملك اسمه (عمران) ، وكان عقيماً كاهناً ، فوقع ما تنبأ به^٨ .
وكان من شهيرات الكاهنات أيضاً (الغبيلة) ، وهي (أم الغياطل) ، وهي
من (بني مرة بن عبد مناة بن كنانة)^٩ . وقيل : « الغبيلة بنت مالك بن
الحارث بن عمرو بن الصق بن شوق بن مرة . وشوق أخو مدالج » . وقد
عرف ولدها بالغياطل ، وهم من بني سهم بن عمرو بن هصيص^{١٠} .

- ١ الاشتقاق (٢ / ٢٢٩) .
- ٢ الاشتقاق (٢ / ٢٢٧) .
- ٣ للشرق ، السنة ١٩٣٨ م ، (الجزء الأول) ، (ص ٧) .
- ٤ معجم الشعراء (١٣٠) ، الشعر والشعراء (٢٢٢) .
- ٥ للشرق ، السنة ١٩٣٨ م ، (الجزء الأول) ، (ص ٩) .
- ٦ بلوغ الأرب (٢ / ٢٨٣) وما بعدها . الإغاني (١٣ / ١٠٥) ، ذكر خبر مضافين
عمرو ، الطبري (٢ / ٢٤٤) ، مروج الذهب (٢ / ١٧٥) . Reste, 8. 137.
- ٧ مروج الذهب (٢ / ١٦٧) وما بعدها .
- ٨ الروض الأثري (١ / ١٣٨) وما بعدها .
- ٩ الروض الأثري (١ / ١٣٧) وما بعدها .

ويقال أيضاً أن (سَعْدَى بنت كَرِيز بن ربيعة) كانت قد تكهنت ، وهي حالة عَمَّان بن عفان^١ .

وكان لفاطمة بنت النعمان النجارية تابع من الجن ، وكان إذا جامعها اقتحم عليها في بيتها ، وقد أدركت مبعث الرسول^٢ .

وكانت سوداء بنت زهرة بن كلاب ، كاهنة قريش . ويذكر أن والدها أعطاهم لحافر قبور ليحضر لها قبرا في الحجون ، فبدلنها حبة فيه . أي يدها ، لأنها ولدت زرقاء شفاء ، وكانوا يثدنون من البنات من كان على هذه الصفة ، غير أن حافر القبر عاد بها إلى والدها ، لأنه لم يشأ دفنها في غير يرويه أهل الأخبار^٣ .

وكان في (خثعم) كاهنة عرفت بفاطمة^٤ .

ولاستشارة الناس هؤلاء الكهان في الأمور وطلبهم منهم الفصل فيها صارت كلمة (حكم) مرادفة لكلمة (كاهن) في بعض الأحيان . وقد روى الأخباريون أمثلة عديدة من حكم هؤلاء الكهان بين الناس وطريقة فصلهم في الأمور ، فهم في هذه الحالة يحكمون بقضائهم في القضايا التي يتفق الجانبان المتخاصمان فيها على إحالتها عليهم . ولم تكن لتفوز أحكامهم مناطق وحدود . لقد كان حدود أحكامهم المدى الذي وصلت شهرة الكاهن إليه ، لذلك كان الناس يقصدون الكاهن من مناطق بعيدة في بعض الأحيان لشهرته الواسعة التي يمتنع بها بين الناس . وتتوقف هذه الشهرة بالطبع على مبلغ ذكاء الكاهن وقدرته في فهم طبيعة المتخاصمين أو السائلين ، ليتمكن من إصدار حكم معقول مقبول . وتكون أحكامهم قطعية ، على الطرفين اطاعتها والامثال لها ، وليس لأحد أن يعترض عليها . ولذلك يأخذ الكاهن من الطرفين المتخاصمين قبل سماعه الشكوى عهداً بوجوب الامثال لحكمه وعدم ردها منها كان نوع الحكم .

١ نهاية الارب (١٢٦/٣) ، (١٣٠/٣) ، (طبعة وزارة الثقافة والإرشاد القومي في

الجمهورية العربية المتحدة) .

٢ الروض الانب (١٣٧/١) .

٣ الروض الانب (١٤١/١) .

٤ أنساب الاشراف (٧٩/١) .

العراف :

ويطلق بعض علماء اللغة على الكاهن (العراف) ، فهو عندنا مرادف للكاهن . غير ان من العلماء من يفرق بين الكلمتين ، ويرى بينها فرقاً ، فالكاهن الذي يتعاطى الخبر عن الكائنات في مستقبل الزمان ، ويدعي معرفة الأسرار ، والعراف هو الذي يدعي معرفة الشيء المرسوم ومكان الصلابة ونحوها ، أو الذي يزعم انه يعرف الأمور بمقدمات أسباب يستدل بها على مواقعها من كلام من يسأله أو فعله أو حاله^١ . ومنهم من يذهب الى ان العراف من اختص بالإنباء عن الأحوال المستقبلية . أما الكاهن فهو الذي اختص بالإخبار عن الأحوال الماضية^٢ . ولقد فرّق بين الكاهن والعراف في حديث : « من أتى عرافاً أو كاهناً ... »^٣ . وأطلق بعضهم العراف على من يدعي الغيب مطلقاً وفي ضمنهم المنجم والحازي^٤ .

وذكر ان (العراف) الكاهن أو الطيب أو المنجم أو الحازي الذي يدعي علم الغيب^٥ . فللكلمة معان عديدة ، ولا تختص بمعنى واحد . وقد ذهب (المسعودي) الى ان العراف دون الكاهن^٦ . ولجد هذه النظرة عند غيره أيضاً .

وخلاصة ما يفهم عن الكهانة والعرافة في روايات الأخباريين أن الكهانة هي التنبؤ بواسطة تابع . وأن العرافة تكون بالملاحظات والاستنتاجات وبمراقبة الأشياء لاستنتاج أمور منها ، يخبر بها السائلون على سبيل التنبؤ . وهي على ما يظهر من تلك الروايات ، دون الكهانة في المتزلة ، ولم يكن للعرافين اتصال ببيوت العبادة والأصنام^٧ ، ولم يكن لهم (رتي) أي (تابع) ، وإنما كانوا يستنبطون ما يقولونه بذكائهم وعسل القياس . فيأخذون بالمشابهة وبالارتباط بين الحوادث ، ويحكمون بما سيحدث بموجب ذلك^٨ .

وقد عهد العبرانيون العرافة من الحيل الشيطانية كالسحر والتفاول ، لأنها من

- ١ النهاية (٤/٤٢) .
- ٢ تاج العروس (٦/١٩٣) .
- ٣ النهاية (٣/٩٨) .
- ٤ تاج العروس (٦/١٩٣) .
- ٥ تاج العروس (٦/١٩٣) .
- ٦ مروج (٢/١٥٤) .
- ٧ (وأما العراف ، وهو دون الكاهن) ، الحيوان (٦/٢٠٤) .
- ٨ مفتاح السعادة (١١٣١ وما بعدها) .

رجس للشركين . وتشمل عندهم التنجيم والفرقة والزجر وما شاكل ذلك^١ . وقد نهي عنها في الإسلام .

وقد اعتمد العراف على الخط . فكان يخط مخطوطاً ، ثم ينظر إليها . ليستنبط شيئاً منها ، يتنبأ به للناس . ومن مشاهيرهم (حليس الخطاط الأسدي) . وقد ذكر أنهم كانوا يخطون مخطوطاً ، ثم ينظر العراف ويقول : « ابنا عيان ، اسرها البيان » ، ثم يخبر بما يرى^٢ .

وتعتمد العرافة - كما تعتمد الكهانة - على الذكاء والتفرد في الأمور والتجارب . وقد تخصصها أكثر الناس في الإسلام بالتوصل الى معرفة الأشياء المفقودة . والعراف بما عنده من الملكات والمواهب المذكورة ، يقضي ويتنبأ للناس فيها براء ، ومن أشهر العرافين في الجاهلية : عراف اليمامة ، وهو (رياح بن كحلة) (رياح ابن عجلة) (رياح بن كحلة) المذكور في الشعر ، وعراف نجد وهو الأبلق الأسدي^٣ . والأجلح الزهري ، وعروة بن زيد الأسدي^٤ .

وفي عراف اليمامة ورد قول الشاعر :

قلت لعراف اليمامة داوئي فإنيك ان داوئسي لطيب

والأبلق الأسدي ، هو عراف نجد ، وفيه يقول عروة بن حزام :

جعلت لعراف اليمامة حكمه وعراف نجد إنهما شفياني^٥

وقد كان أهل الجاهلية يعرضون صيبتهم على (العرافين) لإخبارهم عن

-
- ١ قاموس الكتاب المقدس (٩٣/٢) *
 - ٢ فانهم يحضرونك الخميس اذا غسروا الحيوان (٩٣/١) *
 - ٣ بلوغ الأرب (٣٠٦/٣) وما بعدها . قال عمرو بن حزام العذري :
قلت لعراف اليمامة داوئي فانك ان أبرائسي لطيب
فما بي من سلم ولا طيف جنة ولكن عني الحسيري كذوب
 - ٤ تاج العروس (١٩٣/٦) - (فلقت) ، الحيوان (٢٠٥/٦) - مروج الذهب (١٥٤/٢) .
تأمار القلوب (٨١) *
 - ٥ الحيوان (٢٠٤/٦) - (الازدي) ، مروج (١٥٤/٢) - (دار الاندلس) *
 - ٦ مروج الذهب (١٥٤/٢) ، (المرافة وبعض العراقيين) ، رسائل الجاحظ (١٣٠) ،
مقدمة ابن خلدون (٩٤) وما بعدها ، الحيوان (٢٠٤/٦) ، (٩٣/١) *

مستقبلهم . وكانت الأسواق مثل سوق عكاظ مؤثلاً لهم . فكان العراف فيها يربيه الناس صبيانهم ، ويقول عنهم ما يحول بخاطرهم ، وذلك بالتفريس في وجه الصبي ، ومقارلة ذلك بما حصل عليه من تجارب في هذا الباب^١ .

وفي اللغة العربية كلمة قديمة أخرى لها صلة بموضوعنا هذا ، هي (القياقة) . ويقصد بها التنبؤ والإخبار عن شيء يتبع الأثر والشبه^٢ . وتدخل في ذلك قياقة آثار الأقدام والأخطاف والخوافر للاستدلال منها على أصحابها ، وتعيين النسب في حالة الشك فيه . وما زالت القياقة معروفة عند العرب حتى الآن . وقد اشتهرت بها (بنو مدلج) خاصة ، حتى قيل للقائف (مدلجي) بسبب هذا الاختصاص^٣ ، وبنو لحيان^٤ ، وأحياء مضر^٥ .

ويرى (المسعودي) ان القياقة من الأمور التي برع بها العرب واختصوا بها ، وصار لهم مران وخبرة بها ، وذكر ان ممن عرف واشتهر بها (محرز المدلجي) ، وقد تعجب الرسول من قياقته وصدقه^٦ .

وذكر أهل الأخبار ان (الحازر) ، هو من يحزر الأشياء ، وان (الحزارة) في معنى القياقة .

وأما (القراسة) ، فتكون بالاستدلال بهيأة الانسان وأشكاله وأقواله على صفاته ومطابقتها . وقد ذهب بعض المستشرقين الى أنها من الكلمات العربية التي أخذت من (بني إرم) ، وأنها أحدث عهداً من لفظة (القياقة) التي هي من الكلمات العربية الجاهلية^٧ . وقد توسع في معناها وألف فيها الكتب في الإسلام وتبحر فيها بعض أئمة الفقهاء مثل الشافعي^٨ .

وأما (العياقة) فهي التنبؤ بملاحظة حركات الطيور والحيوانات ودراسة أصواتها ،

١ السيرة الحلبية (١/١١٤) .

٢ اللسان (١١/٢٠١ وما بعدها) ، مروج الذهب (٢/١٤٤) .
المسطرف (٢/٨٢) . Ency., II, p. 1048, Mus. Stud., I, B. 184.

٣ بلوغ الأرب (٣/٢٦٢) .

٤ مروج (٢/١٤٩) .

٥ مروج الذهب (٢/١٥٠) .

٦ Ency., II, p. 108.

٧ النهاية (٣/٢٠٧ وما بعدها) ، بلوغ الأرب (٣/٢٦٣ وما بعدها) . نهاية الأرب

(٣/١٤٩) .

وقراءة بعض أحشائها ، ولذلك قيل في العبرانية للعائف (الشاق) ، لشقه الحيوانات والطيور لدراسة أحشائها واستخراج الخبر مما يراه على تلك الأحشاء من ألياف يرى أن في أوضاعها معاني يذكرها السائل على شكل نبوءة^١ . وكانت معروفة خاصة عند الكلدانيين .

وقد اشتهرت (بنو أسد) بالعيافة ، فقصدها الناس للأخذ منها ، حتى الجن سمعت بعيافتها ، وعجبت منها ، فجاءت إليها تحتجها في هذا العلم^٢ .

واشتهرت (بنو لُحَب) بالعيافة كذلك ، ولُحَبٌ حي من الأردن . ومن هؤلاء (العائف اللهي) ، (لُحَب بن أحن بن كعب) ، وهو الذي تكهن بموت عمر بن الخطاب قبل وقوعه بعام^٣ .

والزجر العيافة . وهو يزجر الطير بعافها . وأصله أن يرمى الطير بحصاة وبصبح ، فإن ولأه في طيراته ميامنه تفاعل به أو مياسره تطير . وهو ضرب من التكهّن . وإنما سمي الكاهن زاجراً ، لأنه إذا رأى ما يقطن أنه يشاءم به زجر بالنهي عن المضي في تلك الحاجة برفع صوت وشدة^٤ .

ونطلق لفظة (الخازي) على من يحزر الأشياء ويقدرها بظنه ، فهي من الكلمات المستعملة في الكهانة ، ويطلق على من يشتغل بالنجوم اسم (حَزَّاه) ، لأنه ينظر في النجوم وأحكامها بظنه وتقديره^٥ . وأطلقت أيضاً على من يزجر الطير ، ولا سيما الغراب^٦ .

- ١ تاج العروس (٢٠٧/١) . قاموس الكتاب المقدس (١٢٩/٢) .
- ٢ وينو أسد يذكرون بالعيافة ويوصعون بها . قيل عنهم أن قوماً من الجن تذكروا عيافتهم ، فاتوهم ، فقالوا : ضلت لنا بالة ، فلو أرسلتم معنا من يعيف . فقالوا : لعقيم منهم : انطلق معهم ، فاستردفه أحدهم ، ثم ساروا ، فلقبهم عقاب كاسرة إحدى جناحيها ، فالتهم الغلام ويكي ، فقالوا : مالك ؟ فقال : كسرت جناحاً ورفعت جناحاً ، وحملت بالله صراحاً ، ما أنت بالنسي ولا تبغي لفاحصاً . تاج العروس (٣٠٧/٦) ، اللسان (١٦٧/١١) وما بعدها .
- ٣ الروض الأنف (١١٨/١) وما بعدها . قال عبدالرحمن الخزازي : تيسمت لها ابتغي العلم عندهم . وقد رد عسليم العائفين إلى لهب .
- ٤ تاج العروس (١٧٥/١) . (لهب) .
- ٥ تاج العروس (٢٣٤/٢) . (زجر) .
- ٦ الروض الأنف (١١٨/١) وما بعدها .
- ٧ النهاية (٢٥٧/١) .

وقد أشير في كتب أهل الأخبار الى (حازي) عرف واشتهر بين الجاهليين
بـ (حازي جهينة)^١ .

الراقي :

ويقال لمن يعمل الرقية ويرقي : (الراقي) . والرقية العوذة التي يركي بها صاحب
الآفة كالخس والصرع . قال عروة :

فما تركنا من عوذة يعرفونها ولا رقية إلا بها رقباني^٢

ويقال لأجرة الراقي : (البسة) و (بسلة الراقي) . و (البسل) الحلال ،
والبسل أيضاً الحرام ، فهو من الأضداد . وبسل الدعاء بمعنى آمين ، أي الاستجابة .
وكان الرجل اذا دعا على صاحبه ، يقول : قطع الله مطلق . فيقول الآخر :
بسلاً بسلاً ، أي آمين آمين^٣ .

الاستقسام بالأزلام :

ومن طرق التنبؤ الاستقسام بالأزلام ويقابل ذلك ما يقال له (كسيم) (كسم)
« Gasam » في العبرانية ، وهي طريقة معروفة عند البابليين كذلك^٤ . وعند
غيرهم من الشعوب . وقد أشير في التوراة الى أن (نبوختنصر) (مختصر)
(ليخذه نصر) « Nebuchadnezzar » أجال السهام حين عزم على فتح (أورشليم)
(القدس) . « فإن ملك بابل قد وقف عند أم الطريق في رأس الطريق ليأشر
عرافة . فأجال السهام وسأل الترافيم ونظر في الكبد »^٥ . وقد خرج السهم الذي
كتب عليه (أورشليم) ، فعمل به وهاجم القدس وفتحها^٦ .

١ البيان والتبيين (٢٨٩/١) .

٢ تاج العروس (١٥٤/١٠) . (رغز) .

٣ تاج العروس (٢٢٧/٧) . (بسل) ، الروض الانف (٧٥/١) .

Hastings, p. 567.

٤ عزقيال ، الاصحاح الحادي والعشرون ، الآية ٢١ .

Hastings, p. 567.

وتعني لفظة (كوسيم) « Gosem » و « Gesem » « Kosem » العرافة في العبرانية^١.
من أصل (كسم) (كيسم) (قيسم) وهو التكهّن . وهو أصل (سامي) .
واله تعود كلمة (الاستقسام) ، لا الى (قسم) بمعنى تقسيم الشيء وتجزئته .
وهو المعنى الذي ذهب اليه أكثر علماء اللغة . وقريب من معنى (قيسم) (كيسم)
ما ذكره علماء اللغة من أن القيسم هو الخط والنصيب . فإن لاحظ والنصيب
علاقة وثيقة بالتكهّن ، لما فيه من معرفة المستقبل والوقوف عليه .

وقد عرف أهل الأخبار (الأزلام) : أنها السهام التي كان أهل الجاهلية
يستقسمون بها . وعرفوا (الزلم) ، أنه السهم ، وأنه القدح المزلّم . وعرفوا
القدح : أنه السهم قبل أن يتصل وبراش . وإن القدح : قدح السهم ، وجمعه
قداح ، وصانعه قدّاح^٢ . وقد فسر بعض العلماء الأزلام بأحجار بيض تشبه
أحجار الشطرنج ، كما جعل بعض آخر تلك السهام في مقابل (الكعاب) التي
يستعملها الروم والفرس في الاستخارة^٣ . وذكر بعض آخر أن « الأزلام » سهام
كانت لأهل الجاهلية مكتوب على بعضها : أمرني ربي ، وعلى بعضها : نهاني
ربي ، فإذا أراد الرجل سفراً أو أمراً ، ضرب تلك القداح ، فإن خرج السهم
الذي عليه أمرني ربي مضى لحاجته ، وإن خرج الذي عليه نهاني ربي لم يمش
في أمره^٤ . وذكر أن الأزلام التي كانوا يستقسمون بها غير قداح البسر ،
وأنها قدّاح الأمر والنهي لا قدّاح البسر^٥ . وذكر أن أهل الجاهلية ، كانوا إذا
أرادوا أن يخرجوا في سفر ، جعلوا قداحاً للجلوس والخروج ، فإن وقع الخروج
خرجوا ، وإن وقع الجلوس جلسوا^٦ .

وطريقة الضرب بالقداح ، أن الرجل منهم إذا أراد أن يخرج مسافراً ، كتب
في قدح هلأ بأمرني باللكث ، وهلأ بأمرني بالخروج ، وجعل معها أزلاماً مسحة ،

- ١ العدد . الاصحاح الثالث والعشرون . الآية ٢٣ . صموئيل الاول . الاصحاح السادس . الآية ٢ . اشعيا . الاصحاح الرابع والاربعون . الآية ٢٥ .
- ٢ اللسان (٢٧٠/١٢) .
- ٣ اللسان (٥٥٦/٢) قدح . - نأج العروس (٢٠٢/٢) . - قدح .
- ٤ تفسير الطبري (٤٢/٦) وما بعدها . - روح المعاني (٥٩/٦) وما بعدها .
- ٥ اللسان (٤٧٨/١٢) وما بعدها . - (قسم) . - صادر .
- ٦ اللسان (٤٧٩/١٢) . - (قسم) . - نأج العروس (٤١٧/٦) . - (قسم) .
- ٧ تفسير الطبري (٤٢/٦) وما بعدها .

أي لم يكتب فيها شيئاً ، ثم استقسم بها حين يريد الخروج ، فإن خرج الذي يأمر باللكث ، مكث ، وإن خرج الذي يأمر بالخروج خرج ، وإن خرج الآخر أي المسح ، أجلاً ثانية حتى يخرج أحد القديسين^١ . وهكذا يفعلون في سائر أمور الاستقسام .

وقد جمع المفسرون ما تمكنوا من جمعه عما علق في أذهان الناس من الأزلām ، لورود الإشارة إليها في موضعين من سورة (المائدة)^٢ . ولورد علماء الحديث والأخبار ما وصل إلى علمهم أيضاً عن (الاستقسام بالأزلام) . ويظهر مما ذكرناه أن أهل الجاهلية كانوا يقيمون في أبامهم وزناً كبيراً للاستقسام بالأزلام لاعتقادهم أنه يحكي إرادة الأرباب ويتحدث عن مشيئتها . لذلك كانوا لا يفعلون فعلاً ولا يعملون عملاً إلا بعد أخذ رأيها بالاستقسام . فإن جاء أمر فعلوا ، وإن جاء نهى امتنعوا .

وجاء في سورة المائدة : « وأن تستقسموا بالأزلام ذلكم فسق لكم »^٣ ، وذلك مع أمور نهى عنها الإسلام . منها تحريم أكل الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل^٤ لغير الله به والمنخقة والموقوفة والمردية والتطيحة وما أكل السبع إلا ما ذكسي ، وما ذبح على النصب . وجاء ذكر الأزلام في موضع آخر مع ذكر الخمر والميسر والأنصاب والأزلام ، حيث جعلت رجساً من عمل الشيطان ، لذلك ، على المسلم اجتنابها والابتعاد عنها^٥ . فالاستقسام بالأزلام من الأمور التي نزل الأمر بالنهاي عنها في الإسلام . وقد جاء الأمر بالنهاي عنها في شريعة يهود كذلك إذ اعتبرت (رجساً) ، ومن أعمال الوثنيين^٦ .

ويكون الاستقسام عند الأصنام في الغالب لاعتقادهم أن النتيجة تمثل إرادة العنم ومشيئته ، غير أن ذلك ليس بشرط ، فقد كان أصحاب الأزلام يعملون أزلāmهم معهم ، ويستقسمون حيث يطلب ذلك منهم . فهم في ذلك مثل أصحاب

١ تفسير الطبري (٤٢/٦ وما بعدها) .
٢ سورة المائدة ، الآية ٩٠ ، تفسير الطبري (٤٩/٦) ، روح المعاني (٥٩/٦ وما بعدها) ، الطبري (٢٤٠/٢) .
٣ الآية ٤ ، تفسير البضاوي (١١٨/١) ، تفسير الطبرسي (٢٢٨/٢ وما بعدها) ، (١٥٦/٣ وما بعدها) .
٤ المائدة ، الآية ٩٣ ، تفسير البضاوي (١٣٢/١) .
٥ Hastings, p. 567.

(القال) والدارثون لزلزل والسحرة في الوقت الحاضر ، ينتقلون بين الناس عارضين
فنههم عليهم في مقابل حلوان يقدم اليهم . وهذا النوع ، من أصحاب الأزلام ،
هم من الطبقة المرتزقة على شاكلة هذه الجاهلة المذكورة في هذه الأيام . وقد كان
منهم من يستقسم لنفسه بنفسه ، وذلك بأن يستقسم بالأزلام التي عنده في بيته ،
والتي قد يعملها معه ، تماماً كما يفعل أهل (الاستخارة) في الاستخارة بالمسيحة
(السحرة) أو بوسائل الاستخارة الأخرى في الوقت الحاضر .

قال أهل الأخبار : « والأزلام كانت لقريش في الجاهلية مكتوب عليها أمر
ونهي وافعل ولا تفعل ، قد زُلت وسويت ووضعت في الكعبة ، يقوم بها
سدنة البيت ، فإذا أراد رجل سافراً أو نكاحاً أتى السادن فقال : اخرج لي زماً ،
فيخرجه وينظر اليه ، فإذا خرج قدح الأمر مضى على ما عزم عليه ، وإن خرج
قدح النهي قعد عما أراده ، وربما كان مع الرجل زمان وضعها في قرابه ، فإذا
أراد الاستقسام أخرج أحدهما ^١ .

و قالوا : كانوا إذا كانت مداراة أو نكاح أو أمر يريدونه ، ولا يدرون
ما الأمر فيه ولم يصح لهم أخلصوا قداحاً لهم فيها : أفعل ولا أفعل لا يفعل ،
نعم لا خير ، شر بطيء سريع ، فأما للمداراة فإن قداحاً لهم فيها أيضاً ليس
لهم فيها شيء ، فكانوا يجبلونها فن خرج سهمه فالحق له ، ولا حضرة والسفر
سهان ، فيأتون السادن من سدنة الأوثان ، فيقول السادن : اللهم أيها كان خيراً
فأخرجه لقلان ، فيرضى بما يخرج له ، فإذا شكوا في نسب الرجل أجالوا له
القداح وفيها : صريح ، وملصق ، فإن خرج الصريح الحقوه بهم ، وإن خرج
الملصق لغوه ، وإن كان صريحاً ، فهذه قداح الاستقسام ^٢ . « وإن كان بين
الثنين اختلاف في حق سمي كل منهما له سهماً وأجالوا القداح ، فن خرج سهمه
فالحق له ^٣ .

وذكر أن أقداح (هُبل) سبعة ، وضعت قدامه . فإن أراد أحدهم سافراً
أو هجلاً أو تجارة أو زواجاً أو بشاً في نسب مشكوك فيه أو دفع دية أو أن

١ اللسان (٢٧٠/١٢) وما بعدها .
٢ نهاية الأرب (١١٧/٣) وما بعدها ، تفسير ابن كثير (٦/٢) ، الدر المنثور
(٣١٩/١) .
٣ صبح الأعشى (٤٠٢/١) .

يخرجوا ماءً ، أتوا هُبَلٌ ، ومعهم مائة درهم ويجزور فأعطوها صاحب القداح حتى يجلبها لهم ، وكانت أزلامهم سبعة قداح محفوفة عند سادن الكعبة وخادمتها ، وهي مستوية في المقدار عليها أعلام وكتابة قد كتب على واحد منها (أمرني ربي) وعلى واحد منها (نهاني ربي) وعلى واحد (منكم) وعلى واحد (من غيركم) وعلى واحد (ملصق) وعلى واحد (العقل) وواحد غفل ليس عليه شيء ، فإذا أرادوا الوقوف على مستقبل الأمر الذي تصدوا له استقسم لهم صاحب القداح بقدحي الأمر والنهي ، فإن نجح قدح الأمر اشعروا وباشعروا فبما تصدوا له من حرب أو سفر أو زواج أو ختان أو بناء أو نحو ذلك مما يتفق لهم ، وإن خرج قدح النهي أشعروا ذلك العقل إلى سنة فإذا انقضت أعادوا الاستقسام مرة أخرى .

ويروى أن السؤال إن كان يخص اقداً أو أحكاماً ، استعمل صاحب القداح قدحي (نعم) أو (لا) فإذا ظهر للمجيب قدح (نعم) عمل به ، ومضى إلى ما قصد ، وإن جاء (لا) أي النهي توقفوا سنة . أما إذا كان نزاعاً في نسب أحد منهم ، استقسم بالأزلام الموسومة بـ (منكم) و (من غيركم) و (ملصق) ، فإن ظهر (منكم) ، اعتبر المنازع على نسيب منهم ، وإن خرج (من غيركم) اجنبوه ونفروا منه ، وأن ظهر (ملصق) ، بقي أمره على ما كان عليه قبل الاستقسام ، وأما إذا كان السؤال نزاعاً في (العقل) : أي دية القتل ، بأن اشبه عليهم القاتل ، أحضروا من أنهم بالقتل بالموسمين بـ (العقل) وبـ (الغفل) ، واستقسم بهما ، فمن خرج عليه العقل تحمّل الدية ، وإن خرج (الغفل) أجالوا ثانياً حتى يخرج المكتوب عليه .

ولما أراد (أبو سفيان) الخروج إلى (أحد) ، استخار هبل . بأن كتب على سهم نعم ، وعلى آخر لا ، وأجالها عند هبل ، فخرج سهم نعم ، فخرج يقوم إلى (أحد) . وقال يقول : أعل هبل . وقال عمر : الله أعلى وأجل ، قال أبو سفيان : أتعمت فعال عنها ، أي اترك ذكرها ، فقد صدقت في فتواها ، وأتعمت ، أي أجابت بنعم .

١ بلوغ الأرب (٦٦/٣ وما بعدها) ، الإصنام (ص ٢٨) ، النهاية (٢٦٨/٣) ، تاج العروس (٣٢٦/٨) ، تفسير الطبري (٤٢/٦ وما بعدها) .
٢ اللسان (٥٨٩/١٢) .

ولصاحب الأزلام وعازنها حق يتقاضاه من الطالبين في مقابل عمله . فكان سادن (هبل) يتقاضى مئة درهم أجراً عن الاستقسام ، كما سبق ان ذكرت ، فان تكرر ذلك زيد أجره على ما يذكره الرواة . وقد كان غير العرب يدفعون حلواناً الى صاحب الأزلام لينبأ لهم . فلما انطلق (شيوخ مديان) (مدين) و (مؤآب) الى (بلعام) ليستقسم لهم ، حملوا حلوانهم معه ، فقدموه اليه مقابل ما قام به من عرافة اليهم^١ .

وقيل للذين يضربون بالقداح (الضرباء)^٢ . والواحد الضرب والضارب . وهو الموكل بالقداح ، وقيل الذي يضرب بالقداح . يقال هو ضرب قداح^٣ . وقد أشير الى الاستقسام في شعر الشعراء الجاهليين ، ولقد ذكرت في قصة الشاعر (امرئ القيس) الكندي حينما جاء الى الصنم (ذي القلعة) ، ليستقسم عنده بشأن الأخذ بشار أبيه . فلما خرج انتهى عنه ثلاث مرات ، غضب على صنمه ، وكسر الأزلام ورمها في وجهه ، كما يقول الرواة قائلين : لو كان أبوك المقتول لما سبني ، وأنشد :

لو كنت يا ذا الخلص الموتورا لم تته عن قتل العدة زورا

وأشار الخطيب الى ذلك بقوله :

لم يزجر الطير، إن مرث به صنعا ولا يفيض على قسم بأزلام^٤

وقال طرفة :

أخذ الأزلام مفتحا فاني أقواما زله^٥

وهناك طرق عدة عرفت عند الشعوب القديمة في التكهّن بالسهم ، ومنها رمي السهم في الهواء لمراقبة حركاتها وكيفية سقوطها ، ومنها رمي حزمة من السهم أمام الصنم ، فالسهم الأول الذي يقع قبل بقية الأزلام ، يكون هو السهم الذي

١ العدد . الإصحاح الثاني والعشرين ، (الآية ٧ وما بعدها) . Hastings, p. 567.
٢ الاشتقاق (٢٧٨) .
٣ اللسان (٥٤٧/١ وما بعدها) .
٤ اللسان (٢٧٠/١٢) . الاستقام (٤٧) . نهاية الأدب (٦٧/٣) .
٥ اللسان (٢٧٠/٢) .

أمر به الصنم في زعمهم ، فيعمل بموجب ما كتب عليه^١ .
 وتلخص (الألوسي) الأزلام التي كانت عند العرب على ثلاثة أنواع : أحدها :
 قداح الميسر العشرة ، وثانيها : لكل أحد ، وهي ثلاثة على أحدها مكتوب
 (افعل) ، أي أمر ، وعلى الثاني (لا تفعل) وعلى الثالث (غفل) . فإذا
 أراد أحدهم الأمر جعلها في خريطة ، وهي (الربابة) وأدخل يده فيها وأخرج
 واحداً ، فإن طلع الأمر فعل أو التامى ترك أو الغفل أعاد . وثالثها : للأحكام
 وهي التي عند الكعبة . وكانوا يتحاكمون عند (هبل) في جوف الكعبة . وكان
 عند كل كاهن وحاكم للعرب مثل ذلك . وكانت سبعة مكتوب عليها ما سبق^٢ .
 و (القرعة) أي (السهمة) ، نوع من أنواع التنبؤ بالغيب التابعة للاستقسام
 بالأزلام . و (السهمة) هي رضاء بحكم (السهم) ، أي بحكم وقوع السهام على
 الأشياء . وهي جواب فصل يمثل إرادة الآلهة للسائل أو للمختصين في أمر من
 الأمور . وقد قيل للسهم : الحظ والنصيب^٣ ، لأنه يتكلم عن حظ الإنسان ونصيبه .
 والتنبؤ بالفرس في الأشباح السني تظهر على الماء ، أو الزيت المصبوب في
 الأقداح ، أو الحركات التي تظهر على سطح السائل بعد رمي شيء فيه ، لمعرفة
 الأسرار والمغيبات والاحرام كالسرقات والقتل ، والزنى ، وداسة سطح المرأة :
 هذه وأمثالها كانت معروفة عند البابليين والعبرانيين ، وعند غيرهم من الشعوب .
 وعقيدتهم أن الأرواح هي التي ترشد إلى اظهار المخفيات ، وإن هناك مأمورين
 من بينهم واجبههم اخبار العراف والعائف والكاهن بما يطلب منهم معرفته ليقوله
 للسائل^٤ .

ومن ضروب التنبؤ (الطرق) ، وهو الضرب بالخصي للكشف عن المستقبل ،
 يقوم بذلك الرجال والنساء . ويقال للفاتمين بذلك الطرّاق والطوارق^٥ . وورد أن
 الطرق : الضرب بالخصي والخط في التراب ، وهما ضربان من التكهن . وقيل
 أيضاً : الطرق : أن يخط الرجل في الأرض بإصبعين ثم باصبع ، ويقول :

Hastings, p. 567.

١ يتلو العرب (٦٧/٣) وما بعدها .

٢ ناج المروس (٣٥٢/٨) ، سهم .

٣ Ency. Religi. 4, p. 807.

٤ النهاية (٤٠/٣) .

ابني عيان أسرع البيان، وزعم بعضهم أن الطرق أن يخط الكاهن القطن بالصوف فيمكنه . وقد نسي عنه في الإسلام . ورد في الحديث: انه قال : الطرق والعبادة من الجلبت^١ .

ويدخل في ضروب التنبل (الخط) وهو الذي يخطه الخازي . يأتي صاحب الحاجة الى الخازي فيخطيه حلواناً ، فيقول له : اقم حتى أخط لك ، وبين يدي الخازي غلام له معه ميل ، ثم يأتي الى أرض رخوة فيخط فيها خطوطاً كثيرة بالمعجلة لئلا يلحقها العدد ، ثم يرجع فيمحو منها على مهل خطين خطين، وعلامه يقول للفاؤل : « ابني عيان ، أسرع البيان » ، فإن بقسي خطان فيها علامة النجاح ، وإن بقي خط واحد فهو علامة الخيبة ... وقبل : الخط هو أن يخط ثلاثة خطوط ، ثم يضرب عليهن بشعر أو نوى ، ويقول : يكون كذا وكذا . وهو ضرب من الكهانة^٢ . وكانت العرب تسمي ذلك الخط الذي يبقى من خطوط الخازي الأسحم . وكان هذا الخط عندهم مشؤوماً . وقد كان الخط من علوم العرب القديمة^٣ .

وعلم الخط هو علم الرمل . وينسب الى (ابن عباس) قوله : علم قديم تركه الناس . وخط الزاجر في الأرض ، رسم خطاً بأصبعه ، ثم زجر . وذكر أن (الخطيعة) الرملة التي يخط عليها الزاجر ، وأن الأسحم اسم خط من خطوط الزاجر ، وهو علامة الخيبة عندهم . وذلك أن يأتي الى أرض رخوة وله غلام معه ميل ، فيخط الأستاذ خطوطاً كثيرة على عجل لئلا يلحقها العدد ، ثم يرجع فيمحو منها خطين خطين ، فإن بقي من الخطوط خطان ، فهذا علامة النجاح وقضاء الحاجة ، ويمحو وعلامه يقول للفاؤل : ابني عيان أسرع البيان ، وإذا عا الخطوط ، فبقي منها خط ، فهي علامة الخيبة^٤ .

- ١ اللسان (٢٦٥/٦٠) ، (طرق) ، ناج العروس (٤١٧/٦) ، (طرق) .
لعمر بك ما تسدي الطوارق بالحصي ولا زاجرات الطير ما الله صانع
النهاية (٤٠/٣) ، اللسان (٨٤/١٧) ، سنن أبي داود (١٦/٤) .
- ٢ النهاية (٣٣٨ ، ٣٠٣/١) ، خطط ، (٤٠/٣) ، طرق ، ناج العروس (٤١٧/٦) ،
اللسان (٨٥/١٧) .
- ٣ اللسان (٢٨٧/٧) وما بعدها ، (خطط) .
- ٤ ناج العروس (١٣١/٥) ، (خطط) .

الأحلام :

والأحلام (Dreams) و (الرؤيا) (Visions) باب من أبواب الكهانة كذلك ، فهي تفسير لما سيقع في المستقبل من حوادث . وقد تخصص بذلك أناس تعاضلوا تعبیر الرؤيا والأحلام . وإذا كان اعتقاد الشعوب القديمة ان الأحلام حقيقة ، لا كما تتصورها نحن ، كان الاهتمام بها كبيراً ، والاعتناء بها شديداً ولا يزال يخصصها كثير من الناس بالعناية .

وقد فسرت بعض الشعوب القديمة الأحلام بأنها الآله أو الأرواح تتجسلى في الإنسان في أثناء منامه ، فتنطقه على أشياء كثيرة تتعلق بحياته وعصيره ، وتساعد به ذلك على حل مشكلات عديدة عويصة لديه ، أو تنبهه الى أمور لم يكن يعرف عنها شيئاً ، أو تحلله بقرب حلول كارثة أو خطر به أو بغيره ، أو يحصلون خبر له أو لغيره . وقد ترجع به الى أيام ماضية وحوادث قديمة ساقطة كان قد نسيها وذهبت من ذاكرته . ونجد في المؤلفات اليونانية واللاتينية والسريانية وفي الكتابات الميروغليفيّة والسامرية أشياء عديدة من القصص المتعلّق بالأحلام . وفيها أن كثيراً من الملوك والملحاة كانوا يقيمون وزناً عظيماً لما يرونه ، أو يراه الناس من أحلام . وقد نجح كثير منهم كما خسر كثير منهم أيضاً بسبب تأثير الأحلام فيهم ، حتى إن بعضهم اتخذ له مفسراً للأحلام أو جملة مفسرين ، ليكونوا في خدمته حتى إذا ما رأى حلماً فسروه له .

ولما كانت بعض الأحلام مزعجة ، رجع الكهان الشخصصون بالأحلام أسبابها الى فعل الأرواح الشريرة . أما الأحلام المريحة الطيبة ، فقد جعلوها من إلهام الآلهة في الإنسان . ولأهمية الاعتقاد بالأحلام ، وضعت قواعد وتعاليم للأشخاص الذين يريدون معرفة مستقبلهم بالرؤيا والأحلام . وقد نصح في بعضها باجتناب الأكل الثقيل ، وبشرب بعض الأشربة المعينة والنوم في العابد ، للحصول على الرؤيا الصادقة ، والابتعاد عن أضغاث الأحلام . وضع تلك القواعد أناس تخصصوا بهذا الفن ، يلجأ اليهم من يرى حلماً ليحدد تفسيره عندهم . فلكل شيء في الرؤيا والحلم معنى خاص ، لا يمكن ان يعرفه إلا ذوو الخبرة والعلم .

وقد عثر على كتابية لحياينة في موضع (الحيرية) ، تبين منها وجود صم في معهد هذا الموضع تخصص بتفسير الأحلام .

١ مقدمة ابن خلدون (١٠٣/١) .

٢ Janssen — Savignac, Mladon, II, p. 417, Biting 828, Arabien, B. 82.

وفي كتب التفسير والسيرة والأخبار والأدب أمثلة عديدة من الرؤيا ، تشير الى ان الاعتقاد بالأحلام كان معروفاً عند الجاهليين ، وان أثره كان عميقاً في حياتهم ، وقد يكون لأهل الكتاب أثر عليهم في كيفية تفسير الأحلام وتوجيه تعبير الرؤيا ، غير ان الاعتقاد بالأحلام هو اعتقاد عسام ، وكان يقوم به متخصصون بتفسير الأحلام . وقد عرف في الاسلام واشتهر به (ابن سيرين)^١ .

وقد عرف بعض العلماء الاسلاميين الحلم بأنه عبارة عما يراه النائم في نومه من الأشياء المزعجة ، وخصصوا الرؤيا بما يراه الانسان في منامه مسن الخير والشر الحسن^٢ . وهم بذلك على طريقة القدماء في جعل الأحلام نوعين : أحلام من فعل الشيطان والأرواح الخبيثة ، وأحلام من إلهام الآلهة في الانسان ، وهي التي تنكشف من رؤية أشياء جميلة وعن أشياء يرغب صاحب الحلم في الحصول عليها وتحققها . ويرجع العلماء الرؤيا الى النفس ، تطلع على الوقائع فتتذكرها ، وتوحى بها الى صاحبها . وهم يعتقدون بها ، وجعلوها جزءاً من النبوة^٣ .

١ (كتاب التعبير) - عمدة القاري (١٢٦/٢٤) ، المعجم (١٢٩) - (الكسبة المولاه في تعبير الرؤيا)^{*}
٢ النهاية (٢٨٩/١ وما بعدها) ، نوح المروس (٢٥٥/٨) ، (حاتم)^{*}
٣ مقدمة ابن خلدون (١٠٢/١ وما بعدها)^{*}

الفصل السادس والثلاثون

الطيرة

وقد كان للطيرة شأن كبير في حياة الجاهليين، وهي معروفة عند جميع الشعوب، ويقال لها في العبرانية: طير «Tayyar»، فهي من نفس الأصل الذي أخذ العرب منه التسمية^١. ويقال لها في الإنكليزية «Augury»، ويرى بعض الباحثين أن الطيرة انتقلت إلى العبرانيين من العرب^٢. وهناك نوع آخر من التطير يقال له «Haruspicy» في الإنكليزية، ويقصد به الطيرة من الحيوانات الميتة، أو مراقبة الحيوان في أثناء ذبحه لمعرفة المستقبل من حركاته وهو يرتجف رجفة للوت^٣.

ويقول علماء الأخبار: إن الطيرة من زجر الطيور ومراقبة حركاتها. فإن تيامت دل تيامتها على قال، وإن تياسرت دل على شؤم^٤. فهي إذن تشعل التيمن والتشاؤم. إلا أنها خصصت بالتشاؤم فيما بعد. فصارت تعني هذا المعنى عند الاستعمال. قال (الجاحظ): «وأصل التطير إنما كان من الطير ومن جهة الطير، إذا مرّ بارحاً أو ساعياً، أو رآه ينفخ ويتنف، حتى صاروا

Ency. Religi., 4, p. 807.

Ency. Religi., 4, p. 778, 807, Hastings, p. 568.

Ency. Religi., 4, p. 778.

اللسان (٥١٢/٤ وما بعدها)، مفردات، للاصفهاني (٣١٢)، صبح الاعشى (٣٩٩/١).

إذا عاينوا الأعور من الناس أو البهائم ، أو الأعرج أو الأيتام ، زجروا عند ذلك وتطيروا ، كما تطيروا من الطير إذا رأوها على تلك الحال . فكان زجر الطير هو الأصل ، ومنه اشتقوا التطير ، ثم استعملوا ذلك في كل شيء^١ .

قال أحدهم :

عوى الذئب قامت أنت للذئب إذ عوى
وصوت إنسان فكادت أطير

كان الذي يرى ما يكره أو يسمع بطير .

وقد عد العلماء الطيرة والزجر في معنى واحد ، لأن أصلهما اتهم كانوا إذا أرادوا فعل أمر أو تركه زجروا الطير حتى يطير ، ثم لا يحكمون من حركاته على ما سيحدث ويقع ، فالزجر والطيرة من ثم شيء واحد^٢ . وقد قيل لمسن يزجر الطير (زاجر) لأنه إذا رأى ما يظن أنه يتشام به زجر بالنهي عن المضي في تلك الحاجة برفع صوت وشدة^٣ .

والطير هو مادة التطير ، وذلك بمراقبة حركاتها وسكناتها . وهو ما يقال له في العبرانية : (ليحوش) (نحوش) Nihush ، من أصل (ليحيش) (نحش) ، وتقابل لفظة (نحش) كلمة (حش) في العربية وتعني (الثعبان) . وقد ذهب بعض علماء التوراة أن لكلمة (نحش) ، صلة بالثعبان ، ذلك لأن الثعبان كان من الآفة القديمة ، بينما يرى بعض آخر عدم وجود صلة ما للثعبان بهذا الموضوع ، لأن العبرانيين لم يتعدوا البتة للثعابين ، فلا صلة للثعبان به^٤ .

ويدخل في باب الزجر ، زجر الطير والوحش . ويذكر بعض العلماء أن الأصل في الطيرة ، هو زجر الطير ، ثم صار في الوحش ، وقد يجوز أن يغلب أحد الشئين على الآخر فيذكر دونه ويراد أن جميعاً^٥ .

وقد يراد بالطيرة (النشازم) الذي هو خلاف النيام . غير أن (النشازم)

١ الحيوان (٤٣٨/١) . (حارون) . المصنف (٢٥٩/٢ وما بعدها) .

٢ صبح الاعشى (٣٩٩/١) .

٣ تاج العروس (٣٦٤/٣) . اللسان (٤٠٧/٥) . (طبر) .

٤ Ency. Relig., 4, p. 807, Hastings, p. 568.

٥ المصنف (٢٦٠/٢) .

هو في الواقع أوسع مجالاً وأكثر ساحة من الطيرة ، لأن التشاؤم طيرة وزيادة ، وأعني بالزيادة تشاؤم المشائمين من أمور أخرى كثيرة مثل التشاؤم من ذوي العاهات أو القبح من البشر ، والتشاؤم من سماع الكلام الميء أو الأخبار السيئة عند الصباح أو من رؤية ميت أو سماع نباحة أو مشاهدة مخلوق مشوه أو سماع اسم موضع يدعو التشاؤم أو اسم شخص فيه معنى التشاؤم وأمثال ذلك ، فتكون كل هذه الأمور مدعاة للتشاؤم عند المشائمين . « حتى صاروا إذا عابنوا الأعمور من الناس أو البهائم ، أو الأعصب أو الأبنر ، زجروا عند ذلك ولطفروا عندها كما لطفروا من الطير إذا رأوها على تلك الحال »^١ .

ويقول علماء اللغة : الشؤم : خلاف اليمن . ورجل مشؤوم على قومه^٢ . وأصل ذلك هو أن العرب تتعامل بالجهة اليمنى ، وتشاؤم من الجهة اليسرى ، ولذلك كانت إذا أرادت أن تعمل عملاً عمدت إلى (الزجر) وهو رمي الطير بحصاة ، ثم يصيح الرامي ، ليفزعها ويخرجها ، وعندئذ يراقب حركة طيرانها ، فإن تيامنت أي جرت بمنة تعامل به ، وإن تشاءمت أي تياسرت ، تشاؤم به . فالتيمن هو بالتيايم والتشاؤم هو بالتياسر . ولذلك قيل للكاهن (زاجر) أيضاً ، « لأنه إذا رأى ما يظن أنه يشاؤم به زجر بالنهي عن المضي في تلك الحاجة يرفع صوت وشدة »^٣ . ولا عباد الزاجر على الطيور في الغالب في هذا النوع من التكنهن قبل له : (الطيرة) . قال علماء اللغة : « وقيل للشؤم طائر وطيء وطيءة ، لأن العرب كان من شأنها حياقة الطير وزجرها والطيء يارحها ولعب غرابها وأخطأ ذات اليسار إذا أثاروها . فسموا الشؤم طيراً وطائراً وطيءة لتشاقمهم بها »^٤ .

ولا بد أن يكون لتطير صلة بعقيدة استحالة الأرواح طيوراً بعد مفارقتها الأجساد ، فقد كان من المعارف عليه عند كثير من الشعوب القديمة أن بعض فصائل الطيور هي أرواح الموتى بعد مفارقتها الأجساد ، وإنما لذلك تعي وتفهم ، وإن في استطاعة بعض الناس فهم منطقها وتكليمها . ومن هنا ظهرت فكرة

١ الحيوان ، للجاحظ (٤٣٨/٣) ، تحفيق محمد عبدالسلام هارون ، ٢

اللسان (٣١٤/١٢) .

٢ تاج العروس (٣٦٤/٣) ، اللسان (٤٠٧/٥) ، (٣١٤/١٢) ، شام ، ٣

تاج العروس (٣٦٤/٣) ، (طير) .

(منطق الطير) . وقد كان (سليمان) يحدث الطير^١ . فإذا كانت الطير على هذه الصفة ، ففي حركاتها ومكاناتها منطق لمن لا يحسن منطقها ، يشير إلى ما يجب على الإنسان أن يفعله أو يتركه من أعمال .

وقد كان للطير والتفازل شأن كبير في حياة الجاهليين . كما كان لها مثله في حياة شعوب أخرى عديدة : ومن بينهم اليونان والرومان والفرس . والطير هو نظير التشاؤم في المعنى كما قلت . أما نظير التفازل ، فهو التيامن . وفي روايات أهل الأخبار أمثلة عديدة من أمثلة الطيرة وقعت لبعض القبائل عند إقدامها على الحرب ، فحسرت لتطيرها . ويحدث من التطير النحس ، وأما من التفازل فيكون السعد .

وفي الأخبار : « كانت العرب إذا خرج أحدهم من بيته غادياً في بعض الحاجة ، تنظر : هل يرى طائراً يطير ، فيزجر ستوحه أو يروحه ، فإذا لم ير ذلك ، عمد إلى الطير الواقع على الشجر ، فحركه ليطير ، ثم نظر إلى أي جهة يأخذ ، فزجره . فقال لهم النبي صلى الله عليه وسلم : « افروا الطير على مكاناتها : لا تطيروها ولا تزجروها »^٢ . وذكر : « هم كانوا في الجاهلية إذا خرج أحدهم لحاجة ، فإن رأى الطير طار عن يمينه يمين به واستمر ، وإن طار عن يساره تشام به ورجع ، وربما كانوا يهيجون الطير ، ليطير فيعيدون ذلك »^٣ .

وقد أبطل الرسول الطيرة . « وكان النبي ، صلى الله عليه وسلم ، يتغسل ولا يتطير . وأصل القال الكلمة الحسنة يسميها عليل ، فيقول منها ما يدل على بره ، كأن سمع متادياً نادى رجلاً اسمه سالم ، وهو عليل ، فأوحى سلامته من علته ، وكذلك الفضل يسمي رجلاً يقول يا واحد ، فيجد ضالته . والطيرة مضادة للقال . وكانت العرب مذهبيها في القال والطيرة واحد . فأثبت النبي القال واستحسنه وأبطل الطيرة ونهى عنها »^٤ .

وروي أن أهل الجاهلية كانوا يقولون : « إن الطيرة في المرأة والدار والفاية »^٥

Ency. Heligl. 4. p. 808

١ جامع الأصول (٤٥٨/٨) .

٢ إرشاد الساري (٣٩٦/٨) .

٣ تاج العروس (٣٦٤/٣) وما بعدها .

٤ أمالي المرتضى (٢٠٢/٢) .

و (الكدس) التطير ، و (الكدسة) عطلة اليهائم ، وقد تستعمل للإنسان :
ومنه الحديث : إذا بصر أحدكم في الصلاة ، فليصق عن يساره أو تحت رجله ،
فإن قلبه كدسة أو سعة ففي ثوبه . والكادس ما يتطير به من الفأل والعطاس
وغيرهما . ومنه قيل للظبي " وغيره إذا نزل من الجبل وغيره كادس " .

ومن الألفاظ المستعملة في (الزجر) (سنج) و (برح) . وللفظة (برح)
معان عديدة ، وهي من الكلمات السامية الواردة والبالغة في عدد من لغاتها .
ومنها لفظة (البارح) وهي ضد (السانح) . و (السانح ما مر " من الطير والوحش
بين يديك من جهة يسارك إلى يمينك ، والعرب تيمين به ، لأنه أمكن للرمي
والصيد . والبارح ما مر " من يمينك إلى يسارك ، والعرب تطير به ، لأنه لا يمكنك
أن ترميه حتى تنحرف " ١ .

وقد ذكر بعض اللغويين عكس المعنى ، كما ذكر أن أهل نجد كانوا يشامون
باليوارح وييمينون بالسانح . أما غيرهم من العرب ، فقد كانت تيمين بالبارح ،
وأن بعضاً منهم لم يكن له رأي في شيء من هذا ٢ . وذكر أن أهل (العالية)
يشامون بالسانح وييمينون بالبارح ٣ .

قال ذو الرمة وهو من نجد :

خليلي ، لا لاقبنا مسا حيينا من الطير إلا السانحات وأسوأ

وقال النابغة ، وهو نجدى أيضاً ، يشام بالبارح :

رغم لا لاقبنا البوارح أن رحلتنا غداً . وبذلك تشعب الغراب الأسود

وقد عبر (كثير) عن رأي أهل الحجاز بقوله :

أقول إذا ما الطير مرث عجيقة سوانعها تجري ولا استبرها ٤

وذكر أن هذيلاً كانت تشام بالسنح . أما غيرها ، فكانت تشام بالبارح ٥ .

- | | |
|---|--|
| ١ | تاج العروس (٢٣٠ / ٤) . (كدس) |
| ٢ | النهاية (٨٥ / ١) ، المعاني الكبير (١١٨٧ / ٣) |
| ٣ | الاعراب (١٥٧ / ٩) . أخبار النابغة وسببه Reste, B. 302. |
| ٤ | العترة (٢٦٣ / ٢) |
| ٥ | البرقوقي (ص ١٩ وما بعدها) |
| ٦ | المعاني (١١٨٦ / ٣) |

ويقال للمتطيرين من الرجال (الخثارم)^١ .
 وذكر ان (بني لب) ، ه هم أصيف العرب وأزجرهم للطير^٢ . وهم
 يطن من العرب يعرفون بالعيافة . ولأهل الأخبار قصص عن عيافتهم وعن زجرهم
 للطير^٣ .

ومن الطيور التي تطير منها أهل الجاهلية : الغراب وطيور الليل ، وهي البومة ،
 والصدى ، والحامة ، والضفدع ، والوطواط ، والخفاش ، وغراب الليل^٤ .
 وقاعدتهم في الطيرة : أنهم يشفون من اسم الشيء الذي يعاينون ويسمعون ،
 من ذلك قول سائر بن المضرب :

تغشى الطائران يسير ليسل هل غصنين من غراب وبان
 فكان البان أن يانت سليمي وفي الغراب الغراب غير دان
 فاشتق الاغراب من الغراب ، واليتونة من البان .
 وقال عنزة :

ظعن الذين فراقهم أتوقع وجرى بينهم الغراب الأبقع
 حرق الجناح كان لحيتي رأسه جلان بالأخبار هُش مولع
 فزجرته ألا يفسخ بيضه أبداً ويصبح عالقاً يتضجع
 إن الذين تبعث لي بفراقهم هم أسهروا ليل النام فلو جمعوا

فقال : وجرى بينهم الغراب ، لأنه غريب ، ولأنه غراب البين ، ولأنه
 أبقع . ثم قال : حرق الجناح تطيراً أيضاً من ذلك . ثم جعل لحبي رأسه
 جلمين ، والحلم يقطع . وجعله بالأخبار هُشاً مولعاً ، وجعل نعيه وشحيجه كالخبر
 المقهوم^٥ .

وأشأم الطيور عند الجاهلين ، (الغراب) : ه ليس في الأرض شيء ينشام

- ١ الثعالي (١١٨٧/٣) .
- ٢ الاشتقاق (ص ٢٨٨) . صبح الأعشى (١/٣٢٩ وما بعدها) .
- ٣ صبح الأعشى (١/٣٩٩ وما بعدها) .
- ٤ الحيوان (٢/٢٩٨) . (هارون) .
- ٥ الحيوان (٣/٤٤٢ وما بعدها) . (هارون) .

به إلا والغراب أشأم منه^١ ، ولذلك قالوا إذا نعب : غيراً خبيراً ، وذلك من باب التفاضل بالأضداد^٢ . والعامّة تتطير من الغراب ، إذا صاح صبيحة واحدة ، فإذا نئى ، نغامت به ، ، وإذا صاح الغراب مرتين ، فهو شر^٣ ، وإذا صاح ثلاث مرات ، فهو غير^٤ . وورد (غراب البين) و (الغراب الأبقع) و (الغراب الأسود)^٥ . ويراد بذلك الشاؤم بفراق الأحبة ، ويقال للغراب الأسود (حسام) ، والختمة السوداء ، وهو مشؤوم ، لأنه يحتم بالفراق^٦ . والعرب تشاعم من الغراب ، ولذا اشتقوا من اسمه الغربة والافتراب والغريب ، قال الغراب أكثر من جميع ما يتطير به في باب الشؤم ، ألا تراهم كلما ذكروا ما يتطرون منه شيئاً ذكروا الغراب معه ؟ وقد يذكرون الغراب ولا يذكرون غيره ، ثم إذا ذكروا كل واحد من هذا الباب لم يحكمهم أن يتطروا منه إلا من وجه واحد ، والغراب كثير المعاني في هذا الباب ، فهو المقدم في الشؤم^٧ . وروي أن (ابن عباس) كان إذا صاح الغراب ، قال : اللهم لا طير إلا طيرك ، ولا خير إلا خيرك ، ولا إله غيرك . قال الجاحظ : « وليس في الأرض بلرح ولا نطيط ، ولا فعيد ، ولا أعضب ولا شيء مما يتشاعمون به إلا والغراب عندهم أنكذ منه ، يرون أن صياحه أكثر أخباراً ، وإن الرجز فيه أعم . قال عنترة :

- ١ تاج العروس (٤٠٧/١) ، « عزب » ، قال رؤبة :
فأزجر من الطير الغراب الفاريا
- ٢ اللسان (٢٣٨/٢) ، الحيوان للجاحظ (٣١٦/٢) .
- ٣ الحيوان للجاحظ (٤٥٧/٣) ، « طبعه عبد السلام محمد هارون » .
- ٤ الحيوان للجاحظ (٤٥٧/٣) وما بعدها ، حياة الحيوان ، للدميري (٢٥٥/٢) .
- ٥ قال عنترة :
- ٦ طعن الذين فراقهم أنسوق
خرق الجناح كأن لجى رأسه
اللسان (٢١٠/١٦) ، القاموس (٢٠٤/٤) ، « غراب البين » ، الحيوان للجاحظ (٤٣١/٣) ، البيان والبيان (٨٣/١) ، لجنة ، قال النابغة :
- ٧ زعم البوارح أن رحلتني غدا
وبذاك خبرنا الغراب الأسود
الحيوان للجاحظ (٤٤٢/٣) .
- ٨ إذا ما رأت عيسى من الطير جائلاً
شديد سواد الرق ظلت تفسزع
الاستغاق (١٦٦/٢) ، اللسان (٣/١٥) ، الحيوان للجاحظ (٤٣٦/٣) ، (هارون) ، بلوغ العرب (٣٢٨/٢) وما بعدها .
- ٩ الحيوان للجاحظ (٣١٦/٢) ، حياة الحيوان ، للدميري (١٩٠/٢) .
- ١٠ الحيوان للجاحظ (٣١٦/٢) ، حياة الحيوان (٤٤٤/٢) .

حترق الجناح كأنّ الحبي* رأسه جلمان ، بالأخبار هنس مولع^١

وفي الغراب وشؤمه يقول الأعشى :

ما تعيف اليوم في الطير الروح من غراب اليبس أو تيس برح^٢

وقد كنوا عنه يكتفى عديدة ، دلالة على مقدار اهتمامهم به . فقالوا له :
أبو حاتم ، وأبو جحداف ، وأبو الجراح ، وأبو المرقال ، وأبو حذر ، وأبو
زيدان ، وأبو زاجر ، وأبو الشؤم ، وأبو غياث . ووضعوا الأمثلة على لسانه
وعنه . وقصوا عنه الحكايات . من ذلك : أنه أراد أن يقلد القطاة في مشيها ،
فحاكها ، لكنه لم يفلح في المشي مشيها ، فلما أراد العود إلى مشيه الأولى ،
أضل مشيته ، إذ نسيها ، فنسي المشي : فلذلك سمّوه : أبا المرقال^٣ . وضربوا
المثل بالغراب الأعصم ، فقالوا : أعز من الغراب الأعصم ، لشيء القلب الوجود^٤ .
وأوردوا له قصصاً مع الديك ومع حيوانات أخرى . ورموه بالفسق والفجور^٥ .
وفي الشعر الجاهلي وشعر المتحضرين اشارات إلى شؤم الغراب . جاء في شعر
(حسان بن ثابت) :

ويش في صوت الغراب اغترابهم عشية أو في حصن بان فطريا

فصوت الغراب ، يشير إلى الغربة والاعتراب ، لذلك كره^٦ .

وهو من ألام الطير وأعنيها ، وهو من عيب الطير ، وليس من أحرارها ،
فهو دنيء النفس ، إذا صادفته جيفة ، نال منها ، وهو لا يتعاطى الصيد . فهو
حيوان خبيث الفعل وخبيث المطعم ، لذلك عدّ العرب أكله عاراً يعير من يقدم

-
- ١ الحيوان (٣١٦/٢) . (هارون) .
 - ٢ العمسة (٢٦٠/٢) ، تاج العروس (٢٠٧/٦) . (علاف) ، اللسان (٣٦١/٩) .
 - ٣ (عيف) .
 - ٤ الحيوان ، للجاحظ (١٢٩/٣) ، حياة الحيوان ، للشعمري (١٧٢/٢) .
 - ٥ حياة الحيوان (١٧٢/٢) .
 - ٦ الحيوان (١٣١/٣) ، حياة الحيوان (٢٧٣/٢) وما بعدها ، (٣١٧/٣) ، (هارون) .
 - (فسق الغراب وتأويل رؤياه) .
 - ٦ البرقوقي (ص ١٩) . بلوغ الأرب (٣٣٤/٢) وما بعدها .

عليه ، وكانوا يتعايرون بأكل لحمة^١ . وليس ذلك ، لأنه يأكل اللحوم ولأنه
سبح ، لو كان ذلك منهم ، لكانت الفسادي والجوارح أسوأ بذلك عندهم ،^٢
إنما امتنعوا عن أكله ، لأنه يأكل الجيف والقاذورات ، ولذلك عدّه العبرانيون
من الحيوانات النجسة ، والحيوانات النجسة هي في الغالب الحيوانات التي لا يجوز
أكل لحومها ، والظاهر أنه كان على هذه النظرة عند أغلب السامعين .

ونعت الغراب بـ (الأعمور) ، قيل إنه نعت بذلك خلقة نظره^٣ ، وقيل
إنما سمّوه (الأعمور) تفاؤلاً^٤ بالسلامة^٥ . ووصف بالخلى ، فقيل : أخضر من
غراب ، وقيل إنه نعت بذلك على التشاؤم به ، لأن الأعمور عندهم مشؤوم ،
وقيل لخلاف حاله ، لأنهم يقولون : أبصر من غراب ، ويقال سمي الغراب
أعمور ، لأنه إذا أراد أن يصبح يغمض عينيه^٦ .

ويذكر أهل الأخبار أن غراب البين نوعان : أحدهما صغار معروفة بالضعف
واللؤم . أما الآخر ، فإنه ينزل في دور الناس ، ويقع على مواضع أقامتهم إذا
ارتحلوا عنها وابتأوا منها ، ولذلك سمي بغراب البين^٧ .

ولعرب عادات بالنسبة إلى الغراب ، ترى أنه إذا علق متقار الغراب على
إنسان ، حفظ من العين . أما إذا علق طحالاً على إنسان ، هيج الشئ . وإن دمه
إذا جفف وحشي به اليأس ، ليرأها . وإذا أكل مشوياً ، تقع القولج . وإذا
غس الغراب الأسود بريشه في الخل ، وطلى به الشعر ، سوده . وإذا طلى بها
إنسان مسحور ، يطل عنه السحر . وإذا جفف لسان الغراب (التراخ) ، ثم
أكله إنسان عطشان ، ذهب عطشه^٨ .

- | | | |
|---|--|-------------------------|
| ١ | لحمًا بالعبارة ما غير لعمومًا | شواء الناعضات مع الخبيص |
| | فما لحم الغراب لئلا يزداد | ولا سرطان أنهار البشري |
| | الحيوان ، للجاحظ (٣١٤/٢) وما بعدها ، (٣١٣/٢) ، (هارون) ، (لؤم الغراب | وضعه) . |
| ٢ | الحيوان للجاحظ (٣١٧/٢) ، (التعاير بأكل لحم الغراب) . | |
| ٣ | المفردات ، للرأغب الاصفهاني (ص ٢٥٨) . | |
| ٤ | الحيوان ، للجاحظ (٣١٤/٢) وما بعدها . | |
| ٥ | تاج العروس (٤٢٨/٣) ، (عمور) . | |
| ٦ | الحيوان ، للجاحظ (٣١٥/٢) . حياة الحيوان ، للدميري (٢٤٦/٢) . | |
| ٧ | حياة الحيوان ، للدميري (٢٤٥/٢) . (٢٥٥) . | |

ونسب الى المرقش السدوسي ، ذكر الغراب في شعره ، إذ قيل انه قال :

ولقد غدوت وكنت لا أفقدو على وافي وحاتم
واذا الأشائم كالأيام من ، والأيامين كالأشائم^١

وبين هذان البيتان رأي هذا الشاعر في التباين والتشائم .

وكان العرب اذا أرادوا ان يصفوا أرضاً بالنصب والسواد ، قالوا : وقعوا في أرض لا يطير غرابها ، فهذا يعني ان الأرض كلها خصبة مزروعة سوداء ، لا ترى فيها قطعة بيضاء ، ولا ترى إلا الزرع والخيرات والثمار . واذا أرادوا التعبير عن انتقال مرحلة الشباب إلى مرحلة الشيخوخة ، وعن التهام الشيب لسواد الرأس : قيل : طار غراب البين^٢ .

وقد يكون في جملة أسباب تشائم العرب من الغراب ، انه كان يضر بإبلهم . فهم يذكرون انه اذا وجد ديرة في ظهر البعير ، أو فرجة في عنقه ، سقط عليها وفقره وعقره . ولذلك كانوا اذا رأوا ديرة يظهر البعير ، غرزوا في سنامه إما قوادم ريش أسود ، وإما خرفاً سوداً ، لتفرغ الغريبان فلا تنقرب منه ولا تسقط عليه . وقد يضعون الريش في استمنها وتفرز فيها^٣ . والعرب تسمي الغراب لذلك (ابن داية) ، لأنه ينقر ديرة البعير أو فرجة عنقه ، حتى يبلغ ال دابات العنق وما اتصل بها من خرزات الصلب ، وفقار الظهر^٤ .

والغراب من الطيور التي ورد ذكرها في التوراة . والعبرانيون مثل العرب اعتقدوا بالطيرة منه ، أي بتأثير حركاته وسكناته في أحداث القائل والشؤم^٥ .

وقد ذكر (الجاحظ) جريدة بأسماء الجهات التي يقف عليها (الغراب) فينب ، وما سبق من وقته تلك ومن تعب ، وما يجب أن يفعله أو يتجنبه

١ المعاني (١١٨٧/٣) .

٢ تاج العروس (٤٠٧/١) .

٣ الحيوان ، للجاحظ (٤١٦/٣) وما بعدها ، (هارون) .

٤ الحيوان (٤١٥/٣ ، ٤٢٩) . (هارون) .

٥ المسلك الأول ، الاصحاح السابع عشر ، الآية ٦ ، التكوين ، الاصحاح الثامن ،

الآية ٧ . Ency. Religi., 4, p. 808.

الإنسان في هذه الحالات . كما ذكر أموراً أخرى تخص التطير أو التفاؤل من أصوات الحيوانات أو من رؤيتها^١ .

وكان (أمية بن أبي الصلت) ممن يتطير من الغراب ، ويذكر أهل الأخبار أنه بينما كان يشرب مع اخوان له في قصر (حيلان) بالطائف ، إذ سقط غراب على شرفة القصر ، فتعب نعمة ، فقال أمية : « بغيرك الكنتكث » ، أي الغراب وتسامع منه ، وقد مات فعلاً في مكانه بعد تعييه للمرة الثالثة^٢ .

وفي شعر أمية قوله :

بآية قام ينطق كل شيء وغاب أمانة الديك الغراب^٣

وذلك أن من أحاديث العرب ، أن الديك كان نذيراً للغراب ، وأنها شرابا الحمر عند حمار ولم يعطياه شيئاً ، وذهب الغراب ليأخيه بالثمن حين شرب ، ورهن الديك ، فخاس به ، فبقي محبوساً . وأن نوحاً حين بقي في اللجة أياماً بعث الغراب ، فوقع على جيفة ولم يرجع ، ثم بعث الحمامة لتتظر هل ترى في الأرض موضعاً يكون للسفينة مرفأً ، واستجعلت على نوح الطوق الذي في عنقها ، فرشاه بذلك . وفي جميع ذلك وغيره قال (أمية) ذلك البيت وأحياناً أخرى ، تطرق فيها إلى قصص إسرائيل آخر ، أخذ علمه به من أهل الكتاب . « فقد كان داهية من دواهي ثقيف ، وثقيف من دهاة العرب ، وقد بلغ من اقتداره في نفسه أنه قد كان همّ يادعاء النبوة ، وهو يعلم كيف الحصال التي يكون الرجل بها نبياً أو متنبياً إذا اجتمعت له ، نعم وحتى ترشح لسلك بطلب الروايات ، ودرس الكتب ، وقد بان عند العرب علامة ، ومعروفاً بالحولان في البلاد ، رواية^٤ . »

ومن رأي العرب أن الغراب لا يشيب ، وضربوا به المثل في ذلك ، فقالوا : « حتى يشيب الغراب ويبيض القار » ، ضربوا به مثلاً في الاستمرار على العمل

١ نهاية العرب (١٣٤/٣) وما بعدها .

٢ نهاية العرب (١٣٩/٣) ، حياة الحيوان (١٧٣/٢) ، الحيوان (١٣١/٣) .

٣ الحيوان (٣٢٠/٢) .

وعدم اللل من شيء^١ . ويقولون : ذهب الغراب يتعلم مشي العصفور أو القطة ، فلم يتعلمها ، ونسي مشيته . فلذلك صار يحجل ولا يقفز قفزان العصفور ، أو مشية القطة^٢ .

واليوم من الطيور التي ينشأ منها بعض الناس ، ولعل ذلك بسبب منظرها الكئيب ولصوتها الحزين وظهورها في الليل ، والليل هو رمز الشر . وبذل وصفها يد (أم الخراب) و (أم الصبيان) على النظرة البتة التي كان يراها العرب لها^٣ . ويقال إن من أنواعها الصدى والغامة . ولعل اعتقادهم أن الصدى والغامة أو ذكر اليوم منها ، هي روح الميت المرفقة على القبر هو الذي حصل أولئك المشائمين على التشاؤم منها .

والعالموس ، وهي سمكة في البحر أو دابة من الحيوانات التي كان العرب ينشأ منها^٤ . وكذلك (الأخبيل) وهو (الشقراق) ، « ينطرون منه ، ويسمونه مقطع الظهور : يقال إذا وقع على بعير ، وإن كان سالماً ينسوا منه ، وإذا لقي المسافر الأخبيل تطير وأيقن بالعقر إن لم يكن موت في الظهر »^٥ . وهم ينشأ من الثور الأعصب أي المكسور القرن^٦ . وينشأ من (العراقيب) ، الشقراق . وتقول العرب : إذا وقع الأخبيل على البعير ليكتشف عرقوبه . وقبل كل طائر ينطير منه للإبل ، فهو طير عرقوب لأنه يعرقبها^٧ .

وينطرون بالصدرد ، ومن أسمائه الأخطب ، ويقال (الأخبيل) كذلك . و(الواق) أيضاً الصدرد^٨ . وينشأ من (الأفكل) ، وهو الشقران ، فإذا عرض لهم كرهوه وفرغوا منه وأرتعدوا^٩ .

- ١ اللسان (٦٤٩/١١) . الحيوان (١٣١/٣) ، حياة الحيوان (١٧٧/٢) .
 - ٢ الحيوان (٣٢٥/٤) .
 - ٣ حياة الحيوان (١٨١/١) وما بعدها .
 - ٤ قال طرفة بن العبد :
- لعمرى لقد مرث عواطيس جنة ومر قبيل الصبح طيس مصنع
 تاج العروس (١٩٢/٤) ، حياة الحيوان ، للتدميري (١٢١/٢) ، (٢٢١) . العمدة (٢٦٠/٢) ، اللسان (١٤٢/٦) .
- ٥ بلوغ الأرب (٣٣٧/٢) ، البرقوقى (٣٤٨) ، ديوان حسنة (ص ٢٢) « مرشغلده » .
 - ٦ بلوغ الأرب (٣٣٨/٢) ، العمدة (٢٦٢/٢) .
 - ٧ تاج العروس (٣٧٨/١) . « عرقب » .
 - ٨ العمدة (٢٦١/٢) .
 - ٩ تاج العروس (٦٥/٨) ، (الفتكل) .

والثعلب والأرنب من الحيوانات التي استعان بها الزاجر ، في الزجر^١ . والواقع أن أهل الزجر قد توسعوا في علمهم حتى شمل كل المخلوقات ، فحركات الإبل والحبل وسكناتها كلها ذات معان ومفاهيم يعرفها المشتغلون بالطيرة، وكانوا يستعينون بغيرها من الحيوانات .

وقد ذكر بعض الأخباريين أن العرب تشاهم من الأفراس بالأشقر^٢ . وذكروا أيضاً أنها تطيرت من : « المرأة ، والدار ، والفرس » . وفي الحديث : « إن كان الشؤم ، ففي الدار والمرأة والفرس »^٣ . وورد : « إنما الشؤم في ثلاثة : في الفرس والمرأة والدار » . وذكر أن (عائشة) ، قالت : « وإنما قال : إن أهل الجاهلية كانوا يطعمون من ذلك » ، أي أن الرسول إنما قال ذلك حكاية عن أهل الجاهلية فقط^٤ .

وكما يظلب الإنسان على الأمراض بالأدوية والعلاج ، كذلك يمكن التغلب على النحس وشؤم ناصية المرأة وعتبة الدار بالذبائح في بعض الأحيان ، ولهذا جرت العادة ببيع ذبيحة أو عدة ذبائح عند زفاف العروس إلى بعلها ووصولها عتبة بيته طرداً للأرواح الشريرة وإرضاء لها ، كما جرت العادة ببيع الذبائح حين الانتقال إلى دار جديدة ، أو حين الشعور بوجود أرواح فيها، ويقال لهذه الذبائح (ذبائح الجان)^٥ .

وقد ابتدع الجاهليون طرقاً لإبعاد الطيرة من تفكيرهم ، من ذلك أنهم تجاهلوا بقدر إمكانهم ، المسببات التي تبعث على الشؤم بسببها بفسادها من الكلمات التي لا تشاهم منها ، فسَمُوا التلويح بالسليم ، والبرية بالمفازة ، وكنُوا الأعمى أبا بصير والأعور ممناً ، والأسود أبا البيضاء ، وسَمُوا الغرب بحائم ، وذلك لتشاؤمهم من الغراب^٦ . والتسمية بالأضداد لدفع الطيرة عن الأذهان ، ليست عادة جاهلية حب ، إنما هي معروفة في الإسلام كذلك . كما أنها معروفة عند غير العرب من الأمم قديماً وحديثاً .

Reste, B. 202.

- ١ مجمع الأمثال (٨٦/٢) .
- ٢ لا عدوى ولا طيرة . إنما الشؤم في ثلاث في الفرس والمرأة والدار . « جامع الأصول (٣٦٦/٨) . عفة القاري (٣٨٩/٢٦) .
- ٣ التسلطاني ، ارشاد (٧٣/٥) وما بعدها .
- ٤ تاج العروس (١٣٨/٢) .
- ٥ الحيوان (٤٣٩/٣) . « عبد السلام هارون » ، بلوغ الأرب (٣٣٨/٢) وما بعدها .

التأوب والعطاس :

ويدخل في الطيرة بعض ما يصدر من الانسان والحيوان من حركات ، مثل التأوب والعطاس . والتأوب عمل من أعمال الشيطان . وأما العطاس ، فقد كان أثره في إيجاد الشؤم شديداً ، وهو من العادات الجاهلية المذكورة في الشعر المنسوب الى الجاهليين . ذكر ان امرأ القيس قال :

وقد الخندي قبل العطاس بهيكل شديد منيع الجنب نعم المنطق

وانه أراد بذلك انه كان يتنبه لتصيد قبل ان يتنبه الناس من نومهم ، كئلا يسمع عطاساً فينشام بعطاسه^١ .

وقبل ان العرب كانت تتطير منه ، فإذا عطس العاطس ، قالوا : قد ألبمه ، كأنها قد تلجمه عن حاجته^٢ .

ويقال الكلمة لعطسة البهائم . وقد يقال لعطسة الإنسان . والكادس ما يتطير به من القال والعطاس وغيرهما . وقبل الكادس : القعيد من الفباء ، وهو الذي يجيء من خلفك ، وينشام به ، كما ينشام بالبارح^٣ .

والعطاس فضلاً عن ذلك دواء في نظر أهل الجاهلية ، لذلك كانوا يتجنبونه بقدر إمكانهم ، ويحاولون جهدهم حبه وكتمه . فإذا عطس أحدهم وكان وضيقاً مضوراً أصغوه كلاماً مرأ فيه رد للشؤم على صاحب العطاس ، كأن يقولوا له : « ورياً وقحاًباً » . والوري هو ذاء بصيب الكبد فيفسدها ، والقحاب هو السعال ، أو : « بك لا يسي : أسأل الله أن يجعل شؤم عطاسك بك لا يسي » . أما إذا كان العاطس معروفاً محبوباً شريفاً ، قالوا له : « عمراً وشيأياً » . وكلما كانت العطسة شديدة كان الشؤم منها أشد^٤ . ويقال للدعاء على العاطس (التشمت) و (التسميت)^٥ .

- ١ العمدة (٢٦٠/٢) . ارشاد الساري (١٢٥/٩) وما بعدهما .
- ٢ المعاني الكبير (١١٨٥/٣) .
- ٣ تاج العروس (٢٣٠/٤) . (كنس) .
- ٤ المعاني الكبير (١٠١٥/٢) . بلوغ الأرب (٣٣٢/٢) .
- ٥ اللسان (٣٥٧/٢) . تاج العروس (٥٥٩/١) . « شمت » .

وقد نهى الإسلام عن التناؤم بالمطاس ، وعكسه ، فجعله محبوباً ، بحيث :
 « إن الله يحب المطاس ، ويكره التناؤب »^١ .
 وإذا مات رجل قالوا : عطس الرجل ، و (عطست به النجم) ، والنجمة
 ما تطيرت منه ، ويقال للموت : يلجم عطوس^٢ .

بعض من أنكر الطيرة :

وكان بين الجاهليين أناس أنكروا الطيرة ، ولم يحفلوا بها . منهم المرقش من
 بني سدوس ، حيث قال :

لاني غلبت وكنت لا ألدو على وافي وحاتم
 فساذا الأشائم كالآيا من والأيا من كالأشائم
 فكذلك لا تحسب ولا شر على أحد بدائم^٣

ومن كان ينكر الطيرة ويوصي بملك ، سلامة بن جندل ، والحارث بن حنظلة .
 ونجد الشاعر (الحثيم بن عدي) يمدح (مسعود بن بحر الرهري) ، بقوله :

وليس هيباب إذا شد رحله يقول عدائي اليوم وافي وحاتم
 ولكنه يمضي على ذاك مقدماً إذا صد عن تلك الهنات الخثارم

فهو يمدحه ، ويقول إن مملوحه لم يكن من الخثارم ، أي المتطيرين ، بل
 كان إذا أراد أن يمضي أمراً ، صد عن تلك الهنات ، فلا يحفل بوافي وحاتم^٤ .

وكان التابعة من المتطيرين ، خرج مع (زيان بن سيار) يريدان الغزو ،
 فيبداهما يريدان الرحلة . إذ نظر التابعة وإذا على ثوبه جرادة تجرد ذات ألوان ،
 فتطير وقال : غيري الذي خرج في هذا الوجه ! قلنا رجع زيان من تلك الغزوة
 سالماً . أنشأ يذكر شأن التابعة ، فقال :

- ١ جامع الأصول (٣٩٦/٧) وما بعدها .
- ٢ النسان (١٤٢/٦) .
- ٣ الحيوان (٤٣٦/٣) ، (٤٤٩) ، (هارون) .
- ٤ الحيوان (٤٣٧/٣) ، (هارون) .

تخبر طير فيها زياد^١ لتخبره وما فيها خبر
أقام كان لقان بن عباد أشار له بحكمته مشير
تعلم أنه لا طير إلا على متطير وهو البور
بلى شيء يوافق بعض شيء أحاييناً وباطله كبير^٢

واسم النايغة زياد^٣ .

وهناك نوع آخر من التنبؤ يقال له في الانكليزية « Hepatacopy » ، ويراد به استخراج الغيب من دراسة كبد الأصاحي التي تقدم الى الآفة . وقد اشتهر به الكلدانيون على الأخص ، وتوسعوا فيه فشمّل أيضاً قراءة الرنة أو بقية الأحشاء . وكان معروفاً أيضاً عند العبرانيين واليونان والرومان والمصريين وغيرهم^٤ . وللكبد أهمية خاصة عند العرب ، وهو في نظرهم معدن العداوة ومقر الخقد ، لذلك يقال للأعداء : سود الأكباد ، لأن الخقد قد أحرق أكبادهم حتى اسودت^٥ .

وقد تشاموا من بعض الأيام ، مثل (الأيام نحسات) . وهي كل أربعة أيام يوافق أربعاً من الشهر ، مثل أربع خلون ، وأربع وعشرين ، وأربع بقين . كما تشاموا من بعض الشهور ، مثل شهر شوال ، ولذلك كرهت التزوج فيه^٦ . وورد يوم نحس و (أيام نحسات) ، وهي المشؤمات . والعرب تسمي الريح الباردة إذا دبرت نحساً . والنحس : الجهد والقصر ، وخلاف السعد من النجوم وغيرها^٧ . وقد كان أهل نجد يمينون بالسائح ، وينشامون بالبارح ، ويخالفهم أهل العالية ، فينشامون بالسائح ، ويمينون بالبارح^٨ .

ويدخل في هذه الأيام نشاؤم بعض الجاهليين من يوم معين وتغالطهم من يوم آخر فيكون يوم التشاؤم يوم بؤس ، يغضب فيه من ينشام منه على كل من يراه أول مرة لو في ذلك النهار ، وقد يلحق به سوءاً كالثدي روي من قصة

١ الحيوان (٤٤٧/٣) ، (هارون) .

٢ الحيوان (٥٥٥/٥) ، (هارون) .

٣ Ency. Religi., 4, p. 868, Hastings, p. 568, Diodorus Sic., II, p. 29.

٤ اللسان (٣٧٨/٤) .

٥ مروج الذهب (١٠٨/٢) وما بعدها .

٦ اللسان (٢٢٧/٦) .

٧ العمد (٢٦٣/٢) .

(يومي البؤس والنعم) عند (المنثر بن ماء السماء) أو (الثعالب بن المنثر)^١ .
 ويكون يوم التفاؤل (يوم نعم) يفرح فيه صاحبه ويهش لكل من يراه ولا سيما
 لأول قادم عليه . وعبر عنها بـ (يوم بؤس) و (يوم نعم)^٢ .
 وكانت العرب تشام من كلبة يقال لها (براقش)^٣ .

الفأل :

والفأل ضد التشاؤم والطيرة . ويكون برؤية شيء أو سمع أمر أو قول أو
 غير ذلك يُفأل منه ، كأن يسمع مريض رجلاً يقول يا سالم فبضع في غلته أنه
 برأ من مرضه ، أو يسمع طالب حاجة رجلاً يقول يا واجد فليخال أنه يجد
 ضالته ، فيتوقع صحة هذه البشري ، ويقال لذلك في الإنكليزية Omen . وهو
 معروف عند العبرانيين وقد ذكر في التوراة^٤ .

وأصل كلمة (الفأل) على ما يظهر للتشاؤم والتفاؤل ، أي أنها كالتطيرة أريد
 بها الحالتان ، ثم تخصصت بالحسن ، كما تخصصت الطيرة بالشؤم^٥ . وقد نهي في
 الحديث عن الطيرة . أما الفأل ، فقد ورد أن الرسول كان يتفأل ولا يتطير لما
 في التفاؤل من أثر طيب في أعمال الإنسان^٦ .

وهذه (الشؤم) (البين) ، ومن معاني البين (البركة) ، و (الميامين)
 على نقيض (المشائم) ، و (الميمون) ضد (المشؤوم)^٧ . وورد (ميمون النبية)^٨
 و (ميمون الناصية) . وبلاحظ أن لناصرية علاقة متينة بالشؤم والتمين ، فكما
 يقال (ميمون الناصية) قبل (شؤم الناصية) كذلك ، وهي كناية عن الإنسان .
 فقد كان في رأيهم أن من الناس من هم شؤم ، ويجلبون الشؤم على من يراهم ،

- ١ البلدان (٢٨٣/٦) وما بعدها ، الألفاظ (٢١٣/٥) . ابن قتيبة : الشعر (١٤٤) .
- ٢ الفأل ، الألفاظ (١٩٥/٣) .
- ٣ اللسان (٥٧٩/١٢) .
- ٤ الحيوان (٤٥٤/٥) ، (هارون) .
- ٥ جامع الأصول (٤٦٧/٨) . كتاب الطيرة ، اللسان (٢٧/١٤) . إرشاد الساري
 Ency., II, p. 46, Reste, B. 203. ff. (٣٩٧/٨) .
- ٦ في الحديث : صدق الطيرة الفأل ، النهاية (١٩٥/٣) .
- ٧ النهاية (١٩٥/٣) ، جامع الأصول (٤٦٧/٨) .
- ٨ ناج العروس (٣٧١/٩) .
- ٩ ناج العروس (٤٩١/١٠) .

وإن منهم من تجلب رؤيته الخير لمن يراه . ويكون للحسن والقبح ولسيئه الوجه والجسم دخل كبير في تكوين رأي عن الشخص الذي يتشام أو يتفاهل منه . وقد قلت إن بعض العاهات التي تكون في بعض الناس ، تجعل غيرهم يتشامون منهم عند وقوع نظرهم عليهم في الصباح .

وهناك كلمات عديدة في التشاؤم و (الشؤم) ، مثل (شائم) و (شؤم) و (مشؤوم) و (مشوم) و (مشائم) و (تشامسوا) ، و (الأشأم) وأمثال ذلك^١ .

ولا يقتصر استعمال هذه الألفاظ على جنس معين ، بل تقال لكل ما يجلب الشؤم على الإنسان . فمن البشر - كما قلت - من هم شؤم على غيرهم ، يجلبون الشر لمن يتشام منهم ، يستوي في ذلك الرجال والنساء والأطفال . ولما كان التشاؤم قضية اعتبارية تتعلق بالنفس والمزاج ، كان بعض الأشخاص أو الحيوانات أو الأشياء شؤماً عند ناس ، بينما هم ليسوا كذلك عند جماعة آخرين . ولكن الغالب أن التشاؤم من الأشياء القبيحة أو الناقصة أو الرابعة وما شابه ذلك ، فهذه المزعجات تؤثر على النفس ، فتجعلها تشام منها ، وتتوقع حدوث النقص من رؤيتها ، ولا سيما في الصباح ، وعند المزم بالشروع في عمل مهم .

وكانوا يحبون أن يأتوا أعداءهم من شق اليمين^٢ . يتفاهلون بذلك . لأن في اليمين اليمن ، وفي اليسار العسر .

وللأسماء والكلمات أثرها في الحال وفي الطيرة ، فالأسماء الحسنة الجعيلة تبعث على التفاؤل ، أما الأسماء الخبيثة والرديئة فلها تولد التشاؤم . وقد عرف هذا النوع من التفاؤل في الإسلام ، ولم يته عنه . بل قيل إن الرسول كان يتأثر من الأسماء ، وكان يقول إذا أعجبه كلمة : « أعلننا فأك من فيك » ، وأنه يعجبه إذا خرج لحاجة أن يسمع : يا راشد ، يا نجيب ، وأنه قال : « لا عدوى ولا طيرة » ، ويعجني الحال^٣ .

والطيرة سمع العرب المنهدش السليم ، والبرية المفازة ، وكنوا الأعمى أبا بصير ،

١ - باج العروس (٣٥٤/٨) .

٢ - الحيوان (٥١٦/٥) - (هارون) .

٣ - جامع الأصول (٣٩٤/٨) .

والأسود أبا البيضاء ، وسحقوا الغراب بحاتم ، إذ كان يحتم الزجر به على الأمور^١ .
 وورد أن العرب إذا تطيروا من الإنسان وغيره قالوا : صباح افلا صباحك^٢ .
 والإيمان العرب بباب الطيرة والقأل عقدوا الرنائم ، وعشروا إذا دخلوا القرى
 تعشير الطمار ، واستعملوا في القداح الأمر ، والنأهي ، والمربص ، وهن غير قداح الأيسار^٣ .
 ومن أبواب الفراسة النظر إلى خطوط الكف للاستدلال بها على طبيعة صاحب
 الكف وعلى ما سيحدث له من أحداث . وقد أشار إلى الكف وإلى أسرارها
 الأعشى في قوله :

أنظر إلى كف وأسرارها هل أنت ، إن أوعدتني ، ضائري^٤

ولمراقبة الكف الذي يظهر على وجه القمر ودراسة النجوم والظواهر الطبيعية
 التي تحدث للأجرام السماوية كالكسوف والخسوف ، أهمية كبيرة في الكهنة . وقد
 كان الجاهليون يعتقدون أن للكسوف والخسوف أثراً في حياة الإنسان ، فإذا وقع
 دلاً على موت إنسان عظيم أو حياته ، أو ولادة مولود صاحب حظ كبير^٥ .
 وكذلك كان رأيهم في تساقط النجوم . وقد أشير إليه في أشعار القدماء من الجاهلية ،
 منهم عوف بن الجزع وأوس بن حجر وبشر بن أبي خازم^٦ .

وقد كان في زعم الكهنة من صنف التنجيم أن في استطاعتهم التأثير في
 الأجرام السماوية وفي أحداث السحاب والأمطار والعواصف والرياح ، وقد نهي
 عن التصديق بها في الإسلام ، لتعارضها مع الإيمان بسيطرة الله وحيته وحده
 على الكون .

وكان للجاهليين اعتقاد بآثر فعل النجوم في الإنسان ، ولهذا كانوا يراقبون
 السماء لتفسير ما يرون فيه من تساقط نجوم ، ومن أخبار الشياطين مما يستمعون
 إليه من وحي السماء . وذكر أنهم كانوا يفرعون إذا تساقطت الشهب بكثرة غير

١ الحيوان (٤٣٩/٣) ، (هارون) ، (٢٥٣/٤) .

٢ اللسان (٥٠٢/٢) .

٣ الحيوان (٤٤٠/٣) ، (هارون) .

٤ المعاني الكبير (١١٨٥/٣) .

٥ اللسان (٢٠٨/١١) ، الروض الاتف (١٣٥/٦) .

٦ الروض الاتف (١٣٥/١) .

معهودة . وقد حدث أن تساقطت النجوم بكثرة ففزعوا وجزعوا وقالوا : « هلك من في السماء . فجعل صاحب الإبل ينحر كل يوم بعيراً ، وصاحب البقر يذبح كل يوم بقرة ، وصاحب الغنم كل يوم شاة حتى أسرعوا في اتلاف أموالهم . فقالت ثقيف بعد سؤال كاهنهم .. اسكوا عن أموالكم ، فإنه لم يمت من في السماء . ألسن ترون معالكم من النجوم كما هي . والشمس والقمر كذلك »^١ . فكأنهم تصوروا أن تساقط النجوم هذا بكثرة معناه اختلال نظام السماء وموت من فيه ، والحيال فناء العالم تبعاً لذلك .

وكانوا إذا خافوا من شيء وأرادوا الاستعاذة ، كأن يكون الإنسان مسافراً قرأ من يخافه قال : حجراً عجوراً ، أي حرام عليك التعرض بي . وقد ترك هذا الاستعمال في الإسلام^٢ . وقد ورد الحديث في النهي عن التطير . جاء : « الطيرة شرك . ولكن الله يلعبه بالتوكل »^٣ .

١ السيرة الحلبية (١/١٤١ وما بعدها) .
 ٢ الصاحيبي (٩٣) .
 ٣ جامع الأصول (٨/٤٦٧) . « كتاب الطيرة » . سنن أبي داود (٤/١٧ وما بعدها) .
 « باب في الطيرة » . عمدة القاري (٢١/٢٧٣) . « باب الطيرة » . النسيان (١٠/٤٥٠) . (شرك) .

الفصل السابع والثلاثون

من عادات وأساطير الجاهليين

ولأهل الجاهلية عادات وأساطير كثيرة ، وقد اختص العرب بقسم منها ، أما القسم الثاني فهو عام معروف ، عرف عند الساميين والعجم ، وهي مما يقال له (الشعيات) أو (القولكلوريات) في مصطلح الأفرنج لهذا العهد .

فن ذلك ما كانوا يفعلونه في أسفارهم إذ كان أحدهم إذا خرج إلى سفر عمد إلى شجرة من (الرتم) ، فعقد غصناً منها ، فإذا عاد من سفره ووجده قد انحلت ، قال : قد خانتني امرأتي ، وإن وجده على حاله قال لم تخني^١ . ويقال لذلك العقد (الرتم) و (الرتمة) . وذكر أن الرجل منهم كان إذا سافر عمد إلى خبط فمقلده في غصن شجرة أو في ساقها ، فإذا عاد نظر إلى ذلك الخبط ، فإن وجده بحاله علم أن زوجته لم تخنه ، وإن لم يجده أو وجده محلولاً قال : قد خانتني . ويقال : بل كانوا يعقدون طرفاً من غصن الشجر بطرف غصن آخر^٢ . وتستعمل (الرتمة) للتذكير الإنسان بشيء ، يستعملها من يكثر نسيانه . وهي خيط يعقد في الأصبع للتذكير . وقد يعقد على الخاتم^٣ . ومن اعتقادهم في السفر أن من خرج في سفر والتفت وراءه لم يتم سفره .

١ المستطرف (٧٨/٢)
٢ بلوغ الأرب (٣١٦/٢) وما بعدها ، نهاية الأرب (١٢٥/٣) ، اللسان (١١٦/١٥) .
صبح الأعشى (٤٠٨/٦)
٣ تاج العروس (٣٠٣/٨) ، (رتم) .

فان التفت تطير ، وفسره بالعودة . فلذلك لا يلتفت إلا العاشق الذي يريد العود^١.
ومنها التصفيق : كانوا اذا ضل الرجل منهم في القلاة ، قلب ثيابه ، وحبس
نافته ، وصاح في أذنها كأنه يومئ الى انسان ، وصفق يديه : الوحا الوحا ،
النجا النجا ، هبكل ، الساعة الساعة ، إليّ إليّ ، عجل ، ثم يحرك النافة فيهندي .
قال الشاعر :

وأذن بالتصفيق من ساء ظنه فلم يدبر من أي اليمين جوابها^٢

وذكر انه كان يقلب قلبه ويصفق يديه كأنه يومئ بها الى انسان فيهندي^٣.
وكان أحدهم اذا أراد دخول قرية ، فخاف وباءها أو جنّتها ، وقف على
بابها قبل ان يدخلها ، فتهنق تهنق الحجار ، ثم علق عليه كعب لرب ، كان ذلك
عودة له ورقية من الوباء والجن . ويسمون هذا التهنق التهنق .
وروي ان (عروة بن الورد) خرج الى (خيبر) ليشتري ، فلما قربوا منها ،
عشّر من معه ، وعاف (عروة) أن يفعل فعلهم . فقال : إن رفقتهم مرضوا ،
ومات بعضهم ، ونجا (عروة) من الموت والمرض^٤ .
وكان مسافرهم إذا ركب مفازة وخاف على نفسه من طوارق الليل ، عمد
الى ولد ذي شجر ، فأناخ راحلته في قرارته ، وهي القاع المستديرة ، وعقلها ،
ونخط عليها خطاً ، ثم قال : أحوذ بصاحب هذا الوادي^٥ . والى ذلك أشار
الفرآن ، وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادهم رهقاً^٦ .
وذكر أنهم كانوا إذا نزلوا الوادي ، قالوا : نعوذ بسيد هذا الوادي من شر
ما فيه ، فتقول الجن : ما نملك لكم ولا لأنفسنا ضرراً ولا نفعاً^٧ .

ومن عادات بعض العرب أنهم إذا خافوا شر إنسان وأرادوا عدم عودته اليهم ،
أوقدوا خلفه ناراً ، إذا تحول عنهم ، لينحول ضبعه معه ، أي شره . وكانوا
يقولون : أبعد الله دار فلان وأوقد نارا أثره ، والمعنى لارجمه الله ولارده^٨ .

١ المستطرف (٨٠/٢) . بلوغ الأرب (٣٢٨/٢) .

٢ نهاية الأرب (١٢٢/٣) . صبح الأعشى (١-٥/١) .

٣ المستطرف (٨٠/٢) . بلوغ الأرب (٣١٦/٢) .

٤ بلوغ الأرب (٣١٥/٢) وما بعدها .

٥ بلوغ الأرب (٣٢٥/٢) .

٦ الجن . الآية ٦ .

٧ تفسير الطبري (٦٨/٢٩) .

٨ اللسان (٤٦٦/٣) . (وقد) .

وإذا غاب انسان ، فلم يبقوا على أثره ، فقي الوسع الاحتذاء اليه ، وذلك بأن يذهبوا الى بئر قديمة أو حفر قديم ، ثم يتادوا في البئر أو الحفر اسم الغائب ثلاث مرات ، فإن سمعوا صوتاً علموا أنه حي معافى ، وإن لم يسمعوا شيئاً علموا أنه قد مات^١ .

وإذا أرادوا ضمان عدم رجوع الضلّاء ومن لا يربط في عودتهم ، فإن الثقل إذا غادر المحل ، عمد صاحب البيت والمكان الى كسر شيء من الأواني أو رمى حجراً خلفه ، وفي ذلك ضمان بالألّا يعود^٢ .

ومن خرافاتهم أن أحدهم كان إذا اشترى داراً أو استخرج ماء عين أو بئر ينائاً وما أشبهه ، ذبح ذبيحة للطيرة . وقد عرفت عندهم بـ (ذبائح الجن) ، وكانوا يفعلون ذلك مخافة أن تصيبهم الجن وتؤذيهم . وقد نهى في الإسلام عن ذبائح الجن^٣ .

وأوجدوا للدوام الحب علاجاً ، هر شق الرداء والبرقع ، زعموا أن المرأة إذا أحببت رجلاً أو أحبها ثم لم تنش عليه رداءه ، وبشق عليها برقعها ، فقد حبها ، فإذا فعل ذلك دام حبها^٤ .

وإذا صعب على المرأة العثور على خاطب لها ، فإن في الإمكان تبسير ذلك بنشر جانب من شعرها ، وتكحيل إحدى عينيها ، وتكحيل إحدى رجليها ، ويكون ذلك ليلاً ، ثم تقول : يا لكاح ، أبني التكاح ، قبل الصباح ، فيسهل أمرها ، وتزوج عن قريب^٥ .

ومن آرائهم أن الرجل منهم إذا عشق ولم يسل وأفرط عليه العشق ، حمله رجل على ظهره كما يحمل الصبي ، وقام آخر فأحرق حديدته أو ميلاً وكوى به بين يديه فيذهب عشقه^٦ .

وللدوام الحب بين الرجل والمرأة ، يشق الرجل برقع من يحبها وتنش المرأة رداءه ، فيصلح حبها ويدوم ، فإن لم يفعل ذلك قد حبها^٧ .

١ - بلوغ الأرب (٣/٣) وما بعدها .

٢ - بلوغ الأرب (٣/٣٣٠) .

٣ - اللسان (٢/٤٣٧) ، (ذبح) ، سائر القلوب (ص ٦٩) .

٤ - نهاية الأرب (٣/١٢٦) .

٥ - بلوغ الأرب (٢/٣٣٠) .

٦ - بلوغ الأرب (٢/٣٢١) .

٧ - بلوغ الأرب (٢/٣٢٢) .

وإذا غاب عن السماء من يحينه أخذت تراباً ،
ليرجع سريعاً^١ .

وإذا أرادت المفلاة ان يعيش ولدها ، ففي
الشريف سبع مرات ، وعندئذ يعيش ولدها . وإذا
يقتل غدرأ ، وقد ذكر ذلك في شعر بشر بن أبي
ومن عقائدهم ان صاحب القوس المهقوع اذا ركب
وطمحت الى غيره . والمقعة : دائرة تكون بالقوس
في الأكثر^٢ .

وكان الصبي اذا برت شفته ، حل منخلآ على رأسه وثأدى به
والخلاء الخلاء ، الطعام الطعام ، فتظني له النساء كسر الخبز والتمر واللحم في
المنخل ، ثم يلقى ذلك للكلاب ، فتأكله فيبرأ من المرض فان أكل صبي من
الصبيان من ذلك الذي ألقاه للكلاب ثمرة أو لقمة ، برت شفته^٣ .

وتعالج (المخلفة) و (النظرة) عند الصبيان بتعليق سن ثعلب ، أو سن هرة
على الصبي ، فان تلك الأسنان تهرب الجن . ويهربها كذلك تنقيط شيء من صمغ
(السرة) (حيش السرة) ، وهي شجرة من شجر الطلع ، بين عيني النعشاء ،
ونخط شيء منه على وجه الصبي خطأ ، فلا تجزو الجنية على القرب من الصبي ،
ويقال لذلك (القرات) . فإذا قال لها صواحبها في ذلك ، قالت :

كانت عليه نقره* ثعالب وهره*
والحيش حيش السرة*

ومن عاداتهم في إبعاد الجن عن الصبيان ، تنفير المولود ، وذلك ان يسميه
باسم قريب منقر ، فينفر الجن منه ، ولا يتقربون منه^٤ .

- | | |
|---|---|
| ١ | يلوغ الأرب (٣٣٩/٢) وما بعدها |
| ٢ | يلوغ الأرب (٣١٧/٢) وما بعدها |
| ٣ | يلوغ الأرب (٣٢٣/٢) |
| ٤ | يلوغ الأرب (٣٢٨/٢) |
| ٥ | نهاية الأرب (١٢٤/٣) - يلوغ الأرب (٣٢٥/٢) ، ساج المروس (٥٧٨/٣) وما بعدها |
| ٦ | يلوغ الأرب (٣٢٥/٢) |

وعادة أخذ الغلام إذا نثر ، السن الساطع ووضعها إياه بين السبابة والإبهام ، واستفبال الشمس ، وقذف السن في عينها ، لا تزال معروفة حتى الآن ، وهم يقولون في ذلك : « أبدليتي بسن أحسن منها ، وكثير في ظلمها لإباتك »^١ ، أو « أبدليتي أحسن منها ، أمن على أسنانه العوج ، والفالج ، والشغل » . قال طرفة :
بدلته الشمس من منيته برداً أبيض مصقولاً الأثر^٢

واعتقد قوم منهم أن من ولد في القمراء ، نقلت غرته ، فكان كالمختون^٣ ، واعتقدوا أن طول الغرلة من تمام الخلفة وأقرب ما يكون إلى السؤدد^٤ . ومن عقائدهم ، أن المولود إذا ولد بنتاً ، كان ذلك علامة سوء ، ودليلاً على الفساد . واليّن خروج رجل المولود قبل رأسه^٥ . ومن عقائدهم أن الرجل كان إذا ظهرت فيه القرباء عاجلها بالريق ، وإذا أصيب أو أصيبت دابته بالتملة ، وخط عليها ابن الجومي إذا كان من اخته تبرأ وتصلح وتوأب^٦ .

وزعموا أن من أصيب به (الهديد) ، وهو (العشا) يكون في العين ، عمد إلى سنام فقطع منه قطعة ، ومن الكبد قطعة ، وفلاهما ، وقال عند كل لقمة يأكلها بعد أن يمسح جفته الأعلى بسبائه :

فيا سناماً وكيد^٧ ألا اذهبا بالهديد^٨
ليس شفاء الهديد إلا السنام والكيد

ويزعمون أن ذلك يذهب بالعشا بذلك^٩ .

وقد زعم الجاهليون أن الطاعون الذي كان يقع كثيراً في الجاهلية فيحصده الناس

- ١ - بلوغ الأرب (٣١٨/٢) .
- ٢ - نهاية الأرب (١٢٢/٣) .
- ٣ - بلوغ الأرب (٣٢١/٢) .
- ٤ - تاج العروس (٤١/٨) - (غزل) - بلوغ الأرب (٣٢١/٢) .
- ٥ - الحيوان (٢٨٦/١) - (حارون) .
- ٦ - بلوغ الأرب (٣٢٩/٢) - وتعرف (القرباء) به (كويابة) بلغة العامة لهذا العهد .
- ٧ - أنه لا يسرى داء الهديد - غسل القلايا من سنام وكيد
- ٨ - تاج العروس (٥٤٥/٢) - (الهديد) - بلوغ الأرب (٣٤٠/٢) .

حصداً ، هو من وعز الجن*، وأنه من فعلهم في الإنسان ودعوه (رماح الجن) ، وذكر ذلك في الشعر فقال أحد الشعراء :

لمعرك ما خشيت على عدي* رماح بني مقبلة الخمار
ولكنني خشيت على (عدي) رماح الجن أو إياك جارا*
وكانوا يرون أن أكل لحوم السباع يزيد في الشجاعة والقوة* .

وفي حركات الإنسان دليل ومعان نبيء عن أشياء . فإذا اختلجت العين دل ، ذلك على توقع قدوم شخص غائب محبوب . ولا تزال هذه العادة باقية عند الناس اليوم* .

ومن عاداتهم أن أحدهم إذا خضرت رجله ، ذكر أحب الناس إليه ، فتبسط* . وكانوا يعتقدون الرثم للحصى ، ويرون أن من حلها انتقلت الحصى إليه . قال أحد الشعراء :

حلت رثيمة فكثت شهراً أكابد كل مكروه الدواء*

وقد زعموا أن في البطن حبة ، إذا جاع الإنسان ، عشت على شرسوفه وكبدته . وقيل : هو الجوع بعته ، ليس أنها تعض بعد حصول الجوع* .

وكان من عادة الجاهلين حل ملوكهم على الأعناق إذا اشتد بهم المرض . وهم يعتقدون أنهم بذلك سيتغلبون على المرض ، ويعتقون ذلك بأنه أسهل على المريض ، وأكثر راحة له من وضعه على الأرض* .

واعتمدت العرب أن دم الملوك والرؤساء يشفي من عضة الكلب* ، وزعموا أن الكلب جنون الكلاب المعري من أكل لحم الإنسان . وأجمعت العرب أن

- ١ نمار الغلوب (٦٨) *
- ٢ بلوغ الأرب (٣٢٢/٢) *
- ٣ بلوغ الأرب (٣٢١/٢) وما بعدها *
- ٤ ناج العروس (١٧٠/٣) - (خدر) *
- ٥ بلوغ الأرب (٣١٧/٢) *
- ٦ بلوغ الأرب (٣١٣/٢) وما بعدها *
- ٧ بلوغ الأرب (٢٠/٣) وما بعدها *
- ٨ بلوغ الأرب (٣١٩/٢) *

دواءه قطرة من دم ملك يخلط بماء فيسقاء ، وقبل إن الرجل الكلب بعض انساناً
فيأتون رجلاً شريفاً ، فيقطر لهم من دم اصبه ، فيسبون الكلب فيبرأ^١ .
ومن عقائلهم انهم كانوا اذا قتلوا الثعبان عاقبوا من الجن ان يأخذوا بثأره ،
فيأخذون روثه ، ويفتونها على رأسه ، ويقولون : روثه راث تارك . وقد يلزم
على الحية المقتولة يسير رماد ، ويقال لها : قنك العين فلا تترك . وفي أمثالهم
لن فعب العين دمه هدر : هو قتل العين^٢ .

واعتقد الجاهليون بـ (السفة) ، و (السفة) العين نصيب الانسان : عين
إنسية وعين جنية ، و (السفة) النظرة من الجن^٣ .

واذا طالت علة الواحد منهم ، وظنوا ان به مساً من الجن ، لأنه قتل حية
أو يربوعاً أو قفلاً ، عملوا جبالاً من طين ، وجعلوا عليها جوالق وملأوها حنطة
وشعيراً وتمراً ، وجعلوا تلك الجبال في باب جحر الى جهة المغرب وقت غروب
الشمس ، وباتوا ليلتهم تلك ، فاذا أصبحوا ، نظروا الى تلك الجبال الطين ، فاذا
رأوا انها بحالها ، قالوا : لم تقبل القدية ، فزادوا فيها ، وإن رأوها قد تساقطت
وتبدد ما عليها من الميرة قالوا : قد قبلت الدية ، واستداروا على شفاء المريض ،
وفرحوا ، وضربوا بالدف^٤ .

ومن أوايدهم تعليق الحللي والجلاجل على اللديق ، يرون انه يقيق بذلك ، ويقال
انه انما يعلق عليه ، لأنهم يرون انه ان تام يسري السم فيه فيهلك ، فتخلوه بالحلي
والجلاجل وأصواتها عن النوم . وذهب بعضهم الى انه اذا علق عليه حللي الذهب
برأ ، وإن علق الرصاص أو حللي الرصاص مات^٥ .

ومن آرائهم في إطلاق نار الحرب انهم كانوا ربما أخرجوا النساء قبلن بين
الصفيين ، يرون ان ذلك يطفىء نار الحرب ويقودهم الى السلم^٦ .

١ تاج العروس (١/٤٦٠) . (كلب) .

٢ بلوغ الارب (٢/٣٥٨) .

٣ بلوغ الارب (٢/٣٦٥) .

٤ بلوغ الارب (٢/٣٥٩) .

٥ والى هذه العقيدة أشار النابغة الذبياني بعوله :

قيت كاني ساورني ضئيلة
يسعد من ليل التمسام سلبها

من الرمس في انيابها السم ناعم
يحلى النساء في يديه فصاع

٦ بلوغ الارب (٢/٣٠٤) .

٦ بلوغ الارب (٢/٤١) .

ومن وسائل إبعاد الجن عن الناس : وإبعاد حيوانهم عنهم ، تعليق كعب الأرنب . يقولون إن من فعل ذلك لم تصبه عين ولا سحر ، وذلك لأن الجن تهرب من الأرنب ، لأنها ليست من مطايا الجن ، لأنها تحبس . وذكر أيضاً أن من علق على نفسه كعب أرنب ، لم يقربه (عمار الحلي) (جنان الحلي) و (جنان الدار) ، و (عمار الدار) ولا (شيطان الحماطة) و (جنان العشرة) (جاز العشرة) وغول العفر (حول القفر) ، وكل الخوافي وإن الله بطلقها نزل السعال^١ . و (الحماطة) شجرة شبيهة بالتين تأوي إليها الحيات^٢ .

وكانوا إذا خافوا على الرجل الجنون وتعرض الأرواح الخبيثة له ، نجسوه بتعليق الأقدار عليه ، كخرقه الخيض وعظام الموتى . وذكروا أن أنفع من ذلك أن تعلق طامث عظام موتى ثم لا يراها يومه ذلك . ويشفي التنجيس من كل شيء ، إلا من العشق^٣ .

ومن مذاهبهم قولهم في الدعاء : « لا عشت إلا عيش القُرَاد » . يضرهونه مثلاً في الشدة والصبر على المشقة. يزعمون أن القُرَاد يعيش ببطئه عاماً وبظهره عاماً^٤ . وكانوا يتبركون بأشياء ، منها المذمى من السهام ، الذي ترمي به عدوك ثم يرميك به . وكان الرجل إذا رمى العدو بسهم فأصاب ، ثم رماه به العدو وعليه دم ، جعله في كتانته تبركاً به . ذكر أن (سعداً) قال : « رميت يوم أحد رجلاً بسهم ففتكه ، ثم رميت بذلك السهم أعرفه ، حتى فعلت ذلك وفعلوه ثلاث مرات ، فقلت : هذا سهم مبارك مذمى فجعلته في كتاني ، فكان عنده حتى مات »^٥ . كان أحدهم يلقي الرجل يخافه في الشهر الحرام ، فيقول : حجراً محجوراً ، أي حرام محرم عليك هذا الشهر ، فلا يبدؤ به بشراً^٦ . وكانوا يقولون ذلك إذا نزلوا مكاناً وخافوا فيه من الجن .

وكان من عاداتهم أنهم كانوا إذا أرادوا أن تورد البقر الماء ، فعاقته قدموا ثوراً ، ففطريوه ، فورد ، فإذا فعلوا ذلك ، وردت البقر . وفي ذلك قال الأعشى :

- ١ نهاية الأرب (٣/١٢٣ وما بعدها) .
- ٢ عنجود تحلب حين احلب كمثل شيطان الحباط أعراف
- ٣ بلوغ الأرب (٢/٣٢٤) . اللسان (٩/١٤٦) .
- ٤ بلوغ الأرب (٢/٣١٩) .
- ٥ بلوغ الأرب (٢/٣٢٩) .
- ٦ اللسان (١٤/٢٧٠) . (دمي) .
- ٧ تاج العروس (٣/١٢٣) . (حجر) .

ومما ذنبه إن عاقبت الماء بأقر وما أن تعاف الماء إلا لتضرباً^١
ويقولون إن الجن تصد البقر عن الماء ، وإن الشيطان يركب قرني الثور^٢ .
ويظهر أن هذا الاعتقاد من الاعتقادات التي كانت شائعة بين الجاهليين ، بدليل
وروده في أشعار عدد من الشعراء . وكانوا يزعمون أن الجن هي التي تصد الثيران
عن الماء حتى تمسك البقر عن الماء حتى تهلك^٣ .
ومن عاداتهم أيضاً أنهم كانوا إذا وقع العر في إبلهم ، اعترضوا بعيراً
صحيحاً لم يقع ذلك فيه ، فكروا مشفرة وعضده وفخله . يرون أنهم إذا فعلوا
ذلك ذهب العر عن إبلهم^٤ .
وذكر أن العر قروح مثل القوياء ، تخرج بالإبل متفرقة في مشاقرها وقوائمها
يسيل منها مثل الماء الأصفر ، فتكوى الصحاح لتلا تعذبها الميراض . تقول منه :
عرت الإبل ، فهي معرورة . قال النابغة الذبياني :
فحملني ذنب امرئ وتركته كذي العر يكوى غيره وهو رافع^٥
وفي المعنى المذكور قول الشاعر :
فأرمني ذنباً وضري جرّة حنائيك لا تكو الصحيح بأجرها
وقول آخر :
كمن يكوى الصحيح يروم يوماً به من كل جرء الإهاب^٦
وذكر أن الفصيل كان إذا أصابه العر ، عمدوا إلى أمه فكوهها ، فبراً فصيلها^٧ .

- ١ كتاب المعاني الكبير (٢/٩٢٨ وما بعدها) .
- ٢ بلوغ الأرب (٢/٣٠٣) .
- ٣ وفي ذلك قال أنس بن مدركة في قتله سليلك بن سلكة :
أني وقتلت سليلك ثم أعتقه كالتور يضرب لما عاقبت البقر
الدمري ، حياة الحيوان (١/١٨٢) ، الحيوان (١/١٨) وما بعدها ، (هارون) .
- ٤ كتاب المعاني الكبير (٢/٩٢٨) ، اللسان (٦/٢٣٠ وما بعدها) ، صبح الأعشى
(١/٣٩٨ وما بعدها) ، بلوغ الأرب (٢/٣٠٥ وما بعدها) ، الحيوان (١/١٧) ،
(هارون) .
- ٥ ناج العروس (٣/٣٩٠) ، (العر) ، اللسان (٤/٥٥٥) ، (عر) .
وكلفني ذنب العر وتركه كذي العر يكوى غيره وهو رافع
بلوغ الأرب (٢/٣٠٥) .
- ٦ بلوغ الأرب (٢/٣٠٥ وما بعدها) .
- ٧ بلوغ الأرب (٢/٣٠٦) .

ومن ذلك أنهم كانوا يفتأون عين فحل الإبل ، لئلا تصيبها العين . وكانوا إذا كثرت إبلهم قبلت الألف ، فقأوا عين الفحل ، فان زادت الإبل على الألف فقأوا العين الأخرى . وذلك الملقأ والمعنى^١ .

وكانت العرب إذا أجدبت ، وأمسكت السماء عنهم ، وتضايقوا من انحباس المطر ، وأرادوا أن يستمطروا ، عمدوا إلى السلع والعشعر ، فحزموها ، وعقدوها في أذنان البقر ، وأضرموا فيها النيران ، وأصعدوها في موضع وعر ، وانبعوها ، يدعون الله ويستقون ، وانما يضرمون النار في أذنان البقر تقاللاً للبرق بالنار . وكانوا يسوقونها نحو المغرب من دون الجهات^٢ . ويقال لهذا الفعل (التسليج) . وذكر أن التسليج في الجاهلية أنهم كانوا إذا استوا ، أي أجدبوا ، علقوا السلع مع العشر بأذنان البقر وحذروها من الجبال ولشعلوا في ذلك السلع والعشر النار يستمطرون بذلك . ونجد من الرواة من يقول : حذروها من الجبال ولشعلوا في ذلك السلع والعشر النار ، ومنهم من يقول : ثم يضرمون فيها النار ، وهم يصعدونها في الجبل ، فيمطرون^٣ .

وقد أشير إلى هذا الفعل في الشعر ، قال أمية بن أبي الصلت :

سَلَّجُ ما ، ومثله عُشَرُ ما حائلُ ما ، وعالت البيقور

وقال الورد الطائي (وذاك الطائي) :

لا درُ حَرَّ رجال غاب عنهم يستمطرون لدى الأزمات بالعشر
أجاعل أنت يبقورا مسلعة ذريعة لك بين الله والمطر^٤

ومن السلع « المسلعة » ، كانت العرب في جاهليتها تأخذ حطب السلع والعشر في المجاعات وقحوط القطر ، فتوفر ظهر البقر منها ، وقبل : يعلقون ذلك في أذنانها . ثم تلج النار فيها يستمطرون بلهب النار المشبه بسى البرق . وقبل :

١ بلوغ الأرب (٣٠٦/٢) ، (وذلك الملقأ والمعنى) . الحيوان (١٧/١) . (حارون) .

٢ بلوغ الأرب (٣٠٦/٢) وما بعدها .

٣ اللسان (١٦١/٨) . (سلع) . نأج العروس (١٣٨٤/٥) . (سلع) .

٤ اللسان (١٦١/٨) . (سلع) . نأج العروس (٣٨٥/٥) . بلوغ الأرب (٣٠٢/٢) .

« الورد الطائي » . اللسان (١٦١/٨) . « وذاك الطائي » . نأج العروس (٣٨٥/٥) .

(سلع) . ابن فارس . رسالة النبروز (١٨) . (الورد الطائي) . (١٨) . (الورد الطائي) .

اللسان (٧٣/٤) .

يضمرون فيها النار ، وهم يصعدونها في الجبل ، فيمطرون ^١ .
وقد تعرض (أبو الحسين أحمد بن فارس) لموضوع (اليفور) ، فقال :
« كانت العرب إذا أمسكت السماء قطرها ، استمطروا ، فعدوا إلى شجرتين
يقال لهما السبع والعشر ، فعقدوهما في أذنان البقر فأضرموا فيها النار ، وأصعدوها
في جبل وعمر وبعوا آثارها ، يدعون الله عز وجل ويستسقونه . قال ابن الكلبي :
وانما يضمرون النار نفاثلاً للبرق » . « كانوا إذا فعلوا ذلك توجهوا نحو المغرب
من بين الجهات كلها قصداً إلى العين ، والعين قبلة العراق . قال العجاج :
سار سري من قبل العين فجر غر السحاب والمرايع البكر ^٢ »

عقبتهم في الحيوان :

وللجاهلين عقائد في الحيوان . فتهم من كان يعتقد أن للجن هذه الحيوانات
تعلقاً ، ومنهم من يرى أنها نوع من الجن ، ومنهم من كان يرى أن لبعضها ،
مثل الورل والنفذ والأرب والظبي والبربوع والنعام ، صلة بالجن ، وأنها مراكب
لها ، يمتطونها كما يمتطي الإنسان الخيل والبغال والإبل والحمر ^٣ .
ومن مراكب الجن ، (العصفوط) ، قال الشاعر :

وكل للطايا قد ركبنا فلم نجد ألد وأشهى من وخيد الثعالب
ومن فارة مزومة شربسة وخود يردفها أمام الركائب
ومن عصفوط حط بي من ثبة يبادر سرباً من عطاء قوارب ^٤

والعصفوط دوية من دواب الجن ^٥ ، ويقال : العصفوط ذكر العطاء ،
وقيل : دوية تسمى العسودة ، بيضاء ، ناعمة ^٦ .
واعتقدوا أن السحوم لما فرقت على الحيوانات ، احتيت العظاية (العظامة)

- ١ اللسان (١٦١/٨) ، (سبع) .
- ٢ ابن فارس ، رسالة النبروز (١٨ وما بعدها) .
- ٣ بلوغ الأرب (٣٦٠/٢) .
- ٤ تاج العروس (١٨٣/٥) ، (العصفوط) .
- ٥ وكل المطايا قد ركبنا فلم نجد ومن عصفوط عن لي فركبته
- ٦ بلوغ الأرب (٣٦٠/٢) .
- ٧ اللسان (٣٥١/٧) ، (عصفوط) .

عند التفرقة حتى فقد السم ، وأخذ كل حيوان فسطاً منه على قدر السبق إليه ، فلم تزل العقابة تصيباً منه ، فخرته . لذلك صارت تمشي مشياً سريعاً ثم تقف ، لما يعرض لها من التذكر والأسف على ما قاتها من السم^١ .
و (القباء) ماشية الجن ، في زعم بعضهم وهي تسمع وتكلم ، ولهم قصص عنها^٢ .

وتزعم العرب أن (المديبل) ، فرخ على عهد (نوح) مات عطشاً ، ووضعه أو صاده جراح من جوارح الطير ، فقام من حماة إلا وهي تبكي عليه^٣ .
وللمرغز عند الجاهليين وعند الأعراب حتى اليوم ، شأن كبير في السحروفي دفع أذى الأرواح والعين ، وفي التفع والحب ، وأمثال ذلك . وسأحدث عنها في المكان المخصص بالسحر .

وضرب المثل ببخل (أبي حجاب) . من محارب غصقة ، وكان بخيلاً ، فكان لا يوقد ناره إلا بالخطب الشخت لثلاث نرى ، وقبل : اسمه (حجاب) ، فضرب بناره المثل ، لأنه كان لا يوقد إلا ناراً ضعيفة ، بخافة الضيفان ، فقالوا : نار الحجاب^٤ .

وأم حجاب : دوية ، مثل الجندب ، تطير ، صفراء خضراء ، رقطاء برقط صفرة وخضرة ، ويقولون إذا رأوها : أخرجني بردي أبي حجاب ، فنشر جناحيها ، وهما مزيناان بأحمر وأصفر^٥ .

وللعرب أساطير عن الكواكب ، من ذلك ما ذكروه من أن (الديبران) خطب (الثريا) وأراد القمر أن يزوجه منها ، فامتنعت وأعرضت ، وقالت للقمر : ما أصنع بهذا السبوت الذي لا مال له ؟ فجمع الديبران قلاصه ، ووضعها قدومه ، وأخذ يتبعها يريد اقناعها بالزواج منه . ومن ذلك قولهم في (المرزم) ، وهو (الشعري) ، يطلع بعد الجوزاء ، وطلوعه في شدة الحر . تقول العرب : إذا

١ يلوغ الأرب (٣٦٠/٢) وما بعدها ، الدميري ، حياة الحيوان (١٢٢/٢) ، (المعطاة) .

٢ يلوغ الأرب (٣٦١/٢) وما بعدها ، حياة الحيوان ، للدميري (١٠٢/٢) وما بعدها ، (القباء) .

٣ الدميري ، حياة الحيوان (٣٨٢/٢) ، ناج العروس (١٦٤/٨) ، (عدل) ، يلوغ الأرب (٢٦٤/٢) .

٤ اللسان (٢٩٧/١) ، (حجب) .

٥ اللسان (٢٩٨/١) ، (حجب) .

طلعت الشعرى جعل صاحب التحل يرى ، وهما الشعريان : (العبور) التي في (الجوزاء) و (الشعرى الغميصاء) التي في الذراع . تزعم العرب أنها أخت (سهيل) . وقد عبت طائفة من العرب (الشعرى العبور) . قالوا : أنها عبرت السماء عرضاً ، ولم يعبرها عرضاً غيرها ، فأزل الله : « وانه هورب الشعرى » ، وصحبت الأخرى (الغميصاء) ، لأن العرب قالت في حديثها أنها بكّت على أذن العبور حتى لمحضت^١ .

وزعموا ان (سهيلاً) كان عشاراً على طريق اليمن ظلوماً فسخطه الله كوكباً . وعرف بأن نجم يماني عند طلوعه تنضج الفواكه ويتفشي القيق^٢ .

و (الشمس) إلهة عند كثير من الجاهليين ، فنعبدوا لها ، وعدت صنماً عندهم^٣ . ومن أساطيرهم ما تحدثوا به عن (برد العجوز) . حدثوا ان عجوزاً دهرية كاهنة من العرب كانت تخبر قومها ببرد يقع في أواخر الشتاء وأوائل الربيع فيسوء أثره على المواشي ، فلم يكثرثوا بقولها ، وجزوا أغنامهم ، واتقن باقبال الربيع ، فلم يلبثوا إلا مدبرة حتى وقع برد شديد ، أهلك الزرع والضرع ، فقالوا هذا برد العجوز . يعنون العجوز التي كانت تُستلر به .

وحدثوا : أن عجوزاً كانت بالجاهلية ، ولها ثمانية بنين ، فسألهم أن يزوجوها وألحت عليهم ، فآثروا بينهم ، وقالوا : إن قتلناها لم نأمن عشرينها ، ولكن نكفئها البروز للهواء ثمانى ليال ، لكل واحد منا ليلة . فقالوا لها : ان كنت تزعمين أنك شابة ، فابرزي للهواء ثمانى ليال ، فإننا نزوجك بعدها ، فوعدت بذلك ، وتعتت تلك الليلة والزمان شتاء كلب ، وبرزت للهواء . وفعلت مثل ذلك في الليل الآخر ، فلما كانت الليلة السابعة ، ماتت .

وتسب العرب إليها برد الأيام الثمانية ، وأسماؤها : الصن^٤ ، والصينبر ، والوبر ، وآمر ، ومؤتمر ، ومعلل ، ومطفىء الجمر ، ومكنىء الظعن^٥ .

ومن الأمور التي تداولوها قولهم في (زمن القطحل) . وضرهم المثل به . قالوا : أيام كانت الحجارة رطبة ، وإذا كل شيء يتطق^٦ . وهو دهر لم يخلق

- ١ ماج العروس (٣٠٥/٣) ، (شعر) .
- ٢ ماج العروس (٣٨٤/٧) ، (سهيل) .
- ٣ تاج العروس (١٧٣/٤) ، (شمس) .
- ٤ العالبي ، نثار (٣١٣/١) وما بعدها .
- ٥ العالبي ، نثار (٦٤٢) وما بعدها .

فيه الناس بعد^١ .

وكانوا يعتقدون بالسخ . وهو تحويل صورة الى أخرى أقبح منها ، وتحويل انسان الى حيوان أو حجر . ولهم اعتقادات في مسخ الأطفال ، وتبديل (الجن) لهم بأولادهم من ذوي العاهات . وقد زعموا أن (اللات) صنم تقبف ، كان في الأصل يهودياً يلت السويق في (الطائف) فسح حجراً ، عبد فصار (اللات) . ولعرب قصص وضعوه على ألسنة الحيوانات ليجده في كتب الأدب . ولهم أمثلة ورامعا قصص في سبب ضربها . ونجد في كتب الأمثال والأدب أشياء كثيرة من ذلك . وقد صوروا بعض الحيوانات ناطقة عاقلة ، ونسبوا لها الحكمة والقول الحسن ، وصوروا بعضها بليدة غيبة . ونجد في كتب الأمثال والأدب أشياء كثيرة من ذلك . واتخذوا من بعض الناس مثلاً على أمر من أمور الحياة . وغيروا بهم الأمثال . ففسروا مثل بلاغة (سبحانه وال) وبقدرته على الخطابة^٢ . وبفصاحة (قس بن ساعدة الأيادي)^٣ . وجعلوها المثل الأعلى في البلاغة والفصاحة عند العرب .

ووضعوا (باقل) مثلاً للهي والبلادة^٤ . فلما روه عنه ، أنه اشترى طيباً بأحد عشر درهماً ، فمر بقوم فقالوا : بكم أخليت الطيب ؟ فشد يديه ، وأخرج لسانه ، يريد بأصابعه عشرة دراهم ولسانه درهماً فشرط الطيب حين شد يديه ، وكان الطيب تحت لبطه ، فجرى المثل بعبه ، وقيل : أشد عياً من باقل ، وأعبا من باقل ، كما قيل أبلغ من سبحانه وال^٥ . وذكر أنه كان من ربيعة^٦ .

واتخذوا (يهس) القزاري ، الملقب بنعامه ، مثلاً للحمق ، فقالوا : أحق من يهس . وهو أحد الأخوة السبعة الذين قتلوا ، وترك هو لحمه^٧ . زعموا أنه هو القاتل :

أبسي لكل حالة ليوسها إما نعيمها وإما يوسها

ولمّا لقب يهس بنعامه لأنه كان شديد الصمم ، وإذا دعا الرجل من العرب

- ١ . ناج العروس (٦٣ / ٨) . (المطحون) .
- ٢ . راجع كتاب الحيوان للجاحظ ، وكتاب كليلة ودمنة وكتب الأدب الأخرى .
- ٣ . التعالبي ، نمار (١٠٢) وما بعدها . الدينوري ، المعارف (٦١١) .
- ٤ . التعالبي ، نمار (٦٠ ، ٩٨ ، ٢٢٢ ، ١٢٤) وما بعدها ، (١٢٢) .
- ٥ . الميداني ، الامثال (٤٣ / ٢) . التعالبي ، نمار (١٠٢) .
- ٦ . التعالبي ، نمار (١٢٧) .
- ٧ . ناج العروس (٢٣٤ / ٧) . (يعل) .
- ٨ . ناج العروس (١١٣ / ٤) . (يهس) .

على صاحبه بالصمم، قال: اللهم اصنجه صنجا كصنج النعامة . والصنج أشد الصمم^١.
 وضرب المثل بحق (هبقة) ، واسمه (يزيد بن ثروان) أحد بني قيس بن
 ثعلبة ، الملقب بـ (ذي الودعات) . لقب به لأنه جعل من عنقه قلادة من
 ودع وعظام وخزف مع طول لحينه . فقتل عن ذلك ، فقال : لئلا أضل ،
 أعرف بها نفسي ، فسرقتها أخوه في ليلة ونفلدها ، فأصبح هبقة ورآها في عنقه ،
 فقال : أهي أنت أنا ، فمن أنا ؟ فضرب بحقه المثل . فقيل أحمق من هبقة^٢.
 وضربوا المثل بحق دفة . وهي بنت منج ، زوجت وهي صغيرة في بني
 العنبر ، فحملت ، فلما ضربها المخاض ظنت أنها تحتاج إلى الحلاء ، فبرزت إلى
 بعض القبطان ووضعت ذأ بطنها ، فاستهل الوليد ، فجاءت منصرفة وهي لا تظن
 إلا أنها أحدثت . فقالت لأمها : يا أماء ، هل يفتح الجعبر فاه ؟ قالت : نعم
 ويدعو أباه ، فسب بها بنو العنبر ، فسماها بني الجعراء^٣.
 وقيل هي امرأة من بني عجل بن جندب بن العنبر . وقيل هي : دفة بنت معيج بن إباد
 ابن نزار . ولدت لعمر بن جندب بن العنبر^٤ . وذكر أن اسمها : عارية بنت
 ربيعة ، من عجل ، وكانت عند (جندب بن العنبر) فولدت له (عدي بن
 جندب) ، وكانت حمقاء حساء^٥ .
 وضربوا المثل بـ (جوف حمار) . وقالوا : هو أكفر من حمار ، وأخلى من
 جوف حمار . وهو رجل من عاد ، يقال له حمار بن موبلج ، وجوفه واد له طويل
 عريض . لم يكن يولد العرب أخصب منه ، وفيه من كسل الثمرات ، فخرج
 بنوه يتصيدون : فأصابتهم صاعقة فهلكوا ، فكفر . وقال : لا أعبد من قبل
 هذا بيبي ، ودعا قومه إلى الكفر فن عصاه فقتله ، فأهلكه الله تعالى وأحرب
 واديه ، فضرب العرب به المثل في الخراب والحلاء . قال الأقبوه الأودي :

ويشؤم البغي والغشم قديماً قد دخلا جوف ولم يبق حمار^٦

١ - التنعالي ، شمار (٤٤٥) .

٢ - قال المرزوقي :

فلو كان ذا الودع بن ثروان لالتوت به كفه أعني يزيد الهبقة

ناج العروس (٥٣٤/٥) . (ودع) .

التنعالي ، شمار (٣٠٩) .

٣ - ناج العروس (١٢٨/١٠) . (الدقية) .

٤ - الديوري ، المعارف (٦٢٠) .

٥ - التنعالي ، شمار (٨٤) . الميداني (٢٥٧/١) .

وذكر ان الجوف واد بأرض عاد ، فيه ماء وشجر ، حياه رجل اسمه حار
وكان له بنتون فأصابهم صاعقة فأتوا ، فكفر كفراً عظيماً وقتل كل من مر به
من الناس . فأقبلت نار من أسفل الجوف فأحرقت ومن فيه وغاص ماؤه فضررت
العرب به المثل . فقالوا : أكفر من حار ، وواد كجوف الحمار وكجوف العير
وأخرب من جوف حار^١ .

وورد انه (حار بن مالك) ، وهو رجل من عاد وقيل من العالقة . كان
مسلياً أربعين سنة في كرم وجود ، فخرج بنوه عشرة للصيد ، فأصابهم صاعقة
فهلكوا . فكفر كفراً عظيماً . وقال لا أعبد من قبل بي^٢ هذا . وكان لا يمر
بأرضه أحد إلا دعاه الى الكفر ، فان أجابه وإلا قتله . فأهلكه الله وغرب وادبه^٣ .
واذا وعد انسان وعداً ، فعليه الوفاء به ، لأن من شاتل الكرم الوفاء بالوعد
والعهد . قالت العرب : « خلاف الوعد من اتلاق الوعد » . وكانت العرب
تستعيه وتستقبحه . وقد ضربوا المثل برجل من العرب في مخالفة المواعد ، فقالوا :
« مواعد عرقوب » . وعرقوب صاحب المواعد^٤ . قيل : انه من الأوس ،
كان أكذب أهل زمانه . فضررت به العرب المثل في الخلف ، فقالوا : مواعد
عرقوب . وذلك انه أتاه سائل ، وهو أخ له ، يسأله شيئاً . فقال له عرقوب :
إذا أطلع نخلي ، « وفي رواية : إذا أطلعت هذه النخلة » ، فلما أطلع ، أتاه على
العدنة ، قال : إذا أبلح ، فلما أبلح أتاه ، قال : إذا أزهى ، فلما أزهى أتاه ،
قال : إذا أرطب ، فلما أرطب أتاه ، قال : إذا أتمسر . فلما أتمر ، عمد اليه
عرقوب وجده^٥ ليلاً ، ولم يعطه منه شيئاً . فصارت مثلاً في إخلاف الوعد . وورد :

وأكذب من عرقوب (يترب) لهجة وأبين شؤماً في الحوائج من زحل

وورد « مواعد عرقوب أخاه يترب » ، بالهاء وهي بالهامة . ويروى بالثلثة ، وهي مدينة
الرسول نفسها ، ويقال : هو أرض بني سعد . والأول أصح ، وبه فسر قول كعب بن زهير :

كانت مواعد (عرقوب) لها مثلاً وما مواعدها إلا الأباطيل

- ١ ناج العروس (١٥٦/٣) ، (حمر) ، (٦٣/٦) ، (الجوف) .
- ٢ ميثم الجور واليقي مديماً ما ضل جوف ولم يسق حصار
- ٣ ناج العروس (١٥٦/٣) ، (حمر) .
- ٤ ناج العروس (٥٣٦/٢) وما بعدها) ، (وعد) .

وورد : « هو أكذب من عرقوب يثرب » ، وتقول : « فلان اذا مطلق تعقرب واذا وعد تعقرب » . ومن أمثالهم : « الشر أجهأ الى مخ عرقوب » وشر ما أجهأ الى مخ عرقوب » ، أي : عرقوب الرجل لأنه لا مخ له . يضرب هذا عند طلبك من التيم أعطاك أو منعك . وهو لغة بني تميم . ومن المستعار : ما أكثر عراقيب هذا الجبل . العراقيب خياشيم الجبال وأطرافها وهي أبعد الطرق ، لأنك تتبع أسهله أين كان . والعراقيب من الأمور كالعراقيل عقلمها وصعابها ^١ .

وضربوا المثل في الإقامة على الذل برجل من ضبّة ، زعموا أنه عرف عندهم بد (فضيب) فقالوا : أصبر من فضيب . و (فضيب) رجل آخر تمار بالبحرين ، كان يأتي تاجراً فيشتري منه النمر ، ولم يكن يعامل غيره ^٢ .

وضربوا المثل بد (حديث خرافة) . زعموا أنه كان رجلاً من (بني عذرة) أو من (بني جهينة) سبه الجن ، فكان يَكسُون معهم ، فإذا استرقوا السمع أخبروه فخبير أهل الأرض ، فيجدونه كما قال . وقيل : « استهوت الجن واختطفته ثم رجع الى قومه ، فكان يحدث بما رأى ، يعجب منها الناس ، فكذبوه » ، فجرى على ألسن الناس وقالوا : هذه خرافة . ويقال أيضاً للخرافات الموضوعة من حديث الليل : حديث خرافة . وذكر أن (عائشة) قالت : « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثي قلت ما أحدثك حديث خرافة . قال : أما انه قد كان ^٣ وذكر أيضاً أنه قال لها : « ان أصدق الأحاديث حديث خرافة » ^٤ .

١ تاج العروس (٣٧٨/١) . (عرقوب) .
ومنه قولهم :

أقيسي عند غنم لا براعي
من الغنم التي تلوى الكتيب
لأنتم حين جاء الغنوم سبرا
على المحزاة أصبر من فضيب
أي لم تظنوا بقتلاككم . فأنتم في الدل كهذا الرجل : نساج العروس (٤٢٣/١) .
(فضيب)

لأنتم . يوم جاء الغنوم سبرا
على الخرافة أصبر من فضيب
اللسان (٦٨٠/١) . (فضيب)

٢ تاج العروس (٨٣/٦) . (حرف) .
٣ ابن قسبة ، المعارف (٦١٠ وما بعدها) . (حديث خرافة) .

الفهرست

٥	أديان العرب	٦١
٣٤	التوحيد والشرك	٦٢
٨٣	أنبياء جاهليون	٦٣
١٠٢	الله ومعبود الانسان	٦٤
١٣٦	الروح والنفس والقول بالدهر	٦٥
١٦٣	الآلهة والتقرب اليها	٦٦
١٨٤	التقرب الى الآلهة	٦٧
٢١٢	رجال الدين	٦٨
٢٢٧	الأصنام	٦٩
٢٩٠	أصنام الكتابات	٧٠
٣٣٦	شعائر الدين	٧١
٣٤٧	الحج والعمرة	٧٢
٣٩٨	بيوت العبادة	٧٣
٤٢٩	الكعبة	٧٤
٤٤٩	الحفاه	٧٥
٥١١	اليهودية بين العرب	٧٦
٥٤٣	اليهود والاسلام	٧٧
٥٦٩	شعر اليهود	٧٨
٥٨٢	النصرانية بين الجاهليين	٧٩
٦٢٣	المناصب النصرانية	٨٠

٦٣٨	التنظيم الديني	٨١
٦٦٢	أثر التصراية في الجاهلية	٨٢
٦٩١	المجوس والصابئة	٨٣
٧٠٥	تسخير عالم الأرواح	٨٤
٧٥٥	في أوابد العرب	٨٥
٧٨٦	الطيرة	٨٦
٨٠٦	من عادات ولساطير الجاهليين	٨٧
٨٢٣	القهرس	